مُحاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف

الشيخ محمد الخضري

١٢٨٩ - ١٣٤٥هـ

مُحاضراتُ
في
تاريخ الأمم الإسلامية
الدولة الأموية
تأليف
الشيخ محمد الخضري
١٢٨٩ - ١٣٤٥هـ

محاضرات
تاريخ الأمم الإسلامية

الدولة الأموية

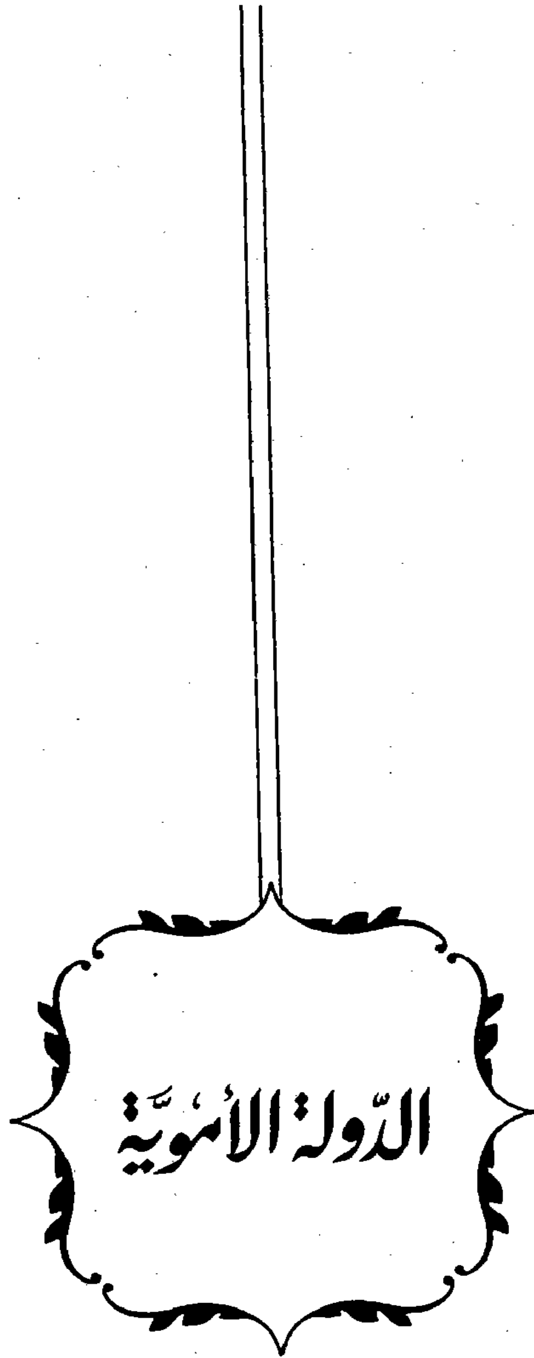
تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك

تحقيق
الشيخ محمد العثماني

دار القلم
ص.ب : ٣٨٧٤
بيروت - لبنان



الطبعة الاولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م


الدّولة الأمويّة

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم



المقدمة



الحمد للّٰه رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه المصطفى محمد ﷺ :

وبعد فقد كلفني الناشر الكبير للتراث الإسلامي الاستاذ أحمد أكرم الطباع صاحب دار القلم للطباعة والنشر . في بيروت لبنان :

بتحقيق هـذا الكتاب العظيم وإخـراج الآيـات القـرآنيـة وتخـريـج بعض الاحاديث النبوية ذاكراً السـورة ورقم الآية ووضـع بعض النقط والفواصـل . لما لهذا الكتاب من أهمية حيث قررت غالب الدول العربية والإسـلامية تـدريسه في جامعاتها .

لقد دأب صاحب هذه الدار حفظه اللّٰه على نشر التراث الأسلامي .

فلا يسعني في خاتمة هذا الجهـد الذي وفقني اللّٰه عـزّ وجلَّ إلاّ أن اسـدي جـزيل شكـري وامتناني لـه لما أولاني من ثقتـه الغاليـة واهتمامـه لاخـراج هـذه المحاضرات في حلة قشيبة من تراثنا باسلوب عصري حديث .

محـاضرات الأمم الاسـلامية الـدولـة الأمـويـة للمؤلف ـ المـرحـوم فضيلة العـلامة الشيـخ محمد الخضـري بك المفتش بـوزارة المعارف ومـدرس التـاريـخ الإسلامي بالجامعة المصرية .

وضع فيها التاريخ الإسلامي . وضعاً محكماً خالياً من العسر والتعقيد وقـد روعيت فيها جميع الأصول التي تراعى في دراسة التاريخ على المناهج الحديثة .

حيث تعرض المحاضر لجميع الاسانيـد للنقد والتمحيص . فـالكتاب مهم

لمن يحب الوقوف على نظام الحكومات الاسلامية منذ عهد النبي محمد عليه الصلاة والسلام وعهد الخلفاء الراشدين. وخلفاء الدولة الأموية ذاكراً فيها ما قامت به الدولة الأموية من بناء دولة حديثة ذات اساطيل وعمران وتنظيم اقتصادي وغير ذلك بأسلوب بديع رائع مستقيم.

مؤلفاته عديدة منها نور اليقين. وتاريخ التشريع الإسلامي، فكتبه جليلة الاثر في غاية الاتقان سهلة مميزة بأسلوبه الواضح.

فاللّه اسأل أن يجعل جهدنا موفقاً لعملنا هذا لوجهه الكريم وأن يجنبنا الخطأ وأن نكون قد أدينا بعض ما يجب علينا من خدمة السنة المطهرة التي ما زلنا نسعى جاهدين أنْ ندفع عنها زيف أهل البدع والضلال. راجين اللّه أن يكون ذلك خدمة الكتاب والسنة متمسكين بكتابه محيين سنة نبيه الأعظم ورسوله الأكرم محمد صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الأكرمين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين، وأن يجنبنا الخطأ ويلهمنا الصواب وما توفيقي إلاّ باللّه وآخر دعوانا إنِ الحمد للّه رب العالمين.

المحقق الشيخ محمد العثماني

تاريخ الأمم الاسلامية

(الدولة الأموية)

بسم الله الرحمن الرحيم

أَمّا بعدُ: فقد عَهِد إليَّ مجلسُ إدارةِ الجامعةِ المصريةِ أَنْ أَقومَ بإلقاءِ مُحاضراتٍ على طُلابها في تَاريخِ الأُمَمِ الإسلاميةِ فقمتُ بما عُهِدَ إليَّ به عَلَى قَدْرِ مَا مُنِحتُ في العزيمةِ والْوقْتِ، وَقد رأَتْ إدارةُ الجامعةِ أَن تُجمَع هذه المحاضراتُ، وتخرجَ للناسِ حتى يكونَ النفعُ بها عامًّا، فَبَذَلْتُ الْجهدَ في تحريرها وتهذِيبِها. حتى يسهلَ عَلى قُرائِها الاستِفَادةُ منها، وهَا هي ذِي تُعرضُ عَلى المؤرخينَ ورجالِ العِلْمِ، وأَرجُو أَنْ أَكونَ قد وُفِّقتُ لتذليل صُعوبةٍ كبرى، وهي صعوبةُ استفادةُ التاريخِ العربيِّ من كُتبه.

هذا، وإني أُعلنُ شُكري الوافرَ وثنائي العظيمَ عَلى مجلِس إدارَةِ الجامِعَةِ لما نِلتُه من ثقتِه، حتى اعتمَد عليَّ في أَداءِ هذِه المهمةِ، وأَسأَل اللّه سبحانه أَن يُوَفِّقَنا ويُسَدِّدَنا في القَوْلِ والعمل، إنّه نعم المجيب.

محمد الخضري

في التاريخ الاسلامي
مباحث التاريخ الاسلامي، ما يلزم المؤرخ
جزيرة العرب ووصفها
شعب قحطان ومقاماته.

إذا ذكر الإسلام اتجهت النفس إلى ذلك الدين. الذي جاء به سيدنا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب، فأصلح به من شأن الشعوب العربية وألف بين قلوبها وهيأها لأن تسيح إلى ما جاورها. من الأقاليم وتؤسس سلطاناً، يرتكز على دعامة ذلك الدين، فمؤرخ الإسلام يرجع بحثه إلى ثلاثة أمور يستتبع بعضها بعضاً:

الأول ـ الدين الإسلامي. وكيف تأسست قواعده، وتقررت مبادئه، والمصاعب التي وقفت في طريقه، حتى غلبها الثبات والصبر.

الثاني ـ تأثيره في النفوس العربية، حتى استعدت لبسط سلطانها، على ما جاورها من الأقاليم، وما كان منها في سبيل ذلك من الحروب والأعمال، حتى عظم قدرها واتسع سلطانها منقاداً إلى سلطان الدين.

الثالث ـ ما كان من انتقال هذا السلطان، عن الأمم العربية إلى غيرها من الأمم التى دانت بالاسلام، وما كان للدين من التأثير في قيام دولة وأخرى، وفي حضارة الأمم التابعة لسلطانه.

ولما كان مهد هذا الدين هو بلاد العرب، ومحل التأثير به لأول مرة هم العرب، لم يكن لنا بد من ذكر مقدمة إجمالية في تخطيط بلاد العرب، وذكر

الشعوب العربية وحالهم قبل مجيء الاسلام. **لتكون أمامنا منهم صورة تفهمنا** مقدار استعدادهم للتأثر بذلك الدين إلا أنا سنقدم كلمة صغيرة في أول واجب على من يدرس تاريخ، أمة أو فرد. كثير ممن اشتغلوا بالتاريخ، كانت عواطفهم تتحكم في حوادثه تحكماً تضيع به الفائدة. من دراسة التاريخ، فان عاطفة الحب تجعل كل ما ليس بحسن حسناً. وتجتهد في تأويل الحوادث بوجه ليس فيه غضاضة، حتى ما أدى منها إلى سقوط فاعله وخيبته وعاطفة الكراهة تدعو إلى ضد ذلك، فتجعل الحسن قبيحاً، وتستنبط من الخير شراً ولم يخلص من هذا الشر العظيم، الذي يطمس معالم التاريخ، ويضيع الفائدة من تجارب الأمم إلا نفر قليل جداً، وإذا نظرنا إلى أنفسنا، نجدها لا تحكم على شيء من الحوادث التي تشعر بها حكماً بحسب ما تستحق، فرب فعل صدر ممن نحبه فنحمله محملاً حسناً جميلاً، والفعل نفسه يصدر ممن نبغضه فنحمله على أسوأ محامله، نحكم على متصدق بالتبذير لأنه تذكر الفقراء، والمعوزين في حال رغده ولا نأبه بتلك الصدقة من آخر، بل نسمه بأنه مراء محب الشهرة الكاذبة، والتجرد من هذه العواطف في دراسة التاريخ أمر صعب المنال، لا يصل إليه الإنسان إلا بعد عقبات شديدة لابد له من اجتيازها إن كان المراد تمثيل الأمم، والحكومات بما كانت عليه لا بما نحب أن يكون.

فلابد أن نجعل أمام أعيننا أنا سندرس تاريخ أمم إن كانت أخطأت في بعض تصرفاتها، فليس علينا من تبعة ذلك الخطأ شيء، ليس لنا إلا أن نعرفه ونستفيد منه وإن كانت أصابت المحجة. فإن ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم، لذلك يحتاج دارس التاريخ إلى سعة صدر، تحتمل كل ما يرد على تاريخ قومه، من نقد حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسحب عاطفتي الحب والبغض.

جزيرة العرب:

يطلق العرب على قطعة الأرض التي نشأوا فيها. «جزيرة العرب». مع

أنها لم تتم إحاطتها بالماء. كما قال ياقوت[1] في معجم البلدان. نقلاً عن هشام[2] بن محمد السائب عن ابن عباس[3] إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات[4] قطعة من بلاد الروم، فظهر بناحية قنسرين[5] ثم انحط على أطراف الجزيرة، وسواد العراق، حتى وقع بناحية البصرة[6] والأيلة[7] وامتد إلى عبادان[8] وأخذ البحر، في ذلك الموضع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب، منعطفاً عليها فأتى منها على سفوان[9] وكاظمة[10]

---

(١) هو ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي الأصل أسر من بلاده صغيراً فتعلم ببغداد. ساح سياحات مهمة وألف كتباً نافعة في التاريخ والتقويم، منها معجم البلدان، ومعجم الشعراء، ومعجم الأدباء، وغير ذلك من الكتب المفيدة، وكان ثقة في النقل توفي سنة ٦٢٦ هـ بظاهر مدينة حلب.

(٢) نسابة عربي له كتاب الجمهرة، في النسب وله مصنفات كثيرة، كلها في أخبار العرب توفي سنة ٢٠٤ هـ.

(٣) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، جد الملوك من بني العباس. من فقهاء الصحابة المتازين بتفسير القرآن توفي في خلافة ابن الزبير سنة ٦٨ هـ.

(٤) نهر عظيم ينبع من بلاد أرمينة، ويمر على كثير من المدن العظيمة، حتى إذا قارب البصرة، اتحد بدجلة وصبا معاً في خليج عمان من بحر الهند.

(٥) قنسرين مدينة جنوبي حلب، وكانت إسماً لكورة عظيمة من ضمنها مدينة حلب، فتحت سنة ١٧ هـ.

(٦) مدينة عظيمة على مجتمع دجلة والفرات قريباً من المصب في خليج عمان مصرت أيام عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ.

(٧) بلدة على شاطىء النهرين في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة.

(٨) مدينة في الجزيرة المتكونة عند مصب دجلة في خليج عمان منسوبة إلى عباد بن الحصين، وكثيراً ما ينسب أهل البصرة بإضافة ألف ونون إلى آخر المنسوب إليه.

(٩) ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة. وهو أول منزل بجادة البصرة إلى البحرين.

(١٠) جو على سيف البحر وهي المنزلة الثانية في جادة البصرة إلى البحرين.

إلى القطيف[1] وهجر[2] وأسياف البحرين[3] وقطر[4] وعمان[5] والشحر[6] ومال منه عنق إلى حضرموت[7] وناحية أبين[8] وانعطف مغرباً منصباً إلى دهلك[9] واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان[10] وحكم[11] والأشعرين[12] وعك[13] ومضى إلى جدة[14] ساحل مكة والجار[15] ساحل المدينة ثم ساحل الطور،[16] وخليج أيلة[17] وساحل راية[18] حتى بلغ القلزم[19] مصر وخالط بلادها وأقبل النيل في غربي هذا العنق، من أعلى بلاد السودان، مستطيلاً معارضةً للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام،

---

(١) مدينة بالبحرين وهي قصبتها.

(٢) مدينة بالبحرين، وقيل هي إسم كورة من كور البحرين قصبتها الصفا.

(٣) إسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان، وكانت هي وعمان في أيام بني العباس عملاً واحداً، وسيف البحر ساحله.

(٤) قرية على سيف الخط بين عمان والعقير وهذه بحذاء هجر.

(٥) كورة عربية على ساحل بحر اليمن، والهند وتنتهي إلى البحرين وقصبتها مدينة صحار.

(٦) صقع على ساحل بحر الهند بين حضرموت وعمان.

(٧) ناحية واسعة في شرق عدن وحولها رمال الأحقاف ومدينتها الكبرى شبام.

(٨) مخلاف باليمن منه عدن.

(٩) جزيرة في بحر اليمن وهو مرسى بين بلاد اليمن والحبشة وكانت منفى في زمن بني أمية.

(١٠) جزيرة من جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبي.

(١١) قبيلة قحطانية تنسب إلى حكم سعد من قضاعة ثم من حمير ينسب إليهم أبو نواس الحكمي.

(١٢) قبيلة قحطانية تنسب إلى الأشعر بن أدد من كهلان بن سبأ ينسب إليها أبو موسى الأشعري.

(١٣) قبيلة قحطانية تنسب إلى عك بن عدنان. من الأزد ثم من كهلان.

(١٤) فرضة على ساحل بحر القلزم بينها وبين مكة مرحلة.

(١٥) فرضة على ساحل بحر القلزم وهي جنوبي ينبع.

(١٦) شبه جزيرة في شمال خليج القلزم وهي كورة مصر.

(١٧) مدينة على ساحل بحر القلزم وهي آخر حدود الحجاز. وكانت منزلة للجادة بين مصر ومكة.

(١٨) كورة من كور مصر البحرية.

(١٩) مدينة كانت على منتهى الخليج. المبتدىء من المندب. وبها سمي الخليج والمسافة بينها وبين الفرما التي كانت على بحر الروم مقدار القناة والأولى: في مكان السويس والثانية في مكان بور سعيد.

ثم أقبـل ذلـك البحـر من مصر حتى بلغ بـلاد فلسـطين [1] فمـر بعسقـلان وسـواحلهـا وأتى صـور [2] ثم سـواحـل الأردن [3] وعـلى بيـروت وذواتهـا من سـواحل دمشق. ثم نفـذ إلى سواحـل حمص، وسـواحـل قنسـرين حتى خـالط الناحية التي أقبل منها الفرات، منحطاً عـلى أطراف قنسـرين، والجزيـرة [4] إلى سواد العراق.

وهذا التحديد وإن كان يسهل علينا فهم تسمية البلاد العربية، بـالجزيـرة يقتضي أن ولايات الشـام كلها معدودة من جـزيرة العـرب، وهذا غـير مرضي عنـد المؤرخين فـانهم يحدون بـلاد العرب. من الشمـال بالجـزيرة وبـلاد الشـام وفلسطين. فهذان خارجان عنها وإن كان العـرب قد سكنـوا قبل الإسـلام جزءاً مهماً من بلاد سوريا. كما سكنوا جزءاً من الجزيـرة. وعلى ذلـك لابد من القـول أن هناك تسامحاً في اطلاق لفظ الجزيرة في البلاد العربية.

أقسام الجزيرة الطبيعية:

قسم العرب جزيرتهم إلى خمسة أقسام بحسب طبيعتها وهي:

تهامة ـ الحجاز ـ نجد ـ اليمن ـ العروض

فـأمـا تهـامـة ويقـال لهـا الغـور فهي الأراضي التي عـلى شـاطيء بحـر القلزم. ممتـدة عرضـاً إلى سلسلة جبل السـراة وسموهـا تهـامـة. لشـدة حـرهـا وركود ريحها. من التهم وهو شدة الحر وركود الـريح، يقـال تهم الحر إذا اشتـد وسموها غوراً لانخافض أرضها وأما الحجـاز، فهو سلسلة جبـل السراة الممتـدة

---

(١) آخر كورة من كور الشام من ناحية مصر. قصبتها البيت المقدس. ومرفؤها يـافا ولهـا من ناحيـة مصر رفح وهو الحد بين مصر والشام ومن موانئها عسقلان.

(٢) مدينة من أعمال الأردن على ساحل بحر الروم بينها وبين عكة ستة فراسخ.

(٣) كـورة من كور الشـام منها طبـرية. وصور، وعكة. ومـا بين ذلـك والأردن نهر يصب، في بحيـرة طبرية.

(٤) وهي الجزيرة بين دجلة والفرات وتسمى جزيرة أقور.

من أقصى اليمن إلى الشام، في عرض أربعة أيام[1] يزيد كسر يوم في بعض المواضع، وقد ينقص مثلها في أخرى، فمبدأ هذه السراة من أرض اليمن أرض المعافر، وهي قبيلة قحطانية كانت تسكن شرق عدن، ثم تمتد حتى تبلغ الشام وتقطعها الوديان في بعض جهاتها، وإنما سميت حجازاً لأنها حجزت بين الغور ونجد.

وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل إلى شرقية، يبتديء من أدنى حدود اليمن، وينتهي إلى السماوة، وينتهي من الشرق إلى العروض وأطراف العراق وسمي نجداً لارتفاع أرضه.

وأما اليمن فهو ما كان جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند، ويمتد شرقاً إلى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهائم والنجد.

وأما العروض فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسايل أودية فيه، وسمى عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق.

الوصف الطبيعي لجزيرة العرب:

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء المختلفة اللون. ومنها الحرار، جمع حرة وهي الجبال السوداء، التي كأنها فحم محترق ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان، أعدتها السيول ليجري فيها ماؤها والصحاري الرملية المترامية الأطراف.

فما كان من أرضها قريباً، من هذه الوديان أخصب وأنبت الكلأ والمرعى، فتمكن أهله من الإقامة فيه حيث يجدون ما يشربون ويسيمون فيه أنعامهم، وما بعد عنها أقفر ولم يصلح للسكنى:

---

(١) اليوم أربعة وعشرون ميلاً أو ثمانية فراسخ والفرسخ ٤٤٤٤ م لأن محيط الأرض عند خط الاستواء تسعة آلاف فرسخ، وهو ٤٠٠٠٠ ك وتكون الأربعة أيام ١٤٢ ك تقريباً.

وأعظم واد ببلاد العرب الدهناء، وهو الوادي الذي في بلاد بني تميم، ببادية البصرة. يمر في بلاد بني أسد، فيسمونه منعجاً ثم في غطفان فيسمونه الرمة، وهو أول نجد. ويصب في الرمة أودية، أخرى أكبر وادي الجريب والعرب تقول على لسان الرمة.

كل بني فأنه يحسيني ... إلا الجريب فانه يرويني

ثم يمر في بلاد طيء، فيسمونه حائلاً، وهو واد في جبل طيء، ثم يمر في بلاد كلب، فيسمونه قراقر، ثم في بلاد تغلب فيسمونه سمودي، وإذا انتهى إليهم عطف إلى بلاد كلب، فيصير إلى النيل، وهو نهر يتخلج من الفرات الكبير يخترق بلدة اسمها النيل، في سواد الكوفة ومتى أخصبت الدهناء ربعت العرب جميعاً لسعتها وكثرة شجرها، طيبة التربة، طيبة الهواء.

وبلاد اليمن كثيرة الوديان، منها ما يقطع السراة حتى ينتهي إلى البحر، ومنها ما هو على عكس ذلك الاتجاه:

فمن أعظم الوديان المتجهة إلى البحر وادي مور، وهو ميزاب تهامة الأعظم. ويتلوه في العظم وبعد المأتي وادي زبيد، ومن أعظم الوديان المتجهة إلى الشرق ميزاب اليمن الشرقي، وهو يضارع مورا ويصب فيه كثير من الوديان، وهو الذي يفضي إلى موضع السد «سد مأرب» ويسقي بعدها أرض الجنتين وأرض السبتين.

وهناك وديان كثيرة في الجوف بين الجبلين.

العرب تسمى المواضع التي يستنقع فيها الماء رياضاً، وهو جمع روضة وذلك الاسم خاص مما يكون في الأرض الواطئة، فان كانت في أعالي البراق[1] والقفاف[2] فهي السلقان واحدها سلق، وإذا جاءتها المياه أنبتت ضروباً من

---

(١) البرقة أرض ذات ألوان مختلفة وجمعها البراق وقد ذكرت ياقوت ١٠٠ برقة من براق الجزيرة.

(٢) القفاف جمع قف وهو ما ارتفع من الأرض، ولم يبلغ أن يكون جبلاً.

العشب والبقول، لا يسرع إليها الهيج والذبول، وإذا أعشبت تلك الرياض، وتتابع عليها الوسمي[1] ربعت العرب ونعمها وربما كانت الروضة واسعة، يكون تقديرها ميلاً في ميل، فاذا عرضت جداً فهي قيعان وقيعة واحدها قاع، وأصغر الرياض مئة ذراع، وكل روض يفرغ إما في روض وإما في واد، وحدائق الرياض ما أعشب منها والتف، وقد ذكر ياقوت من رياض العرب ١٣٦ روضة في جهات مختلفة وهي المعروفة بأسماء أصحابها.

ولهم مياه يسمونها الاحساء، والحساء جمع حسي، وهو موضع رمل، تحته صلابة فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل، نزل الماء فمنعته الصلابة، أن يغيض ومنع الرمل السمائم أن تنشفه، فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء.

ولما كانت مياه هذه الأودية، لا تسد حاجة الجزيرة كان الجدب أغلب عليها، ولاسيما أن كثيراً من مياهها يغيض في باطن الأرض. فلا يمكنهم الانفاع به إلا بصناعات ومعاناة. لم يكونوا من أهلها إلا ما كان من بلاد اليمن التي أمكنها فيما مضى أن تتحكم في مجاري الوديان. فتوجهها إلى جهة ثم تبني سداً محكماً يحجز الماء خلفه في أرض صلبة. للانتفاع به حين الحاجة فلا يتسرب إلى رمال الصحراء، ويغيض في الأرض ولهذا عدت اليمن قديماً من البلاد المخصبة المستعدة لأن تزرع فيها المزروعات الدورية، وتنبت فيها الأشجار الباسقة، حتى أطلقوا عليها اسم العرب الخضراء.

أما ما عداها فإن شمال الحجاز تقل به هذه الوديان. وجل اعتماد أهله على العيون الضئيلة التي لا تروي إلا الشارب مع الجهد وربما جادهم الغيث. فنبت الكلأ. في بعض سهولهم القريبة من الوديان، وأما نجد والعروض ففيها وادي الدهناء، وما يصب فيه من صغار الأودية، ولكن الانتفاع بجميع مائه غير ميسور لأن الكثير من مائة يغيض في الرمال، وربما تأخر المطر فاشتدت الحال بمن يقيم عليه من القبائل.

---

(١) وسمى أول مطر يصيب الأرض والثاني يسمونه الولي.

ومن هنا قلما كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد، وإنما يتبعون مواقع القطر أني كان لتربع أنعامهم وتنفرج كربتها.

وحاجة العرب الدائمة إلى الرحيل أكسبتهم النشاط والخفة إلى العمل لما يستدعيه ذلك من كثرة شد الرحال والتسيار.

ولما كانت قلة الماء وعدم انتظامه يستدعيان، بحكم الضرورة - عدم الاعتماد على ما تنبته الأرض من المزروعات الدورية التي لا تصلح للانسان كان جل أعمال أهل البادية على أنعامهم ولاسيما الإبل. منها يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها، وتحمل أثقالهم، في تلك الصحاري المقفرة الى ما يرومون من الجهات. أما بلاد اليمن فإنها كانت تزرع لكثرة المياه، هناك والتمكن من الانتفاع بها والمدن بها أكثر من أي جهة أخرى في الجزيرة لأن تمدين المدن في غير السواحل البحرية يعتمد على المياه الوفيرة وسهولة الحصول عليها.

جو البلاد:

أما ما كان من الجزيرة تهامياً يجاور شواطيء البحر، فالحرارة فيه شديدة مع الرطوبة لمكان البحر وأبخرته منها، وكذلك يشتد الحر في الجبال إذا صهرتها الشمس بحرارتها، خصوصاً الحرار منها لسواد لونها ويشتد بالجبال البرد في الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الأمثال.

أما نجد فما كان مجاوراً للأودية ومسايل المياه فإن الهواء يكون به معتدلاً وما بعد عنها حره أكثر.

وجو اليمن وهواؤه معتدل في فصلي الشتاء والخريف، أما الربيع ففيه المطر الكثير والرطوبات التي تستمر زمناً طويلاً ويشتد به الحر في فصل الصيف.

محاج الجزيرة:

في هذه الجزيرة طرق من الحواضر الكبرى إلى مكة وغيرها، وكل طريق

منها يسمى محجة، ومعرفة هذه المحاج مفتاح لما استغلق من عبارات أصحاب التقويم من العرب فإنهم إذا عرفوا بقرية أو جهة جعلوا المحجة أساساً لذلك التعريف، فيقولون هي على جادة البصرة أو الكوفة أو عن يمين السائر إلى البصرة أو الكوفة، فان لم يكن للمطلع علم بذلك كانت جدواه قليلة.

وقد فصل هذا الجواد أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني المتوفى سنة ٣٢٤هـ في كتابه وصف جزيرة العرب وبين منازلها، وما بين كل منزلتين من لأميال ودرجة عرض كل منزلة وأوضحها أيضاً عبيد اللّه بن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك، ومن أعظم هذه الجواد جادة بغداد منها إلى مكة مارة على المدينة وبها ٣٤ منزلة، وطولها ٨٣٠ ميلاً، وجادة الكوفة إلى مكة وهي تفارق الأولى من معدن النقرة في الشمال الشرقي من المدينة وعلى بعد ٩٨ ميلاً منها.

وجادة البصرة إلى مكة مارة بالمدينة. وهي تتحد مع جادة الكوفة في معدن النقرة الذي يلي منزلة النباح. وجادة البصرة الى مكة، ولا تمر بالمدينة ومنها في الجنوب جادة صنعاء النجدية، وعدد منازلها ٢٢ ومقدار أميالها ٤٢٠. وجادة التهامية وعدد منازلها ٢٢ كالأولى.

ومنها محجة عدن تلتقي مع محجة صنعاء في منزلة اسمها عثر بعد سير ١٦ منزلة ولحضرموت محجتان، منها العليا وتتقابل مع محجة صنعاء في صعدة، ومنها السفلى وتتقابل مع محجة صنعاء في تبالة وتمر على نجران.

ومنها محجة البصرة. الى البحرين على ساحل خليج عمان. (أنظر الخريطة).

الشعوب العربية

العرب قبائل شتى ترجع في نسبها إلى شعبين عظيمين:

الأول: شعب قحطان: والثاني: شعب عدنان.

فأما شعب قحطان فمهده بلاد اليمن. وقد تشعبت قبائله وبطونه من

سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فكان منه بطون حمير. وأشهرهم زيد الجمهور، وقضاعة، والسكاسك، ومنه بطون كهلان وأشهرهم همدان، وأنمار، وطيء، ومذحج، وكندة، ولخم، وجذام، والأزد الذين منهم الأوس. والخزرج. وأولاد جفنة ملوك الشام.

وكانوا يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف والواحد منها مخلاف، ويضاف إلى اسم القبيلة التي اختصت به. ذكر منها ياقوت ٣٦ مخلافاً.

وكان الملوك المتقدمون قد فكروا في الاستفادة بمياه السيول التي تنقذف في الوديان فيذهب الكثير منها هباء في جوف الأرض. أو في البحر فأقاموا بمأرب سداً وصفه ياقوت نقلاً عن شيخ من أهل صنعاء قال: هو بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة. فكأن الأوائل قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص. فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة، وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم، ثم يسدونه إذا أرادوا.

ويظهر أنه لما تطاولت الأزمان على ذلك السد. أهمل من شأنه فتصدعت جوانبه ولم يحتمل هجمات السيول المتواردة عليه، والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر، وفاضت المياه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفها وكان ذلك سنة ١٢٠ ق م كما قاله السيد سيديو.

وهناك اختلف كلمة المؤرخين من العرب، فمنهم من يقول إن هجرة أهل مأرب كانت قبل أن ينهدم السد، لأن كاهنة أخبرت رئيس القوم بما سيحدث فصدقها وهاجر بأهله وولده ومن تبعه من عشيرته، ومنه من قال أن الهجرة إنما كانت بعد أن خرب السد وأتلف الأرض والمزارع ولم يمكنهم إعادة السد كما كان، فتعرضت البلاد لهجمات السيل ولم تصلح للزرع كما كانت.

ونحن نرجح الرأي الأخير لسببين.

الأول: أن مفارقة البلاد عند النفس. عدل مفارقه الروح. وكلاهما أمر مكروه شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع أملاً خصوصاً أنه سائر إلى بلد لم يخبره.

الثاني: أن الكتاب لما قص علينا هذه القصة في السورة الرابعة والثلاثين، قال لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال **﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾**[1] **﴿فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل﴾**[2] فهذا واضح في أن سيل العرم أصابهم وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها وممن سار على هذا الرأي العالم سيديو.

كانت هجرة أهل مأرب بناء على رأي كبيرهم وسيدهم عمران بن عمرو مزيقيا سيد ولد الأزد من كهلان، خرج هو وإخوته ومن معهم من عشائرهم من ولد الأزد يرتادون مواضع من الجزيرة تصلح لسكناهم فصاروا ينتقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرواد ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال.

فعطف ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز. فأقام بين الثعلبية وذي قار يتتبع هو ومن معه من أهله وولده مواقع القطر. ولما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة وبها ناس من بني إسرائيل متفرقون في نواحيها فاستوطنوها وأقاموا بها وغلبوا أهلها بعد عليها فابتنوا الآطام وغرسوا نخيل، ومن أبناء ثعلبة هذا الأوس والخزرج ، ابنا حارثة بن ثعلبة.

وتخزع عنهم خروجهم من مأرب حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - بمن معه وافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جرهم.

عطف عمران بن عمرو مفارقاً لقومه نحو عمان، وقد كان انقرض من

---

(١) سورة سبأ: الآية ١٥.

(٢) سورة سبأ الآية ١٦.

بها من طسم وجديس فنزلها واستوطنها هو وبنوه وهم أزد عمان.

وسارت قبائل نصر بن الأزد. وهم قبائل كثيرة نحو تهامة وهم أزد شنوءة.

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها هو وبنوه وهو أبو الملوك الغساسنة نسبة لغسان، وهوماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه فنسب هؤلاء إليه.

وممن ترك اليمن من كهلان ثم من بني أدد بن زيد قبيلة لخم بن عدي الذين معهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة وأول من اتخذها منهم منزلاً ـ عمرو بن عدي بن نصر الذي ملك بعد جذيمة الوضاح.

ومنهم طيء: ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجأ وسلمى، لما رأوا هناك من الخصب وهذان الجبلان في الشمال الشرقي من المدينة ويخترقهما وادي الدهناء، ولهما ذكر كثير في أشعار العرب. الطائيين لما لهما من المنعة والحصانة وبهما كانوا يستهينون بسلطان الملوك من بني نصر. قال شاعرهم عارق الطائي:

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة ... إذا استحقبتها العيس تنضي من البعد
أيوعدني والرمل بيني وبينه؟ ... تأمل رويداً ما أمامة من هند
ومن أجأ حولي رهان كأنها ... قبائل خيل من كميت ومن ورد

ومنهم قبيلة كلب بن وبرة من قضاعة. أقامت ببادية السماوة وهي في آخر شمال نجد. وتتصل بأطراف العراق ويخترقها وادي الدهناء.

هكذا تفرقت هذه القبائل اليمانية واحتلت أخصب الأراضي العربية في الشمال والغرب وبقي باليمن كثير من قبائل حمير، وكندة ومذحج وغيرهم وكان لحمير السيادة على البلاد ومنهم الملوك والأقيال.

شعب عدنان وتفرقة
معيشة العرب من بدو ومن حضر
حال العرب الاجتماعية

شعب عدنان:

أما شعب عدنان فمهده مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة، فإن عدنان ـ باجماع كلمة المؤرخين من العرب، ينتهي نسبه الى إسمعيل بن إبراهيم الذي جاء مكة وساكن جرهم وصاهرهم والكتاب ينسب إليه وإلى أبيه بناء البيت الحرام، **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾**[1] ولم تزل أبناء إسمعيل بمكة تتناسل حتى هناك كان منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية.

وقد تفرقت بطونه من نزار بن معد فمنه إياد وربيعة ومضر وهذان هما اللذان كثرت بطونها.

وكان من ربيعة قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم في تاريخ العرب حيث كانوا يناصون مضر في الشرف والرفعة، ومنهم كان أكثر الخوارج في الاسلام.

ومن ربيعة عبد القيس بن قصي، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل، ومن بكر حنيفة وعجل ابنا الجيم.

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين قيس عيلان بن عيلان بن مضر، وبطون إلياس بن مضر.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

وقيس عيلان بطونها كثيرة، فمنهم بنو سليم بن منصور وبنو هوازن وبنو غطفان، ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض وأشجع بن ريث وغني بن أعصر.

وافترقت أولاد إلياس فمنهم بطون تميم بن مرة وهذيل بن مدركة وبنو أسد ابن خزيمة، وبطون كنانة بن خزيمة، ومن كنانة قريش وهم أولاد فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة.

وقد انقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم بن هصيص ابن كعب وعدي بن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي وعبد مناف بن قصي.

وكان من عبد مناف أربع فصائل. عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم. وبيت هاشم هو الذي كان منه سيدنا محمد بن عبد اللّٰه بن عبد المطلب بن هاشم، والعباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب، والعلويون أولاد علي بن أبي طالب بن عبد المطلب.

مساكن العدنانية:

لما تكاثر أولاد عدنان رأوا أن البلاد التي نبتوا بها لم تعد تكفيهم فأخذوا يهجرونها متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب.

فهاجرت عبد القيس - من ربيعة وبطون من بكر بن وائل - إلى البحرين فأقاموا بها وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس، حين مجيء الاسلام وذلك الأمير هو المنذر بن ساوي من بني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر قصبة اليمامة، وكان أميرهم عند مجيء الاسلام هوذة بن علي الحنفي الذي يقول فيه الأعشى:

من يرهوذة يسجد غير متئب   إذا تعمم فوق التاريخ أو وضعا

لـه آكاليـل بـاليـاقـوت فصلهـا صـواغها لا تـرى عيباً ولا طبعـاً

وكـان أبـو عمـرو بن العـلاء يقـول: ولم يتـوج معـدي قط، إنمـا كـانت التيجـان لليمن، فسأله أبو عبيـدة عن هوذة فقـال إنما كـانت خـرزات تنـظم لـه وكان هوذة يجير لطيمة كسرى في جنبات اليمامة.

وأقامت سائر بكر بن وائـل في طول الأرض من اليمـامة الى البحـرين الى سيف كـاظمة إلى البحر، فأطـراف سواد العـراق فـالأيلة فهّيت، وأقـامت تغلب بالجزيرة الفراتية ومنها بـطون كانت تسـاكن بكراً وسكنت بنـو تميم ببادية البصرة وأقـامت بن سليم بـالقـرب من المـدينـة من وادي القـرى إلى خيبـر إلى شـرق المـدينة إلى حـد الجبلين، إلى ما ينتهي إلى الحـرة، فتلك ديارهـم لا يخـالطهم إلا بعض الأنصار.

وسكنت ثقيف بـالطائف وهـوازن في مكـة بنـواحي أوطـاس ـ وهي عـلى الجادة بين مكة والبصرة.

وسكنت ينو أسد شـرقي تيماء وغـربي الكوفـة بينهم وبين تيـماء ديار بحـتر من طيء وبينهم وبين الكوفة خمس ليال.

وسكنت ذبيـان بالقـرب من تيماء إلى حـوران، وبقي بتهامـة بطون كنـانة وأقام بمكة وضـواحيها بـطون قريش، إلا أنهم متفـرقون لا تجمعهم جـامعة حتى نبـغ فيهم قصى بـن كـلاب، فجمعهم وكـون لهم وحـدة شـرفتهم ورفعت من أقدارهم.

بدو العرب وحضرهم:

وينقسم العـرب ـ بالنسبـة الى مساكنهم ـ إلى حضر: وهم سكـان المدن. وبدو: وهم الذين يقيمـون في الباديـة، إنما مسـاكنهم بيوتهم الشعـرية لا يصفـو عيشهم إلا في ذلـك الجـو الفسيـح، لا يحجب فيـه عنهم السـماء، ولا الهـواء وغـذاؤهم اللبن ولحم الجـزور. وقـد يـطلق المؤرخـون عليهم خـاصـة اسم

الأعراب، وهو ما سنتبعه. ويغلب على خلق هؤلاء الناس البساطة وجفاء القول وذلك هو ما يسمى بالعنجهية.

أما الحضر: فهم سكان المدن وقد كان بالجزيرة مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن. فكان فيها مأرب، وصنعاء ويقول عنها اليمنيون إنها أقدم مدينة على وجه الأرض وفيها زبيد وعدن وصعدة ومخا وشبام وغير ذلك، وفي شمال اليمن مكة وهي تهامية، والطائف والمدينة وهما حجازيتان وخيبر، وفي نجد حائل، وفي العروض حجب ـ قصبة اليمامة ـ والقطيف بالبحرين وأهل المدن لا يظعنون عن مقامهم لا في صيف ولا في شتاء.

تجارة العرب:

كانت للعرب تجارات يتبادلون بها حاجتهم، وكانت لهم أسواق شهيرة يجتمعون فيها من كل صوب لشراء ما يبغون، وبيع ما يحصلون عليه من نتائج بلادهم، وكانت لكسرى والنعمان لطائم يرسلها إلى نواحي الجزيرة لتباع فيها، يحميها من غارات الأعراب كبير من كبار العرب، تحمل البز والثياب وما تحتاجه العرب. وكان لقريش رحلتان تجاريتان: إحداهما للشام في زمن الصيف، والأخرى لليمن في زمن الشتاء. وبلاد اليمن، كانت تتجر بحاصلات أرضها مع الحبشة والهند وبلاد فارس ولهم مرافيء تجارية كبيرة ولم يعرف للأمة العربية نقود كان بها التعامل، وإنما كانوا يتعاملون بنقود الدولتين المجاورتين لها وهما الفرس والروم.

صناعة العرب:

أما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها حتى إن البدو منهم كانوا يحتقرونها ويعيبون المحترف بحرفة وإذا تأملنا ما كان يلهج به جرير للفرزدق وكلاهما من تميم لا نجده أكثر من أن أحد آباء الفرزدق كان محترفاً بحرفة هي جلاء السيوف، وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود، لأن القرظ لما كان كثيراً في جهة صنعاء استعملوه في دبغ الجلود واستعمالها فيما تصلح من النعال

وغيرها. وكذلك حياكة الثوب، ويقول قائلهم هم بين دابغ جلد وناسج برد. وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل وكانوا يرجعون في صناعة البناء إلى عمال من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة في زمن قريش وبناء الخورنق في زمن النعمان. وأمهر من اشتغلوا بالصناعات هم أهل اليمن والحيرة ومشارف الشام وكلهم من عرب قحطان.

أحوال العرب

قد حصرنا أحوال هذه الأمة التي تمثلها لنا أكبر تمثيل في الأحوال الاجتماعية والأدبية والسياسية والدينية، ونعني بالاجتماعية ما كان للفرد منهم من العلاقة بأهله وولده وبني عمه دنيا، ثم ما كان من العلاقة بين القبائل المختلفة، ونعني بالأدبية ما كان لهم من الأخلاق التي توارثها خلفهم عن سلفهم فعرفوا بها، ونعني بالسياسية ما كان لهم من الاستقلال بحكم أنفسهم أو التبعة لغيرهم، ونعني بالدينية بيان معتقداتهم وما كانوا يعظمونه من بيوت العبادة.

حالة العرب الاجتماعية:

الرجل في أهله ـ ونريد بالأهل خصوص الزوج:

يظلم العربي من زعم أنه كان ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة، فإنا إذاً كنا نستقي تلك المعاملات من شعرهم الذي هو ديوان أخبارهم نرى الأمر على العكس من ذلك، فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بماله في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة التي إن رقى في نظرها فقد رضي الناس كلهم عنه. وترى ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام، وعنترة العبسي شيخ الشجعان. ثم أنظر إلى أي شجاع من العرب هل كان يتفخر إلا محدثاً امرأة من قومه بأنه المدافع عن الحريم الحامي للحقيقة.

تراه إذا عذلته على السرف وأشارت عليه بالقصد يجيبها بأرق ما يجيب به مخالف في الرأي.

ألم تعلمي يا عمرك اللّه أنني كريم على حين الكرام قليل؟

أولاً ترى أن جميع الشعراء إذا بدأوا قصائدهم التي بمحامد قومهم وعظيم مقاصدهم لا يذهبون الى شيء، من ذلك حتى يعطوا المرأة قسطها مما تحب من النسيب، يرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة، وتراهم حينما يخاطبونها وهي ذات زوج يلقبونها بخير الألقاب يقول أحدهم:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا

فاعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو الدرجة، وما أحلى احتراسه في قوله غير صاغرة. ويقول الآخر لزوجه:

سلي الطارق المعتر يا أم مالك إذ ما أتاني بين قدري ومجزري
أيسفر وجهي وهو في أول القرى وأبذل معروفي له دون منكر

فلا يناديها إلا بكنيتها وهذا من سمات التشريف في عرفهم.

وبالجملة فإن المتتبع لأشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار والإهانة للمرأة ويفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم. كما يفخرون بنسبهم إلى آبائهم وكانت المرأة فيهم إذا أرادت فرقت، وإن شاءت جمعت فإن اتجهت عواطفها للسلام سعت إليه ونجحت، وإن وجهتها إرادة الإنتقام إلى الشر أشعلت النار بين الأحياء.

قال الحارث بن عوف المري لخارجة بن سنان، في إبان الحرب بين عبس وذبيان: أتراني أخطب إلى أحد فيردني قال: نعم أوس بن حارثة بن لأم الطائي، فقال الحارث لغلامه: هيء لي مركباً ثم ركب هو وغلامه ومعهما خارجة، حتى أتيا أوساً فوجداه في داره فلما رأى الحارث رحب به وسأله عن

مجيئه، فقال جئتك خاطباً، فقال أوس لست هناك فانصرف ولم يكلمه ثم دخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال: ذاك سيد العرب الحارث بن عوف قالت فما لك لم تستنزله قال إنه استحمق جاءني خاطباً قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال نعم قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟ قال: قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك فالحقه وقل له إنك لقيتني مغضباً بأمر.

لم تقدم مني فيه قولاً فلم يكن عندي من الجواب إلا ما سمعت فانصرف ولك عندي كل ما أحببت فإنه سيفعل ففعل ذلك أوس ورد حارثة، فلما وصلوا إلى بيت أوس قال أوس لزوجه ادعي لي فلانة لكبرى بناته فأتته فقال يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد سادات العرب وقد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فقالت لا تفعل لأني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ في ذلك ما فيه. قال قومي بارك اللّه فيك، ثم دعا الوسطى فأجابته بمثل جوابها وقالت إني خرقاء وليس بيدي صناعة ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ في ذلك ما تعلم، ثم دعا الثالثة وهي بهيئة صغراهن فلما عرض عليها قالت أنت وذاك فأخبرها بإباء أختيها فقالت لكني واللّه الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أباً فإن طلقني فلا أخلف اللّه عليه بخير فزوجها الحارث وهيئت إليه في بيت أبيها فلما خلا بها وأراد أن يمد يده إليها قالت: مه أعند أبي وإخوتي هذا واللّه ما لا يكون فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق وأراد قربانها فقالت: أكما يفعل بالأمة الجلبية أو السبية الأخيذة لا واللّه حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي، فرحل حتى إذا وصل ديار قومه أعد لها ما يعد لمثلها فلما أراد قربانها قالت له أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك، فخرج الحارث مع خارجة بن سنان فأصلحا بين القوم وحملا الديات وكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين.

فهذه الحكاية تدل على مكانة المرأة في نظرهم ومشاركتها لهم في جميع أمورهم، وكيف كان الرجل لا يزوج بناته إلا بعد أن يستشيرها ويقف عند إرادتها ولا يمكننا أن ندعي أن هذا كان أمراً عاماً عندهم بحيث تكون المرأة محترمة الجانب في جميع الطبقات تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمة لأن وجود أفراد هذه معاملتهم لا يحتمل أن يكون برهاناً على أن هذا خلق عامتهم، كيف ونحن في بيئة لا نعدم فيها من يرفع زوجه إلى أعلى درجات الاحترام والرعاية ولا يستنتج من وجودهم أن احترام المرأة خلق عام للبيئة كلها، ولكن الذي يمكننا أن نقوله هو أن ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان الحال من غير أن يقابلوا بالنكير يدل على أنه لم يكن عندهم بدعاً من العمل بل كان شيئاً لا تنفر منه طباعهم يوحد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جماً ولكن لا يجسر أن يخالف التقاليد العامة يوماً فيكتب في إحدى الجرائد قلت لامرأتي واستشرت امرأتي في زواج بنتي، فكان مني ومنها كيت وكيت لو قال هذا لقابلته النفوس بالاستنكار لأنه ليس من مألوف عادات القوم.

من ذلك يمكننا أن نقول إن علاقة الرجل العربي بأهله كانت على درجة من الرقي، أكثر مما يخيل إلينا وكان لها من حرية الارادة ونفاذ القول القسط الأوفر، وسيمر بكم كثير من آثارها الكبيرة في الإسلام. وهي مما يزيدنا تأكيداً من هذا الرأي إلا أن الرجل، كان يعتبر ـ بلا نزاع ـ رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد الزواج بعد رضاء أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم وهذا الزواج هو ما عليه جمهورهم.

وكانت عندهم أنواع من اجتماع الرجل بالمرأة قاصرة على ذوي الدعارة من الشبان الذين لا يخلو منهم زمان أو مكان لم يكونوا يطلقون عليها إلا السفاح واتخاذ الأخدان، ولم يكن ذلك أمراً مستحسناً عند جمهورهم إذ المعروف عن العربي من غيرته على أهله ومحافظته على شرفه ـ يبعد ذلك.

فمن الخطأ بعد ذلك أن يقال إن الزواج كان عندهم على أنواع ويدرج في ضمن هذه الأنواع تلك المسافحات.

وكانوا يعددون بين الزوجات إلا أنه لم يكن هناك حد معروف إليه ينتهي الأمر في هذا التعدد، فقد ورد في الصحيح أن غيلان الثقفي أسلم وتحته عشر نسوة.

وكانوا يطلقون والطلاق بيد الرجل إلا أنه كان هناك نساء امتزن بشرف قومهن فكن يشترطن عند التزوج أن تكون الفرقة بأيديهن.

وكانت عندهم اجتمعات تعقدها شفار السيوف وأسنة الرماح فكان إذا قابل أحد منهم آخر معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من قبيلة لها معها حلف تقاتلا، فإذا قهر صاحب الظعينة أخذت منه سبية فاستحلها بذلك الغالب ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار في مدة حياتهم، ولذلك كان من مفاخر الرجل منهم أن تكون أمه حرة نسيبة غير جليبة، وإن كان قد بز غيره بشجاعته اعتمدوا على هذه الشجاعة في نفي العار عنه كما قال عنترة:

إني امرؤ من خير عبس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصل

وكان كبراء العرب يترفعون عن ذلك خشية إلحاق العار بأولادهم وهم يريدون لهم الشرف، حتى كانوا إذا أمنوا على أولادهم ذكروا في أول ذلك أنهم تخيروا أمهاتهم وكانوا يقولون: العرق دساس.

وكانوا يحرمون أنواعاً من الاجتماعات: كزواج البنت والأخت والعمة والخالة، ومن غرائب ما يحكونه عن لقيط بن زرارة أحد أشراف بني تميم: أنه تزوج بنته دختنوس. ولعله يكون قد تأثر بمذاهب الاباحيين لمجاورته للفرس، والصحيح عند المؤرخين أنه إنما كان يحبها ويتيمن برأيها ولذلك كانت معه في غزواته.

أما معاملتهم لأبنائهم فكانت معاملة من يربي الولد ليكون له درعاً

حصينة يتقي بها العدو ولذلك كانوا يتخيرون لهم شر الأسماء من كلب وأسد وثور وفهد وما شاكل ذلك، وكان لهم من الحنو على الأولاد ما يعبر عنه قول أحدهم:

وإنما أولادنا بيننا . أكبادنا تمشي على الأرض

وعرف عن بعض رجال من العرب أنهم كانوا يئدون بناتهم **﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾**[1] **﴿يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب﴾**[2] ولم يكن هذا في جميع العرب بل كان في بعض بطون من تميم وأسد، ولم يكن بالطبع إلا في طبقة منحطة منهم، لأن ذلك إنما كان يفعله من يفعله منهم خشية الفقر وإلى ذلك الاشارة في قول الكتاب **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾**[3].

وكان هناك من أشراف تميم قبل الاسلام من كره الوأد وعابه، وكان يشتري البنات ممن يريدون وأدهن بنوق تذهب عنهن الفقر والخوف منه وعرف ذلك عن غالب بن صعصعة جد الفرزدق.

ولا يمكننا بعد ذلك أن نعد هذا الوأد من الأخلاق المنتشرة التي تعد على الأمة العربية بل إنما تعد على أولئك الأفراد الذين اجترءوا عليها.

أما معاملة الرجل لأخيه وبني عمه دنيا فبينتها هذه الحملة التي قالوها: أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، وكانوا يسيرون عليها بمعناها الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الاسلام لأن الاسلام فسر نصر الظالم بكفه عن ظلمه أما هم فكانوا ينصرون إخوانهم وبني عمهم نصراً حقيقياً على كل حال في صوابهم، وخطئهم وعدلهم وظلمهم، والذي يتأخر منهم عن هذا الانتصار تقابله ألسنة الشعراء بما يغض من كرامته وينقص من قدره وربما أصاب الذم

(١) سورة النحل: الآية ٥٨.
(٢) سورة النحل الآية ٥٩.
(٣) سورة الاسراء: الآية ٣١.

القبيلة جمعاء من جراء حادثة لم يقوموا فيها بنصر أحدهم كما قال شاعرهم :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي | بنو اللقيطة من ذهب بن شيبانا
إذاً لقام بنصري معشر خشن | عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم | طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم | في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي ـ وإن كانوا ذوي عدد | ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة | ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته | سواهم من جميع الناس إنسانا

وإذا دخلت قبيلتان منهم في حلف كان لكل فرد من إحدى القبيلتين النصرة، على أفراد القبيلة الأخرى، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبائل، والأمر واحد في الحلفين.

بينما هذه حالهم في بني أبيهم وفي حلفائهم إذا بك تراهم حينما تتشعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً في الشرف والثروة فتجد القبائل التي يجمعها أب واحد كل واحدة قد وقفت لأختها بالمرصاد، تنتهز الفرصة للغض منها والاستيلاء على موارد رزقها وترى العداء قد بلغ منها الدرجة التي لا تطاق كما كان بين بطني الأوس والخزرج، وبين عبس وذبيان وبين بكر وغلب، وبين عبد شمس وهاشم وكما تراهم في الجملة بين ربيعة ومضر، ، بين قيس وكنانة، وبين القحطانية والنزارية، فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة، تزيدها العصبية حياة ونمواً وكانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة فكانت قواهم متفانية، في حروبهم والسبب في ذلك يرجع إلى أمرين:

الأول: التنافس في مادة الحياة بين بني الأب الواحد، فانا نعلم أن حياة العرب كانت على مراعيهم التي يسيمون فيها أنعامهم وعلى مناهلهم التي منها يشربون، وهي محل نزاع دائم لأنه لم يوجد عند العرب حقوق ملكية محترمة في الكلأ، والماء وأكثر ما يبتديء ذلك النزاع بين رعاة الابل القائمين، بشأنها

فإنهم قد يتنازعون فيمن يرد الماء أولاً في نفس المراعي، فيتجاوزهم النزاع إلى ساداتهم فلا يجدون من الافتراق بدا فينزح أحد الأخوين، عن داره مرغماً إلى مكان آخر هو وأولاده ومن يلوذ به ولا يكون ذلك إلا بعد أن يشعر الراحل بقوة منازعه فينزح وفي النفس أثر من الغضب يورثه الآباء للأبناء فيتناقلون بينهم أحاديث عن أسباب الخلاف والظلم يجسمها النقل، وإذا تقارب مكان البطنين كان العداء أبقى، وهذا أمر نشاهده في ديارنا بين البلدين اللذين كان أصلهما واحداً ثم انفصل قسم من أهله عن الباقين: رأيت بلداً من مديرية المنوفية يذهب جميع من فيه مذهب الامام مالك في عبادتهم، وجميع البلاد المحيطة بهم يذهبون مذهب الامم الشافعي. فاستغربت ذلك وسألت ذوي الأسنان منهم عن سببه فأخبروني أن أهل هذا الكفر كانوا من أهل ذلك البلد الذي يجاوره، فلما حصل النزاع والخلاف وغلب أهل الكفر على أمرهم استقلوا بأنفسهم وتركوا البلد وما فيه حتى مذهب أهليه.

السبب الثاني: تنازع الشرف والرياسة وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الأخوة وله ولد صالح، لأن يكون موضع أبيه فينازع أعمامه رئاسة العشيرة ولا يسلم أحد منهما للآخر، فيورثهما ذلك تباغضاً تزيد الأيام شدة، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً في نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء، وقد يبقيان متجاورين وفي هذه الحال يكون التنافر أشد كما كان بين الأوس والخزرج سكان المدينة، وكما كان بين هاشم وأمية، بمكة وبين عبس وذبيان من قيس وبين بكر وتغلب، من ربيعة وبين دارم ويربوع من تميم.

ولذلك نرى الحروب الهائلة والأيام المعدودة، إنما كانت بين القبائل المتقاربة في الأنساب المتقاربة في الأمكنة.

ولم يكن لهم نظام يلجأون اليه في الحكم بين المتناقرين في الرياسة والشرف إنما كانوا في بعض الأحيان يلجأون إلى حكم منهم قد عرف بأصالة الرأي، ويقدم كل من المتنازعين بين يديه بمساعدة مريديه ما يشرفه في

النفوس ويعظم أمره من نحر الجزر، وإطعام الطعام وكانت تكون المصيبة أشد إذا حكم الحكم لأحد الفريقين لأن ذلك إنما كان يزيد نار العداء ضراماً.

وإذا كان الحكم عارفاً بدخائل العرب سوى بينهما في الفضل والشرف كما فعل قاضيهم حينما حكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامري ابني العم فانه قال لهما أنتما كركبتي البعير وهذا حكم لا يحسم النزاع ولا يعدم كل منهما أن يجد له شاعراً يلهبه ويزيد في نفسه نعرة الجاهلية، كما فعل الأعشى في هذه القضية. فإنه قال القصائد الرنانة يفضل بها عامراً، وزعم أن الحكم قضى له، ومما كان يزيد في هذه النيران شدة ألسنة الشعراء فقد كان هم الواحد منهم أن يرفع عقيرته بكلمة شعرية يعدد بها مفاخر قبيلته ومثالب القبيلة الأخرى، وإذا زل أحد أفراد القبيلة زلة عدوها على القبيلة بأسرها ووسموها بتلك السمة حتى إذا قرأنا مجموعة من أشعار هؤلاء الغاوين، وجدنا العرب كلها مثالب ونقائص، لأن كل شاعر يعدد مثالب القبلة التي تعادي قبيلته المعترف لها بالتبزير، في السيادة وفيها البيوتات الكريمة قد وسمت على لسان شاعر بما يستحي الإنسان من إنشاده ولم تسلم من ذلك الشر قبيلة واحدة.

ومتى وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لا يحتاج شبوب نار الحرب بينهما إلى أسباب قوية لا يمكن حلها بل أيسر النزاع بين فردين من أفراد القبيلتين كاف لنشوب نار الحرب وتيتيم الأطفال وتأييم النساء، لذلك كانت الجزيرة دائمة الحروب والمنازعات قلما يخلو منها زمان أو مكان وإذا رجعت إلى أسبابها المباشرة وجدتها في بعض الأحيان تافهة كما كان في حروب الفجار، وفي البعض الآخر تراها أموراً يمكن حلها على أسهل الوجوه كالحروب بين عبس وذبيان، وبين بكر وتغلب، ولكن الأسباب الحقيقية سابقة على ذلك وهي النفور المتأصل في القلوب لما ذكرناه.

حال العرب السياسية

كان حكام الجزيرة ـ من هذه الجهة ـ قسمين: القسم الأول منهم ملوك متوجون إلا أنهم يرجعون إلى سلطان أعظم منهم فهم في الحقيقة غير مستقلين، والقسم الثاني: رؤساء عشائر لهم ما للملوك من الحكم والامتياز، إلا أنهم ليسوا أرباب تيجان، وهؤلاء قد يكونون على تمام الاستقلال وقد تكون لهم تبعية لملك متوج.

القسم الأول

الملوك المتوجون

ملك اليمن:

إذا نظرنا إلى المولعين بارجاع التاريخ إلى الأزمان المترامية إلى الوراء وتحديد ما بيننا وبينها من السنين والأيام وجدناهم يتناقضون ولا يشعرون فإنهم يبنون هذه التحديدات على مجرد خيالات وظنون لا تغني من الحق شيئاً.

يقولون إن قحطان بن عامر المعبر عنه في التوراة بيقطان، هو أول من سكن اليمن من بني سام بن نوح وكانت الأرض خلاء ،ويتبع هذا الكلام أنه كان متوجاً لبس التاج سنة ٢٠٣٠ ق م ، فتكون النتيجة أنه كان ملكاً على نفسه أو على أولاده ثم ملك بعده ابنه يعرب، وهو من أعاظم ملوك العرب ولا يدرون أن الذي يعطونه هذا اللقب لا تزيد رعيته عن ثلاثين من إخوته وبنيه.

والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفي سنة ٣٤٦ هـ يقول فيه: إن أول

من يعد من ملوك اليمن سبأ وهو الفرع الثالث لقحطان ويذكر أنه ملك ٤٨٤ سنة.

ثم يحكون أقاصيص عن ملوك اليمن، وضخامة سلطانهم وهي بالخرافات أشبه، فيروون عن الرائش بن قيس أحد ملوكهم أنه غزا الهند ثم رجع إلى اليمن وعاد فذهب إلى بلاد طيء، إثم إلى الأنبار والموصل ثم أرسل أحد أتباعه إلى أذربيجان فغزا وغنم، ويروون عن ابنه ذي منار أنه غزا بلاد الغرب وذهب إلى أقصاها وأن ياسر أنعم سار نحو المغرب حتى بلغ وادياً يقال له وادي الرمل ولم يجد وراءه مجازاً لكثرة الرمل ثم صنع صنماً من النحاس نصب على صخرة على شفير الوادي وكتب على صدره بالمسند هذا الصنم لياسر أنعم الحميري وليس وراءه مذهب فلا يتكلفن ذلك أحد، وإن تبعاً دخل الصين غازياً فقتل مقاتلها واكتسح ما وجد بها وخلف بالتبت إثني عشر ألف فارس من حمير، فهم أهل التبت الآن.

وكل تلك الأخبار لا تقبل إلا إذا ضحى جزء كبير من العقل، وقد أوضح أسباب فسادها المؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون المغربي، (المتوفي سنة ثمانمائة وثمانية) هـ في مقدمة تاريخه المسمى بالعبر، وديوان المتبدأ والخبر، وكذلك علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفي سنة ٦٣٨ هـ.

وقد بين محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠ هـ حقيقة ملكهم في موضعين من كتابه تاريخ الأمم والملوك، فقال عن اليمن لم يكن لملكهم نظام، وأن الرئيس منهم إنما كان رئيساً على مخلافه ومحجره لا يجاوز ذلك، فان نزع منهم نازع أو نبغ منهم نابغ فتجاوز ذلك، وإن بعدت مسافة سيره من مخلافه - فإنما ذلك منه عن غير ملك له موطد. ولا لآبائه ولا لأبنائه، ولكن كالذي يكون من بعض من يشردون من المتلصصة فيغير على الناحية بعد الناحية باستغفاله أهلها، فإذا قصده الطلب لم يكن له ثبات، فكذلك كان أمر ملوك اليمن كان الواحد منهم بعد الواحد يخرج من مخلافه ومحجره فيصيب مما يمر به، ثم

ينشمر عند خوف الطلب راجعاً إلى محجره من غير أن يدين له من غير أهل مخلافه بالطاعة أو يؤدي له خرجاً.

وقال في موضع آخر ص ١٦٢ جزء أول طبع مصر.

وقد كان لليمن ملوك لهم ملك غير أنه كان غير متصل، وإنما كان يكون الواحد منهم بعد الواحد وبين الأول والآخر فترات طويلة لا يقف على مبلغها العلماء لقلة علمهم بها وبمبلغ عمر الأول منهم والآخر، إذ لم يكن من الأمر الدائم، فان دام شيء فإنما يدوم لمن دام له منهم لأنه عامل لغيره في الموضع الذي هو به لا يملك بنفسه ا هـ.

فالظاهر أن قبائل اليمن من قحطان تشعبوا في أنحاء اليمن كما تشعب غيرهم، وكان لهم رؤساء من قومهم، وكان ينبغ من هؤلاء الرؤساء في بعض الأحيان من يوسع سلطانه إلى ما يجاوز مخلافه، ثم يرجع الأمر إلى ما كان عليه إذا ضعفت قوة المتغلب في حياته أو ضعفت قوة أعقابه.

وكانت حمير وكهلان في قحطان بمنزلة ربيعة ومضر في عدنان: شعبان يتنافسان في الملك والسطوة، وقد قسموا البلاد بينهم مخاليف لكل بطن أو عدة بطون مخلاف يتسع ويضيق حسب قوة القبيلة وضعفها، ولكل مخلاف رئيس من القبيلة يحكمه.

غير أن مخلاف صنعاء كان أضخم هذه المخاليف وأخصبها، فكان رؤساؤه يدعون بالملوك وقد يعظم فيهم الرجل بعد الرجل فيوسع سلطانه إلى ما وراء مخلافه بما يتاح له من القوة، فإذا أمكنه بسط سلطانه على حضرموت والشحر سموه تبعاً لا يستحق هذا اللقب غيره. حتى إذا ضعفت تلك القوة في أيام هذا المتغلب أو في أيام أبنائه عاد الأمر إلى ما كان عليه ورجع سلطان المخاليف الأخرى إلى ذوي السيادة فيها وكانوا يسمون بالأقيال، والواحد قيل.

ومن هذا يظهر ما بين الملك والملك من السنين الطويلة فيغتر بعض

المؤرخين ويجعل للسابق مدة حكمه، والفترة التي كانت بينه وبين الملك الذي يليه فربما جعلوا حكم الملك ٤٠ سنة وأكثر كما قدمناه عن المسعودي.

ومن أشهر ملوك اليمن ملكة سبأ، وقد ورد حديثها في التوراة بلقب ملكة سبأ، وفي القرآن بهذا اللقب أيضاً.

فذكرت التوراة أنها وفدت على سليمان بن داود ملك بني إسرائيل ورأت عظمة ملكه وسمعت حكمته. والقرآن ذكر تلك الوفادة وفي سياق الحكاية ما يدل على أن ملك اليمن لم يكن بتلك الضخامة التي تبعث صاحبها على غزو البلاد النائية والاستيلاء عليها، فقد خافت الملكة لما جاءتها رسالة سليمان حيث **﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾**[1] وقال سليمان لما أرسل إليها مهدداً **﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون﴾**[2] وملك سليمان عليه السلام لم يكن يتجاوز فلسطين وما حواليها من تلك الأصقاع: فهذا الخوف من ملكة اليمن وذلك التهديد من ملك فلسطين مع ما بينهما من البعد الشاسع، وهو طول جزيرة العرب، يجعلنا نفهم مقدار القوة التي كان عليها ملوك إذ ذاك، وممن اشتهر من ملوكهم، يوسف ذو نواس، وكان يهودياً فرأى أن بعض رعيته بنجران يدينون بالدين المسيحي اتباعاً لدعاة أرسلهم الأمبراطور الروماني منذ سنة ٣٣٤ م، فلم يكن من ذي نواس إلا أن مثل بهم حرقاً بالنار سنة ٥٣٤، ولما علم بذلك أمبراطور الرومان (جوستين) أمر النجاشي صاحب الحبشة المتدين بالنصرانية أن ينتقم من ذي نواس، فبعث إليه قائداً حبشياً اسمه أرياط فتغلب على صنعاء، ولما رأى ذلك ذو نواس أغرق نفسه في البحر خشية العار وظل أرياط حاكماً على صنعاء من قبل ملك الحبشة ثم اغتاله قائد من قواده اسمه أبرهة وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة فرضي عنه، وأبرهة هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة وكان يريد أن

---

(١) سورة النمل: الآية ٣٤.

(٢) سورة النمل: الآية ٣٧.

يصرف الناس عنها إلى بيت بناه بصنعاء فأصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم من الأمراض الثقيلة وقد بينها ابن هشام[1] في سيرته بأنها الحصبة والجدري. وروي أن هذا كان أول حصولها بمكة فعاد منهزماً ومات بعد عودته وأشار القرآن إلى هذه الحادثة في سورة الفيل، وحكم بعد أبرهة يكسوم ابنه ثم ابنه الثاني مسروق.

كان في ذلك الوقت من أولاد ملوك اليمن القحطانيين من يتطلع إلى نيل الملك ولا يقعده الا العجز وهو سيف بن ذي يزن الحميري، فرأى من الضروري أن يستنجد بأحد الملكين العظيمين ملك الروم أو بملك الفرس، ولكنه أخفق في استنجاده بملك الروم فاستنجد ملك الفرس وهو كسرى أنو شروان فوعده كسرى خيراً ثم شغل عنه حيناً من الزمن فمات سيف[2] فذهب ابنه معد يكرب الى كسرى يستنجزه وعده فأشار كبراء دولته أن يعين معد يكرب لما كان لهم من الأمل في امتلاك اليمن فأمدوه بجند يقوده أحد الأساورة واسمه وهرز فركبوا مراكبهم من الأيلة وقطعوا خليج عمان حتى أتوا شواطيء حضرموت فنزلوا من إحدى فرضها وتوجهوا إلى صنعاء وقد تبعهم كثير من القحطانيين فقابلتهم الحبشة فانتصر وهرز ومن معه على الحبشة وأجلوهم عن البلاد.

وحينئذ توج وهرز معد يكرب ملكاً على اليمن وأبقى معه جنداً من الفرس كانوا يسمون بعد بالابناء وينسب إليهم فيقال ابناوي.

وقد وفدت الوفود على ابن ذي يزن يهنئونه بعودة الملك، وممن وفد عليه عبد المطلب بن هاشم شيخ مكة وكبيرها وهو جد محمد بن عبد اللّه ﷺ، كان معد يكرب قد أبقى معه من الحبشة جمعاً يخدمونه ويمشون في ركابه فاغتالوه

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المتوفي سنة ٢١٨ هـ جمع سيرة محمد ابن إسحق رئيس أهل المغازي المتوفي سنة ١٥١ هـ وسيرته من أجمع السير وأضبطها وعليها معول من كتب بعده في السيرة.

(٢) بعض المؤرخين يروى أن سفياً هو الذي ملك اليمن لا إبنه.

ذات يوم وبموته انقطع الملك من بيت ذي يزن، إلا أنه لما علم كسرى بقتله أرسل وهرز ملكاً على اليمن من قبله وما زالت الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي كان عهد الفتح الاسلامي لبلاد اليمن وكان باذان ممن أجاب إلى الإسلام، فجاء الإسلام وصنعاء إيالة فارسية يحكمها كسرى بعامل من عماله يؤدي له الخراج ولم يكن ملكه عاماً بل كان هناك قبائل آخرون يحكمون في مخاليفهم، وكتب إليهم النبي ﷺ كتباً مستقلة بصفتهم أقيالاً كما كتب إلى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان، وكما كتب الى الحارث بن عبد كلال وأخيه، وكان لكندة بحضرموت رؤساء مستقلون يشبهون الملوك.

الملك بالحيرة:

بعد انهزام دارا ملك الفرس أمام الاسكندر المقدوني في سنة ٢٣٢ ق.م انحطت المملكة الفارسية عن درجة عظمتها السامية، وتولاها ملوك يعرفون في تاريخ الفرس بملوك الطوائف وكان للاسكندر أغراض في هذه التجزئة، وهي أن يسجل على بلاد الفرس ضعفاً أبدياً لا يتمكنون معه من إعادة الكرة على أملاك اليونان وقد نجح في هذه الفكرة، فان ملوك الطوائف لم تكن لهم تلك القوة المجتمعة التي كانت للفرس من قبل واستمر ملوك الطوائف يحكمون البلاد الفارسية مجزأة بينهم إلى سنة ٢٣٠ م. وهو الوقت الذي نبغ فيه أردشير بن بابك وشكل الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالدولة الساسانية أو دولة الأكاسرة.

وفي عهد ملوك الطوائف كانت هجرة العرب من اليمن بعد سيل العرم واحتلوا جزءاً مهماً من ريف العراق. كان قبل ملكاً للدولة الفارسية، ثم لحقهم بعد استقرارهم من هاجر من ولد عدنان فزاحموهم في تلك الجهات وسكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية.

فلما نبغ أردشير وجدد المملكة الفارسية وأدخل جميع مخالفيه من الفرس تحت طاعته، وأعاد تلك القوة التي كانت لهم من قبل رجع إلى العرب

المقيمين على تخوم ملكه فاستولى عليهم وصاروا من رعيته وكان هذا سبباً في رحيله من قضاعة إلى الشام ودان له أهل الحيرة والأنبار. وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر، وكأن أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه، إلا بأن يملك عليهم رجلاً منهم له عصبية تؤيده وتمنعه، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان. وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس يستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية وكان يطلق على تلك الكتيبة دوسر، (يظهر أنها تعريب دوشير وترجمته أسدان وهما شارة راية الفرس).

ولجذيمة هذا خبر طريف مع آل أذينة ملوك العرب بشمال الجزيرة ومشارف الشام فانه غزا ملكهم المسمى عمرو بن الظريب وقتله، وكان له بنت تسمى الزباء احتالت عليه حتى جاءت به إلى بلادها وقتلته، وكان له ابن أخت اسمه عمرو بن عدي فأراد أن يأخذ منها بالثأر فأعمل الحيلة الى ذلك بواسطة أحد المكرة من قومه المسمى قصيراً فسار قصير إليها حتى عرف مدينتها وما عملته في قصرها للهرب عند الحاجة، ثم استأذنها ليجيء بتجارة من العراق فذهب وأمر عمراً أن يسير معه بجند ولما قاربوا مدينتها أدخلوا الرجال في الغرائر على الابل ودخلوا مدينتها بهذه الحيلة، ولما أدركت جلية الأمر ذهبت لتدخل المكان الذي أعدته لهربها فأدركها عمرو فمصت سماً وقالت بيدي لا بيد عمرو، ولما وقعت أجهز عليها عمرو.

وهذه الحكاية مع غرابتها ينكر صحتها المؤرخون من الافرنج، ويقولون إن الزباء هذه كانت ملكة على تدمر، من قبل الرومانيين وليت الملك بعد وفاة زوجها أذينة من بين السميدع الذين سكنوا بلاد العراق وبراري الشام وحوران وانتهى أمر الزباء بأن حاربها الرومان في عهد القيصر أوليانس وقهروها وأخذوها أسيرة الى رومية حيث قضت هناك نحبها، وذلك في المدة بين

سنتي ٢٧٠ و ٢٧٣ م وموت جذيمة كان حوالي سنة ٢٧٨ م .

وبعد موت جذيمة ولي أمر العرب عمرو بن عدي بن نصر اللخمي وهو أول ملوك اللخميين بالحيرة ، ومدتهم من سنة ٢٦٨ م إلى سنة ٦٣٢ م وهي السنة التي فتح فيها خالد بن الوليد مدينة الحيرة، وعلى ذلك تكون مدتهم ٣٦٤ سنة إلا أن الملك قد انقطع فيها عنهم مرتين كما تراه بعد. وكان ابتداء ملك عمرو في عهد سابور بن أردشير ولم تزل الملوك من بني نصر تتوالى على الحيرة، حتى ولي الفرس قباذ بن فيروز وكان قد ظهر في زمنه مذهب الإباحية في بلاد الفرس على يد أحد فلاسفتهم المدعو مزدك ، فوجد المذهب رواجاً وتبعه خلق كثير. ومنهم الملك قباذ فأرسل إلى ملك العرب بالحيرة وهو المنذر بن ماء السماء يدعوه إلى أن يكون على ذلك المذهب فأبى عليه حمية وأنفة، ولما رأى ذلك قباذ عزله عن ملك الحيرة وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي الذي كان أميراً على قبائل بكر بن وائل وقد ملكه بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي .

ولم يزل ملكاً حتى مات قباذ وخلفه كسرى أنو شروان، وكان يكره هذا المذهب جداً ويراه مضراً للبلاد وبأنساب أهلها وتربية أبنائها فقتل مزدك وكثيراً ممن دان بهذا المذهب من الفرس، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة وطلب الحارث ابن عمرو، وكان بالأنبار وبها منزله، فهرب بأولاده وماله وهجانة فتبعه المنذر بالخيل من تغلب وإياد وبهراء فلحق بأرض كلب فنجا وانتبهوا ماله وهجانة وأخذت تغلب ٤٨ نفساً من بني حجر، آكل المرار وفيهم عمرو ومالك ابنا الحارث فقدموا بهم على المنذر فقتلهم في ديار بني مرينا وهم الذين يعنيهم عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته .

أَبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

ولم يزل حارث في دار كلب حتى مات .

ولما كان بالحيرة جاءه أشراف من نزار وطلبوا منه أن يولي أمرهم بعض

ولده فملك ابنه حجراً على بني أسد بن خزيمة وغطفان، وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها، وملك ابنه معد يكرب على قيس عيلان، وملك ابنه سلمة على تغلب والنمر بن قاسط وبني سعد من تميم. ولم يكن هذا الملك بالشيء الموطد لأن قبائل البدو لا تحتمل الملك وما يستدعيه، ولذلك قامت بنو أسد على حجر بن عمرو وقتلوه بعد أن ظهر لهم منه عسفه وشدته، وكان من نتيجة قتله أمر أبنه امريء القيس وقيامه لأخذ الثأر ممن قتلوا أباه. وكان يريد أن يملكهم قسراً فآب بالفشل بعد خطوب طويلة كانت عليه في ذهابه إلى ملك الروم واستنجاده به على قتله أبيه.

ولما عاد الملك إلى المنذر بن ماء السماء استمر في عقبه حتى كان النّعمان بن المنذر المكني بأبي قابوس صاحب النابغة الذبياني وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدى العبادي انتقاماً منه بحبسه أباه حتى مات فلما أحكم زيد الأمر وشتد غضب كسرى على النعمان وأرسل إليه يطلبه فخاف النعمان عاقبة الأمر وأيقن أنه هالك إن توجه إلى المدائن، فذهب يتنقل في أحياء العرب يريد منهم أن يحموه من كسرى فأبت عليه القبائل ذلك ولم يزل متنقلاً حتى ورد ذا قار ونزل على بني شيبان سراً فلقي هانيء بن مسعود الشيباني وكان سيداً منيعاً والبيت من ربيعة في آل ذي الجدين لقيس بن مسعود أخي هانيء، وكان كسرى أطعمه الأبلة فكره النعمان أن يرفع إليه أهله لذلك وعلم أن هانئاً يمنعه مما يمنع منه أهله وولده فأودعه أهله وماله وتوجه إلى كسرى فحسبه حتى مات، وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي وهو من أشراف طيء وأمره أن يرسل إلى هانيء ابن مسعود فيطلب منه تسليم ما عنده فأبى ذلك هانيء حَمية وآذنوا الملك بالحرب فأمر إياساً أن يسير إليهم بالجنود ومعه مرازبة كسرى وكتائبه، ولما دنت الفرس من بني شيبان قال لهم هانيء يا معشر بكر لا طاقة لكم بحرب كسرى فاركنوا إلى الفلاة فأسرع الناس إلى ذلك فقام حنظلة بن ثعلبة العجلي وقال ياهانيء أردت نجاءنا فألقيتنا في التهلكة، ورد الناس وقطع وضين الهوادج وضرب على نفسه قبة

وأقسم أن لا يفر حتى تفر القبة، فرجع الناس وانتظروا مجيء الفرس حتى جاءتهم. وكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها بنو شيبان وانهزمت الفرس هزيمة منكرة وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل فانه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية قبيصة على الحيرة.

وكان مع إياس قائد من قواد الفرس وبعد موته ولي كسرى على البلاد حاكماً فارسياً كما فعل في بلاد اليمن بعد موت معد يكرب.

وفي سنة ٦٣٢ عاد الملك إلى آل لخم فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور وكانت ولايته إلى أن قدم عليه خالد بن الوليد، ثمانية أشهر وهو آخر من بقي من بني نصر بالعراق.

جاء الإسلام وملك العرب بالحيرة ضعيف جداً كما كان اليمن لأن الملك كان عاملاً للفرس يأتمر بأمرهم ويؤدي لهم الخراج، وإذا شاء ملوك الفرس أبقوه وإن شاءوا عزلوه. ولم يكن سلطانهم على قبائل البدو سلطاناً تاماً وإنما كان اسمياً لأن العرب كثيراً ما كانوا يخالفون أمره بل ويقومون في وجهه محاربين وكان أحياناً ينتصر عليهم إذا قاموا في أماكنهم وأحياناً يخفق لأنهم يتركون منازلهم ويجتمعون ببواديتهم فلا يمكنه أن يتبعهم.

ومما يدل على مقدار سلطانهم على رؤساء العشائر العربية أن عمرو بن المنذر بن ماء السماء وأمه هند بنت الحارث بن عمرو الكندي قال يوماً لجلسائه هل تعلمون أحداً من العرب يأنف أن تخدم أمه أمي قالوا ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي، فان أمه ليلى بنت مهلهل وعمها كليب بن وائل وزوجها كلثوم وابنها عمرو فسكت عمرو على ما في نفسه ثم أرسل إلى ابن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه هنداً بنت الحارث أم الملك فقدم ابن كلثوم في فرسان من قومه تغلب ومعه أمه ليلى فنزل على شاطيء الفرات وضرب ابن هند خيامه بين الحيرة والفرات وصنع لأهل مملكته طعاماً وجلس هو وابن كلثوم ووجهاء الدولة داخل السرادق وليلى أم عمرو مع هند في القبة، وقد قال

ابن هند لأمه إذا فرغ الناس من الطعام فنحى خدمك عنك، فإذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها أن تناولك الشيء بعد الشيء ففعلت ما أمرها به ابنها فلما استدعى الطرف قالت هند لليلى ناوليني ذلك الطبق قالت لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها فألحت عليها فقالت ليلى: واذلاه يا آل تغلب فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه والقوم يشربون وقام وتناول سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذه وضرب به رأس ابن هند فقتله وقال في ذلك شاعر التغلبيين:

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا	لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم إلى السيف مصلتاً	وأمسك من ندمانه بالمخنق

وقال ابن كلثوم في معلقته:

بأي مشيئة عمرو بن هند	تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأي مشيئة عمرو بن هند	نكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وتوعدنا رويداً	متى كنا لأمك مقتوينا
فإن قناتنا يا عمرو أعيت	على الأعداء ـ قبلك ـ أن تلينا

الملك بالشام
الامارة بالحجاز
الحكم عند العرب

الملك بالشام:

في العهد الذي سار فيه عرب اليمن الى ريف العراق ،كان من قضاعة قبائل سارت إلى مشارف الشام وسكنت بها لأنها أرض خصبة يمكنهم أن يعيشوا فيها ،وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح ويقال لهم الضجاعمة نسبة إلى أبيهم ضجعم، وكانت هذه البلاد تحت ملك الرومان بعد غزوات الإسكندر المقدوني وفتوحاته، فاصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العيث وليكونوا عدة ضد الفرس وولوا منهم ملكاً، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة، وقد مكثت الضجاعمة عهداً طويلاً يلون أمر العرب حتى أقبل عليهم بنو جفنة الغسانيون ممن معهم من عشائرهم يقدمهم جفنة بن عمرو مزيقيا فغالب السليحين على ما بيدهم وانتصر عليهم، فولته الروم ملكاً على عرب الشام الذين كانوا يقيمون بنواحي الشام، وكان هذا العصر عصر اضطراب في المملكة الرومانية ويسمى في تاريخهم مدة الفوضى العسكرية وانتهت سنة ٣٧٦ م.

ولم تزل الملوك تتوالى من آل جفنة على الشام وما يليه من بادية العرب بصفتهم عمالاً لملوك الروم حتى جاء الاسلام ،وكانت واقعة اليرموك سنة ١٣ من الهجرة، وانقاد للاسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وكان لبني جفنة بالشام مدينة اقتبسوها من الروم فبنوا كثيراً من المصانع

والأديرة لأنهم كانوا يدينون بالدين المسيحي.

وكان حسان بن ثابت كثيراً ما يمدحهم لأنه ينتمي إلى أصلهم وهو الأزد وله فيهم المدح الجليلة منها قوله:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وكان لآل جفنة مواقف معدودة انتصروا فيها للروم على الفرس وصدوا عنهم ملوك الحيرة من آل نصر، فكان بين البيتين أيام هائلة منها يوم عين أباغ (وهي واد وراء الأنبار على طريق الفرات ـ إلى الشام) كان بين المنذر بن ماء السماء وبين الحارث الأعرج بن أبي شمر جبلة وهو من أعظم ملوك الغسانيين وكانت الغلبة في هذا اليوم لآل جفنة مع أن المنذر هو الذي بدأ بالشر لأنه كان يريد من خصومه أن يدفعوا له الفدية بمعنى أنهم يعترفون له بالقوة عليهم وفي هذا سقوطهم أمام الروم الذين اصطنعوهم.

وكان من نتيجة هذا اليوم أن الأسود بن المنذر لما ولي بعد أبيه أراد الانتقام له فجهز جيشاً تحت قيادته وسار إلى أن أبي مرج حليمة وهناك قابلته جيوش الغسانيين وكان لهؤلاء الظفر أيضاً.

الامارة بالحجاز:

كان يلي أمر مكة ولاة من جرهم قحطان ـ وهي جرهم الثانية ـ ولما جاء اسماعيل مكة مع أبيه إبراهيم صاهرهم، وكان لأولاد إسماعيل بعد أبيهم مركز محترم لما لأبيهم من بناء البيت وإن لم يكن لهم من الحكم شيء، وارتحل الأزد من مأرب بعد السد، كان منهم من عرج على مكة، وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم وأجلاهم من مكة حتى قال قائلهم:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى: نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

ووليت خزاعة أمر مكة حيناً من الزمن وفي وقت حكمهم تناسل العدنانيون وكثروا وانتشروا في نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي بمكة أولاد فهر ابن مالك وهو قريشي وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب، وهو الأب الخامس لمحمد بن عبد اللّه ﷺ، فجمع شتاتهم ووحد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة أمكنهم أن يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على أمر مكة، ولما لم يبق إلا أمر ولاية البيت آخذه قصي من سادنه المكنى بأبي غبشان وهو صهر قصي، ويقال إنه اشتراه منه بزق خمر، ولم يكن يمكنه مثل هذه الصفقة إلا بالقوة التي كونها من عصبية فهر بن مالك وبهذا كانت له السيادة التامة والأمر النافذ في مكة، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة، ومن مآثر قصي تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام أمورها ولهذه الدار فضل على قريش لأنها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى، وكان لقصي من مظاهر الرئاسة والتشريف:

(١) رئاسة دار الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ويزوجون فيها بناتهم.

(٢) اللواء فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيده.

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها إلا هو، وهوالذي يلي أمر خدمتها.

(٤) سقاية الحجاج ورفادته: ومعنى السقاية أنهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة، والرفادة طعام كان يصنع للحاج على طريق الضيافة، وكانت قريش تساعد قصياً على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذي تخرجه كل سنة.

كـان كل ذلـك لقصي بن كلاب، وكان ابنه عبـد مناف قـد سـاد في حيـاة أبيـه فأراد أبـوه أن يلحق به ابنـه عبد الـدار الذي كـان أسن من عبـد منـاف. فـأوصى لـه بما كـان يليـه من مصـالـح قـريش، فلم ينـازع عبـد منـاف أخـاه لاحتـرامه وصيـة أبيه. ولمـا مات كـان لـه أربعـة من الـولـد وهم هاشم، وعبـد شمس، والمطلب، ونوفل، فنافسوا بنو عمهم عبد الدار في هـذه المصالـح التي رأوا أنفسهم أحق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم، وبذلـك ابتدأ النـزاع بين بني العم. وسببه المنافسة في الشرف وافترقت قريش فرقتين: فـرقة تسـاعد بني عبـد منـاف وفرقـة تساعـد بني عبد الـدار، وكاد يكـون بينهم قتال لـولا أنهم ألهمـوا النصح على طريق لا يغض من الطرفين، وهو اقتسـام هذه المصـالح فجعلوا لبني عبـد الدار الحجـابة واللواء والنـدوة، ولبني عبد منـاف السقـايـة والـرفـادة، ثم حكم بنو عبد مناف القرعـة فيما أصـابهم فخرجت لهـاشم بن عبد مـاف، فكان هو الذي يليهمـا ومن بعده بنوه حتى جاء الاسلام والأمر على ذلك.

وكـانت لقريش مصـالح أخـرى لا تساوي هـذه في العـظم - وزعت بـين قبائل قريش، وبذلك كانت مصـالح الحكم والـولاية مـوزعة بـين رؤساء القبـائل المختلفـة من قريش حتى لا يكـون هناك مجـال للنزاع، وهذا ما حفظ قـريشاً ممـا أصاب سائر العرب من التنـازع والقتال إلا أنهم، وان لم يصـابوا بمصيبـة الحروب لم يسلمـوا من المنافسـة التي تكون حتـماً بين كبـراء البيت الواحـد إذا كان لكـل واحد ما يسـاعده عـلى الشرف والـرئاسة، وقد حـدث ذلك بـين هاشم بن عبـد مناف وابن أخيه أميـة بن عبد شمس، فقد كان هـاشـم سيداً بمـاله من المصـالح الكبرى في قومـه، وكان أميـة مثريـاً من المال والولد، ولـذلك كـان ينافس عمـه رئاسة قريش، فكان بذلك جفاء بين البيتين وأعقابهـما حتى جاء الاسـلام ولكن لم يصـل هذا النـزاع يومـاً إلى حد شبـوب القتـال بينهم، لأن البيت القـرشي كـان يحـاذر عـلى احتـرام البيت ومنـع الحـرم من سيـلان دم فيه، لأن ذلـك لـو وقـع لانحط المـركز السـامي الـذي نـالـوه بـواسـطة ولايتهم للبيت، فإن مكـة كـانت معـروفة عنـد العرب بـأنها حرم آمن من لجـأ إليه نجـا من عدوه وكـانت أشهـر

الحج عندهم أشهراً حرماً يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم، وداخل حدود الحرم والناس تهرع إلى هذه الأسواق من جهات العرب كافة، لأنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ، فإذا أخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيبته فيجتريء عليه غيرهم، وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم، فقد كان التحكيم في الأمور العظيمة من مألوف عادتهم.

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش إليها اضطراراً سمتها العرب حرب الفجار، لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده.

ومما امتازت به قريش حلف الفضول. وكان مداره على أن ترد كل مظلمة بمكة إلى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره، وهي روح تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبة تثيرها.

جاء الإسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام تعترف لها بذلك جميع العرب.

الحكم عند الأعراب في بواديهم:

كانت القبائل في نجد، ما كان بالقرب من الحيرة تبعاً لملك العرب بالحيرة وما كان منها في بادية الشام تبعاً لملك آل جفنة بالشام إلا أن هذه التبعية ـ بالنسبة لقبائل البادية ـ كانت اسمية لا فعلية لأن العرب لا يطيقون أن يحكموا حكماً ملوكياً يقيد حريتهم التي ليس عندهم ما يعدلها.

وكان لهذه القبائل رؤساء منهم تسودهم القبيلة لما يظهر على أيديهم من الفعال، وأعظم مسود كان عندهم الشجاعة والكرم والحلم، ثم الثروة والعدد فمتى وجدت هذه الصفات في رجل ساد العشيرة كلها، وكانت تبعاً لرأيه يوجهها أنى شاء. تقيم باقامته وتظعن بظعنه. وإذا دعا لحرب لا تتأخر عنه وإذا غنمت القبيلة أخذ حقوق الرئاسة والسيادة من الغنيمة يعدها لما يطرأ من

النوائب، وما يتحمله من الحمالات فكان له المرباع والصفي والنشيطة والفضول. فالمرباع ربع الغنيمة والصفي ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة. والنشيطة ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم، والفضول ما فضل من القسمة مما لا يتصح قسمته على عدد الغزاة، كالبعير والفرس ونحوهما قال بعض الشعراء يخاطب بسطام بن قيس سيد شيبان:

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

وقد يورث الأب الرئاسة لابنه، فإذا توالى من البيت الواحد ثلاثة رؤساء سادة عرف البيت بالشرف والمجد، وكان بيت قيس في الجاهلية في بني فزارة ومركزه حذيفة بن بدر، وبيت تميم في بني دارم ومركزه حاجب بن زرارة، وبيت ربيعة في آل ذي الجدين ومركزه قيس بن مسعود الشيباني، وكان لهؤلاء من السلطان ما يشبه سلطان الملوك في رعاياهم إلا أنهم كانوا لا يتتوجون حتى كان بعضهم إذا غضب غضب لغضبه ألوف من السيوف لا تسأله فيم غضب، وكان في بعض الأحيان يعظم قدر الرئيس ويشتد ساعده بولده وعشيرته فيغزو القبيلة الضعيفة ويجعلها خاضعة تؤدي له خراجاً كل سنة، كما كان زهير بن جزيمة سيد عبس ـ من قيس ـ مع هوازن وهم بطون من قيس فانهم كانوا يؤتونه الأتاوة كل سنة بعكاظ وكان النعمان بن منذر، قد صاهره فتزوج ابنته المتجردة.

وممن ساد من العرب هوذة بن علي الحنفي سيد بني حنيفة والمنذر بن ساوي التميمي، سيد عبد القيس، وتميم بالبحرين.

وعلى الجملة: فقد كانت درجة رؤساء القبائل، في قومهم كدرجة الملوك ولولا ما كان يحصل من المنافسة في السيادة بين أبناء العم، من الرؤساء لكان تحكم السادة شديداً، ولكن تلك المنافسة كانت تدعوهم إلى بذل الندى، وإكرام الضيف والدفاع عن العشيرة ليشتهر ذلك على ألسنة الشعراء منهم فيهتفون بأسمائهم مادحين، والشعر كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجو.

الحال الأدبية
الأخلاق ـ اللغة

الأخلاق:

الخلق هو الملكة التي بها يصدر الفعل عن صاحبها من غير مقاومة، وقد اصطلح الكتاب على أن يقصروا لفظ الخلق على الملكات النفسية، كالشجاعة والجبن والسخاء والبخل، وعلى أن يطلقوا لفظ العادات على الملكات الأخرى كالمشي واللعب النظامي.

عموم الأخلاق:

لا يحسب الخلق على الأمة إلا إذا كان مألوفاً عند أفرادها يفعله فاعله منهم من غير أن يحاذر نكيراً أو يخشى لومة لائم ولو لم يباشره جميعهم، ولذلك عد من مذام الأمم، التي بها تستحق السقوط والخذلان، انهم لا يتناهون عن منكر فعلوه، ومن هنا قال اللّه تعالى في الكتاب **﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾**[1] لأن الشرير يفعل فلا ينكر عليه أحد فيشترك هو ومن معه في الجريمة، فإن كان الشر معروفاً عن فرد أو جماعة يستسرون به أو يعلنونه مع اشمئزاز الجمهور منهم كانت المذمة قاصرة على الفاعلين لا تعدوهم إلى الأمة بأسرها، وحينئذ يكون من الخطأ عد هذا الخلق على الأمة، كذلك لا يحسب الخلق للأمة إلا إذا كان فاشياً بين أفرادها مألوفاً عند جميعهم لا يخالفه أحد منهم إلا مستتراً ويخاف المذمة إن ظهر بالمخالفة أمام الجمهور، وعلى هذه القاعدة تسير في بيان الأخلاق عند العرب.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

من الأخلاق التي كانت للعربي سرعة الانفعال والإقدام على المكاره تراه ساكناً مطمئناً فلا تحتاج في هيجه إلا إلى كلمة صغيرة أو فعلة حقيرة يتخيل معها أن قد مس شرفه، فنجده زأر كالأسد خرج من مكمنه لا يتريث حتى يستطلع جلية الأمر، بل يقدم منكباً عن ذكر العواقب جانباً، وهذا الخلق أكثر ما تراه في قبائل البادية الذين كانوا لا يخشون سجناً ولا أحكاماً قاسية من جراء أفعالهم، بل هم بالعكس ينتظرون، النصر المؤزر من أقوامهم وحلفائهم، والنفس إذا أحست بما يضرها انفعلت، وتهيأ لها طريق الانتقام، فإذا لم تخش العادية أقدمت، ومن هنا كان من السهل تحريك عامتهم إلى السير في طريق الحروب بقليل من الكلمات، وكانت هناك كلمات تحرك قلب العربي كما في كل أمة، وأرقاها درجة في التأثير. يالفلان. واذلاه وانصيراه، شرف الآباء، وما شاكل ذلك، ولم يكن عندهم شيء من بلادة الطبع التي تجعل صاحبها يألف سماع ما يهين شرفه، حسبما يتخيل ويتبع هذا الخلق الجرأة على سفك الدم، لأن النفس متى تهيأ لها طريق الانتقام وقدرت ولم تخش عقوبة لم تكتف بدون الموت لمن تريد الانتقام منه.

ومن هنا كان خلق الحلم فيهم عزيزاً اللهم إلا في سادتهم وذوي الأسنان منهم، ولذلك كان المعروفون بالحلم منهم قليلين.

ومن أخلاقهم التعصب، ومعناه أن ينصر ذا عشيرته على أية حال يرون ذلك من مقومات حياتهم وقد تقدم بيان هذا بوضاحة في حال العرب الاجتماعية، وقد سمى القرآن هذا الخلق وما قبله حمية الجاهلية، لأن فيهما نتيجة من نتائج الجهل وعدم التثبت.

ومن أخلاقهم المتأصلة فيهم الكرم وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومثن على غيره، كان الواحد منهم يأتيه الضيف ـ في شدة البرد والجوع ـ وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة ولده فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها ويذبحها لضيفه يخشون مذمات الأحاديث ويقول قائلهم:

واعلم بأن الضيف يو   ماً سوف يحمد أو يلوم

ومن طريف أخبارهم في الكرم أن سالم بن قحطان من بني العنبر جاءه أخو امرأته فأعطاه بعيراً ثم طلب من امرأته حبلاً يقرن به بعيره إلى من أعطاه إياه ثم ثانياً وثالثاً حتى لم تجد حبلاً! فقال لها على الجمال وعليك الحبال، فرمت إليه خمارها وقالت اجعله حبلاً لبعضها فقال:

لا تعذبيني في العطاء ويسري ... لكل بعير ـ جاء طالبه ـ حبلاً
فاني لا تبكي على إفالها ... إذا شبعت من روض أوطانها بقلاً
فلم أر مثل الإبل مالاً لمقتن ... ولا مثل أيام الحقوق لها سبلاً

فأجابته امرأته:

حلفت يميناً يا ابن قحطان بالذي ... تكفل بالأرزاق في السهل والجبل
تزال حبال محصدات أعدها ... لها ما مشى منها على خفة جمل
فأعط ـ ولا تبخل ـ لمن جاء طالباً ... فعندي لها خطم وقد زاحت العلل

ويرى المطلع على أبواب الحماسة والرثاء والأدب والأضياف ـ من ديوان الحماسة الذي جمعه حبيب بن أوس الشهير بأبي تمام ـ ما يثلج الصدر.

ومن أخلاقهم التي كانوا يتمدحون بها ويعيبون من خالفها ،الوفاء بالعهد فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به ويستهينون في سبيل الوفاء به قتل أولادهم وتخريب ديارهم. أنظروا الى ما فعله هانيء بن مسعود الشيباني بسبب أدرع النعمان بن منذر وأولاده حيث عرض نفسه وقومه لحرب أضخم دولة وهي الدولة الفارسية، فأغضب ملكها ونائبه على الحيرة غير مبال بما يصيبه وما يصيب قومه من جراء ذلك، ثم أنظروا إلى ما فعله السموءل بن عادياء وهو عربي المقام والمولد حينها خيره الحارث الغساني بين قتل ولده وتسليم أدراع امريء القيس بن حجر الكندي التي كان أودعها عنده ففضل قتل ولده، وفي ذلك يقول الأعشى مخاطباً شريح بين عمرو الكلبي:

كن كالسوءل إذ طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدار

فخيـره خـطتي خسف فقـال لـه   أعـرضهـا هكـذا أسمعهـا حـار
فقـال غـدر وثكـل أنـت بينهـا   فـاختـر ومـا فيهـا حظ لمختـار
فشـك غـير طـويـل، ثم قـال لـه   اقتـل أسيـرك إني مـانـع جـاري
وسـوف يعقبنيـه إن ظفـرت بـه   رب كـريـم وبيض ذات أطـهـار
فـاختـار أدراعـه أن لا يسب بهـا   ولم يكـن عـهـده فيهـا بـختـار

ثم أنـظر إلى مـا فعله حـاجب بن زرارة التميمي سيـد بني تمي كيف وفى للملك بما تعهد بـه أن رهن على ذلـك قوسـه عنـد كسـرى حتى ضـرب المثل بقوس حاجب ،القـوس في الحقيقة لا يمنعـه رهنها من فعـل ما يشـاء إن كان من شيمتـه الغدر وإنمـا خاف السبـة على بنيـه من بعده ـ إذا هـو غدر ومما يبين لنـا قيمة هذا الخلق في الأمة العربيـة أنهم كانـوا إذا زل واحد منهم زلـة فغدر بـذي عهد أصلاه الشعراء ناراً حامية وقلما يفلح بعدها أو يرفع له رأساً بين العرب.

وخلق الـوفاء في الحقيقـة أعظم ممثـل للأمـة ومبين لمقدارها واستعـدادهـا للرقي فإن خلت منه فبشرها بخذلان وسقوط لا محيص عنها.

ومن نتـائج هـذا الخلق أنهم كانـوا يغلون في الوفـاء للجـار والحليف حتى يكـون عندهم مقـدماً عـلى الأبناء والإخـوان، ومن ذلك أن رجـلاً من السواقط من بني أبي بكـر بن كلاب قـدم اليمامـة ومعه أخ لـه فكتب له عمـير بن سلمى أنه له جار، فحدث أن كـان بين قـرين بن سلمى وبين أخي الجـار أسباب أدت إلى أن قتله قـرين، وكان عمـير غائبـاً فأتى الكـلابي قبر سلمى أبي عمـير وقرين فـاستجار بـه، فاجتهـد بنو حنيفـة بالكـلابي أن يقبـل ديـة أخيـه مضـاعفـة فلم يفعل، فلما قدم عمير قالت له أمه لا تقتـل أخاك وسق إلى الكـلابي جميع مـاله، فأبى الكلابي أن يقبـل فأخـذ عمير أخـاه ومضى به حتى قـطع الوادي فـربطه إلى نخلة وقال للكلابي أمـا إذا أبيت إلا قتله فأمهـل حتى أقطع الـوادي وأرتحل عن جواري فلا خير لك فيه فقتله الكلابي. وفي ذلك يقول عمير:

[illegible] أخـانـا لـلوفـاء بجـارنـا   وكـان أبـونـا قـد تجـير مقـابـره

وقالت أم عمير:

تــعــد مــعــاذراً لا عــذر فـيــهــا   ومـن يـقــتـل أخــاه فـقــد ألامـا

أما أمـرهـم مـع حلفـائهم فهـو أوضـح من أن نتكلم فيه فـإنهم كـانـوا يخلطون حلفـاءهم بـأنفسهم ويـوفـون لهم بـأيمـانهم التي عقـدوهـا معهم ،وكان الحليف يعـد من أفراد القبيلة التي دخـل في حلفهـا وينـال شـرفهـا، وقـد كـان حلفاء قريش في الجـاهلية يتـزوجون بنـاتهم مع أن قـريشاً كـانوا يضنـون ببناتهم عن أي قبيلة أخــرى لا يـرون أحــداً من العــرب لهن كفؤا إلا من دخــل في حلفهم. ومن أخلاقهم التي كانت بجانب الكرم والوفاء الشجاعة، وهي قـوة في النفس تحمل صاحبهـا على الإقـدام على المكـروه. وباب الحمـاسة في أشعـارهم أكبر من باب الكرم، لأن الشجاعة خلق يظهر في جميع الأفراد، أما الكـرم فانـه لا يظهر أثره بجلاء إلا عنـد أرباب الأمـوال الذين يمكنهم أن يعـطفوا عـلى الفقراء والمعوزين، وقد اشتهـر من العرب كثيـرون امتازوا عـلى أقرانهم في شـدة البأس وقوة القلب، وكان فيهم من نتـائج حميـة الجاهليـة ضعف خلق الرحمـة بمن يقع تحت أيديهم من أعدائهم.

وقـد بقيت بعد ذلـك أخلاق كـانوا يتـواصون بهـا في أشعـارهم، ولكنا لا يمكننا أن نقول إنها كـانت أخلاقـاً عامـة لجمهورهم، ومن يطلع على كـلامهم في أبـواب الأدب يجد من وصـايـاهم الجميلة وحكمهم الجليلة شيئـاً كثيـراً يـذهب بنفس قـارئه كـل مذهب، ويجعله يحكم أن هـذه الأمـة مـع مـا كـانت عليـه من البـداوة وشـظف العيش ـ لم تخـل من حكـماء أو دعـوا أشعـارهم مــا يفيـد من بعــدهم، ولنتكلم بعـد ذلــك عــلى شيء من عــاداتهم حسبـما قــدمنــا من الاصطلاح.

من العادات المتأصلة التي كان العرب يتمدحون بهـا الميسر! وكانـوا يرون أنـه سبيل من سبل الكرم، لأنهم كـانوا يـطعمون المسـاكـين مـا ربحـوه وكـانت طريقتهم في لعبه أن يجتمع الفتيان وذوو اليســار ويشترون جـزوراً يقسمه الجـزار

إلى عشرة أجزاء، ثم يجاء بالقداح وهي عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول وهي عشرة، الفذ، والتأوم، والرقيب، والحلس، والنافس والمسبل، والمعلى، والمنيح، والفيح، والوعد، والثلاثة الأخيرة غفل من العلامات لا تصيب لها إنما جيء بها لتكثير العدد، والسبعة الأول عليها علامات تبتديء من الواحد وتنتهي إلى السبعة. للمعلى فيأخذ كل من الفتيان حسب مقدرته واستعداده، ثم يدفعون هذه القداح إلى رجل أمين يقال له أمير المقامرين، فتدفن في الرمل أو توضع في خريطة ويلف على كف الأمين قطعة من جلد لئلا يحابي أحداً من المقامرين، ليخرج له قدحه ويجلس خلفه آخر اسمه الرقيب وهو الحكم، ثم يدخل الأمين يده فيخرج له قدحاً: ولنفرض أن الخارج هو الفذ فيكون صاحبه فائزاً له عشر الجزور، ثم تضرب القداح على تسعة الأجزاء الباقية فإن خرج التوأم فلصاحبه جزآن، ثم تضرب القداح فإن خرج المعلى فلصاحبه السبعة الباقية، ويكون الغرم على الباقين وعدد سهامهم ١٨ فيجزأ الثمن على ١٨ جزءاً يدفع منها كل قدر سهامه، وإن خرج في أول الضرب الرقيب فاز صاحبه بثلاثة أجزاء ويضرب على السبعة فإن خرج بعده المسبل أخذ ستة أجزاء وبقي واحد فلا يمكن ضرب القداح عليه، لأن ما يستحق أكثر من جزء فيشترون جزوراً أخرى يقسمونها كالأولى فيكون الباقي ١١ جزءاً يضربون القداح عليها فإن خرج المعلى أخذ سبعة وبقي أربعة فلا يمكن ضرب القداح عليها لأن منها الناس، وله خمسة أجزاء فينحرون جزوراً أخرى فيكون الباقي ١٤ جزءاً فإذا خرج النافس أخذ خمسة أجزاء ثم يضربون فإذا خرج الحلس أخذ أربعة، ثم التوأم وله اثنان، ثم الفذ وله واحد، فالمجموع ١٢ جزءاً ويبقى جزآن يوزعان على الفقراء، وكل من ربح في جزور ليس عليه من ثمنها شيء ويدفعه الذين لم يربحوا فثمن الجزور الأولى يقسم على ١٨ جزءاً، وهي لمن عدا الرقيب والمسبل والمعلى. وكذلك ثمن الثالثة.

والتصدق بالربح على الفقراء هو منفعة الميسر التي أثبتها الكتاب، ولكن لما كانت المفسدة تربو على المصلحة حرمه الدين الاسلامي، وهذه المفسدة هي

أنه يوقع العداوة والبغضاء بين اللاعبين ويصد عن ذكر اللّه وعن الصلاة لأن المقامر غافل عن كل شيء.

ومن عاداتهم التي يتمدحون بها ـ شرب الخمر يرون أنها كذلك سبيل من سبل الكرم! ومما يسهل السرف على النفس، لذلك تجدها في الشعر العربي باباً من أبواب المديح والفخر. ومن أحسن ما قيل في شربها من جهة الأسلوب اللغوي قول عنترة:

ولقد شربت من المدامة بعدما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة	قرنت بأزهر بالشمال مفدم
فإذا سكرت فإنني مستهلك	مالي وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى	وكما علمت شمائلي وتكرمي

والشرب ـ في وقت عنترة هذا ـ كان يسمى عندهم بالغبوق، وبعضهم كان يشربها صباحاً ويسمى الصبوح.

وقد شرك الكتاب بين الخمر والميسر في التحريم، لأن المنفعة في كليهما واحدة والمفسدة الزائدة واحدة فقال: **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾**[1]: ثم بين هذا الإثم مرة أخرى فقال: **﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر اللّه وعن الصلاة﴾**[2] وهذا إثم يربو على كل منفعة.

وهناك عادات أخرى كانت تدعوهم إليها أديانهم سنتكلم عنها في مبحث الدين.

لغة العرب:

اللغة العربية إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم مذ

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٩.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٠.

حلها قحطان رأس قبائل اليمن، ويسمعون في التاريخ بالعرب العاربة لأصالتهم في العربية، ومن قبائل اليمن قبيلة جرهم الثانية التي سارت إلى مكة واحلتها قبل أن يردها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم وكثرت بنوه بمكة وكان إسماعيل رجلاً عبرانياً يتكلم باللغة العبرانية وهي الثانية من اللغات السامية، وأمه هاجر امرأة مصرية. أخذ إسماعيل لغة العرب عن جرهم الذين عاشرهم، ولكنه بحكم الضرورة أدخل في اللغة العربية بعض ما يحفظه من الكلمات العبرانية وبعض ما تحفظه أمه من اللغة المصرية بعد أن هذبت بحسب ما يسهل على اللسان العربي، وهذا أمر يسهل القول به، لأن إسماعيل وأمه لا يمكنهما أن ينسيا بالمرة ما في أنفسهما من الكلمات المحفوظة، وإذا احتاجة إلى التعبير عن معنى لم توضع له كلمة في لسان جرهم يفزعان إلى ما معهما وهذا مشاهد في تفاعل اللغات المستعملة، والمؤرخون يسمون إسماعيل وبنيه بالعرب المستعربة، لما كان من دخولهم في العربية ليس أصلهم منها.

بذلك كانت اللغة العربية فرعين: الفرع العربي الحميري وهو لغة العرب الأصيلة، والفرع العدناني أو الحجازي وهو لغة بني إسماعيل، ولهجة اللغتين وطرق التعبير بهما لا يختلفان، وإنما الخلاف في ألفاظ يستعملها الحميريون ولا يستعملها الحجازيون وبالعكس. والمتتبع لألفاظ أهل اليمن وما كان يكتب اليهم بلسانهم يرى غرابة سببها عدم الإلف لسماع تلك الألفاظ ويحس منها بصلابة لا يجدها فيما يرادفها من الألفاظ الحجازية.

معلوم أن اللغة إنما يتكلم بها أصحابها تبعاً لحاجاتهم، فالمفهوم أنها تكون في بدء نشأتها كلمات قليلة يتواضع عليها الناس بحسب ما يعن لهم من الحاجات ويكون أكثرها من الكلمات الدالة على ما يقع عليه الحس، وكلما اتسعت دائرة الحاجات وأدركت المعاني المعقولة استدل عليها بكلمات تنبيء عنها، لذلك كانت اللغة العربية كغيرها من اللغات الحية، في حركة مستمرة ونمو سريع.

وكان للعرب في توسيع مادة اللغة طرق ثلاث:

الأول ـ تجديد الوضع، وكانت القبائل تلجأ إليه أحياناً وربما اختلفت مواضعتهم فيجيء للمعنى الواحد كلمتان أو أكثر، وقد يكون بعض الأسماء مشتقاً من صفة في المسمى وبهذا يجيء ما يسمونه بالترادف، وأكثر ما نجده في أسماء الأشياء التي هي عند عامتهم لا يستغنى عنها فريق منهم كالسيف والرمح والجمل والكلب والهر وما شاكل ذلك.

الثاني ـ التجوز فقد كانوا ينظرون إلى الشيء الجديد فيجدون بينه وبين شيء آخر له اسم عندهم ارتباطاً أو تشابهاً، فيطلقون لفظ الأول على الثاني ومع تطاول الزمن ينسى أول الشيئين وآخرهما، فيظن المطلع أن الكلمة وضعت في أصل اللغة وضعاً ابتدائياً لكل من المعنيين، ويحكم بأن الكلمة مشتركة وقد يغيب عن الناظر ما تخيله العرب من الارتباط بين المعنيين فيقول بتعدد الوضع وللعرب في هذا التجوز دقائق تأخذ باللب يذكرها من عنى بلغتهم، وكانوا دائماً يكنون عن المعاني التي لا يرونها شريفة، ولا يليق التصريح بأسمائها بألفاظ مستعارة وأصلها موضوع لمعنى شريف، ومتى شاعت الكلمة وكادت تكون صريحة في المعنى الخسيس عدلوا عنها إلى غيرها من الألفاظ المستعارة. ولذلك نرى كثيراً من الكلمات ابتليت بأنها استعيرت وقتاً ما لمعان خسيسة ثم بقيت لها تلك المعاني بسبب عدم الاعتناء من نقلة اللغة.

وللعرب نوع آخر من التجوز وهو التعبير باللفظ لا إرادة ما يلزمه حسبما يتخيلون من هذه الملازمات وهي المسماة في اصطلاح البيانين بالكنايات.

الطريق الثالث ـ طريق التعريب وهو استعارة اللفظ من لغة أخرى بعد صقله وتهذيبه، وكان لهم في التعريب الشأو الواسع، لأن العرب اشتغلوا بالتجارات والأسفار وساكنوا الفرس والروم والحبش، وكانت ترد على حواسهم أشياء جديدة لم يكونوا قد رأوها فسرعان ما يأخذون عن تلك الأمم اسمها بعد أن يتلاعبوا به قليلاً حتى يكون على نمط نطقهم، وأكثر هذه الكلمات أدخلت في اللغة قبل الاسلام بزمن ليس بكثير.

وأعظم واسطة كانت لإشاعة الكلمات المعربة والمتجوز بها حتى يستعملها الجمهور الشعر العربي، فإن هذا الشعر كان لهم بمثابة الجرائد عندنا ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقفها الأسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم وكانت أسواقهم التي إليها يجتمعون لإلقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام، وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز.

فأما عكاظ، فهو بين نخلة والطائف وكانت تعقد في أول ذي القعدة إلى عشرين منه، ومجنة بمر الظهران ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيه إلى غاية ذي القعدة، وذو مجاز خلف عرفة يقيمون فيها ثمانية من ذي الحجة، ثم يعرفون في التاسع إلى عرفة وهو يوم التروية وكان شعراء العرب يفدون من كل صوب ومن كل قبيلة ينشدون ما جادت به أفكارهم، وهناك ينال الشعر ما يستحقه من التشريف والتكريم وربما امتازت بعض الكلم الشعرية بالشرف الرفيع كما قالوا في المعلقات السبع وما يقاربها مما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب، وأكثر الممتازين من الشعراء هم العدنانيون ومن جاورهم من يمن كامريء القيس الذي كان أبوه ملكاً في نجد على بني أسد، وشعراء الأوس والخزرج الذين كانوا بالمدينة، وطيء وكلب التميمين في شمالي الجزيرة.

وكانت قبائل البدو أقل العرب تعريباً لقلة الحاجة عندهم، ولأن معاشرتهم للأمم الأخرى تكاد تكون معدومة بخلاف أهل الحيرة والرحالين من غيرهم، ولذلك ترى بعض رجال اللغة لا يحتجون بمثل عدي بن زيد العبادي الحيري وأمية بن أبي الصلت الثقفي، لأنه كان ذا أسفار يخالط العلماء ويقتبس منهم وقد أدخل كل منهما كلمات في اللغة لم يسبق إلى استعمالها وليس هذا بضائرهما عند من كان ذا نظر أوسع من ذلك.

كل هذه الطرق أفادت اللغة العربية فائدة كبرى وهي سعتها وقدرتها على التعبير عما يكنه الصدر من المعاني، فكانت وافية بحاجتهم على قدر ما اتصلت به معلوماتهم، وفوق ذلك صارت مستعدة لأن تقتبس من غيرها ما يرى المتكلمون بها أنفسهم في حاجة إليه حسبما شرع العرب من هذه الطرق،

ولا تحتاج اللغة إلى أكثر من هذا في استعدادها للحياة الدائمة بعد أن تكون سهلة سلسة على الألسن والأسماع وهذا ما نحس به في هذه اللغة الجميلة.

جاء الإسلام واللغة قد رقيت أعظم درجة كانت تمكن لها في عهد العرب فكثر الشعراء النابغون والفصحاء القوالون، يتباهون في مواقفهم المعدودة لهم بما أوتوه من الفصاحة واللسن، وتعد القبيلة نفسها ذات حظ عظيم إذا هي رزقت شاعراً ينافح عنها في المجامع، وربما أولمت الولائم فرحاً بذلك واستبشاراً، وكان لقريش خاصة من الفصاحة والحكم المقبول ما ليس لغيرهم، ولذلك كانت اللغة القرشية ممتازة تدين لها العرب وتعترف لها بالسبق.

ومن أراد أن يرى مثالاً واضحاً من رقة لغة العرب وتفنن شعراء العرب في جميل المعاني، فليطلع على ما اختاره أبو تمام الطائي من شعر العرب وعلى ما جمعه أبو علي القالي في أماليه، وما جمعه أبو العباس المبرد في كامله، وما جمعه صاحب جمهرة أشعار العرب، فإن ما في هذه الكتب يكاد يكون زبدة أشعارهم وخلاصة أفكارهم وليس يعاب على بعضهم إلا أشياء قليلة جمعوها وكان أجدر بهم لو تركوها وهو تراب قليل جداً في جانب الذهب الوفير.

الكتابة ـ العلوم ـ الدين

الكتابة عند العرب:

وكان العرب باليمن يخطون فكان خطهم يسمى بالمسند، ولم تكن الكتابة عندهم بالشيء الذائع يتناوله جميع الأفراد وإنما كان في الخاصة منهم كما كان الشأن في الكتابة المصرية، ومن اليمن انتقل الخط إلى الحيرة والأنبار لما كان من الارتباط بين ملوك الجهتين، وكانوا يسمون خطهم بخط الجزم لأنه اقتطع من خط حمير، ومن الحيرة نقله حرب بن أمية الى مكة وكان رجلاً سفاراً فعلى عهده كان بدء الخط بمكة فتعلمه بعض رجال من قريش وكانت الكتابة في هذه الجهات الثلاث ليست بالشيء المتداول الذائع.

أما بادية العرب فلم تكن تخط حتى أنها كانت لترى في ذلك سمة عيب كما هو شأنها في بقية صناعات المدنية.

ولقلة انتشار الكتابة وانحصارها في أفراد قليلين يسهل أن نعبر عن الأمة العربية بأنه أمة أمية أي لا تقرأ ولا تكتب، وبذلك سماها الكتاب حينما جاء الاسلام فقال: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم**﴾[1]

وعدم الكتابة سبب كبير في اعتماد الإنسان على قوته الحافظة، والقوة متى استعملت نمت، لذلك كان العرب من أحفظ الأمم فكانت تلقى عليهم القصائد في المجتمعات فيتلقفونها ويتغنون بها كلاً أو بعضاً وربما فاتهم الشيء منها إذا اشتبه عليهم الأمر فقدموا وأخروا، وهذا سبب لما تراه في بعض

(١) سورة الجمعة: الآية ٢

الأشعار الطويلة من الاختلاف بالتقديم والتأخير والحذف والإثبات، ولكون الشعر أكثر استعداداً لأن يحفظ كان الباقي لنا منه أكثر مما بقي من نثرهم وخطبهم في المحافل والمجامع.

جاء الإسلام والعرب على هذا النمط من صناعة الكتابة، فأخذ بيدهم إلى طريق ترقيتها كما يأتي بيانه.

علوم العرب:

العلوم والصناعات تسير مع المدنية جنباً لجنب لأن الإنسان متى احتاج فتقت له الحاجة وجه الحيلة فاخترع ما يسد تلك الحاجة، ولذلك يقولون: الحاجة أم الاختراع وكانت العرب يغلب عليها البداوة فقلت حاجتها وتبع ذلك قلة العلوم والصناعات إلا ما كان منها مختصاً بما هم في حاجة إليه، وكانت الحاجة في حواضر العرب أكثر منها في باديتهم، ولذلك كان عندهم من العلم والصناعة أكثر مما عند البداية. كانت حاجة العربي في باديته تنحصر في الماء الذي يحتاج اليه ويصله من السماء ثم في جملة الذي هو عدته ثم في ملبوسه البسيط الذي يقيه حر الصيف وبرد الشتاء ثم في بيته الشعري ثم أداة حربه وقلما يحتاج إلى أكثر من ذلك.

فأما حاجته إلى المطر فقد أكسبته ملاحظة الجو وتغيراته وما تنبيء عنه تلك التغيرات من التبشير بقرب المطر أو الإنذار بالجدب، وقد كانت لهم في ذلك قواعد تجريبية قلما تختلف فيستدلون بالريح وبأشكال السحب وبالأنواء[1].

---

(١) قسم العرب المنطقة التي تتقلب فيها الشمس وتبلغ ٤٧ درجة اثنى عشر قسماً وسموا كل قسم برجاً، لكل برج شهر كامل وهذه البروج منها ستة في جنوب الدائرة الاعتدالية ومثلها في الشمال وسموا كل برج إسماً بحسب ما تخيلوه من شكل الكواكب المكونة له، فالتي في الشمال هي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة، والتي في الجنوب هي الميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

وتخيلوا من أجزاء هذه المجموعات الكوكبية أشكالاً أخرى وهي التي يتقلب فيها القمر في مدة دورته وقسموها إلى ٢٨ منزلة لكل منزلة ليلة، وكل برج من البروج الشمسية فيه منزلتان أو ثلاث

ومن استدلالهم بالرياح وأشكال السحب ما رواه صاحب الأغاني قال: خرج أعرابي مكفوف البصر ومعه ابنة عم له لرعي الغنم لهما فقال: الشيخ إني أجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري. فقالت أراها كأنها ربرب معزى هزلي، ثم قال لها بعد ساعة إني أجد ريح النسيم قد دنا فارفعي رأسك فانظري قالت أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها قال ارعي واحذري، ثم قال لها بعد ساعة إني لأجد ريح النسيم قد دنا فانظري فقالت أراها كأنها بطن حمار أصحر، فقال أرعي واحذري ثم مكث ساعة، وقال إني لأجد النسيم فما ترى؟ قال أراها كما قال الشاعر:

دان مسف فويق الأرض هيدبه … يكاد يدفعه من قام بالراح
كأنما بين أعلاه وأسفله … ربط منشرة أو ضوء مصباح
فمن بمحفله كمن بنجوته … والمستكن كمن يمشي بقرواح

قال انجي لا أبالك! فما انقضى، كلامه حتى هطلت السماء عليهما.

وحاجتهم إلى إبلهم أكسبتهم بالتجارب قواعد ترجع إلى أدواء الإبل

وهذه المنازل ـ السرطان والبطين ـ النجم وهو الثريا ـ الدبران ـ الهقعة ـ الهنعة ـ الذراع ـ البثرة ـ الطرف ـ الجبهة ـ الخراتان ـ الصرفة ـ العواء ـ السماء ـ الغفر ـ الزباني ـ الاكليل ـ القلب ـ الشولة ـ النعائم ـ البلدة ـ سعد الدابح ـ سعد بلع ـ سعد السعود ـ سعد الأخبية ـ فرع الدلو المقدم ـ فرع الدلو المؤخر ـ الحوت.

وبعد انتهاء الأيام الثمانية والعشرين يبتدىء القمر فيعيد التقلب في هذه المنازل كالمرة الأولى حتى إذا دار بها ١٣ دورة كان تمام السنة الشمسية.

وهذه النجوم التي سميت بها هذه المنازل كان العرب يربطون بغروبها وشروقها التغيرات الجوية، فإذا غرب منها نجم وأشرق آخر سموا ذلك نوءاً، وفي كل ثلاثة عشر يوماً نوء جديد. وقال بعض علمائهم إنه يسمى نواءاً إلا إذا كان معه مطر، فإن لم يكن مطر فلا نوء، وإذا نسبوا المطر نسبوه إلى النوء فيقولون مطرنا بنوء، كذا يصيفونه إلى الساقط وكانت لهم أشجاع محفوظة يضبطون بها ما يتبع النوء من الحوادث الجوية مثلاً قولهم الصرفة باب الدهر لأنها تفتر عن البرد أو عن الحر في الحالين، وإذا طلعت العواء وجثم الشتاء طاب الصلاء وما ماثل ذلك مما لا حاجة بنا إلى الاضافة فيه.

ومداواتها وإبعاد سليمها عن أجربها كيلا يعديه، وكان لهم في معرفة ذلك حظ وافر كما أنهم استفادوا لحفظ حياتهم شيئاً من الطب الإنساني ومعرفة أمراض الإنسان التي تنتابه في الصحراء من أنواع الحمى التي لابد منها لمن يقيم حول منابع الماء متعرضاً لبرد الليل وحمارة القيظ وسموها بأسماء شتى على حسب أنواعها.

وكان للكي بالنار في أدويتهم قصب السبق، ويكاد يكون الدواء الوحيد لأمراضهم الثقيلة، وقد اشتهر منهم مجربون سموهم الأطباء والنطاسيين ومن هؤلاء من كانت له رحلات فاستفاد شيئاً من الطب من حواضر البلاد الأخرى.

وحاجتهم إلى ملابسهم علمتهم غزل الصوف والوبر، وقد اختص بتلك الصناعة نساؤهم، فالمرأة إن قالت إني صناع اليد فانما تعني بذل أنها تغزل ومن هذا الغزل كانوا يصنعون البرود والأكسية والخيام الشعرية، وكان النسج في حواضرهم وأكثر ما يكون في بلاد اليمن حتى قيل لما يمدح من ثيابهم البرود اليمنية.

وحاجتهم إلى أدوات القتال علمتهم صناعة الرماح، وأفادتهم التجارب معرفة الأشجار اللائق أن تصنع الرماح منها، وغير اللائق كالنبع والغرب، فكانوا يجيدون صنع قناتها ثم الزج والسنان، وكانت هناك بلاد قد اشتهرت بصنع الرماح كالخط في البحرين، ولذلك تنسب إليها فيقال رماح خطية، أما السيوف فكانوا يجلبونها من صناعها بنواحي العراق، وكانوا يسمون ناحية الأبلة الهند، ولذلك يقولون سيوف هندية ومهندة على طريق الاشتقاق.

وكانوا بحكم الضرورة يحتاجون إلى حساب إبلهم، وما يملكون من دراهمهم فعلمهم ذلك الحساب ولكنه لم يكن في البادية حساباً منتظماً بأرقام وقواعد تعلم، وإنما كان حساباً أرقامه الأيدي ولهم طرق معروفة في بيان كل عدد.

ومن علومهم التجريبية علم القيافة، وهي نوعان الاستدلال بأثر الماشي

عليه والاستدلال بمقاطيع الجسم على صحة النسب وبطلانه، وكان فيهم قبائل قد شهرت بهذا العلم حتى كان قول الفرد منها حكماً في الآثار والانسان كبني مدلج. وللعرب في معرفة الأثر أعاجيب لا يكاد الانسان يعيرها تصديقاً ولكن الذي يرى ما بقي منها بين أعراب السودان لا يقف عن التصديق لحظة، وقد رأيناهم يعتمدون على ذلك في إظهار الجنايات وفاعليها وقلما يخطئون. قال جكسون باشا مدير دنقلا في تقريره لسنة ١٩٠٥:

« ولمهارة القائفين فائدة كبرى في اكتشاف الجناة والعثور عليهم واليك مثالاً من ذلك ـ في إحدى الليالي سرق صندوق سكر من حانوت في مروى وكانت أرض السوق والطرق المجاورة لها مرملة، ففحص القائفون المكان في صبيحة اليوم التالي وعثروا على أثر رجلين وحمار فاقتفوه إلى أن وصلوا إلى اصطبلات الحكومة، وهناك عرضوا جميع السواس فأخرجوا من بينهم سائس المدير وسائس أركان الحرب قائلين إن الأثر أثرهما ثم عرضوا الحمير أيضاً واتضح أن حمار المفتش هو الذي ظهر أثر قدمه في السوق، وقد تم تفتيش الاصطبلات فوجد فيها رؤوس من السكر، وباستقصاء البحث اتضح أن باقي السكر دفن في مكان قريب من الاصطبل، ولما جيء بالسائسين أمام المحكمة اعترفا بجريمتها وقالا إنه لما ثقل عليهما حمل الصندوق حملاه على أتان المفتش ».

وهذه مهارة غريبة تسهل علينا ما نسمعه من أعاجيبهم.

وكان لهم في النوع ما لا يقل عن الأول يجيئون بالرجل والولد ويغطون جميع بدنهما ما عدا أقدامهما ثم ينظر القائف فيحكم حكماً فصلاً قائلاً هذه الأقدام من هذه الأقدام إن كان النسب صحيحاً، وينفي هذا النسب إن لم يجد تشابهاً ولا يهمه إن كانا قد اتفقا في اللون أو اختلفا فيه.

والشريعة الاسلامية لم تلغ حكم القائفين بل رضيه النبي ﷺ وسر به بعض فقهاء العرب من المسلمين جعلوه واسطة من وسائط الحكم في الأنساب إذا تعدد المدعون.

والنتيجة من هذا كله أن العرب كانت أمة تلاحظ ما يرد على حواسها من الحوادث والأشياء وتستنتج من الاستقراء قواعد صحيحة تنتفع بها في حياتها ونباهة الأمة أس من أساس رقيها.

دين العرب:

الخضوع للمعبود نتيجة لأحد أمرين: أما الأول فهو شهود الانسان بقوة المعبود وعظمة سلطانه فهو لذلك يخضع له رغبة فيما عنده من الخير ورهبة مما يقدر عليه من الشر، ولذلك تراه يفزع إليه عند الشدة لتخفيف ما ألم به من الكروب.

الثاني: شعوره بأن المعبود ذو نفس كبيرة لما جرى على يديه من عظائم الأمور فهو يتخيل أن تلك القوة التي بها تغلب على المصاعب لم تكن إلا نتيجة مساعدة مخصوصة من الإله القادر على كل شيء، لأنه يحبه حباً جماً فترى العابد الخاضع يجعل هذا وسيلة في عبادته يرجو بها رضاء من خالق العالم الأكبر، فإن كان حياً فهو الوسيلة، وإن كان ميتاً قام قبره مقامه أو جعلت له صورة تمثله وقد تكون من حجر أو صفر أو ما شاكل ذلك وتعطي هذه الصورة من الخضوع ما كان يعمل لصاحبها في حياته.

وقد يكون التعظيم لحيوان من الحيوانات النافعة أو الضارة، أو لجماد نافع أو ضار لأن القوة التي أعطيها وبها ضرر ونفع أثر من آثار الخالق الأكبر، وقد يصور ذلك الحيوان أو يمثل وتجعل صورته أو تمثاله مما يقرب من خالق القوى. ويسمون التمثال الذي على صورة انسان من حجر أو فضة أو ذهب صنماً، ويسمون الحجر الغفل من الصنعة وثنا. والشعور بقوة تنصرف في العالم شيء يكاد طبيعياً في الإنسان، ولذلك لم يخل منه باد ولا حاضر منذ عرف تاريخ الإنسان، وتمثيل القوة المدبرة والأشخاص التي يتقرب بها، كذلك لم تخل منه أمة ولا جيل، ولذلك يقول علماء الاجتماع: الانسان متدين بالطبع حتى إنك لتراه إذا ألحد في دينه وازدراه ينتقل منه حالاً إلى عبادة أخرى وخضوع لكن عن طريق آخر.

وقد جاء الأنبياء يدعون الناس إلى أفضل الطرق الموصلة إلى إرضاء اللّه ورأسهم بعد حادثة الطوفان ـ هو إبراهيم خليل اللّه ﷺ فقد دعا الناس إلى توحيد اللّه سبحانه وعمل ما فيه مصحلة الناس ويدعى إبراهيم أبا الأنبياء لأنهم كلهم من ولده.

وكانت النبوة في فرعين من ولده: الأول إسحق ومنه كان أنبياء بني إسرائيل وأعظمهم وأبقاهم أثراً موسى وعيسى صلوات اللّه عليهما وسلامة ودين الأول يسمى باليهودية نسبة إلى يهوذا أحد أسباط إسرائيل أو السبط الأكبر الذي منه كان جلة الملوك من إسرائيل، ودين المسيح هو النصرانية نسبة إلى الناصرة، وهي أول قرية علم بها المسيح فقال العرب ناصري ونصراني وكان المسيح عليه السلام يدعى الناصري والفرع الثاني كان منه إسماعيل أخو إسحق وهو داعية العرب إلى دين إبراهيم، ثم كان منه محمد بن عبد اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وجاء أيضاً مجدداً لشريعة إبراهيم. كان الدينان المنسوبان إلى الأنبياء منتشرين في الجزيرة العربية قبل الاسلام، فكانت اليهودية في بلاد اليمن وأول من دان بها يوسف ذو نواس اتباعاً لدعوة حبرين يقال إنهما أتيا من تبع الحميري من يثرب وكانت أيضاً بيثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء جاءت مع إسرائيليين فارقوا الشام حين الاضطهادات التي كانت توالى على اليهود في شمال صنعاء وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر النعمان، وفي قبائل من طيء وفي عرب الغساسنة بالشام لمجاورتهم المتنصرة من الروم المتدينين بهذا الدين، إلا أن المتدينين من العرب بالدين المسيحي لم يكن لهذا الدين تأثير حقيقي في نفوسهم لأن روح هذا الدين المستفادة من كلام المسيح صلوات اللّه عليه هي السلم والإغضاء والابتعاد عن الحروب، ولم يكن العرب مبتعدين عنها ولذلك لما جاء عدي ابن حاتم الطائي وافداً على الرسول ﷺ[1] قال له إني على دين فقال له عليه السلام ألم تكن تأخذ المرباع من غنائم قومك؟ وحل الغنائم والانتفاع بها ليس في شيء من الدين

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري.

المسيحي بل ولا اليهودي لأن اليهودي يحرق كل ما للوثنيين ولا ينتفع به والمسيحي يبتعد عن الحرب.

أما سائر العرب فكانت بعد إسماعيل على دين إبراهيم تعبد اللّه وتوحده إلا أن إسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافاً يحجها أولاده، فلما أكثروا واحتاجوا لمبارحة مكة والانتشار في أجزاء الجزيرة كانوا يأخذون معهم شيئاً من حجارة الحرم أو الكعبة ليكون معهم أثر من آثار بركتها فيعظمون هذا الحجر تعظيمهم للكعبة فانتشر لذلك تعظيم الحجارة والتقرب بها إلى المعبود الأعظم، ولما سار عمرو بن لحي الخزاعي إلى بلاد الشام ورأى ما يفعله أهله من تعظيم التماثيل والتقرب بها مالت نفسه إلى الاقتداء بهم فأخذ من هذه التماثيل شيئاً وأقامها على الكعبة التي كان سادنها ودعا العرب لتعظيمها فأجابوا وخطرت لهم حينئذ فكرة تمثيل العظماء وذوي الأثر الصالح فيهم، أو تمثيل القوى التي يألفونها وهي سبب عظيم في نفعهم وقيام مجدهم فصنعوا تماثيلهم وتقربوا إليها، ومما يؤكد ذلك ما قاله محمد بن هشام بن السائب الكلبي في وصف ود وهو صنم عذرة نقلاً عمن شاهده من رجال عذرة، قال: كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد زبر عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف بيد تقلده وقد تنكب قوساً وبين يديه حربة فيها لواء وجعبة فيها نبل ـ فهذا يشبه أن يكون تمثال قوة الحرب التي يعظمها العرب ـ وكان لهذيل صنم اسمه سواع في رهاط من أرض ينبع وكان يعبده من يليه من مصر وله سدنة من بني لحيان، وكان لمذحج وأهل جرش يغوث. واتخذت خيوان يعوق وكانت تعبده همدان ومن والاها من اليمن ـ واتخذت حمير نسر وكان بيد رجل من ذي رعين يقال له معد يكرب تعبده حمير ومن والاها حتى هودهم ذو نواس وكان لهم أيضاً بيت بصنعاء اسمه رئام يعظمونه ويتقربون عنده بذبائحهم وقد هدم أيضاً.

ويظهر أن هذه التماثيل الخمسة كانت قديمة في العالم استحدثها هؤلاء القوم وصوروا على شاكلتها، لأن نوحاً كان ينهي قومه عن عبادتها وهم

يتمسكون بها كما ورد في الكتاب حكاية عنهم **﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾**(١).

ومن أوثانهم مناة، وكان منصوباً على البحر بناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب تعظمه وتذبح عنده خصوصاً الأوس والخروج ومنها اللات بالطائف وكانت صخرة مربعة فالظاهر أنها لم تكن تمثالاً وانما كانت أثراً من مكان معظم وكان سدنتها من ثقيف وكانت قريش تعظمها.

ومنها العزى، وكانت بواد من نخلة الشامية عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق بتسعة أميال وكان عليها بيت وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكان سدنة العزى من بني سليم.

ومنها ذو الخلصة، وكان مروة بيضاء منقوشاً عليها كهيئة التاج، وكان له بيت بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب وكانت تعظمه وتهدي خثعم ودوس وبجيلة.

وكانت على الكعبة أصنام أعظمها هبل، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلت له يداً من ذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة.

كانت العرب تعظم هذه التماثيل وهذه الأحجار لا لاعتقاد أنها آلهة وإنما لتقربهم إلى اللّه سبحانه كما قال في الكتاب **﴿وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللّه زلفى﴾**(٢) وكانوا إذا سئلوا عمن خلق العالم وقدر له رزقه يقولون إنه اللّه وكانوا يقدمون القرابين وهي الذبائح إلى هذه الأوثان والأصنام التي يدعونها النصب والأنصاب لأنها نصبت للعبادة وقد استعمل الأعشى كلمة النصب مفرداً فقال في كلمته التي يمتدح بها رسول ﷺ:

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه　　　لعافية واللّه ربك فاعبدا

(١) سورة نوح: الآية ٢٣.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣.

ولهم طرق في توزيع لحوم هـذه القرابـين كما كـان لبني إسرائيـل ما يشبـه هـذه الطرق وكـان من هذه القـرابـين البحيـرة والسـائبـة والـوصيلة والحـامي، فالبحيرة الناقة تشق أذنها فلا يركب ظهـرها ولا يجـز وبرهـا ولا يشرب لبنهـا إلا ضيف أو يتصدق به أو تهمـل لآلهتهم، والسائبة التي ينذر الـرجل أن يسيبهـا إذا برىء من مرضـه أو إن أصاب أمـراً يطلبـه فإذا كـان ذلك أسـاب جملاً من إبله أو ناقة لبعض آلهتهم فسابت فرعت لا ينتفع بها.

والوصيلة التي تلد أمها اثنين في بطن فيجعل صاحبهـا لآلهته الانـاث منها ولنفسه الذكـور، فتلدها أمهـا ومعها ذكـر في بطن فيقـولون قـد أوصلت أخاهـا فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به.

والحـامي الفحل إذا نتـج له عشر إنـاث متتـابعـات ليس بينهن ذكـر حمى ظهـره فلم يركب ظهـره، ولم يجز وبـره وخلي في إبله يضـرب فيها لا ينتفـع منـه بغـير ذلك ـ هـذا تفسير ابن هشـام وقد خـالفه بعض أهـل اللغة في تفسيـرها، ويـظهر أنـه لم تكن قبائـل العرب متفقـة في عادة تلك القـرابين فنقـل كل مفسر عن غير القبيلة التي نقل عنها الآخر.

وقد ورد ذكر هذه القرابين الأربعة في القرآن فقال في سـورة المائـدة: **﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾**[1].

وكانوا يستقسمـون عند أصنـامهم بالأزلام. والـزلم القدح الـذي لا ريش عليه والأزلام كانت لقـريش في الجاهليـة مكتـوب عليهـا أمـر ونهي وافعـل ولا تفعـل، وقد زلمت وسـويت ووضعت في الكعبة يقـوم بها سـدنة البيت فـإذا أراد رجل سفراً أو نكـاحاً أتى السـادن فقال أخـرج لي زلماً فيخـرجه وينـظر اليه فـإذا خرج قدح الأمر مضى على مـا عزم عليـه، وإن خرج قـدح النهي قعد عـما أراده وربما كان مع الرجل زلمان وضعهـما في قربـة فإذا أراد الاستقسـام أخرج أحدهما، ومعنى الاستقسام بها أن يطلب الإنسان مـا قسم له من جهتها، وكان في الكعبـة

---

(1) سورة المائدة: الآية ١٠٣.

صنم يمثل إبراهيم وإسماعيل وبأيديهما الأزلام يستقسمان بها.

ومع ما كان للعرب من الأصنام والأوثان فإنهم كانوا يعظمون الكعبة ويجلونها فوق إجلالهم لأي معبود آخر لهم يرون أنها أثر أبيهم إسماعيل، وكانوا يحجونها ويرون لقريش الفضل عليهم لما أتوه من شرف القيام بأمرها كأنهم رؤساء دين يسمع لقولهم فكأن الكعبة هي بيت الدين الأكبر وسدنته والقوام بأمره هم حفاظ الدين، وهذا مركز عظيم حازته قريش ومن كان معها ممن يلي أمراً من الأمور الدينية بمكة.

وقد كانت قريش أرادت أن تمتاز عن سائر العرب، بما يظهر فضلهم وشرفهم فقالوا نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت، وقطان مكة وساكنوها فليس لأحد العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ولا تعرف العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم فانكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يقرون ويعترفون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من سكن الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياه، وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم في ذلك وسموا أنفسهم ومن دخل معهم الحمس ثم قالوا لا ينبغي للحمس أن يأتقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ولا يستظلوا - إن استظلوا - إلا في بيوت من الأدم ما كانوا حرماً ثم قالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجاً، أو عماراً ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة، فان تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً. وكانت العرب تسمي تلك الثياب اللقي فحملوا على ذلك العرب فدانت به.

وقد نبه القرآن على ذلك - بطريق الإشارة - فقال عن الأول **﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾**(١) وقال عن الثاني **﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾**(٢) وقال **﴿قل من حرم زينة اللّٰه التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾**(٣).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٩.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٣١.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٣٢.

المحاضرة الثامنة

النسيء
الموحدون من العرب
المولد النبوي ـ الحال قبل النبوة

كان تحريم الأشهر الحرم يعلن في مكة كما كان يعلن فيها النسيء.

والنسيء كلمة معناها التأجيل من قولهم نسأت أي أخرت وأجلت، ورجل ناسيء من قوم نسأة قال في لسان العرب: وذلك أن العرب كانوا إذا صدروا من منى يقوم رجل من كنانة فيقول أنا الذي لا أعاب ولا أخاب ولا يرد لي قضاء فيقولون صدقت أنسئنا شهراً. أي أخرعنا حرمة المحرم واجعلها في صفر وأحل المحرم لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها لأن معاشهم كان من الغارة فيحل لهم المحرم، فذلك الإنساء. قال عمير بن قيس بن جذل الطعان:

ألسنا الناسئين على معد؟ شهور الحل نجعلها حراماً

وزاد عليه أبو علي فقال في أماليه فسمي الناسيء نعيم بن ثعلبة وقال في آخر عبارة فإذا كان من السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفراً، وروى قول الشاعر:

وكنا الناسئين على معد شهورهم الحرام إلى الحليل

وقال ابن هشام في سيرته: والنسأة الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر ففيه أنزل اللّٰه تعالى: ﴿**إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم**

اللّٰه فيحلوا ما حرم اللّٰه﴾(١) ومعنى ليواطئوا ليوافقوا وكان أول من نسأ الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم ـ القلمس وهو حذيفة بن عبد بن فقيم من كنانة ثم قام بعده ابنه عباد إلى أن كان آخرهم عوف أبو ثمامة، وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فحرم الأشهر الحرم الأربعة رجب وذا القعدة وذا الحجة والمحرم، فإذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفر فحرموه ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر؛ فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال اللهم إني قد أحللت لهم أحد الصفرين، الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل فقال في ذلك عمير بن قيس جذل الطعام أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنسأة على العرب:

لقد علمت معد أن قومي ... كرام الناس أن لهم كراماً
فأي الناس فاتونا بوتر ... وأي الناس لم نعلك لجاماً؟
ألسنا الناسئين على معد! ... شهور الحل نجعلها حراماً

وعلى هذا جرى سائر المفسرين من العرب الخلص لما كان يجري من النسيء قبل الاسلام، الا أن بعض الفلكيين من العرب وأولهم أبو معشر الفلكي المتوفي سنة ٢٧٢هـ فسروا النسيء عند العرب بغير ذلك حيث فسروه بالكبس الذي استعمله العبرانيون في سنتهم القمرية، فإنهم يضيفون على رأس كل ثلاث سنين شهراً لتكون السنة القمرية شمسية ومعنى كونها قمرية أن التقويم يعتبر بالهلال، ومعنى كونها شمسية أنها بالكبس أو هذا النسيء تكون مطردة مع دورة الشمس، بحيث لا يكون الشهر العربي إلا في فصل معين، لا ينتقل عنه ولا يتغير، كما هو الحال في الشهور الرومية والقبطية التي لا ارتباط لها بدورات القمر، وقد تابعه على ذلك جماعة من المؤرخين، وفي صدرهم محمد بن أحمد البيروتي المتوفي سنة ٣٣٠ هـ ومنهم المسعودي الذي قال في مروج الذهب، وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث ستين

(١) سورة التوبة: الآية ٣٧.

شهراً وتسميه النسيء وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله ﴿**إنما النسيء زيادة في الكفر**﴾[1] وكان من نتيجة هذا الخلاف بين مؤرخي العرب اختلاف بين الأجلاء من علماء المستشرقين فمنهم من اختار تفسير النسيء عند العرب بما فسره به علماء العربية وكبار المؤرخين من العرب، ومنهم من اختار التفسير الثاني. وقد رفع اللثام عن وجه الحقيقة في ذلك العالم الفلكي محمود باشا الشهير بفلكي في رسالة له سماها نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام أبان فيها أن العرب قبل الاسلام لم تكن تستعمل في تقويمها إلا السنة القمرية المحضة، ولم يكن النسيء عندهم إلا بالتفسير الأول وأظهر أن الخطأ في ذلك وقع فيه لأول مرة أبو معشر[2] وتبعه البيروتي[3] ثم من بعدهما، ثم استدل على هذه الدعوى بأدلة حسابية لم تبق مجالاً للريب فليراجعها من أحب استقصاء البحث، وقد كنت من المخدوعين بما أخطأ فيه أبو معشر ففسرت النسيء في كتابي نور اليقين بما فسره به.

ولما تبين لي وجه الحق راجعت الآية فوجدتها تخبر عن النسيء بأنه زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله - والنسيء بالتفسير الأول نتيجة هوى نفسي وتلاعب بما يسمونه ديناً وشريعة فقد كانت أربعة الأشهر المحرمة معروفة عندهم بأسمائها فلما دعتهم حاجتهم التي هي غارات وحروب إلى إحلال بعضها أرادوا خديعة دينهم بالوقوف عند العدد وعدم الاهتمام بالأشهر المعينة فهم يحلون أحد الأشهر عاماً ويحرمونه عاماً ليتفق التحريم مع العدد المشروع وهذه الأهواء وأمثالها جديرة بمثل هذا الذم، أما النسيء بالتفسير الآخر فلا يعدو أن يكون نظاماً ثابتاً انتهجوه في تقويمهم لبقاء الأشهر العربية متفقة مع دورة الشمس ومثل هذا ليس فيه الأحلال عاماً والتحريم عاماً لمواطأة عدة ما حرم الله وإنما هو نظام ثابت لا يكون مجالاً لتلاعب النسأة بدينهم.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٧.

(٢) هو جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر البلخي المتوفي سنة ٢٧٢.

(٣) هو أبو ريحان محمد بن أحمد البيروتي الخوارزمي المتوفي سنة ٣٣٠.

ومن الغريب أن المسعودي نفسه وهو الذي زعم أن العرب كانت تكبس قال في تفسير الربيعين: إنما سمى بذلك لارتباع الناس والدواب فيهما ثم قال فإن قيل قد توجه الدواب ترتبع في غير هذا الوقت قيل قد يمكن أن يكون هذا الاسم لزمها في ذلك الوقت فاستمر تعريفها بذلك مع انتقال الزمان واختلافه ولو كانوا يكبسون ـ كما قال ـ لما كان هناك محل لهذا السؤال والجواب لأن الشهور العربية ما كانت تختلف عن الفصول الشمسية، فالحق أن النسيء عند العرب كان عملاً يقوم به رجال الدين من أهل مكة من كنانة ويكون تابعاً للأهواء لا لنظام معين.

على ذلك كانت أديان العرب في جاهليتهم إلا أنه كان هناك أفراد منهم لم تكن تلك العبادات تعجبهم، ويرون أن هناك حقيقة غابت عنهم وأن طرقهم التي هم عليها لا توصلهم إلى اللّه ويقولون في أنفسهم ما معنى التوصل إلى اللّه بحجارة لا ضر فيها ولا نفع.

وممن اشتهر ذكره من هؤلاء أربعة نفر: ثلاثة من قريش ورابع من حلفائهم. فالقرشيون ورقة بن نوفل الأسدي من أسد بن عبد العزى بن قوص، وزيد بن عمرو ابن نفيل العدوي من عدي بن كعب، وعثمان بن الحويرث الأسدي من أسد بن عبد العزى، والرابع عبيد اللّه بن جحش الأسدي من أسد بن خزيمة وأمه أمية بنت عبد المطلب اجتمعوا مرة يوم عيد لأحد أصنامهم فقالوا: نعلن واللّه ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يبصر ولا يضر ولا ينفع يا قوم التمسوا لأنفسكم فانكم واللّه ما أنتم على شيء. فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.

فأما ورقة فاستحكم في النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب.

وأما زيد فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل

المؤودة وقال أعبدُ رب إبراهيم ونادى قومه بعيب ما هم عليه وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري ثم يقول اللهم لو أني أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكني لا أعلمه ثم يسجد على راحلته وهو الذي قال فيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إنه يبعث أمة وحده[1]، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده.

وأما عبيد اللّه بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى جاء الاسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى مات هناك نصرانياً.

وكانت لا تزال كهان العرب وذو الأسجاع منهم يهتفون بذكر نبي حان مبعثه ولا يبعد عن أخبارهم، هذه إنما لقفوها من أهل الكتاب فيزيدون عليها من عند أنفسهم ويحسنونها بما شاءوا من السجع الذي امتازوا به في ذلك الوقت وكانت اليهود تنتظر في ذلك الوقت نبياً يخلصهم ويجمع شتاتهم ولا يزالوان يلهجون بذلك ويقولونه لمن كان يناوئهم من العرب، كما كان يقول يهود المدينة للأوس والخزرج وقد روى ذلك عن بعض الأنصار، من هذا يفهم أنه كان قبل مجيء الاسلام في حواضر الجزيرة حركة دينية مركزها العقلاء من العرب وأهل الكتاب من اليهود والكهان من العرب ولكنها لم تكن حركة منتجة لأنها لم تؤد إلى شيء ما من التغير في عبادة الأوثان، ولا إلى شيء من إصلاح أحوال العرب العامة، ولكنها جعلت في الأنفس شيئاً من الاستعداد لقبول الاصلاح الاسلامي.

محمد بن عبد اللّه ﷺ:

كان عبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها وله أولاد أشراف عظماء، منهم أبو طالب وعبد اللّه وحمزة وعباس وأبو لهب. وعبد المطلب ذو

---

(١) أخرجه الترمذي في مسنده.

السن من بيت عبد مناف الذي هو أشرف بيت قريش.

اختار لولده عبد اللّه آمنة بنت وهب وهي من بيت زهرة بن كلاب من أشرف بيوت قريش، فبنى بها عبد اللّه في مكة وبعد قليل خرج تاجراً إلى الشام، فلما وصل المدينة ـ وبها أخواله من بني النجار ـ أدركته منيته لشهرين من الحمل بابنه ﷺ وإنما كان بنو النجار أخواله لأن منهم أم أبيه عبد المطلب.

وفي صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنو شروان. ويوافق العشرين من شهر أبريل سنة٥٧١ ق.م حسبما حققه العالم الفلكي محمود باشا ـ ولد رسول اللّه ﷺ بشعب بني هاشم بمكة، ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده فجاء مستبشراً واختار للمولود اسم محمد وهذا الاسم لم يكن معروفاً عند العرب ولم يمر على نظرنا فيما قرأناه من كتب تاريخهم ودواوين أنسابهم الا اسم واحد لأحد أشراف تميم وهو الأب الخامس للفرزدق التميمي الشاعر المشهور ويستنتج المؤرخون أن اختيار هذه التسمية إنما كان نتيجة شعور من عبد المطلب بما لهذا المولود من المستقبل المنتظر لما كان يدور إذ ذاك على الألسنة من قرب بعثة نبي منتظر من العرب وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون.

كانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم في البداية لأمرين (الأول) إنهم يبتعدون في البوادي عن أمراض الحواضر التي كثيراً ما تصيب الأطفال وهناك تقوى أجسامهم وتشتد أعصابهم لما في هواء البادية من الصفاء والابتعاد عن عفونات المدن (الثاني) أنهم يتقنون اللسان العربي في مهدهم عن البدو وهم أجهر صوتاً وأسلس عبارة.

وقد اختير لمحمد بن عبد اللّه امرأة من بني سعد بن بكر من هوازن الذين هم بادية مكة واسمها حليمة بنت أبي ذؤيب وزوجها هو الحارث بن

البحيرة ـ لم تكن تبقى على سطح الارض مقدسة في العصر الاسلامي

عبد العزى المكني بأبي كبشة من قومها فأقام مسترضعاً فيهم قريباً من أربع سنوات ثم ردته إلى أمه بعد ذلك فأقام معها بمكة.

كانت لآمنة عادة منذ توفي زوجها عبد اللّٰه بالمدينة أن تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبد المطلب فلما كانت السادسة من عمر ولدها ذهبت لتلك الزيارة وبينما هي راجعة إذ مرضت في الطريق ثم توفيت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة، فعاد عبد المطلب بحفيده وكان يحبه حباً جماً، قال ابن هشام كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له فكان رسول اللّٰه ﷺ يأتي وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب ـ إذا رأى ذلك منهم ـ دعوا ابني هذا فواللّٰه إن له لشأناً ثم يجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع ولثماني سنوات من عمره توفي بمكة جده عبد المطلب وأوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب عمه شقيق أبيه فإن أبا طالب والزبير وعبد اللّٰه أولاد عبد المطلب كانت أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية ولتسع سنوات من عمره ـ حسب رواية ابن هشام ـ أو ثلاث عشرة، خرج أبو طالب إلى الشام تاجراً وأخرجه معه حتى وصلا بصرى وهي معدودة من الشام وقصبة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان وكان في هذا البلد على ما ننقله من كلام مؤرخي العرب راهب اسمه بحيرا في صومعة له فكان له حديث مع أبي طالب حينما رأى معه ابن أخيه وأشار عليه أن يرجع به خوفاً عليه من عدو يترصد وأخبره أن له شأناً فرجع به أبو طالب إلى مكة وقد أطبق على هذه الحادثة جميع المؤرخين وحكاها ابن العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول وقد نقبنا كثيراً عن اسم هذا الراهب في كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام أو بصرى والمشهورين من رجال الدين فيهما فلم نجده.

ولخمس عشرة من عمره كانت حرب الفجار بين قريش وكنانة وبين قيس، وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سناً وشرفاً، وكان رئيس

بني عبد المطلب وقد حضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبد الله، وكان ينبل على عمومته أي يجهز لهم النبل للرمي. وقد حدث بعد ذلك تداعي قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تميم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته، وتم ذلك الحلف في دار عبد الله بن جدعان التيمي وشهده سيدنا محمد بن عبد الله وقال فيه بعد الرسالة لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعت به في الإسلام لأجبت، ولخمس وعشرين سنة من مولده تزوج خديجة بنت خويلد الأسدية من بني أسد ابن عبد العزي وكانت سيدة محترمة في قومها ذات يسار تستأجر الرجال في مالها تضاربهم إياه[1] وكان سيدنا محمد بن عبد الله مشهوراً في قومه بالأمانة حتى كانوا يسمونه بالأمين، فعرضت إليه أن يسافر إلى الشام بمالها وأرسلت معه غلامها ميسرة فذهبا حتى أتيا الشام وباعا وابتعا وربحا ثم عادا إلى مكة، ويروي ابن جرير الطبري عن ابن شهاب الزهري أن هذه الرحلة التي ذهب فيها بتجارة خديجة إنما كانت إلى سوق حباشة باليمن لا إلى الشام والرواية الأولى أشهر.

بعد هذه الرحلة عرضت السيدة على الأمين أن يتزوجها فرضي وكانت سنها أربعين سنة فخطبها عمه وتم الزواج بينهما قبل الهجرة بثمان وعشرين سنة وأقامت معه منها خمساً وعشرين وهي أم أولاده جميعاً ما عدا ابراهيم الذي ولد له بالمدينة فانه من مارية القبطية التي كانت من قرية حفن من كورة انصنا.

وكانت خديجة من أفضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلاً ولها في تاريخ الإسلام أجمل ذكر وأصدقه وسيتضح بعد.

---

(١) أخرجه جرير الطبري عن ابن شهاب الزهري.

ولخمس وثلاثين سنة من مولده كان هدم قريش الكعبة وتجديد بنائها فإنها كانت وضيعة فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وكانوا يهابون هدمها فابتدأ به الوليد ابن المغيرة المخزومي وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصب الوليد شيء ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى أساس إسماعيل ثم شرعوا في البناء على قواعده والذي تولى البناء بنّاء رومي اسمه باقوم، وقد قسموا العمل فيها على قبائل قريش ثم قصرت بهم النفقة الطيبة عن إتمامها على قواعد إسماعيل فدخلوا عنها من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع وصعدوا بها في الجو حتى إذا وصلوا إلى مكان الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه واشتد النزاع بينهم فعرض عليهم التحكيم أخذ رؤاسائهم فارتضوه، وكان الحكم سيدنا محمد بن عبد اللّه فطلب رداء ووضع فيه الحجر وطلب من الرؤساء أن يمسك كل رئيس بطرف منه وأمرهم أن يرفعوه حتى إذا حاذى موضعه أخذه بيده فوضعه مكانه وكان هذا الحكم موجباً لرضاهم وابتعاد الشحناء من أنفسهم وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريباً يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً وطول ضلعه الذي فيه الحجر الأسود والمقابل له ١٠ و ١٠ والحجر موضوع على ارتفاع ١٠,٥٠ م من أرضية المضاف والضلع الذي فيه الباب والمقابل له ١٢ م وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ويحيط بها مر الخارج قصبة من البناء أسفلها متوسط ارتفاعها ٠,٢٥ م ومتوسط عرضها ٠,٣٠ م وتسمى بالشاذوران وهي من أصل البيت، ولكن قريشاً تركتها واستظهر محمد لبيب بك البتانوني فيما كتبه عن الكعبة في رحلته الحجازية التي اقتطفنا منها هذه المعلومات أن هذا الاسم محدث إما في عهد ابن الزبير أو عهد الحجاج بن يوسف.

للكعبة أربعة أركان الشمالي واسمه الركن العراقي، والغربي واسمه الشامي والجنوبي واسمه اليماني، والشرقي واسمه ركن الحجر لأن الحجر فيه وهو حجر صقيل بيضاوي غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء وهي أثر لحام القطع التي كانت انفصلت منه وقطره نحو ٠,٣٠ م والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وقبالة

الحائط الشمالي الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتي البيت ويبعدان عنها ٢,٣٦ م ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه ١,٥٠ م ومسافته ما بين منتصف ضلع الكعبة ١,٤٤ م وهذا الفضاء يسمونه حجر إسماعيل وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في بناء إبراهيم ويقال إن إسماعيل وهاجر أمه مدفونان في الحجر.

السيرة الأدبية قبل النبوة:

اتفق جميع المؤرخين أن سيدنا محمد بن عبد اللّه كان في قومه ممتازاً بأخلاق جميلة منها صدق الحديث والأمانة حتى سموه الأمين، وكانوا يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم. وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة، وكان يأكل من نتيجة عمله لأن أباه لم يترك له من الثروة إلا شيئاً قليلاً وكان عمله حين شب التجارة. ولما تزوج خديجة كان يعمل بمالها ويشركها في الربح وكان يشارك غيرها أحياناً ولم يكن يقرأ ولا يكتب.

ولابد لنا من ذكر مسألة وضعها الأصوليون من علماء المسلمين في موضع البحث وهي هل كان متعبداً بشريعة قبل نبوته بعد قول الأئمة منهم إن هذه سألة من اختصاص التاريخ لا من اختصاص أصول الفقه.

فقال جمهور منهم إنه لم يكن مكلفاً باتباع شريعة ما من الشرائع الماضية. استدلوا بأنه لو كان مكلفاً بشريعة لقضت العادة بمخالطة أهلها ووجبت تلك المخالطة ليأخذ عنهم تلك الشرائع ولكنه لم يفعل،لأنه لو حصل ذلك لتوفرت الدواعي على نقله ولم ينقل شيء من ذلك

وتوقف في الرأي بعض الأئمة كالغزالي وشيخه إمام الحرمين والآمدي لأنهم لم يظفروا بما يؤهلهم للحكم في مثل تلك المسألة.

وقال بعضهم إنه كان متعبداً بشريعة، ولكن ما هي تلك الشريعة اختلفوا في تعيينها، فمن قائل إنها شريعة آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى أو

عيسى صلوات اللّٰه عليهم أجمعين، وهو اختلاف يدل على أن أصحاب هذا الرأي ليسوا مرتكزين على دليل قوي يعضدهم وإنما هي مجرد أفكار.

واختار الكمال بن الهمام من الأصوليين مذهباً مبهماً وهو أنه متعبد بما ثبت أنه شرع إذ ذاك إلا أن تثبت شريعتان أمرين متضادين فبالأخير، فإن لم يعلم الأخير فهو متعبد بما يركن إليه منهما واستدل على ذلك بأن التكليف لم ينقطع من بعثة آدم عموماً وخصوصاً ولم يترك الناس سدى قط فلزم التعبد كل من تأمل من العباد وبلغه ذلك المتعبد به، وقال إن هذا الدليل يوجب التعبد في غيره وتخصيصه بالبحث أمر اتفاقي، والذي نراه أن الفيصل في مثل هذه المسألة إنما هو التاريخ لا مثل هذه البراهين لأن مثل هذا الرأي يلزمه أن الانسان مطلوب منه أن يتطلب جميع الشرائع الماضية التي سبقت ويعبد اللّٰه بما يثبت أنه منها ويرجح بين اللاحق والسابق وهذا أمر لم نسمع أنه عليه السلام فعله، حتى كنا نقول إنه أدى ما كلف به والتاريخ يثبت أنه قبل نبوته رفض الأوثان، وعبادتها والتقرب اليها وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون ويلتزم مكارم الأخلاق التي في مقدمتها الصدق والأمانة والوفاء ولم يشرب الخمر، وهذه كلها خصال يحمل عليها العقل الراجح، وكان يتعبد في غار حراء وهو غار صغير، على جبل النور الذي على يسار السالك إلى عرفة وعبادته فيه لم تكن إلا فكراً في خالق الكون الأعظم، وكان يتعبد فيه عبد المطلب وقال المؤرخون إنه أول من تعبد فيه.

ولم يعلم عنه أنه كان يراعي الطرق التفصيلية للعبادات في الشرائع التي سبقته ولم يكن قبل نبوته وصل إلى الحقيقة في أمر الخالق جل ذكره وإلى ذلك الإشارة في الكتاب **﴿وكذلك أو حينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان﴾**(١) وقال في سورة الضحى مما امتن به عليه **﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾**(٢) والضلال الحيرة، والهداية النبوة.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٢) سورة الضحى: الآية ٧.

المحاضرة الثامنة

البعثة ـ الوحي
الدعوة السرية
الجهر بالدعوة ما كان من قريش
هجرة الحبشة

البعثة :

الذين يختارهم اللّه لإصلاح الأمم يلقي اليهم ما يريد أن يبلغوه عنه بالوحي، والوحي ـ في لغة العرب ـ إعلام مع إخفاء وسرعة، ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تنبني عليها تلك النتيجة، بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوف على نظر واستدلال، وقد استعملت هذه الكلمة في القرآن وفي لسان العرب لغير إعلام اللّه لأنبيائه فقال تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾[1] ﴿ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾[2] وقال ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في أليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾[3] وقال مخبراً عن يوسف في صغره ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾[4]. وكل هذا لا يعدو معنى الإلهام الذي ربما شعر به كثير من الناس.

أما إعلام اللّه أنبياءه المختارين فإن العبارة العلمية تضيق عن تحديد كنهه، وغاية ما يمكن الانسان هو أن يحوم حوله، مستعيناً بما قاله الأنبياء

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٨.
(٢) سورة النحل الآية ٦٩.
(٣) سورة القصص : الآية ٧.
(٤) سورة يوسف: الآية ١٥.

أنفسهم فيما نزل على ألسنتهم ليقتطف منه ما يقرب ذلك للعقل الانساني، وهذا الإعلام له مراتب.

الأولى: أن يخاطب في النوم، وتلك هي الرؤيا الصادقة وقد ورد ذكرها كثيراً في التوراة والقرآن وكتابات الرسل، وتعبر التوراة عنها بمثل قولها: صار كلام الرب إلى إبرام في الرؤيا قائلاً. . . الخ.

ويعبر عنها القرآن بمثل قوله على لسان إبراهيم صلوات اللّه عليه مخاطباً ابنه الذبيح ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾[1] ومن هنا يقول محمد رسول اللّه ﷺ «رؤيا الأنبياء حق ونحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا».

المرتبة الثانية: أن يلقي ما يراد إلقاؤه على قلبه من غير وساطة وهو يقظان وذلك هو المسمى بالإلهام، والإلقاء في الروع ويسمى بعض فلاسفة المسلمين القوة التي تحدث بالخير وتلقيه في النفس ملكاً، على العكس من القوة التي تحدث بالشر وتلقيه في النفس فإنه يسميها شيطاناً، ولفلاسفة المسلمين غرائب في كلامهم عن الملائكة والشياطين. وقد يستروحون بقوله تعالى في الكتاب ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾[2].

المرتبة الثالثة: أن يرسل اللّه إليه رسولاً يخبره بما يريد إعلامه إياه وهو المسمى بالملك فيحدثه ويصف القرآن هذا الرسول بقوله ﴿إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين﴾[3] ويظهر هذا الملاك للأنبياء في التوراة كثيراً.

المرتبة الرابعة: أن يسمعه اللّه كلامه مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام حينما سمع الصوت من العليقة المتقدة كما عبرت التوراة وقال القرآن عن هذه الحادثة ﴿وهل أتاك حديث موسى، إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى، فلما أتاها نودي يا

(١) سورة الصافات: الآية ١٠٢.
(٢) سورة الشعراء: الآية ١٩٤.
(٣) سورة التكوير: الآيات ١٩، ٢٠، ٢١.

موسى، إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي﴾[١].

هذه هي المراتب التي عرف أن الوحي يبلغ قلوب الأنبياء عليها، ولا تكاد تتباعد باعتبار نتيجتها وهي ركوز المعاني في القلب بحيث يعلم المخاطب علماً ضرورياً أن ذلك من الله وكان يحصل لهم وقت هذا الاعلام شدائد يحصل شيئاً من جنسها لمن فنى فكرهم في أمر أو حادثة فانك تجد من هؤلاء من يغيب عنك حتى لقد تحدثه فلا يسمع ويتصبب من جراء ذلك عرقاً، ولسنا نريد تشبيه الحالين بعضهما ببعض ، وإنما نحن نستروح بما نراه ونحس به لنقرب إلى الأنفس ما لا يحس به وليس في مكنتها أن تدرك الحقيقة، إذ كان الفناء في مسألة أو حادثة يجعل الانسان على نحو ما وصفنا لكم فكيف بالفناء في الإله، أنا لا أستغرب ما قرأته في بعض الكتب أن صوفياً لسع بعقرب فلم يتحرك ولم يتأثر، وآخر هدم بجانبه جدار فلم يحس به، لأني أعلم أن الجندي يصاب في الموقعة بالجرح المؤلم فلا يحس به ويمضي لشأنه حتى إذا تمت الموقعة ورجعت الروح من تعلقها بما كانت فيه إلى أمر جسمها أحست بالألم، كل هذا يفهمنا ما يكون من الأنبياء عند الوحي من غيبتهم عمن بحضرتهم من الناس حتى لا يحسون بأحد.

سئل رسول الله ﷺ: « كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل رجلاً فأعى ما يقول »[٢].

ومما روي أنه كان يكابد من التنزيل شدته حتى أنه كان يوحي إليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

---

(١) سورة طه: الآيات ٩ ـ ١٣.

(٢) أخرجه النسائي.

وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلاً تكلم فيه على الوحي والرؤي ولكن قلما يظفر الإنسان منه بطائل وفيما بيناه لكم كفاية وتقريب.

كان أول ما بدئ به سيدنا محمد بن عبد اللّه من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح: كما رواه البخاري من حديث عائشة(١).

وبينما كان يتعبد بغار حراء حسب عادته إذ جاءه الوحي وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده فيكون عمره إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر و٨ أيام وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ م ولا معنى للاختلاف في تحديد اليوم بالتقويم العربي بعد أن أشار إليه الكتاب إشارة ظاهرة لا تخفي على من له إلمام بالتاريخ فقد قال **﴿إن كنتم آمنتم باللّه وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾**(٢) والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جعله(٣) عاماً لأول يوم نزل فيه القرآن، وليلة نزول القرآن هي التي قال فيها الكتاب **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾**(٤) وقال **﴿إنا**

(١) رواه البخاري من حديث عائشة.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٣) جرت العادة في التعبير أن نجعل اليوم المعين عدده محلاً لكثير من الوقائع مع أنه ليس من سنة واحدة كما يقولون يوم عاشوراء فيه أهبط آدم وفيه نجت سفينة نوح وفيه نجا موسى من الغرق وليس عاشوراء من سنة واحدة بالضرورة فهذا اليوم بصفتة ١٧ رمضان كان محلاً لنزول الفرقان أول مرة والتقاء الجمعين ببدر وليس اليوم واحداً بالشخص وإنما هو بكونه ١٧ رمضان وتدبر الآية أنه لا يصح أن يراد منها غير هذا لأن الذي فرق اللّه به بين الحق والباطل إنما هو اختيار اللّه محمداً لأن يبلغ عنه إلى الناس رسالته وليس ظفر المسلمين في موقعة مما يرتقي إلى تلك الدرجة ومن هنا يعلم ما وقع فيه العالم الفاضل محمود باشا الفلكي من الخطأ حيث جعل الرسالة في ربيع الأول الذي يوافق فبراير سنة ٦١٠ م والذي أوقعه في الخطأ ما في بعض الروايات من أنه عليه السلام بعث على رأس الأربعين.

(٤) سورة القدر الآية ١.

أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منزلين، فيها يفرق كل أمر حكيم، أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم﴾[1] وهذا هو السبب في تخصيص الإسلام شهر رمضان بالصيام لأنه هو الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول بغار حراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾[2] وجعلت نهايته عيداً تذكاراً لذلك الأمر العظيم ووجبت فيه صدقة يدفعها المسلمون لفقرائهم وهي المسماة بصدقة الفطر: كل ذلك إذا تنبه إليه الإنسان أبعده عن كثير من التعاليم التي تلقي إلى العامة.

وقد روى ابن هشام[3] كيفية بدء الوحي بما أخبر به الرسول عن نفسه قال فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ قال فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني: فقال اقرأ، قال: قلت ماذا أقرأ؟ قال فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ قال فقلت ما أقرأ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي فقال ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[4].

قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكأنما كتبت في قلبي كتاباً فخرجت حتى إذا كنت في الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني

---

(١) سورة الدخان: الآيات ٣ ـ ٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٣) هذه رواية ابن هشام.

(٤) سورة العلق: الآيات ٣ ـ ٥.

ذلك، ثم نصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مصغياً إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت أبشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع أهل التوراة والانجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول اللّه ﷺ فقال ورقة قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة فقولي له فيثبت. فرجعت خديجة إلى رسول اللّه ﷺ فأخبرته بما قال ورقة فلما قضى عليه السلام جواره وانصرف صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة، فطاف بها، فقال له ورقة والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن اللّه نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخه ثم انصرف رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى منزله.

لم يبق بعد تيقنه عليه السلام مما كلف به إلا أن يحمل أعباءه التي لا يحتملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون اللّه وتوفيقه.

ومما يزيد هذا العبء ثقلاً وشدة أنه ابتديء تحمله في مكة وهي مركز دين العرب وبها سدنة الكعبة والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب فالوصول الى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزها المصائب والكوارث.

كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة ـ إلى هذا الدين ـ في بدء أمرها ـ سرية لئلا يفاجيء أهل مكة بما يهيجهم ـ ولنسم هذه الدعوة دعوة الأفراد ـ فكان يدعو كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه. يعرفهم بحب الحق ويعرفونه بتحري الصدق، فأجابه من هؤلاء جمع سماهم التاريخ

الإسلامي بالسابقين الأولين، وفي مقدمتهم خديجة بنت خويلد زوجه، وزيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي، وكان قد أسرورق فملكته خديجة ووهبته لزوجها فتبناه حسب قواعد العرب وكان لذلك يقال له زيد بن محمد وعلي بن أبي طالب وكان يعيش في بيت رسول اللّه تخفيفاً عن أبي طالب لما كان ولده، وأبو بكر بن أبي قحافة عثمان التيمي، وكان أبو بكر محبوباً في قومه وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ودعا أبو بكر بعد إيمانه نفراً، ممن كان يألفهم ويألفونه فأجابه عثمان بن عفان الأموي والزبير بن العوام الأسدي وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد اللّه التيمي، ثم تلاهم أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر، وأبو سلمة عبد اللّه بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المطلبي وسعيد بن زيد العدوي وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية وغيرهم، وأولئك هم السابقون الأولون وهم من جميع بطون قريش. وكان الرسول يجتمع بهم ويرشدهم الى الدين مستخفياً في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بمكة، لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وهذه الدار لا تزال باقية بمكة ولكنها غير معتني بها الاعتناء اللائق بمقامها التاريخي.

استمرت هذه الدعوة الفردية ثلاث سنين أجابه في خلالها جماعة لهم شأن ومعهم غيرهم من المستضعفين.

وبعد هذه المدة أمر أن يجهر بالدعوة إلى الدين بقوله تعالى في سورة الحجر ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾[1] فأعلن لقومه الدعوة إلى اللّه وتوحيده، فلم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها ونسب كل من عبدها أو جعلها بينه وبين اللّه إلى الضلال وجر ذلك إلى تضليل آبائهم فانهم كانوا يحتجون عليه دائماً بأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم

(١) سورة الحجر: الآية ٩٤.

وتلك هي العقبة الصعبة في سبيل كل المصلحين فكان ذلك داعية إلى تهجين ما كان عليه آباؤهم فلما كان ذلك نفروا منه وبادروه بالعداوة.

لم يكن هناك بد من أن تكون له حماية تمنع عنه ما عسى أن يهم به أعداؤه من الفتك به حمية لدينهم وشرف آبائهم، وكان عمه أبو طالب سيد بيته وله الحق ـ بحسب أصول العربية ـ أن يجير، فإن فعل كان المتعدي على من يجيره ويحميه كأنه اعتدى على البيت بأسره. وبيت عبد مناف كان أشرف بيوت قريش على الاطلاق. فحدب أبو طالب على رسول اللّه وأجاره وقام دونه ومضى الرسول لشأنه في الدعوة والجهر بما ينزل عليه من الوحي.

لما رأت قريش أنه صار في منعة بجوار أبي طالب مشى رجال من أشراف قريش إليه يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن سب آلهتهم وعيب دينهم وتسفيه أحلامهم وتضليل آبائهم، أو يخلي بينهم وبينه فردهم أبو طالب رداً جميلاً فانصرفوا عنه. ولما رأوا أن هذه الوفادة لم تفدهم شيئاً تذمروا وحض بعضهم بعضاً عليه، ثم مشوا إلى أبي طالب مرة ثانية قائلين إنهم لا يصبرون على هذه الحال! وخيروه بين أن يكفه عما يقول أو ينازلونه وإياه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ولكنه قال له يا ابن أخي إن قومك جاءوني وقالوا لي كذا وكذا فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني مالا أطيق، فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه أنه ضعف عن نصرته والقيام معه فقال[1] واللّه يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ـ حتى يظهره اللّه أو أهلك دونه ـ ما تركته ثم استعبر وبكى فلما ولى ناداه أبو طالب فقال أقبل يا ابن أخي فلما أقبل عليه قال له اذهب فقل ما أحببت فواللّه لا أسلمك لشيء أبداً.

فلما رأت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه مشوا اليه بعمارة بن الوليد وقالوا له إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله

---

(١) أخرجه الإمام الحافظ في الحلية.

ونصره واتخذه ولداً فهو لك وأسلم الينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومه وسفه أحلامهم فنقتله فانما هو رجل برجل فقال لهم أبو طالب لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ ولما رأى أبو طالب تألب قريش عليه قام في أهل بيته بني هاشم وبني المطلب ولدى عبد مناف وقد كان هاشم والمطلب من أم واحدة دون أخويهما عبد شمس ونوفل ـ ودعاهم إلى ما هو عليه من منع ابن أخيه والقيام دونه فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للجوار العربي إلا ما كان من أخيه أبي لهب فانه فارقهم وكان مع قريش ولا أدري أفضل حميته لدينه على حميته لشرف أخيه أم كانت هناك أسباب أخرى أدت إلى هذا الانفصال؟ ولا أظن أن كونه من أم أخرى غير أم أبي طالب يدعوه إلى مثل ذلك لأن هذا الاختلاف لم يكن مؤثراً هذا التأثير في قلوب العرب بين الإخوة لأن العصبية للأخ كانت عندهم فوق كل شيء، ولا يبعد عندي أن زواجه بأم جميل بنت حرب دعاه إلى مثل هذا، لأن أم جميل كانت من ألد أعداء رسول اللّٰه حتى أنها كانت تذيع عنه الأكاذيب في مجامع النساء فتشعل بتلك الأكاذيب نار العداوة في قلوبهن، ويعبر العرب عن مثل ذلك الفعل بحمل الحطب لأنه هو الذي يؤجج النيران، ولذلك ذكرت في السورة الحادية عشرة بعد المائة بلقب حمالة الحطب.

قرب وقت الحج والعرب سترد من آفاق الجزيرة لزيارة الكعبة ورأت قريش أنه لابد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد حتى لا يكون لدعوته أثر في أنفس العرب فاجتمعوا يتداولون في تلك الكلمة لأنهم إذا اختلفوا وكذب بعضهم بعضاً فإن ذلك يضعف من قولهم عند سائر العرب. فقال واحد منهم نقول كاهن فقال لهم الوليد بن المغيرة وهو ذو السن فيهم ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان وما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. فقال آخر نقول مجنون، فقال الوليد ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسواسه: فقال آخر نقول هو شاعر: فقال ما هو بشاعر لقد عرفنا

الشعر كله رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، فقال آخر نقول ساحر: قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما تقول أنت؟ قال والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا على ذلك وصاروا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها ولما خشي أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته المشهورة التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانة منها وتودد فيها أشراف أهل بيته من بني عبد شمس ونوفل، وهو على ذلك يخبرهم أنه غير مسلم رسول الله ولا تاركه لشيء أبداً وفيها يقول:

كذبتم ـ وبيت الله ـ نترك مكة ... ونظعن إلا أمركم في بلابل
كذبتم ـ وبيت الله ـ نبذي محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وفيها يقول:

فوالله لولا أن أجيء بسبة ... تجر على أشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعني بقول الأباطل

لما رأت قريش أنهم لم ينالوا من أبي طالب ما أرادوا عمدوا إلى الفتنة[1] فمن جهة الرسول أغروا به سفهاءهم وهم العدة في مثل هذه المواطن لكل من ضاد إصلاحاً فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، وهو

---

(١) يقال: فتنت الفضة والذهب إذا أذبتها بالنار لتميز الرديء من الجيد، واستعملت في الابتلاء والامتحان والاختبار ـ والمراد بها في لسان الدين تعذيب المتدين حتى يرجع عن دينه.

مـظهر لأمـر اللّه لا يستخفي منه مبـادلهم بما يكـرهـون من عيب دينهم واعتـزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم لا يبالي بما يصنع سفهاؤهم معه.

وأمـا من جهـة من اتبعـه فـإن كـل قبيلة صـارت تعـذب من دان منهـا بالإسلام أنواعاً من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها وهـم يحملونها بصبر عجيب. ولما رأى الرسول ما يصنـع بأصحـابه ـ وهـو غير قـادر على حمـايتهم مما يسـامونـه من سوء العـذاب ـ قال لهم لـو خرجتم إلى الحبشـة فإن بهـا ملكـاً لا يـظلم أحد عنـده حتى يجعل اللّه لكم فـرجاً ممـاأنتم فيه ففـروا إلى اللّه بدينهم، وهـذه كانت أول هجـرة في الإسلام وكـان المهاجـرون أولاً عشرة رجـال وأربـع نسـوة، ثم تبعهم بعد ذلـك جماعـة آخرون حتى كـانت عدتهم ثـلاثـة وثمـانـين رجــلاً، ومعهم من نسـائهم سبــع عشـرة امــرأة سـوى من خــرج معهم من أولادهم الصغار وكانوا من جميع بطون قريش.

فلما وصلوا إلى الحبشـة أكرم النجـاشي مثواهم، وأعلنوا هنـاك عبـادتهم لا يخشون شراً، فلما بلغ ذلـك قريشـاً لم يتركـوا هؤلاء الذين فـارقوهم وتـركـوا لهم البلاد يطمئنـون في منزلهم الجـديد! فـاختاروا رجلين منهم ليـذهبا الى النجـاشي ويطلبا منه ردهم الى بلادهم وأرسلوا معهما هدايا له ولبطارقته وهـذان الرجـلان همـا عبـد اللّه بن أبي ربيعـة وعمـرو بـن العـاص فلما وصـلا إلى بــلاد الحبشـة وأتحفـا البطارقة والنجاشي بـالهدايا، قالا لـه أيها الملك قـد ضوى إلى بـلادك منا لغلمان سفهاء فارقوا دين قومهم وجاءوا بـدين ابتدعـوه لا نعرفـه نحن ولا أنت وقـد بعثنا إليـك فيهم أشراف قـومهم من آبائهم وأعمـامهم وعشيرتهم لتـردهم عليهم فهم أغـلى بهم عيناً وأعلـم بمـا عابـوا عليهم وعـاتبـوهم فيـه ويـظهـر أن هذين الرجلين لم يكونا مخلصين لقومهم في هـذه الرسالة، فـإن السيدة أم سلمـة إحـدى المهاجـرات وراوية هـذا الخبر، تقول: ولم يكن شيء أبغض إلى عبـد اللّه ابن أبي ربيعة وعمـرو بن العـاص من أن يسمـع كـلامهـما النجـاشي. فلما أديـا الرسالة قال النجاشي لاها إذاً إذاً لا أسلمهم ولا يكـاد قوم جـاوروني ونزلـوا في بـلادي واختـاروني عـلى سـواي ـ حتى أدعـوهم فـأسـألهم عـما يقـول هـذان في

أمرهم؟ فان كان كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم وأحسنت جوارهم ما جاوروني، ثم أرسل إلى جماعة المهاجرين فجاءوا فقال لهم ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل، فكلمه جعفر بن أبي طالب فشرح له ما كانت عليه حالهم قبل الدعوة الإسلامية وما أمر به الرسول من ترك عبادة الأوثان والرجوع إلى الله وما وصاهم به من مكارم الأخلاق. ثم قال إن قومنا بغوا علينا وأرادوا فتنتنا عن ديننا فخرجنا إلى ديارك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً مما جاء به الرسول فقرأ له صدراً من سورة مريم وفيه حديث ميلاد المسيح فقال النجاشي هذا والذي جاء به المسيح ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون، فلما خرجا قال عمرو ابن العاص لرفيقه والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم فقال عبد الله لا تفعل! فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا قال والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. ثم غدا على النجاشي فقال أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً فسلهم عنه، فطلبهم النجاشي ولما دخلوا عليه سأل المتكلم عنهم عما قال عمرو! فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول فضرب النجاشي بيده الى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العود، فأغضب منه بطارقته ولكنه لم يحفل بذلك وقال لمعشر المهاجرين: اذهبوا فأنتم شيوم ـ ومعنى هذه الكلمة آمنون، ورد على لرجلين هداياهما.

وهؤلاء المهاجرون رجع بعضهم إلى مكة ـ قبل الهجرة الى المدينة وبعضهم أقام بالحبشة الى السنة السابعة من الهجرة وسيذكر خبرهم بعد.

كان قد أسلم قبيل الهجرة رجلان من كبار قريش مشهوران بالفتوة النجدة وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذي كان قبل أن يسلم

من أعظم المعارضين للاسلام والمنتقمين ممن أسلم.

ومما يدل على شدة شكيمته على المسلمين ما روته أم عبد اللّه بنت حثمة قالت واللّه إنا لنترحل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف علي وهو على شركة قالت وكنا نلقي منه البلاء أذى لنا وشدة علينا قالت فقال: إنه الانطلاق يا أم عبد اللّه قالت فقلت: نعم واللّه لنخرجن في أرض اللّه آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل اللّه لنا مخرجاً قالت فقال: صحبكم اللّه ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا قالت فجاء عامر (تعني زوجها) فقالت له يا أبا عبد اللّه لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا! قال أطمعت في إسلامه؟! فقلت نعم، قال: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب. قال يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام.

في مقاطعة قريش لبني هاشم والمطلب
هجرة الطائف العرض على قبائل العرب
واجابة الأنصار - البيعة - الهجرة

رأت قريش أن حيلهم قد نفدت، فرسول اللّٰه منعه وقام معه بنو هاشم والمطلب - مسلمهم وكافرهم - والمسلمون قد لاذوا ببلاد الحبشة فأمنوا بها فعمدوا الى حيلة أخرى وهي مقاطعة بني هاشم والمطلب: فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ولا يبيعونهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً، ولما أجمعوا أمرهم على ذلك كتبوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم بذلك، فانحازت بنو هاشم والمطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبة فاجتمعوا اليه وخرج منهم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم.

أقام أبو طالب في الشعب أكثر من سنتين وهو ومن معه يقاسون أشد الجهد من مقاطعة قريش لهم، والرسول مع ذلك مستمر على دعوته يدعوهم ليلاً ونهاراً سراً وإعلاناً منادياً بأمر اللّٰه لا يتقي فيه أحداً من الناس.

كان في رجالات قريش من تأثر لحال بني هاشم وبني المطلب وأعظمهم في ذلك أثراً كان هشام بن عمرو، ومن بني عامر بن لؤي وكان ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، وكان ذا شرف في قومه فمشى إلى زهير ابن أبي أمية من بني مخزوم، وقال له يا زهير: أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم: أما إني أحلف باللّٰه أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته الى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً!! قال ويحك يا هشام انما أنا رجل واحد، واللّٰه لو كان معي آخر لقمت في نقض

الصحيفة حتى أنقضها، قال قد وجدت رجلاً قال من هو؟ قال أنا، قال زهير أبغنا رجلاً ثالثاً فذهب إلى مطعم بن عدي وهو سيد بيت نوفل بن عبد مناف، فقال له مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه أما والله لئن أمكنتوهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً، قال ويحك ماذا أصنع فانما أنا رجل واحد، قال وقد وجدت ثانياً قال من هو، قال أنا قال أبغنا ثالثاً قال قد فعلت، قال من هو، قال زهير بن أبي أمية قال أبغنا رابعاً فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال لمطعم وأعلمه بما اتفقوا عليه، فقال أبغنا خامساً فذهب الى زمعة بن الأسود من بني أسد بن عبد العزي فكلمه وذكر له قرابة بني هاشم والمطلب وحقهم، فقال وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد. قال نعم. وسمى له القوم فاتعدوا حطم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هناك وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدؤكم فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بن أبي أمية وعليه حلة فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس، فقال يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكي لا يباعون ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة فقال أبو جهل بن هشام كذبت والله لا تشق فقال زمعه أنت أكذب ما رضينا كتابتها حيث كتبت، قال أبو البختري صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به، قال المطعم بن عدي صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك فقال أبو جهل هذا أمر قضي بليل تشوور فيه بغير هذا المكان وأبو طالب جالس في ناحية المسجد فقام المطعم الى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها الا باسمك اللهم.

مكثت الحال على ذلك والمسلمون كل يوم في ازدياد من قريش ومن غيرهم، ولا يتمكن أعداء الرسول من الاعتداء عليه حتى كانت السنة العاشرة من النبوة فأصيب الرسول بمصيبة عظيمة وهي وفاة عمه أبي طالب

وزوجه خديجة بنت خويلد في يومين متقاربين في شهر شوال، وكانت خديجة له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، وكان عمه عضداً وحرزاً في أمره ومنعه وناصراً على قومه وكان موتهما قبل الهجرة بثلاث سنين فنالت قريش من أذى الرسول ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً.

رأى الرسول أنه لابد له من عضد يؤازره ويدفع عنه أذى قومه حتى يؤدي رسالة ربه فذهب إلى الطائف ـ وبها بطون ثقيف ـ وعمد إلى أشرافهم وذوي الرئاسة منهم وهم أخوة ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفيون فجلس إليهم ودعاهم إلى اللّه وكلمهم بما جاء له من نصرة الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فرد عليه ثلاثتهم رداً قبيحاً فيئس منهم وعاد عنهم فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه. ولما قدم مكة أرسل إلى المطعم بن عدي يخبره أنه يدخل مكة في جواره فأجابه إلى ذلك ثم تسلح المطعم وأهل بيته حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول اللّه أن أدخل فدخل رسول اللّه فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله ففي ذلك يقول حسان بن ثابت في رثاء المطعم لما توفي:

أجرت رسول اللّه منهم فأصبحوا   عبيدك ما لبى مهل وأحرما

كان الرسول يقوم في مواسم الحج داعياً من أقبل الى مكة من سائر العرب ويقرأ عليه القرآن ويطلب منهم أن يقوموا دونه حتى يؤدي رسالة ربه فكانوا لا يجيبونه الى ذلك، ومنهم من يرد عليه رداً قبيحاً، عرض ذلك على بني عامر بن صعصعة فقال كبيرهم أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك اللّه على من خالفك أن يكون لنا الأمر من بعدك، قال الأمر للّه يضعه حيث يشاء، فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك اللّه

كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، وعرض ذلك على بني حنيفة من ربيعة فلم يكن أحد أقبح رداً منهم.

في ذلك الوقت كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين الأوس والخزرج، وكانت الخزرج أكثر عدداً ففكر الأوس أنهم يستعينون بقريش فيحالفونهم على بني عمهم من الخزرج فأرسلوا لذلك وفداً فيهم أبو الحيسر أنس بن رافع وإياس بن معاذ، فلما علم الرسول بمقدمهم جاءهم فجلس اليهم وقال لهم هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا وما ذاك، قال أنا رسول اللّه بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم شيئاً من القرآن، فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حدثاً ـ: أي قوم هذا واللّه خير مما جئتم له فأخذ أبو الحيسر حفنة من حصباء ورمى بها في وجه إياس، قال له: دعنا منك لقد جئنا لغير هذا فسكت إياس وقام الرسول عنهم وانصرفوا إلى المدينة.

كان عقب انصراف هذا الوفد أن حصل في يثرب حرب شديدة بين الأوس والخزرج ويسمى يومها في التاريخ يوم بعاث هو آخر حروبهم وانتصرت فيه الأوس نصراً مؤزراً بعد أن انهزمت أول مرة.

في الموسم الذي كان بعد هذه الحرب أقبل مكة للحج جماعة من الخزرج فجاءهم الرسول ودعاهم الى الاسلام كما كانت عادته وكان في أنفسهم شيء مما كانوا يسمعونه وهم في المدينة من يهودها عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره يستظهر به اليهود عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه النبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه إلى ما دعاهم بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام فقالوا له إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم اللّه بك فسنقدم عليهم فندعوهم لأمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم اللّه عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، وكانوا ستة نفر من الخزرج فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول اللّه ﷺ ودعوهم

إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره.

فلما كان الموسم الذي قبل الهجرة بسنة وثلاثةأشهر - وافى الموسم من أهل المدينة اثني عشر رجلاً، فلقوا رسول الله بالعقبة وبايعوه على الاسلام بيعة تسمى في التاريخ بيعة النساء، وإنما سميت بذلك لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء وهي هذه الآية، **﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾**[1].

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث معهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار بن قصي وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقريء وكان يؤمهم في المدينة لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض وكان إسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب معهم سبباً كبيراً من أسباب دخول أشراف أهل يثرب في الإسلام، فأسلم أسيد بن حضير من الأوس وكان أبوه قائد الأوس في يوم بعاث وأسلم سعد بن معاذ سيد بني عبد الأشهل من الأوس، ولما أسلم ذهب إلى قومه في ناديهم، فقال يا بني الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة، قال فإن كلام نسائكم ورجالكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قالوا فوالله ما أمسي في دار بني عبد الأشهل رجلا ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة.

وكان لأسعد بن زرارة الذي نزل عليه مصعب قدم ثابتة في دعوة أهل المدينة إلى الإسلام حتى لم تبق فيها دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون قليلة من الأوس أخرها عن الإسلام صيفي بن الأسلت المكني بأبي قيس، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه، فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير، وخرج من المسلمين عدد كبير، ومعهم حجاج من قومهم لم يزالوا على الشرك، وأرسل المسلمون إلى رسول

---

(١) سورة الممتحنة : الآية ١٢.

اللّه يـوعدونـه المقابلة عنـد العقبة من أوسط أيـام التشرق، فلما انتهى أمـر الحج ومشـاعره وحـان الموعـد خرج المسلمـون من رحـالهم بعـد انقضـاء ثلث الليـل يتسللون تسلل القـطا مستخفـين حتى اجتمعـوا في الشعب عنـد العقبة، وكـانت عدتهم ثلاثـة وسبعين رجـلاً وامرأتـين ـ هما نسيبـة بنت كعب من بني مازن بن النجـار الخـزرجية، وأسـماء بنت عمـرو إحـدى نسـاء بني سلمـة من الخـزرج، واستمروا منتظرين الـرسول حتى جـاءهم ومعه العبـاس بن عبد المـطلب عمه، وهو يومئـذ على دين قـومه إلا أنـه أحب أن يحضر أمر ابن أخيـه ويتوثق لـه فلما جلس كان أول متكلم العباس فقـال: يا معشر الخـزرج إن محمداً منـا حيث قد علمتم وقـد منعناه من قـومنا ممن هـو على مثـل رأينا فيـه فهو في عـز من قـومـه ومنعـة في بلده وإنه قـد أبى إلا الانحيـاز إليكم واللحـوق بكم فـإن كنتم تـرون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومـانعوه ممن خـالفه فـأنتم وما تحملتم من ذلـك، وإن كنتم تـرون أنكم مسلمـوه وخـاذلـوه ـ بعـد الخـروج بـه اليكم ـ فمن الآن فـدعوه فـانـه في عـز ومنعـة من قـومـه وبلده. فقـال المتكلم من الخـزرج: قـد سمعنـا ما قلت فتكلم يـا رسول اللّه فخـذ لنفسـك ولـربـك ما أحببت، فتكلم عليه السلام فتـلا عليهم القرآن ودعـا إلى اللّه ورغب فيه ثم قـال أبايعكم عـلى أن تمنعوني مما تمنعوني منه نساءكم وأبناءكم فأخذ سيـدهم البراء بن مغـرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثـك بالحق لنمنعـك مما نمنـع منه أزرنـا فبايعنـا يا رسـول اللّه فـإنا واللّه أهـل الحروب وأهـل الحلقة ورثنـاها كـابراً عن كـابر، فقـال أبو الهيثم بن التيهـان، يا رسـول اللّه إن بيننا وبـين الرجـال حبالاً وإنـا قـاطعـوهـا (يعني يهـود المـدينـة) فهـل عسيت: إن نحن فعلنـا ذلـك ثم أظهـرك اللّه ـ أن تـرجع الى قـومك وتـدعنا، قـال: فتبسم الرسـول ثم قال: الـدم الـدم والهـدم الهـدم، يعني أنا منكم وأنتم مني، أحـارب من حـاربتم وأسـالم من سـالمتم، ثم قـال لهـم اخـرجـوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكـونـوا عـلى قـومهم بمـا فيهم فـأخرجـوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعـة من الخـزرج، وثـلاثـة من الأوس فقـال لهم: أنتم على قومكم بمـا فيهم كفلاء ككفالة الحـواريين لعيسى بن مـريم، وأنا كفيل على قومي وها هي أسماء النقباء:

(١) أسعد بن زرارة من بني النجار بن ثعلبة من الخزرج.
(٢) سعد بن الربيع من بني مالك بن امريء القيس من الخزرج.
(٣) عبد اللّٰه بن رواحة من بني عمرو بن امرىء القيس من الخزرج
(٤) رافع بن مالك من بني زريق بن عامر من الخزرج.
(٥) البراء بن معرور من بني سلمة بن سعد من الخزرج.
(٦) عبد اللّٰه بن عمرو من الخزرج بني سلمة بن سعد من الخزرج.
(٧) عبادة بن الصامت من بني غنم بن سالم من الخزرج.
(٨) سعد بن عبادة من بني ساعدة من الخزرج.
(٩) المنذر بن عمرو من الخزرج.
(١٠) أسيد بن حضير من بني عبد الأشهل من الأوس
(١١) سعد بن خيثمة من بني كعب بن حارثة من الأوس.
(١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل من الأوس.

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول اللّٰه مبايعاً البراء بن معرور، وبنو النجار يزعمون أن أول من بايع هو أسعد بن زرارة ،وبنو عبد الأشهل يقولون إنه أبو الهيثم بن التيهان: والقول الأول أثبت لأن البراء بن معرور كان كبير القوم وبعد أن انتهت المبايعة أمرهم رسول اللّٰه أن يعودوا إلى رحالهم فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشاً فجاء رؤساؤهم إلى منازل الأنصار وقالوا يا معشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم الى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وإنه واللّٰه ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم فانبعث من هناك من مشركين يحلفون باللّٰه ما كان من هذا شيء وما علمناه وهم في يمينهم صادقون لأنهم لم يعلموه، وقال لهم عبد اللّٰه بن أبي بن سلول ـ وهو سيد من سادتهم لم يسلم: إن هذا الأمر جسيم: ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا وما علمته فانصرفوا عنه.

نفر الناس من منى وتجسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد أن بايع الأنصار.

بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج الى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال لهم إن اللّه عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها فخرجوا أرسالاً رجالاً ونساء إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين لما رأت قريش أن رسول اللّه صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم وغير بلدهم ورأت خروج أصحابه من المهاجرين إليهم وعرفوا أنه أجمع لحربهم فلم يبق إلا أخذ الحيطة لذلك.

اجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمره وكان بها أشراف قريش وذو و السن فيهم فقال قائل منهم: الرأي أن نحبسه في الحديد ونغلق عليه باباً ثم نتربص به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم فقال شيخ فيهم: ما هذا لكم برأي لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم. فقال آخر منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فواللّه لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا أصلحنا أمرنا وأنفسنا كما كانت. فقال ذلك الشيخ: ما هذا لكم برأي!!؟ ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقة وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه، حتى يتابعوه عليكم ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، فقال أبو جهل بن هشام: إن لي لرأياً فيه ما أراكم وقعتم عليه، وهو أن نختار من كل قبيلة شاباً فتى جلداً نسيباً وسيطاً فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً فيعمدون اليه فيضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فتستريح منه، فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً. فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم فكان رأيه هذا مقبولاً عند جميعهم واتفقوا عليه وعينوا الفتيان والليلة التي ينفذون فيها ماأرادوا.

علم الرسول عليه السلام بهذا الخبر، وبما أجمع عليه أعداؤه فتوجه إلى صديقه أبي بكر وأخبره أن اللّٰه قد أذن له بالهجرة فسأله أبو بكر الصحبة فأجابه إليها ثم هيأ ما يلزم لهذا السفر راحلتين ودليلاً خبيراً يأخذ بهما أقرب الطرق واتعدوا أن يكون السير في الليلة التي اتفقت فيها قريش على الفتك به في صبحها، وفي تلك الليلة أمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ويتسجى ببرده لئلا يرتاب أحد في وجوده ببيته، وأمره بأن يبقى بمكة حتى يؤدي عنه ودائعه وكان كل من عنده شيء يخشى عليه بمكة يضعه عنده.

في الليلة التي تجمهر فيها فتيان قريش ليفتكوا به خرج إلى بيت أبي بكر، وخرجا معاً من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ثم عمدا إلى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة فدخلاه وكان عبد اللّٰه بن أبي بكر يتسمع لهما الأخبار وما يقال عنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يريحها عليهما يأتيهما إذا أمسى في الغار ليخفى أثر عبد اللّٰه بن أبي بكر، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام اذا أمست بما يصلحهما.

أصبحت فتيان قريش تنتظر خروج الرسول عليهم وإذا بهم باتو يحرسون على بن أبي طالب لا محمد بن عبد اللّٰه ولما علمت بذلك قريش هاجت وأرسلت الرسل في طلبه من جميع الجهات وجعلوا لمن يأتيهم به حياً أو ميتاً مائة ناقة فذهبت تلك الرسل يمناً وشمالاً ولكنها عادت بالخيبة.

أقام الرسول وصاحبه بالغار ثلاثة أيام، حتى علما أن قد سكن الطلب فجاءهم الدليل، حسبما اتفقا معه بالراحلتين فركباهما وأردف أبو بكر خلفه عامر بن فهيرة ليخدمهما في الطريق، والدليل اسمه عبد اللّٰه بن اريقط فسلك بهما إلى الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان ثم سلك بهما على أسفل أمج ثم عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديداً ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرار ثم ثنية المرة، ثم القفا، ثم مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاج، ثم سلك بهما مرجح مجاج، ثم تبطن بهما مرجح ذي العصوين ثم

بطن ذي كشد، ثم أخذ بهما على الجداجد، ثم على الأجرد، ثم ذا سلم من بطن أعداء مدلجة تعهن، ثم على العبابيد، ثم أجاز بهما الفاجة، ثم هبط بهما العرج وهي من منازل الجادة بين مكة والمدينة، ثم سلك بهما من العرج إلى ثنية الغائر عن يمين ركوبة حيث هبط بهما بطن ريم ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف وذلك يوم الإثنين، لثمان خلت من ربيع الأول. لثلاث وخمسين سنة مضت من مولده، وهو يوافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من ميلاد المسيح عليه السلام.

وإلى هنا انتهى القسم الأول من حياته عليه الصلاة والسلام فنتبعه بفصلين: أولهما في التشريعات المكية والثاني في آثار هذه المدة.

التشريع المكي:

مكث الرسول في مكة من وقت النبوة إلى أن هاجر إلى المدينة اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر و٢١ يوماً إذا اعتبرنا آخر يوم له هو يوم الوصول إلى قباء أنزل عليه في أثنائها معظم القرآن والذي نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقي ـ وهو اثنتان وعشرون سورة ـ نزلت بالمدينة ومنها أكبر سور القرآن وهي(٢) البقرة (٣) آل عمران (٤) النساء (٥) المائدة (٨) الأنفال (٩) التوبة (٢٤) النور (٣٣) الأحزاب (٤٧) القتال (٤٨) الفتح (٤٩) الحجرات (٥٧) الحديد (٥٨) المجادلة (٥٩) الحشر (٦٠) الممتحنة (٦١) الصف (٦٢) الجمعة (٦٣) المنافقون (٦٤) التغابن (٦٥) الطلاق (٦٦) التحريم (١٠٠) النصر. وما عدا ذلك فهو مكي.

وقد اشتمل التشريع المكي على أهم ما جاء الرسول ﷺ لأجله وبين روحه قوله تعالى في سورة الشورى **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾**(١) ثم قال **﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾**(٢).

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٥.

امتاز التشريع المكي بما يعبر عنه أبو إسحاق الشاطبي في الموافقات بالتشريع الكلي، وإنما سماه كذلك لأنه لم يتعرض فيه إلى تشريع أحكام جزئية خاصة بحال دون حال أو نوع دون نوع، وكله ـ من الشرائع الأبدية التي لا يخالف فيها دين ديناً ومن مصلحة العالم أجمع ـ فيما مضى وفيما هو آت ـ أن يكون متبعاً لها متقاداً لما جاء فيها ولذلك أطلق على ملته في القرآن في سورة الحج ﴿**ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل**﴾[1] وأعلن أنه إنما جاء مصدقاً لمن سبقه من الأنبياء وقال له الله عنهم ـ في سورة الأنعام ـ بعد أن قص عليه اسماءهم ﴿**أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده**﴾[2] إلى غير ذلك.

وأهم ما جاءت به الآيات المكية هو:

(١) التوحيد ورفض الأوثان والأصنام فلا يكون بين العبد وبين ربه واسطة.

معلوم أن العرب كانت عامتهم تدين بالوثنية إلا قليلاً منهم فلم يكن بد من مقاومة شديدة للأوثان والأصنام، وكل ما هو منها بسبيل، ولذلك رأينا معظم الآيات المكية على هذا النهج تثبت التوحيد وتقيم عليه وتناقش المعارضين وتذم الشرك والأوثان والأصنام وتنعي على المتوسلين بها مذاهبهم تصريحاً وتلميحاً فضربت الأمثال بالأمم السابقة وما أصيبوا به من جراء شركهم بالله وتكذيبهم للأنبياء والرسل. وكررت ذلك تكراراً مؤثراً بأساليب مختلفة. لأن أشد ما يفعل في النفوس لإثبات التعاليم فيها إنما هو التكرار مع تنوع الأساليب. وأكثر الأنبياء ذكراً في آيات الكتاب موسى صلوات الله عليه وما حاور به فرعون مصر من سؤال وجواب لإثبات ألوهية الله وما اتصف به من عظيم الصفات ثم ما كان من شأنه مع قومه حينما كانت تحن أنفسهم إلى

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

الوثنية فيتخذون العجل الذهبي معبوداً ثم ما كان من تحذيره إياهم عن الوقع في هذا الشرك، وإيعادهم بالشر إذا هم عادوا إليه : وقلما نرى سورة من السور المكية الكبرى خلت من اسمه. ذكرهم بما كان عليه أبوهم ابراهيم من كراهة الأوثان وتكسيرها ورفض عبادتها وضرب المثل فقال ﴿**وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي. فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**﴾[1] ضرب لهم الأمثال بالأمم الخالية من عرب وغيرهم كل ذلك التأثير في هذه الأنفس التي أشربت حب هذه المعبودات الباطلة.

وجر ذلك ـ بالضرورة ـ إلى تحريم كل ما ذبح على النصب أو جعل فيه شيء لآلهتهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغيرها، وهذا من باب المقاومة كما حرمت الشريعة ما لم يذكر عليه اسم اللّه ليكون الإنسان منهم على ذكر دائم من رفض الوثن والصنم وهذه حركة مضادة لما كانوا يفعلون فانهم كانوا يذبحون باسم أصنامهم فأمروا أن يذبحوا باسم اللّه حتى ينسوا تماماً ما كانوا عليه، ومن هنا جاءت الشريعة طالبة بعد ذلك أن جميع الأفعال التي يشرع فيها الإنسان لابد أن تفعل باسم اللّه لا باسم غيره من المعبودات ومن هنا أيضاً أقفلت الشريعة عليهم باب التصوير والتمثيل لأن الأمر ـ كما علمتم يحتاج إلى مقاومة شديدة فإن النفس المتشبعة بالشيء الذي الذي نهيت عنه لا يؤمن أن تعود إليه متى ظهر أمامها فإنها إذ ذاك تحن اليه للحركة النفسية مداخل غريبة، ولذلك قال علماء الأخلاق إذا أهمك أن تنزع نفس عن شيء تعودته وأنست به فأخفه عنها فإن رؤيتها له مرة واحدة تدك معالم الأوامر والنواهي وتحدث مقاومة شديدة لما فسرت عليه النفس من اتباع

---

(١) سورة الأنعام: الآيات ٧٥ ـ ٧٩.

الأوامر. مثلوا أمام نظركم حالة شارب الدخان إذا أمره الطبيب بتركه واقتنع بأن التدخين غير مفيد فتركه ثم رأى سيجارة بيد غيره يدخن بها لا شك أنه يحس بحركة في نفسه تذكره بذلك الإلف القديم فيحتاج عند ذلك إلى عزيمة قوية يغالب بها ذلك الحنين، ولا ينسى الأمر بتاتاً إلا بغد مرور زمن طويل والأمثلة على ذلك كثيرة فحماية لهذا الضعف الإنساني كرهت التصاوير والتماثيل من باب الاحتياط وسد الذرائع، ولذلك لما رأى عمر بن الخطاب بعض المسلمين يتبرك بالشجرة التي بايع عندها رسول اللَّه ﷺ بأصحابه في الحديبية أمر للحال بقطعها وإعفاء أثرها.

(٢) إثبات يوم آخر يجازي فيه كل امريء بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقد نصبت الآيات المكية على ذلك كثيراً محذرة من شره مرغبة في خيره. وكررته تكراراً عظيماً يقرب مما كان في أمر التوحيد والأوثان ونصت على أن العدل سيجري مجراه بعد أن توزن أعمال الانسان فمن غلب خيره شره فاز ومن غلبت شروره خاب إذ لا يمكن أن يعقل في الوجود الإنساني من هو خير محض أو من هو شر محض، والموازنة بين أعمال الخير وأعمال الشر بحسب ما كانت نتيجتها في الناس.

وقد وصف القرآن دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافاً ترغب وتخف وكرر ذلك في مواطن كثيرة منه.

لم يجعل اليأس يتسرب إلى النفس الإنسانية بما اجترمته من الخطايا ولا الآمال الكاذبة تستولي عليها فتطلب النجاة من غير وجهها بل جعل عمل الخير والشر عنواناً على ما يناله صاحبه مهما دق ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾[1] ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾[2] أخاف أصحاب الشر وفتح أمامهم باب الرجوع إلى فعل الخير وأخبرهم أن الحسنة

---

(١) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٢) سورة الزلزلة: الآية ٧ ـ ٨.

إذا تلت السيئة محتها. والذي يفهم من القرآن أن الحسنات المؤثرة في محو السيئات إنما هي العملية.

(٣) بين لهم الخصال التي تقرب إلى اللّه والتي تبعد منه ومعظمها يرجع إلى الأخلاق والملكات في معاملة الناس بعضهم مع بعض: يقول في سورة الشورى **﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على اللّه﴾**[١] ثم يقول **﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾**[٢].

ويقول في سورة الأعراف **﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾**[٣] ويقول في الشورى **﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾**[٤] ويقول فيها **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن اللّه غفور شكور﴾**[٥] وقال في سورة فصلت **﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾**[٦] جميع لهم في سورة الإسراء وصايا جميلة بأبدع أسلوب وأشده تأثيراً فيرونه يتلى كل وصية بفائدتها أقرأوا ـ إن شئتم ـ من قول الكتاب **﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾**[٧] إلى قوله **﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾**[٨] وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان بصفات يطلب منهم أن ألا يتعدوها لتكون لهم صفة عباد الرحمن وصدرها **﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾**[٩] إلى آخر السورة واستقصاء ذلك يستدعي وقتاً طويلاً وانما نحن نشير إلى ذلك ونطلب منكم

---

(١) سورة الشورى: الآية ٤٠.

(٢) سورة الشورى: الايات: ٤١ ـ ٤٣.

(٣) سورة الأعراف: الاية ١٩٩.

(٤) سورة الشورى: الآية ١٥.

(٥) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٦) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٧) سورة الإسراء: الآية ٢٣.

(٨) سورة الإسراء: الآية ٣٩.

(٩) سورة الفرقان: الآية ٦٤.

مراجعته ولا تجعلوا بينكم وبينه سداً من الأوهام حتى تعلموا بما كان يوصيهم وكيف كانوا يجيبونه؟؟ فانه لا شيء أدل على سيرته وآدابه وتعاليمه من الكتاب الذي أنزل اللّه عليه.

(٤) عبادات عملية تربطهم باللّه وتوجههم نحو الخير، والبدني منها هو الصلاة فقد ورد الأمر بأدائها في كثير من الآيات المكية وقد علمه الوحي كيف يؤديها ـ كما ورد في الأخبار الصحيحة ـ والصلاة وحدها هي التي فصلت تمام التفصيل بمكة. وتفصيلها انما كان عملياً لأن آيات الكتاب لم تبين بصراحة أجزاءها ولا أوقاتها وانما أخذ منها بطريق الإشارة، وقد نقلت نقلاً عملياً. وقد وصف القرآن تلك الصلاة التي أمر بها بأنها تنهي عن الفحشاء والمنكر واعتبر في سورة الماعون ممن يستحقون الويل ﴿**الذين هم يراءون**﴾[1] وقد اختلف المؤرخون في الوقت الذي فرضت فيه الصلاة، فقال بعضهم: انها فرضت ليلة الإسراء حينما عرج برسول اللّه إلى الملأ الأعلى، وقال آخرون: بل قبل ذلك.

ونحن نقول كلمة عن الإسراء والمعراج ثم نتبعها بما يظهر لنا: الإسراء مصدر أسرى يقال أسرى به أي جعله يسري: والسري هو السير ليلاً ويراد به ـ في لسان المحدثين ـ تلك السياحة الليلية التي وصل فيها رسول اللّه من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ليريه اللّه من آياته، والمعراج مأخوذ من العروج وهو الصعود: والمعراج أداته يعني السلم المعد له ويراد به صعود رسول اللّه الى الملأ الأعلى.

الإسراء: ورد ذكره في الكتاب في أول سورة سميت باسمه قال تعالى ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا**﴾[2] وقد اتفق المؤرخون على وقوع الحادثة ورسول

---

(١) سورة الماعون: الآية ٦.

(٢) سورة الاسراء: الآية ١.

اللَّه بمكـة لأن السـورة مكيـة ولكنهم لم يعينـوا وقتهـا بـالضبط وإن رسـول اللَّه أخبر بها قومه في صبح تلك الليلة فكانت مثاراً لعجبهم وسخريتهم وصدق بها المؤمنون وفي مقدمتهم أبو بكـر الـذي سمى في ذلك اليـوم بالصـديق ـ وكذب بها المشركون وبعض الضعفاء المفتونين من المسلمين حتى أن بعضاً منهم ارتد.

واختلف المتكلمون في أمر الإسراء: فروى عن معـاوية بن أبي سفيـان أن الإسراء كان رؤيـا صادقـة رآها رسـول اللَّه ﷺ. وروى عن عائشـة أن الإسراء إنمـا كان بـروحه لأن جسمـه لم يزل من مكـانه ونـرى أن نتيجة القـولين واحـدة لأن الإسراء بالـروح ليس معناه أن الجسم قـد مات إذ لم يقـل بهذا القـول أحد لا عائشة ولا غيرها، وإنما تلك الروح الطاهرة أطلعهـا اللَّه في حالـة النوم عـلى شيء من الآيات التي هي في جهات بعيـدة عن موطنها، والـرؤيا ـ كـما قدمنـا ـ نـوع من الوحي لـلأنبياء ويستـدل أصحاب هـذا الرأي بقـوله تعـالى في السورة نفسهـا **﴿وما جعلنـا الرؤيـا التي أرينـاك إلا فتنـة للنـاس﴾**(١) وقـد قـال الحسن البصري راوي حديث الإسراء فأنزل في ذلك قوله تعالى **﴿وما جعلنا الرؤيا﴾**(٢) الخ.

وجمهور المسلمين على أن الإسراء كـان بجسمه ويستـدلون عـلى رأيهم بأن الإسراء لو كان رؤية مـا كان هنـاك داع لاستغراب المشـركين وضعفـاء المسلمين لأنـه مـا الـذي يستبعـد من اطـلاع إنسـان عـلى أقصى مـا في الأرض في رؤيـا يراها؟

بعض المؤرخين يميلون إلى رأي عائشـة ومعاويـة، لا لأنهم يحيلون أن يقع لـلأنبياء أمـر خارق للعـادة، بـل لأنهم لا يتمسكـون من هـذه الخـوارق إلا بمـا شـاهده رواتـه عيانـاً وصرحـوا بمشاهـدته في رواياتهم ووصـل اليهم من طـرق مأمونة الخطأ أو صرح به الكتـاب. قالـوا إن إقدام عـائشة ومعـاوية عـلى القول بأن الإسراء كـان رؤيا صـادقة يـدل على أن هـذا القول لم يكن بـدعاً في زمنهـما

---

(١) سورة الاسراء: الآية ٦٠.

(٢) سورة الاسراء: الآية ٦٠.

لأنه لم ينقل إلينا التاريخ أن أحداً قام في وجههما راداً عليهما رأيهما. بل بالعكس رأينا إبن إسحق يقول فلم ينكر ذلك من قولهما القول الحسن فأنزل اللّه في ذلك ﴿**وما جعلنا الرؤيا**﴾(١) الخ وعائشة زوج الرسول ـ وإن لم تكن كذلك حين وقوع الحادثة ـ أدرى الناس بما كان من حوادثه التي أكرمه اللّه بها، فمن البعيد أن تكون أقدمت على هذا القول من غير توقيف منه، والمعروف عنها أنها كانت تسأله عن مشكلات القران فيفسرها لها. ومعاوية ذلك خليفة للمسلمين فيبعد أن يظهر برأي يتفق على خلافه جمهور أمته خصوصاً في مثل هذه الحادثة الكبرى ثم لا يقوم في وجهه الصحابة معارضين على حين أنهم كانوا يردون عليه القول رداً شديداً في أيسر الأمور فكيف بهذا الأمر الجلل، لما رجع هؤلاء المؤرخون إلى الكتاب في أمر هذه الحادثة وجدوه يقول ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا**﴾(٢) والمتفق عليه أن المراد بعبده محمد ﷺ وإطلاع اللّه نبيه في نومه على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئاً عن إطلاعه إياه في يقظته لأن رؤيا الأنبياء حق ـ تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الإسراء إلى عبده والروح إذا جلى لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات اللّه وعجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلاً.

أما استغراب المشركين فأمره ظاهر لأنهم قوم معاندون يريدون إظهار رسول اللّه أمام الناس بما ينفرهم فيكفي ـ لأن يجدوا فرصة لذلك ـ أن يسمعوا منه عليه السلام أسرى بي الليلة إلى بيت المقدس، وعند ذلك يكبرون في أنفس الناس قوله، وقد كان يقول بعضهم لبعض ـ كما جاء في الكتاب ـ ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾(٣).

---

(١) سورة الأسراء: الآية ٦٠.

(٢) سورة الأسراء: الآية ١.

(٣) سورة فصلت: الآية ٢٦.

قال ابن إسحق بعد أن ذكر القولين: والله أعلم أي ذلك كان قد جاء وعاين فيه ما عاين من أمر الله على أي حاليه ـ نائماً أو يقظاً ـ كل ذلك حق وصدق ا هـ.

أما المعراج فلم يرد ذكره في القرآن صريحاً ولكن تضافرت به الأخبار ورواه جمع من الصحابة وأخرجته كتب الصحاح ولكن هذه الروايات لم تتفق في شرح حوادثه، لذلك قال بعض المحدثين إنه حصل جملة مرات منها المرة التي كانت ليلة الإسراء وأصحاب الإسراء الروحي يقولون بالمعراج الروحي، والجمهور يقولون إنه بجسمه وأكثر من فصل أحاديث الإسراء والمعراج الروحي والجمهور يقولون إنه بجسمه وأكثر من فصل أحاديث الإسراء والمعراج أحمد بن محمد القسطلاني في كتابه المسمى بالمواهب اللدنية فقد كتب فيها نحواً من ٤٥ صفحة فليراجعها من أحب زيادة التوسع، ودافع محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن رأي يقول بالإسراء الجسمي.

لما كان كثير من المحدثين يرون أن الصلاة فرضت ليلة المعراج لزم أن يكون في أوائل البعثة وقد أغرب بعض الرواة فجعله أن يوحي إليه ولكنهم لم يعولوا على هذه الرواية وقد جعله ابن إسحق بعد فشو الإسلام بمكة في قريش وفي القبائل كلها ولكنه سرد تاريخه قبل أن يذكر وفاة عمه أبي طالب. ويلزم من ذلك أن الرسول وأصحابه لم يكونوا في أول الأمر يصلون الصلوات الخمس، وإنما كانوا يصلون صلوات أخرى ـ وبذلك قال جمع من المحدثين.

وخلاصة القول أن الصلاة فرضت على المسلمين من أول الدعوة وبعد ذلك بزمن لم يحدد تماماً فرضت الصلوات الخمس فعلمه الوحي اعداد ركعاتها وأوقاتها والشكل الذي تفعل به. ومما فرض بمكة الزكاة فإنا قلما نجد من الأوامر المكية ذكر الصلاة إلا وبجانبه إيتاء الزكاة وطلبت الزكاة ما يخرج من الأرض في سورة الأنعام ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾[1] إلا أن هذه الحقوق

(١) سورة الإنعام : الآية ١٤١.

الـواجبـة لم تفصـل بمكـة فقـد كـان ذلــك مــوكـولاً لما في النفـوس من الجـود وبحسب حاجة الناس.

ومما يلفت النظر إلى الآيات المكية أن قارئها يحس فيها بأمـر مدهش ذلـك أن الـرسول ﷺ كـان بمكة مضـطهداً في حـاجة إلى من يـدفع عنـه أذى أعدائـه الـذين وقفوا في سبيـل دعوتـه في ذلك الحـين كانت الآيـات المكيـة تبلغ لـه من اللّه على غايـة من الشدة ممـا يدل عـلى أن الرسـول كان عـلى يقين من اللّه تـام بأن العاقبة له وهو مرة يهان من قومـه الذين تمـالـؤا عليه ومـرة يرد أقبـح رد من العرب الذين يردون الموسم، وهـا نحن أولاء نمثل أمـامكم تلك الشدة ممـا نتلوه عليكم من الآيـات ﴿ولتعلمن نبأه بعـد حـين﴾[1] ﴿إنـا لننصر رسلنـا والـذين آمنـوا في الحياة الـدنيا ويـوم يقوم الاشهـاد﴾[2] ﴿سنريهم آيـاتنا في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبـين لهم أنه الحق﴾[3] ﴿أكفـاركم خير من أولئكم أم لكم بـراءة في الزبر، أم يقولون نحن جميع منتصر، سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾[4] ﴿ولو تـرى إذ فزعوا فلا فوت وأخـذوا من مكان قـريب﴾[5] ﴿قل إمـا تريني مـا توعـدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾[6] ﴿فقد كذبـوا فسيأتيهم أنبـاء ما كـانوا بـه يستهزؤن﴾[7] ﴿وقل الحمد للّه سيريكم آياته فتعرفونها﴾[8] ﴿فـاصبر إن وعـد اللّه حق ولا يستخفنـك الذين لا يـوقنون﴾[9] ﴿ولنـذيقنهم من العـذاب الأدنى دون العـذاب الأكبـر لعلهم يــرجعـون﴾[10] ﴿فــأعـرض عنهم وانتــظر إنهم منتـظرون﴾[11] ﴿فـارتقب انهم مــرتقبـون﴾[12] إلى غــير ذلـك من الآيــات الشديدة الوقع والتي ظهر نبؤها بعد حين.

كان يفعل الأمـر ويرغب بـه استمالـة عظمـائهم لما كـان عليه من الـرأفة

(١) سورة ص: الآية ٨٨.
(٢) سورة غافر: الآية ٥١.
(٣) سورة فصلت: الآية ٥٣.
(٤) سورة القمر: الآية ٤٣.
(٥) سورة سبأ: الآية ٥١.
(٦) سورة المؤمنون: الآيات ٩٣ ـ ٩٤.
(٧) سورة الشعراء: الآية ٦.
(٨) سورة النمل: الآية ٩٣.
(٩) سورة الروم: الآية ٦٠.
(١٠) سورة السجدة: الآية ٢١.
(١١) سورة السجدة: الآية ٣٠.
(١٢) سورة الدخان: الآية ٥٩.

بهم وإرادة الخير لهم ويكون من نتائجه أن صغيراً من المسلمين أعرض عنه فيجيئه الوحي مشتداً ومنها كما حصل في حادثة عبد اللّه بن أم مكتوم الأعمى فقد حدث أن رسول اللّه قابل جمعاً من هؤلاء العظماء فتلا عليهم القرآن ورجا أن تلين قلوبهم لما يدعوهم اليه، فجاءه ابن أم مكتوم وقال يا رسول اللّه علمني مما علمك اللّه، فعبس رسول اللّه وأعرض عنه طمعاً في أولئك العظماء، فجاءه الوحي بقول اللّه ﴿**عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى فأنت له تصدى، وما عليك أن لا يزكى، وأما من جاءك يسعى، وهو يخشى فأنت عنه تلهى**﴾[1] وهذه شدة أدبه اللّه بها كما قال: « أدبني ربي فأحسن تأديبي ».

(٥) مما شرع في آخر أيامه بمكة الإذن له بالقتال.

ولما كان هذا النوع من المشروعات يستدعي عناية كبرى في بحثه أردنا أن نقول كلمة فيه غير مقتصرين على ما شرع بمكة لأن الموضوع يلزم أن يأخذ بعضه بحجز بعض حتى لا يتجزأ فتضيع الفائدة. وبحثنا قاصر على الجهة التاريخية، ولذلك نقتصر على ما جاء من أوامر القرآن وسنتبعه بما كان من التنفيذ الفعلي لرسول اللّه ﷺ، ونترك للفقهاء ما امتازوا به من دقة الاستنباط لأن ذلك ليس من عملنا.

---

(١) سورة عبس: الآيات ١ ـ ١٠.

أسباب شرعية القتال
المواثيق والعهود أسرى الحرب
الاسترقاق ـ لم شرع القتال؟

بين الكتاب في مواضع منه السبب الذي من أجله أذن للمؤمنين بالقتال وذلك يرجع إلى أمرين (الأول) الدفاع عن النفس عند التعدي، (الثاني) الدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد في سبيلها بفتنة من آمن أي باختياره بأنواع التعذيب حتى يرجع عما اختاره لنفسه ديناً أو بصد من أراد الدخول في الإسلام عنه أو بمنع الداعي من تبليغ دعوته وهذه هي المواضع التي جاء فيها ذلك الموضوع من القرآن.

الموضع الأول ـ جاء في سورة الحج، وهو أول ما نزل في أمر القتال ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾(1).

بينت هذه الآية أن القتال أذن فيه للمسلمين ثم أعقبته ببيان السبب وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا قولهم ربنا الله يعني أنهم لم يظلموا من أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم وهذا بمثابة التفسير لآية الشورى ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين**

(1) سورة الحج: الآيات ٣٩ ـ ٤١.

يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾[1] ثم بينت أنه لولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادة على اختلاف أشكالها ونسبها فلا يكون للَّه في الأرض ذكر، ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال بأوصاف هي في الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظلموهم وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ـ الموضع الثاني ـ قوله في سورة البقرة المدنية **﴿وقاتلوا في سبيل اللَّه الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن اللَّه لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ـ والفتنة أشد من القتل ـ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين، فإن انتهوا فإن اللَّه غفور رحيم، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للَّه ـ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ـ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا اللَّه واعلموا أن اللَّه مع المتقين﴾**[2].

بينت هذه الآية سبب القتال حيث وصفت من أمر المسلمون بقتالهم بالذين يقاتلونكم وأخرجوكم من دياركم وفتنوكم في دينكم بما فعلوا من الأذى والظلم وجعلت لهذا القتال غاية وهي أن تكون فتنة ويكون الدين للَّه بأن يكون الإنسان حراً في دينه لا يدين به إلا اللَّه لا خوفاً ولا طمعاً وقد بين الكتاب أن الفتنة أشد من القتل لأنها اعتداء على العقيدة والوجدان وذلك شر ما يكون من بني الإنسان نهت الآيات عن الاعتداء وأعلنت أن اللَّه يبغض المعتدين، وهم الذين يبدأون غيرهم بالشر، وبينت أن الجزاء عند الاعتداء ـ لا ينبغي أن يتجاوز به ما فعله البادي بالعدوان **﴿فمن إعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا اللَّه﴾**[3].

---

(١) سورة الشورى: الآيات: ٤١ ـ ٤٢.

(٢) سورة البقرة: الآيات ١٩٠ ـ ١٩٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

الموضع الثالث ـ قوله في سورة النساء المدنية ﴿**ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً**﴾[1] بينت هذه الآية سببين للحث على القتال وهما (أولاً) سبيل الله: وقد بينته آية البقرة وهو الغاية التي يسعى إليها الدين أن لا تكون فتنة ويكون الدين لله (ثانياً) سبيل المستضعفين الذين كانوا مسلمين بمكة وحيل بينهم وبين الهجرة فعذبتهم قريش وفتنتهم حتى تضرعوا الى الله طالبين منه الخلاص، فهؤلاء لابد لهم من حماية ترفع عنهم أذى الظالمين وتنيلهم الحرية فيما يدينون وما يعتقدون.

الموضع الرابع ـ قال عن قوم مشركين لم يحبوا أن يقاتلوا قومهم ولا أن يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتن جانباً: ﴿**فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً**﴾[2] على شرط أن يكون ميلهم إلى السلام حقيقياً لا ذبذبة عندهم فان كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله ﴿**ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً**﴾[3].

بينت هذه الآيات أن لا سبيل للمؤمنين على من اعتزل الفتنة وترك القتال وألقى إليهم السلام.

الموضع الخامس ـ قال في سورة الأنفال ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهو فلا عدوان إلاّ على الظالمين**﴾[4] وهذه تؤدي ما أدته آية البقرة.

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٥.
(٢) سورة النساء: الآية ٩٠.
(٣) سورة النساء: الآية ٩١.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٩.

الموضع السادس ـ قال في السورة السابقة **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على اللّه إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك اللّه هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم﴾**[١].

بينت هذه الآية أنه مأمور بالجنوح إلى السلم متى جنح أعداؤه لها لأن الغرض هو تأمين الدعوة وأن لا تكون فتنة والسلام كفيل بهما ولو كان الجانحون إلى السلم يريدون به الخداع.

الموضع السابع ـ قال في سورة التوبة المدنية **﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾**[٢] **ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فاللّه أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾**[٣].

بينت هذه الآية سبباً لا يخرج عما تقدم وهو نكث العهد والعود إلى الطعن في الدين بالفتنة وذكرت المخاطبين بأنهم بدأوا بالقتال أول مرة فهم المعتدون أولاً والناكثون عهدهم آخراً وأنتم قد أبيح لكم مجازاة من اعتدى عليكم.

كان اليهود قد مالئوا قريشا والمنافقين على المسلمين وأخافوا المسلمين في غزوة الأحزاب حتى زلزلوا زلزالاً شديداً بعد أن كانت بينهم وبين النبي ﷺ عهود، مكتوبة فنقضوها وأخلوا بما تقضي به تلك العهود فأمر المسلمين بقتالهم كما جاء في سورة التوبة **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾**[٤].

---

(١) سورة الأنفال: الآيات ٦١ ـ ٦٣.
(٢) سورة التوبة: الآية ١٢.
(٣) سورة التوبة: الآية ١٣.
(٤) سورة التوبة: الآية ٢٩

كان أمر القتال أولاً قاصراً على قريش ومن يمالئهم من يهود المدينة فلما اتحدت معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الكتاب **﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾**(١) فالعلة في هذا الأمر بينها الكتاب نصاً وهي اتحادهم على المسلمين ووقوفهم في سبيل الدعوة.

هذا ما ورد في الكتاب خاصاً بأمر القتال، وكله يعلن أن القتال لم يشرع إلا دفاعاً عن أنفسهم، وتأميناً للدعوة من أن تقف الفتنة في طريقها وأعلن أنه لم يجيء متعدياً بنهيه عن الاعتداء وأنه يجنح إلى سلم من سالمه.

ومما يؤيد تلك الروح السليمة ويوضحها ما جاء في سورة الممتحنة **﴿لا ينهاكم اللّه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ان اللّه يحب المقسطين﴾**، **﴿إنما ينهاكم اللّه عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾**(٢)

العهود والمواثيق:

مما اعتنى به الكتاب عناية شديدة أمر العهود والمواثيق وكراهة الإخلال بها وقد نص على ذلك نصوصاً مؤكدة فمنها عام ومنها خاص فمن العام: قول الكتاب في أول سورة المائدة **﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾**(٣) وقوله في سورة الإسراء **﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾**(٤) وقوله في سورة النحل **﴿وأوفوا بعهد اللّه إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم اللّه عليكم كفيلاً إن اللّه يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾**(٥).

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٦.
(٢) سورة الممتحنة: الآيات ٨ ـ ٩.
(٣) سورة المائدة: الآية ١.
(٤) سورة الاسراء: الآية ٣٤.
(٥) سورة الاسراء: الآيات ٩١ ـ ٩٢

وأما الخاصة:

فمنها قوله تعالى في سورة براءة بعد أن أعلن البراءة من المشركين ﴿**إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين**﴾(١) وقال في السورة نفسها بعد ذلك ﴿**إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين**﴾(٢) وهذا يدل على أن البراءة إنما كانت من مشركين أخلوا بعهودهم، أو ظهرت عليهم دلائل الخيانة لأن أول السورة ﴿**براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين**﴾(٣) ثم استثنى منهم هؤلاء الذين ذكرهم وهذا تنفيذ لما ورد في سورة الأنفال ﴿**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين**﴾(٤) والخوف إنما يكون بعد ظهور ما يدل عليه من أعمال العدوان لأن من لم ينقص من عهده ولم يظاهر عدواً والمستقيم على عهده لا سبيل عليهم بالنص.

ومنها أنه لما حضهم في سورة النساء على وجوب إبعاد المنافقين الذين يشتغلون سراً ضدهم قال ﴿**إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾(٥) وهذا نص على وجوب احترام أرض ذوي الميثاق وأنها تحمي الواصل إليها.

ومنها أنه جعل في سورة النساء قتل رجل خطأ من قوم لهم ميثاق موجباً لما يوجبه قتل مسلم خطأ فقال وإن كان - المقتول خطأ - ﴿**من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة**﴾(٦) وهذا بعينه هو الذي أوجبه في قتل مسلم خطأ ﴿**ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا**﴾(٧) وجعل الدية الواجبة في قتل المؤمن

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤.
(٢) سورة التوبة: الآية ٧.
(٣) سورة التوبة: الآية ١.
(٤) سورة الأنفال: الآية ٥٨.
(٥) سورة النساء: الآية ٩٠.
(٦) سورة النساء: الآية ٩٢.
(٧) سورة النساء: الآية ٩٢.

من قوم أعداء أقل من ذلك فقال ﴿**فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة**﴾[١].

ومنها أنه قال عن مؤمنين بأرض العدو لم يهاجروا منها ﴿**وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق**﴾[٢] فجعل حق الميثاق فوق كل حق، ولم يجعل للسلم أمداً بل ذكره مطلقاً في قوله ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله**﴾[٣].

أسرى الحرب:

بين الكتاب حكم الأسرى بصراحة بقوله في سورة القتال ﴿**حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها**﴾[٤] فجعل ما خير فيه أولياء الأمور المن وهو العفو والارسال من غير شيء والفداء وهو أخذ العوض ولم نر في الكتاب غيرهما.

وأنا ملزم الآن أن أقول كلمة عما جاء في القرآن في أمر الرقيق.

كان الرقيق موجوداً بأيدي العرب حين جاء القرآن فأقرهم على ما كان بأيديهم، فقد قال في سورة المؤمنين المكية ﴿**والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين**﴾[٥] وقال مثل ذلك في سورة المعارج المكية أيضاً أي قبل أن يحصل من المسلمين أي حرب وقتال، وقال في سورة النساء المدنية ﴿**فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم**﴾[٦] ثم رغبهم ترغيباً شديداً في تحرير الرقاب وازالة الرق عنها بطرق ثلاث.

الأولى ـ أنه جعله في سورة البلد المكية من أول الواجبات على الانسان

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٢.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٢.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٦١.
(٤) سورة محمد: الآية ٤.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ٥.
(٦) سورة النساء: الآية ٣.

إذا أراد أن يشكر اللّه على نعمه فقال ممتناً على الانسان **﴿ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين، فلاقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة، فك رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، أولئك أصحاب الميمنة﴾**[1] فجعل فك الرقبة في مقدمة الخصال التي بها يقوم الانسان بشكر نعم اللّه المتتالية.

الثانية ـ أنه لما بين مصارف الزكاة جعل فيه سهماً من ثمانية يعني أن الامام الذي يأخذ الزكاة من المسلمين يجعل ثمنها في فك الرقاب.

الثالثة ـ أنه جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة من جرائم تجترم فقال في كفارة القتل الخطأ **﴿ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا﴾**[2] وقال في كفارة اليمين **﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة﴾**[3] ذلك كله فضلاً عن الترغب الكثير من صاحب الشريعة في تحرير الرقاب والوصايا المتكررة برحمة ما كان في أيديهم منها.

هذا ما أحببنا أن نورده على أسماعكم من المباديء التي سار عليها الكتاب غير متعرضين للاستنباط الدقيق الذي امتاز به فقهاؤنا رحمهم اللّه، لأن لذلك علماً هم أدرى به منا ومركزاً غير مركزنا التاريخي الذي يقضي علينا أن نقف عند حد لا يسمح للمؤرخ بتجاوزه.

حياة المدينة:

لما وصل رسول اللّه ﷺ إلى قباء بها أربعة أيام من يوم الاثنين الى يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢ م) أسس فيها مسجد قباء وفي ذلك اليوم سار إلى المدينة يحف به الأنصار وصلى الجمعة بمسجد في بطن وادي

---

(١) سورة البلد: الآيات ٨ ـ ١٨.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٨٩.

رانوناء في منتصف الطريق بين قباء والمدينة ثم سار على راحلته وكلما مر على قبيلة من قبائلهم ناداه رئيسها هلم إلينا يا رسول اللّه أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة فكان يقول لهم خلوا سبيلها فانها مأمورة، (لناقته) حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت محل باب مسجده فلم ينزل ثم وثبت وسارت غير بعيد، ثم عادت إلى مبركها الأول فبركت فيه ووضعت جرانها فنزل عنها رسول اللّه ﷺ وقال ههنا المنزل إن شاء اللّه فأخذ رحله أبو أيوب خالد بن زيد، فوضعه في بيته ثم سأل عن المربد الذي بركت الناقة فيه، فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول اللّه لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه(١) فاتخذه مسجداً فأمر رسول اللّه ﷺ أن يبني مسجداً ونزل على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه فانتقل من بيت أبي أيوب إليها.

ثم تلاحق المهاجرون فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس، أما المدينة فعم أهلها الإسلام إلا قليلاً منهم.

ومن أول الأعمال التي عملها عليه السلام أنه كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط لهم وقد جاء فيه «وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم» وفيه وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ـ ما داموا محاربين ـ وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فانه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وهكذا قال عن غير يهود بني عوف وفيه وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى اللّه عز وجل وإلى محمد رسول

---

(١) روى عن طريق آخر أنه قال يا بني النجار ثامنوني بحائطكم فقالوا لا واللّه لا نطلب ثمنه إلا إلى اللّه. ويروى أنه أبي إلا بالثمن والذي اخترناه هو رواية ابن إسحق وهي توافق رواية مسلم وبعض روايات صحيح البخاري.

اللّه ﷺ على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعونا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه.

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار فكان يأخذ بيدي المهاجري والأنصاري ويقول تآخوا في اللّه أخوين.

وبعد أن تم ذلك بدأت الأعمال العظيمة التي كان لها أكبر النتائج ولكيلا يكون هناك تشويش في التاريخ قسمنا أعمال المدينة إلى ثلاثة أقسام نذكرها غير مختلطة: الأعمال الحربية ـ التشريع ـ الأخلاق التي ساس بها أمته.

المحاضرة الثانية عشرة

ودان ـ بواط العشيرة
بدر الكبرى ـ بني قينقاع

الأعمال الحربية:

كانت قريش أمة معادية آذت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بعد أن فعلت بهم الأفاعيل واستولى مشركو مكة على ما تركه المسلمون فيها بعد أن بارحوا أوطانهم مرغمين فكان ذلك داعياً إلى أن يصادر عليه السلام تجارتهم التي يذهبون بها إلى الشام والتي يجلبونها منه فبعد أن أقام بالمدينة ١٢ شهراً خرج في صفر من السنة الثانية إلى ودان[١] وكان يريد قريشاً وبني ضمرة من كنانة فوادعته بنو ضمرة، ثم رجع ولم يلق كيداً. أقام بالمدينة بقية صفر وصدراً من ربيع الأول، وفي مقامه هذا بالمدينة بعث عبيدة بن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين حتى وصل ماء بالحجاز بأسفل ثنية المسرة[٢] فلقى بها جمعاً من قريش، فلم يكن بين الفريقين قتال، ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية. وبعث في هذه المدة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيض[٣] في ثلاثين راكباً فلقى أبا جهل بن هشام في ذلك الساحل في ٣٠٠ راكب من أهل مكة فحجز بين الفريقين مجدي بن عمرو الجهني وكان موادعاً للفريقين فانصرف بعض القوم عن بعض.

---

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه غزوة حارب فيها أم لم يحارب وما خرج فيه أحد قادته سرية، وودان من ناحية الفرع بينها وبين الأبواء ثمانية أميال قريبة من الجحفة التي هي على أربع مراحل من مكة وست من المدينة.

(٢) ثنية في شمال قديد من بادية مكة.

(٣) مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام.

واط[1]:

ثم خرج رسول اللّه ﷺ في شهر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بواط من ناحية رضوي ثم رجع إلى المدينة لم يلق كيداً فأقام بها إلى جمادي الأولى.

العشيرة[2]:

في جمادي الأولى خرج حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادي الأولى وليالي من جمادي الثانية ووداع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم عاد إلى المدينة ولم يلق كيداً. وفي مقامه بالعشيرة بعث سعد بن أبي وقاص وثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخرار[3] من أرض الحجاز ثم رجع ولم يلق كيداً.

سفوان:

أقام عليه السلام بالمدينة قليلًا بعد قدومه من العشيرة فعلم أن كرز بن جابر الفهري أغار على مسرح المدينة فخرج في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سفوان[4] من ناحية بدر فلم يدركه فعاد إلى المدينة وأقام بها رمضان وفي مقامه هذا أرسل عبد اللّه بن جحش، ومعه ثمانية رهط من المهاجرين، بأمر غير مفتوح، وأمره أن يفتحه بعد أن يسير، يومين ولما فتح وجد فيه (إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم). فمضى سلك الحجاز حتى إذا كان بنخلة مرت به عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي حليف لقريش فأتمر بها عبد اللّه هو ومن معه، (ولم يكن هذا ما بعثوا له) وصمموا على أخذها وكان ذلك آخر يوم من

---

(١) موضع قرب جبل رضوى: ورضوى على مسيرة يوم من ينبع، ومن المدينة على سبع مراحل، وهناك طريق يختصره العرب إلى الشام.

(٢) واد بالقرب من مكة من قديد.

(٣) واد قريب من ينبع.

(٤) واد من ناحية بدر.

رجب فلم يحفلوا باليوم الحرام فرمى احدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر اثنان وهرب رابعهم فأخذوا العير والأسيرين وقدموا بهما إلى المدينة فلما رآهم الرسول وعلم بما فعلوا استاء منهم، وقال ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم ووقف العير والأسيرين فقط في أيدي القوم وعنفهم المسلمون، بما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الحرام وسفكوا الدم الحرام وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال.

ولما كثر الكلام في ذلك جاء الوحي بقول اللّه **﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل اللّه وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند اللّه والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾**(١) يعني إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد فعلوا ما هو أشنع صدوا عن سبيل اللّه وكفروا به وبالمسجد الحرام وأخرجوكم منه وأنتم أهله وفتنوا الناس والفتنة أكبر من القتل ثم هم مقيمون على أشد من ذلك وأعظم غير تائبين ولا هائبين. وفي هذا قطع لاعتراضاتهم لأن المتلبس بكثير من الشرور ليس له أن يكثر الكلام في زلة قد ارتكب هو أشنع منها، ولما نزل القرآن بهذا الأمر وفرج اللّه عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض عليه السلام العير والأسيرين ثم ردهما بعد إلى قريش بعد أن دفعوا فديتهما.

بدر الكبرى:

خرجت عير من مكة يتقدمها أبو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش فذهبت إلى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول، فندب اليها أصحابه وقال هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل اللّه أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل آخرون لأنهم لم يكونوا يظنون أن الرسول يلقي حرباً وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلاً،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٧.

٨٣ من المهاجرين، و٦١ من الأوس، و١٧٠ من الخزرج.

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يسير مخترساً أمامه العيون فأخبر ـ وهو يسير ـ أن محمداً قد استنفر أصحابه للعير فحذر واستأجر رجلاً يذهب إلى مكة يستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض للعير في أصحابه فخرج ذلك الرجل حتى أتى مكة وصرخ ببطن الوادي، يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة يا معشر قريش أموالكم مع أبي سفيان وقد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث، فتجهز الناس سراعاً وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً فكانت عدتهم بين التسعمائة والألف ولم يزالوا في سيرهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادي بدر.

أما رسول الله ﷺ فانه خرج من المدينة يوم الاثنين لثمان خلون من رمضان (أو ٩ منه حسب تقويم محمد مختار باشا المصري ٥ مارس سنة ٦٢٤م) حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث إلى بدر لاستطلاع أخبار العير، حتى إذا قارب بدراً جاءته الأخبار عن قريش بأنهم نفروا لحماية عيرهم فاستشار الناس بعد أن أخبرهم فتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا، وقال له المقداد بن عمرو امض يا رسول الله لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له الرسول خيراً ثم قال أشيروا على أيها الناس وإنما كان يريد الأنصار لأن العدد فيهم ولم تكن بيعتهم إلا على أنهم يمنعونه ما دام في ديارهم فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته إلا على من دهمه في المدينة من عدوه، وليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج ديارهم، فقال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال أجل

(١) موضع أقصى أراضي هجر.

فقال له سعد قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول اللّه لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل وما نكره أن تلقي بنا العدو غداً، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء، لعل اللّه يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة اللّه فَسُرَّ عليه السلام بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال سيروا وأبشروا فإن اللّه قد وعدني إحدى الطائفتين، واللّه لكأني أنظر إلى مصارع القوم ثم ارتحل عليه السلام حتى إذا وصل قريباً من بدر بلغه أن أبا سفيان قد نجا بالعير وأن قريشاً وراء وادي بدر، وكان أبو سفيان قد ساحل بالعير فنجا، وأرسل إلى قريش يخبرهم ويطلب منهم العودة إلى مكة لنجاة العير، فأبى أبو جهل ذلك وقال واللّه لا نرجع حتى نرد بدراً، (وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم فيه ثلاثاً فننحر الجزور، ونطعم الطعام ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبسيرنا وبجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فامضوا، ولما رأى الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة تشدد أبي جهل من غير داعية أشار على حلفائه من بني زهرة أن يرجعوا فاتبعوا مشورته وعادوا فلم يشهد بدراً في صفوف المشركين زهري، وكذلك لم يشهد من بني عدي أحد، مضت قريش حتى نزلت بعدوة الوادي الدنيا، ونزل المسلمون على أول ماء بدر، فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول اللّه وقال: يا رسول اللّه أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه اللّه ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة! قال: يا رسول اللّه فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء. ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال لقد أشرت بالرأي وفعل كما قال.

ثم إن سعداً قال للرسول: يا رسول اللّه ألا نبني لك عريشاً تكون فيه

ونعد عندك ركائبك؟ ثم نلقي عدونا فإن أعزنا اللّٰه وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي اللّٰه ما نحن بأشد لك حباً منهم ولو ظنوا أنك تلقي حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك اللّٰه بهم يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه الرسول ودعا له بخير وأمر ببناء العريش فبنى له.

تراءى الجيشان: فلم يكن بد من الحرب في صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان (١٣ مارس سنة ٦٢٤م) ابتدأت الحرب بالمبارزة - حسب القواعد العربية - فخرج من صفوف المشركين ثلاثة: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فطلبوا من يخرج اليهم فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال لهم القرشيون لا حاجة لنا بكم نطلب أكفاءنا من بني عمنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعلي بن أبي طالب فكان عبيدة بازاء عتبة وحمزة بازاء شيبة وعلي بازاء الوليد فأما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما أن قتلاهما - وأما عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين كلاهما أثبت من صاحبه فحمل علي وحمزة على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين، ثم بدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب في ذلك النهار، فإن الهزيمة حلت بصفوف قريش، بعد أن قتل جمع من صناديدهم فيهم أبو جهل بن هشام رأس هذه الفتن كلها وأسر من قريش نحو السبعين وهرب الباقون لما انهت الموقعة أمر عليه السلام بدفن الموتى من قريش والمسلمين، وكانت هذه عادته في حروبه، ثم أمر بجمع الغنائم فجمعت ثم أرسل بشيرين إلى أهل المدينة يبشرانهم بالفتح أحدهما - وهو عبد اللّٰه بن رواحة - إلى أهل العالية، والآخر - زيد بن حارثة - إلى أهل السافلة ثم عاد عليه السلام إلى المدينة، وفي عدوته قتل رجلين من الأسرى أحدهما النضر بن الحارث، لأنه كان غالباً في عداوة المسلمين بمكة يكثر أذاهم ويعلم القيان الشعر الذي يهجو به المسلمين ليغنين به، والثاني عقبة بن أبي معيط، وهومثله فكان لقتلهما سبب خاص ولم يقتل من الأسرى غيرهما.

ولما أقبل بالأسرى فرقهم بين أصحابه، وقال استوصوا بهم خيراً قال أبو عزيز بن عمير: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدم عداؤهم أو عشاؤهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول اللّه إياهم بنا ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها قال فاستحى فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر.

ثم استقر رأي رسول اللّه ﷺ بعد أن استشار أصحابه على قبول الفداء من قريش في الأسرى، وكان بعض الصحابة، ومنهم عمر وسعد بن معاذ - يريدون قتلهم، وكان رأي أبي بكر وأكثر الصحابة لا يريدون ذلك، ويريدون قبول الفداء (وذلك كله قبل أن تنزل آية القتال) فرضي عليه السلام رأي أبي بكر، ولما لم يكن ذلك عن أمر من اللّه خصوصاً أنه لم يسبق لنبي أن أكل شيئاً من الغنائم، فإن موسى عليه السلام كان يحرقها ولا يبقى شيئاً منها لذلك كان هذاالقرار سبباً لعتاب اللّه سبحانه بقوله **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا واللّه يريد الآخرة واللّه عزيز حكيم، لولا كتاب من اللّه سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، فكلوا مما غنتم حلالاً طيباً واتقوا اللّه إن اللّه غفور رحيم﴾**[(١)] وقد كان من رأي سعد حين القتال أن المسلمين لا يأسرون ثم أمره اللّه أن يتلطف بهؤلاء الأسرى فقال **﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم اللّه في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم واللّه غفور رحيم﴾**[(٢)].

علمت قريش بما كان فأرسلت في فداء أسراها فمن حضر فداؤه أرسل. ومنهم من عليه بغير فداء منهم أبو عزة الجمحي الشاعر بعد أن تعهد أن لا يكون ضد المسلمين بشعره وكان فداء بعض الأسرى الذين يكتبون أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة.

---

(١) سورة الأنفال: الآيات ٦٧ - ٦٨.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٧٠.

نـزل في هـذه الغـزوة من القـران سـورة الأنفـال بـأسـرهـا وهي السـورة الثامنة، وقد بدأت بـأمر الأنفـال وأنها صارت للّه والـرسول يقضي فيهـا اللّه بما يشاء، ثم قضى فيها بأن الخمس للّه وللرسول ولذي القربى واليتـامي والمساكين وابن السبيل، فالباقي ـ وهو أربعة أخماسها ـ للغانمين. وقد خص عليه السلام سهم ذي القـربى ببني هاشم والمطلب ابني عبـد منـاف ولم يعط منـه بني نـوفـل وعبـد شمس، ثم قص في السورة خـروج المسلمين إلى هـذه الحرب وأنـه ثبتهم فيها وأيدهم بالملائكة بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم وأنـه أوحى إلى الملائكـة أن يثبتـوا الذين آمنـوا. وتكلم فيها عن قـريش وما فعلوه من الأذى والفتنـة والصد عن سبـل اللّه وتكلم فيهـا عن السلم والجنـوح اليهـا متى جنـح لهـا أعـداء المسلمين وعن أمر الأسرى وغير ذلك من الأحكام.

وأمـر هذه الغـزوة مما يلفت النـظر إلى حال المسلمـين ومـا أودع فيهم من القوة والطمـأنينة فـإن عددهم كـان ٣١٤ رجلاً ليس معهم سـوى ثلاثـة أفراس وسبعـين بعيراً يعتقبـونها، وقريش كـانت بـين التسعمـائـة والألف وعنـدهم من العـدة مـا ليس مـع المسلمـين، وهؤلاء عـرب وأولئـك عـرب عنصـرهم واحـد وعند قريش من الغيرة على دينهم والحفيظة على شرفهم مالا يخفي مكـانه، ومـع كـل هذا ظهـر من رجحان المسلمـين على أعـدائهم ما يستغـرب فإن الحـرب لم تستمـر أكثر من نصف نهار قتـل فيهـا من قـريش نحـو السبعـين وأسر نحـو السبعـين، وانهزمت بقيتهم لا تلوي على شيء فـلابد لـذلك من سبب آخـر غير أمر العدد والعـدد، ذلك أن المسلمـين كانـوا يحاربـون وهم واثقون بـالظفـر، لما أخبـرهم به عليـه السلام من أن اللّه وعـده إحـدى الـطائفتـين، وقـولـه: واللّه لكأني أنظر إلى مصارع القوم. وزادهم اللّه تثبيتاً حين المـوقعة بمـا أيدهم بـه من الملائكة تثبت قلوبهم وتفيض عليهم الـطمأنينـة والثقة، كـانوا يـرون أنفسهم في مـوقف يدافعـون فيه عن أعـز شيء في الـوجـود وهـو رسـول اللّه، الـذي بـين أظهـرهم فلا يهم الـواحد منهم أن تحـين منيته لأنـه واثق بمـا بعـدهـا فهـو يعـد الشهـادة إحدى الحسنيـين وكل هـذا للمحارب بمثـابة إمـدادات يراهـا متـواليـة الورود.

وقد قيل في هذه الغزوة كثير من الشعر قاله شعراء المدينة وشعراء مكه ومن أرق ما قيل منه ما قالته قتيلة بنت الحارث أخت النضر بن الحارث:

يا راكباً إن الأثيل مظنة — من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية — ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني إليك وعبرة مسفوحة — جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعني النضر إن ناديته — أم كيف يسمع ميت لا ينطق؟
أمحمد ولدتك خير نجيبة — في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما — من الفتى وهو المغيظ المحنق؟
أو كنت قابل فدية فلينفقن — بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة — وأحقهم - إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشة — لله أرحام هناك تشقق
صبراً يقاد إلى المنية متعباً — رسف المقيد وهو عان موثق

فيقال والله أعلم إن رسول الله ﷺ قال - لما بلغه هذا الشعر لو بلغني هذا قبل قتله مننت عليه.

وكان الفراغ من هذه الغزوة في عقب شهر رمضان.

الكدر:

لم يقم بالمدينة إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بني سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فأقام بها بقية شوال وذا القعدة، وفي مقامه هذا فدى جل أسارى بدر.

السويق:

كان أبو سفيان حين رجع فل قريش من بدر نذر ألا يمس رأسه من جنابة حتى يغزو محمداً فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر بيمينه حتى - كان من المدينة على نحو بريد، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل فأتى حي بن أخطب فضرب عليه بابه فأبى أن يقبله فانصرف عنه إلى

سلام بن مشكم سيد بني النضير المعاهدين لرسول الله وللمسلمين ففتح له بابه وأكرمه وأعلمه أبو سفيان بخبره ثم خرج في عقب ليلته، حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا رجلين من الأنصار فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس فخرج عليه السلام في طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان، وسميت بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون من أزوادهم التي أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة وقال أبو سفيان عند منصرفه لما صنع به سلام بن مشكم:

وإني تخيرت المدينة واحداً ... لحلف فلم أندم ولم أتلوم
سقاني فرواني كميتاً مدامه ... على عجل مني سلام بن مشكم
ولما تولى الجيش قلت ـ ولم أكن ... لأفرحه ـ أبشر بغزو مغنم
تأمر فإن القوم سر وإنهم ... صريح لؤي لا شماطيط جرهم
وما كان إلا بعض ليلة راكب ... أتى ساعياً من غير خلة معدم

ذي أمر:

لما رجع عليه السلام من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها ثم غزا نجداً يريد غطفان فأقام بنجد صفراً كله أو قريباً من ذلك ولم يلق كيداً ثم رجع إلى المدينة فلبث فيها شهر ربيع الأول كله أو إلا قليلاً منه.

الفرع:

خرج عليه السلام في أواخر ربيع الأول يريد قريشاً حتى بلغ بحران وهو معدن بالحجاز من ناحية الفرع فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم رجع ولم يلق كيداً.

أمر بني قينقاع:

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا عهودهم ـ كما قاله ابن اسحاق عن

عاصم بن عمر بن قتادة ـ وظهر منهم بعد بدر ما كان خافياً من أعدائهم إذ أنهم قالوا له يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت فرصة والله لئن حاربناك لعلمن أنا نحن الناس. وقد ابتدأ الشر بينهم وبين المسلمين ظاهراً بحادثة وقعت في سوق بني قينقاع، سببها تعدي رجل من اليهود على امرأة من العرب تعدياً معيباً فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام إلى اليهودي فقتله، وقامت اليهود على المسلم فقتلوه وبذلك وقع الشر واستحكم العداء بين الفريقين فخرج اليهم رسول الله وحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة فخرجوا منها إلى أذرعات بالشام وأقاموا فيها:

كان من نتيجة بدر أن قريشاً حذرت طريقها المعتاد فسلكوا طريق العراق. فخرج أبو سفيان ومعه تجار واستأجروا رجلاً من بكر بن وائل يدلهم على الطريق فعلم بذلك عليه السلام وأرسل إليهم زيد بن حارثة فلقيهم على القردة ـ ماء من مياه نجد ـ فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال، فقدم بالعير على رسول الله ﷺ.

أمر كعب الأشرف:

كان كعب بن الأشرف يهودياً من طيء، ثم من بني نبهان وأمه من بني النضير فلما انتصر المسلمون ببدر وأرسل الرسول زيد ابن حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران أهل المدينة بانتصاره وقتل من قتل من قريش، قال كعب: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها. ولما تيقن الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي فأنزلته امرأته وأكرمته وجعل يحرض على رسول الله ويقول الأشعار ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر فقال:

طحنت رحا بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع

كم قد أصيب به من أبيض ماجد ... ذي بهجة تأوي إليه الضيع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم ... إن ابن الأشرف ظل كعباً يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذي أثر الحديث بطعنة ... أو عاش أعمى مرعشاً لا يسمع
نبئت أن بني المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه ... ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم ... في الناس يبني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمي على الحسب الكريم الأروع

ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم فأرسل له عليه السلام نفراً من الأنصار فقتلوه جزاء خيانته العهد

أحد :

لما أصيب يوم بدر من قريش من أصيب، ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم يوم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، فعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ففعلوا واجتمعت قريش لحرب المسلمين بأحابيشها ون أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة وكان أبو عزة الجمحي الذي منّ عليه الرسول ببدر طلب منه صفوان بن أمية أن يخرج معهم فقال له إن محمداً قد منّ عليّ فلا أريد أن أظاهر عليه قال فأعنا بنفسك فلك الله على إن رجعت أن أغنيك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتي يصبهن ما أصابهن من عسر ويسر، فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعوهم كنانة ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطيء بها فقال له اخرج مع الناس فإن قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة فأنت عتيق فخرجت قريش بحدها وجدها وأحابيشها ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة.

لما سمع بهم رسول الله ﷺ وبنزولهم استشار أصحابه أيخرج إليهم أم يقيم في المدينة؟ فقال له عبد الله ابن أبي بن سلول ـ وكان رأساً في الأنصار

إلا أنه كان يضمر نفاقاً ـ نرى أن نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان ذلك رأى رسول الله، لكن كان رأى جمهورهم أن يخرج إلى العدو فدخل عليه السلام إلى بيته فلبس لأمته وذلك يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من شوال[1] حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم وقد ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله ﷺ ولم يكن لنا ذلك، فلما خرج عليهم قالوا استكرهناك يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا فإن شئت فاقعد فقال عليه السلام: ما ينبغي لنبي إذ لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل فخرج عليه السلام في ألف من الصحابة حتى إذا كان بالشوط انخذل عنه عبد الله ابن أبي بن سلول بثلث الناس، وقال أطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه وهم أهل نفاق وريب، ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي إلى جبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد. وقال لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال، ثم تعبي عليه السلام القتال وهو في ٧٠٠ رجل وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وقال له انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك. وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير. وتعبت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مائتا فرس قد جنبوها. وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل. وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يا بني عبد الدار إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا فاما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعدوا، وقالوا نحن نسلم إليك لواءنا ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع، وذلك ما أراد أبو سفيان.

التقى الناس ودارت رحى الحرب واشتهر بأعظم عمل فرسان معلمون من المسلمين منهم حمزة بن عبد المطلب وأبو دجانة سماك بن خرشة الساعدي

---

(١) حسب تقويم مختار باشا المصري كان أول شوال الأحد فالجمعة ١٣ منه (١٩ مارس سنة ٦٢٥).

وعلي بن أبي طالب وغيرهم فأبلى المسلمون بـلاء حسناً فـأنزل اللّه عليهم نصـره وصدقهم وعده فحسـوا عدوهم بـالسيوف حتى كشفـوهم عن العسكر، وكـانت الهـزيمة لا شـك فيها إلاأن الـرماة لمـا رأوا المشركـين انكشفوا مـالوا إلى العسكـر وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بـأخذ الغنيمـة فاختلت صفـوفهم وأخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فلاثوا به وتراجعوا لما رأوا الخلل في صفوف المسلمين حتى دهشوا، ومما زاد في دهشتهم وأضعف عـزائمهم أن رجلاً قتـل مصعب بن عمـير وأذاع عنـد قتله أن محمـداً قـد قتـل فكـان هذا الخبـر شديـداً على أنفس كثـير منهم فانكشفـوا فأصـاب فيهم العـدو وكـان يـوم بـلاء وتمحيص حتى خلص العـدو إلى رســول اللّه ﷺ وحتى رمى بالحجارة ووقـع على شقـه فأصيبت ربـاعيته وشـج وجهه وكلمت شفتـه ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ووقع في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر يقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فأخذ علي بن أبي طالب بيـده ورفعه طلحـة ابن عبيد اللّه حتى استـوى قـائـماً. ولمـا غشيـه القـوم قـام دونـه خمسـة نفـر من الأنصار يردون عنه العدو، ثم قام فئة من المسلمين فأجهضـوهم عنه وقـامت في ذلك اليوم أم نسيبة بنت كعب وهي ممن بايـع بيعة العقبـة وكانت في أول النهـار تسقي المـاء فلما رأت هزيمـة المسلمين انحـازت إلى رسول اللّه وبـاشرت القتـال وصارت تذب عنـه بالسيف وتـرمي عن القوس وجـرحت في ذلك اليـوم جرحـاً شديداً، وقد امتاز جماعة من الأنصـار والمهاجـرين بوقـوفهم دون رسول اللّه ﷺ منهم أبو دجانـة وكان النبـل يقع في ظهـره وهو منحن عـلى رسول اللّه حتى كـثر فيه النبل ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان رامياً ومنهم عبد الرحمن بن عوف.

كان بعض المسلمين ترك الموقعـة لظنـه قتل الـرسول حتى عـرفه كعب بن مالك أحد الأنصار فنادى بأعـلى صوتـه: يا معشر المسلمـين ابشروا هـذا رسول اللّه فـأشار عليـه السلام أن أنصت ولمـا علم بذلـك بعض من انهزم عادوا إليـه ونهض معهم نحـو الشعب معه كبـار أصحـابه وذوو الأثـر الصـالـح في هــذه

الموقعة فلما أسند ظهره إلى الشعب أقبل أبي بن خلف وهو يقول أين محمد لا نجوت إن نجا فتناول عليه السلام الحربة من الحرث بن الصمة ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً وخدش في عنقه فاحتقن الدم وكان ذلك سبباً لموته وهو عائد إلى مكة وهو الرجل الوحيد الذي قتل بيده عليه السلام.

ولما انتهى إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس فجاء به إلى الرسول ليشرب منه فوجد له ريحاً فعافه فلم يشرب منه فغسل عن وجهه الدم وصب على رأسه. وبينا هو بالشعب ومعه أولئك النفر من أصحابه يمنعونه إذ علت عالية من قريش الجبل فذهب إليهم من المسلمين من أنزلهم عنه.

يظهر أن قريشاً رأت بما فعلت أنها قد شفت أنفسها مما تجد من عار بدر رفاكتفت به وعولت على الاصراف فصعد أبو سفيان ربوة ونادى بأعلى صوته ـ بحيث يسمعه من في الشعب ـ وقال أنعمت فقال: إن الحرب سجال يوم بيوم بدر، أعل هبل، فقال عليه السلام قم يا عمر فأجبه فقل اللّه أعلى وأجل لا سواء: قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار فلما سمع أبو سفيان صوت عمر قال له هلم إليّ يا عمر، فقال له الرسول ائته فانظر ما شأنه فجاءه فقال له أبو سفيان أنشدك اللّه يا عمر أقتلنا محمداً؟ قال عمر اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن، قال أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر ثم نادى أبو سفيان إنه كان في قتلاكم مثل واللّه ما رضيت وما سخطت وما أمرت وما نهيت، ثم نادى إن موعدكم بدر للعام المقبل فأمر عليه السلام من يقول له نعم هو بيننا وبينك موعد وكان الذي يهم الرسول ﷺ في موقفه أن يعلم ذات نفس قريش أيريدون المدينة أم ينصرفون إلى مكة فأرسل علي بن أبي طالب فقال أخرج في أثر القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فانهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فانهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم فخرج علي في

أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

فرغ المسلمون إلى قتلاهم فدفنوها، وكان منهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشي ومثلت به هند بنت عتبة زوج أبي سفيان.

ثم انصرف عليه السلام راجعاً إلى المدينة فلقيته في الطريق حمنة بنت جحش فنعى إليها أخاها عبد اللّه بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال عليه السلام إن زوج المرأة منها لبمكان لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها، ومر بامرأة من بني دينار من الأنصار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها فلما نعوا لها قالت فما فعل رسول اللّه؟ قالوا خيراً يا أم فلان هو بحمد اللّه كما تحبين قالت أرونيه حتى أنظر إليه؟ فأشر لها إليه حتى إذا رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل - تريد صغيرة.

في غد ذلك اليوم وهو يوم الأحد ١٦ شوال أو ١٥ منه أذن مؤذن رسول اللّه أنه يطلب العدو، وأذن مؤذنه أن لا يخرج معنا إلا من حضر يومنا بالأمس وإنما فعل ذلك ليرهب قريشاً وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم خرجوا بما هم عليه من التعب والجراح حتى بلغوا حمراء الأسد - وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء وقد مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح للمسلمين بتهامة صفقهم معه لا يخفون عنه شيئاً كان بها ومعبد يومئذ مشرك، فقال: يا محمد واللّه لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن اللّه عافاك فيهم ثم تركه بحمراء الأسد وسار حتى لقي أبا سفيان وأصحابه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة فانهم قـ

بعضهم لبعض أصبنا أحد أصحابه وأشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم لنكون على بقيتهم فلنفرغن منهم فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له ما وراءك يا معبد؟ قال محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما ضيعوا فيهم من الحنق عليكم - شيء لم أر مثله قط قال ويحك ما تقول والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

والذي اعترض به القرشيون على أنفسهم يرد بخاطر كل إنسان حينما يمر بتلك الموقعة فقد كان لهم النصر في نهاية اليوم بأحد وقتلوا كثيراً من المسلمين، وانهزم عنهم كثير ثم علموا أن الرسول بالشعب هو وجمع قليل من الحماة يدافعون عنه ومع ذلك لم تخطر ببالهم أن يتمموا هذا الانتصار بالوقوف عليهم، ثم لما ظهر لهم النصر وانصرفوا عن أحد لم يعرجوا على المدينة ليقال إن النصر قد تم لهم. لم يفعلوا هذا ولا ذاك حتى إذا كانوا على نحو يومين من المدينة خطر لهم خاطر الرجوع.

والظاهر أن القوم كان عندهم شيء من الحذر لأنهم كانوا يعلمون أن كثيراً من الأنصار تخلف عنه بالمدينة خافوا أن يعلم المتخلفون أن إخوانهم أصيبوا فيسرعوا إلى نجدتهم فيكون ما تكره قريش فاكتفوا بما أصابوا من الدماء التي رأوها سائلة في وادي أحد، وكانت القتلى تقرب من قتلاهم في يوم بدر، فاشتفت أنفسهم، وهذا كل ما كانوا يريدون ومما يدل على ذلك أن أبا سفيان كان يريد أن يعرج على المدينة عقب انصرافه من أحد. فقال له صفوان بن أمية بن خلف، لا تفعلوا. فإن القوم قد حاربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان. فارجعوا. فرجعوا.

وعند انصراف الرسول من حمراء الأسد ظفر بأبي عزة الجمحي

الـذي من عليه بعـد بدر، فقـال له أقلني يـا محمد فقـال عليه السـلام، واللّه لا تمسح عارضيـك بمكة بعـدها تقـول خدعت محمـداً مـرتـين، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتـين، ثم أمر بضـرب عنقه. والـذين استشهدوا بـأحـد من المسلمـين ٧٠ رجـلاً أربعـة من المهـاجـرين وبـاقيهم من الأنصار، والذين قتلوا من المشركين ٢٢ رجلاً.

أنزل اللّه في هذا اليوم ستين آيـة من القرآن في سـورة آل عمران، وهي السورة الثالثـة من أول قولـه تعالى **﴿وإذ غـدوت من أهلك تبوىء المؤمنـين مقاعـد للقتال واللّه سميـع عليم﴾**[1] إلى قـولـه... **﴿فـآمنـوا باللّه ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم﴾**[2].

وقـد جمعت هـذه الآيـات أمـوراً: (١) أجمـل تعـزيـة لهم عـلى مـا أصـابهم يوم أحـد (٢) أن صفة الصبـر وعلو النفس لا يتبين أثـرهمـا إلا عند النكبات (٣) توبيخ لهم ـ بـألطف إشـارة ـ على مـا كان من ضعفهم حينما أشيع أن محمداً قتل (٤) بيـان الأسباب الحقيقيـة لما كـان يوم أحـد **﴿ولقد صدقكم اللّه وعده إذا تحسونهـم بـاذنه حتى إذا فشلتم وتنـازعتم في الأمـر وعصيتم من بعدمـا أراكم ما تحبـون﴾**[3] وكل هـذه متى حصل أمـر منهـا في جيش فقـد النـظام والـروح التي بهـا يستحق الـظفـر، وهي الفشـل والتنـازع والعصيـان (٥) مـا كـان منهم حـين الانصـراف عن المـوقعة وكيف كـان يدعـوهم الى الثبات والصبـر (٦) التنديـد بجماعـة المنـافقـين الـذين أكثـروا من غمـز المسلمـين والشمـاتـة بهم (٧) إعـلان العفـو عن المنهزمـين **﴿إن الـذين تـولـوا منكم يـوم التقى الجمعـان إنمـا استـزلهـم الشيطان ببعض مـا كسبوا ولقـد عفا اللّه عنهم إن اللّه غفـور حليم﴾**[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٧٩.
(٣) سورة ال عمران: الآية ١٥٢.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

(٨) الثناء على شهداء الموقعة والإخبار أنهم ﴿أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم اللَّه من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من اللَّه وفضل وأن اللَّه لا يضيع أجر المؤمنين﴾[١] وأخيراً أشار إلى ما كان من خروجهم ثاني يوم أحد بعد أن أصابهم القرح ووعد الذين أحسنوا منهم واتقوا أجراً عظيماً.

وقد قيل في هذه الموقعة كثير من الشعر العربي، قالته قريش والمسلمون: نقله ابن هشام في سيرته.

يوم الرجيع:

قدم على رسول اللَّه ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة وهما بطنان من خزيمة بن مدركة فقالوا يا رسول اللَّه إن فينا إسلاماً فلو أرسلت معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في ديننا ويقرئوننا القرآن ويعلموننا الإسلام فبعث معهم ستة من أصحابه أميرهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى إذا كانوا بالرجيع غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فلم يرع القوم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوهم فقالت لهم هذيل إنا لا نريد قتلكم ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد اللَّه وميثاقه أن لا نغدر بكم فلم يقبل هذا القول ثلاثة منهم فقاتلوا حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم بالطريق والآخران بيعاً بمكة فقتلا هناك وقال أبو سفيان لأحدهم وهو زيد بن الدثنة، حين قدم ليضرب عنقه ـ أنشدك اللَّه يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك يضرب عنقه وأنك في أهلك، قال واللَّه لا أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه

---

(١) سورة آل عمران: الايات: ١٦٩ـ١٧١.

شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي فيقول أبو سفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.

حديث بئر معونة:

قدم على رسول اللّه ﷺ في صفر من السنة الرابعة أبو براء عامر ابن مالك الملقب بملاعب الأسنة العامري فعرض الرسول عليه الاسلام فلم يسلم ولم يبعد، وقال يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال عليه السلام إني أخشى عليهم أهل نجد: فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث عليه السلام أربعين رجلاً عليهم المنذر ابن عمرو الساعدي فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فلما نزلوها بعثوا أحدهم بكتاب رسول اللّه إلى عامر بن الطفيل فلما جاءه الكتاب لم ينظر فيه حتى عدا على الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بني عامر فأبوا أن يخفروا جوار أبي براء فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم: عصية ورعل وذكوان فأجابوه إلى ذلك فخرج بهم حتى غشوا القوم في رحالهم فلما رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم ما عدا رجلين: عمرو بن أمية الضمري لأنه كان في الرحال وكعب بن زيد فانه ترك بالمعركة جريحاً قد ظن موته فارتث من بين القتلى وقد كان عمرو أسر لما ذهب يتفقد القوم ثم أطلقه عامر بن الطفيل فعاد إلى المدينة وبينما هو عائد قابله رجلان من بني عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول اللّه لم يعلم به عمرو.

فلما وصل إلى المدينة وأخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بخبر القوم والقتيلين قال هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً ثم قال لعمرو، لقد قتلت قتيلين لأديتهما.

اجلاء بني النضير
ذات الرقاع ـ بدر الآخرة
الخندق وقريظة ـ بني المصطلق

اجلاء بني النضير:

خرج عليه السلام إلى بني النضير يستعينهم في أمر دينك القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف فلما جاءهم وطلب منهم المعاونة قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه (وكان جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم) فمن رجل يعلو هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك أحدهم فصعد ليلقي الصخرة كما قال، ورسول اللّه في نفر من أصحابه، فجاءه الوحي بما عزم عليه القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٤ فتحصنوا منه في الحصون فأمر بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها.

أرسل جماعة من منافقي أهل المدينة إلى بني النضير أن أثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم. فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا واشتد بهم الخوف فطلبوا أن يجلوا ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة فرضي الرسول بماطلبوه فاحتملوا من أموالهم ما

استقلت به الإبل وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام .

ونـزل في أمـر بني النضـير من القـرآن سـورة الحشر وهي السـورة الستـون من القـرآن قص فيهـا الحـادثـة ومـا كـان من المنـافقـين الـذين راسلوا بني النضـير ثم عـين حكم الأمـوال التي تـركـوهـا وسمـاهـا فيئـاً وجعل أمرها لرسـول اللّه يضعها حيث أمـره اللّه **﴿للّه وللرسول ولـذي القـربى واليتامى والمسـاكين وابن السبيـل كيلا يكـون دولة بـين الأغنياء منكم﴾**[1] ثم عذر المسلمين على مـا فعلوه من قطع بعض نخيلهم بـأنه لم يكن المقصود منه الفساد، وإنما كان باذن اللّه ليضعف بـه أمر العـدو ثم أمر المسلمين بالتقوى وأن تنظر النفس ما قدمت لغد .

ذات الرقاع :

خـرج عليـه السـلام من المـدينـة في جمادي الأولى من سنـة ٤ يـريـد بني محـارب وثعلبة من غـطفان حتى إذا نـزل نخلاً لقي بهـا جمعـاً عـظيـماً من غـطفان فتقـارب النـاس ولم يكن حـرب وقـد خـاف بعضهـم بعضـاً حتى صلى الرسول بأصحابه صلاة الخوف ثم انصرف بالناس .

بدر الآخرة :

جـاء شعبان من السنـة الرابعـة وفيه سـوق بـدر وهي مـوا[illegible] أبي سفيـان فخرج عليـه السلام بـأصحابـه حتى نزل بـدراً وأقـام ينتـظر أبـا سفيان . أما هذا فانـه خرج بقـريش حتى بلغ مجنة أو عسفـان ثم بدا لـه فقـال أيها النـاس إنه لا يصلحكم إلا عـام خصيب ترعـون فيـه الشجـر وتشربون فيـه اللبن، وإن عامكم هـذا عام جـدب وإني راجع فـارجعوا فرجع الناس، وكان ذلـك مما أخـذه الناس عـلى أبي سفيان لعـدم وفائـه ولكنها الحروب ولقاء الموت تحمل الناس كثيراً على ما يكرهون .

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١ .

الخندق :

خرج نفر من اليهود ثم من بني النضير الذين أجلاهم رسول اللّه إلى خيبر ومعهم جماعة من بني وائل حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم الى حرب رسول اللّه وقالوا إنا سنكون معكم حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه؟ قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فسر ذلك قريشاً ونشطوا لما دعوهم إليه فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر حتى أتوا غطفان فدعوهم الى مثل ما دعوا إليه قريشاً وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن في بني فزارة والحرث بن عوف في بني مرة ومسعر بن دخيلة في بني أشجع بن أريث.

لما سمع رسول اللّه بما اجتمعت عليه قريش وأحزابها ضرب الخندق على المدينة باشارة سلمان الفارسي وقاسى المسلمون في حفره متاعب شديدة وما زالوا حتى أحكموه ثم جاءت قريش ومن معها حتى نزلوا بمجمع الأسيال من دومه بين الحرف وزغابة في عشرة آلاف وجاءت غطفان حتى نزلوا بذنب نعمي إلى جانب أحد، وخرج رسول اللّه والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين وضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين العدو وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في الآطام.

خرج حيي بن أخطب النضيري حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم وكان عاقد رسول اللّه وعاهده على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدم فضرب عليه حي الباب فأغلقه دونه فما زال يكلمه حتى فتح له بابه ثم قال، إني قد

جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلهم بذنب نعمي وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه فقال له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء ويحك يا حيي فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى نقض كعب بن أسد عهده وبريء مما كان بينه وبين المسلمين فلما انتهى الخبر إلى الرسول وإلى المسلمين بعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ليعلما له خبر بني قريظة وكان أمرهم يهمه أكثر مما يهمه أمر قريش وغطفان لأن هؤلاء في بلده والخيانة منهم تؤثر كثيراً في مركز جيشه، فلما انتهى السعدان إلى بني قريظة وجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: لا عهد بيننا وبين محمد؟ فشاتمهم سعد بن معاذ، وكان رجلاً فيه حدة، فقال له سعد بن عبادة دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة ثم جاء السعدان إلى رسول الله وأعلماه بما عليه القوم فعظم عند ذلك البلاء عند المسلمين واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن المسلمون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين.

أقام المسلمون على ذلك الحال بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهم حرب إلا المراماة بالنبل والحصار، ولما اشتد بالناس البلاء رأى عليه السلام أن يفعل أمراً يفرق به كلمة الأحزاب فبعث الى عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان فراوضهما أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينصرفا بجيوش غطفان فقبلا ولكنه قبل أن يبرم الأمر أرسل إلى السعدين، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيها رأى فقالا يا رسول الله أمراً تحبه فنضنعه، أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا قال بل

شيء أصنعه لكم فقال له سعد بن معاذ يا رسول اللَّه قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد اللَّه ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الاقرى أو بيعاً أفحين أكرمنا اللَّه بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا واللَّه ما لنا بهذا من حاجة واللَّه ما نعطيهم الا السيف حتى يحكم اللَّه بيننا وبينهم. فقال عليه السلام أنت وذاك فرجع رئيسا غطفان واستمر الأمر كما كان وقد استفزت النعرة بعض الشبان من قريش فاقتحموا الخندق بأفراسهم فمنهم من وقع فيه واندق عنقه ومنهم من برز له شجعان من المسلمين فقتلوه ومنهم من فر.

جاء ذات يوم نعيم بن مسعود الأشجعي فقال يا رسول اللَّه إني أسلمت ولم يعلم قومي باسلامي فمرني بما شئت فقال له عليه السلام: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم وخاصة ما بين وبينكم وإن قريشاً ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم وأهلهم ونساؤهم بغيره فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم! قالوا: لقد أشرت بالرأي، ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب - ومن معه من رجال قريش - قد عرفتم ودي لكم وفراقي لمحمد وإنه قد بلغني أمر قد رأيت على حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم - إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم

فنعطيهم لك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم فإن طلبت منكم يهوداً أحداً من أشرافكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً ثم جاء غطفان فلعب بعقولهم بمثل ذلك.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة ٥ أرسلت قريش وغطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين فقالوا لهم، إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً فقالوا لهم: إن غداً السبت وهو يوم لا نفعل فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا فلما رجع عركمة ومن معه بتلك الرسالة تأكدت قريش وغطفان من خبر نعيم بن مسعود وأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم أحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فأخرجوا فتأكدت قريظة حينئذ مما قال لهم نعيم وامتنعوا عن القتال حتى يأخذوا الرهائن فأبوا عليهم ودب حينئذ إلى القلوب الفشل والرعب وهما كافيان لخذلان أعظم جند وصادف أن جاءتهم ريح في ليلة شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفيء قدورهم وتطرح آنيتهم.

لما علم عليه السلام بما حصل بين الأحزاب من الخلاف أرسل حذيفة بن اليمان ليعلم له خبر القوم فجاء معسكرهم في ذلك الليل فإذا أبو سفيان يقول لهم لينظر امرؤ من جليسه قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان الى جنبي فقلت له من أنت؟ فقال أنا فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فاني مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث ما أطلق عقاله إلا وهو قائم

فتبعته قريش وسمعت غطفان بما كان فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

وبذلك أزيحت هذه الغمة الثقيلة التي علمتهم كيف يخندقون على ديارهم إذا جاءهم عدو أكثر منهم عدداً فكأن يوم أحد كان درساً لهم استفادوا منه الأناة في ملاقاة الأعداء الذين اعتدوا عليهم وعرفوا أن من عاقدوهم من بني قريظة لا عهد لهم ولا رادع عما استكن في أنفسهم من العداء الشديد فلم يكن هناك بد من جزائهم جزاء شديداً يناسب ذلك الجرم الفظيع.

لذلك أمر عليه السلام - بعد انصراف الأحزاب، أن يتوجه المسلمون إلى بني قريظة ليعاقبوهم عقوبة الخائن الغادر فذهب المسلمون اليهم وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم فحكم عليهم حكماً يناسب جرمهم وهو قتل مقاتلهم فنفذ الحكم فيهم وكان الأوس يريدون من سعد أن يحكم فيهم بما حكم به عبد الله بن أبي في مواليه من قينقاع باجلائهم فلم يرض.

ومن الغريب أن إخوانهم بالشام في هذه الآونة كانت تدور عليهم تلك الكأس المرة من يد هرقل بعد هرقل من جراء ما فعلوه بنصارى الشام حينما كان الظفر لفارس فكانوا في الجهتين أعداء للطرفين.

ذكر الله قصة الأحزاب في سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون وأولها قوله تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً * إذجاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾**[1] والذين كانوا من

(١) سورة الأحزاب: الآيات ٩ - ١١.

فوقهم بنو قريظة والذين كانوا أسفل منهم قريش وغطفان، ثم بين حال المنافقين ومثل ما كانوا عليه من الخوف أحسن تمثيل ثم بين حال المؤمنين حينما رأوا الأحزاب **﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾**(١) ثم ذكر أمر بني قريظة الذين ظاهروا الأحزاب في عدوانهم والآية تدل على أن القتل لم يعمهم **﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً﴾**(٢).

واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة نفر منهم سعد بن معاذ أصابه سهم في ذراعه فقطع أكحله وقد مات بعد حكمه على بني قريظة وقتل من المشركين ثلاثة نفر.

بعد الانصراف من الأحزاب انضم إلى صفوف المسلمين قائدان عظيمان من قواد قريش وهما عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومي وذلك يدل على أن الحرب قد شرعت تضع أوزارها بين الفريقين وقد كان ذلك فانه لم تحصل مواقف مهمة بين الفريقين بعد ذلك.

بني لحيان:

أقام عليه السلام بالمدينة ـ بعد الخندق ـ إلى جمادي الأولى سنة ٦ وفيه خرج إلى بني لحيان يطالب بدم أصحاب الرجيع فسار حتى نزل بغران وهو واد بين أمج وعسفان ينزله بنو لحيان فوجدهم حذروا وتفرقوا وتمنعوا في رؤوس الجبال فعاد إلى المدينة.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٢.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢٦.

ذي قرد :

لم يقم بـالمـدينـة إلا ليـالي قـلائـل حتى أغـار عيينـة بن حصن - في خيل من غطفان - على لقـاح لرسـول الله بالغـابة وفيهـا رجل من غفـار وامـرأتـه فقتلوا الـرجـل واحتملوا المـرأة فنـذر بهم سلمـة بن عمـرو بن الأكـوع الأسلمي فأشـرف في نـاحيـة سلع وصـرخ واصبـاحـاه ثم خـرج يشتد في أثر القوم وكان رامياً مجيداً فصـار يرميهم بـالنبل ويقـول خذهـا وأنا ابن الأكوع فإذا انعطفت عليـه الخيل انـطلق هاربـاً ثم يعود فيفعـل كما كان يفعل وكان قصـده أن يؤخرهـم ريثـما يلحقهـم جند المـدينة، بلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكـوع فصرخ المـدينة الفـزع الفزع فتـرامت إليـه الخيول فلما اجتمعـوا أمر عليهم سعـد بـن زيد وقـال لـه اخـرج في أثـر القوم حتى ألحقـك فخـرجـوا يشتـدون في أثـر القـوم حتى أدركـوهم فنـاوشـــوهم حتى لحقهم رسـول الله ﷺ واستنقـــذوا منهم بعض اللقـاح وهربت غطفـان بالبـاقي وأنام المسلمـون بذي قـرد يومـاً وليلة ثم عادوا قافلين إلى المدينة وقتل منهم رجل واحد.

بنو المصطلق :

أقام عليه السلام بالمدينة إلى شعبان وفيه خـرج يريـد بني المصطلق وهـم بطن من خزاعـة وكان بلغـه أنهم يجتمعون لـه وقائـدهم الحارث بن ضـرار فلما سمع عليـه الصـلاة والسلام بهم خـرج اليهم حتى لقيهم عـلى ماء لهم يقال له المريسيـع من ناحيـة قديـد إلى الساحـل فتزاحف النـاس واقتتلوا فـانهزمت خزاعـة وحـاز المسلمـون أمـوالهم وأبنـاءهم ونسـاءهم فقسم السبي في المسلمين وفيه جويرية بنت الحارث رئيس القوم.

ويـظهر أنـه عليـه السـلام كـان يميـل للمن عـلى السبي وإطـلاقـه فتزوج جويـرية بنت الـرئيس فخرج الخبـر إلى الناس أن رسـول الله ﷺ تزوج جويـرية بنت الحـارث فقال النـاس أصهار رسـول الله وأرسلوا ما بأيديهم.

قالت عائشة فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

الحديبية:

أقام عليه السلام بالمدينة إلى ذي القعدة من سنة ٦ وفيه خرج يريد مكة معتمراً لا يريد حرباً وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له وكان قد أراه اللّه في منامه أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام آمنين، فسار بهم حتى بلغ الحديبية وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة فأهبوا للذوذ عنها.

ولما اطمأن به المقام جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة يسألونه عن سبب مجيئه؟ فأجابهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت معظماً له فرجعوا إلى قريش وأعلموهم بذلك فاتهمتهم قريش وجبهوهم وقالوا وإن كان جاء لا يريد قتالاً فواللّه لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك عنا العرب!! ثم بعثوا إليه رسولاً آخر من بني عامر فأخبره عليه السلام بمثل ما أخبر به بديلاً ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش فلما رآه عليه السلام قال هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول اللّه ﷺ إعظاماً لما رأى فقال لهم ذلك فقالوا اجلس فانما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب الحليس عند ذلك وقال يا معشر قريش ما على هذا حالفناكم أيصد عن البيت من جاء معظماً له؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لننفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له مه ـ كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضي به ثم بعثوا له عروة بن مسعود الثقفي وأمه سبيعة بنت عبد شمس فخرج حتى جاءه وقال له يا محمد أجمعت أوباش الناس ثم جئت بهم

إلى بيضتك لتفضها بهم إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون اللَّه لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم اللَّه لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك ولما كانت هذه الكلمة شديدة لا يحتملها المسلمون نال منه أبو بكر، ثم كلمه عليه السلام بما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً وقد هال عروة ما رآه من شدة احترام المسلمين لرسول اللَّه ﷺ ومحبتهم له فرجع إلى قريش وقال لهم يا معشر قريش قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني واللَّه ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فالرأي رأيكم.

دعا رسول اللَّه ﷺ - بعد ذلك عمر بن الخطاب ليرسله إلى قريش حتى يبلغهم عنه ما جاء من أجله فقال عمر يا رسول اللَّه إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي لها وغلظتي عليها ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان فدعا عليه السلام عثمان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً له فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص بن أمية حين دخل مكة فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغها ثم قالوا له ان شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول اللَّه ﷺ واحتبست قريش عندها عثمان فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل، فلما بلغت تلك الإشاعة رسول اللَّه قال: لا نبرح حتى نناجز القوم، ثم دعا أصحابه إلى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان - تحت الشجرة - على أن لا يفروا، ثم تبين بعد ذلك بطلان تلك الإشاعة.

بعثت قريش بعد ذلك سهيل بن عمرو العامري وقالوا له ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا فواللَّه لا

لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً: فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه عليه السلام قال أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فجاء سهيل وتكلم مع الرسول في أمر الصلح واتفقا على قواعده وهي هذه:

(١) أن الرسول يرجع من عامه فلا يدخل مكة. وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب، السيوف في القرب بعد أن تخرج منها قريش:

(٢) وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض:

(٣) من أتى محمداً من قريش من غير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرد عليه.

(٤) من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه:

ثم دعا علياً ليكتب الكتاب بذلك فأملى عليه بسم اللّٰه الرحمن الرحيم فقال سهيل:

أكتب باسمك اللهم فأمره عليه السلام بذلك ثم أملى هذا ما صالح عليه محمد رسول اللّٰه فقال سهيل لو شهدت أنك رسول اللّٰه ما قاتلتك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال عليه السلام، أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّٰه سهيل بن عمرو. ولما كتبت الصحيفة دخلت خزاعة في عهد رسول اللّٰه ﷺ. ودخلت بنو بكر في عهد قريش.

وبينا الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت إلى المسلمين فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال يا محمد قد لجت بضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا قال

صدقت وأبو جندل ينادي يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ولم تكن هناك حيلة إلا أن يرد أبو جندل ـ عملاً بوثيقة الصلح ـ وعملاً بالآية الكريمة **﴿وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾**(١).

كانت حال بعض المسلمين عندما انتهى الصلح شديدة لما رأوه من رجوعهم دون أن يطوفوا بالبيت، وقد كانوا لا يشكون في ذلك لمكان رؤيا رسول اللّه ﷺ، ثم لما رأوه من هذه الشروط التي رضيها عليه السلام وظن بعضهم أنها لا تليق بالمسلمين حتى أن عمر بن الخطاب رضيّ اللّه عنه قال يا رسول اللّه ألست برسول اللّه؟ قال بلى، قال أولسنا بالمسلمين؟ قال بلى، قال أوليسوا بالمشركين؟ قال بلى، قال فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أنا عبد اللّه ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني.

لم يبق بعد ذلك إلا أن يتحلل المسلمون من عمرتهم بنحر الهدى وحلق الرؤوس أو تقصيرها فنحر عليه السلام وحلق فتواثبوا إلى هديهم ينحرون ثم حلقوا رؤوسهم وأنزل اللّه في هذه الحادثة سورة الفتح بأسرها.

وقد سميت في أولها هذه الحادثة فتحاً مبيناً وذلك واضح فإن الناس أمن بعضهم بعضاً بسببها وأمن طريق الدعوة التي ما كانت كل هذه الحروب إلا لتأمينها فتفرغ عليه السلام لمكاتبة الملوك ورؤساء العشائر يذهب رسله ويؤوبون وهم آمنون من شر قريش ومن شر حلفائهم والذي ضحى في نيل ذلك إنما هو شيء قليل جداً ولكن الناس لا يصبرون ـ ثم ذكر في السورة البيعة فجعل الذين يبايعونه انما يبايعون اللّه ووعد الموفي وأوعد الناكث، ثم تكلم عن أمر الأعراب

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

الذين تخلفوا عنه حينما خرج إلى الحديبية وأبان ما سيعتذرون به ووبخهم على ما فعلوا لأنه لم يقبل اعتذارهم ثم أعلن رضاه عن أصحاب بيعة الشجرة، ثم بين للناس الأسباب التي من أجلها امتنع الرسول عن الحرب - ثم تكلم عن رؤيا رسول اللّه فقال **﴿لقد صدق اللّه رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء اللّه آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾**(١) ثم ختم السورة بوصف أصحاب رسول اللّه ﷺ وتمثيلهم أحسن تمثيل.

بهذه الهدنة أمن المسلمون شر قريش وصارت لهم الحرية يسيرون حيث شاءوا إلا أنهم كان لهم عدو بالقرب منهم يتربص بهم الدوائر وذلك العدو هم أهل خيبر الذين لا ينسون ما حل بهم وبإخوانهم فصمم عليه السلام على المسير إليهم والاستراحة منهم.

فخرج في محرم السنة السابعة حتى حل بساحتهم ونازل حصونها وصار يفتحها منهم حصناً حصناً حتى جاء على آخرها وصالح أهلها على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف ما يخرج من أرضهم وإذا شاء المسلمون أخرجوهم وبعد أن انتهى من خيبر ذهب إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم عاد إلى المدينة بعد أن صالحه أهل فدك على مثل صلح أهل خيبر.

وفي يوم فتح خيبر قدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم من الحبشة بقية من كان بها من المهاجرين، وفي مقدمتهم جعفر ابن أبي طالب وكان قدومهم على أثر بعث الرسول الى النجاشي عمرو ابن أمية الضمري يطلب توجيههم إليه فأرسلهم النجاشي على مركبين وكانوا ستة عشر رجلاً معهم من بقي من نسائهم وأولادهم وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك.

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٧.

ولما حال الحول على عمرة الحديبية خرج عليه السلام بأصحابه الذين صدوا في العامل الماضي ليقضوا تلك العمرة التي فاتتهم حسب عهد الحديبية فوصل إليها في ذي القعدة من السنة السابعة وحينئذ خرج منها أهل مكة ودخلها المسلمون، وكانت قريش تتحدث أن أصحاب محمد في جهد وشدة ووقفوا أمام دار الندوة مصطفين ينظرون حال المسلمين فلما دخل عليه السلام المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى وقال رحم الله أمرءاً أراهم اليوم قوة من نفسه ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الحجر الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطوال ومشى سائرها.

ثم أقام عليه السلام بمكة ثلاثاً ثم انصرف إلى المدينة في ذي الحجة.

مؤتة:

كان من ضمن رسل النبي عليه السلام الحارث بن عمير الأزدي، وكان رسولاً إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني فكان ذلك شديداً على رسول الله فجهز تلك السرية للقصاص ممن قتله وكان عدتها ثلاثة آلاف نفر وكان رئيس السرية زيد بن حارثة وقال لهم عليه السلام إن قتل زيد فرئيسكم جعفر بن أبي طالب فإن أصيب فرئيسكم عبد الله بن رواحة فبلغ الناس أن هرقل[1] قد نزل مآرب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليهم من عرب الشام مثلهم فأقام المسلمون ليلتين في معان ثم شجعوا أنفسهم على الهجوم على ذلك

(١) في تاريخ هرقل أنه قدم أورشليم ٦٢٩ ميلادية بعد انتصاره على الفرس ليشكر الله على ما قيضه له من النصر ورد الخشبة المقدسة التي كان الفرس قد استلبوها وطرد اليهود من أورشليم ولعله علم حينذاك بورود المسلمين فسار إليهم أو أنفذ لهم بعض قواده ليردوهم.

العدو، وهم في العدد القليل، فساروا حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف فانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل حتى قتل فأخذ الراية عبد اللّٰه بن رواحة فما زال يقاتل حتى قتل فأخذ الراية رجل من المسلمين وطلب منهم أن يصطلحوا على أمير لهم فاتفقوا على خالد بن الوليد وفي ذاك الوقت أظهر مهارته في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه، وصار يتأخر بهم قليلاً قليلاً ـ مع حفظ نظام جيشه ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمي بهم في الصحراء ثم عاد خالد بذلك الجيش إلى المدينة، وعندنا أن تلك الأعداد التي يذكرها المؤرخون لجنود الروم والعرب الذين معهم مبالغ فيها لأن غاية ما رآه المسلمون أنهم رأوا عدداً كثيراً أمامهم ولا يمكن بحال أن يعطوه قدره الحقيقي له وثلاثة آلاف عدد قليل جداً في جانب مائتي ألف لا تمكنهم المقاومة بحال، والمؤرخون إذا عدوا من قتل في هذه الموقعة لا يزيدون عن اثني عشر رجلاً ومن المحال أن يصدم جيش عظيم القدر بجيش نسبته إليه ضئيلة ثم لا يقتل في الميدان إلا اثني عشر نفراً.

فتح مكة :

كانت بطون خزاعة قد دخلت في عهد رسول اللّه ﷺ كما قدمنا وبكر دخلت في عهد قريش، وكان بين الحيين في الجاهلية دماء، فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو الديل من بني بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم فخرجوا وقائدهم نوفل بن معاوية الديلي ورفدتهم قريش بالسلاح، وخرج منهم نفر يساعدون بأنفسهم فانضموا إلى صفوف بني بكر وقاتلوا خزاعة حتى تحرموا منهم بالحرم بعد أن أصابوا فيهم فخرج من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على الرسول بالمدينة فوقف عليه وهو جالس في المسجد فأنشده شعراً يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم لبني بكر على خزاعة ويطلب منه النصح وفاء بالعهد، ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى أتوا رسول اللّه فأخبروه بما نقضت قريش من العهد، ثم انصرفوا راجعين من المدينة، أحست قريش بمافعلت وعلمت أن الخبر لابد أن يصل إلى المسلمين فرأى أبو سفيان أن يسير إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فلم ينجح وكان مجيئه ـ على هذه الصورة، مما أكد الخبر عند رسول اللّه والمسلمين فأمرهم أن يتجهزوا إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ ولم يكن يحب أن تعلم قريش بمسيره فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم بمسير المسلمين وأرسله مع امرأة. فعلم بذلك عليه السلام فأرسل إليها من جاء بالكتاب منها وسأل حاطباً عن

سبب كتابة هذا الكتاب فاعتذر وقبل عذره وكانت عدة من خرج في هذا الجيش عشرة آلاف رجل وكان خروجهم لعشر مضين من شهر رمضان سنة ٧: (أول يناير سنة ٦٣٠م) فساروا حتى نزلوا بمر الظهران قريباً من مكة.

كانت قريش محسة بأنه لابد من شيء بعد أن فعلت ما فعلت ولكن عميت عليهم الأخبار فلم يعلموا بشيء من مسير المسلمين، وبينما المسلمون بمر الظهران خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل ابن ورقاء يتجسسون الأخبار فظفرت بهم جنود المسلمين وكان أول من لقي أبا سفيان العباس بن عبد المطلب فأردفه على عجز بغلته وسار به سيراً حثيثاً ليستأمن له الرسول وخاف أن يسرع إليه من يبغضه فيهلكه فلما وصل العباس وأبو سفيان إلى خيمة الرسول وجد عمر قد سبقه وهو يطلب أن يأمر بقتل أبي سفيان فقال العباس يا رسول الله قد أمنته فقال للعباس اذهب به إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به حتى إذا كان الصباح غدا به فقال الرسول لأبي سفيان ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك، وأوصلك وأكرمك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد، قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فان في النفس منها حتى الآن شيئاً، وبعد كلام وحوار أسلم أبو سفيان وشهد شهادة الحق، فقال العباس، يا رسول الله. إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال عليه السلام من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه باباً فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن، ثم أطلق فذهب إلى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته يا معشر قريش محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم وأعلن لهم كلمة الرسول فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، ثم سار عليه السلام

بجنوده حتى دخل من أعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش إلا مناوشات لا تستحق الذكر، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة الشيبي ثم وقف على باب الكعبة وقال لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ثم قال يا معشر قريش إن اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم قال يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم، قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال:

« اذهبوا فأنتم الطلقاء »

ثم رد مفتاح الكعبة إلى سادنها فهي في أعقابه إلى اليوم. ثم دخل البيت فأزال ما به من الصور والتماثيل المختلفة.

وأمر ـ حين دخوله مكة ـ بقتل أفراد ذوي جرائم خاصة بهم فقتل أكثرهم ودخل في الإسلام في هذا اليوم معظم قريش لم يتخلف منهم إلا القليل ثم أسلموه بعد. يعتبر فتح مكة حداً فاصلاً بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده فإن قريشاً كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره والعرب في ذلك لهم تبع فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب.

أمر حنين:

إلا أن بطون هوازن رأت من نفسها عزا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع فاجتمعت إلى مالك بن عوف النضري ودخل معها في ذلك بطون ثقيف وكلهم من قيس عيلان وأجمعوا أمرهم على المسير إلى حرب المسلمين، فلما سمع بهم رسول اللّه خرج إليهم ومعه اثنا

عشر ألفاً وهو أكثر جند خرج به فلما استقبلوا وادي حنين وشرعوا ينحدرون فيه، كانت هوزان وثقيف قد كمنوا في شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل أن يهيء هؤلاء صفوفهم فانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد فانحاز عليه السلام جهة اليمين وهو يقول هلموا إليّ أيها الناس أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله ولم يبق معه في موقعه إلا عدد قليل. فقال للعباس عمه وكان جهير الصوت اصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب الشجرة فأجابوا لبيك لبيك فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر عليه فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت حتى إذا اجتمع اليه منهم مائة استقبلوا الناس وأقتتلوا ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن إلا ساعات قلائل حتى هزموا عدوهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف ـ وحدهم ـ نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن.

ولقد أنزل الله في هذه الموقعة في سورة التوبة **﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾**(١).

وبعد انتهاء حنين سار عليه السلام إلى ثقيف بالطائف فحاصرهم مدة، ثم عاد منهم بدون أن يفتح الطائف فسار حتى نزل الجعرانة فأتاه هناك وفد من هوازن مسلمين فقالوا يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فمن علينا من الله عليك وقال له رجل من هوازن إنما في الحظائر عماتك وخالاتك

---

(١) سورة التوبة: الآيات ٢٥ ـ ٢٦.

وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر الغساني أو للنعمان بن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذي نزلت رجونا عطفه وعائدته علينا وأنت خير المكفولين فقال لهم عليه السلام أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم فقالوا أخيرتنا بين أموالنا وأحسابنا بل ترد الينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب الينا فقال لهم أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس يقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسليمن إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم فلما صلى الظهر قاموا فتكلموا بمثل ما قال لهم فقال عليه السلام أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون والأنصار ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وبذلك رد عليه السلام إلى هوازن أبناءهم ونساءهم ثم وفد عليه بعد ذلك مالك بن عوف فرد عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الابل فحسن إسلامه واستعمله عليه السلام بعد ذلك ثم أهل معتمراً من الجعرانة فأدى العمرة وإنصرف بعد ذلك راجعاً إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد وكان رجوعه إلى المدينة لست ليال بقيت من ذي القعدة.

تبوك:

أقام عليه السلام بالمدينة إلى رجب من السنة التاسعة وفيه أمرهم أن يتجهزوا لغزو الروم الذين سبقت منهم وقعة زيد بن حارثة ومن أصيب معه في مؤتة ويسمى هذا الجيش بجيش العسرة لأن التأهب لها كان في زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاء وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في مشارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه فتجهز الناس وأنفق الكرام ما يتجهز به ضعفاء الحال ولما تجهز الجيش خرج بهم عليه السلام حتى وصل تبوك وهناك جاءه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة

فصالح الرسول وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح فأعطوه الجزية فكتب ليحنة (بسم اللّه الرحمن الرحيم هذه أمنة من اللّه ومحمد النبي رسول اللّه ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة اللّه وذمة محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فانه لا يحول ما له دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر) ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فذهب إليه وأسره وجاء به إلى رسول اللّه ﷺ فحقن له دمه وصالحه على الجزيرة ثم خلى سبيله فرجع إلى قريته وأقام المسلمون بتبوك بضع عشرة ليلة ثم انصرف قافلاً إلى المدينة وحديث هذه الغزوة وما كان فيها قصة في اللّه سورة التوبة.

وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها رسول اللّه ﷺ محارباً.

التشريع في المدينة:

بينا فيما سبق أن الذي نزل بالمدينة من القرآن إحدى وعشرون سورة وهو يبلغ نحو ثلث القرآن.

ويمتاز المدني من القرآن عن المكي منه بأمرين (الأول) ما فيه من قصص الغزوات وأسبابها، وما كان فيها مما يصح أن يكون درساً نافعاً للمسلمين (الثاني) ما تناول من الشرائع الأجتماعية والدينية ونعني بالدينية ما شرعه ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض.

الشرائع الدينية:

(١) الصلاة لم يزد الكتاب في تفصيلها شيئاً إلا أنه شرع صلاة الجمعة في اليوم الذي اختير ليكون خاصاً بالمسلمين وقد ورد ذكر هذه الصلاة في سورة سميت بالجمعة وشرع صلاة الخوف في حال تقابل

الصفوف وقد بينها في سورة النساء: ثم زاد المسلمين حثاً على إقامة الصلاة والمحافظة عليها.

(٢) الصيام شرع في المدينة في السنة الثانية وميز به رمضان لأنه الشهر الذي نزل فيه القرآن لأول مرة وقد بين ذلك في سورة البقرة.

(٣) الحج شرع في المدينة في السنة السادسة وقد بين الحج في موضعين من سورة البقرة (الأول) في قوله تعالى **﴿إن الصفا والمروة من شعائر اللّه فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن اللّه شاكر عليم﴾**[1] (الثاني) في قوله **﴿وأتموا الحج والعمرة للّه﴾**[2] إلى قوله **﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا اللّه واعلموا أنكم اليه تحشرون﴾**[3] وذكره في سورة آل عمران من قوله **﴿وللّه على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً﴾**[4].

وقد بين في سورة الحج المكية شيء من تاريخ الحج والغاية منه **﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم اللّه في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾**[5] الآيات.

ولم يحج عليه السلام إلا في السنة العاشرة من الهجرة وتسمى حجته بحجة الوداع لأنه ودع فيها الناس وقال لهم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا وأوصاهم بكثير من الوصايا وبين لهم تفاصيل الحج عملاً.

(٤) الزكاة لم يرد في تفصيلها في الكتاب شيء جديد وإنما بينتها السنة وبين القرآن مصارفها في سورة التوبة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٩٦.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٠٣.
(٤) سورة آل عمران: الآية ٩٧.
(٥) سورة الحج: الآية ٢٨.

الشرائع الاجتماعية :

كنا نحب أن نجعل في مقدمتها الزكاة ولكن لما كان فقهاؤنا يعدونها من العبادات لم نستجز أن نخالفهم وإلا فواضح أنها من الشرائع الاجتماعية لأن الغرض من الزكاة إعانة الأغنياء للفقراء فهي أمر مالي محض والمقصد من الحج أن يكون موفداً عاماً يشهد فيه المسلمون منافعهم ويذكرون إسم اللّه .

ما ورد في الكتاب من الشرائع الاجتماعية ثلاثة أنواع :

الأول ـ ما يتعلق بالبيوت وتكوينها ونظامها وهو الذي يسميه الناس الآن أحوالاً شخصية وهذا الاسم ترجمة حرفية للفظ الأفرنجي ولكنا لا نستجيز إطلاق هذا الاسم عليه لأن نظام البيوت ليس بالأمر الشخصي الذي ترجع أوامره ونواهيه إلى الشخص وحده وإنما هو أمور اجتماعية عامة وهي أليق المشروعات باسم الأحوال الاجتماعية العائلية إن رضيّ لنا أهل اللغة باسم العائلة والا سميناها الأحوال البيتية لأنها ترجع إلى تكوين البيت ونظامه .

الثاني ـ ما يتعلق بمعاملات الناس بعضهم مع بعض .

الثالث ـ ما يتعلق بالقصاص والحدود .

نظام البيوت :

(١) الزواج : شرع القرآن الزواج وسمى عقدته (ميثاقاً غليظاً) وامتن على الناس بأن جعل بين الزوجين (مودة ورحمة) وجعل كلا من الزوجين لباساً للآخر ﴿**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**﴾[١] ومعنى هذا أنكم تسكنون اليهن ويسكن اليكم كما قال ﴿**جعل لكم الليل لباساً**﴾[٢] أي تسكنون فيه .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٧ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٤٧ .

(٢) ـ حرم التزوج بنساء بينهن فنهى في البقرة عن تزوج المشركات وتزويج المشركين ونهى في سورة النساء عن تزويج نساء بينهن من أول قوله تعالى ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء**﴾[١] الآيات.

وأجاز في سورة المائدة تزوج المحصنات من أهل الكتاب.

أباح التزوج بأكثر من واحدة: إلى أربع. ولكنه اشترط لذلك أن لا يكون المتزوج خائفاً من عدم العدل، فهو إذا مأمور بالاقتصار على الواحدة والأسلوب الذي جاءت به آية إباحة التعدد، مما يلفت نظر الانسان إلى التنبه جيداً لأمر العدل والاحتراس من التورط حتى لا يقع فيما نهى عنه الشارع فانهم بعد أن أمرهم بالمحافظة على أموال اليتامى كانوا يخافون من أمرهم، والوصاية عليهم، فقال لهم إن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا أن لا تعدلوا في النساء فلا تنكحوا من تخافون معه من عدم العدل وعبر عن ذلك المعنى بقوله ﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع**﴾[٢] يعني إن أن تعدلوا، فانه قال بعد ﴿**فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة**﴾[٣] ومما يلفت النظر أنه قال في السورة نفسها ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة**﴾[٤].

(٣) أمر باعطاء النساء مهراً عند التزوج ﴿**وآتوا النساء صدقاتهن نحلة**﴾[٥] ولكنه لم يجعل لهذا المهر حداً معيناً يبتدىء به ولا ينتهي إليه.

(٤) العشرة: كثر في القرآن وصاية الرجل بالمعروف في معاشر

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٢.
(٢) سورة النساء: الآية ٣.
(٣) سورةالنساء: الآية ٤.
(٤) سورة النساء: الآية ١٢٩.
(٥) سورة النساء: الآية ٤.

أمرأته (فامساك بمعروف) البقرة ٢٢٩ (فأمسكوهن بمعروف) البقرة ٢٣١ والطلاق ٣، وجعل للرجل الرياسة في البيت **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل اللّه بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾**(١) وهذه الرياسة لا تجعل له امتيازاً في الحقوق فإن الكتاب يقول **﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾**(٢) فهذه تسوية واضحة توجب على الرجل أن يؤدي لها من الحقوق مثل الذي بطلب منها من الواجبات وله درجة الرياسة جمع ذلك في جملة وجيزة هي أساس كبير لكل نظام يكون لحياة الزوجين.

اهتم الكتاب كثيراً بأمر عقدة الزواج حتى لا تنحل بسبب ما يحصل بين الزوجين من النفور فأول الأمر شكك الزوج في وجدانه إذا أحس من نفسه بكراهة لزوجته فقال مخاطباً الأزواج **﴿وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل اللّه فيه خيراً كثيراً﴾**(٣) وأي زوج لا يتأثر مما ذكره اللّه بشكل توقع فانه توقع الخير الكثير ممن يكرهها الرجل ثم أباح للرجل أن يؤدب الزوجة إن بدا منها النشوز وتعدت الحدود المشروعة.

ثم خاطب المسلمين أنهم إن خافوا شقاقاً بين الرجل وزوجه أن يبعثوا حكماً من أهلها وحكماً من أهله للسعي في التوفيق حتى لا تنفصم عروة الزوجية وضمن التوفيق بين الزوجين إذا كان الحكمان يريدان إصلاحاً فقال **﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق اللّه بينهما﴾**(٤).

وإذا لم يقف بعد ذلك الزوجان عند الحدود المشروعة كان

---

(١) سورة النساء: الآية ٣٤.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.
(٣) سورة النساء: الآية ١٩.
(٤) سورة النساء: الآية ٣٥.

الطلاق أمراً لا بد منه لئلا تكون المعيشة تنغيصاً عليهما **﴿وإن يتفرقا يغن اللّه كلا من سعته﴾**[1] وشرع في الكتاب نظاماً للطلاق لو اتبع - كما جاء - لأفاد المسلمين وأزال عنهم وصمات شائنة هي لاصقة بهم ما داموا على حالهم.

بين ذلك النظام في سورتين من الكتاب إحداهما البقرة وقد جعل فيها الطلاق مرتين يخير الإنسان بعدهما بين الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان ثم الثالثة تكون بعدها الفرقة المؤبدة لأن ذلك دليل على عدم ائتلاف القلوب وزوال السعادة مع تلك الحياة فتنتظر المرأة زوجاً غيره فربما رضيته ورضيها فإن حصلت فرقة بين الزوجة وزوجها الثاني وظنت هي وزوجها الأول أن في إمكانهما أن يقيما حدود اللّه فلا جناح عليهما إذا تراجعا **﴿فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود اللّه﴾**[2].

جعل للطلاق مدة تحصل الفرقة الفعلية بعدها إن لم يبد للزوج أن يعود إلى عشرة زوجته باحسان **﴿وبعولتهم أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾**[3] وحتم أن هذه المدة تقيمها المرأة في بيتها الذي كانت تعيش فيه مع زوجها لا تخرج ولا تخرج إلا إن كانت بذيئة اللسان وذلك هو المراد بالفاحشة المبينة. اقرءوا إن شئتم سورة الطلاق وتأملوا قوله في حكمة بقائها في بيتها **﴿لعل اللّه يحدث بعد ذلك أمراً﴾**[4] ثم قال **﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة﴾**[5].

لم يكتف الشارع بذلك بل أمر للمرأة إذا طلقت بمتعة عوضاً عما يكون قد نالها من الأذى بسبب هذه الفرقة فقال **﴿ومتعوهن على**

---

(١) سورة النساء: الآية ١٣٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.
(٤) سورة الطلاق: الآية ١.
(٥) سورة الطلاق: الآية ٢.

الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾[1] وقال ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾[2] وقال ﴿فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾[3] وقال ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾[4].

فلا نرى الكتاب اهتم بأمر كما اهتم بالمحافظة على العشرة الزوجية بما وضعه من هذا النظام.

(٥) فصل الكتاب أمر الميراث وجعل للنساء منه نصيباً مفروضاً بعد أن كانت العرب لا تورث النساء فهدم قاعدتهم بقوله ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾[5]. ﴿وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾[6] ثم بين تلك الأنصباء بياناً تاماً في سورة النساء.

(٦) اهتم الكتاب بأمر اليتامى فأمر بالمحافظة على أموالهم ونهى عن أكلها وجعل الذين يأكلونها إنما يأكلون في بطونهم ناراً وبين الوقت الذي يؤتون فيه أموالهم كل ذلك مبين في أول سورة النساء كما بين أموال السفهاء الذين لا يمكنهم أن يحسنوا التصرف في أموالهم.

بذلك وبأمثاله وضع لهم أساس نظام عائلي قوي فالذين يقولون ليس في الإسلام اعتناء بذلك النظام نراهم ابتعدوا جداً عن معرفة ما اشتمل عليه الكتاب.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٣٦.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٤١.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤٩.
(٤) سورة النساء: الآيات ٢٠ ـ ٢١.
(٥) سورة النساء: الآية ٧.
(٦) سورة النساء: الآية ٨.

المعاملات ـ الحدود
الدعوة ونتائجها

المعاملات:

ذكر اللّه تعالى أساس المعاملات في مواضع من كتابه:

(١) أمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الإنسان للإنسان.

(٢) نهى عن أكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها إلى الحكام وأباح الربح من التجارة (إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم).

(٣) نهى عن أكل الربا أشد نهي ومثل آكليه أشنع تمثيل كما ترونه في سورة البقرة.

(٤) بين شكل التعامل في أطول آية من القرآن وهي آية الدين أمر فيها أمراً مؤكداً بكتابة الدين والاستشهاد عليه وقال فيها **﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند اللّه وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها﴾**[١]. ثم جعل الرهن وثيقة بما في الذمة إن لم يجدوا كاتباً ثم وكلهم إلى أنفسهم وذممهم إن أمن بعضهم بعضاً وأمر من أؤتمن أن يؤدي أمانته.

هذه هي الأصول العامة التي اعتنى الكتاب بوضعها.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

وقد نبه بعد ذلك على آداب اجتماعية منها.

(١) آداب الاستئذان وقد بينها في سورة النور في موضعين (الأول) ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾[١] (الثاني) في آخر السورة حيث يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم ثلاث مرات﴾[٢] إلى آخر الآيتين.

(٢) نهى النساء عن أن يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وهو ما كان على الأعضاء الظاهرة وأمرهن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن وقد أباح إبداء الزينة بمحضر أقارب لهن سماهم في سورة النور وأمرهن في الأحزاب بادناء الجلباب ليكون شعاراً للحرائر حتى لا يتعرض لهن أحد في طريقهن كما يفعل ذوو الدعارة.

(٣) أمر في التحية أن يحيى الانسان بأحسن تحية أو بمثلها إلى غير ذلك من الآداب الخلقية التي بها يتم تعاطفهم وإلفهم.

الحدود والقصاص:

شرع الكتاب القصاص، وأثبت في سورة الاسراء أن من قتل مظلوماً قد جعل الدين لوليه السلطان ونهاه أن يسرف في القتل وكان ولي الدم عند العرب أقرب عاصب للانسان (ويتولاه الآن ذو الولاية العامة فهو الذي صار له الحق أن يقيم دعوى القصاص وغيرها لأن

(١) سورة النور: الآيات ٢٧ ـ ٢٩.

(٢) سورة النور: الآية ٥٨.

العصبية العربية لم يعد لها أثر﴾ وبين في البقرة أن كتب القصاص في القتلى وأن القصاص لا ينبغي أن يتجاوز القاتل فالحر بالحر ولا يقتل به غيره مهما تكن قيمة القاتل والعبد يقتل بالعبد ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى ساداته والأنثى بالأنثى ولا ينبغي أن يتجاوز ذلك إلى رجالها أو عصبتها ولم يمنع العفو ممن ثبت له الحق في القصاص وهو الولي وذكر الكتاب أن من الشرائع التي كتبها على قوم موسى القصاص فقال **﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾**(١).

أما الحدود فذكر منها أربعة (الأول) حد الزاني وقد جعله الكتاب مائة جلدة (الثاني) حد القذف وقد جعله الكتاب ثمانين جلدة وهذان الحدان في سورة النور (الثالث) حد السارق وقد جعله الكتاب قطع اليد (الرابع) حد قطاع الطريق وهم الذين يحاربون اللّه ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلهم الإمام أو يصلبهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفيهم من الأرض، وقد ذكر الكتاب تلك العقوبات على شكل التخيير، ولكن الفقهاء وزعوها على جرائم مختلفة وعلى كل حال فإن الكتاب قال **﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن اللّه غفور رحيم﴾**(٢) وهذان الحدان في المائدة.

هذه جملة صغيرة من النظام الذي شرعه اللّه في هذا الدين ليكون أساساً لأعمال المسلمين وقد قصدنا بذلك أن ترجعوا إلى هذا الكتاب لتتوسعوا فيما أشرنا إليه.

الدعوة ونتائجها:

هاجر عليه السلام من مكة والذين دخلوا دينه جمع من قريش

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٥.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٤.

ومن حلفائهم ومواليهم وقليل غيرهم من سائر العرب ثم جماعة الأوس والخزرج من سكان يثرب وهم الذين سموا بالأنصار وكاد الإسلام يعمهم لولا توقف عدد قليل منهم تشابهت عليهم الطرق أو خافوا على سيادتهم أن يزيلها الإسلام فوقفوا وتبعهم فريق ممن لهم الرياسة عليه إلا أنهم كانوا في الظاهر مشاركين المسلمين في الإسلام وأضمروا خلاف ما أظهروا فسماهم المؤمنون باسم المنافقين، ويظهر لي أن هذا الاسم من المحدثات الدينية فإني لم أرى العرب تستعمل النفاق بهذا المعنى قبل الاسلام وكان الرسول يترفق بهؤلاء الناس حتى تخلص قلوبهم حتى أنه لما مات عبد اللّه بن أبي بن سلول رأسهم صلى عليه وكفنه في قميص له ونزل في قبره مع أنه كان سبباً عظيماً في مصائب كثيرة ولكن الرسول كان يتألف قلوب القوم ويود لو يكون باطنهم كظاهرهم لأن في هذه قوة كبرى.

وذخل في الإسلام قليل من يهود المدينة كعبد اللّه بن سلام ومن سار على رأيه. كان عليه السلام يدعو الناس من سائر العرب يرسل إليهم الرسل ويكتب إليهم الكتب ولكن لم تكن النتيجة كبيرة قبل أن ينتهي الحال مع قريش ومما يزيد التردد عندهم أن الحرب كانت بين الفريقين سجالاً فإن انتصر المسلمون ببدر فقد انتصرت قريش بأحد ولم يظهر المسلمون في الخندق بمظهر من يقدر على مساواة قريش والوقوف أمامها وجهاً لوجه كل ذلك كان مما يجعل الدعوة في سائر العرب واقفة عند حد لا تتعداه.

فلما كان صلح الحديبية أمن المسلمون شر قريش وما كانوا يتظاهرون به من الطعن في الدين الإسلامي فكان ذلك سبباً مهماً من أسباب النجاح لأن القرآن كان يهاجم عقولهم بأسلوبه البديع فيؤثر فيها وليس هناك ما يعارض هذا الأثر. حتى إذا فتحت مكة ودخلت قريش في الإسلام ثبت عند سائر العرب أن المسلمين لهم قوة تؤيدهم

فإن الظفر ببيت اللّه الحرام واكتساب السيادة فيه أمر عظيم في نظر العرب لم يكن ينال إلا بمعونة من اللّه القادر الذي يعبده كل منهم فلانت شكيمتهم بعد الإباء وشرعوا يفدون على رسول اللّه ﷺ أفواجاً قد دانوا بالإسلام ورضوا بما يوجبه عليهم من الفرائض العملية والمالية وتسمى السنة التاسعة سنة الوفود.

فممن وفد عليه ثقيف. بعد أن انصرف عنهم رسول اللّه ﷺ والمسلمون رأوا أن الإسلام عم من جانبهم فأرسلوا عنهم وفداً يبايع الرسول على الإسلام وفي مقدمة الوفد يا ليل بن عمرو. فلما قدموا عليه ضرب لهم قبة في ناحية مسجده ثم حادثوه فيما يريدون من الإسلام وطلبوا منه أشياء أباها عليهم، وأشياء أعطاهم، إياهم طلبوا إليه أن يعفيهم من الصلاة. فقال لا خير في دين لا صلاة فيه، وطلبوا منه أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فأعفاهم من ذلك وبعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم طاغيتهم (اللات) وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص منهم وكان أحدثهم سناً لأنه كان أعلمهم وأوصاه قبل رحيله بقوله: يا عثمان تجاوز في الصلاة وأقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة وكانت ثقيف من أصدق القبائل إسلاماً. وممن وفد عليه بنو تميم وفد عليه أشرافهم منهم عطارد بن حاجب بن زرارة والأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم ولما قدم هذا الوفد إلى المسجد نادوا من وراء الحجرات أن أخرج إلينا يا محمد وفيهم نزل أول سورة الحجرات ولما خرج ﷺ استأذنوه لخطيبهم أن يتكلم فخطب مفتخراً بقومه وعشيرته فأجابه على خطبته قيس بن شماس خطيب المسلمين وقد أثنى في خطبته على المهاجرين والأنصار ثناء دينياً ثم قام شاعرهم فألقى كلمة يفتخر ـ وأولها:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا　　منا الملوك وفينا تنصب البيع

فقام حسان بن ثابت شاعر المسلمين وأجابهم بقصيدة ربما كانت أحسن ما قال حسان وأولها :

إن الذوائب من فهر وإخواتهم   قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل ما كانت سريرته   تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم   أوحاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة   إن الخلائق فاعلم شرها البدع

ولما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له الخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلى من أصواتنا ، ولما فرغ القوم أسلموا وأجازهم عليه السلام .

وممن وفد من قيس : بنو عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وكان بنو عامر قالوا لابن الطفيل يا عامر إن الناس أسلموا فأسلم ؛ قال والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي أفأنا أتبع هذا الفتى من قريش؟ ثم سار إليها مضمراً غدراً فلم يفز برغبته ولم يسلم ومات بالطاعون وهو عائد .

وقدم عليه وفد بني سعد بن بكر وكان وافدهم ضمام بن ثعلبة وكان رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين فلما دخل المسجد والرسول بين أصحابه قال أيكم ابن عبد المطلب فقال ﷺ أنا ابن عبد المطلب قال أمحمد قال نعم قال يا بن عبد المطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن عليّ في نفسك قال لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك قال أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال اللهم نعم قال فأنشدك الله الخ آلله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال اللهم نعم ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة ؛ الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها حتى إذا فرغ قال : فإني أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله وسأؤدي هذه الفرائض

وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم خرج حتى أتى قومه فما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً بعد أن علمهم الإسلام وشرائعه.

وممن وفد عليه من ربيعة بنو عبد القيس رئيسهم الجارود بن بشر بن المعلى وكان نصرانياً فأسلم وهو ومن معه وكان الجارود من أشد الناس تمسكاً بالإسلام.

وممن وفد عليه من ربيعة بنو حنيفة، ومنهم مسيلمة بن حنيفة الذي لقب بالكذاب لادعائه النبوة بعد موت الرسول فأسلموا وأجازهم الرسول ولما عادوا إلى بلادهم ارتد مسيلمة وادعى النبوة وصار يسجع لهم أسجاعاً يحاكي بها القرآن.

وممن وفد عليه من قحطان زيد الخيل يقدم وفد طيء فأسلموا وحسن إسلامهم وقال عليه السلام في زيد ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه ثم سماه زيد الخير وأقطعه فيداً وأرضين معه، ثم وفد عليه من طيء عدي بن حاتم الطائي فأسلم وحسن إسلامه والسبب في وفادته أخته.

ثم أقبل عليه وفود من مراد وزبيدة وكندة وقدمت عليه رسل ملوك حمير بإسلامهم وهم الحارث بن كلال وأخوه نعيم والنعمان قيل ذي رعين ومغافر وهمدان وبعث إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوي بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله فكتب إليهم الرسول عليه السلام كتاباً بين لهم فيه فريضة الزكاة وأرسل مع الكتب رسلاً من أصحابه يفقهون الناس في الدين.

وممن كتب إليه بإسلامه فروة بن عمرو الجذامي وكان عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان من أرض الشام

فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه فحبسوه ثم قتلوه ولما قدموه ليقتل قال:

بلغ سراة المسلمين بـأنني   سلم لربي أعظمى ومقامي

ثم قـدم عليـه وفـد بنـو الحـارث بن كعب مـع خـالـد بن الـوليـد مسلمـين ولما سـألهـم عليـه السـلام بم كنتم تغلبـون من قـاتلكم في الجاهلية؟ قـالوا لـه كنا نجتمـع ولا نفترق ولا نبـدأ أحداً بـظلم ثم قدم عليه رفاعة بن زيد الجذامي وافداً عن قـومه وقـدم وفد همـدان يتقدمهم ذو المعشار المكني أبي ثور.

وهكـذا دخـل النـاس في الـدين أفـواجـاً حتى كـان رسـول اللّه في حجـة الـوداع آخـر سنـة عشر من الهجـرة في أكـثر من مـائـة ألف كلهم دانوا بهذا الدين في حياته ﷺ والذين لم يكـونوا معـه في هذه الحجـة أكثر منهم أضعـافاً مضـاعفة إلا أنـه لا يمكننـا القـول إن الـدين قـد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم لأنـه كان وسـطهم كثير من الأعـراب الجفاة الـذين أسلموا تبعاً لسادتهم ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعدما تـأصل فيهـا من الميـل إلى الغـارات ولم تكن تعـاليم الإسـلام قـد هـذبت أنفسهم تمـام التهـذيب وقد وصف القـرآن بعضهـم بقولـه في سورة التـوبة ﴿**الأعـراب أشد كفراً ونفاقاً وأجـدر أن لا يعلموا حـدود ما أنـزل اللّه على رسـوله واللّه عليم حكيم**﴾(١) ﴿**ومن الأعـــراب من يتخـــذ مـــا ينفـق مغـــرمـــاً ويتـربص بكم الدوائـر عليهم دائرة السـوء واللّه سميع عليم**﴾(٢) وقـد أثنى عــلى آخـرين منهم فقـــال ﴿**ومن الأعـراب من يؤمن بـــاللّه واليـوم الآخـر ويتخذ مـا ينفق قربـات عنـد اللّه وصــلوات الـرسـول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم اللّه في رحمته إن اللّه غفور رحيم**﴾(٣).

---

(١) سورة التوبة: الآية ٩٧.
(٢) سورة التوبة: الآية ٩٨.
(٣) سورة التوبة: الآية ٩٩.

أمـا الحـاضـرون منهم في المـدينــة ومكـة وثقيف وكثـير من اليمن والبحـرين فقد كـان الإسلام فيهم قـوياً ومنهم كبـار الصحابـة وسادات المسلمين ولما كانت رسـالة محمـد بن عبد اللّه ﷺ عـامة بنص القـرآن لم يقتصر في دعوته عـلى الجزيـرة العربيـة بل أرسـل كتبه ودعـاته إلى الملوك ورؤسـاء الأمم إلى الدين حتى لا يكـونوا ممن يصـد عن الإسـلام أو يقف في سبيـل دعوتـه. ومعلوم بـالبـداهـة أن الـدعـوة في تلك الأزمنـة وتلك الحكـومات، لا بـد أن تبدأ بـالكبـراء وذوي الـزعـامـة لأنهم لا يمكن أن يتركوا لداعية حريته إذا كانوا مخالفين له.

اختـار من أصحابـه رسـلاً لهم معـرفـة وخبـرة وأرسلهم إلى الملوك فـاختار دحيـة بن خليفة الكلبي رسـولاً إلى ملك الروم وكتب لـه كتـابـاً هـذا نصـه (بسم اللّه الـرحمن الـرحيم من محمـد رسـول اللّه إلى هـرقـل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى. أمـا بعد، أسلم تسلم يؤتـك اللّه أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك).

وننقـل هنا مـا رواه ابن عباس عن أبي سفيـان بن حـرب قـال كنـا قـوماً بحـاراً وكـانت الحـرب بيننـا وبـين رسـول اللّه قـد حصـرتنـا حتى أنهكت أمـوالنا فلما كـانت الهدنـة بيننا وبـين رسـول اللّه لم نـأمن أن لا نجد أمناً فخرجت في نفر من قـريش تجاراً إلى الشـام وكان وجـه متجرنـا منهـا غزة فقـد مناهـا حين ظهـر هرقـل على من كـان بـأرضـه من فـارس وأخـرجهم منها وانتـزع لـه منهم صليبـه الأعضم. وكـانـوا قـد استلبـوه إيـاه. فلما بلغ ذلك منهم وبلغـه أن صليبـه قـد استنقذ لـه وكـانت حمص منزله خرج منها يمشي على قدميـه متشكراً للّه حـين رد عليه مـا رد ليصلي في بيت المقـدس تبسط له البسط وتلقى عليـه الـريـاحـين فلما انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته ومعه بطارقته وأشراف الـروم أصبح ذات غـداة مهمومـاً يقلب طرفه إلى السماء فقال لـه بطارقتـه واللّه لقد أصبحت أيهـا الملك الغـداة مهمـومـاً قـال أجـل رأيت في هـذه الليلة أن ملك الختـان

ظاهر قالوا له أيها الملك ما نعلم أمة تختتن إلاّ اليهود، وهم في سلطانك وتحت يدك فابعث إلى كل من لك عليه سلطان في بلادك فمره فليضرب أعناق كل من تحت يده من يهود استرح من هذا الهم، فواللّه إنهم لفي ذلك من رأيهم يدبرونه إذ أتاه رسول صاحب بصرى برجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادي الأخبار بينها فقال أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل يحدث عن أمر حدث ببلاده عجب فسله عنه.

فلما انتهى إلى هرقل رسول صاحب بصرى قال هرقل لترجمانه سله ما كان هذا الحدث الذي كان ببلاده فسأله فقال خرج من بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد اتبعه ناس وصدقوه وخالفه ناس وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك فلما أخبر الخبر قال جردوه فإذا هو مختون فقال هرقل هذا واللّه الذي رأيت لا ما تقولون أعطوه ثوبه ثم قال لصاحب شرطته قلب لي الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم هذا الرجل قال أبو سفيان فواللّه إنا لبغزة إ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز قلنا نعم انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا إليه قال أنتم من رهط هذا الرجل قلنا نعم قال أيكم أمس به رحماً قال أبو سفيان أنا فقال أدنه أدنه فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي ثم قال إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه فواللّه لو كذبت ما ردوا علي ولكني كنت امرءاً سيداً أتكرم عن الكذب وعرفت أن أيسر ما في ذلك إنا كذبته أن يحفظوا على ذلك ثم يحدثوا به عني فلم أكذبه فقال أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي قال فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره أقول له:

أيها الملك ما يهمك من أمره إن شأنه دون ما يبلغك فجعل لا يلتفت إلى ذلك، ثم قال أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه كيف نسبه

فيكم قلت محض أوسطنا نسباً، قال هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقوله فهو يتشبه به قلت لا، قال فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه قلت لا، قال فأخبرني عن أتباعه منكم من هم، قال قلت الضعفاء والمساكين ولأحداث من الغلمان والنساء وإننا ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منا أحد، قال أخبرني عمن تبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه، قلت ما تبعه رجل ففارقه، قال فأخبرني كيف الحرب بينكم وبينه قلت سجال يدال علينا وندال عليه قال هل يغدر فلم أجد شيئاً لما سألني عنه أغمزه فيه غيرها قلت لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره فوالله ما التفت إليها مني ثم كر على الحديث قال سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً وكذلك يأخذ اللّٰه النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً، وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول قوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا ،وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه فزعمت أن لا يتبعه أحد فيفارقه، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه، وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا فلئن كنت صدقتني ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميه انطلق لشأنك، قال فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي على الأخرى وأقول أي عباد اللّٰه لقد أمر أمر ابن أبي كبشة أصبح ملوك بني الأصفر يهابون في سلطانهم بالشام وقد قدم عليه إذ ذاك دحية بكتاب رسول اللّٰه ﷺ فلما ترجمه لقيصر جمع بطارقته وعرض عليهم الكتاب واستشارهم في اتباعه فأظهروا كراهة ذلك ولما رأى نفورهم قال إنما قلت لأختبر صلابتكم في دينكم ومن هنا نفهم السبب في احتشاد الروم والعرب لمحاربة المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن

حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤتة كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الأمر قبل استفحاله.

وبعث عليه السلام شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارث بن شمر الغساني صاحب دمشق وكتب إليه (سلام على من اتبع الهدى وآمن بي إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك ولما وصله الكتاب قال من ينزع ملكي مني أنا سائر إليه ولم يسلم.

وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ويطلب منه أن يرسل جعفراً ومن معه من مهاجري الحبشة ففعل النجاشي ما طلب منه فأرسل جعفراً وأجاب إلى الإسلام كما أعلن بكتابه ولما بلغ الرسول وفاته، صلى عليه بالمدينة.

وبعث عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ومعه كتاب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) فمزق كسرى كتابه ولما بلغ ذلك رسول الله عليه السلام قال مزق الله ملكه ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن أبعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به فاختار بأذان رجلين ممن عنده وبعثهما بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معه إلى كسرى فلما قدما المدينة وقابلا النبي ﷺ قال أحدهما إن شاهنشاه ملك المللوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثني إليك لتنطلق معي وقالا قولاً تهديدياً. في ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه وعلم رسول الله الخبر من الوحي، فأخبرهما بذلك. فقالا هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو

أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟ قال نعم أخبراه ذلك عني وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبنا، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه في كتابه أنظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمري وكان ذلك سبباً في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء.

وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ولم يبعد وهو الذي بعث إلى رسول اللّه ﷺ بمارية القبطية أم إبراهيم فكان بذلك الرحم التي بين العرب وأهل مصر.

وبعث سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي، وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين وعمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه عباد الأزديين.

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلنهم بدعوته ويطلب منهم أتباعه، وكان هذا الإعلان سبباً في إجابة بعض وشاغلاً لفكر الآخرين فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد اتبعته وانقادت لدينه وفي غيرها عرف اسمه ودينه وعلم به الرؤوس والسادات.

صفة الرسول وأخلاقه وبيته
ختام القرآن ـ الوفاء

صفته وأخلاقه وبيته:

ومما كان سبباً كبيراً في نجاح الدعوة الإسلامية على يدي محمد رسول اللّه ﷺ ما امتاز به من جمال خلقه وكمال خلقه، وقد كان بعض المدعوين لا يحتاج إلى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عنه من الفضائل فقد قالت له خديجة ـ حينما أخبرها بأمره أول مرة ـ ما كان اللّه ليخزيك أبداً إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق، الأخلاق الفاضلة في الداعي ملاك أمره كله؛ ألا ترى اللّه سبحانه يقول **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**(١) وهذا واضح فانه يستحيل أن ينال بالشدة قلب، لهذا رأينا أن نوضح لكم ما كان عليه الرسول من الأخلاق والعادات حسبما اتصل إلينا.

النظافة الظاهرة ـ مما يروى عليه السلام: بني الدين على النظافة، وكان قد خصَّ من النظافة بما لم يكن لغيره وكان يحب الطيب حتى إنه لم يكن يمر في طريق فيتبعه أحد إلَّا عرف أنه من طيبه. وكان يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها.

العقل والذكاء ـ لا مرية أنه عليه السلام كان أعقل الناس وأذكاهم.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة فضلا عما أفاده من العلم وقرره من الشرع دون تعلم مسبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة الكتب لم يشك في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة، ساس تلك الأمة الجافية حتى كان أحب إلى أفرادها من آبائهم وأبنائهم وفدوه بأنفسهم وذلك محتاج بعد معونة اللّه وتوفيقه - إلى أكمل عقل وأرجحه.

فصاحة اللسان وبلاغة القول - كان عليه السلام من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل سلالة طبع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم. وعلم ألسنة العرب يخاطب كل قبيلة بلسانها ويحاورها بلغتها ليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي الشاعر الهمذاني وطهفة النهدى وغيرهما من قحطان وقد كتب كثير من المؤرخين في المأثور من كلامه الجامع ومنه ما لا يوازي فصاحة ولا يباري بلاغة نحو قوله (لا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له - الناس معادن - ما هلك امرؤ عرف قدره - المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم - رحم اللّه عبدا قال خيراً فغنم أو سكت فسلم - إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقه المواطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون - ذو الوجهين لا يكون وجيها عند اللّه - اتق اللّه حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها خالق الناس بخلق حسن - الظلم ظلمات يوم القيامة) وهذا قليل من كثير. قال له أصحابه يوماً ما رأينا الذي هو أفصح منك قال: وما يمنعني وإنما أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين وقال مرة أخرى أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد فجمع له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي والحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة والصبر على

المكاره صفات أدبه اللّه بها فقال ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[1] وقد بيَّن به الوحي معناها بقوله إن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وقال له ﴿**واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾[2] وقال له ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**﴾[3] وقال ﴿**ولمن صبر وغفر إنَّ ذلك لمن عزم الأمور**﴾[4]ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله. كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً قالت عائشة ما خير رسول اللّه ﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فان كان إثماً كان أبعد الناس عنه وما انتقم لنفسه إلاّ إن تنتهك حرمة اللّه فينتقم للهبها ولما حصل له بأحد ما حصل قيل لو دعوت عليهم فقال «إني لم أبعث لعاناً ولكني بعثت داعياً ورحمة اللّه أهد قومي فإنهم لا يعلمون» فلم يقتصر على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم ولما قال له الرجل اعدل فان هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّه لم يزده في جوابه على أن بين له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له فقال ويحك فمن يعدل إن لم أعدل خبت وخسرت إن لم أعدل ونهى من أراد من أصحابه قتله، لم يؤاخذ عبدالله بن أبي وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قولا وفعلا بل قال لمن أشار بقتل بعضهم (لا لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه) والحديث عن حلمه وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتي عليه وحسبك صبره على قسوة قريش وأذى الجاهلية ومصابرته الشدائد الصعبة معهم فلما أظفره اللّه عليهم وحكمه ما زاد على أن قال: اذهبوا فأنتم الطلقاءأقول كما قال أخي يوسف ﴿**لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه**

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.
(٢) سورة لقمان: الآية ١٧.
(٣) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.
(٤) سورة الشورى: الآية ٤٣.

لكم وهو أرحم الراحمين﴾[1] وكان عليه السلام أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا.

الجود والكرم - كان عليه السلام في هذا الخلق لا يباري، بهذا وصفه كل من عرفه. قال جابر: ما سئل عليه السلام عن شيءفقال لا. وقال ابن عباس: كان أجود الناس بالخير وأجود ما يكون في شهر رمضان وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة. وعن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى بلده وقال أسلموا فان محمداً يعطي من لا يخشى فاقة وأعطى غير واحد مائة من الإبل وهذه كانت حالة قبل النبوة وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيءولكن ابتع عليَّ فإذا جاءنا شيءقضيناه فقال له عمر: ما كلفك اللّه ما لا تقدر عليه. فكره النبي ذلك فقال رجل من الأنصار يا رسول اللّه أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا فتبسم ﷺ وعرف البشر في وجهه وقال بهذا أمرت.

الشجاعة والنجدة - كان عليه السلام منهما بالمكان الذي لا يجهل. حضر المواقف الصعبة وفر عنه الكماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة وحفظت عنه جولة سواه: وقف يوم حنين على بغلته والناس يفرون عنه وهو يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد لمطلب. فما رؤى أحد يومئذ كان أشد منه وكان إذا غضب لا يغضب إلا للهولم يقيم لغضبه شيءوقال على كنا إذا حمي البأس، واحمرت الحدق اتقينا برسول اللّه ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول اللّه راجعاً وقد سبقهم إلى

---

(١) سورة يوسف: الآية ٩٢.

الصـوت واستبرأ الخبـر على فـرس عرى والسيف في عنقـه وهو يقـول لن تراعوا.

الحياءوالإغضاء ـ كان عليه السلام أشد النـاس حياءوأكثـرهـم عن العورات إغضاء قال أبو سعيد كان عليه السلام أشـد حياء من العـذراء في خدرها وكان إذا كره شيئاً إلا من أظهر إيمـانه ولا يحـل أكل ذبـائحهم ولا تنـاكحهم ولا توارثهم ومتى جـاءمنهم من جاءفعلينـا أن نمتحنـه وهـم ككفـار العـرب لا نقبـل منهم إلا الإسـلام أو السيف والقعـد بمنـزلتهم والتقية لا تحل ولما عرفت عنه هذه المقـالة خـالفه نجـدة بن عامـر وكانت بينهما في ذلك مكاتبات وخالفه أيضـاً أبو بيهس هيصم بن جـابر الضبعي وعبدالله بن أباض المري. أما أبـاض ومن نحا نحـوه من النجديـة فانهم كانوا يقولون إن عدونا كعـدو رسول اللّه ﷺ ولكنـا لا نحرم منـاكحتهم ومواريثهم لأن معهم التوحيـد والإقرار بـالكتاب والـرسول فـأرى معهم دعـوة المسلـميـن تجمعهـم وأراهم كفار النعم وأما الصفريـة فقالـوا ألين من هـذا القول في أمـر القعد حتى صـار عـامتهم قعـداً وسمـوا صفـريـة بـاسم رئيس لهم اسمه عبـد اللّه بن صفار أو بصفـره علتهم من العبـادة وأما أبو بيهس فانه قال أعداؤنا كأعـداء رسول اللّه ﷺ تحـل لنا الإقـامة فيهم كما فعل المسلمون في إقامتهم بمكة وأحكام المشـركين تجـري عليهم وزعم أن منـاكحتهم ومواريثهم تجـوز لأنهم منافقـون يظهـرون الإسـلام وأن حكمهم عنـد اللّه حكم المشركـين وبذلـك افترقـوا على أربـع فـرق أزرقية أصحاب نـافع بن الأزرق وإبـاضية أصحـاب بن إباض وبيهسيـة أصحاب أبي بيهس وصفرية وكفر بعضهم بعضا.

أقام نافع بن الأزرق بالأهواز يعترض النـاس ويقتل الأطفـال فاذا أجيب لمقـالته جبى الخراج ونشر عمالـه في السواد فـارتاع لـذلـك أهـل البصـرة فاجتمعـوا إلى الأحنف بـن قيس وقالـوا ليس بيننـا وبـين العـدو إلا ليلتـان وسيـرتهم مـا تـرى فقـال الأحنف إن فعلهم في مصـركم إن

ظفروا بكم كفعلهم في سوادكم فجدوا في جهاد عدوكم فاجتمع إليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عبيس بن كريز وكان ديناً شجاعا فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب هناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالا شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الخراب والقتل وتضاربوا بالسيوف والعمد فقتل في المعركة ابن عبيس نافع بن الأزرق فولى أمر أهل البصرة الربيع بن عمر بن الغذائي، وولى أمر أهل البصرة الخوارج عبيد الله بن بشير ين الماحوز السليطي فكان الرئسان من بني يربوع فاقتتلوا قتالا شديداً نيفاً وعشرين ليلة قتل في آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الحميري فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعدوا بآلات الدروع والجواشن حتى انهزموا وقد كره بعضهم بعضا وملوا القتال فانهم لمتوافقون تحاجزون حتى الشفقة والرأفة والرحمة ـ وصفه الكتاب بذلك ﴿ **لقد** **م رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين** **ف رحيم**﴾[1]. روى أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال حسنت إليك يا أعرابي قال الأعرابي لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ثم قال أحسنت إليك قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له النبي ﷺ إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيءفان أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليهم فلما كان العشي جاء فقال عليه السلام إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناهم فزعم أنه رضي أكذلك؟ قال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه السلام مثلي ومثل هذا رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزدها إلا نفوراٍ فناداهم صاحبها خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم،

---

(١) سورة التوبة: الآية ٩.

فتوجه لها بين يديها فأخذها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار، وروى عنه عليه السلام أنه قال لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أخرج إليكم وأنا سليم الصدر. كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته.

الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم ـ قال عبد اللّه بن أبي الحمساء بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت ثم ذكرت بعد فجئت فاذا هو في مكانه فقال يا فتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث انتظرك وقال أنس كان عليه السلام إذا أتى بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانه أنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة. دخلت ليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال إنها كانت تأتيتنا أيام خديجة. وكان يصل ذا رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم وقال إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحماً ماسة سأبلها ببلالها ولما قدم وفد النجاشي قام عليه السلام بنفسه يخدمهم فقال له أصحابه نحن نكفيك فقال إنهم كانوا لاصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم. وكان يبعث إلى ثوبية مولاة أبي لهب مرضعته بصلة وكسوة فلما ماتت سأل هل بقي قرابتها أحد فقيل لا أحد

التواضع ـ كان عليه السلام أشد الناس تواضعاً وأقلهم كبراً، عن أبي أمامة قال خرج علينا رسول اللّه ﷺ متوكئاً على عصا فقمنا له فقال لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا، وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلس جلس وكان يدعي إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب وحج على رحل رث وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة. هذا وقد أهدى

في حجة ذلك مائة بدنة. ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعاً لله تعالى: ومن تواضعه قوله: لا تفضلوني على يونس بن متى ولا تفضلوا بين الأنبياء ولا تخيروني على موسى. ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له: هون عليك فاني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد.

العدل والأمانة والعفة وصدق اللهجة ـ كان عليه السلام آمن الناس وأعدلهم؛ وأعفهم وأصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه؛ وكان يسمى قبل نبوته الأمين قال الربيع بن خثيم كان يتحاكم إلى رسول اللّه ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام. وروى عن علي أن أبا جهل قال له إنا لا نكذبك؛ ولكن نكذب بما جئت به. وفي ذلك قال الكتاب ﴿**فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات اللّه يجحدون**﴾ [1] وسأل هرقل أبا سفيان فقال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؛ قال لا، وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمهم أمانة؛ حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به؛ قلتم ساحر لا واللّه ما هو بساحر. وفي حديث علي في وصفه أصدق الناس لهجة وعن الحسن كان رسول اللّه ﷺ لا يأخذ أحداً ولا يقرف أحداً ولا يصدق أحداً على أحد، أي لا يسمع عليه وشاية الواشين.

وقال خارجة بن يزيد كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة يعرض عمن تكلم بغير جميل وكان ضحكه تبسما وكلامه فصلا لا فضول ولا تقصير وكان

---

(١) سورة الإنعام: الآية ٣٣.

ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير.

وعلى الجملة، فقد كان عليه السلام محلى بصفات الكمال أدبه ربه فأحسن تأديبه وقد أثنى عليه الكتاب فقال مخاطباً له ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾(١). وكانت هذه الخلال مما قرب اليه النفوس وحببه إلى القلوب؛ وألان من شكيمة قومه بعد الإباء وجعلهم يدخلون في دين اللّه أفواجاً مناصرين مؤازرين ولو لم يكن له إلا ذلك مما يثبته التاريخ وتؤيده الحوادث لكان أعظم شاهد على صدقه؛ فضلا عما أيده اللّه به من المعجزات. وقد أفاض القول فيها كتاب السير.

البيت النبوي:

كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه السلام ومن زوجه خديجة بنت خويلد الأسدية من قريش وهي أول من تزوجه من النساء ولم يتزوج غيرها في حياتها، وقد كان له منها أبناء وبنات، فأما الأبناء فلم يعش منهم أحد؛ فانهم توفوا بمكة وهم القاسم الذي كان يكنى به عليه السلام وعبد للّه الملقب بالطيب والطاهر. وأما البنات فكن أربعاٍ: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما زينب فقد تزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو على دينه واستمرت معه حتى هاجر عليه السلام وبقيت هي بمكة، فلما كانت وقعة بدر وأسر أبو العاص أرسلت زينب في فدايه قلادة لها كانت حلتها بها أمها خديجة ومالا، فلما رأى الرسول القلادة، رق لها رقة شديدة وقال إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا فرضي بذلك المسلمون وأخذ عليه

---

(١) سورة القلم: الآية ٤.

السلام عهداً على أبي العاص أن يترك زينب تهاجر فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح زينب حتى إذا كان قبل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام وكان رجلاً مأموناً بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه فلما فرغ من تجارته عاد إلى مكة بعد خطب طويل ورد أهله ثم عاد إلى المدينة مسلماً فرد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه زوجه زينب، ويقول المؤرخون إنه لم يحدث زواج جديد وإنما ذلك بالعقد الأول، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى وأما فاطمة فقد تزوجها علي بن أبي طالب، ومنها كان الحسن والحسين وزينب. وبعد موت خديجة تزوج عليه السلام بعدة زوجات كان يتألف منهن بيته بالمدينة.

ومعلوم أن النبي ﷺ كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة سنبينها بعد أن نذكرهن.

كان عدد من عقد عليهم ثلاث عشرة امرأة؛ منهن تسع مات عنهن؛ واثنتان توفيتا في حياته إحداهما خديجة واثنتان لم يدخل بهما، وها هي أسماؤهن.

١ ـ سودة بنت زمعة بن الأسود من بني عامر بن لؤي من قريش، كانت قبله عند ابن عمها السكران بن عمرو.

٢ ـ عائشة بنت أبي بكر الصديق وكانت بكراً، ويقال إنها كانت وقت العقد عليها بنت ست سنين وبني عليها بعد الهجرة وهي بنت ثمان أو تسع، وفي النفس شيء من تقدير هذا السن.

٣ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي.

٤ ـ أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم وكانت قبله عند عبد الله بن جحش.

٥ ـ وهؤلاء الخمس كلهن من قريش؛ يضاف إليهن خديجة فتكون القرشيات ستاً من هذه البطون ـ عبد مناف ـ أسد بن عبد العزى ـ مخزوم بن يقظة ـ تيم بن مرة ـ عدي بن كعب ـ عامر بن لؤي.

٦ ـ زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة ومن حلفاء بني أمية وهي بنت عمته وكانت قبله تحت يد زيد بن حارثة الذي كان معتبراً ابناً للنبي ﷺ وقد أرادت الشريعة هدم قاعدة التبني فأمر الرسول أن يتزوج زينب زوج زيد ليعلم الناس أنه لم يعد للتبني حرمة وكان عليه السلام يخشى اعتراض أعدائه عليه لأن عمله هذا يخالف ما اتفقت عليه عامة العرب فأخفى في نفسه ما أمر به من هذا الزواج ولذلك كان هناك في الخطاب نوع شدة **﴿وإذ تقول للذي أنعم اللّه عليه وأنعمت عليك أمسك عليك زوجك واتق اللّه وتخفي في نفسك ما اللّه مبديه وتخشى الناس واللّه أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر اللّه مفعولاً﴾**[1] فبينت الآية أنه كان يقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق اللّه، وكان النزاع اشتد بينهما؛ فأحب أن يفارقها **﴿وتخفي في نفسك ما اللّه مبديه﴾**[2] وهو الأمر بتزوجها بعد أن يطلقها زيد، وهذا هو الذي أبدته الآية ـ وتخشى الناس واللّه أحق أن تخشاه ـ تخشى الناس أن يعيروك فيقولون تزوج زوج ابنه، ثم أبدى ما أمر به وهو قوله: فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها وبين العلة في ذلك بما ذكر بعد. ولقد هدم قاعدة التبني قولاً كما هدمها فعلاً فقال **﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند اللّه﴾**[3] وقال **﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتم النبيين﴾**[4].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٥.
(٤) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

٧ ـ جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة وهي التي عتق بسبب زواجها من كان أسر أو سبي من قومها وأسلم أبوها.

٨ ـ ميمونة بنت الحارث من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزي من بني عامر بن لؤى.

٩ ـ صفية بنت حيي بن أخطب من بني إسرائيل، وكانت قبله عند كنانة ابن أبي الحقيق وهؤلاء التسع هن اللاتي توفي عنهن.

١٠ ـ زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، . وهذه توفيت في حياته.

هؤلاء إحدى عشر سيدة تزوج بهن الرسل؛ وبنى بهن؛ منهن ست من قريش وخمس من سائر العرب.

وهناك اثنتنان لم يبن بهن، وتسرى بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس فأولدها ابنه إبراهيم الذي توفي صغيراً بالمدينة في حياة أبيه، وكان يقال لزوجاته أمهات المؤمنين سماهن بذلك الكتاب فقال ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾[1].

يظهر لنا أنه كان للنبي ﷺ رأي في أن يجمع بين نساء من قبائل العرب المختلفة ليكون ذلك من باب التأليف لعشائرهم، فإن الصهر كان عند العرب باباً من أبواب التقرب بين البطون المختلفة، وقد كان زواجه بخديجة وهو بمكة أكبر مساعد له ومبعداً له أذى كثير من أعدائه، فلما كان بالمدينة صاهر أكبر القبائل من قريش وأقوى البطون من سائر العرب وبني إسرائيل، وقد كانت هناك ظروف خصوصية

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦.

لبعض من تزوجهن كما في جويرية وزينب وصفية.

وكان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحواله المنزلية للناس خصوصاً من طالت حياتها منهن كعائشة فإنها روت كثيراً من أفعاله وأقواله، وتجدون في سورة الأحزاب كثيراً من أحوال بيته، وفيها يقول الكتاب **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾**[1].

ختام القرآن:

أعلن القرآن أن نزوله قد انتهى في يوم الحج الأكبر من السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول ﷺ بثلاثة أشهر حيث أنزل عليه **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾**[2] وكانت آياته قد رتبت وسوره قد تمت، وكان هناك من أصحابه من يحفظه كله ومنهم من يحفظ بعضه وكانت آياته وسوره مكتوبة إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته وقد تم ذلك في خلافة أبي بكر (راجع خطابنا الذي ألقيناه بنادي العلوم في سنة ١٩١٠ ونشر بصحيفة النادي في تلك السنة).

الوفاة:

في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة ابتدأ عليه السلام بشكواه وكان مرضه الحمّى فاستأذن نساءه أن يتمرض في بيت عائشة فأذن له ولما رأى شدة المرض خرج إلى أصحابه فصعد المنبر وقال (يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم) وأمر أبا بكر أن يصلي بالناس فصلى بهم مدة مرضه.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة [١١ (٨ يونيه سنة ٦٣٣ م) لحق عليه السلام بالرفيق الأعلى وقد أعلن الصحابة بوفاته أبو بكر حيث قال لهم وهم مجتمعون أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد اللّه فإن اللّه حي لا يموت ثم تلا هذه الآية ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر اللّه شيئاً وسيجزي اللّه الشاكرين**﴾[١] .

وحينئذ خرج أصحابه إلى سقيفة بني ساعدة يأتمرون فيمن يخلفه حتى بويع أبو بكر فأقبلوا على جهازه عليه السلام يوم الثلاثاء فغسل في قميصه وكفن في ثلاثة أثواب ووضع على سريره ثم دخل الناس يصلون عليه أفراداً دخل الرجال أولاً ثم النساء ثم الصبيان وقد انتهوا من صلاتهم وسط ليلة الأربعاء وكان قد صنع له لحد في الموضع الذي مات فيه وهو صفة حجرة عائشة التي كانت في الجهة الشرقية الشمالية من مسجده ودفن بها وكانت سنه عليه السلام ثلاثاً وستين سنة قمرية .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

المحاضرة الثامنة عشرة

الخلافة :

قد كان للرسول ﷺ وظيفتان يؤديها لأمته (الأولى) التبليغ عن اللّه بحكم الرسالة التي اختير ليقوم بأدائها فهو بذلك مشرع عن اللّه (الثانية) كونه إماماً للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم يوجههم إلى الخير ويبعدهم عن الشر وإليه القضاء في مشكلاتهم بحسب ما يوحي إليه من الشريعة ثم هو يقوم بتنفيذ تلك الأحكام.

والوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما أراد اللّه تشريعه فلم يكن بعد ذلك لأحد إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها، وهذه الخلافة التشريعية إن ساغ لنا أن نسميها كذلك موعدنا بها الوقت المناسب لها.

والوظيفة الثانية هي التي اختصصنا بها محاضرتنا هذه.

لم ير المسلمون بداً من إقامة من يخلف رسول اللّه ﷺ في خلافة المسلمين، ولم يوجد بين هذه الأمة شيء تشعبت فيه الآراء واخلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة ومدار البحث كان في أمرين (الأول) البيت الذي يكون منه الخليفة (الثاني) الشكل الذي به ينتخب الخليفة.

بيت الخلافة :

من المحقق أن الكتاب لم يشر أي إشارة إلى تعيين بيت أو بطن

أو شعب يكون منه خليفة المسلمين وأما الرسول ﷺ فروى عنه (الأئمة من قريش) كما أثر عنه اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة.

لم يدفن النبي عليه السلام حتى كانت هناك فكرتان (الأولى) عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت (الثانية) تخصيصها. وهذه الفكرة ذات شعبتين (الأولى) تخصيصها بالبيت القرشي على اختلاف بطونه (الثانية) تخصيصها بالقرابة القريبة من رسول اللّه ﷺ وكان أقرب الناس إليه وقت موته من أعمامه العباس بن عبد المطلب ومن بني عمه علي وعقيل ابنا أبي طالب ويمتاز علي من بينهم بسبقه إلى الإسلام وشهوده مشاهد رسول اللّه ومتزوج بابنته فاطمة ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد له إن كان هناك إرث.

رأى عدم التخصيص كان للأنصار فإنهم كانوا يريدون أن يكون الخليفة منهم لما كان لهم من فضيلة النصر والإيواء والمساعدات العظيمة التي قاموا بها وإن لم يتيسر ذلك كان منهم أمير ومن المهاجرين أمير، وأخذ بهذا الرأي من بعدهم جميع الخوارج الذين كانوا يخرجون على الخلفاء في أزمنة مختلفة ومنهم من كان يتسمى بأمير المؤمنين كقطرى بن الفجاء وليس من قريش، وإنما هو رجل من تميم وهؤلاء كانوا يرون أن القصد من إمامة المسلمين إنما هو توجيهم إلى الصلاح وإبعادهم عن الشر والسير فيهم بأوامر دينهم غير ناظرين في ذلك إلى بيت أو قبيلة بل إلى ما في الشخص من المقدرة والكفاءة ويستندون في رأيهم إلى قاعدة وضعها القرآن وهي ﴿إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾[1].

ورأى التخصيص بقريش كان في ذلك الوقت رأياً للجمهور ولما

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

رواه لهم أبو بكر من ذلك الحديث المتقدم ذكره وقد بين أبو بكر طرفاً من علة هذا التخصيص بقوله إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ولا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، ومن هنا استنبط العلامة ابن خلدون استنتاجه أن السر في تخصيص قريش بالخلافة إنما هو ما كان لهم من العصبية والتقدم على سائر بطون العرب بهذا يعترف لهم الناس ولا ينكره عليهم أحد فإذا كان الخليفة منهم لا ينتظر أن يعارضه أحد من القبائل الأخرى مهما يكن قدره عظيماً وبنى على ذلك أنه لما كانت العلة هي العصبية التي بها يكون اجتماع الكلمة وكانت عصبية قريش جاء عليها وقت ظهر فيه ضعفها حتى لم تعد قادرة على حماية البيضة والدفاع عنها، وكانت الشريعة مبنية على العلل والحكم في كل زمان بحسبه كان من الممكن أن تكون الخلافة في غير قريش ممن فيهم تلك القوة والعصبية المجتمعة.

ورأى التخصص بالقرابة كان لعلي بن أبي طالب ومن شايعه وكان يرى نفسه أحق بالخلافة من سواه لقرابته من رسول الله ﷺ كما صرح بذلك في حديث مع أبي بكر ولما لم يكن له مساعد يساعده على نيل ذلك الحق الذي رآه لنفسه أذعن لرأي الجمهور.

مكث الرأي الأوسط سائداً والأخير خامداً لا يجد له محركاً حتى كان آخر عهد عثمان فقام بالحواضر الإسلامية دعاة له ينبهون الناس إليه ويقبحون من خالفه إذ كيف يحرم خلافة الرسول قرابته، وهذا موضع من الأمة شديد الإحساس فسرعان ما تنبه وقد كان تنبهه سبباً لخطوب طويلة ومصائب عظيمة ذهب في سبيلها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومع هذا فلم يصف الأمر للخليفة الرابع علي بن أبي طالب لأنه قام في وجهه نصف الأمة قادماً إليه من الشمال غير متأثر من تلك الدعوة التي قصد منها إقرار الأمر في نصابه من بيت النبوة،

وكان هناك تصادم بين الرأيين وقد غلبت القوة وإحسان السياسة رأى عدم التخصيص بالقرابة حيث انتهى الحال بظفر معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بني أمية وليس من بني هاشم.

عادت فكرة الشيعة إلى الخمود ولكن السيوف وإن تكن تغلبت في الظاهر عليها فقد استكنت في النفوس تهيج وقتاً إذا لاح لها بارق الأمل وتكمن حيناً انتظاراً للمستقبل.

ما زال أبناء علي يرون هذا الحق لهم إرثاً لا ينازعهم فيه إلا ظالم وتتمنى قلوب شيعتهم أن ينالوا هذا الحق فيحملون الواحد منهم بعد الواحد على الخروج فيخرجون ثم تكون العاقبة قتلاً وتمثيلاً إلا أن هذا الظفر كان مما يزيد النار تأججاً والقلوب تأثراً لأنه كان يعطي الشيعة قوة يحركون بها القلوب ويبكون منها العيون فما كان أكثر ما يقولونه من الشعر المأثور في تمثيل الحسين معفراً بدمائه بكربلاء بعد أن أذيق من العطش الكروب وأهل بيته يساقون سبايا إلى قاعدة ملك الظالمين ثم تمثيل من بعده ممن خرجوا على بني أمية حتى ينقاد الناس إلى من يدعوهم للقيام إلى رد الحق لأهله.

لم يكن أحد من الناس يفاضل بين بني علي وبني العباس في استحقاقه الخلافة بل كان بنو علي يرون الحق لهم خالصاً لما لأبيهم من الامتيازات الكثيرة ولكن بني العباس أحدث عندهم فكرة الدعوة إلى أنفسهم بعد وفاة أبي هاشم بن محمد بن علي عن غير عقب فزعموا أنه أدلى بالأمر إلى محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس مع إضافتهم إلى ذلك أن العباس أولى بميراث رسول اللّه من علي لأن الأول عم والثاني ابن عم فاشتغلوا في الأمر بمهارة حيث كان لهم دعاة يدعون الناس إليهم سراً في دولة بني أمية واتصل بهم ذلك الزعيم المقدام أبو مسلم الخرساني فتمم لهم الأمر ورد إليهم الخلافة بعد أن أسقط بني أمية من تلك العروش السامية ومن المؤكد أنه كان يدعو الناس إلى الرضا من

أهل البيت ولا يصرح باسمه ولا بنسبه مما يدل على أن الأمة كان توجهها إلى علي وأهل بيته أكثر من توجهها إلى بني العباس، فلما تم له الأمر أعلن أسم عبد اللّه السفاح بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس.

عاد الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوي والعباسي، فكان نصيب آل علي في خلافة بني هاشم أشد وأقسى مما لاقوه في عهد خصومهم من بني أمية. فقتلوا وشردوا كل مشرد، وخصوصاً في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بني العباس، وكان اتهام شخص في هذه الدولة بالميل إلى واحد من بني علي كافياً لإتلاف نفسه ومصادرة ماله. وقد حصل ذلك فعلاً لبعض الوزراء وغيرهم.

إلا أن ذلك كله لم يذهب بفكرة استحقاق علي وأهل بيته للخلافة وأنهم قد ظلموا وسلب حقهم فصاروا يخرجون على بني العباس، كما كانوا يخرجون على بني أمية والعاقبة القتل والتشريد: وحينئذ بدت لبعضهم فكرة الخروج إلى أرض لا تنالها قوة العباسيين ومن بقي منهم بالمشرق سكت على ما في نفسه.

ذهب الفارون إلى أفريقية بعد أن سبقهم دعاتهم فأسسوا بها دولاً علوية لها خير ذكر في التاريخ كالدولة الفاطمية ودولة الأدارسة وغيرهما ممن سيأتي ذكرهم بعد، والباقون بالمشرق كانت لهم شيعة تكرمهم وتميل إليهم في السر حتى كان شيء من ذلك فيما يقال سبباً من أسباب سقوط الدولة العباسية، فإن ابن العلقمي وزير المستعصم كان من غلاة الشيعة فساعد على مجيء التتر إلى بغداد وهم الذين أزالوا الخلافة العباسية من بغداد وكان أعظم سلطان إذ ذاك في الممالك الإسلامية ـ لمصر ـ ومملوكها فساعدوا على إعادة الخلافة العباسية ليستمدوا منها العهد إليهم حتى يكون سلطانهم مقبولاً لا يتكلم الناس

فيه. وجاءت على أثرهم الدولة العثمانية فاستمدت من آخر خلفائهم بمصر عهد الخلافة.

هذا كان شأن الاختلاف في البيت الذي يكون منه خليفة المسلمين.

لم يرد في الكتاب أمر صريح بشكل انتخاب خليفة لرسول اللّه ﷺ اللهم إلا تلك الأوامر العامة التي تتناول الخلافة وغيرها مثل وصف المسلمين بقوله تعالى ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾[1] وكذلك لم يرد في السنة بيان نص خاص لانتخاب الخليفة إلا بعض نصائح تبعد عن الاختلاف والتفرق، كأن الشريعة أرادت أن تكل هذا الأمر للمسلمين حتى يحلوه بأنفسهم ولو لم يكن الأمر كذلك لمهدت قواعده وأوضحت سبله كما أوضحت سبل الصلاة والصيام وغيرهما، ولننظر ما صار عليه المسلمون في ذلك، وها هي طرائقهم:

١ - **الطريقة الأولى**: طريقة الانتخاب الاستشارية: وقد حصلت في انتخاب أبي بكر حيث اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة بالمدينة وتشاوروا في الأمر ثم انتخبوا أبا بكر - بعد حوار وجدال - وكان انتخاب أبي بكر كان أمراً يحتاج إلى السرعة في البت حذر الاختلاف والفشل، ويظهر أن المجتمعين في السقيفة لم يكن فيهم أحد من قريش يتطلع للخلافة دون أبي بكر أول رجل سبق إلى الإسلام، وحضر المشاهد النبوية بأسرها، ورافق رسول اللّه ﷺ في الهجرة، فضلاً عما عرفه الصحابة من تقديم الرسول إياه ليصلي بالناس نيابة عنه في وقت مرضه. ولذلك لما اقترح أبو بكر أن يكون الخليفة واحداً من اثنين عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة عامر بن الجراح أراد عمر أن ينهي الأمر بسرعة فمد يده إلى أبي بكر فبايعه الناس وقد أثر عن عمر أنه

---

(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.

قال عن بيعة أبي بكر إنها كانت فلتة وقي الله شرها قال ذلك لما علم أن بعض الناس قال لو أن أمير المؤمنين مات لبايعت فلاناً. مضت هذه البيعة من غير أن يتبين للناس البيئة التي لها الحق في انتخاب الخليفة إلا أنها سنت الانتخاب من حيث هو.

٢ ـ **الطريقة الثانية**: أن يعهد الخليفة الموجود إلى شخص آخر بعده بالخلافة وهي الطريقة التي كان بها انتخاب عمر بن الخطاب حيث اختاره أبو بكر وقد قال للناس: هل رضيتم من اخترته فقالوا نعم. وهذه الطريقة تجعل للخليفة الحرية في انتخاب ولي عهده من غير قيد.

٣ ـ **الطريقة الثالثة**: طريقة الاختيار الشورى من أفراد يعينهم الخليفة الموجود وهي الطريقة التي انتخب بها عثمان بن عفان فإن عمر لما ضرب وأحس بالموت خاف أن يترك المسلمين بدون خليفة لئلا يختلفوا ولم يكن أمام نظره من لو استخلفه يكون مطمئن النفس من قبله فلم يشأ أن يتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً فاختار ستة من كبار الصحابة ممن يرى أنه لا يتطلع لأمر الخلافة غيرهم ووضع لهم نظاماً ينتخبون به الخليفة من بينهم، فأمر أن يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة ويختاروا الخليفة في مدة لا تزيد على ثلاثة أيام وجعل للأغلبية الرأي المقبول فيجب على الأقل الرضوخ لحكمها وإلّا اعتبر خارجاً يستحق القتل وإذا تساوت الأصوات كان القسم الذي فيه عبد الرحمن بن عوف مرجحاً.

وهذه الطريقة كانت بذرة صالحة لو وجدت منبتاً حسناً، ولكنا لم نر في مستقبل الأمة من تناولها فضلاً عن أن يحسن فيها: لا ينكر أحد أنها طريقة شورية ناقصة لأنه لم يكن القصد منها أخذ رأي الجمهور فيمن يكون خليفة عليهم، وإنما المقصود أن تؤخذ كلمة المرشحين للخلافة لأحدهم حتى لا يجد محبو الخلافة مجالاً للخلاف ويظهر لنا أن

عمر كان محسباً بأن كلا منهم يتطلع لأن يكون خليفة وخاف على الأمة الشقاق من بعده فعهد إليهم عهده ويظن أن هذه الفكرة لم تكن عنده بنت وقتها بل كان يفكر في ذلك من قبل بعد أن سمع عبارة الرجل التي سبق ذكرها.

لم يكن في طريقة من هذه الطرق الثلاث حل لتلك المسألة المتشابهة الأطراف لأن الطريقة الأولى لم يبين فيها من لهم حق الانتخاب الذين يكون صوتهم محترماً... أهم الأمة بأسرها؟ أم هم أفراد مخصصون؟ وإن كانوا مخصصين فمن هم؟ وغاية ما أمكن شراح هذه القاعدة أن يقولوه أن قالوا هم أهل الحل والعقد، ولكن من هم أهل الحل والعقد؟ أهم ولاة الأمصار. أم قواد الجيش. أم أعيان الأمة؟ كل ذلك لم يبين، فالمتطلع للخلافة يجد مجالاً واسعاً للتأويل كما حصل عند استخلاف علي. والطريقة الثانية وهي طريقة العهد ليس فيها ضمان لاختيار من يحبه الناس ويكون قادراً على حماية مصالحها وإن يكن من الممكن في بعض الأحيان أن يكون الشخص المختار لولاية العهد خير الناس كما حصل في انتخاب عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز... والطريقة الثالثة - في حقيقة الأمر - كالثانية إذ اقتصر فيها على الشكل الذي رآه عمر لأنها عبارة عن عهد إلى واحد غير معين من أفراد محصورين يختارهم الإمام. لذلك لما جاء دور علي قام جماعة من أهل المدينة والثوار من الآفاق فبايعوه بالخلافة وهو بالمدينة ولم يؤخذ في ذلك رأى غيرهم من المسلمين في الحواضر الإسلامية كأن أهل المدينة - وحدهم - هم الذين ينتهي إليهم أمر انتخاب الخلفاء وليس لغيرهم معهم رأي ولو كانوا من أهل الحل والعقد في الأمة متى كانوا بعيدين عن الحاضرة الكبرى: كان ممن يترقب الخلافة ويرى نفسه لها أهلاً معاوية بن أبي سفيان فقام بأهل الشام معلناً أنه مخالف لأن بيعة علي ليست بصحيحة وحصل اصطدام

بين الطرفين في سهل صفين، فلما عضتهم الحرب بنابها عمدوا إلى شيء سموه تحكيماً، ومعنى ذلك أنهم انتخبوا رجلين من كل فريق: أحدهما له هوى في صحابه وأريد منهما أن يحكما في أهم مشكلة تهم الأمة الإسلامية بأسرها ومن المؤكد أن سلطة الحكمين لم تكن محدودة لأنهما لم يقتصرا في البحث على الحكم بين الشخصين المتنازعين، بل تجاوزا ذلك إلى البحث في خلعهما معاً وتولية شخص آخر، وبطبيعة الحال لم يكن لهذا التحكيم نتيجة شأن كل شيء لم يوضع له أساس ولا حدود. ولكنه أوجد للمتنازعين خصماً ثالثاً قوي الشكيمة وهم الخوارج الذين رأوا هذا التحكيم ضلالة، بل مروقاً، من الدين منادين بشعار اتخذوه لهم وهو: لا حكم إلا للّه. وعبارتهم تشعر أن الخليفة المختار معين من قبل اللّه فلا ينبغي له أن يكون في شك من أمره. ولما كان علي هو الخليفة وحكم الناس في أمره فقد شك، ومن شك فقد ضل فلم يعد يصلح في نظرهم للخلافة. وكذلك معاوية لما تعرض لما ليس له بحق ضل فليس للخلافة بأهل. وكذلك كونوا لهم جماعة أعطوها الحق في أن تنتخب لنفسها خليفة يكون بانتخاب ورأوا أن جميع مخاليفيهم كفار فاستباحوا دماءهم وأموالهم. وهؤلاء لم يضعوا لأمرهم حدوداً مقررة، لذلك تطرق إليهم الاختلاف كما تفرق غيرهم وطاردهم الخلفاء بما عندهم من القوة حتى لم يكن منهم فائدة، لا لأنفسهم ولا لغيرهم، بل كان منهم الضرر الشامل والفتن الحاصدة: انتهى أمر علي واستقر الأمر لمعاوية بفضل قوته وسياسته. ويسميه التاريخ بالخليفة المتغلب وفي نظرنا أن خلافته وبيعته لم تنقص في الشكل عن بيعة علي بقطع النظر عن التعرض لما في كل منهما من الصفات والامتيازات الدينية لأن معاوية بايعه فريق من الناس وعلي بايعه فريق آخر ومن الضروري أن يتغلب أقوى المتنازعين وليس هناك حدود معينة في الشريعة يقال إن أحدهما تعداها إلا إن سرنا على رأي من يقول إن علياً معين للخلافة بالنص عن رسول اللّه ﷺ وهذا أمر لم يتأكد الصحابة من صحته.

سار بنو أمية من معاوية فمن دونه في ولايـة العهد عـلى أن الخليفة هو الذي يعينه كما هي طـريقة أبي بكـر في عهده لعمـر إلا أن بينهما فـرقاً وهـو أن بكر اختـار رجلاً ليس من ذوي قـرابته بـل من بطن آخـر. وبنو أمية كانـوا يتخيرون من قـرابتهم وكانـوا في الغالب أولادهم حتى تكـون بذلك دولة من بيت واحد. فمعاوية عهد إلى ولده يـزيد ولكنـه امتاز في عهـده بأن طلب من ولاة الأمصـار أن يوفـدوا إليه وفـوداً من أمصـارهم يعرض عليهم اختيار ولي عهـده، وبالـطبع لم يـوفد هؤلاء الـولاة إلا من لهم هـوى في بقاء الأمـر في عقب معاويـة، فلما اجتمعـوا لـديه بـدمشق عرض عليهم الأمر، وأنه يخاف اختـلاف المسلمين من بعـده وطلب منهم أن يختاروا لأنفسهم فرشحـوا ابنه يـزيد لـلأمر بعـد أن تكلم متكلموهم بالثناء عليه، وكان البادئون بـذلك قـوماً لهم علـم بما عزم الخليفـة عليه وتابعهم على ذلك غيرهم وبهذا أخذ اعترافهم قبل مـوته بيـزيد وبـايعوه بـولايـة العهـد إلا أنـه كـان هنـاك من هـو أكبـر من يــزيـد، من كبــار الصحـابـة من قـريش ولهم فـوقــه شـرف الصحبــة فلم يخضعـوا لإرادة معـاويـة وكـان من نتيجـة هـذا تلك الحـوادث الكبـرى التي حصلت في عهد يزيد من خروج الحسين بن علي وقتله وخلاف ابن الزبير.

وعهـد يزيـد إلى ابنه معـاوية. إلا أن الـرجـل لم يقـدر عـلى تحمـل ذلك العبء في وسط هذه الظلمات الحالكة، فـاعتزل وتـرك حبـل الأمـة على غاربهـا وفي تلك الظروف كـانت الفتن تموج مـوجاً حتى استقـر الأمر بغلب مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية الذي عهـد بالخـلافة من بعـده لا ثنـين من أولاده يتلو أحـدهمـا الآخـر وهمـا: عبـد الملك وعبـد العزيز وهي أول مرة ولي العهد فيها إثنان[1].

---

(١) ومن الغريب أنه ما من مرة ولى فيها إثنان إلا كانت النتيجة سيئة من جراء ذلك فإن أولهما كان يميل إلى نزع ثانيها إما لأنه يتوهم أنه يجتهد أن يتعجل الأمر لنفسه ولا يكون ذلك إلا بهلاك الأول، وإما لأن الأول يفضل ابنه على أخيه أو ابن عمه الذي جعل ولي عهد له فيجتهد في نزعه

حتماً وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بانفاذ بعث أسامة. ثم تكلم في أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضباً شديداً وقال يوليه رسول اللّه ويعزله أبو بكر؟ واشتد في الكلام مع عمر الذي كان يكلمه في ذلك عن بعض الأنصار حتى قام وأخذ بلحيته وقال عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول اللّه ﷺ وتأمرني أن أنزعه. ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضروري وجوده بالمدينة ليعين أبا بكر، لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بإبقائه بل قال لأسامة إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له. وهذا مقام كبير في احترام ذي السلطان في سلطانه وفي الحقيقة ذلك راجع إلى احترام الأمر النبوي حيث رغب أبو بكر أن ينفذ تماماً واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغي له أن يفتات عليه. ولما ودع أبو بكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهي:

لا تخونوا ولا تغلو ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم اللّه عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً يدفعها باسم اللّه[1].

---

(١) في لسان العرب: وفي الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة: وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف أي إن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص، كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا إنساناً بشدة الغي والانهماك في الشر؛ قالوا فرخ الشيطان في رأسه وعشش، وفي حديث أبي بكر وستجد قوماً فحصوا عن أوساط رؤوسهم الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف، وفي الصحاح كأنهم حلقوا أوسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهي مجاثمها.

فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم واستمر في بعثه أربعين يوماً ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية!

ومما يظهر صدق عزيمة أبو بكر ما كان منه في أخبار الردة.

أخبار الردة:

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الإسلام ولم تزك أنفسهم الزكاة المطلوبة وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة الحجرات **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾**(١) فهذه كانت حالهم خضوع في الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول ﷺ فرصة يتخلون بها عن الفروض الإسلامية: خصوصاً ما كان منها في المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيها دعاة يدعون إلى أنفسهم مدعين بهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين:

١ ـ فريق امتنع عن أداء الزكاة.

٢ ـ فريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله. فكانت عزيمة أبي بكر صادقة في حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع ما يعلمه من هذا الانتقاض الذي كاد يكون في عامة الأعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شيء.

فلما جاءته الأخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذبيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها؛ فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة: وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٤.

لحرب عبس وذبيان فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلاً فإن أصيب بعثت آخر فقال. والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي فخرج في تعبيته حتى نزل على أهل الربذة قالأبرق فاقتتل جنده مع بني عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً وأقام أبو بكر بالأبرق أياماً، وقد غلب بني ذبيان على البلاد وحماها لخيول المسلمين وأرعى سائر الربذة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذي القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الألوية عقد في ذلك اليوم إحدى عشر لواء لإحدى عشر أميراً وهم:

١ ـ خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الأسدي ببزاخة فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح.

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة.

٣ ـ ووجه في أثره شرحبيل بن حسنة.

٤ ـ المهاجر بن أبي أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسي بصنعاء ومعاونة الأبناء.

٥ ـ حذيفة بن محصن ووجهته أهل دبا بعمان.

٦ ـ عرفجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه في عمله.

٧ ـ سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن.

٨ ـ العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين.

٩ ـ طريفة بن حاجز ووجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن.

١٠ ـ عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة.

١١ ـ خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام.

وبعد أن عين الجنود والأمراء كتب للمرتدين من العرب كتاباً واحداً (منشوراً) أرسله إليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله

وذكر الرسالة والوفاة قال. (وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان) قال الله تعالى **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾**[1] وقال **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾**[2] وإني قد بعثت إليكم فلاناً في جيش المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبى النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمر رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وإن أقر واقبل منهم وحملهم على ما ينبغي، فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وبذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم.

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا.

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وعلانيته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد

---

(١) سورة الكهف: الآية ٥٠.

(٢) سورة فاطر: الآية ٦.

انتخـاب أبي بكر

أول خـطاب له ـ تـرجمته

أخـلاق أبي بكـر ـ أخبـار الردة

انتخاب أبي بكر:

كانت الأنصار منقسمة إلى شعبتين الأوس والخـزرج وكان الخـزرج أكثر عدداً من الأوس والرياسـة والتقدم لسعـد بن عبادة من بني سـاعدة وهـو أحد النقبـاء الذين انتخبـوا ليلة العقبة، وكـانت دار سعد مما يـلي سوق المدينـة وعندهـا سقيفة وهي ظلة كـانت بالقـرب من داره فلما توفي رسول اللّه ﷺ وأعلنت لهم وفاتـه اجتمع كبـار الأنصار في تلك السقيفـة أوسهم وخـزرجهم يريـدون انتخاب خليفـة لرسـول اللّه ﷺ منهم وكان نـظرهـم متوجهـاً إلى اختيار سعـد بن عبادة فـإن سعداً خـطب فيهم مبيناً ما للأنصار من الفضل والسبق إلى حمـاية رسـول اللّه ﷺ، وأنه لا ينبغي أن ينازعهم في هذا الأمر أحد فأجابـوه أصبت ووفقت ثم ترادوا الكـلام فيما بينهم فقال قـائل منهم: فـإن أبى ذلك المهـاجرون من قـريش وقالـوا نحن عشيـرته وأوليـاؤه فماذا لهم؟ فقـال له آخـر نقـول منـا أمـير ومنكم أمير، ولن نرضى بدون هذا، فقال سعد لما سمعها هذا أول الوهن.

بلغ هذا الاجتماع كبار المهاجرين أبا بكـر وعمر وغيـرهما فمضـوا إلى السقيفة مسرعين حتى وصلوا إليها وكان عمر يـريد أن يتكلم بكـلام هيـأه في نفسه ليقـوله في هـذا الموقف فقـال لـه أبـو بكـر: عـلى رسلك، وكان أبو بكـر رجلاً وقـوراً فيه أنـاة. ثم تكلم فذكـر تاريخ المهاجـرين ومـا لهم من فضـل السبق وتحمـل المصـاعب في سبيـل دينهم ثم كـر عـلى ذكر الأنصار فـأثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهـم من المـآثر إلا ذكـره. ثم

روى لهم ما أثر عن الرسول عليه السلام من قوله (الأئمة من قريش) ثم قال فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تقضي دونكم الأمور، فلما أتم خطابه قام إليه الحباب بن المنذر وهو من بني جشم بن الخزرج فقال يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم ولن يجتريء مجتريء على أخلاقكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم أنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم إن أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير. فقال عمر هيهات لا يجتمع إثنان في قرن وبعد كلام له قام الحباب ثانية فقال يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ولا تستمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ثم قال أنا جذيلها[1] المحكك وعذيقها المرجب أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة فكان بينه وبين عمر حوار ثم قال أبو عبيدة يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير. فقام بشير بن سعد وهو من بني زيد بن مالك من الخزرج فقال يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فصيلة وجهاد وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبغي به من الدنيا عرضاً فإن الله ولي المنة علينا بذلك ألا إن محمداً من قريش وقومه أحق به وأولى وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم. . فقال أبو بكر هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا. فقالا لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذهما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين فمن ذا ينبغي له

---

(١) تصغير الجذل عود ينصب للجربى لتحتك به؛ والعذيق تصغير العذق وهو النخلة وترجيبها أن يبنى تحتها دكان تعتمد إليه. .

أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك أبسط يدك لنبايعك. فمد عمر يده إليه فبايعه ثم أبو عبيدة ثم بشير بن سعد فلما رأى ذلك الحباب قال لبشير عققت أنفست على ابن عمك الإمارة؟ قال لا والله ولكني كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم.

ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان أحد النقباء والله لئن وليها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولاجعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً قوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه فانكسر على سعد وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطأون سعد بن عبادة وهو مريض لا يقدر على النهوض ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا علي بن أبي طالب ومن معه لأنهم لم يحضروا السقيفة وكانوا مشغولين في جهاز رسول الله ﷺ.

بهذا تمت بيعة أبي بكر لأن جمهور المسلمين بايعه وكان كبار الصحابة كلهم إذ ذاك في المدينة، ولم يزل علي بن أبي طالب ممتنعاً عن مبايعة أبي بكر ستة أشهر حتى ماتت فاطمة زوجه وكانت لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما ماتت استنكر وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فأرسل إلى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد كراهية محضر عمر بن الخطاب فقال عمر لأبي بكر والله لا تدخل عليهم وحدك فقال أبو بكر وما عساهم أن يفعلوا بي؟ والله لآتينهم فدخل عليهم أبو بكر فتشهد عليّ ثم قال قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وما أعطاك الله ولا ننفس عليك خيراً ساقه الله إليك ولكنك استبددت علينا بالأمر وكنا نحن نرى لنا حقاً لقرابتنا من رسول الله ﷺ، فلم يزل يكلم أبا بكر حتى فاضت عيناه ثم قال أبو بكر والله لقرابة رسول الله أحب إلى أن أصل من قرابتي. وبعد أن أتم كلامه قال علي لأبي بكر موعدك

العشية للبيعة فلما صلى أبو بكر صلاة الظهر رقي المنبر فتشهد وذكر شأن علي وتخلفه عن البيعة وعذره بالذي اعتذر به ثم استغفر علي وتشهد فعظم شأن أبي بكر وأنه لم يحمله علي الذي صنع نفاسة علي أبي بكر ولا إنكاراً للذي فضله الله به ولكنا كنا نرى لنا في الأمر نصيباً فاستبد به فوجدنا في أنفسنا. فسر بذلك المسلمون وقالوا أصبت وكانوا إلى علي قريباً حينما راجع الأمر بالمعروف.

أول خطاب لأبي بكر:

بعد أن تمت بيعته قام في الناس خطيباً[1] فقال أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن صدقت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عند حتى آخذ له حقه والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله. وهذه الكلمة هي مجمل الطريقة التي اتبعها في خلافته. أخبرهم بواجب عليهم وهو إعانته وحق لهم وهو تقويمه إذا صدف عن الحق وفي هذا ضمان لحريتهم في القول أعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه - حثهم على الجهاد الذي لا بد منه - أخبرهم أنه خليفة لينفذ الشريعة فإذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم.

ترجمة أبي بكر:

هو أبو بكر بن أبي قحافة من بني تيم بن مرة بن كعب بن

(١) كانت الخطبة بعد تمام أمر الخلافة عادة للخلفاء بعد أبي بكر يظهرون بها ما بأنفسهم من الخطة التي سيتبعونها في سياسة أمتهم إجمالاً.

لؤى بن غـالب بن فهـر وأمـه أم الخير سلمى بنت صخـر بن عـامـر من تيم بن مـرة ولـد لسنتـين من عـام الفيـل وشب عـلى الأخـلاق الفـاضلة والسير الكريمة وكان ذا يسار يحمل الكـل ويكسب المعدوم كـان محبباً إلى قـريش يعرف من أنسـابهم ما لا يعـرفـه غيـره وكـان مصـاحبـاً لـرسـول اللّه ﷺ قبل النبوة فلما شرف اللّه محمداً برسالته كان أبو بكر أول رجل أجابـه حتى قال في ذلـك رسول اللّه ﷺ مـا دعوت أحـداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكـر وكان لـه في الهجرة إلى الإسـلام اليد الـطولى وقد أراد أن يهاجر إلى الحبشة حينـما اشتد إيـذاء المشركـين على المسلمـين فمنعه من ذلك ابن الدغنة سيد القارة وأجاره على قـريش على شـرط أن لا يستعلن بصـلاته ولمـا لم يجـد بعـد ذلـك بـداً من أن يتخلص من هـذا الشـرط رد على ابن الـدغنـة جـواره وأقـام راضيـاً أن يصيبـه مـا يصيب إخوانه ، ولما كانت هجرة المدينة كان لـه شرف الصحبـة وكان ثـاني اثنين إذهما في الغار وشهد بعد الهجـرة جميع المشـاهد الإسـلامية لم يتخلف عن واحـدة منها وكـان صاحب الـرايـة في غـزوة تبـوك وأمّـره النبي ﷺ عـلى الحج في السنة التـاسعة ولمـا مرض عليـه السلام أمـره أن يقوم مقـامه في الصلاة.

تزوج أبو بكر في الجاهليـة قتيلة بنت عبد العـزي من بني عامـر بن لؤى فولدت له عبد اللّه وأسـماء التي تزوجهـا الزبـير بن العوام ـ وتـزوج في الجـاهلية أيضـاً أم رومان بنت عـامر من بني غنم بن مـالك بن كنـانة فولدت له عبد الرحمن وعائشـة التي تزوجهـا رسول اللّه ﷺ ـ وتـزوج في الإسلام أسماء بنت عميس من خثعم بعد أن قتل عنهـا زوجها جعفـر بن أبي طـالب فـولـدت لـه محمـداً ـ وتـزوج في الإسـلام أيضـاً حبيبـة بنت خـارجة بن زيـد من الخزرج فـولدت لـه بعـد وفـاتـه جـاريـة سميت أم كلثوم ـ فذكور أولاده ثلاثة وإناثهم ثلاث.

أخلاق أبي بكر:

لكل عظيم أخلاق يظهر أثرها في أعماله ظهوراً واضحاً وتظهر للناس صورتها كلما ذكر اسمه وإذا أردنا أن نعرف ذلك من أبي بكر فأنا نجد أظهر أخلاقه.

صدق العزيمة. الرقة:

وصدق العزيمة أن يبحث الإنسان في الأمر على قدر ما يتهيأ له من طرق البحث ويستعين بآراء غيره إن كان شورياً فإذا اتضح له السبيل عزم ومتى عزم لا يثنيه شيء عما عزم عليه حتى إذا رأى الجبال أمامه تريد صده حاول أن يفتح له منها طريقاً: هكذا كان أبو بكر.

والرقة أن يكون شديد الوجدان سريع التأثر وضدها القسوة فترى الرقيق يتأثر من الآلام التي تصيب الناس حتى أعداءه وتجد عبراته تسابق قلبه إلى التأثر.

وهذان الخلقان يدفع أحدهما شر الآخر في سواس الأمم لأن الرقة المتناهية تجعل الإنسان متردداً في أموره حسب المؤثرات التي تنال نفسه فإذا كان معها صادق العزيمة أمن شر التردد المهلك.

أول ما ظهر من صدق عزيمة أبي بكر ما كان منه في بعث أسامة بن زيد قبيل مرض الرسول ﷺ، هيأ بعثاً ليرسله إلى مشارف الشام حيث قتل زيد بن حارثة وأصحابه في مؤتة وكان في هذا البعث أبو بكر وعمر وكثير من كبار الصحابة وما كاد البعث يبرح المدينة حتى مرض عليه السلام فتوقف خارجها حتى كانت الوفاة وبويع بالخلافة أبو بكر وحينئذ بلغة أن الأعراب ارتد كثير منهم عن الإسلام فكلم في تأخير بعث أسامة ليكون عدة على المخالفين فأبى شديد الإباء وصمم على تنفيذ البعث مهما تكن النتيجة ولو كان قد تردد في الأمر أو أخر لبعث لكان قد شرع للناس لأول مرة مخالفة ما أمر به الرسول أمراً

حتماً وكان يدور على لسانه وقت مرضه التأكيد بانفاذ بعث أسامة. ثم تكلم في أن يغير أسامة برجل أسن منه يقود الجيش فغضب غضباً شديداً وقال يوليه رسول اللّٰه ويعزله أبو بكر؟ واشتد في الكلام مع عمر الذي كان يكلمه في ذلك عن بعض الأنصار حتى قام وأخذ بلحيته وقال عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب استعمله رسول اللّٰه ﷺ وتأمرني أن أنزعه. ولما كان عمر من ضمن ذلك البعث وكان من الضروري وجوده بالمدينة ليعين أبابكر، لم يشأ الخليفة أن يستبد على رئيس السرية بإبقائه بل قال لأسامة إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل فأذن له. وهذا مقام كبير في احترام ذي السلطان في سلطانه وفي الحقيقة ذلك راجع إلى احترام الأمر النبوي حيث رغب أبو بكر أن ينفذ تماماً واعتبر أن أسامة مولى من سلطان أعلى من سلطانه فلا ينبغي له أن يفتات عليه. ولما ودع أبو بكر هذا البعث أوصاهم بتلك الوصية وهي:

لا تخونوا ولا تغلو ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم اللّٰه عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً يدفعها باسم اللّٰه[1].

---

(١) في لسان العرب: وفي الحديث أنه أوصى أمراء جيش مؤتة: وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص فافلقوها بالسيوف أي إن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص، كما تستوطن القطا مفاحصها وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا إنساناً بشدة الغي والانهماك في الشر، قالوا فرخ الشيطان في رأسه وعشش، وفي حديث أبي بكر وستجد قوماً فحصوا عن أوساط رؤوسهم الشعر فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف، وفي الصحاح كأنهم حلقوا أوسطها وتركوها مثل أفاحيص القطا وهي مجاثمها.

فسار أسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة وأخافهم وغنم منهم واستمر في بعثه أربعين يوماً ثم عاد وكان هذا البعث مفيداً للمسلمين لأن أعداءهم لما تسامعوا به قالوا لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تغير على من بعد عنهم من القبائل القوية!

ومما يظهر صدق عزيمة أبو بكر ما كان منه في أخبار الردة.

أخبار الردة:

قدمنا أن كثيراً من أعراب البادية بنجد واليمن لم يتأثروا بعد بأثر الإسلام ولم تزك أنفسهم الزكاة المطلوبة وقد بين الكتاب ذلك بقوله في سورة الحجرات **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾**[1] فهذه كانت حالهم خضوع في الظاهر والقلوب بعد لم يتمكن منها الدين فرأوا أن موت الرسول ﷺ فرصة يتخلون بها عن الفروض الإسلامية: خصوصاً ما كان منها في المال كالزكاة ومنهم فريق قام فيها دعاة يدعون إلى أنفسهم مدعين بهم أنبياء فتبعوا دعوتهم وبذلك كانوا فريقين:

١ ـ فريق امتنع عن أداء الزكاة.

٢ ـ فريق تبع المتنبئين ورفض الدين كله. فكانت عزيمة أبي بكر صادقة في حرب هؤلاء الذين خرجوا من الدين وحاربوه بعد أن دخلوا فيه مع ما يعلمه من هذا الانتقاض الذي كاد يكون في عامة الأعراب ولكن صدق العزيمة يذلل كل شيء.

فلما جاءته الأخبار مكث ينتظر بعث أسامة لأنه كان فيه معظم القوة وكان جيران المدينة من عبس وذبيان قد اجترءوا عليها يريدون مهاجمتها؛ فلما قدم بعث أسامة استخلف أبو بكر أسامة على المدينة: وكان قصده بذلك أن يرتاح جنده ويريحوا ظهورهم وهم بالخروج فيمن معه من الجند وحرس المدينة

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٤.

لحرب عبس وذبيان فقال له المسلمون: ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن لا تعرض نفسك فإنك إن تصب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو فابعث رجلاً فإن أصيب بعثت آخر فقال. والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي فخرج في تعبيته حتى نزل على أهل الربذة قالأبرق فاقتتل جنده مع بني عبس فهزم العبسيون وأخذ الحطيئة الشاعر أسيراً وأقام أبو بكر بالأبرق أياماً، وقد غلب بني ذبيان على البلاد وحماها لخيول المسلمين وأرعى سائر الربذة الناس ثم عاد أبو بكر إلى المدينة فلما استراح جند أسامة خرج إلى ذي القصة فنزل بهم وذو القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد فقطع فيها الجند وعقد الألوية عقد في ذلك اليوم إحدى عشر لواء لإحدى عشر أميراً وهم:

١ ـ خالد بن الوليد ووجهته طليحة بن خويلد الأسدي ببزاخة فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح.

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل ووجهه إلى مسيلمة باليمامة.

٣ ـ ووجه في أثره شرحبيل بن حسنة.

٤ ـ المهاجر بن أبي أمية ووجهه إلى جنود الأسود العنسي بصنعاء ومعاونة الأبناء.

٥ ـ حذيفة بن محصن ووجهته أهل دبا بعمان.

٦ ـ عرفجة بن هرثمة ووجهته أهل مهرة وأمر هذا ومن قبله أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه في عمله.

٧ ـ سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن.

٨ ـ العلاء بن الحضرمي ووجهه إلى البحرين.

٩ ـ طريفة بن حاجز ووجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن.

١٠ ـ عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة.

١١ ـ خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام.

وبعد أن عين الجنود والأمراء كتب للمرتدين من العرب كتاباً واحداً (منشوراً) أرسله إليهم قبل أن تسير الجنود قال فيه بعد أن بدأه باسم الله

وذكر الرسالة والوفاة قال. (وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه أقر بالإسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان) قال الله تعالى **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾**[1] وقال **﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾**[2] وإني قد بعثت إليكم فلاناً في جيش المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبى النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الإسلام فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله وقد أمر رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الأذان فإذا أذن المسلمون فأذنوا كف عنهم وإن أقر واقبل منهم وحملهم على ما ينبغي، فنفذت الرسل بالكتب أمام الجنود وهذا فيما نعلم أول منشور عام صدر عن خليفة المسلمين ليقرأ في مجامع الناس وأنديتهم.

وكتب إلى القواد عهداً صورته واحدة وهو هذا.

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وعلانيته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد

---

(١) سورة الكهف: الآية ٥٠.

(٢) سورة فاطر: الآية ٦.

المسلمين عن قتال عدوهم فمن أجاب إلى أمر اللّٰه عزّ وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر باللّٰه على الأقرار بما جاء من عند اللّٰه فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن له عليه سبيل وكان اللّٰه حسيبه بعد فيما استسر به ومن لم يجب داعية اللّٰه قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه ومن أبى قاتله فإن أظهره اللّٰه عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء اللّٰه عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتي المسلمون من قبلهم وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول.

طليحة ومالك بن نويرة:

كان طليحة رجلاً من بني أسد بن خزيمة علم بمرض الرسول ﷺ بعد انصرافه من حجة الوداع فسولت له نفسه أن يدعي للناس النبوة ليكون له من الشأن ما رأى لبني قريش فدعا إلى ذلك قومه من بني أسد فشايعوه والتفت إليه طيء لما كان بينها وبين أسد من الحلف ودخلت في غمارهم غطفان إلا ما كان من خواص أقوام فيهم لم يغيروا من دينهم وكان مقام جنده ببزاخة وهو ماء لطيء بأرض نجد. وكان بالمدينة عدي بن حاتم الطائي وهو سيد من ساداتهم فطلب من أبي بكر أن يذهب إلى قومه فأذن له فقدم عليهم فصار يقتلهم في الذروة والغارب حتى قالوا فاستقبل جيش خالد فكفه عنا حتى نستخرج من لحق ببزاخة منا فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أوارتهنهم فاستقبل عدي خالداً وقال له أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك، ففعل خالد؛ ثم عاد عدي إلى قومه، وقد أرسلوا إلى إخوانهم فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم؛ ثم راجعوا الإسلام فعاد إلى خالد وأخبره، ثم فعل ذلك بجديلة فلحق بالمسلمين من الجيش ألف مقاتل فسار

حتى أتى بزاخة، واصطدم الجيشان اصطداماً شديداً فلما أحس عيينة بن حصن الفزاري بالضعف جاء إلى طليحة وهو ملتف بكسائه فقال له: ألا ترى ما يصنع بنا فهل جاءك ذو النون بشيء؟ قال نعم قد جاءني وقال إن لك يوماً ستلقاه ليس لك أوله ولك آخره ورحا كرحاء وحديثاً لا تنساه فقال عيينة أرى والله أن لك حديثاً لا تنساه، يا بني فزارة هذا كذاب وولي عن عسكره فانهزم الناس وهرب طليحة وانفضت جموعه ثم جاء بعد ذلك مسلماً فقال له عمر أنت الكاذب على الله حين زعمت أنه أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم فاذكروا الله قياماً فإن الرغوة فوق الصريح، فقال يا أمير المؤمنين ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الإسلام كله فلا تعنيف علي ببعضه فأسكت عمر.

بنو تميم ومالك بن نويرة:

كان الرسول قد أمر على بطون تميم أمراء: منهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة، فلما توفي رسول الله ﷺ كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبي بكر ومنهم من منعها كمالك ابن نويرة ومنهم المتردد في الأمر، وكان ذلك الخلاف مدعاة أن يشتغل بعضهم ببعض وبينا هم على ذلك الخلاف أقبلت عليهم من الجزيرة سجاح بنت الحارث وكانت هي وأبوها في بني تغلب وأصلها من بني يربوع من تميم ادعت النبوة فتبعها جمع كبير من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد غزو أبي بكر فلما قربت من ديار بني تميم أرسلت إلى مالك بن نويرة سيد بني يربوع ودعته إلى الموادعة فوادعها وثناها عن غزو أبي بكر وحملها على أن تغزو بعض الأحياء من تميم وهم الذين يخالفونه ثم أرسلت إلى وكيع بن مالك سيد بني مالك بن حنظلة تدعوه إلى مثل ما دعت ابن نويرة فأجابها فاجتمع وكيع ومالك وسجاح وترددوا بأي تميم يبدؤون فسجعت لهم سجاح قائلة: أعدوا الركاب واستعدوا للنهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب، فكانت بذلك خطوب في بطون تميم ولكن لم يستتم لها أمر بين

أظهـرهم فتركت بني تميم وعـولت على المسـير إلى اليمامـة بجموعهـا وكـان بهـا مسيلمـة الحنفي فلما سمع بهـا هاب جمـوعها وعـادت إلى الجزيـرة وحنذاك نـدم مـالك بن نـويرة عـلى ما فعـل وتحـير في أمـره وكـذلـك فعـل من فعله معـه من رؤساء تميم غير أن من عداه ندمـوا ندمـاً ظاهـراً وأخرجـوا الزكـاة وأرسلوها إلى خالد وأما مالك فوقف وأمر بني يربوع أن يتفرقـوا فلما ورد خالـد البطاح لم يجـد أحداً فبث سرايـاه مغيرة عـلى القوم فجـاءته بمـالك في نفـر من بني يربـوع فأمر بهم خـالد فحبسـوا ثم أمـر بقتلهم فقتـل مـالـك ومن معـه وكـان بعض أفـراد الجيش ومنهم أبـو قتادة شهـدوا أنهم أذنـوا فلما حصـل القتـل رأوه مخـالفـاً لأمـر الخليفة ومما أكبر التهمة أن خالداً تزوج زوجة مـالك بن نـويرة فلما بلغ ذلـك أبا بكـر أسف وقال لـه عمر إن في سيف خـالـد رهقـاً فـإن لم يكن هـذا حقـاً حق عليه أن تقيده، وأكثر عليه في ذلك وكان أبـو بكر لا يقيـد من عمالـه ولا وزعته فقال هبة يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانـك عن خالـد وودي مالكـاً. وبخذلان بني يـربوع عـودت تميم كلها الإسـلام ورضيت أن تدفـع صدقـاتها إلى أبي بكـر كما كانت تدفعها إلى رسول اللّه ﷺ.

بنو حنيفة ومسيلمة:

كانت بنو حنيفـة قد وفـدت على الـرسول في حيـاته وأسلمت وكـان فيهم مسيلمة فلما شاع مرض الرسول تنبأ مسيلمـة ودعا النـاس إلى اتباعـه، وكان من طلبــه أن يكـون نصف الأرض لقـريش ولبني حنيفـة نصفهــا ثم يقـول ولكن قـريشاً قـوم لا يعدلـون، فلما وجه أبـو بكر الجيـوش إلى المرتـدين وجه عكـرمـة لمحاربة بني حنيفـة باليمـامة ووجـه في أثره شـرحبيل وأمـرهما أن يجتمعـا فتعجل عكـرمة ليفـوز بمفخرة اليـوم فنكب دون قصـده فلما بلغ ذلـك أبـو بكـر غضب ووجه كلا من عكرمة وشـرحبيل وجهـاً آخر ثم اختـار خالـد بن الوليـد بعد أن انتهى من مالك بن نويرة ليسير إلى اليمامـة وانتدب معـه قوة كبيـرة وكانت قـوة مسيلمة كبيرة جداً تبلغ أربعين ألفـاً لأن أكثرهـا اتبعه عصبيـة حتى كان بعضهم يقـول أشهد أن مسيلمـة كـذاب وأن محمـداً صـادق ولكن كـذاب ربيعـة أحب

إلينا من صادق مضر. سار خالد حتى وصل طرف اليمامة فكان بينهم يوم شديد الهول يزامر فيه بنو حنيفة وقاتلوا عن أنفسهم وعن أحسابهم قتالاً شديداً حتى انكشف المسلمون وكادت تتم الهزيمة عليهم لولا رجال من ذوي الحمية والغيرة صرخوا في الناس فيتبعهم فئة ثم كروا بجمعهم ثانية على عدوهم حتى قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشي قاتل حمزة ورجل من الأنصار ولما رأى بنو حنيفة ذلك دخلوا حصونهم واحتموا بها فصالحه عنهم مجاعة بن مرارة وكان القصد من الصلح أن لا يقتل المقاتلون ويكتفي بأخذ ما عندهم من النقود ذهباً وفضة والسلاح وربع السبي فاتفقا على ذلك وكان أبو بكر قد أرسل إلى خالد أن يقتل مقاتلهم فجاءه الكتاب بعد أن كتبت شروط الصلح فوفي خالد لهم بما عاهدهم عليه؛ ثم راجعت بنو حنيفة البراءة مما كانت عليه والإقرار بالإسلام فبعث خالد منهم وفداً إلى أبي بكر فقال لهم حينما قدموا عليه: ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل قالوا يا خليفة رسول اللّٰه لقد كان الذي بلغك مما أصابنا، كان أمر لم يبارك اللّٰه عز وجل له ولا لعشيرته فيه ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة فقالوا له شيئاً منها فقال ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بز فأين يذهب بكم: وأقام خالد بعد فراغ الأمر في واد من أودية اليمامة يقال له الوبر.

اليمن والأسود العنسي:

ولما أسلم أهل اليمن ولي عليهم رسول اللّٰه ﷺ باذان الذي كان عاملاً لكسرى فلم يزل والياً عليها حتى مات فجعل عليه السلام ابنه شهراً والياً على صنعاء، وعين ولاة آخرين على بقية بلاد اليمن حيث قسمها إلى عشر عمالات وكان معاذ بن جبل معلماً يتنقل في هذه الولايات قبل وفاة الرسول. ثم قام رجل من عنس إحدى قائل قحطان اسمه الأسود فتنبأ وتبعه قوم من أعراب اليمن سار بهم إلى نجران فاستولى عليها لعشر من مخرجه ودخل معه عوام مذحج ثم جاء صنعاء وقاتل عاملها شهراً واستولى عليها وهزم الابناء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه فجعل أمره بعد ذلك يستطير استطارة الحريق

وقد وصل الخبر بذلك إلى رسول الله ﷺ وكان أهل اليمن في أمره قسمين: قسم يتقيه وهو على إسلامه وقسم تابعه وارتد عن دينه فأرسل عليه السلام كتاباً على يد وبر بن يحنس إلى من بصنعاء من الابناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض إلى الحرب والعمل في أمر الأسود إما غيلة وإما مصادمة وأن يبلغوا عنه من رأوا أن عنده نجدة وديناً. وقد صادف ذلك أن تغير الأسود على رئيس جنده قيس بن عبد يغوث المرادي فهو يخافه خوفاً شديداً ففتاتحه الأبناء في أمر اغتيال الأسود فأجابهم إلى ذلك، وصاروا يمهدون لذلك الأمر واتفقوا على ذلك مع امرأة شهر التي اغتصبها الأسود بعد قتل زوجها وبعد خطوب طويلة تمكن فيروز أحد الأبناء من قتله غيلة داخل منزله ولما طلع فجر تلك الليلة نادوا على القصر بشعار المسلمين وهو الأذان وبذلك خلصت صنعاء والجند من هذا الشر المستطير واتفق الناس أن يولوا أمرهم إلى معاذ بن جبل فكان يصلي بهم وكتبوا إلى رسول الله بالخبر فوصل الرسول بالمدينة صبيحة اليوم الذي توفي فيه عليه السلام وكان بين خروج الأسود ومقتله نحواً من أربعة أشهر.

ولما بلغ أهل اليمن موت رسول الله ﷺ عادوا إلى ما كانوا عليه من الخلاف وقادهم إلى ذلك بعض الرؤساء من المرتدين فبعث أبوبكر إلى من بقي على إسلامه من رؤوس اليمن يأمرهم بالوقوف حيال المرتدين حتى تصلهم النجدات.

وما زالوا كذلك حتى وصلتهم الجنود يقودها المهاجر بن أبي أمية فاستردت صنعاء وأسرت زعماء الفتنة قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معد يكرب ثم ذهبت إلى كندة بحضرموت وكانت قد ارتدت أيضاً وهناك اجتمع جند المهاجر وجند عكرمة بن أبي جهل فحاربوا كندة حتى غلبوهم وأسروا الأشعث بن قيس سيد كندة وبعثوا إلى أبي بكر يبشرونه بالفتح.

البحرين والحطم:

كان عليه السلام قد ولي على البحرين المنذر بن ساوى وبها قبائل من عبد القيس وبكر بن ربيعة فمات المنذر في الشهر الذي مات فيه رسول الله ﷺ وحينذاك ارتد أهل البحرين فأما عبد القيس فإنها فاءت إلى الدين من غير قتال إذ تبعوا نصيحة الجارود بن المعلى حيث جمعهم فقال يا معشر عبد القيس إني سائلكم عن أمر فأخبروني إن علمتم وما يجيبوني إن لم تعلموا: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى قالوا نعم. قال فما فعلوا. قالوا ماتوا. قال فإن محمداً مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فقالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأنك سيدنا وأفضلنا. وثبتوا على إسلامهم أما بكر فأنها تمت على ردتها يقودها إلى ذلك الحطم بن ضبيعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القطيف وهجر ولم يزل كذلك حتى قدم عليه العلاء بن الحصرمي أميراً على الجند الذي سيره أبو بكر لقتال من ارتد بالبحرين ولحق به ثمامة بن إثال في مسلمة بني حنيفة وجموع من تميم وبعد مقام طويل اصطدم المسلمون مع جند الحطم فغلبهم المسلمون وقتل الحطم وضرب الإسلام بجرانه في البحرين وكتب العلاء إلى أبي بكر يخبره بالفتح ورجوع العرب من ربيعة إلى الإسلام.

وكانت هناك وقائع أخرى بين القواد وبين المرتدين من العرب في غير هذه الجهات وفي جميعها انتصر المسلمون.

اشتغل أبو بكر في أمر الردة بعزيمة لم تعرف لغيره من الأبطال الذين لا تزعزعهم الكوارث ولا تلين من قلوبهم الخطوب. وما ظنك بهذه النار التي هاجت في جميع أنحاء الجزيرة حينما شعرت بفقد الرسول ﷺ فأطفأ وليد عجاجتها قبل أن تنقضي السنة التي لحق فيها الرسول بربه وإن الإنسان ليحار بادىء بدء في هذا الأمر ولكن إذا رجع إلى قوة العزيمة وحسن النظام في تسيير الجنود وتوارد المكاتبة من رؤساء الجند وإليهم في مواعيد قليلة لا يلبث أن تقر نفسه ويعترف لأبي بكر أن له نفساً هي أكبر نفس عرفت عن خليفة.

كان أبو قتادة وهو من كبـار الصحابـة وممن لهم الشرف العـريض في جند خـالد بن الـوليد فلما نقم عليـه ما كـان من قتل مـالك بن نـويرة وزواج زوجتـه فارقه وذهب إلى أبي بكـر يخبره بـالحادثـة فغضب أبو بكـر منه غضبـاً شديـداً ولم يكن هناك هوادة في رجوعه إلى خالد ثـانية ونهيـه عن أن يترك الجنـد لأي سبب كـان من غير أمـر الرئيس ولم يشفـع له مقـامه العـظيم وطول صحبتـه، وحاول عمـر أن يوقـع أبو بكـر بخالـد مع جسـامة ذنبـه فلم يفعل لأنـه خـاف الـوهن واعتذر عنه بأنه تأول فأخطأ.

إنا نقول في ذلك قولاً صـريحاً، لـولا أبو بكـر وعزيمتـه القويـة بعد معـونة اللّه وتأييده ما كان يسير بالمسلمين مسيرة الـذي عرف بـه. وقد حصـل ذلك في وقـت استولى فيـه الـذهـول عـلى أفئـدة المسلمـين كـافـة حتى أقـواهم شكيمـة وأشدهم قلباً.

المحاضرة العشرون

ظهور الأمة العربية
حال الفرس والروم لأول عهد أبي بكر
غزوة الفرس ـ غزوة الروم

ظهور الأمة العربية:

مكثت الأمة العربية تلك الأزمنة الطويلة وهي محصورة في جزيرتها قانعة بصحرائها ومفاوزها ووديانها قواهم متفانية في حروبهم بعضهم مع بعض بأسهم بينهم شديد والأمم المجاورة لهم قد ملكت عليهم أمرهم في أخصب بقاعهم وإن كان للعرب ملك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس أو الروم حتى جاء الإسلام فتكونت منهم تلك الأمة العظيمة التي سلبت أقوى الأمم سلطانها وتغيرت الحال فصار المقهور قاهراً والمسود سيداً.

كان يجاور الأمة العربية دولتان عظيمتان تعترف العرب لهما بالسيادة والتغلب من قديم الأعصار، وهما دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية.

دولة الفرس:

فأما دولة الفرس ويقال لها دولة الأكاسرة فكانت قاعدتها (المدائن) وهي مدينة عظيمة كانت على شاطيء دجلة الشرقي والغربي جنوبي بغداد في منتصف المسافة بينها وبين واسط ودور الأكاسرة هذه تكونت منذ وجد أزدشير بن بابك، وغلب ملوك الطوائف، على أمرهم واستبد بالأمر دونهم ووحد كلمة الفرس ثانية بعد أن كانت تفرقت في عهد اسكندر المقدوني وكان ظهور أزدشير سنة ٢٣٠ ق. م وأدخل في ملكه العراق وما يجاوره من بلاد العرب وجميع الممالك الفارسية المتفرقة وكان يسمى شاهنشاه أي ملك الملوك

وأمراء الأقاليم يسمى واحدهم شاهاً وما زال بنوه يتوارثون مالك الفرس من بعده حتى كان كسرى أنوشوران الملقب بالملك العادل وهو الذي ولد لعهد رسول الله ﷺ وكان ملكاً عظيم الشأن واسع السلطان ثم جاء بعده هرمز ثم كسرى أبرويز، وهو الذي أرسل إليه الرسول ﷺ يدعوه إلى الإسلام فرأى ذلك أمراً عظيماً أن يدعوه عبده من عبيده ليكون خاضعاً لدينه فراسل عامله على اليمن يطلب منه أن يرسل إليه ذلك الراعي ليرى فيه رأيه. وحصل عند ذلك أن قام عليه ابنه شيرويه فقتله واستلب منه تاج الملك ولكن شيرويه لم يتمتع بالملك طويلاً بل مات بعد سنة وتسعة أشهر من ولايته بعد أن أساء كثيراً إلى أهل بيته فولى من بعده ابنه أزدشير وهو صغير السن فكفله أحد عظماء المملكة. وكان في ذلك الوقت من كبار القواد شهريزار مرابطاً بجنده بثغور الروم فلما رأى أن ولي أزدشير من غير استشاريته أقبل بجموعه إلى مدينة الملك فاستولى عليها وقتل أزدشير واستلب تاج الملك لنفسه، ولم يكن من أهل بيت الملك، إلا أن ذلك لم يرق لبعض العظماء منهم فأجمعوا أمرهم على قتله فقتلوه لأربعين يوماً من ولايته ثم ولوا أمرهم بوران بنت كسرى أبرويز أخت شيرويه ولها ذكر حسن في تاريخ الفرس وكانت ولايتها في آخر حياة رسول الله ﷺ واستمرت ملكة سنة وأربعة أشهر ثم ملك بعدها جشنسده من بني عم أبرويز الأبعدين أقل من شهر وبعده وليت آزرميدخت بنت كسرى أبرويز أخت بوران وهي التي جاءها رستم وقتلها لقتلها أباه (فزخهر) من أصبهيد خرسان وعظيم فارس وولي بدلها رجلاً من عقب أزدشير بن بابك يقال له كسرى بن مهر جشنس ولكن لم يبق ملكه إلا أياماً وما زال حالهم في اختلاف حتى ملك يزدجرد بن شهريار وهو آخرهم.

الرومان:

كانت الدولة الرومانية الدولة الثانية العظمى في العالم تناصي دولة الفرس في سعة الملك وقوة السلطان وكانت عاصمتها الكبرى رومية أدخلت تحت نيرها أكثر الأمم الشرقية وفي مقدمتها مصر وسوريا

ولم يزالوا على تلك العظمة حتى انقسمت دولتهم إلى قسمين الشرقية وقاعدتها قسطنطينية والغربية وقاعدتها رومية في زمن القيصر تيودثيوس الذي ولي أمر الرومان إلى سنة ٣٩٥ م وأجزأ الملك بين ولديه وكان المشرق من نصيب ابنه رقاديوس الذي ولي من سنة ٣٩٥ م إلى سنة ٤٠٨ م وما زالت الملوك تتوالى على هذا الكرسي حتى كان ملكهم لأول العهد الإسلامي هرقل الذي كان قبل أن يتولى الملك والياً في أفريقية ثم خرج على الملك فوقا فقتله وتوج بالملك بدله سنة ٦١٠م واستمر ملكاً حتى سنة ٦٤١ م وهو الملك الذي سقطت على يده سوريا وملكها المسلمون.

وكانت الدولتان الفارسية والرومانية في نزاع دائم وكان ميدان النزاع بينهما بلاد العراق وسوريا حيث كانت نار الحرب لا تخمد في هذه البقاع وكانت الحرب بينهما سجالاً: فمرة يغلب الفرس فيمتد سلطانهم حتى يصل إلى شواطيء بحر الروم ومرة يطغي عليهم الجيش الروماني فيستلب منهم بلاد الجزيرة ويملك النهري، دجلة والفرات، وما يسقيان من تلك الأراضي الخصيبة الجميلة.

وأقرب تلك الوقائع إلى العهد الإسلامي ما حصل أولاً من الحروب بين جنود فوقا ملك الرومان وجنود كسرى أنوشروان ملك الفرس وقد انتصرت فيها الفرس انتصارات متتابعة حتى أجلوا الروم عما كان لهم من الجزيرة في الشمال وما زالت جنود الفرس توالي فتوحها حتى وصلت إلى البسفور تسفك دماء من يقف في طريقها وشنوا غاراتهم على فينيقيا وفلسطين وفعلوا بتلك البلاد الأفاعيل ثم أعادوا كراتهم في عهد هرقل الذي خلف فوقاً على سرير الملك وأخذوا من أورشليم خشبة الصليب المقدسة وأتلفوا كثيراً من الآثار المسيحية ثم زحفوا سنة ٦١٦ م إلى مصر فأخذوا اسكندرية. وقد أشار الكتاب إلى هذه الواقعة في أول سورة الروم التي نزلت بمكة إبان هذه الحروب قال

تعالى ﴿**غلبت الروم في أدنى الأرض**﴾[1] ثم قال مخبراً عمن تكون له العاقبة فقال ﴿**وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد**﴾[2] ثم أخبر بعد ذلك عما يصادف انتصار الروم من انتصار المسلمين على أعدائهم من المشركين فقال ﴿**ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[3].

وقد حصل ذلك فعلاً فإن هرقل قد تنبه من غفلاته سنة ٦١٢م بعد عشر سنين من ولايته وتهيأ لحرب الفرس وأعد لذلك عدته ورتب جنوده وهاجم الفرس هجمات المستقتل فانتصر عليهم في الوقت الذي كان المسلمون فرحين بانتصارهم في بدر وقد كانت بدر في مارس من سنة ٦٢٤م والروم في ذلك الوقت يذيقون الفرس ما ذاقوه منهم قبلاً: ولم يزل الأمر على ذلك حتى تولى الفرس شيرويه بعد أن قبض على أبيه ثم قتله فصالح الروم سنة ٦٢٨م ورد جميع النصارى الذين كان أخذهم أسرى وخشبة الصليب المقدسة فنال هرقل بذلك منتهى الفخار وذهب إلى أورشليم سنة ٦٢٥م ليشكر الله على ما آتاه من النصر وهذه السنة هي التي راسل فيها رسول الله ﷺ الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكان ممن راسله هرقل وهو في ذلك الوقت بأورشليم (أول يناير سنة ٦٢٩م ٢٩ شعبان سنة ٧ من الهجرة) وطرد في ذلك الوقت اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال. وبعد ذلك عاد هرقل إلى حمص وكانت منزله لأنها كانت مكان لهو وترف.

هذا مجمل حال تلك الدولتين لأول عهد الخلفاء الراشدين.

---

(١) سورة الروم: الآية ٢ ـ ٣.

(٢) سورة الروم: الآية ٣ ـ ٤.

(٣) سورة الروم: الآيات ٤ ـ ٦.

غزوة الفرس:

انتدب أبو بكر أعظم قواده خالد بن الوليد بعد أن انتهى من حروب الردة ليغزو بلاد الفرس وأمره أن يبدأ بثغر الهند وهو الأبلة وانتدب عياض بن غنم ليغزو الفرس من الشمال ويبدأ بالمصيح وهو شمال العراق وأمرهما أن يستنفرا من قاتل أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد. وقد وصل لخالد كتاب الا عيين وهو باليمامة فكتب لصاحب الثغر وهو هرمز كتاب إنذار يقول له فيه: أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وإقراراً بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة.

ثم فرق جيشه ثلاث فرق واتعدوا جميعهم الحفير ليصادموا به عدوهم والحفير ماء بالقرب من البصرة. لما بلغ الكتاب هرمز بعث إلى كسرى يعي ثم تعجل إلى الكواظم وهي من جادة اليمامة فبلغه أن الجنود العربية قد اتخذت طريقها الحفير فعرج يبادرهم إليه وهناك عبأ جيشه ولما أتى خالداً الخبر أن هرمز بالحفير عدل عنه إلى كاظمة فلحقه هرمز بها وكان هرمز هذا من أسوأ أمراء ذلك الثغر جواراً للعرب فكل العرب عليه مغيظ وقد كانوا ضربوه مثلاً للخبث، تزاحف الجيشان وكان كل من خالد وهرمز في مقدمة جيشه فتبارزا فقتل خالد هرمز فلم يكن للعجم بعده ثبات فانهزموا.

ثم أمر خالد بالرحيل وسار حتى بلغ قريباً من موضع البصرة والبصرة لم تبن إذ ذاك. كان كسرى قد أمد هرمز بجند تحت قيادة قارن بن قريانس وبينما هو قادم إذ بلغته هزيمة هرمز فتوقف بالمذار[1] وعسكر به فسار خالد إليه على تعبية فتقاتل الجيشان على حنق وحفيظة ولم يطل الأمر حتى هزمهم خالد وقتل قائدهم فعبروا إلى الجهة الشرقية

(١) المذار بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط وهي قصبة ميسان.

وضموا إليهم السفن فلم يتمكن المسلمون من طلبهم وقتل من الفرس عدد جسيم قدره الطبري بثلاثين ألفاً.

بلغت الهزيمة ملك الفرس فبعث جنداً كثيفاً يقوده الأندرزغر ففصل عن المدائن حتى أتي ألوجة[1] ثم أتبعه كسرى جنداً آخر يقوده بهمن جاذويه وقد انضم إلى صفوف الفرس كثير من العرب المنتصرة ولما بلغ خالداً خبر تجمعهم أذن بالرحيل إليهم على تعبية بعد أن ترك خلفه حامية تحمي خط رجعته ولما وصل الولجة رتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات وصادمهم هو من إحداها ولم يلبث الفريقان الآخران أن خرجا على الفرس من مكمنهما فلم يلبث الفرس أن انهزموا ومضى قائد الجيش في هزيمته حتى مات في طريقه عطشاً وقتل في هذه الوقعة كثير من بكر بن وائل الذين أعانوا الفرس. فغضب لهم نصارى قومهم فكاتبوا الأعاجم وصاروا معهم يداً على حرب المسلمين واجتمعوا بأليس[2] وقائد الجميع بهمن جاذويه فسار إليهم خالد وأوقع بهم موقعة كبيرة قتل فيها مقتلة عظيمة ولما فرغ من أليس نهض إلى أمغيشيا وهي بالقرب من أليس وكان فرات باذقلي ينتهي إليه فلما وصلها خالد أمر بهدمها وكانت مصراً كالحيرة لما علم الأزادبة مرزبان الحيرة بما كان من خالد في أمغيشيا علم أنه غير متروك فهيأ لحرب خالد وقدم ابنه أمامة وكان مما فعله أن فجر الأنهار الآخذة من الفرات فقل الماء فيه حتى لم يعد يحمل السفن تسير فيه وكان خالد قد حمل الرحل في السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفجأه إلا والسفن جوانح فسأل عن السبب فأعلم به فتعجل خالد نحو ابن الأزادبة حتى لقيه هو وجنده على فم فرات باذقلي فهزمهم وفجر الفرات وسد الأنهار فسلك الماء سبيله ثم سار خالد حتى عسكر بالخورنق مشرفاً على الحيرة

(١) وهي من الشمال من المذار من أرض كسكر.

(٢) قرية من قرى الأنبار.

وأهلها متحصنون بقصورها فحاصرها خالد ولما رأى أهل الحيراة أن لا طاقة لهم بحرب خالد مالوا إلى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح الملقب ببقلية ثم تبعه بقية الرؤساء فصالحه على ١٩٠ ألف درهم وأهدوا له الهدايا فاعتدها من الجزية بأمر أبي بكر وكتب لهم خالد كتاباً هذا نصه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم: هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابنيى عدي وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرى بن أكال وهم نقباء أهل الحيارة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به عاهدهم على ١٩٠ ألف درهم تقبل كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها وعلى المنعة وإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة[1] كتب في شهر ربيع الأول سنة ١٢. ومما يستطرف ذكره أن رجلاً من الأعراب اسمه شويل كان أسلم على يدي النبي ﷺ فسمعه ذات مرة يبشر المسلمين بأن ستفتح عليهم قصور الحيرة فسأله أن يعطي من سبيهم كرامة بنت عبد المسيح فقال له عليه السلام هي لك فلما أزاد خالد صلحهم جعل من شروط الصلح أن يسلموا إليه كرامة فأعظم ذلك لخطرها فقالت لهم كرامة دعوه فإنه رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم فأسلموني له فإني سأفتدي منه فلما وصلت إلى الرجل قالت ما أريك من عجوز كما ترى فادنى قال لا إلا على حكمي قالت فلك حكمك فقال فلست لأم شويل إن نقصتك عن ألف درهم فاستكثرت ذلك لتخدعه ثم أتته بها ورجعت لأهلها فتسامع الناس بذلك فعنفوه قال ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليه إلا أن يخاصمهم فقال كانت نيتي غاية العدد وقد ذكروا أن العدد يزيد

(١) يظهر أن هذه الجملة مدرجة في الرواية لأن التاريخ بالهجرة لم يكن إلا أيام عمر.

على ألف فقال خالد أردت أمراً وأراد اللّه غيره نأخذ بما يظهر وندعك ونيتك. ولما صالح أهل الحيرة خرج صلوباً بن نسطونا صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطيء الفرات على عشرة آلاف وكتب لهم كتاباً هذا نصه:

بسم اللّه الرحمن الرحيم: هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه إني عاهدتكم على الجزية والمنعة عل كل ذي يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة. القوي على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله في كل سنة وإنك نقيب على قومك وإن قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضي قومك فلك الذمة والمنعة فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا حتى نمنعكم.

ولما رأى دهاقين البلاد ما تم لخالد من الظفر أتوه فصالحوه على ما بين الفلاليج[١] إلى هرمز جرد[٢] على ألفي درهم وكتب لهم بذلك كتاباً. ثم بعث خالد عماله ومسالحه منهم عمال الخراج لجبايته ومنهم أمراء الثغور. وكتب في مقامه بالحيرة كتابين أحدهما إلى ملك فارس والآخر إلى مراذبة الفرس: رؤسائهم. وصورة الأول - **بسم اللّه الرحمن الرحيم**: من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس أما بعد فالحمد للّه الذي حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك بكم لكان شراً لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم في أراضيكم ونجوزكم إلى غيركم وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة. وصورة الثاني - **بسم اللّه الرحمن الرحيم** - من خالد بن الوليد إلى مراذبة فارس أما بعد فأسلموا تسلموا

---

(١) فلاليج السواد قراها واحدها فلوجه والفلوجة الكبرى والصغرى قريتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر.

(٢) ناحية من أطراف العراق.

وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر وكان أهل فارس في ذلك القوت في ارتباك داخلي بشأن من يتولى الملك فيهم ولم يكن منهم في ذلك الوقت إلا المدافعة عن (بهر سير) وهي إحدى المدائن التي سميت بها مدائن كسرى، وكانت في الغربي من دجلة أمام الإيوان الذي كان في الجهة الشرقية منها. فلما جاءتهم كتب خالد أرادوا أن ينهوا أمر اختلافهم فاختاروا رجلاً يولونه الملك وليس من بيته إلى أن يجدوا من آل كسرى من يولونه وهو الفر حذاذا بن البندوان.

ولما استقام لخالد أمره أراد أن يسير لإغاثة عياض بن غنم الذي أرسل ليفتح العراق من شماليه ويلتقي بخالد فاستخلف خالد على الحيرة القعقاع بن عمرو وخرج حتى انتهى إلى الأنبار[1] وقد تحصن أهلها وخندقوا على أنفسهم وأشرفوا من أعالي الحصون فأمر خالد جنده أن يرشقوهم بالنبل ففعلوا وأصابوا في عدوهم ثم انتهى الأمر بأن طلب قائد جند الأنبار الصلح على أن يخليه ويلحقه بمأمنه في جزيرة خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء فأجابه إلى ذلك خالد وتسلم الأنبار وصالح من حولها ثم استخلف عليها الزبرقان بن بدر وقصد عين التمر[2] وبها يومئذ مهران بن بهرام جويين في جمع عظيم من الفرس وعقة بن أبي عقة في جمع عظيم من العرب من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم فلما سمعوا بقدوم خالد فقال له صدقت لعمري لأنتم أعلم بقتال العرب وإنكم لمثلنا في قتال العجم فلزم مهران عين التمر وخرج عقة على تعبية يريد مقابلة خالد بالطريق فقدم عليه خالد في تعبية واقتتل الجندان فأسر خالد عقة ولم يكن إلا قليل قتال حتى انهزم وجنده ولما وصل خبر الهزيمة إلى مهران هرب في جنده تاركاً

---

(١) مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ.

(٢) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة وهي على طرف النوبة.

الحصن أما فل جند عقة من العرب والعجم فإنهم رجعوا إلى الحصن واعتصموا به حتى جاءهم خالد فاستنزلهم من حصنهم بدون أمان وقتل معظمهم ووجد في بيتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل منهم نصير أبو موسى بن نصير وسيرين أبو محمد بن سيرين وحمران مولى عثمان وغيرهم فقسمهم خالد في الناس وكان من عقب هؤلاء علماء أجلاء. وجاء خالد وهو بمقامه كتاب من عياض ابن غنم يستنجده وهو محاصر دومة الجندل وأهلها محاصروه فأرسل إليه خالداً هذا الكتاب.

من خالد إلى عياض: إياك أريد.

وهو أخصر كتاب فيما نعرف. ثم سار إلى دومة وقد تجمعت بها طوائف كثيرة من العرب المتنصرة. ولما بلغهم دنو خالد قال لهم أحد رئيسهم أكيدر بن عبد الملك أنا أسلم الناس بخالد لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحد في حرب ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه فأطيعوني وصالحوا القوم، فأبوا عليه فقال لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم فخرج لطيته وقد قتل في خرجته هذه ثم سار خالد حتى نزل بدومة وعلى من فيها الجودى بن ربيعة ورؤساء القبائل التي جاءت لنجدتهم فناهدهم خالد بجنوده هو من جهة وعياض من جهة فكانت الهزيمة على أهل دومة ولم ينج منهم من قتل إلا بني كلب لأنهم كانوا حلفاء تميم فأجارهم عاصم بن عمرو التميمي، وبعد أن أقام خالد قليلاً عاد إلى الحيرة لما بلغه من تحرك العجم لإعادة الكرة على المسلمين وأرسل سريتين إلى الحصيد[1] والخنافس فأوقعت بمن تجمع بهما من العدو ثم سار خالد حتى أتى المصيح وهناك وافته سراياه كما أمر فكانت لهم واقعة مع العرب المتجمعين هناك أذاقوهم نكالاً، ثم كانت له وقائع بالثني[2] والزميل ثم في الفراض وهي تخوم ما بين

(١) موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة والخنافس قرب الأنبار تقام فيه سوق للعرب.

(٢) موضع بالجزيرة قرب الرصافة وبقربة الزيل.

الشام والعراق والجزيرة وكان ذلك في رمضان وفي الفراض اجتمع عليه الروم والفرس والعرب فانتصر عليهم خالد جميعاً وكانت هذه الواقعة في منتصف ذي القعدة سنة ١٢ وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجند وأظهر أنه في الساقة ولكنه خرج من الفراض حاجاً معه عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتي له من ذلك ما لم يتأت لدليل أوريبال فما توافى إلى الحيرة آخر جنده حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معاً وخالد وأصحابه ملحقون لم يعلم بحجة إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ولم يعلم أبو بكر بذلك إلا بعد فعتب عليه ووافاه كتاب أبو بكر يصرفه إلى الشام منصرفه من حجة إلى الحيرة وهذا هو الكتاب الذي أرسله إليه أبو بكر «سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون اللّه شجيك ولن ينزع الشجي من الناس نزعك فليهنك أبا سليمان النية والخطوة فأتمم يتمم اللّه لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك أن تدل بعمل فإن اللّه له المن وهو ولي الجزاء . . .

كانت مدة خالد بالعراق سنة وشهرين من المحرم بدء السنة الثانية عشرة إلى صفر من سنة ١٣ ، وقد فعل في هذه السنة ما لم يفعله قائد جيش . اقتطع من بلاد العجم حوض نهر الفرات من شمال الأبلة إلى الفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرق الفرات وصادم جنود الفرس والعرب والروم في عدة مواقع لم يقهر فيها مرة وكان اسمه يسبقه إلى كل موقعة أرادها وكان في كل عمله فاتحاً لا مغيراً فإنه كان يعد حماة طريقة ليأمن أن يؤتى من خلفه وكان إذا افتتح بلداً أقام فيه أميراً من قبله ينظر شؤونه وآخر يجبي الخراج من أهل الذمة ومن أحسن ما يؤثر عنه أنه لم يكن يتعرض للفرحين بسوء بل كان يعاملهم بالرأفة ويمنعهم من عدوهم حتى صاروا يفضلون حكمه على حكم

الفرس الذين كان عظماؤهم يستعبدونهم ويذلونهم وعلى نسبة رأفته بهؤلاء كانت شدته على المقاتلين وأهل الحرب وكان لا يصبر عن الميدان إذا رأى الجنود ينظر بعضها بعضاً بل سرعان ما يخرج طالباً رئيس القوم للمبارزة وفيها القضاء على خصمه فلا يطول أمر الحرب بعده. وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة في جبين تاريخه ومما يبين عظيم علمه ما قاله الهيثم البكائي. قال: كان أهل الأيام نحن أصحاب ذات السلاسل (وهي واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض، ما يذكرون ما كان بعد احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل.

غزو الروم:

كان إرسال الجيوش لافتتاح بلاد الشام متأخراً عن إرسال خالد لافتتاح العراق فإن أبا بكر في أواخر سنة ١٢ من الهجرة اختار من قواد المسلمين أربعة من كبار القواد وهم عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة الجراح وشرحبيل بن حسنة والثلاثة الأولون قرشيون والرابع قحطاني وتخير لكل منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير بجنده من طريق سماها له وعين لكل منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمرو فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولشرحبيل الأردن فسارت هذه الجيوش من الطريق التي عينها لهم يتبع بعضهم بعضاً وكان عدد جميع الجنود التي سيرت قبل أن يأتيهم مدد خالد بن الوليد ستة وثلاثين ألفاً.

لما علم الروم بمسير الجنود الإسلامية إليهم اهتم بالأمر هرقل نازلاً بحمص وكان قد علم تفرق جنود المسلمين على أربعة من القواد فأراد أن يقاتلهم متفرقين لأن العدد عنده كثير فيمكنه أن يشغل كل أمير بأضعاف ما معه ولما علم بذلك الرؤساء الأربعة تكاتبوا وسألوا عمرو بن العاص ما الرأي؟ فراسلهم أن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم

يغلب من قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا واعد لنا لكل طائفة منا فاستحسنوا الرأي واتعدوا اليرموك(١) ليجتمعوا به وكتبوا إلى أبي بكر بمثل ما كاتبوا به عمرو فجاءهم كتابه بمثل رأي عمرو وأمرهم أن يجتمعوا باليرموك متساندين وأن يصلي كل رجل بأصحابه، بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده أن اجتمعوا ونزلوا بالروم منزلاً واسع العطل واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصة(٢) وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وهو لهيب لا يدرك وقد أراد رؤساء الروم أن تستفيق الجنود ويأمنوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها وقد وافتهم الجنود الإسلامية هناك فنزلوا بحذائهم على طريقهم وليس للروم طريق إلا عليهم فصاروا كأنهم محصورون ودام الأمر على ذلك صفر من سنة ١٣ وشهري ربيع لا يقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون إليهم للهب وهو الواقوصة ومن ورائهم والخندق من أمامهم وكان المسلمون استمدوا أبا بكر في شهر صفر فكتب إلى خالد ليلحق بهم وأمره أن يخلف على العراق المثنى بن حارثة بمن استخلص من جند العراق وهم نحو عشرة آلاف وسار سيراً حثيثاً حتى وجيء فرسه وصادف قدوم خالد أن قدم مدد عظيم على الروم وكانت عدة جنود الروم على ما حكاه الطبري ٢٤٠ ألفاً.

جاء خالد فوجد المسلمين يقاتلون متساندين أي أن كل أمير يحرك جنوده مستقلاً عن غيره وقد علم أن الروم قد عزموا على الخروج من خنادقهم للصدمة الكبرى فجمع الأمراء وخطب فيهم قائلاً إن هذا اليوم من أيام اللّٰه لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم وأريدوا اللّٰه بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيها لم تؤمروا به

(١) واد في طريق الغور يصب في نهر الأردن.

(٢) واد في أرض حوران.

بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبته. قالوا فهات فما الرأي قال إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنساير ولو علم الذي كان ويكون لكان قد جمعكم إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من إمدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فاللّه اللّه فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه إذ دانوا له إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند اللّه ولا عند خليفة رسول اللّه هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها فهلموا فلنتعاود الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني إليكم اليوم فأمروه فعبي خالد الجيش تعبية لم تعبئها العرب قبل ذلك. قسم الجيش إلى ثمانية وثلاثين كردوساً (فرقة) رتب القلب ١٨ كردوساً وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة ١٠ كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة ١٠ كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل لكل كردوس رئيساً يأتمر بأمر رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان كل كردوس يزيد قليلاً عن الألف وجعل للجيش قاصاً يذكرهم وكان القاص أبا سفيان بن حرب فكان يقف على الكراديس ويقول اللّه اللّه إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك قال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ما أقل الروم وأكثر المسلمين إنما تكثر الجنود وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال واللّه لوددت أن الأشقر براء من توجيه وأنهم أضعفوا في العدد (الأشقر فرسه).

وخرجت الروم في تعبية لم ير مثلها فأمر خالد مجنبتي القلب أن ينشبا القتال وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو ففعلا وكان القعقاع يرتجز:

ياليتني ألقاك في الطراد قبل اعتزام الجحفل الوراد وأنت في حلبتك الوراد

ويرتجز عكرمة :

قد علمت بهكنة الجواري أني على عكرمة أداري

وكانت هذه الأراجيز لهم تقوم مقام الموسيقى في تشجيع القلوب .

نشب القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان : وأمر خالد بالزحف العام ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيل الروم ورجلهم وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت وتركوا رجلهم في مصافهم وخرجت خيلهم تشتد بهم في الصحراء ولما رآها المسلمون كذلك أفرجوا لها ولم يحرجوها فذهبت فتفرقت في البلاد وأقبل خالد ومن معه على الرجال فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا إلى الواقوصة من ورائهم حتى هوى فيها كثير منهم فتهافت فيها كما يقول الطبري ١٢٠ ألفاً سوى من قتل بالمعركة من الخيل والرجل وكان القتال قد استمر طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو في رواق رئيس جند الروم .

وكان لكثير من فرسان المسلمين في ذلك اليوم القدح المعلى في الثبات والصبر منهم عكرمة بن أبي جهل فإنه كان يقول قاتلت رسول الله في كل موطن وأفر اليوم ! ثم ينادي من يبايع على الموت فيبايعه أرباب النجدة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا جميعاً قدام فسطاط خالد وهو في وسط القلب حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتلوا إلا من برأ منهم وأتى خالد عند الصبح بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخده وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ويقول كلا زعم بن الحنتمة أنا لا نستشهد (يريد عمر) وقاتل النساء في ذلك اليوم في جولة وقتل من المسلمين في

اليرموك نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من الوجوه والفرسان.

ولما بلغ خبر هذه الموقعة هرقل وانهزام نخبة جيوشه هذه الهزيمة المنكرة وهو دون حمص ارتحل فجعل حمص بينه وبين الجنود الإسلامية وقال سلام عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده.

في أثناء الموقعة جاء بريد المدينة وفيه خبر وفاة أبي بكر وخلافة عمر بن الخطاب وعزل خالد عن إمارة الجيش وتولية أبي عبيدة قائداً عاماً مكانه فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى أبي عبيدة ولم يدعه لئلا تهن به قوة الجنود وأخذ الكتاب فوضعه في كنانته حتى انتهت الموقعة بهذا النصر فسلم الكتاب إلى أبي عبيدة وسلم عليه بالامارة ومما يؤثر عن خالد في هذا اليوم قوله: الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب إلى من عمر. والحمد لله الذي ولي عمر وكان أبغض إلى من أبي بكر ثم ألزمني حبه.

جيش عدته أربعون ألفاً يغلب جيشاً فيه خمسة أمثاله لا بد أن يبحث فيه عن سبب ذلك الفوز والعدد الكبير مدرب على الحروب وخوض المعامع وكان قريب عهد بالانتصار على الجنود الفارسية. يقولون إن ارتباك الدول التي حاربها المسلمون كان سبباً في فوزهم هذا الفوز السريع. كان يمكن أن يكون هذا سبباً لو كانت الارتباكات منعت تلك الدول عن حشد الجنود ومساعدة الثغور فكان في ذلك فرصة لمن يغزوهم أما وقد حشدوا ذلك العدد الجسيم مسلحاً منظماً معبأ أعظم تعبئة فلا بد أن يكون هناك سبب وراء العدد والعدد ذلك أن الجندي المسلم كان يخوض هذه المعامع وقلبه متأثر بأمرين: الأول ثقته بأن العاقبة له لما قرأه من الكتاب وما سمعه من الرسول ﷺ من التبشير بهذه الفتوح العظيمة. وهذه الثقة في قلبه بمنزلة مدد من الله يؤيده. الثاني أنه واثق بالعاقبة في الأخرى فهو إن قتل كان شهيداً عاقبته الحسنى وزيادة وإن ظفر كان ذلك خيراً فهو يرجو إحدى

الحسنيين إما موت بعد سعادة وإما فوز فيه فخر الدنيا وإسعاد دينه أضف إلى ذلك ما وفقوا إليه من هؤلاء القواد العظماء الذين أعجزوا من بعدهم أن يقدم إقدامهم وقليل كانت أمثالهم في تاريخ الشرق فرحم اللّٰه خالداً فقد كان زينة في تاريخ أبي بكر. وإلى هنا انتهت الأعمال الكبرى التي حدثت بين المسلمين وبين دولتي الروم والفرس في أيام أبي بكر وقطبها خالد بن الوليد المخزومي.

يظهر لنا التاريخ القصير الذي لم يستمر أكثر من سنتين وأربعة أشهر ما وصفنا به أبا بكر من صدق العزيمة ومضائها.

إدارة البلاد في عهد أبي بكر:

كانت الجزيرة العربية هي البلاد التي تحت الإدارة الإسلامية نهائياً وكان أبو بكر قد جزأها إلى ولايات وعلى كل ولاية أمير من قبله وكان لهذا الأمير إقامة الصلاة والفصل في القضايا وإقامة الحدود فهو أمير قاض منفذ لأن أبا بكر لم يعين قضاة يتولون القضاء دون الأمراء وهذه ولايات الجزيرة لعهده.

١ ـ مكة وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذي ولاه رسول اللّٰه ﷺ.
٢ ـ الطائف وأيرها عثمان بن أبي وقاص وهو الذي ولاه رسول اللّٰه ﷺ.
٣ ـ صنعاء وأميرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذي فتحها بعد الردة.
٤ ـ حضرموت وواليها زياد بن لبيد.
٥ ـ خولان وواليها يعلي بن أمية.
٦ ـ زبيد ورفع وواليهما أبو موسى الأشعري.
٧ ـ الجند وأميرها معاذ بن جبل.
٨ ـ نجران وواليها جرير بن عبد اللّٰه البجلي.

٩ ـ جرش وواليها عبد اللّه بن ثور.
١٠ ـ البحرين وواليها العلاء بن الحضرمي.

أما العراق والشام فكانت لا تزال الحروب قائمة فيهما وكان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها. ولم يكن لأبي بكر وزير وإنما كان عمر يلي القضاء وأبو عبيدة أميناً لبيت المال قبل أن يسيره إلى الشام.

وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان وكان يكتب له من حضر وفي عهده كتب القرآن لأول مرة في مصحف واحد يجمع سوره كلها وكان قبله محفوظاً مرتباً في الصدور ومكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة فلما حصلت حروب الردة وكان قد قتل فيها كثير من القراء رأى أبو بكر أن يجمع القرآن في مصحف واحد واختار لذلك كاتب الوحي لرسول اللّه ﷺ وأحد القراء الذين كانوا يستظهرون القرآن وهو زيد بن ثابت فقام بالأمر وكتب أول مصحف بملأ من أصحاب رسول اللّه ﷺ والحفاظ منهم ووضع هذا المصحف عند أبي بكر.

رزق الخليفة:

كان أبو بكر رجلاً تاجراً قبل أن يستخلف واشتغل بالتجارة بعد الخلافة ستة أشهر ثم وجد أن التجارة تشغله عن أمور الناس فقال لا واللّه ما تصلح أمور الناس التجارة وما يصلحهم إلا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولا بد لعيالي ما يصلحهم فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم وكان يحج ويعتمر وكان الذي فرضوه له في السنة ستة آلاف درهم (بالتقريب ١٢٨ جنيهاً مصرياً) ولما حضرته الوفاة قال. ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لا أصيب من هذا المال شيئاً وإن أرضى التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصيب من أموالهم. فدفع ذلك إلى عمر رضي اللّه عنه، فقال عمر: لقد أتعب من بعده. فمن هذا يفهم أن المبدأ اختطه أبو بكر

هو أن الخليفة لا ينبغي أن يشغله شيء من التجارات عن النظر فيما وكل إليه من أمور العامة وأنه يأخذ ما يفرض له من بيت المال، والظاهر أن الفرض لغيره وليس هو الذي يفرض لنفسه وكأن هذا المأخوذ فيه شبهة في نظر أبي بكر فأمر برده إلى بيت المال.

أرزاق الجند:

كان الجند متطوعين لا يجمعهم ديوان، وكانوا يأخذون أربعة أخماس الغنيمة يوزعها عليهم رئيس الجند غير ما يناله القاتل من سلب القتيل وغيرما ينقله رئيس الجند للممتازين وكان أبو بكر يسوي في العطاء لا يفضل أحداً على أحد.

أرزاق العمال:

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة ومن ذلك كان يعطي العمال أرزاقهم ويوزع ما بقي على من عينوا في الكتاب لمصاريف الزكاة.

وفاة أبي بكر:

حُمّ أبو بكر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ ومكث محموماً ١٥ يوماً وتوفي في مساء ٢١ جمادي الآخرة سنة ١٣ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤م) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول الله ﷺ يميل عنه قليلاً إلى الجهة الشرقية.

كيف انتخب عمر
ترجمته - أول خطاب له
الفتوح في بلاد الفرس - بدء الفارسية
٢٠ - عمر بن الخطاب

كيف انتخب:

لما مرض أبو بكر وأحس بدنو أجله رأى مصلحة المسلمين في أن ينتخب خليفتهم قبل موته وذلك ما يعبر عنه بولاية العهد، وكانوا يحسون دائماً أن كثيرين يرون أنفسهم أهلاً للخلافة وهم أحق بها فإذا ترك الناس من غير عهد انتثر عقد نظامهم وكان يرى أن عمر بن الخطاب أجدر الناس بالخلافة ولكنه أحب أن يستشير فيه كبار الصحابة فدعا بعبد الرحمن بن عوف، وقال أخبرني عن عمر فقال يا خليفة رسول اللّه هو واللّه أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة فقال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقاً ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتني إذا غضبت على الرجل في شيء أراني الرضا عنه وإذا لنت له أراني الشدة عليه لا تذكر يا أبا محمد مما قلت لك شيئاً قال نعم ثم دعا عثمان بن عفان، فقال يا أبا عبد اللّه أخبرني عن عمر قال أنت أخبر به فقال أبو بكر على ذاك يا أبا عبد اللّه قال اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله قال أبو بكر رحمك اللّه يا أبا عبد اللّه لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً قال أفعل فقال له أبو بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً ولوددت أني كنت خلواً من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم.

ولما تم له الرأي دعا عثمان بن عفان فأملى عليه (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين أما بعد) - ثم أغمى عليه فكتب عثمان: (فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً) ثم أفاق أبو بكر فقال إقرأ عليّ فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلت في غشيتي قال نعم قال جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله وأقرها أبو بكر من هذا الموضع، قال الطبري ثم أشرف عليّ الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم أترضون بمن أستخلف عليكم فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة وإني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا فقالوا سمعنا وأطعنا.

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادي الثانية سنة ١٣ هـ ١٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م.

ترجمة عمر:

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب بن لؤى وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة سنة خلت من ميلاد رسول الله ﷺ تربى على الشهامة والنجدة والجرأة وقول الحق لا يرى فيه هوادة فلما تشرف رسول الله بالرسالة كانت سنة ٢٧ سنة ولما دعي إلى الإسلام لم يكن في بدء أمره مقتنعاً بصحة الرسالة فحارب الإسلام حرباً شديداً حتى كان ينال المسلمين منه أذى كثيراً حتى كانت هجرة الحبشة ورأى شدة تمسك المسلمين بدينهم وتحمل الأذى ومفارقة الأوطان فكان ذلك مما دعاه إلى أن يستمع الدعوة بقلب مفتوح فآمن وصدق وذهب إلى رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفين بها وهناك أعلن إيمانه فكانت به للمسلمين قوة وذهب إلى البيت الحرام فأعلن لقريش تصديقه بالدين الإسلامي وهناك أصابه من أذى المشركين ما كان يصيب إخوانه

وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاصي بن وائل السهمي ولما كانت هجرة المدينة كان الناس يخرجون متسللين خيفة أن يحبسهم أهلوهم أما هو فأعلن أنه مهاجر وقال من أراد أن تثكله أمه فليلقني وراء هذا الوادي ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد وحضر مع رسول الله ﷺ مشاهده كلها فلم يتخلف عن واحدة منها وكان كثيراً ما يشير على الرسول فينزل القرآن موافقاً لما أشار وكان هو وأبو بكر بمنزلة الوزيرين لرسول الله ﷺ وقد صاهره عليه السلام فتزوج بنته حفصة بعد أن قتل عنها زوجها. ولما لحق عليه السلام بربه كان لعمر أكبر الفضل في الإسراع ببيعة أبي بكر قطعاً للنزاع في أمر الخليفة وخوفاً أن يتشتت الأمر وكان لأبي بكر بمنزلة الوزير الأول يشير عليه ويعينه وكان أبو بكر يحيل عليه فصل القضايا فكأنه كان قاضيه وإن لم يتسم باسم القاضي وقد أفادته صحبة أبي بكر الأناة في الأمور وكثيراً غيرها.

أول خطاب له:

بعد أن بويع بالخلافة عقب وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال هذه الكلمات القصيرة وهي تنبيء عن سياسته التي ساس بها العرب قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه (إنما مثل المؤمن كمثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده أين يقوده أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق) والجمل الأنف هو الجمل الذليل المواتي الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطي ما عنده من السير عفواً سهلاً وهذا تشخيص حسن للأمة الإسلامية لعهده فإنها كانت سامعة مطيعة إذا أمرت ائتمرت وإذا نهيت انتهت ويتبع ذلك المسؤولية الكبرى على قائدها بأنه يجب عليه أن يتبصر حتى لا يوجه هذه الأمة إلى ما فيه خطر عليها بل يتخير لها أسلس الطرق وأسهلها ولذلك وعدهم مقسماً فقال: أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق ويفهم بالبداهة أنه الطريق الأقوم الذي لا اعوجاج فيه والعرب من شأن لغتها الاكتفاء بدلالات الأحوال.



الفتوح في عهد عمر



في بلاد الفرس:

لما صرف أبو بكر خالد بن الوليد إلى العراق أمره أن يستخلف على البلاد المثنى بن حارثة الشيباني ويترك عنده نصف الجنود ففعل خالد ما أمر به وأقام المثنى بالحيرة وهي دار إمارته وكان قد استقام أمر الفرس على شهريار فوجه إلى المثنى والتقى به عند بابل وأوقع به وقعة شديدة انهزم فيها بهمن وجنده وتتبع الطلب الفل إلى قرب المدائن ثم عاد المثنى إلى الحيرة وأبطأت عليه أخبار أبي بكر وتوقع أن الفرس يجمعون له جموعاً لا يقدر على مقاومتها فخلف على الجند بشير بن الخصاصية وخرج نحو المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين وأعدائهم وليستأذنه في الاستعانة بمن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردة وليخبره أنه لم يخلف أحداً أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم فقدم المثنى وأبو بكر في مرضه الأخير فاستدعى عمر فقال له استمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به إني لأرجو أن أموت من يومي هذا فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفي رسول الله ﷺ وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله وبالله لو أني عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا وتعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً وإن فتح الله على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم. ومات أبو بكر من يومه فبعد أن دفنه عمر ندب الناس

مع المثنى، وقال عمر كان أبو بكر قد علم أنه يسوؤني أن أؤمر خالداً على العراق حين أمرني بصرف أصحابه وترك ذكره. كان الناس يحجمون عن الخروج إلى فارس لما في أنفسهم من عظمتها وشوكتها القديمة فخطبهم المثنى فقال أيها الناس: لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإنا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير سقي السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها وقال لهم عمر إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك أين الطراء[1] المهاجرون عن موعود الله سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فإنه قال ﴿ليظهره على الدين كله﴾[2] والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الأمم أين عباد الله الصالحين ـ فكان أول منتدب للمسير أبو عبيد بن مسعود الثقفي ثم قفاه رجلان: سعد بن عبيد وسليط بن قيس فأقر عمر على هؤلاء المنتدبين أسبقهم إجابة وهو أبو عبيد وقال له اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ واشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فإنها الحرب؛ والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف. فسار أبو عبيد بالجند وهو الأمير حتى بلغ الحيرة ـ كان الفرس في ذلك العهد قد ولوا عليهم آزر ميدخت ملكة واختارت هي رستم أحد عظماء الفرس قائداً عاماً للجنود الفارسية فدانت له الفرس عقب ورود أبي عبيد.

كان أول ما صنعه رستم أن كتب إلى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس في كل رستاق رجلاً ليثور بأهله وكان ممن أرسله جابان ونرسي من القواد فأثاروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله واجتمع جند عظيم قام في النمارق[3] لما رأى ذلك المثنى ضم إليه مسالحه وحذر وحينما جاء أبو عبيد أراح الجند قليلاً ثم سار إلى النمارق فحارب جابان ومن

---

(١) الطراء: الغرباء وهم الذين يأتون من مكان بعيد.
(٢) سورة الصف: الآية ٩.
(٣) موضع قريب من الكوفة من أرض العراق.

معه وهزم جنده، وأسر جابان أسره رجل من عامة العرب من ربيعة فقال له جابان: إنكم معاشر العرب أهل وفاء؛ فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا وكذا قال نعم قال فأدخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه ففعل فأجاز أبو عبيد ما فعل الربعي ولما علم القوم أنه الرئيس كلموا فيه أبا عبيد فقال ما تروني فاعلاً معاشر ربيعة أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا معاذا اللّه ما لزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم.

لما انهزم الفرس ذهبوا إلى كسكر(١) لاجئين إلى نرسى فاجتمع إليه الجند الذين معه وفل جابان فتبعهم أبو عبيد والتقي بهم أسفل من كسكر فهزمهم وغلب على عسكر نرسي وأرضه وأخرب ما كان حول معسكرهم من كسكر: وهناك جاءه الدهاقين مسالمين فسألهم وجاءوه بهدايا من أطعمة فارس وألوانها فلم يأكل منها وقال بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أولم يهرقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا واللّه لا يأكل مما أفاء اللّه عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم.

لما جاء رستم خبر الهزيمة جهز جيشاً آخر عظيماً يقوده بهمن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس المسماة درفش كانيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها إثنا عشر متراً من جلود النمر فسار إليه أبو عبيد حتى نزل المروحة(٢) موضع البرج والعاقول فبعث إليه بهمن إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر إليكم فأشار الناس على أبي عبيد بعدم العبور فلج وترك الرأي وعبر بالمسلمين فدارت رحا الحرب وفي آخر النهار قتل أبو عبيد فجال المسلمون جولة ثم تموا عليها وركبهم أهل فارس فبادر رجل من ثقيف فقطع الجسر فانتهى الناس إليه والسيوف

---

(١) كورة واسعة كانت قصبتها قبل أن يمصر الحجاج واسطاً خسروا سابور ثم صارت واسط قصبتها ومن مشهور نواحيها المبارك والمدار ونفياً ومنسان ودست ميسان.

(٢) على شاطىء الفرات الغربي تجاه قس الناطف وذلك بالقرب من الكوفة.

تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات فأصيب منهم يومئذ أربعة آلاف بين غريق وقتيل وحمى المثنى ومن معه الناس وعقد الجسر وعبروا فأقاموا بالمروحة وهرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا في أنفسهم واستحيوا مما نزل بهم .

وبلغت هذه المصيبة عمر فقال اللهم إن كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم اللّٰه أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تيحز إلينا ولم يستقل لكنا له فئة وحصل في هذه الواقعة غلطتان الأولى مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش فإنهم نهوه عن العبور فلم ينته والذي زاد تلك الغلطة تأثيراً ما فعله ذلك الرجل الأحمق عبد اللّٰه بن مرثد الثقفي من قطعه الجسر عندما رأى جولة المسلمين وإرادتهم العبور ولولا ثبات المثنى بن حارثة لهلك المسلمون عن آخرهم .

لم يبق مع المثنى من الجنود إلا القليل لا قدرة لهم على أن يحافظوا على مراكزهم ولا أن يردوا عنهم هجمات عدوهم وقد علم بذلك عمر فشرع يبعث الأمداد إلى المثنى منهم جرير بن عبد اللّٰه البجلي في قومه من بني بجيلة فلما علم المثنى بقدومهم طلب منهم أن يسيروا إليه حتى يقابلوه على البويب[1] وتقدمهم هو إليه فساروا إليه وكان رستم قد أرسل إلى المسلمين جنداً مع قائد اسمه مهران فوقف أمامهم ويفصل بين الفريقين الفرات فأرسل مهران إلى المثنى يخيره بين أن يعبر بجنوده أو يعبر مهران إليه وكان الجواب طبعاً أن طلب من مهران العبور لأن واقعة الجسر لم يمح أثرها بعد فعبر الفرس واقتتلوا مع المسلمين وكان ذلك في رمضان وقد أمر المثنى بالإفطار فأفطروا وكانت تعبئة الجيش خالدية فأبصر المثنى رجلاً يستوفز ويستقتل من الصف فقال ما بال هذا قالوا هو ممن فر يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل فقرعه بالمرح وقال لا أباً لك إلزم موقفك فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل قال إني بذلك

(١) نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ من الفرات .

لجدير فاستقتل ولزم الصف وكانت الحرب في هذه الموقعة من أشد ما صادفه المسلمون هولاً لكثرة عدوهم ولكنهم اصطبروا صبراً جميلاً وكانت الهزيمة على الفرس بعد أن كاد يفني قلب جنودهم ولما شرعوا في الهزيمة سبقهم المثنى إلى الجسر فقطعه فأرادوا العبور فلم يمكنهم فذهبوا في البلاد مصعدين ومنحدرين بعد أن قتل منهم ما قدر بمائة ألف ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر وإحراجه العدو قال لقد عجزت عجزة وفي اللّه شرها بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فإني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فإنها كانت مني زلة لا ينبغي إحراج أحد إلا من لا يقوى على الامتناع ثم أرسل المثنى في أثر المنهزمين من اتبعهم إلى أن وصولو إلى السيب[1] بعد أن عقد لهم جسراً: وكانت هذه الواقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس حتى سار المسلمون فيما بين الفرات ودجلة لا يمنعهم مانع ولا يقف في وجوههم محارب.

وأقام المثنى بعد ذلك يصعد ويصوب في الجزيرة ويبث السرايا للاغارة ومما يدل على تنبه عمر لما كان يحصل بين أولئك الجنود أن المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل في جند فأغاروا على صفين وبها النمر وتغلب متساندين فأغاروا عليهم حتى رموا بطائفة منهم في الماء فناشدوهم فلم يقلعوا عنهم وجعلوا ينادونهم الغرق الغرق وجعل عتيبة وفرات البكريان يذمران الناس وينادونهم تغريق بتحريق يذكرونهم يوماً من أيامهم في الجاهلية أحرقوا فيه قوماً من بكر بن وائل في غيضة من الغياض ثم انكفأوا راجعين إلى المثنى وقد غرقوهم. كانت لعمر عيون في كل جيش فكتب العين إلى عمر بما قال عتيبة وفرات يوم بني تغلب والماء فاستقدمهما عمر فسألهما فأخبراه أنهما قالا ذلك على وجه طلب ذحل

---

(١) كورة من سواد الكوفة وهما سيبان الأعلى والأسفل من طسوج سوراً.

الجاهلية فاستحلفهما فحلفا أنهما ما أرادا بذلك إلى المثل وإعزاز الإسلام فصدقهما وردهما حتى قدما على المثنى.

أمر القادسية[1]:

نظر الفرس بعد هزيمة مهران إلى أنفسهم فوجدوا أنفسهم يضعفون أمام العرب ورأوا أن الاختلاف الذي هم فيه مما ساعد العرب على تقدمهم وانتصاراتهم فقالوا لرستم والفيرزان وهما عظيما فارس والمستناقان في أمر سلطانهم أين يذهب بكما لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتم أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وإنه لم يبلغ من خطركما أن تقر كما فارس على هذا الرأي وأن تعرضاها الهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت فرأى الرجلان أن كلام القوم حق فبحثا في كل نساء كسرى وسراريه عن عقب له بينهن فبعد لأي وجدا رجلاً يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وهو ابن إحدى وعشرين سنة فملكه الفرس واجتمعوا عليه وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته وحينئذ سمي الجنود لكل مسلحة كانت لكسرى أو موضع ثغر فسمي جند الحيرة والأنبار والمسالح والأبلة. بلغ المثنى ذلك كله فكتب به إلى عمر ولم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد من كان له عهد ومن لم يكن له عهد فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذي قار[2] ثم جاءهم كتاب من عمر يأمرهم بالانسحاب من بين أظهر الأعاجم والتفرق في المياه التي تلي حدود بلادهم فكان منزل المثنى بذي قار ونزل الناس بالجل[3] وشراف[4] إلى غضي

---

(١) بينها وبين الكوفة ١٣ فرسخاً وبينها وبين العذيب أربعة أميال وهي على جادة الكوفة.

(٢) ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط.

(٣) موضع بالبادية على جادة طريق القادسية إلى ذبالة بينها وبين الفرعا ١٦٠ ميلاً.

(٤) بين واقصة والفرعاء ومن شراف إلى واقصة ميلان.

وغضى حيال البصرة وكانوا بحيث يغيث بعضهم بعضاً إن كان فزع تم ذلك في ذي القعدة سنة ١٣ .

أما عمر فكتب إلى عمال العرب على الكور والقبائل في ذي الحجة سنة ١٣هـ لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلي والعجل العجل وكان يريد توجيه جيش كثيف إلى العراق حتى يقاتل جموع العجم بجموع العرب فأما القبائل التي طرقها على مكة والمدينة فوافته بالمدينة وكذلك من كان من أهل المدينة على النصف ما بينه وبين العراق وأما من كانوا أسفل منهم فانضموا إلى المثنى فلما تكامل ورود الجنود على عمر خرج بهم من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صرار[1] فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقوم وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يدعى في إمارة عمر رديفاً والرديف الرجل الذي يكون بعد الرجل فإذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب فقال عثمان لعمر ما تريد فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس عليه فأخبرهم الخبر وانتظر ما يقول الناس فقالت العامة سر وسر بنا معك فدخل معهم في رأيهم وكره أن يدعهم حتى يخرجهم منه في رفق فقال استعدوا وأعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي أمثل من هذا ثم بعث إلى أهل الرأي فاجتمع إليه وجوه الصحابة وأعلام العرب فاجتمع رأيهم جميعاً على أن يبعث رجلاً من أصحاب رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ويقيم ويرميه بالجنود فإن كان ما يرجو من الفتح وإلا عاد رجلاً وندب جنداً آخر فنادى عمر الصلاة جامعة وبعث إلى علي وكان قد خلفه على المدينة وإلى طلحة وكان على مقدمته ولما تكامل جمعهم قال لهم إن اللّٰه قد جمع على الإسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه إخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره

---

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة من طريق العراق.

وكـذلك يحق عـلى المسلمـين أن يكـون أمـرهـم شـورى بينهم، بـين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قـام بهذا الأمـر ما اجتمعـوا عليه ورضـوا به لزم الناس وكـانوا فيـه تبعاً لهم ومن أقـام بهذا الأمـر تبع لأولى رأيهم مـا رأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعاً لهم أيهـا الناس إني إنما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الـرأي منكم عن الخروج فقـد رأيت أن أقيم وأبعث رجـلاً وقـد أحضـرت هـذا الأمــر من قـدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة) ولهذا الخطاب يبين ما كان يدوز في رأس عمر من النظام الشورى ويوضع الأساس لذلك النظام ثم أجـال معهم الرأي فيمن يـوليه قيـادة ذلك الجيش العـظيم واتفق الرأي أخيـراً عـلى تـولية القائد العظيم سعد بن أبي وقاص الزهري القرشي وكـان في ذلك الجيش حـد الأمة العـربية فـإن عمر لم يـدع رئيساً ولاذا شـرف ولاذا رأي ولاذا سلطة ر ـطيبـاً ولا شـاعـراً إلا رمـاهـم بـه فـرمـاهـم بـوجـوه النــاس وغررهـم.

تمام القادسية

فتح المدائن

ثم أمر سعد بالمسير وقال إذا انتهيت إلى زرود[1] فأنزل بها فسار حتى وصل إلى زرود فنزل بها وتفرق الجنود فيما حولها من أمواه بني تميم وأسد وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر وفي ذلك الوقت مات المثني بن حارثة من جراحة كانت أصابته وقبل وفاته أرسل إلى سعد وصيته لأنه قد اختبر أمر العجم قبله وأوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فان يظهر اللّٰه المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وإن تكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد اللّٰه الكرة لهم. ثم سار سعد من زرود حتى أتى شراف وفيها جاءه كتاب من عمر يقول فيه إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر على أجنادهم وعينهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم القادسية واكتب إلي بالذي يستقر عليه أمرهم ففعل سعد ما أمر به فقدر الناس وعبأهم بشراف وأمر أمراء الأجناد وعرف العراف فعرف على كل عشرة رجلا وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الأعشار رجالا من الناس لهم وسائل في الإسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجردتها وطلائعها ورجالها وركبانها فكان أمراء التعبية بلون الأمير ويليهم أمراء الأعشار، ثم أصحاب الرايات، ثم القواد رءوس القبائل ولم يفصل سعد من شراف إلا على تعبية وبإذن عمر وهذا كتابه الذي آمره فيه بمبارحة شراف.

---

(١) رمال بين الثعلبية والخزيمة على طريق الحاج إلى الكوفة.

أما بعد: فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله وأعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاصلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلا كؤوداً لبحوره وفيوضه ودآدئه[١] إلا أن توافقوا غيضاً من فيض وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدءوهم الشدو الضرب وإياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجالدوهم وإذا انتهيت إلى القاذسية، والقادسية باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم إذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الإماتة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة، وكتب إليه باليوم الذي يرتحل فيه من شراف فسار سعد على تعبيته والكتب بينه وبين عمر متواصلة.

ثم جاء كتاب آخر يقول فيه: واكتب إلى أين بلغ جمعهم ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر أمركم عليه فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر إليها واجعلني من أمركم على الجلية - فكتب إليه سعد بصفة البلدان القادسية بين الخندق[٢] والعتيق وأن ما عن يسار

---

(١) الدآدىء ما اتسع من التلاع وهي مسايل الماء.

(٢) خندق سابور في برية الكوفة حفره سابور بينه وبين العرب خوفاً من شرهم وأوله من هيت يشق طف البادية إلى كاظمة مما يلي البصرة وينفذ إلى البحر وبنى عليه المناظر والجواسق ونظمه بالمسالح ليكون مانعاً لأهل البادية من السوار.

القادسية بحر أخضر في جوف لاح[1] إلى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر، وأما الآخر فعلى شاطيء النهر يدعى الحوص[2] يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق[3] والحيرة وأن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيض مياههم وأن جميع من صالح المسلمين من أهل السواد قبلي إلب لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا وإن الذي أعدوا لمصادمتنا رستم في أمثال له منهم يحاولون إنغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول انغامهم وإبرازهم وأمر اللّه بعد ماض وقضاء مسلم إلى قدر لنا وعلينا فنسأل اللّه خير القدر في عافية - فكتب إليه عمر يأمره بالمقام بالقادسية وكان مما حضه به على الوفاء بالأمانة قوله إني قد ألقى في روعي أنكم لقيتم العدو وهزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا النقية عليه فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفة باشارة أو لسان كان لا يدري الأعجمي ما كلمه به وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك مجرى الأمان وإياكم والضحك والوفاء للوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وهنكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم وإقبال ريحهم، واعلموا أني أحذركم أن تكونوا شئنا على المسلمين وسببا لتوهينهم.

كان الفرس قد انفقوا على تولية رستم أعظم قوادهم قيادة الجيش الذي يوجهونه لحرب المسلمين فرضي بذلك وقبل أن يفصل بجنوده بعث سعد دعاة إلى الملك حسب أمر عمر فاختار من جنده قوماً عليهم نجاروهم آراء ونفر لهم منظرو عليهم مهابة ولهم آراء فخرجوا من العسكر حتى جاءوا المدائن فاستأذنوا بالدخول على الملك فأذن لهم ومع يزدجرد وزراؤه ووجوه أرضه فلما دخلوا عليه أمرهم بالجلوس ثم قال لترجمانه سلهم ما جاء بهم وما دعاهم إلى غزونا والولوع ببلادنا من أجل أنا أجمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فرد عليه النعمان بن

---

(١) ضيق.

(٢) نهر كان بين الحيرة والقادسية.

(٣) قصر كان بظاهر الحيرة بناه أحد ملوك العرب بالحيرة وهو النعمان بن امرىء القيس شرقي الفرات وغربيه بساتين.

مقرن وكان رئيس الوفد فذكر تاريخ إرسال الرسول وما كان من شأن العرب منه ودخولهم في دينه وقال بعد ذلك ثم أمرنـا أن نبدأ بمن يلينـا من الأمم فندعـوهم إلى الإنصاف فنحن ندعـوكم إلى ديننا وهـو دين حسن الحسن وقبح القبيـح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء فان أبيتم فالمناجزة فـإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب اللّه وأقمناكم عليـه على أن تحكمـوا بأحكـامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وأن اتقيتمـونا بـالجزاء قبلنـا منكم ومنعناكم وإلا قاتلناكم فقال يزدجرد إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عـددا ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوننا إياكم لا تغزوكم فـارس وتطمعـون أن تقومـوا لهم فان كـان عدد لحق فـلا يغرنكم منـا وإن كان الجهـد قد دعـاكم فرضنـا قوتـا لكم إلى خصبكم وأكرمنـا وجوهكم وكسـوناكم وملكنـا عليكم ملكا يـرفق بكم. فسكت القوم فقـام المغيـرة بن زرارة الأسـدي فقـال أيها الملك إن هؤلاء رءوس العـرب ووجـوههم وهم أشـراف وإنمـا يكـرم الأشـراف الأشـراف ويعـظم حقـوق الأشـراف الأشـراف، ويفخم الأشـراف الأشراف وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك ولا كل ما تكلمت بـه أجابـوك عليه وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك فجاوبني لأكـون الذي أبلغـك ويشهدون على ذلك. أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حـالا منا وأمـا جوعنـا فلم يكن يشبه الجوع كنـا نأكـل الخنافس والجعـلان والعقارب والحيـات فترى ذلـك طعـامنا، وأمـا المنازل فـإنما هي ظهـر الأرض ولا نبلبس إلا ما غـزلنا من أوبـار الإبل وأشعار الغنم، ديننـا أن يقتل بعضنـا بعضا ويغـير بعضنا عـلى بعض وإن كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنافكانت حالنـا قبل اليـوم على ما ذكرت لك فبعث اللّه إلينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده فأرضه خير من أرضنا وحسبـه خير من أحسـابنا وبيتـه أعظم بيـوتنا وقبيلتـه خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنـا فدعـانا إلى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكـذبنا وزاد ونقصنـا فلم يقل شيئاً إلا كان فقـذف اللّه في قلوبنا التصـديق لـه واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قـول اللّه وما أمـرنا فهـو

أمر اللّه فقال لنا إن ربكم يقول إني أنا اللّه وحدي لا شريك لي كنت إذ لم يكن شيء وكل شيء هالك إلا وجهي وأنا خلقت كل شيء وإلى يصير كل شيء وإن رحمتي أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ولأحلكم داري دار السلام فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق وقال من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ومن أبى فأعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناوأه فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك. فقال كسرى أتستقبلني بمثل هذا فقال ما استقبلت إلا من كلمني ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به فقال لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي ثم قال ائتوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى أشغلكم في أنفسكم بأشد مما نالكم ثم قال من أشرفكم فقال عاصم بن عمرو أنا فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليه ثم ساروا فأتوا بالتراب سعداً وبشروه بالظفر متفائلين. فصل رستم من المدائن في تعبية كبرى وعدد جنوده ١٢٠ ألفاً عدا من تبعهم وسارت طلائعه حتى أتت الحيرة فنزلت بها ثم سار رستم حتى أتى النجف فعسكر بها والطلائع تسير أمامه ولم يزل الجيشان يتقاربان حتى كان رستم على العتيق وسعد أمامه وكانت بين الفريقين مراسلات قال المسلمون فيها لرستم كثيراً ومما قيل في مجلسه ما قاله المغيرة بن شعبة أحد الوفد فانه لما جاء جلس مع رستم على سريره فوثب عليه الفرس وأنزلوه فقال لهم كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا إن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا تصنعه ولم آتكم ولكنكم دعوتموني اليوم فعلمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن ملكاً لا

يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول فقال السفلة صدق والله العربي وقالت الدهاقين لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه قاتل الله أولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة.

ثم أجمع رستم أمره على عبور العتيق فكر ثم عبر هو وجنده وكان البريد بينه وبين المدائن متصلا بحيث تصل الأخبار إلى يزدجرد ساعة حدوثها وكان سعد قد عبأ الجيش وانتظمت حماته ولم يكن سعد مع المقاتلين لأنه لم يكن يستطيع أن يركب لحبوب كانت به فكان مقيما بأعلى القصر يشرف على الناس ويرمي بالرقاع فيها الأمر والنهي إلى خالد بن عرفطة وهو أسفل منه وكان الصف بجانب القصر ثم قام في الناس الخطباء فخطبوهم وحثوهم على الصبر وكان وراء الفرس العتيق ووراء المسلمين الخندق وميدان الحرب بين ذلك وبعد أن أذن المؤذن بالظهر وأتموا صلاتهم كبر سعد تكبيراته الثلاث التي كانت آخرها علامة بدء الحرب فبرز أهل النجدات فأنشبوا القتال وبرز غالب بن عبد الله الأسدي وهو يقول:

قد علمت واردة المسائح	ذات اللبان والبنان الواضح
أني سمام البطل المشايح	وفارج الأمر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول:

قد علمت بيضاء صفراء اللبب	مثل اللجين إذ تغشاه الذهب
أني امرؤ لا من يعينه السبب	مثلي على مثلك يغريه العقب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدمت صدمة هائلة وكان مما صعب الأمر على المسلمين فيلة الفرس فإنها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت فكادت بجيلة أن تؤكل حين فرت عنها خيلها نفاراً فأعانهم سعد ببني أسد وكان لهم في ذلك أعظم فخار ولرئيسهم طليحة الأسدي ولم يكن للمسلمين حيلة في الفيلة هذا اليوم إلا أن أعدوا رماة النبل يرمون ركبان الفيلة فلما أعريت الفيلة من ركبانها عادت إلى مواقفها فنفس

عن بني أسد بعد الجهد الشديد فقد أصيب منهم خمسمائة رجل وجالت المجنبات جولة خفيفة ولم يزل القتال إلى أن مضى جزء من الليل وكان النجاح أظهر في صفوف الفرس في هذا اليوم ويسمى يوم إرمات.

وفي اليوم الثاني نقلوا القتلى والجرحى من الميدان فأما القتلى فدفنوهم وأما الجرحى فأسلموهم إلى النساء يداوينهم وقبل الالتحام جاءت جنود خالد التي أمر عمر أبا عبيدة أن يصرفها إلى العراق وأميرها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فقوي بها المسلمون وكانوا قد جاءوا بالإبل وجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وأطافت بها خيولهم تحميها فلقيت خيول الفرس من هذه الإبل في اليوم الثاني ما لقي جنود المسلمين من الفيلة في اليوم الأول ولم يزل القتال بين الفريقين شديداً إلى نصف الليل ويسمى هذا اليوم يوم أغواث وكانت كفة المسلمين فيه أرجح.

وفي اليوم الثالث نقل القتلى والجرحى ثم اصطدمت الجنود على حنق وفيلة الفرس تفعل فعلها في الخيول فانتدب لأكبرها رجلان من أصحاب النجدة فوضعا رمحيهما في عيني الفيل ونفضا رأسه فطرح سائسه وولى مشفره فلقحه أحدهما بالسيف فرمى به ووقع لجنبه ثم فعلا مثل ذلك بفيل آخر فولى فوثب في العتيق، فتبعته الفيلة فخرقت صفوف الفرس وكان ذلك مما أضعف قوتهم وقوي المسلمين وما زال القتال مشتداً حتى جاء الليل فلم ينفصل الفريقان وخشعت أصوات الناس فلم يكن يسمع إلا صليل السيوف وهرير الفرسان ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله وما زال القتال مشتداً حتى أصبحوا والناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم فسار القعقاع في الناس يقول لهم إن الدبرة بعد ساعة لمن صبرها فاصبروا ساعة فما قام قائم الظهيرة حتى انهزمت مجنبتا الفرس وانفرج القلب وكانت همة أصحاب النجدة موجهة إلى سرادق رستم. فلما رأى ذلك أراد الهرب فتبعه هلال بن علفة حتى قبض عليه وقتله وصعد على سريره ثم نادى قتلت رستم ورب الكعبة فأطاف به الناس وكبروا وتنادوا فلم يكن للقلب بعد ذلك مقام وتتابعت الهزيمة وأخذوا الراية الفارسية وهي درفش كابيان ثم تتبعوا بقية

المنهزمين حتى أجلوهم إلى ما وراء القنطرة وكـان اليوم الثـالث من أيام القـادسية يسمى يوم عماس وليلته تسمى ليلة الهرير، ولم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لا مع الفرس ولا مع غيرهم قتل منهم فيهـا نحو ثمـانية آلاف فـارس ومن الفرس نحو ثلاثين ألفاً.

وبعد أن انتهت الموقعة كتب سعد إلى عمر هذا الكتاب (أما بعد فان اللّه نصرنا عـلى أهل فـارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهـل دينهم بعد قتـال طـويل وزلـزال شديـد وقد لقـوا المسلمين بعـدة لم ير الـراءون مثل زهـائها فلم ينفعهم اللّه بذلك بـل سلبهموه ونقله عنهم إلى المسلمين وأتبعهم المسلمـون على الأنهار وعـلى طفوف الآجـام وفي الفجاج وأصيب من المسلمـين سعـد بن عبيـد القاريء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم اللّه بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل دوي النحل وهم آساد الناس لا يشبههم الأسود ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم).

كان عمر مشغول القلب جداً بأمر القادسية فكان في كل يوم يخرج متنسـما أخبراهم من حين يصبـح إلى انتصاف النهـار فيرجـع إلى أهله ومنزلـه وفي اليوم الذي ورد فيه البشير لقيه عمر فسأله من أين فأخبره فقال يا عبد اللّه حدثني قال هزم اللّه العدو وعمر يجري وراءه ويستخبـره والآخر يسـير على نـاقته ولا يعـرفه حتى دخل المدينـة فإذا النـاس يسلمون عليـه بإمـارة المؤمنين فقـال الرجـل فهلا أخبرتني رحمك اللّه أنك أمير المؤمنين وعمر يقول لا عليك يا أخي فقريء كتاب الفتح على الناس ثم ورد عليه كتاب آخر من سعد يقول فيه (إن أقواماً من أهل السواد أدعوا عهوداً ولم يقم على عهد أهل الأيـام لنا ولم يف بـه أحد علمنـاه إلا أهل بانقيـا وبسما وأهـل أليس الآخرة وادعى أهـل السواد أن فـارساً أكـرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا إلينا ولم يذهبوا في الأرض) ثم كتـاب آخر يقـول فيه (إن أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم وزعمـوا أن أهل السـواد قد لحقـوا بالمـدائن فأحـدث إلينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى أنه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل أو استسلم

فانا في أرض رغيبة والأرض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وإن أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم) فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام وكف لم يزده غلبه إلا خيراً وإن من ادعى فصدق أو وفي فبمنزلتهم وإن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا إليهم فان شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وإن شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم إلا القتال وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء وكذلك الفلاح فكتب عمر جواب الكتاب الأول يقول فيه:

(أما بعد فان اللّه جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات إلا في أمرين العدل في السيرة والذكر فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرض منه إلا الكثير وأما العدل فلا رخصة فيه في قريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وإن رؤى ليناً فهو أقوى وأطفأ للجور وأجمع للباطل من الجور وإن رؤى شديداً فهو أنكش للكفر فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية وأما من ادعى أنه استكره ممن لم يخالفهم إليكم أو يذهب في الأرض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك إلا أن تشاءوا وإن لم تشاءوا فانبذوا اليهم وأبلغوا مأمنهم) وكتب جواب الكتاب الثاني.

(أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لأهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم إجابة وكذلك الفلاحون إذا فعلوا ذلك وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة وإن كذبوا انبذ إليهم. وأما من أعان وجلا فذلك أمر جعله اللّه لكم فان شئتم فادعوهم إلى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وإن كرهوا ذلك فاقسموها ما أفاء اللّه عليكم منهم) - فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد أن يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده إلا أن خرجهم أثقل فأنزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم وأنزلوا من أقام منزلة ذي العهد وكذلك الفلاحون ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم إلى واحدة من اثنتين الإسلام أو الجزاء وصارت

فيئاً لمن أفاء اللّه عليه فهي والصوافي الأولى ملك لمن أفاء اللّه عليه وسائر السواد ذمة وأخذوهم بخراج كسرى وكان خراج كسرى على رءوس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والأموال ـ ولم يتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن صوب معهم لأنه كان متفرقاً في السواد فكان يليه لأهل الفيء من وثقوا به وتراضوا عليه.

كان عمر يتخوف أن يؤتي المسلمون من جهة الأبلة لأنها لم تكن فتحت بعد فتخير فصيلة من الجيش عليها عتبة بن غزوان ووجهها إلى الأبلة لتمنع إمداد فارس من هذا الوجه فساروا حتى أتوا المربد مربد البصرة فنزلوا هناك واختطوا مدينة البصرة، ونزل الجند منازلهم فيها ومن هناك فتحوا الأبلة وهي مرفأ فارسي على خليج عمان الموصل إلى بحر الهند وكان فتحها في رجب من سنة ١٤ وصارت البصرة بعد ذلك مركزاً حربياً عظيماً تصل منه الجنود لحرب فارس إلا أنها لم يتم تمصيرها إلا سنة ١٧ حينما مصرت الكوفة.

أقام سعد بالقادسية شهرين ليرتاح الناس ولينتظر أمر عمر ثم أجمعوا أمرهم على المسير إلى قاعدة الملك فكان مما يلعب به الصبيان في العسكر وتلقيه النساء عليهم وهم على شاطيء العتيق أمر كان النساء يلعبن به في زرود وذي قار وتلك الأمواه حين أمروا بالمسير في جمادي إلى القادسية وكان كلاما أبدن فيه كالأوابد من الشعر لأنه ليس بين جمادي ورجب شيء:

العجب كل العجب بين جمادي ورجب أمر قضاه قد وجب

يخبره من قد شجب تحت غبار ولجب

ثم إن سعداً ارتحل وكان على مقدمته زهرة بن الحوية وكان معظم الجيش فرساناً مما غنموه من خيل الفرس ولقيتهم في سيرهم جنود فارسية ببرس وبها فل القادسية وبقايا رؤسائهم وفيهم الهرمزان فحاربهم حرباً غير طويلة ثم بلغهم أن الجنود قد تجمعت لهم على الفرزان فساروا إليهم وهزموهم في أسرع من لفت الرداء فتفرق رؤساء الفرس فسار الهرمزان نحو الأهواز وخرج الفرزان إلى نهاوند

وصعد الباقون إلى المدائن وقطعوا الجسر فأقام سعد ببابل أياماً ثم سير المقدمة مع زهرة حتى وصل بهر سير وهي المدائن الدنيا على شاطيء دجلة الغربي وتلاحقت به الجنود وفي مقام سعد على بهرسير راسلته الدهاقين راضين بدفع الجزية على أن يمنعهم المسلمون فرضي منهم سعد بذلك وصالحهم وحاصروا بهرسير شهرين ثم فتحوها بعد أن تركتها مقاتلة العدو وعبرت إلى المدائن القصوى الشرقية فنزل سعد ببهرسير أنزل بها الجند ثم دلهم أهل البلاد على مخاضة يعبرون منها إلى الجهة الشرقية لأنه لم يكن مراكب يعبر عليها الناس فان الفرس كانوا قد ضموها إلى الشاطيء الثاني وكان سعد أعد فصيلة تحمي الفراض حتى يعبر الجند ثم أمر بالعبور فعبر الجند كله خوضاً والذي جعل سعداً يسرع بذلك خوفه من أن يزدجرد ينقل كل ما في المدائن من ذخائره فحمله ذلك على السرعة والمخاطرة ولما رأى أهل المدائن ما يفعله المسلمون دهشوا ولم يكن منهم إلا أن تركوا المدائن وخرج يزدجرد هارباً على وجهه وذهب بعياله إلى حلوان أما أهالي المدائن فأقاموا بها راضين بالجزاء والذمة.

نزل سعد القصر الأبيض وهو يقول ﴿**كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوماً آخرين**﴾[1] وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً وفيه تماثيل الجص رجال وخيل ولم يمتنع هو المسلمون لذلك وتركوها على حالها وأتم سعد الصلاة يوم دخول المدائن لأنه أراد المقام بها وكانت أول جمعة جمعت بالعراق جمعت جماعة في المدائن في صفر سنة ١٦، ثم جمع سعد ما في خزائن كسرى من الأموال والغنائم وكان ذلك شيئاً كثيراً وأصاب الفارس من المغنم اثني عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ومعهم من النجائب شيء كثير ثم قسم دور المدائن بين الناس وأوطنوها ثم جمع الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك، وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم ومما أرسله بساط ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدير وفي حافاته

---

١) سورة الدخان: الآيات ٢٥-٢٨.

كـالأرض المزروعـة والأرض المبقلة بالنبـات في الربيـع من الحريـر عـلى قضبـان الذهب وفوارة بالذهب والفضة وأشباه ذلـك، ولما ورد الخمس عـلى عمر قسمـه على مستحقيه، ثم قال أشيروا علي في هذا القطف، فأجمـع ملؤهم على أن قـالوا قد جعلوا ذلك لك في رأيك إلا ما كان من على فانه قال يا أمير المؤمنين الأمر كما قالوا ولم يبق إلا التروية إنك إن تقبله على هذا اليوم لم تعـدم في غد من يستحق به ما ليس له فقطعه عمر بينهم.

وصدر بعد ذلك أمر عمر بولاية سعد بن أبي وقـاص صلاة مـا غلب عليه وحربه وولى النعمان وسيداً ابني عمر بن مقرن الخراج الأول على ما سقت دجلة والثاني على ما سقي الفرات.

المحاضرة الثالثة والعشرون

جلولاء ـ تمصير الكوفة والبصرة
فتح الجزيرة ـ الأهواز
غزو فارس من البحرين وفتح فارس
فتح نهاوند وما بعدها

واقعة جلولاء:

لما انتهى فل الفرس إلى جلولاء كانت هي مفترق طرقهم إلى أذربيجان والباب وإلى الجبال وفارس فتذامروا وقالوا إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً وهذا مكان يفرق بيننا فهلموا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم فان كان لنا فهو الذي نريد وإن كانت علينا كنا قد قضينا الذي علينا وأبلينا عذراً فحصنوا جلولاء واحتفروا الخندق حولها واجتمعوا هناك على مهران الرازي وأقام يزدجرد في حلوان وصار يمدهم بالرجال والأموال فأقاموا في خندقهم وأحاطوا به الحسك من الخشب إلى طرقهم فأرسل سعد بالخبر إلى عمر فأمره أن يسرح إليهم جيشاً أميره هاشم بن عتبة وعين أمراء تعبيته ففصل هاشم من المدائن في صفر سنة ١٦ (مارس سنة ٦٣٧)م في اثني عشر ألفاً حتى نزل بجلولاء وحاصرها فكان الفرس يزاحفون المسلمين ثم يعودون إلى خندقهم، ولما طال المطال صمم المسلمون على الهجوم عليهم في خندقهم واقتحامه فصادفوا في سبيل ذلك حرباً هائلة كانوا يشبهونها بالحرب ليلة الهرير وانتهت بتغلب المسلمين على الخندق وكان بطل الهجوم القعقاع بن عمرو ولما رأى الفرس أن لا طاقة لهم بمغالبة ذلك العدو الشديد أخذوا يمنة ويسرة هاربين وتركوا المدينة فاحتلها المسلمون ثم أمر هاشم القعقاع أن يتبع المنهزمين فتبعهم حتى وصل خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد بارح حلوان قاصداً الري فسار القعقاع حتى أتى حلوان فاحتلها وأقام بها مرابطاً لأنها هي الثغر الذي يفصل بين السواد والجبل وكان من رأى عمر في ذلك الوقت أن

يقتصر على ما ملكوه من سواد العراق وقال في كتاب له لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد وإني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال.

كان سعد قد أرسل حساب المغنم والفيء مع زياد وكان هو الذي يكتب للناس ويدونهم فلما قدموا على عمر كلم زياد عمر فيما جاء له ووصف له فقال له عمر هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به فقال والله ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدري منك فكيف لا أقوى على هذا من غيرك فقام زياد في الناس بما أصابوا وبما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد فقال عمر هذا الخطيب المصقع فقال زياد هذه الجملة المأثورة (إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا) ثم كتب عمر لسعد بإقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك إلى عدوك فأدركته وأجر لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم وإذا كتبت إليك في قوم فأجروا أمثالهم مجراهم وأعطاهم الحرية في غير الفلاحين وأرسل سعد من المدائن فصيلة يقودها عبد الله بن المعتم لفتح تكريت حين بلغه تجمع الفرس بها وكان معهم فيها جمع كثير من العرب من أياد وتغلب والنمر فوصلت الفصيلة وقد خندق الفرس حول تكريت فحصرهم أربعين يوماً تزاحفوا فيها أربعة وعشرين زحفاً في جميعها يظفر المسلمون وفي أثناء ذلك راسل ابن المعتم العرب لينضموا إليه فأجابوه إلى ذلك وأسلموا فأعطاهم السلم وحينذاك قال لهم (إذا سمعتم تكبيرنا فكبروا) فأجابوه ثم أمر جنده بالهجوم على الخندق فهجموا معلنين التكبير فكبر العرب من تغلب وأياد والنمر فظن الفرس أن المسلمين جاءوهم من خلفهم، فتبادروا إلى الأبواب التي عليها جنود ابن المعتم فأصيب منهم كثير من بين أيديهم ومن خلفهم وبعد الانتصار أعطوا الفلاحين من أقام منهم مثل ما أعطى غيرهم من قبلهم.

وأرسلت من المدائن فصيلة أخرى يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ما سبذان[1] فسار إليها وافتتحها عنوة وكان أهلها قد تطايروا إلى الجبال فدعاهم

(١) كورة بها عدة مدن: منها أربوجان عن يمين حلوان للقاصد إلى همذان.

ضرار إلى الرجوع بعد أن أمنهم فعادوا وأقام بها وخرجت فصيلة ثالثة لفتح قرقيساء[1] يقودها عمر بن مالك فافتتح في مسيره هيت[2] وفتح قرقيساء عنوة وأقر أهله على الجزاء.

وبذلك صار السواد كله في يد المسلمين، فمهدوا طريقة إدارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال.

تمصير الكوفة:

كانت الرسل ترد على عمر بعد هذه الفتوح فيرى في وجوهم تغيراً فقال عمر (والله ما هيئتكم بالهيئة التي أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما أبدءوا فما غيركم) قالوا وخومة البلاد فكتب إلى سعد أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم فكتب إليه سعد إن العرب خددهم وكفي ألوانهم وخومة المدائن ودجلة - فكتب إليه عمر إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلا برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر، فبعث سعد سلمان وحذيفة يسيران غربي الفرات مرتادين حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل فأتيا عليها وفيها دبرات ثلاث فأعجبتهما البقعة فنزلا فيها وصليا ودعيا ثم كتبا إلى سعد بالخبر فأبلغه سعد عمر فأمره أن يسير بالجنود إليها فأرسل سعد إلى أمراء الثغور أن يستخلفوا على الثغور ويسيروا إليه ففعلوا فارتحل سعد بالناس من المدائن حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ٧ (يناير سنة ٦٣٨ م) وكان بين وقعة المدائن ونزول الكوفة سنة وشهران وكان قد أبقى بالمدائن جنداً ممن رضي الإقامة بها وكان عمر يريد أن يقيموا معسكرين في خيامهم ثم أذن لهم أن يبنوا بيوتاً من القصب فأصاب الكوفة حريق شديد فأذن عمر أن تبنى باللبن. جعل على بناء المدينة أبا الهياج ابن مالك الأسدي وأوضح مناهجها وما يليها وأزقتها فجعل المناهج أربعين

---

(١) بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابور والفرات.

(٢) بلد على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار مجاورة للبرية.

ذراعاً وما يليها ثلاثين وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع وليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعاً.

فأول ما أسس بالمدينة مسجدها فاختطوه ثم قام في وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه ثم أمر بالبناء وراء مواقع السهام وبني في مقدمة المسجد ظلة ذرعها مئتان على أساطين رخام كانت للأكاسرة سماؤها كأسمية الكنائس الرومية وبني لسعد بحياله داراً بينهما طريق منقب مائتي ذراع وجعل فيها بيوت الأموال والذي بناه له فارسي كبناية الأكاسرة في الحيرة وجعل المناهج تخرج من أمام المسجد والشكل الذي وضعت عليه الكوفة ينبيء عن نظام جميل لم يحجب عن العرب هواء البادية لكثرة المناهج واتساعها.

وفي هذا العام نفسه بنيت الأبنية بالبصرة كما بنيت بالكوفة فهي وإن نزلها المسلمون سنة ١٣ من الهجرة لم يتم تخطيطها وتأسيسها إلا في السنة التي اختطت فيها الكوفة ومن هنا نشأ اختلاف الناس في الزمن الذي مصرت فيه.

وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن أربعة حلوان(١) وما سبذان وقرقيساء والموصل(٢) وأميرها سعد بن أبي وقاص وكانت البصرة ثغراً له أمير خاص يعينه أمير المؤمنين.

صارت الكوفة والبصرة من هذا التاريخ مركزين حربيين تفصل منهما الجنود لحرب ولكل منهما جنود خاصة.

فتح الجزيرة(٣):

فصلت من الكوفة ثلاث فصائل بأمر عمر إحداها يقودها سهيل بن عدي

---

(١) في أواخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد وكانت مدينة كبيرة عامرة.

(٢) مدينة على طرف دجلة ومقابلة من الجانب الشرقي نينوي وهي من المدائن الإسلامية الكبرى.

(٣) ما بين دجلة والفرات من جهة الشام يسمى جزيرة أقور تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن أمهات مدنها حران والرها والرقة ورأس عين ونصيبين وسجنار ووانخابور وعاردين وآمدوميا فارقين والموصل وغير ذلك.

لفتح الرقة والثانية يقودها عبد اللّه بن عتبان لفتح نصيبين والثالثة يقودها عقبة بن الوليد لإخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وأمر عمر إن كانت حرب أن يكون القائد العام عياض بن غنم وكان مقصد عمر من ذلك أن ذلك يكسر شوكة الروم الذين ساروا من الجزيرة قاصدين أبا عبيدة بحمص فلما توجه الجنود إلى كورهم تفرقوا كل إلى كورته فكان في ذلك تخفيفاً على جنود الشام.

فسار عياض حتى أتى الرها فصالحه أهلها على الجزية ثم حران فصالحت ثم فتحت نصيبين ثم أرمينية. أما عرب الجزيرة فانهم لما رأوا الطلب خفوا وتركوا أرضهم وأوغلوا في أرض الروم وبعد مراسلات بينهم وبين هؤلاء العرب قال المسلمون منهم لا تنفروا العرب بالخراج ولكن ضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء فانهم يغضبون من ذكر الجزاء فرضي عمر بذلك وبهذا قبل العرب أن يعودوا إلى بلادهم ويقيموا بها ما قبل منهم.

فتح الأهواز[١]:

كانت الأهواز تتاخم حدود البصرة وكان فيها الهرمزان وهو من سادات فارس وعظمائها وكان يغير على ما بيد المسلمين فأراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير له جنداً فاستمد سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمده فخرجت جنود البصرة وأمدادهم من أهل الكوفة فالتقت بالهرمزان بين ذت ونهر تيري فهزمته ودحرته حتى جاز شاطيء دجيل فصار شاطيء دجيل بين المسلمين والهرمزان.

ثم كاتبهم الهرمزان في الصلح فصالحوه على الأهواز كلها ومهرجان قذق[٢] ما عدا ما أخذوه عنوة وجعلوا مناذر ونهر تيري مسلحتين للبصرة فيها

---

(١) مجموع كور عدها ياقوت عشراً وهي سوق الأهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجندي بسابور وسوس وسرق ونهر تيري ومناذر.

(٢) كورة واسعة ذات مدن وقرى قرب الصيمرة من نواحي الجبال عن يمين القاصد من حلوان العراق إلى همذان في تلك الجبال.

الجنود مرابطون، ثم حصل بين رؤساء القوة المرابطة خلاف في حدود الأرضين وقد دعا ذلك الهرمزان إلى نقض الصلح والاستعانة بالأكراد فأبلغ عتبة أمير البصرة بذلك فأبلغ الأمر عمر فأمر بتسيير الجنود لحرب الهرمزان وأرسل لهم أمداداً فسارت الجنود إلى الهرمزان وحاربوه عند جسر سوق الأهواز وهزموه فتوجه إلى رامهرمز وبذلك اتسق للمسلمين جميع الأهواز إلى تستر فراسلهم الهرمزان في الصلح مرة ثانية فأجابوه إلى الصلح على ما لم يفتحوه عنوة وكان عمر يتخوف أن يكون هذا النقض من الهرمزان لمظلمة لحقت أهل الذمة فطلب من عتبة أن يرسل إليه وفداً فيه عشرة من وجهاء الكوفة فأرسل عشرة فيهم الأحنف بن قيس فلما قدم على عمر قال له إنك عندي لمصدق وقد رأيتك رجلا فأخبرني أن أظلمت الذمة المظلمة نفروا أم لغير ذلك؟ فقال الأحنف لا بل لغير مظلمة والناس على ما تحب قال فنعم إذاً. انصرفوا إلى رحالكم فانصرفوا وكتب إلى عتبة أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فانكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً.

غزو فارس من البحرين:

كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين لعمر وكان العلاء يباري سعد بن أبي وقاص فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل فلما ظفر سعد بالقادسية وأزاح الأكاسرة وأخذ حدود ما يلي السواد سر العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم يكون له به من الشهرة والسيادة ما لسعد فندب أهل البحرين إلى فارس فتسرعوا إلى ذلك وفرقهم أجناداً فحملهم في البحر بغير إذن عمر وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً. عبرت تلك الجنود فخرجوا في اصطخر[1] وبازائهم أهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم

---

(١) مدينة كبيرة لفارس وهي قاعدة كورة مسماة بهذا الاسم وكانت قصبة ملك فارس حتى تحول أزدهير إلى جور.

وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا أهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قد حيل بينهم وبين الرجوع إلى البحرين فوجدوا شهرك الفارسي قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا في موطنهم وامتنعوا.

بلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل إليه بعزله. أمره بأثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه إليه بتأمير سعد عليه وقال له الحق بسعد فيمن قبلك فخرج بمن معه نحو سعد. وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يسير جنداً لتخليص من أرسلهم العلاء فانتدب عتبة من يسير فأجابه جمع من ذوي النجدة فخرجوا في اثني عشر ألفاً وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم فساحل بالناس لا يلقاه أحد في طريقه حتى وافوا شهرك وهو آخذ على جنود البحرين طريقهم فقاتلوه وهزموه. وخلصوا إخوانهم وهذه هي الغزوة التي شرفت بها ثابتة البصرة وكانوا فضل ثوابت أمصار ثم انكفأوا بما أصابوه وذهب أهل البحرين عائدين إلى بلادهم من طريق البصرة.

ولما أحرز عتبة الأهواز وذلل فارس استأذن عمر في الحج فأذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن إلى عمله فانصرف فمات في بطن نخلة فدفن به وبلغ عمر خبره فمر به زائراً لقبره وقال أنا قتلتك لولا أنه أجل معلوم وكتاب مرقوم وأثني عليه بفضله وولي عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ.

فتح رامهرمز والسوس وتستر:

لم يزل يزدجرد يثير أهل فارس[١] وهو بمروف كتب إليهم يذكرهم الأحقاد ويؤنبهم على رضاهم بغلبة العرب على سوادهم فتحرك من مكاتباته

---

(١) فارس اسم لولاية وإقليم منيع أول حدودها من جهة العراق إرجان ومن جهة كرمان السرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف، ومن جهة السند مكران وأعظم مدنها شيراز وكورها المشهورة خمس: ١ ـ اصطخر. ٢ ـ أردشير. ٣ ـ دارابجرد. ٤ ـ سابور. ٥ ـ قباد خزة.

أهـل فارس والأهـواز وتعاقـدوا وتواثقـوا عـلى النصر. فكتب أمـراء الثغـور إلى عمر، فكتب إلى سعد أمير الكوفة يأمره أن يبعث إلى الأهواز جنـداً كثيفاً يقـوده النعمان بن مقرن وأرسل إلى أبي موسى الأشعـري وكان ولاه البصـرة بعد عـزل المغيرة أن يبعث جنداً إلى الأهـواز يقوده سهـل بن عدي وأمـير الجندين معـاً أبو سبرة بن أبي رهم ففصلت جنود الكـوفة مـع النعمان حتى إذا وصلت رامهـرمز وبهـا الهرمـزان خرج يقـاتلها فهـزم دونها فتـرك رامهـرمـز وألحق بتسـتر فـاحتـل النعمـان رامهرمـز ثم توجهت الجنـود إلى تستر وهنـاك تـوافقت جنـود المصـرين فحـاصـروا تسـتر أشهـراً وقتـل في الحصـار جمـاعـة من ذوي النجـدة وزاحفهم المشركون مـدة الحصار ثمـانين زحفـاً كانت الحـرب فيها سجـالا وفي آخر زحف هزمت الفرس حتى دخلوا خنـادقهم ثم احتال المسلمـون لدخـول المدينـة فدلـوا عـلى ثغرة فيهـا منها تـدخل الميـاه إلى البلد فمهدوا إلى ذلك المكان ومنـه هجموا على المدينة فدخلوها بعد جهاد عنيف فذهب الهـرمزان إلى القلعـة ولما رأى شـدة الأمـر عليه نـادى متبعيه وقـال أضع يـدي في أيديكم عـلى حكم عمر يصنـع بي كيف يشـاء قـالـوا فلك ذلـك واستـأسر لهم فملك المسلمـون بـذلـك تسـتر ثم أرسلوا الطلائع لأخذ ما أحـاط بها من البلدان وأرسـل أبو سبـرة وفداً إلى عمـر معهم الهـرمزان فلما وصلوا إلى المـدينـة دخلوا عـلى عمـر وهـو في المسجـد نـائم ودرتـه معلقة في يـده فقال الهـرمزان أين عمـر فقالـوا هـو ذا فقـال أين حـرسـه وحجابه قـالـوا ليس لـه حارس ولا حـاجب قال فينبغي أن يكـون نبياً قـالوا بـل يعمـل عمل الأنبيـاء فلما استيقظ عمر قـالوا لـه هذا ملك الأهـواز قال لـه عمر كيف رأيت وبـال الغدر وعـاقبة أمـر اللّه فقال يـا عمر إنـا وإياكم في الجـاهليـة كـأن اللّه قـد خـلي بيننـا وبينكم فغلبنـاكم إذ لم يكن معنـا ولا معكم فلما كـان معكم غلبتمونا فقال عمر إنما غلبتمونـا في الجاهليـة باجتمـاعكم وتفرقنـا ثم قال عمـر ما عـذرك في انتقاضـك مرة بعـد أخـرى فقـال أخـاف أن تقتلني قبـل أن أخبـرك قال لا تخف ذلـك واستسقى ماء فـأتى بـه في قـدح غليظ فقـال لـو مت عـطشاً لم أستـطع أن أشرب في مثـل هذا فـأتى به في إنـاء يـرضـاه فجعلت يـده ترتجف وقال إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب المـاء فقال عمـر لا بأس عليـك حتى

تشربه فأكفاه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن استأمن به فقال له عمر إني قاتلك قال قد أمنتني فقال عمر كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين أمنته قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع إلا لمسلم؛ فأسلم. ففرض له في العطاء على ألفين وأنزله المدينة.

ثم قال عمر للوفد: لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمورها لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكه قال فكيف هذا فقال له الأحنف يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا وأن ملك فارس حي بين أظهرهم وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان، فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وأن ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعن أمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر: صدقتني والله وشرحت لي الأمر عن حقه ثم قدمت الكتب على عمر فاجتماع نهاوند: فكان ذلك مما جعل عمر يأذن بالانسياح.

فتح نهاوند[1]:

اجتمع بنهاوند من جنود الفرس من كل أنحائها جمعهم يزدجرد يريد إعادة الكرة بهم لاستعادة ملكه ونهاوند من بلاد الجبل[2] جنوبي همذان فكتب عمر إلى النعمان بن مقرن يوليه محاربة المجتمعين بها وحشد إليه الجنود من البصرة والكوفة فلما وصلت إليها الجنود رأوا بها جمعاً عظيماً متحصناً في حصون

(١) مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام ١٤ فرسخاً وهي أعتق مدينة في الجبل.

(٢) بلاد الجبل علم على ما يسميه العجم ببلاد العراق وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمدان والدنيور وقرميسين والري وما بين ذلك من البلاد الجلية والكور العظيمة قال ياقوت وتسمية هذا الجزء بالعراق غلط.

قوية ولا يخرجون إلا إذا شاءوا. فلما طال عليهم المطال جمع النعمان رجال النجدة والرأي في الحروب ممن معه وقال لهم قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن وأنهم لا يخرجون إلا أن يشاءوا وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه فما الرأي فتكلم عمرو بن نبي وكان أكبر الناس يومئذ سناً وكانوا إنما يتكلمون على الأسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تحرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم فرد رأيه وتكلم عمرو بن معد يكرب مشيراً بمناهدتهم فقالوا إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا وتكلم طليحة الأسدي فقال أرى أن تبعث خيلا تحدث بهم ثم يرمونهم لينشبوا القتال ويحمسوهم فإذا استحمسوا واختمطوا بهم وأرادوا الخروج برزوا إلينا استطراداً فاننا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم إنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكوا فيها فخرجوا فحادونا وجاددناهم حتى يقضي اللّه فيهم وفينا ما أحب فقبل منه رأيه وأمر النعمان القعقاع أن ينشب القتال ففعل وتم ذلك الترتيب الحربي المتفق عليه فخرجت الفرس يتبعونه وحينذاك أمر النعمان بالهجوم فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديداً وفي أثناء الموقعة قتل النعمان رئيس الجند فأخفوا موته واستلم الراية خليفته من بعده حذيفة بن اليمان ولم يأت آخر النهار حتى تمت الهزيمة على الفرس واتبعت فصائل عليها القعقاع الفل إلى همذان فدخلها المسلمون وملكوها وحينئذ جاءهم رؤساء البلاد من الفرس وصالحوهم على همذان. أما نهاوند فان المسلمين دخولها عقب الهزيمة واحتووا ما حولها، وكانوا يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن بعده كبير حرب ولما جاء البريد إلى عمر بالفتح وباستشهاد النعمان بكى عليه بكاء شديداً.

وبعد انتهاء هذه الموقعة أذن عمر بالانسياح في بلاد الفرس كما أشار عليه بذلك الأحنف بن قيس فعين رؤساء الجنود التي تذهب لافتتاح البلاد وأرسل بالألوية إلى أصحابها وهم:

(١) الأحنف بن قيس التميمي ووجه إلى خراسان (٢) مجاشع بن

مسعود السلمي ووجه إلى أردشير حرة وسابور (٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجه إلى اصطخر (٤) سارية بن زنيم الكناني ووجه إلى فساودرا بجرد (٥) سهيل بن عدي ووجه إلى كرامان (٦) عاصم بن عمرو ووجه إلى سجستان (٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجه إلى مكران فاستعدت الجنود للخروج إلى أوجهها مفتتح سنة ١٨ هـ.

فتح أصبهان[1]:

سار عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بجنده نحو أصبهان وقاعدتها جي والملك بها الفاذوسفان فلما التقت الفئتان قال الفاذوسفان لعبد اللّه لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فان قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي وإن كان أصحابي لا يقطع لهم نشابة فبرز له عبد اللّه وقال إما أن تحمل علي وإما أن أحمل عليك فقال أحمل فوقف له عبد اللّه وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام وزال اللبد والسرج وعبد اللّه على الفرس فوقع عبد اللّه قائماً ثم استوى على الفرس عريا وقال له اثبت فقال الفاذوسفان ما أحب أن أقاتلك فقد رأيتك رجلا كاملا ولكن أرجع معك الى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجري من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون من أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه قال لكم ذلك فرضي أهل جي بالصلح إلا ثلاثين رجلا منهم خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان في حاشيتهم لجمع كان بها ودخل المسلمون جي واغتبط من الفرس من أقام وندم من شخص ثم استخلف عبد اللّه بجي خليفة له وسار حسب أمر عمر إلى كرمان لمساعدة سهيل بن عدي.

---

(١) إقليم من نواحي الجبل كان قاعدته حياً ثم صارت اليهودية.

فتح أذربيجان[١]:

بينا نعيم بن مقرن في همذان إذ بلغه تجمع الفرس واحتشادهم في واج الروذبين همذان وقلعة نهاوند فسار إليهم وهزمهم هزيمة منكرة.

فتح الري[٢]:

بعد أن انتهى نعيم من واج الروذسار إلى الري فصالحه أهلها بعد أن قهرهم وكان المصالح عنهم رأسهم الزينبي بن قولة وكتب لهم كتاب صلح ثم وجه أخاه سويد بن مقرن إلى قرمس فسار إليها وأخذها سلماً ومن هناك كاتبه ملك جرجان[٣] بالصلح فصالحه وكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان.

فتح الباب[٤]:

كان قائد الجيش الذي وجه إلى الباب سراقة بن عمرو وعلى مقدمته عبد الرحمن ابن ربيعة فلما أطال عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهريراز مستأمناً ليأتيه فأمنه عبد الرحمن فجاءه الملك وقال له إني بازاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب ولا ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان ولست من القبح في شيء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصفوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية

---

(١) صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقاً إلى أرزنجان مغرباً ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة.

(٢) قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخاً وإلى قزوين ٢٧ فرسخاً وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال في النسب إليها رازي.

(٣) مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

(٤) مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر الخزر) وهي ثغر عظيم.

فتوهنونا لعدوكم فقال عبد الرحمن. فوقي رجل قد أظلك فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة فلقيه بمثل ما كلم عبد الرحمن فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا ما دام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفر فتوضع عنهم جزاء تلك السنة وكتب بذلك سراقة إلى عمر فأجازه وحسنه وكان في كتاب صلحهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وأن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر والحشر عوض من جزائهم ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما علي أهل أذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملا فان حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به ـ وهذه سنة حسنة في عهد عمر بن الخطاب فليست الاستعانة بالمخالفين في الدين من أهل الشرك ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة.

فتح خراسان(١):

كان يزدجرد قد سار إلى خراسان فأقام بمرو ونقل نار فارس إليها واطمأن في نفسه وأمن أن يؤتي وكاتب من مرو من بقي من الأعاجم فيما لم يفتحه المسلمون فدانوا له فوجه إليه الأحنف بن قيس فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة ثم سار نحو مرو الشاهجان فخرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ وكتب إلى خاقان ملك الترك يستمده وإلى ملك الصغد وملك الصين أما الأحنف فاتجه إلى مرو الروذ حتى إذا بلغ ذلك يزدجرد سار عنها إلى بلغ فنزل الأحنف على مرو ووجه فصيلة من الجند نحو بلخ وتبعهم الأحنف حتى إذا التقى الجندان انهزم يزدجرد وعبر بمن معه في أهل فارس فعاد الأحنف إلى مرو فنزلها وكهب إليه عمر ينهاه عن عبور النهر وأن يقتصر على ما بيده. ولما عبر يزدجرد النهر أتته جنود مدداً من ملوك الترك والصغد

(١) بلاد واسعة في شرق البلاد الفارسية وقصبتها مرو وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان وسرخس وغير ذلك من المدن التي دونها نهر جيحون.

فعاد بهم يريد أخذ مرو من الأحنف فخرج إليه الأحنف لما أحس به فلم يكن من الترك كبير حرب بل عادوا إلى بلادهم تاركين يزدجرد. ولما رأى ذلك ترك البلاد ثانية وعبر النهر أما أهل خراسان فإنهم تعاقدوا مع الأحنف وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا زمن الأكاسرة فكانوا كأنما هم في ملكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل فاغتبطوا.

فتح أهل البصرة:

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد توج فتحها سارية بن زنيم الدؤلي ثم فتح فسا ودارابجرد وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر. وفتح سهيل بن عدي كرمان وفتح عاصم بن عمرو سجستان، وفتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران.

ومما يستظرف من الأخبار حديث قيس بن سلمة الأشجعي فان عمر ادة جيش لمقاتلة الأكراد فسار إليهم وهزمهم ولما قسم عليهم النفل رأى ن حلية فقال إن هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب أنفسكم أن نبعث به أمير المؤمنين فان له برداً ومؤنة؛ قالوا: نعم قد طابت أنفسنا فجعل تلك الحلية في سفط ثم بعث برجل من قومه ليوصل ذلك إلى عمر قال الرسول فأتيت المدينة، فإذا عمر يغدي الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعي وهو يدور على القصاع فلما دفعت إليه قال اجلس؛ فجلست في أدنى الناس فإذا طعام فيه خوشنة طعامي الذي معي أطيب منه فلما فرغ الناس قال يا يرفأ ارفع قصاعك. ثم أدبر فاتبعته فدخل داراً، ثم دخل حجرة، فاستأذنت وسلمت فأذن لي فدخلت عليه، فإذا هو جالس على مسح، متكيء على وسادتين من أدم محشوتين ليفا فنبذ إلي باحداهما فجلست عليها، وإذا بهو في صفة فيها بيت عليه ستير فقال يا أم كلثوم، غداءنا فأخرجت إليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق؛ فقال يا أم كلثوم ألا تخرجين إلينا تأكلين معنا من هذا، فقالت: إني أسمع عندك حس رجل، قال: نعم، ولا أراه من أهل البلد، قالت لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر

امرأته، وكما كسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأتـه، قال: أوما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر، ثم قال: كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا، قال: فاكلت قليلا وطعامي الذي معي أطيب منه وأكل فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه، ثم قال: اسقونا؛ فجاءوا بعس من سلت، فقال أعط الرجل، قال فشربت قليلا، ثم أخذه فشرب حتى قرع القدح جبهته، فقلت: حاجتي يا أمير المؤمنين أنا رسول سلمة بن قيس، قال مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله؛ حدثني عن المهاجرين كيف هم، قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم، قال كيف اللحم فيهم فانها شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها، قلت البقرة بكذا والشاة بكذا، ثم أدى إليه رسالته وأخبره خبر الحلية التي اختصه بها سلمة، فلما نظر إلى فصوصها وثب، ثم جعل يده في خاصرته ثم قال: لا أشبع الله إذا بطن عمر، ثم قال ما جئت به أما والله لئن تفرق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم؛ لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة، قال: فارتحلت حتى أتيت سلمة، فقلت ما بارك الله فيما اختصصتني به اقسم هذا في الناس قبل أن يصيبني وإياك فاقرة فقسمه فيهم.

ولست في حاجة إلى أن أنبهكم إلى ما يؤخذ من هذه الحادثة فهي تبين لكم كيف كانت المرأة فيهم فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى في بيت أمير المؤمنين، وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها كما يتكلم أعظم الرجال نفساً، ثم تبين كيف كان عمر يتنزه عن أموال المسلمين فهذه الحلية شيء قد طابت به أنفسهم، ومع ذلك لم يرض إلا أن يردها عليهم فكيف لا تكون قلوبهم بين يديه يصرفها كيف شاء وكيف أحب.

وإلى هنا انتهى ما نريد قصه عليكم من أمر الفرس وسقوط مملكتها نهائياً بين أيدي المسلمين، فقد صار إليهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات ومن الشرق نهر جيحون والسند ومن الجنوب البحر الهندي ومن الشمال بلاد أرمينية كل ذلك في زمن لم يتجاوز سبع سنين كان النصر لهم في

جميع المواقع التي زاحفوا فيهـا أعداءهم وكـان لهم اسم جميل عنـد عامـة الفرس عـرفوا بـالوفـاء فانهم لم يكـونوا يتهـاونون في أمـره، كما كـان يـوصيهم خليفتهم دائـماً، وعرفـوا بالعـدل في حكمهم حتى شهد لهم بـذلـك أهـل ذمتهم كبيـرهم وصغيـرهم الملك منهم والسـوقـة، وسنفيض القـول فيـما كـان لهم من الأخـلاق والمدنية في عهد عمر عند الفراغ مما كان في أرض الروم.

الفتوح في بلاد الروم
فتح حمص ـ فتح بيت المقدس

الفتوح في بلاد الروم:

كانت واقعة اليرموك في أول خلافة عمر، في أثنائها جاء الخبر بموت أبي بكر واستخلاف عمر وتولية أبي عبيدة إمرة الجيش كله والقواد كلهم تحت إمرته. وبعد أن انتهت الموقعة سار الجنود نحو فحل[1] من أرض الأردن وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد. وهنا التقت الفئتان فانهزم الروم ودخل المسلمون فحل وسار الروم إلى دمشق فكانت فحل في ذي القعدة سنة ١٣ على ستة أشهر من خلافة عمر. ثم ساروا إلى دمشق[2] وخالد على المقدمة فحصروها ونزلوا حواليها فكان أبو عبيدة على الناس فأخذوا مواقعهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل إلا أنيم ولما شاهد خالد على من يليه وبلغ منهم ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصاراً بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ولما أيقنوا أن الأمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعاً بهم وكان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يخفي عليه شيء من أمر العدو وعيونه زاكية وهو معنى بما يليه فاتخذ

---

(١) من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين.

(٢) بلد عظيم هو قصبة الشام صارت حاضرة البلاد الإسلامية في عهد الدولة الأموية.

حبالا كهيئة السلاليم وأوهاقا فبلغه ذات ليلة أن الناس غافلون في فرح لعظيمهم فنهد بمن معه من الرؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع ابن عمرو وأمثاله وقال للجند إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا الباب فلما انتهى إلى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون، رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها خندقهم، فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيها القعقاع ورجل آخر ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها والأوهاق بالشرف وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق أكثره ماء وأشده مدخل وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقي أو دنا من الباب حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير، فكبر الذين على السور، فنهد المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبل بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد إلى من يليه فأنامهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع سائر الذي أراد عنوة أزر من أفلت إلى الأبواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم يفاجئهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا وانتهابا وهذا صلحا وتسكينا فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً وكان صلحها على المقاسمة وصارت دمشق وما أحاط بها للمسلمين صلحاً وبعد أن تم أمرها جاء كتاب عمر لأبي عبيدة بصرف أصحاب خالد إلى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم ابن عتبة وأبقى خالداً معه ضناً به.

الواقعة بمرج الروم:

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وفـ[illegible]ـمع بها قائدان من قواد الروم توذر البطريق وشنس، فوقف الجندان متقابلين، وفي الصباح رأوا الأرض خلوا من توذر ومن معه، فتحسسوا الخبر فعلموا أن توذر

أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً أن يتبعه وقد بلغ يزيد بن أبي سفيان وهو بدمشق قدوم تـوذر فخرج إليه محاربا وبينما هما يتحاربان قدم خالد فأصاب الروم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيد إلى دمشق وعاد خالد إلى أبي عبيدة فلحقه بعد أن انتهى من هزيمة جند شنس إلى حمص.

فتح حمص[١]

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم إلى حمص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد ولما رأوا أنه لم يصيبهم شيءتراجعوا إلى الصلح فصولحوا على مثل صلح أهل دمشق.

ثم أرسل خالدا إلى قنسرين فلما نزل بالحاضر[٢] زحف إليهم الروم وعليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل ميناس ولم يفلت من الروم أحد أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم. ولما بلغ عمر ذلك قال أمر خالد نفسه يرحم اللّه أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني وقال في حقه هو والمثنى بن حارثة إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم لو كنت في السحاب لحملنا اللّه إليكم أو لأنزلكم إلينا فنظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص ثم فتحت قيسارية[٣] على يد معاوية بن أبي سفيان وفتحت أجنادين[٤] على يد عمرو بن

---

(١) بلد قديم في شمال دمشق بينها وبين حلب في نصف الطريق.

(٢) مكان بالقرب من حلب يدعى حاضر حلب كان يجمع أصنافاً من العرب.

(٣) بلدة على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام وكانت قديماً من أمهات المدن.

(٤) من نواحي فلسطين من كورة بيت جبريل.

العاص وكان بها أرطبون وهو أدهى الروم وأبعدها غورا وأنكاها فعلا ولما بلغ عمر بن الخطاب قال قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج أقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه هو رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال أرطبون في نفسه والله إن هذا لعمرو أو إنه للذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرسياً فساره بقتله فقال اخرج فقم مكان كذا وكذا فاذا مر بك فاقتله وفطن له عمرو فقال قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن فان رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير وإن لم تروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك فقال نعم ودعا رجلا فساره وقال اذهب إلى فلان ورده إلى فرجع إليه الرجل وقال لعمرو اذهب فجيء بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومي بأنه قد خدعه فقال خدعني الرجل هذا أدهى الخلق[1] ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديدا كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم إن أرطبون انهزم من الناس فآوى إلى إيليا ونزل عمرو أجنادين.

فتح بيت المقدس:

كانت إيلياء عاصمة الدين ففيها البيت المقدس وأخدام الدين وكان المتولي لأمر حربهم عمرو بن العاص لأنه ولي فلسطين وإيلياء حاضرتها الكبرى، ولما طال على أهلها الحصار رغبوا في الصلح على شرط أن يكون المتولي لعقده عمر بن الخطاب فكتب إليه عمرو بذلك فسار إلى الشام وهي أول خرجة خرجها وكتب إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم

---

(١) مثل هذه الحكاية بعيدة التصديق وإلا كانت دليلاً على بلاهة فاعلها ولا يتصور أن قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطر تاركاً جنده من غير راع لهم خصوصاً إذا كان ذلك القائد عمرو بن العاص.

ويقابلوا بالجابية فلقوه بها فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال: سرع ما لفتم عن رأيكم إياي تستقبلون في هذا الزي! وإنما شبعتم منذ سنتين سرع ما ندت بكم البطنة، وتاللّه لو فعلتموها على رأس المئتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا يا أمير المؤمنين إنها بلا مقة وإن علينا السلاح قال فنعم إذاً وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشر حبيل لم يتحركا عن مقامهما وهناك جاءته رسل أهل إيلياء يطلبون السلام فسالمهم وكتب لهم كتابا هذا نصه « بسم اللّه الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبد اللّه عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية؛ ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللّه وذمة رسوله وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ وبعد أن أعطاهم الأمان شخص إلى بيت المقدس وصار حتى دخل كنيسة القيامة وحان وقت الصلاة فقال للبترك أريد الصلاة فقال له: صل موضعك فامتنع وصلى على الدرجة التي على باب الكنيسة منفرداً فلما قضى صلاته قال للبترك لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدي وقالوا هنا صلى عمر، وكتب لهم أن لا

يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرني موضعا أبني فيه مسجداً فقال على الصخرة التي كلم اللّٰه عليها يعقوب فوجد عليها ردما كثيرا فشرع في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد ثم ولى أمراء الشام بعد أن قسمها أقساما وجعل فلسطين ولايتين: إحداهما الرملة، والأخرى قصبتها إيلياء. ومما يزيد المسلم شرفا تلك المعاملة الباهرة التي عامل بها سلفه مغلوبهم من الوفاء والعدل فاذا قارن ذلك بما أصيب به أهل إيلياء حينما فتحت على أيدي الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين.

وفي سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثانية وخرج معه المهاجرون والأنصار فسار حتى إذا نزل بسرغ[١] لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان بالشام طاعون فقال عمر لابن عباس اجمع إلى المهاجرين الأولين قال فجمعتهم له فاستشارهم فاختلفوا فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه اللّٰه وما عنده ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ومنهم القائل إنه لبلاء وفناء نرى أن نقوم عليه فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني. ثم قال لابن عباس اجمع مهاجرة الأنصار فجمعهم له فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني ثم قال قوموا عني ثم قال اجمع لي مهاجرة الفتح من قريش فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فانه بلاء وفناء فقال عمر: يا ابن عباس اصرخ في الناس فقل إن أمير المؤمنين يقول لكم إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، فلما اجتمعوا قال أيها الناس إني راجع فارجعوا فقال أبو عبيدة بن الجراح أفرارا من قدر اللّٰه! قال فرارا من قدر اللّٰه إلى قدر اللّٰه؛ أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر اللّٰه ويرعى من رعى الخصبة بقدر اللّٰه لو غيرك يقود هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك إذ أتى عبد

(١) أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام.

الـرحمن بن عوف وكـان متخلفاً عن النـاس لم يشهدهم بـالأمس فلما أخبر الخبـر قال عندي من هذا علم قال عمر فأنت عندنا الأمـين المصدق فمـاذا عندك قـال سمعت رسـول اللَّه ﷺ يقول: إذا سمعتم بهـذا الوبـا الوبـاء ببلد فلا تقـدمـوا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فـراراً منه لا يخـرجنكم إلا ذلك. فقـال عمر فاللَّه الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم.

وأعقب انصرافه حصول الطاعون الشديد المسمى طاعون عمواس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ ابن جبل بن أبي سفيان والحـارث بن هشام وسهيـل بن عمرو وعتبـة بـن سهيل وأشـراف الناس ولم يـرتفـع عنهم الـوبـاء إلا بعـد أن وليهم عمـرو بن العـاص فخطب الناس وقال لهم أيها الناس إن هذا الوجع وقع فإنما يشتعل اشتعـال النار فتجنبوا منه في الجبال فخرج وخرج الناس فتفرقوا حتى رفعه اللَّه عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه.

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير إلى الشام لينظر في أمر الناس بعـد هذا المصاب فسار حتى أتى الشام فنظر في أمور الناس وولى الولاة وورث الأحياء من الأموات ثم خطبهم خطبة قـال فيها «وإني وليت عليكم وقضيت الـذي علي في الـذي ولاني اللَّه من أمركم. إلى أن قـال: فمن علم علم شيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء اللَّه ولا قوة إلا باللَّه» وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فما بقي أحد كان أدرك رسول اللَّه ﷺ وبـلال يؤذن له إلا بكى حتى بل لحيته وعمر أشدهم بكاء وبكى من لم يـدرك ببكائهم لـذكره ﷺ ثم رجع عمر إلى المدينة.

وفي عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر على يـد القائـد العظيم عمـرو بن العاص السهمي. ولما كـان لتاريـخ مصر نصيب خاص في محـاضراتنـا أحببنا أن نرجىء تفاصيـل فتحها إلى الـوقت الذي نتكلم فيـه عن تاريخهـا ليكون الكـلام نسقا.

هذا ما كان من الفتوح في عهد عمر بن الخطاب في مدة لا تزيد عن عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما وفتح من بلاد الروم جزءاعظيماً وهو بلاد الشام وأديرت البلاد على مقتضى العدل الإسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين لأنه قد أزال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة.

ولما كانت حياة عمر ممتازة بما كان فيها مما جعل بعد أساساً عظيما لكثير من المدينة الاسلامية أحببنا أن نورد عليكم منها جملا لتعلموا مقدار هذا الرجل العظيم الذي ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من الناس، متأسياً في ذلك برسول الله ﷺ وسلفه أبي بكر **الصديق**.

المحاضرة الخامسة والعشرون

القضاء ـ سيرة عمر في عمله
معاملة عمر للرعية ـ عفته عن مال المسلمين
ميله للاستشارة وقبول النصح
رأى عممر في الاجتماعات ـ وصفته وبيته

القضاء:

عمر أول خليفة عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الأمراء فعين للكوفة شريح بن الحارث الكندي وكان من كبار التابعين وقد أقام قاضيا بها ٥٧ سنة لم يعطل فيها إلا ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير ولما ولى الحجاج استعفاه فأعفاه. ومن طرفه في القضاء أن عدي بن أرطأة دخل عليه فقال إني رجل من أهل الشام قال من مكان سحيق قال تزوجت عنكم قال بالرفاء والبنبن قال أردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله قال وشرطت لها دارها قال الشرط أملك قال فاحكم بيننا، قال قد حكمت وهو الذي قال: حين تزوج رجل امرأة من بني تميم ثم نقم عليها شيئا فضربها:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم ... فشلت يميني يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتتْ به ... فما العدل مني ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب ... إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا

توفي سنة ٨٧ هـ.

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبي العاص السهمي حسبما جاء بكتاب القضاة الذين ولوا مصر فهو أول قاض قضى بها في الإسلام.

وولى أبا الدرداء المدينة وهو من الصحابة: ومن أعرف من ولاهم أبو

موسى الأشعري ولما كان العهد الذي ولاه به مما يبين لنا شيئا من نظام القضاء وأصوله أحببنا إيراده ودونكموه.

بسم اللّه الرحمن الرحيم من عبد اللّه عمر أمير المؤمنين إلى عبد اللّه بن قيس سلام عليك أما بعد فان القضاء فريضة[(١)] محكمة وسنة متبعة فافهم[(٢)] إذا أدلى إليك فانه ينفع تكلم بحق لانفاذ له: آس[(٣)] بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح[(٤)] جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا لا يمنعك[(٥)] قضاء اليوم فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل: الفهم الفهم[(٦)] فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والامثال فقس الأمور عند

---

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادة التي يقضي بها وهي لا تعدو ما حده اللّه وهذا ما أشار إليه بالفريضة المحكمة وما بينه رسول اللّه وسار عليه وهو ما أشار إليه بالسنة المتبعة.

(٢) يريد أن من يدلي بحجته مهما يكن مصيباً بليغاً فإن كلامه لا ينفعه إذا لم يكن لكلامه نفاذ إلى قلب القاضي وذلك لا يكون إلا بالتنبيه لما يقال من الخصوم.

(٣) هذا أساس المساواة التي جاء بها الدين ولا احترام للقضاء بدونها فإن القاضي إذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فشت القالة فيه وإن نجا من مغبتها اليوم فإنه ليس بناج غداً.

(٤) تكاد تتفق القوانين على أن كل صلح يخالف فيه القانون العام لا قيمة له لأن الخصم إذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف فيه بما شاء فإنه لا يملك حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام مصلحة الجمهور.

(٥) يريد بذلك أن القاضي لا يتقيد بما فهمه من النصوص فحكم به في قضيته فإذا ظهر له وجه الخطأ كان عليه أن يحكم بما تجدد من التفسير فيما يشابهها من القضايا وإنما كان هذا مراده لأن عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم في حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال ذاك ما قضينا وهذه على نقضي.

(٦) يريد بذلك بيان أصل ثالث للأحكام وهو القياس وهو أن يلحق ما لم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما في السبب الذي من أجله شرع الحكم ومن ذلك يكون أوجب الواجبات على القاضي أن يكون عارفاً بأسرار التشريع حتى يمكنه هذا الإلحاق ومن ذلك ينتج اشتراط أن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره في تفسير أو تأويل.

ذلك واعمد إلى أقربها إلى اللّه وأشبهها بالحق واجعل[1] لمن ادعى حقاً غائبا أمداً ينتهي إليه فان أحضر بينة وإلا استحللت عليه القضية فانه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون[2] عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب فان اللّه تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان وإياك[3] والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم اللّه به الأجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه اللّه ما بينه وبين الناس وما تخلق للناس بما يعلم اللّه أنه ليس من نفسه شأنه اللّه فما ظنك بثواب غير اللّه في عاجل رزقه وخزاين رحمته، والسلام.

وهذا الكتاب اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظاماتهم القضائية وهو جدير بذلك.

بالطبع لم يكن القضاء في زمنهم إلا سهلا مجرداً عن النظامات الوضعية وكان للقاضي الكلمة العليا في قضاياه أعني أنه مستقل تمام الاستقلال في قضايه لا يمنعه شيء أن يحضر إلى مجلسه الأمير فمن دونه.

سيرة عمر في عماله:

كان عمر ممن يشتري رضا العامة بمصلحة الأمراء فكان الوالي في نظره

---

(١) يشير بذلك إلى جواز التأجيل إذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب معقول والذي ذكره من الأسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه.

(٢) يشير بذلك إلى أصل عام وهو أن الأصل في الناس العدالة فتقبل شهادة بعضهم على بعض إلا إذا عرض ما يفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة أشياء الأول الجلد في الحد ويظهر أنه يريد بذلك حد القذف لأن اللّه يقول ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾[1] الثاني المجرب عليه شهادة الزور الثالث الظنين في الولاء أو النسب وهو الرجل يكون له موال فيتولى غيرهم أو يكون لهم نسب في قبيلته فينتسب إلى غيرها وكان هذا جالباً للعار ولعله يكون في زمننا كذلك.

(٣) يشير بذلك إلى ما يجب على القاضي من الأناة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لرثاثتهم أو ارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل إنسان حريته في الدفاع عن نفسه.

فرداً من الأفراد يجري حكم العدل عليه كما يجري على غيره من سائر الناس فكان حب المساواة بين الناس لا يعدله شيء من أخلاقه إذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوي بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قبل العامل اقتصَّ منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما يقتضي به الشريعة أو عزله.

وسواس الأمم على اختلاف في ذلك فمنهم من لم ير القصاص من العمال يرى ذلك أهيب لمقام العامل في نظر الرعية وربما استحسن ذلك في عهد الاضطرابات التي يراد تسكينها بشيء من الرعب يقذف في قلوب العامة وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولعل ذلك لما كان في عهده من الإضطراب في الجزيرة العربية أما عمر فكان على غير ذلك الرأي لأن المصلحة العامة عنده كانت فوق كل شيء والأمر قد استقر فلم يكن هناك ما يدعو إلى مراعاة هذه السياسة.

كان إذا بعث عاملا على عمل يقوم اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم من ظلمة أميره فلا إمرة عليه دوني. وخطب الناس يوم جمعة فقال اللهم أشهدك على أمراء الأمصار أني بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن يقسموا بينهم فيأهم وأن يعدلوا فان أشكل عليهم شيء رفعوه لي. وكان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول: إني لم أستعملكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم ولا على أبشارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم الحق وتقسموا بينهم بالعدل وإني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمهروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد ﷺ وأنا شريككم وخطب مرة فقال أيها الناس إني والله ما أرسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا يأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه. فوثب عمر بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء

المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه قال أي والذي نفس عمر بيده إذاً لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول اللّه يقص من نفسه ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمهروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياص فتضيعوهم. وكان للوصول إلى ما يريد من عماله يأمرهم أن يوافوه كل سنة في الموسم: موسم الحج ومن كانت له شكوى أو مظلمة هناك فليرفعها وإذ ذاك يحقق عمر بعد أن يجمع بين الاثنين حتى ترد إلى المظلوم ظلامته إن كانت وكان العمال يخافون أن يفتضحوا على رؤوس الأشهاد في موسم الحج فكانوا يبتعدون عن ظلم أي إنسان.

وقد استحضر عمر اليه كثيراً من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكاية قدمت اليه من بعض الأفراد فقد استحضر سعد بن أبي وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن وممصر الكوفة وكان الذي شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة فجمع بينه وبينهم فوجده بريئا. واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة والمغيرة من الصحابة ومن ذوي الأثر الصالح في الفتوح الإسلامية وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه أليه ذلك الكتاب الموجز الذي جمع في كلمه القليلة أن عزل وعاتب واستحث وأمر (أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميرا فسلم ما في يدك والعجل العجل) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذي فرضه اللّه لمثلهم. وشكى إليه عمار بن ياسر وكان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الأولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمير ولا يحتمل ما هو فيه فأمره أن يقدم عليه من وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة وقال قائل منهم إنه لا يدري علام استعمل فاختبره عمر في ذلك اختبارا يدل على سعة علم عمر بتلك البلاد فلم يحسن الإجابة في بعضه فعزله عنهم ثم دعاه بعد ذلك فقال أساءك حين عزلتك فقال واللّه ما فرحت به حين بعثتني وقد ساءني حين عزلتني فقال لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكنني قوله تعالى

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (١).

ولم يمض عامل زمن عمر موثوقاً به من عمر في كل أيامه إلا القليلين وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح.

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال فيرسله إلى كل شكوى ليحققها في البلد الذي حصلت فيه، وكان ذلك العمل موجهاً إلى محمد بن مسلمة الذي كان يثق عمر ثقة تامة وكان محلا لتلك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقاً سريا وإنما كان يسأل من يريد سؤاله علناً وعلى ملأ من الاشهاد ولم يكن هناك محل للتأثير في أنفس الشهود لأن يد عمر كانت قوية جدا وكان لكل إنسان الحق أن يرفع إليه شكواه مباشرة فقد 'د الناس من الحربة كثيراً.

وقد شاطر عمر بعض العمال ما في أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم مصدرها ولم يفعل هذا الفعل إلا قليلا وربما وجد هذا العمل مجالا للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ولكن عمر كان يعرف من عماله من يستحق أن تقع به تلك العقوبة إذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها: لم ير عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك ولست أريد أن أحسن هذه الطريقة. ولى عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم معه بمال فقال عمر ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي واتجرت فيه قال ومالك تخرج هذا المال معك في هذا الوجه فصيره في بيت المال. وكانت التجارة هي التكأة التي يتكيء عليها بعض العمال في ثروتهم وكان عمر يمنعهم عن التجارة منعاً باتاً، وعلى الجملة فشدة عمر على عماله رفهت الرعية.

---

(١) سورة القصص: الآية ٥.

معاملته للرعية:

على قدر ما كان عليه عمر من الشدة على عماله كانت رقته ورأفته على عامة الناس من رعيته والاهتمام بما يصلحهم ويحس من ذلك بمسئولية عظمى فكان يقول لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب وقال هشام الكعبي رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديد فنأتيه بقديد فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضاً حتى توفي قال الحسن البصري قال عمر لئن عشت لأسيرن في الرعية حولا فاني أعلم أن الناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها إلي وأما هم فلا يصلون إلى فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم عدد الأمصار الكبرى يقيم في كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) وروى أسلم قال خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث فقال يا أسلم إني أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) قالت المرأة وعليك السلام فقال أدنو قالت ادن بخير أو دع فقال ما بالكم قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبيان يتضاغون قالت الجوع قال وأي شيء في هذا القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر فقال أي رحمك الله ما يدري عمر بكم قالت يتولى أمورنا ويغفل عنا فأقبل علي فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم فقال احمله علي قلت أنا أحمله عنك قال احمله علي (مرتين أو ثلاثا) كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال في آخر ذلك: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذري علَيَّ وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته

حتى أنضج وأدم القدر وقال ابغني شيئا فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا، ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول جزاك اللّٰه خيراً إنكم أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولي خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول إن لك لشأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد اللّٰه ثم أقبل عليَّ فقال يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم.

ومثل هذه الحوادث على صغرها تدل عن روح الرجل وشفقته وخوفه أن يكون مقصراً بحق من ولي عليهم من الرعية.

خطب مرة فقال أيها الناس إني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقول عليكم وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهما محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان، فان عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه اللّٰه عز وجل برحمته وعونه وتأييده، لم يكن عمر يستعمل في تأديب الناس إلا درته وهي عصا صغيرة كالمخصرة كانت دائماً في يده أنى سار وكان الناس يهابونها أكثر مما يخيفهم السيوف القاطعة.

روى الطبري عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال امط الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال يا سلمة أتريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال وأنا ما نسيتها. فعمر كان مؤدباً حكيماً ولعل درته لم يسلم من خفقها إلا القلائل من كبار الصحابة.

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين

الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه فعلاه عمر بالدرة وقال إنك أقبلت لا تهاب سلطان اللّه في الأرض فأحببت أن أعلمك أن سلطان اللّه لا يهابك والذي أغضب عمر منه هو مزاحمته الناس، وعمر كما تعلمون يعشق المساواة لا يرى منها بديلا.

كانت الرعية ـ مع هذا تهابه مهابة شديدة، روى أسلم أن نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فانه أخشانا حتى واللّه ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا وقال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر فقال أو قد قالوا ذلك واللّه لقد لنت لهم حتى تخوفت اللّه في ذلك ولقد اشتدت عليهم حتى خشيت اللّه، وأيم اللّه لأنا أشد منهم فرقا منهم مني.

عفته عن مال المسلمين:

كان يحبب عمر إلى الناس عدله وتسويته ويزيده إليهم حباً عفته وأمانته فقد كان يرى مال المسلمين مرتعاً وخيما لمن رتع فيه حتى أنه كان يفتر على نفسه تقتيراً ربما وجد مساغاً لاعتراض قصار النظر. كان عمر يرى أنه لا ينبغي أن يأكل إلا بما يأكل منه أقل رعيته لا يتجاوز ذلك إلى ما فوقه. كان يأخذ عطاءه من بيت المال ثم يحتاج فيقترض من أمين بيت المال فاذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده ما يسدد منه احتال له حتى إذا أخذ عطاءه سدد منه ولما رأى بعض الصحابة ما يعانيه عمر من الشدة اجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وقالوا لو قلنا لعمر في زيادة نزيدها إياه في رزقه فقال عثمان هلم فلنعلم ما عنده من وراءه فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها أن لا تخبر بهم عمر فلقيت حفصة عمر في ذلك فغضب وقال من هؤلاء لأسوأنهم قالت لا سبيل إلى عملهم قال أنت بيني وبينهم ما أفضل ما اقتنى رسول اللّه ﷺ في بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع قال فأي الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفاً من خبز شعير فصبينا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال

فأي مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء ثخين نربعه في الصيف فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال: يا حفصة فأبلغيهم أن رسول اللّه ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فواللّه لأظعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضى إليه واتبعهما الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقا غير طريقهما لم يلقهما.

وكان يتحاشى أن ينتفع أحد من آل بيته بشيء ليس له فيه حق روى مالك في الموطأ أنه خرج عبد اللّه وعبيد بن الخطاب في جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبي موسى الأشعري وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به ثم قال بلى ههنا مال من مال اللّه أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح فقالا وددنا ذلك ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك إلى عمر قال أكل الجيش أسفله قالا لا فقال عمر بن الخطاب ابنا أمير المؤمنين فأسلفكماه أديا المال وربحه فأما عبد اللّه فسكت وأما عبيد اللّه فقال ما ينبغي لك أمير المؤمنين هذا لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فقال عمر أدياه فسكت عبد اللّه فقال رجل من جلساء عمر يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد اللّه وعبيد اللّه نصف ربح.

المال قالوا هو أول قراضا في الإسلام، ولما ترك ملك الروم الغزو كاتب عمر وقاربه وسير اليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب إلى مكة الروم بطيب ومشارب وأخفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكانبتها وأهدت لها وفيها أهدت لها عقد

فاخر. فلما انتهى به البريد اليه أمر بامساكه ودعا جامعه فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال إنه لا خير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون هو لها بالذي لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك وقال آخرون قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئاً فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيته وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالا للعدول عن الجادة وكان إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال إني نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة.

ميله للإستشارة وقبوله للنصح:

كان عمر إذا نزل به الأمر لا يبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول لا خير في أمر أبرم من غيرَ شورى وكان لشوراه درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قريش وغيرهم فما استقر عليه رأيهم فعل به. ومن قوله في ذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ومن قام بهذا الأمر الأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به من مكيدة في حرب كانوا فيه نبعا لهم فجعل أولى الأمر منفذين لما رآه أو لو الرأي والناس تبع. أخذ به الإمام من رأى أولى الرأي. وكثيراً ما كان يرى الشيء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع إلى رأيه. رأى مرة مغالاة الرجال في مهور أزواجهن فعزم أن يجعل للمهر حداً لا يتجاوزه الناس فنادته امرأة من أخريات المسجد كيف وقد قال الله تعالى: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً﴾[1] فقال أصابت امرأة وأخطأ

(١) سورة النساء: الآية ٢٠.

عمـر، وكان يـطلب من الناس أن يبلغـوه نصائحهم ويبينـون له وجـه الحق إذا رأوا منه انحرافاً عن القصد قال مرة في خطبته أيهـا الناس أن أحسنت فـأعينوني وإن صدفت فقوموني فقال له رجل من أخريات المسجد لو رأينا فيك اعـوجاجـاً لقـومنـاك بسيـوفنـا فسـره ذلـك. وكان لـه خـاصـة من كبـار أولى الـرأي منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبـد اللّٰه وكان لا يكـاد يفارقـه في سفر ولا حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ونظراؤهم.

رأي عمر في الاجتماعات:

كـان عمر يميـل إلى أن تكون مجتمعـات الناس عـامـة يهـوى اليهـا جميـع النـاس عـلى اختـلاف طبقـاتهم وكـان يكـره اختصــاص النـاس بمجـالس لأن يـدعوهم إلى أن تكـون لهم آراء متفرقـة متباينـة. روى ابن عباس أن عمـر قال لنـاس من قريش: بلغني أنكم تتخـذون مجالس لا يجلس اثنـان معـاً حتى يقـال من صحـابة فـلان من جلسـاء فـلان حتى تحـوميت المجـالس وايم اللّٰه إن هـذا لسـريع في دينكم سـريع في شـرفكم سريـع في ذات بينكم ولكأني بعـدكم يقول هذا رأي فلان قد قسموا الإسلام أقسامـا أفيضوا مجـالسكم بينكم وتجالسـوا معاً فـانـه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في النـاس، وفي الحق إن ابتعـاد الخــاصـة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد يجلسون اليهم مضيع كثيـراً لما ينتـظر من تربيـة الخاصة للعامة، واجتماعهم مفيد فائده كبـرى وهي نقل أقـوالهم غير محـرفة ولا مشـوبة بما يطمس حقيقتهـا ثم إن كثرة المجـالس تـدعـو بـدون ريب إلى كثـرة الاختـلاف في المسائـل التي تعرض لهم فتكـثر الأقوال المتبـاينة في الـدين والذي خافه عمـر على النـاس وعلى من يـأتي قد وقـع فكثرت الآراء المنقـولة من أفـراد ذلك العصر ودعا ذلك الى اختلاف الناس في الدين اختلافاً عظيما.

الوصف على الجملة:

كـان عمر يحب رعيتـه حباً جمـاً ويحب مـا يصلحهـا ويكـره مـا يفسـدهـا ساسها بسيـاسة تقـربة إلى القلوب فكـان عفيفاً عن أمـوالهم عادلا بينهم مسـوياً

بين الناس لم يكن قوي يطمع أن يأخذ أكثر من ماله ولا ضعيف يخاف أن يضع منه ماله. كان حكيماً يضع الشيء في موضعه يشتد حيناً ويلين حيناً حسبما توحي إليه الظروف التي هو فيها. عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لا تألم السير فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أي إنسان ولذلك نقول إن عمر أتعب من بعده فان النفوس التي تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها وإلا فأين ذلك الرجل الذي يفني في مصلحة رعيته ولا يرى لنفسه من الحقوق إلا كما أدناهم مع تحمله مشقات الحياة وأتعابها. العربي تستدعي سياسته حكمة عالية فإنك إن اشتددت معه أذللته فهلك وإن لنت معه ليكون رجلا نافعاً لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج إلى عقل كبير يدبره حتى لا تهلكه الشدة ولا يطغيه اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير إلا في رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه. نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون لم يجمعوا صفات عمر التي مجموعها كدواء مركب إذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أي خليفة في أي من الأزمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول.

بيت عمر:

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جمح من قريش؛ فولدت له عبد اللّه وعبد الرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين.

وتزوج في الجاهلية ملكية ابنة جرول من خزاعة: فأولدها عبيد اللّه وقد فارقها في هدنة الحديبية.

وتزوج قريبة ابنة أبي أمية من بني مخزوم وقد فارقها في الهدنة.

وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة.

وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصما وهذه طلقها.

وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيداً ورقية ومات عنها.
وتزوج لهية وهي أمرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر.
وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمر.

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة فقالت الأمر إليك فقالت أم كلثوم لا حاجة لي فيه فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين فقالت نعم إنه خشن شديد على النساء، فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته فقال أكفيك، فأتى عمر فقال يا أمير المؤمنين بلغني خبر أعيذك بالله منه، قال ما هو؟ قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر، قال نعم أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما نقدر أن ندرك عن أخلاقك فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك، قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت علي بن علي بن أبي طالب تعلق منها بنسب من رسول الله ﷺ. وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً.

مقتل عمر
عثمان وكيف انتخب ـ ترجمته
أول قضية نظر فيها ـ كتبه إلى الأمصار
أول خطبة له ـ الفتوح في عهده

مقتل عمر:

ما كان يظن أن تنتهي حياة ذلك العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم بضربة خنجر ولكن ذلك كان حتى يعلم الناس أنه ليس في مكنة إنسان أن يرضي الخلق كافة فان عمر إذا كان قد أرضى العرب بما صنعته لهم وأرضى عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراؤهم وذوي السلطان عليهم، لأنه ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم.

كان المسلمّون يسبون من أبناء فارس ويتخذهم لأنفسهم عبيداً وقد أحضروا عدداً منهم إلى المدينة وكانوا يختلفون إلى الهرمزان ملك فارس الذي أشاع عمر ملكه وأقامه بالمدينة كواحد من الناس لا فضل له على واحد.

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمه فيرروز ويكنى بأبي لؤلؤة وهو غلام للمغيرة بن شعبة فبينما عمر يطوف يوماً في السوق لقيه ذلك الغلام فقال أمير المؤمنين أعدني على المغيرة بن شعبة فان علي خراجاً كثيراً قال وكم خراجك قال درهمان في كل يوم. قال عمر وإيش صناعتك قال نجار نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال قد بلغني أنك تقول لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت قال نعم قال فاعمل رحا قال إن عشت لأعملن لك رحا يتحدث بها من في المشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد توعدني العبد آنفاً ثم انصرف عمر إلى منزله فلما كان من الغد

جاءه كعب الأحبار فقال يا أمير المؤمنين اعهد فانـك ميت في ثلاثـة أيام قـال وما يـدريك؟ قـال أجده في كتـاب اللّه التوراة قـال عمر واللّه إنـك لتجـد عمـر بن الخـطاب في التـوراة قـال اللهم لا ولكن أجـد صفتـك وحليتـك وإنــه قـد فني أجلك وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً. فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنـين ذهب يوم وبقي يـومان ثم جـاءه من غد فقـال قـد ذهب يـومـان وبقي يـوم وليلة وهي لك إلى صبيحتهـا. ولو صحت هـذه الحكـايـة وكنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة في أن لكعب يداً في مقتـل عمر، أو أنـه كان عـالماً بم تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر وربمـا يقال لـو كان كـذلك فـما يدعـو كعباً إلى إنباء عمر بهذا النبـأ، والجواب عـلى ذلك سهـل فانـه ينال بـذلك بـين المسلمين مركزاً عظيما فان كثيـراً منهم يرون بعـد ذلك أن تـوراته فيهـا علم كل شيء وأنه صادف في كل مرة ما يخبر بـه فلا يتـردد سامعـه لحظة في تصـديقه بمـا يوحي إليه، وكعب هـذا ممن أفاض علينـا ثروة من الأخبـار الإسرائيليـة التي لا ندري حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئاً كثيراً هو كـذب محض لأن التوراة بـأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه.

لما كان صبـح ثالثـة من نبأ كعـب خـرج عمر إلى صـلاة الصبح وكـان يوكل بالصفوف رجـالا يسوونها فـإن استـوت جاء هـو فكبر ودخـل أبو لؤلؤة في النـاس في يده خنجـر له رأسـان نصابـه في وسطه فضـرب عمر ست ضـربـات إحـداهن تحت سـرتـه، وهي التي قتلتـه وقتـل معـه كليب بن أبي البكـير الليثي وكـان خلفه فلما وجـد عمر حـر السلاح سقط وقـال أفي الناس عبـد الـرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالنـاس وعمر طـريح ثم احتمـل فأدخـل داره فنادى عبد اللّه بن عمـر وقال اخـرج فانـظر من قتلني قال يـا أمير المؤمنـين قتلك أبـو لؤلؤة غلام المغيـرة بن شعبـة فحمـد اللّه أن لم يقتله رجـل سجـد للّه سجدة ثم جعل الناس يدخلون عليـه المهاجـرون والأنصار فيقـول لهم أعن ملأ منكم كـان هذا فيقـولون معـاذ اللّه ودخـل في النـاس كعب فلما رآه عمـر أنشـأ يقول:

فــواعــدني كعب ثــلاثــاً أعــدهــا ... ولا شـك أن القول مـا قـال لي كعب

ومـا بي حـذار المـوت إني لمـيـت ولكن حـذار الـذنب يتبعـه الـذئب

ثم دعي لـه الطبيب فلم يجـد للقضاء حيلة وتـوفي ليلة الأربعاء لثـلاث ليال بقـين من ذي الحجة سنـة ٢٣ ودفن بكرة يـوم الأربعـاء في حجـرة عـائشـة مـع صـاحبيه حسبـما أوصى بعـد أن استـأذن صـاحبـة الحجـرة وصـلى عليـه صهيب حسب وصيتـه وروى أن طعنه كـان الأربعاء لأربـع ليـال بقـين من ذي الحجـة ودفن يوم الأحد صباح هلال المحـرم سنة ٢٤ فتكـون ولايته عشر سنـين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة من متوفي أبي بكـر. والصحيح الأول ومـدة خلافتـه بـالتحقيق عشر سنوات وستـة أشهر وأربعـة أيام من ابتـداء ٢٢ جمـادي الثـانيـة سنة ١٣ إلى ٢٦ ذي الحجـة سنة ٢٣ وكانت سنة حين قتل ٦٣ كصاحبيه.



٣ ـ عثمان بن عفان



كيف انتخب:

لما طعن عمر وأحس بـالموت طلب إليـه أن يعهـد إلى خليفـة من بعـده، فتردد وقال إن استخلف فقـد استخلف من هو خـير مني (يريـد أبا بكـر) وأن أتـرك فقد تـرك من هو خـير مني (يـريـد رسـول اللّه ﷺ) وقـال لـو كـان أبـو عبيدة حياً استخلفته فان سألني ربي سمعت نبيك يقول إنه أمـين هذه الأمـة ولو كـان سالم مـولى أبي حذيفـة حيا استخلفتـه فـان سـألني ربي قلت سمعت نبيـك يقول إن سالما شديد الحب لله فقال له رجل أدلـك على عبـد اللّه بن عمر فقـال قـاتلك اللّه واللّه مـا أردت اللّه بهـذا، ويحـك كيف أستخلف رجـلا عجـز عن طلاق امرأتـه؟! لا أرب لنا في أمـوركم ما حمـدتها فيهـا لأحد من أهـل بيتي إن كـان خيراً فقـد أصبنا منـه وإن كان شـراً فشر عنـا إلى اللّه حسب آل عمـر أن يحاسب منهم رجل واحـد ويسأل عن أمـر أمة محمـد ﷺ أما لقـد أجهدت نفسي وحرمت أهلي وإن نجوت كفافاً لاوزر ولا أجر إني لسعيد.

ثم كرر عليه القـول بعد هنيهة طلب الاستخلاف فقـال كنت أجمعت بعد

مقالتي لكم أن أنظر فأولي رجلا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار إلى علي ثم رأيت أن لا أتحمل أمركم حياً وميتاً عليك هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ إنهم من أهل الجنة علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير ابن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا فاذا ولوا والياً فأحسنوا موازرته وأعينوه إن ائتمن أحداً منكم فليؤد أمانته ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الأجل الذي يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال للمقداد بن الأسود إذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم وقال لصهيب صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم (وكان غائباً) وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر وقم على رؤوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحدا فاشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما فان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وقيل في حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله بن عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة أنا كنت لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمرتم ثم أجلس في بيتي فأنظر ما تصنعون فقال عبد الرحمن بن عوف أيكم يخرج نفسه منها ويتقلد على أن

يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها قال عثمان فأنا أول راض ثم تتابع القوم على الرضا وعلى ساكت فقال ما تقول يا أبا الحسن أعطني ميثاقا لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة فقال عبد الرحمن أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم وعلى ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله وبذلك صار الأمر في عنق عبد الرحمن بن عوف فدار لياليه يلقي أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الاجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يدعو إليه الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد في الصفة التي تلي دار مروان فقال له خل ابني عبد مناف الأمر فقال الزبير نصيبي لعلي. وقال لسعد أنا وأنت كلالة فاجعل نصيبك لي فأختار قال إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعلي أحب إلى أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال يا أبا إسحق إني خلعت نفسي منها على أن أختار ولو لم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردها ثم قال لا يقوم بعد أبي بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور إلى علي فجاء فناجاه طويلاً ثم أرسل إلى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار والأمراء حتى التج المسجد بأهله فقال أيها الناس إن الناس قد أحبو أنْ يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدين آراء لهم، فقال سعد: يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس فقال عبد الرحمن إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ودعى علياً فقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة. ولما رأى ذلك علي تأخر وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع علي يشق

الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الإثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤ .

ترجمة عثمان:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد في السنة الخامسة من ميلاد رسول الله ﷺ، وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حييا عفيفا. ولما بعث رسول الله ﷺ كان من السابقين الأولين أسلم على يد أبي بكر وزوجه عليه السلام بنته رقية. فلما آذى مشركو قريش قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر إليها هو وزوجته وحضر مع رسول الله ﷺ كل مشاهدة ولكنه لم يحضر بدراً خلفه عليه السلام لتمريض رقية التي توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له الرسول في غنائم بدر ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم وكان في عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله ﷺ وبين قريش فلما شاع [redacted] عثمان بايع النبي أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمنى هذه يد فضرب بها على يده اليسرى وكان له في جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله كثيرا واشترى بئر رومة بماله ثم تصدق بها على المسلمين وكان رشاه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ ولما توفي عليه السلام كان لأبي بكر ثم لعمر أميناً كاتباً يستشار في مهام الأمور: ولما قتل عمر كانت أغلبية الشورى له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م).

أول قضية نظر فيها:

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبي لؤلؤة وحده بل كان هناك أشخاص شركوا في دمه فقد قال عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن

عمر: مررت على أبي لؤلؤة أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر لـه رأسان نصـابه في وسـطه فـانـظروا بـأي شيء قتـل فجاءوا بالخنجر الذي ضرب به أبـو لؤلؤة فاذا هـو على الصفـة التي وصفها عبـد الـرحمن وكان رجـل من تيم قد اتبـع أبا لؤلؤة فقتله وأخـذ منه الخنجـر فلما رأى ذلـك عبيد اللّٰه بن عمـر أمسـك حتى مـات عمـر. ثم اشتمـل على سيفـه فـأبى الهـرمزان فقتله ثم مضى حتى أتى جفينـة وكان نصـرانياً من أهـل الحيـرة أقـدمـه سعد بن أبي وقاص إلى المـدينة ليلعلم بهـا الكتابـة فعلاه عبيد اللّٰه بـالسيف ولما سمع بذلـك صهيب وهو القـائم مقام الخليفـة أرسل أليـه من أتى به وأخـذ منه السيف وسجنـه حتى يتم أمـر الاستخـلاف وينـظر في أمـره فلما بـويـع عثمـان جلس في المسجد ودعا بعبيـد اللّٰه بن عمر ثم قـال لجماعـة المهاجـرين والأنصار أشيـروا عـلى في هـذا الذي فتق في الإسـلام مـا فتق، فقـال عـليٌ أرى أن تقتله فقـال بعض المهاجـرين قتل عمـر بالأمس ويقتـل ابنـه اليـوم. فقـال عمـرو بن العـاص: يا أمـير المؤمنين إن اللّٰه قـد أعفاك أن يكـون هذا الحـدث كـان ولـك عـلى المسلمين سلطان إنمـا كـان هـذا الحـدث ولا سلطان لـك قـال عثمـان أنـا وليهم قد جعلتها دية واحتملتها في مالي وكان ذلك حلا حسناً لتلك المشكلة.

كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار:

كتب عثمان إلى أمراء الأمصار كتابـاً عامـاً هذه صـورته: «أمـا بعد فـان اللّٰه أمر الأئمة أن يكونوا رعـاة ولم يتقدم إليهم أن يكـونوا جبـاة وإن صدر هـذه الأمـة خلقـوا رعـاة ولم يخلقـوا جبـاة وليـوشكن أئمتكـم أن يصيـروا جبـاة ولا يصيـروا رعاة فـاذا عادوا كـذلك انقـطع الحياء والأمـانة والـوفاء ألا وإن أعـدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيـما عليهم فتعطوهم مـا لهم وتأخـذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتـأخذوهم بـالذي عليهم ثم العـدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء».

وكتب إلى أمراء الأجناد بـالثغور: «أمـا بعد فـانكم حماة الإسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمـر ما لم يغب عنـا بل عـلى ملأ منـا ولا يبلغني عن أحد منكم

تغيير ولا تبديل فيغير اللّه بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فاني أنظر فيما ألزمني اللّه النظر فيه والقيام عليه ».

وكتب إلى عمال الخراج: أما بعد فإن اللّه لـه خلق بالحق فلا يقبل إلا الحق خذوا الحق وأعطوا الحق به والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فان اللّه لمن ظلمهم ».

وكتب إلى العامة من المسلمين بالأمصار: «أما بعد فانما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم فان أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا؛ وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن فان رسول اللّه ﷺ قال الكفر في العجمة فاذا استعجم عليهم أمر تكلفوا أو ابتدعوا ».

أول خطبة له:

وكانت أول خطبة له عقيب بيعته أن صعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم أصبحتم أو أمسيتم، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم باللّه الغرور واعتبروا بمن مضى، ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ألم تلفظهم ارموا بالدنيا حيث رمى اللّه واطلبوا الآخرة فإن اللّه قد ضرب لها مثلا والذي هو خير فقال عز وجل **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان اللّه على كل شيء مقتدراً. المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا﴾**[1].

---

(١) سورة الكهف: الآيات ٤٥-٤٦..

الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان :

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عهد عثمان هي :

١ ـ مكة وأميرها نافع بن الحارث الخزاعي :

٢ ـ الطائف وأميرها سفيان بن عبد اللّه الثقفي .

٣ ـ صنعاء وأميرها يعلى بن منبه حليف بني نوفل بن عبد مناف .

٤ ـ الجند وأميرها عبد اللّه بن أبي ربيعة .

٥ ـ البحرين وما والاها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي . وهذه الخمس في الجزيرة العربية .

٦ ـ الكوفة وما يتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي .

٧ ـ البصرة وما يتبعها وأميرها أبو موسى عبد اللّه بن قيس الأشعري وهاتان بالعراق .

٨ ـ دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان الأموي .

٩ ـ حمص وأميرها عمير بن سعد . وهاتان بالشام .

١٠ ـ مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمي .

الفتوح في عهد عثمان :

كانت مغازي أهل الكوفة الري وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة بالري ، وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل الرجل يصيبه في كل أربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الإسلامي في تلك البلاد والمحافظة على الثغور من أن ينتابها عدو وإعادة من شق العصا إلى الطاعة . ففي عهد الوليد بن عقبة على الكوفة انتفضت أذربيجان ومنعت ما كانت صالحت عليه فغزاها الوليد حتى رضيت بأن تؤدي ما كانت صولحت عليه ، وسير سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أرمينية فشتت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة .

وفي عهد إمارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان[١] سار اليها بجند كثيف فيه الحسن والحسين ابنا علي والعبادلة أبناء عباس وعمر وعمرو بن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتى طلبوا الصلح .

وفي سنة ٣٢ هـ أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي في بلاد الخزر[٢] حتى وصل بلنجر وهي أكبر مدنهم خلف باب الأبواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة وانهزم المسلمون فتفرقوا فرقتين فرقة عادت فقابلت سلمان بن ربيعة الذي كان قد أرسل مدداً لأخيه فنجت وفرقة أخرى أخذت طريق جيلان وجرجان وجعل على ثغر الباب بعد عبد الرحمن أخوه سلمان .

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وثغر السند ففي عهد إمارة عبد اللّه بن عامر انتفض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد اللّه بن معمر فسار اليهم عامر وأوقع بهم وقعة شديدة وفي عهد إمارة ابن عامر على البصرة قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس وبموته انقضت الدولة الساسانية .

وفي سنة ٣١ هـ انتفض أهل خراسان فخرج اليهم ابن عامر في جيش كثيف فلما وصل الطبسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار إلى قهستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور فصالحهم ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخار سنان[٣] ثم إلى مرو الروذ فلقيته جموع هزمها وكانت للأحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم سار إلى بلخ فصالحه

---

(١) بلدان واسعة على شاطىء بحر الخزر قصبتها آمل وطبرستان بين الري وقرمس والبحر وبلاد الديلم والجبل .

(٢) هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند .

(٣) ولاية واسعة من نواحي خرسان وهي طخارستان العليا والسفلى فالعليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون وبينها وبين بلخ ٢٨ فرسخاً والسفلى غربي جيحون أيضاً إلا أنها أبعد من بلخ وأضرب في الشرق من العليا وأكبر مدينة بطخارستان : طالقان .

أهلها ثم ذهب إلى خوارزم فاستعصت عليه فعاد عنها. ولما تم لابن عامر هذه الفتوح عاد إلى البصرة.

وأما الشام فقد كانت جمعت كلها لمعاوية بن أبي سفيان وكانت له غزوات مع الروم فبلغ عمورية وأسكن الحصون التي في طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان إلى أرمينية فسار حتى أتى تاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر في فتوحه حتى وصل تفليس[1].

وفي سنة ٢٨ هـ فتح معاوية جزيرة قبرص وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت معه زوجته أم حرام بنت ملحان وكان معاوية كثيراً ما يتمنى غزو الروم في البحر إلا أن عمر كان يمنعه من ذلك لأنه كان يرى الغزو فيه تغريراً بالمسلمين.

كتب عمر إلى عمرو بن العاص صف إلى البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه فكتب إليه عمرو (أني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب وأن تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق) فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية (لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً).

فلما كان زمن عثمان أذن له في ذلك وقال لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، ففعل، وسار إلى قبرص وأمده من مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحاً على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من ورائهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم.

وقد رتب معاوية أمر الغزو في البحر وأعد لذلك أسطولا جعل أميره عبد

---

(١) مدينة بأرمينية الأولى وكانت قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب.

اللّه بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فكان يغزو كثيراً ما بين شاتية وصائفة في البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب ولكنه خرج في يوم طليعة في قارب فانتهى إلى المرقى من أرض الروم به فتكاثروا عليه وقاتلوه.

وأما في مصر؛ ففي عهد عمرو بن العاص انتقضت الإسكندرية بسبب مكاتبات ملك الروم وتسييره إليهم أحد قواده في أسطول عظيم فسار إليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم منكرة وهدم سور الإسكندرية واستولى على كثير من مراكب الأسطول وسير عمرو عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح إلى أفريقية وهي السواحل الشمالية للقارة من طرابلس إلى طنجة فسار ابن سعد واستولى على كثير من المدن التي كانت تابعة للروم وانتهى أمره بالصلح على أن يدفعوا له ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار.

وفي عهد إمارة عبد اللّه بن سعد بلغه مجيء ملك الروم بأسطول عظيم فيه ستمائة مركب فسار إليه ابن سعد بأسطوله وخرج معاوية بنفسه من الشام بأسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلت في البحر بأسطول قسطنطين فاتفق الفريقان على ربط المراكب بعضها ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب على سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها ذات الصواري وانهزمت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم فانهزم بمن نجا من قومه واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم في عهد عثمان صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صار إليها من مراكب الروم استحدثه معاوية وعبد اللّه بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الإسلامية التي كان يشن الروم عليها الإغارة من وقت لآخر.

الأحوال الداخلية والفتن

الأحوال الداخلية:

لا بد أن نبسط القول فيما كانت عليه أحوال المسلمين في الأمصار المختلفة خصوصاً البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرى قد استخدم لها العامة من هذه الأمصار الثلاث.

روى الطبري عن الحسن البصري قال كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بأذن وأجل فشكوه فبلغه فقال ألا إني سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنيا ثم رباعياً ثم سديساً ثم بازلاً ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا وإن الإسلام قد نزل وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادة ألا فأما وابن الخطاب حي فلا؛ إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا إلى النار. فلما ولي عثمان لم يأخذ بالذي كان يأخذهم به عمر فانساحوا في البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموماً في الناس وصاروا أوزاعاً وأملوهم وتقدموا في ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والإنقطاع إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة وقال الشعبي لم يمت حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد فان الرجل ليستأذنه في الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك غزوك

مع رسول الله ﷺ ما يبلغك وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك. فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر. وروى الطبري بسنده قال: لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال أموالا في الأمصار وانقطع إليهم الناس.

وكانت قريش بحسب القاعدة التي كانت متبعة كأعضاء الأسرة التي لها الأمر كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوماً ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم ومع هذا فهم متباعدو العشائر مختلفوا الأسر فكان عمر والحال ما ذكرنا دقيقاً في الحجر على أعلامهم ألا يبارحوا حاضرة الخلافة.

من الضروري أن نشرح حال المسلمين في عهد عثمان حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشئومة التي جنى المسلمون مرها أحقاباً طويلة وهم إلى الآن في آلام شديدة من جرائها.

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر لا يعرفون الإختلاف بينهم إذ أن دواعي الإختلاف مفقودة وأكبر داعية الشر بين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لا توجد يد قوية تقف بالمختلفين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزوه كانت روح عمر تخيف الرؤساء وذوي الرؤوس النابغة فلا يجدون سبيلا إلى نزاع أو شر إلى ما وقر في أنفسهم من الألفة الإسلامية ومتى أمن اختلاف الكبراء فلا معنى للشقاق بين الرعية وظل العدل وارف فوق رؤوسها.

ولى عثمان سعد بن أبي وقاص الكوفة وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالا لأجل ولما حل الأجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود بأناس من الرعية على استخراج المال واستعان سعد بأناس على استنظاره، فافترقوا وبعضهم يلوم بعضاً: يلوم هؤلاء سعداً، ويلوم هؤلاء عبد الله بن مسعود.

بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعدا عن إمارة

الكوفة وأبقى ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على غرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب ولما قدم الوليد كان محبباً إلى الناس ورفيقاً بهم: حدث في زمنه أن شباباً من شباب الكوفة نقبوا على رجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاؤوا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الأزدي ومورع بن أبي مورع الأسدي وشبيل بن أبي الأزدي فحوكموا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا فاضطغن آباؤهم لذلك على الوليد وصاروا يتحينون الفرص للإيقاع به وكان سمار يسمرون عنده ومنهم زبيد الطائي وكان أبو زبيد نصرانياً ثم أسلم وكان معروفاً بشرب الخمر فأتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم في الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر فأذاعوا ذلك بين الناس حتى شاع على ألسنتهم فتوجهوا إلى ابن مسعود فأخبروه بذلك فقال ابن مسعود من استتر عنا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك سترة فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعاتبه في ذلك وقال أيرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين بما أجبت أي شيء استتر به إنما يقال هذا للغريب فتلاحيا وافترقا على تغاضب. ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب إلى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الأعمال فأخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألهما كيف رأيتما قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر فقال عثمان ما يقيء الخمر إلا شاربها فأرسل عثمان إلى الوليد فأقدمه المدينة وأفتى علي بوجوب حده فحدوه حد شارب الخمر وعزله عثمان وولى علي الكوفة بدله سعيد بن العاص فخرج حتى أتى الكوفة ومعه أولئك النفر الذين أوقعوا بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم والله إني قد بعثت إليكم وأنا كاره ولكني لم أجد بدا إذ أن أأتمر ألا إن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها والله لأضربن وجهها أو تعييني وإني لرائد اليوم ثم نزل وسأل عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب إلى عثمان « إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وطلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والمقدمة والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر

إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها. فكتب إليه عثمان « أما بعد ففضل أهل السابقة والتقدمة ممن فتح اللّه عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس يصاب بها العدل » فأرسل سعيد إلي وجوه الناس وأشرافهم من أهل الأيام والقادسية فقال لهم أنتم وجوه الناس من ورائكم والوجه ينبيء عن الجسد فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمستمعين لسمره فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والإذاعة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم بما جاءه من عند سعيد وبمقدار تشاؤمه من حال أهل الكوفة واضطراب أمرهم.

كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمنا صفتهم وكان في بعض الأحيان يجلس للناس جلوساً عاماً ولا يحجب عن مجلسه بأحد فبينما هو ذات يوم في مجلس العامة وهم يتحدثون إذا قال قائل ما أجود طلحة بن عبيد اللّه فقال سعيد بن العاص إن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً واللّه لو أن لي مثله لأعاشكم اللّه عيشاً رغداً فقال شاب حدث واللّه لوددت أن هذا المطاط لك (وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة) فقال الناس لذلك الشاب فض اللّه فاك تتمنى له سواداً ثم ثار إليه جماعة من سفهائهم فيهم الأشتر النخعي وعمير بن ضابيء ونظراؤهما فأراد أبو الشاب أن يمنع عنه فضربوهما كليهما في مجلس سعيد وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ومنع أولئك النفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولاهم لهم إلا الوقيعة في سعيد ومن والاه فكتب أشراف أهل الكوفة إلى عثمان بذلك وطلبوا منه إخراج هؤلاء النفر من الكوفة فأمر بنفيهم إلى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبي سفيان فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف وأكرمهم ثم قال لهم ذات يوم إنكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم ألسنة

وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً وأن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا عني جنتكم وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة والله لتنتهن أو ليبتليتكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم فردوا عليه رداً دل على تمكن الفتنة في رؤوسهم فرد عليهم معاوية رداً شديداً وعلم أنهم لا يصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم في الكوفة مه إن هذه ليست بأرض الكوفة والله إن رأى أهل الشام ما تصنعون وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم فلعمري إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً وكتب إلى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لا يود بقاءهم في الشام فأمر عثمان أن يسيرهم إلى حمص عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فأدبهم عبد الرحمن تأديباً شديداً حتى أظهروا الرجوع والندم فأمر عثمان أن يعيدهم إلى الكوفة فلما عادوا اشتد أمرهم في الوقيعة بعثمان وعماله وهؤلاء هم رؤوس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث الأشتر وثابت بن قيس النخعي وكميل بن زياد وزيد بن صوحان العبدي وجنوب بن زهير الغامدي وجندب بن كعب الأزدي وعروة بن الجعد وعمر بن الجعد وعمر بن الحمق الخزاعي. وفي آخر عهد عثمان خرج سعيد إليه ليبلغه أحوال الكوفة ولما أراد العودة خرج إليه أولئك الناس ومن استغووه وقالوا والله لا يدخلها علينا والياً أبداً ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولى عليهم أبا موسى الأشعري حسب طلبهم هكذا كان الحال غلب فيها الغوغاء أهل الحلم وضعف سلطان الأمراء وقوة الطاعة لم يبق لها في نفوس القوم من أثر.

وفي البصرة التي هي الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيراً من ذلك ففي سنة ٢٩ هـ هاج أهلها على أبي موسى الأشعري عاملهم واستعفوا عثمان منه فعزله عثمان منه فعزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر وكان له

في أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين ولثلاث سنين من إمارته بلغه أن في عبد القيس رجلا نازلا على حكيم بن جبلة وكان حكيم رجلا لصاً إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس ليغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما يشاء ثم يرجع فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب إلى ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجن منها حتى تأنسوا منه رشداً فكان لا يستطيع أن يخرج منها فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يلقي إلى الناس في السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل يهودي أظهر الإسلام ليضل الناس فصار يقول لهم عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد فيقبل منه الناس ذلك ويقول لهم عجباً لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم إلى ما يماثل هذا الكلام الذي يسهل قبوله لأنه جاءكم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الأنبياء ثم ما هو قريب من ذلك من استهجان ترك آله وإقصاهم عن أمر خلافته فبلغ شيء من خبره عبد الله بن عامر فأحضره وسأله من أنت فقال رجل أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك فقال ما يبلغني ذلك فأخرج عني فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار إلى مصر وهناك وجد مهده بعد أن نفث ما نفث بالعراق.

أما الأمر في مصر فقد كان أشد مما في العراق فإن ابن سبأ لما ألقي إلى الناس تعاليمه ومن ضمنها أنه كان لله ألف نبي ووصي وكان علي وصي محمد ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء ثم بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصيه وتناول أمر الأمة ثم قال بعد ذلك إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن على أميركم واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر فبث دعاته وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم وأظهر الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤوه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر إنا لفي عافية مما ابتلى هؤلاء الناس إلا أهل المدينة جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فأتوا عثمان فقالوا: يا أمير المؤمنين يأتيك عن الناس الذي يأتينا، فقال لا والله ما جاءني إلا السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليه أن يبعث إلى الأمصار من يستقي أخبارها ويعلم ما فيها فندب لذلك رجالا سيرهم إلى الأمصار فسير محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر وفرق في البلاد الأخرى فأقبل جميعهم؛ إلا عماراً، فقالوا أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم، أما عمار فقد ورد إلى عثمان كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر يخبره فيه أنه قد استماله قوم بمصر وانقطعوا إليه منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملحم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر. وكان من أشد المؤلبين على عثمان بمصر رجلان: محمد بن أبي حذيفة، وكان الذي دعاه إلى ذلك كان يتيماً في حجر عثمان، فكان عثمان وإلى أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين ولي فقال يا بني لو كنت رضياً ثم سألتني العمل لاستعلمتك ولكن لست هناك قال فأذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية. والثاني: محمد بن أبي بكر وقد كان من الإسلام بالمحل الذي هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالة فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع هذا إلى هذا فصار كما يقول سالم بن عبد الله بن عمر مذمماً بعد أن كان محمداً وإنما مال إليهم عمار بن ياسر لأنه كان كذلك حاقداً على عثمان، فقد قال سعيد بن المسيب إنه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام، فضربهما عثمان وكان قذفاً.

أما الحال في الشام، فقد كانت أحسن الأحوال لما عرف به معاوية من الحزم والضبط إلاّ أنه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون في التشيع على عثمان وذلك أن ابن السوداء لما أتى الشام جاء أبا ذر؛ فقال: يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية يقول المال مال اللّه ألا إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحوا اسم فأتاه أبو ذر فقال ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال اللّه يا أبا ذر، ألسنا عباد اللّه والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره قال فلا تقله فاني لا أقول إنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء من أنت أظنك يهودياً، ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق به وأتى به معاوية فقال هذا واللّه الذي بعث عليك أبا ذر الشام وجعل يقول يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء. بشر الذين يكنزون الذهب ولا ينفقونها في سبيل اللّه بمكاو من نار تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم. فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس. فكتب معاوية إلى عثمان بذلك؛ فأمره عثمان أن يجهز أبا ذر فأرسله إليه فلما قدم عليه ورأى المجالس في أصل سلع قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل على عثمان قال يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال اللّه ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا فقال يا أبا ذر علي أن أقضي ما علي وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والإقتصاد. وكان هذا الرأي الإشتراكي متمكنناً من أبي ذر وقد وجد الخليفة أنه رأى فائل فأمر أبا ذر أن يخرج إلى الربذة فيقيم بها ويقال إن أبا ذر هو الذي طلب منه ذلك فسيره وأجرى عليه رزقاً وعلى رافع بن خديج مثله وقد توفي أبو ذر بالربذة سنة ٣٢ هـ وكان من السابقين إلى الإسلام. أما الحال في المدينة فقد كانت تلك الكتب التي يرسلها السبئيون سبباً لكثرة الحديث في عمال عثمان وفشو القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من هو حاقد على عثمان لأسباب تخصه وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوؤه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر.

لما رأى عثمان كثرة الكلام أرسل إلى عماله بالأمصار أن يوافوه جميعاً بالموسم فقدموا عليه عبد اللّه بن عامر ومعاوية وعبد اللّه بن سعد وأدخل معهم في المشورة سعد بن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويحكم ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة إني واللّه لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يصعب هذا إلا بي فقالوا له ألم تبعث ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء ولا واللّه ما صدقوا ولا بروا ولا نعلم لهذا الأمر أصلا وما كنت لتأخذ به أحداً فيقيمك على شيء وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الإنتهاء إليها قال فأشيروا علي فقال سعيد بن العاص هذا أمر مصنوع يصنع في السر فيلقي به ذي المعرفة فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم قال فما دواء ذلك قال طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبد اللّه بن سعد خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فانه خير من أن تدعهم وقال معاوية قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما قال فما الرأي قال حسن الأدب فما ترى يا عمرو وقال رأي أنك وليت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في مواضع الشدة وتلين في موضع اللين، إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شراً واللين لمن يخلف الناس بالنصح وقد فرشتهما جميعاً باللين. فترون أن جميعهم أشاروا عليه باستعمال الشدة مع هؤلاء الذين لا هم لهم إلا إذاعة الأكاذيب لتنفيذ أغراض في أنفسهم فقال لهم عثمان كل ما أشرتم به علي قد سمعت ولكل أمر باب يؤتي منه إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن وإن بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاه والمتابعة إلا في حدودو اللّه التي لا يستطيع أحد أن يبادىء بعيب أحدها فان سده شيء فرفق فذاك واللّه ليفتحن وليست لأحد على حجة حق وقد علم اللّه أني لم آل الناس ولا نفسي وواللّه إن رحا الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيت حقوق اللّه فلا تدهنوا فيها، ثم رد الأمراء إلى أعمالهم ولم يأمر بشيء مما أشاروا به وقد عرض معاوية على عثمان

أن يسير معه إلى الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول اللّٰه ﷺ بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقي فعرض عليه أن يرسل له جنداً يقيمون معه بالمدينة للمحافظة عليه فأبى وقال لا أقتر على جيران رسول اللّٰه الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل الهجرة والنصرة.

كان التصميم الذي دبره السبئية أن يثوروا بعد مبارحة أمرائهم للأمصار فلم يهيأ لهم ذلك ولم ينهض إلا أهل الكوفة خرجوا بحجة أنهم يستعفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتى إذا قابلوا سعيداً بالجرعة ردوه واجتمع الناس على أبي موسى الأشعري وأقره عثمان ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة؛ لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن أشياء لتطير في الناس ولتحق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاثة حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل إليهم رجلين ليعلما علم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان ممن ناله أدب من عثمان فاصطبروا ولم يضغنا فلما رآهما أولئك القادمون أخبروهما بما يريدون فقالوا إنا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه، فان أبى قتلناه، فرجع الرجلان إلى عثمان وأخبراه الخبر فضحك؛ ثم أحضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فأشار عليه بعض المشيرين منهم أن يقتلهم فقال عثمان بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم ألا إنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم قالوا أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم، ألا وإني قدمت بلداً فيه أهلي فأتممت لهذين الأمرين أو كذلك هو قالوا نعم.

وقالوا حميت حمى وإني واللّٰه ما حميت حمى قبلي واللّٰه ما حموا شيئاً لأحد ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيه أحد واقتصروا

لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً إلا من ساق درهماً ومالي من بعير غير راحلتين ومالي من ثاغية ولا راغية وإني قد وليت وإني أكثر العرب بعيراً وشاة فمالي اليوم شاة ولا بعيرين لحجى أكذلك هو؟ قالوا اللهم نعم.

وقالوا كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما في ذلك تابع لهؤلاء أكذلك هو؟ قالوا نعم.

وقالوا إني قد رددت الحكم وقد سيره رسول الله ﷺ والحكم مكي سيره رسول الله ﷺ من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله ﷺ فرسول الله رده أكذلك هو؟ قالوا نعم.

وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل مجتمعاً محتملا مرضياً وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولي من قبلي حدث منهم وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة، قال: أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

وقالوا إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه وإني إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم أكذلك هو؟ قالوا نعم. وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم فأما حبي فانه لم يكن معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم وأما إعطاؤهم فإني إنما أعطيهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الزغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري وودعت الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم وما قدم إلا الأخماس ولا يحل لي منها شيء فولى المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا يتلفت من مال الله بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالي.

وقالوا أعطيت الأرض رجالا وإن هـذه الأرضين شـاركهم فيه المهـاجرون والأنصـار أيام افتتحت فمن أقـام بمكان من هـذه الفتـوح فهـو أسـوة أهله ومن رجـع إلى أهله لم يذهب ذلـك ما حـوى اللّه لـه فنـظرت في الـذي يصيبهم مما أفـاء اللّه عليهم فبعته لهم بـأمرهم من رجـال أهـل عقـار ببـلاد العـرب فنفلت إليهم نصيبهم فهـو في أيديهم دوني. وكـان عثمان قـد قسم مالـه وأرضه في بني أمية وجعل ولده كبعض من يعطي فيـه فبدأ ببني أبي العـاص فأعـطى آل الحكم رجـالهم عشرة آلاف فـأخذوا مئـة ألف وأعطى بني عثمـان مثـل ذلـك وقسم في بني العـــاص وفي بني العيص وفي بني حـرب ولانت حـــاشية عثمـــان لأولئـك الطوائف.

فاكتفى عثمان بهـذا الدفـاع عن نفسه ولم يفـل شيئاً مـع ذلك الـوفد بـل أعادهم إلى أمصارهم فكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخـرجوا من أمصـارهم كأنهم عمار ثم يتوافوا بالمدينة لتنفيـذ ما عـزموا عليـه فخرج أهـل مصر في أربع رفـاق عليهم أربعـة أمراء وعـددهم بين الستمـائة والألف وأميـرهم جميعاً الغـافقي بن حريب العكي ولم يجترئوا أن يعلموا النـاس بخروجهم إلى الحـرب وإنما خـرجوا كـالحجاج ومعهم ابن السـوداء وخرج أهـل الكوفـة في أربع رفـاق عليهم أربعة أمـراء وعددهم كعـدد أهل مصر وأميـرهم جميعاً عمـرو بن الأصم وخـرج أهـل البصـرة في أربع رفـاق وعددهم كعـدد أهل مصر وأميـرهم جميعاً حـرقـوص بن زهـير السعدي وكـانت أهواء أهـل الأمصار الثـلاثة مختلفـة فأهـل البصرة كـانوا يريدون طلحـة لأن ضياعـه كانت ببلدهم وأهـل الكوفـة كانـوا يريـدون الزبـير وأهـل مصر كانـوا يريـدون علياً لتعـاليم ابن السوداء ووجـود ابن أبي بكر وهـو ربيب علي وابن أبي حذيفـة بينهم، ولما كـانوا من المـدينة عـلى ثلاثـة تقدم نـاس من أهـل البصرة فنـزلـوا ذا خشب ونـاس من أهـل الكـوفـة فنـزلـوا الأعـوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر وتركوا عـامتهم بذي المـروة واتفقوا جميعاً أن يقـدموا رواداً ليـدخلوا المدينـة وينظروا هـل وصل المـدينة خبـرهم لأنهم كـانـوا يخـافون أن يستعـد لهم أهل المـدينة بحـرب فـأرسلوا لـذلـك رجلين فلما دخـلا

المدينة كلما عليا وطلحة والزبير وقالا إنما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ما جئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبى ذلك عليهما فرجع الرائدان إلى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا علياً ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر أتوا الزبير فسلم المصريون على علي، وعرضوا له بالأمر فرد عليهم رداً شديداً وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي على ثلاث مراحل كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير في نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن فلزم الناس بيوتهم فأتاهم علي فكلمهم وقال ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا وقال الكوفيون والبصريون جئنا ننصر إخواننا كأنما كانوا على ميعاد فقال لهم علي كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا، هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا ثم قالوا لعلي إن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل؛ قم معنا إليه قال والله لا أقوم معكم إلى أن قالوا فلم كتبت إلينا فقال علي والله ما كتبت لكم كتباً فنظر بعضهم إلى بعض (تأملوا كيف استغل المفسدون اسمه ليهيجوا الناس) ثم تركهم علي وخرج من المدينة، ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا كتبت فينا بكذا وكذا فقال إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يميني بالله لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد والله أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة وهو يأبى وكان لا يزال يصلي بهم ثم منعوه من الصلاة في المسجد وحصروه في داره، وكان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن علي بن أبي طالب لم يفعل ما يمكنه لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما المراسلات يطلب إليه أن يجهد في

تخفيف هذا الحصار عنه ومن ذلك ما رواه أبو العباس محمد بن يزيدالمبرد في كتابه الكامل أن عثمان كتب إلى علي وهو محصور (أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين وبلغ الأمر أشده) ثم تمثل بهذا البيت:

(فان كنت مأكولا فكن غير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق)

كانت حاشية عثمان من بني أمية ترى أن لعلي ضلعاً في هذا الأمر فكانت الوجوه تتقابل عابسة وتبدي عما في القلوب العيون فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح في مصلحة المسلمين وقد أدت الحال إلى أن ترك على المدينة رأساً، وفي هذه الفتنة التي نظن أنه لم يمكن قمعها إلا أنه كان هناك شيء واحد في هذا الوقت الحرج وهو تناسي كل ما في النفوس لأن الأمر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه، ولا يغيب عن الفكر أن رؤوس المسلمين لو كانت متفقة تماماً لأمكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذي أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت ألفتها فغلب السفهاء على الأمر وفعلوا ما فعلوا، لو كانت هناك نظر بعيد لرؤوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القواد العظام والأئمة الأعلام لما كان لسفهاء الأمصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التي فرقت كلمة المسلمين.

استمر الحصار على عثمان واشتد عليه حتى منعوه الماء فكان لا يصل منه إليه شيء إلا خفية وكان عثمان يطل عليهم من آن لآخر، ويعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شددوا عليه الحصار لما بلغهم أن جندا من الأمصار أقبلت لنصر عثمان، ، وفي أثناء الحصار ولي عبد اللّٰه بن عباس موسم الحج وكتب معه كتاباً مطولا يقرؤه على المسلمين في الموسم ويعلمهم بما هو فيه، فسار ابن عباس أميرا على هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت.

أراد المحاصرون التعجيل بالأمر خوفاً من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور من دار ابن حزم وكان جارا له ولما رأى ذلك عثمان

استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لا يغنون شيئاً دخل عليه جماعة فيهم محمد بن أبي بكر مريداً قتله فلم يصنع شيئاً فتقدم غيره فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت على عثمان زوجه البارة نائلة بنت القرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفخ أصابعها فأطعن أصابع يدها ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه وانتهبوا ما في البيت وأخرجوا من فيه ثم أتوا بيت المال فانتهبوه، وأذاعوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوماً، وكان قتله لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة. سنة ٣٥ هـ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦ م) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم.

اسباب مقتل عثمان
بيت عثمان
علي وكيف انتخب ـ ترجمته
أول خطبة له ـ أول أعماله

إجمال الأسباب التي أدت إلى قتل عثمان:

بعد أن أتينا على تفصيل الحوادث التي أدت إلى هذه الفاجعة نتبعها ببيان مجمل لما يستنتج من تلك الحوادث.

السبب الأول:

مهما كان رؤساء الأمة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مريد السوء سبباً للفتن والثورات وإذا انصدع شمل القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر انفسخ المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كان الحال في المدينة حاضرة الخلافة ومجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الأمر فان من يتصفح أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤلمة في حق عثمان سواء في غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكروهه حتى كانوا يلقبونه في بعض الأحيان نعثلا ونعثل رجل مصري كان طويل اللحية شبهوه به للغض منه ويقول في لسان العرب إنهم لم يجدوا فيه عيباً سوى هذا وحتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التي كان عثمان يخطب عليها فكسرها وهي عصا رسول الله ﷺ وقد أثرت كلمات في حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الأسباب التي أدت إلى مثل هذا ومن غير نظر إلى ما تحدثه هذه الكلمات بين العامة خصوصاً إذا صادفت مهيجين مثيرين.

السبب الثاني :

كان عثمان معروفاً بخلق الحياء واللين أما الحياء فقد كان مشهوراً به في جاهليته وفي إسلامه حتى قال في حقه عليه السلام (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة) وخلق الحياء يحمل صاحبه على الإغضاء عن كثير مما يكره أما اللين فان الرجل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ويود أن لا يكون فتح بابها على يده يعرف ذلك من استقرأ خطبه وكتبه حتى إن خطبته التي قالها على المنبر لأول مرة لم تخل من هذا. دعاه الخلق الأول إلى التسامح مع من يناله منهم أذى في حق نفسه فلا يوجه إلى واحد منهم كلمة تسوءه وهذا وإن حسن عند الحكماء فإنه لا يحسن أبداً في سياسة الرعية بل لا بد لمقام الخلافة من هيبة في القلوب تقف بالناس عند الحد بهم انظروا إلى ما فعله عمر مع سعد بن أبي وقاص حينما زاحم الجموع المحيطة بعمر ووصل إليه مدلا بمركزه فانه خفقه بالدرة وقال جئت لا تهاب سلطان اللّه في أرضه فأحببت أن أعلمك أن سلطان اللّه لا يهابك فلا بد لسلطان اللّه من قوة تمنع عنه ضعفاً أو ذلة، والخلق الثاني جعله يمتنع عن عمل أي تدبير لمعاقبة المفسدين الذين رفعوا اليه وثبت أنهم يدبرون حركة الفتنة من غير مبالاة أشار عليه ولاته حينما جمعهم بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يثيرون العامة بما يضعونه من الأحاديث الملفقة وكانت كلمة العمال في ذلك واحدة فلم يعبأ بقولهم بل اللين على الشدة لئلا يكون فاتحاً باب الفتنة الذي يخيفه، ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس وعلم مقصدهم وأشار عليه مشيره من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسه أمامهم بتلك الخطبة التي تلوناها عليكم ثم تركهم يعودون إلى بلادهم فما زادهم ذلك إلا فساداً لأنهم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقنعهم الحجة وإنما هم طلاب شر يتطلبون الطريق اليه فكلما أعجزهم باب عدلوا إلى غيره.

السبب الثالث :

ما خالف به عثمان صاحبه عمر في أعلام قريش فان عمر كان يحجر

عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها إلا بإذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا لهم مما حببه اليهم ولكن ترتب عليه ما حذره عمر فإنه قد اجتمع إليهم أناس ممن لا سابقة لهم في الإسلام والتصقوا بهم وتقربوا إليهم حتى إذا كان الأمر لهم في يوم من الأيام كانوا أقرب الناس اليهم فنبه بذلك ذكرهم وإلا فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر يريدون علياً. صحيح أن علياً لم يجيء مصر ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحما وهو محمد بن أبي بكر ربيبه لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها علي بعد موت أبي بكر وكان محمد في حجرها فرباه علي فلم تكن طلبات أهل الأمصار إلا نتيجة لما فعله وانقطاع العامة إلى أولئك الأعلام أو لمن هو منهم بسبيل حتى يكون لهم شأن إذا انتقلت الخلافة إلى صاحبهم ولذلك لما تم الأمر لصاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتمعا عليه، لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفي عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الأمر ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المتآمر والذي يؤخذ عليهم هو هوادتهم في القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم في الأقوال التي تحط من قدره حتى وقت اشتدادا الأزمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات.

السبب الرابع:

سهولة التأثير في الجماعات متى أتوا من قبل ما يهوون وما يحبون وهم في هذه الأحوال لا يصبرون حتى يثبتوا مما يلقي عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له إن كان مؤلماً ويسرون إن كان ساراً: كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم عربا يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر فجاءهم ذلك الشيطان عبد اللّه بن سبأ من الجهة التي يألفونها وهي نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسوبهم علي بن أبي طالب وصى اللّه كما كان لكل نبي وصى وأنه من اللازم أن يعطي الامر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم ثم صار يزيد على ذلك ما يدسه مدحاً لعلي بن

أبي طالب حتى علا به إلى درجة لم يطلبها علي لنفسه ومثل هذا الكلام يسهل إدخاله في القلوب خصوصاً إذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة ولذلك نرى الرجل كان يتتبع من أصابهم من ولاة عثمان أذى في نفسه أو ماله ثم جاءهم من قبل العدل والمساواة فصار يطعن في أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوي قرباه ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً والذين كانوا يؤدونه لأغراض في أنفسهم اشتغلوا في الأمر بمهارة فصارت شيعتهم في كل مصر تكتب إلى مصر الآخر بما عندهم من المحزنان فيقرأ كتابهم على العامة فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك المصر نفسه تكتب كتب ترسل إلى المصر الأول فتقرأ على العامة فيستغيثون بالله مما حل بأخوانهم ويقولون نحن في عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس حتى أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التي تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فقد كانوا يعيبون معاوية وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله ﷺ وولاه أبو بكر وولاه عمر ولم نر من العمال من استمر موثوقاً به من عمر حياته كلها إلا أفراد قلائل منهم معاوية بن أبي سفيان فقد كان والياً من أول حياة عمر إلى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها وكانوا يعيبون عبد الله بن سعد بن أبي سرح لا لأنه ظالم أو جائر وإنما لأمر آخروهو أن النبي ﷺ حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه ولم يعلموا أن الرسول كان إذا عفا فانما جر على الذنب ستراً لا يزول وكانوا يعيبون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان والياً لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو وال له وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط فلم تكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور وإنما كانت للتأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدهم على ذلك أن أولياء الأمر لم يبادروا بأخذ الحيطة لأن العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاعفت مصلحة الأمة. وإذا أردنا أن نحمل الناس في ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعو في ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا في زمن من الأزمة مما يتجنى به على أولي الأمر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك.

من الغـريب بعد ذلـك أن تبقى هذه سبباً دائماً لتفـريق كلمة المسلمـين، ففي بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة وفي بعض الأحيـان فرقة كلامية تنتهي بعـداء ونفور وليس ذلـك إلا أن المسألـة ألبست ثوب الـدين وكل حلول الوصول بما يثبته وما يختلقه إلى غرض من الأغراض. ولو نـظرنا إلى المسألة بنـظر صحيح لقلنـا خليفة من خلفـاء المسلمين غضب عليـه بعض رعيته بعضهم سيء القصـد والبعض الآخر تـابع لهم ثم قـاموا عليـه وحصـروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الإسلام ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيماً ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الإنتقام منه لسـوء قصده أو تبين الصواب له لخطئه. وغاية الأمر أن الباقي لنا من كل ذلك هـو الإستفادة مما كان. فالعاقل منهم أن يتعلم ويفهم أن لا يحقد على قوم لم تبق منهم باقية.

لا تمكن حماية الأمـة من أصحاب المقـاصد السيئـة الذين يـريدون فتنتهـا وتهييجهـا لغير مصلحتهـا إلا إن كان فيهـا من العقلاء من يحتـرم رأيهم وتسمـع كلمتهم فانهم يبصرون قـومهم بما يعـود عليهمالخـير والفلاح، وكـل أمة فقـدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفه أن يفتنوهـا ويلفتنوهـا عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديداً. وهم في كل زمن كثيرون. فما ظنك إن كان سراتها ممن يساعد على فتح باب السر بأغضائه وتهاونه إن الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيماً، وسيرد عليكم من ذلك شيء كثير.

دفن عثمان:

من غـريب ما فعله أولئـك الثائـرون أنهم لم يصـرحـوا بـدفن عثمـان ولم يدفن إلا بصعوبة واستتار. خرجوا به بعد المغرب فدفنوه، ولم يشيع جنازته إلا نفر قليل، وصلى عليه جبير بن مطعم.

بيت عثمان:

١ ـ ٢ ـ تزوج عثمان بمكـة رقية بنت رسـول اللّه ﷺ وولدت ولـداً اسمه عبد اللّه، فماتت، ثم تزوج بعدها أم كلثوم وأختها.

٣ ـ وتـزوج فـاختـة بنت غـزوان من قيس غيـلان وولدت لـه عبـد اللّه الأصغر فمات.

٤ ـ وتزوج أم عمر وبنت جندب الدوسي فولدت لـه عمراً وخـالداً وأبـانا وعمر ومريم.

٥ ـ وتزوج فاطمة بنت الوليـد المخزوميـة فولـدت له الـوليد وسعيـداً وأم سعيد.

٦ ـ وتـزوج أم البنين بنت عيينـة بن حصن الفـزاريـة فـولـدت لـه عبـد الملك، ومات.

٧ ـ وتزوج رملة بنت شيبة من بني عبد مناف فولدت لـه عائشـة وأم أبان وأم عمر.

٨ ـ وتـزوج نائلة بنت القـرافصة الكلبيـة فولـدت لـه مـريم، وقـد تـوفي وعنده فاختة وأم البنبن ورملة ونائلة.

عمال عثمان:

العلاء بن الخضرمي: على مكة ـ القاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف: يعلى ابن منية: على صنعاء ـ عبد اللّه بن ربيعة: على الجند ـ عبد اللّه بـن عامـر: على البصـرة ـ سعيد بن العـاص: عـلى الكـوفـة ـ عبـد اللّه بن سعـد: عـلى مصر ـ معاوية بن أبي سفيان على الشام.

٤ ـ علي بن أبي طالب

كيف انتخب:

لم تكن الـظروف التي حصل فيهـا انتخاب عـلي بن أبي طالب مشـابهة لمـا كـان عليـه الحـال في انتخـاب من قبله فـانـه عقب وفـاة رسـول اللّه ﷺ وكـان أعلام الصحابة بالمدينة فـاختلفوا قليـلاً ثم ثابـوا إلى الجماعـة وأجمع رأيهم عـلى انتخـاب أبي بكر وعقب وفـادة أبي بكر لم يكن ثم مجـال للخلاف لأنـه كـان قـد

عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته. وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمان فكان عمر قد عهد إلى واحد من ستة يعينونه هم وبين الحدود في المخالف. أما عند موت عثمان فلم يكن الأمر كذلك؛ فالمدينة فيها جماعة الثوار على عثمان، وهم قاتلوه وهم أوزاع متفرقون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر إلا بهذه الثورة وليس عددهم بشيء أمام جنود الأمصار التي لم يكن لها اشتراك في الجريمة، وأصحاب رسول الله ﷺ كثير من كان خارج المدينة؛ ومنهم المرابطون في الثغور، ومنهم من كان مقيماً بالمدينة.

كانت الكلمة العليا في المدينة إذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء العابثين، الذين قتلوا الخليفة؛ ولم يكن في نظر جمهورهم أليق من علي للخلافة فكلموه في البيعة له فامتنع قليلا ثم أجاب إلى ذلك. يقول الكوفيون أول من بايعه الأشتر، وكان من المهم عنده أن يبايعه طلحة والزبير لأنهما زميلاه في الشورى وان تطلع إلى الخلافة أحد دونه فهما، روى الطبري عن الزهري أنه دعاهما إلى البيعة فتلكأ طلحة فقام مالك الأشتر وسل سيفه وقال والله لتبايعين أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه وبايعه الزبير وروى أن علياً قال لهما إن أحببتما أن تبايعاني وإن أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك وقالا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا وجيء بسعد بن أبي وقاص ليبايع فقال لا أبايع حتى يبايع الناس والله ما عليك مني بأس قال أخلوا سبيله. وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع فقال لا أبايع، حتى يبايع الناس، قال إتني بحميل، قال: لا أرى حميلا قال الأشتر: خل عني أضرب عنقه، قال علي دعوه أنا حميله إنك ما علمت لسيء الخلق صغيراً وكبيراً، وتخلف من الأنصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضاله بن عبيدة وكعب بن عجره وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان، وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً ولم

يبايعه قدامية بن مظعون وعبد اللّه بن سلام والمغيرة بن شعبة وبايعه من عدا هؤلاء من أهل المدينة إلا من فر ولحق بالشام.

ترجمة علي:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف وهو ابن عم رسول اللّه ﷺ وشقيق والده وأمة فاطمة بنت أسد. ولد قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة ولما أرسل الرسول عليه السلام كان علي مراهقاً وكان مقيماً مع الرسول في بيته تخفيفاً على أبيه فكان من أول من أجاب إلى الإسلام وكان له الشرف العظيم ببياته موضع الرسول ليلة أن ترك مكة مهاجراً حتى لا يرتاب المترصدون في وجوده ببيته ثم هاجر بعد أن أدى الودائع التي أمر أن يسلمها لأهلها وبعد الهجرة زوجه عليه السلام بنته فاطمة وحضر كل مشاهده عليه السلام ما عدا غزوة تبوك فان الرسول خلفه فيها على أهله وكان له الأثر المحمود والمقام الذي لا يجهل في جميع الغزوات وكان شجاعاً يخوض الغمرات ولا يبالي بشدة وكان يكتب لرسول اللّه ﷺ ولما لحق الرسول بربه كان علي يرى في نفسه أنه حق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لا يعدلون به غيره لما له من شرف القربى والصهر ولكن المسلمين رضوا أبا بكر للخلافة فلم يبايع إلا بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد أبو بكر لعمر ورضي به المسلمون بايع معهم إلا أنه كان بدون ريب يرى أنه أحق بالأمر من عمر كما كان أحق من أبي بكر وكان في عهد عمر كالمستشار يستشيره عمر كثيراً في الأحكام الشرعية ولما عهد إلى الشورى دخل معهم وكان يغلب على ظنه أن تكون الأغلبية له إلا أنها لم تصادفه وصرفت عنه إلى عثمان فرضي وبايع ولم تكن علاقته بعثمان في آخر حياته حسنة الظاهر حتى إن اسمه استعمل للتغرير بالناس حتى يهيجوا على خليفتهم وحتى خاطبه بعض أهل مصر قائلاً إن لم تقم معنا فلم كتبت إلينا ولكن نبرأ من أن يكون كتب وحلف على ذلك: ولما انتهى أمر عثمان بويع بالخلافة على نحو ما فصلنا قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال.

أول خطبة له:

صعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: إن اللّه عز وجل أنزل كتابا هادياً بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى اللّه سبحانه يؤدكم إلى الجنة إن اللّه حرم حرما غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالإخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فان الناس أمامكم وإنما من خلفتكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحفوا فانما ينتظر الناس أخراهم اتقوا اللّه عباده في عباده وبلاده إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم. أطيعوا اللّه عز وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض.

ولما أراد علي الذهاب إلى بيته قال له السبئية فيما قيل:

خذها إليك واحذرن أبا حسن إنا نمر الأمر إمرار الرسن
صولة أقوام كأسداد السفن بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن حتى يمرن على غير عنن

فقال علي وذكر ما كان:

إني عجزت عجزة لا أعتذر سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلي ما كنت أجر وأجمع الأمر الشتيت المنتشر
إن لم يشاغبني العجول المنتصر أو يتركوني والسلاح يبتدر

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم فقال هم إني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ها هم أولاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم

يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون قالوا لا قال فلا والله فلا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون وفرقة ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا - واشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج وإنما هيجه على ذلك هرب بني أمية وتفرق القوم وبعضهم يقول والله إن ازداد الأمر على انتصار من هؤلاء الأشرار لترك هذا إلى ما قال علي أمثل وبعضهم يقول نقضي الذي علينا ولا نؤخره والله إن علياً لمستغن برأيه وأمره عنا ولا نراه إلا سيكون علي قريش أشد من غيره.

أول أعمال علي:

رأى علي أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيره بن شعبه أولا وابن عباس ثانيا فأبى ذلك إباء تاماً كأنه قد وقر في نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد منهم يوما كاملا نقص في دينه ولو كان الأمر قد استتب وبايعه أهل الأمصار لما كان في عزل الولاة شيء لأن الخليفة هو الذي يعطي الولاة سلطانهم فهو حر في اختيار عماله ولكن هذه السرعة الغريبة لم تفهم مع أنه قبل أن يؤخر الحد على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أن هذا حد من حدود الله.

فرق العمال على الأمصار فأرسل عثمان بن حنيف إلى البصرة وعمارة بن شهاب إلى الكوفة وعبيد الله بن عباس إلى اليمن وقيس بن عبادة إلى مصر وسهل بن حنيف إلى الشام فأما سهل فانه خرج حتى أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت فقال أمير على الشام فقالوا إن كان عثمان بعثك فحيهلا بك

وإن كان غيره بعثك فارجع قال أو ما سمعتم بالذي كان. قالوا بلى فرجع إلى علي.

وأما قيس بن سعد فانه سار حتى أتى مصر فافترق عليه أهلها فرقاً فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتي وقالوا إن قتل عثمان فنحن معكم وإلا فنحن على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا وفرقة فالوا نحن مع علي ما لم يقد إخواننا وهم في ذلك مع الجماعة.

وأما عثمان بن حنيف فانه سار حتى البصرة وكان أهلها فرقاً كأهل مصر وأما عمارة فانه سار حتى إذا كان بزبالة لقيه طليحة بن خويلد الأسدي وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو إلى الطلب بدمه فطلع عليه عمارة فقال له ارجع فان القوم لا يريدون بأميرهم بدلا وإن أبيت ضربت عنقك فرجع عمارة وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن فجمع لعلي كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال.

اضطراب الحبل:

اضطراب الحبل في جميع الأمصار الكبرى الإسلامية.

ففي الشام كان الأمير معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية أميراً على الشام في عهد عمر وعثمان وكان محبوباً من أهله فلما وقع إليه مقتل عثمان واستخلاف علي لم يرض أن يدخل في بيعته لأسباب:

١ ـ أنه يتهم علياً بشيء من أمر عثمان.
٢ ـ آوى قتلته في جيشه.
٣ ـ أنه كان بين الرجلين نفور أدى إلى أن علياً يرى من أول واجباته عزل معاوية عن إمارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الإمارة والعزة نعم ليس من السهل أن يدخل مختاراً في بيعة نتيجتها إذلالة والإستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أليق للإمارة عليهم ولم ير لعلي بيعة توجب عليه طاعة يضطر إليها اضطراراً.

أرسل علي إلى معاوية سبرة الجهني يطلب إليه أن يبايع فلما قدم عليه لم يكتب معاوية إليه بشيء ولم يجبه حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عبس فدفع إليه طوماراً مختوماً عنوانه:

من معاوية إلى علي

وقال له إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العبسي المدينة في غرة ربيع الأول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس. ينظرون فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضى الرسول حتى دخل إلى علي فسلمه الطومار ففضه فلم يجد فيه شيئاً ثم سأل الرسول ما وراءك قال إني تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود قال ممن قال من خيط نفسك وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق فقال علي من يطلبون دم عثمان ألست موتوراً كثرة عثمان اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ومن الغريب أن عليا لما أمر الرجل بالرجوع منه فأراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يا لمضر يا لقيس الخيل والنبل أني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصى فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخلص الرجل إلا بشق الأنفس.

أحب الناس أن يعلموا رأي علي في معاوية وانتقاضه ليعرفوا رايه في قتال أهل القبلة أن يجسر عليه أم ينكل عنه وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس فدسوا إليه زياد بن حنظلة التميمي فجلس إليه ساعة ثم قال له علي يا زياد تيسر فقال لأي شيء قال تعز والشام فيقال زياد الأناة والرفق أمهل:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فقال علي:

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس فسألوه عما وراءه فقال السيف ثم دعا علي ابنه محمداً فأعطاه لواءه وعبأ جنده واستخلف على المدينة قثم بن عباس وأقبل على التهيؤ والتجهز. وبينما هو على ذلك إذ فجأه ما هو أشد عليه من أمر الشام وهو خلاف طلحة والزبير وعائشة ومن لف لفهم وإنهم توجهوا إلى البصرة وذلك أن عائشة كانت خرجت من المدينة وعثمان محصور قاصدة الحج وأن تبتعد عن المدينة في هذه الأوقات وقد علمت وهي بمكة أن عثمان قتل وأنه قد بويع لعلي بعده فخطب الناس بالمسجد الحرام خطبة هذا نصها (إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة إجتمعوا إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلجوا وبادروا بالعدوان ونبا قولهم عن فعلهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم حتى ينكل بهم ويشرد من بعدهم والله لو أن الذين اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كإيماص الثوب بالماء).

كان بمكة في ذلك الوقت عبد الله بن الحضرمي عاملها لعثمان وعبد الله بن عامر قدم من البصرة ويعلي بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من المدينة طلحة والزبير فاجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك في دمه ثم ساروا في وجهتهم هذه وكان يصلي بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج معهم مروان وسائر بني أمية إلا من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما علم بقدومهم عثمان بن جنيف أمير البصرة من قبل علي انتدب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الأسود

الدؤلي ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلا استأذنا على عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما: إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول اللّٰه وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة اللّٰه ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترو ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يؤمنون فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا وقرأت ﴿**لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس**﴾[1] نهض في الإصلاح ممن أمر اللّٰه عز وجل وأمر رسول اللّٰه ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى. إننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره، ثم سألا طلحة ما أقدمك فقال المطالبة بدم عثمان قالا ألم نبايع عليا قال بلى واللج على عنقي وما استقبل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان وقال لهما مثل ذلك الزبير فعاد الرجلان إلى ابن حنيف فأخبراه فعزم على التهيؤ لمنعهم من البصرة ولم يكن أهلها على رأي واحد فلما قدم جيش عائشة إلى البصرة خرج إليهم من أهلها من هو على رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معه في ميسرة المربد ووقف الآخرون في ميمنته فتكلم طلحة والزبير محرضين على المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكان يكون بين الفريقين شر فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة وخطبت الناس في معنى ما جاءت له فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين فرقة قالت صدقت واللّٰه وبرت وجاءت بالمعروف وفرقة لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حكيم بن جبلة فأنشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا ليمسك حكيم ومن معه فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى حجز بينهم الليل وفي غد ذلك اليوم

---

(١) سورة النساء: الآية ١١٤.

خرج عثمان وخرج حكيم فقاتلوا إلى أن زال النهار ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون حتى إذا مسهم الشر وعضهم نادوا بالصلح فاصطلحوا على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فإن كانا قد بايعا كرها فالأمر أمرهما وإلا فالأمر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولا هو كعب بن سور قاضي البصرة فسار حتى أتى المدينة يوم جمعه فدخل المسجد ونادى يا أهل المدينة إني رسول البصرة إليكم أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علي أم أتيا طائعين فلم يجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد فانه قام فقال اللهم إنهما لم يبايعا وإلا وهما كارهين فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليه لولا أن قام فخلصه من أيديهم صهيب بن سنان وأبو أيوب الأنصاري في عدة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة وأخذ بيده صهيب إلى داره وقال أما وسعك ما وسعنا من السكوت وعند ذلك رجع كعب إلى البصرة. وكان علي لما علم بخبر كعب كتب إلى عثمان يعجزه ويقول والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل وإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا فلما عاد كعب إلى البصرة وورد الكتاب طلب طلحة والزبير من عثمان أن يخلي لهم الأمر فلم يفعل فهاجموه وأخذوه وقد أمرت عائشة بأن يترك ليسير حيث شاء فترك البصرة وعاد إلى علي وكان لحكيم بن جبلة معهم مناوشات قتل في نهايتها وقتل معه عدد عظيم ممن له شركة في دم عثمان ثم نادى منادى الزبير وطلحة بالبصرة ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فيأتنا بهم فجيء بهم أذلاء فقتلوه، ثم أقام ذلك الجيش بالبصرة وكتبوا بأخبارهم إلى أهل الشام وإلى أهل الكوفة يطلبون إليهم أن يقوموا بمثل ما قاموا هم به. واستمروا منتظرين ما تأتيهم به الأقدار.

روى الطبري عن علقمة بن وقاص الليثي قال لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة، وأحب المجالس إليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره، فقلت يا أبا محمد أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيته إلى زورك ألا كرهت شيئاً فاجلس، فقال يا علقمة بينا نحن يد واحدة على من

سوانا، صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا، وإنه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا يسفك دمي في طلب دمه، قلت: فرد محمد بن طلحة: فان لك ضيعة وعيالا فان بك شيء فقال ما أحب أن أرى أحداً يخلف في هذا الأمر فأمنعه فأتيت محمد بن طلحة فقلت له لو أقمت فان حدث به حدث كنت تخلفه في عياله وضيعته قال ما أحب أن أسأل الرجال عن أمره.

الجمل - صفين

أمر علي:

لما بلغ علياً مسير من سار إلى البصرة وهو يتهيأ للشام رأى أن يبدأ بهذا الفتق وكان يحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا البصرة، فلما وصل الربذة بلغه أنهم فاتوه فبعث إلى أهل الكوفة يطلب إليهم أن ينفروا إلى معاونته على المخالفين. ولما وصلت الرسل الكوفة جاء الناس إلى أميرهم أبي موسى يستشيرونه في الأمر فقام فيهم خطيباً، وكان آخر خطبته: أما إذا كان ما كان، فانها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فأغمدوا السيوف، وأنصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة فتكلمت رسل علي وأغلظت لأبي موسى القول، ولما كان الحسن بن علي ممن أرسل في هذه الوفادة قال لأهل الكوفة: يا أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم فانه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يأتيه أولو النهي أمثل في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به، فسامح الناس وأجابوا ورضوا به، وقال لهم الحسن إني غاد فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ومن شاء فليخرج في الماء فقفز من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم الماء وقد قابلته الجنود البرية بذي قار فقال لهم قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فان يرجعوا فذاك ما نريد وإن يلحوا داويناهم بالرفق وبايعناهم حتى يبدأوا بظلم ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد

إن شاء اللّه ثم إن علياً اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة فسار حتى أتى عائشة فقال: أي أمة ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت أي بني إصلاح بين الناس. فطلب أن يحضر طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما، فلما جاءا أخبرا أن مقصدهما كمقصد عائشة، فقال لهما القعقاع: ما هذا الإصلاح، قالا قتلة عثمان فان هذا إن ترك كان تركا للقرآن وإن عمل كان إحياء للقرآن فقال قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الإستقامة عنكم اليوم قتلتم ستمائة رجل إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم طلبتم ذاك الذي قلت (حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم قربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير ولا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة وان أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر بعثه اللّه في هذه الأمة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكانوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم وأيم اللّه أني لأقول هذا وأدعوكم إليه واني خائف أن لا يتم حتى يأخذ اللّه من هذه الأمة التي قل متاعها ونزل بها ما نزل فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل. فقال له القوم أحسنت وأصبت فإن جاء علي بمثل ما قلت صلح الأمر فرجع القعقاع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح. ثم أمر بالرحيل وقال من ضمن خطابه: ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس ولعن السفهاء عنى أنفسهم. فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض إن اجتمع الناس غداً واصطلحوا

فليس الصلح إلا علينا فقال لهم ابن السوداء إن عزكم في خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فإذا من أنتم معه لا يجد بدأ من أن يمتنع ويشغل اللّه علياً وطلحة والزبير عما تكرهون فاتفقوا على ذلك والناس لا يشعرون، ولما وصل علي إلى البصرة بعث إلى القوم إن كنتم على ما فارقتم القعقاع فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الأمر فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل، قام السبئيون في الغلس ووضعوا السلاح في عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير ما هذا؟ قالوا أطرقنا أهل الكوفة ليلاً فقال قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة ولأنه لن يطاوعنا وسأل علي عن الخبر وكان السبئيون قد وضعوا رجلاً قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له ما فجئنا إلا وقوم منهم يبيتونا فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال علي قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يطاوعانا ولم يجد الفريقان في ذلك الوقت أبداً من القتال وكانت عائشة في هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون فإنهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعاً دينياً وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة حتى لا تصاب بشر فقتل حوله عدد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول:

نحن بني ضبة أصحاب الجمل — ننعى ابن عفان بأطراف الأسل
الموت أحلى عندنا من العسل — ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل رأى الناس لا تسلمه أبداً وفيهم عين تطرف نادي اعقروا الجمل فجاء الجمل إنسان من خلفه وعقره فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفذ مما رمي فيه من النبل فجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فقطعا مرضة الرحل واحتملا الهودج فنجياه من القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة؛ وقد ترك الناس والضعف ظاهر فيهم الزبير بن العوام وأراد

اللحاق بالمدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فأتبعه حتى إذا كان بوادي السباع غافله فقتله.

قتل في هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من أعلامهم منهم طلحة وإبنه محمد والزبير (وكاد يقتل عبد اللّه) وعبد الرحمن ابن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب.

وبعد أن أنتهت الموقعة مرَّ علي بين القتلى فكلما رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم قال زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً. وبعد ذلك زار عائشة في البيت الذي نزلت فيه فسلم عليها وقعد عندها ثم أمر بأن تجهز إلى المدينة فجهزت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها ودعها بنفسه وقد قالت وسط مشيعيها إنه واللّه ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وأنه عندي على معتبتي من الأخيار وقال علي أيها الناس صدقت واللّه وبرت ما كان بيني وبينها إلا ذلك وأنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ هـ وشيعها علي أميالا وسرح بنيه معها يوماً.

بعد انتهاء الموقعة أخذ على بيعة أهل البصرة وأمر عليها عبد اللّه بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبي سفيان.

هكذا إنتهت هذه الموقعة التي سهلت على المسلمين فيها بعد أن يقف بعضهم بإزاء بعض محاربين يستحل كل دم الآخر بعد أن كان ذلك الموقف في نظرهم عظيماً مهيباً.

لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فان طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذي سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر في تحقيق هذه القضية وإقامة الحد على من يستحقه إن إعطاء الحق للأفراد في أن يتجمعوا لإقامة حد قصر الإمام في إقامته أو أتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذي أسس عليه الإسلام وإذا كانوا لا

يرون الإمامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أو للنظر في أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك في إقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه ولا ندري كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ولكنهم يقولون إن الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبينت ولم يكن عند علي بن أبي طالب من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع أحسن مما كان حقيقة أن أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين كليهما ولكن هذا عيب كبير في قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقة من جيشه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه وإن هو قادم عليه وإن من الخطأ العظيم أن يستعين علي بمثل هذه الفرقة السبئية وتأوى إلى جنده في الوقت الذي يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فانهم بالضرورة لا يحسن في نظرهم أن يتفق على ذلك لأن الإتفاق إنما يقع على رؤوسهم فهم يبذلون كل جهدهم في تضييق المسالك على كل من يريد الإصلاح حفظاً لأنفسهم على أن مجرد وجودهم في جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول اشتراكه في الدم المسفوك وإن كان ينكر ذلك إنكاراً تاما وهو عند الصادق في قوله والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لا يكفي لبراءة الإنسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عما يحدث الريبة وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والأناءة ما يعيد الخارج عليه أن حظيرته والكي لا يكون إلا آخر الدواء.

أمر صفين

لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولا وأفظع أمراً وهو الحرب في صفين.

إنصرف علي من البصرة إلى الكوفة فاختار جرير بن عبد اللّه البجلي ليكون رسولا إلى معاوية بن أبي سفيان يطلب إليه البيعة فشخص جرير إلى دمشق وأنهى إلى معاوية ما جاء له فماطله واستنظره، وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم والشام مجمع أجناد المسلمين لأنها ثغر عظيم يجاوز الأمة الرومية التي لم تزل حافظة من قوتها فكانت الجنود الإسلامية هناك على غاية الإستعداد. عاشرهم معاوية طويلاً وهو الرجل السياسي المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا أطوع أمره ما أمرهم ائتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة علي ويتهمه بالإشتراك في دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم إلى جيشه ولم يعمل أي عمل في القصاص منهم فجاء جرير عليا أخبره بما عليه أهل الشام فلم ير إلا المسير والقتال خرج فعسكر بالنخيلة وبلغ معاوية خروجه إليه بنفسه فخرج إليه بأهل الشام أخذ علي بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة. هناك قدم طلائعه أمامه حتى إذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي معاوية فعكسرت الطائفتان في سهل صفين وتواقفت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض.

إختار علي ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معاوية يطلبون إليه الطاعة وهم بشير بن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعى التميمي فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن اللّه محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك؛ وإني أنشدك اللّه أن لا تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها؛ فقال له معاوية هلا أوصيت صاحبك بذلك فقال إن صاحبي ليس مثلك إن صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول ﷺ قال فيقول ماذا؟ قال يأمرك بطاعة اللّه

وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك قال معاوية ونطل دم عثمان لا واللَّه لا أفعل ذلك أبداً فقام شبت فقال يا معاوية إني قد فهمت ما رددت إنه واللَّه لا يخفي علينا ما تغزو وما تطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أن قد أبطأت هنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ورب متمن أمر وطالبه يحول اللَّه عز وجل دونه بقدرته وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته وواللَّه مالك في واحدة منهما خير لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالا في ذلك ولئن أصيبت وما تمني لا تصيبه حتى تستحيل من ربك صلى النار فاتق اللَّه يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الأمر أهله. ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة إلا رد شديد وأمره إياهم بالإنصراف، فأتوا علياً وأخبروه بالخبر.

كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقي جموع الشام بجموع العراق خوفاً من الإستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذي الحجة سنة ٣٦ هـ فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعاً في الصلح واختلفت بينهما الرسل في ذلك فبعث علي عدي ويزيد بن قيس الأرحبي وزياد بن حصفة وشيث بن ربعي وهو أحد الرسل في المرة الأولى وربما كان حمقه سبباً في عدم النجاح. لما دخلوا على معاوية بدأ عدي فقال إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع اللَّه عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين إن ابن عم سيد المرسلين أفضلنا سابقة وأحسننا في الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم اللَّه بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانته يا معاوية لا يصبك اللَّه وأصحابك بيوم الجمل فقال معاوية كأنك إنما جئت مهدداً ولم تأت مصلحاً هيهات يا عدي كلا واللَّه إني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان وإنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قتلته وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل اللَّه هيهات. يا عدي قد

حللت بـالساعـد الأشذ فقـال شيث وزيادة أتينـاك فيها يصلحنـا وإيـاك فـأقبلت تضـرب لنا الأمثـال دع ما ينتفـع به من القـول والفعل وأجبنـا فيها يعمنـا وإياك نفعه وقال يزيـد بن قيس إنا لم نأت إلا لنبلغـك ما بعثنـا به إليـك ولنؤدي عنك ما سمعنا منـك ونحن على ذلـك لن ندع أن ننصـح لك وأن نـذكر مـا ظننا أنـا لنـا عليك بـه حجة وإنـك راجع بـه إلى الألفة والجماعـة إن صـاحبنـا من قـد عـرفت وعرف المسلمـون فضله ولا أظنه يخفي عليـك أن أهل الـدين والفضـل لن يعدلوا بعـلي ولن يميل بينـك وبينه فـاتق اللّه يا معـاوية ولا تخـالف علياً فـإنا واللّه مـا رأينا رجـلاً قط أعمل بـالتقوى ولا أزهـد في الدنيـا ولا أجمـع الخصـال لخصال الخير كلها منه فقال معاوية أما بعـد فإنكم دعـوتم إلى الطاعـة والجماعـة فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنـا هي وأما الـطاعة لصـاحبكم فإنـا لا نراهـا إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثـأرنا وقتلتنـا وصاحبكم يـزعم أنه لم يقتله فنحن لا نـرد ذلـك عليـه أرأيتم قتلة صـاحبنـا ألستم تعلمـون أنهم أصحـاب صـاحبكم فليعـدهم إلينـا فلنقتلهم بـه ثم نحن نجيبكم إلى الـطاعة والجماعة، فقال له شيث أيسرك يا معاوية أنـك إن مكنت من عمار تقتله فقـال وما يمنعني من ذلك واللّه لـو أمكنت من ابن سمية مـا قتلته بعثمـان ولكن كنت قـاتله بنـائل مـولى عثمـان فقـال شيث لاتصـل إلى عمـار حتى تنـدر الهـام عن كواهل الأقـوام وتضيق الأرض الفضاء عليـك برحبهـا فقال معـاوية إنـه لو قـد كان ذلك كـانت الأرض عليك أضيق وبـذلك انتهت هـذه السفارة التي لم يكن يـظن أن تنتهي إلا بمثـل مـا إنتهت إليـه، لأنـه كـان من الضـروري أن تكـون قاعدة الصلح والدعوة شيئـاً في مصلحة كـل من الطرفـين يتناول هـذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحا. أما هذه السفارة فقـد كانت دعـوة كسوابقهـا مـع ما في بعض الـداعين من هـذه الشدة التي تفسـد القلوب وتبـاعـد مـا بينهـا وأرسـل معـاويـة إلى عـلي حبيب بن مسلمـة الفهـري وشـرحبيـل بن السمط ومعن بن يزيد والأخنس بن شريق فدخلوا عليـه فتكلم حبيب فقال؛ أمـا بعد: فـإن عثمان بن عفـان كان خليفـة مهديـا يعمل بكتـاب اللّه وينيب إلى أمـر اللّه فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتمـوه فادفـع إلينا قتلة عثمـان

إن زعمت أنك لم تقتله به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم، فقال له: ما أنت لا أم لك والعزل وهذا الأمر اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال والله لتريني بحيث تكره فقال علي وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن بقيت على أحقره وسواء أذهب فصوب وصعد ما بدالك وقال شرحبيل بن السمط إن كلمتك فلعمري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذي أجبت به فقال نعم فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول ﷺ وهدايته للناس ثم قبضه الله اليه واستخلف الناس أبا بكر وأخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله فغفرنا ذلك لهما وولى عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا إليه فقتلوه ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لي بايع فأبيت عليهم فقالوا لي بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام طليق ابن طليق حزب من هذه الأحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين فلا غرو إلا خلافكم معه وانقيادكم معه وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلفهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً ألا وإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين. فقال له شرحبيل اشهد أن عثمان قتل مظلوماً فقال لهما لا أقول إنه قتل مظلوماً ولا أنه قتل ظالماً قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء ثم انصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول. . . . لما انسلخ المحرم أمر علي من ينادي ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم إني قد أستدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم إليه تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا إلى حق وإني قد نبذت اليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ففزع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم وكتبوا كتائبهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش. وفي غد ذلك اليوم

وهو يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ هـ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجهاً لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال علي لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جميل التغلبي.

أصبحت الأمة في أمر عجب　　والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولا صادقاً غير كذب　　إن غداً تهلك أعلام العرب

وفي الصباح زحف علي بجنود أهل العراق وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك يوم مشئوم لا يزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك الحادث إلى الآن. تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الأول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وإنتهت هزيمتهم إلى علي فمشى نحو الميسرة فإنكشفت عنه مضر في الميسرة وثبتت ربيعة ومر به في ذلك الوقت الأشتر النخعي فقال له علي أنت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت فلما هب إليهم الأشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معه فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها ولا لجمع إلا حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الأشتر في هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول أردت في هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الإطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي　　وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي　　وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت　　مكانك تحمدي أو تستريحي

فمنعني هذا القول من الفرار. وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر.

ولما أمسى على الفريقين لم يتصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل

ويسمون هذه الليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى إذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلى يمده بالرجال لما رأى من ظفره. وبيناهم في الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت على رؤوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول هذا كتاب اللّه عز وجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى أهل لعراق المصاحف مرفوعة قالوا اجيب إلى كتاب اللّه فقال لهم علي يا عباد اللّه امضوا على حقكم وصدقكم فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم صحبتهم أطفالاً وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم أنهم ما رفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها وما رفعها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة فقالوا ما يسعنا أن ندعي إلى كتاب اللّه عز وجل فنأبى أن نقبله، وقال مسعر بن فدكي التميمي وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب اللّه إذا دعيت إليه بن فدكي التميمي وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب اللّه إذا دعيت إليه وإلا ندفعك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بإبن عفان إنه علينا أن نعمل بما في كتاب اللّه عز وجل لتفعلنها أو لنفعلنها بك. ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال، فأرسل إليه رسولا فقال الأشتر للرسول ليست هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي، إني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني فرجع الرسول بالخبر فما إنتهى إليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر فقال له القوم واللّه ما نراك إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا إبعث إليه فليأتك وإلا واللّه اعتزلناك فقال للرسول ويحك، قل للأشتر أقبل فإن الفتنة قد وقعت فلم يسعه إلا المجيء وترك ساحة الحرب ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب إليه قال له معاوية نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر اللّه في كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب اللّه لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الأشعث هذا الحق ثم

رجع إلى علي فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا، فقال أهل الشام قد اخترنا عمرو بن العاص فقال الأشعث ومن تابعه وإنا قد رضينا أبا موسى الأشعري فقال علي قد عصيتموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن وبين لهم تخوفه من أبي موسى لأنه كان يخذل الناس عنه فأبوا إلا إياه فاضطر علي للسير على ما رأوا.

عقد التحكيم
نتائجه ـ الخوارج

عقد التحكيم:

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضي علي على الكوفة ومن منعهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحي ما أحيا ونميت ما أمات؛ فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملا به وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما في هذه الصحيفة، وإني قد أوجبت قضيتهما على المؤمنين والإستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يراداها في حرب ولا فرقة حتى يعصبا وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحبنا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراضي منهما وإن توفي أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألوا من أهل المعدلة والقسط وإن قضيتهما الذي يقضيان فيه مكانه عدل بين أهل الكوفة أهل

الشام وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أراد، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة وهم أنصار علي من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه لحاداً وظلماً «اللهم إنا نستنصرك على من ترون ما في هذه الصحيفة ويلي ذلك أسماء الشهود من الطرفين ـ ١٥ صفر سنة ٣٧ هـ.

وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التي قتل فيها من شجعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفا وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله ﷺ إلى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالأمة وإنما كانت لنصرة شخص على شخص فشيعة علي تنصره لأنه ابن عم رسول الله ﷺ وأحق الناس بولاية الأمر وشيعة معاوية تنصره لأنه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلماً ولا يرون أنه ينبغي لهم مبايعة من آوى إليه قتلته.

يظهر للمتتبع أخبار ما بين علي ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام فعلي يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى في معاوية انحطاطاً هائلا عنه ولماذا؟ لأنه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله ﷺ وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا في الإسلام إلا كرها حينما لم يجدوا مناصاً من ذلك وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم إلا مرغماً لأنه لم يجد له أنصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن في وقت بايعه الناس فيه بالخلافة وردوا إليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه كان إذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الإحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به إنسان ولا ينظر أن

الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الأمة الإسلامية ومثله لا ينال إلا بالأناءة وشيء من المصانعة والسهولة وهذه أشياء لم ير على أن ينزل إليها أما معاوية فإنه بدون ريب كان يرى نفسه عظيماً من عظماء قريش لأنه ابن شيخها أبي سفيان بن حرب وأكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن علياً أكبر ولد هاشم بن عبد مناف سيان في الرفعة النسبية ثم كان يرى النبي ﷺ والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهي أعظم بلدان المسلمين بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والأثر الصالح في حماية الثغور الرومية وهو يعلم أن علياً لا ينظر إليه بتلك العين التي كان ينظر له بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن أنضمامه إلى علي يحطه عن تلك المنزلة السامية التي نالها ومن يدري ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة اذا وجد أمامه شبهاً تفسح له المجال في تلك المناواة

١ ـ أنه لم يستشر في تلك البيعة وهو من أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت إمرته جند من جنود المسلمين لا يقل عن مئى ألف.

٢ ـ أن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة علي.

٣ ـ أن أول من ندبه للخلافة هم الثائرون على عثمان الذين قتلوه.

٤ ـ أنه آواهم في جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم على فعلتهم ـ كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع في المذلة والمهانة.

شخصان ينظر كل منهما إلى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما إلى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رؤوسهم من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار مراسلتهم بالشيء الذي يصح أن يكون قاعدة بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلي كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صلح حتى إن رسله التي يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولا أن يسلم قتلة عثمان إليه ليقتص

منهم ثم يكون الأمر شورى بينهم وكلا الأمرين لا يرضي به علي أما قتلة عثمان فلأنه إذا أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما الثانية فلأنه لا يترك حقا قد ثبت له بالبيعة التي رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمنل معاوية في نفسه أضف إلى ذلك أن فرقة السبئية التي كانت تتخلل جند علي لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكنون عن حمل الحطب لإشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذي إتفق عليه الطرفان وإن نتيجة من أسوأ النتائج في جند علي.

نتائج التحكيم:

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق أما جند علي فإن الأشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم يقرؤنه حتى مر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبي بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون في أمر اللّٰه الرجال لا حكم إلا للّٰه ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فمشى رؤساء بني تميم فتنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة.

روى الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع علي إلى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء اللّٰه أدهنتم في أمر اللّٰه وحكمتم وقال الآخرون فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل علي الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفا ونادى مناديهم إن أمير القتال شيث بن ربعى التميمي (وهذا كان رسول علي إلى معاوية وكان يتوقح في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع علياً وهو سيد المسلمين وابن عم سيد المسلمين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد اللّٰه بن الكواء اليشكري

والأمـر بعد الفتـح والبيعة للّه عـز وجـل والأمـر بـالمعـروف والنهي عن المنكـر. فبعث إليهم عـلي عبد اللّه بن عبـاس وقـال لـه تعجـل في جـوابهم وخصـومتهم حتى آتيك فخرج إليهم ابن عبـاس فأقبلوا عليـه يكلمونـه فلم يصبر عليهم بـل قـال ما نقمتم من الحكمـين وقد قـال اللّه عز وجـل ﴿إن يريـدا إصلاحـا يوفق اللّه بينهما﴾[١] فكيف بأمـة محمد ﷺ فقال له أماما جعل حكمه إلى الناس وأمر بـالنظر فيـه والإصلاح لـه فهو إليهم كـما أمر بـه ـ أما مـا حكم فـأمضـاه فليس للعباد أن ينظروا فيه. حكم في الزاني مـائة جلدة وفي السـارق بقطع يـده فليس للعباد أن ينظروا في هـذا قال ابن عبـاس فإن اللّه عـز وجل يحكم بـه ذوو عدل منكم فقـالوا لـه أو تجعل الحكم في الصيـد والحدث يكـون بـين المـرأة وزوجهـا كالحكم في دماء المسلمين، وقالوا إن هذه الآية بيننا، أعـدل عندك ابن العـاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفـك دماءنـا فإن عـدلا فلسنا بعـدول ونحن أهل حـزبه وقـد حكمتم في أمر اللّه الـرجال وقـد أمضى اللّه حكمه في معـاوية وحـزبـه أن يقتلوا أو يـرجعوا وقبـل ذلك مـا دعونـاهم إلى كتاب اللّه فـأبوه ثم كتبتم بينكم وبينـه كتابـا وجعلتم بينكم وبينه المـوادعـة والاستفـاضـة وقـد قـطع عـز وجـل الإستفـاضة والمـوادعة بـين المسلمين وأهـل الحرب منـذ نزلت بـراءة إلا من أقر بالجزية ثم جاء علي فوجد قوما ابن عباس يخـاصمهم فقال لـه إنته عن كـلامهم ألم أنهك. ثم سـألهم مـا أخـرجكم علينـا قـالـوا حكـومتكم يـوم صفـين فقـال أنشدكـم اللّه ألست قد نهيتكم عن قبـول التحكيم بل فـرددتم عـلى رأيي ولـما أبيتم إلا ذلـك اشترطتم عـلى الحكمـين أن يحييـا مـا أحيـا القـرآن وأن يميتـا مـا أمـات القـرآن حكـما بحكم القـرآن فليس لنـا أن نخـالف حكـما يحكم بما في القـرآن وإن أبيا فنحن من حكمهـما بـراء قـالوا لـه فخبـرنـا أتـراه عـدلا تحكيم الرجال في الدماء فقال إنا لسنا حكمنا الـرجال إنمـا حكمنا القـرآن وهذا القـرآن إنما هو خط مسطور بين دفتـين لا ينطق بـه الرجـال قالـوا فخبرنـا عن الآجل لم جعلتـه فيما بينـك وبينهم قال ليعلم الجـاهل ويتثبت العـالم ولعل اللّه عـز وجـل

---

(١) سورة النساء: الآية ٣٥.

يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة أدخلوا مصركم رحمكم اللّه. والخوارج يدعون أنهم قالوا إن التحكيم كان منا كفراً وقد تبنا إلى اللّه فتب كما تبنا نبايعك وإلا فنحن مخالفون فبايعهم علي وقال أدخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا فدخلوا على ذلك وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أن علياً كان إماماً بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغي وهم يرون أن مرتكب الكبيرة كافراً فإذا يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب اللّه ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن والحدود المقررة لا معنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع إن قضى بخلافة. ولما كان معاوية ومن معه يستحقون في نظرهم هذه العقوبة نصا فاللين معهم ومهادنتهم إدهان في دين اللّه وتحكيم للرجال لا حكم فيه إلا وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لا يصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلي ولا حرمة لمن اتبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم في نظرهم كجند معاوية سواء بسواء: فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هي أيضاً باطلة. أما كون جريمة العصيان ومحاربة اللّه والرسول لها حد مقرر في كتاب اللّه فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج إلى النظر فإن إدعى أن له شبهاً في نفس إمامة الإمام أهي منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيماً للرجال في دين اللّه وإنما هو تحكيم في صحة وصف ينبني عليه حكم فإن القاضي الذي ترفع إليه قضية سرقة لا يطلب منه الإجتهاد في أن السارق تقطع يده أو لا تقطع وإنما يطلب منه الإجتهاد في معرفة أهذا سارق أم غير سارق فإذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتماً أن يحكم بقطع اليد فإن قالوا إن التحكيم من علي شك في إقامته والشاك لا يجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بأمر مشكوك في صحته كان هذا باطلا أيضاً لأن صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له. فإذا رأى من خصمه إنكاراً أو تمسكاً بشبه فإنه لا طريق أمامه إلا أن يرفع الأمر لقاض أو محكمين يكون حكمهما قاطعا لنزاع خصمه، وعلى الجملة فإن هذه الفئة الجديدة قد بنت أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة، وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق

يستحل بعضها دماء بعض وصار لعلي عدوان والمتتبع لأحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر حتى صار عندهم حقيقة من الحقائق التي لا ينكرها إلا غاو في نظرهم وإلا فكيف يؤول فعلهم؟ كانوا بالأمس يرون في علي أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين واليوم يباينونه هذه المباينة ويرون أنه ضل في التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة وأن كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد.

إجتماع الحكمين

لما حل أجل اجتماع الحكمين: بعث علي أربعمائة رجل عليهم شرح بن هانىء الحارثي ومعهم ابن عباس يصلي بهم ويلي أمورهم وأبو موسى الأشعري معهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة من أهل الشام فتوافقوا بدومة الجندل باذرح وكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدري بما جاء به ولا بما رجع به ولا يسأله أهل الشام عن شيء وإذا جاء رسول علي جاء أهل العراق إلى ابن عباس فسألوه ما كتب إليك أمير المؤمنين فإن كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا ما نراه إلا كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس أما تعقلون أما ترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به، ويرجع لا يعلم بما رجع به، ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وأنتم عندي كل يوم تظنون الظنون، وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن الحارث بن هشام المخزومي والمغيرة بن شعبة وغيرهم.

اجتمع الحكمان وبحثا فيما جاء وهو إصلاح ما بين الناس فتكلم عمر وقال ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوماً قال أبو موسى أشهد ـ قال عمرو ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ـ قال بلى ـ قال عمرو فإن الله يقول **﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً﴾** [1] فما يمنعم من معاوية ولي عثمان يا أبا موسى وبيته في قريش كما قد علمت فإن

---

(١) سورة الاسراء: الآية ٣٣.

تخوفت أن يقول الناس ولي معاوية وليست له سابقة فإن لك بذلك حجة تقول إني وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه ألحسن السياسة ألحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول اللّه ﷺ وقد صحبه فهو أحد الصحابة. ثم عرض له بالسلطان بقوله إن ولي أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة فقال أبو موسى يا عمر واتق اللّه فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع أني لو كنت معطية أفضل قريش أعطيته على أبي طالب وأما قولك إن معاوية ولي دم عثمان قوله هذا الأمر فإني لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين وأما تعريضك لي بالسلطان فواللّه لو خرج من سلطانه كله ما وليته وما كنت لأرتشي في حكم اللّه عز وجل ولكنك إن شئت أحيينا إسم عمر بن الخطاب فقال عمرو وإن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من إبني وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال إن إبنك رجل صدق ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة. وهذه المناقشة تدل على أنهما قد اتفقا على خلع المتنازعين واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذ اتفقا أن يكون الأمر شورى بين الناس يولون من رضوا ولم يبق إلا إعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجا وكان عمرو يقدم أبا موسى في كل كلام فتقدم أبو موسى فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأيي ورأي عمر وهو أن نخلع علياً ومعاوية وتستقبل هذه الأمة فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد اللّه وأثنى عليه وقال إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنابزوا - ويروى المسعودي أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتبا صحيفة فيها خلع علي ومعاوية وإن المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب في نظرنا إلى المعقول وإن لهج كثير من المؤرخين بذكر الأول لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وأن الخديعة تمت على أبي موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئاً لأن الذي ثبته

إنما هو حكمه والذي يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضي به أحد الحكمين ولم ينقل أحد أن أبا موسى رضي في خطابه ببيعة معاوية.

ومن الوقت الذي جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الإنسان بأنه لا يؤدي إلى نتيجة لأن أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ويتمنى لو وصل إلى ما يريد من أي طريق يسلكه وقرينه يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلا يهمه إلا أن يصل إلى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخداع ومثل هذين لا يتفقان. قال المغيرة بن شعبة لبعض من معه من قريش سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان فدخل على عمرو فقال يا أبا عبد اللّه أخبرني عما أسألك عنه كيف ترانا معشر المعتزلة فأنا قد شككنا في الأمر الذي قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن نتأتى ونثبت حتى تجمع الأمة فقال عمرو وأراكم يا معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار ثم جاء أبا موسى فسأله كما سأل عمرو فقال له أراكم أثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة إلى أصحابه وقال لهم لا يجتمع هذان على أمر واحد.

لم يكن علي ليرضى بهذا الحكم الذي تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد إلى الحكمين أن يحكما بهما ورضي به معاوية طبعاً لأن أقل ما في الحكم أن ليس الأمر لعلي وصار الأمر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم ويختارونه ولا يفضلون عليه أحداً فزادت آماله في أن يكون خليفة المسلمين.

رأى علي أنه لا بد له من معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابه ولكن عرض له معاودة الخوارج لخروجهم فإنه لما أراد أن يبعث أبا موسى كره الخوارج ذلك لأنهم كانوا يظنون أن علياً وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه إنسان فقال له أن الناس قد تحدثوا أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعابه فوثبوا من نواحي المسجد يقولون لا حكم إلا اللّه وعلي يقول كلمة حق أريد بها باطل وعند ذلك اجتمعت الخوارج في

منزل عبد اللّه بن وهب الراسي فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال في آخر خطابه فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه البلاد أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلا فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأباهم ثم عرضوها على عبد اللّه بن وهب فقال هاتوها أما واللّه لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحدانا مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهر وإن كتب ابن وهب للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الأمر ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة علي إليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت وبعد هذا الخروج وعلمه بما فعل أبو موسى خطب أهل الكوفة فقال الحمد للّه وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل وأشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه أما بعد فإن المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمرى ونحلتكم رأيي لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوزان.

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى مكان الهدى أو أنني غير مهند
وهل أنا إلا من غزية إن غويت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه لغير هدى من اللّه حكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا في حكمهما وكلامهما ولم يرشد فيرى اللّه منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام وأصبحوا في معسكركم إن شاء اللّه يوم الإثنين. وكتب إلى الخوارج يدعوهم إلى المجيء لحرب أهل الشام فكتبوا إليه (أما بعد لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إن اللّه لا يحب الخائفين) فلما قرأ كتابهم أيس منهم وأراد أن

يـدعهم ويسير إلى الشـام فخرج حتى عسكـر بـالنخيلة ومن هنـاك كتب إلى ابن عباس يأمره أن يرسل إليه جنـد البصرة وإلى أمـير المدائن يـأمره أن يـرسل إليـه جندها فاجتمع عنده نحو سبعـين ألف جندي هنـاك بلغه أن النـاس يقولـون لو سار بنا إليّ هذه الحرورية فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام فقام فيهم خطيبا وبين هم أن قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس يا أمير المؤمنين سر بنا إلى ما أحببت. بلغ علياً وهو في مقامـه بالنخيلة أن الخـوارج اعترضـوا الناس وقتلوا منهم فأرسل رسولاً ليعلم جلية الخبر فقتلوه ولما جـاءه ذلك الخبـر قال النـّاس يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنـا وعيالنـا سر بنا إلى القـوم فـإذا فرغنـا مما بيننـا وبينهم سرنـا إلى عدونـا من أهـل الشـام فلم يجـد بـداً من موافقتهم ونادى بـالرحيـل فلما وصلهم أرسل إليهم أن ادفعـوا إلينا قتلة إخـواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنـا تارككم وكـاف عنكم حتى ألقي أهل الشـام فلعل اللّه يقلب قلوبكم ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم فبعثوا إليـه وكلنا نستحـل دماءهم ودماءكم. ولم تنجح فيهم تلك الخطب الرائعة والـوصايـا العظيمـة التي نطق بها وهم يسمعون فرفع راية مـع أبي أيوب الأنصـاري ونادى من جـاء هذه الـراية منكم ممن لم يقتـل ولم يستعرض فهـو آمن ومن انصرف إلى الكـوفة أو إلى المدائن وخرج من هـذه الجماعـة فهو آمن إنـه لا حاجـة لنا بعـد أن نصيب قتلة إخواننا منكم في سفك دمائكم فانصرف منهم جمع وخرج إلى علي جمع وبقي مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى الحـرب بين الفـريقين وانتهت في ذلك اليوم بقتـل ابن وهب ومعظـم من معـه ووجدوا من جـرحاهم نحـواً من ٤٠٠ فأمر بهم علي فدفعوا إلى عشائرهم وقال احملوهم معكم فداووهم فإذا برئوا فخذوهم معكم إلى الكوفة ولما تم لعلي الظفر قال للناس توجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين نفذت نبالنا وكلت سيوفنا وفصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عـدتنا ولعـل أمير المؤمـنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فإنه أوفى لنـا على عـدونا: فلما نـزل النخيلة أمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهـاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسـائهم وأبنائهم حتى يسيروا ألى عـدوهم فأقـاموا هنـاك أيامـاً ثم تسللوا من معسكرهم

فدخلوا إلا رجالا من وجوه الناس قليلا وترك المعسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه في المسير وبعد أيام دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذي ينظرهم فمنهم المعتل ومنهم المكره وأقلهم من نشط: وهو في كل يوم يلقي عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك وصار في جدال لا يمر ولا يحلى ضعف سلطان أمامهم وفضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التي كادت تستأصلهم.

هذه كانت حال أهل العراق مع إمامهم. أما حال أهل الشام مع إمامهم فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة وفي هذه كفاية لمن يريد العظائم وكذلك كان شأنه دائماً في علو إلى ما يستعين به من الحيل.

كان مما يهم معاوية أن يستولي على مصر فإنها متاخمة له وهي مورد رزق عظيم للجنود فأعمل لذلك الرأي ونجح. كان محمد بن أبي حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها واستولى عليها وافترق عليه أهل مصر فلما تم الأمر لعلي ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة وهو من عظماء شيعته وكانت ولايته في بدء سنة ٣٦ هـ وكان رجلاً سياسياً خبيراً بالأمور فاستقامت له الأمور بمصر إلا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خربتي قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسلمة بن مخلد الأنصاري فبعث إليهم قيس إني أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم؛ كان أثقل شيء على معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يقبل إليه بأهل العراق ويقبل إليه سعد بأهل مصر فيقع بينهما فكاتبه معاوية ومناه فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدي له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب إليه كتابا لا يستبين مراده منه إلا أنه قال أنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلي شيء تكرهه فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك، مكايدة فكتب له كتاباً آخر يطلب منه التصريح برأيه ولما رأى قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتاباً جعله ييأس منه واستنبط وجه الحيلة في إخراجه عن مصر فقال لأهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا

تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سراً ألا ترون ما يفعل بأخوانكم الذين عنده بخربتي يجري عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه في شيء وكانت لعلي جواسيس بالشام فبعثوا إليه الخبر فاتهم قيسا وكتب إليه يأمره بقتال أهل خربتي وهم يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس أن يقالتهم وكتب إلى علي إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا مني أن أؤمن سربهم وأجرى عليهم أرزاقهم وأعطياتهم وقد علمت أن هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر أهون علي وعليك من الذي أفعل بهم ولو أني غزوتهم كانوا لي قرنا وهم أسود العرب فذرني فأنا أعلم بما أداري منهم ـ فأبى علي إلا قتالهم. أبي قيس أن يقاتلهم وكتب إليه إن كنت تتهمني فاعزلني عن عملك وابعث إليه غيري فعزله وولى على مصر محمد بن أبي بكر فلم يلبث شهراً حتى كتب إلى أولئك المعتزلين يخيرهم بين أمرين الدخول في طاعته أو الخروج من مصر فبعثوا إليه إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر إلى ما تصير إليه ولا تعجل بحربنا فأبى عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم فكانت وقعة صفين وهم له هائبون فلما أتاهم خبر معاوية ومن معه من أهل الشام لعلي وأن علياً ومن معه رجعوا عن أهل الشام اجترأوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له المبارزة فأرسل لهم سريتين الواحدة تلو الأخرى ونصيب كلتيهما الهزيمة وحينئذٍ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك عليا قال ما لمصر إلا أحد رجلين صاحبنا الذي عزلناه عنها أو ملك بن الحارث الأشتر وكان قد استعمله على الجزيرة فكتب إليه بعد التحكم فاستقدمه وولاه مصر وكتب إليه ذلك العهد المعدود من أحسن ما كتب في العالم. والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان.

لم يصل الأشتر إلى مصر بل مات بالقلزم ويقال إنه سم في شربة عسل بحيلة من معاوية فكتب علي إلى محمد بن أبي بكر (أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الأشتر إلى عملك وإني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ولا ازدياداً مني لك في الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك

لوليتك ما هو أيسر عليك في المؤونة وأعجب إليك ولاية منه، إن الرجل الذي كنت وليته مصر كان لنا نصيحا، وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضى اللّه عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب، واصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر اللّه والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك اعاننا اللّه على مالا ينال الا برحمته).

كان معاوية في ذلك الوقت قد قوي بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له هم إلا مصر فرأى أن يستعين بمن بها مما ساءهم قتل عثمان فكتب إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج يقويهما ويمينهما فكتبا إليه بخبر من معهما وأنهم ممتنعون وأن ابن ابي بكر هائب لهم وطلبا المدد فجهز إلى مصر عمرو بن العاص في ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أداني أرض مصر فاجتمعت عليه العثمانية وكتب إلى ابن أبي بكر (أما بعد: فتنح عني بدمك يا ابن أبي بكر فإني لا أحب أن يصيبك مني ظفر إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإني لك من الناصحين) فكتب محمد إلى علي يعلمه بذلك ويطلب منه مدداً.

أقبل ابن العاص مريداً مصر فخرج إليه محمد في ألفي رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يحتملوا الجنود الشامية ومن مالأهم من جنود مصر فقتل، وفر الباقون واختفى محمد بن أبي بكر فأقبل عمرو حتى نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتى ظفر به فقتله ويقال إنه أحرقه بالنار بعد ذلك أما علي فلم ينجح في إخراج الجنود لإغاثة مصر إلا بعد شدة حيث انتدب له ألفان ولكنهم لم يسيروا إلا قليلا حتى بلغ علياً ما كان فأرسل إليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً على ابن أبي بكر.

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف علي ينتقصها فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها

مالك بن كعب مسلحة لعلي فكتب إلى علي يستمده فأمر النـاس أن ينهضوا إليـه فتثاقلوا فخطب فيهم هذه الخطبة: يا أهـل الكوفـة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امـرىء منكم في بيته وأغلق بـابه انجحـار الضب في جحـره والضبع في وجـارها المغـرور من غررتمـوه ومن فاز منكم فـاز بـالسهم الأخيب لا أحـرار عنـد النـداء ولا اخـوان ثقـة عنـد النجـاء إنـا للّه وإنـا إليـه راجعون ماذا منيت بكم عمى لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون إنا للّه وإنا إليه راجعون.

ووجه معاويـة بن أبي سفيان ابن عـوف في ستة آلاف لـلإغارة عـلى هيت والأنبـار والمـدائن فسـار حتى أتى هيث فلم يجـد بهـا أحـداً ثم أتى الأنبـار وبهـا مسلحة لعلي فغلبهم على أمرهم واحتملوا مـا بها من الأمـوال وعادوا إلى معـاوية فخـرج علي في طلبهم فلم يلحقهم. . . ووجـه عبـد اللّه بن مسعـدة إلى تيـماء، وأمـره أن يصدق من مـر به من أهـل البوادي وأن يقتـل من امتنع ثم يـأتي مكة والمدينة فوجه له علي جيشا يقدمـه المسيب ابن نجية الفـزاري فلحق ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتـالا شديـداً وانتهى الأمر بـأن سهل لهم المسيب طـريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش.

ووجه الضحاك بن قيس للإغارة عـلى بوادي البصـرة فأغـار عليها ووجـه بسر بن أرطأة في ثلاثـة آلاف إلى الحجاز واليمن فسـار حتى أتى المدينـة وامتلكها وبـايع أهلهـا لمعاويـة ثم أتى مكة فبـايع أهلهـا كذلـك ثم ذهب إلى اليمن وكان واليهـا عبيد اللّه ابن عبـاس لعـلي فلما علم بمسـير بسر إليـه فـر إلى الكـوفـة أتى علياً واستخلف على صنعاء فجاء بسر واستـولى على اليمن وقتـل ابنين صغيـرين لعبيد اللّه وكان بسر عسوفا أسرف في قتل من رآه من شيعة علي.

وهكذا كانت الحال في تلك الأزمنة التقيلة التي كانت إلى الفوضى أقرب.

ومن أغرب ما يروى أن ابن عباس وهو الساعـد الأشد لعـلي فارقـه وترك البصرة التي كان قـد ولاه عليها وجـاء مكة لأن عليـا اتهمه بمـال أخذه من مـال المسلمين.

مقتل علي ـ بيت علي
صفته وأخلاقه ـ الحسن بن عواد
مدينة الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين ـ الخلافة
القضاء ـ الجند والخراج والصدقات والعشور.
النقود ـ الحج ـ الصلاة ـ العلم والتعليم

مقتل علي

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا فقال ابن ملجم أنا أكفيكم على بن أبي طالب وقال البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذي توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان سنة ٤٠ هـ أن يثب كل على صاحبه الذي توجه إليه وأقبل كل رجل منهم على المصر الذي فيه صاحبه: فأمل ابن ملجم المرادي وكان عداده في كندة فخرج حتى أتى الكوفة ولم يخبر من بها من إخوانه شيئاً كراهة أن يظهر وكان بالكوفة من تيم الرباب قتل منهم على يوم النهر عشرة وفيهم امرأة لها قطام الشجنة على أباها وأخاها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت لا أتزوجك حتى تشفى لي قال وما يشفيك قالت ثلاثة آلاف وعبد وقنية وقتل علي بن أبي طالب وقال هو لك مهر أما علي فلم أرك ذكرته لي وأنت تريدنني قالت بلى

ألتمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي وإن قتلت فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها فقال لها والله ما جئت هذه المصر إلا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر ولما كانت ليلة الجمة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتى خرج يريد صلاة الصبح فضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهو يتادي الحكم لله لا لك ولا لأصحابك ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلي يقول لا يفوتنكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ودخل الناس على علي فقالوا له إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم أنتم أبصر ثم أوصى أولاده وفي يوم الأحد ١٧ رمضان توفي بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياما قضاها في هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التي كانت خاضرة خلافته.

أما البرك ابن عبد الله فإنه قعد لمعاوية في ذلك اليوم الذي ضرب فيه علي فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف في أليته ودووى من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد. وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة فلم يخرج لأنه كان شاكياً وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته فشد عليه الخارجي فقتله وهو يظن أنه عمروا فقالوا اراد عمرا وأراد الله خارجة.

بيت علي:

تزوج علي بن أبي طالب.

١ ـ فاطمة بنت رسول الله ﷺ وهي أولى زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى.

٢ ـ أم البنين بنت جزام من بني عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان.

٣ ـ ليلى بنت مسعود التيمية فولدت عبد الله وأبا بكر.

٤ ـ أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر.

٥ ـ الصهباء بنت ربيعة من بني جشم بن بكر وهي أم ولد من سبى تغلب فولدت له عمر ورقية.

٦ ـ أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ فولدت له محمداً الأوسط.

٧ ـ خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية.

ـ أم سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى.

٩ ـ محياة بنت امرىء القيس الكلبية ولدت له جارية ماتت صغيرة..

وكان له بنات من أمهات شتى منهن أم هانىء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأم الكرام وأم سلمة وأم جعفر وجمانة ونفيسة وأمهاتهن أمهات أولاد شتى وكان النسل من ولده الخمسة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس وعمر.

صفة علي وأخلاقه:

يخطر ببال من فحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال: كيف دانت قريش لشيخين أولهما من بني تميم بن كعب والثاني من بني عدي؟ وخضعت لها الخضوع التام، فسار القوم بقلب واحد في سبيل نصرة الإسلام وعلو شأنه حتى إذا آلت لبني عبد مناف ووليها اثنان منهم نغصت على أولها حياته في آخرها، ولم يصف الأمر لثانيهما في جميع حياته، بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بني عبد مناف للرسول ﷺ فهم عشيرته الأدنون وسادة في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الإسلام ذلك إلى ما امتاز به ثانيهما من المميزات الكبري التي لم تجتمع في غيره؟ لا بد لذلك من أسباب: أما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر علي فأنا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خلق علي وما كان من الظروف التي أحاطت به.

كان علي ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهي :

الشجاعة ـ الفقه ـ الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل. وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات الموت لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وأول ما عرف من شجاعته بياته موضع رسول اللّه ﷺ ليلة الهجرة وهو يعلم أن قوماً يتراصدونه حتى إذا خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر في نفسه ثم في بدر وما بعدها من المشاهد كان علماً لا يخفي مكانه ببارز الأقران فلا يقفون له ويفرق الجماعات بشدة هجماته وقد آتاه اللّه من قوة العضل وثبات الجنان القسط الأوفر. أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخاليفه فعمل به الأفاعيل وكان الناس يهابون منازلته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته.

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول صحب رسول اللّه ﷺ منذ صبوته وأخذ عنه القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بني عبد مناف ثم بنى هاشم ولم يزل معه إلى أن توفي عليه السلام كل هذا أكسبه قوة واستنباط الأحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الأحكام ويرجعون إلى رأيه خالفهم في بعض الأحيان وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب.

وأما الفصاحة فيعرف مقداره من خطبه ومكاتباته التي جمع منها السيد المرتضى جملة عظيمة في الكتاب الموسوم بنهج البلاغة وقد وصفه شارحه الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه إلى موضع أحسن بتغيير المشاهد وتحول المعاهدة فتارة كنت أجدني في عالم يغمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحي

إليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفصل والكمال.

وطوراً كانت تنكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور وقد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مرعاها واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء، وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً لا يشبه خلقاً جسدانياً فصل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الإنساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى ونما به إلى مشهد النور الأجلى وسكن به إلى جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعياء الكلمة وأولياء أمر الأمة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضراب ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويهديدهم طريق الكياسة ويرتفع بهم إلى منصات الرياسة ويصعدهم شرف التدبير بهم على احسن المصير.

وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئاً كثيراً.

هذه الصفات العالية مع منحه من شرف القرابة للرسول ﷺ ومصاهرته له جعلته لنفسه فضلا على سائر قريش وكبيرها شيخها وفتاها ويرى بذلك له الحق في ولاية الامر دونهم فقد قال لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى إلى الطير. وقال فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً علي منذ قبض الله نبيه ﷺ حتى يوم الناس هذا. وهناك طبيعة ثابتة في الناس أنهم لا يميلون إلى شخص يرى لنفسه التفوق ومزيد الفضل وإنما يقرب إلى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم. جعله ما يراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وافقه عليه غيره أم خالفه، ومن هذا شأنه لا يلجأ إلى الإستشارة فيما هو صانع، وهذا شيء شديد لا تقبله أنفس الكبراء والأشياخ. وروى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والإستعانة في الأمور بهما فقال لهما لقد نقمتما يسيراً

وأرجأتما كثيفاً ألا تخبرني أي شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه وأي قسم استأثرت عليكما به أم أي حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها، فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي ﷺ فاقتديته فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا أري غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإن ذلك لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى مني بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله ﷺ قد فرغ منه فلم أحتج اليكما، قد فرغ الله من قسمه وأمضى حكمه فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبي. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى هذا الحق وألهمنا وإياكم الصبر. وأي نفس تصبر على مثل هذا.

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر في قتله الهرمزان إلى عثمان كان من رأي علي قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزامها في ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صواباً كان أم خطأ فلما آل الأمر إلى عبيد الله إلا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين. وكانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأى علي فقال بعد خلافته: والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق. بويع وولاة الأمصار من علية قريش وذوي الرأي والدهاء فيها، فأشار عليه مشيره ألا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره فلم يسمع لأحد قولا بل عجل بنزعهم وأظهروا سوء الرأي فيهم حتى خيل إليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة كبرى فناؤوه وكانوا عليه يداً واحدة أراد في هذه الظروف أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم في أنفسهم أنه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا: ارض التحكم وإلا فعلنا بك ما فعلناه بعثمان. ولما ولى ابن عباس على

البصرة نظر بعضهم إلى بعض وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيد اللّه بن العباس على اليمن وعبد اللّه بن عباس على البصرة ففيم قتلنا ابن عفان وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له على أنفسهم سلطان يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون. كبراء قريش وعظماؤها أرهقوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لهاتين الطائفتين توازن عند الخصومة كان معاوية يتساهل بعض الشيء لرؤوس أجناده ويفيض عليهم من العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلى رضى اللّه عنه يحاسبهم على النقير والقطمير في وقت هو محتاج إليهم حت كان شيء من ذلك سبباً في تغير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب إلى مكة. ليس شأن علي في ذلك شأن عمر فإن عمر كان يشتد على عماله والأمة كلها معه وأما علي فكان معظم الأمة عليه فضلا عن أن كثيراً من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بها كالحال في قيس بن سعد وعبد اللّه بن عباس، وعلى الجملة فإن أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلي يرجع إلى عقيدته في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأي الأشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يعد لها ما يهون أمرها وعدم إعطائه الظروف التي كان فيها حقها من السياسة.

الحسن بن علي

كان من رأي جند علي أن يبايعوا الحسن بن علي بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر إلى الظروف التي هو فيها نظرة صائبة وجد جنداً لا يركن إليه وخصما قوي الشكيمة وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الألفة فلم ير خيراً لنفسه ولا لأمته من أن يتنازل لمعاوية وصالحه على شروط رضيها الطرفان وكتب إلى معاوية ببيعته وسلم إليه الكوفة في أواخر ربيع الأول سنة ٤١ هـ وبذلك تم ما قاله رسول اللّه ﷺ إن ابني هذا سيد ولعل اللّه أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين. وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة عام الجماعة.

مدينة الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين:

اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دول الإسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة. ونحن الآن ذاكرون شيئاً من المدينة الإسلامية أو العربية لعهدهم ونريد بالمدينة مجموع النظام الذي اتبعوه في أحوالهم الإجتماعية سواء في إدارة أمورهم الداخلية أو في حروبهم.

الخلافة:

أول ما كان لهم من مظاهر المدينة تأسيس الخلافة الإسلامية وكان الرئيس يسمى خليفة رسول اللّه ﷺ. فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم ما زال مستعملاً لقباً لجميع من أتى بعده من الخلفاء وهذه الخلافة رياسة دنيوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعاً في ذلك نصوص الكتاب وما عرف من سنة رسول اللّه ﷺ فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر ما لم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية وكان أساس التشريع في زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فإن عرض لهم فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا ما لا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه. وكان الخليفة في الاجتهاد والإستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فإن اتفقوا في الفتوى كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم وهذا ما يسمى في عرف المسلمين بالإجماع وإن اختلفوا في الفيتا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم فلم يكن له سلطان ديني أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين فليست الخلافة فيما نرى سلطاناً دينياً كما يزعمون وإنما هي سلطان أساسه الدين.

لم يكن في تلك الدولة للخلافة أسرة معينة بل كان يختار الخليفة من أي أسرة من أسر قريش والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر فأبو بكر من بني تيم وعمر من بني عدي وعثمان وعلي من بني عبد مناف. وكان أساس الإنتخاب الشورى فالخلافة من جهة كونها لا تتعين لها أسرة وصاحبها يتعين بالإنتخاب

ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعي تشبه رياسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشي.

وكانت الناس تبايع الخليفة على العمل بكتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ زادوا في بيعة عثمان وسنة الشيخين أبي بكر وعمر وحذفت هذه الزيادة في بيعة علي لأنه أباها لما عرض عليه الأمر عبد الرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الأمور أو أنهم لم يكونوا على درجة واحدة في ذلك. وكان أكثر اهتماماً بالشورى عمر بن الخطاب فإنه كان قلما يقدم على أمر إلا بعد أن يستشير ويمحص الآراء وكانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس ابن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ومن ماثلهم وكان يلحق بهم عبد اللّه بن عباس لما يراه من تفقهه وجودة رأيه وشورى عامة من كل من له رأي من المسلمين يعرض عليهم الأمر في المسجد بعد أن يدعو (الصلاة جامعة) فيقول كل ما بدا له وربما استشار بعد ذلك خلصه وكان كثيراً ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه. رجال الشورى كانوا مختارين من قبله إلا أنه لم يكن أحد يمنع من إبداء رأيه مهما كان صاحب الرأي صغير القدر، لأن حياتهم كانت مبنية على المساواة.

ولم يكن ينقص هذا النظام البديع إلا وهو تعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف يبينهم لأن عدم هذا التعيين كان سبباً من أسباب الفرقة بين علي ومعاوية لأن علياً كان يرى أن هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشركهم في ذلك أهل الأمصار الأخرى فمتى بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته وليس لأحد بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأن البيعة لا تتم إلا برضا أهل الأمصار فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين. لم يكن للخلافة في هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا أبهته بل كان الخليفة يسير في طريقه وفي بيته كسائر

الناس لا حاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان عمر يكره أن يكون لعماله حجاب حتى أنه أرسل لسعد بن أبي وقاص من أحرق باب دار الإمارة الذي حال بين العامة وبين رفع شكواهم إليه.

القضاء:

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة، فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون في الحكم إن كانت هناك حاجة إلى الإستفتاء. ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للإشتغال بالجيوش وتدبيرها فوضوا هذا العمل إلى من في مكنتهم الإستنباط ولكنهم لم يتسموا باسم القضاة إلا من عهد عمر بن الخطاب فإنه بعث قضاة إلى الأمصار ووضع لهم أنموذجاً يسيرون عليه واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين. ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم في الحكم فلم يعرف عن أحد منهم في ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به، وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من الخليفة رأساً وأحياناً يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولي فلانا قضاء بلده وعلى الحالتين التعيين صادر من الخليفة. وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الإنقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقونه منه.

ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاة ما كتبه علي بن أبي طالب إلى أحد عماله: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه ولا يشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم إلى أقصاه أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد وأفسح له في

البذل ما يزيل عيلته وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمح فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك».

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام كان يستعين بهم القاضي ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر. وأهم ما كان يدعوهم إلى ذلك أن سنة رسول اللّه ﷺ لم تكن مجموعة في كتاب بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثاني جزءاً، وقد لا يحفظ ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصاً ويكون النص وهو الحديث عند غيره وبذلك كانوا يسألون أهل عندكم شيء في هذا من سنة رسول اللّه ﷺ ولم يجمعوا هذه الفتاوى ولا الأقضية في كتاب خاص يرجع إليه من بعدهم، وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسبابا اختلافهم في الفتاوى والأقضية.

لم يكن القاضي في أحكامه فوكولا إلى الإجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وإنما كان موكولا إلى الإجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات. حقيقة أن ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيباً في القوانين التي يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان.

الإجتهاد للقاضي والحال ما ذكرنا أمر لا بد منه، ولذلك عده المتقدمون من الشروط المتحتمة.

لم يكن تعيين القضاة مانعاً الخلفاء من نظر أي خصومة تعرض عليهم، وقد حصل ذلك من الخلفاء في آنات كثيرة فكأن القضاة نواباً للخلفاء.

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولا أن صور الأحكام كانت تعطي للمحكوم له لأن ذلك لم يكن ما يدعو إليه ما دام التنفيذ في يد القاضي فهو الذي يقضي وهو الذي ينفذ الحكم ويظهر لنا مما قرأنا من أخبارهم أنهم كانوا يحتاجون للتنفيذ لأن من حكم عليه كان

يبادر بتنفيذ ما قضي عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين.

ويظهر لنا أن قضاء القضاة في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية. أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار لأنا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصاً أو جلد بسكر ولم يبلغنا أن قاضياً ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة وعامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة. ولم يبلغنا أن قضاة الأمصار كانوا ينيبون عنهم في غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات.

قيادة الجيوش:

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول اللّه ﷺ يقود الجنود بنفسه، ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة إلى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء. وبعد انتهاء الفتح واستقرار الأمن يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمن الجنود والنظر في معداتهم ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان إلا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام في مسجد حيه ويقال إن هذا تخلف؛ وهذا التوبيخ كان في نظرهم أمض من ضربة السيف لما هو معروف عنهم من الشجاعة والإقدام ويرون في الإحجام عاراً لا يمحى وكما حصرهم عمر رتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين إلا أنه لم يسو بين الجنود في العطاء وقد سوى بينهم علي بن أبي طالب وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم.

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظاً عظيماً فبعد أن كانت العرب

تحارب في جاهليتها بطريقة الكر والفر وهي أن يكر المحارب على خصمه ثم يفر ويكر وهكذا لا يتبعون في ذلك نظاماً رأى قواد الجنود من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح معه حروب الأمم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامناً وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تكون في الأمام وهي التي تبدأ المناوشات وتتعرَّف الطريق وترتاد المواضع، وقلب هو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبتان يمنى ويسرى أو جناحان وساقة ولكل فرقة أمير يأتمر بأمر القائد وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان لهم الشأن العظيم في الإحتفاظ بخطوط رجعتهم حتى لا يؤتوا من خلفهم وكانوا يحذرون من البيات جهدهم.

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الأوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبه عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول «وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع، وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أرض عدوك فاذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإن الكذوب لا ينفك خبره وإن صدقك في بعضه والغاش عين عليك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس من أصحابك والرأي من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا

من أهل الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوك كصنعة بك، ثم أذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك... الخ».

الخراج وجبايته:

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن العمال والقواد، وقليلا ما كانوا يكلون أمر الجباية إلى العمال، وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة بما تقتضيه المصالح العامة والباقي يرسل إلى دار الخلافة ليصرف في مصارفه.

وكانت هناك إيرادات ثابتة أو عادية أو إيرادات غير ثابتة، أما الأولى فهي: الخراج والعشر والصدقات والجزية.

والخراج هو ما كان يوضع على الأراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدي أهلها يؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التي أبقيت في أيديهم. وكانوا يجعلونه أحياناً شيئاً مقاراً كما جعل عمر في السواد، وأحياناً يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الأرض. أما الأراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أو ملكها المسلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب، فهذه أرض عشر ومثلها الأراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين، والعشر: هو عشر ما يخرج من الأرض.

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس في قسمة الأرضين التي فتحها المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال عمر: فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن

الآباء وحيزت؟ ما هذا برأي. فقال عبد الرحمن بن عوف فما الرأي؟ ما الأرض والعلوج إلا مما أفاء اللّه عليهم. فقال عمر ما هو إلا ما تقول ولست أرى ذلك واللّه لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكن للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق. فأكثروا على عمر وقالوا تقف ما أفاء اللّه علينا بأسيافنا على قوم ولم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأيي. قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رأيه فأرسل عمر إلى عشرة من الأنصار وخمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم فلما اجتمعوا حمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا معي فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تفرقون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي. معكم من اللّه كتاب ينطق بالحق فواللّه لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق. قالوا نسمع يا أمير المؤمنين قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم وإني أعوذ باللّه أن أركب ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا اللّه أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهل الجيش وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم، أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج. فقالوا جميعاً الرأي رأيك فنعما قلت وما رأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما ينفقون

به رجع أهل الكفر إلى مدنهم. فقال: قد بان لي الأمر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه إلى أهم ذلك فإن له بصراً وعقلا وتجربة فأرسل إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئة ألف ألف درهم، وكان وزن الدرهم يومئذٍ وزن المثقال.

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبراً وكان أشد الناس عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبي رباح فقال عمر إذا أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم. وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين.

قال أبو يوسف القاضي: والذي رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقاً من اللّه كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة.

ولم يكن مقدار الخراج معروفاً تماماً في عهد الخلفاء الراشدين.

والجزية، ما كان يوضع على رؤوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان، وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذي يتصدق عليه ولا ممن لا قدرة له على العمل.

روى أبو يوسف القاضي في كتابه الموسوم بالخراج ص ٧٢ قال: مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت فقال يهودي قال فما ألجأك إلى ما أرى قال أسأل الجزية والحاجة والسن قال فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال انظر هذا

وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه.

وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهماً في السنة ولا تنقص عن اثني عشر. روى أن رسول الله ﷺ قال من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه، وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته: أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

الصدقات:

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم: نعمهم السائمة الإبل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم. وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصباً معيناً لا تجب الزكاة فيما دونه وقدراً معيناً لا يؤخذ فوقه؛ بين ذلك في كتاب كتبه رسول الله ﷺ قبل وفاته وعمل بعده. وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام في مصارفها الشرعية.

العشور (الجمارك):

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارتهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم. فكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر إن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر، فكتب إليهم عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة ربع العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً درهماً وليس فيما دون المئتين شيء فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه.

وروى أبو يوسف القاضي أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب: دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا. فشاور عمر

أصحاب رسول اللّه ﷺ فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب.

وبعث زياد بن جدير على عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلاً من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مر عليه راجعاً في سنته فقال أعطني ألفاً أخرى فقال له التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفاً قال نعم. فرجع التغلبي إلى عمر فوافاه بمكة وهو في بيت فاستأذن عليه فقال من أنت قال رجل من نصارى العرب، وقص عليه قصته. فقال عمر (كفيت) ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي إلى زياد بن جدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفاً أخرى، فوجد كتاب عمر قد سبقه إليه: من مر عليك فاخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئاً إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلاً فقال الرجل قد واللّه كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفاً وإني أشهد أني على دين الرجل الذي بعث إليك الكتاب.

وقد اتبع المسلمون عمر في تعشير أموال التجارة التي ترد من خارج البلاد الإسلامية إلى بلاد المسلمين. قال أنس بن سيرين أرادوا أن يستعملوني على عشور الأبلة فأبيت فلقيني أنس بن مالك فقال: ما يمنعك؟ فقلت العشور أخبث ما عمل عليه الإنسان قال فقال لي لا تفعل، عمر صنعه. فجعل على أهل الإسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة الشرك.

ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة، وضاعفوا ذلك على أهل الذمة كما فعلو مع نصارى تغلب من العرب وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين في بلدانهم.

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد في السنة إلى بيت المال ولا بتقدير ما كان يصرف إلا أنهم لم يكونوا يتركون في بيت المال وفراً وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة.

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين، والخمس الباقي يرد إلى بيت المال ليصرف في مصارفه.

النقود:

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة لأنها تتبع المدنية والحضارة وكانت الأمة العربية تغلب عليها إذ ذاك البداوة. ولما جاء الإسلام لم يتغير التعامل بل سار على تلك الحال مدة رسول اللّه ﷺ وأبي بكر وعمر. فلما افتتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال ٢٠ قيراطاً ومنها وزنه ١٢ قيراطاً ودرهم وزنه ١٠ قراريط فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهي ٤٢ قيراطاً وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطاً من قراريط المثقال وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن كلا منها ـ ١٤٠ فصارت النسبة بين الدراهم والمثاقيل كنسبة ١٠ ـ ٧. نقل المرحوم علي مبارك باشا في خططه عن المقريزي قال وفي سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنها زاد في بعضها الحمدللّه وفي بعضها محمد رسول اللّه وفي بعضها لا إله إلا اللّه وحده وعلى أخرى عمر وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب في خلافته دراهم ونقشها اللّه أكبر.

الحج:

كان من الأعمال الكبرى لإمام المسلمين إقامة حجهم وكان الحج معتبراً في نظر الخلفاء الراشدين موسماً عاماً يجتمع فيه أمراء الجهات ليدلوا إلى الخليفة بما عندهم من الأحوال في بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم. وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلما يتخلفون وكان أكثرهم تولياً لأمر الحج بنفسه عمر بن الخطاب حج سنيه كلها لم يتخلف أبداً إلا أنه حصل خلاف في السنة الأولى من حكمه فقيل إنه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف، وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة، وعثمان حج معظم سنيه، وعلي أناب عنه كل سني خلافته لما شغل به من الإضطراب الذي كان بينه وبين معاوية.

جعل هذا الإهتمام بأمر الحج لـه مظهـراً عظيـماً وفائـدة كبرى في تعـارف المسلمين بعضهم ببعض، وأن الخلفاء يجيئهم من الأخبـار ما لا يمكن أن يكـون بواسطة الولاة.

الصلاة:

كـانت إقـامـة الصـلاة من أعمـال الخليفـة فهـو الـذي يقيمهـا بنفسـه أو بـواسطة نـائبه وكـان في كـل مصر مسجـد جـامـع واحـد تؤدي بـه الجمعـة ولا ينصب في غيـره، فلم تكن تقـام إلا جمعـة واحـدة في المصر يقيمهـا الخليفـة إن كـان أو الوالي. ولم يبلغنـا أنه تعـددت المنابـر في البلد الواحـد في عهـد الخلفـاء الراشدين.

العلم والتعليم:

كانت الكتابة قبل مجيء الإسلام نادرة في الأمة العربية خصوصاً الحجاز ونجد. فلما جاء الاسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب؛ ففي زمن رسول اللّه استخـدم جماعـة من فقراء أسـرى بدر في أن يعلم كـل منهم عشـرة من صبيـان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه. ولما افتتحت البلاد الفارسية وكان بـالحيرة كثـير ممن يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان أكثر النشء الذي نشأ في عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابـة. أما الخلفـاء أنفسهم فكانـوا كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول اللّه ﷺ.

ولم يكتب شيء من الكتب في ذلك العهد إلا القـرآن فإنـه جمع في صحف في عهد أبي بكر وفي عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بهـا إلى الأمصار ليكون كل مصحف إماماً لأهل المصر الذي أرسل إليه. أما سنة رسول اللّه ﷺ فلم تجمـع في كتاب وكـذلك لم يكتب شيء في العلوم. أمـا الدينيـة منها فكـانوا مكتفـين بما فـطروا عليه من معـرفة اللغـة العربيـة وفهم أساليبهـا والشريعـة إنما جـاءتهم بهذه اللغـة فكانـوا يشتغلون بفهمها. وأمـا العلوم الصناعيـة فإن الأمـة كـانت لا تزال فيهـا على بـداوتها وإن كـان قد نبـغ منها من أمكنهم إنشـاء المدن ومسح الأراضي بالمران على ذلك لا بتعلم سابق.

المحاضرة الثانية والثلاثون

الدولة الأموية ومعاوية وترجمته
انتخابه
حال الأمة حين انتخابه

الدولة الأموية :

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش في الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش، وكان أمية رجلاً تاجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد والمال وكثرة العصبة كانا في الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب. وكان لأمية عشرة من الأولاد كلهم ساد وشرف فمنهم العنابس وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ومنهم الأعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص. وقد كان حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار وهو الذي تحمل الديات في ماله حينما دعا الناس إلى الصلح في ذلك اليوم، رهن لسدادها ولده أبا سفيان، وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقد دامت الألفة بينهما طويلاً وأبو سفيان كان صديقاً مع عبد المطلب. فلم يكن هذان البطنان متعادين في الجاهلية كما يظنه بعض من لا يدقق في المسائل التاريخية، وإنما كان يظهر في بعض الأحيان شيء من التنافس الضروري وجوده في الأحيان المتقاربة، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ولم يكن هذان البطنان مختلفين فيما به الشرف في الجاهلية الأولى، بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطاً وافراً.

لما جاءت النبوة، ودعا رسول الله الناس إلى الله أجابه من بني عبد شمس جمع كما أجابه من بني هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صد عنه كثير من أولئك إلا أن بني هاشم وبني المطلب حدبا على رسول الله للعصبية القومية

العربية حيث حماه أبو طالب كبير بيتـه، وكان يـزاحم بني عبد منـاف في الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصي.

ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسـول اللّه ﷺ وآله وسلم كـان المؤتمر من جميـع قبـائـل قـريش إلا أنـه لم يكن فيهم من بني هـاشم إلا أبـو لهب. جـاءت الحـروب الإسلاميـة والمشاهـد الكبرى النبـوية من بـدر فما بعـدها ولم ينـل حظ الوقوف بجانب رسول اللّه ﷺ إلا عدد قليل من بني عبـد شمس، وكان القـائد الأكبـر لقريش في بـدر من بني عبد شمس بن عبـد مناف وهـو عتبة بن ربيعـة، ورئيسهم في أحـد والأحزاب أبـو سفيان بن حـرب بن أمية بن عبـد شمس، ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن اللّه بفتح مكة في السنة الثامنة من الهجـرة. وكان أبو سفيان رجلا عظيـماً في نفسه ذا شـرف يخشى على قـومه أن تصيبهم مهـانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالباً محبة الفخر والذكر، فانهى العباس ذلـك إلى رسول اللّه ﷺ فأعطاه الرسول في ذلك اليوم تأليفاً له وتحبباً إليه ما لم يعطه أحداً، وهـو أن أمر مناديـاً ينادي بمكـة: من أغمد سيفـه فهو آمن، ومن دخـل المسجد فهـو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهـو آمن فسوى بـين بيته وبـين بيت اللّه، وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله للآن، وفي ذلك اليـوم أسلم معظم المتـأخرين عن الإسلام من رحلات قـريش وذوي النجدة فيهـا وكانـوا يسمون مشيخـة الفتح. وكان رسول اللّه ﷺ أسر الناس بإسلامهـم، كان يقابلهم قائماً ذراعيه معانقاً لهم كما فعل بصفوان بن أمية والحـارث بن هشام وغيـرهم ولم يرسـل رسول اللّه ﷺ أن عفوه عنهم سيكون عيباً لاحقاً بهم يعيرون به في مستقبل أيامهم.

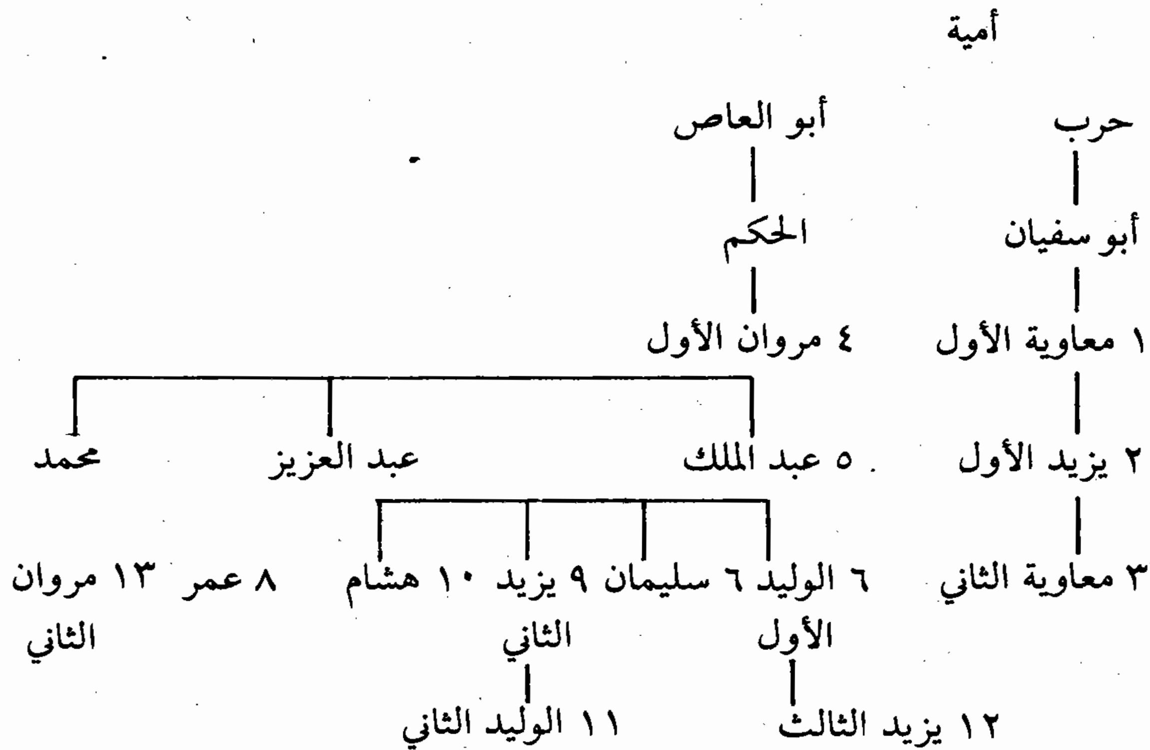
وبعد إنتهاء فتـح مكة ولي عليهـا شابـاً من بني عبد شمس. استعمـل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين في حروب الردة فأبلو فيهـا بلاء عظيماً وأغنوا غناء حسناً ثم سـير بهم إلى ثغور الشـام وكانـوا كلهم في شوق إلى وقائع يقضون فيها الواجب الذي عليهم لـلإسلام حتى يكتب لهم في نصـرته ما يمحو ما كتب عليهم في مغاضبته.

وممن اشتهر غناؤهم وعظم ذكرهم يزيد بن أبي سفيان، فقد كـان ولاه أبو

بكر في قيادة أحد الجنود الأربعة التي توجهت لفتوح الشام وكان الوالي على دمشق لعمر بن الخطاب، وكان أخوه معاوية عاملاً على إحدى الجهات الشامية، فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه معاوية مضافاً إلى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحس منه بحسن السياسة وقوة التدبير والأمانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله. وفي عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار واليها الهام ويولي على الكور عمالا من قبله. ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بني عبد شمس فساسوا الجنود وأرهقوها بالطاعة.

وعلى الجملة فإن بين عبد الشمس انتقل من سيادة في الجاهلية إلى سيادة في الإسلام وقد قال عليه الصلاة والسلام «الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» فاتصلت له السيادتان.

وفروعه التي كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان: فرع حرب بن أمية، وفرع أبي العاص بن أمية، وكان من الفرع الأول ثلاثة خلفاء، ومن الثاني عشرة على الشكل الآتي:



فقد تولى من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثاني عشرة ومدة خلافة هذه الدولة تبتدىء من اليوم الذي بويع فيه معاوية بيعة عامة في ٢٥ ربيع سنة ٤١ وتنتهي بمقتل مروان الثاني بن محمد سنة ١٣٢ لثلاث بقين من ذي الحجة وهي ٩١ سنة وتسعة أشهر.

١ ـ معاوية بن أبي سفيان

ترجمته:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفي يوم الفتح كان سنة ٢٣ سنة وفي ذلك اليوم دخل في الإسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد إسلامه يكتب بين يدي رسول اللّه ﷺ، وفي خلافة أبي بكر ولاه قيادة جيش مدداً لأخيه يزيد بن أبي سفيان وأمره أن يلحق به فكان غازياً تحت أمرة أخيه وكان على مقدمته في فتح مدن صيدا وعرقه وجبل وبيروت وهي سواحل دمشق ثم ولاه عمر ولاية الأردن. ولما توفي يزيد في طاعون عمواس ولاه عمر بن الخطاب عمل يزيد على دمشق وما معها. وفي عهد عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاة أمصارها تحت أمره، وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع علي بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لأنه اتهمه بالهوادة في أمر عثمان وإيواء قتلته في جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان وراء ذلك أن حاربه علي بن أبي طالب في صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكمان واتفقا على خلع علي ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شوري ينتخبون لهم من يصلح لإمامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية إمام أهل الشام وعلي إمام أهل العراق وما زال الخلاف محتدماً بينهما حتى قتل علي بن أبي طالب وسلم ابنه الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية، وحينئذ اجتمع على بيعة معاوية أهل العراق والشام وسمي ذلك العام الحادي والأربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد

الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية الخلافة العامة في ربيع الأول سنة ٤١.

طريقة انتخاب معاوية:

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخاباً عاماً يعني من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين وإنما إنتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكمين، ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة، فلما قتل علي بن أبي طالب وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الأمر إليه، فبايعه في ربيع الأول سنة ٤١ فبيعته اختيار من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق، إلا أنها انتهت في الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له في جميع الأمة ما عدا الخوارج.

حال الأمة عند استلام معاوية الأمر:

تولى معاوية أمر الأمة، وهي أقسام ثلاثة: القسم الأول شيعة بني أمية من أهل الشام ومن غيرهم في سائر الأمصار الإسلامية. القسم الثاني: شيعة علي بن أبي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالأمر من معاوية وغيره وأن أعاقبه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظمهم هؤلاء كان ببلاد العراق وقليل منهم بمصر. القسم الثالث: الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفتهم ويرونهم مارقين من الدين، وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون، يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة علي لأن كلا قد ألحد على زعمهم في الدين ومع ما بينهما من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والإقدام، ومثل هذه الأمة تحتاج لسياسة حكيمة في إدارة شؤونها وإفاضة ثوب من الأمن عليها، أما معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يداً في السياسة، صانع رؤس العرب وقروم ومضر بالأعضاء والإحتمال والصبر على الأذى والمكروه، وكانت غايته في الحلم لا تدرك وعصابته فيه لا تنزع ومرقاته فيه نزل عنها الأقدام.

كان الذي يهم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لأنهم قوم قلما ينفع معهم

حسن السياسة لأنهم قوم غلوا في الدين غلواً عظيماً وفهموا كثيراً منه على غير وجهه، ففرقوا كلمة الأمة ورأوا من واجبهم استعراض الأنفس وأخذ الأموال. ولنبدأ بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم.

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الأشجعي معتزلا في ٥٠٠ من الخوارج فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل إليهم معاوية جمعاً من أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم، فقال معاوية لأهل الكوفة: والله لا أمان لكم عندي حتى تكفونهم، فخرج إليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج: أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا فقالوا لا بد لنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة قهراً وأدخلوه الكوفة، فولى الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحوساء الطائي فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوهم، وكان ابن أبي الحوساء قد خوف بالصلب فقال:

ما إن أبالي إذا أرواحنا قبضت ... ماذا فعلتم بأوصال وأبشار
تجري المجرة والنسران عن قدر ... والشمس والقمر الساري بمقدار
وقد علمت وخير القول أنفعه ... أن السعيد الذي ينجو من النار

فلما قتل ابن الحوساء ولي الخوارج أمرهم حوثرة الأسدي فسار حتى قدم النخيلة في ١٥٠ وانضم إليه فل ابن الحوساء وهم قليل فقال معاوية لأبي حوثرة اكفني أمر ابنك فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى فأداره، فضمم فقال له يا بني أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه فقال يا أبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني إلى ابني، فرجع إلى معاوية فأخبره، فقال يا أبا حوثرة عتا هذا جداً. ولما نظر حوثرة إلى أهل الكوفة قال يا أعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه، فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز فقال: يا أبت لك في غيري مندوحة ولي في غيرك مذهب عنك ثم حمل على القوم وهو يقول:

على هـذي الجمـوع حـوثـره فعـن قـليـل مـا تـنـال المغـفـرة

فحمـل عليه رجـل من طيء فقتله فرأى أثـر السجـود وقـد لـوح جبهتـه فندم على قتله. ثم تـوالت الخوارج حتى أخـافوا بـلاد العراق فـرأى معاويـة أنه لا بد من توليـة العراق رجـالا ذوي قدرة وحكمـة يأخـذون على أيـدي السفهاء ويشتـدون في طلب المريب فـاختار رجلين كـلاهما قـد عرف بـالسيـاسـة وحسن الرأي وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة.

فأمـا زيـاد فقـد كـان من شيعـة علي وكـان والياً عـلى فارس وقتـل علي وهـو بها فـذكر معـاوية اعتصـامه بفـارس وأهمه ذلـك فجعل المغيـرة وسيـطاً في استقـدامه فـأتى المغيرة زيـاداً وقال لـه: إن معاويـة استخفه الـوجـل حتى بعثني إليـك ولم يكن أحد يمـد يده إلى هـذا الأمر غـير الحسن وقد بـايع فخـذ لنفسك قبل التوطـين فيستغني عنك معـاوية فقـال زياد: أشر عـلي وأرم الغرض الأقصى فإن المستشار مؤتمن فقـال له المغيـرة: أرى أن تصل حبلك بحبله وتشخص إليـه ويقضي الله. وكتب إليه معاوية بأمـانه بعـد عودة المغيـرة فخرج زيـاد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فـأخبره بمـا أنفق منها وبمـا حمل إلى عـلي وبمـا بقي عنـده، فصـدقـه معـاويـة وقبض منـه مـا بقي عنـده. وفي سنـة ٤٤ استلحق معـاوية زيـاداً ألحقه بـأبي سفيان لاعتـراف كان من أبي سفيـان بـذلـك شهد به جمع وكان معاوية قـد كتب إلى زياد في حيـاة علي يعـرض له بـولاية أبي سفيـان إياه فلما علم بـذلك عـلى كتب إلى زياد يقـول له «إني وليتـك ما وليتـك وأنـا أراك له أهـلا، وقد كـانت من أبي سفيان فلتـة من أمـاني البـاطـل وكـذب النفس لا تـوجب له ميـراثاً ولا تحـل له نسبـاً وإن معاويـة يأتي الإنسـان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فـاحذر ثم احـذر والسلام» فلما قتـل علي رأى معاوية أن يستميـل زياداً واستصفى مـودته بـاستلحاقـه فكان يقـال له بعـد ذلـك زياد بن أبي سفيـان وإن كان كثـير من النـاس لا يعتـرف لـه بهـذا النسب فقـد كتب زياد إلى عـائشة أم المؤمنـين يقول لهـا: من زيـاد بن أبي سفيـان وهـو يريد أن تكتب له بهذا العنوان، فكتبت: من عائشـة أم المؤمنين إلى ابنهـا زياد.

وأراد زياد أن يحج بعد هذا الاستلحاق فسمع بذلك أخوه أبو بكر وكان له مهاجراً فجاء إلى بيت زياد وكلم أحد أبنائه فقال له: يا بني قل لأبيك إني سمعت أنك تريد الحج ولا بد من قدومك إلى المدينة، ولا شك أنك تطلب الإجتماع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ، فإن أذنت لك فاعظم به خزياً مع رسول اللّه وإن منعتك فأعظم به فضيحة في الدنيا. فترك زياد الحج.

وفي السنة الخامسة والأربعين ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء، وإنما قيل لها ذلك لأنه لم يحمد اللّه فيها. ولما في هذه الخطبة من روائع الكلم وبديع الحكم، وبيان سياسته في حكم البلاد، أحببنا إيرادها قال:

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور والعظام ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرءوا كتاب اللّه ولم تسمعوا ما أعده من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول. أتكونون كم طرفت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولا تظنون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله؛ ما هذه المواخير المنصوبة الضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل؟ ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ قربتم القرابة بواعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتعضون على المختلس، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كئوساً في مكانس الريب. حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما يصلح به أوله: لين في غير ضعف وشدة في غير عنف. وإني

أقسم الله لآخذن بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لي قناتكم. إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة فإذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها: من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فإياي ودلج الليل فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم. وإياي ودعوى الجاهلية فإني لا أجد أحداً عليها إلا قطعت لسانه وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن. أحدثنا لكل ذنب عقوبة. فمن غرق قوماً غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً. فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لساني ويدي. ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه. وقد كان بيني وبين أقوام إحن جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي. فمن كان منكم فليزدد إحساناً. ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته. إني لو علمت أن أحداً منكم قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل لم أناظره. فأستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس. أيها الناس إذا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانه، ولا مجمراً لكم بعثاً. فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي إليه تأوون ومتى تصلحون يصلحوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم. أسأل الله أن يعين كلا على كل، فإذا رأيتموني أنفذ فيكم

الأمر فأنفذوه على إذلاله، وايم اللّه إن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي».

فقام إليه عبد اللّه بن الأهتم: أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب. فقال كذبت ذاك نبي اللّه دود فقال الأحنف لقد قلت فأحسنت أيها الأمير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وإنا لن نثنى حتى نبتلي فقال: صدقت. فقام إليه أبو بلال مرادس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبأ اللّه بغير ما قلت قال اللّه تعالى **﴿وإبراهيم الذي وفى، أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾**(1) فأوعدنا اللّه خيراً مما أوعدتنا يا زياد، فقال زياد: إنا لن نصل إلى الحق فيك وفي أصحابك حتى نخوض في الباطل خوضاً.

واستعمل على شرطته عبد اللّه بن حصن وأجل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر، فكان يؤخر العشاء الآخرة، ثم يصلي فيأمر رجلاً أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتل القرآن فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ أقصى البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى إنساناً إلا قتله. فأخذ ذات ليلة أعرابياً فأتى به زياداً فقال له: هل سمعت النداء؟ فقال لا واللّه قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع وأقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير فقال: أظنك واللّه صادقاً ولكن في قتلك صلاح الأمة. ثم أمر به فضربت عنقه، وكان زياد أول من شدد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه. ولا يغلق عن أحد بابه وأدر العطاء وبني مدينة الرزق وجعل الشرط أربعة آلاف. وقيل له إن السبيل مخوفة، فقال لا أعاني شيئاً وراء المصر حتى أصلح المصر فإن غلبني فغيره أشد غلبة منه. فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك فأحكمه. قال أبو العباس المبرد في

---

(1) سورة النجم: الآيات ٣٧-٣٩.

صفة زياد ومعاملته للخوارج: كان يقتل المعلن ويستصلح المسر ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة. ووجه يوماً بحينة ابن كبيش الأعرجي إلى رجل من بني سعد يرى رأى الخوارج فجاء بحينة فأخذه فقال إني أريد أن أحدث وضوءاً للصلاة فدعني أدخل إلى منزلي قال ومن لي بخروجك قال اللّه عز وجل. فتركه فدخل فأحدث وضوءاً ثم خرج فأتى به بحينة زيادة فلما مثل بين يديه ذكر اللّه زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخبر ثم قال قعدت عنى فأنكرت ذلك فذكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال إنك قد قلت قولا فصدقه بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملان فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه فقال ما كلكم أستطيع أن أخبره ولكن دخلت على رجل لا يملك ضراً لنفسه ولا حياة ولا نشوراً فرزق اللّه ما ترون. وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذي يمنعكم عن إتياني إلا الرجلة فيقولون أحل فيحملهم ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي.

وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأى الخوارج فدعاه فولاه جند نيسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عمالته في كل سنة مائة ألف، فكان أبو الخير يقول: ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل والياً حتى أنكر منه زياد شيئاً فتنمر لزياد فحبسه فلم يخرج من حبسه حتى مات.

وفي سنة ٥٠ أضاف معاوية إلى زياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة فصار والي المصرين وهو أول من جمعا له فسار إلى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر. فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه، ولا يقولن لا أدري من جليسي، ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة، يحلفون ما منا حصبك، فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه حتى صار

إلى ثلاثين فقطع أيديهم. واتخذ زياد المقصورة حين حصب. وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها.

كان بالكوفة جماعة من شيعة علي رأسهم حجر بن عدي الكندي وعمرو بن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون في معاوية وعماله. فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال: أما بعد: فإن غب البغى والغى وخيم إن هؤلاء جموا فأشروا وأمنوني فاجترءوا على اللّه لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ولست بشيء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده، ويل أمك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان. وأرسل إلى حجر يدعوه وهو بالمسجد فأبى حجر أن يجيء، فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث إليه جماعة ففعل، فسبهم أصحاب حجر فجمع أهل الكوفة وقال تشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معي وقلوبكم مع حجر الأحمق هذا واللّه من رجسكم، واللّه لتظهرن براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أوذكم وصعركم، فقالوا: معاذ اللّه أن يكون لنا رأي إلا طاعتك وما فيه رضاك، قال فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله وأقاموا أكثر أصحابه عنه وقال زياد لصاحب شرطته: انطلق إلى حجر فائتني به، فإن أبي فشدوا عليهم بالسيوف حتى تأتوني به وبمن معه. فبعد خطوب طويلة جيء به فلما رآه زياد قال له مرحباً أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وقد سالم الناس، على أهلها تجني براقش، فقال حجر: ما خلعت طاعة، ولا فارقت جماعة وإني على بيعتي. فأمر به إلى السجن. ثم طلب أصحابه بعضهم وأخذ بعضهم، وعدتهم اثنا عشر رجلاً فأودعهم السجن وأحضر شهوداً شهدوا على حجر أنه جمع الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين وأظهر أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه على مثل رأيه وكان الشهود على ذلك كثير من أهل الكوفة، فكتب شهادتهم وأرسل بها وبحجر وأصحابه إلى معاوية فسير بهم حتى انتهوا إلى

مرج عذرا عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك ستة، وهم الذين تبرءوا من علي بن أبي طالب.

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلى معارية فيه وفي أصحابه فقدم عليه وقد قتلهم فقال له عبد الرحمن أين غاب عنك حلم أبي سفيان قال حين غاب عني مثلك من حلماء قومي، وحملني ابن سمية فاحتملت، وقالت عائشة لولا أنا لم نغير شيئاً إلا صارت بنا الأمور إلى ما هو أشد منه لغيرنا قتل حجر، وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثي حجراً وكانت تتشيع:

ترفع أيها القمر المنير ... تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ... ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر ... وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد له محولا ... كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر بني عدي ... تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عدياً ... وشيخاً في دمشق له زئير
فإن تهلك فكل زعيم قوم ... من الدنيا إلى أهلك يصير

وتوفي زياد في سنة ٥٣ بالطاعون.

والمطلع على الطريقة التي حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة إعلان حكم عرفي فإن أخذ الولي بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصي والصحيح في جسمه بالسقيم أمر ليس جارياً على القانون الشرعي الذي يقصر المسئولية على المجرم وإنما ذلك شيء يلجأ إليه الإداريون لتخفيف آلام الجرائم وإرهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك في الغالب وقتية. ومن ذلك وضعه العقوبات التي شرعها للجرائم المحدثة كما قال من نقب عن بيت نقيب عن قلبه ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ومن ذلك عقوبته للمدلج بالقتل هذه قوانين عرفية شديدة رآها لائقة لأهل العراق وقد أفادت في إصلاح حالهم لأن الأمان ساد وقل خروج الخوارج في زمنه ولكنه ضحى في سبيل الوصول إلى ذلك شيئاً

كثيراً، والتاريخ إنما يعطي الإنسان صفة السياسة والحكمة إذا تمكن من إصلاح الفاسد بقليل من العسف لا نقول ذلك هضماً لحق زياد لأنه يعتبر أقل ولاة العراق إسرافاً في الدماء، ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعيده فقال إنه لا يحتجب عن طالب حاجة وإن أتاه طارقاً بليل ولا يحبس عطاء ولا رزقاً عن إبانه ولا يجمر لهم بعثاً، وهذه الأشياء الثلاثة متى وفرها الوالي وصدقها لا تجد سبباً للثورات ولا الفتن، ولذلك يقول بعض المؤرخين إن زياداً لم يحتج لتنفيذ ما أوعد به من العقوبات إلا قليلا لأن علمهم بصدقه في الإيعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم.

وعلى الجملة، فإن عهد زياد بالعراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن، وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق آسفاً، وذلك أنهم قوم لا يصلحهم إلا الشدة، وإذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب وأجرموا إلى الأمراء أو الخلفاء من غير بينة واضحة.

المغيرة بن شعبة ـ عبيد اللّٰه بن زياد
الفتوح في عهد معاوية
بيعة يزيد ـ وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة:

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين. أحب العافية وأحسن في الناس السيرة ولم يفش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتي فيقال إن فلاناً يرى رأى الشيعة وإن فلاناً يرى رأى الخوارج، فكان يقول: قضى اللّٰه أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم اللّٰه عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يلقي بعضهم بعضاً، ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنهروان، ويرون أن في الإقامة الغبن والوكف وأن في الجهاد أهل القبلة الفضل والأجر، وقد فزع الخوارج في عهده إلى ثلاثة نفر، منهم المستورد بن علفة التميمي، من تيم الرباب، وحيان بن ظبيان السلمي، ومعاذ بن جوين بن حصين الطائي فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لأنه كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ثم يخرجوا في غرة الهلال هلال شعبان سنة ٤٣ فكانوا في جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة إليه وأخبره أن القوم مجتمعون في منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج في هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيه بهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ما حملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين فقالوا ما أردنا من ذلك شيئاً ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب. قال المغيرة: بلى قد بلغني ذلك عنكم قد صدق ذلك عندي جماعتكم. قالوا له أما اجتماعنا في هذا المنزل فإن حيان بن ظبيان أقرؤنا للقرآن فنحن نجتمع عنده في منزله فنقرأ القرآن عليه فأمر بهم

إلى السجن فلم يزالوا فيه نحوا من سنة وسمع إخوانهم بأخذهم فحذروا وخرج المستورد وأصحابه فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج خارجة عليه في أيامه تلك وأنهم قد اجتمعوا على رجل فقام في أهل الكوفة خطيباً فقال:

«أما بعد: فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى وإني والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهائكم فأما الحلماء الأتقياء فلا وايم الله لقد خشيت أن لا أجد بداً من أن يعصب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم وقد ذكر لي أن رجالا منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشقاق والخلاف وايم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار» فقام إليه معقل بن قيس الرياحي فقال أيها الأمير هل سمى لك أحد من هؤلاء القوم فإن كانوا سموا لك فأعلمنا من هم فإن كانوا منا كفيناكهم وإن كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها فقال ما سمي لي أحد منهم ولكن قد قيل لي إن جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر، فقال معقل أصلحك الله، فإني أسير في قومي وأكفيك ما هم فيه فليكفك كل امرىء من الرؤساء قومه. فنزل المغيرة وأرسل إلى الرؤساء وقال لهم ليكفيني كل امرىء من الرؤساء قومه وإلا فوالذي لا إله غيره لأتحولن عما كنتم تعرفون إلى ما تنكرون وعما تحبون إلى ما تكرهون فلا يلم لائم إلا نفسه وقد أعذر من أنذر فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والإسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يهيج فتنة أو يفارق جماعة.

ولما كان الخوارج قد نزلوا في إحدى دور عبد القيس قام صمة بن صوحان العبدي وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه في دار فكره أن يؤخذوا في عشيرته وكره مساءة أهل بيته من قومه فخطبهم خطاباً حسناً قال في آخره «ولا قوم أعدى الله ولكم ولأهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه

المارقة الخاطئة الذين فارقوا إمامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا بالكفر، فإياكم أن تؤووهم في داركم أو تكتموا عليهم فإنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم وقد والله ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي وأنا باحث عن ذلك وسائل فإن كان حكى لي ذلك حقاً تقربت إلى الله بدمائهم فإن دماءهم حلال». ولما بلغ ذلك المستورد كره المقام بمنزل العبدي ولما بلغ من في محبس المغيرة إجماع أهل المصر على نفي من كان بينهم من الخوارج وأخذهم قال معاذ بن جوين في ذلك:

ألا أيها الشارون قد حان لامرىء شرى نفسه للّه أن يترحلا
فقمتم بدار الخاطئين جهالة وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها إقامتكم رأياً مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح شديد القصيرى دراعاً غير أعزلا
ويا ليتني فيكم أعادي عدوكم فيسقيني كأس المنية أولا
يعز علي أن تخافوا وتطردوا ولما أجرد في المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد إذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مشيحاً بنصل في حمى الوغى يرى الصبر في بعض المواطن أمثلا
وعز علي أن تضاموا وتنقصوا وأصبح ذا بث أسيراً مكبلا
ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم أثرت إذا بين الفريقين قسطلا
فيا رب جمع قد فللت وغارة شهدت وقرن قد تركت مجدلا

ثم خرج المستورد وأصحابه إلى سورا فتتاموا بها ٣٠ رجل ثم ساروا إلى الصراة فباتوا بها ليلة. فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤسا الناس فقال إن هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الجبن وسوء الرأي فمن ترون أبعث إليهم؟ فقام إليه عدي بن حاتم فقال كلنا لهم عدو ولرأيهم مسفه وبطاعتك مستمسك فأينا شئت سار إليهم؟ فقام معقل بن قيس فقال إنك لا تبعث إليهم أحداً ممن ترى حولك من أشراف المصر إلا وجدته سامعاً مطيعاً ولهم مفارقاً ولهلاكهم

محباً ولا أرى أصلحك اللّه أن تبعث إليهم أحداً من الناس أعدى لهم ولا أشد عليهم مني فابعثني إليهم فإني أكفيكهم بإذن اللّه فقال اخرج على اسم اللّه. فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخيروهم من نقاوة شيعة علي وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبا الرواغ اليشكري في ٣٠٠ فلحقهم بالمذار مقيمين فبات ليلته حتى إذ أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلى من معه فما ثبت لهم إنسان، ثم إن أبا الرواغ صاح وقال يا فرسان السوء قبحكم اللّه سائر اليوم الكرة الكرة فعادوا إلى الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضاً وانكشفوا فقال لهم أبو الرواغ انصرفوا بنا فلنكن قريباً منهم لا نزايلهم حتى يقدم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع إلى الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال وتكثر القتلى فقال له رجل: إن اللّه لا يستحي من الحق قد واللّه هزمونا قال أبو الرواغ لا أكثر اللّه فينا مثلك إنا ما لم ندع المعركة فلم نهزم إنا متى عطفنا عليهم وكنا قريباً منهم فنكن على حال حسنة حتى يقدم علينا الجيش فوقفوا قريباً منهم متى قدم معقل، فشكر أبا الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ: أصلحك اللّه إن لهم شدات منكرات فلا تكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من يقاتلهم وكن أنت من وراء الناس رداً لهم فقال نعماً رأيت فما كان ريثما قالها حتى شدوا عليه وعلى أصحابه فلما غشوه انجفل عنه أصحابه وثبت ونزل وقال: الأرض الأرض يا أهل الإسلام ونزل معه أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو ٢٠٠ رجل ولما رآه الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل. وفي أثنائه بلغ الخوارج أن جيشاً من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا أن يقفوا حذار أن يقعوا بين جيشين فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم إلا عند الصبح فعاد متبعاً آثارهم وأبو الرواغ على مقدمته في ٦٠٠ فلحقهم بجرجرايا فلما رآه الخوارج شدوا عليه شدة واحدة صدقوا فيها الحملة فانكشف جد أبو الرواغ وبقي معه نحو مائة رجل فعطف عليهم وهو يقول:

إن الفتى كل الفتى من لم يهل إذا الجبان حاد عن وقع الأسل

قــد علمت إني إذا الــبــأس نــزل أروع يــوم الهــيــج مـقــدام بــطل

ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتى ردوهم إلى مكانهم الذي كانوا فيه. ولما رأى الخـوارج ذلك خـافوا من مجيء معقـل فتركـوا الموقعة وساروا وأبو الرواغ في آثارهم. قال المستورد لأصحـابه إن الـذين مع أبي الرواغ هم حر أصحاب معقل فهلم فلنقابل معقلا قبل أن يلتقي بأصحابه فعاد المستـورد بجنده وتـرك أبا الـرواغ بعد أن خـدعـه ولم يكن إلا قليـل حتى التقى بمعقـل وأصحابـه ومقـدمتـه ليست عنـده. فلما رآهم معقـل نصب رايتـه ونـزل ونـادى: يا عبـاد اللّه الأرض الأرض فنـزل معـه نحـو من ٢٠٠ رجـل فحمـل علـيهم الخوارج فـاستقبلوهم بـأطراف الـرماح جثـاة عـلى الـركب وصبـوا على حملات الخوارج الشـديدة. وبيننـا هم على تلك الحـال إذ طلعت عليهم مقدمـة أصحاب الرواغ واشتد القتال وكانت نتيجته أن قتل المستورد وسائر أصحـابه مـا عـدا خمسـة منهم، وقتـل معقـل بن قيس رئيس الجيش وكـان معقـل قـد بـارز المستورد وبيد معقل السيف وبيد المستورد الرمح فأشرع المستورد الرمح في صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره، وعلا معقل بالسيف على رأسه حتى خالط أم الدماغ فخراميتين وبذلك انتهى أمر هؤلاء القوم الـذين لم يكن يمكن أن يماثلهم أحد في شداتهم المنكـرة. قال الشعبي: مـا ولينا وال بعـد المغيرة مثله وإن كـان لاحقاً بصالح من كان قبله من العمـال. وأقام المغيرة عامـلا لمعاويـة سبع سنـين وأشهراً وهو من أحسن شيء سيـرة وأشده حبـاً للعافيـة غير أنـه لا يدع ذم عـلي والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن بهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفـار لـه والتزكيـة لأصحابـه. كان يقـول لا أحب أن أبتدىء أهـل هـذا المصر بقتـل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى ويعز في الدنيـا معاوية ويذل يـوم القيامة المغيرة ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بيني وبينهم الموت وسيذكرونني لو قد جربوا العمـال بعدي. قال شيخ من أهل الكوفة: قد واللّه جربناهم فوجدنـاه خيرهم أحمـدهم للبرىء وأغفرهم للمسيء وأقبلهم للعذر. وتوفي المغيرة سنة ٥١ ولو وازناه بزيـاد لرجـح عليه لأنه أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف.

منْ ولاة العـراق الأشـداء عبيـد اللّه بن زيـاد ولاه معـاويـة البصـرة سنـة ٥٥ وقـد اشتـد عـلى الخـوارج شـدة لم يفعلهـا أبـوه زيـاد فقتـل منهم سنـة ٥٨ جمـاعـة كثيـرة صبـراً وفي الحـرب جمـاعـة أخـرى. وممن قتـل صبـراً عـروة بـن أديـة، أخـو أبي بـلال مـرداس بن أديـة. وكـان سبب ذلـك أن ابن زيـاد خـرج في رهـان لـه، فلما جلس ينتـظر الخيـل اجتمـع الناس وفيهم عروة بن أدية قبل علي ابن زياد فقال: خمس كن في الأمم قبلنا فقد صرن فينا: (أتبنون بكل ريـع آية تعبثون وتتخذون مصـانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين) وذكر خصلتـين أخريـين. فلما سمع ذلـك ابن زياد ظن أنه لم يجترىء عليه إلا ومعه جماعة من أصحابه، فقـام وركب وترك رهـانه فقيـل لعروة ما صنعت تعلمن واللّه ليقتلنك، فتوارى فطلبه ابن زياد في الكوفة فأخـذ بها فقدم بـه علي بن زيـاد فأمـر به فقـطعت يداه ورجـلاه ثم دعا بـه فقال كيف ترى؟ قال أرى أنـك أفسدت دنيـاي وأفسدت آخـرتك فقتله، وأرسـل إلى ابنته فقتلها وخرج أخوه مرداس في أربعين رجلا بالأهواز فبعث إليهم ابن زيـاد جيشاً عدته ألفان وعليهم ابن حصن التميمي فهزمه الخوارج فقال شاعرهم:

أألـفـا مـؤمـن فـيـما زعـمـتـم ... ويـقـتـلكـم بـآسـك أربـعـونـا
كـذبـتـم لـيس ذاك كـما زعـمـتـم ... ولـكـن الخـوارج مـؤمـنـونـا
هـي الفئـة الـقـليـلة قـد عـلمـتـم ... عـلى الفئـة الكـثيـرة ينـصـرونـا

ولم يزل عبيد اللّه والياً على البصرة حتى توفي معاوية.

وفي مصر كان الوالي عمرو بن العاص فـاتحها وأعـرف الناس بهـا ولم يزل والياً عليها حتى مات سنة ٤٣ فولى بدله ابنه، ثم عزله بعد ذلـك وولى غيره ولاة سيأتي ذكرهم متى بدأنا في تارخ مصر.

أما الحجاز فكـان ولائه ولاتـه دائماً من بني أميـة وكانت ولايـة المدينـة بين مـروان بن الحكم وسعيد بن العـاص يتداولانها وكـان معـاويـة إذا أراد أن يـولي رجلا من بني حرب ولاه الطائف فإن رأى منـه خيراً ومـا يعجبه ولاه مكـة معها فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً جمـع له معهـا المدينـة، فكان إذا ولى

الطائف رجلاً قيل هو في أبي جاد، فإذا ولاه مكة قيل هو في القرآن، فإذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق، وكان ولاة المدينة في الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فإن معاوية لم يحج بنفسه إلا مرتين سنة ٤٤ وسنة ٥٠ وفيما عداهما كان يقيمه هؤلاء الولاة وكلهم من بني أمية.

الفتوح في عهد معاوية:

لم يكن في الشرق على حدود بلاد الفرس إلا فتوح قليلة والذي كان إنما هو إرجاع الناكثين من أهل تلك البلاد إلى الطاعة وغزا عبد اللّه بن سوار العبدي الذي كان أميراً على ثغر السند القيقان[١] مرتين وفي المرة الثانية استعان القيقان بالترك فقتلوه وغزا المهلب بن أبي صفرة الأزدي ثغر السند فأتى بتة ولاهور[٢] وهما بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقي المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعاً فقال المهلب ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منا فحذف الخيل وكان أول من حذفها من المسلمين.

وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم. كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان: أحدهما قسطنطين الثاني ابن هرقل الثاني الذي ولي الملك من سنة ٦٤١ م إلى سنة ٦٦٨ م، وقسطنطين الرابع بوغاناتس الذي ولي من سنة ٦٦٨ م إلى سنة ٦٨٥ م ودولة الروم لم تزل فيها الحياة تغير على البلاد الإسلامية لما بينهما من الجوار، فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً أما البحر فكانت الأساطيل في زمنه كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفاً وسبعمائة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها في البحر فترجع غانمة وافتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس افتتحها جنادة بن أبي أمية الأزدي ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم.

وأما في البرفرتب الشواتي جمع شاتية وهي الجيش الذي يغزو في الشتاء

(١) من بلاد السند مما يلي خراسان.

(٢) مدينة بكابل.

والصوائف جمع صائفة وهي الجيش الذي يغزو في الصيف فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو. وفي سنة ٤٨ جهز معاوية جيشاً عظيماً لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد أن يغزو معهم وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وغيرهم وعبد العزيز بن زرارة الكلابي فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول:

قد عشت في الدهر أطواراً على طرق ... شتى فصادفت منها اللين والبشعا
كلا بلوت فلا النعماء تطربني ... ولا تخشعت من لأوائها جزعا
لا يملأ الأمر صدري قبل موقعه ... ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا

ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتى قتلوه فبلغ خبر قتله معاوية فقال لأبيه: والله هلك فتى العرب فقال ابني أو ابنك قال ابنك فآجرك الله فقال:

فإن يكن الموت أودى به ... وأصبح مخ الكلابي زيراً
فكل فتى شارب كأسه ... فأما صغيراً وإما كبيراً

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الإغريقية بسفنهم، وفي أثناء الحصار توفي أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد وهو الذي نزل عليه رسول الله ﷺ بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريباً من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار للآن وعليه مسجد مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيراً من جنودهم ومراكبهم.

ومن الفتوح العظيمة ما كان في إفريقية ففي سنة ٥٠ ولى معاوية عقبة بن نافع وكان مقيماً ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله في تلك البلاد جهاد وفتوح، فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فدخل أفريقية وانضاف من اسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل

عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكان دجلة مشتبكة فقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها ٣٦٠٠ باع وتم أمرها سَنة ٥٥ وسكنها الناس وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا وأطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها.

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولى على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل على أفريقية مولى له يقال له أبو المهاجر فقدم أفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به وهذا من الخلل القديم يئن منه المسلمون إلى الآن فإن الخلف كان من الولاة عوضاً عن أن يستعين بآراء سلفه وتجارية يجتهد في تصغيره وتحقيره حتى ينطفىء اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولا يدري أنه بهذا يتقطع من نفسه قوة كان يمكن الإنتفاع بها، وترون مثل هذا بين أظهركم للآن فإنه ما ولى للآن فإنه ما ولى إنسان عملا بعد رجل آخر إلا اجتهد أن يسىء سمعته ويبين للناس أن لم يكن يحسن أن يسير فيها ولى سيرة رجل عارف بالأمور، وكذلك السلف يجتهد أن يخفي عن خلفه كل ما يمكن أن ينفعه ليرتبك في إدارته حتى يكون للأول الإسم وحده، والأمة التي عندها مثل هذا الفكر العقيم لا يمكن أن تنجح أو تسود.

عاد عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على ما فعله أبو المهاجر فاعتذر اليه ووعده بإعادته إلى عمله وتمادى الأمر حتى توفي معاوية. وسنبين لكم في خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد إلى عمله.

البيعة ليزيد بولاية العهد:

فكر معاوية أن يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان

الواضع لهذه الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته، دخل على يزيد وقال له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله ﷺ وكبراء قريش وذوو أسنانهم وإنما بقي أبناؤهم وأفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال: أو ترى ذلك يتم؟ قال: نعم. فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فأحضره معاوية وسأله عما قال ليزيد، فقال: قد رأيت ما كان من سفك الدماء والأختلاف بعد عثمان وفي يزيد منك خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة. قال: ومن لي بذلك قال: أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك. قال: فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به في ذلك؟ وترى ونرى.

فسار المغيرة إلى الكوفة وذاكر من يثق به ومن يعلم أنه شيعة لبني أمية، أمر يزيد، فأجابوا إلى بيعته فأوفد منهم وفداً عليهم ابنه موسى فقدموا على معاوية فزينوا له بيعة زيد فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم. فرجعوا وقوى عزم معاوية على البيعة ليزيد، فأرسل إلى زياد يستشيره فأحضر زياد عبيد بن كعب النميري وقال: إن لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودعا. وإن الناس قد أبدع بهم خصلتان إذاعة السر وإخراج النصيحة إلى غير أهلها وليس موضوع السر إلا أحد رجلين رجل آخرة يرجو ثوابها ورجل دنيا له شرف في نفسه وعقل يصون حسبه قد خبرتهما عنك وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصف، إن أمير المؤمنين كتب إلي يستشيرني في البيعة ليزيد، إنه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد فالق أمير المؤمنين وأد إليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر فأحرى لك أن يتم لك ولا تعجل فإن دركا في تأخير من فوت في عجلة فقال له عبيد أفلا غير هذا قال وما هو قال لا تفسد على معاوية رأيه ولا تبغض اليه ابنه وألقى أنا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك في البيعة له وإنك تتخوف خلاف

الناس عليه لهنات ينقمونها عليه وإنك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ما تريد فتكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من أمر الأمة فقال زياد لقد رميت الأمر بحجره أشخص على بركة اللّه فإن أصبت فما لا ينكر وإن يكن خطأ فغير مستغش وتقول بما ترى ويقضي اللّه بغيب ما يعلم على يزيد فذكر ذلك له فكف عن كثير مما كان يصنع وكتب زياد معه إلى معاوية يشير بالتؤدة وأن لا يعجل فقبل منه فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب إلى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له إني كبرت سني ودق عظمي وخشيت الإختلاف على الأمة من بعدي، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدي وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك فاعرض ذلك عليهم وأعلمني بالذي يردون عليك. فقام مروان في الناس فأخبرهم فقالوا: أصاب ووفق وقد أحببنا لنا فلا يألو. فكتب مروان إلى معاوية بذلك فأعاد إليه الجواب فذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال إن أمير المؤمنين قد اختارك لكم فلم يأل وقد استخلف ابنه يزيد. فقام عبد الرحمن ابن أبي بكر وقال: ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل. وأنكر ذلك الحسين بن علي وعبد اللّه بن عمر وعبد اللّه بن الزبير. فكتب مروان إلى معاوية بذلك

وكان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه، وأن يوفدوا إليه الوفود من الأمصار. فكان فيمن أتاه محمد بن عمرو بن حزم من المدينة والأحنف بن قيس في وفد أهل البصرة، فقال محمد بن عمرو لمعاوية إن كل راع مسئول عن رعيته فأنظر من تولى أمر أمة محمد. ثم إن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهري لما اجتمعت الوفود عنده: إني متكلم فإذا سكت فكن أنت الذي تدعو إلى بيعة يزيد وتحثني عليها، فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم أمر الإسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر اللّه به من طاعة ولاة الأمر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته. فقام الضحاك فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين إن لا بد للناس من وال بعدك وقد

بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصح للدهماء وآمن للسبل وخيراً في العاقبة، والأيام عوج رواجع والله كل يوم هو في شأن، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حسن هديه وقصد سيرته أعلى ما علمت، وهو من أفضلنا علما وحلماً وأبعدنا رأياً فوله عهدك واجعله لنا علماً بعدك ومفزعا نلجأ إليه ونسكن في ظله، ثم تكلم غيره بمثل كلامه. فقال معاوية للأحنف بن قيس: ما تقول يا أبا بحر؟ فقال نخافكم إن صدقنا ونخاف الله إن كذبنا وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه فإن كنت تعلمه لله وللأمة رضا فلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا. كان معاوية يعطي المقارب ويداري المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعوه. فلما بايعه أهل العراق وأهل الشام سار إلى الحجاز في ألف فارس، فلما دخل المدينة خطب الناس فذكر يزيد فمدحه وقال: من أحق منه بالخلافة في فضله وعقله وموضعه. وما أظن قوما بمنتهين حتى تصيبهم بواثق تجتث أصولهم. وقد أنذرت أن أغنت النذر ثم أنشد متمثلا:

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت يا عمرو أطعني وانطلق
إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق
دونك ما استسقيته فأحسن وذق

وكان أولئك النفر الثلاثة قد تركوا المدينة إلى مكة. فخرج معاوية وقضى بها نسكه. وجمعهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون الذي يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية: قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم وحملي ما كان منكم ويزيد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقدموه بإسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم في شيء من ذلك. فقال ابن الزبير: نخيرك بين ثلاث خصال. قال اعرضهن: تصنع كما صنع رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر. قال معاوية: ليس فيكم مثل أبي بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس

من بني أبيه فاستحلفه. وإن شئت فاصنع كما صنع عمر وجعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بني أبيه. قال معاوية هل عندكم غير هذا؟ فقالوا لا قال فإني أحببت أن أتقدم إليكم إنه قد أعذر من أنذر إني كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فأحمل ذلك فأصفح فإني قائم بمقالة فأقسم بالله لائن رد على أحد منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه. ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل أحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقي المنبر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبتز أمر دونهم ولا يقضي إلا عن مشورتهم وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله. فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر، ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة ثم إلى الشام. ويروي أن ابن عمر قال لمعاوية: أبايعك على أني أدخل فيما تجتمع عليه الأمة، فوالله لو اجتمعت على حبشي لدخلت معها.

ونقول إن فكر معاوية في اختيار الخليفة يعده حسن جميل وإنه ما دام لم توضع قاعدة لانتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع إليهم الاختيار فأحسن ما يفعل هو أن يختار الخليفة ولي عهده قبل أن يموت لأن ذلك يبعد الاختلاف الذي هو شر على الأمة من جور إمامها وقد فعل معاوية ما يظهر معه أنه لم يستبد بالأمر دون الأمة فطلب وفود الأنصار فحضروا عنده وأجابوه إلى طلبته من بيعة يزيد ابنه والذي ينقده التاريخ من أمره هو:

١ ـ أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيدوهم من سادة الأمة الذين يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعته أهل مكة، وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين، لا جرم أن كان من نتائج تلك الحوادث المحزنة التي سنوضحها في خلافة يزيد.

٢ ـ مما انتقده الناس أنه اختار ابنه للخلافة، وبذلك سن في الإسلام سنة الملك المنحصر في أسرة معينة بعد أن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا إن هذه الطريقة التي سنها معاوية، تدعو في الغالب إلى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة، وتجعل في أسرة الخلافة الترف والإنغماس في أسرة الترف والإنغماس في الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس، أما رأينا في ذلك فإن هذا الإنحصار كان أمراً لا بد منه لصلاح أمر المسلمين وألفتهم ولم شعثهم فإنه كان كلما اتسعت الدائرة التي منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة، وإذا انضم إلى ذلك اتساع المملكة الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع إليهم الإنتخاب فإن الإختلاف لا بد واقع، ونحن نشاهد أنه مع تفوق بني عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش، فإنهم تنافسوا الأمر وأهلكوا الأمة بينهم، فلو رضي الناس عن أسرة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا باستحقاق الولاية لكان هذا خير ما يفعل لضم شعث المسلمين. إن أعظم من ينتقد معاوية في توليه ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الأمر في آل علي ويسوقون الخلافة في بنية يتركها الأب منهم للإبن، وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لا يعدوهم إلى غيرهم. والنتيجة أن ما فعله معاوية كان أمراً لا بد منه مع الحال التي كانت عليها البلاد الإسلامية.

مقارنة الحكم في عهد معاوية بالحكم مدة الخلفاء الراشدين:

إن النظر لحال سياسة الناس في عهد معاوية يراها لا تشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال في عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة فقد كانت الناس تساس بالقانون الشرعي تماماً يأخذ كل إنسان ماله ويعطي ما عليه فإن تأخر في واجب مما عليه عاقبته الدرة درة عمر. وكان الناس أنفسهم متحدي الميل لم تكثر بينهم الإختلافات في الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولا لا يخرجه عن حقيقته التي تدعو الناس إلى التآزر والتحاب. وأما في هذا العهد فإن الأمة

اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا في غمار الفتنة متأولين للقرآن، فكانت السياسة التي أحكموا بها شديدة قاهرة حتى سهل إهراق الدماء. ألا ترون إلى زياد وما كان يفعله فإنه قتل ذلك الأعرابي الذي أخذ من الجامع مع اعتقاد زياد صدقه لكنه قال إن في قتلك صلاحاً للرعية. لا ننكر أن معاوية نفسه كان سهلا ليناً يعفو ويغفر ويفيض على الناس من حلمه الواسع ويحب لهم العافية ولكن بعض عماله اشتدوا على الناس شدة لا نظن أنها تصلح القلوب وإنما تخفف الألم عن الأمة تخفيفاً وقتياً.

ومما ننقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتشهير بعلي على المنابر مع أن الرجل قد لحق بربه وانتهى بأمره. وكان يعلم يقيناً أن هذه الأقوال مما يهيج صدور شيعته وتجعلهم يتأففون ويتذمرون ولا ندري ما الذي حمله أن جعل ذلك فرضاً حتماً في كل خطبة كأنه ركن من أركانها لا تتم إلا به.

من المحدثات الجميلة التي حدثت في عهد معاوية البريد ومعنى ذلك أن تقسم الطرق منازل في كل منزل دواب مهيأة معدة لحمل كتب الخليفة إلى البلدان المختلفة، فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر مسرعاً حتى إذا وصل إلى أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها كالأول وبذلك كانت تصل الكتب إلى الأمراء والعمال في أسرع وقت يمكن وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أو إثنا عشر ميلا وتسمى هذه المسافة بريداً. وروى ياقوت في معجم البلدان أنه إنما سميت خيل البريد بهذا الإسم لأن بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بطئها فشكوا من مروا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فأمر أن تكون أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا عللهم في سيرهم فقيل بريد أي قطع فغرب فقيل خيل البريد. وقال ياقوت إنه روى هذا عن بعض من لا يوثق به ولكنه صحيح في القياس والنظر.

معاوية أول من اتخذ الحرس ولم يكن شيء من ذلك في عهد الخلفاء

الراشدين وإنما اتخذه بعد أن كان من إرادة الخارجي قتله.

إتخذ معاوية ديوان الخاتم. وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم وكتب له بذلك إلى زياد. ففتح عمرو الكتاب وصير المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه فقضاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم.

كان كاتب معاوية سرجون الرومي لأن ديوان الشام كان لعهده بالرومية ويظهر أنه كاتب الخراج، وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولاه وقاضيه فضالة بن عبيد الأنصاري ثم أبو إدريس الخولاني ومعنى ذلك أنه كان قاضي الشام وكان لكل ولاية قاض خاص.

بيت معاوية:

١ ـ تزوج ميسون بنت بحدل وهي أم يزيد ابنه.

٢ ـ فاختة بنت قرظة النوفلي فولدت له عبد الرحمن وعبد اللّه ومات عبد الرحمن صغيراً.

٣ ـ نائلة بنت عمارة الكلابية وهذه طلقها.

٤ ـ كتوة بنت قرظة أخت فاختة غزا قبرص فماتت معه هناك.

وفاة معاوية:

مرض معاوية بدمشق في جمادي الثانية وكان يزيد ابنه غائباً، فأحضر معاوية الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المري وأدى إليهما وصيته إلى يزيد وكان فيها «يا بني إني قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد، فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فإن عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وغيبتك فإن رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فإذا أصبتهم فأردد أهل الشام

إلى بلادك فإنهم إن قاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم. وإني لست أخاف أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربعة من قريش الحسين بن علي وعبد اللّه بن عمر وعبد اللّه بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة فإذا لم يبق أحد غيره بايعك، وأما الحسين بن علي فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت به فأصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً وقرابة من محمد ﷺ؛ وأما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همة إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها فظفرت به فقطعه إرباً إرباً، واحقن دماء قومك ما استطعت». ثم مات بدمشق لهلال رجب سنة ٦٠ هـ (٧ أبريل سنة ٩٨٠ م). فخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: إن معاوية كان عود العرب وحد العرب وجد العرب قطع اللّه به الفتنة وملكه على العباد وفتح البلاد إلا أنه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج إلى يوم القيامة، فمن كان يريد أن يشهده فعنده الأولى وصلى عليه الضحاك وكان قد أرسل الخبر إلى يزيد فقال في ذلك يزيد:

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسة فزعا
قلنا لك الويل ماذا في كتابكم ... قال الخليفة أمسى مثبتا وجعا
ثم انبعثنا إلى خوص مزممة ... نرمي الفجاج بها لا نأتلي سرعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل توفي على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق ... وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئاً يعد طيرته ... والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودي ابن هند وأودي المجد يتبعه ... كانا جميعا فماتا قاطنين معاً
أغر أبلج يستسقي الغمام به ... لو قارع الناس عن حسابهم قرعا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتى قبره فصلى عليه.

يزيد الأول ـ كيفية انتخابه
مقتل الحسين ـ وقعة الحيرة ـ حصار مكة
الفتوح في عهد يزيد ـ بيته ووفاته

٢ ـ يزيد الأول

هو يزيد بن أبي سفيان، وأمه ميسون بنت بحدل ولد سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان فتربى في حجر الإمارة ولما شب في خلافة أبيه كان يرشحه للأمارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وأرسله في الجيش الذي غزا القسطنطينية لأول مرة وكان مغرماً بالصيد وهذا مما أخذه عليه الناس إذ ذاك لأنهم لم يكونوا فارقوا البداوة العربية والجد الإسلامي بعد.

كيفية انتخابه:

عهد إليه أبوه بالخلافة من بعده بعد أن استشار في ذلك وفود الأمصار فبايعه الناس ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسين بن عليّ وعبد اللّه بن الزبير وعبد اللّه بن عمر. فلما توفي معاوية لم يكن ليزيد إلا مبايعتهم له فأرسل إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة يقول له (أما بعد فخذ حسيناً وعبد اللّه بن عمر وابن الزبير أخذاً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) فلما أتاه نعي معاوية فظع به وكبر عليه فأرسل إلى هؤلاء النفر فأما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيعة وأخبره بموت معاوية استرجع وترحم على معاوية وقال أما البيعة فإن مثلي لا يبايع سراً ولا يجتزي بها مني سرا فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً. فقال له الوليد وكان يحب العافية انصرف. وأما ابن الزبير فترك المدينة وذهب إلى مكة وقال اني عائذ بالبيت ولم يكن يصلي بصلاتهم ولا يفيض في الحج بإفاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة

بعده الحسين بن علي وأخذ معه بنيه وإخوته وبنى أخيه إلا محمد بن الحنفية فإنه أبى الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه.

أما ابن عمر فإنه قال إذا بايع الناس بايعت فتركوه وكانوا لا يتخوفونه ولما بايع الناس هو وابن عباس.

حادثة الحسين:

جاء الحسين مكة فكان أهلها يختلفون إليه ويأتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ويطوف ويأتي الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأي وهو أثقل خلق اللّه على ابن الزبير لأن أهل الحجاز لا يبايعوه ما دام الحسين بالبلد. لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة إلى منزل كبيرهم سليمان بن صرد الخزاعي واتفقوا أن يكتبوا إلى الحسين يستقدمونه ليبايعوه، فكتبوا إليه نحواً من ١٥٠ صحيفة. ولما اجتمعت الكتب عنده كتب إليهم (أما بعد فقد فهمت كل الذي اقتصصتم وقد بعثت إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب إلى أنه قد اجتمع رأى ملئكم وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم أقدم إليكم وشيكاً إن شاء اللّه فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب والقائم والدائن بدين الحق والسلام). ثم دعا الحسين مسلم بن عقيل فسيره نحو الكوفة. وأمره بتقوى اللّه وكتمان أمره واللطف، فإن رأى الناس مجتمعين عجل إليه بذلك فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها النعمان بن بشير الأنصاري فأقبلت إليه الشيعة تختلف إليه. ولما بلغ ذلك النعمان صعد المنبر وقال: أما بعد، فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال وكان النعمان حليما ناسكا يحب العافية ثم قال إني لا أقاتل إلا من يقاتلني ولا أثب على من لا يثب علي ولا أنبه نائمكم ولا أتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم إن أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فواللّه الذي لا

إله إلا هو لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ولو لم يكن لي منكم ناصر ولا معين أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل إليه رجل من شيعة بني أمية وقال له إنه لا يصلح ما ترى إلا المغشم إن هذا الذي أنت عليه رأى المستضعفين فقال أكون من المستضعفين في طاعة اللّٰه أحب إلى من أن أكون من الأعزين في معصية اللّٰه ونزل. فكتب ذلك الرجل إلى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول إن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلا قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوك فإن النعمان رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد اللّٰه بن زياد أمير البصرة فجعله وإلى المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد إلى الكوفة وخطب في أهلها فقال: (أما بعد فإن أمير المؤمنين ولاني مصركم وثغركم وفيئكم وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده فأنا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالأخ الشقيق وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي فليبق امرؤ على نفسه) ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً وقال اكتبوا لي الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين دأبهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم إلى بريء ومن لم يكتب لنا أحد فليضمن لنا ما في عرافته أن لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب على باب داره، ألقيت تلك العرافة من العطاء وسير إلى موضع نعمان الزارة. •

سمع مسلم ابن زياد فاستجار بهانىء بن عروة المرادي فأجاره متكرهين وصارت الشيعة تختلف إليه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدار هانىء فاستقدم هانئا فقدم عليه، ولما دنا منه قال عبيد اللّٰه:

أريد حياته ويريد قتلي ‌ ‌ ‌ ‌ عذيرك من خليلك من مراد

فقال هانىء وما ذاك؟ فقال: يا هانىء ما هذه الأمور التي تربص في دارك لأمير المؤمنين والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفي لك وقد أراد هانىء أن ينكر فلم يجد إلى الانكار سبيلا فطلب منه ابن زياد أن يسلم إليه مسلما فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن زياد به فضرب وحبسه بالقصر. ولما علم بذلك مسلم نادى في أصحابه بشعارهم يا منصور وكان قد بايعه ثمانية عشرة ألفاً وحوله في الدور أربعة آلاف فاجتمع إليه ناس كثير فعبأهم وأقبل إلى القصر فأحاط به وامتلأ المسجد والسوق من الناس ولم يكن من ابن زياد إلا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون رجلا من الأشراف وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا كثير بن شهاب الحارثي وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل ذلك غيره من الأشراف وأبقى عنده بعضهم استئناسا بهم فخرج الذين أمروا بالخروج يخذلون الناس وأشرف الذين بالقصر على الناس فمنعوا أهل الطاعة وخوفوا أهل المعصية. ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتى لم يبق مع ابن عقيل في المسجد إلا ثلاثون رجلا فحار في أمره أين يذهب واختفى فعلم ابن زياد بمكان اختفائه فأرسل إليه محمد بن الأشعث فجاء به فقال مسلم لابن الأشعث إني أراك تعجز عن أماني فهل أستطيع أن تبعث من عندك رسولا يخبر الحسين بحالي ويقول له عني ليرجع بأهل بيته ولا يغره أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيه الذي كان فراقهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الأشعث ولما جيء بمسلم إلى ابن زياد قتله ثم قتل بعده هانىء بن عروة المرادي.

أما أمر الحسين فإنه لما عزم على المسير إلى الكوفة جاءه عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغني أنك تريد العراق وإني مشفق عليك أن تأتي بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال، وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب

إليـه ممن يقاتلك معـه فجـزاه الحسـين خيـراً. وجـاءه ابن عبـاس فقـال لـه قـد أرجف النـاس أنك تـريد العـراق فخبرني مـا أنت صـانـع؟ فقـال: قـد أجمعت المسير في أحد يـومي هذين فقـال له ابن عبـاس: أعيذك بـالله من ذلك خبـرني رحمك الله أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فـإن كانـوا فعلوا ذلـك فسر إليهم وإن كانـوا إنمـا دعـوك إليهم وأميـرهم عليهم قـاهـر لهم وعمـالـه تجبي بـلادهم فـإنمـا دعـوك إلى الحـرب ولا آمن عليـك أن يغـروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا إليك فيكـونوا أشـد النـاس عليـك، فقال الحسين: فإني أستخير الله وأنظر ما يكون. ثم جـاءه ابن عباس ثـاني يوم فقـال يـا ابن عم إني أتخـوف عليـك في هـذا الـوجـه الهـلاك والاستئصـال. إن أهـل العراق قوم غدر فلا تقـربنهم أقم بهذا البلد فـإنك سيـد أهل الحجـاز فإن كـان أهـل العراق يـريدونـك كما زعمـوا فاكتب إليهم فلينفـوا عاملهم وعـدوهم، ثم اقـدم عليهم فإن أبيت إلا أن تخـرج فسر إلى اليمن فـإن بهـا حصـونـا وشعـابـا وهي أرض عريضة طـويلة ولأبيك بهـا شيعة وأنت عن النـاس في عزلـة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإني أرجوك أن يأتيـك عند ذلـك الذي تحب في عافية. فلم يسمـع منه الحسـين فقال لـه ابن عباس: فـإن كنت سائـراً فلا تسر بنسـائك وصبيتـك فإني لخـائف أن تقتل كـما قتل عثمـان ونساؤه وولـده ينظرون إليـه فلم يفد كـلامه شيئـاً. ثم سـار بـأهله وأولاده فقـابله بـالـطريق الفـرزدق الشـاعر فسـأله عن خبـر الناس فقـال له قلوب النـاس معك وسيـوفهم مـع بني أميـة والقضـاء ينـزل من السماء والله يفعـل مـا يشـاء ثم جـاءه كتـاب من عبـد الله بن جعفـر يقسم عليه بـالله إلا ما انصـرف ومع كتـابه كتـاب من عمرو بن سعيد أمير المدينة فيه الأمان له ويسأله الرجـوع فأبى وتم عـلى وجهه فقـابله عبد الله بن مطيع ولما علم بوجهه قال له أذكرك الله يا ابن بنت رسول الله وحرمة الإسـلام أن تنتهـك أنشـدك الله في حـرمـة العـرب. فـوالله لئن طلبت مـا في أيـدي بني أمية ليقتلنـك ولئن قتلوك لا يهابـون بعـدك أحـداً. والله إنها لحـرمـة الإسلام وحـرمـة قريش وحـرمة العـرب فلا تفعـل ولا تأت الكـوفة ولا تعـرض نفسك لبني أمية، فأبى ألا يمضي.

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه ننشدك اللّه إلا ما رجعت من مكانك فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك. فوثب بنو عقيل وقالوا واللّه لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم. فسار حتى نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال: أنشدك اللّه إلا ما انصرفت فواللّه ما تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف. إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأياً. فأما على هذه الحال التي تذكر فلا أرى إلا أن ترجع. ولما ترك شراف قابلته خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمي فقال لهم الحسين: أيها الناس إنها معذرة إلى اللّه وإليكم إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا إمام لعل اللّه أن يجعلنا بك على الهدى جئتكم فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهود أقدم مصركم وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلنا منه فلم يجيبوه بشيء في ذلك ثم قال له الحر إنا أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد اللّه بن زياد فقال الحسين الموت أدنى إليك من ذلك ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحر من ذلك، فقال الحسين ثكلتك أمك ما تريد؟ فقال أما واللّه لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ولكني واللّه مالي إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه ثم صار يراقبه حتى لا يتمكن من الإنصراف إلى المدينة فسار الحسين يتجه إلى الشمال حتى وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص فلما قدم أرسل إلى الحسين رسولا يسأله ما الذي جاء به فقال الحسين كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما إذ كرهوني فإني أنصرف عنهم فكتب عمر إلى ابن زياد بذلك فقال:

الآن إذا عرضت مخالبنا به يرجو النجاة ولا حين مناص

ثم كتب إلى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد، فإذا قبل

ذلك رأينا ، وأن يمنعه وهو من معه الماء؛ وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوه يرجع إلى المكان الذي خرج منه، وليس بصحيح أنه عرض عليهم أن يضع يده في يد يزيد فلم يقبلوا منه تلك العودة وعرضوا عليه أن ينزل على حكم ابن زياد ومثل هذا الطلب لا يقبله الحسين مهما يكن من الأمر فلم يكن إلا القتال وفي عاشر المحرم سنة ٦١ انتشب القتال بين هاتين الفئتين جيش العراق الذي لم يكن فيه أحد من أهل الشام وهذه الفئة القليلة ومن معه. وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلاً ولم يكن إلا قليل وقت حتى قتل الحسين وسائر من معه، وعدة من قتل اثنان وسبعون رجلا وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلا ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها إلى ابن زياد ومعها بنات الحسين وإخوته ومعهم علي بن الحسين صغير مريض فأمر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان إلى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه، ثم قال لمن معه أتدرون من أين أتى هذا؟ قال أبي خير من أبيه، وأمي خير من أمه وجدي رسول الله خير من جده. وأنا خير منه، وأحق بهذا الأمر، فأما قوله أبوه خير من أبي فقد تحاج أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له، وأما قوله أمه خير من أمي فلعمري فاطمة بنت رسول الله من أمي، وأما قوله جده خير من جدي فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر، يرى الله فينا عدلا ولا ندا، ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ **﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء﴾**[1] ثم أمر بالنساء فأدخلن يزيد فلم يبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقمن المأتم وسألهن عما أخذ منهن فأضعفه لهن، ثم قرب إليه علي بن الحسين وجهزهن بعد ذلك إلى المدينة وقال لعلي: يا بني كاتبني بكل حاجة تكون لك.

بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التي أثارها عدم الأناة والتبصر

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

في العواقب فإن الحسين بن علي رمي بقول مشيريه جميعاً عرض الحائط وظن بأهل العراق خيراً وهم أصحاب أبيه فقد كان أبوه خيراً عنه وأكثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة في الأعناق ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمنى في آخر حياته الخلاص منهم، أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان في العراق عماله وأمراؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر فحمل أهله وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش الذي حاربه هل كان إلا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة علي بن أبي طالب، وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأ عظيماً في خروجه هذا الذي جر على الأمة وبال الفرقة والإختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها. غاية ما في الأمر أن الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته فحيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين ومن يبشع أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجاً وقد ذهب الجميع إلى ربهم يحاسبهم على ما فعلوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهي أنه لا ينبغي لمن يريد عظائم الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة من يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك كما أنه لا بد أن تكون هناك أسبابا حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكون هناك جور لا يحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله أما الحسين فإنه خائف على يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف.

وقعة الحرة:

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت هي في نظرنا أدهى وأشنع وهي انتهاك حرمة مدينة الرسول ﷺ ومهبط الوحي الإلهي وهي التي حرمها عليه السلام كما حرم إبراهيم كة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيهما القتال فانتهاك حرمة داهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبرى فكيف انتهاك حرمتهما معاً في ـنة واحدة؟

أما حادثة المدينة فإنه في عهد إمارة عثمان بن أبي سفيان عليها أوفد إلى يزيد بدمشق وفداً من أشراف أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الأنصاري وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الزبير وغيرهم ولما قدموا على يزيد أكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلا عابداً سيداً مائة ألف درهم وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر بن الزبير مائة ألف فلما قدموا إلى المدينة أقاموا أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبد الله قومه فجاءهم وأمرهم بلزومهم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم إنكم لا طاقة لكم بأهل الشام فلم تجد نصيحته نفعاً فعاد عنهم وحينذاك قام هؤلاء الثائرون وحصروا من في المدينة من بني أمية في دار مروان فكتبوا إلى يزيد يستغيثون به فلما جاءه كتابهم قال متمثلا:

لقد بدلوا الحكم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

وحينذاك جهز جيشاً أمر عليه مسلم بن عقبة المري وكان عدة من تجهز معاً إثنا عشر ألفاً وقال له يزيد ادع القوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلا فقاتلهم فإن ظهرت عليهم فأبحها ثلاثاً فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاث فأكفف عن الناس وانظر على بن الحسين فاكفف عنه واستوصى به خيراً فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتاني كتابة. وسار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل المدينة الخبر شددوا في حصار بني أمية ولم يفكوا عنهم الحصار إلا بعد أن عاهدوهم أن لا يبغوهم غائلة ولا يدلوا لهم على عورة ولا يظاهروا عليهم عدوا وبذلك جعلوهم يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلما بوادي القرى فدعا بعمرو بن عثمان وقال له ما وراءك فقال لا أستطيع فقد أخذت علينا العهود والمواثيق أن لا ندل على عورة ولا نظاهر عدوا فانتهزه وقال والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل عليه عبد الملك بن مروان فقال هات ما عندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فإذا انتهيت إلى ذي نخلة نزلت فاستظل الناس في ظله وأكلوا من ثمرة فإذا

أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقاً ثم تستقبل القوم إذا استقبلهم وقد أشرفت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ويرون من ائتلاف بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم ما لا ترونه أنتم ما داموا مغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم. ثم دخل عليه مروان فقال إيه فقال مروان أليس قد دخل عليك عبد الملك قال بلى وأي رجل عبد الملك قلما كلمت من رجال قريش رجلا شبيهاً به قال مروان إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتني.

ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل وإني أكره إراقة دمائكم وإني أؤجلكم ثلاثاً فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت إلى هذا المحل الذي بمكة وإن أبيتم كنا قد أعذرنا اليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديداً جداً ولكن انتهى بهزيمة أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون المتاع والأموال وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم، فمن امتنع عن ذلك قتله. ثم أتى بعلي بن الحسين فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمه بالبيعة وكانت هذه الواقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ٦٣هـ

وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في إمكانية أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهة ولا يدري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلي أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار، ولم يكن معهم في هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية. إنهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرماً فعليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان

من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار فإن المدينة لا تحتمل الحصار كثيراً لأنه ليس فيها ما يمون أهلها وماؤها يجيء من الخارج فلو قطعوا عنهم ما استمروا يومين كاملين يقال إن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لأنه كان لهم خندق تركوه وراء ظهوركم وخرجوا محاربين وبعد الإنتصار لم يكن هناك معنى لإباحة ذلك الحرم ثلاثاً احتراماً لرسول الله ﷺ. هذا وإنا نعوذ بالله من الرؤوس التي إذا هاجت لا تنظر في عاقبة ولا تفكر في مستقبل.

حصار مكة:

وثالثة الحوادث التي يقع معظم تبعتها على عبدالله بن الزبير حصار مكة فإن مسلماً لما انتهى من أمر المدينة سار قاصداً مكة لحرب بن الزبير واستخلف على مكة روح بن زنباع الجذامي وقد أدركت المنية مسلماً بالشلل فاستخلف على الجند الحصين بن نمير كما أمر يزيد فسار بالجند إلى مكة فقدمها لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفي الخارجي لمنع البيت، فخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام فحاربهم حرباً انكشف فيها أصحابه فسار راجعاً إلى مكة فأقاموا عليه يقتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى إذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول رموا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية فوقف القتال. هذه ثلاث فتن كبرى داخلية حصلت في أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكروهاً حتى استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث وآثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعتها بل إن الذي يتحمله جزء صغير منها لأنه بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عما تقلده فيما ترى على فعل ما فعل وإنما الذي عليه تلك الشدة التي أجرتها جنوده بعد أن تم لها النصر.

الفتوح في عهد يزيد:

إستعمل يزيد عقبة بن نافع على إفريقية كما وعده معاوية بذلك، فسار إليها ولما وصل إلى القيروان قبض على أبي المهاجر وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذراري والأموال ثم سار في عسكر حتى دخل مدينة بالغاية وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالاً شديداً وانهزموا عنه ودخل المنهزمون المدينة، فحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع من بها من الروم فقاتلتهم الجنود الإسلامية حتى هزمتهم ثم رحل إلى تاهرت، فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا في جمع كثير واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بطريق رومي اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الأدنى وهو مغرب طنجة فلقيته البربر في جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة، ثم سار نحو السوس الأقصى وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات، فقال يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك ثم عاد فنفر الروم من طريقه خوفاً منه، ولما وصل إلى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار إلى تهوذا لينظر إليها في نفر يسير، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه وكان في الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم في أيام أبي المهاجر فلما جاء عقبة وأساء إلى أبي المهاجر استخف بكسيلة وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع عقبة راسلوا كسيلة في أن ينضم إليهم فقبل وجمع أهله وبني عمه، وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة إلى كسيلة

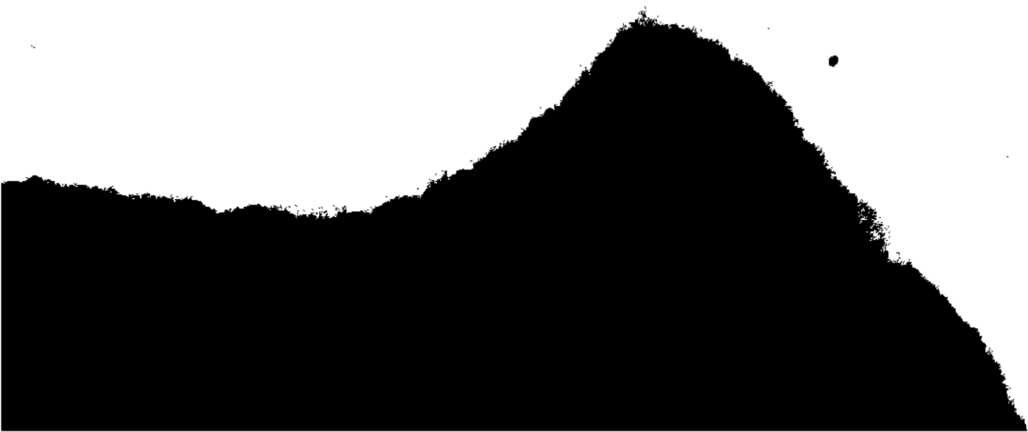
فتنحى هـذا عن طريقـه ليكثر جمعـه ولما كـثر اتفق مع الـروم فهاجمـوا المسلمـين وقتلوهم، فقتـل المسلمون جمعهم لم يفلت منهم أحـد وقتل عقبـة وأبـو المهـاجـر وكـان في القيروان قيس بن زهـير البلوى خليفة عليهـا فأراد القتـال فلم يـطعـه الجيش فاضطر إلى مبارحة القيروان والمسير إلى برقة والمقـام فيها أمـا كسيلة فإنـه جـاء القيـروان وامتلكهـا وأمن من فيهـا من أصحـاب الأنفـال والـذرارى من المسلمين واستولى على إفريقية. وسنبين ما كان من أمره بعد.

وفاة يزيد:

لأربع عشرة من شهر ربيع الأول سنـة ٦٤ (١٠ نوفمبـر سنة ٦٨٣) تـوفي يزيد بن معاوية بحوران من أرض الشام وسنة تسع وثـلاثون سنـة ومدة خـلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً.

بيت يزيد:

تزوج يزيد أم هاشم بنت عقبة بن ربيعة وكـان له منهـا معاويـة وخالـد، ويكنى أبـا هـاشم. وتـزوج أم كلثـوم بنت عبـد اللّه بن عـامـر وكـان لــه منهـا عبداللّه وكان أرمي العرب وكان له من الأولاد: عبد اللّه الأصغـر، وأبو بكـر، وعتبة، وحرب. وعبد الرحمن لأمهات أولاد شتى.



١٣٨

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

١٢ [illegible]

[illegible]

ليزيد
سائح لبنانى

الأئون
الإسعود



معاوية الثاني

عبد الله بن الزبير

حال الشام ـ مروان الأول ـ عبد الملك

تغلبه على ابن الزبير وقتله ـ الحجاج بالعراق

معاوية الثاني:

بعد موت يزيد كانت هناك بيعتان: إحداهما بالشام لمعاوية بن يزيد، والثانية بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير.

فأما معاوية فكانت سنه إحدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة بعد موت أبيه إلا أنه بعد قليل من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (أما بعد فأني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيب حتى مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته.

هكذا فعل الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة ولم ير من نفسه القدرة ولم شعثها وإصلاح أمرها.

عبد الله بن الزبير:

أما ابن الزبير فإن يزيد مات وحصين بن نمير محاصر له وقد اشتد الحصار عليه فجاءه الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناداه علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم فلم يصدقوه ولما وصل الخبر الحصين بعث إلى ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما قال له أنت أحق بهذا الأمر هلم فلنبايعك ثم أخرج معنا إلى الشام فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانه

فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم فقال له أنا لا أهدر الدماء والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحصين يكلمه سراً وهو يجهر ويقول والله لا أفعل فقال له الحصين قد كنت أظن لك رأياً وأنا أكلمك سراً وتكلمني جهراً وأدعوك إلى الخلافة، وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة. ثم فارقه ورحل إلى المدينة فالشام فوصلوها وقد بويع لمعاوية بن يزيد.

حال العراق هذا حال الشام لا إمام فيه والحجاز فيه ابن الزبير. أما العراق فإن عبيد الله بن زياد لما بلغه نعي يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال يا أهل البصرة إن مهاجرنا إليكم ودارنا فيكم ومولدي فيكم وليتكم وما يحصى ديوان مقاتلتكم إلا سبعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة ألف، وما كان يحصى ديوان عمالكم إلا تسعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً وما تركت لكم قاطبة من أخافه عليكم إلا وهو في سجنكم وإن يزيد قد توفي واختلف الناس بالشام وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فناء وأغنى عن الناس وأوسعهم بلاداً فاختاروا لأنفسكم رجلا ترضونه لدينكم وجماعتكم فأنا أول راض من رضيتموه فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسلمون وإن كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضي حاجتكم فما بكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولا يستغني الناس عنكم. فقالوا له قد سمعنا مقالتك وما نعلم أحداً أقوى عليها منك فهلم فلنبايعك فأبى عليهم ذلك ثلاثاً ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان ويقولون أيظن ابن مرجانة أنا ننقاد له في الجماعة والفرقة ثم أرسل إلى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه.
ولما علم أهل البصرة بابائهم أظهروا النفرة منه وخلعوه ودعا بعضهم إلى بيعة ابن الزبير فأجابه إلى ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بالحارث بن قيس الأزدي ثم بمسعود بن عمر سيد الأزد فأجاره حتى هرب إلى الشام. واختار أهل البصرة والياً عليهم عبد الله بن

الحارث بن نوفل الملقب ببية فبايعوه وأقبلوا بـه إلى دار الإمارة وذلـك أول جمادي الآخرة سنة ٦٤ وكذلك اختـار أهل الكـوفة لهم أميـراً وكتب أهل المصـرين إلى ابن الـزبير بـالبيعة فـأرسل لهم العمـال من عنده. وكـذلـك دخـل في بيعـة ابن الزبير أهل مصر ولم يبق الا الشام.

حال الشام:

كـان رأس بني أمية بـالشـام مروان بن الحكم، وكـان أمـير دمشق الضحـاك بن قيس وكان هـواه في ابن الزبـير يدعـو له وأمـير حمص النعمـان بن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابي وهواهم كلهم في ابن الزبـير يدعـون له وكان أمير فلسطين حسان بن مالك الكلبي وهواه في بني أميـة وقد بـايعه عـلى الدعوة لهم أهل الأردن على شـرط أن يجنبهم هذين الغـلامين عبـد الله وخالـداً ابني يـزيد لأنهم قـالوا إنـا نكره أن يـأتينـا النـاس بشيـخ ونـأتيهم بغـلام فكتب حسان إلى الضحاك بن قيس كتاباً يعظم فيه حق بني أميـة وحسن بلائهم عنـده ويذم ابن الزبير وأنه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابـه على النـاس وكتب كتابـاً آخر سلمه لرسولـه وقال لـه إن قرأ الضحـاك كتابي عـلى الناس وإلا فقم واقرأه عليهم فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على النـاس فقام رسـول حسان وقـرأ عليهم الكتـاب فقال الـوليد بن عتبـة بن أبي سفيـان صـدق حسـان وقـام غيـره فقـالوا مثـل مقالـه فأمـر بهم الضحاك فحبسـوا ولكن عشائـرهم أخرجـوهم من الحبس وكـان الذين في دمشق فـريقين فقيس تـدعو إلى ابن الـزبير وكلب تـدعو إلى بني أمية.

مروان بن الحكم:

خرج الضحاك بمجموعة فنزل مرج راهط بيده واجتمع بنـو أمية بـالجابيـة فتشاوروا فيمن يلي أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيـراً على تـولية مـروان ابن الحكم فبايعوه لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ٦٤ هـ.

ولما تمت بيعته بـالناس من الجـابية إلى مـرج راهط وبه الضحـاك بن قيس

ومن على رأيه واجتمع علي مروان كلب وغسان والسكاسك والكون وكانت بين الفريقين مواقع هائلة عشرين ليلة في مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها في وطن قط وكانت الوقعة في المحرم سنة ٦٥ هـ ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هارباً فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه. ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها واجتمعت اليه قيس وقد صحبه في هزيمته شابان من بني سليم فجاءت خيل مروان تطلبه فقال الشابان لزفر إنج بنفسك فأنا نحن نقتل فمضى وتركها فقتلا وقال زفر في ذلك :

أريني سلاحي لا أبالك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب أنه ... مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الأرض مهرب ... إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني إن تغيبت غافلا ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... وتترك قتلى راهط هي ما هيا
لعمري لقد أبقيت وقيعة راهط ... لحسان صدعاً بيننا متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا ... ومقتل همام أمنى الأمانيا
فلم تر مني نبوة قبل هذه ... فراري وتركي صاحبي ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا أرى ... من الناس إلا من على ولاليا
أيذهب يوم واحد إن أسأته ... بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعري هل تصيبن غارتي ... تنوخا وحيى طيء من شفائيا

ولما تم الأمر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتتحها وبايعه أهلها ثم عاد إلى دمشق فأقام بها.

لم تطل مدة مروان في سلطانه فإنه توفي في رمضان سنة ٦٥ هـ وكان قد عهد بالخلافة لأبنيه عبد الملك ثم عبد العزيز.

ترجمة مروان:

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكناني ولد في السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً وكان في عهد عثمان بن عفان كاتباً له ومدبراً وولي لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب إلى ابن الزبير فبايعه لولا عبد الله بن زياد فإنه أشار عليه أن يطلب الخلافة لنفسه لأنه شيخ بني أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الأمر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره في الشام ومصر لم يتجاوزهما حتى مات وولي أمر الأمة من بعده ابنه

٥ - عبد الملك

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن العاص بن أمية. ولما شب كان عاقلا حازماً أديباً لبيباً وكان معدوداً من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبي ما ذاكرت أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه، ولا شعراً إلا زادني فيه.

ولي الخلافة بعد أبيه بعهد منه. وكانت الحال في البلاد الإسلامية على غاية الإضطراب. فإن الحجاز به عبد الله بن الزبير. وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق: زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا في طاعته، وشيعة تدعوا إلى آل البيت، وخوارج وهم من عرفتم حديثهم قبل. فتلقى الأمر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس واجتمعت الكلمة عليه.

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشاً يقوده عبد الله بن زياد إلى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل ما يفتحه فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق وأخذه من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثه على

المسير إلى العراق فسار حتى إذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا أنفسهم التوابين وهم جماعة الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين بن علي ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره وقتلوا قتلته وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد الخزاعي فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سراً إلى ما عزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥ فخرجوا حتى إذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف ولما بلغ عبد الملك قتل سليمان قام خطيباً في أهل الشام فقال: إن اللّه قد أهلك من رؤوس أهل العراق ملقح فتنه ورأس ضلالة سليمان بن صرد ألا وإن السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريف وقد قتل اللّه منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد اللّه بن سعد الأزدي وعبد اللّه بن وال البكري. ولم يبق بعدهم من عنده امتناع.

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان وثوبه بها رابع عشر ربيع الأول سنة ٦٦ فأخرج منها عامل ابن الزبير وهو عبد اللّه بن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية. زاعماً أنه هو الذي أرسله للأخذ بثأر الحسين ولقبه بالإمام المهدي وكان هذا التلقيب أول ظهور كلمة الهدى في عالم الوجود وكان يود أن يتبعه على رأيه إبراهيم بن الأشتر لقوة بطشه وسمة شرفه فأرسل إليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولي الأمر فقالوا له إن المختار قد جاء من قبل المهدي وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه إليه المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية إلى ابن الأشتر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر) فقال إبراهيم قد كتبت إلى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب إلي فلم يكتب إلا باسمه واسم أبيه، قال المختار: ذاك زمان وهذا زمان قال ابن الأشتر:

فمن يعلم أن هذا كتابه فشهد جماعة ممن مع المختار أنه كتابه فتأخر إبراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وبايعه واتفقوا على الوثوب في التاريخ الذي بيناه، ولما حان الموْعد وثبوا وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون يا لثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب اللّه وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سلمنا ثم بعث العمال على أطار الكوفة وكان من أهم الأمور لديه انتخاب جيش يوجهه إلى قتال ابن زياد الذي أرسله عبد الملك لافتتاح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلا ذريعاً ومنهم عمر بن سعد وغيره ممن كان في ذلك البعث. ثم دخلت في بيعته البصرة وكان عمل المختار سبباً لتغيير ابن الزبير على محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليبايعوه فأبوا عليه فحبسهم فأرسل إليهم المختار من خلصهم من سجنه، ثم خرج إلى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بداله فعاد إلى مكة ونزل شعب أبي طالب فأمر ابن الزبير بالرحيل فذهب إلى الطائف وأقام بها.

ثم إن المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم إبراهيم بن الأشتر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الأشتر وقتل عبيد اللّه بن زياد بعد أن ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا في نهر الخازر ولما إنتهت الموقعة أرسل ابن الأشتر العمال إلى البلاد الجزرية.

بعد أن تم الأمر للمختار ولي الأمر ابن الزبير أخاه مصعباً على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد اللّه وأثنى عليه **﴿طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾**(١) وأشار نحو الشام ـ **﴿ونريد أن**

(١) سورة القصص: الآيات ١ ـ ٤.

نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض﴾(١) ـ وأشار نحو الحجاز ـ **﴿ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾**(٢) وأشار نحو الكوفة ـ وقال يا أهل البصرة بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقبت نفسي بالجزار.

وجاءه وهو بالبصرة أشراف من أهل الكوفة وهم الذين ليسوا راضين عن المختار وطلبوا منه أن يسير لتخليص الكوفة منه فجند مصعب جنداً عظيماً قاده بنفسه ومعه أشراف المصريين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فانتدب له جنداً قاتل مصعباً عند المذار وكان النصر لمصعب فانهزم جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقتلا فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبراً. ومن غريب ما وقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير فقال في ذلك عمر بن أبي ربيعة:

إن من أعجب العجائب عندي ... قتل بيضاء حرة عطبول
قتلت هكذا على غير جرم ... إن للّه درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق. ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل اللّه كثير عزة لكأنه ينشدها حيث يقول:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه ... حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهي عاقه ... بكت وبكى مما عناها قطينها

ثم سار عبد الملك إلى العراق فبلغ خبره مصعباً فتجهز له وجعل على

---

(١) سورة القصص: الآية ٥.
(٢) سورة القصص: الآية ٦.

مقدمته إبراهيم بن الأشتر فتقابل الجيشان بمسكن، وكان كثير من أهل العراق كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقي مصعب مع قليل من المخلصين له فأنشد:

وإن الألى بالطف من آل هاشم　　تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

وما زال يقاتل حتى قتل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسيء وولى على المصرين عمالا من قبله قال بعض الشعراء في مقتل مصعب:

حمى أنفه يقبل الضيم مصعب　　فمات كريماً لم تذم خلائقه
ولو شاء أعطى الضيم من رام هضمه　　فعاش ملوماً في الرجال طرائقه
ولكن مضى والبرق يبرق خاله　　يشاوره مراً ومراً يعانقه
فولى كريماً لم تنله مذمة　　ولم يك وغداً تطبيه نمارقه

بذلك لم يبق خارجاً عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جنداً إلى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبد الله بن الزبير فسار إليه في جمادي الأولى سنة ٧٢هـ فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ولم يزل الأمر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالأمان إلى الحجاج وكان ممن فارقه أبناه حمزة وحبيب ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه إلا قليل لا يغنون عنه شيئاً دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال يا أماه خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وإن كنت على حق فلما ادهن أصحابك ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن! فقال:

يـا أماه أخـاف إن قتلني أهل الشـام أن يمثلوا بي ويصلبوني. قـالت يا بني إن الشاة لا تتألم بالسلخ فامض عـلى بصيرتـك واستعن بالله فقبـل رأسها وقـال هـذا رأيي والـذي خـرجت بـه دائباً إلى يـومي هـذا مـا ركنت إلى الـدنيـا ولا أحببت الحياة فيها وما دعاني إلى الخـروج إلا الغضـب لله وأن تستحل حـرماتـه ولكنني أحببت أن أعلم رأيـك فقد زدتني بصيـرة فانـظري يـا أمـاه فـإني مقتـول يـومي هذا فـلا يشتد حـزنك وسلمي الأمـر إلى الله فـإن ابنـك لم يتعهـد إيثـار منكـر ولا عمل بفـاحشة ولم يجـر في حكم الله ولم يغدر في آمـان ولم يتعهـد ظلم مسلم أو معـاهـد ولم يبلغني ظلم عن عمـالي فـرضيت بـه بـل أنكـرتـه ولم يكن شيء آثـر عندي من رضـا ربي. اللهم لا أقول هـذا تزكيـة لنفسي ولكني أقـولـه تعـزية لأمي حتى تسلو عني فقـالت أمه لأرجـو أن يكون عـزائي فيك جميـلاً إن تقـدمتني احتسبتك وإن ظفـرت سررت بـظفرك أخـرج حتى أنظر إلى مـا يصـير إليه أمرك فقـال جزاك الله خيـراً فلا تـدعي الدعـاء لي قالت لا أدعـه لك أبـداً فمن قتل على باطل فقـد قتلت على حق ثم اخـرج فقاتـل حتى قتل وكـانت سنه ثلاثاً وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك.

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لأنه بـويع لـه سنة ٦٤ وبقتـل ابن الزبير صفا الأمر لعبد الملك في جميـع الأمصـار الإسلامية، واجتمعت عليه الكلمـة وبقي الحجاج والياً على مكـة والمدينـة حتى سنة ٧٥ وفيهـا عزلـه عبـد الملك عنهـا وولاه العراقـين فسار إلى الكـوفة في اثني عشر راكباً عـلى النجـائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو ملتثم بعمامـة خز حمـراء فاجتمـع إليه الناس. وهو سـاكت قد أطـال السكوت حتى أراد بعضهم أن يحصبه ثم كشف اللثام عن وجهه وقال:

أنـا ابـن جـلا وطـلاع الـثـنـايـا   مـتى أضـع الـعـمـامـة تـعـرفـوني

يـا أهل الكـوفة إني لأرى رؤسـاً قد أينعت وحـان قطافهـا وإني لصاحبهـا وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ثم قال:

هــذا أوان الشــد فــاشتــد زيـم[1] قــد لفهـا الليــل بسـواق حــطم[2]
لــيس بــراعــي إبــل ولا غــنــم ولا بــجــزار عــلى ظـهــر وضـم[3]

ثم قال:

قــد لـفـهــا الـليــل بـعـصـلبي[4] أروع[5] خــراج مــن الــدوى[6]
مــهــاجــر لــيس بــأعــرابي

وقال: قــد شمـرت عن ســاقهـا فشــدوا وجــدت الحــرب بـكـم فـجــدوا
والــقــوس فــيــهــا وتــرعــرد[7] مــثــل ذراع الــبــكــر أو أشــد
لا بــد ممــا لــيس مــنــه بــد

إني والله يا أهل العراق ما يقعقع لي بالشنـان[8] ولا يغمز جـانبي كتغماز التين ولقد قـررت عن ذكاء[9] وفتشت عن تجـربة وإن أمير المؤمنـين أطـال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم[10] عيدانها فوجدني أمـرها عـوداً وأصلبها مكسـراً فـرماكم بي لأنكم طـالما أوضعتم[11] في الفتنـة واضـطجعتم في مـراقـد الضـلال والله لأحـزمنكم حزم السلمـة ولأضربنكم ضـرب غرائب الإبـل فإنكم لكـأهل قرية **﴿كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقهـا رغداً من كـل مكان فكفـرت بأنعم الله**

---

(1) يعني فرساً أو ناقة.
(2) الحطم الذي لا يبقى من السير شيئاً.
(3) الوضم كل ما قطع عليه اللحم.
(4) الشديد.
(5) ذكي.
(6) الصحراء الواسعة التي تسمع بها دوياً بالليل ويريد بها الغماء الشديدة.
(7) شديد.
(8) واحدها شن وهو الجلد اليابس فإذا ضرب به نفرت الإبل فضرب ذلك مثلاً لنفسه.
(9) الذكاء حدة القلب.
(10) مضغها لينظر أيها أصلب.
(11) الإيضاع ضرب من السير.

فـأذاقها الله لباس الجوع والخوف إلا بما كانوا يصنعون﴾[1] وإني والله ما أقـول إلا وفيت ولا أهم إلا أمضيت ولا أخلق إلا قـربت وإن أمـير المؤمنـين أمـرني بـإعطائكم وأن أرجهكم لمحـاربة عـدوكم مـع المهلب بن أبي صفـرة وإني أقسم بـالله لا أجد رجـلا تخلف بعد أخـذ عطائـه بثلاثـة أيام إلا ضـربت عنقـه. يـا غلام إقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ:

بسم الله الـرحمن الرحيم من عبـد الله عبـد الملك أمـير المؤمنـين إلى من بالكوفة من المسلمين سـلام عليكم فلم يقل أحـد شيئاً فقـال الحجاج أكفف يـا غلام ثم أقبل عـلى الناس فقـال أسلم عليكم أمير المؤمنـين فلم تردوا عليـه شيئاً هـذا أدب ابن نهية[2] أمـا والله لأؤدبنكم غير هـذا الأدب أو لتسقيمن. أقرأ يـا غـلام كتـاب أمـير المؤمنـين فلما بلغ إلى قــولـه ســلام عليكم فلم يبق أحـد في المسجـد إلا قال عـلى أمير المؤمنـين السلام ثم نـزل فـوضـع للنـاس أعـطيـاتهم فجعلوا يـأخذون حتى أتـاه شيخ يـرعش كبراً فقـال أيهـا الأمـير إني من الضعف عـلى ما تـرى ولي ابن هو أقـوى على الأسفـار مني فقبله بدلاً عني فقـال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال قائل أتـدري من هذا أيهـا الأمير قـال لا قال هـذا عمير بن البرجمي الذي يقول أبوه:

همـمت ولم أفـعــل وكــدت وليـتـني ... تــركت عـلى عثمــان تبكي حـلائله

ودخـل هذا الشيـخ على عثمـان مقتولا فكسر ضلعـين من أضلاعـه فقال رده فلما رد قـال أيها الشيـخ هلا بعثت إلى أمـير المؤمنين عثمـان بدلا يـوم الـدار إن في قتلك أيهـا الشيخ صـلاحـاً للمسلمـين يـا حـرسي أضـرب عنقـه فجعـل الـرجل يضيق عليـه أمره فيـرتحل ويـأمر وليـه أن يلحقـه بـزاده ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدي:

تجهــز فـأمـا أن تـزور ابن ضـابىء ... عـمـيــراً وإمــا أن تــزور المهـلبـا

---

(١) سورة النحل: الآية ١١٢.

(٢) رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج

همـا خـطتـا خسف نجـاؤك منهـما ركـوبـك حـوليـا من الثلج أشهبـا
فـأضحى ولو كـانت خـراسـان دونـه رآهـا مكـان السـوق أو هي أقـربـا

من هـذه الخطبة وما تـلاها نتبـين خطة الحجـاج التي أراد أن يسوس بهـا أهـل العراق وهي خـطة العسف والجور التي قـدمنا أنها لا تصلح أمـة إصلاحـاً حقيقياً أبداً وإنما تضع عـلى المرجـل غطاء لا يلبث البخـار أن يقتلعه ويـطير به. وتتبـين حال أهـل العراق وسكـونهم إلى هذه الـذلة. يجيئهم الحجـاج في بضعـة عشر راكبـاً وفيهم الأشـراف والـرؤسـاء فيخـطبهم هـذه الخـطبـة ويتـوعـدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يـرد أحد منهم عليـه قولاً ويـوبخهم على تـرك السلام على أمير المؤمنـين فيستكينون ويخضعـون وهـم الذين فتحـوا أبواب الشـرور ومع هذا فظهر مما سنقصه عليكم أن الخضوع وقتي.

وبعد هذا ذهب إلى البصرة فخطب بها خطبة تشابه خطبتـه بالكـوفة فـأتى برجل يشكري فقال أيها الأمير إن بي فتقـاً وقد رآه بشر بن مـروان فعذرني وهـذا عـطائي مـردود في بيت المـال فلم يقبـل منـه وقتله ففـزع لـذلـك أهـل البصـرة فخرجوا حتى تـداركوا عـلى العارض بقنـطرة رامهرمـز وخرج الحجـاج حتى نزل رستقاباذ أول شعبان سنة ٧٥ ومعـه وجوه أهـل البصرة وكـان بينه وبـين المهلب ١٨ فـرسخـاً فقـام في النـاس فقـال إن الـزيـادة التي زادكم بهـا ابن الـزبـير في أعـطياتكم لست أجيـزهـا فقـام إليـه عبـد اللّه ابن الجـارود العبـدي وقـال إنها ليست بزيادة ابن الـزبير ولكنهـا زيادة أمـير المؤمنين عبـد الملك أثبتها لنـا فكذبـه وتوعده فخـرج عليه ابن الجـارود وتابعـه وجوه النـاس فقاتله الحجـاج حتى قتله وقتـل جماعـة من أصحـابـه وبعث بـرؤوسهم إلى المهلب وهـو يقـاتـل الخـوارج وانصرف إلى البصرة.

وفي سنـة ٧٩ ولى الحجاج عبيـد اللّه بن أبي بكرة سجستـان فغـزا رتبيـل وقد كان مصالحاً وقد كانت العرب قبل ذلك تأخـذ منه خـراجاً وربمـا امتنع فلم يفعـل فبعث الحجاج إلى ابن أبي بكـرة يأمـره بغزوه فتـوغلوا في بلاده فـأصيبـوا

وهلك معظمهم ونجا أقلهم فرأى الحجاج أن يجهز إليهم جنداً فجهز عشرين ألفاً من البصرة ومثلهم من الكوفة.

وجد في ذلك وشمر وأعطى الناس أعطياتهم كملا وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل واستعرض ولا يرى رجلا تذكر منه شجاعة إلا أحسن معوفته ولما استتب أمر ذينك الجندين ولى عليهم عبد الرحمن بن الأشعث فسار حتى قدم سجستان فصعد منبرها وقال أيها الناس إن الأمير الحجاج ولاني ثغركم وأمرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم وأباد أخياركم فإياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة خرجوا إلى معسكركم فعسكروا به مع الناس. فعسكر الناس في معسكرهم ووضعت لهم الأسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتى دخل أول بلاد رتبيل وصار كلما حوى بلداً إليه عاملا وبعث معه أعواناً ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى إذا حاز أرضاً عظيمة وملأ يديه من الغنائم حبس الناس عن الوغول في أرض رتبيل وقال نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترىء المسلمون على طرقها ثم نتعاطى فيعام المقبل ما وراءها ثم نزل ننتقصهم في كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم في أقصى بلادهم وممتنع ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله.. وكتب إلى الحجاج بما كان برأيه فكتب إليه الحجاج أما بعد فإنه كتابك أتاني وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ويستريح إلى الموادعة قد صانع عدواً قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم في الإسلام عظيماً لعمرك يا ابن أم عبد الرحمن أنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندي وحدي لسخي النفس عمن أصيب من المسلمين إني لم أعد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ولكني رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك والتياث رأيك فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبي ذراريهم وقال في كتاب آخر إن لم

تفعل فإن إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس فخله وما وليته فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس وأخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم أيمضي أم يخالف فزينوا له المخالفة واستقر أمرهم على عصيان الحجاج وخلعه فخلعوه وبايعوا على ذلك عبد الرحمن فبعث إلى رتبيل فصالحه وعاد من سجستان إلى العراق مصمماً على منازلة الحجاج ونفيه من العراق وبين يديه أعشى همدان يقول:

شطت نوى من داره بالايوان ... إيوان كسرى ذي القرى والريحان
من عاشق أمسى بزابلستان ... أن ثقيفاً مهم الكذابان
كذابها الماضي وكذاب ثان ... أمكن ربي من ثقيف همدان
يوماً إلى الليل يسلى ما كان ... إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبى من قحطان ... ومن معه قد أتى ابن عدنان
بجحفل جم شديد الأرنان ... فقل لحجاج ولى الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان ... فإنهم سقوه كأس الديفان

وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض إذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبد الملك فخلعوه وبايعوا عبد الرحمن على كتاب اللّه وسنه ورسوله وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين، ولما بلغ الحجاج خبره بعث إلى عبد الملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود إليه فهاله الأمر وبادر بإرسال الجنود الشامية إليه والحجاج مقيم بالبصرة فلما اجتمعت الجنود إليه سار بها حتى نزل تستر وقدم بين يديه مقدمته فقابلتها جنود ابن الأشعث فهزمت مقدمة الحجاج يوم الأضحى سنة ٨١ وأتت الحجاج الهزيمة فانصرف راجعاً حتى نزل الزاوية وجاءت جنود ابن الأشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله إليها في آخر ذي الحجة ٨١ ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثا على ركبتيه وأنقض نحوا من شبر من سيفه وقال للّه در مصعب ما كان أكرمه حين نزل

به ما نزل وكان ذلك العمل مما قوى جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل منهم عدد وافر فمضى ابن الأشعث إلى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتى نزل دير قرى وخرج ابن الأشعث حتى نزل دير الجماجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار على عبد الملك مشيروه أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فإن قبلوا وثابوا إلى الطاعة عزله عنهم فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبد اللّٰه ليعرضا ذلك على أهل العراق فإن قبلوا نزع الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وإن أبوا فالحجاج أمير الناس فجاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق فلم يقبلو وصمموا على خلع عبد الملك وحينئذ قال محمد بن مروان وعبد اللّٰه بن عبد الملك للحجاج شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فأنا أمرنا أن نسمع لك ونطيع ثم كانت بين الفريقين مواقع بدير الجماجم هائلة استمرت مائة يوم وكانت نهايتها في الرابع عشر من جمادي الآخرة سنة ٨٣ ففيه هزم ابن الأشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعها ونادى المنادى من رجع فهو آمن. وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبايعونه فلا يرضى مبايعتهم إلا إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أبى قتله. وجاءه رجل فقال الحجاج إني أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر فقال أخادعي أنت عن نفسي أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذي الأوتاد. كان الحجاج قد أمر فنودى بعد هزيمة دير الجماجم بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن فلحق به كثيرون منهم عامر الشعبي ففيه العراق فذكره الحجاج يوماً فقيل له إنه لحق بقتيبة فأرسل إليه يأمره أن يبعث إليه بالشعبي فأرسله فلما قدم سلك عليه بالإمرة ثم قال أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم اللّٰه أنه الحق وأيم اللّٰه لا أقول في هذا المقام إلا حقاً واللّٰه سودنا عليك وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا كنا بالأقوياء الفجرة ولا الأتقياء البررة ولقد نصرك اللّٰه علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إليه أيدينا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا فقال له الحجاج أنت واللّٰه أحب إلي قولا ممن يدخل

علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا يا شعبى فانصرف فلما مشى قليلا ناداه ثم قال له كيف وجدت الناس يا شعبى بعدنا فقال لأصلح اللّه الأمير اكتحلت واللّه بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفاً قال انصرف يا شعبى وجيء إليه بأعشى همدان فقال إيه يا عدو اللّه أنشدني قولك بين الأشج وبين قيس باذح قال بل أنشدك ما قتله فيك ثم أنشده قصيدة مدحه بها أولها :

أبى اللّه إلا أن يتمم نوره ... ويطفىء نور الفاسقين فيخمدا
ويظهر أهل الحق في كل موطن ... ويعدل وقع السيف من كان أصيداً
وينزل ذلا بالعراق وأهله ... لما يقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من روعة وعظيمة ... من القول لم تصعد إلى اللّه مصعداً
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة ... إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وهي قصيدة طويلة فرجا له الناس الخير ولكنها لم تنفعه عند الحجاج فأمر به فقتل وعلى الجملة فإن فتنة ابن الأشعث ذهب فيها أشراف أهل العراق ورؤساهم فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم .

أما ابن الأشعث، فقد تقلبت به الأحوال؛ وانتهى أمره إلى أن توجه إلى رتبيل مستغيثاً به، فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل إليه ابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل، فأراد رتبيل أن يرسله. فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلا من أقاربه، وأرسل بالرؤوس إلى الحجاج .

مضى على الأمة اثنتان وعشرون سنة «٦٤ إلى سنة ٨٦» وهي مصابة بالفتن والإضطرابات في معظم الجهات الإسلامية يقتل بعضهم بعضاً كل عظيم يريد السلطان لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراعون اللّه في أمتهم عهداً كأنهم لم يقرءوا كتاب اللّه ولم يعلموا المأثور عن رسوله في كراهة الفتن والدخول في

غمارها ولا نخلي ولاة أمرهـا من تبعة تلك الحـوادث فإنهم أرادوا أن يسـوسوهـا بالعنف، ويكرهوها عـلى الطاعـة إكراهـاً من غير أن يتقـربوا إلى قلوبهـا بشي مما تحبه.

من الضـروري أن نقص عليكم شيئاً من أخبـار الخوارج في هـذه المـدة، لتكون صورة الأمة كلها ممثلة أمام أنظاركم في ذلك العهد.

عن الأزرق

الخوارج

لما وردت جنود الشام إلى مكة لقتال ابن الزبير في عهد يزيد رأى جماعة الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفي بن الأزرق الحنفي أن يذهبوا إلى ابن الزبير ليمنعوا مكة وليعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على أقاويلهم أم يخالفهم؟ فلما جاءوه وعرفوا بأنفسهم فأظهر لهم أنه على رأيهم. ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا: ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده. فدخلوا عليه فقالوا: إنا جئناك لنختبر رأيك ما تقول في الشيخين، قال خيراً، قالوا فما تقول في عثمان الذي أحمى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه وأوطأ آل أبي معيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين وفي الذي بعده الذي حكم في دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضي لم يظهر منه كفر نادم ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرأن في بيوتهن وكان في ذلك ما يدعوك إلى التوبة فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا، ونسأل الله لك التوفيق وإن أنت أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه، والتحقيق بعثمان والتولي في السنين الست التي أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت إمامته: خذلك الله وانتصر منك بأيدينا التي أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت إمامته: خذلك الله وانتصر منك بأيدينا فقال ابن الزبير إن الله أمر، وله العزة والقدرة في مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاق بأرأف من هذا فقال لموسى ولاخيه صلى الله عليهما في فرعون ﴿فقولا له قولا ةلينا لعله يتذكر أو يخشى﴾[1] (٤٤) وقال

(١) سورة طه: الآية ٤٤.

رسـول اللّه ﷺ «لا تؤذوا الأحياء بسبب الأمـوات» فنهى عن سب أبي جهـل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدو اللّه وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجاد في المحاربة والمتبغض إلى رسول اللّه ﷺ قبل الهجرة والمحارب لـه بعدهـا وكفى بالشرك ذنبـاً وقد كـان يغنيكم عن هذا القـول الذي سميتم فيـه طلحة والـزبير أن تقولوا أتبـرأ من الظالمين فإن كـانا منهم دخـلا في غمار النـاس وإن لم يكونـا منهم لم تحفـظوني بسـب أبي وأنتم تعلمـون أن اللّه عــز وجـل قــال للمؤمن في أبـويه ﴿وإن جـاهداك عـلى أن تشرك بي مـا ليس لـك بـه علم فـلا تـطعهـما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ [١] ، وقال جل ثناؤه ﴿وقولـوا للناس حسنـاً﴾ [٢] وهذا الذي دعوتهم إليه أمـر له مـا بعده وليس يقنعكم إلا التصـريح والتـوقيف ولعمـري إن ذلك لأحـرى بقطع الحجـج وأوضح لمنهـاج الحق وأولى بأن يعـرف كـل صاحبـه من عدوه فروحوا إلى من عشيتكم هـذه أكشف لكم ما أنـا عليـه.

فلما كان العشي راحوا إليه فخرج إليهم وقـد لبس سلاحـه وخطبهم خـطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل ما يعتد به عليهما فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة إلى البصرة وطـائفة لليمـامة فكـان ممن سـار إلى البصرة نـافـع بن الأزرق في أصحـابـه وقـد أمـروه عليهم ثم مضى بهم إلى الأهـواز فأقـاموا بهـا لا يهيجون أحـداً ويناظـرهم الناس وطـردوا عمـال السلطان عنها وجبوا الفيء ولم يزل الخوارج على رأي واحد حتى ظهـر من نافـع ابن الأزرق القول باكفـار القعدة وقتـل الأطفال واستحـلال الأمانـة وقال الـدار دار كفر عرفنـاه في وجهه وكـان لطيف البشـرة رقيق الظاهـر لا يشافـه أحداً بمـا يكـره حياء وكـرم نفس وقالت عـائشـة: كـان النبي ﷺ إذا بلغـه عن أحـد مـا يكرهه لم يقـل ما بـال فلان يقـول كذا ولكن مـا بال أقـوام يصنعون أو يقـولون كـذا ينهى عنه ولا يسمى فـاعله. وروى أنه كـان من حيـائـه لا يثبت بصـره في وجه أحد وأنه يكنى عنا اضطره الكلام إليه مما يكره.

حسن العشـرة والأدب وبسط الخلق مـع أصنـاف الخلق ـ قـال عــلي في

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٣.

وصفه: كان عليه السلام أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة. وقال قيس بن عبادة زارنا رسول اللّه ﷺ فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقطيفة فركب ثم قال سعد يا قيس أصحب رسول اللّه قال قيس فقال لي عليه السلام اركب فأبيت فقال إما أن تركب وإما أن تنصرف فانصرفت وكان يؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره ولا خلقه، يتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ومن سأله حاجة لم يزده بها أو بميسور من القول وقد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤنس منه، وكان يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافىء عليها. وقال أنس خدمت رسول اللّه ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر وكان يبدأ من لقبه بالإسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبي ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوز فيقطعه بإنتهاء أو قيام ويروى أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته فإذا فرغ عاد إلى صلاته وكان أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يخطب. جاءت الخوارج سرية فحملت على الناس فانهزم الناس وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس فقاتل من ورائهم في حماتهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلا بالأهواز ومما قاله بعض الخوارج وهو قطرى بن الفجاءة في ذلك اليوم من الشعر:

لـعـمـرك إني في الحـيـاة لـزاهـد وفي الـعيش مـا لم ألـق أم حـكيـم
من الخفـرات البيض لم يـر مثلهـا شـفـاء لـذي بـث ولا لـسـقـيـم
لـعمـرك إني يـوم ألـطم وجـههـا عـلى نـائبـات الـدهـر جـد لئيم
ولـو شهـدتني يـوم دولاب أبصـرت طـعـان فتى في الحـرب غـير ذميم
غـداة غـدت علماء بكـر بن وائـل وعجنـا صـدور الخيـل نحـو تميم
وكـان لعبـد الـقيس أول جـدهـا وأحـلافـهـا مـن يحـصب وسـليـم
وظلت شيـوخ الأزد في حومـة الوغى تـعـوم وظـلنـا في الجـلاد نـعـوم
فلم أرى يـومـاً كـان أكـثر مقعصـاً يمـج دمـاً مـن قـائظ وكـليـم
وضـاربـة خـداً كـريمـاً عـلى فتى أغـر نـجـيـب الأمـهـات كـريـم
أصيب بـدولاب ولم تـك مـوطنـاً لـه أرض دولاب وديـر حميـم
فـلو شهـدتنـا يـوم ذاك وخيـلنـا تـبيـح مـن الكـفـار كـل حـريم
رأت فتيـة بـاعـوا الإلـه نفـوسهم بـجـنـات عـدن عـنـده ونـعـيـم

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يره الأمر الخوارج إلا المهلب ابن أبي صفرة فعرضوا عليه ذلك بشرط أن يكون له ولاية ما غلب عليه وأن يعطي من بيت المال ما يقوى به من معه وأن ينتخب من فرسان الناس ووجودهم وذوي الشرف من أحب أجابوه إلى ما شرط فانتخب الناس وسار إليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزيحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتى انتهوا إلى منزل من الأهواز يقال له صلى وسلبرى فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده فاقتتلوا هم والخوارج حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لولا ثبات المهلب وقوة جأشه فإن ذلك قواهم حتى قتل أمير الخوارج عبيد بن الماحوز وانهزموا هزيمة منكرة فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان. وكتب المهلب إلى أمير البصرة من قبل ابن الزبير الحارث بن عبد اللّه بن أبي ربيعة. **بسم اللّه الرحمن الرحيم** أما بعد فانا قد لقينا الأزارقة المارقة بحد وجد. فكانت للناس جولة ثم ثاب أهل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب اللّه عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الأمل فصاروا درئة رماحنا وضرائب

سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها والسلام: فكتب إليه الحارث: قد قرأت كتابك يا أخا الأزد فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا، وعزها وذخر لك ثواب الآخرة إن شاء الله وأجرها ورأيتك أوثق حصون المسلمين وهادم أركان المشركين وأخا السياسة والرياسة، فاستدم الله بشكره يتم عليك نعمه والسلام.. فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال: أما تظنونه يعرفني إلا بأخي الأزد، ما أهل مكة إلا أعراب ولم يزل المهلب يطارد الخوارج مدة الحارث بن عبد الله ولما ولى مصعب العراق استقدم المهلب وأمر أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولى مصعب المهلب على الموصل وولى حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر والخوارج بأرجان وعليهم الزبير بن علي السليطي فشخص إليهم فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم عنها فألحقهم بأصبهان فجمعوا له وأعدوا واستعدوا ثم أتوا سابور فسار إليهم ونزل قريباً منهم فقال له مالك بن حسان إن المهلب كان يذكى العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة وهو على بعد المسافة منهم فقال له عمر: اسكت، خلع الله قلبك أتراك تموت قبل أجلك فأقام هناك وفي ذات ليلة بيته الخوارج فلم يظفروا منه بشيء فقال المالك كيف رأيت؟ قال قد سلم الله ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها فقال أما إنكم لو ناصحتموني مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنفى هذا العدو ولكنكم تقولون قرشي حجازي بعيد الدار خيره لغيرنا فتقاتلون معي تعيذيراً ثم زحف الخوارج فقاتلهم قتالا شديداً حتى انهزموا وقتل في الموقعة ابنه عبيد الله فكتب إلى مصعب. أما بعد فأني قد لقيت الأزارقة فرزق الله عبيد بن عمر الشهادة ووهب له السعادة ورزقنا عليهم الظفر فتفرقوا شذر مذر وبلغتني عنهم عودة فيممتهم وبالله استعين وعليه أتوكل ثم سار اليهم وكانوا قد عادوا إلى فارس فحمل عليهم حتى أخرجهم إلى أصفهان فأقاموا برهة ثم إلى الأهواز وقد ارتحل عمر إلى اصطخر. وما زالوا يروحون ويغدون ويعيثون في الأرض فسادا فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهم على إعادة المهلب إلى حربهم وكانوا قد ولوا أمرهم قطرى بن الفجاءة المازني فخرج إليهم المهلب ولما أحسن به قطرى يمم نحو

كرمان فأقام المهلب بالأهواز، ولما استعد الخوارج كروا عليه فحاربهم المهلب ونفاهم إلى رامهرمز وفي تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير في حربه مع عبد الملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ماذا تقولون في مصعب قالوا إمام هدى قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا ضال مضل. ولما كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ما تقولون في مصعب فسكتوا، قالوا فما تقولون في عبد الملك قالوا إمام هدى فقال الخوارج يا أعداء اللّٰه بالأمس ضال مضل واليوم إمام هدى يا عبيد الدنيا عليكم لعنة اللّٰه.

ولي عبد الملك على البصرة خالد بن عبد اللّٰه بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه أن لا يفعل وقيل له إنما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيد اللّٰه بفارس فإذا نحيت المهلب لم تأمن على البصرة فأبى إلا عزله وولى حرب الخوارج أخاه عبد العزيز بن عبد اللّٰه فسار إليهم حتى قابلهم بدار بجرد فهزموه هزيمة منكرة ولما بلغ ذلك خالد كتب إلى عبد الملك به فكتب إليه عبد الملك أما بعد: فقد قدم رسولك بكتابك تعلمني فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثني أنه عامل لك على الأهواز فقبح اللّٰه رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلب إلى جنبك يجبى الخراج وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها ابنها وابن أبنائها أنظر أن ينهض بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز. قد بعثت إلى بشر أن يمدك بجيش من أهل الكوفة فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأي حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه إن شاء اللّٰه. فشق عليه أن لم يقبل رأيه في بعثه أخيه وترك المهلب وفي أنه لم يرض رأيه خالصاً حتى قال احضر المهلب واستشره فيه وكتب عبد الملك إلى أخيه بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود، فاختار لهم خمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وخرج خالد بأهل البصرة حتى جاء الأهواز فاجتمع الجندان على

الخوارج فرأوا ما لهم فانصرفوا منهزمين كأنهم على حامة وأتبعهم خالد داود بن قحذم في جيش من أهل البصرة ومدهم بشر بأربعة آلاف من أهل الكوفة فاتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع ورجع عامة ذينك الجيشين مشاة إلى الأهواز.

وفي ذلك الوقت خرج بالبحرين أبو فدلك الخارجي فغلب على البحرين وقتل نجدة بن عامر الحنفي فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطرى الأهواز وأمر أبي فديك فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف إلى أبي فديك فانهزم.

ولما رأى عبد الملك ذلك عزل خالداً وولى أخاه بشراً مكانه وكتب إليه أما بعد فابعث المهلب في أهل مصره إلى الأزارقة ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم فانه أعرف بهم وخله ورأيه في الحرب فإني أوثق شيء بتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعثاً وابعث عليهم رجلا معروفاً شريفاً حسيباً صليباً يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم انهض إليهم أهل المصرين فليتبعوهم وجه ما توجهوا حتى يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك. فدعا بشر المهلب فأقرأه كتاب عبد الملك وأمر أن ينتخب من يشاء وشق على بشر أن إمرأة المهلب جاءت من قبل عبد الملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره عليه حتى كأنه كان إليه ذنب ثم دعا عبد الرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال له إنك قد عرفت منزلتك مني وأثرتك عندي وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش الذي عرفت من جرأتك وغنائك وشرفك فكن عند حسن ظني بك، انظر إلى هذا الكذا والكذا يقع من المهلب فاستبد عليه بالأمر ولا تقبلن له مشورة ولا رأياً وتنقصه وقصر به، فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر إلى أهل الإسلام وأقبل يغريه بابن عمه كأنه من السفهاء وممن يستصبي ويستجهل. وهكذا في كل زمان وفي كل أمة من يدوس المصالح العامة إرضاء لشهواته النفسية وأهوائه الفاسدة ولا تهمه الأمة سعدت أو شقيت. رجل يكره رجلا فما بال

مصالح الناس وعامة المسلمين تكون ميدان الإنتقام إن هذا لبلاء عظيم نسأل اللّٰه الخلاص منه. خرج الجيشان حتى وصلا رامهرمز وبها الخوارج فتراءى العسكران ولم يلبث الناس إلا عشراً حتى بلغهم نعي بشر بن مروان وتوفي بالبصرة فارفض ناس كثير من أهل البصرة والكوفة فجاءهم كتاب من خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبد اللّٰه بن خالد بن أسيد أمرهم فيه بالعودة ويحذرهم العصيان والمخالفة. وسطوة عبد الملك فلم يجد ذلك فيهم نفعاً حتى جاءهم الأسد المصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذاً عنيفاً ووجههم إلى المهلب مقهورين كما علمتم ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة فلّما تتابع مسير الجنود إلى المهلب وابن مخنف ناهضا الأزارقة حتى أجلوهم عن رامهرمز فسادوا إلى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان. كان المهلب يخندق دائماً على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك ابن مخنف فأبى فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور فقاتلهم نحواً من سنة.

ثم إنه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالا شديداً وكانت كرمان في أيدي الخوارج وفارس في أيدي المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذي هم به لا يأتيهم من فارس مدد فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتى نزل بجيرفت وهي مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالا شديداً أزاحهم عن فارس كلها فبعث إليه الحجاج مع البراء بن قبيصة كتاباً يقول فيه: أما بعد فإنك واللّٰه لو شئت فيما أرى لسد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم تأكل الأرض حولك؛ وقد بعثت إليك البراء بن قبيصة لينهضك إليهم فانهض إليهم إذا قدم عليك بجميع المسلمين تم جاهدهم أشد الجهاد وإياك والأباطيل والأمور التي ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة والسلام. فأخرج المهلب بنية كل ابن في كتيبة فأخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشد قتال الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال واللّٰه ما رأيت كبنيك فرساناً

قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرساناً قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا أبأس أنت والله لمعذور فرجع بالناس المهلب حتى إذا كان عند العصر خرج إليهم بالناس وبنيه في كتائبهم فقاتلوه كقتالهم أول مرة فانصرف البراء إلى الحجاج فأخبره الخبر على جليته ثم استمر المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شيء

حدث في معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم في حسبان ذلك أن رجلا من فرسانهم قال له المقعطر قتل رجلاً كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطري أن يمكنهم من القاتل ليقتلوه قصاصاً فقال لهم ما أرى أن أفعل رجل تأول فأخطأ التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوي الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فخلعوا قطرياً وولوا عبد ربه الكبير وبقي على بيعة قطري منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضاً كان من رأى الحجاج أن يناهضهم في وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأى المهلب فتركه الحجاج ورأيه. واستمر الخوارج يقتتلون نحواً من شهر ثم إن قطرياً خرج بمن اتبعه نحو طبرستان. وبايع عامتهم غبد ربه الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم إلا قليل وأخذ عسكرهم وما فيه وسبوا لأنهم كانوا يسبون المسلمين. ولكعب الأشقري قصيدة طويلة يذكر يوم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها:

يا حفص إني عداني عنكم السفر وقد سهرت فأودي نومي السهر

وهي من غرر الشعر العربي وقد أنشدها بين يدي الحجاج فقال له أشاعر أنت أم خطيب قال كلاهما فقال له أخبرني عن بني المهلب قال المغيرة فارسهم وسيدهم وكفى بيزيد فارساً شجاعاً وجوادهم وسخيهم قبيصة ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك وعبد الملك سم ناقع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفاك بالمفضل نجدة فكيف خلفت جماعة الناس قال بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا ما خافوا قال فكيف بنو المهلب فيكم قال كانوا حماة السرح نهاراً فإذا اليلوففرسان البيات قال فأيهم كان أنجد قال كانوا كالحلقة

المفرغة لا يدري أين طرفها قال فكيف كنتم وعدوكم قال كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يئسنا منهم وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج إن العاقبة للمتقين كيف أفلتكم قطري قال كدناه ببعض ما كادنا فصرنا منه إلى الذي يحب قال فهلا اتبعتموه قال كان الحد عندنا آثر من الفل قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له قال لنا منه شفقة الوالد وله منابر الولد قال فكيف اغتباط الناس قال فشا فيهم الأمن وشملهم النقل قال أكنت أعددت لي هذا الجواب قال لا يعلم الغيب إلا اللّه فقال هكذا تكون واللّه الرجال المهلب كان أعلم بك حيث وجهك وكان كتاب المهلب إلى الحجاج: الحمد اللّه الكافي بالإسلام فقد ما سواه الذي حكم بأن لا ينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده، أما بعد فقد كان من أمرنا ما قد بلغك وكنا نحن وعدونا على حالين مختلفين يسرنا أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانتهزت منهم الفرصة في وقت إمكانها وأدنيت السواد من السواد حتى تعانقت الوجوه فلم يزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد للّه رب العالمين): فكتب إليه الحجاج أما بعد فقد فعل اللّه عز وجل بالمسلمين خيراً واراحهم من حد الجهاد فكنت أعلم بمن قبلك والحمد للّه رب العالمين فإذا ورد عليك كتابي فاقسم في الناس فيئهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وإن كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلا تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهماً من ولدك ولا ترخص لأحد في اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم على وعجل القدوم إن شاء اللّه فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال يا بني إنك اليوم لست كما كنت إنما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ولن يحتمل لك إلا على ما احتمل عليه أبوك، فأحسن إلى من معك وإن أنكرت من إنسان شيئاً فوجهه إليه وتفضل على قومك. ووفد المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر إكرامه وبره وقال يا أهل العراق إنكم عبيد المهلب ثم قال أنت واللّه كما قال لقيط الأيادي:

وقلدوا أمركم للّه دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعاً

لا يـطعـم النـوم إلا ريـث يبـعثـه هم يكـاد حشـاه يقـصم الـضلعـا
لا متـرفـاً إن رخـاه العيش سـاعـده ولا إذا عض مـكـروه بـه خشـعـا
مـا زال يحلب هـذا الـدهـر أشـطره يـكـون متـبعـاً طـوراً ومتـبعـا
حتى استمـرت عـلى شـزر مـريـرتـه مستحكم الرأي لاقحماً ولا ضـرعاً(١)

فقام إليه رجل قال: أصلح اللّه الأمير واللّه لكأني أسمـع الساعـة قطريـاً وهـو يقول المهلب، كمـا قال لقيط الأيـادي ثم أنشد. الشعـر فسر الحجـاج حتى امتـلأ سروراً فقـال المهلب إنا واللّه مـا كنـا أشـد عـلى عـدونـا ولكن دمـغ اللّه الباطل وقهـرت الجماعـة الفتنة والعـاقبة للمتقيـن وكان مـا كرهنـاه من المطاولـة خيراً مما أحببنـاه من العجلة فقال لـه الحجاج اذكـر لي القوم الـذين أبلوا وصف لي بلاءهم فأمر الناس فكتبـوا ذلك للحجـاج فقال لهم المهلب مـا ذخر اللّه لكم خـير لكم من عاجـل الدنيـا إن شاء اللّه ثم ذكـرهـم للحجاج عـلى مـراتبهم في البـلاء وتفاضلهم العنـاء وقـدم بنيـه وقال إنـه واللّه لـو تقـدمهم أحـد في البـلاء لقدمته عليهم ولـولا أن أظلمهم لأخرتهم. قـال الحجاج صـدقت وما أنت أعلم بهم مني وغبت إنهم لسيـوف من سيـوف اللّه ثم ذكـر معن بن المغيـرة بن أبي صفرة وأشباهه، فقال الحجاج أين الوقاد فدخـل رجل طـويل أجنأ فقال المهلب هـذا فارس العـرب فقال الـرقاد أيهـا الأمير كنت أقـاتل مـع غـير المهلب فكنت كبعض النـاس فلما صـرت مـع من يلزمني الصبـر ويجعلني أسـوة نفسـه وولـده ويجازيني على البلاء صرت أنا وأصحابي فرساناً. فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قدر بلائهم• وزاد ولد المهلب ألفين وفعـل بالـرقاد وجمـاعته شبيهـاً بذلـك، قال المغيرة بن حبناء من أصحاب المهلب:

إني امـرؤ كـفـني ربي وأكـرمـني عـن الأمـور التي في رعـيهـا وخـم
وإنمـا أنـا إنـسـان أعـيش كـما عـاشت رجـال وعـاشت قبلهـا أمم
مـا عقني عن قفـول الجنـد إذ قفلوا عـني بمـا صنعـوا عجـز ولا بـكم

---

(١) القحم آخر سن الشيخ، والصغير الضعيف.

ولــو أردت قــفــولاً مــا تجـهــمـني — إذن الأمــير ولا الكتــاب إذ رقمــوا
إن المـهـلـب إن أشـتـق لـرؤيـتـه — أو امتـدحـه فـإن النـاس قـد علمـوا
إن الأريـب الـذي تـرجى نـوافـلـه — والمستعـان الـذي تجـلى بـه الظـلـم
القـائـل الفـاعـل الميمـون طـائـره — أبـو سعيـد إذا مـا عـدت النـعـم
أزمــان إذ عض الحـديـد بهـم — إذا تمـنى رجـال أنهم هـزمـوا

وقـد أرسلت بعد ذلـك جنود لتتبع قـطري فلحقـوه بشعـاب طبرستـان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابتـه في أسفل الشعب فتـدهدى حتى خـر إلى أسفله فقتل ثم سـاروا حتى لحقـوا بقيتهم فحـاصـرهم في قصر قـومس حتى جهـدوا ثم خرجـوا فقـاتلوهم حتى قتلوا وكـان ذلـك سنـة ٧٧، وبـذلـك انتهى أمـر الأزارقة بعـد أن ذاق النـاس منهم مـر الحـرب وشغلوا المسلمـين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة.

وممن لـه ذكر من الخـوارج وليس من الأزارقة صـالح بن مسـرح التميمي ورفيقـه شبيب بن يزيـد كان صـالح رجـلا ناسكـاً مخبتاً مصفـر الوجـه صـاحب عبـادة وكـان بـداراً من أرض المـوصـل والجـزيـرة لـه أصحـاب يقـرئهم القـرآن ويفقهم ويقص عليهم فقـال لهم ذات يـوم مـا أدرى مـا تنتـظرون حتى متى أنتم مقيمـون؟ هذا الجـور قد فشـا وهـذا العـدل قـد عفـا ولا تـزداد حـدة الولاة على الناس إلا علواً وعتواً وتبـاعداً عن الحق وجـرأة على الـرب فاستعـدوا وابعثـوا إلى إخوانكم الـذين يريـدون من إنكار البـاطل والـدعاء إلى الحق مثـل الـذي تريـدون فيـأتـونكم فنلتقي وننـظر فيـما نحن صـانعـون وفي أي وقت إن خـرجنا نحن خـارجون فتـراسلوا وأرسل شبيب إلى صـالح يستنهضـه للخـروج وقـدموا عليـه فاتعـدوا أن يخرجـوا في هلال صفـر ليلة الأربعـاء سنـة ٧٧ وقـال صـالـح لمن معـه اتقـوا اللّه عبـاد اللّه ولا تعجلوا إلى قتـال أحـد النـاس إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم ينصبـون لكم فإنكم إنمـا خرجتم غضبـاً للّه حين انتهكت محارمه وعصي في الأرض فسفكت الدماء بغير حلها وأخـذت الأموال بغـير حقها فـلا تعيبوا عـلى قوم أعمـالا ثم تعملـوا بهـا فإن كـل مـا أنتم عـاملون أنتم عنـه مسئـولـون. ثم أقـامـوا بـأرض دارا ثـلاث عشـرة ليلة وتحصن منهم أهـل دارا

ونصيبين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان مخرجهم فبعث إليهم جنداً عدتهم ألف رجل فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث جنداً عدته ثلاثة آلاف فأزاحوا الخوارج حتى تركوا مكانهم، وساروا حتى قطعوا الدسكرة فأرسل إليهم الحجاج جنداً عدته ثلاثة آلاف، فقاتلهم الخوارج حتى قتل أميرهم صالح بن مسرح فجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتى نزلوا المدائن. وما زالوا ينتقلون من جهة إلى أخرى والجند يرسل إليهم تلو الجند فيهزمون جنود الحجاج وهم في عدد لا يتجاوز المئتين عداً. وأخيراً جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج وعاثوا فيها فساداً وقتلوا أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة فدعا الناس إلى إخراجهم فاجتمع إليه القواد ولما رأى ذلك شبيب ترك الكوفة وخرج فسارت الجنود وراءه لكنها لم تنل منه منالا وهو في كل مرة يهزمها حتى استغاث الحجاج بعبد الملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب إليه أن يرسل جنداً من أهل الشام فوجه إليه أربعة آلاف ووجه الحجاج إليهم نحواً من خمسين ألفاً من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ ألفاً ومن الغريب أن الألف هزمت الخمسين ألفاً. وكان لشبيب بعد ذلك رحلة ثانية إلى الكوفة فبنى بها مسجداً فخرج إليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوى وقال لهم يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين، ولا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم غضوا الأبصار واجثوا على الركب واستقبلوا القوم بأطراف الأسنة فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح وكأنهم حرة سوداء وأقبل إليهم شبيب في تعبية فثبتوا له حتى إذا غشى أطراف الأسنة وثبوا في وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قدماً وما زال القتال بينهم عامة اليوم وقتل في هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانتهى الأمر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها وترك امرأته غزالة فقتلت ثم أرسل الحجاج في أثره جنود الشام حتى قابلوه بالأنبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جداً وانتهى أمر الخوارج بغرق شبيب في النهر وتفصيل الوقائع التي جرت بين شبيب وبين الجنود الحجاج يطول أمرها والنتيجة أن المسلمين استراحوا من الأزارقة ومن شبيب في سنة واحدة.



المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة

الفتوح في الشرق ـ الفتوح في الشمال

الحج ـ السكة ـ ولاية العهد

وفاة عبد الملك وبيته وصفته

الوليد الأول ـ الإصطلاح الداخلي

بناء الكعبة:

من الحوادث التي حدثت إبان هذه الإضطرابات هدم الكعبة وبناؤها ففي سنة ٦٥ هـ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالأرض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الأساس ويصلون إلى موضعه وجعل الحجر الأسود عنده في تابوت في سرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثيوب أو طيب عند الحجبة في خزانة البيت حتى أعادها لما أعاد بناءها وكان السبب في إدخاله الحجر ضمن البيت ما روته أمه أسماء عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل وجعلت لها بابين. فلما قتل ابن الزبير وولى الحجاج نقض ذلك الركن الذي فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليه في عهد قريش فالبناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج.

الأحوال الخارجية:

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بمد فتوحهم وإنقاص أرض عدوهم لأن الأمة إذا كان بأسها بينها شديداً فحسبها أن تحافظ على ما بأيديها من

البلاد ولكن هذه الأمة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تقصر يديها من الفتح ولم تظهر أمام الأمم الأخرى بمظهر الضعف إلا بعض الأحيان.

الفتوح في الشرق:

بعد أن انتهى المهلب من أمر الخوارج وولاه الحجاج خراسان ففي سنة ٨٠ قطع نهر بلخ ونزل على كش وأتاه وهو نازل عليها ابن عم مالك الختل فدعاه إلى غزو والختل فوجه معه ابنه فنزل في عسكره وكان الملك يومئذ واسمه السبل في عسكره على ناحية فبيت السبل ابن عمه فكبر في عسكره فظن ابن العم أن العرب غدروا به وأنهم خافوه على الغدر حين اعتزل عسكرهم فأمر الملك وقتله في قلعته فأتى يزيد بن المهلب القلعة وأحاط بها فصالحه الملك على فدية حملها إليه ورجع إلى المهلب فوجه ابنه حبيباً إلى ربنحن فوافى صاحب بخارى في أربعين ألفاً فكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب.

ومكث المهلب بكش سنتين فقيل له لو تقدمت إلى السغد وما وراء ذلك قال ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند يرجعوا إلى مرو سالمين ثم صالح المهلب أهل كش على فدية وأتاه وهو بكش وفاة ابنه المغيرة خليفته على مرو فجزع جزعاً شديداً وولى مكانه ابنه يزيد. ولما أخذ الفدية عاد إلى مرو فتوفى بها ولما شعر بدنو أجله دع من حضر من ولده ودعا بسهام فحزمت وقال أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا لا قال أفترونكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى اللّه وصلة الرحم فإن صلة الرحم تنسيء في الأجل وتثري المال وتكثر العدد وأنهاكم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع أموركم إن بني الأم يختلفون فكيف العلات وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم فإني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفى بغدو الرجل ورواحه اليكم تذكرة له

وآثـروا الجود عـلى البخل وأحبـوا العرب واصـطنعـوا العـرب فـإن الـرجـل من العرب تعده العدة فيموت دونك فكيف الصنيعة عنده عليكم في الحرب بالإناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة وإذا كـان اللقاء أنـزل القضاء فـإن أخذ رجل بالحزم فظهر عـلى عدوه قيـل أتى الأمر من وجهـه ثم ظفر فحمـد وأن لم يظفره بعـد الأناة قيـل ما فـرط ولا ضيع ولكن القضـاء غالب عليكـم بقـراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم، وقد استخلفت عليكم يزيـد وجعلت حبيباً عـلى الجند حتى يقـدم بهم على يـزيد فلا تخالفـوا يزيـد فقال لـه المفضل لـو لم تقدمـه لقدمنـاه. ومات المهلب وأوصى إلى حبيب فصـلى عليه وكتب يـزيد إلى عبـد الملك بالخبـر وبـاستخـلاف المهلب إيـاه فأقـره وتوفي في ذي الحجـة سنـة ٨٣ هـ فقال نهار بن تـوسعـة التميمـي:

ألا ذهـب الـغـزو المقـرب لـلغـنى ... ومـات الـندى والجـود بعـد المهلب
أقمنـا بمـرو الـروذ رهن ضـريحـه ... وقـد غيبـا عن كـل شـرق ومغـرب
إذا قيـل أي النـاس أولى بنعـمـة ... عـلى النـاس قـلنـاه ولم نـتـهـيـب
أبـاح لنـا سهـل الـبـلاد وحـزنها ... بخيـل كـإرسـال القـطا المتسـرب
يـعـرضـهـا لـلطعـن حـتى كـأنما ... يجـللهـا بـالأرجـوان المخـضـب
تـطيف بـه قحـطان قـد عصبت بـه ... وأحـلافهـا من حـي بكـر وتـغلب
وحـيـا مـعـد عـوذ بـلوائـه ... يـفـدونـه بـالـنفس والأم والأدب

وفي ولايـة يزيـد لخراسـان فتـح قلعـة نيـرك ببـادغيـس واحتلهـا وكان ملكهـا قد خـرج عنها فلما جـاء صالحـه على أن يـدفع إليـه ما في القلعـة من الخـزائن ويرتحـل عنها بعيـاله. وكتب يـزيد إلى الحجـاج بـالفتـح وكـان كـاتبـه يحيى بن يعمر العدواني ونص كتابه «وإنا لقينا العـدو فمنحنا اللّٰه أكتـافهم فقتلنا طـائفـة وأسـرنـا طـائفـة ولحقت طـائفـة بـرؤوس الجبـال وعـراعـر الأوديـة وأهـضـام الغيـطان وأثنـاء الأنهار». فـلما جـاء الكـتـاب الحـجـاج سـأل عمن يكتب ليـزيـد فقيـل لـه يحيى بن يعمـر فكتب إلى يـزيـد فحمله عـلى البـريـد فقـدم عليه أفصـح النـاس فقـال لـه أين ولـدت قـال بـالأهـواز

قال: فهذه الفصاحة؟ قال: حفظت كلام أبي وكان فصيحاً. قال: فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد؟ قال: نعم كثيراً. قال: ففلان قال نعم. قال: أخبرني عني أألحن قال نعم تلحن لحناً خفيفاً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتجعل أن في موضع إن وإن في موضع أن. قال أجلتك ثلاثاً فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك. فرجع إلى خراسان وفي سنة ۸٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضل. وفي عهد المفضل غزيت باذغيس وفتحت ثم نم آخرون وشومان فظفر. ولم يكن للمفضل بيت مال بل كان يعطي الناس كلما جاءه شيء وإن غنم شيئاً قسمه بينهم. ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهل وسيكون له ذكر في خلافة الوليد.

الفتوح في الشمال:

لم يكن من الممكن في عهد الإضطراب الشديد للمسلمين قوة أمام الروم الذين لا يتركون المسلمين وفي سنة ۸۰ ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين وذلك في الوقت الذي يتجهز فيه عبد الملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدي عبد الملك إليه كل جمعة ألف دينار خوفاً على المسلمين ولما انقشعت هذه السحابة واستقر الأمر لعبد الملك عادت الغزوات إلى بلاد الروم فنظمت الشواتي والصوائف وافتتح عبد الملك تيسارية وفي سنة ۸۱ هـ فتحت قالقيلا وكان أمير جندها عبيد اللّه بن عبد اللّه وفي سنة ٨٤ هـ غزا عبد اللّه بن عبد الملك ففتح المصيصة.

الحج:

كان الذي يقيم الحج عبد اللّه بن الزبير في عهد خلافته وفي سنة ٦٨ هـ وافت عرفات أربعة ألوية ابن الحنفية في أصحابه في اراء وابن الزبير في لواء ونجدة الحروري في لواء ولواء بني أمية. قال محمد بن جبير خفت الفتنة فمشيت إليهم جميعاً فجئت محمد بن علي في الشعب يا أبا القاسم اتق اللّه فأنا في مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد اللّه إلى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال

والله ما أريد ذلك وما حول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتي أحد من قبلي ولكنني رجل أدفع عن نفسي من ابن الزبير وما يروم وما أطلب هذا الأمر إلا أن لا يختلف على فيه اثنان ولكن ائت ابن الزبير فكلمه وعليك النجدة قال فجئت ابن الزبير وكلمته بنحو ما كلمت به ابن الحنفية فقال أنا رجل قد اجتمع على الناس وبايعوني وهؤلاء أهل خلاف، فقلت: أرى لك خيراً الكف قال أفعل ثم جئت نجدة الحروري فأجده في أصحابه فعظمت عليه وكلمته كما كلمت الرجلين فقال أما أن ابتدىء أحداً بقتال فلا ولكن من بدأ بقتال قاتلته قلت فإني رأيت الرجلين لا يريدان قتالك. ثم جئت شيعة بني أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل أحداً إلا إن قاتلنا، ثم كان أول لواء انفض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة ثم لواء بني أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس. وهذه حادثة غريبة في تاريخ الحج. وبعد قتله كان يقيمه عمال بني أمية.

السكة الإسلامية:

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وإنما كانوا يستعملون ما يضرب من الدراهم في بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير في بلاد الروم حتى. كانت سنة ٧٤ من الهجرة وهي سنة الجماعة ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الإسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيراطاً والدينار عشرين قيراطاً فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامي وأمر عبد الملك الحجاج أن يضربها بالعراق وقد نقش عليها أولا باسم الله ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة. وكانت له دار ضرب جمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك في بقية الأمصار الإسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة. وسنوضح أمر السكة بعد.

ولاية العهد:

كان مروان قد ولى عهده عبد الملك ثم من بعده عبد العزيز ابن مروان ففي سنة ٨٥ هـ أراد عبد الملك أن يعزل عبد العزيز ويولي مكانه الوليد بن عبد الملك فاستشار قبيصة ابن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامي فقال لو خلعته ما انتطح فيه عنزان فبينا هو على ذلك إذا جاء الخبر بوفاة عبد العزيز فقال لروح: كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه وعهد إلى ابنيه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب ببيعته لهما إلى البلدان يبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربه أمير المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي وطاف به وحبسه فكتب عبد الملك إلى هشام يلومه على ما فعل ويقول: سعيد والله أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه وإنا لنعلم ما عند ه من شقاق ولا خلاف.

وفاة عبد الملك:

في يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ هـ (أكتوبر سنة ٧٠٥ م) توفي عبد الملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويع بالشام إحدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً من مستهل رمضان سنة ٦٥ هـ إلى منتصف شوال سنة ٨٦ هـ وكانت خلافته منذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل في ١٧ جمادي الأولى سنة ٧٣ وكان عمر عبد الملك ستين سنة لأنه ولد سنة ٢٦هـ.

بيت عبد الملك:

تزوج عبد الملك: ١ ـ ولادة بنت العباس بن جزء العبسي فولدت له الوليد وسليمان ومروان الأكبر.

٢ ـ عاتكة بنت يزيد بن معاوية فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم.

٣ ـ أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومي. فولدت له هشاماً.

٤ ـ عائشة بنت موسى بن طلحة التيمي فولدت له أبا بكر وأسمه بكار.
٥ ـ أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان فولدت له الحكم.
٦ ـ أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومي فولدت له فاطمة.
٧ ـ شقراء بنت سلمة بن حليس الطائي.
٨ ـ ابنة لعلي بن أبي طالب.
٩ ـ أم أبيها بنت عبد اللَّه بن جعفر.

وله من الأولاد عبد اللَّه ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لأمهات الأولاد.

صفة عبد الملك:

كان عبد الملك قوي العزيمة ثابت النفس لا تزعزه الشدائد، ولي أمر الأمة في غاية الإضطراب والإختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها واحدة تدين لخليفة واحد وسلمها لابنه الوليد وهي على غاية من الهدوء والطمأنينة ولكن الضحايا التي ذهبت في سبيل ذلك كثيرة جداً لأن الأمة نشيطة لا تدين إلا للقوة القاهرة التي هي فوق طاقتها والأهواء متشبعة وذلك مما يجعل المأزق ضيقاً لا يمر منه إلا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك يقول ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر مني وإن ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائساً. ومما عد من مساوىء عبد الملك أنه قال مرة وهو على المنبر من قال لي بعد مقامي هذا اتق اللَّه ضربت عنقه وقد اعتذر عن ذلك بأن كثيراً من الناس كانوا يقفون في هذه المواقف قصد الشهرة حتى إذا أصابهم من جراء ذلك شر وشهروا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء، ولكن ذلك لا يصلح على أية حال عذراً ومما عد من مساويه وهو قبيح غاره بعمرو بن سعيد وقتله إياه بعد أن أمنه وقالوا إنه أول غدر حصل في الإسلام ومن سن سنة سيئة فعليها إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة.

والتاريخ يدلنا على أن كبار الرجال الذين أقدموا على العظائم لم يسلموا

من الهنات في سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة وكان عبد الملك فصيحاً عالماً بالأخبار فقيهاً وقد قدمنا شيئاً من ذلك في أول خلافته.

٦ - الوليد الأول

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسي. ولد سنة ٥٠ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد إلا بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان ولما توفي أبوه عبد الملك بويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه. لما رجع من دفنه بدمشق لم يدخل منزله حتى صعد على منبر دمشق، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس إنه لا مقدم لما أخر الله، ولا مؤخر لما قدم الله، وقد كان من قضايا الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت وقد صار إلى منازل الأبرار ولي هذه الأمة بالذي يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج البيت وغزو هذه الثغورشن هذه الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً. أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد. أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه ومن سكت مات بدائه. ثم قام إليه الناس فبايعوه.

الحال في عهد الوليد:

كانت مدة الوليد غرّة في جبين الدولة الأموية ففيها قام بإصلاح داخلي عظيم، واشتهر في الأمة قواد عظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا إلى المملكة الإسلامية بلاداً واسعة واستردوا هيبتها في أنفس الأمم المجاورة لها. وسبب ذلك أن الوليد تولى بعد أن وطأ عبد الملك الأمور ومهدها فاستلمها الوليد والأمة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة وخبت نار الأهواء فإن الخوارج ذهبت حدتهم

وشوكتهم وقلت جموعهم وشيعة آل البيت نالهم ما جعلهم يهتمون بأنفسهم، فلم يحركوا ساكناً، ولم يوقظوا فتنة.

الإصلاح الداخلي

كان الوليد ميالا إلى العمارة فاهتم في زمنه بإصلاح الطرق وتسهيل السبل في الحجاز وغيره في سنة ٨٨ إلى عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان وكتب إلى سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التي يستقي منها أهل المدينة وأجرى إليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها. وإصلاح الطرق من أهم ما يذكر لولاة الأمر في إصلاح البلاد. ومن أعماله العظيمة بناء ذينك المسجدين العظيمين مسجد المدينة وجامع دمشق: ففي السنة المتقدمة أمر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوي وهدم بيوت أزواج الرسول وإدخالها في المسجد وأن يشتري دوراً في مؤخره ونواحيه ليتسع حتى يكون مئتي ذراع في مثلها ومن أبي فليقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع إليهم ثمنها «فإن لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان» وأرسل إليه الوليد بالفعلة والبنائين من الشام فعمل في ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله ﷺ ويطلب منه أن يعينه فيه فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهب وبعث إليه بمائة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين جملا فابتدىء بعمارته وأدخلت جميع الحجر التي لأزواج رسول الله ﷺ ولم يبق إلا حجرة عائشة التي فيها القبور الثلاثة وكان من رأى بعض أهل المدينة أن لا تكون في المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين في صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر في ذلك عمر وقد هداه الفكر أن يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهي بزاوية لا يمكن استقبالها فصار شكل الحجرة مخمساً. أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموي فإن الوليد احتفل له احتفالا عظيماً حتى خرج مناسباً لعظمة المملكة الإسلامية ولا يزال شيء من آثاره شاهداً بتلك العظمة وكان الناس في حياته قد شغفوا

بالعمارة تبعاً له حتى كانت مسألتهم عنها إذا تقابلوا. وبنى الوليد المصانع في الشام لتسهيل الإستقاء.

ومن الإصلاح العظيم حجره على المجذومين أن يسألوا الناس وجعل لهم من العطاء ما يقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً.

وعلى الجملة فكان الوليد محسناً إلى رعيته ومما يدل على حسن معاملته للعلماء أنه حج سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة، فلما وصل المدينة دخل إلى المسجد ينظر إلى بنائه، فأخرج الناس منه فما ترك فيه أحد، وبقي سعيد بن المسيب ما يجترىء أحد من الحرس أن يخرجه وما عليه إلا ريطتان ما تساويان خمسة دراهم فقيل له: لو قمت فأبى أن يقوم قبل الوقت الذي كان يقوم فيه، فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم إليه. قال عمر بن عبد العزيز: فجعلت أعدل بالوليد بناحية المسجد رجاء ألا يرى سعيداً حتى يقوم، فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة، فقال: من ذلك الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب؟ فجعل عمر يقول نعم يا أمير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد: لقد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه، فدار في المسجد حتى وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال: كيف أنت أيها الشيخ؟ فلم يتحرك سعيد ولم يقم فقال: بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمد لله، فانصرف وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس، فقال: أجل يا أمير المؤمنين، وقليل من ذوي السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوي الأسنان حقهم. وسبب ذلك فيما يظن من قبل العلماء كثيراً ومن قبل ذوي السلطان قليلا. أما العلماء فإنهم رضوا لأنفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتى صار كل ما يصيبهم في الحصول عليهما سهلا وعلم بذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف إحترامهم وتقل مكانتهم. وأما ذوو السلطان فإنهم أحياناً يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون أن يكون لأحد من رعيتهم فوق كلمتهم فيتجهموا لمن يبدي لهم نصيحة أو

يعرفهم واجباً فيحاربونهم لقصد إذلالهم وحط درجتهم، ولكن الذي يريد الله ومصلحة المسلمين بنصيحته فإنه لا يضره شيء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك.

ومن حسنات الوليد استعانته في عمله بعمر بن عبد العزيز الذي أعاد سيرة سلف هذه الأمة الصالح فقد ولاه المدينة سنة ٧٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة عروة بن الزبير وعبد الله بن عبد الله بن عتبة وأبا بكر بن عبد الرحمن وأبا بكر بن سليمان بن أبي خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم بن محمد بن أبي بكر وسالم بن عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم إذ ذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليه أجلسهم ثم حمد الله وأثنى عليه إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعواناً على الحق ما أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لي ظلامة فأحرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغني. فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه، قد عزله الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوى من الحجاج أن مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد أجلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة وأن ذلك وهن واستشاره فيمن يوليه على المدينة فأشار بعثمان بن حيان المري فولاه المدينة.

كل ثلاثة

أربعة

١- محمد بن القاسم محمد الثغر
٢- قتيبة بن مسلم الباهلي
٣- موسى بن نصير
٤- مسلمة بن عبد الملك بن مروان

١- محمد بن ...
٢

المحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح في عهد الوليد

ولاية العهد ـ وفاة الحجاج

وفاة الوليد ـ سليمان

الفتوح في عهد الوليد:

اشتهر في زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجمل الأثر في الفتح الإسلامي وهم:

١ ـ محمد بن القاسم بن محمد الثقفي.

٢ ـ قتيبة بن مسلم الباهلي.

٣ ـ موسى بن نصير.

٤ ـ مسلمة بن عبد الملك بن مروان.

فأما القاسم بن محمد فإنه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج إليه فسار القاسم إلى بلاد السند حتى أتى الديبل[1] فنزل عليه وكان به بد عظيم والبد منارة عظيمة تتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام لهم وكان كل شيء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ما قبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة ولم يزل القاسم حاصراً للديبل حتى خرج العدو إليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بنى مسجداً وأنزلها أربعة آلاف، ثم أتى البيرون فأقام أهله العلوفة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمنيين إلى الحجاج فصالحوه فوفى لهم محمد بن القاسم بالصلح ثم جعل لا يمر بمدينة إلا فتحها

(١) مدينة على ساحل نهر الهند.

حتى عبر نهر دون مهران[1] فأتاه سمين سريبدس فصالحوه على من خلفهم ووظف عليهم الخراج وسار إلى سهبان ففتحها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربته ثم إن محمد عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقد فالتقى بداهر في جنوده الكثيرة؛ وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالا شديداً لم يسمع وترجل داهر وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون، فقال في ذلك قاتل داهر:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد

إني فرجت الجمع غير معرد ... حتى علوت عظيمهم بمهند

فتركته تحت العجاج مجدلاً ... متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند، ثم فتحوا راور عنوة ثم أتى برهمناباذ العتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزموا فخلف بها عاملا، ثم سار فتلقاه أهل ساوندرى وسألوه الأمان فأعطاهم الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين، ودولتهم ثم تقدم إلى بسمد فصالح أهلها على مثل صلح مثل صلح ساوندرى. ثم انتهى إلى الرور[2] وهي من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحاً على أن يقتلهم ولا يعرض لبدهم؛ وقال ما البد إلا ككنائس النصارى، واليهود، وبيوت نيران المجوس، ووضع عليهم الخراج وبنى بالرور مسجداً، ثم سار حتى قطع نهر بياس إلى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على حكمه فقتل كثيراً منهم وأصاب فيها مغانم كثيرة وافرة وكان بد الملتان تهدي إليه الأموال وتنذر له لنذور ويحج ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده فحاز محمد ذلك كله. وفي ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن الملتان إلى الرور وبغرور وكان قد فتحها فأعطى الناس ووجه إلى البيلمان جيشاً فلم يقاتلوه وأعطوا الطاعة

إستبلاء

---

(١) نهر السند يصب في خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة.

(٢) ناحية بالسند تقرب من الملتان في الكبر وعليها سوران وهي على شاطىء نهر مهران على البحر وهي متجر وفرضة بهذه البلاد وبينها وبين الملتان أربع مراحل بالقرب من الورو مدينة بغرور.

وسالمه أهل سرست ثم أتى الكرج فخرج إليه دوهر فقاتله فانهزم العدو وهرب دوهر. (بعد هذه الفتوح العظيمة التي نشرت ظل الإسلام على جميع بلاد السند) مات الوليد بن عبد الملك فوقف أمر محمد وستتكلم بعد على خاتمة حياته. وأما قتيبة بن مسلم فكان أميراً على خراسان للحجاج بن يوسف ولاه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم: إن الله قد أحكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما ووعد نبيه ﷺ النصرة بحديث صادق وكتاب ناطق فقال ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾(١) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله لا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾(٢) ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق فقال: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾(٣) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإياكم والهوينا.

ثم عرض الجند في السلاح والكراع وسار واستخلف على مرو. فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاد فأتاه وأتى ملك مفتان بهدايا وأموال، ودعاه إلى بلاده فمضى مع الصغانيان فسلم إليه بلاده وكان ملك آخرون وشومان قد أساءه جواره وضيق عليه فسار قتيبة إلى آخرون وشومان وهما من طخستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أداها فقبلها قتيبة ورضي ثم

(١) سورة الصف: الآية ٩.

(٢) سورة التوبة: الآيات ١٢٠-١٢١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

عاد إلى مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب إليه يلومه ويعجز رأيه في تخليفه الجند وكتب إليه إذا غزوت فكن في مقدم النـاس وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم.

وفي سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك أنه كـان في يد نيزك أسرى من المسلمين، فكتب إليه قتيبة يأمره بأطلاقهم ويتهدده، فخـالفه نيزك فأطلق الأسرى فوجه إليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لئن لم يفعل ليغزونه وليطلبنه حيث كان لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلـك. فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل بادغيس على أن لا يدخلها.

وبعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهي أدنى مدائن بخاري إلى النهر فلما نزل بهم استنصر الصغد واستمدوا من حولهم فأتـوهم في جمع كثـير وأخذوا بـالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولم يجـز له خبـر شهرين وأبـطأ خبره عـلى الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبة وعدوه وذات يوم لقي المسلمـون عدوهم بجد أنزل الله عليهم نصرهم فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فحال المسلمـون بينهم وبينها فتفـرقوا وركب المسلمـون أكنافهم واعتصم بـالمدينـة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة أبتدأ بهدمها سألوه الصلح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه أن أهل بيكند غدروا بالعـامـل فقتلوه وأصحابه فرجع إليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلها وأصاب فيهـا مغانم كثيـرة ثم عاد إلى مرو. ولما كان الربيع سار عن مرو في عدة حسنة من الدواب السلاح وعبر النهر حتى أتى نومشكث وهي من بخارى فصالحه أهلها ثم سار إلى رامثينـة فصـالحه أهلهـا فانصـرف عنهم وزحف إليه التـرك معهم الصغد وأهـل فرغـانة فاعترضوا المسلمين في طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالا شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسناً وهومع قتيبـة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجـع إلى مرو فقـطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو.

ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضى إلى بخاري فنزل خرقانة السفلى

فلقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعد له ملكها فلم يظفر من البلد بشيء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج فكتب إليه الحجاج أن صورها لي فبعث إليه بصورتها فكتب إليه الحجاج أن ارجع إلى مراغتك فتب إلى اللّه مما كان منك وائتها من مكان كذا فخرج قتيبة من مرو سنة ٩٠ فانتصر ملك بخارى بالصغد والترك من حولهم، ولكن قتيبة سبقهم إلى بخاري فحصروها وفي أثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة في القلب وجاوزه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم فوقف الترك على نشر فقال قتيبة من يزيلهم لنا من هذا الموضع فلم يجبه أحد فمشى إلى بني تميم وقال لهم يوم كأيامكم أبي لكم الفداء فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال يا بني تميم أتسلموني اليوم قالوا لا ياأبا مطرف وكان هزيم بن أبي طلحة المجاشعي على خيل بني تميم فقال وكيع اقدم يا هزيم ودفع إليه الراية وقال قدم خيلك فتقدم هزيم ودب وكيع في الرجال فانتهى هزيم إلى نهر بينه وبين العدوفقال له وكيع أقحم يا هزيم فنظر إليه هزيم نظر الجمل الصؤول وقال أنا أقحم خيلي هذا النهر فإن انكشفت كان هلاكها واللّه إنك لأحمق فقال وكيع مغضباً أتخالفني وحذفه بعمود كان معه فضرب هزيم فأقحمه قال ما بعد أشد منه وعبر هزيم في الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر وقال لأصحابه من وطن منكم نفسه على الموت فليعبر ومن لافليثبت مكانه فعبر معه ٨٠٠ راجل فدب فيهم حتى إذا أعيوا أقعدهم فأراحوا ثم دنا العدو فجعل الخيل مجنبتيه وقال هزيم إني مطاعن القوم فأشغلهم عنا بالخيل وقال للناس شدوا فحملوا فما تثنوا حتى خالطوهم وحمل هزيم خيله عليهم فطاعنونهم بالرماح فما كفوا عنهم حتى حدروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح في هذا اليوم خاقان ملك الترك وابنه. ولما تم الفتح كتب به قتيبة إلى الحجاج ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصغد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها.

وفي سنة ٩٣ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحاً وكانت مدينة الفيل أحصنهم ثم غزا سمرقند وهي مدينة الصغد ففتحها بعد قتال شديد وبنى بها مسجداً وصلى فيه وكان معه في هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم ولما فتحها دعا نهار بن توسعة فقال يا نهار أين قولك:

ألا ذهب الغزو المقرب للغني — ومات الندى والجود بعد المهلب
أقام بمرو الروذ رهن ضريحه — وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

أفغزو هذا يا نهار قال هذا أحسن وأنا الذي أقول:

وما كان مذ كنا ولا كان قبلنا — ولا هو فيما بعدنا كإبن مسلم
أعم لأهل الترك قتلا بسيفه — وأكثر فينا مقسما بعد مقسم

ثم ارتحل قتيبة راجعاً إلى مرو واستخلف على سمرقند عبد الله بن مسلم وخلف عنده جنداً كثيفاً وآله من آلات الحرب كثيرة. ثم أنصرف إلى مرو فأقام بها.

وفي سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش[١] وفرغانة[٢] حتى بلغ خجندة وكاشان مدينتي فرغانة وقاتله أهل خجندة قتالا شديداً فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها وفي سنة ٩٦ افتتح مدينة كاشغر[٣] وهي أدنى مدائن الصين سار إليها من مرو فمر بفرغانة وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبد الملك فلم يعقده ذلك عن الغزو وسار إلى كاشغر فافتتحها وكان بينه وبين ملك الصين هناك مراسلات وأرسل إليه قتيبة وفداً عليهم هبيرة بن المشمرخ الكلابي فلما كلمهم ملك الصين قال لهم قولوا لقتيبة ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت إليكم من يهلككم ويهلكه، فقال له هبيرة: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في

(١) أقليم متاخم لبلاد الترك وإقليمها أكبر إقليم بما وراء النهر وخرسان وقصبتها بنكث وله مدن كثيرة خربت.

(٢) مدينة وكورة مما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان في زاوية من ناحية هيطل بينها وبين سمرقند ٥٠ فرسخاً ومن ولايتها خجندة.

(٣) مدينة يسافر إليها من سمرقند وهي في وسط بلاد الترك.

بلادك وآخرها في منابت الزيتون وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك وأما تخويفك إيانا بالقتل فإنا لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه. قال فما: الذي يرضي صاحبك، قال: إنه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطي الجزية. قال: فأنا نخرجه من يمينه نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها ثم. دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمة وردهم ووطىء التراب ثم عاد إلى مرو.

هكذا فتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضمها إلى المملكة الإسلامية فانتشر فيها الإسلام حتى أخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقائهم ومحدثيهم وعلمائهم. كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود وكان له في سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم إلى الموت فلم يبالوا وسنتكلم بعد على خاتمة حياته.

وأما موسى بن نصير فإنه ذلك القائد العظيم الذي فتح الأندلس وأدخل الإسلام في قارة أوروبا، ولما كنا عازمين أن نفرد تاريخ الأندلس بفصل خاص نعقده له فيما نستقبل من محاضراتنا إن شاء اللّه فإنا نؤجل الكلام عن فتحه الآن.

وأما مسلمة بن عبد الملك فإن عزيمته ظهرت في حروب الروم فكان كل سنة يسير الجنود فيفتتح ما أمامه من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبد الملك. ومن الحصون التي افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية وإذاورلية وهرقلة وقمونية وسيسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير وغيرها حتى هابهم الروم.

ولاية العهد:

كان عبد الملك قد ولى عهده ابنيه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منه

في حق أخيه عبد العزيز وقد أعاد الوليد عمل أبيه فأراد عزل سليمان وتولية عبد العزيز بن الوليد ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز فكتب إليه فاعتل فأراد الوليد أن يسير إليه فأمر الناس بالتأهب ولكن منيته حالت دون ذلك. ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج ومن على رأيه.

وفاة الحجاج:

في شوال سنة ٩٥ توفي بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراقين وما بينها من المشرق كله وكان سنة ٥٤ سنة، واستخلف على الصلاة ابنه عبد اللّه بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبي كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبي مسلم وكانت ولايته على العراقين عشرين سنة.

كانت للحجاج نفس تحب العلو في الأرض ولا تقبل أن يقف في طريقها عظيم من العظماء أو سيد من السادات فإن فعل أحد شيئاً من ذلك هاجت تلك النفس ولم تبال بما فعلت في سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها وإذا كان لتلك النفس قوة فهناك العذاب الأكبر والعسف الشديد وإذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت ما يمكنها من فتنة الناس والسعي بينهم بالأنباء الكاذبة حتى تكبهم على وجوههم. وكان الحجاج من القسم الأول فعسف بأهل العراق وأذل عظماءهم حتى لم يكن عندهم امتناع، أسرف في القتل والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاه حتى انتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة التي لا ترد. قال له عبد الملك يوماً: كل امرىء يعرف عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبىء عني شيئاً. قال أنا لجوج حقود حسود، ومتى كانت هذه الصفات في ذي سلطان أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا وهكذا فعل الحجاج.

لم يكن الحجاج خالياً من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شراً عظيماً، وكان فصيحاً لا يكاد يعادله أحد في

الفصاحة من أهل زمنه وكانوا يقرنون به الحسن البصري وكان من قراء القرآن وحفاظه والمعدودين. وعلى الجملة فإن الرجل مهد بلاد العراق بعد أن ضحى في سبيل ذلك أرواحاً كثيرة وكان الخراج العراقي في زمن الفتن والعسف قد قل جداً، وأنا كما علمتم لست ممن يعجبه الإصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدها إصلاحا حقيقاً وإنما هي طريقة إذلال وإخضاع لا يدوم أثرها كثيراً لأن النفوس تنطوي على ما فيها من البغض والكراهية حتى إذا حانت لها الفرصة وثبت.

وفاة الوليد بن عبد الملك:

في منتصف جمادي الآخرة سنة ٩٦ هـ توفي بدير مران الوليد بن عبد الملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥ م) بعد أن مكث في الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ إلى منتصف جمادي الثانية سنة ٩٦) وكانت سنه إذ توفي ستاً وأربعين سنة وكان له من الأولاد تسعة عشر ابناً.

٧ ـ سليمان

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٥٤ من الهجرة.

بويع بالخلافة بعد موت أخيه وكان بالرملة من أرض فلسطين، وكانت لأول عهده أحداث خير وشر.

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع في يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل إلى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الألد، فلما ولي سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولى يزيد بن أبي كبشة السكسي السند فأخذ محمد بن القاسم وقيده وحمله إلى العراق فقال محمد متمثلا:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكى أهل السند على محمد، فلما وصل إلى العراق حبس بواسط فقال:

فلئن ثـويت بـواسط وبـأرضهـا   رهن الحـديـد مكبـلا مغلولا

فلرب قينـة فـارس قـد رعتهـا   ولـرب قرن قـد تـركت قتيـلا

ثم عـذبه صالح بن عبـد الرحمن في رجـال من آل أبي عقيـل حتى قتلهم وبذلك انتهت حياة هذا القـائد إرضـاء لأهواء الخليفـة حتى تقر نفسـه بالإنتقـام وتنـاسى ما فعله ذلـك القـائـد من عظيم الأعمـال، ولا ندري كيف تنبـغ القواد وتخلص قلوبهم إذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك.

أما القائد الثاني قتيبة بن مسلم فإنه كان ممن وافق الوليد على غرضه في عزل سليمان وتولية ابنه عبـد العزيـز فاضـطغنها عليـه سليمان وهـو يعد من صنائع الحجـاج فلما ولي سليمان أشفق منه قتيبة وخـاف أن يـولي خـراسان يـزيـد بن المهلب، فكتب إليه كتابـا يهنئه ويعزيه عن الـوليد ويعلمـه بلاءه وطـاعته لعبـد الملك والوليد وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان وكتب كتاباً ثانياً يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم وعـظم صوتـه فيهم. ويـذم المهلب وآل المهلب ويحلف لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه. وكتب كتاب ثالثاً فيه خلعه وأرسـل الكتب الثلاثة مـع رجل بـاهلي وقـال له ادفـع إليه الكتـاب الأول. فإن كـان يزيـد بن المهلب حاضراً فقرأ ورماه إليه فادفع إليه الثاني، فإن قرأه ورماه إليـه فادفـع إليه الثالث. فإن قرأ الكتاب الأول ولم يرمه إليه، فاحتبس الكتابين الآخـرين. فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنـد يزيـد بن المهلب فدفـع إليه الكتـاب الأول فقرأه ورماه إلى يزيد فدفع إليه الثاني فقرأه ورماه إلى يزيد فأعطاه الثالث فقرأه.

فتعمر وجهه واحتبس الكتاب في يده وحول الرسول إلى دار الضيافة. ولما أمسى أجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة على خراسان فخرج حتى إذا كـان بحلوان بلغه ما كان من أن قتيبة غـير مطمئن إلى سليمـان فأجمـع رأيه عـلى خلعه فـدعا الناس الذين معه إلى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيعاً سيد بني تميم فثار على قتيبة حتى قتلوه هو وإخوته وأكثر بنيـه. قال رجـل من عجم خراسـان: يا معشر العـرب قتلتم قتيبة والله لـو كان منـا فمات فينـا جعلناه في تـابـوت فكنـا

نستفتح به إذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة إلا أنه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب إليه أن أحتلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هناك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته في الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التي تعجلها قتيبة وما كان ضره لو تأنى عبد الرحمن بن جمانة الباهلي يرثيه:

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر ... بجيش إلى جيش ولم يعل منبراً
ولم تخفق الرايات والقوم حوله ... وقوف ولم يشهد له الناس عسكراً
دعته المنايا فاستجاب لربه ... وراح إلى الجنات عفا مطهراً
فما رزىء الإسلام بعد محمد ... بمثل أبي حفص فيبكيه عيهراً

كانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع وإنما تجني عليه وكيع وعلى كل حال فإن الذي حصل كان موافقاً لهوى سليمان بن عبد الملك.

وأما القائد الثالث وهو موسى بن نصير فإن خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيه فإنه قبل أن يتوفى الوليد استقدمه إلى دمشق فقدم وقد مات الوليد وكان سليمان منحرفاً عنه فعزله عن جميع الأعمال وحبسه وأغرمه مالا عظيماً لم يقدر على وفائه فكان يسأل العرب في معونته وعلى الجملة فإن فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد بلائهم.

أما العامة فإنهم استبشروا به لأنه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم في عهد أخيه وأطلق الأسارى وخلى أهل السجون وأحسن إلى الناس.

الفتوح في عهده:

في عهد إمارة يزيد بن المهلب خراسان فتح قهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم أتى جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جنداً وسار إلى طبرستان فقاتله بها الأصبهبذ قتالاً شديداً ثم صالحه أخيراً وبينا هو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا بعامله وقتلوه هو ومن معه فعاد إليهم وفتح جرجان الفتح الأخير وقتل

من أهلها مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحاً عظيماً لأنها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين وكتب يزيد إلى سليمان بن عبد الملك (أما بعد فإن اللّه قد فتح لأمير المؤمنين فتحاً عظيماً وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمة وإحسانه في خلافه أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك سابور ذا الأكتاف وكسرى ابن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء اللّه حتى فتح اللّه ذلك لأمير المؤمنين كرامة من اللّه له وزيادة في نعمه عليه وقد صار عندي من خمس ما أفاء اللّه وأنا حامل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء اللّه).

في بلاد الروم:

في عهد سليمان سنة٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبد الملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحصرها وشتى بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر.

ولاية العهد:

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه أيوب فمات وهو ولي عهده فلما مرض سليمان استشار رجاء بن حيوة في تولية عمر بن عبد العزيز فوافقه على ذلك وكتب (بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد اللّه سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إني قد وليتك الخلافة من بعدي ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا اللّه ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا إليهم فأخبرهم أن هذا كتابي ومرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه.

وفاة سليمان:

يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ هـ توفي سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنه إذ توفي ٤٥ سنة.

عمر ـ يزيد الثاني

٨ ـ عمر

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه إياه.

لما مات سليمان خرج رجاء بعهده الذي لم يكن فتح وجمع بني أمية في مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان في كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أمير المؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعي عمر فأجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبد الملك يسترجع لما أخطأه.

ولما تمت البيعة بمراكب الخلافة البراذين والخيل والبغال ولكل دابة سائس فقال ما هذا قالوا مركب الخلافة قال دابتي أوفق لي وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم أقبل سائراً فقيل له منزل الخلافة فقال فيه عيال أبي أيوب وفي فسطاطي كفاية حتى يتحولوا فأقام في منزله حتى فرغوه بعد.

كان عمر بن عبد العزيز بعيداً عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون إلى أمتهم نظر الأب البار ويعدلون بينهم في الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها كذلك كان عمر بن عبد العزيز.

في أول خلافته أرسل كتابا عاماً إلى جميع العمال بالأمصار هذه نسخته (أما بعد فإن سليمان بن عبد الملك كان عبداً من عبيد الله أنعم الله عليه ثم

قبضه واستخلفني ويزيد بن عبد الملك من بعدي إن كان، وإن الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس على بهين ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديداً ومسئلة غليظة إلا ما عافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك). وهذا الكتاب ينبيء عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشعوره بعظيم ما ألقي عليه من أمر المسلمين.

مما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبي السرح إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطيناه فإن بنا إلى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوماً إلى عمر فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له إن أهل سمرقند قد شكوا ظلماً أصابهم وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة. فقال أهل الصغد بل نرضى بما كان ولا نجدد حربا لأن ذوي رأيهم قالوا قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن عدنا إلى الحرب لا ندري لمن يكون الظفر وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا، وهذا عمل لم نعلم أن أحداً وصل في العدل إليه.

ومما بين رفقه بالأمة وميله إلى جمع كلمته أن خارجة خرجت عليه بالعراق فكتب إلى عامله يأمره أن لا يحركهم إلا أن يسفكوا دما أو يفسدوا في الأرض فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلا صليبا حازماً فوجهه إليهم ووجه معه جنداً وأوصه بما أمرتك فجهز لهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبد الله البجلي وكتب عمر إلى رئيس الخارجة واسمه بسطام من بني يشكر يدعوه ويسأله

عن سبب خروجه فجاءه كتاب عمر ومحمد بن جرير وكان كتاب عمر «بلغني أنك خرجت غضبا للّه ولنبيه ولست بأولى بذلك مني فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا» فكتب بسطام إلى عمر قد أنصفت وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك، ولما وصل هذان الرجلان إلى عمر ناظراه، فقال لهما عمر: ما أخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم؟ فقال المتكلم: ما نقمنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم. فقال عمر: ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد إلى عهد إلى رجل كان قبلي فقمت ولم ينكره على أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فاتركوني ذلك الرجل وإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم. فقال بيننا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم، فقال عمر: قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا للدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها إن اللّه عز وجل لم يبعث رسول اللّه ﷺ لعاناً وقال إبراهيم **﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾**(١) وقال اللّه عز وجل **﴿أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم اقتده﴾**(٢) وقد سميت أعمالهم ظلما وكفى بذلك ذما ونقصا وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها فإن قلتم إنها فريضة فاخبرني متى لعنت فرعون قال ما أذكر متى لعنته قال أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولا يسعني إلا أن ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون. قال: أما هم كفار بظلمهم؟ قال: لا، لأن رسول اللّه ﷺ دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقربه وبشرائعه قبل منه فإن أحدث حدثاً أقيم عليه الحد فقال الخارجي إن رسول اللّه ﷺ دعا الناس إلى توحيد اللّه والإقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٦.

(٢) سورة الإنعام: الآية ٩٠.

X

منهم يقول لا أعمل بسنة رسول اللّه ولكن القوم على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء. قال الخارجي: فأبرأ مما خالف عملك ورد أحكامهم قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق قال بلى قال أتعلم أن أبا بكر حين قاتل أهل الردة سفك دماءهم وسبى الذراري وأخذ الأموال قال بلى قال أتعلم أن عمر رد السبايا بعده إلى عشائرهم بفدية، قال نعم قال فهل بريء عمر من أبي بكر قال لا قال افتبرؤون أنتم من واحد منهما قال لا قال فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دماً ولم يأخذوا مالاً وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبد اللّه بن خباب وجاريته وهي حامل قال نعم، قال فهل بريء من لم يقتل ممن قتل واستعرض قال لا قال أفتبرؤون أنتم من إحدى الطائفتين قال لا قال أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد؛ فاتقوا اللّه فإنكم جهال تقبلون من الناس ما ورد عليهم رسول اللّه ﷺ وتردون عليهم ما قبل ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده، فإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً عبد ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول اللّه آمناً وحقن دمه وماله وأنتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم فقال الخارجي أرأيت رجلا ولى قوماً وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أتراه أدى الحق الذي يلزمه اللّه عز وجل أو تراه قد سلم قال عمر لا، قال أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال إنما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقاً. وكان هذا السؤال الأخير محرجاً لعمر فطلب النظر في الإجابة عنه.

وكانت هذه المناظره سبباً لأن أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء، أما الثاني فقال ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت ما حجتهم. فانظروا كيف فعل عمر مع

هؤلاء الناس لما علم أنهم إنما خرجوا طلبا للآخرة ولكنهم أخطأوا طريقها فإنه طلبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره. وهذا نهاية الرفق على أمته.

ومن أعماله العظيمة تركه لسب بن أبي طالب على المنابر وكان بنو أمية يفعلونه فتركه وكتب إلى الأمصار بتركه. وكان الذي وقر ذلك في قلبه أنه لما ولي المدينة كان من خاصته عبيد اللَّه بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شيء مما يقول بنو أمية فقال عبيد اللَّه متى علمت أن اللَّه غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذي بلغني عنك في علي فقال عمر معذرة إلى اللَّه وإليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع مكان ذلك **﴿إن اللَّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾**(1) فأي شر رفع وأي خير وضع «وقال في ذلك كثير عزة:

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف ... بريا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما ... تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذي قلت بالذي ... فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفي الفتى بعد زيغه ... من الأود البادي ثقات المقوم

ومن إصلاحه أمره بعمل الخانات في البلدان القاصية فقد كتب إلى سليمان بن أبي السرى أن أعمل خانات فمن مر بك من المسلمين فأقروه يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين وإن كان منقطعاً فأبلغه بلده.

ومما يذكر له أنه أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت في عهد الحجاج بن يوسف فقد كتب إلى أمير العراق (أما بعد: فإن أهل الكوفة قد «أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام اللَّه وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء

---

(1) سورة النحل: الآية ٩٠.

X

وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكون شيء أهم إليك من نفسك فلا تحملها قليلا من الإثم ولا تحمل خرابا على عامر وخذ منه ما طاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذن من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذ أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الذمة فاتبع في ذلك أمرى فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله) ومما فعله أنه نهى عن تنفيذ حكم أو قطع إلا بعد أن يراجع فيه بعد أن كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل على حسب هوى الأمير وما ذكر الحجاج عنكم ببعيد. ومن الحكمة أن لا يتساهل في مثل هذه الحدود وضم رأى الخليفة إلى رأي القاضي الذي حكم ضمان كبير لأن يكون الحكم قد وقع موقعه.

رده المظالم لأهلها ـ لما ولى الخلافة أحضر قريشاً ووجوه الناس فقال لهم إن فدك كانت بيد رسول اللّه ﷺ فكان يضعها حيث أراد اللّه ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم إنها قد صارت إلي ولم تكن من مالي أعود منها على وإني أشهدكم قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول اللّه ﷺ وقال لمولاه مزاحم إن أهلي أقطعوني ما لم يكن لي أن آخذ ولا لهم أن يعطونيه وإني قد هممت برده على أربابه قال فكيف تصنع بولدك فجرت دموعه وقال أكلهم إلى اللّه فخرج مزاحم حتى دخل على عبد الملك بن عمر فقال له إن أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا وهذا الأمر يضركم وقد نهيته عنه فقال عبد الملك بئس وزير أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال إن مزاحماً أخبرني بكذا وكذا فما رأيك قال إني أردت أن أقوم به العشية، قال: عجله فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث. فرفع عمر يديه وقال: الحمد للّه الذي جعل من ذريتي من يعينني على ديني ثم قام من ساعته في الناس فردها وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمي ذلك مظالم ففزع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فأتته فقالت تكلم يا أمير المؤمنين فقال إن اللّه بعث محمداً ﷺ رحمه ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء ثم ولى أبو بكر فترك النهر

على حالـه ثم ولي عمر فعمـل عملها ثم لم يـزل النهر يستقي منـه يزيـد ومروان وعبد الملك ابنه والـوليد وسليمـان حتى أفضى الأمر إلى وقـد يبس النهر الأعـظم فلم يرد أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامـه وقالت أنتم فعلتم هـذا بأنفسكم تـزوجتم بـأولاد عمـر بن الخـطاب فجـاء يشبـه جـده فسكتوا.

لما ولي عمر قال للناس في خطبة «من صحبنـا فليصحبنا بخمس وإلا فـلا يقربنا يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننـا على الخـير بجهده، ويـدلنا من الخير على ما نهتدي إليه ولا يغتابن أحـداً ولا يعترض فيـما لا يعنيه» فـانقشع الشعراء والخطبـاء وثبت عنده الفقهـاء والزهـاد وقالـوا ما يسعنـا أن نفارق هـذا الرجل حتى يخالف قوله فعله.

كان عمر غير مترف فكان مصرفه كل يوم درهمين وكـان يتقشف في ملبسه كجده عمر بن الخـطاب ولم يتزوج عمـر غير فـاطمة بـنت عبـد الملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنـه عبد الملك فلما مـرض مرضه الذي توفي فيه دخل عليه عمر فقال يا بني كيف تجدك قال أجدني في الحق قال يا بني إن تكـون في ميزاني أحب إلى من أكـون في ميزانـك فقال يـا أباه لأن يكون ما تحب أحب إلى من يكون ما أحب فمات في مرضه وله سبع عشرة سنـة قال مرة لأبيه يا أمير المؤمنين ما تقول لـربك إذا أتيتـه وقد تـركت حقا لم تحيـه أو باطلاً لم تمته فقال يا بني إن أجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الأمـور إلي وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسناً وجميلاً ألا تطلع الشمس عـلى في يوم إلا أحييت فيه حقاً وأمت باطلا حتى يأتيني الموت وأنا على ذلك.

وعلى الجملة فإن عمـر بن عبد العـزيز من أفـراد الخلفاء الـذين لا يسمح بهم القدر كثيراً. ويرى المسلمون أن عمر هو الذي بعث على رأس المائة الثـانية ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء في حديث «إن اللّه يبعث على رأس كل مائة سنـة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها».

وربما يسأل عمن اكتسب عمر هذه الأخلاق وهو في بيئة المترفين والأخلاق إنما تكتسب من البيئة التي يعيش فيها الإنسان فنقول: إن عمر بن عبد العزيز أرسله أبوه إلى المدينة وهو صغير فربي فيها بين فقهائها وصلحائها، فاكتسب حسن الخلق ومحبة الأمة والعفة عن أموالها والرأفة بها. قال محمد بن علي الباقر إن لكل قوم نجيبة، وإن نجيبة بني أمية عمر بن عبد العزيز وإنه يبعث يوم القيامة وحده وقال مجاهد أتينا عمر نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا وقال ميمون كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر ما كذبت مذ علمت أن الكذب يضر.

لم يحدث في عهد عمر شيء من الحوادث الداخلية المهمة إلا ما كان من القبض على يزيد بن المهلب واحضاره إلى عمر فسأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك فقال كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به فقال لا أجد في أمرك إلا حبسك فاتق الله وأد ما قبلك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها وحبس بحصن حلب فجاء عمر مخلد بن يزيد بن المهلب فقال يا أمير المؤمنين إن الله منح هذه الأمة بولايتك وقد ابتلينا بك فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك علام تحبس هذا الشيخ أنا أحمل ما عليه فصالحني على ما تسأل فقال عمر: لا إلا أن تحمل الجميع فقال يا أمير المؤمنين إن كانت لك بينة فخذ بها وإلا فصدق مقالة يزيد واستحلفه فإن لم يفعل فصالحه فقال عمر ما آخذه إلا بجميع المال فخرج مخلد من عنده ولم يلبث أن مات فصلى عليه عمر بن عبد العزيز واستمر المهلب في سجنه حتى إذا أحس بقرب موت عمر أعد للهرب عدته خوفاً من يزيد بن عبد الملك لأنه كان قد حارب آل أبي عقيل وهم أصهار يزيد لأنه كان متزوجاً بنت أخي الحجاج وهرب ابن المهلب قاصداً البصرة وكتب إلى عمر وإني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر قتلة. فورد الكتاب وبعمر رمق فقال: اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءا فألحقه بي وهضه فقد هاضني.

ومن الحوادث الخارجية في عهده أنه كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى

الإسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا بأسماء العرب.

واستقدم مسلمة بن عبد الملك من حصار القسطنطينية وأمر أهل طرندة بالقفول عنها إلى ملطية وطرندة داخلة في البلاد الرومية من ملطية ثلاث مراحل وكان عبد الله بن عبد الله قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ٨٣ وملطية يومئذ خراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم فلم يزالوا إلى أن ولي عمر فأمرهم بالعودة إلى ملطية وأخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو وأخرب طرندة.

وفاة عمر بن عبد العزيز:

في ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان وكانت مدته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ في تقويم مختار باشا المصري أربعة عشر يوماً بدل أربع أيام لأنه ذكر وفاة سليمان في ٢١ صفر ٩٠ وبين هذا التاريخ ووفاة عمر ما ذكره إلا أنه ذكر في بعض الروايات أن سليمان توفي لعشر مضين من صفر بدل بقين منه وإذا كان ذلك صح أن تكون الأيام الأربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الرواية في موت سليمان بل ذكر وفاته في ٢١ صفر.

٩ ـ يزيد الثاني

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد إليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفي عمر بويع بها فلما تولى عمد إلى كل صالح فعله عمر فأعاده إلى ما كان عليه وهو أول خليفة من بني أمية عرف بالشراب وقتل الوقت في معاشرة القيان. وفي أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فإنه لما هرب من محبس عمر وبلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدي بن أرطاة فاستولى عليها وعلى ما يليها من فارس والأهواز فبعث إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً عظيماً يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك. خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله

وسنته وحثهم على الجهاد وزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم . فسمعه الحسن البصري سيد فقهاء أهل البصرة فقال والله لقد رأيناك والياً وموالياً عليك فما ينبغي لك ذلك فقام إليه أناس فأسكتوه خوفاً من أن يسمعه ابن المهلب.

وروى الطبري أن الحسن مر على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعونا إلى سنة العمرين فقال الحسن إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب نصبا ثم وضع عليها خرقاً ثم قال إني قد خالفتهم فخالفوهم قال هؤلاء القوم نعم وقال إني أدعوكم إلى سنة العمرين وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله يرد إلى محبس عمر الذي فيه حبسه.

ثم إن يزيد خرج من البصرة حتى اتى واسطا فأقام بها أياما ثم سار منها حتى التقى بجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معه من الجنود، لما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية حتى إذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى إذا انتهوا إلى قندابيل لحقهم الجند الذي أمر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل بن المهلب فانهما نجوا. وبهذا انتهت أسرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الأموية من تتباهى الأمم بهم ولما تم على يد مسلمة بن عبد الملك إخماد هذه الفتنة ولاه أخوه العراقين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزاري فقال في ذلك الفرزدق الشاعر:

راحت بمسلمة الركاب مودعا	فارعى فزارة لا هناك المرتع
عزل ابن بشر وابن عمرو قبله	وأخو هراة لمثلها يتوقع
وقد علمت لئن فزارة أمرت	أن سوف تطمح في الإمارة أشجع
من خلق ربك ما هم ولمثلهم	في مثل ما نالت فزارة تطمح

يعني بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمرو محمد بن الوليد وبأخي هراة سعيد خذينة بن عبد العزيز وكان عاملا لمسلمة على خراسان.

وولى ابن هبيرة سعيد الخرشي على خراسان وكانت له مع الصغد أهل سمرقند وقائع عظيمة من كثرة ما نقضوا كاد يستأصلهم فيها.

وفي عهده دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني فاجتمعت الخزر في جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالا شديداً فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه وأقبل المنهزمون إلى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال يا أمير المؤمنين ما جبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحي وضاربت حتى انقطع سيفي، غير أن اللّه تبارك وتعالى يفعل ما يريد ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا في بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل يزيد الجراح بن عبد اللّه الحكمي حينئذ على أرمينية وأمده بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الأعداء فسار الجراح حتى وصل برذعة، وبعد أن استراح سار نحو الخزر فعبر نهر الكرو، ولما وصل إلى مدينة الباب والأبواب لم يجد فيها أحداً من الخزر فدخلها بغير قتال ثم أقبل إليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفراً عظيماً ثم سار حتى نزل على حصن يعرف بالحصين أهله بالأمان على مال يحملونه فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم عنه. ثم سار إلى بلنجر، وهو حصن عظيم من حصونهم فنازله وافتتحه عنوة بعد قتال زاغت فيه الأبصار، ثم إن الجراح أخذ أولاد صاحب بلنجر وأهله وأرسل إليه فحضر ورد إليه أمواله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم يخبره بما يفعل العدو، ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبه نحو أربعين ألفاً من الترك فصالحوا الخراج على مال يؤدونه، وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة أثراً وفتحاً في تلك البلاد القاصية.

ولاية العهد:

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده، فقيل له إنه صغير، فولى أخاه هشاماً ومن بعده ابنه الوليد.

وفاة يزيد:

لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفي يزيد بن عبد الملك بالبلقاء من أرض دمشق. وسنة يومئذ ثمان وثلاثون سنة، وقد أقام خليفة أربع سنين وشهراً من ٢٥ رجب سنة ١٠١ إلى شعبان سنة ١٥٠.

هشام ـ الأحوال الداخلية في عهده
صفته ووفاته ـ الوليد الثاني
يزيد الثالث ـ مروان الثاني

١٠ ـ هشام

هو هشام بن عبد الملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد سنة ٩٢ من الهجرة وكان أبوه عبد الملك إذ ذاك يحارب مصعب بن الزبير، وأمه عائشة بنت هشام بن المخزومية.

وكان حين مات أخوه يزيد مقيماً بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة إلى سادس ربيع الأول سنة ١٢٥ أي تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً وكان هشام معدوداً من خير خلفاء بني أمية ولعمري إن من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير من ذلك.

الأحوال الداخلية في عهده:

في العراق والشرق ـ كان أمير العراق حين ولي هشام عمر بن هبيرة وكان لهشام فكر حسن في أهل اليمن فعزل ابن هبيرة وولى بدله خالد بن عبد الله القسري وهو قحطاني. فاختار لولاية خراسان أخاه أسد بن عبد الله واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن على السند.

فأما أسد بن عبد الله فقد كان هماما مقداماً غزا في أول ولايته الغور وهو جبال هراة فغنم. وفي سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من جند إلى بلخ وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكناً بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن أقطعه

مسكنا وتولى بناء مدينة بلخ برمك أبو خالد بن برمك وبينها وبين البروقان فرسخان، وكان من عيوب أسد أنه تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس. ضرب نصر بن سيار ونفراً معه بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحرة والبختري بن أبي درهم وحلق رؤوسهم وسيرهم إلى أخيه خالد وهؤلاء هم قرون مضر فقال في ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمي من مضر:

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ... ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا
إذاً للقيتم عند شد وثاقه ... بني الحرب لأكشف اللقاء ولأضجرا

وخطب أسد يوما فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد اللهم فرق بيني وبينهم وأخرجني إلى مهاجري ووطني.

فبلغ فعله ذلك هشاماً فكتب إلى خالد أعزل فعزله ثم ولى هشام خراسان أشرس بن عبد الله السلمي وأمره أن يكاتب خالداً وكان أشرس فاضلاً خيراً وكانوا يسمونه الكامل لفضله، فلما قدم خراسان فرحوا به ولأول عهده أرسل إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك إلى الإسلام فكتب صاحب الخراج إلى أشرس إن الخراج قد انكسر فكتب أشرس سمرقند إن في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة إنما أسلموا تعوذاً من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه. كان رسول أشرس إلى الصغد بدعوة الإسلام أبا الصيداء صالح بن طريف فلما رأى العمال يطالبون من أسلم بالجزية منعهم من ذلك فلجوا ولج وكانت النتيجة أن عصى الصغد وأعانهم أبو الصيداء ومن كان معه فاحتال أمير جند أشرس على أبي الصيداء وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتى جيء بهم فحبسهم واستخف بعد ذلك بعظماء العجم والدهاقين فكفر أهل الصغد واستجاشوا الترك فأعانوهم. لما علم بذلك أشرس خرج غازيا في جنوده حتى عبر النهر من عند آهل فأقبل الصغد والترك وكانت بين الفريقين موقعة عظيمة كاد المسلمون ينهزمون فيها لولا أن رجعوا فثبتوا حتى هزموا عدوهم، ثم سار أشرس حتى نزل بيكند فقطع

العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشاً لولا أن انتدب شجعانهم إلى الترك فأزالوهم عن الماء واستقى الناس ثم غلبوهم على مواقعهم فأزالوا عنها وهزموهم. فذهب خاقان إلى المدينة كمرجة وهي من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخارى فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التي على الخندق واستماتوا في المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساعدهم على الدفاع نساؤهم وصبيانهم ولما رأى ذلك خاقان أرسل إلى من بالمدينة يقول لهم إنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها حتى نفتتحها فترحلوا أنتم عنها فقالوا له ليس من ديننا أن نعطي ما بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدالكم.

ثم اتفق معهم خاقان أخيراً على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كمرجة إلى سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وأخذ الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كمرجة إلى الدبوسيه ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين.

وفي سنة ١١١ عزل هشام أشرس بن عبد اللّٰه عن خراسان واستعمل بدله الجنيد بن عبد الرحمن المري فلما جاء خراسان فرق عماله ولم يستعمل إلا مضريا.

وفي سنة ١١٢ خرج غازيا يريد طارستان فوجه جندا عدده ثمانية عشر ألفاً إلى طخارستان وجندا عدده عشر آلاف إلى وجه آخر فكتب إليه أمير سمرقند أن خاقان ملك الترك جاش فخرجت إليهم فلم أطلق أن أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور النهر. فقال له ذوو الرأي ممن معه إن أمير خراسان لا يعبر النهر في أقل من خمسين ألفاً وأنت قد فرقت جندك، قال فكيف بسورة (أمير سمرقند) ومن المسلمين لو لم أكن إلا في بني مرة أو من طلع معي من الشام لعبرت ثم عبر فنزل كش وتأهب للمسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فسار الجند بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان في جمع عظيم وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة

والشاش وطائفة من الترك وهنا ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاء حسناً مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ولما اشتد القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد اللّٰه بن حبيب اختر إما تهلك أنت أو سورة بن الحر، قال هلاك سورة أهون علي قال فاكتب إليه فليأتك في أهل سمرقند فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجهوا إليه فقاتلوه فكتب الجنيد إلى سورة يأمره بالقدوم، فرحل سورة عن سمرقند في اثني عشر ألفاً فلما كان بينه وبين الجنود فرسخ واحد لقيهم فقاتلهم أشد قتال فانكشف الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فاتقدت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم إلا القليل وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فعزم على المسير إلى سمرقند فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الواقعة الأولى قد أضعفت من قوتهم فهزمهم المسلمون ومضى الجنيد فنزل سمرقند وحمل عيال من كان مع سورة إلى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ثم بلغه أن خاقان قصد بخارى فسار بالجنود من سمرقند محترساً على تعبيته فلقيته بالطريق جنود خاقان فهزمها. ولم يزل سائراً حتى ورد بخارى، والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم لهذا العدو الكثير العدد مع ما ظهر من خطأ الجنيد في تدبيره.

وفي سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خرسان وولى بدله عاصم بن عبد اللّٰه الهلالي وكان هشام قد غضب على الجنيد لأنه تزوج الفاضلة بنت يزيد المهلب فقال لعاصم إن أدركته وبه رمق فأزهق نفسه فجاء عاصم وقد مات الجنيد فأراحه اللّٰه من هذا الشر الذي صار عادة في هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد وعذبهم وفي عهده خرج عليه الحارث بن سريج لابساً السواد داعياً إلى كتاب اللّٰه وسنة نبيه والبيعة للرضا وتبعه خلق كثير فاستولى على البلخ والجوزجان ثم قصد مرو بها عاصم «فقابله على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده بشر كثير في أنهار مرو وفي النهر الأعظم وهرب الحارث.

لما رأى عاصم حال خراسان كتب إلى هشام بن عبد الملك يقول له (أما بعد) أَن الرائد لا يكذب أهله وإن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق وتكون مرادها ومعونتها في الأحداث والنوائب من قريب لتباعد من أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غيائه فعزل هشام عن خراسان وولاها أسد بن عبد اللّه القسري وجعلها من ضمن ولاية خالد. ولما بلغ عاصما إقبال أسد صالح الحارث بن سريج على أن ينزل الحارث أي كور خراسان شاء وأن يكتبا أميعاً إلى هشام يسألانه العمل بكتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ، فإن أبي اجتمعا عليه فختم الكتاب بعض الرؤساء وأبى آخرون، وقالوا هذا خلع لأمير المؤمنين فلم يتم أمر الصلح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث وعاصم انهزم الحارث هو وأصحابه ولما قدم أسد حبس عاصما وحاسبه وطلب منه مائة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد.

وعمل أسد في تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان في معسكرهم ثم رجع إلى بلخ وكانت قاعدة عمله، ثم إن خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغير بعضهم على بعض، وأرسل أسد إلى هشام بما فتح اللّه عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكراً.

وفي سنة ١١٩ غزا أسد الختل وغلب على قلعتهم العظمى وفرق العسكر في أودية الختل فملئوا أيديهم من الغنائم والسبى وهرب أهله إلى الصين وفي سنة ١٢٠ توفي أسد ببلخ وكان من خيره وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدهم شكيمة.

وفي هذه السنة عزل هشام بن خالداً القسري عن العراق لوشاية أثرت في نفسه وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي وكان عاملا على اليمن فسار حتى أتى الكوفة في جمادي الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أول عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على عمله ومشى على تلك السنة القبيحة المشئومة.

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوي الأخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ضابطاً لحشمه وأهله من الناس لين الكلام متواضعاً حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلي الصبح ولا يكلم أحداً حتى يصلي الضحى، ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفاً في ضرب الأبشار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمر ظفره عليه فإن تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله في الحمق نوادر كثيرة.

ولي خراسان نصر بن سيار ولاه هشام وأمره أن يكاتب يوسف بن عمر.

وفي ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن علي بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمرو وسوء تدبيره، وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سراً قيل ١٥ ألفاً وقيل أربعون وقد نصحه بعض بني عمه بعدم الخروج لأن أهل الكوفة لا يعتمد عليهم فلم يصغ. وبلغت الأخبار يوسف بن عمر وهو بالحيرة فتهيأ له ولما علم بذلك أهله جاءوا زيداً وقالوا له: ما قولك في أبي بكر وعمر قال رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يقول فيهما إلا خيراً وإن أشد ما أقول فيما ذكرتم أنا كنا أحق بتولي هذا الأمر منهم ومن الناس أجمعين لقرابتنا من رسول الله ﷺ، فدفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً وقد ولوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة قالوا فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم، فقال إن هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون ولكم ولأنفسهم وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنه نبيه ﷺ وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أجبتموها سعدتم وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل. ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الإمام يعنون محمداً الباقر وكان قد مات فسماهم زيد الرافضة. وفي الليلة التي كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأته أكثر من مائتي نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة لقلة عددهم وانتهى الأمر بقتل زيد ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه إلى هشام فصلب على باب دمشق. وإلى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن.

أما نصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ما وراء النهر كان له فيها النصر دائماً، ووضع الجزية عمن أسلم من العجم. وانتهت مدة هشام ويوسف بن عمر على العراق ونصر على خراسان.

في أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبد الله الحكمي وكان له غزوات إلى ما وراء بلنجر وفي سنة ١٠٧ عزله هشام وولى بدله مسلمة بن عبد الملك فأرسل مسلمة نائباً عنه وهو الحارث بن عمر الطائي فافتتح من بلاد الترك رستاقاً وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً وفي سنة ١١٠ سار مسلمة إلى الترك من باب اللان فلقي ملكهم في جموعه فاقتتلوا قريباً من شهر وكانت الهزيمة على الترك.

وفي سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الجزر من ناحية نفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالماً فجمعت الخزر جموعها واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معه بمرج أردبيل، وبذلك طمع الخزر في البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الوصل وعظم الخطب. فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيداً الحرشي وأتبعه بالجنود ولما وصل وأرزن فلول الجراح فأخبرهم معه حتى وصل إلى خلاط فافتتحها عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئاً بعد شيء إلى أن وصل برذعة فنزلها. كان ابن ملك الترك باذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة ورثان ولما بلغه وصول الحرشي رحل عنها فوصلها الحرشي وليس بها أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أسارى وسبايا فسار إليهم ليلا فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه في أربع جهات فكبسهم مع الفجر، فما بزغت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان ثم تجمعت الخزر مرة أخرى ولقيه الحرشي بجهة برزند واقتتلوا قتالا شديداً انهزم فيه الخزر هزيمة منكرة وعلى لجملة فإن الحرشي أذل الخزر إذلالا شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه.

وأرسل الحرشي بأخبار انتصاره إلى هشام فكتب إليه هشام يأمره بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانياً فسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاز البلاد في آثارهم وفتح مدائن وحصوناً ودان له من وراء بلنجر فاجتمعت تلك الأمم جميعاً الخزر وغيرهم عليه في جمع كثير، فلما علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة حتى وصل إلى الباب والأبواب في آخر رمق.

وفي سنة ١١٤ قدم على هشام مروان بن محمد فشكا إليه مسلمة وأنه لم يفعل شيئاً مع هذا العدو الشديد وطلب إليه أن يوليه أرمينية وأن يمده بمائة وعشرين ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فأجابه إلى ذلك هشام وعزل مسلمة وولى مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود إليه فدخل مروان بلاد الخزر وسار فيها حتى انتهى إلى آخرها وملك الخزر ينفض بجموعه أمامه ذليلا فأقام مروان في تلك البلاد أياماً ودخل بلاد السرير فأوقع بأهله وفتح أقلاها ودان له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد ما عليه مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم وكان مروان أن يلح على أهل تلك البلاد بإظهار القوة حتى لم يكونوا يحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفاً شديداً ودانت له جميع البلاد على شاطيء بحر الخزر.

في الشمال:

كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالي للبلاد الإسلامية ولتلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جد الإهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواتي والصوائف دائمة الحركة، وممن اشتهر بقيادة الجيوش في تلك الأصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولي أرمينية) ومسلمة بن عبد الملك ومعاوية بن هشام وسعيد بن هشام وسليمان بن هشام، وقد افتتحوا في غزواتهم بلداناً كثيرة رومية منها قونية وخرشنة وقيسارية وكثيراً من الحصون والقلاع.

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير على الروم من البحر وكان أمير البحر في عهد هشام عبد الرحمن بن معاوية بن خديج ومن أكبر القواد عبد اللّه بن عقبة.

ومما ينبغي ذكره في حروب الروم قتل عبد الوهاب بن بخت سنة ١١٣، وكان يغزو مع عبد اللّه البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت، أمن الجنة تفرون ثم تقدم في نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه، فقال تقدم الري أمامك فخالط القوم فقتل، وفي سنة ١٢٢ قتل عبد اللّه البطال وكان كثير الغزو إلى بلاد الروم والإغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفاً شديداً وسيره عبد الملك بن مروان مع ابنه مسلمة إلى بلاد الروم وأمره على رؤوس أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله على مقدمته وطلائعه وقال إنه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينه وبين الروم.

وإنما أشرنا إلى ذكر عبد الوهاب والبطال لأنهما بطلا رواية كبيرة ألفت في عصر لا نعلمه بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهمة والعامة يلفظونها (الدلهمة) وهي أم عبد الوهاب وقد كان في صغرنا نسمعها من بعض (المحدثين) ونتفكه بقراءتها واليوم لا نرى أحداً يقرأ منها شيئاً وخيالها سيرة الظاهر بيبرس فيظهر أنهما ألفا في عصر واحد.

في الحجاز:

كان والي الحجاز محمد بن هشام المخزومي خال عبد الملك بن مروان وفي سنة ١٠٦ حج هشام بن عبد الملك، ومما يروى عنه في حجه هذا لقيه سعيد بن عبد اللّه بن الوليد بن عثمان بن عفان فسار إلى جنبه يقول يا أمير المؤمنين إن اللّه لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون في هذه المواطن أبا تراب فإنها مواطن صالحة وأمير المؤمنين ينبغي له أن يلعنه فيها، فشق على هشام قوله وقال ما قدمنا لشتم أحد ولا للعنة، قدمنا حجاجاً ثم قطع كلامه وأقبل على أبي الزناد راوى هذا الحديث يسأله عن الحج ومناسكه.

لما دخل مكة كلمه إبراهيم بن محمد بن طلحة وهو في الحجر فقال له أسألك باللّه وبحرمة هذا البيت الذي خرجت معظماً له ألا رددت على ظلامتي قال أي ظلامة قال داري قال فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك قال ظلمني فالوليد وسليمان قال ظلماني قال فعمر، قال رحمه اللّه ردها علي قال فيزيد بن عبد الملك. قال ظلمني وقبضها مني من بعد قبضي لها وهي في يدك فقال هشام لو كان فيك ضرب لضربتك قال في واللّه ضرب بالسيف والسوط فانصرف هشام وهو يقول لا يزال في الناس بقايا ما رأيت مثل هذا.

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذي يقيم للناس حجهم إلا في سنة ١١٦ فإن الذي أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولي العهد وفي سنة ١٢٣ حج يزيد بن هشام بن عبد الملك.

ولم يحصل في الحجاز حوادث ولا ثورات في عهد هشام.

أما أمر مصر والمغرب فسنتكلم عليه إن شاء اللّه وحده في تاريخ مصر؛ هذا مجمل حال الأمة العربية في عهد هشام الذي طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاورها من الأعداء إلا أن الذي يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والربعية ومن عيوب الأمم الكبرى أن تكون شعباً جنسية فإن هذا مما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلا لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قوياً فإذا ضعف أثره قليلاً ونبض عرق التعصب الذميم فمن المؤكد أنه لا بقاء للأمة معه، وهكذا حال الأمة العربية بعد هذا العهد بقليل.

ولاية العهد:

كان ولي العهد بحسب وصية يزيد بن عبد الملك هو الوليد بن يزيد فبدا لهشام أن يعزله ويولي بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفلح وإن كان

قد أجابه بعض القواد إلى ما أراد وقد انتهى زمن هشام والوليد مباعد له نازل بالأزرق على ماء له بالأردن.

وفاة هشام:

لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفي هشام بن عبد الملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ إلى ربيع الأول سنة ١٢٥).

صفته:

كان هشام مشهوراً بالحلم والعفة، شتم مرة رجلاً من الأشراف فقال له الرجل أما تستحي أن تشتمني وأنت خليفة اللّه في الأرض. فاستحيا منه هشام وقال اقتص مني قال إن أنا سفيه مثلك قال فخذ مني عوضاً من المال قال ما كنت لأفعل، قال فهبها للّه، قال هي للّه ثم لك. فنكث هشام رأسه واستحيا وقال واللّه لا أعود لمثلها أبداً.

قال عبد اللّه بن علي بن عبد اللّه بن عباس جمعت دواوين بني أمية فلم أرد يوماً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض. والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة الميزانية التي بها يعرف ما يرد على الدولة وما يصرف. ولعل هذا هو الذي جعل الناس يصمونه بوصمة البخيل لأن ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفاً حتى يحبه الشعراء والكتاب ويشيدوا يذكره ومما يؤخذ عليه ما فعله مع الوليد بن يزيد فإنه أساء إليه كثيراً حتى ساء خلقه. ودعا القواد إلى خلع الوليد فأجابه كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجعلهم عرضة لإنتقام الوليد بعد موته.

١١ - الوليد الثاني

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت

محمد بن يوسف الثقفي كان والياً للعهد بعد هشام وكان مغاضباً له في حياته حتى خرج وأقام في البرية كما ذكرناه.

ولم يزل مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له فكان أول ما فعله أن كتب إلى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتي الرصافة فيحمي ما فيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه إلا مسلمة بن هشام فإنه كلم أباه في الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد وقد أثر عن الوليد في الشماتة بهشام فمن ذلك قوله:

هلك الأحول المشئوم وقد أرسل المطر
وملكنا من بعد ذا ك فقد أورق الشجر
فاشكر الله أنه زائد كل من شكر

وقوله: ليس هشام كان حياً فيرى محلبه الأوفر قد أترعا
ليت هشاماً عاش حتى يرى مكياله الأوفر قد طبعا
كلناه بالصاع الذي كاله وما ظلمناه به أصبعا
وما ألفنا ذاك عن بدعة أحله الفرقان لي أجمعا

كان مما يهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاماً عليه وهم كثير من سادة الأمة وأفراد البيت الأموي.

كان ممن أجاب هشاماً إلى خلع الوليد محمد وإبراهيم ابنا هشام بن اسماعيل المخزوميان فوجه الوليد إلى المدينة يوسف بن محمد الثقفي والياً عليها ودفع إليه محمداً وإبراهيم موثقين في عباءتين فقدم بهما المدينة فأقامهما للناس ثم حملا الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد أسألك بالقرابة. قال أي قرابة بيننا قال فقد نهى رسول الله ﷺ عن ضرب بسوط إلا في حد قال ففي حد أضربك وقود أنت أول ما فعل بالعرجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان (وكان محمد قد أخذه وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنه إلى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجي إياه) ثم أمر به الوليد فجلد هو وأخوه

إبراهيم ثم أوقفهما حديداً وأمر أن يبعث بهما إلى يوسف بن عمر وعو على العراق فلما قدم بهما عليه عذبهما حتى ماتا.

وأخذ سليمان بن عبد الملك فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين زوج بن الوليد وبين امرأته وحبس عدة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة من أفراد البيت المالك.

وكان خالد بن عبد الله القسرى سيداً من سادات اليمن فطلب إليه الوليد أن يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبى فغضب عليه الوليد وكان ذلك سبباً في أن أرسله إلى يوسف بن عمر الثقفي والي العراق فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمل في محمل بغير وطاء وعذبه عذاباً شديداً وهو لا يكلمه كلمة ثم حمله إلى الكوفة فعذبه عذاباً شديداً حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليه قضاعة وهم أكبر جند الشام.

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان أكثرهم فيه يزيد بن عبد الملك وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يظهر النسك.

بذلك كله نفرت من الوليد قلوب الخاصة والعامة وما سبب ذلك كله إلا شهوة الإنتقام التي لا يستقيم بها ملك ولا يكون معها صلاح وإذا كان الإنتقام يقبح بالناس فهو من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع. أتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة فاستشار في ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاه عن ذلك ولكنه لم ينته وبايعه الناس سراً وبعث دعاته فدعوا اليه الناس وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان وهو بآرمينية فكتب إلى سعيد بن عبد الملك يأمره أن ينهي الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الأمر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن العباس بن الوليد فاستدعى العباس يزيد وتهدده فكتمه يزيد الخبر فصدقه ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سراً وكان واليها عبد الملك بن محمد بن الحجاج

فاستولى يزيد على دمشق وجهز جيشاً لمقاتلة الوليد عليه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فذهب إليه وهو بالأغدف من أرض عمان فقاتله ولما أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأغلق عليه بابه وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان فصعدوا على الحائط ودخلوا عليه فقتلوه وحزوا رأسه وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على رمح وطيف به في دمشق.

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادي الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر. وبقتله افتتح باب الشؤم على بني أمية.

١٢ - يزيد الثالث

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن جرد بن شهريار بن كسرى وفي ذلك يقول:

أنا ابن كسرى وأبي مروان　　　وقيصر جدى وجدى خاقان

بويع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادي الآخرة سنة ١٣٦، وكان يسمى يزيد الناقص، قيل لأنه نقص من أعطيات الناس ما زاده الوليد بن يزيد وردها إلى ما كانت عليه زمن هشام. وكانت ولاية يزيد فاتحة اضطراب في البيت الأموي ومبدأ انحلاله وذهاب سعادته.

وأول ما كان من الإضطرابات بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد ممن قتله وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين ونابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان بن عبد الله بن عبد الملك وكان عاملا للوليد على حمص وهو من سادة بني مروان نبلا وكرماً وعقلا وجمالا؛ فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل إليهم رسلا فيهم يعقوب بن هانىء وكتب إليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه وإنما يدعو إلى الشورى فلم يرضى بذلك أهل حمص وطردوا رسل يزيد وحينئذ جهز لهم جيشاً عليه سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتى نزل حوارين.

كان أهل حمص يريدون الذهاب إلى دمشق فأشار عليهم مروان بن عبد الله أن يبدءوا بقتال هذا الجيش فاتهموه فقتلوه هو وابنه وولوا أبا محمد السقباني وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا إلى دمشق فسار سليمان مجداً في أثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جندا آخر يقدمه عبد العزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حمص فهزموهم وقتلوا منهم عدداً عظيماً ولما رأوا ذلك دانوا ليزيد وبايعوه وكما فعل أهل حمص فعل أهل فلسطين فإنهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكذلك فعل أهل الأردن وولوا محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل فلسطين على قتال يزيد بن عبد الملك فسير إليهم يزيد سليمان بن هشام في أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السقباني وكانت عدتهم أربعة وثمانين ألفاً ولم تتم لأهل فلسطبن والأردن لأنهم اختلفوا فتفرق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد.

وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الأمر على أشد من ذلك بالعراق والمشرق فإن يزيد ولى العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر فذهب منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان فامتنع نصر بن سيار من تسليم عمله إلى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم، فقام في وجهه رجل من كبار اليمن هو جديع بن علي الأزدي المعنى ويلقب بالكرماني لأنه ولد بكرمان وقام معه اليمانية يريدون إفساد الأمر على نصر فقامت النزارية مع نصر عصبية له وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظيمين من العرب وهما اليمانية والنزارية، فاستحضر نصر الكرماني وحبسه فاحتالت الأزد حتى أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب وكادت تقع بينهما لولا أن سعى الناس للصلح بينهما ولكنه صلح على فساد لأن كلا منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئاً لدعاة بني العباس، ولم يكن عند ولاة الأمر من بني أمية بالشام ما يمكنهم من سد هذه الثلمة التي أثاروها على أنفسهم بهذا الإنشقاق المؤذن بالإنحلال.

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فإنه توفي لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً من استخلافه. وكان قد عهد بالولاية من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن عبد الملك. فلما توفي يزيد قام بالأمر من بعده أخوه إبراهيم غير أنه لم يتم له الأمر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما.

وسبب ذلك أن مروان بن محمد بن مروان والي الجزيرة وأرمينية لم يرضى ولاية إبراهيم فسار إلى الشام في جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص ولما وصل عين الحر قابلته جنود أرسلت لحربه من قبل إبراهيم بن الوليد فانتصر عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتى أتى دمشق فاستولى عليها وبايعه أهلها وهرب إبراهيم بن الوليد فأمنه مروان ولعدم تمام الأمر لإبراهيم لم يعده المؤرخون من الخلفاء.

١٣ ـ مروان الثاني

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لابراهيم بن الأشتر فأخذها محمد بن مروان يوم قتل إبراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة وكان والياً على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجعدي لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدرة وغير ذلك. وبويع بالخلافة في دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧.

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والإضطرابات منذ بويع إلى أن قتل.

وأول ما كان من ذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة داعياً إلى نفسه وكان معه من الشيعة عدد عظيم جداً وكان والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فجد في حربه، وكانت

العامة تميل إليه لمحبتهم لأبيه فساعد ذلك على أن غلب عبد الله بن معاوية ونفاه عن العراق.

ثم كان بالشام أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالي على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتفض عليه أهل حمص، وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة. ثم خالف عليه أهل الغوطة فحاربهم وانتصر عليهم. ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم؛ ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك فإنه قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له أنت أوضأ عند الناس من مروان وأولى بالخلافة. فأجابهم إلى ذلك وسار باخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسياد فأقبل إليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قنسرين وكانت النتيجة أن أنهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عدداً عظيماً فقتلهم ويقال إنه أحصيت القتلى من جند سليمان يومئذ فبلغت ثلاثين ألفاً ومضى سليمان في هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليه الفلول فقصده مروان، وفي الطريق قابلته جنود سليمان فانهزموا، ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار إلى تدمر فأقام بها، وأما مروان فأتى حمص واستولى عليها. فأنتم ترون أن القوة التي كان يرتكز عليها ملك بني أمية وهي جنود الشام قد انشقت انشقاقاً محزناً تبعاً لانشقاق البيت المالك وهذا أعظم ما يساعد العدو الذي يعرف كيف ينتهز الفرص.

لم تقف الإضطرابات عند هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لإظهار ما في أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيباني وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أمير ها عبد الله بن عبد العزيز فهرب عبد الله إلى واسط فتبعوه ولما اشتدت الحرب سلم عبد الله الأمر إلى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية وكذلك دخل في هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك للضحاك عاد إلى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان إذ ذاك محاصراً حمص فلما بلغه الخبر كتب إلى ابنه عبد الله وهو

خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير إلى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة، فسار إليها في سبعة آلاف فسار إليه الضحاك وحصره في نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مائة ألف ولما انتهى مروان من أمر حمص سار لمقابلة الضحاك فالتقى به في نواحي كفر توتا فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولى الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيبري أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جند مروان فانهزم القلب وفيه مروان ووصل الخيبرى إلى خيمته وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر قلة من مع الخيبرى ثار إليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان وقد جاز المعسكر بخمسة أجيال منهزماً فانصرف إلى عسكره ورد خيوله إلى مواقعها وبات ليلته في عسكره.

ولما علم الخوارج بقتل الخيبرى ولوا بدله شيبان بن عبد العزيز اليشكرى فأقام يقاتل مروان ولكنه لما رأى أن الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه إلى الموصل فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر.

في أثناء ذلك سير مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق بالجنود فأجلى الخوارج عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جنداً لمساعدة مروان فلما علم شيبان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان في أثره جنداً وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال فإن قاتله شيبان قاتله فلم يزل يتبعه حتى لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكرة فمضى شيبان إلى سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠ .

ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الأزدي الشهير بأبي حمزة وكان يوافي الموسم كل سنة يدعو إلى خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافى عبد الله بن يحيى في آخر سنة ١٢٨ فقال يا رجل اسمع كلاماً حسناً آراك تدعو إلى حق فانطلق معي فإني رجل مطاع في قومي فخرج حتى ورد حضر موت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان.

وبينما الناس بعرفة سنة ١٢٩ إذا طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤوس الرماح وهم سبعمائة ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا نحن بحجنا أضن وعليه أشح فصالحهم على أنهم جميعاً آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير.

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الأول نفر عبد الواحد فيه وخلى مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البحث وزادهم في العطاء عشرة واستعمل عليه عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان فمضوا حتى إذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبي حمزة فأوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقين من صفر سنة ١٣٠ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حرباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً بطراً ولا عبثاً ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا ولكنا لما رأينا مصابيح الحق عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعي الله ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾[1] أقبلنا من قبائل شتى النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافاً واحداً قليلون مستضعفون في الأرض فقوانا وأيدينا بنصره فأصبحنا والله جميعاً بنعمته إخواناً ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي ثم أقبلوا يهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه، وأقبل الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذي

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣٢.

رونق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون، وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحقكم اللّه عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين. يا أهل المدينة أولكم خير لكم وآخركم شر آخر. يا أهل المدينة الناس منا ونحن منهم إلا مشركاً أو عابد وثن أو مشرك أهل الكتاب أو إماماً جائراً. يا أهل المدينة من زعم أن اللّه عز وجل كلف نفساً فوق طاقتها أو سآلها ما لم يؤتها فهو للّه عز وجل عدو ولنا حرب. يا أهل المدينة أخبروني ثمانية أسهم فرضها اللّه عز جل في كتابه على القرى والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولاية ولا سهم واحد فأخذها لنفسه مكابراً لربه. يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة، ويلكم أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول اللّه ﷺ إلا شباباً أحداثاً. شباب واللّه مكتهلون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم قد باعوا اللّه عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيامهم نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بآية شوق شهقوا شوقاً إلى الجنة فلما نظروا إلى السيوف، قد انتصبت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد فوقت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت واستخفوا وعيد الكتيبة لوعيد اللّه عز وجل ولم يستخفوا لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف اللّه عز وجل وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها. أقول قولي هذا واستغفر اللّه من تقصيرنا (وما توفيقي إلا باللّه عليه توكلت وإليه أنيب).

ثم إن أبا حمزة ودع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي وأمره أن يجد في السير ويقاتل الخوارج فإذا ظفر بهم سار حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد اللّه بن يحيى فسار ابن عطية حتى لقي أبا حمزة بوادي القرى فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار إلى المدينة فأقام بها شهراً وبعد ذلك سار

إلى اليمن وبلغ عبد الله بن يحيى مسيره إليه وهو بصنعاء فأقبل إليه بمن معه ولما التقيا قتل عبد الله وحمل رأسه إلى الشام.

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان وما كان يجري فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعة بني العباس ورئيسهم المقدام أبي مسلم الخراساني على أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضا من بني العباس ثم مدوا سلطانهم إلى العراق فاستولوا عليه من عمال بني أمية (وسنفصل حديثهم وما كان منهم حينما نشغل بتاريخ الدولة العباسية).

وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ بويع بالكوفة لأبي العباس السفاح أول الدولة العباسية. وبعد أن تم له الأمر بالعراق فكر في إرسال الجند لمروان حتى يقضي عليه القضاء الأخير، فاختار عمه عبد الله بن علي قائداً لذلك الجند حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادي الآخرة سنة ١٣٢ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل ممن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادي الآخرة وصار مروان ينتقل من بلد إلى آخر وعبد الله بن علي يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبد الله في أثره أخاه صالح بن علي فلم يزل وراءه حتى عثر به نازلا في كنيسة بقرية بوصير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الأموية وابتدأ عصر الخلافة العباسية **﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾**.[1]

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

اسمه زينب

مهمة

عاجلة

معظم الملك والجهة
سعادة الحجب وعظمته

سعادة المدير
مستشار

المحامين المعاصرين

واحد

٧٠٠

عن الشرف

في مدنية الاسلام

في عهد الدولة الأموية وأسباب سقوطها

الخلافة الاسلامية:

ليست الخلافة في عهد الدولة الأموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصدهم عنه باب وجد في العهد الأموي الحجاب والمقاصير في المساجد الجامعة وبعد أن كان عمر بن الخطاب يقول على منبر رسول الله ﷺ من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه قال عبد الملك بن مروان في خطبته بعد قتل ابن الزبير ولا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كأحدهم في الأسواق والمجامع يأمر وينهي ويربي ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوي حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة فيه وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا جلال سنة واحترام الأمير عمر بن عبد العزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نرى الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها وننشد للوليد بن يزيد بن عبد الملك حينما جاءه نعي عمه هشام بن عبد الملك.

طاب يومي ولذ شرب السلافة   وأتانا نعي من بالرصافة
وأتانا البريد ينعي هشاما   وأتانا بخاتم للخلافة

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتزيء أحدهم بأقل ما يجتزيء به الضعفاء من رعيتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافا لا

عليه ولا له صرنا نرى بني مروان قد انغمسوا في الترف فاختيرت لهم الألوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الأغاني من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة في هذه الدولة قد انحصرت في بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولي عهده من أهل بيته إما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن الملك العقيم وبعد أن كانت الأمة تساس بوازع الدين وأثره في النفس رأيناها تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبد الملك يقول للناس تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر، أو تسيرون أنتم بسيرة الناس في عهد أبي بكر وعمر؟ فكأنه يعتذر لهم عن قسوته في معاملتهم بأنهم هم الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الأخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة له:

هم بدلوا الحكم الذي في سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

وإذا كنا على رأي من يقول إن الأمة هي التي تخلق ملوكها (وهو قول حق) ظهر لنا صدق عبد الملك ويزيد فيما قالاه.

وعلى الجملة فإن مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها كما أن الترف قد لحقها في آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لانحصار الخلافة في بيت واحد.

الانتخاب والبيعة

جرى خلفاء بني أمية على اختيار أولياء العهد في حياتهم فكلهم كان مختاراً من سلفه ما عدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد فإن أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الأمر واجتمعت عليه الكلمة، ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثاني فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبني أمية على يد ابنه عبد

الملك ويزيد الثالث خرج على ابن عمه الوليد بن يزيد الثاني حتى قتله وحل محله. ومروان بن محمد دعا إلى نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل في أخذ ورد حتى دالت دولتهم على يده.

أما من عدا هؤلاء الأربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الأول اختاره أبوه معاوية. ومعاوية الثاني اختاره يزيد، وعبد الملك اختاره أبوه مروان، والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبد الملك وعمر ويزيد اختارهما سليمان: الأول ابن عمه والثاني أخوه وهشام والوليد الثاني اختارهما يزيد: الأول أخوه، والثاني ابنه.

ولم يحصل في بني عهد أمية أن اختار أحدهم واحداً لولاية عهده بل كانوا دائماً يختارون من يلي عهدهم ومن بعده وهذه من أغلاطهم التي جربوا سوء نتائجها ولم يرعووا عنها فكانت سبباً مهماً من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتي توضيحه.

وكانوا يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهودهم فإذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيداً للعهد والميثاق وأول من يبايع أمراء البيت الأموي ثم يليهم القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت إمرتهم وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقد شذوا أحياناً عن نص هذه البيعة إذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المري البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم في أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة بن الأشعث لا يبايع إلا من أقر على نفسه بالكفر بخروجه.

إدارة البلاد:

كانت البلاد إسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم.

وكانت مقسمة إلى إمارات كبرى وهي:

١ ـ الحجاز: وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقيم الأمير بالمدينة وكان يضاف إلى ذلك أحياناً بلاد اليمن وأحياناً تكون مستقلة بأمير.

٢ ـ العراق: وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان، والأمير يقيم في الكوفة بعض السنة وفي البصرة بعضها، وكانت خراسان تستقل أحياناً بأمير يخاطب الخليفة رأساً وقد يضاف أحياناً إلى إمارة العراق بلاد اليمامة.

٣ ـ الجزيرة وأرمينية: وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية.

٤ ـ أجناد الشام: كانت خمسة وهي: فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين، وكانت قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص، حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج جنداً برأسه، وإنما سمى كل منها جنداً، لأنه يجمع كوراً، والتجند التجمع، وقيل سميت كل ناحية بجند لأنهم كانوا يقبضون أعطياتهم فيه، والأقرب أن هذا هو أصل التسمية.

٥ ـ مصر وإفريقية وتنتظم بلاد مصر وشمال أفريقيا، وكانت أفريقية في بعض الأحيان تستقل بوال عن مصر.

٦ ـ بلاد الأندلس بعد فتحها تارة كانت تضم إلى أفريقية.

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التي هي في حدود إمارته وكانت الأعمال التي ترجع إلى الخلفاء هي:

١ ـ إقامة الصلاة.

٢ ـ قيادة الجيش.

٣ ـ جباية الخراج والصدقات ووضع ذلك مواضعه.

٤ ـ القضاء بين الناس في منازعاتهم وقد كان الأمير يقوم مقام الخليفة أحياناً في جميع ذلك ويقيم للمسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جابياً للخراج فيصرف منه حاجات الإمارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى إلى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين

الناس. وتارة كانوا يقصرون الولاة على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملاً للخراج يرجع إليه رأساً.

والأمراء الذين كانت إليهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى في العرف الحاضر بالاستقلال الإداري فكانوا يتصرفون في كل شيء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الأمور العظيمة وأظهر ما كان هذا الاستقلال في بلاد العراق في عهد زياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري إلا أن الحجاج كان أكثرهم استقلالاً للثقة التي حازها عند عبد الملك وابنه الوليد.

كانت المشاكل تحل والمنازعات تقضي في حواضر الإمارات إلا أنه لا مانع يمنع ذا ظلامة من أن يرفع أمره إلى الخليفة وقد ترفع عنه ظلامته. وقد ضيق على الأمراء عمر بن عبد العزيز بعض التضييق لأن ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم أن لا ينفذوا حداً من الحدود من قتل أو قطع إلا إذا عرض عليه وأمر بتنفيذه. ، أما في عهد غيره فكان الأمراء يفعلون ما فوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يأمر بقتل الرجال على أيسر الذنوب ويضربه الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه لا من الخليفة ولا من الناس.

والذي دعا إلى تمتع الأمراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات فلو ألزم الأمير أن يستشير في كل ما يقع في دائرة ولايته لطال عليهم الزمن، وبقيت المشاكل من غير حل زمناً طويلاً وهذا مسبب للاضطراب الكثير.

ومن أعظم ما يؤخذ على بني أمية في النصف الثاني من أيام خلافتهم إذلال الأمراء ومصادرتهم في أموالهم وأحياناً الإتيان على أنفسهم بعد أن يعزلوا. وقد ابتدأ هذا في عهد سليمان بن عبد الملك فإنه أذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد أن مهدوا لهم السبل، ووطئوا لهم المنابر، واستمر

الأمـر على ذلـك من بعد عمـر بن عبد العـزيز إلى أن انتهى أمـرهم، وقد كـان هذا سبباً من أسباب فناء البيت الأمـوي. ومن أغرب مـا حصل لهم أن يـوسف بن عمر الثقفي الذي ولي العـراق بعد خـالد بن عبـد الله القسري اشتـرى من الوليد بن يزيد خالداً وعماله بخمسين ألف ألـف فدفعـه إليه فنـزع ثيابـه وألبسه عباءة وحمله في محمل بغـير وطاء وعـذبه عـذاباً شـديداً وهـو لا يكلمه كلمـة ثم حمله إلى الكـوفة فعـذبه ووضـع المضرسـة على صـدره فقتله في الليل ودفنـه من وقتـه بالحيـرة في عباءتـه التي كان فيهـا وذلك بعـد أن ولي خـالـد العـراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا سيد من سادات اليمن وعظيم عظمائهم.

قيادة الجنود:

تمتـاز هذه الـدولة بـأن عصرهـا كله كان زمن فتـح. ففيه اتسعت حـدود المملكـة الإسلاميـة من الجهة الشـرقيـة في السنـد والصغـد وبـلاد التـرك. ومن الجهة الشمالية في أذربيجان وأرمينية وبلاد الـروم ومن الجهة الغـربية في أفـريقية والأندلس.

وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام حيناً مع الخـوارج وحيناً مع طلاب الخـلافة من بني عـلي ولم يخل عصر خليفـة أموي من حـروب داخلية إلا عصر الـوليد بن عبـد الملك وعمر بن عبـد العزيـز. فهي إذاً دولة حـربيـة. ولا جرم أن امتاز فيها أفراد كثيـرون بقيادة الجنـود إلى حومـة الوغى، واشتهـروا بـالثبـات ومضـاء العـزيمـة وحسن التـدبـير في الحـروب وهـا نحن نـورد على أسماعكم جملة من أولئك الأفراد العظام الذي مر ذكرهم.

ممن اشتهر بالشرق

١ ـ المهلب بن أبي صفـرة الأزدي وكـان علمـه تـامـاً بمكيـدة الحـرب والاحتراس من غوائلها واشتهر في حروبه مع الخوارج ببـلاد فارس ولـه حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بمحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات.

٢ ـ قتيبـة بن مسلم البـاهـلي وكـان شجـاعـاً مقـدامـاً لا يـرده شيء عن

قصده، واشتهر بحروبه بما وراء النهر فإنه دوخ تلك البلاد وأذل أهلها، وقد أخذ عليه خلعه لسليمان بن عبد الملك عقب خلافته، وكان ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته، وفقد الدولة صالح خدمتهم.

٣ ـ يزيد بن المهلب أبي صفرة الأزدي وكان شجاعاً لا يخطر له الفرار على بال واشتهر بحروبه في جرجان وطبرستان فإنه رد أهلها إلى الطاعة بعد غدرهم وقطعهم الطريق ـ طريق خراسان ـ وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه خلعة ليزيد بن عبد الملك عقب خلافته، وكان ذلك سبباً لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين كانوا غرة جبين الدولة الأموية.

٤ ـ أسد بن عبد الله القسري اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه ملك العرب وهابوه هيبة لم يهابوها قائداً قبله وأخذ عليه عصبيته لقومه من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سبباً في فساد أهل خراسان واختلافهم.

٥ ـ محمد بن القاسم بن محمد الثقفي اشتهر بحروبه في بلاد السند على عهد الحجاج بن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الأمر بها حتى دانت له وقد قتل في أول خلافة سليمان بن عبد الملك واشتهر في أرمينية وأذربيجان.

٦ ـ محمد بن مروان بن الحكم الأموي كان شجاعاً أيدا وعزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبد الملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح في شمال أرمينية وأذربيجان.

٧ ـ مروان بن محمد بن مروان كان كأبيه بطلاً مقداماً سد ثغور أرمينية وأذربيجان وأبلى فيها البلاء الحسن.

٨ ـ الجرح بن عبد الله الحكمي، وقد قتل في بعض حروبه مع الخزر واشتهر في بلاد الروم.

٩ ـ مسلمة بن عبد الملك كان أشجع أولاد عبد الملك بن مروان غزا

القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيراً من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمه، ولم يكن بنو أمية في أول أمرهم يولون إلا أولاد الحرائر.

١٠ ـ أبو محمد عبد الله البطال كان رئيساً على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة.

١ ـ العباس بن الوليد بن عبد الملك كان يسامي مسلمة في نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيراً ما يقود الشواتي والصوائف إلى البلاد الرومية واشتهر في الغرب وأفريقية.

١٢ ـ عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر في معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل في إحدى تلك الوقائع.

١٣ و ١٤ ـ موسى بن نصير وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الأندلس وأدخلا الإسلام في قارة أوربا.

وهناك غيرهم من القواد، لكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لهؤلاء ولم تكن همة الدولة الإسلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم أسطول قوي في البحر الأبيض المتوسط يحمي البلاد الإسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم، وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلاً عما كانوا يغنمونه من مراكب الروم ولم يكن أمراء البحر في الدولة الأموية يقلون مهارة وإقداماً عن أمراء البحر الروميين، وعلى الجملة فإن الدولة الأموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الأمم التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب في جميع أدوارها وكانت السيادة في الجيوش للعنصر العربي لأن الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل ولذلك لم نر من بين قوادها أعجميا.

القضاء والاحكام:

لم يزل القضاء في عهد هذه الدولة على بساطته التي كان عليها في عهد

الخلفاء الراشدين إلا أن تناكر الخصوم أرشدهم إلى تسجيل الأحكام، قال محمد بن يوسف الكندي في «كتاب الذين ولوا مصر» ص ١٠ : اختصم إلى سليم بن عنز (قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان) في ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه، وأشهد فيه شيوخ الجند. قال: فكان أول القضاة بمصر سجل سجلاً بقضائه.

ولم يكن القضاة يتقيدون برأي في أحكامهم إذ لم تدون إذ ذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الأمر راجعاً إلى القضاة أنفسهم أو إلى ما يشير به المفتون من كبار المجتهدين في أمصارهم.

كان توبة بن نمر لا يملك شيئاً إلا وهبه ووصل به إخوانه وأفضل به عليهم. فلما ولي القضاء بمصر في عهد هشام بن عبد الملك كان يرى أن يحجر على السفيه والمبذر فرفع إليه غلام من حمير لا تحتوي يده شيئاً إلا وهبه وبذره فقال توبة: أرى أن أحجر عليك يا بني، قال: فمن يحجر عليك أيها القاضي؟ والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد. فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاة من الحرية في اختيار الآراء التي يقضون بها. وأحياناً يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم في الحوادث المختلفة إذا اشتبه عليهم الأمر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الأزدي قاض مصر من قبل عمر بن عبد العزيز إليه يسأله في أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران؛ فكتب إليه أن يجعلها للشريك وحده وقال فإذا وقعت الحدود بين أهل الشرك في الميراث أو غيره وضربت مداخل الناس التي يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة.

وبذلك كانت الأحكام تخالف بعضها بعضاً في الأمصار المختلفة لأن المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد، ولم تلتفت الدولة إلى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شيء يقضي به قضاتهم أو يحمل مجتهدي كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين، لم يفعلوا هذا ولا

ذاك، بل تركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه.

وكان يضاف إلى القضاة مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن بن معاوية بن خديج قاضي مصر من قبل عبد العزيز بن مروان، فإنه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتاباً وكان عنده. قال الكندي: فجرى الأمر على ذلك.

وكانوا يتولون الأحباس، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة ابن نمر في زمن هشام بن عبد الملك، وإنما كانت الأحباس في أيدي أهلها وفي أيدي أوصيائهم، فلما كان توبة قال: ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء والمساكين فأرى أن أضع يدي عليها حفظاً لها من التواء والتوارث. فلم يمت توبة حتى صار الأحباس ديواناً عظيماً وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول إنشاء ديوان الأوقاف بمصر.

كان اختيار القضاة يرجع غالباً إلى أمراء الأمصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحياناً كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضي حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأى في اختيارهم. ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم إلى مد الأيدي إلى السحت. رأيت أن عبد الرحمن بن مجيرة كان يتولى القضاة بمصر ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مئتي دينار ومن القصص مئتي دينار ورزقه في بيت المال مئتي دينار وكان عطاؤه مئتي دينار وكانت جائزته مئتي دينار، فكان يأخذ ألف دينار في السنة. ورأيت في الكندي أمراً بصرف مرتب قاض في عهد مروان الثاني هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبي عطاء إلى خزان بيت المال. اعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه أشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الأربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدماً.

الدواوين:

كانت الدواوين لعهد بني أمية ثلاثة:

١ ـ ديوان الجند.

٢ ـ ديوان الخراج.

٣ ـ ديوان الرسائل.

فأما ديوان الجند فإنه مذ وضع كان بالعربية؛ لأن عمر إنما كلف بوضعه تابعين من العرب وهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا كتاب قريش. وكان هذا الديوان يحصر جند كل إمارة وأعيانهم وكل ما يختص بهم فهو ديوان (الحربية).

وأما ديوان الخراج فإنه كان بالعراق باللغة الفارسية وببلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث لم يكن المسلمون قد مهروا بعد فيه فلما ولي الحجاج العراق كان رئيس الديوان في عهده زاذان فروخ واتفق أن انضم إلى الديوان صالح ابن عبد الرحمن وكان أبوه من سبى سجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية فخف على قلبه. شعر صالح بذلك فخاف من زاذان وقال له أنت الذي رقيتني حتى وصلت إلى الأمير وأراه قد استخفني ولا آمن أن يقدمني فتسقط منزلتك، فقال زاذان: لا تظن ذلك هو أحوج إلي مني إليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري فقال صالح: والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته، قال فحول منه أسطراً حتى أرى ففعل فقال له زاذان تمارض فتمارض. فبعث إليه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل زاذان في فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحاً فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان في نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه في إمضائه فنقله من الفارسية إلى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مئة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى عليهم وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول لله در صالح ما

VERZATCHY

أعظم منته على الكتاب وأما ديوان الشام فإن الذي نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوليد بن عبد الملك وكان الذي يليه في عهد معاوية سرجون بن منصور الرومي ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون.

وأما ديوان مصر فقد نقل في عهد عبد الله بن عبد الملك أمير مصر من قبل الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ه‍ووليه ابن يربوع الفزاري من حمص، هكذا نقلت هذه الدواوين الثلاثة إلى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة إلى الكتاب من الأمم الأخرى وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف أو هو ديوان (المالية) وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذي كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال في الإمارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً.

وكان عندهم ما يسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذي تختم فيه الكتب بعد أن تكتب، وكان الخلفاء يختارون من ثقاتهم والأمناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم خاتم الخلافة. وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين للخلفاء وممن اشتهر منهم عبد الحميد بن يحيى قال الطبري: وكان من البلاغة في مكان مكين ومما ختير له من الشعر:

ترحل ما ليس بالقافل	وأعقب ما ليس بالزائل
فلهفي على الخلف النازل	ولهفي على السلف الراحل
أبكي على ذا وأبكي لذا	بكاء مولهة ثاكل
تبكي من ابن لها قاطع	تبكي على ابن لها واصل
فليست تفتر عن عبرة	لها في الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبي	ورد التقى عن الباطل

السكة الاسلامية

قد بينا أن عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية

وشكلها بأعيانها غير أنه في بعضها الحمد لله، وفي بعضها محمد رسول الله وفي بعضها لا إله إلا الله إلى آخر مدة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل. وأن عثمان ضرب في خلافته دراهم نقشها الله أكبر.

قال المقريزي فلما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة قال يا أمير المؤمنين إن العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرية طلباً للاحسان إلى الرعية فلو جعلت أنت عياراً دون ذلك العيار ازدادت به الرعية مرفقة ومضت لك به السنة الصالحة، فضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطاً تنقص حبة أو حبتين وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليها فكانت تجري مجرى الدراهم وضرب معاوية أيضاً دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً.

فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أول من ضرب الدراهم المستديرة وكان ما ضرب منها قبل ذلك ممسوحاً غليظاً قصيراً فدورها عبد الله ونقش على أحد وجهي الدرهم محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاها الناس في العطاء.

فلما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدرهم في سنة ٧٦ فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة بالشامي وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطاً سوى والقيراط أربع حبات كل دانق قيراطان ونصف، وكتب إلى الحجاج وهو بالعراق أن أضربها قبلك فضربها وقدمت مدينة رسول الله ﷺ وبها بقية الصحابة رضي الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فإن فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشتري ولا يعيب من أمرها شيئاً وجعل عبد الملك الذهب الذي ضربه دنانير على المثقال

الشامي وهي الميالة الوازنة كل مائة دينارين أي أن النسبة بين المثقالين كالنسبة بين ١٠٠ و ١٠٢.

ثم قال: وكان الذي ضرب الدراهم رجلاً يهودياً من تيماء يقال له (سمير) فسميت الدراهم إذ ذاك السميرية. وبعث عبد الملك بالسكه إلى الحجاج فسيرها الحجاج إلى الآفاق لتضرب وقيل لها الدراهم بها وتقدم إلى الأمصار كلها أن يكتب إليه منها في كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كي يحصيه عندهم وأن تضرب الدراهم في الآفاق على السكة الإسلامية وتحمل إليه أولاً فأولاً، وقدر في كل مائة درهم عن ثمن الحطب وأجر الضراب ونقش على أحد وجهي الدرهم **﴿قل هو الله أحد﴾**[1] وعلى الآخر لا إله إلا الله وطوق الدرهم على وجهيه بطوق وكتب في الطوق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفي الطوق الآخر محمد رسول الله **﴿أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾**[2].

ثم قال: وكان الذي دعا عبد الملك إلى ذلك أنه نظر للأمة وقال هذه الدراهم السوداء والوافية والطبرية والعتق تبقى مع الدهر. وقد جاء في الزكاة أن في كل مئتين أو في كل خمسة أواق خمسة دراهم وأشفق أن جعلتها كلها على مكان السور العظام مئتين عدداً أن يكون قد نقص من الزكاة وأن عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المعنى على أنها إذا بلغت مئتين عدداً وجبت الزكاة فيها، فإن فيه حيفاً وشططا على أرباب الأموال فاخذ منزلة بين منزلتين يجتمع فيها كمال الزكاة من غير بخس ولا إضرار بالناس مع موافقة ما سنه رسول الله ﷺ وحده من ذلك. وكان الناس قبل عبد الملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار، فلما اجتمعوا مع عبد الملك على ما عزم عليه عهد إلى درهم واف فوزنه فإذا هو ثمانية دوانيق وإلى درهم من الصغار فإذا هو أربعة دوانيق فجمعها وكمل زيادة الأكبر على نقص الأصغر. وجعلها

---

(١) سورة الصمد:

(٢) سورة الصف: الآية ٩.

درهمين متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى، واعتبر المثقال أيضاً فإذا هو لم يبرح في آباد الدهر موافي محدوداً كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فإنها سبعة مثاقيل سوى فأقر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره.

ثم قال وما عبد الملك والأمر على ما تقدم فلم يزل من بعده في خلافة الوليد ثم سليمان ثم عمر إلى أن استخلف يزيد بن عبد الملك فضرب الهبيرية بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبد الملك وكان جموعاً للمال أمر خالد بن عبد الله القسري في سنة ١٠٦ أن يعيد العيار إلى وزن سبعة وأن يبطل السكك من كل بلد إلا واسطاً فضرب الدراهم بواسط فقط وكبر السكة فضربت الدراهم على السكة الخالدية حتى عزل خالد سنة ١٢٠ وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفي فصغر السكة وأجراها على وزن ستة وضربها بواسط وحدها فلما استخلف مروان ابن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بحران إلى أن قتل.

وقد نقل المرحوم علي مبارك باشا في الجزء الأخير من خططه توضيحات نافعة في أمر الدرهم والدينار في الدول الإسلامية. وأتبعها بجدول يعرف منه وزن الدراهم والدنانير في الأزمنة المختلفة، وحقق أن المثقال والدينار ليسا مترادفين وأن المثقال سدس الأوقية والأوقية المصرية الرومانية التي يغلب على الظن أن العرب اعتبرتها قدرها ٢٨,٣٢ جراماً فسدسها الذي هو المثقال ٤,٧ جرام وهناك مثقال آخر يقل عن هذا شيئاً يسيراً إذ أن وزنه ٤,٦٩ وأن الدينار كان وزنه ٤,٣٥٠.

ومن الجدول الذي ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوي وزن القطعة ذات قرشين تقريباً لأن وزنه ٣,٥٠ جرامات وكان الدرهم في عهد عبد الملك يتراوح وزنه بين ٢,٩٤ ج وبين ٢,٧٠ ج وأن وزن الدينار كان يساوي في الوزن نصف الجنيه الانكليزي لأن وزنه ٤,٢٥ وقد كان وزن الدينار في عهد عبد الملك يتراوح بين ٤,٦٤ ج وبين ٤,٢٢.

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان في ضربه نقوداً إسلامية لأن

هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المالي وما كان يصح لمثل الدولة الأموية مع اتساع سلطانها أن تبقى عالة على الروم والفرس في الدرهم والدينار.

أسباب السقوط:

استولى البيت الأموي على خلافة المسلمين بالقوة والغلبة لا عن رضا ومشورة فإن معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم له الأمر ورضي الناس عنه والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته. كان في الأمة العربية فريقان عظيمان لا يرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بني هاشم الأولون ذوو إقدام وبسالة ألداء لا يقف في أوجههم عما آرادوا شيء إلا أن يكون الفناء والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة إلى رسول الله ﷺ وبيت هذا شأنه لا يصفو له الملك إلا إذا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التي تشايعه والتي سلت سيوفها لنصرته فإذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ما تهب تلك القلوب من مكامنها فإن صادفت قوة عادت بالفشا وانتظرت فرصة أخرى وإن صادفت شمل خصمها متفرقاً قهرته وقضت عليه.

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ما ألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم، فكان يغضي عن الزلات ويعفو عن السيئات، يسمع كلمة السوء توجه إليه فيحملها على أحسن محاملها ويجعل من الجد مزحاً ومن العداء تقرباً، ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذي يذلل النفوس الجامحة، ويقرب القلوب النافرة، إلا أنه زل زلة كبرى قللت من قيمة عمله وهي اهتمامه بالغض من علي بن أبي طالب على منابر الأمصار، فكان هو وأمراؤه يفعلون ذلك حتى جعل النيران تتأجج في صدور شيعته، وكان كثير منهم يظهر بعد ذلك امتعاضاً وربما رد الجريء منهم الأمير

وجهاً لوجه فيكون من وراء ذلك إسراف في العقوبة يزيد الأمر شراً كما حصل من زيادة في أمر حجر الكندي.

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الأموي كانوا في حاجة لتأييد سلطانهم إلى ما لا يحتاج إليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيراً فظهرت لهم جملة عيوب كانت سبباً في القضاء عليهم وهي:

أولاً: ولاية العهد:

كانت ولاية العهد سبباً كبيراً في انشقاق البيت الأموي، وذلك أن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلي أحدهما الآخر. وأول من فعل ذلك مروان فإنه ولى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز فكاد عبد الملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده إلى ابنه الوليد وعزل أخيه لولا أن ساعده القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة ولكنه هو الذي رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان. خطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولي ابنه فعالجه القضاء وأخر الأمر إلى حين. لم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك ولم يكن عمر يميل إلى يزيد فخيف منه فعوجل حتى قيل إنه سُمّ أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشاماً أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد، وكان كثير من كبار القواد وذوي الكلمة المسموعة في الدولة الأموية صرحوا بممالأة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأى فجاء الوليد مشمراً عن ساعد الجد في الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول في إشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فإن البيت انشق وتجزأت القوى التي كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخمدت منهم الأنفاس وجعلتهم أثراً بعد عين.

ثانياً - إحياء العصبية الجاهلية. التي جاء الإسلام معفياً لأثرها ومشدداً

في النعي عليها لأنه رأى أن حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضعف قواهم في جاهليتهم.

وقد نبض عرقها في أول الدولة المروانية فإن وقعة مرج راهط التي تلاها قيام مروان بالأمر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التي كانت تشايع الضحاك وكلب التي كانت تشايع مروان يقدمها حسان بن مجدل الكلبي، وقال في ذلك مروان:

لما رأيت الأمر أمراً نهبا ... يسرت غسان لهم وكلبا
والسكين رجالا غلبا ... وطيئاً تأباه إلا ضربا
والقين تمشي في الحديد نكباً ... ومن تنوح مشمخراً صعباً
لا يأخذ الملك إلا غصباً ... وإن دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذي أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار بن عبيد الثقفي كاد يستأصل فإن عمر بن الحباب السلمي كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادى يا لثارات قتلى المرج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله وكثير من جند الشام، في الوقت الذي نبض فيه عرق العصبية الجاهلية بين قيس واليمن في الشام وكان ما هو أشد من خراسان، فإن مسلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبي صفرة وهو أزدي والأزد من اليمن فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلاً من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة فلما وصل نيسابور لقيه عبيد الله بن خازم فقال من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت في المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن أكتب لي عهداً على خراسان فكتب له فسار ابن خازم إلى مرو وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا إلى أوس بن ثعلبة بهراة وقالوا له نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان

فبايعهم على ذلك وسار إليهم ابن خازم واقتتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا جفاهم قتلاً ذريعاً ثم عاد ابن خازم إلى مرو.

وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم لأنهم من مضر، فلما صفت له خراسان جفاهم فتنكروا له، وكانت بينهم مواقع.

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساماً أربعة: اليمن وربيعة وقيس عيلان وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الأخيران مضر.

كانت الأمراء تساعد على إنماء هذه الروح الخبيثة فإذا ولي يماني رفع رؤس أهل اليمن واستعملهم عمالاً على الأمصار، فإذا تلاه مضري عكس الأمر وانتقم من سلفه ومن عماله.

ولم يكن ذلك العراق يسكن إلا إذا كانت حروب خارجية مع الصغد والترك فهناك تجتمع كلمتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم، فإذا عادوا عاد الفساد وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الأموي للذين يطالبونه بما في يده مما ليس له فإن أبا مسلم الخراساني اتكأ على ذلك فضرب كل شعب بالآخر حتى تم له الظفر بجميعهم ولا ننسى أن لشعراء العرب الذي نبغوا في هذه الدولة يداً كبرى في إنماء هذه العصبية، فمن قرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة يتجلى له ذلك، لا شيء أضر على الأمم من أن تنقسم طوائف فتنتمي إلى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها فإذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فإن الكلمة تحق على الأمة ويقرب منها الفناء فإن الجهل يجعل روح العصبية موجهة إلى معاكسة المخالفين فتكون الأمة قوى متنافرة لا قبل لها بمن ينازعها بقاءها. لم ينتج من إنماء العصبية الجاهلية في قلب الأمة العربية ذهاب البيت الأموي وحده بل كان من ذلك ضعف الأمة العربية نفسها وتغلب الأعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان في عهد الدولة العباسية مما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

ثالثاً ـ تحكيم بعض الخلفاء من بني أمية أهواءهم في أمر قوادهم وذوي

الأثـر الصـالـح من شجعـان دولتهم وهـذا السبب متفـرع عن السبب الأول والثاني، فإن سليمـان بن عبد الملك لما ولي بعد أن كـان الوليـد يريـد إخراجـه من ولايـة العهد عمـد إلى كل من كـان هواه مـع الوليـد فـأذلهم وحـرم نفسـه وأمتـه من الانتفاع بتجـاربهم فقد أهلك عـلى بن القاسم وقتيبـة بن مسلم وهمـا قـائدان عـظيمان من قيس بن عيـلان ولا ذنب لهما إلا أنهما من صنـائع الحجـاج الذي كان هواه مع الـوليد ولا يميـل إلى سليمان ولما جاء يـزيد بن عبـد الملك

كان هواه مـع الوليـد ولا يميل إلى سليمـان. ولما جـاء يزيـد بن عبد الملك كـان هواه مع آل الحجاج لأنه صهـرهم وكان يـزيد بن الملهب قـد عذب آل الحجـاج فخـاف وهلع وكانت نتيجـة ذلك أن فقـدت الدولـة بيت المهلب ابن أبي صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطـالما كـان له أعـظم الآثار في خـدمة بني أميـة والأمة الإسلامية وكان بعد هـذا شيء كثير ففسـدت قلوب الناس حتى كـانوا ينتـظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بني أمية ومن يؤازرهم.

الأمـة التي ينتقم خلفها من عمـال السلف لأنهم كـانـوا عـلى وفـاق معـه تفقد صالح الأعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فـلا يختمر لهـا رأي ولا ينضج فيها عمل تمر عليها الأمم سائـرة إلى أمام وهي في مـوقفها ولهـا حركـة لا تتبـين فيها مـواقع أقـدامها فـلا تكاد تخـرج من مزلـة إلا صادفتهـا أخـرى حتى يهديها التاريخ بعبرة فتعتبر إذ تساق إلى الفناء فتكون عبرة من العبر.

تنبيـه ـ لما كـان أكثر الـذين دونوا في عهـد بني أمية قـد عاشـوا في الدولـة العبـاسية استحسنـا أن نجعل الكـلام عن العلم والتدوين بعـد إنتهـاء الـدولـة العباسية.

تم الكتاب بحمد الله

الفهرس

هذا آخر الكتاب
وقد تم طبعه بحمد الله في مطابع
دار القلم
بيروت لبنان ص. ب: ٣٨٧٤
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

مُحاضرات
في
تاريخ الأمم الإسلامية
الدولة العباسية

تأليف
الشيخ محمد الخضري
١٢٨٩ - ١٣٤٥هـ

محاضرات
تاريخ الأمم الإسلامية

الدولة العباسية

تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك

تحقيق
الشيخ محمد العثماني

دار القلم
ص.ب : ٣٨٧٤
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الدَّولةُ العبَّاسيَّة



مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه المصطفى وحبيبه المجتبى محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

وبعد. فقد كلفني الناشر الكبير للتراث الإسلامي، الأستاذ أحمد أكرم الطباع صاحب دار القلم للطباعة والنشر في بيروت لبنان. بتحقيق هذا السفر العظيم وإخراج الآيات القرآنية وتخريج بعض الأحاديث النبوية ذاكراً السورة ورقم الآية الشريفة. ووضع النقط والفواصل: وذلك لما لهذا الكتاب من أهمية كبرى. حيث قررت غالبية الدول العربية والإسلامية تدريسه في جامعاتها:

لذا دأب صاحب الدار حفظه اللّه على نشر التراث الإسلامي. فلا يسعني في خاتمة هذا الجهد الذي وفقني اللّه عزّ وجلّ. إلاّ أن أسدي جزيل شكري العظيم وامتناني لصاحب الدار لما أولاني من ثقته الغالية واهتمامه لإخراج هذه المحاضرات في حلة قشيبة من تراثنا بأسلوب عصري حديث:

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة العباسية: تأليف المرحوم فضيلة العلامة الشيخ محمد الخضري بك. المؤرخ المعاصر. ومدرس التاريخ بالجامعة المصرية فصاحب هذه المحاضرات غني عن التعريف. لقد وضع فيها التاريخ الإسلامي وضعاً محكماً خالياً من العسر والتعقيد وقد راعى فيها جميع الأصول التي تراعى في دراسة التاريخ الإسلامي على المنهاج الحديثة حيث تعرض.

المحاضر لجميع الأسانيد للنقد والتمحيص فهو كتاب مهم لمن يحب

للـوقوف عـلى نظام الحكـومة الإسـلامية في عهـد النبي الكريم محمـد ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين وخلفاء الـدولة الأمـوية والعبـاسية، فـالدولـة العباسيـة قامت بنهضة علمية زاهرة لذا سمي عهدها بالعهد الذهبي حيث قامت بتراجم كثير من الكتب الأجنبية فجمعت تراثاً عظيماً فكانت نهضة علمية ضخمـة فتنافس العلماء الكتاب فقاموا بنشر العلم والمعرفة في عهد الدولة العباسية، فكانت دار الخلافـة مجمع العلماء والأدباء والشعراء بالإضافة إلى تنـظيم اقتصادي وعمـراني لذا كـان اهتمام المحاضر الكبير الشيخ محمد الخضري بـك بتبصيط تاريـخ أمتنا بـأسلوب رائـع مستقيم جليل القـدر كثير الفـوائد سهـل للمعلم والـطالب مميـز بـأسلوبـه الواضح فله مؤلفـاته القيمـة منها نـور اليقين وتـاريخ التشـريع الإسـلامي فكتبه جليلة الأثر عظيمة الفائدة:

فاللّه أسأل أن يجعل جهدنا موفقاً خالصاً لوجهه الكريم. وأن يجنبنا الخطأ وأن نكون لعملنا هذا قد أدينا بعض ما يجب علينا من خدمة السنة المـطهرة التي ما زلنا نسعى جاهدين أن ندفع عنها زيغ أهل البدع والضلال.

راجين أن يكون هذا الجهد خدمة للكتاب والسنة متمسكين بكتابه محيين سنة نبيه الأعظم ورسوله الأكرم محمـد ﷺ وعلى آلـه وأصحابـه شهودنـا العدول ومن تبعهم بـإحسان إلى يـوم الدين، وأن يجنبنـا الخـطأ ويلهمنـا الصـواب ومـا توفيقي إلا باللّه وآخـر دعوانـا (أن الحمد للّه رب العـالمين)

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

تحقيق
الشيخ محمد العثماني

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم

مقدمة المؤلف

أما بعد حمد اللّه فإني أقدم للمشتغلين بالتاريخ محاضراتي الثانية في تاريخ الأمم الإسلامية، وهي تنتظم تاريخ الدولة العباسية السياسي في المشرق. والتاريخ العباسي جزء عظيم من تاريخ المسلمين يبتدىء من سنة ١٣٢ إلى سنة ٦٥٦ أي ٥٢٤ سنة، وقد بقي بيتهم بعد ذلك له اسم الخلافة بمصر إلى سنة ٩٢٣، ولكني لم أسر معهم من العراق إلى مصر، وأبقيت تصاريف أحوالهم هناك إلى تاريخ مصر لما بين التاريخين من الارتباط. وقد بذلت جهدي في تصوير حالهم السياسي من مبتدأ خلافتهم على أيدي دعاتهم بخراسان والعراق إلى منتهاها على يد هولاكوخان المغولي حفيد جنكيزخان. بينت تلك الحال في أدوار الدولة المختلفة من قوة وضعف مع توضيح الأسباب التي رفعت هذه الدولة إلى الذروة العليا من سعة الملك ونفوذ الكلمة، والأسباب التي نزلت بها إلى الحضيض من ضيق رقعة الملك وسقوط الهيبة وضعف النفوذ، وقد ختمت الحديث عنها بفصل إجمالي تلك الأسباب.

وتركت تاريخها العلمي لما رأيت من جعل ذلك في محاضرات خاصة تنتظم تاريخ الإسلام العلمي كله لارتباط بعضه ببعض ولعدم اتباع الحركة العلمية لقوة بني العباس السياسية فقد كانت الدولة العباسية في عهد آل سلجوق في حال ضعف سياسي شديد، لأن الخلفاء لم يكن لهم إذ ذاك إلا الاسم، ومع ذلك فقد كانت الحركة العلمية قوية.

وإني أعد قراء كتابي هذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية في البلاد الإسلامية وأرجو من اللّه التوفيق.

وقد كانت الأقاليم الإسلامية في عهد الدولة العباسية ميداناً عظيماً للأفراد الذين ينتمون إلى بيوت قديمة المجد والأفراد العصاميين، يتسابقون إلى التغلب عليها من بلاد الأندلس غرباً إلى بلاد الترك والهند شرقاً. فكم من دول قامت وعظمت مدنيتها ثم انتهت بغلبة غيرها عليها، ومن هذه الدول من كان يقوم باسم الملك تاركاً اسم الخلافة لبني العباس ومنهم من كان يقوم باسم الملك والخلافة جميعاً كالدولة الأموية بالأندلس، والإدريسية بالمغرب الأقصى، والفاطمية بأفريقية ومصر، والزيدية بطبرستان، فرأيت من الواجب أن أذكر مع كل خليفة عباسي من كان في عصره متغلباً على أي إقليم من الأقاليم الإسلامية، وإذا ابتدأت دولة في عهد خليفة ذكرت عنها جملة مختصرة تبين كيف نشأت والمدة التي قامت فيها وثبت ملوكها، وقصدت بذلك أن تكون الرقعة الإسلامية كلها واضحة الصورة في جميع العصور. وقد ألممت في أكثر الأحيان بذكر الملوك المعاصرين في أوروبا. ولا سيما الذين كانت لهم صلات بالدول المشرقية في عهد الدولة العباسية كملوك الروم بالقسطنطينية وملوك فرنسا. ومما عنيت به أحوال البيت العلوي الذي ظل ينافس العباسيين من بدء دولتهم إلى سقوطها، وقد كانوا من أكبر الأسباب في ضعف العباسيين وجرأة المخالفين لهم على خلافهم. فذكرت أحوال طوائفهم الكبرى الثلاث، وهي: الزيدية، والإمامية الاثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية - وما قامت به كل طائفة من الرجة في أنحاء العالم الإسلامي.

وإني أظن أن هذه المجموعة على صغر حجمها قد سدت حاجة كان المشتغلون بالتاريخ الإسلامي يشعرون بها. وأرجو من اللّٰه التوفيق لإتمام سلسلة هذا التاريخ إنه نعم المعين.

الدولة العباسية

البيت العباسي:

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقي عقبه من كثير من أولاده، ولكن الغـدد الأكبر والجمهـور العظيم كـان من ولديـه العباس وأبي طـالـب، فقد مـلأ بنوهما السهول والحزون من الأقـاليم الإسلاميـة من أقصى حجر في بـلاد المغرب إلى بلاد ما وراء النهر في أواسط آسيا.

ولكل من البيتين تـاريخ جليـل بين تـاريخ الأمم الإسـلامية. ونحن الآن شارعون في تاريخ البيت الأول.

العباس بن عبد المطلب

أمه نتيلة بنت جناب بن كليب من النمر بن قاسط إحدى قبائـل ربيعة بن نزار، ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنـين، فهو أسن من رسـول اللّه ﷺ بثلاث سنين.

كـان العباس من سـادات بني هاشم وعقـلائهم وكـان صـديقـاً وفيـاً لأبي سفيان صخر بن حـرب. ولما جـاء الإسلام كـان من المخلصين لـرسول اللّه ﷺ وإن لم يظهر متابعته. وكان هو الذي تولى إحكام الأمر لـرسول اللّه مـع الأنصار حـين الهجرة، فقـد قال لهم في ليلة البيعـة: يا معشر الخـزرج إنكم قـد دعـوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ومحمد من أعز الناس في عشيرته يمنعه واللّه من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشـرف وقد أبى محمـد الناس كلهم غيركم فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بـالحرب واستقـلال بعداوة العـرب

قاطبة فإنها سترميكم عن قوس واحدة فارتأوا رأيكم وأتمروا أمركم ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع فإن أحسن الحديث أصدقه. وأخرى صفوا لي الحرب كيف تقاتلون عدوكم؟ قال فأسكت القوم وتكلم عبد اللّه بن عمروو بن خزام فقال: نحن واللّه أهل حرب غذينا بها ومرنا عليها وورثناها عن آبائنا كابراً عن كابر نرمي بالنبل حتى تفنى ثم نطاحن بالرماح حتى تكسر ثم نمشي بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أو من عدونا فقال العباس: أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع؟ قالوا: نعم شاملة. وقال البراء بن معزور: سمعنا ما قلت، إنا واللّه لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول اللّه ﷺ . وتلا رسول اللّه ﷺ القرآن ثم دعاهم إلى اللّه ورغبهم في الإسلام وذكر الذي اجتمعوا له. فأجاب البراء بن معرور بالإيمان والتصديق فبايعهم رسول اللّه ﷺ على ذلك والعباس بن عبد المطلب آخذ بيد رسول اللّه ﷺ يؤكد له البيعة تلك الليلة على الأنصار.

ولما خرجت قريش إلى بدر أخرج العباس وبنو أخيه إليها كرهاً، ولذلك قال النبي ﷺ لأصحابه يوم بدر: من لقي منكم العباس وطالباً وعقيلا ونوفل وأبا سفيان فلا تقتلوهم فإنهم أخرجوا مكرهين. وكان العباس في جملة أسرى بدر ففدى نفسه وفدى عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثم رجع وأقام بمكة، وكان مقامه بها أنه كان لا يغبي على رسول اللّه ﷺ خبراً يكون إلا كتب به إليه، وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون إليه، وكان لهم عوناً على إسلامهم. ولقد كان يطلب أن يقدم على النبي ﷺ، فكتب إليه عليه السلام إن مقامكم مجاهد حسن. فأقام بأمر رسول اللّه ﷺ. وهاجر إلى المدينة قبيل الفتح وحضر معه فتح مكة، وكان سبباً في نجاة أبي سفيان وفي تشريفه بقول رسول اللّه ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن». وحضر غزوة حنين وكان له فيها أحسن بلاء ثم خرج إلى المدينة فأقام بها.

وكان رسول اللّه ﷺ يحبه ويكرمه وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده وكانت وفاته في خلافة عثمان بن عفان رضي اللّه عنه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب سنة ٣٢ وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع.

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده وبه كان يكنى وعبد اللّه وعبيد اللّه وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة، وأمهم جميعاً لبابة بنت الحارث بن حزن من بني هلال بن عامر من قيس عيلان، وفي ولد أم الفضل هؤلاء من العباس يقول عبد اللّه بن يزيد الهلالي:

ما ولدت نجيبة من فحل ... بجبل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل ... أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس من غيرها كثير بن العباس وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد، والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هذيل. وليس للفضل وعبد الرحمن وقثم وكثير وتمام عقب. عقب العباس من سواهم، ولا سيما من عبد اللّه فإنه هو الذي انتشر منه عقب العباس؛ وهو جد الخلفاء العباسيين.

عبد اللّه بن العباس

هو ثاني ولد العباس بن عبد المطلب. ولد قبل الهجرة بسنتين، فكانت سنه حين توفي رسول اللّه ﷺ ثلاث عشرة سنة. وكان عليه السلام يحبه ودعا له فقال «اللهم علمه التأويل». فكان رضي اللّه عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه في الدين على ما أوتيه من لسان طلق ذلق غواص على موضع الحجة. وكان عمر رضي اللّه عنه يحبه ويدخله مع كبار الصحابة في مجلس شوراه الخاص ويستفتيه في كثير من المسائل على صغر سنه. وولاه عثمان الموسم سنة ٣٥ من الهجرة وهو محصور فأقام الموسم. ولما بويع علي رضي اللّه عنه بالخلافة كان له عضداً ونصيراً في حروبه كلها وولاه البصرة وأعمالها ويقال إنه انحرف عنه أواخر أيامه وترك البصرة ورحل إلى مكة فأقام بالطائف، وقيل إن ذلك كان بعد مقتل علي.

ظل ابن عباس مقيماً في الطائف حياة معاوية كلها وكان معاوية يجله ويتودد إليه كثيراً كما كان يفعل مع سائر بني هاشم، وكانت وفاته سنة ٦٨.

وعبد اللّه هو الذي نما من نسله البيت العباسي لأن إخوته لم يكن لهم نسل باق وعقب عبد اللّه الذي نما إنما هو من ولده علي بن عبد اللّه بن العباس.

علي بن عبد اللّه بن العباس :

أمه زرعة بنت مشرّح بن معد يكرب من كندة. ولد ليلة قتل علي بن أبي طالب سنة ٤٠ من الهجرة، فسمي باسمه وكني بكنيته أبي الحسن، وهو أصغر أولاد أبيه وكان سيداً شريفاً بليغاً ويقال كان أجمل قرشي على وجه الأرض وأوسمهم وأكثرهم صلاة، وكان مفرطاً في الطول إذا طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله. وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحميمة بالشراة (وهي صقع بالشام في طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من إقليم البلقاء) فأقام بها وفيها ولد أكثر أولاده، وكانت وفاته سنة ١١٧ .

وأعقب على اثنين وعشرين ولداً ذكراً وإحدى عشرة أنثى. وذكور أولاده هم محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح وأحمد وبشر ومبشر وإسماعيل وعبد الصمد وعبد اللّه الأكبر وعبيد اللّه وعبد الملك وعثمان وعبد الرحمن وعبد اللّه الأصغر ويحيى وإسحاق ويعقوب وعبد العزيز وإسماعيل الأصغر وعبد اللّه الأوسط. ستة منهم لا عقب لهم والباقون أعقبوا كثيراً. ومنهم انتشر البيت العباسي وكثر جداً وبيت الخلافة في محمد أكبر أولاده.

محمد بن علي :

هو والد إبراهيم الإمام وأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية. وهو الذي ابتدأت الدعوة على يديه، وكان ذلك في حياة أبيه علي، ولكن لم يكن لأبيه ذكر في هذه الدعوة.

وحيث قد ذكرنا هذا البيت الرفيع العماد. فلنشرع في بيان كيف وجدت فكرة الخلافة عند العباسيين وكيف كانت الدعوة إليهم وكيف تمكنوا من قلب الدولة الأموية والحلول محلها.

كيف نشأت فكرة الخلافة في بني العباس

توفي رسول اللّه ﷺ وليس يؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده، وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على علي بن أبي طالب أن يدخل على رسول اللّه ﷺ وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فإن كانت فيهم وإلا أوصى بهم من سيكون خليفة. فامتنع من ذلك علي قائلاً: إنه إن منعنا إياها لا ننالها أبداً.

توفي رسول اللّه ﷺ والحال ما ذكرنا. فمال الجمهور الإسلامي إلى مبايعة أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه بعد المناظرات التي جرت بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة. وكانت هناك فئة قليلة تميل إلى أن تكون الخلافة في بني هاشم رهط النبي الأدنين. ولم يكن فيهم من أعمامه إلا العباس بن عبد المطلب وكان من بني أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم علي بن أبي طالب ومع أن العباس كان في ذلك الوقت أسن بني هاشم لم يكن من هذه الفئة القليلة من يقدمه على علي بن أبي طالب لما لعلي من المزايا الكثيرة التي بيناها فيما سبق. وكان علي نفسه يرى أنه أحق الناس أن يكون خليفة بعد رسول اللّه ﷺ وكذلك كانت ترى فاطمة زوجه. ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة أبي بكر مدة حياة فاطمة رضي اللّه عنها. فلما ماتت دخل فيما دخل فيه الجمهور، وبايع أبا بكر على ملأ من الناس.

عاش علي والعباس في عهد أبي بكر، ثم بايعا عمر لما عهد إليه أبو بكر بالخلافة وظلا مدة حياته محترمين مطيعين. إلى أن استخلف ثالث الخلفاء عثمان

بن عفان بعد مناظرات طويلة بين رجال الشورى الذين عهد إليهم عمر اختيار الخليفة من بعده، وكان يرى أن رجال الشورى اتبع كثير منهم هواه في العدول عنه.

وفي أواخر خلافة عثمان توفي العباس بن عبد المطلب تاركاً عقباً كثيراً أشهرهم عبد اللّه بن عباس وهو ثاني أولاده ولم يعلم أن أحداً منهم كان يتطلع إلى الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لأحد من أولاده.

بعد مضي ست سنوات من خلافة عثمان، وجدت حركة في بعض النفوس تتجه إلى نقل الخلافة من عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب، وقام بأمر ذلك دعاة انتشروا في الأمصار الإسلامية الكبرى وهي الكوفة والبصرة والفسطاط، وتذرعوا إلى ذلك بالعيب في ولاة عثمان والطعن فيهم بأعمال زعموهم ارتكبوها. وكان من في مصر يكتب إلى من في المصر الآخر بما عندهم من ذلك فيشيعونه بين الناس، فيقول الناس أما نحن ففي عافية مما ابتلي به هؤلاء وجميعهم يكتبون إلى ناس في المدينة بمثل ذلك حتى ملئوا البلاد طعناً. ولما وجدوا لذلك ارتياحاً من بعض النفوس انتقلوا من ذلك إلى الطعن في عثمان نفسه، فنسبوا إليه أموراً منها ما هو غير صحيح، ومنها ما هو صحيح وقد فعل أسلافه مثله فلم يقدر أن يطعن فيهم طاعن، وساعدهم لين عثمان وخوفه من فتح أبواب الفتنة على ما قصدوا إليه.

ألفت وفود غوغاء من الأمصار الثلاثة، ممن تأثر بهذه الفتن فذهبت إلى المدينة وهي حرم رسول اللّه ﷺ وحاضرة الإسلام الكبرى ومقر الخلافة الإسلامية متظاهرين ببث شكواهم من عمال عثمان، فأشكاهم عثمان من جميع ما شكوا منه، ولان لهم جداً حتى لا يوجد لهم سبيلا إلى الفتنة، فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل إلى أوطانهم، وسار كل وفد في الطريق التي توصله إلى مصره. وبعد أيام عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادراً من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقاباً لهم وتنكيلا، والكتاب مختوم بخاتم عثمان. فلما أروه إياه حلف لهم أنه ما كتبه ولا أمر بكتابته، وهو صادق في يمينه، فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا

منه أن يسلمهم إياه فأبى فأعلنوا العداء وصرحوا بما في أنفسهم من الشر، وحصروا عثمان في داره مدة ثم اقتحموا عليه داره وقتلوه ظلماً وعدواناً ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لا يغلقه مرور الزمان ولا كر الأيام.

بعد أن تم لهم ما أرادوا عرضوا الخلافة على علي بن أبي طالب فقبلها بعد تردد. أمضى رحمه الله حياته في حرب مخالفيه في البصرة والنهروان وصفين، ولم تصف له الخلافة يوماً واحداً إلى أن اغتاله أحد الخوارج في رمضان سنة ٤٠ من الهجرة في حاضرة خلافته وهي الكوفة.

كان الجمهور الإسلامي في ذلك الوقت قد انضم إلى خصمه معاوية بن أبي سفيان حيث كان في بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر. أما الكوفة فكانت مقراً لشيعة علي ومحبيه الذين كان منهم من يرى تفضيله لا على خصمه معاوية فقط بل على من سبقه من الخلفاء أيضاً. ومع هذا فإنه لم ينل منهم ما يناسب تلك العقيدة من الطاعة والإخلاص، بل كثيراً ما أهملوا أوامره التي كان يصدرها إليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام. ولذلك أسباب لسنا بصدد بيانها الآن.

لما قتل رحمه الله رأت الشيعة أن يقوم في الخلافة مقامه ابنه الحسن وهو السيد العظيم الشأن: أبوه علي بن أبي طالب وأمه فاطمة بنت محمد ﷺ. وقد رأى رضي الله عنه بثاقب فكره أن الذين لم ينل منهم أبوه ما يرجوه لا يحسن الاعتماد عليهم، ففضل الصلح مع معاوية على شروط اشترطها لنفسه ولأتباعه وتنازل عن الخلافة مفضلا جمع كلمة المسلمين والسكنى بطيبة مدينة رسول الله ﷺ، أقام على ذلك حتى توفي بها سنة ٥٠ من الهجرة.

وظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاوة اليد، فاجتمعت الأمة على طاعته والرضا به، وسكنت الدعوة إلى أهل البيت، وخبت نار التشيع إلا أنها كانت مستكنة في أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب.

أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد، فلما تولاها هبت أعاصير الفتنة في المدينة

ومكة والكوفة. فأما المدينة فثارت تطلب عزل يزيد وتولي كبر الثورة بعض أبناء الأنصار ولكن هذه الثورة قمعت بشدة مسلم بن عقبة المري الذي أوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة، وأما مكة فعاذ بها عبد اللّه بن الزبير طالباً الخلافة لنفسه.

وأما الكوفة فإن من بها من الشيعة أرسلوا يطلبون إليهم الحسين بن علي شقيق الحسن ليبايعوه بالخلافة وينزعوا من أعناقهم بيعة يزيد، فلم يكن من الحسين إلا أن لبى دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه، وسار إليهم من غير جند يركن إليه ولا مال يستعين به. فقابلته ببعض الطريق جنود عبد اللّه بن زياد عامل يزيد بالعراق وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام، فلم يكن له قبل بمدافعتهم وقتل رحمه اللّه بكربلاء. ولم تقم شيعة أبيه بشيء من المساعدة بل ظلوا في مساكنهم آمنين مطمئنين ولسان حال الحسين يقول:

لا ألفينك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما زودتني زادي

انتهت هذه الحوادث ومات يزيد، وعظم أمر ابن الزبير ودخل في دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق، وأبى أن يبايعه رجال بني هاشم الذين كانوا بمكة كمحمد بن علي المشهور بابن الحنفية وعبد اللّه بن عباس وغيرهما فاضطهدهم وحبسهم.

ظهر في تلك الأوقات رجل أراد أن ينتفع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزاً في البلاد العراقية، مستعيناً بما تضمره قلوب أهل الكوفة من التشيع لأهل البيت، وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي. فذهب إلى الكوفة لابساً ثوب التشيع ناعياً على من قتل الحسين بن علي وداعياً إلى الإمام المهدي وهو محمد بن علي الذي صار بعد أخويه أكبر أبناء علي رضي اللّه عنه، وتوسل إلى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقاً كانت أم كذباً، وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه من الأكاذيب التي تؤثر عادة في أنفس الغوغاء. وقد أمكنه أن يجتذب إلى نفسه رؤساء الشيعة في الكوفة، وأرسل إلى محمد بن علي وهو مضطهد محبوس بمكة جنداً يخلصونه من شدته فنجحوا. واجتمع في حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية: لواء لابن الزبير، ولواء لبني أمية، ولواء

للخوارج، ولواء لأصحاب محمد بن علي، إلا أن اللّه حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التي يكره بعضها بعضاً.

لم يطل حبل المختار بالكوفة فإن عبد اللّه بن الزبير جهز له جيشاً يقوده أخوه مصعب فسار إليه، ومالأه أكثر أشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته، وبذلك كانت الغلبة لمصعب. إلا أن ذلك لم يقض على التشيع في بلاد العراق بل ظل كامناً ينتظر من يثيره لينتفع منه.

أما محمد بن علي فإنه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الإسلامية كلها، ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة إلا أنه مغلوب على أمره، حتى إنه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته، وقال إنه تغيب وسيرجع، وقال في ذلك شاعرهم السيد الحميري:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
علي والأئمة من بنيه ... هم الأسباط ليس بها خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن علي: فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا. ومنهم من تولى بعده ابنه أبا هاشم، ويقال لهذا الفريق والذي قبله الكيسانية؛ ينسبون إلى كيسان وهو لقب للمختار بن أبي عبيد.

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين وهو ممن بايع يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه - قال هؤلاء إن الخلافة محصورة في أولاد علي من فاطمة رضي اللّه عنها، ولما كان الحسين هو الذي قتل دون الخلافة فهي في عقبه؛ وعلي هو الذي بقي من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء. وقد يقولون إن علياً هو الوصي أوصى إليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بالخلافة، ثم الإمام من بعده الحسن، ثم الحسين، ثم

علي، وهكذا لا بد للأمة من إمام منصوص عليه، ويقال لهؤلاء الشيعة الإمامية.

كان أكبر ولد العباس في ذلك الوقت علي بن عبد الله بن عباس وهو الذي انتشر منه العباسيون. وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التي أقامه بها بنو أمية والتي أنزله بها الوليد بن عبد الملك. وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى ولد العباس منذ علي هذا، ويقال إن السبب في ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبي طالب لما حانت منيته كان مقيماً بالحميمة عند بني عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة إلى علي هذا وأولاده وأوصى أولياءه به فصارت الشيعة الكيسانية في جانب علي بن عبد الله بن عباس.

أما بقية الشيعة فإنهم بعد وفاة علي زين العابدين افترقت بهم الطرق: فمنهم من تولى بعده ابنه محمداً الباقر زاعمين أنه الإمام بعد أبيه. ومنهم من قال إن الخلافة حق لكل فاطمي اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء، ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن علي بن الحسين، وهم المعروفون بالشيعة الزيدية.

والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بني أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا علي بن عبد الله، والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيداً وابنه يحيى.

وكانت وفاة علي بن عبد الله ومحمد الباقر في زمن متقارب بالحميمة، فانتقل ولاء الكيسانية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لأن أباه أوصى إليه وانتقل ولاء الإمامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر، ولم يفعل أنصار الأئمة شيئاً ليرجعوا الخلافة إلى ذوي الحق فيها حسب رأيهم.

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم إلى النصر زيد بن علي فقاموا بنصرته حيث خرج بالكوفة طالباً الخلافة. إلا أن بني أمية لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التي أودت بحياتهم بعد، فسرعان ما انتصروا على زيد وأطفأوا ثورته وقتلوه وصلبوه. وثار بعده ابنه يحيى فكانت خاتمته خاتمة أبيه.

أما محمد بن علي بن عبد اللّٰه بن عباس فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم. فإنه رأى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبق بإعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل وأن كل محاولة فجائية لا بد أن تكون عاقبتها الفشل، فرأى أن يسير في المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس إلى ولاية أهل البيت بدون أن يسموا أحداً خوفاً من بني أمية أن يقضوا على المدعو إليه إذا عرف، ورأوا أن أحسن منطقة يبثون فيها الدعوة هي الكوفة وبلاد خراسان. أما الكوفة فهي مهد التشيع لأهل البيت من قديم فيمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم. وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين: الأول أن فكرة التشيع يفهمها الخراساني من المسلمين بسهولة لأن مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبي ﷺ صاحب الرسالة وسيد الأمة، وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذي يتوارثه أهل بيته، ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك إلا إن كان ذلك عن اختلاس. الثاني: أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ولذلك فائدة كبيرة في حياة النفوس وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد، فكان العنصر العربي بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيئاً من الولايات العامة، فكان أهل فارس مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة وإخراج الخلافة إلى الدولة المستقبلة كي يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم في دولة بني أمية. قال أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتاب البلدان:

وقد كان محمد بن علي بن عبد اللّٰه قال لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار: أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده. وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف، تقول كن عبد اللّٰه المقتول ولا تكن عبد اللّٰه القاتل. وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون في أخلاق النصارى. وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم. وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر. ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام

ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة. وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.

تأليف الجمعية السرية للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعلي بن عبد اللّه بن عباس حي لم يمت بعد لأنها ابتدأت في أول القرن الثاني وعلي لم يمت إلا سنة ١١٧ على قول وسنة ١١٤ على قول. وكان الخليفة من بني أمية إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان، وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء.

وجعل للدعوة مركزان: أحدهما بالكوفة التي اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى علي بن عبد اللّه. والثاني بخراسان التي هي محل الدعوة الحقيقي، ووجه إليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج، واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً وهم:

١ ـ سليمان بن كثير الخزاعي
٢ ـ مالك بن الهيثم «
٣ ـ طلحة بن زريق «
٤ ـ عمرو بن أعين «
٥ ـ عيسى بن أعين «
٦ ـ قحطبة بن شبيب الطائي
٧ ـ لاهز بن قريظ التميمي
٨ ـ موسى بن كعب «
٩ ـ القاسم بن مجاشع «
١٠ ـ أبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني
١١ ـ أبو علي الهروي شبل بن طهمان الحنفي
١٢ ـ عمران بن إسماعيل المعيطي

واختار سبعين رجلاً ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء، وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها.

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثاني إلى سنة ١٣٢، وهي السنة التي تم فيها النجاح وبويع فيها لأبي العباس السفاح.

وهـذه المدة تنقسم إلى قسمـين متمايـزين: الأول عصر الـذعـوة المحضـة الخالية عن استعمال القوة وذلـك قبل أن ينضم إلى القـوة أبو مسلم الخـراساني، وذلك في الوقت الذي كانت الدولة الأموية فيـه متماسكـة القوى لم ينقسم فيهـا البيت المالك عـلى نفسه ولم تحصـل العصبيـة القـوميـة بـين جنـد هـذه الـدولـة بخراسـان وذلك نحو ٢٧ سنة. والعصر الثاني عصر استعمال القوة مع الدعـوة حينما تهيأت الأسباب الداعية إلى ذلك.

العصر الأول
(من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٢٧)

كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخراسانية. ظاهر أمرهم التجارة وباطنه الدعوة، ينتهزون الفرص ثم يبلغون أمرهم إلى القائم بالكوفة وهو يوصله إلى الحميمة أو إلى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج. وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لأمر الدعاة لأنهم كانوا إذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجاً. وكانت إقامة محمد بن علي بالحميمة سبباً آخر في انتظام المواصلات وكتم سرها.

وكان أول ما ظهر من أمرهم بخراسان سنة ١٠٢ حيث جاء رجل من تميم إلى أمير خراسان سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكيم بن أبي العاص الذي يقال له سعيد خذينة وقال له إن ههنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح، فبعث إليهم سعيد فأتى بهم فسألهم: من أنتم؟ قالوا: أناس من التجار؟ قال: فما هذا الذي يحكى عنكم؟ قالوا: لا ندري؟ قال: جئتم دعاة؟ فقالوا: إن لنا في أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا. فسأل من يعرف هؤلاء، فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن، فقالوا: نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شيء تكرهه. فخلى سبيلهم.

وفي سنة ١٠٥ انضم إلى هذه الجمعية بكير بن ماهان و هو شيخ عظيم من شيوخ هذه الدولة وكبار دعاتها وكان موسراً فساعد القوم بماله، وصادف أن توفي في ذلك الوقت ميسرة القائم بالكوفة، فأقامه محمد بن علي مقامه فكان هو ربان هذه الدعوة يأتمر الدعاة بأمره ويسيرون في الطريق التي يشرعها لهم.

كان من أول النكبات التي لحقت بهم أنه وشي بجمع من دعـاتهم إلى أسد بن عبـد اللّه القسري أمـير خراسـان وهو أول شـديد قـاس فأتى بهم وفيهم أبـو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادي فقطع أيدي من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم، وأفلت عمار العبادي حتى أتى الكوفة فأخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشؤوم، فكتب به إلى محمد بن علي فأجابه «الحمد للّه الذي صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل» وقد وقع بعد ذلك عمـار العبادي في يد أسد فألحقه بإخوانه

وكـان أسد بن عبـد اللّه أشد ولاة خـراسان عـلى الشيعة فكـان لا يرحم أحداً منهم وقع في يده بل شرد بهم ونكل ونفى من نفى وقتل من قتل ولذلك لم يكن للدعـوة في أيامـه كبير أثـر حتى عزل عن خـراسان سنـة ١٠٩ وتلك ولايته الأولى ثم ولي خراسان مرة ثانية فأعـاد معهم سيرتـه الأولى ففي سنة ١١٧ أخـذ جمـاعـة منهم فقتـل بعضهم ومثـل ببعضهـم وحبس بعضهم وكـان فيمن أخـذ سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك بن الهيثم وموسى بن كعب ولاهـز بن قريظ وخالد بن إبراهيم وطلحة بن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم فقال يا فسقة ألم يقل اللّه **﴿عفا اللّه عما سلف ومن عاد فينتقم اللّه منه واللّه عزيز ذو انتقام﴾**(١) فقـال سليمان بن كثـير أتكلم أم أسكت قال بـل تكلم قال نحن واللّه كـما قـال الشاعر:

لـــو بغـير المـــاء حلقي شـــرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

تـدري ما قصتنـا صيدت واللّه العقـارب بيدك أيهـا الأمير إنـا أنـاس من قومك (اليمن) وإن هذه المضرية إنما رفعـوا إليك هـذا لأنا كنـا أشد النـاس على قتيبة بن مسلم وإنما طلبوا بثأرهم.

فانظر كيف كـان القوم يستعملون العصبيـات القوميـة في أحرج مـواقفهم للخلاص مما يقعـون فيه أحيـاناً وقـد كان ذلـك الجواب سببـاً في خلاص هؤلاء النقباء مما وقعوا فيه حيث وجـدوا من قومهم من يـدبر مـع الأمير أمـر خلاصهم

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٥.

وقد خلصوا وكانت وفاة أسد سنة ١٢٠ فتنفست الشيعة بخراسان بعد وفاته.

حصل بعد ذلك في العالم الإسلامي ما كان له أعظم الفضل في نجاح الشيعة وقصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك:

أولاً - انشقاق البيت الأموي حتى تزعزع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك واستعان على ذلك بالقدح في الوليد ونسبته إلى العظائم من الفسوق والكفر وإحلال ما حرم اللّه فكان معه قوم ساعدوه على ذلك وكان بعض بني أمية يتمثل بقول الشاعر:

إني أعيذكم باللّه من فتن ... مثل الجبال تسامي ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم ... إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم ... فثم لا حسرة تغني ولا جزع

ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فإنه كتب إلى الغمر بن يزيد أخي الوليد يهيجه للمطالبة بدم أخيه وقال في ذلك الكتاب «أما بعد فإن هذه الخلافة من اللّه على مناهج رسله وإقامة شرائع دينه أكرمهم اللّه بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم والحين على من ناوأهم فابتغى غير سبيلهم فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم اللّه منها يقوم بحقها ناهض بأنصار لها من المسلمين وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة وأذبه عن حرمه وأوفاه بعهده وأشده نكاية في مارق مخالف ناكث ناكب عن الحق فاستدرت نعمة اللّه عليهم وقد عمر بهم الإسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر اللّه وحاولوا نكث العهود وقام بذلك من أشعل ضرامها وإن كانت القلوب عنه نافرة. والمطلوبون بدم الخليفة ولاته من بني أمية فإن دمه غير ضائع وإن سكنت بهم الفتنة والتأمت الأمور فأمر اللّه لا مرد له وقد كتبت بحلك فيما أبرموا وما ترى فإني مطرق إلى أن أرى غيراً فأسطوا بانتقام وأنتقم لدين اللّه المبتول وفرائضه المتروكة مجانة ومعي قوم أسكن اللّه طاعتي قلوبهم أهل إقدام إلا ما قدمت به عليهم ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون منزعا وللنقمة دولة تأتي من اللّه

ووقت موكل ولم أشبه محمداً ولا مروان غير أن رأيت غيراً إن لم أشمر للقدرية إزاري وأضربهم بسيفي جارحا وطاعنا يرمي قضاء اللّه في ذلك حيث أخذ أو يرمي في عقوبة اللّه حيث بلغ منهم فيها رضاه وما إطراقي إلا لما أنتظر مما يأتيني عنك فلا تدعن ثأرك بأخيك فإن اللّه جارك وكافيك وكفى باللّه طالباً ونصيراً».

وكان مروان في ذلك الوقت أميراً للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يأتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة مستمسكاً بهذا الحبل حتى نالها ولم يكن نيله لها بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق في هذا البيت ولا شبهة أن انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال انشقاقاً في قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها.

ثانياً ـ ظهور العصبية القومية في خراسان وانشقاق القبائل العربية وذلك أن العرب يرجعون إلى شعبين عظيمين قحطان ونزار، وملك العرب القديم كان في اليمن فلما جاء الإسلام تحول إلى نزار لمكان رسول اللّه ﷺ وكان أمر النبوة والوحي قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة إلى أعدائهم فنالوا في زمن قليل ما لم تنله أمة قبلهم في مثل الزمن الذي ارتفع فيه قدرهم.

ولما طال الزمن تراجع الناس إلى شيء مما كانوا عليه في الجاهلية بسبب أمراء السوء الذين كانوا يحيون لهم تلك الجاهلية من غير أن ينظروا إلى سوء مغبتها وظهر ذلك في أقوال شعرائهم التي لها أثر شديد في أنفسهم وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة من ذلك فقال الحارث بن عبد اللّه بن الحشرج الجعدي:

أبيت أرعى النجوم مرتفقا ... إذا استقلت تجري أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة ... قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن ... بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها في لون مظلمة ... دهماء ملتجة غياطلها
يمسي السفيه الذي يعنف بالجهـ ... ـل سواء فيها وعاقلها
والناس في كربة يكاد لها ... تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها في كل مبهمة ... عمياء تمنى لها غوائلها
لا ينظر الناس في عواقبها ... إلا التي لا يبين قائلها

كـرغوة البكـر أو كصيحـة حبـ ـلى طـرقت حـولهـا قـوابلهـا
فجـاء فينـا أزرى بـوجهتـه فيهـا خـطوب حمـر زلازلهـا

وهذا أحسن وصف سمعته في وصف الفتن وغمرها الناس كافة من سفيه وحليم. كان بخراسان واليان مختلفان جاء أحدهما بعد الآخر فأما أولهما فهو أسد بن عبد اللّه القسري وهو من اليمن فكان ضلعه مع قـومه من أهـل اليمن يتعصب لهم وكان شيعته بخراسان قوية إلى قوة الدولة نفسها فلم يكن هنـاك ما يهيجـه. وثانيهما نصر بن سيار وهو من كنـانة ثم من مضر فكـان ضلعه من قـومه إلا أن شيعته بخراسان لم تكن بذاك وقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان الذي ولاه يعلم ذلك فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد كان مستشـاره يسمى له أشخاصاً بما لهم من محامد ومذام فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال إن اغتفـرت له واحدة فإنه عفيف مجرب عاقل قال هشام ومـا هي فقال المشـير عشيرتـه بها قليلة فقال هشام أتريد عشيرة أكثر مني أنا عشيرتـه. وهذه جملة صحيحـة في زمن قوة الدولة الناشئة عن اتحاد الفاتحين فأما بعد الانصداع فليست بصحيحة.

ظهـر الانشقاق في عهـد نصر بن سيار هـذا بين النـزارية واليمـانية وكـان رئيس النزارية وكبيرهم نصر بن سيار الأمير وكبير اليمانية جديع بن شبيب المعني المعروف بالكرماني وإنما عرف بذلك لأنه ولد بكرمان وكـان نصر والكرمـاني قبل ذلـك متصافيـين إلا أن الفتنة النـاشئة عن حميـة الجاهليـة فـرقت بينهـما وكـانت النزارية أيضـاً منشقة فـربيعة في جـانب ومضر في جانب. وكـان أكثر ربيعـة مع شيبان بن سلمة الحروري الخارج عـلى الدولـة يطلب العمـل بكتاب اللّه وسنـة رسوله فكانت هذه الفرق الثلاث متعادية.

حصلت حروب بين نصر والكرماني وكانت القوة للكرماني فأجلى نصر عن مرو حاضرة خراسان فهدم اليمنيون دور المضرية فقالت امـرأة من ضبة وهي أم كثير الضبية:

لا بـارك اللّه في أنثى وعـذبهـا تزوجت مضـريـا آخر الـدهـر
أبلغ رجـال تميم قـول مـوجعـة أحللتمـوهـا بـدار الـذل والفقـر

إن أنتم لم تكـروا بعـد جـولتكم حتى تعيـدوا رجال الأزد والـظهـر
إني استحييت لكم من بذل طاعتكم هـذا المزوني يجبيكم عـلى قهـر

وقال شاعر آخر:

ألا يـا نصر قـد بـرح الخـفـاء وقـد طـال التمـني والـرجـاء
وأصبحت المـزون بـأرض مـرو تقضي في الحكـومـة مـا تشـاء
يجـوز قضـاؤهـا في كـل حكم عـلى مضر وإن جـار الـقـضـاء
وحمـير في مجـالـسـهـا قـعـود تـرقـرق في رقـابهـم الـدمـاء
فـإن مضر بـذا رضيـت وذلـت فـطال لهـا المـذلـة والشـقـاء
وإن هـي أعـتـبـت فـيـهـا وإلا فحـل عـلى عسـاكـرهـا العفـاء

وفي أثناء وقوع هذه الحوادث توفي محمد بن علي إمام الشيعة الذي يدعون إليه وأدلى بالأمر من بعده إلى ابنه إبراهيم وأعلم الشيعة بذلـك فقامـوا بالـدعوة إليه مكان أبيه. ثم توفي بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكـوفة فـأقام إبـراهيم بن محمـد مكانـه حفص بن سليمان المعـروف بأبي سلمـة الخلال وأصله مـولى لبني الحارث بن كعب وكان صهراً لبكير بن ماهان فأوصى إبراهيم أن يقيمه مكانه.

واتصل بإبراهيم في تلك الأوقات شـاب من نوابـغ الشبان وذوي المقـدرة والعزيمة وهو أبو مسلم الخـراساني وأصله مـولى لعيسى بن معقل العجـلي اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى أصول التشيع ثم اتصل بمحمد بن علي سنة ١٢٥ ثم بابنه إبراهيم وكانت تـظهر عليـه مخايـل النجابـة وقوة العـزم وكانت الشيعـة بخـراسان في حـاجة إلى مثله ليشـرعوا في العمـل بعد أن أمكنتهم الفـرصـة بما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف وما يقع فيـه عرب خـراسان من الانشقـاق فاختار إبـراهيم أبا مسلم لتلك المهمـة وكتب إلى أصحابـه إني قد أمـرته بـأمري فاسمعوا منه واقبلوا قوله فإني قد أمرته على خـراسان ومـا غلب عليـه بعـد ذلك وكان بما أوصـى به أبا مسلم قوله:

«يـا عبد الـرحمن إنك رجـل منا أهـل البيت فاحتفظ وصيتي. وانـظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحـل بين أظهـرهم فإن اللّه لا يتم هـذا الأمر إلا بهم

وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في أمرهم وانظر هـذاا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان في أمره شبهـة ومن وقع في نفسك منهه شيء وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ (يعني سليمان بن كثير) ولا تعصه وإن أشكل عليك أمر فاكتف به مني».

وإنما أمره بتقريب أهل اليمن لأنهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبية التي كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان إذ ذاك ولهذا السبب أوصاه بالشدة على مضر فإنهم كانوا أصحاب الدولة. ومما يدل على اعتماد بني العباس على أهل خراسان دون العرب قول الإمام (وإن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل) سار أبو مسلم مزوداً بهذه الوصية حتى حل بخراسان وذلك سنة ١٢٨ وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فأقام يدبر الأمور. وبعد سنة تهيأ لزيارة الإمام ومعه عدد كبير من الدعاة ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الإمام يقول فيه (إني قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث ألقاك كتابي ووجه إلى قحطبة بما معك يوافني به في الموسم) فعاد أبو مسلم إلى مرو مستعداً للعمل.

دور العمل

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لها سفيذنج وهناك بث دعاته في الناس ليجتمعوا إليه فانهال إليه الناس وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٠ ولخمس بقين منه عقد اللواء الذي بعث به الإمام ويدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعا وعقد الراية التي تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو قوله تعالى: **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾**(١) ولبسوا السواد الذي جعل شعاراً للدولة العباسية وقدم على أبي مسلم الدعاة من أهل مرو بمن أجاب الدعوة.

كان أول ما فعله أبو مسلم أن أمر برم حصن سفيذنج وأقام به هو ومن

---

(١) سورة الحج: الآية ٣٩.

معه ولما حضر عيد الفطر سنة ١٢٩ أمر سليمان بن كثير أن يصلي به وبالشيعة ونصب له منبراً في العسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وكانت بنو أمية تبدأ بالخطبة والأذان ثم بالصلاة بالإقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوساً في الجمعة والأعياد. وأمره أن يكبر ست تكبيرات تأبعاً ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن وكانت بنو أمية تكبر في الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفي الثانية ثلاث تكبيرات ولما تمت الصلاة انصرف هو ومن معه إلى طعام أعد لهم مستبشرين.

كتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار يقول له (أما بعد) فإن اللّه تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عير أقواما في القرآن فقال **﴿وأقسموا باللّه جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا﴾**(١). استكباراً في الأرض ومكر السيء **﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت اللّه تبديلا ولن تجد لسنت اللّه تحويلا﴾**(٢) فتعاظم نصر الكتاب ولا سيما أنه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه.

وكان جوابه أن وجه إلى أبي مسلم مولى له اسمه يزيد في خيل عظيمة فوجه إليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعي فالتقوا بقرية تدعى آلين وكانت بين الفريقين موقعة انتهت بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس جند نصر بعد أن جرح فأمر أبو مسلم بمداواته حتى برأ ثم خيره بين أن يقيم معه ويدخل في دعوته وأن يرجع إلى مولاه سالما ويعطي عهد اللّه وميثاقه ألا يحاربهم ولا يكذب عليهم وأن يقول فيهم ما رأى فاختار الرجوع إلى مولاه وقال أبو مسلم لمن معه إن هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاح فأنا ما نحن عندهم على الإسلام.

قدم يزيد على نصر فقال له نصر لا مرحبا بك واللّه ما ظننت استبقاء القوم إلا ليتخذوك حجة علينا فقال يزيد هو واللّه ما ظننت وقد استحلفوني ألا أكذب عليهم وأنا أقول إنهم يصلون الصلاة لمواقيتها بأذان وإقامة ويتلون كتاب

---

(١) سورة فاطر: الآية ٤٢.

(٢) سورة فاطر: الآية ٤٣.

اللّه ويذكرون اللّه كثيراً ويدعون إلى ولاية رسول اللّه ﷺ وما أحسب أمرهم إلا سيعلو ولولا أنك مولاي أعتقتني من الرق ما رجعت إليك ولأقمت معهم. كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبي مسلم ووجدت الدعوة في قلوبهم مكانا صالحا فضاقت عليه سفيذنج فرحل إلى الماخوان وهي قرية كبيرة من قرى مرو كانت للعلاء بن حريث ولأبي خالد بن عثمان فحصنها وخندق حولها وكانت عدة من معه في الخندق سبعة آلاف رجل.

رأى عرب خراسان أن ما بينهم من هذه الفرقة والحروب تشد أزر عدوهم وكانوا ثلاث فرق كما قدمنا وكان الكرماني قد قتل في إحدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه عن مرو وخلفه في قيادة اليمانيين ابنه علي فكتب نصر إلى شيبان الحروري يقول له إن شئت فكف عني حتى أقاتله وإن شئت فاتفق معي على حربه حتى أقتله أو أنفيه ثم نعود إلى أمرنا الذي كنا عليه فهم شيبان أن يفعل. ولكن أبا مسلم كانت له عين لا تنام فأرسل إلى علي بن الكرماني يقول له إنك موتور قتل أبوك ونحن نعلم أنك لست على رأي شيبان وإنما تقاتل لثأرك فامنع شيبان من صلح نصر فدخل ابن الكرماني على شيبان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه فأرسل نصر إلى شيبان إنك لمغرور وايم اللّه ليتفاقمن هذا الأمر حتى تستصغرني بجانبه.

وفي أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر. ولما رأت ذلك ربيعة وعلمت شدة أمر أبي مسلم أرسلت إلى نصر تطلب منه الموادعة فأجاب إلى ذلك وتوادعوا سنة. بلغ ذلك أبا مسلم فأرسل إلى ابن الكرمان يهيجه بأخذ الثأر فقال إني ما صالحت نصراً وإنما صالحت شيبان وأنا لذلك كاره وأنا موتور ولا أدع قتاله فعاود القتال وأبي شيبان أن يعينه وقال لا يحل الغدر فأرسل ابن الكرماني إلى أبي مسلم يستنصره. وهذا كل ما يريده فأرسل إليه إني معك على نصر فاشتد ذلك على نصر وكتب إلى أبي مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر وبعثت إليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا القتال الذي ليست له غاية إلا الفتك بهم جميعاً فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا وأمر مسلم متكلمي الشيعة أن يختاروا

وفد ربيعة وقحطان، فإن السلطان في مضر وهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد، ولما قدمت عليه الوفود فعل الشيعة ما أمروا به فنهض وفد مضر تعلوهم المذلة والكآبة ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ما خبأه لهم الغيب.

بذلك ظفر أبو مسلم ظفراً عظيماً فإنه فرق كلمة العرب بعد أن كادت تجتمع عليه فقام من الماخوان في جمادى الأولى سنة ١٣٠ يريد مرو وأرسل إليه ابن الكرماني أن ادخل حائط مرو من قبلك وأدخل أنا وعشيرتي من قبلي فأرسل إليه أبو مسلم أن لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على حربي ولكن ادخل أنت فأنشب الحرب، فدخل ابن الكرماني وأنشب الحرب وأمر أبو مسلم أحد قواده بدخول مرو فدخلها وأعقبه أبو مسلم. دخل والقتال دائر بين الكرماني ونصر فأمر الفريقين أن يكفا وهو يتلو ﴿**ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه**﴾[1].. ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الإمارة وهرب نصر مستخفيا.

صفت مرو لأبي مسلم، وأمر أحد النقباء بأخذ البيعة على أهلها ونص البيعة (أبايعكم على كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ عليكم بذلك عهد اللّه وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت اللّه الحرام وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يبدأكم به ولاتكم وإن كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم). وأخذ أبو مسلم ثقات أصحاب نصر وصناديدهم فكتفهم وحبسهم ثم قتلهم.

أرسل بعد ذلك إلى شيبان الحروري يدعوه إلى بيعته فأبى وسار عن مرو إلى سرخس فوجه إليه أبو مسلم جنداً، فكانت هناك موقعة قتل فيها شيبان وعدد عظيم ممن معه. وبعد نيل هذا الانتصار عمد إلى ابني الكرماني علي وعثمان اللذين ائتمناه على حياتهما فقتلهما وأكثر أصحابهما.

صفت خراسان كلها لأبي مسلم فبعث العمال إلى جميع الولايات وأمر

---

(١) سورة القصص: الآية ١٥.

أحد قواده قحطبة بن شبيب أن يتبع نصر ومعه لواء عقده له إبراهيم الإمام فسار وراءه من بلد إلى بلد حتّى مرض نصر بالري ومات بساوة فأقبل قحطبة بجنوده واستولى على الري فتم للشيعة خراسان وبلاد الجبل ثم سير قحطبة ابنه الحسن فاستولى على همذان ومنها سار إلى نهاوند فحصرها ولحقه بها أبوه فاجتمعا عليها ثلاثة أشهر ثم فتحت وتلاها شهر زور الموصل. سار قحطبة بعد ذلك واغلا في بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد وكان اجتماعهما غربي الفرات على نحو ٢٣ فرسخا من الكوفة وقبل أن تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولى إمرة الجيش ابنه الحسن وكان قحطبة قبل موته قد قال إذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سلمة الخلال فسلموا الأمر إليه.

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة فسار منها حتى أتى واسطا. وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة خرج منها محمد بن خالد القسري مسوداً فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة فكتب إليه يعلمه فوصل الكتاب إلى ابنه الحسن فارتحل إلى الكوفة فدخلها في المحرم سنة ١٣٢ وسلم الأمر لأبي سلمة الخلال فوجه الحسن إلى قتال ابن هبيرة بواسط وضم إليه قواداً. ووجه حميد بن قحطبة إلى المدائن. ووجه المسيب بن زهير وخالد بن برمك إلى دير قنى. وبعث المهلبي وشراحيل إلى عين التمر. وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة.

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتعلة بالشام والحجاز.

افتضاح الأمر:

مضت هذه المدة كلها وليس عند بني أمية علم بمن تدعو إليه الشيعة فإنهم كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد ﷺ ولا يعلم السر إلا النقباء والدعاة أما العامة فمبلغ علمها أنها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع في يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم إلى أبي مسلم جواب كتاب لأبي مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فأرسل مروان في الحال إلى عامله بدمشق يأمره بالكتاب إلى صاحبه بالبلقاء أن يسير الحميمة ويأخذ إبراهيم بن محمد يوجه به

إليه ففعل العامل ما أمر به وقبض على إبراهيم ولما أحس إبراهيم بما يراد به نعى نفسه إلى أهل بيته وأوصى إلى أخيه أبي العباس وأمر أهله بالسير إلى الكوفة والسمع والطاعة لأبي العباس. أما إبراهيم فحبس في سجن حران مع جماعة من أعداء مروان من بني أمية، ولم يزل في سجنه حتى مات. وكيفية موته مبهمة اختلف فيها المؤرخون فمنهم من قال إنه سقي سما، ومنهم من قال هدم عليه بيت فمات، ومما قيل في رثائه:

قد كنت أحسبني جلدا فضعضعني ... قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم ... بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الإمام الذي عمت مصيبته ... وعيلت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... لكن عفا الله عمن قال آمين

وأما أهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها في صفر سنة ١٣٢ ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال الذي كان يعرف في ذلك الوقت بوزير آل محمد فأنزلوهم في إحدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لا يزال في معسكره بحمام أعين خارج الكوفة.

ويقال إنه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم إلى بني علي، فكاتب ثلاثة من أعيانهم: جعفر الصادق بن محمد الباقر وعبد الله المحض بن حسن بن حسن وعمر الأشرف زين العابدين، وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم، وقال له اقصد أولا جعفر بن محمد فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين، فإن لم يجب فالق عبد الله المحض فإن أجاب فأبطل كتاب عمر وإن لم يجب فالق عمر فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولا ودفع إليه كتاب أبي سلمة فقال مالي ولأبي سلمة وهو صنعة لغيري فقال له الرسول اقرأ الكتاب فقال جعفر لخادمه أدن السراج مني فأدناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق فقال الرسول ألا تجيبه فقال قد رأيت الجواب. ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبله وركب في الحال إلى جعفر وقال هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان فقال له جعفر ومتى صار أهل خراسان شيعتك•أنت وجهت إليهم أبا مسلم هل تعرف أحداً

منهم باسمه أو بصورته فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك فقال عبد اللّه كأن هذا الكلام منك لشيء فقال جعفر قد علم اللّه أني أوجب النصح على نفسي لكل مسلم فكيف أدخره عنك فلا تمن نفسك الأباطيل فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءني مثل الكتاب الذي جاءك، فانصرف عبد اللّه من عنده غير راض. وأما عمر بن زين العابدين فإنه رد الكتاب وقال أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه. أحس بعض القواد بأمر أبي سلمة فأحبطوا ما أراده وذهبوا إلى الكوفة فقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل، كما فعلوا وقد أبقى هذا العمل في نفس أبي العباس ما أبقى فترتب عليه ما يأتي ذكره.

خرج أبو العباس يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول فصلى بالناس وكان في خطبته بعد حمد اللّه والثناء عليه أن افتخر بقرابته من رسول اللّه ﷺ ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بني حرب وبني مروان أثرتهم وظلمهم ثم قال: «وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وما توفيقنا أهل البيت إلا باللّه. يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن علي ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأتاكم اللّه بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المتيح» وبهذه الجملة الأخيرة لقب السفاح.

كان السفاح إذ ذاك موعوكاً فاشتد به الوعك فجلس على المنبر وصعد داود بن علي عمه وكان من أفصح بني العباس فخطب خطبة جاء فيها «إنا واللّه ما خرجنا في هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبني قصرا وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبني عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم لكم ذمة اللّه وذمة رسوله ﷺ وذمة العباس رحمه اللّه أن نحكم فيكم بما أنزله اللّه ونعمل فيكم بكتاب اللّه ونسير في العامة منكم

والخاصة بسير رسول اللّه ﷺ» ثم منى الكوفة بما يحلو في أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به من نصر أهل بيت النبي ﷺ وإعادة حقوقهم وقال في آخر خطبته (ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة رسول اللّه ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد اللّه بن محمد وأشار بيده إلى أبي العباس فاعلموا أن هذا الأمر فينا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم صلوات اللّه عليه).

بعد أن تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح إلى القصر وأجلس أخاه أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل. ثم خرج أبو العباس إلى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داود بن علي.

بعد أن بلغوا هذا المبلغ بقي عليهم أن يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التي بالجزيرة وعلى ابن هبيرة والقوة التي معه بواسط.

كان مروان بحران معه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاختار أبو العباس من أهل بيته عمه عبد اللّه بن علي ليكون قائداً للجنود التي اختيرت لحرب مروان. وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق وكانت الواقعة شديدة جداً انتهت بانتصار عبد اللّه وجنده فهرب مروان واحتوى عبد اللّه معسكره كله وذلك لإحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وكان مع مروان من الجنود ١٢٠ ألفاً من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها. انهزم مروان حتى أتى حران وعاملها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً ولما دنا منه عبد اللّه رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد اللّه فلقيه أبان مسودا مبايعاً له ودخل في طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة.

مضى مروان حتى أتى قنسرين وعبد اللّه يتبعه ثم مضى منها إلى حمص، ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان فلما أحس باقتراب عبد اللّه رحل

عنها فجاءها عبد اللّٰه ودخلها عنوة معترضاً أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل.

مر مروان بالأردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط ومنها خرج إلى بوصير وهي قرية من مركز الواسطي ببني سويف.

أما عبد اللّٰه بن علي بجاءه كتاب من أبي العباس يأمره أن يوجه صالح بن علي في ملاحقة مروان فسار صالح في ذي القعدة سنة ١٣٢ وكان يسير على ساحل البحر والسفن حذاءه حتى وصل إلى مصر ومن هناك سار حتى أتى بوصير وهناك قتل مروان بن محمد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت دولة بني أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة.

وأما يزيد بن عمير بن هبيرة فإنه لما انهزم من جيش خراسان أتى واسطاً وتحصن بها وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب إلى الكوفة فيقاتل حتى يقتل أو يظفر وحذروه واسطاً كيلا يصير في حصار وليس بعد الحصار إلا القتل فخالف تلك الشورى فسير أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتمى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم. ولما طال الأمر أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين وظلوا هكذا أحد عشر شهراً. ولما أتى ابن هبيرة قتل مروان بن محمد طلب بمن معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبي جعفر حتى جعل له أمانا وكتب به كتاباً مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه إلى أبي جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى السفاح فأمر بإمضائه وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه وكان السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم فكتب أبو مسلم إلى السفاح يقول له إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا واللّٰه لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة.

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الأمان لم يجف وقتل معه عدة من وجوه أصحابه ورثاه منقذ بن عبد الرحمن الهلالي بقوله:

منــع العـزاء حـــرارة الصـدر والحـزن عقـد عـزيمـة الصبـــر
لـمــا سمعت بــوقعـة شـملت بـالشيب لـون مفــارق الشعـر
أفنى الحمـاة الغـر أن عـرضت دون الـوفـاء حبـائـل الغـــدر
مــالت حبــائــل أمـرهم بفتى مثــل النجــوم حففن بــالبـدر
عــالي نـعـيـهـم فـقـلـت لــه هــلا أتـيت بـصيـحـــة الحشر
لـلّه دركـ مـن زعـمـت لـنــا أن قـد حوتـه حوادث الـدهــر
من للمنــابــر بعــد مهلكـهم أو من يســد مكــارم الفخــر
فــإذا ذكــرتهــم شـكــا ألمـا قـلبي لـفقــد فــوارس زهـــر
قـتــلى بــدجـلة مــا يـنهـنهـم إلا عــبـــاب زواخـــر البـحـــر
فلتبــك نســوتنــا فــوارسهم خـــير الحمـاة ليــالي الــذعـــر

وبقتل ابن هبيرة انطفأ مصباح الدولة الأموية.

قامت الدولة العباسية ودخل في حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذي وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول اللّه ﷺ وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومكن قواعـده وزان جوانبـه بنو أميـة بن عبد شمس وسنأتي على وصفه بعد أن نبدي ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة.

قامت هذه الدولة بـاسم الدين. والسـلاح الذي استعمـل فيها للتـأثير في العقـول هـو إعـادة الأمـر لآل محمـد ﷺ ونـزعـه من آل مـروان الـذين وصفهم الـداعون بمـا شـاءوا من صفـات النقص والبعـد عن الـدين ووضعـوا في ذمهم أحاديث أسندوها إلى رسول اللّه ﷺ لا يعرفها رجال النقد من المحدثين.

كان ذلك السلاح يصل إلى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها.

اختار القوم لغرس دعوتهم بلاداً كانت قبل مهداً للتشيـع وحب آل البيت وهي الكوفة وخراسان فقديماً قامت بلاد العراق بنصر علي بن أبي طـالـب وقامت لتثأر بالحسين بن علي وجاهدت في نصـرة زيد بن الحسـين وابنه يحيى فلم تتـرك فرصة لذلك إلا انتهزتها ثم اختاروا بلاد خراسان لتكون مشرقـاً لقوتهم وأذاعـوا في ذلـك أحاديث كثيـرة فأعـدوا قلوب أهليهـا لـذلـك. وكـان الـذين دخلوا في

الإسلام من الفرس أقرب من غيرهم إلى التأثر بآراء الشيعة لأنهم لا يفرقون بين خلافة ومُلك وكان الملك عندهم ينال بالإرث وهو منحة يمنحها اللّه للأسرة المالكة فمن عارضها فيه فهو خارج عليها يستحق المقت واللعنة فإذا ألقي إليهم في التعاليم أن بني أمية غصبوا أهل بيت النبي حقهم سهلت إلى ذلك إجابتهم واعتقدوا أن بني أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم ولهذا كان من الوصايا التي بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية (إن قدرت ألا تبقي بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل)، وهي وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وإنما لوحظت فيها الفوائد العاجلة.

وفوق ما تقدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم وكانت لها السيادة على أكثر الأمم العربية، بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالي للعرب يتحكم العرب في رقابهم وفي أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمة التاريخية ويذلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم فرأوا أنهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة يكونون أصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ. وتأثير هذا السبب في الخاصة أكثر منه في العامة: فهذا النزاع كان في الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بني أمية وبني العباس وحدهم.

استعان القوم بأمر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذي أحيته العصبية الجاهلية وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن إخمادها إلا من طريق الدين. وكان تأثيره قد ضعف إذ ذاك. على أن الأمراء كانوا يزيدون من سورته حدة كأنهم رأوا أن سلطانهم لا يتم إلا إذا اجتمعت الأمة وقد أثبت التاريخ أن جميع الأغبياء من الملوك والأمراء متى رأوا مصلحتهم في إيقاع الخلاف والنفرة بين أممهم وعملوا بذلك يزول بسرعة ملكهم.

استعمل في الوصول إلى إحياء الدولة العباسية عسف شديد جداً فقد كان من الوصايا التي ألقيت إلى أبي مسلم (واقتل من شككت فيه) ولا يخفى أن حزم أبي مسلم كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة في قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل إلى

غرضه. وسنبين أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبي مسلم أيضاً. وقد أحصي من قتله أبو مسلم صبرا فكان ستمائة ألف.

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب في جاهليتهم وفي بدء إسلامهم وفي فتوحهم فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم في ذلك معروفة مشهورة فلما دخل بينهم هؤلاء الأغنام سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته واستحقوا بذلك ما حلاهم به محمد بن علي بن طباطبا في كتابه المعروف بالفخري في الآداب السلطانية قال: اعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة.

وصف المملكة الإسلامية حين استيلاء بني العباس:

كانت المملكة الإسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على شاطىء بحر الظلمات وطولها على ما ذكره أبو عبد اللّٰه محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري في كتابه الموسوم بأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢٦٠٠ فرسخ وتمتد عرضاً من شاطىء بحر قزوين إلى أواخر بلاد النوبة وهي منقسمة إلى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات: وها نحن أولاء نذكر هذه الأقسام وما فيها من الولايات:

١ ـ جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة:

الأولى : الحجاز وقصبته مكة ومن مدنه، طيبة وينبع والجار وجدة والطائف وغيرها.

الثانية : اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبته زبيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء.

الثالثة : عمان وقصبتها صحار على شاطىء بحر الهند.

الرابعة : هجر وقصبتها الأحساء.

ويتبع اليمن من النواحي: الأحقاف وبها من المدن حضرموت. ومهرة

وبها من المدن الشحر. ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر. ويتبع الحجاز وادي القرى وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت اللّه الحرام والكعبة المقدسة التي جعلها اللّه قياماً للناس وهي قبلة المسلمين كافة في صلاتهم وبها طيبة وهي مهاجر رسول اللّه ﷺ ومبعث النور الإسلامي.

أمة هذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربي إلا بصحار فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن لغتهم لغة عربية، ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليمن والخوارج بعمان وهجر والسنة فيما عداهما.

وبشمال هذا القسم بادية العرب وهي بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفيفة الطرق طيبة الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ولا مدينة إلا تيماء وفيها اثنا عشر طريقاً توصل إلى مكة منها تسع طولاً يؤدين إلى مكة وثلاث عرضاً يؤدين إلى الشام وبها طريق آخر لوادي القرى يؤدي إليها من البصرة ثم إلى مصر وهذه الطرق هي:

١ ـ طريق مصر	٢ ـ طريق الرمة	٣ ـ طريق الشراة	٤ ـ طريق تبوك
٥ ـ طريق وبير	٦ ـ طريق بطن السر	٧ ـ طريق الرحبة	٨ ـ طريق هيت
٩ ـ طريق الكوفة	١٠ ـ طريق القادسية	١١ ـ طريق واسط	١٢ ـ طريق وادي القرى
١٣ ـ طريق البصرة			

ووقد أجاد وصف هذه الطرق البشاري في كتابه أحسن التقاسيم ص ٢٤٩ وما بعدها فراجعه.

٢ ـ إقليم العراق وبه ست كور:

الأولى : الكوفة وقصبتها الكوفة وهي من المدن الإسلامية وبها من المدن: القادسية وعين التمر.

الثانية : البصرة وقصبتها البصرة وهي من المدن الإسلامية وبها من المدن: الأبلة وعبادان.

الثالثة : واسط وقصبتها واسط وهي من المدن الإسلامية وبها من المدن: فم الصلح.

لرابعة : المدائن وقصبتها المدائن وهي مدينة كسروية وبها النهروان والدسكرة وجلولاء.

الخامسة : حلوان وقصبتها حلوان وبها من المدن خانقين والسيروان.

السادسة : سامراء وقصبتها سامراء وبها من المدن الكرخ وعكبرا والأنبار وهيت وتكريت.

وهذا الإقليم كان يسمى في القديم إقليم بابل وهكذا كان اسمه في التقويم الأول عهد العباسيين ولقد كان زهرة ملك العباسيينّ وأجمل بلدان الدنيا وأثرها وروافده الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا.

وأمة هذا الإقليم نبطية دخل عليها العرب في بلادها فزاحموها وصارت كأنها لهم ولذلك صارت لغة هذا الإقليم عربية وأصح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الإقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا منهم بأي إقليم آخر ما عدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الأقاليم الثلاثة قبل الإسلام، وكان بها سهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسنة بالشام إلا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم. فلما جاء الإسلام اتسق لهم الملك بالإقليمين وكان الشام مهد الدولة الأموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية.

ومساحة العراق طولاً من البحر إلى السن ١٢٥ فرسخا وعرضه من العذيب إلى عقبة حلوان ٨٠ فرسخاً فإذا كسرته كان ١٠٠٠٠ فرسخ.

٣ ـ إقليم الجزيرة: جزيرة أقور أو أثور أو أشور وهي ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور:

الأولى : ديار ربيعة وقصبتها الموصل ومن مدنها: الحديثة وسنجار ونصيبين ودارا ورأس العين وثمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر.

الثانية : ديار مضر وقصبتها الرقة وبها من المدن: باجروان وحصن مسلمة وحران والرها.

الثالثة : ديار بكر وقصبتها آمد وبها من المدن: ميافارقين وحصن كيفا.

وقد نزل العرب قبل الإسلام بهذا الإقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كوره بأسمائهم ولذلك يعتبر إقليماً عربياً محضاً لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم. وينتهي هذا الإقليم إلى حدود الروم وأرمينية.

٤ ـ إقليم الشام وبه ست كور:

الأولى : قنسرين وقصبتها حلب ومن مدنها أنطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش وإسكندرونة ومعرة النعمان.

الثانية : حمص وقصبتها حمص ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقية وانطرسوس.

الثالثة : دمشق وقصبتها دمشق ومن مدنها بانياس وصيدا وبيروت وطرابلس.

الرابعة : الأردن وقصبتها طبرية ومن مدنها صور وعكا وبيسان وأذرعات.

الخامسة : فلسطين وقصبتها الرملة وبها بيت المقدس وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية وأريحا وعمان.

السادسة : الشراة وقصبتها صفد ومن مدنها مآب وعمان وتبوك وأذرح وهذا الإقليم دخله العرب قبل الإسلام وملكوا به وزاحموا من كان به من الأمم القديمة.

ولما جاء الإسلام كان مهداً عظيماً من مهاد الحضارة العربية الإسلامية ولغة أهله عربية.

وحدود هذا الإقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التي على حدوده وحدود الجزيرة يقال لها الثغور، وعندها يكون الجهاد لرد غارة الروم وحفظ البلاد الإسلامية وفتح ما يمكن فتحه من البلدان.

وبهذا الإقليم بيت المقدس وهو ثالث المساجد المقدسة بناه سليمان بن داود عليهما السلام حينما كان ملكاً على بني إسرائيل، واحتفل في بنائه كثيراً ويعظمه جميع الأديان من موسوي وعيسوي وإسلامي.

٥ - إقليم مصر وبه سبع كور على حسب التقويم القديم:

الأولى : الجفار وقصبتها الفرما وبها من المدن البقارة والواردة والعريش.

الثانية : الحوف وقصبتها بلبيس وبها من المدن مشتول وفاقوس وغيرهما.

الثالثة : الريف وقصبتها العباسية وبها من المدن دمنهور وسنهور وبنها العسل وشطنوف ومليج والمحلة الكبيرة ودقهلة.

الرابعة : إسكندرية وقصبتها إسكندرية وبها من المدن رشيد ومريوط والبرلس وذات الحمام.

الخامسة : مقدونيا وقصبتها الفسطاط ومن مدنها العزيزية والجيزة وعين شمس.

السادسة : الصعيد وقصبتها أسوان وبه من المدن قوص وإخميم والبلينا والفيوم وغيرها.

السابعة : الواحات.

وأمة هذا الإقليم كانت في القديم مصرية قبطية ساكنها كثير من الأمم التي ملكتها كاليونان والرومان وغيرهم، وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها. ولما جاء الإسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين فأقاموا في مدنها الكبرى ثم جاءت قبائل كثيرة من قيس في عهد الدولة الأموية وأقامت بالحوف (الشرقية) ثم اختلطت هذه الأمة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاط فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربي والدين الإسلامي وذلك بعد تملك الدولة العباسية.

أما أول عهدها فكان أكثر الفلاحين بالقرى أقباطاً لا يزالون على دينهم.

٦ - إقليم المغرب وهو ثماني كور:

الأولى : برقة وقصبتها برقة وبها من المدن رمادة وطرابلس.

الثانية : إفريقية وقصبتها القيروان وبها من المدن أسفاقس وسوسة وتونس

وبونة وجزيرة بني زغنايه ومنستير.

الثالثة : تاهرت وقصبتها تاهرت وبها من المدن مطماطة ووهران وغيرهما.

الرابعة : سجلماسة وقصبتها سجلماسة وبها من المدن درعة وأمصلي وتازروت.

الخامسة : فاس وقصبتها فاس وتسمى هذه الكورة السوس الأدنى. وأما فاس فمحدثة بعد عهد العباسيين. ومن مدنها البصرة وورغة وصنهاجة وهواره وسلا.

السادسة : السوس الأقصى وقصبتها طرفانة ومن مدنها إغمات وماسة وغيرهما.

السابعة : الأندلس وقصبتها قرطبة وكانت لعهد بني أمية تتبع أمير أفريقية وعليها وال من قبله. وهذا الإقليم كان يسكنه قبل الإسلام البربر وساكنهم فيه كثير من الرومان والويزيغوط الذين ملكوا المغرب قبل الإسلام. فلما جاء الإسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر. إلا أنهم لم يكثروهم لقلتهم ولم يكثر العنصر العربي بها إلا بعد ذلك في منتصف القرن الخامس. فأمة هذا الإقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية واللسان الغالب هو اللسان البربري.

٧ ـ إقليم المشرق وهو إقليم ذو جانبين الأول في الشرق وهو ما كان شرقي جيحون أو أموداريا ويسمى بما وراء النهر أو هيطل والثاني في الغرب وهو ما كان غربي جيحون ويسمى خراسان.

١ ـ ما وراء النهر قال البشاري هذا الجانب أخصب بلاد اللّه تعالى وأكثرها خيراً وفقهاً وعمارة ورغبة في العلم واستقامة في الدين وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدوراً وأرغب في الجماعات مع يساروعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم.

وبهذا القسم ست كور:

الأولى : فرغانة وقصبتها أخسيكت ومن مدنها: نصراباذ وأوزكند ومرغينان وغيرها.

الثانية : اسبيجاب وقصبتها اسبيجاب، ومن مدنها فاراب وترار وطراز وبلاسكون وغيرها.

الثالثة : الشاش وقصبتها بنكث ومن مدنها نكث وغيرها.

الرابعة : أشر وسنة وقصبتها بنجكث.

الخامسة : الصعد وقصبتها سمرقند وهي مصر الإقليم.

السادسة : بخارى وقصبتها بخارى ومن مدنها بيكند.

ووهذا الإقليم يمر به نهر جيحون العظيم ويتشعب منه أنهار كثيرة ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن. فالكور هي الختل وقصبتها هلبك. ثم قواديان ومدينتها نير. ثم خوارزم وهي على حافتي جيحون قصبتها العظمى شرقي النهر وهي كاث ولها قصبة أخرى غربية وهي الجرجانية وعلى النهر من المدن ترمذ وكالف ونويدة زم وفربر وآمل.

ب ـ خراسان وبها تسع كور:

الأولى : بلخ قصبتها بلخ وبها ناحية طخارستان ومن مدنها ولو الج والطالقان.

الثانية : غزنين وقصبتها غزنين وبها من المدن كابل.

الثالثة : بست وقصبتها بست. وبعض الناس يجمع غزنين إلى بست ويجعلها كورة واحدة يسميها كابلستان.

الرابعة : سجستان وقصبتها زرتج.

الخامسة : هراة وقصبتها هراة ومن مدنها باذغيس.

السادسة : جوزجانان وقصبتها اليهودية.

السابعة : مرو الشاهجان وهي القصبة وبها ناحية مرو الروز.

الثامنة : نيسابور والقصبة إيرانشهر وبها من المدن بيهق وطوس ونسا وأبيورد.

التاسعة : قهستان وقصبتها قاين.

وهذا الإقليم من أعمر الأقاليم الإسلامية وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم. أما أهل ما وراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الإسلام قد شملهم لأول عهد العباسيين. وقد دخل العرب هذا الإقليم ولم يتجاوزا النهر إلا في عهد الدولة الأموية وقد كثرت فتوحهم فيها وراء النهر في عهد قتيبة بن مسلم الباهلي العامل من قبل الحجاج. ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الإقليم وما يأتي بعد من الأقاليم الفارسية ولكن الدين الإسلامي شملهم فصار منهم أمة إسلامية قادرة عمها العلم ولا سيما الديني ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء في العلوم كافة.

قال البشاري في أحسن التقاسيم: وألسنتهم مختلفة أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة ولجاج، وأهل طوس ونسا أحسن لساناً، وفي كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم يجهرون فيه. ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملا وطولا ومدا في أواخر الكلم. ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح. ولسان هراة وحش تراهم ينقمون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثاً بالقوة إلى آخر ما قال.

٨ ـ إقليم الديلم به خمس كور:

الأولى : قومس وقصبتها الدامغان ومن مدنها سمنان وبسطام.

الثانية : جرجان وقصبتها شهرستان ومن مدنها استراباذ وآبسكون.

الثالثة : طبريستان وقصبتها آمل ومن مدنها سالوس وسارية.

الرابعة : الديلمان وقصبتها بروان.

الخامسة : الخزر وقصبتها إتل ومن مدنها بلغار وسمندر وبهذه الكورة نهر إتل وهذا الإقليم لم يفش الإسلام به إلا في عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيراً باللغة العربية.

٩ - إقليم الرحاب وهو ثلاث كور:

الأولى : أران وقصبتها برذعة ومن مدنها تفليس وشروان وباب الأبواب وملاز كرد.

الثانية : أرمينية وقصبتها أردبيل ومن مدنها مدليس وخلاط وخوى وسلماس وأرمية ومراغة ومرتد وقاليقلا.

الثالثة : أذربيجان وقصبتها أردبيل ومن مدنها تبريز.

وهذا الإقليم به كثير من الأجناس والألسنة فيه الكرد والأرمن والفرس وغيرهم ويخترقه نهر الكر وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس وبه نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الإسلام بهذه البلاد إلا في عهد الدولة العباسية واللغة العربية به قليلة.

١٠ - إقليم الجبال وبه ثلاث كور:

الأولى : الري وقصبتها الري وبها من آوة وساوة وقزوين وأبهر.

الثانية : همذان وهي القصبة ومصر الاقليم.

الثالثة : أصفهان وقصبتها اليهودية.

١١ - إقليم خوزستان ويعرف بالأهواز وبه سبع كور وهي:

الأولى : السوس وهي تتاخم العراق والجبال.

الثانية : جنديسابور وهي القصبة وكانت مصر الإقليم.

الثالثة : تستر وهي القصبة وليس بالإقليم أجل منها.

الرابعة : عسكر مكرم وهي القصبة وبها من المدن جويك وزيدان وسوق الثلاثاء.

الخامسة : الأهواز وبها من المدن تيري ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى.

السادسة : الدورق كورة تتاخم العراق من مدنها آزر وأجم وغيرهما. وقصبتها الدورق.

السابعة : رامهرمز كورة تتاخم فارس وهي القصبة.

ولهذا الإقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزي.

١٢ ـ إقليم فارس وبه ست كور:

الأولى : أرجان وهي القصبة.

الثانية : أردشير خرة وقصبتها سيراف وهي ممتدة على البحر.

الثالثة : درابجرد وهي القصبة وكانت في القديم مصر الإقليم.

الرابعة : شيراز قصبتها على اسمها وهي مصر الإقليم وبها من المدن البيضاء وفسا.

الخامسة : سابور وقصبتها شهرستان ومن مدنها كازرون والنوبندجان وتوز.

السادسة : اصطخر وهي أوسع الكور وقصبتها على اسمها.

وبهذا الإقليم عدد عظيم من الأكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها.

١٣ ـ إقليم كرمان وبه خمس كور:

الأولى : بردسير وقصبتها على اسمها ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند.

الثانية : نرماسير وهي القصبة.

الثالثة : السيرجان وقصبتها على اسمها. وهي مصر الإقليم.

الرابعة : بم وهي تتاخم فارس.

الخامسة : جيرفت وهي على البحر.

١٤ ـ إقليم السند وبه خمس كور:

الأولى : مكران وقصبتها بنجبور.

الثانية : طوران وقصبتها قصدار.

الثالثة : السند وقصبتها المنصورة ومن مدنها ديبل.

الرابعة : ويهند والقصبة باسمها.

الخامسة : قنوج وهي القصبة.

وبهذا الإقليم نهر مهران وهو يشبه النيل في الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح.

فهـذه أربعة عشر إقليـماً منها ستـة عربيـة وثمانيـة أعجمية والمـراد بكـونها عربَية. تغلب اللسان العربي على أهلها وإلا فـأصل إقليم العـرب هو جـزيرتهم فحسب.

وتشتمل هذه الأقاليم على ثلاث وثمانـين كورة يجبى منهـا جميعها الخـراج إلى حاضرة الدولة حيث يحمل منها ما بقي عن مصروفها وذلك شيء عظيم.

هذا هو الملك الطويل العـريض الذي ورثـه العباسيـون بهمة شيعتهم من أهل خراسان. وليس عدد ولاة هـذه الدولـة بعدد الأقـاليم التي بيناهـا بل كـان بعض الأقـاليم فيه الـواليان والثـلاثـة وبعضهـا قـد يضم إلى إقليم آخـر حسب الأحوال.

ففي بعض أيام بني أمية قد جمع العراقان وفارس كلها لوال واحد كما كان الحجاج بن يوسف. فقـد كان أمـير المشرق كله من نهر الفـرات إلى نهر جيحون وله ولاة من قبله على الأقاليم أو الكور التي تحت يده. وفي بعض الأحيان كانت تضم أفريقية كلها إلى والي مصر ويرسل من قبله والياً على أفريقية.

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لـوال واحد بـل كان للحجـاز وال ولليمن وال. أمـا اليمامـة وعمان فـربما أضيفتـا إلى والي العـراق كـما كـان الحجـاج بن يوسف.

ونحن الآن شارعون في تفصيل أحوال بني العباس وتبيين ما فعلوه في هذا الميراث مقارنين ذلك عند اللزوم بما كان عليه الحال في الدولة الأموية.

فصل في ولاية العهد والبيعة

الأصل في انتخاب الخليفة رضا الأمة فمن ذلك يستمد قوتـه. هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول اللّه ﷺ فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم. لا استناداً إلى نص أو أمر من صاحب الشريعة ﷺ. وبعد أن انتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهدوه على السمع الطاعة فيما فيه رضا اللّه سبحانه كما أنه عـاهدهم عـلى العمل فيهم بأحكام الدين من كتاب اللّه وسنة رسـول اللّه ﷺ. وهذا التعـاهد المتبادل بين الخليفة والأمة هو معنى البيعة تشبيهاً له بفعل البائـع والمشترى فـإنهما

كانا يتصافحان بالأيدي عند إجراء عقد البيع.

فمن هذه البيعة تكون قوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها من ألزم ما يوجبه الدين وتحتمه الشريعة.

وقد سن أبو بكر رضي اللَّه عنه طريقة أخرى في انتخاب الخليفة وهي أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة وقد وافق الجمهور الإسلامي على هذه الطريقة ورأى أن هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد.

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الأدنين معاوية بن أبي سفيان رضي اللَّه عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط. وقد بينا في تاريخ الدولة الأموية الأغلاط التي ارتكبها الأمويون في ولاية العهد وأنها كانت من الأسباب التي قضت عليهم.

اتبع بنو العباس في ولاية العهد الأسلوب الذي سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والإخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخلف بما أصاب السلف كما يتضح مما يأتي:

ولي السفاح عهده رجلين يلي أحدهما الآخر أخاه أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي. فلما تولى أبو جعفر وشب ابنه محمد المهدي عز عليه أن يلي بعده ابن أخيه ويحرم ابنه فساوم عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدي فأظهر عيسى إباء فساومه خطة لا يرضى بها إلا الذليل حتى أظهرت ذات نفسه في شعر قاله وهو:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما ... إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم ... كأس المنية لولا اللَّه والرحم

ويقال إن أبا جعفر سقاه شراباً يتلفه فكاد يموت منه ولكنه أبل من علته فقال في ذلك شعراء الدولة :

أفلت من شربة الطبيب كما — أفلت ظبي الصريم من فتره
من قانص ينفذ الفريص إذا — ركب سهم الحتوف في وتره
دفع عنك المليك صولة ليث — يريد الأسد في ذرى خمره
حتى أتانا وفيه داخلة — تعرف في سمعه وفي بصره
أزعر قد طار عن مفارقه — وحف أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى إلى ما طلب منه هذا مع ما كان من حسن أثر عيسى بن موسى في الدولة واستهدافه للنوائب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور.

لما ولي المهدي وشب ابناه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى بن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولي المهدي العهد ولده فكان ما أراد بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الأذى ومع ما رآه المهدي من نتائج تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولي ولديه موسى الهادي فهارون الرشيد.

جاء الهادي فحاول أن يخلع أخاه هارون مع أن ابنه لم يبلغ الحلم فلم يفلح لأن الدفاع عن الرشيد كان قوياً وقربت منية الهادي فأخرت النتائج السيئة ويقال إنه مات مسموماً.

ولي الرشيد ففكر في ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه إلى أخيه محمد الأمين لأنه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور والمأمون أمه أمة جليبة من بلاد فارس وكان ذلك العقد سنة ١٧٣ وسن الأمين لا تتجاوز ثلاث سنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولي العهد بعد الأمين وذلك برأي جعفر بن يحيى البرمكي وسعيه فعقد له سنة ١٨٣ . ثم طلب عبد الملك ابن صالح بن علي من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه المؤتمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والري إلى همذان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم فألقى بذلك بأسهم بينهم

ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال بعض شعراء العصر:

أقول لغمة في النفس مني ... ودمع العين يطرد اطرادا
خذي للهول عدته بحزم ... ستلقى ما سيمنعك الرقادا
فإنك إن بقيت رأيت أمراً ... يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأي ... لقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم ... لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وأورث شمل ألفتهم بدادا
وألقح بينهم حرباً عواناً ... وسلس لا جتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان ... وألزمها التضعضع والفسادا
ستجري من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبداً عليهم ... أغيا كان ذلك أم رشادا

وحج الرشيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبد اللّه المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد اللّه على محمد وعليهم وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد وإشهاده عليها بها اللّه وملائكته ومن كان في الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام وتقدم إلى الحجبة في حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما وقرىء الكتابان في داخل البيت الحرام بمحضر من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون.

وقد أكد الأمر في العهدين تأكيداً بلغ الغاية من التشديد ولكن طبيعة الملك غلابة. ما عتم الأمين أن استخلف حتى حاك في صدره ما حاك في صدر أسلافه وهو تقديم ابنه في ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده بخراسان فأباه طبعاً لأن من ورائه قوة تدفع عنه، وكان من

جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التي كانت بين جند الأمين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصراً شنيعاً وانتهى الأمر بخلع الأمين ثم قتله. وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة في أكثر البلدان الإسلامية ولو كانت لخصومهم من آل علي قوة منظمة لنجحوا وثلوا عرش ملك العباسيين.

لم يعهد المأمون إلا لأخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد إلا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكل اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق.

جاء المتوكل وغلطه جده الرشيد فبايع بولاية العهد لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر بالله ومحمد المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله، وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهود والآخر أبيض وهو لواء العمل، فأقطع أكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن ووالأهواز والسند ومكران. وأقطع ثانيهما خراسان وما يضاف إليها وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وكور فارس، وأقطع ثالثهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين.

حذا هذا الرجل حذو جده مع ما رجى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم في أخريات أيامه أن يخلع المنتصر أكبر الإخوة من ولاية العهد فتمالأ المنتصر وجماعة من الأتراك على قتله فقتلوه، وتولى المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث أن خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته. فأما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعة، وأما المعتز فأبى وقال إن أردتم القتل فشأنكم. ثم أجاب بعد تهديد ووعيد وأشهد كلا الأخوين على نفسه بالخلع القضاة وبني هاشم والقواد ووجوه الناس؛ هذا مع أن المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح أن يلي العهد. وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يتمتع بما استعجل به فمات من غير عهد.

اختير للخلافة بعده أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم أخرجها

الموالي عن أولاد المتوكل خوفاً أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم.

اختل نظام الخلافة ببغداد في ذلك الوقت إذ صار كبار الأتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة يولون من شاءوا وبعد زمن يخلعونه ثم يولون غيره حتى أتى المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم فعهد إلى ابن أخيه أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضد إلى ابنه المكتفي ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل في الخلفاء حتى جاءت دولة بني بويه وفي عهدهم لم يكن للخلفاء إلا الاسم، والتولية والعزل لبني بويه وجميع الخلفاء الذين ولوا في عهدهم خلعوا إلا أحمد القادر بالله فإنه طال حكمه وعهد من بعده إلى ابنه القائم.

بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة إلى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار حيث أغار هولاكوخان حفيد جنكيزخان موحد التتر وقتل المستعصم سنة ٦٥٦. وخلاصة القول أن ولاية العهد في النصف الأول من خلافة بني العباس كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت أحد منهم لوضع نظام لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان. أما البيعة فكانت في الصدر الأول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ثم زيدت عليه أيمان في أواخر الدولة الأموية وزادت الأيمان كثيراً في أوائل عهد الدولة العباسية. ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللذين كتبهما الأمين والمأمون وحفظا في البيت الحرام. وقد أثارت تلك الأيمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الأهمية:

أولاهما ـ طلاق المكره لأنه لا يخفى أن من ضمن تلك الأيمان يمين الطلاق. من رأي فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سبباً لإهانات شديدة أصابته في عهد المنصور ثاني خلفاء العباسيين، وقد تغلب بسبب ذلك رأي فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع.

الثانية ـ إضافة الطلاق إلى الزوجة التي لم تكن وقت اليمين، فإن البيعة لم

تكن لتكتفي بطلاق الزوجات الموجودات بل تعدت ذلك إلى من يتزوجهن الحالف إلى خمسين سنة أو ثلاثين سنة وكذلك إضافة العتق إلى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة إلى أجل معين أو غير معين. قال فقهاء العراق إن ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف. وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعي محمد بن إدريس، وقد تغلب طبعاً رأي فقهاء العراق.

١ ـ السفاح

هو أبو العباس عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس. وأمه ريطة بنت عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عبد المدان الحارثي. ولد سنة ١٠٤ بالحميمة وهي القرية التي كان أبوه وجده نازلين بها وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه إبراهيم ولما أحس إبراهيم باقتراب منيته عهد لأخيه أبي العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته إلى الكوفة فسار إليها وبويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة ١٣٢ (٣٠ أكتوبر سنة ٧٤٩) وكان مروان لا يزال حياً، ثم قتل مروان لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ (٥ أغسطس ٧٥٠). ومن هذا اليوم يبتدىء التاريخ خلافة أبي العباس ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة الأنبار يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ١٣٦ (٩ يونية سنة ٧٥٤) فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر من لدن بويع إلى أن مات وأربع سنوات وأربعة عشر يوماً من لدن قُتل مروان.

وكان يعاصره في مملكة الروم الشرقية بالقسطنطينية قسطنطين الخامس (٧٤١ ـ ٧٧٥) وكان يملك فرنسا في عهده بابن ببراف من العائلة الثانية الكارولونجيانية، ابتدأ ملك أبي العباس بالكوفة ومنها انتقل إلى الحيرة ثم إلى الأنبار ولم يكن بنو العباس يثقون بأهل الكوفة لأنهم كانوا يتشيعون لآل أبي طالب.

الأحوال الداخلية:

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين فإنه كان لا يزال في

الأمة العربية قواد ضلعهم مع بني أمية ولا يزال عندهم شيء من القوة فكانوا يثورون إما خوفاً على أنفسهم من بني العباس الذين أظهروا قسوة شديدة في معاملة مغلوبيهم وإما طمعاً في إعادة تلك الدولة العربية التي كان لهم منها نصيب وافر. فقضى أبو العباس أكثر حياته في إخماد تلك الثورات التي كانت كثيرة ولا سيما بالشام والجزيرة والتغلب على يزيد بن هبيرة الذي كان أمير العراق لمروان بن محمد وتحصن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها.

وقد كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التي لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا بني أمية ومع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الأثر المحمود في إحيائها.

من الناس من إذا ظفر بخصومه قابلهم بالعفو عن ماضيهم واستصلح بذلك قلوبهم، ولعمري إن ذلك لمن عزم الأمور، وليس يكون إلا ممن استشعر من نفسه تمام القدرة ورأى أن سلطانه إنما يتم إذا ائتلفت القلوب المتنافرة. فأما من خاف عود القوة إلى عدوه المغلوب أو كان، يرى سلطانه لا يكون إلا على فرقة رعيته فإنه يقسو على من ظفر به قسوة تختلف بحسب الأحوال والاستعداد.

انظروا إلى ما فعله رسول الله ﷺ حينما ظفر بخصومه أهل مكة وهم الذين تحالفوا على قتله وأخرجوه من بلده ثم جردوا السيوف لحربه وهيجوا الأحزاب من قبائل العرب ليكونوا عليه في دار هجرته إنهم فعلوا ذلك. لكنه لما ظفر بهم في السنة الثامنة من الهجرة قال لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم! فقال لهم كما قال يوسف الصديق: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين». أما بنو العباس فقد قسوا في معاملة بني أمية قسوة ربما لم نجد لها مثلاً في الدول التي قامت على أثر دولة أخرى. فعل ذلك السفاح بالعراق وعبد الله بن علي بالشام ونهر أبي فطرس وسليمان بن علي بالبصرة وداود بن علي بالحجاز.

فأما السفاح فقد روى أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني بسنده قال:

كان أبو العباس جالساً في مجلسه على سريره وبنو هاشم دونه على الكراسي وبنو أمية على الوسائد قد ثنيت لهم، وكانوا في أيام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسي فدخل الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين بالباب رجل حجازي أسود راكب على نجيب متلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك قال هذا مولاي سديف يدخل فدخل فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه وأنشأ يقول:

أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بني العباس
بالصدور المقدمين قديما ... والرؤوس القماقم الرؤاس
يا أمير المطهرين من الذم ويا ... رأس منتهى كل رأس
أنت مهدي هاشم وهداها ... كم أناس رجوك بعد إياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رقلة وغراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والأتعاس
خوفهم أظهر التودد منهم ... وبهم منكم كحز المواسي
أقصهم أيها الخليفة واحسم ... عنك بالسيف شأفة الأزجاس
واذكرن مصرع الحسين وزيدا ... وقتيلا بجانب المهراس
والإمام الذي بحران أمسى ... رهن قبر ذي غربة وتناسى

فتغير لون أبي العباس وأصابه زمع ورعدة فالتفت بعض ولد سليمان بن عبد الملك إلى رجل منهم فقال قتلنا والله العبد ثم أقبل أبو العباس عليهم وقال: يا بني الفواعل أرى قتلاكم من أهلي قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون بالدنيا خذوهم فأخذتهم الخراسانية بالكافركوبات فأهمدوا، إلا ما كان من أمر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فإنه استجار بداود بن علي فأجاره واستوهبه من السفاح.

وهذا عمل شنيع جداً ولولا تضافر الروايات بالحادثة لما تحملنا عناء تسطيرها وقد بلغ الضعف الإنساني حده بالرجل ولا يستغرب هذا الفعل من جماعة كان من أصولهم قتل أوليائهم لأقل ريبة أو شبهة. وهؤلاء أعداؤهم

بالأمس يخافون أن يكون لهم أنصار فيعيدون الحرب جذعة.

ودخل سديف هذا على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك فأنشده:

لا يغرنك ما ترى من أناس إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح بسليمان فقتل. ومما قاله سديف هذا يهيج السفاح:

كيف بالعفو عنهم وقديماً قتلوهم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد يا لها من مصيبة وترات
والإمام الذي أصيب بحرا ن إمام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل أحمد لا عفا الذنب لمروان غافر السيئات

وأما عبد الله بن علي فكان للأمويين منه يوم عصيب بنهر أبي فطرس بالشام تتبع من كان بالشام من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذوهم ولم يفلت منهم أحد إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس فقتلهم ولما فرغ من قتلهم قال:

بني أمية قد أفنيت جمعكم فكيف لي منكم بالأول الماضي
يطيب النفس أن النار تجمعكم عوضتم من لظاها شر معتاض
منيتم لا أقال الله عثرتكم بليث غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظي لفوت منكم فلقد منيت منكم بما ربي به راضي

ولم يكفه ذلك بل عمد إلى قبور بني أمية فنبشها حتى يمحو آثارهم فنبش قبر معاوية ابن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطا مثل الهباء ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد. ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحاً لم تبل منه إلا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح.

وأما سليمان بن علي فإنه قتل بالبصرة جماعة منهم أحضرهم وعليهم

الثياب الموشية فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فقتلوا على الطريق.

وأما داود بن علي فقتل منهم بمكة والمدينة عدداً وافراً وكان قد حضر إلى مكة ومعه عدد من بني هاشم وعدد من بني أمية فأنشده إبراهيم بن هرمة قصيدة يقول فيها:

فلا عفا اللّه عن مروان مظلمة ... ولا أمية بئس المجلس البادي
كانوا كعاد فأمسى اللّه أهلكهم ... بمثل ما أهلك الغاوين من عاد
فلن يكذبني من هاشم أحد ... فيما أقول ولو أكثرت تعدادي

فشمر عن ساعده في قتل الأمويين حتى لم يبق أحداً إرضاء لشهوة الانتقام التي تمكنت من قلوب بني العباس ولم تخجلهم تلك الوحشية القاسية.

ومما قيل من الكلام الجيد في رثاء هؤلاء التعساء ما قاله مولاهم عبد اللّه بن عمر الغبلي

تقول أمامة لما رأت ... نشوزي عن المضجع الأنفس
وقلة نومي على مضجعي ... لدى هجعة الأعين النعس
أبي ما عراك؟ فقلت الهمو ... م عرون أباك فلا تبلسي
لفقد الأحبة إذ نالها ... سهام من الحدث المبئس
رمتها المنون بكل نكل ... ولا طائشات ولا نكس
بأسهمها المتلفات النفو ... س متى ما تصب مهجة تخلس
فصرعاهم في نواحي البلا ... د ملقى بأرض ولم يرمس
تقي أصيب وأثوابه ... من العيب والعار لم تدنس
وآخر قد دس في حفرة ... وآخر قد طار لم يحسس
إذ عن ذكرهم لم ينم ... أبوك وأوحش في المجلس
فذلك الذي غالني فاعلمي ... ولا تسألي بامرىء متعس
أذلوا قناتي لمن رامها ... وقد ألصقوا الرغم بالمعطس

وكانت هذه المعاملة الشنيعة سبباً لهروب يعسو بهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك إلى المغرب وتأسيسه بها مملكة واسعة الأطراف أعاد فيها

مجد بيته وكانت تناصي في العلو والاحترام خلافة بني العباس في المشرق على صغر رقعتها.

لم يزل بنو العباس يسومون بقايا بني أمية سوء العذاب فاختفى بعضهم وهرب بعضهم وكان ممن اختفى عمروو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان فلما رأى أنه لا يكون في قبيلة ولا ناحية إلا شهر أمره بها اعتزم أن يفدي حرمه بنفسه وصار إلى سليمان بن علي بالبصرة فقال له: أصلح اللّه الأمير لفظتني البلاد إليك ودلني فضلك عليك فإما قبلتني غانماً وإما رددتني سالما فقال: ومن أنت ما أعرفك فانتسب له فقال سليمان مرحباً بك اقعد نتكلم آمنا غانما ما حاجتك فقال. إن الحرم اللواتي أنت أقرب الناس إليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه فدمعت عينا سليمان ثم قال يا ابن أخي يحقن اللّه دمك ويحفظك في حرمك ويوفر عليك مالك واللّه لو أمكنني ذلك في جميع أهلك لفعلت فكن متواريا كظاهر وآمنا كخائف ولتأتني رقاعك فكان عمرو يكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه وعمه. ثم كتب سليمان إلى السفاح (يا أمير المؤمنين إنه قد وفد وافد من بني أمية علينا وإنا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقطع وترفع ولا توضع فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل وإن فعل فيجعل كتاباً عاماً إلى البلدان نشكر اللّه تعالى على نعمه عندنا وإحسانه إلينا) فأجابه إلى ما سأل فكان هذا أول أمان بني أمية بعد أن بدد شمل سرواتهم قتلاً وتشريداً واطمأن من جهتهم بال السفاح ولكن بعد أن فتح على نفسه وعلى من يخلفه بعده من آل بيته فتحاً لا يمكنه رتقه وهو، وجود خلافة أخرى إسلامية بالجنوب الغربي من قارة أوروبا.

ولم تكن الشدة في المعاملة قاصرة على أعدائهم بل نال أولياءهم منها شيء عظيم لا ننسى أن من أعظم الرجال أثراً في قيام هذه الدولة أبا سلمة حفص بن سليمان الذي كان يقال له وزير آل محمد: لما تم الأمر لبني العباس اتهموه بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل علي بن أبي طالب وكانوا يريدون قتله لكنهم أحبوا مشاورة أبي مسلم في ذلك فبعث السفاح أخاه أبا جعفر إلى خراسان

لمقابلة أبي مسلم واستشارته في ذلك فسار أبو جعفر حتى جاء مرو، وهناك أخبر أبا مسلم خبر أبي سلمة فقال أكفيكموه ثم انتدب رجلا وأمره أن ينطلق إلى الكوفة فيقتل أبا سلمة حيث لقيه فقدم الرجل الكوفة وتربص لأبي سلمة حتى خرج من عند السفاح وقتله غيلة في طريقه وأشاعوا أن الخوارج قتلوه ثم قتل بعد ذلك أبو مسلم جميع عماله بفارس هكذا ذهبت حياة هذا الرجل ذيْ الأثر الصالح في دولتهم من غير تحقيق أمره ولا استماع لحجته بل فعلوا به فعل من لا نظام لهم ولا دولة.

وفي هذا الوقت اتهم أبو مسلم بتلك التهمة رجلاً آخر لا يقل أثراً عن أبي سلمة وهو سليمان بن كثير الذي قال في حقه إبراهيم الإمام (ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني) فأحضره وقال له أتحفظ قول الإمام لي من اتهمته فاقتله؟ قال نعم قال فإني قد اتهمتك: فقال أنشدك اللّه قال لا تناشدني اللّه وأنت منطو على غش الإمام فأمر به فضرب عنقه. قتل الرجل بعد استقرار الأمر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها ولم تنفعه سابقته ولا حسن أثره.

وعلى الجملة فإن حياة أبي العباس انقضت كلها في الخلاص من بني أمية والاطمئنان من جهة كل من يرتابون في إخلاصه فسفكت دماء كثيرة وأحدثت قدوة سيئة في نكث العهود واغتيال المخالفين.

وكان أكبر الرجال في عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال.

١ ـ أبو مسلم الخراساني بالمشرق.
٢ ـ أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق.
٣ ـ عبد اللّه بن علي بالشام ومصر فهؤلاء الثلاثة كانوا أساطين دولته وعلى أيديهم كان كل ما يجري فيها من خير وشر إلا أن هؤلاء الثلاثة لم يكن عندهم إخلاص بعضهم لبعض فإن أبا جعفر كان يحسد أبا مسلم على سلطانه النافذ وكلمته المطاعة حتى طلب من السفاح أن يغتاله وأكثر في ذلك

وكان السفاح يوافقه لولا خوفه من الخراسانية أن يعيدوا الحرب جذعة. وعبد اللّه بن علي كان يطمع أن تكون الخلافة له بعد السفاح لما له من سابق الخدمة في تأسيس الدولة وأنه الذي قام بهزيمة مروان وقطع دابر بني أمية وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر. فكانت هذه الأفكار سبباً في حوادث جسام سيمر بكم ذكرها.

أراد أبو مسلم القدوم من مرو على السفاح فكتب إليه يستأذنه في الحج وأذن له ولما كان السفاح لا يميل إلى تولية أبي مسلم موسم الحج أرسل إلى أخيه أبي جعفر يأمره أن يستأذنه في الحج ففعل وأذن له وبطبيعة الحال ولاه الموسم ولم يكن لأبي مسلم أن يظهر اشمئزازه من تقدم أبي جعفر عليه وإن كان قد قال شيئاً من ذلك لبعض خاصته حيث قال أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا.

ولما وصل أبو مسلم الأنبار قال له السفاح لولا أن أبا جعفر أرسل إلي يستأذنني في الحج هذا العام لوليتك الموسم. وقد حج في هذا العام وهو سنة ١٣٦ فحلان ومرا من طريق واحدة يقدم أحدهما الآخر، وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه في الطريق ما يزيد في حسد أبي جعفر له وكان ذلك من متممات عزمه على الفتك به.

كان معظم الولاة للسفاح من أعمامه وبني أعمامه. وكان في عهده من الإصلاح الداخلي ضرب المنار والأميال من الكوفة إلى مكة وكانوا يمسحون الأرض بالذراع الهاشمية وعند تمام الميل يكتبون عليه كلمة واحد ثم اثنين وهكذا وقد جعلوا في الطريق مناراً به يأمن السارون الضلال في تلك الفيافي وهو عمل عظيم.

وكانت قاعدة الخلافة في عهد السفاح الكوفة أولاً ثم انتقل منها إلى الحيرة ثم انتقل أخيراً إلى الأنبار ونقل إليها دواوينه وهي التي بات فيها.

ولاية العهد

في سنة ١٣٦ عقد السفاح لأخيه أبي جعفر الخلافة من بعده وجعله ولي

عهد المسلمين ومن بعد أبي جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن علي وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهـل بيته ودفعـه إلى عيسى بن موسى وقد ابتدأ السفاح بفعله هذا الغلطة الشنيعة التي سبق بها في عهد بني أمية وهي تـولية اثنـين العهد وكـانت من أسبـاب مـا أصـاب بني أميـة من الخـلاف والفرقة .

وفاة السفاح :

أصيب السفاح بالجـدري وهو بـالأنبار وتـوفي بها في ١٣ ذي الحجـة ١٣٦ ودفن بالأنبار في قصره وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته .

٢ ـ المنصور

هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالحميمة سنة ١٠١ ولما انتقل أبو العباس من الحميمة إلى الكوفة كان فيمن معه. ولما أفضت الخلافة إلى أبي العباس كان عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الخلافة وفي السنة التي توفي فيها أبو العباس عقد العهد لأخيه أبي جعفر وكان إذ ذاك أميراً على الحج ثم توفي السفاح وأبو جعفر بالحجاز فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقيه الرسول بأحد المنازل عائداً بعد انتهاء الحج. وقد تمت البيعة له في اليوم الذي توفي فيه أخوه (٨ يونيه سنة ٧٥٤) واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ١٥٨ (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥) فكانت خلافته ٢٢ سنة هلالية إلا ستة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨ ـ ١٧٢).

ويعاصره في فرنسا بابن ببراق ثم شرلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤) ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس.

الأحوال لعهد المنصور

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها ولم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين لأنه لم تبق لهم بقية يخاف منها وإنما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات:

الأولى : منافسة عمـه عبد اللّٰه بن عـلي له في الأمـر لما كـان له من نبـاهة الذكر في بني العباس ولأنه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خـراسان وأهـل الشام والجزيرة والموصل الذي أمره عليهم السفاح قبـل وفاتـه ليغزو بهم الـروم وقد أظهر المنصور خوفه هذا لأبي مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له.

الثانية : من عظمة أبي مسلم الخراساني مؤسس الدولة فـإنه كـان يرى لـه من الصولة وشدة التمكن في حياة أخيه ما لم يكن يرى معه أمراً ولا حكماً ومثـل المنصور في علو نفسه لا يرضيه أن يكـون له في الأمـر شريـك ذو سطوة وسلطان مثل أبي مسلم على أن هناك أمراً آخر ربما كان يدور بخاطره وهـو أن يستقل أبـو مسلم بـأمر خـراسان ويخلع المنصـور ثم يختار للخـلافة رجـلاً آخـر يكـون تحت تصرفه وسلطانه فيعود الأمر لأهل فارس.

الثالثة : وهي أقوى هذه الجهـات الثلاث خـوفه من بني عمـه آل علي بن أبي طـالب الذين لا يـزال لهم في قلوب الناس مكـان مكين وأخصهم محمـد بن عبد اللّٰه بن حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب لما سيأتي بيانه فكـان المنصور يتخوف أن يخرج عليه طالباً بالخلافة والذي كان يزيد هواجسـه أنه عـام حج في حياة أخيه لم يحضره محمد ولا أخوه إبـراهيم ابنا عبـد اللّٰه مع من شهـده من سائر بني هاشم.

كان المنصور يجمع إلى الجرأة وبعد الهمة: المكر والدهـاء فعزم أن يضـرب أعداءه بعضهم ببعض حتى يستريح منهم جميعاً.

عبد اللّٰه بن علي

أرسل عيسى بن موسى إلى عبد اللّٰه بن علي ببيعـة المنصور وعبـد اللّٰه غاز فانصرف بمن معه من الجيوش قـد بايـع لنفسه حتى بلغ حـران وقد علم بـذلك المنصور وقد نـزل الأنبار وجمـع بها خـزانته ودواوينـه فاستحضر أبـا مسلم وسيره لحـرب عبد اللّٰه فسـار أبو مسلم نحـو عبـد اللّٰه بحـران وقـد جمـع إليـه الجنـود والسلاح والطعام والعلوفة وما يصلحه وخندق حول معسكـره وكان جنـده مؤلفاً من أهل الشام والجزيرة وأهل خراسان فخاف ألا يناصحه أهل خراسان إذا رأوا

أبا مسلم مطلا فقتل منهم نحو سبعة عشر ألفاً أمر صاحب شرطته فقتلهم وربما كان هذا العدد مبالغاً فيه ولكنه على كل حال قتل منهم عدداً كبيراً فضعضع من قوته وجلل نفسه من العار ما لا يمحوه الزمان باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم. ومما دل على قلة حزمه أنه كان من ضمن القواد الذين معه حميد بن قحطبة وهو من كبار القواد في الدولة العباسية فأراد أن يستريح منه ولكنه لم يجرؤ أن يقتله في المعسكر خوفاً من تغير الجند فكتب له كتاباً ووجهه إلى حلب وعليها زفر بن عاصم وفي الكتاب إذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه، ولما كان حميد ممن لا تغرهم هذه الخدعة فك الكتاب في الطريق وقرأه ولما علم ما فيه دعا أناساً من خاصته فأخبرهم الخبر وأفشى إليهم أمره وشاورهم وقال من أراد منكم أن ينجو ويهرب فليسر معي فإني أريد أن آخذ طريق العراق ومن يرد منكم أن يحمل نفسه على السير فلا يفشين سري وليذهب حيث أحب فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه وبذلك فقد عبد الله قائداً محنكاً مثل حميد.

ترك عبد الله مدينة حران وأقبل إلى نصيبين فاتخذها معسكراً وحصنها فأقبل إليه أبو مسلم وكان داهية قد مارس الحروب ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدبيره فأراد أن يحتل موقع عبد الله لحصانته فكتب إليه لم أومر بقتالك ولم أوجه له ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام وإنما أريدها ولم تكن هذه الحيلة لتنطلي على عبد الله لأنه يعرف مكايد خصمه ولكن جند الشام الذين معه قالوا له كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا وفيها حرمنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا ولكنا نخرج إلى بلادنا فنمنع حرمنا وذرارينا ونقاتله إن قاتلنا فقال لهم عبد الله والله ما يريد الشام وما وجه إلا لقتالكم ولئن أقمتم ليأتينكم فلم تطب أنفسهم وأبوا إلا المسير إلى الشام. فارتحل عبد الله متوجهاً إلى الشام وحينئذ تحول أبو مسلم حتى نزل معسكر عبد الله بن علي ولما بلغ ذلك عبد الله علم أن الحيلة قد تمت عليه وعاد فنزل معسكر أبي مسلم.

كان أهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدة ولكن المركز الحصين الذي احتله أبو مسلم عوض عليه كثرة عدوه وبذلك استمر القتال بين الفريقين نحو ستة

أشهر والحرب بينهما سجال إلا أن القوة راجحة في معسكر أهل الشام حتى إذا كان يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادي الآخرة سنة ١٣٧ كانت بينهما الموقعة الفاصلة وقد استعمل فيها أبو مسلم دهاءه الحربي فاكتسب الظفر وذلك أنه أرسل إلى الحسن بن قحطبة وكان على الميمنة أن أعر الميمنة وضم أكثرها إلى الميسرة وليكن في الميمنة حماة أصحابك فلما رأى ذلك عبد اللّه أعرى ميسرته لمقاتلة ميمنة أبي مسلم وضم أكثر جنودها إلى الميمنة بإزاء ميسرة أبي مسلم ثم أرسل أبو مسلم إلى الحسن أن من أهل القلب فليحملوا مع من يبقى في الميمنة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليها فحطموها وجاء أهل القلب والميمنة وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة.

وهنا فعل عبد اللّه بن علي فعلاً لا يليق بشرف بني هاشم وعلو اسمهم في ميادين القتال فإنهم كانوا يرون الفرار عاراً لا تحتمله أنفسهم الأبية فإما ظفر أو قتل ولكن عبد اللّه قال لأحد قواده ما ترى فقال أرى أن تصبر وتقاتل حتى تموت فإن الفرار قبيح بمثلك، وقبل عبت على مروان فقلت قبح اللّه مروان جزع من الموت ففر فلم يعجبه هذا الرأي وفر إلى العراق تاركاً معسكره فاحتواه أبو مسلم فأمن الناس ولم يقتل أحداً وأمر بالكف عنهم.

أما عبد اللّه فإنه سار إلى البصرة وكان أميرها أخاه سليمان بن علي فآواه وأقام عنده مدة متوارياً ولما علم المنصور بذلك أرسل إلى سليمان يأمره بإشخاص عبد اللّه بن علي إليه وأعطاه من الأمان لعبد اللّه ما رضيه ووثق به فخرج به سليمان حتى قدم به إلى المنصور سنة ١٣٩ فأمر بحبسه وحبس من كان معه ثم أمر بقتل بعضهم وأرسل آخرين منهم إلى خراسان فقتلوا هناك واستمر عبد اللّه في محبسه حتى مات سنة ١٤٧.

هذه كانت خاتمة حياة ذلك البطل الذي كان على يده أكبر عمل في تأسيس الدولة العباسية كما كان على يده أكبر الفظائع في إهلاك البقايا من بني أمية ولا نحجم عن إظهار نفورنا من هذه الطرق التي يلجأ إليها ذوو الخداع والمكر لتنفيذ أغراضهم وتأييد ملكهم غير ناظرين إلى النتائج الخبيثة التي تجلب الشر على أمنهم فإن المنصور لم يعبأ بتلك المواثيق التي أعطاها لعبد اللّه واستخف

بها كما استخف بأمان ابن هبيرة قبل ذلك كما أنا لا نحجم عن أن نقول إن عبد الله ختم حياته شر ختام بهربه من ميدان القتال فإن طلاب العظائم إذا حال القدر بينهم وبينها لا يرضون الدنية لأنفسهم ويموتون دون العار الذي يلحقهم ويلحق أهل بيتهم بسببهم.

أبو مسلم:

استراح المنصور من عبد الله بن علي على يد أبي مسلم فوجه الهمة إلى الراحة من هذا العدو الثاني الذي لا يطمئن على ملكه وهو حي لأنه أصبح صاحب الشوكة والسلطان في الدولة وليس المنصور ممن يمكنه الصبر على ذلك، والذي زاد الأمر عنده أنه قد ألقي إليه أن أبا مسلم لا يحترم كتبه ويستهزىء بها إذا وردت إليه فصمم على الفتك بأبي مسلم.

حصلت حادثة أوقعت الريبة في قلب أبي مسلم وذلك أنه بعد تمام الهزيمة أرسل المنصور من قبله رسولاً ليحصي المغانم التي غنمت من عبد الله فلما ورد الرسول المعسكر غضب أبو مسلم وكاد يقتل الرسول لولا أن قيل له ما ذنبه إنما هو رسول فخلى سبيله ولم يمكنه مما جاء له وقال: أأكون أميناً على الدماء غير أمين على الأموال فعاد الرسول وأخبر المنصور، لم يكن يحب أن تدخل أبا مسلم أقل ريبة منه لخوفه أن يمضي إلى خراسان وبذلك لا يتمكن منه إلا بعد معاناة شدائد يريد اختصارها وليأمن من ذلك كتب إلى أبي مسلم (إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب) فلما جاء الكتاب أبا مسلم غضب وقال هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي وصمم على المضي إلى خراسان وأقبل من الجزيرة مجمعاً على الخلاف مريداً خراسان. رأى المنصور أنه لم يبق إلا استعمال الدهاء لإيقاع أبي مسلم في فخ ينصبه له حتى لا يثير حرباً شعواء لا تعلم نتيجتها فتوجه إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم بالمسير إليه فكتب إليه أبو مسلم (إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمكنه الله منه وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت حريون بالسمع

والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك فإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسي) وهذا الكتاب مما زاد النار اشتعالا في قلب المنصور لأنه كتاب رجل مدل بماله من القوة حتى وضع نفسه قرنا للخليفة إدلالا بمركزه وسابقته في إقامة دعائم الخلافة العباسية فكتب إليه المنصور (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم فإنما راحتهم في انتشار نظام الجماعة فلم سويت نفسك بهم فأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سماع ولا طاعة، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها، وأسأل اللّٰه أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوْكد وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليك).

أرسل هذا الكتاب مع عيسى بن موسى ووجه معه أبا حميد المروزي وأمره أن يكلم أبا مسلم بألين ما يكلم به أحداً وأن يمنيه فإن أبى قال له ـ يقول لك أمير المؤمنين لست للعباس وأنا بريء من محمد إن مضيت مشاقاً ولم تأتني إن وكلت أمرك لأحد سواي وإن لم أل طلبك وقتالك بنفسي ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك.

سار أبو حميد حتى ورد على أبي مسلم فكلمه كلاماً رقيقاً فيه نصيحة وتذكير بحقوق الإمام وتخويف من تفريق الكلمة فاستشار أبو مسلم مختصيه فأشاروا عليه بألا يقدم على المنصور لأنه لم يعد يأمنه بعد أنْ وقع في نفسه ما وقع فقال لأبي حميد ارجع إلى صاحبك فليس من رأيي أن آتيه وحينئذ بلغه أبو حميد الرسالة الأخيرة فوجم لها أبو مسلم لأن هؤلاء الجبابرة يعتريهم طائف من الجبن إذا هم وصلوا إلى قمة علوهم فمثل هذه الكلمات القاسية من المنصور جعلته يخنع ويلين والذي زاده حيرة وارتباكاً ما فعله المنصور من التدبير العظيم الذي يضعف آمال أبي مسلم من خراسان وجنودها ذلك أنه كتب إلى خليفة أبي مسلم على جند خراسان يعطيه إمامة خراسان ما عاش ولا شيء أكبر من ذلك يقطع

صلته بأبي مسلم فكتب إليه حين بلغته الأخبار بقرب مجيئه إلى خراسان (إنا لم نخرج لمعصية خلفاء اللّه وأهل بيت نبيه ﷺ فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه) فوافاه هذا الكتاب حين مجيء رسالة المنصور فزاده ذلك رعباً ولم يجد بداً من أن يحوّل وجهه عن خراسان ويقصد المنصور. كان المنصور مصمماً على قتل أبي مسلم ولكن اجتهد أن يكون الرجل آمنا لا يحس بشيء من الجفاء فلما قارب أبو مسلم المدائن أمر الناس وبني هاشم فتلقوه حتى إذا دخل على المنصور وسلم عليه سلاما لا يشوبه شيء مخيف أمره أن ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح ليلة. ولما جاء الغد أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة فجاء بأربعة رجال من الحرس وأمرهم أن يكونوا خلف الرواق فإذا هو صفق خرجوا فقتلوا أبا مسلم. ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدثه. ومن تمام تدبيره أنه شرع يسأله عن نصلين أصابهما في متاع عبد اللّه بن علي فقال هذا أحدهما للذي هو معه فقال المنصور أرنيه فانتضاه وناوله إياه فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه وإنما فعل ذلك ليأمن على نفسه أن يفتك به أبو مسلم إذا أحس بالشر ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه وأخيراً سأله عن سبب قصده خراسان مراغما فقال دع هذا فما أصبحت أخاف أحداً إلا اللّه فصفق حينئذ المنصور بيديه فخرج أولئك الحرس الأربعة فاعتوروه بسيوفهم حتى ذهبت نفسه. ثم أراد أن يفرق الجمع الذي أقبل مع أبي مسلم فأعطاهم جوائز ألهتهم عن التفكير في الخلاف ثم أرسل إلى القواد الذين في جيش أبي مسلم جوائز سنية وأرضى جميع الجند حتى رضوا.

وبقتل أبي مسلم عرف المنصور أنه ابتدأ سلطانه الحقيقي الذي لا يشارك فيه ولم يأس على أبي مسلم لأنه رأى أمام نظره كثيرين من القواد يقومون مقامه.

من الضروري أن ننبه الأفكار إلى أن نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم انتهت حياتهم في الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبي مسلم وسبب ذلك أن هؤلاء القواد يكونون في بادىء الأمر ذوي الكلمة المسموعة والسلطان الواسع بين جنودهم لأنهم هم المباشرون للحروب والوقائع وهم الذين يقدمون للجند أعطياتهم فإذا ساعدهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات الباهرة وقامت الدولة ببأسهم وشدة حزمهم لم يكن لنفوذهم في

الدولة حد يقفون عنده لأنهم يرون الأمر إنما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذي بذلوه فإذا كان الخليفة بعيد الهمة ذكي الفؤاد لم يسعه أن يحمل كل هذا وإذا ألجأته الضرورة حمله على مضض وإذا أمكنته الفرصة لم يتأخر عن انتهازها. وليس من طبيعة القائد الفاتح أن يضرب صفحاً عماله من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت إدراكها.

ومع ما بدا من أبي مسلم من العسف الشديد لا نبخسه حقه ونتأخر عن الاعتراف بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام ولو كانت الضحايا التي ذهبت في تأسيس الدولة أقل مما ضحى لعددناه من كبار السواس إلا أنه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة في نظره كافية لإزهاق نفس المتهم فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات والدهاء ولكن لا نصفه بحسن السياسة وما رأيت أجهل من أبي مسلم في قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة بقوله أتذكر قول الإمام من اتهمته فاقتله. فإذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجباً أفلا يكون فيما صنعه مع أبي جعفر ما يدعو إلى الريبة فيه واستحقاقه القتل فهو إذا كان قادماً على القتل بمقتضى أصل كثيراً ما نفذه ولذا لا يكون قتله محلاً للنظر والاستغراب **﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾**[1].

محمد بن عبد الله وبنو الحسن بن علي:

قدمنا أن المتشيعين لآل البيت كانوا فرقاً ثلاثة: فرقة ترى أن إمام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد ﷺ وهؤلاء إمامية، وكانوا يتولون إلى وقت المنصور جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق. وفرقة ترى إن إمام المسلمين يكون من بني فاطمة إلا أنه معين بالوصف لا بالاسم وهؤلاء إمامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بني فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون في الإمام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك وهم نصراء زيد بن علي وابنه يحيى. وفرقة ترى

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٩.

إمامة أهل البيت من غير تقييد ببني فاطمة وهم الذين نصروا بني العباس وكانت الفرقتان الأوليان منتشرتين في كثير من الأقاليم العربية والأعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة لأنها كانت أقرب إلى الرضا من أهل بيت النبي ﷺ فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعاتها نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدوهم غاصبين للأمر كما عدوا بني أمية من قبلهم وأعظمهم في ذلك رجلان أحدهما جعفر الصادق إمام الإمامية. ولكنه رضي بما تم ولم يحرك ساكناً وكان يوصي أصحابه بالخلود إلى السكينة لأنه لم ير فرصة معقولة. وثانيهما محمد بن عبد اللّه بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهذا كان أطمع في الأمر لما زعموه من أن بني هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها في أواخر عهد بني أمية وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبي العباس ولا لأبي جعفر ولما حج أبو جعفر في عهد أخيه حضره بالمدينة بنو هاشم جميعاً إلا محمد بن عبد اللّه وأخاه إبراهيم فسأل المنصور عنهما فقال له زياد بن عبد اللّه الحارثي أمير المدينة ما يهمك من أمرهما أنا آتيك بهما فضمنه إياهما وأبقاه عاملاً على المدينة. ثم إنه دعا بني هاشم رجلاً رجلاً كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول يا أمير المؤمنين قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافاً ولا يجب لك معصية وما أشبه هذه المقالة إلا حسن بن زيد بن حسن بن علي فإنه أخبره خبره وقال واللّه ما آمن وثوبه عليك فر رأيك فأيقظ بقوله من لا ينام.

صار المنصور يحتال بأنواع الحيل ليعرف الأخبار عن محمد واستخراج ما عند أبيه عبد اللّه بن حسن من أخباره ولما علم أن عبد اللّه يعرف نية ابنه حج سنة ١٤٠ وسأل عبد اللّه عن ابنيه فأنكر أن عنده علم بهما فتيقن المنصور كذبه وحبسه وصادر أمواله.

لم ير المنصور بعد ذلك من ابن زياد صدقاً في الحصول على محمد وإبراهيم فعزله وولى بدله على المدينة محمد بن خالد بن عبد اللّه القسري وبسط يده في النفقة في طلبه فأنفق كثيراً من المال في هذه السبيل وبحث بحثاً كثيراً في المدينة وخارجها فلم يصل إلى نتيجة فعزله المنصور وأشير عليه أن يولي المدينة رجلاً من

آل الزبير ليكون ما بين آل الزبير وآل علي من العداوة سائغاً له إلى البحث الشديد والجد في الأمر فلم يرق هذا في عيني المنصور وقال أعاهد الله ألا أثأر من أهل بيتي بعدوي وعدوهم ولكن أبعث عليهم صعلوكا من صعاليك العرب فولى على المدينة رياح بن عثمان بن حيان المري فورد المدينة في شهر رمضان ١٤٤ وهو عازم على عسف الأعراب الذين يستخفي محمد بن عبد الله عندهم فكان أول شيء فعله أن استهان بمحمد بن خالد القسري الذي كان قبله والياً وعذبه هو وكاتبه ثم أرهق محمد بن عبد الله طلباً حتى لقي شدائد ما كان يراها في عهد أسلافه من ولاة المدينة فقال في ذلك:

منخرف السربال يشكو الوجى — تنكبه أطراف مر وحداد
شرده الخوف وأزرى به — كذاك من يكره حرد الجلاد
قد كان في الموت له راحة — والموت حتم في رقاب العباد

وزاد المنصور في إرهاق محمد فأمر بأخذ بني الحسن كلهم نحو ثلاثة عشر رجلاً وحبسهم بالمدينة ولما علم محمد بذلك جاء إلى أمه هند وقال لها إني قد حملت أبي وعمومتي ما لا طاقة لهم به ولقد هممت أن أضع يدي في أيديهم فعسى أن يخلي عنهم، فتنكرت هند ولبست أطماراً ثم جاءت السجن كهيئة الرسول فأذن لها فلما رآها عبد الله أبو محمد أثبتها فنهض إليها فأخبرته بما قال محمد فقال كلا بل نصبر فوالله إني لأرجو أن يفتح الله به خيراً قولي له فليدع إلى أمره وليجد فيه فإن فرجنا بيد الله فانصرفت وتم محمد على اختفائه.

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر سنة ١٤٤ فلما لم يجد عندهم ما يبرد غلته من جهة محمد وأخيه إبراهيم أمر بحملهم إلى العراق وأشخص معهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخو بني حسن بن زيد بن حسن لأمهم وأمهم جميعاً فاطمة بنت حسين بن علي وكان إبراهيم بن عبد الله صهره على ابنته فحملوا مقيدين بالأغلال والأثقال وسير بهم على شر ما يكون حتى أتى بهم العراق فحبسوا بقصر ابن هبيرة وهو بلد شرقي الكوفة مما يلي بغداد على نهر الفرات. وقد استعمل معهم المنصور من الفظائع ما لا طاقة للإنسان على تسطيره وكان أعظم فظائعه مع محمد بن عبد

اللّه بن عمرو بن عثمان، وكانت نتيجـة هذا الحبس الشديـد أن مات أكثـرهم في الحبس مع أن بني العباس ملأوا الدنيا تهويلا ورياء بأنهم خرجـوا انتقامـاً من قتلة الحسـين بن علي وزيـد بن حسن ويحيى بن زيد وهؤلاء إنمـا قتلوا في ميادين القتال وهم خارجون ولم يقتل بنو أمية أحداً من آل علي بـالشكل الفـظيع الـذي ذهب به بنو حسن في عهد بني عمهم من آل العباس.

كانت نتيجة هذا الإخراج وهذه الفظائع أن عزم محمد على الظهور بالمدينة وتحـدث أهلها بـذلك وعلم بـه رياح أمـير المدينـة فأحب أن يعـد عدتـه لذلـك فعوجل. دخل محمد المدينة ومعه ١٥٠ رجلاً فأتى السجن ففتحه وأخرج من فيه ولم يقاومه أهل المدينة بل أعـانوه وخـذلوا ريـاحا وكـان خروجـه في أول يوم من رجب سنة ١٤٥ وبعد أن استولى على البلد صعـد منبر الحـرم وقال (أيهـا الناس إنه كان أمرنا وأمر الطاغية عدو اللّه أبي جعفر ما لم يخف عليكم من بنـائه القبـة الخضراء التي بناها معانـدا اللّه في ملكه وتصغيـراً للكعبة الحـرام وإنما أخـذ اللّه فـرعون حـين قال أنـا ربكم الأعلى وإن أحق النـاس بالقيـام بهـذا الـدين أبنـاء المهاجرين الأولين والأنصار المؤمنين اللهم إنهم أحلوا حرامـك وحرمـوا حلالـك وأمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت اللهم فأحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحدا أيها الناس إني واللّه ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهـل قوة ولا شـدة ولكن اخترتكم لنفسي واللّه مـا جئت هذه وفي الأرض مصر يعبـد اللّه فيه إلا وقد أخذت لي فيه البيعة).

وكان الذي أوقع محمداً في هذا الغلط وجعله يفهم أن دعوته عمت البقاع أن المنصور كان يكتب لمحمد على ألسن قـواده يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم مـعه فكان محمد يقول لو التقينـا مـال إلى القواد كلـهم فهـذا الذي جعله يـظن هذا الظن. ومما زاده خطأ في قدر قوة نـفسه أنه كان متفقاً مـع أخيه إبـراهيم أن يخرج بالبصرة في اليوم الذي يخرج فيه محمد بالمدينة حتى يهول أمـرهما أبـو جعفر فيفت ذلك في عضده ولكن إبراهيم لم يخرج هذا اليوم لمرض أصابه أو أن محمداً سبق الميعاد والنتيجة أنهما لم يخرجا معاً وأعظم خـطر على الإنسـان ما يصيبـه من قبل فهمه في نفسه فإنه إذا خاض العظائم وهو يظن لنفسه من القوة ما ليس لهـا

كان حرياً بالفشل والخيبة.

على أنه فضلاً عن ذلك كله جعل نفسه محصوراً بالمدينة وهي ليست بمركز حربي يمكن القائد أن يبقى فيه على الدفاع طويلاً وحياتها من خارجها فلا تحتمل الحصار إلا قليلاً فلم يكن محمد موفقاً في تدبيره مع ما كان يتحلى به من الخصال التي كانت ترفعه في أعين أهل المدينة على أبي جعفر فإنهم كانوا لا يرون فيه غشم أبي جعفر ولا ميله للعسف والظلم بل كان يكره سفك الدماء ويتجنبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً ويحب الخير للناس وكان لذلك يلقب عندهم بالنفس الزكية وبالمهدي. ولما استفتى مالك إمام دار الهجرة في الخروج مع محمد وقيل له إن في أعناقنا بيعة للمنصور قال إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين ولكن هذا كله لا يفيد مع ضعف المركز الطبيعي ولذا قال له محمد بن خالد القسري لما ظهر إنك قد خرجت في هذا البلد والله لو وقف على نقب من أنقابه لمات أهله جوعاً وعطشاً فانهض معي فإنما هي عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف فأبى عليه ذلك. ولما علم المنصور بخروجه قال للربيع بن عبيد الله بن عبد المدان خرج محمد. فقال أين؟ قال بالمدينة فقال الربيع هلك والله خرج في غير عدد ولا رجال.

كان المنصور حين بلوغه الخبر مشتغلاً ببناء بغداد فسار إلى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لأن أهلها شيعة لآل علي ويخاف منهم أن يخرجوا لمساعدة محمد فأقفل أبوابها حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد، ثم أحب أن يراسل محمداً قبل الحرب فكتب إليه كتاباً هذه نسخته (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله، أما بعد **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾**[1]. ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيه محمد ﷺ إن تبت

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣٣.

من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك وأن أعطيك ألف ألف درهم وأن أنزلك من البلاد حيث شئت وأقضي لك ما شئت من الحاجات وأن أطلق من في سجني من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع أحداً منكم بمكروه فإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلي من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام).

فكتب إليه محمد بن عبد اللّه (بسم اللّه الرحمن الرحيم من عبد اللّه محمد المهدي أمير المؤمنين إلى عبد اللّه بن محمد. أما بعد ﴿**طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون**﴾[1]. وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخطبتموه بفضلنا وإن أبانا عليا عليه السلام كان الوصي والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا وإنا بنو أم رسول اللّه ﷺ فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم وبنو ابنته فاطمة في الإسلام من بينكم فأنا أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً لم تلدني العجم ولم تعرف في أمهات الأولاد وإن اللّه تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدني من النبيين أفضلهم محمد ﷺ ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً وأوسعهم علماً وأكثرهم جهاداً علي بن أبي طالب ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن باللّه وصلّى إلى القبلة ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ثم قد علمت أن هاشماً ولد علياً مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول اللّه ﷺ ولدني مرتين من قبل جدي الحسن والحسين فما

---

(١) سورة القصص: الآيات ١ ـ ٦.

زال اللّه يختار لي حتى اختار لي في النار فولدني أرفع الناس درجة في الجنة وأهون أهل النار عذاباً أفـأنا ابن خـير الأخيار وابن خـير الأشرار وابن خـير أهل الجنـة وابن خـير أهل النـار ولـك عهـد اللّه إن دخلت بيعتي أن أؤمنـك عـلى نفسـك وولدك وكل ما أصبته إلا حداً من حدود اللّه أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك في ذلك فأنا أوفي للعهد منك وأحرى لقبول الأمان فأما أمـانك.الـذي عرضت علي فأي الأمانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمـان عمك عبـد اللّه بن علي أم أمان أبي مسلم والسلام).

فكتب إليه أبو جعفر (بسم اللّه الرحمن الرحيم من عبد اللّه عبـد اللّه أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد اللّه أما بعد فقد أتاني كتابك وبلغني كلامـك فإذا جـل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل اللّه النساء كالعمومـة ولا الآباء كالعصبة والأولياء ولقد جعل العم أباً وبدأ به عـلى الولـد الأدنى فقال جـل ثناؤه عن نبيه عليه السلام ﴿**واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب**﴾[1]. ولقد علمت أن اللّه تبارك وتعالى بعث محمداً ﷺ وعمومته أربعة فأجابه اثنان أحـدهما أبي وكفر به اثنان أحدهما أبوك فـأما مـا ذكرت من النسـاء وقرابـاتهن فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب لكـان الخير كله لآمنـة بنت وهب ولكن اللّه يختار لدينه من يشاء من خلقه فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب فـإن اللّه لم يهد من ولدها أحداً إلى الإسلام ولو فعل لكان عبد اللّه بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الآخرة والأولى وأسعدهم بـدخول الجنـة غداً ولكن اللّـه أبى ذلك فقال ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن اللّه يهدي من يشاء**﴾[2]. فأما ما ذكـرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب وفاطمة أم الحسن وأن هاشماً ولد علياً مرتين وأن عبد المطلب ولـد الحسن مرتـين فخير الأولـين والآخرين محمـد ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة وأما مـا ذكرت من أنك ابن رسول اللّه فإن اللّه عز وجل أبى ذلك فقال ﴿**ما كان محمد أبـا أحد من**

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٨.

(٢) سورة القصص: الآية ٥٦.

رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتم النبيين﴾[1] ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة غير أنها لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الإمامة من قبلها ولقد طالب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضها سراً ودفنها ليلاً فأبى الناس إلا تقديم الشيخين. ولقد حضر أبوك وفاة رسول اللّه ﷺ فأمر بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان في أصحاب الشورى فكل دفعه عنها وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أبوك طلحة والزبير ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم وأسلم في يديه شيعته وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله فإن كان لكم شيء فقد بعتموه. فأما قولك إن اللّه اختار لك في الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً فليس في الشر خيار ولا من عذاب اللّه هين ولا ينبغي لمسلم يؤمن باللّه واليوم الآخر أن يفخر بالنار وسترد فتعلم ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾[2]. وأما قولك إنك لم تلدك العجم ولم تعرف فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بني هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخراً وأصلاً وفضلاً فخرت على إبراهيم ابن رسول اللّه ﷺ وعلى والد ولده فانظر ويحك أين تكون من اللّه غداً وما ولد فيكم مولود بعد رسول اللّه ﷺ أفضل من علي بن الحسين وهو لأم ولد ولقد كان خيراً من جدك حسن بن حسن ثم ابنه محمد بن علي خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر خير منك، ولقد علمت أن جدك علياً حكم حكمين وأعطاهما عهد اللّه وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه. ثم خرج عمك الحسين بن علي على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب بغير أوطية كالسبي المجلوب إلى الشام ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم

---

(١) سورة ا الأحزاب: الآية ٤٠.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٢٧.

أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلوات المكتوبة كما تلعن الكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا لما ذكرنا من فضل علي أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وابتلى أبوك بالدماء، ولقد علمت أن مآثرنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون إخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر، وتوفي رسول اللّه ﷺ وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس فكان وارثه دون بني عبد المطلب. وطلب الخلافة غير واحد من بني هاشم فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس أنه آب رسول اللّه ﷺ خاتم الأنبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات عماك طالب وعقيل جوعاً أو يلحسان جفان عتبة وشيبة فذهب عنهما العار والشنار. ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التي أصابتهم ثم فدى عقيلا يوم بدر فقدمناكم في الكفر وفديناكم من الأسر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزناً شرف الآباء وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام).

بعد هذه المكاتبة التي لم تجد إلا إظهار العيوب لم يكن إلا الجد في الأمر وكان المنصور يتخوف أن يبلغ خروج محمد أهل خراسان فتفسد قلوبهم فكان يعمي الأخبار عليهم. واختار لمناضلة محمد عيسى بن موسى الذي كان السفاح جعله ولي عهد بعد المنصور فقال عيسى للمنصور شاور عمومتك فقال امض أيها الرجل فواللّه ما يراد غيري وغيرك وما هو إلا أن تشخص أو أشخص وزود عيسى بوصية يحمد عليها إذ قال يا عيسى إني بعثتك إلى ما بين هذين (وأشار إلى جنبيه) فإن ظفرت بالرجل فشم سيفك وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به فإنهم يعرفون مذاهبه. وجهز المنصور الجيش أحسن جهاز فلما وصل إلى فيد بعث إلى رجال من أهل المدينة في خرق من الحرير فلما وردت كتبه المدينة تفرق ناس عن محمد وخرج بعضهم إلى عيسى ومنهم ناس من آل علي:

ولما شعر محمد بقرب عيسى بن موسى خندق حول المدينة أما عيسى فإنه أهل بجنوده حتى وصل إلى المدينة وهناك أرسل فصيلة من جنوده تحرس طريق

مكة حتى إذا أراد محمد الهرب إليها لم يجد طريقاً وكان نزول عيسى على المدينة في ١٢ رمضان سنة ١٤٥ وقبل اللقاء قدم دعوة محمد إلى الخضوع فلم يجبه ثم دارت الموقعة بين الفريقين وقد ظهرت شجاعة محمد بن عبد اللّٰه ظهوراً عظيماً ولكن عدوه كان عظيماً فلم يلبث أن قتل وظهرت الأعلام السوداء على مرتفعات المدينة وعلى منارة المسجد النبوي فسلم المحاربون وكان قتل محمد لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان.

وعند ذلك أرسل عيسى إلى أبي جعفر ببشارة الفتح وبرأس محمد بن عبد اللّٰه وأمن المدينة وأهلها وفي ١٩ رمضان شخص يريد مكة بعد أن قبض أموال بني حسن كلها وكان مكث محمد منذ قام إلى أن قتل شهرين و ١٧ يوماً.

إبراهيم بن عبد اللّٰه

هو أخو محمد دخل البصرة ودعا الناس سراً إلى أخيه فبايعه كثير من أهلها وأجابه فتيان من العرب وكان أبو جعفر يظن أنه يخرج بها فإنه لما بلغه خروج محمد بالمدينة استشار جعفر بن حنظلة البهراني وكان صاحب رأي فقال حصن البصرة لأن محمداً ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم وأهل الكوفة تحت قدمك وأهل الشام أعداء آل أبي طالب فلم يبق إلا البصرة فاهتم بإرسال الجنود وإقامة المسالح بين الكوفة والبصرة لئلا يخرج أهل الكوفة لمساعدة إبراهيم.

ظهر إبراهيم بالبصرة، واستولى عليها وعلى ما قرب منها والأهواز وواسط ولم يزل على أمره ذلك حتى أتاه نعي أخيه محمد قبل فطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام فصلى بالناس يوم الفطر وعليه أثر الانكسار.

أرسل أبو جعفر إلى عيسى بن موسى يستحثه للقدوم ليتولى حرب إبراهيم فجاء مسرعاً وسار نحو البصرة وخرج إبراهيم لملاقاته فالتقيا عند باخمري وكانت العاقبة لعيسى فقتل إبراهيم لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة ١٤٥.

وكان محمد وأخوه إبراهيم من أحسن الطالبيين خلقاً وأنظفهم تاريخاً لم يعرف عنهما ما يشينهما في معاملة الناس وفي صدق العزيمة إلا أن الحظ خانهما.

وللمنصور خطبة نفيسة يبرر بها عمله مع بني الحسن أمام شيعته من أهل خراسان وغيرهم قال فيها:

(يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب تركناهم والذي لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام علي بن أبي طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمان فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه. ثم قام من بعده ابنه الحسن فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الأموال فقبلها فدس إليه معاوية إني أجعلك ولي عهدي من بعدي فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والنفاق والإغراق والفتن أهل هذه المدرة السوداء (وأشار إلى الكوفة) فوالله ما هي بحرب فأحارب بها ولا سلم فأسالمها فرق الله بيني وبينها فخذلوه وأسلموه وقد كان أتى محمد بن علي فناشده في الخروج وسأله أن لا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا خائف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمي داود بن علي وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ فقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا وبغياً لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ:

جهلا علي وجبناً عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن

إني واللّه يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة. بلغني عنهم بعض السقم والتعرم وقد سست لهم رجالا فقلت قم يا فلان قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فواللّه ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج علي فلا ترون أني آتيت ذلك على غير يقين ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب﴾[1].

وقد بقيت بقايا بني الحسن مشردين في عهد أبي جعفر بعد أن قتل منهم من قتل ومات من مات وحبس من حبس. ومن غريب ما رأيت من رواية محمد بن جرير الطبري أن المهدي آلت إليه خزانة مما خلف والده فدخلها مع زوجته ريطة فإذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين وفي آذانهم رقاع فيها أنسابهم وإذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة كثيرة فلما رأى ذلك المهدي ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان اهـ هذه كبرى الحوادث التي حصلت لعهد المنصور.

وكانت الطريقة التي تدار بها البلاد لا تختلف عن طريقة بني أمية فكان في كل ولاية وال يعينه الخليفة وأعماله هي إقامة الصلاة للمسلمين وجهاد العدو وجباية الخراج وحفظ الأمن وفصل الخصومات بين الناس وقد كان الوالي تستند إليه أحياناً هذه الأمور الخمسة فيكون إمام القوم وقائد الجند وينتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلا للقيام بها وأحياناً يكون إليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج ويكون للحرب أمير آخر مستقل عن أمير الصلاة ويعين القاضي من قبل الخليفة رأساً.

ولم تكن الولاية متعينة العدد بل تارة تضم ولايتان إلى وال واحد وتارة يفصل بينهما حسب ما يراه الخليفة في مقدرة الوالي فكان أبو مسلم مثلاً والياً

---

(١) سورة سبأ: الآية ٥٤.

لخراسان كلها وبلاد الري والجبل وعليها ولاة من قبله. وكان أكثر الولاة لعهد المنصور من أهل بيته وممن اصطنعهم من العرب، والموالي ولم يكونوا يحبون أن تطول مدة الوالي في ولاية ولا سيما في الأطراف كمصر وخراسان خوفاً أن تحدثه نفسه بالاستقلال عن الخليفة وقد حصلت من ذلك حوادث في خراسان تلافاها المنصور بحيلته وقوته.

وجميع أمور الولايات ترجع إلى الخليفة الذي هو صاحب الأمر المطاع ومعينوه هم:

أولاً: الوزير. والوزارة لم تكن معروفة بهذا الاسم في عهد الدولة الأموية وأول من سمي بها لعهد أبي العباس السفاح أبو سلمة الخلال شيخ الدعوة بالكوفة فقد كان يعرف بوزير آل محمد وأصله مولى لبني الحارث بن كعب وكان سمحاً كريماً مطعاماً كثير البذل مشغوفاً بالتنوف في السلاح والدواب فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير والجدل والتفسير حاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة. وقد قدمنا خبر اتهامه بالميل لآل علي ومقتله بسبب ذلك فقال شاعر في رثائه:

إن الوزير وزير آل محمد ... أودي فمن يشناك كان وزيرا
إن السلامة قد تبين وربما ... كان السرور بما كرهت جديرا

فاستوزر السفاح بعده أبا الجهم إلى أن مات السفاح وولي المنصور فكان في نفسه منه أشياء فيقال إنه سمه والصحيح أن السفاح استوزر بعد أبي سلمة خالد بن برمك جد البرامكة الذين ظهر مجدهم في عهد هرون الرشيد وكان خالد من رجال الدعوة العباسية الذين أقاموا دولتها وهو من أبناء رؤساء الفرس الذين كانت إليهم بيوت العبادة قبل شيوع الإسلام بالبلاد الفارسية وهو أول من اعتنق الإسلام من أهل بيته وكان خالد فاضلاً كريماً حازماً يقظاً استوزره السفاح ويقال إنه لم يكن يتسمى باسم الوزير تطيراً مما جرى على أبي سلمة فكان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً.

لما تولى المنصور لم تكن للوزارة في أيامه أبهة ولا كبير قدر لما كان موصوفاً به من الاستبداد بأموره أبقى في وزارته خالداً مدة ليست بالطويلة ثم أعفاه وولى:

أبا أيوب سليمان بن أبي سليمان مخلد المرياني الخوزي:

وموريان قرية من قرى الأهواز. كان في أواخر دولة بني أمية كاتباً لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة وكان المنصور في ذاك الزمن ينوب عن سليمان هذا في بعض كور فارس فاتهمه بأنه احتجز مالاً لنفسه فضربه بالسياط ضرباً شديداً وكان يريد الفتك به بعد ضربه فخلصه منه أبو أيوب فاعتدها المنصور يداً له فضلاً عما عرف به أبو أيوب من المقدرة والنباهة فاستوزره المنصور وخف على قلبه وتمكن منه وكان يخشى المنصور جداً وترعد فرائصه إذا دعاه إليه. روى ابن خلكان أن خالد بن يزيد الأرقط قال بينا أبو أيوب جالس في أمره ونهيه أتاه رسول المنصور فتغير لونه فلما رجع تعجبنا من حالته فضرب مثلاً لذلك وقال زعموا أن البازي قال للديك ما في الأرض حيوان أقل وفاء منك قال وكيف ذلك قال أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموك في أكفهم ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت ههنا وههنا وصوت وأخذت أنا مسنا من الجبال فعلموني وألفوني ثم يخلي عني فآخذ صيداً في الهواء وأجيء به إلى صاحبي فقال له الديك إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم المعدة للشي مثل الذي رأيت من الديوك لكنت أنفر مني ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا مني خوفي مع ما ترون من تمكن حالي.

وقد كان ما خافه أبو أيوب فإن المنصور غضب عليه سنة ١٥٣ وعذبه وأخذ أمواله وحبس أخاه وبنى أخيه سعيداً ومسعوداً ومخلداً ومحمداً وطالبهم وكانت منازلهم المناذر وقد قال في هذه النكبة أحد شعراء العصر:

قد وجدنا الملوك تحسد ... من تعطيه طوعاً أزمة التدبير
فإذا ما رأوا له النهي والأمر ... أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعد حفص ... سليمان ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد بن برمك منها ... إذ دعوه من بعدها بالأمير
أسوأ العالمين حالا لديهم ... من تسمى بكاتب أو وزير

وهذه الأبيات القليلة تشرح لنا ما كان يدور على ألسنة القوم إذ ذاك في

نكبات الوزراء التي لم تكن قليلة بل قلما نجد في وزراء بني العباس من سلم منها. ويقال إن سبب نكبة أبي أيوب سعي أبان بن صدقة كاتبه به عند المنصور وكان موته سنة ١٥٤.

الربيع بن يونس:

استوزر المنصور بعد أبي أيوب الربيع بن يونس كان أحد جدوده أبو فروة كيسان مولى عثمان بن عفان من سبي جبل الخليل ونشأ أولاده في الكتابة في عهد بني أمية ولما جاءت الدولة العباسية كان الربيع ممن يخدم المنصور وكان كثير الميل إليه حسن الاعتماد عليه فكانت إليه الحجابة وهي من الوظائف الكبرى في الدولة وسيأتي شرحها.

ولما قبض المنصور على أبي أيوب استوزره بعد فظل في خدمته إلى أن مات المنصور. وكان الربيع عارفاً بخدمة الخلفاء محبوباً عندهم ولا سيما المنصور وكان جليلاً نبيلاً منفذاً للأمور مهيباً فصيحاً كافياً حازماً عاقلاً فطناً خبيراً بالحساب والأعمال حاذقاً بأمر الملك بصيراً بما يأتي ويذر محباً لفعل الخير.

ولما مات المنصور بمكة كان معه وهو الذي أخذ البيعة للمهدي بعده وكان ذلك مما جعل المهدي يبقيه على درجته التي كان عليها في عهد أبيه إلا أنه كان حاجباً لا وزيراً وكانت وفاته سنة ١٧٠ في عهد الهادي ويقال إنه سمه.

ثانياً ـ الحاجب وهو موظف كبير لا يمثل أحد بين يدي الخليفة إلا بإذنه وقد وجد الحاجب في عهد بني أمية وقد أحدثوه لما خشوا على أنفسهم من الفتاكين بعد حادثة الخوارج مع علي وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان مع ما في فتح أبوابهم من ازدحام الناس عليهم وشغلهم به عن المهمات فاتخذوا من يقول لهم بذلك وسموه الحاجب وقد روي أن عبد الملك قال لحاجبه قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فإنه داعي الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد وكان إلى الحاجب التقديم والتأخير في الإذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم.

وقد ظلت الحجابة في ارتقاء كلما ارتفعت الحضارة وقد سار خلفاء بني

العباس على نمط بني أمية في ذلك وكان للحاجب في عصرهم مرتبة علية وكثيراً ما كان يستشار في الأمور التي تنزل بالخلافة.

ثالثاً ـ الكاتب وهو الذي يتولى مخاطبة من بعد عن الحضرة من الملوك والأمراء وغيرهم وكثيراً ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الكتابة كما ورد أن المنصور لما جاءته رسالة محمد بن عبد الله قال له كاتبه دعني أجبه عليها فقال أبو جعفر لا بل أنا أجيبه عنها إذ تقارعنا على الأحساب فدعني وإياه. وأحياناً كان يتولى الكتابة الوزير.

رابعاً ـ صاحب الشرط وهو المحافظ على الأمن وكان المنصور يختار صاحب الشرط آمن الرجال وأشدهم وكان له سلطان عظيم على المريبين والجناة إلا أن استبداد المنصور بالأمور ومباشرته لصغيرها وكبيرها كانا يقللان من أهمية كل عامل.

خامساً ـ القاضي وكان ينظر في قضايا مدينة المنصور وحدها ولم يكن له سلطان على قضاة الأقاليم لأن منصب قاضي القضاة لم يكن أنشىء بعد. ومن مشهوري قضاة المنصور محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ولد سنة ٧٤ للهجرة وتفقه بالشعبي أقام قاضياً بالكوفة ثلاثين سنة في الدولتين الأموية والعباسية وهو معدود من فقهاء أهل الرأي وكان بينه وبين أبي حنيفة الإمام وحشة يسيرة وقد كان أبو حنيفة يعترض عليه في بعض أحكامه وهو أصغر منه سناً فشكاه ابن أبي ليلى للأمير فمنعه الأمير من الفتيا وكانت وفاة ابن أبي ليلى سنة ١٤٨.

هذه المناصب الخمسة هي أهم المناصب في الدولة وجميع المناصب الأخرى ترجع إليها وكان في كل ولاية صورة من ذلك.

الجيش:

أهم ما تظهر به الدولة جيشها الذي يذود عن حياضها ويحمي بيضتها وقد كان الجيش لعهد الدولة الأموية عربياً محضاً جنوده وقواده فلما جاءت الدولة العباسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع إليهم أكبر الفضل في ثل عرش الدولة الأموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحمايتها

لذلك كان جيش الديوان في أول عهد العباسيين مؤلفاً من فريقين.

الأول - الجيوش الخراسانية - الثاني الجيوش العربية. وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالي وكان التنازع شديداً بين الفريقين بداعي العصبية كل يتعصب لأبناء جنسه. وكان أكبر القواد المعروفين في أول عهد الدولة أبو مسلم الخراساني لجيوش المشرق الخراسانية وعبد اللّٰه بن علي لجيوش المغرب وأعظمها عربي من الجزيرة والشام ولما خرج عبد اللّٰه بن علي عن طاعة المنصور وأرسل أبو مسلم لحربه فانتصر عليه رجحت كفة الخراسانيين وصارت الثقة بهم أعظم ولكن ذلك لم يمنع المنصور من القضاء على أبي مسلم الذي نظر إليه نظرة الشريك المساوي في القوة والسلطان ويظهر أن المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة أهل بيته ألا تظل كفة أهل خراسان راجحة فاصطنع كثيراً من رجالات العرب وسلمهم قيادة الجيوش كما استعان بأهل بيته ومن أعظم قوادهم عيسى بن موسى الذي سيره المنصور لحرب محمد بن عبد اللّٰه وأخيه إبراهيم.

ومن مشهوري قواده العرب: معن بن زائدة الشيباني وهو قائد شجاع كان في أيام بني أمية متنقلاً في الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير العراقين فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد بن عمر بواسط أبلى معه يومئذ بلاء حسناً فلما سلم يزيد وقتل، خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة حصلت له فيها غرائب من أظرفها أنه تنكر وركب جملا يقصد البادية فبينما هو خارج من باب المدينة تبعه عبد أسود متقلدا سيفاً فقبض على خطام جمله فأناخه وقبض على يدي معن وقال أنت طلبة أمير المؤمنين أنت معن بن زائدة فلما رأى الجد منه أخرج عقد جوهر ثمنه أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتي بمعن فقال للأسود خذه ولا تكن سبباً لسفك دمي فتأمله الأسود وقال لست أقبله حتى أسألك عن شيء فإن صدقتني أطلقتك إن الناس وصفوك بالجود فهل وهبت مالك كله قال لا قال فنصفه قال لا ولم يزل حتى بلغ العشر فقال معن نعم فقال له الأسود أنا رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهماً وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ولتعلم أن

في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة ثم رمى العقد في حجره وترك خطام الجمل وولى منصرفاً فقال له معن قد والله فضحتني ولسفك دمي أهون علي مما فعلت، فخذ ما دفعته لك فإني في غنى عنه فضحك وقال أردت أن تكذبني في مقالي والله لا أخذته ولا أخذت لمعروفي ثمناً ومضى لسبيله. وما زال معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية يوم أن ثار الراوندية بالمنصور وهم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بليدة قرب قاشان وكانوا على رأي أبي مسلم صاحب دعوة بني هاشم يقولون بتناسخ الأرواح ويظهر على رغم الروايات المتناقضة أنهم كانوا يريدون الأخذ بثأر أبي مسلم ويقتلون أبا جعفر فاجتمع منهم زهاء ستمائة وقصدوا نحو المنصور فنادى الناس وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد فخرج المنصور من قصره وفي ذلك الوقت ظهر معن فانتهى إلى أبي جعفر فرمى بنفسه وترجل وأدخل خرقة قبائه في منطقته وأخذ بلجام دابة المنصور وقال أنشدك الله يا أمير المؤمنين إلا رجعت فإنك تكفى فلم يرجع وجاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة فقال له معن ليس هذا من أيامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعاً وشرفت تلك الفعلة معنا في نظر أبي جعفر حتى سماه أسد الرجال فقال معن والله يا أمير المؤمنين لقد أتيتك وأنا وجل القلب فلما رأيت ما عندك من الاستهانة بهم وشدة الإقدام عليهم رأيت أمراً لم أره من خلق في حرب فشد ذلك من قلبي وحملني على ما رأيت مني. وكان ذلك سبباً لإعطائه الأمان ووصله بعشرة آلاف درهم وتوليته اليمن فمكث فيها مدة أحسن فيها السيرة في أهلها حتى ردهم إلى الطاعة والجماعة. ثم ولي في آخر أمره سجستان. ولما كان سنة ١٥١ كان في داره صناع يعملون له عملاً فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بست. وكان معن جواداً ممدحاً وشاعره الخصيص به مروان بن أبي حفصة له فيه المدائح الرائقة كما له فيه المراثي المشجعة ومن طرف بدائهه أن معنا دخل على المنصور مرة فقال له إيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على قوله:

معن بن زائدة الذي زادت به ... شرفاً على شرف بنو شيبان

فقال كلا يا أمير المؤمنين وإنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه من وقع كل مهند وسنان

ومنهم عمرو بن العلاء من أعظم قواد المنصور وهو الذي يقول فيه بشار بن برد الشاعر:

فقل للخليفة إن جئته نصيحاً ولا خير في المتهم
إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم
فتى لا ينام على دمنة ولا يشرب الماء إلا بدم

ويقول فيه أبو العتاهية:

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك سباباً ورحالا
فإذا وردن بنا وردن مخفة وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وجهه المنصور سنة ١٤١ لحرب بلاد طبرستان وكانت مضطربة بثورة المصمغان ملك دنباوند الأصبهبذ وكان توجيهه إليها بمشورة أخي المصمغان فإنه قال للمنصور يا أمير المؤمنين إن عمراً أعلم الناس ببلاد طبرستان فوجهه وضم إليه خازم بن خزيمة وهو من القواد الكبار فدخل الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل من أهلها فأكثر وصار الأصبهبذ إلى قلعته وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره ثم بدا للأصبهبذ فدخل جيلان من الديلم فمات بها وأخذت ابنته فتسراها العباس بن محمد وهي أم ابنه إبراهيم. وصمدت الجنود للمصمغان فظفروا به.

ولم يزل عمرو بن العلاء في رتبته إلى مدة المهدي محمد بن أبي جعفر.

حاضرة الخلافة:

لما ولي أبو جعفر انتقل من الأنبار إلى الهاشمية التي أسسها أخوه أبو العباس وأقام بها إلى أن عزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بني العباس الكبرى ومظهر فخرهم ومدنيتهم وكان يريد أن يكون بعيداً عن الكوفة فخرج

يرتاد مسكنا لنفسه وجنده ويبتني به مدينة حتى صار إلى موضع بغداد وقال هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا فيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصراة وهو نهر بين دجلة والفرات ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه وهي مدورة الشكل تقريباً وجعل لها سورين أحدهما داخل وهو سور المدينة وسمكه في السماء ٣٥ ذراعاً وعليه أبرجة سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع وعلى السور شرف وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعاً ويليه من الخارج فصيل بين السورين وعرضه ٦٠ ذراعاً ثم السور الأول وهو سور الفصيل ودونه خندق. وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان ولكل منها باب دون باب بينهما دهليز ورحبة تدخل إلى الفصيل الدائر بين السورين فالأول باب الفصيل والثاني باب المدينة فإذا دخل من باب خراسان عطف على يساره في دهليز معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون المدخل إليه في عرضه والمخرج منه وطوله يخرج إلى رحبة مادة إلى الباب الثاني طولها ٦٠ ذراعاً وعرضها ٤٠ ولها في جنبتيها حائطان من الباب الأول إلى الباب الثاني في صدر هذه الرحبة في طولها الباب الثاني وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله في جنبتي هذه الرحبة بابان إلى الفصيلين. والأبواب الأربعة على صورة واحدة في الأبواب والفصيلان والرحاب والطاقات. ثم الباب الثاني وهو باب المدينة وعليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص طوله ٢٠ ذراعاً وعرضه ١٢ وعلى كل أزج من آزاج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور يرتقي إليه منها، على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة في السماء سمكها ٥٠ ذراعاً مزخرفة وعلى رأس كل قبه منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره.

وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان.

وابتنى قصره الذي يسمى الخلد على دجلة وكان موضعه وراء باب خراسان. ومد المنصور قناة من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا

الآخذ من الفرات وجرهما إلى المدينة في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاهـا فكانت كـل قناة منهـا تـدخـل المـدينـة وتنفـذ في الشـوارع والدروب والأرباض وتجري صيفاً وشتاء لا ينقطع ماؤها في أي وقت وجـر لأهل الكـرخ أربعة أنهر يقـال لأحدهم نهر الـدجاج وللثـاني نهر القلائـين وللثالث نهر طـابق وللرابع نهر البـزازين. والكرخ هـو أسواق المـدينة التي نقلهـا المنصور من مدينته في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى بناهـا المنصور ورتب كـل صنف منهـا في موضعـه وبنى لأهل الأسـواق مسجداً يجمعـون فيه ولا يـدخلون المدينـة وسميت الشرقية لأنها شرقي الصراة. ولأبي عبد اللّه إبراهيم بن محمد بن عرفـة نفطويه في الكرخ:

سقى أربـع الكـرخ الغـوادي بـديمـة وكـل مـلث دائم الهـطل مـسـبـل
منـازل فيـهـا كـل حسـن وبهجـة وتلك لهـا فضـل عـلى كـل منـزل

وفي سنة ١٥١ بنى المنصور الرصافة للمهدي ابنه وعمل لها سوراً وخنـدقاً وميـداناً وبستـاناً وأجـرى لهـا المـاء. وربع الـرصافـة يسمى عسكر المهـدي لأن المهدي عسكر به عند شخوصه من الري.

وبنى المنصور قصره والجامع في وسط المدينة وكـان في صدر قصر المنصـور إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون وفي صدر الإيوان مجلس عشرون ذراعاً في عشرين وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكـه من أول حد عقد القبة عشرون ذراعاً فصار من الأرض إلى رأس القبـة الخضراء ثمانين ذراعاً وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح.

وقد أنفق المنصور عـلى مدينتـه هذه ثمـانية عشر ألف ألف دينـار على مـا حكـاه ياقـوت وفي بعض الروايـات أقل من ذلـك. ولما تم بنـاؤهـا حشر إليهـا المنصور العلماء من كل بلد وإقليم فـأمها النـاس أفواجـاً ولم تزل تتعـاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيـدة البلاد ومهـد الحضارة الإسـلامية في عهـد الدولة العباسية وأربى سكانها على مليونين. قال الخطيب البغدادي لم يكن لبغداد في الدنيا نـظير في جلالـة قدرهـا وفخامـة أمرهـا وكثرة علمـائها وأعـلامها وتميـز

خواصها وعوامها وعظم أقطارهـا وسعة أطـرارها وكثـرة دورها ومنـازلها ودروبهـا وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ما حصر من عدد سكـانها وأكثر مـا كانت عـمـارة وأهلا في أيـام الرشيـد إذ الدنيـا قارة المضـاجع دارة المـراضع خصيبـة المـواقـع مـوردة المشارع .

الأحوال الخارجية :

في عهد المنصور هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبـد الملك بن مروان إلى بلاد الأندلس وأسس بها الدولة الأموية الثانية وكان المنصور يعجب به وبقـدرته وعـزيمته التي جعلتـه وهو شـريد طـريـد يؤسس ملكـاً في هـذه البلدان القاصية ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة ولم يتسم عبد الرحمن بأمـير المؤمنين بل تسمى بالأمير فقط . وهذه أول بلاد اقتطعت من الخلافـة الإسلاميـة الكبرى بالمشرق أما مملكة الروم التي كانت تحاد الخـلافة الإسـلامية من الشمـال فكان يعاصر المنصور فيها قسطنطين الخامس كما قدمنا وكانت العلاقة بين الأمتين منقطعة لا تترك إحداهما قتال الأخرى متى عنت الفرصـة وكان من النـظام المتبع في الخـلافة إرسـال الجيوش تغـزو الروم في الصيـف وتسمى بـالصوائف ولم يكن ذلك ينقطع إلا لمانع .

أول ما حصل في عهد المنصور أن الـروم بقيادة ملكهم أغـاروا سنة ١٣٨ عـلى ملطية وكـانت إذ ذاك من الثغور الإسـلامية فـدخلوها عنـوة وقهروا أهلهـا وهدموا سورها ولكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية .

ولما علم بذلـك المنصور أغـزى الصائفة عمه صـالح بن عـلي ومعه أخـوه العباس بن محمد بن علي فبنى ما كان صاحب الـروم هدمه من ملطية وقـد أقام في استتمام ذلك إلى سنـة ١٣٩ . ثم غزوا الصـائفة من درب الحـدث فوغـلا في أرض الروم وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة ابنتا علي وكانتا نـذرتا إن زال

ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل اللّه ـ وغـزا من درب ملطية جعفـر بن حنظلة البهراني.

وفي هذه السنة استقر الأمر بين المنصور وملك الروم على المفاداة فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين.

وفي سنة ١٤٠ غزا الصائفة الحسن بن قحطبة مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام وأقبل قسطنطين صـاحب الروم في جيش كثيف فنـزل جيحان فبلغـه كثرة المسلمين فأحجم عنهم ثم لم تكن صـائفة بعـد ذلك إلى سنـة ١٤٦ لاشتغال أبي جعفر بأمر محمد وإبراهيم ابني عبد اللّه.

ولم تـزل الصوائف بعـد ذلك تتـوالى إلى سنة ١٥٥ وفيهـا طلب صـاحب الروم الصلح على أن يؤدي للمسلمين الجزية.

وكانت هذه الحروب بين الطرفين إغارات لم يقصد بها فتح بـل كل واحـد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التي لصاحبه ثم يعود إلى مقره ثانيـة ولم تكن المصالحات يطول زمنها بل سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه.

أمـا حـدود المملكـة من الجهـات الأخـرى فكـانت في الغـالب محـلا للاضطرابـات ولكنها كـانت تسكن حالاً بمـا يبذلـه المنصور من الهمـة في إرسال الجنود إليها ليقظته ومعرفته بالأمور على وجهها، وكان في كل ثغر جنود مـرابطون من المـرتزقـة وهم المفروض لهم عـطاء في الـديـوان ومن المتـطوعـة وهم الـذين ينتدبون للجهاد في سبيل اللّه لا يطلبون على ذلك أجراً إلا من اللّه وكان الخليفة هو الذي يعين قائدهم وكان عددهم في ذلك الوقت كثيراً.

صفات المنصور وأخلاقه

كـان المنصور أعـظم رجل قـام من آل العباس شـدة وبأسـاً ويقظة وثبـاتاً ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترتسم صورة هذا الرجل العظيم في الأذهان.

كيف كان يقضي وقته:

كان شغله في صدر النهار بالأمر والنهي والولايـات والعزل وشحن الثغـور

والأطراف وأمن السبل والنظر في الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدوئهم فإذا صلّى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره. فإذا صلّى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره فإذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

كيف كان خلقه في بيته وخارجه:

قال سلامة الأبرش: كان المنصور من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس وأشد احتمالا لما يكون من عبث الصبيان فإذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه فيخرج فيكون منه ما يكون فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك فنستقبله في ممشاه فربما عاتبنا. وقال له يوماً يا بني إذا رأيتني قد لبست ثيابي أو رجعت من مجلسي فلا يدنون مني أحد منكم مخافة أن أعره بشيء.

الجد في بلاطه:

قال يحيى بن سليم كاتب الفضل بن الربيع: لم ير المنصور في لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث إلا يوماً واحداً فإنا رأينا ابناً له يقال له عبد العزيز قد خرج على الناس متنكباً قوساً متعمماً بعمامة مترديا ببرد في هيئة غلام أعرابي راكباً على قعود بين جوالقين فيهما مقل ومساويك ونعال وما يهديه الأعرابي فعجب الناس من ذلك ونكروه فمضى الغلام حتى عبر الجسر وأتى المهدي بالرصافة فأهدى إليه ذلك فقبل المهدي الجوالقين وملأهما دراهم فانصرف بين الجوالقين فعلم أنه ضرب من عبث الملوك. وذكر عن حماد التركي قال كنت واقفاً على رأس المنصور فسمع جلبة في الدار فقال ما هذا يا حماد انظر فذهبت فإذا خادم له قد جلس بين الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فجئت فأخبرته فقال وأي شيء الطنبور فوصفه له فقال له أصبت صفته فما يدريك أنت ما الطنبور فقال رأيته بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم فلما

بصروا به تفرقوا فأخذ الخادم الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرج من قصره.

كيف كان يهتم بعماله:

قال المنصور ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم قيل له يا أمير المؤمنين من هم؟ قال هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم إن نقصت واحدة تداعي وهي: أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم - والآخر صاحب شرطة بنصف الضعيف من القوي - والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني - والرابع - ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه. قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة.

وولى رجلا من العرب حضرموت فكتب إليه والى البريد أنه يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدهما فعزله وكتب إليه (ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحوش سلم ما كنت تبلي من عملنا إلى فلان ابن فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً).

وظفر مرة برجل من كبراء بني أمية فقال إني سائلك عن أشياء فأصدقني ولك الأمان. قال نعم. فقال المنصور من أين أتي بنو أمية حتى انتشر أمرهم؟ قال من تضييع الأخبار. قال فأي الأموال وجدوا أنفع؟ قال الجوهر. قال فعند من وجدوا الوفاء. قال عند مواليهم - فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته ثم قال أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه.

وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى أن ولاة البريد في الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل مأكول وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وبما يعمل به الوالي وبما يرد بيت المال وكل حدث وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب ويكتبون إليه بما

كان في كل ليلة إذا صلوا الغداة فإذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شيء عن حاله كتب إلى الوالي والعامل هناك وسأل عن العلة التي نقلت ذاك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقه حتى يعود سعره ذلك إلى حاله. وإن شك في شيء مما قضى به القاضي كتب إليه في ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فإن أنكر شيئاً عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه:

ثباته عند الشدائد:

من الخلال التي ذللت للمنصور طريق النجاح أنه لم يكن من أولئك الرجال الذين يملأ الهم صدورهم قبل موقعه ويضيقون به ذرعاً إذا وقع بل كان رابط الجأش يقابل الكوارث بعزم صادق لا يبالي فيعد له ما يلزم من العدة: لما تتابعت الأحداث على أبي جعفر في عهد محمد وإبراهيم ابني عبد اللّه تمثل:

تفرقت الظباء على خداش ... فما يدري خداش ما يصيد

ثم أمر بإحضار القواد والموالي والصحابة وأهل بيته وأمر حمادا التركي بإسراج الخيل وسليمان بن مجالدبالتقدم والمسيب بن زهير بأخذ الأبواب ثم خرج في يوم من أيامه حتى علا المنبر فأزم عليه طويلا لا ينطق ثم قال:

مالي أكفكف عن سعد ويشتمني ... ولو شتمت بني سعد لقد سكتوا
جهلا علي وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

ثم جلس وقال:

فألقيت عن رأسي القناع ولم أكن ... لأكشفه إلا لإحدى العظائم

واللّه لقد عجزوا عن أمن قمنا به فما شكروا الكافي ولقد مهدوا فاستوعروا وغمطوا الحق وغمصوا فماذا حاولوا أشرب رتقا على غصص أم أقيم على ضيم ومضض واللّه لا أكرم أحداً بإهانة نفسي واللّه لئن لم يقبلوا الحق ليطلبنه ثم لا يجدونه عندي والسعيد من وعظ بغيره. قدم يا غلام ثم ركب.

لما قصد الكوفة حين علم بمخرج محمد كان معه عثمان بن عمارة وإسحاق بن مسلم العقيلي وعبد اللّه بن الربيع المداني فقال عثمان أظن محمداً خائباً ومن معه من أهل بيته إن حشو ثياب هذا العباسي لمكر ودهاء. إنه فيما نصب له محمد من الحروب لكما قال ابن جذل الطّعان:

فكم من غارة ورعيل خيل　　تداركها وقد حمي اللقاء
فرد خيلها حتى ثناها　　بأسمر ما يرى فيه التواء

فقال له إسحاق بن مسلم قد واللّه سبرته ولمست عوده فوجدته خشناً وغمرته فوجدته صليبا وذقته فوجدته مراً وإن من حوله من بني أبيه لكما قال ربيعة بن مكدم.

سمالي فرسان كأن وجوههم　　مصابيح تبدوا في الظلام زواهر
يقودهم كبش أخو مصمئلة　　عبوس السرى قد لوحته الهواجر

وقال عبد اللّه بن الربيع هو واللّه خيس ضيغم شموس، للأقران مفترس وللأرواح مختلس وإنه فيما يهيج من الحروب كما قال أبو سفيان بن الحرث:

وإن لنا شيخا إذا الحرب شمرت　　بديهته الإقدام قبل النوافل

ويكفيه فخرا أنه قام في وجه معانديه ومخالفيه وهم كثيرون في جهات شتى فقهرهم جميعا ووطد دعائم الملك بعد أن كاد يذهب من آل العباس قبل أن يستقر إلا أنه يؤخذ عليه ويحط من شأنه غدراته الثلاث التي عرفت عنه فقد غدر بابن هبيرة بعد أن أعطاه الأمان ولم يبد من الرجل شيء يرتب وغدر بعمه عبد اللّه بن علي بعد أن أعطاه الأمان وغدر بأبي مسلم وربما تكون له شبهة في القضاء على عمه وعلى أبي مسلم ولكن الذي لا يليق بخليفة المسلمين وإمامهم أن يستعمل الأيمان والعهود وسيلة لاستنزال أعدائه ثم يغدر بهم.

ومن غريب أمره أنه كان تزوج أروى بنت منصور الحميري وهي أم ولديه محمد وجعفر الأكبر وكان شرط لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى وكتب عليه بذلك كتاباً أكدته وأشهدت عليه شهوداً فعزب بها عشر سنين في سلطانه فكان

يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة فكانت أروى إذا علمت بمكانه بادرته فأرسلت إليه بمال جزيل فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد. فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عقد عقده على نفسه ويريد أن يلقي تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر والذمم وإن كان هذا الحديث في الجملة يدلنا على أن الغدر لم يصر طبعاً للمنصور وإنما كانت حوادث مرت وحمله عليها السبب الذي لم يمكنه تلافيه.

اقتصاده:

عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه ولذلك ترك لابنه المهدي ثروة جعلته مدة حكمه هادىء البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفادا. ولم يكن المنصور يعطي الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف وإنما كانت أعطياته إلى القلة أميل وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى السرف.

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور ٣٠٠ درهم ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق: الفضل بن سهل.

وعلى الجملة فلم يقم في بني العباس مثل المنصور في ثباته وعلو همته وشدته على المريب واهتمامه بأمر العامة وجده في بلاطه ـ وكان فوق ذلك كله فصيحاً يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة.

وكانت القوة الإسلامية في يده وطوع أمره إلا أنها لم تكن عربية خالصة كما كان الحال في الدولة الأموية وكانت قوة العرب لعهده لا تزال راجحة.

وفاة المنصور:

في سنة ١٥٨ حج المنصور. شخص من مدينة السلام متوجهاً إلى مكة في شوال فلما صار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذي توفي به ولم يزل يزداد حتى وصل بستان ابن عامر فاشتد به وجعه ثم صار إلى بئر ميمون وهو يسأل

عن دخول الحرم ويوصي الربيع بما يريد.وتوفي في سحر ليلة السبت ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم لأمير المؤمنين المهدي ولعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقوّاد فبايعوا وتوجه العباس بن محمد بن علي ومحمد بن سليمان بن علي إلى مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدي بين الركن والمقام.

ثم أخذ في جهاز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل رأسه مكشوفاً من أجل أنه مات محرماً وصلّى عليه عيسى بن موسى ودفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها ٢٢ سنة إلا ستة أيام رحمه اللّه.

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت. فالذكور محمد المهدي وجعفر الأكبر وأمهما أروى بنت منصور الحميرية وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد اللّه ـ وجعفر الأصغر وأمه أم ولد كردية. وصالح المسكين وأمه أم ولد رومية. والقاسم وأمه أم ولد وقد مات منهم جعفر الأكبر والقاسم قبل وفاة المنصور والبنت اسمها العالية وأمها امرأة من بني أمية وقد تزوج العالية إسحق ابن سليمان بن علي.

٣ ـ المهدي

هو محمد المهدي بن المنصور وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى أم موسى ولد سنة ١٢٦ بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنه إذ جاءتهم الخلافة ست سنوات. ولما استخلف أبوه كان فتى سنه عشر سنوات ولما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه سنة ١٤١ وسنه ١٥ قيادة الجنود المتوجهة إلى خراسان وأمره أن ينزل الري حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل المنصور على خراسان وبعد انتهاء تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان ثم انصرف عائداً من خراسان سنة ١٤٤ فلقيه أبوه بقرماسين وانصرفا جميعاً إلى الجزيرة لمراقبة ثغورها ـ وفي هذه السنة بنى المهدي بريطة بنت أبي العباس السفاح وفي سنة ١٤٧ ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى ثم عاد إلى الري فأقام إلى سنة ١٥١ وفيها قدم على أبيه فبنى له ولجنده الرصافة وهي الجانب الشرقي من بغداد وولاه الحج سنة ١٥٣ وفي سنة ١٥٥ أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد ولم يزل يستعين به في الأعمال حتى توفي في التاريخ الذي تقدم ذكره ٦ من ذي الحجة ١٥٨ (٧ أكتوبر سنة ٧٧٥).

بيعة المهدي

بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدي على بني هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور في حجه ووجه رسولاً إلى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبي ﷺ وبردته التي يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذي الحجة وفي ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام

ومكث في خلافته إلى أن توفي ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) بما سبدان فتكون مدته عشر سنين وشهراً ونصفاً.

وكان يعاصره في بلاد الأندلس عبد الرحمن الأول مجدد الدولة الأموية في المغرب. ويعاصره في فرنسا شارلمان. ويعاصره في مملكة الروم الشرقية لاون الرابع (٧٧٥ ـ ٧٨٠) ثم قسطنطين السادس ولصغره كانت أمه إيريني تدبر أمره.

الحال في عهد المهدي:

كانت خلافة المهدي مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور فقد كان المنصور يؤسس ملكا له خصوم فكان يكتفي بالريبة والظنة فيعاقب بهما وفي مثل ذلك كثيراً ما يؤخذ البريء بالمذنب والمطيع بالعاصي فلما جاء المهدي كانت الخلافة العباسية قد توطدت وأنياب العلويين قد كسرت وإن كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة فهم لا يحتاجون في الاحتراس منهم إلى مثل ما كان المنصور يحتاج إليه من الشدة فإن كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم فكانوا يعرضون عليه كل يوم ولذلك كانت حياة المهدي حياة سعيدة لنفسه ولأمته وهو بعد أبيه يشبه في كثير من الوجوه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه.

في أول ولايته أمر بإطلاق من كان في سجن المنصور إلا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ومن كان معروفاً بالسعي في الأرض بالفساد أو كان لأحد قبله مظلمة أو حق فالذين أطلقهم من كان جرمهم سياسياً أما أرباب الجنايات والمحبوسون لحقوق مدينة فإنهم ظلوا في حبسهم وكان ممن أطلق يعقوب بن داود الذي سيأتي ذكره في كبار الرجال في عهد المهدي.

ومما أجراه من الإصلاح أمره ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان السفاح بناها من القادسية إلى زبالة وأمر بالزيادة في قصور السفاح وترك منازل المنصور التي بناها على حالها. وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وهي حيضان تبنى تملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلاً على رجال

القوافل الذين لا ينقطع مرورهم من تلك الجهات وأمر بتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع وجعل لذلك عاملاً خاصاً يقوم به وأمر أن يجري على المجذومين وأهل السجون في جميع الآفاق حتى لا يحتاج المجذومون إلى المشي في الطرق وسؤال الناس فيكونون سبباً في انتشار المرض وحتى يكون للمسجونين ما يقوم بأودهم فلا يموتوا جوعاً إلا من كان له أهل يسألون عنه.

وأقام البريد بين مدينة رسول اللّٰه ﷺ ومكة واليمن بغالا وإبلا ولم يقم هناك بريد قبل ذلك.

ومن آثاره زيادته في المسجد الحرام فأدخل فيه دوراً كثيرة مما يحيط به ومما يؤخذ عليه أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوي وكتابة اسمه مكانه وقدماً شغف الملوك بهذه الإغارات التي تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه منقوشاً على الآثار فإن الخلف منهم كان إذا رأى للسلف أثراً باقياً يستحق به المدح والثناء فسرعان ما يأمر بإزالة اسم الباني ويضع اسمه كما حكى ذلك في الآثار المصرية وهذا غش وتدليس على المتأخرين لا يحسن بالسوقة أن يفعلوه فضلاً عن الملوك ولكن هكذا كان.

وكان المهدي يجلس للمظالم وتدخل القصص إليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتاً له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص وكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولاً فأولا فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض.

وكان المهدي مغريا بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم فكان دائماً يعاقبهم بالقتل ولذلك كانت هذه التهمة في زمنه وسيلة إلى تشفي من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم والذي أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنع الخراساني كان من إحدى قرى مرو وكان يقول بتناسخ الأرواح فاستغوى بشراً كثيراً وصار إلى ما وراء النهر فوجه المهدي لقتاله عدة من القواد فيهم معاذ بن مسلم وهو يومئذ على خراسان ثم أفرد المهدي لمحاربته سعيداً الحبشي وضم إليه القواد فاستعد المقنع للحصار في قلعة كبش فحاصره سعيد بقلعته ولما اشتد عليه الحصار وأحس

بالهلكة شرب سماً وأسقاه نساءه وأهله فمات وماتوا جميعاً ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه.

الوزارة:

كان مظهر الوزارة في عهد المهدي أوضح منه في عهد أبيه المنصور لما كان من ركون المهدي إلى وزرائه واعتماده عليهم أكثر مما كان يعتمد أبوه وكان أول وزرائه كبير الكفاءة فإنه جمع له حاصل المكة ورتب الديوان وقرر القواعد وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الأشعريين كان كاتب المهدي ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور إليه وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدي فكان غالباً على أموره لا يعصى له قولاً وكان المنصور لا يزال يوصيه به ويأمره بامتثال مشورته فلما مات المنصور وولي المهدي فوض إليه تدبير المملكة وسلم إليه الدواوين وكان مقدماً في صناعته وله ترتيبات في الدولة منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة وكان السلطان يأخذ على الغلات خراجا مقرراً ولا يقاسم فلما تولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنف كتاباً في الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده وهو أول من صنف كتاباً في الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتباً في الخراج سيأتي ذكرها.

وكان الربيع الحاجب يساعد أبا عبيد الله ويقوم بتأييده عند المنصور إذا شكاه أحد بشكوى فلما توفي المنصور وقام الربيع بأمر بيعة المهدي بمكة عاد إلى دار السلام فرأى أن يقابل أولاً أبا عبيد الله قبل أن يرى المهدي فحضر إليه واستأذن عليه فلم يأذن له إلا بعد صلاة العشاء ولما دخل عليه كان متكئاً فلم يقم له ولم يحفل به فقعد الربيع بين يديه على البساط وأبو عبيد الله متكىء فجعل يسائله عن مسيره وسفره وحاله ولم يسأله عما فعل في أمر بيعة المهدي فذهب الربيع يبتدىء بذكره فقال له قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع متغير القلب على أبي عبيد الله وقال لابنه الفضل والله الذي لا إله إلا هو لأخلعن جاهي ولأنفقن مالي حتى أبلغ من أبي عبيد الله. كان أبو عبيد الله من كبار الوزراء فهو أحذق الناس بصناعة الكتابة التي كانت في تلك الأزمنة سلماً للوزارة وكان

مع ذلك من أعف الناس فلم يجد الربيع مع دهائه ونفوذ حياته مطعناً في أبي عبيد اللّه لأنه كان بعيداً عما يكرهه الخلفاء من وزرائهم.

كان لأبي عبيد اللّه ابن متهم في دينه وقد أسلفنا ما كان المهدي يكره من الزندقة فرأى الربيع أن ذلك خير وسيلة للإفساد بين الخليفة ووزيره فما زال يحتال في ذلك حتى اتهم المهدي ابن أبي عبيد اللّه فأمر بإحضاره وقال يا محمد اقرأ فذهب ليقرأ فاستعجم عليه القرآن فقال لأبي عبيد اللّه يا معاوية ألم تخبرني أن ابنك جامع للقرآن فقال بلى يا أمير المؤمنين ولكنه فارقني منذ سنين وفي هذه المدة نسي القرآن فقال (قم فتقرب إلى اللّه بدمه) فذهب ليقوم فوقع فقال العباس بن محمد يا أمير المؤمنين إن شئت أن تعفي الشيخ ففعل وأمر المهدي بابنه فضرب عنقه.

كان بعد ذلك من السهل أن يتخوف المهدي من أبي عبيد اللّه لأنه قتل ابنه فاستوحش منه وبذلك بلغ الربيع ما أراد واشتفى وزاد. وتلك حال الأمراء المستبدين الذين جعلوا آذانهم صيداً لكل قول فلا يزال أهل الأهواء يلعبون بهم ويحرمونهم من خدمة الصادقين من أنهم بمثل تلك التهم التي من السهل على المفسدين توجيهها لأنهم لا ينتظرون تحقيقاً وكانت وفاة أبي عبيد اللّه معزولاً سنة ١٧٠ وكان عزله سنة ١٦١.

استوزر المهدي بعده أباه عبد اللّه يعقوب بن داود بن طهمان مولى بن سليم كان أبوه قديماً كاتباً لنصر بن سيار عامل بني أمية على خراسان خرج أولاده أهل علم وأدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ونظروا فإذا ليس لهم عند بني العباس منزلة فلم يطمعوا في خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر فأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي وطمعوا أن يكون لهم دولة فيعيشوا فيها فكان يعقوب يجول البلاد منفرداً بنفسه ومع إبراهيم بن عبد اللّه أحياناً في طلب البيعة لمحمد بن عبد اللّه فلما ظهر محمد وإبراهيم كان علي بن داود كاتباً لإبراهيم وكان يعقوب من الخارجين مع إبراهيم فلما قتل توارى علي ويعقوب وإخوتهما من المنصور فطلبهم وظفر بهم فأخذ علياً ويعقوب وحبسهما في المطبق أيام حياته فلما مات المنصور وبويع

المهدي من عليهما فيمن من عليه وكان معهما في المطبق إسحاق بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فكانت بينهما صداقة كان المهدي يخشى الزيدية وتدبيرهم المكايد لملكه فكان يطلب رجلا له معرفة بهم ليدخل بينهم وبينه فدل على يعقوب فلما دخل عليه وفاتحه وجده رجلاً كاملاً فسأله عن عيسى بن زيد فوعده يعقوب أن يدخل بينه وبينه وكان الناس في ذلك الزمن رموه بأن منزلته عند المهدي بإنما كانت للسعاية بآل علي وكان يعقوب يتبرأ من ذلك.

قرب المهدي يعقوب بن داود إليه وولاه وزارته بعد أبي عبد اللّه فأرسل للزيدية فأتى بهم من كل حدب وولاهم أمور الخلافة في المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها في يديه.

ومن علو منزلته أنه أمره المهدي بتوجيه أمنائه في جميع الآفاق فكان لا ينفذ المهدي كتاباً إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب إلى أمينه وثقته بإنفاذ ذلك.

كان ذلك العلو داعياً لأن حسده موالي المهدي فسعوا عليه وأعانهم الشعراء فقال في ذلك بشار بن برد:

بني أمية هبوا طال نومكم   إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا   خليفة اللّه بين الناي والعود

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لإسحاق بن الفضل وأنه يربض له الأمور وأفهموا المهدي أن إسحاق يروم الخلافة وأن يعقوب يساعده وأن المشرق والمغرب في يده وفي أيدي أصحابه وإنما يكفيه أن يكتب لهم فيثوروا جميعاً في يوم واحد على ميعاد فيأخذ الدنيا لإسحاق بن الفضل فملأ ذلك قلب المهدي وصادف أن طلب يعقوب من المهدي عقب ذلك ولاية مصر لإسحاق بن الفضل فتغير وجه المهدي ثم دس إليه جارية من جواريه وهبها له تتسمع ما يبدر منه ثم سلم إليه علويا أمره بقتله فمن عليه يعقوب وأخرجه خفية وأخبر المهدي أنه قتله وكانت الجارية قد أرسلت بخبر العلوي إليه فأرسل من جاءه به من الطريق ولما رآه يعقوب سقط في يده وأمر المهدي بإعادته إلى المطبق فحبس ولم يزل

محبوساً حتى أخرجه الرشيد من سجنه. وأمر المهدي بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات في الشرق والغرب وأمر أن يؤخذ أهل بيته ويحبسوا ففعل ذلك بهم وكان ذلك سنة ١٦٦ فكانت وزارته خمس سنوات.

وفي هذه الوزارة أحدث ديوان كانوا يسمونه ديوان الأزمة وأول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع وذلك أنه لما جمعت له الدواوين فكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة وولى كل ديوان رجلا فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسمعيل بن صبيح ولم يكن لبني أمية ديوان أزمة وفي سنة ١٦٨ ولي المهدي علي بن يقطين ديوان زمام الأمة على عمر بن بزيع.

استوزر المهدي بعده الفيض بن أبي صالح وهو من أهل نيسابور وكان أهل بيته نصارى فانتقلوا إلى بني العباس وأسلموا وتربى الفيض في الدولة العباسية وتأدب وبرع وكان سخياً مفضالاً متخرقاً في ماله جواداً عزيز النفس كبير الهمة كثير البر والتيه واستمر الفيض وزيراً للمهدي حتى مات ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده ومات في أول أيام الرشيد سنة ١٧٣.

الأحوال الخارجية:

كان منظر الخلافة في داخل المملكة باهراً وكان كذلك مظهرها في نظر الأمم الأخرى إلا أنه مما يؤسف سوء العلاقة بين الخلافة المشرقية ببغداد وبين أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل فقد كان المنصور والمهدي يهتمان بأمره ويودان إزالة دولته ولكن الشقة بين الرجلين بعيدة فلم يمكن واحد منهما أن يجرد له جيشاً يخترق صحاري أفريقية ويغزوه في بلاد الأندلس فاكتفى كل من الفريقين بمعاداة الآخر وكان شارلمان في ذلك الوقت مهتماً بإعادة الدولة الرومانية الغربية التي أمحت آثارها وقد فطن إلى ما بين الطرفين المسلمين من العداوة فأحب الاستفادة منها والتقرب بمحاربة أمير الأندلس إلى قلب خليفة بغداد ليكتسب بذلك نفوذاً في الخلافة الإسلامية ويرتفع قدره على ملك الروم في القسطنطينية وجد في ذلك حتى تمكن من إتمام هذه المواصلات في عهد الرشيد كما سيأتي.

أما العلاقات بين المهدي وبين ملك الروم فكانت سيئة فلم تكن الإغارات من الطرفين تبطل بل كانت الصوائف من طرف المسلمين كما كانت الإغارات من ملك الروم وكانت الحرب براً وبحراً.

وفي سنة ١٦٣ احتفل المهدي بأمر الصائفة وولى أمرها ابنه هارون وفرض البعوث على جميع الأجناس من أهل خراسان وغيرهم وخرج هارون مع الجيش حتى أتى البردان فأقام به نحواً من شهرين يتعبأ ويتهيأ ويعطي الجنود وأخرج صلات لأهل بيته الذين شخصوا معه وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات في عهد المهدي فتح اللّه عليهم فيها فتحاً كثيراً وأبلاهم في ذلك الوجه بلاء جميلا ففتحوا حصن سمالا بعد أن قاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت وكان فتحها على ثلاثة شروط ألا يقتل أهلها ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا ذلك فنزلوا ووفي لهم هارون. ثم قفل بالمسلمين سالمين إلا من كان أصيب منهم بسمالا.

وفي سنة ١٦٥ غزا الصائفة هارون مرة أخرى فوغل في بلاد الروم وكان عدد جيشه ٩٥٧٩٣ رجلا حمل لهم من العين ١٩٤٤٥٠ ديناراً ومن الورق ١٤١٤٨٠٠ درهم ولم يزل الجيش سائراً حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية وكان الذي يقوم بأمر الروم «إيريني» أم الملك نيابة عن ابنها فجرت بينها وبين هارون مكاتبات في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية فقبل منها ذلك هارون واشترط عليها أن تقيم الأدلاء والأسواق في طريقه لأنه قد دخل مدخلاً صعباً مخوفاً على المسلمين فأجابته إلى ما سأل. والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها ٩٠٠٠٠ دينار تؤديها في نيسان من كل سنة وفي حزيران فقبل ذلك وأقامت له الأسواق في منصرفه ووجهت معه رسولا إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعروض وكتبوا كتاب هدنة إلى ثلاث سنوات وسلمت الأسارى. وقال مروان بن أبي حفصة في هذه الغزوة لهارون.

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً — إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها — بجزيتها والحرب تغلي قدورها

وكان قفول هارون من وجهه هذا محرم سنة ١٦٦ وقدمت الروم بالجزية معه وتبلغ ٦٤٠٠٠ دينار رومية و ٢٥٠٠ دينار عربية و ٣٠٠٠٠ رطل مرعزي.

وفي رمضان سنة ١٦٨ أي قبل انقضاء مدة الهدنة نقض الروم الصلح وغدروا فوجه إليهم علي بن سليمان بن علي وهو والي الجزيرة وقنسرين يزيد بن بدر البطال في سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا. والنتيجة أن مدة المهدي كان أكثرها حرباً مع المسلمين والروم وكان الفريقان في موقف الدفاع أحياناً والهجوم أحياناً إلا أن الظفر كان في الغلب للمسلمين.

غزو الهند:

كان المسلمون يملكون إلى نهر مهران الفاصل بين السند والهند فأراد المهدي أن يغزي جنوده بلاد الهند ففي سنة ١٥٩ وجه عبد الملك بن شهاب المسمعي في البحر إلى بلاد الهند وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات ١٥٠٠ ووجه معه قائداً من أبناء الشام في ٧٠٠ من أهل الشام وخرج معه من متطوعة أهل البصرة ١٠٠٠ رجل ومن الأسواريين والسبابحة ٤٠٠٠ فكان تمام عدتهم ٩٢٠٠ رجل مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند سنة ١٦٠ فناهضوها بعد قدومهم بيوم وأقاموا عليها يومين فنصبوا المنجنيق وناهضوها بجميع الآلة وتحاشد الناس وحصن بعضهم بعضاً حتى فتحوها عنوة ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى ألجأوهم إلى بلدهم فأشعلوا فيها النيران والنفط وغلبوا أهلها على أمرهم بعد أن قتل من المسلمين بضعة وعشرون رجلاً ثم أقاموا بالمدينة حتى يطيب لهم الريح فأصابتهم أمراض مات بسببها نحو ألف منهم ثم انصرفوا حين أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلاً من فارس يقال له بحر حمران فعصفت عليهم فيه الريح فكسرت عامة مراكبهم فغرق منهم بعض ونجا بعض ويظهر إن هذه الغزوة ليست إلا إغارة لا عملا يقصد به توسيع المملكة.

صفات المهدي:

كان المهدي لا يشرب النبيذ وإن كان سماره يشربونه في مجلسه وكان يسمع الغناء وكان من خلقه الحياء والعفو فكان إذا وقع أحد من خصومه في يده

عفا عنه وكان يتأثر بالقرآن. كان في حبسه موسى بن جعفر العلوي فقرأ مرة في صلاته ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾(١) فأتم صلاته والتفت إلى الربيع وأمره بإحضار موسى فلما جيء به قال له يا موسى إني قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لي أنك لا تخرج علي فقال نعم فوثق له فخلاه.

وكان خليفة عادلا يجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة فيزيل عن الناس مظالمهم ولو كانت قبله وكان إذا جلس للمظالم قال أدخلوا علي القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم إلا للحياء منهم لكفى. قال المسور بن مساور ظلمني وكيل المهدي وغصبني ضيعة لي فأتيت سلاما صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدي وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضي فأمر المهدي بإدخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها فقال له: ترضى بأحد هذين فقال نعم فقال تكلم فقال مساور أصلح اللّه القاضي إن هذا ظلمني في ضيعتي وأشار إلى المهدي فقال القاضي ما تقول يا أمير المؤمنين قال ضيعتي في يدي فقال مساور أصلح اللّه القاضي سله متى صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها قال المهدي بعد الخلافة قال القاضي أطلقها له قال قد فعلت. والعدل والحلم والعفو في الخلفاء من الصفات التي تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم وهكذا كان المهدي مع ما امتاز به من الجود وفصاحة اللسان وكان أبوه قد علمه تعليماً عربياً محضاً في صغره وقد ألف له المفضل الضبي أمثال العرب وجمع له مختارات شعرهم وكان يقول ما تقرب إلى أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هي أقرب من تذكيره إياي يداً سلفت مني إليه أتبعها أختها فأحسن ربها لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل.

وكان المهدي ميالاً إلى السنة يحب ألا يخالف سنة رسول اللّه ﷺ فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتصير منابرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول اللّه ﷺ وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به. وزار مرة مولاه أبا

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٢.

عون وهو مريض فقال له أوصني بحاجتك فشكره أبو عون وقال يا أمير المؤمنين حاجتي أن ترضى عن عبد اللّٰه بن أبي عون وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه فقال يا أبا عون إنه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك إنه يقع في الشيخين أبي بكر وعمر ويسيء القول فيهما فقال أبو عون هو واللّٰه يا أمير المؤمنين على الأمر الذي خرجنا عليه ودعونا إليه فإن كان قد بدا لكم فمرونا بما أحببتم حتى نطيعكم. ويظهر أن هذه الفكرة كانت موجودة حقيقة في مبدأ الدعوة العباسية ولكنهم رفضوها بعد أن كان ما كان من أمر الطالبيين وثوراتهم المتتالية فرأى العباسيون أن يقتصروا بعلي رضي اللّٰه عنه على الدرجة التي كان عليها من التأخر في الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين رضي اللّٰه عنهم أجمعين.

ولاية العهد:

قدمنا أن المهدي نزع من ولاية العهد عيسى بن موسى بن علي وجعل محله ابنه موسى الهادي ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد.

وفاة المهدي:

في سنة ١٦٩ أراد المهدي الخروج إلى جرجان فلما وصل إلى ماسبذان أدركته هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم في قرية يقال لها الروذ وصلّى عليه ابنه هارون لأنه كان في صحبته.

٤ ـ الهادي

هو موسى الهادي بن محمد المهدي بن جعفر المنصور وأمه أم ولد اسمها الخيزران كانت ملكا للمهدي وفي سنة ١٥٩ أعتقها وتزوجها أي بعد أن ولدت له الهادي والرشيد. ولد الهادي سنة ١٤٤ وولاه أبوه العهد وسنه ١٦ سنة وكان يوليه قيادة الجنود في المشرق فقادها في نواحي بجرجان لمحاربة الخارجين والمخالفين وفي اليوم الذي توفي فيه أبوه كان مقيماً بجرجان وكان مع المهدي ابنه هارون فأخذ له البيعة على الجند وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة وكان ذلك في ٢٢ محرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) ولم يزل خليفة حتى توفي في ١٣ ربيع سنة ١٧٠ (١٣ سبتمبر سنة ٨٧٦) فكانت مدته سنة وشهراً و ٢٢ يوماً وسنه حين مات ٢٦ سنة.

وكان يعاصره في الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه.

الحال في عهده:

كان الهادي على سنن أبيه في كراهة الزنادقة فالتفت إليهم ونكل بهم تنكيلا والزندقة على ما يظن كانت عندهم عنواناً على ترك التدين والمجازفة في التعبير عن الدين روى الطبري أن ممن قتل الهادي يزدان بن باذان الكاتب. ذكر عنه أنه حج فنظر إلى الناس في الطواف يهرولون فقال، ما أشبههم إلا ببقرة تدوس في البيدر وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى:

أيا أمين اللّه في خلقه ... ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر ... يشبه الكعبة بالبيدر

ويجعل الناس إذا ما سعوا حمرا تدوس البر والدوسر

وروى الطبري بسنده أن المهدي قال يوماً لموسى وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه: يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة (يعني أصحاب ماني) فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق تنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين وأمرني بقتل أصحاب الاثنين.

ومن غريب ما يروى أنه أتي للمهدي برجلين من بني هاشم أحدهما ابن لداود بن علي والثاني يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن بيعة بن الحارث بن عبد المطلب وقد اتهما بالزندقة وأقرا عنده بالزندقة فأما يعقوب بن الفضل فقال له أقر بها بيني وبينك فأما أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعل ولو قرضتني بالمقاريض فقال له ويلك لو كشف لك السموات وكان الأمر كما تقول كنت حقيقاً أن تعصب لمحمد ولولا محمد ﷺ من كنت هل كنت إلا إنساناً من الناس.

أما والله لولا أني كنت جعلت لله علي عهداً إذا ولاني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتك ولقتلتك ثم التفت إلى موسى الهادي فقال يا موسى أقسمت عليك بحقي إن وليت هذا الأمر بعدي ألا تناظرهما ساعة واحدة فمات ابن داود بن علي في الحبس قبل وفاة المهدي وأما يعقوب فبقي حتى مات المهدي وقدم موسى من جرجان فساعة دخل ذكر وصية المهدي فأرسل إلى يعقوب من ألقى عليه فراشاً وأقعدت عليه الرجال حتى مات.

ثورة الحسين بن علي:

وفي عهد الهادي خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ وكان والي المدينة لوقته عمر بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب وسبب خروجه أن عمر بن عبد العزيز أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمر بهم فضربوا جميعاً ثم أمر بهم فجعل في أعناقهم حبال وطيف بهم في المدينة فصار إليه الحسين بن علي فكلمه فيهم وقال له ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأساً فلم تطوف بهم فبعث إليهم وقد بلغوا البلاط فردهم وأمر بهم إلى الحبس فحبسوا يوماً وليلة ثم كلم فيهم فأطلقهم جميعاً وكانوا يعرضون كما قدمنا «يراقبون» ففقد الحسن بن محمد وكان الحسين بن علي ويحيى بن عبد اللّه بن الحسن كفلاه لأن العمري كان كفل بعضهم من بعض فغاب عن العرض ثلاثة أيام فأخذ الكفيلين وسألهما عنه فحلفا أنهما لا يدريان موضعه فكلمهما بكلام أغلظ لهما فيه فحلف يحيى بن عبد اللّه ألا ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره حتى يعلم أنه قد جاءه فلما خرجا قال الحسين سبحان اللّه ما دعاك إلى هذا وأين تجد حسناً حلفت له بشيء لا تقدر عليه قال واللّه لا نمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال حسين تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة قال قد كان الذي كان فلا بد منه وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى أو بمكة أيام الموسم وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم وممن كان بايع الحسين بن علي ففي آخر الليل خرجوا وجاء يحيى بن عبد اللّه حتى ضرب باب دار مروان على العمري فلم يجده فيها وتوارى منهم فجاءوا حتى اقتحموا المسجد. ولما أذن الصبح جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلون فلما صلّى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ للمرتضى من آل محمد وقاومهم جماعة من نصراء الدولة فلم يفلحوا ولما تم للحسين بن علي ما أراد انتهبت جماعته ما في بيت المال.

أقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج أحد عشر يوماً ثم فارقها لست بقين من ذي القعدة قاصداً مكة.

انتهى خبر الحسين إلى الهادي وقد كان حج في تلك السنة رجال من أهل بيته منهم محمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد وموسى بن عيسى سوى من حج من الأحداث وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور فأمر الهادي بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب فلقيهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحج. وكان محمد بن سليمان قد خرج في عدة من السلاح فشمر للحرب وسار نحو الحسين بن علي فلقيه بفخ وكانت عاقبة الوقعة أن قتل الحسين بن علي الثائر وجماعة ممن معه وأفلت من الموقعة رجلان لهما تاريخ جليل وهما إدريس بن عبد اللّه بن الحسن بن علي أخو محمد النفس الزكية وهو مؤسس دولة الأدارسية بالمغرب الأقصى والثاني أخوه يحيى بن عبد اللّه الذي ذهب إلى بلاد الديلم وسيأتي خبرهما في دولة الرشيد.

ومما يحسن ذكره ما رواه الطبري قال دخل عيسى بن داب على موسى بن عيسى عند منصرفه من فخ فوجده خائفاً يلتمس عذراً من قتل فقال أصلح اللّه الأمير أنشدك شعراً كتب به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علي رضي اللّه عنه قال أنشدني فأنشده:

يا أيها الراكب الغادي لطيته ... على عذافرة في سيرها قحم
أبلغ قريشاً على شحط المزار بها ... بيني وبين حسين اللّه والرحم
وموقف بفناء البيت أنشده ... عهد الإله وما ترعى به الذمم
عتقتم قومكم فخراً بأمكم ... أم حصان لعمري برة كرم
هي التي لا يداني فضلها أحد ... بنت النبي وخير الناس قد علموا
وفضلها لكم فضل وغيركم ... من قومكم لهم من فضلها قسم
إني لأعلم أو ظنا كعالمه ... والظن يصدق أحيانا فينتظم
أن سوف يترككم ما تطلبون بها ... قتلي تهاداكم العقبان والرخم
يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ خمدت ... وأمسكوا بحبال السلم واعتصموا

لا تـركبـوا البغي إن البغي مصـرعـة وإن شـارب كـأس الـبغـي يتـخـم
قد جرب الحـرب من قد كـان قبلكم من القـرون وقـد بـادت بهـا الأمم
فـأنصفـوا قـومكم لا تهلكـوا بـذخـاً فـرب ذي بـذخ زلـت بـه القـدم

قال فسرى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه.

صفات الهادي:

كان الهادي شديد الغيرة على حرمه ويشبه في ذلك سليمـان بن عبد الملك في بني أمـية وقد نهى أمـه الخيزران أن يـدخل عليهـا أحد من القـواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها من نفوذ الأمر في عهد المهـدي ما لم يكن لامـرأة غيرهـا (قالوا) كانت الخيزران في أول خلافة موسى الهادي تفتات عليه في أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمـر والنهي فأرسـل إليها ألا تخـرجي من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل فإنه ليس من قدر النسـاء الاعتراض في أمـر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلـك وكانت الخيـزران في خلافـة موسى كثيـراً ما تكلمه في الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته وانهال الناس عليها وطمعوا فيها فكـانت المواكب تغـدو إلى بابهـا فكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى إجـابتها إليه سبيلا فاعتل بعلة فقالت لا بد من إجابتي قال لا أفعل قالت فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد اللّـه بن مالـك فغضب موسى وقال ويلي على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها واللّه لا قضيتها لك قـالت إذاً واللّه لا أسـألك حـاجة أبـداً قال إذاً واللّه لا أبـالي وحمى غضبه فقـامت مغضبة فقـال مكانـك تستوعبي كـلامي واللّه وإلا فأنفي من قـرابتي من رسول اللّه ﷺ لئن بلغني أنّه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك ما هـذه المواكب التي تغـدو وتروح إلى بابك في كل يوم أمالك مغزل يشغلك أو مصحف يذكـرك أو بيت يصونـك إياك ثم إياك فتحك بابك عـلى مسلم أو ذمي فانصـرفت ما تعقـل ما تـطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها.

وكان شجاعاً قوياً روي عنه أنه كان يثب على الدابة وعليه درعان.

وكـان يرى النـاس لا يصلحـون إذا حجب خليفتهم عنهم حتى أنـه قـال للفضل بن الربيـع الذي أقـامه في حجـابته بعـد أبيه لا تحجب عني النـاس فإن ذلك يزيل عني البركة ولا تلق إليّ أمراً إذا كشفتـه أصبته بـاطلا فـإن ذلك يـوقع الملك ويضر بـالرعيـة، وقال مـرة لعلي بن صـالح ائـذن للناس عـلي بـالجفلى لا النقرى ففتحت الأبواب فدخل الناس على بكـرة أبيهم فلم يزل ينـظر في المظالم إلى الليل.

وكـان الهادي يشـرب النبيذ ويسمـع الغناء وهـو أول من فعـل ذلـك من خلفـاء بني العباس وأهـل العراق يتـوسعون في أمـر النبيذ فيجيـزون منـه مـا لا يسكر.

وكان كريماً يشبه أباه في أعطياته. ولم تطل مدته في الخلافـة حتى يكون لـه في أحوال الأمة أثر ظاهر.

ولاية العهد:

كـان الرشيـد ولي العهد بمقتضى عهـد المهـدي فخـطر للهـادي أن يخلعـه ويعهد إلى ابنه جعفر وتابعه على ذلـك القواد ودسـوا إلى الشيعة فتكلمـوا في أمر الرشيد وتنقصوه في مسجد الجماعة وقـالوا لا نـرضى به. وأمـر الهادي ألا يسـار بحربة أمام الرشيد ومر يوماً هو وجعفر بن الهادي راكبين فبلغـا قنطرة من قنـاطر عيساباذ فالتفت أبو عصمة الشرطي إلى هـارون فقال لـه مكانـك حتى يجوز ولي العهد فقال هارون السمع والطاعة للأمير فوقف حتى جاز جعفر. دعا ذلـك إلى اجتناب الرشيد فلم يكن أحد يجتـريء أن يسلم عليه ولا يقـربه وكـان يحيى بن خالد يقوم بإنـزال الرشيـد ولا يفارقـه فسعي إلى الهادي أن الـذي يفسد عليـك هارون هو يحيى وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى لا تفعل فدعـا الهـادي بيحيى وكلمه في ذلـك فقال يـا أمير المؤمنـين إنك إن حملت النـاس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيـك ثم بايعت لجعفـر من بعده كان ذلـك أوكد لبيعتـه فقال لـه الهادي صـدقت ونصحت ولي في هذا تدبير. ومع ظهور اقتناع الهادي بصحة رأي يحيى لم يتركـه مشيروه بـل ما زالـوا

يحرضونه على الرشيد حتى جد فيه واشتد غضبه منه وضيق عليه فأشار يحيى على الرشيد أن يستأذنه في الخروج إلى الصيد فأذن له الهادي. فلما غاب أكثر مما استأذن جعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر وأظهر الهادي شتمه وبسط واليه وقواده ألسنتهم فيه.

قطع ذلك النزاع كله مرض الهادي الذي لم يمهله إلا ثلاثة أيام. وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة في أمر الملك ونهي القواد والرؤساء عن الدخول إليها وانضم إلى ذلك ما أولع به الهادي من الإساءة إلى الرشيد وإرادة عزله أو قتله وكان الرشيد براً بها وقد يؤكد ذلك أنها أرسلت إلى يحيى والهادي مريض تعلمه أن الرجل لمآبه وتأمره باستعداد لما ينبغي فاستعد يحيى للأمر أكمل استعداد وهيأ الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادي وأنه قد ولاهم الرشيد ما كانوا يولون. فلما مات الهادي نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ.

٥ ـ الرشيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدي وأمه أم الهادي ولد بالري سنة ١٤٥ ولما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور. جعله أمير الصائفة سنة ١٦٣ وسنة ١٦٥ وفي سنة ١٦٤ ولاه المغرب كله من الأنبار إلى أطراف أفريقية فكانت الولاة ترسل من قبله وفي سنة ١٦٦ جعله أبوه ولي عهد بعد الهادي وفي سنة ١٦٩ وهي السنة التي توفي فيها المهدي أراد أن يقدمه على الهادي لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدي دون ذلك.

بويع الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ (١٤ سبتمبر سنة ٧٨٦) وسنه ٢٥ سنة ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ثالث جمادي الآخرة سنة ١٩٤ (٢٤ مارس سنة ٨٠٨) فكانت مدته ٢٣ سنة وشهرين و١٨ يوماً وكان سنه إذ توفي ٤٨ سنة.

وكان يعاصره في الأندلس الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ ـ ١٧٢) ثم هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ ـ ١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦).

وفي المغرب الأقصى إدريس بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (١٧٢ ـ ١٧٧) وهو أول المتغلبين من البيت الإدريسي ثم ابنه إدريس (١٧٧ ـ ٢١٣).

ويعاصره في فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلمان (٧٦٧ ـ ٨١٤).

ويعاصره في مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين السادس وكانت تدبره

لصغره أمه أريني (٧٨٠ ـ ٧٩٧) ثم استبدت بالملك من سنة ٧٩٧ إلى سنة ٨٠٢ ثم خلعت وخلعها نقفور (٨٠٢ ـ ٨١١).

الحال لعهده:

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة إلى أفخم درجاتها صولة وسلطاناً وثروة وعلماً وأدباً ارتفعت فيه حضارة الدولة العلمية والأدبية والمادية إلى أرقى درجاتها مما سنفصله بعد ووصل ترف الأمة في حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر إلى حد يؤذن بقرب الهبوط وكان في عهد الرشيد من كبار الرجال من تزدان بهم الممالك من رجال الإدارة والحرب فعظمت الهيبة في الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقي كما سنبين ذلك كله مفصلاً ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التي كان لها أثر في مستقبل الأمة.

الطالبيون:

كان الطالبيون شغل بني العباس الشاغل فإنهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة الملائمة لإقامة دولتهم وكان بنو العباس من أجل ذلك لا يأمنون جانبهم لكن الرشيد في أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشيء من الإحسان إليهم وكان أول ما فعله معهم أن رفع الحجر عمن كان منهم ببغداد وسيرهم إلى المدينة ما خلا العباس بن الحسن بن عبد اللّه بن علي وكان أبوه الحسن فيمن أشخص. ومع هذا الذي بدا منه لم يتركه الطالبيون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحيى بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي وهو من الناجين من وقعة فخ التي كانت في عهد الهادي ذهب إلى بلاد الديلم فاشتدت شوكته بها وقوي أمره ونزع إليه الناس من الأمصار والكور فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب إليه قتاله الفضل بن يحيى بن خالد في خمسين ألفاً ومعه صناديد القواد فسار سمت يحيى فكاتبه ورفق به واستماله وحذره وأشار عليه وبسط أمله وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحملت إليه فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه فكتب

الفضل بذلك إلى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده وكتب الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل عليه بذلك إلى يحيى فقدم وورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقا سنية وأنزله منزلا سريا بعد أن أقام بمنزل يحيى بن خالد أياما وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه وبلغ الرشيد الغاية من إكرام الفضل لذلك وسنبين خاتمة أمره في حديث نكبة البرامكة ولم يترتب على خروج يحيى هذا انفصال شيء من جسم الخلافة الإسلامية.

إدريس بن عبد الله:

كان إدريس بن عبد الله بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ وهذا أخو يحيى سار إلى مصر ومنها اتجه إلى بلاد المغرب الأقصى فالتف عليه برابرة أوربه فكون هناك أول خلافة للعلويين وهي دولة الأدارسة وكان نزوله بمدينة وليلى سنة ١٧٢ وكانت بيعته في تلك السنة ولما بلغ هارون أن أمر إدريس قد استقام ببلاد المغرب وكثرت جنوده وفتح بلاد تلمسان وأنه عازم على غزو أفريقيا هم أن يرسل إليه جيشاً ولكن عدل عن ذلك لبعد الشقة واختار رجلا داهية اسمه سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ وطلب منه أن يحتال في قتل إدريس وزوده مالا وطرفا يستعين بها على أمره فسافر الرجل ووصل إلى إدريس مظهراً النزوع إليه متبرئاً من الدعوة العباسية فقبله إدريس واختص به وأعجب بحديثه ولما انتهز الفرصة سمه إما في طيب وإما في سنون وفر هارباً فمات إدريس سنة ١٧٧ ولم يكن له ولد إلا أمة كانت حاملاً فانتظروا وضع حملها فوضعت ولداً ذكراً سمي إدريس على اسم أبيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الأدارسة بالمغرب رغم أنف الرشيد.

بذلك تم خروج إقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الأموي وبلاد المغرب الأقصى مع تلمسان على يد إدريس بن عبد الله.

كان الرشيد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبيين جداً ومن اتهم من

الناس بالميل إليهم عاقبه أشد العقوبات وأخذ موسى بن جعفر المعروف بالكاظم إلى بغداد فأقام بها إلى أن مات وهو السادس من أئمة الشيعة الإمامية.

الخارجون عليه من غير العلويين:

لم يكن اضطراب الدولة وزعزعة الأمن ناشئاً من العلويين وحدهم بل كان هناك فريق من الأمة ينعي على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عما توجبه الأوامر الشرعية من كتاب اللّه وسنة نبيه وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على علي بن أبي طالب إلى زمن الرشيد إلا أن خلفاء بني أمية قد أخفتوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من الجيوش الجرارة على يد أمهر القواد كالمهلب بن أبي صفرة وغيره ومع ذلك فإنهم لم يقدروا على إفناء روحهم الثورية من الأمة فكان لا يزال يخرج منهم خارجة متى ظهر فيهم ذو مقدرة وكفاءة لخوض الحروب. وقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولي بأس شديد أعادوا تاريخ أسلافهم في عهد بني أمية بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة وأشهر هؤلاء الخوارج ذكراً وأعظمهم أثراً الوليد بن طريف الشاري الشيباني كان بطلاً شجاعاً يقيم بالجزيرة بنواحي نصيبين خرج على الرشيد سنة ١٧٨ ففتك بإبراهيم بن خازم بنصيبين ثم مضى منها إلى أرمينية ثم رجع إلى الجزيرة سنة ١٨٩ واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد أن هزم للرشيد جيوشاً عدة فاهتم الرشيد بأمره جد الاهتمام ورأى أن يوجه إليه من ربيعة من يمكنه القيام في وجهه فوقع اختياره على يزيد بن مزيد الشيباني وهو ابن أخي معن بن زائدة فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويماكره متبعاً في ذلك طريقة المهلب بن أبي صفرة مع قطري بن الفجاءة وكانت البرامكة منحرفين على يزيد فقالوا له إنه يراعيه لأجل الرحم وإلا فشوكة الوليد يسيرة فوجه إليه الرشيد كتاباً مغضباً وقال ولو وجهت أحداً من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم باللّه لئن أخرت مناجزة الوليد ليبعثن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين فلقي يزيد الوليد ولما اصطف جيشاهما وشبت الحرب ناداه يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال أبرز لي فقال نعم واللّه فبرز الوليد وهو يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري قسورة لا يصطلي بناري

ووبرز إليه يزيد ووقف العسكـران فلم يتحرك منهـما أحد فتـطاردا ساعة وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنت يزيد فيـه الفرصـة فضرب رجله فسقط وصـاح بخيله فسقـطوا عليـه واحتـزوا رأسـه وكانت هذه الواقعة بـالحديثـة على فـراسخ من الأنبـار سنة ١٧٩ ثم وجـه يزيـد برأس الوليد وبكتاب الفتح إلى الرشيد. ومن ألطف الرثاء ما قالته الفارعة أخت الوليد.

بـتـل نهاكـي رسـم قـبـر كـأنـه ... عـلى جبـل فـوق الجبـال منيـف
تـضمـن مجـدا عـد مـليـا وسـؤددا ... وهمـة مـقـدام ورأس حـصـيـف
فيـا شجـر الخـابـور مالـك مـورقـاً ... كـأنـك لم تجـزع على ابن طـريف
فـتى لا يحب الـزاد إلا من التـقى ... ولا المـال إلا من قـنـا وسيـوف
ولا الـذخـر إلا كـل جـرداء صلدم ... مـعـاودة لـلكـر بـين صـفـوف
كـأنـك لم تشهـد هـنـاك ولم تقـم ... مقـامـاً عـلى الأعـداء غـير خفيف
ولم تـسـتـلم يـومـاً لـورد كـريهـة ... من السـرد في خضـراء ذات رفيـف
ولـم تسع يوم الحرب والحرب لاقح ... وسـمـر القـنـا ينـكـرنها بـألـوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى ... فـإن مـات لا يـرضى الـندى بحليف
فقـدنـاك فقـدان الشبـاب وليتنـا ... فـديـنـاك من فـتيـانـنـا بـألـوف
ومـا زال حتى أزهق المـوت نـفسـه ... شـجـا لعـدو أو نـجـا لضـعـيـف
ألا يـا لـقـوم لـلحـمـام ولـلبـلي ... ولـلأرض همـت بعـده بـرجـوف
ألا يـا لقـومي لـلنـوائب والـردى ... ودهـر مـلح بـالـكـرام عـنـيـف
وللبـدر من بـين الكـواكب إذ هـوى ... ولـلشمس لمـا أزمـعـت لـكـسـوف
ولـليـث كـل الـليـث إذ يحـملونـه ... إلى حـفـرة مـلحـودة وسـقـيـف
ألا قـاتل اللّه الحشـا حيث أضمـرت ... فتى كـان للمعـروف غـير عيـوف
فـإن يـك أوداه بـزيـد بن مـزيـد ... فـرب زحـوف لفـهـا بـزحـوف
عـليـه سـلام اللّه وقـفـا فـإنـني ... أرى المـوت وقـاعـاً بكـل شـريف

خطر المشرق:

وضح الخطر على الدولـة من قبل المغـرب فقد انتفضت أطـرافها بخـروج عبد الرحمن بن معاوية وإدريس بن عبد اللّه وليس الخطر على هذا الطرف بأقـل أثراً من الخطر على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهر جيحون فقد حصل ما يؤذن بخطر مستقبل من جراء والي خراسان.

استشار الرشيـد وزيره يحيى بن خـالد في تـولية عـلي بن عيسى بن ماهـان خراسان فأشار إليه ألا يفعل فخالفه الرشيد وولاه إيـاها فلما شخص إليهـا ظلم الناس وجمع مالاً جليلاً ووجه إلى الرشيد بهدايـا لم ير مثلهـا من الخيل والـرقيق والثياب والأموال فقعد الرشيد بالشماسية عـلى دكان مـرتفع حـين وصل إليـه ما بعث به علي بن عيسى وإلى جانبه يحيى بن خالد فقال له هـذا الذي أشـرت ألا نوليه هذا الثغر فقد خالفناك فيه فكان في خلافك بركة وهو كـالمازح معـه إذ ذاك فقـال يحيى يا أمـير المؤمنـين جعلني اللّه فـداك أنـا وإن كنت أحب أن أصيب في رأيي وأوفق في مشورتي فأنا أحب إلي من ذلك أن يكـون رأي أمير المؤمنـين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمي ومعرفته فـوق معرفتي وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين وأسأل اللّه أن يعيذه ويعفيه من سـوء عاقبتـه ونتائج مكروهة قـال وماذا ذاك قـال أحسب أن هذه الهـدايا مـا اجتمعت له حتى ظلم فيهـا الأشراف وأخـذ أكثرهـا ظلماً وتعديـاً ولو أمـرني أمير المؤمنـين لأتيته بصفتها الساعة من بعض تجار الكرخ قال وكيف ذاك قال قد سـاومنا عـوناً عـلى السفط الذي جاءنـا به من الجـوهر وأعـطيناه بـه سبعة آلاف ألف فـأبى أن يبيعه فأبعث إليه الساعة بحاجبي يأمـره أن يرده إلينـا لنعيد فيـه نظرنـا فإذا جـاءنا بـه جحدناه وربحنـا سبعة آلاف ألف ثم كنـا نفعل بتـاجرين من تجـار الكرخ مثـل ذلك وعلى أن هذا أسلم عاقبة وأستر أمراً من فعل علي بن عيسى في هذه الهـدايا بأصحابها فأجمع لأمير المؤمنين في ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهـون سعي وأيسر أمـر وأجمل جبـاية مما جمعه عـلي في ثلاث سنـين. فوقـرت في نفس الـرشيـد وحفـظهـا وأمسـك عن ذكـر عـلي بن عيسى فلما عـاث عـلي بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأخـذ أموالهم واستخف بـرجالهم كتب رجـال من كبرائهـا

ووجهائها إلى الرشيد وكتب جماعة من كورها إلى قراباتهم وأصحابهم يشكون سوء مسيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه ونسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به فدعا يحيى بن خالد فشاوره في أمر علي بن عيسى وفي صرفه فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته. وكان قيل للرشيد إن علي بن عيسى أجمع على خلافك فشخص إلى الري من أجل ذلك فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقيت من جمادي الأولى سنة ١٨٩ ثم سار إلى الري ثم إلى قرماسين ثم عاد إلى الري فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه علي بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطرف وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه فرضي عنه ورده إلى خراسان وخرج وهو مشيع له.

عاد علي بن عيسى إلى مرو ناقماً على كل من يظن أنه تكلم فيه بسوء فآذى الناس وأخذ منهم الأموال ظلماً. وحصل في تلك الظروف أن أعلن العصيان رافع بن ليث بن نصر بن سيار وجده نصر من قد عرفتم في التاريخ الأموي. أما رافع فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين الله هزواً ولعباً ويتضح ذلك من السبب الذي من أجله ثار. كان يحيى بن الأشعث الطائي تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند فلما طال مقامه بها وبلغها أنه اتخذ أمهات أولاد التمست سبباً للتخلص منه وبلغ رافعاً خبرها فطمع فيها وفي مالها فدس إليها من قال لها إنه لا سبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوماً عدولا وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تتوب فتحل للأزواج ففعلت ذلك وتزوجها رافع وبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فرفعه إلى الرشيد فكتب إلى علي بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحد ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيداً على حمار حتى يكون عظة لغيره فدرأ عنه سليمان بن حميد الحد وفعل به العقوبات الأخرى وحبسه فهرب من الحبس ولحق بعلي بن عيسى طالباً أمانه فلم يجبه علي إليه وهمّ بضرب عنقه فكلمه فيه ابنه عيسى بن علي وجدد طلاق المرأة وأذن له في الانصراف إلى سمرقند فانصرف إليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه إليه علي بن

عيسى ابنه عيسى وكان أمره قد استفحل بسمرقند وبايعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقي رافع عيسى بن علي وهزمه. فأخذ علي في فرض الرجال والتأهب للحرب. أما رافع فإنه غلظ أمره وكاتبه أهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن علي فوجه صاحب الشاش في أتراكه وقائداً من قواده فأتوا عيسى بن علي فأحدقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لأصحابه وكان علي بن عيسى في ذلك الوقت ببلخ فلما سمع ما أصاب ابنه خرج عنها حتى أتى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولي عليها وكان عيسى ابنه قد دفن في بستان داره ببلخ أموالاً عظيمة قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف درهم ولا يعلم بها علي بن عيسى ولا اطلع عليها إلا جارية كانت له فلما شخص علي إلى بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس فاجتمع قراء أهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة فبلغ الرشيد الخبر فقال خرج من بلخ بغير إذني وخلف مثل هذا المال وهو يزعم أنه قد أفضى إلى حلي لنسائه فيما أنفق على محاربة رافع. في ذلك الوقت تبينت له خيانة الرجل وجبنه وسوء سياسته لأهل ولايته فعزم على خلعه ومصادرته فأحضر هرثمة بن أعين وهو قائد شجاع بطل فقال له إني لم أشاور فيك أحداً ولم أطلعه على سري فيك وقد اضطربت على ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان أمر علي بن عيسى إذ خالف عهده ونبذه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وأنا كاتب إليه فأخبره أني آمده بك وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة وما يطمئن إليه قلبه وتتطلع إليه نفسه وأكتب معك كتاباً بخطي فلا تفضه ولا تطلعن فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثله ولا تجاوزه إن شاء الله وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى علي بن عيسى بخطي ليتعرف ما يكون منك ومنه وهون عليه أمر علي فلا تظهرنه عليه ولا تعلمنه ما عزمت عليه وتأهب للمسير وأظهر لخاصتك وعامتك أني أوجهك مدداً لعلي بن عيسى وعوناً له. وكان كتابه لعلي بن عيسى مبدوءاً بهجر وفيه توبيخ وتقريع له على مخالفته وإعلام له بما أمر هرثمة أن يفعله معه. أما عهده لهرثمة فهو:

(هذا ما عهد هاروون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه

ثغر خراسان وأعماله وخراجه أمره بتقوى اللّه وطاعته ورعاية أمر اللّه ومراقبته وأن يجعل كتاب اللّه إماماً له في كل ما هو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولي الفقه في دين اللّه وأولي العلم بكتاب اللّه أو يرده إلى إمامه ليريه اللّه عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده. وأمره أن يستوثق من الفاسق على ابن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصلح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين فإذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذي حق حتى يرده إليهم فإن ثبتت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب اللّه وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التي إن تخطاها بأدنى أدب تلفت نفوسهم وبطلت أرواحهم فإذا خرجوا من حق كل ذي حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطأة وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء اللّه فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك فإني آثرت اللّه وديني على هواي وإرادتي فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك ودبر في عمال الكور الذين تمر بهم في صعودك ما لا يستوحشون معه إلى أمر يريبهم وظن يرعبهم وأبسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضي اللّه منك وخليفتك ومن ولاك اللّه أمره إن شاء اللّه. هذا عهدي وكتابي بخطي وأنا أشهد اللّه وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته وكفى باللّه شهيداً) وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا اللّه وملائكته.

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولاة على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان أمرهم إلى اليوم الذي عينه لهم حتى إذا وصل مرو خرج علي بن عيسى لمقابلته لأن هرثمة لم يدع مجالاً للريبة إلى قلبه فلما دخلا المنزل أطلعه على كتاب الرشيد إليه وأول كلمة منه تنبيء عن يقينه فأسقط في يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد أولاده وكتابه وعماله ثم ذهب هرثمة إلى المسجد الجامع فخطب وبسط من آمال الناس وأخبرهم أن أمير المؤمنين ولاه

ثغورهم لمّا انتهى إليه من سيرة الفاسق علي بن عيسى وما أمره به فيه وفي عماله وأعوانه وأنه بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء. ثم صادر جميع ما يملكه علي بن عيسى هو وأولاده وكتابه وأرسل كل ذلك إلى الرشيد وقالوا إنه حمل على ١٥٠٠ بعير وأرسل هرثمة إلى الرشيد يخبره بما صنع. ولما استوفى ما عند علي بن عيسى أرسله هو وأولاده في الأغلال إلى بغداد.

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه لحربه فشخص يريد خراسان في ربيع الآخر سنة ١٩٣ وهي السفرة التي مات فيها بطوس فلم يصل إلى ما أراد وبقي رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال.

وزراء الرشيد

أول وزراء الرشيد يحيى بن خالد بن برمك. ولما كانت أسرة البرامكة من أعظم الأسر تاريخاً وأشهرها اسماً في صدر الدولة العباسية أحببنا أن نشرح أوليتها.

أسرة البرامكة:

تنسب هذه الأسرة إلى جدها برمك وهو من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران فكان برمك وبنوه سدنة له وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يعلم هل أسلم أولا؟ لما جاءت الدعوة العباسية خراسان كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها وزعمائها وكان ذا صفات عالية أهلته للسيادة ورفعة القدر في صدر الدولة حتى استوزره أبو العباس السفاح بعد هلاك أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال فكان مدبر أمره غير أنه لم يكن يسمى وزيراً واستمر على ذلك حياة أبي العباس فلما ولي أبو جعفر أبقى خالداً في منصبه مدة ثم ولاه فارس بتدبير أبي أيوب المرياني الذي تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة ثم انكسرت عليه جملة من المال فحمل إلى

بغداد وطولب بالمال، ذكر الطبري في حوادث ١٥٨ أن أبا جعفر ألزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان في ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتى جمع في يومين ألفي ألف وسبعمائة ألف درهم. وفي غد ذلك اليوم الذي أصيب فيه بهذه المصيبة ولاة المنصور ولاية الموصل وكان ممدوح الولاية حسن السيرة قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلي ما هبنا قط أميراً هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية ولكن هيبة كانت له في صدورنا والياً على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالد سنة ١٦٣ في أوائل خلافة المهدي.

أما يحيى بن خالد فكان واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلاً ونبلاً وجوداً رباه أبوه فأحسن تربيته وكان مولده سنة ١٢٠ فكانت سنه حين جاءت الدولة العباسية اثنتي عشرة سنة فتربى في كنف الدولة وكان عضد أبيه في ملماته وشدائده وقد اختاره المنصور لولاية أذربيجان سنة ١٥٨ قال له أردتك لأمر مهم من الأمور واخترتك لثغر من الثغور وكانوا لا يولون ثغورهم إلا من كانت ثقتهم به عظيمة فسار في ولايته سيرة أبيه في الموصل واستمر بها حتى مات المنصور.

وفي سنة ١٦٣ اختاره المهدي ليكون كاتباً ووزيراً لابنه هارون فكان يدبر أمره وهارون لا يناديه إلا بيا أبي وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون وخرج معه في غزوة الصائفة سنة ١٦٣ وكان على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره وكان في تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب غازياً عن المهدي فكان الذي بين الربيع ويحيى على حسب ذلك وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهما ولما ندب المهدي يحيى لذلك المهم قال له إني قد تصفحت أبناء شيعتي وأهل دولتي واخترت منهم رجلا لهارون ابني أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت عليك خبرتي له ورأيتك أولى به إذ كنت مربيه وخاصته وقد وليتك كتابته وأمر عسكره.

ولما ولي المهدي ابنه هارون المغرب كله سنة ١٦٤ من الأنبار إلى أفريقية أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه

على ما يتولى منها واستمر على حاله تلك إلى أن مات المهدي ولما ولي الهادي أبقاه على حاله مع هارون حتى إذا خطر ببال الهادي أن يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى فإنه هو الذي جرأه على الاستمساك بحقه الذي منحه إياه أبوه المهدي وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى لا تفعل فقال أليس يترك لي الهنيء والمريء فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً فقال له يحيى وأين هذا من الخلافة ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع ومنعه من الإجابة فسعي إلى الهادي بيحيى وقيل له إنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى بن برمك فأرسل إليه الهادي وقال له لم تدخل بيني وبين أخي وتفسده علي فقال يا أمير المؤمنين من أنا حتى أدخل بينكما إنما صيرني المهدي معه وأمرني بالقيام بأمره فقمت بما أمرني به ثم أمرتني بذلك فانتهيت إلى أمرك. ثم قال له لما كلمه في أمر الخلع يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال صدقت ونصحت ولي في هذا تدبير، ومما قاله في هذا يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر أسأل اللّٰه ألا نبلغه وأن يقدمنا قبله أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم. قال واللّٰه ما أظن ذلك قال يا أمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو إليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك. فقال له نبهتني يا يحيى. قال وكان يقول: ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى وقال له لو أن هذا الأمر، لم يعقد لأخيك أما كان ينبغي أن تعقد له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدي له ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله فإذا بلغ جعفر وبلغ اللّٰه به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادي قوله. ولكن يظهر أن الذي كان يحرك الهادي إلى خلع الرشيد مما لا تمكن مقاومته فاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى لهارون استأذن في الخروج إلى الصيد فإذا خرجت فاستبعد ودافع الأيام ففعل ذلك هارون وخرج إلى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادي أمره وغمه احتباسه وجعل يكتب

إليه ويصرفه فتعلل عليه حتى تفاقم الأمر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه وكان الذي ينوب عن يحيى والرشيد بالباب الفضل بن يحيى فكان يكتب إلى أبيه بكل ما يحدث.

ولما لم ير الهادي يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من إكرام ولا إقطاع ولا صلة بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكف عنه ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى علته التي مات فيها فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره أحسن تدبير فقلده الرشيد وزارته وزارة تفويض حيث قال له قلدتك أمر الرعية وأخرجته من حقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وامض الأمور على ما ترى، ودفع إليه خاتمه وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين اللّٰه هارون ذي الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها وكان يحيى بما أوتيه من كريم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة غرة في دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومنتجع الرواد. وقد ضم إليه الرشيد في سنة ١٧١ خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان.

فأما الفضل فهو أكبر الإخوة ولد أواخر سنة ١٤٨ قبل ولادة الرشيد بأيام وقد أرضعت كلاً منهما أم الآخر ولما شب كان لأبيه يحيى كما كان يحيى لأبيه خالد ولما ولي أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه في جلائل أعماله ولما ولد محمد الأمين جعله الرشيد في حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أباً.

وفي سنة ١٧٦ كان خروج يحيى بن عبد اللّٰه بن الحسن ببلاد الديلم فأهم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيى فولاه كور الجبال والري وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ولم يزل يحتال في أمر يحيى حتى استنزله من معقله بأمان من غير أن يريق في ذلك نقطة دم إلا حسن السياسة وقد عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية في إكرامه ومدحه شعراء

العصر بسبب ذلك فقال مروان بن أبي حفصة:

ظفـرت فـلا شلت يـد بـرمكيـة رتقت بها الفتق الـذي بـين هـاشم
عـلى حـين أعيا الـراتقـين التئامـه فكفـوا وقـالـوا ليس بـالمتـلائـم
فـأصبحت قـد فـازت يـداك بخـطة من المجـد بـاق ذكرهـا في المـواسم
ومـا زال قـدح الملك يخـرج فـائـزا لكم كـلما ضمـت قـداح المسماهـم

وقال أبو ثمامة الخطيب:

لـلفضـل يـوم الـطالـقـان وقبله يـوم أنـاخ بـه عـلى خـاقـان
مـا مثـل يـوميـه اللذين تـواليـا في غـزوتـين تـوالـتـا يـومـان
سـد الـثـغـور ورد ألـفـة هـاشـم بعـد الشـتـات فشـملهـا مـتـدان
عصمت حكـومتـه جمـاعـة هـاشم مـن أن يجـرد بـيـنهـا سـيـفـان
تلك الحكـومـة لا التي عن لبسهـا عـظم الـنبـا وتـفـرق الحـكـمـان

وفي سنة ١٧٨ ولاه الرشيد خراسان وثغورها فأحسن السيرة بها وبنى بها الرباطات والمساجد. وغزا ما وراء النهر فخرج إليه ملك أشر وسنه وكان ممتنعاً، ويقال إنه اتخذ بخراسـان جنداً من العجم سمـاهم العباسيـة وجعل ولاءهم لـه وإن عـدتهم بلغت ٥٠٠٠٠٠ رجل وأنـه قـدم منهم بغـداد عشـرون ألف رجـل فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة.

مـا الفضـل إلا شهـاب لا أفـول لـه عنـد الحـروب إذا مـا تـأفـل الشهب
حـام عـلى ملك قـوم غـرسهمهم مـن الـوراثـة في أيـديهـم سـبب
أمست يـد لبني سـاقي الحجيـج بهـا كـتـائب مـا لهـا في غـيـرهم أرب
كتـائب لبني العبـاس قـد عـرفت مـا ألف الفضل منهـا العجم والعرب
أثـبـت خمس مئـين في عـدادهـم من الألـوف التي أحصت لك الكتب
يقـارعـون عن القـوم الـذين هم أولى بـأحمـد في الفـرقـان إن نسبـوا
إن الجـواد ابن يحيى الفضـل لا ورق يبقـى عـلى جـود كفيـه ولا ذهب
مـا مـر يـوم لـه من شـد مئـزره إلا تمـول أقـوام بمـا يهب

كم غـايـة في النـدى والبـأس أرزهـا   لـلطالـبـين مـداهـا دونـه تـعـب
يعطي اللها حين لا يعطي الجواد ولا   ينبـو إذا سلت الهنـديـة القضـب
ولا الـرضـا والـرضـا لله غـايتـه   إلى سـوى الحق يـدعـوه ولا الغضب
قـد فـاض عـرفـك حتى مـا يعـادلـه   غيث مغيث ولا بحـر لـه حـدب

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشـراف فوصلهم وأحسن جـوائزهم وكـان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين بأطرافها وذلك سنـة ١٧٩ وكـان الفضل في جميـع الأعمـال التي أسنـدت إليـه كفؤاً نـزيهـاً وكـان من أكـثر البرامكة كرماً وكان أكرم من أخيه جعفر. وكان الناس يسمـونه في بـدء أعمالـه بالوزير الصغير واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس في المهمات حتى كانت النكبة الآتي ذكرها.

وأما جعفر فهو ثاني أولاد يحيى وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عنـد الرشيـد بحالـة انفرد بهـا ولم يشارك فيهـا وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر وأما جوده وسخاؤه وبذلـه وعطاؤه فكـان أشهر من أن يذكر وكان من ذوي الفصاحة والمشهـورين باللسن والبـلاغة وكـان أبوه قد ضمـه إلى أبي يوسف يعقـوب القاضي حتى علمـه وفقهه وكـان الرشيـد يـأنس به أكـثر من أنسه بـأخيه الفضـل لسهولـة أخلاق جعفـر وشراسـة أخلاق الفضل. وقال الرشيد يوماً ليحيى ما بال الناس يسمون الفضـل الوزيـر الصغير ولا يسمـون جعفراً بـذلك فقـال يحيى لأن الفضل يخلفني قـال فضم إلى جعفـر أعمـالاً كأعمـال الفضل فقـال يحيى إن خدمتـك ومنادمتـك يشغلانـه عن ذلك فجعل إليه أمر دار الرشيد فسمي بالوزير الصغـير، وقال لـه يومـاً قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب أنت إليه فكتب يحيى إلى الفضل قد أمـر أمير المؤمنـين أعلى الله أمـره أن نحول الخاتم من يمينك إلى شمالـك فأجـابه الفضـل قد سمعت مـا أمر بـه أمير المؤمنين في أخي وما انتقلت عني نعمـة صارت إليـه ولا غربت عني رتبـة طلعت عليه فقال جعفر لله در أخي ما أكيس نفسـه وأظهر دلائـل الفضل عليـه وأقوى

منة العقل عنده وأوسع في البلاغة ذرعه.

وفي سنة ١٧٦ ولاه الرشيد مصر زيادة على ماله من الأعمال في دار السلام فولاها من قبله عمر بن مهران.

وفي سنة ١٨٠ هاجمت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها فاغتم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا فقال له جعفر بل أقيك بنفسي فشخص في جملة القواد والكراع والسلاح فأصلح بين الناس وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً فعادوا إلى الأمن والطمأنينة وأطفأ تلك الثائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النميري:

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة ... فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك ... عليه خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر ... وفيه تلاقي صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد ... تراضي به قحطانها ونزارها
تدلت عليهم صخرة برمكية ... دموع لهام الناكثين انحدارها
غدوت تزجي غاية في رؤوسها ... نجوم الثريا والمنايا ثمارها
إذا خفقت راياتها وتجرست ... بها الريح هال السامعين انبهارها
فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم ... حجاكم طويلات المنى وقصارها
فإن أمير المؤمنين بنفسه ... أتاكم وإلا نفسه فخيارها
هو الملك المأمول للبر والتقى ... وصولاته لا يستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه ... وصعدته والحرب تدمي شفارها
ومن تطوى أسرار الخليفة دونه ... فعندك مأواها وأنت قرارها
وفيت فلم تغدر لقوم بذمة ... ولم تدن من حال ينالك عارها
طبيب بإحياء الأمور إذا التوت ... من الدهر أعناق فأنت جبارها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ... ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة ... يؤمل جدواها ويخشى دمارها
فطوبى لأهل الشام يا ويل أمها ... أتاها حياها أو أتاها بوارها

فإن سالموا كانت غمامة نائل | وغيث وإلا فالدماء قطارها
أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد | أخو الجود والنعمى الكبار صغارها
كأين ترى في البر مكيين من ندى | ومن سابقات ما يشق غبارها
غدا من نجوم السعد من حل رحله | إليك وعزت عصبة أنت جارها
عذيري من الأقدار هل عزماتها | مخلفتي عن جعفر واقتسارها
فعين الأسى مطروقة لفراقه | ونفسي إليه ما ينام ادكارها

ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له إكراماً وخطب جعفر أمامه خطبة جميلة استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم.

وفي هذه السنة ولاه الرشيد خراسان ثم عزله منها بعد عشرين ليلة وولاه الحرس وكان يخلفه في هذا العمل هرثمة بن أعين وهو من كبار قواد الدولة.

وفي سنة ١٨٢ بايع الرشيد لابنه عبد اللّه المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى ليكون المدبر لأمره كما كان الأمين مع الفضل بن يحيى وقد جعل الرشيد الأمين والي المغرب كله والمأمون والي المشرق كله وكانت الولاة التي ترسل إلى الأقاليم من قبل ولي العهد.

وأما موسى بن يحيى فكان أشجع القوم وأشدهم بأساً لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر إلا أنه كان في تلك الدولة عاملاً سرياً وقائداً باسلاً ولاه الرشيد الشام سنة ١٨٦ لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التي ذهب فيها أخوه جعفر وضم إليه من القواد والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة فلما ورد الشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها فانتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام ورد الرشيد الحكم فيهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وعما كان بينهم وأقدمهم بغداد. فقيل في موسى بن يحيى:

قد هاجت الشام هيجا | يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها | بخيله وجنوده
فدانت الشام لما | أتى بسنخ وحيده
هو الجواد الذي بذ | كل جود بجوده

أعداه جود أبيه يحيى وجود جدوده
فجاء موسى بن يحيى بطارف وتليده
ونال موسى ذرى المجد وهو حشو مهوده
خصصته بمديحي منثوره وقصيده
من البرامك عود له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرا خفيفه ومديده

وقد اتهمه علي بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب في اضطراب خراسان عليه وأعلمه طاعة أهلها لموسى ومحبتهم إياه وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال إليهم للوثوب به معهم فوقر ذلك في نفس الرشيد عليه وأوحشه منه فلما قدح علي بن عيسى فيه أسرع ذلك في الرشيد وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له فلما صار إلى الحيرة في حجه سنة ١٨٧ وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس بن عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيى في أمره ولم يكن الرشيد يردها في شيء فقال يضمنه أبوه فقد رفع إلي فيه فضمنه يحيى ودفعه إليه ثم رضي عنه الرشيد وخلع عليه.

وأما محمد بن يحيى فكان سرياً بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما لإخوته كانت هذه الأسرة في عهد الرشيد غرة في جبين دولته جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام كما كانوا مبرزين في حلبة الجود والسخاء تهزهم الأريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الأولين.

خدمت هذه الأسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعاتها وقوادها إلى هذه السنة سنة ١٨٧ التي نسطر فيها أخبار نكبتها على يد الرشيد.

نكبة البرامكة :

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم في تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم. لم يكن هذا العمل بدعاً في الدولة العباسية فإن للمنصور والمهدي سلفاً في ذلك فقد أوقع المنصور بوزيره أبي أيوب المرياني قتله وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم وأوقع المهدي بوزيريه أبي عبد اللّه معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدي من الولوع بالثاني حتى كتب للجمهور أنه اتخذ أخاه في اللّه. كل هذا قد سبق به الرشيد.

يرى المؤرخ أن طبيعة الملك الاستبداد أي يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذي لا يشارك والحول الذي لا يقاوم واليد الطولى التي لا تضارعها يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لا يقف عند حد في الانتفاع بتلك السابقة لهم فلا يزالون يرتفعون حتى تتنبه إليهم أفكار الخلفاء بما يلقيه إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معايبهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة تعظم وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد أن لا مناص من الإيقاع بمن كان سيفه الذي لا ينبو في الخطوب إشفاقاً من هذا السيف أن ينقلب عليه فينتقص منه ملكه الذي دونه كل شيء وليس هذا خاصاً بالرشيد والبرامكة بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه إلا قليلاً من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لا يهيج الغيرة والحسد في قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر لأنهم يتغلبون على ما في طبع الإنسان من عدم الوقوف عند حد في العظمة والتكاثر في الأموال على أن أبا عبد اللّه وزير المهدي مع نزاهته وبعده عما يوجب غيرة سلطانه جاءه أعداؤه من قبل ابنه فقالوا للمهدي إنه زنديق فقتله المهدي فكان ذلك سبباً للوحشة بين المهدي ووزيره.

كان يحيى بن خالد هو القائم بأمر الرشيد أيام المهدي وكان الرشيد يدعوه يا أبي وكانت أم الفضل بن يحيى ظئراً للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد

الفضل بن يحيى فكان يحيى هو الذي يكفله ويقوم بتربيته من لدن ولد إلى أن شب. وهو الذي كانت له اليد الطولى في إخفاق المساعي التي بذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادي فلما تولى الرشيد قلده وزارته وزارة تفويض ثم ضم إليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسي فاجتمعت له الوزارتان وأعانه في العمل أبناؤه إلا أن الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعاً من الكفاية حتى روى القاضي يحيى بن أكثم قال سمعت المأمون يقول لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة قال القاضي فقلت يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم ففيمن الشجاعة فقال موسى بن يحيى وقد رأيت أن أوليه ثغر السند.

ولم يكونوا في الاتصال بالرشيد على درجة واحدة فكان يحيى صاحب المقام الأرفع وهو المدبر أمر المملكة وحاله في سنه وجلالة قدره تبعده عما يدعو إليه الشباب من المنادمة وكان الفضل في الأخلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان الرشيد قد عتب عليه وثقل مكانه عليه لتركه الشراب معه فكان الفضل يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتي ما شربته وكان مشغوفاً بالسماع أما جعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد فكان لذلك يدخل في منادمته حتى كان أبوه ينهاه ويأمره بترك الأنس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه إليه ويقال إنه كتب إليه حين أعيته الحيلة فيه. إني إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وإن كنت لأخشى أن تكون التي لا سوى لها. وقد كان يحيى قال للرشيد يا أمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة في ذلك على منك فلو أعفيته واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعاً بموافقتي وأمن لك علي. قال الرشيد يا أبت ليس بك هذا ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل. ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيماً جداً حتى كان يقضي أعظم الأمور فلا يرد له الرشيد قضاء.

رآهم الناس بعد هذا العز المتين والشرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد،

ابن يحيى وأخي الفضل وحبيب جعفر. فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار في آخر ليلة من محرم سنة ١٩٧ بعد أوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدي ولديه الأمين والمأمون ـ ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم أحرق. ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقون محبوسون، ورأوا مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق ـ ورأوا كتباً أرسلت إلى جميع العمال في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم وأمراً بالنداء في جميع البرامكة أن لا أمان لمن أواهم إلا محمد بن خالد بن برمك وولده وأهله وحشمه فإن الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة. رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والأوهام ناسبين ذلك لحادث فجائي حدث فغير قلب الرشيد هذا التغيير وأداه إلى هذا العمل شأن الناس في الأعصار كافة إذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع.

نسب ذلك بعضهم إلى مجرد الملل والغيرة. وسئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم و لكن طالت أيامهم وكل طويل مملول والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما رأوا مثلها عدلاً وأمناً وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان رضي الله عنه حتى قتلوهم، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه والملوك تتنفس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الإدلال خاصة الفضل وجعفر دون يحيى فإنه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور ولاذ من أعدائهم بالرشيد كالفضل بن الربيع وغيره فستروا المحاسن وأظهروا القبائح حتى كان ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حادثة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي روينا حديث ذهابه إلى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيى إياه بأمان الرشيد ـ ذكر أبو محمد اليزيدي وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن الحسن فلا تصدقه

وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره فأجابه إلى أن قال اتق اللّه في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمداً ﷺ فواللّه ما أحدثت حدثاً ولا آويت محدثاً فرق عليه وقال اذهب حيث شئت من بلاد اللّه. قال وكيف أذهب ولا آمن أن أوجد بعد قليل فأرد إليك أو إلى غيرك فوجه معه من أداه إلى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه فعلم الأمر فوجده حقاً وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أن يعبأ بخبره وقال ما أنت وهذا لا أم لك فلعل ذلك عن أمري فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال ما فعل يحيى بن عبد اللّه قال بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال. قال: بحياتي. فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهناً وأصحهم فكراً فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره فقال لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده قال نعماً فعلت ما عدوت ما كان في نفسي فلما خرج اتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال قتلني اللّه بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان.

ونسب ذلك بعضهم إلى حديث العباسة بنت المهدي التي رواها الطبري عن زاهر بن حرب. وتناقلها المؤرخون وزادوا عليه ونقصوا منها وهي حكاية مشهورة ونحن نريد أن نبين أن نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هي حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضا.

كان من موالي العباسيين الفضل بن الربيع وقد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس في حياة المنصور والمهدي ولم يكن للفضل في أول خلافة الرشيد شيء من نباهة الذكر لأن الخيزران أم الرشيد كانت تمنعه أن يوليه شيئاً ففي اليوم الذي توفيت فيه سنة ١٧٤ دعا به هارون فقال له وحق المهدي إني لأهم لك بالليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني أمي فأطيع أمرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نيابة عن والده فقال الفضل بن الربيع لإسماعيل بن صبيح الكاتب أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب إليه وآخذه ولكن أرى أن يبعث به. وهذه

مجاملة سببها أن الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شيء فأحب أن يتخذ عندهم يدا حتى لا يتخوفونه وولي الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى.

في سنة ١٧٦ حصلت حادثة يحيى بن عبد اللّٰه فاستنزله الفضل من معقله بأمان الرشيد فحضر إلى بغداد وأكرمه الرشيد لكن الزمان لم يطل على هذا الإكرام فإن السعاة رفعوا عن يحيى ما يريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شيء فرفع إليه أن يحيى لا يزال يدعو إلى نفسه وإنما ينتظر الفرص وكان أكثر الناس سعاية في ذلك بكار بن عبد اللّٰه الزبيري وكان شديد البغض لآل أبي طالب ويبلغ عنهم هارون ويسيء بأخبارهم فكان من وراء تلك السعايات أن حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول أن يقتله ولم يكن يمنعه إلا خيفة أن يقول الناس فيه شيئاً لما كتبه من كتاب الأمان الذي استنزل به يحيى فأراد أن يأخذ من العلماء قولا في أن ذلك الأمان لاغ فأحضر أبا البختري القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف فأما محمد بن الحسن فإنه قال له ما تصنع بالأمان لو كان محاربا ثم ولي كان آمنا وليس هذا الجواب موافقاً لغرض الرشيد ولذلك احتمل هذه الكلمة على محمد ـ وأما أبو البختري فقال إن الأمان منتقض وأقبل يعدد وجوه نقضه ولذلك قال له الرشيد أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك فخرق الأمان.

ويظهر أن الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة للسعي بيحيى بن عبد اللّٰه عند الرشيد لأن في قتله إذلالا لمن كان السبب في استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهم لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم والذي أوضح لنا أن الفضل بن الربيع هو الذي كان يحرك السعاة للسعي بيحيى أن الرشيد لما كان يحاج يحيى نظر يحيى إلى الفضل بن الربيع وقال له: هذا واللّٰه من آفاتك.

كان المفهوم بعد ذاك أن يجتهد البرامكة في تخليص يحيى ففعل جعفر فعلته التي قدمنا ذكرها والرشيد وإن كان يحتمل لجعفر كثيراً من الإدلال لا يحتمل له هذا لأنه متعلق بملكه ـ ومن الغريب ما ورد في هذه الحادثة من أن

الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاصة خدمه جاسوساً يعلم أخباره ويلقي بها إليه كانت هذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء وهي الإخلاص لملوكهم وذلك طعن منفذ. وقر في نفس الرشيد شيء من ذلك وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي وهي التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة.

كان من الظاهر بعد ذلك أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالبهم وأثرتهم وينفس عليهم ما صار إليهم من عظيم الأموال وجلائل المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم في الآخر الظنون. روي بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال إني لقاعد في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا إذن فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه رداً ضعيفا فعلم يحيى أن أمرهم قد تغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال يا جبريل يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك فقلت لا ولا يطمع في ذلك قال فما بالنا يدخل علينا بلا إذن فقام يحيى فقال: يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين ورفع به ذكري حتى إن كنت لأدخل عليه وهو في فراشه مجرداً حيناً وحينا في بعض إزاره وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب وإذ قد علمت فاني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك قال فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجهاً وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه ثم قال: ما أردت ما تكره ولكن الناس يقولون. قال جبريل فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى.

وحدث محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبي جعفر قال دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان إليه فقال الرشيد لمسرور الخادم مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال فدخل فلم يقم إليه أحد فاربد لونه قال وكان

الغلمان والحجاب إذا رأوه أعرضوا عنه قال فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً.

وحدث يعقوب بن إسحاق عن إبراهيم بن المهدي قال أتيت جعفر بن يحيى في داره التي ابتناها فقال أما تعجب من منصور بن زياد قال قلت له فيماذا؟ قال سألته هل ترى في داري عيباً قال نعم ليس فيها لبنة ولا صنوبرة قال إبراهيم فقلت له الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي أمير المؤمنين. قال هو يعلم أنه قد وصلني بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ما عرضني له قال قلت إن العدو إنما يأتيه في هذا من جهة أن يقول له يا أمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التي تنوبه وما ظنك يا أمير المؤمنين بما وراء ذلك وهذه جملة سريعة إلى القلب والوقف على الحاصل منها صعب قال إن سمع مني قلت لأمير المؤمنين نعمة على قوم قد كفروها بالستر أو بإظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندي فوضعتها في رأس جبل ثم قلت للناس تعالوا فانظروا. وحدث زيد بن علي عن إبراهيم بن المهدي أن جعفر بن يحيى قال له يوماً (وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذي قربه منه) إني قد استربت بأمر هذا الرجل (يعني الرشيد) وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق لي منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيري فكنت أنت فارمق ذلك في يومك هذا وأعلمني ما ترى منه قال إبراهيم ففعلت ذلك في يومي.

فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت إلى شجرة في طريقي فدخلتها ومن معي وأمرتهم بإطفاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بي واحداً بعد واحد فأراهم ولا يروني حتى إذا لم يبق منهم أحد إذا أنا بجعفر قد طلع فلما جاوز الشجرة قال اخرج يا حبيبي قال فخرجت فقال ما عندك فقلت حتى تعلمني كيف علمت أني ههنا قال عرفت عنايتك بما أعني به وأنك لم تكن لتنصرف أو تعلمني ما رأيت منه وعلمت أنك تكره أن ترى واقفاً في مثل هذا الوقت وليس في طريقك موضع أستر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه ثم قال

فهات ما عندك قلت رأيت الرجل يهزل إذا جددت ويجد إذا هزلت قال كذا هو عندي فانصرف يا حبيبي .

من كل هذا يتبين أن النفور والريبة وقعت في قلب كل من الطرفين للآخر وتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها إلا ما ركز في نفسه وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة وكان الرشيد يتحين الفرصة للإيقاع بهم ولا سيما جعفر لما كان منه من تخليص يحيى بن عبد اللّٰه وهذا دليل عدم الإخلاص للرشيد وللبيت العباسي وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب إليه خير قيام وشايعه في ذلك كثيرون وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر لقيامه في أمر المأمون فإنه هو الذي قام في ولايته العهد وجعله مناظراً لابنها الأمين وكانوا يتخوفون من جعفر أن يكون سبباً في الإيقاع بين الأخوين إذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة .

في سنة ١٨٦ حج الرشيد ولما انصرف من حجه أتى الأنبار ومعه يحيى والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيى فرضي عنه بعد غضبه عليه وفي غاية المحرم أمر فيهم أمره فقتل جعفراً وحبس يحيى وابنيه وصادر أموالهم كلها وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمد في دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا ما يحتاجون إليه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواريهم ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم بالتسقف بسخطه وجدد لهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم .

حادثة عبد الملك بن صالح :

هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد اللّٰه بن عباس وهو في درجة السفاح والمنصور نسباً . رفع إلى الرشيد أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها وأن البرامكة كانوا له عوناً والذي سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة فأحضر إلى الرشيد فلما دخل عليه قال «أكفرا بالنعمة وجحوداً لجليل المنة والتكرمة» فقال يا أمير المؤمنين «لقد بؤت إذا بالندم وتعرضت لاستحلال النقم وما ذاك إلا بغي حاسد نافسني فيك مودة القرابة وتقديم الولاية إنك يا أمير المؤمنين خليفة رسول

اللّه ﷺ في أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل في حكمها والتثبت في حادثها والغفران لذنوبها» فقال له الرشيد «أتضع لي من لسانك وترفع لي من جنابك هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك فاسمع كلامه» فقال عبد الملك «أعطاك ما ليس في عقده ولعله لا يقدر أن يعضهني ولا يبهتني بما لم يعرفه مني» وأحضر قمامة فقال له الرشيد تقدم غير هائب ولا خائف قال أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك، فقال عبد الملك أهو كذلك يا قمامة قال نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين - فقال عبد الملك كيف لا يكذب على من خلفي وهو يبهتني في وجهي - فقال له الرشيد وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعتوك وفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك فبم تدفعهما عنك فقال عبد الملك هو مأمور أو عاق مجبور فإن كان مأموراً فمعذور وإن كان عاقاً ففاجر كفور أخبر اللّه عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم﴾[1] قال فنهض الرشيد وهو يقول أما أمرك فقد وضح ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يرضي اللّه فيك فإنه الحكم بيني وبينك - فقال عبد الملك رضيت باللّه حكماً وبأمر أمير المؤمنين حاكماً فإني أعلم أنه يؤثر كتاب اللّه على هواه وأمر اللّه على رضاه.

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر فسلم عبد الملك لما دخل فلم يرد عليه الرشيد فقال عبد الملك ليس هذا يوماً أحتج فيه ولا أجاذب منازعاً فقال: الرشيد لم؟ قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره قال وما ذاك قال لم ترد علي السلام نصف نصفة العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثاراً للعدل واستعمالاً للتحية. ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر وقال:

أريد حياته ويريد قتلي - أما واللّه لكأني أنظر إلى شؤبوبها قد همع وعارضها قد لمع وكأني بالوعيد قد أورى ناراً تستطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورءوس بلا غلاصم فمهلا مهلا بي واللّه سهل لكم الوعر وصفا لكم

---

(١) سورة التغابن الآية ١٤.

الكدر وألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل فقال عبد الملك: اتق اللّه يا أمير المؤمنين فيما ولاك وفي رعيتك التي استرعاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخي ملكك بأثقل من ركني يلملم وتركت عدوك مشتغلاً فاللّه اللّه في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن بللته بظن أفصح الكتاب لي بعضه أو ببغي باغ ينهش ويلغ في الدم فقد واللّه سهلت لك الوعور وذللت لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب في الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته كما قال أخو بني جعفر بن كلاب:

ومقام ضيق فرجته ببنان ولسان وجدل
لو يقوم الفيل أو فياله زل عن مثل مقامي وزحل

فقال له الرشيد أما واللّه لولا الإبقاء على بني هاشم لضربت عنقك ثم أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث إلى يحيى بن خالد وهو في السجن إن عبد الملك بن صالح أراد الخروج علي ومنازعتي في الملك وقد علمت ذلك فأعلمني ما عندك فيه فإنك إن صدقتني أعدتك إلى حالك فقال واللّه يا أمير المؤمنين ما اطلعت من عبد الملك على شيء من هذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لأن ملكك كان ملكي وسلطانك كان سلطاني والخير والشر كان فيه علي ولي. فكيف يجوز لعبد الملك أن يطمع في ذلك مني وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل بي أكثر من فعلك. أعيذك باللّه أن تظن بي هذا الظن ولكن كان رجلاً محتملاً يسرني أن يكون في أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت إليه لأدبه واحتماله. فلما أتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال إن أنت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل فقال له أنت مسلط علينا فافعل ما شئت على أنه إن كان من هذا الأمر شيء فالذنب فيه لي فبم يدخل الفضل في ذلك فقال الرسول للفضل قم فإنه لا بد لي من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك فلم يشك أنه قاتله فودع أباه وقال له ألست راضياً عني قال بلى فرضي اللّه عنك ففرق بينهما ثلاثة أيام فلما لم يجد عندهما من ذلك شيئاً جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ

رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده.

سقنا هذا لندل على أن التهم التي وجهت إلى البرامكة كافة ولا سيما جعفر سياسية محضة وفي القليل منها ما يكفي عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم وإذا أضيف إلى ذلك غيرة السلطان ممن يساميه في سلطانه ويشاركه في نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتى تخترع له تلك الحكاية التي يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لأخلاق الرشيد وللتقاليد التي سار عليها بنو العباس فقد كان مما عده المنصور على أبي مسلم من ذنوبه وهو من هو في الدولة وتشييد بنيانها أنه كتب إليه يخطب أمينة بنت علي بن عبد اللّه بن عباس ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد في أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سري كهذا سببه خسيس؟ هذا بعيد جداً.

فيما تتبعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه إلى درجة الوساوس حتى جعله ذلك أذنا يسمع لكل واش ويصدق كل حسود ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها فقد وزراء إن كتبوا أجادوا وإن قادوا الجيوش سدوا الثغور. وإن ولوا عملاً أصلحوا وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمة بل تراُهم حذرين وجلين فما هي إلا وشاية تطرق حتى تراه قد أخذ بحلا قيمهم فأوردهم شر مورد لا يبالي بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه ما يرى لهم من الفضل بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة وإن لم يكن لهم في ميدان الصالحين أثر فقد بقي للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من الشقاق والعداوة بين الأمين والمأمون كما سيجيء لأن الرجل مفسد معتاد على اختلاق الأخبار ويرى ذلك يحسن في آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر على ذلك فأفسد الدولة وأوقع بأس الأمة بينها وإنا نعوذ باللّه من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهم آفة الأمم وسوس عظامها.

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع فلم يسد المكان الذي سدوا.

العلاقات الخارجية:

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ودولة شرلمان الذي كان يميل إلى تجديد دولة الرومان الغربية ودولة الأمويين بالأندلس وحدثت في عهده دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى كما سبق.

مع الروم:

من أعمال الرشيد أنه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم وجعل قاعدتها منبجاً وأسكنها عبد الملك بن صالح سنة ١٧٣ وسميت العواصم لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وكان من هذه العواصم دلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون ومن تلك المدن الشهيرة طرسوس وقد عمرت في زمن الرشيد على يد أبي سليم فرج الخادم التركي ونزلها الناس وكان يغزو الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ووصل سنة ١٧٥ إلى اقريطية. وفي سنة ١٨١ غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة.

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحربها وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحبسه بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ فولي بعده القاسم بن الرشيد وسكن منبجاً فغزا الروم وأناخ على حصن قرة وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعثت الروم تبذل ٣٢٠ رجلاً من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم إلى ذلك ورحل عن حصني قرة وسنان. كان يملك الروم في ذلك الوقت إريني وكانت في أوائل أمرها تنوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ سنة ٧٨٠ ثم استبدت بالملك سنة ٧٩٠ فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له وذلك لما رأته من إلحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعها بين المسلمين من جهة وبين شارلمان من جهة أخرى وكلتا الدولتين تناوئها العداوة لأن شارلمان كان يريد توسيع سلطانه وإعادة دولة الرومان إلى بهجتها التي كانت لها في القدم وفي سنة ٨٠٢ نهضت عليها عصابة رومية فخلعتها عن الملك

وملكت مكانها نقفور فعقد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملكتين ثم كتب إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك ـ فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب (بسم اللّه الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام) ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفى وأقاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته إليه وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه فما تهيأ لأحد إخبار الرشيد بذلك إشفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرة في مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكنى أبا محمد بن عبد اللّه بن يوسف فقال:

نقض الذي أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ... فتح أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ... بالنقض عنه وافد وبشير

ورجت يمينك أن تعجل غزوة ... تشفي النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده ... حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها ... بأكفنا شعل الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلا ... عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى ... عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت ... هبلتك أمك ما ظننت غرور

ألقاك حينك في زواخر بحره — فطمت عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر — قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلاً — عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه — فعدوه أبداً به مقهور
يا من يريد رضا الإله بسعيه — والله لا يخفي عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامه — والنصح من نصحائه مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضة — ولأهلها كفارة وطهور

فلما فرغ الشاعر من إنشاده قال أو قد فعل نقفور ذلك وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك فكر راجعاً في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد فقال أبو العتاهية:

ألا نادت هرقلة بالخراد — من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا — ويرقب بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها — تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم — وأبشر بالغنيمة والإياب

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك وفي سنة ١٨٩ حصل فداء بين المسلمين والروم فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودي به وهذا أول فداء كان بين المسلمين والروم فقال مروان بن أبي حفصة يمدح الرشيد:

وفكت بك الأسرى التي شيدت لها — محابس ما فيها حيم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها — وقالوا سجون المشركين قبورها

وفي سنة ١٩٠ غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح هرقلة وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم وكان دخلها في ١٣٥ ألف مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال فأضر بها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يوماً عليها وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها.

ثم سار الرشيد إلى الطوانة فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة

بن جعفر وأمره بابتناء منزل هنالك وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استيراق ديناران وكتب مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتاباً نسخته ـ لعبد اللّه هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم سلام عليك أما بعد أيها الملك إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هينة يسيرة أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابني فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت والسلام عليك ورحمة اللّه وبركاته ـ واستهداه أيضاً طيباً وسرادقاً من سرادقاته فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور وبعث إليه بما سأل من العطر وبعث إليه التمور والأخبصة والزبيب والترياق فسلم ذلك كله رسول الرشيد فأعطاه نقفور وقر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ومائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بزيون واثني عشر بازياً وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين ـ وكان نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذي الكلاع ولا صملة ولا سنان واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة وعلى أن يحمل ثلثمائة ألف دينار.

وفي سنة ١٩١ غزا الصائفة هرثمة بن أعين أحد كبار القواد وضم إليه ثلاثين ألفاً من أهل خراسان ومعه مسرور الخادم واليه في النفقات وجميع الأمور ما خلا الرياسة ومضى الرشيد إلى درب الحدث فرتب هنالك عبد اللّه بن مالك ورتب سعيد بن سلم بن قتيبة بمرعش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها. وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طرسوس ـ فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف إلى الرقة.

وعلى الجملة فإن قوة المسلمين كانت في عهد الرشيد ظاهرة ظهوراً بيناً على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالي ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وموال وخراسانية.

العلاقة مع أوربا:

كان في عهد الرشيد شارلمان بن بابن وكان ملكاً على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التي كانت في جرمانيا إلى الدين العيسوي بعد أن كانت وثنية واستولى على ألمانيا وإيتاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير في الديار الشرقية لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية وكان يرغب أن يكون حامياً للعيسويين في البلاد الإسلامية وخصوصاً زائري القدس فأرسل إلى بغداد سفراء يستجلبون رضا هرون الرشيد وكان لشارلمان غرض من مصافاة الرشيد فوق ما تقدم وهو إضعاف الدولة الأموية بالأندلس ففاز سفير شارلمان برضا الرشيد فسر بذلك لأنه عده فوزاً على نقفور ولهذا لما قدم سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الإكرام واستفاد شارلمان من ذلك التودد فائدتين الأولى تمكنه من حرب الدولة الأموية بالأندلس وتداخله في مساعدة الخارجين عليها والثانية نيله رضا الرشيد. وقد أراد أيضاً أن يغتنم غنيمة علمية فإن أوربا في ذلك الوقت كانت مهد جهالة لأنه بانقراض الرومانيين وغلبة الأمم المتبربرة على أوربا انطفأ مصباح العلم أما الحال في البلاد الإسلامية فكانت على العكس من ذلك علماً وعملاً سواء في ذلك بغداد وقرطبة فسعى شارلمان في إصلاح قوانين دولته مقلداً هارون الرشيد وذهب إلى أوروبا أطباء تعلموا في البلاد الإسلامية وكانوا من اليهود فانتخب منهم شارلمان رجلاً يقال له إسحاق وأرسله إلى الرشيد مصحوباً ببعض الهدايا وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهي ساعة وراغنون وفيل وبعض أقمشة نفيسة. فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية وأوقعتهم في حيرة وهموا بكسر الساعة فمنعهم الإمبراطور. وفي ذلك التاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس.

أما علاقة بغداد بقرطبة فكانت شر علاقة إذ أن الرشيد كان ينظر إلى بني أمية نظر الخارجين على دولته فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك وأقوى فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شراً.

حضارة بغداد في عهد الرشيد:

وصلت بغداد في عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها.

أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدها بنيت فيها القصور الفخمة التي أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدنانير وتأنق مهندسوها في إحكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقي بالرصافة تناوح قصور الجانب الغربي. كان في الشرق قصور البرامكة وما أنشأوه هناك من الأسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغربي قصور الخلافة التي كانت تبهر الناظرين اتساعاً وجمالاً وامتدت الأبنية امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبي دجلة واستبحر العمران فيها لما جاءوها من الثنايا وصار سكانها نحو ألفي ألف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشام والجزيرة والطرق إذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة وكان الرشيد هو وزراؤه حريصين على ذلك كل الحرص.

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد ما يبقى من خراج الأقاليم الإسلامية بعد أن تقضي جميع حاجاتها وقدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربعمائة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منه في مرتبات الوزراء المساعدين له والباقي يتصرف فيه حسبما يرى وهو شيء جسيم وكان الرشيد أسمح خلفاء بني العباس بالمال يعطي منه عطاء من لا يخشى فقراً للقصاد والشعراء والكتاب والمنتجعين وقد جرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التي قد يتردد الإنسان في صحتها وتلك الثروة العظيمة تتداولها الأيدي فتروج التجارة وتقضي الحاجات وتكثر المدنية وعلى تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى واشتد بهم الترف حتى يقال إن جعفر بن يحيى بنى قصراً أنفق على بنائه عشرين ألف ألف درهم وتغالى الناس في حاجاتهم وتأنقوا في معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشبه بين ما عندهم وما يرون من ثرائها وبذخ أهلها وانغماسهم في الملاذ وإعطائهم أنفسهم ما تصبو إليه من

اللهو الخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة.

وأما العلم فإن بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية يرحلون إليها ليتمموا ما بدءوا فيه من العلوم والفنون فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويون وكلهم قائمون بالدرس والإفادة لتلاميذهم في المساجد الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقي هذه العلوم وقلما كان يتم لإنسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها.

وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشاً رغداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم.

ولم تكن بغداد بالمقصرة في علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناع من الأقاليم المختلفة فاستفادوا العلوم ممن سبقهم من الأمم في المدنية كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصائبة وغيرهم وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسنرجيء الكلام على النهضة العلمية في بغداد إلى زمن المأمون.

أخلاق الرشيد:

كان الرشيد خليفة ديناً محافظاً على التكاليف الشرعية أتم محافظة فأما صلاته فكان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة. وكان له سمير فكه هو ابن أبي مريم المدني كان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته سمعه مرة يقرأ في صلاته ﴿**ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون**﴾[1] فقال ابن أبي مريم لا أردي والله فما تملك الرشيد أن ضحك في صلاته ثم التفت إليه وهو كالمغضب فقال يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً ثم قال إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

---

(١) سورة ياسين: الآية ٢٢.

وأما صدقته فقد كان كل يـوم يتصدق من صلب مـاله بـألف درهـم سوى العطايا التي كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعـطى منه للمـال ثم المأمون بعده.

وأما حجه فإنه كان لا يتخلف عنه إلا إذا كان مشغولاً بالغزو فهـو في كل عـام بين غـاز وحاج وقـد أقام للنـاس حجهم تسع مـرات في سني حكمـه وهي السنـوات ٧٠ و ٧٣ و ٧٥ و ٧٤ و ٧٧ و ٨٠ و ٨١ و ٨٦ و ٨٨ بعد المـائة وكـان إذا حج حج معه من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج يحج عنه ثلثمائة رجل بالنفقـة السابغة والكسوة الباهرة.

وكان يسمع وعظ الواعظين وهـو عند ذلـك رقيق القلب سريـع الدمعـة. دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد عـظني فقال يـا أمير المؤمنـين اتق اللّه وحـده لا شريـك له واعلم أنـك غداً بـين يدي اللّه ربـك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نـار فبكى هارون حتى اخضلت لحيتـه فأقبـل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال سبحان اللّه وهل يتخالج أحداً شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء اللّه لقيامـه بحق اللّه وعدلـه في عباده وفضله ـ فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت إليه وأقبل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين إن هذا (يعني الفضل بن الربيع) ليس واللّه معك ولا عندك في ذلــك اليـوم فــاتق اللّه وانـظر لنفســك ـ فبكى هــارون حتى أشفق عليــه الحاضرون وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف ـ ودخل عليه مرة أخـرى فبينا هو عنده إذ استسقى ماء فأتى بقلة من ماء فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها قال له ابن السماك على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لو منعت هـذه الشربـة بكم كنت تشربهـا ـ قال بنصف ملكي ـ قـال اشـرب هناك اللّه ـ فلما شـربها قـال له أسـألك بقـرابتك من رسـول اللّه ﷺ لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها قال بجميع ملكي قال ابن السمـاك إن ملكاً قيمته شـربة مـاء لجديـر ألا ينافس فيـه فبكى هارون ـ ولا يـزال الملوك بخير ما سمعوا الوعظ وتأثروا به ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم.

وأما جهاد الرشيد فإنه كـان لا يترك الخـروج مع جنـده بل كـان غالبـاً في مقدمته حتى لا يعتاد الراحة ولا يقعده الترف عن القيام بهـذا الواجب حتى كـان من ضمن مآثره أنه كان يغزو سنة ويحج أخرى قال مروان بن أبي حفصة :

وسـدت بهـارون الثغـور وأحكمت … بـه من أمـور المسلمـين المـرائـر
ومـا انفـك معـقـوداً بنصر لـواؤه … لـه عسكـر عنـه تشظى العسـاكـر
وكـل ملوك الـروم أعـطاه جـزيـة … على الرغم قسراً عن يد وهـو صاغـر

وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليها غاز حاج فكان يلبسها فقال أبـو المعالي الكلابي :

فـمـن يـطلب لـقـاءك أو يـرده … فـبـالحـرمـين أو أقصى الـثـغـور
فـفـي أرض الـعـدو عـلى طـمـر … وفي أرض الـتـرفـه فـوق طـور
ومـا حـاز الـثغـور سـواك خـلق … مـن المـتـخـلفـين عـلى الأمـور

لذلك كانت الخلافة لعهده في أعلى درجات مهابتها واحترامها في الـداخل والخارج كان الـرشيد يقتفي آثـار المنصور ويعمـل بها إلا في بـذل المال وكـان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء في الـدين ويقول هـو شيء لا نتيجة له وبالحري لا يكون فيه ثواب وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويشتريه بالثمن الغالي. وعطاياه للشعراء والأدباء تكاد تخرج عما يعقل.

والخلال التي كانت واضحـة في أعمالـه الشجاعـة وشدة الغضب ومعـاقبة المسيء بـلا شفقة ولا رحمـة فكان يقـود الجيش بنفسه إلى المـواضع المخـوفة حتى استقامت له البلاد وهابه كل خارج وثائـر وكان إذا بلغـه عن أحد من رعيتـه ما يريبه اشتد غضبه وزاد انفعاله حتى لا يكاد أحد يقدر أن يكلمه وإذا وقـع عدوه في يده لم يتأخر عن أشد عقوبة لـه وقلما كان يعفـو وبهذا فضله ابنـه المأمـون كما سيجيء في تاريخه.

واشتهر أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذي يرخص أهـل العراق في شـربه وكـان يسمع الغنـاء ويثيب عليه أعـظم ثواب، ولـذلك اشتهـر في زمنـه أعـظم

الموسيقيين والمغنين ببغداد ممن لم يأت بعده مثلهم كما يرى ذلك من اطلع على الكتاب الموسوم بالأغاني لأبي الفرج الأصبهاني.

ولا مراء أن الرشيد يعد من كبار الخلفاء ونوابغهم لولا كثرة وسواسه بالكائدين له فإن ذلك أكثر الجاسوسية في عهده وصار المتقربون يتقربون إليه بما يتلقونه من أخبار السوء حتى فقد أعظم وزرائه وأحسنهم أثراً وأعلاهم كعباً واستبقى الفضل بن الربيع لأن أخباره ما كانت تنقطع عنه يوماً.

وفاة الرشيد:

خرج الرشيد من بغداد في خامس شعبان سنة ١٩٢ قاصداً خراسان عندما بلغه استفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمداً الأمين بمدينة السلام وخرج معه ابنه عبد اللّه المأمون ولم يزل الرشيد في مسيره حتى وافى مدينة طوس في صفر سنة ١٩٣ وهناك اشتدت به علته ولحق بربه ليلة السبت لثلاث خلون من جمادي الآخرة سنة ١٩٣ وصلى عليه ابنه صالح لأن المأمون كان قد سبقه إلى مرو حاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة.

وكان للرشيد اثنا عشر ولدا ذكراً وأربع بنات فذكور أولاده محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر وعلي من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادي - وعبد اللّه المأمون والقاسم والمؤتمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو علي ومحمد أبو أحمد وهم لأمهات أولاد شتى.

وتزوج الرشيد بست زوجات مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد بنت صالح المسكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد اللّه العثمانية.

أثر جليل من عهد الرشيد

الخراج :

بين يدينا أثر من أجل الآثار التاريخية الاقتصادية للدولة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني وهو كتاب الخراج للفقيه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣ ـ ١٨٢).

كان خليفة المسلمين في هذا التاريخ خامس بني العباس هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور وكان قاضي قضاته أبا يوسف وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته كما كان أبوه المهدي من قبله ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذي سنه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم وحتى يكون بيت المال قائماً بما يجب عليه من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب إلى قاضيه الأكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام وكتب جوابه عن تلك الأسئلة في رسالة عظيمة الشأن، سميت بكتاب الخراج وهي التي جعلناها موضوع محاضرتنا هذه الليلة.

لم يكن أبو يوسف في رسالته ذلك الفقيه الجاف الذي هو في خيال الكثير منا يكتب جوابه مبتوراً منقولاً من مسطر سبق به أو ذلك المفتي الضعيف ينظر إلى غرض المستفتي فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذي سبر حال الأمة فعرف ما يصلحها وأدرك سر الدين الذي أوحى

اللّه به إلى رسوله ﷺ لإصلاح حال الأمة فجال في ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق وأحاط علماً بتاريخ المسائل التي يفتي فيها. فبينا نراه واعظاً لا يخاف في اللّه لومة لائم يصوغ من كلمات النصح أشدها وقعاً وأقواها تأثيراً يوجهها إلى إمامه مع رعاية الأدب واللياقة وإذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الأمور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبينا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ إذا بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستنا بسنة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر ما يفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التي يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة فينبه الإمام إلى مخازيهم ويرفع صوته طالباً إجراء العدالة فيهم ويشير على إمامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق ويبين له كيف يفعل في ذلك ليكون ناجياً بين يدي اللّه سبحانه وتعالى الذي جعله كفيلاً لحقوق الرعية.

هذا هو الكتاب الجليل الذي يعطي من قرأه صورة في غاية الجمال والكمال لذلك الفقيه المتقدم.

وغرضنا التعرف بما انتظمه هذا لي الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها في هذا العصر وإذا كان عندنا كلمة نقولها لإيضاح شيء مما قد يحتاج إلى الإيضاح نبهنا عليها.

انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور:

(الأول) بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة ومصارف تلك الأموال.

(الثاني) بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال.

(الثالث) بيان بعض الواجبات التي يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به

ونحن نتكلم في ذلك متبعين هذا الترتيب وقد يخالف طريقة ترتيب الكتاب لأن القصد تقريبه إلى النفوس من أسهل الطرق.

موارد بيت المال:

يتبين من كتاب الخراج أن موارد بيت المال تنقسم بحسب ما يجب أن تصرف فيه إلى ثلاثة أقسام:

(الأول) خمس الغنائم.

(الثاني) الخراج.

(الثالث) الصدقات.

الغنائم:

الغنيمة كل ما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع. وجعل منها أبو يوسف ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير والركاز وهو الذهب والفضة الذي خلقه اللّه في الأرض يوم خلقت. والكنوز العادية التي تصاب في غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلي والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو أن للإمام خمسه. أما أربعة أخماسه الباقية فتكون حقاً للغانمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقاً للواجد فيما عداها.

ويقسم الإمام أربعة الأخماس على القائمين سواء في ذلك أهل الديوان والمتطوعون يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه اللّه حيث قال للفارس سهمان وللراجل سهم وقال للرشيد فخذ بأي القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين فإن ذلك موسع عليك إن شاء اللّه ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين.

مصرف الخمس:

بين اللّه في كتابه مصرف الخمس في الآية من سورة الأنفال حيث يقول **﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن للّه خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم باللّه وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان واللّه على كل شيء قدير﴾** قال أبو يوسف فكان ذلك الخمس

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

يقسم في عهد رسول اللّه ﷺ وللرسول سهم ولذي القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضي اللّه عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى وروي عن ابن عباس أنه قال عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيمنا ونقضي عن غارمنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى علينا سلفه ومع أن ذلك كان رأي علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه فإنه قسم الخمس كما قسمه.

وذكر أبو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوي القربى في الكراع والسلاح. وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوي القربى إلى بني هاشم. قال وكان أبو حنيفة وأكثر فقهائنا يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضي اللّه عنهم. وأقوى رأي الشافعي محمد بن إدريس المطلبي رحمه اللّه أن سهم الرسول يصرف في مصالح المسلمين وسهم ذوي القربى يصرف لمن ينتسب إلى هاشم والمطلب ابني عبد مناف دون بني أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوي في العطاء بين الأغنياء والفقراء لأن سبب الاستحقاق القرابة ويشترط فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والأنثى كما قال المزني وأبو ثور من أصحاب الشافعي ﴿وللذكر مثل حظ الأنثيين﴾[1] كما قال غيرهما ـ ويقول الشافعي قال أحمد إلا أنه قال إن ردوه صرف في السلاح والكراع كفعل أبي بكر وعمر وعثمان.

الخراج:

المورد الثاني من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء.

(١) وظيفة الأرض الخراجية.

(٢) جزية أهل الذمة.

(٣) ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب.

---

(١) سورة النساء: الآية ١١.

وظيفة الأرض الخراجية:

لما غلب المسلمون على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه طلب إليه بعض ذوي الرأي من الصحابة أن يقسم الأرض على الغانمين كما قسم ما أصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه في ذلك فأبى عليهم مستنداً إلى كتاب اللّه تعالى الذي جعل هذا الفيء حقاً للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم. ذكر ذلك في سورة الحشر حيث قال - **﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من اللّه ورضواناً وينصرون اللّه ورسوله أولئك هم الصادقون﴾**[1] **﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾**.

فجعل هذا الفيء حقاً للمهاجرين والأنصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسمة الأرض بين الغانمين لأنه لو قسمها بينهم لم يبق لمن يأتي بعدهم شيء بل ترك الأرضين والأنهار بعمالها ليكون ذلك في أعطيات الجنود وغير ذلك ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه اللّه أن هذه الأرضين المفتوحة عنوة يخير فيها الإمام فإن شاء قسمها بين الغانمين الذين افتتحوها وإن لم ير قسمها ورأى الصلاح في إقرارها في يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه في السواد فله ذلك وهي أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهي ملك لهم يتوارثونها ويتبايعون ويضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك مالا يطيقون.

وإذاً يكون حد أرض الخراج - كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام وأبقاها بأيدي أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة.

---

(١) سورة الحشر: الآيات ٨ - ٩ - ١٠.

ويخرج من ذلك أنواع من الأراضي لا يوضع عليها الخراج وإنما تكون أرضاً عشرية وهي :

(١) كل أرض للعرب غير بني تغلب .

(٢) كل أرض من أرض الأعاجم أسلم عليها طوعاً .

(٣) كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الغانمين. وسنبين حكم كل نوع بعد الكلام على أرض الخراج .

ما فعله عمر في أرض الخراج :

لما اتضح لعمر رأيه في الأرض المغنومة أرسل من قبله من يمسح أرض السواد فبلغت ٢٦,٠٠٠,٠٠٠ جريب فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم وأطعمه حسبما رأى المندوبان اللذان أرسلهما لذلك وهذه الوظيفة تختلف من درهمين لعشرة دراهم على الجريب فأقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهمان وأكثرها وظيفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم في رواية وثمانية في أخرى وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم أو درهم وقفيز وجريب الرطبة والسمسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم قال إن جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم .

أقول وإذا كانت المساحة كما قدمنا والجباية ما ذكرنا يكون متوسط جباية الجريب ٢,٧٥ درهم وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التي كانت تؤخذ على أجربة الحنطة لأن هذا المتوسط بدونها لا يصلح إلا إذا كان معظم الأرض يزرع شعيراً وهو بعيد. وقال ابن خرداذبه إن عمر جبا العراق ١٢٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم فيكون متوسط جباية الجريب ٣,٥٥ درهم وهو أقرب من المفهوم ولا بد أنه لم يعتبر في ذلك أجربة القمح والجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وهي ٥٧,٧٧ وبالتكسير تكون مساحة الجريب ١٢٠٠ م فكل ثلاثة أجربة ونصف فدان مصري. ولا بد أن ننبه هنا على ما رأيناه في كتاب صاحب السعادة المفضال يعقوب ارتين باشا الموسوم بالأحكام المرعية في الأراضي المصرية

فإنه روى عن قدامة أن الجريب اسم لستين ذراعاً في ستين بذراع الملك وظن أن ذراع الملك هي الذراع السوداء فوقع في الخطأ الحسابي الذي انتج له أن كل أربعة أجربة و٤/٥ جريب تعادل فداناً مصرياً مع أن هناك اختلافاً بين الذراعين كما ذكره الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية حيث قال إن ذراع الملك تزيد على الذراع السوادبخمسة أصابع وثلثي أصبع فتكون ذراعاً وثمناً وعشراً أي ذراعاً و ٩/٤٠ وحقق العلامة المرحوم علي مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هي ٤ : ٥ فتكون ذراع الملك ذراعاً وربعاً بالسواد. وقد نتج له هذا من تقدير المتقدمين لضلع قاعدة الهرم الأكبر بأربعمائة ذراع بذراع التجار و ٥٠٠ بالذراع السواد وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على ٥٠٠,٤٠٠ يخرج هذان الرقمان ٧٥,٧٧ س وهو طول ذراع الملك و ٤٦,٢ س وهو طول الذراع السواد.

وإذا كان كل ٣,٥ جريب فداناً تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحاً ١٤ درهماً هذا هو الخراج الموظف الذي رآه عمر.

لم ير أبو يوسف رحمه اللّه ما قرره عمر رضي اللّه عنه في أمر الخراج حيث جعله وظيفة محدودة أمراً لازماً لمن يأتي بعده بل يجوز للخلفاء إذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين في المقاسمة أن يعدلوا إليها وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج في هذا الأمر فرأى أن تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج. أما وظيفة الطعام فإن كان رخيصاً رخصاً فاحشاً لم يكتف السلطان بالذي وظف عليهم ولم يطب نفساً بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور - وإن كان غلاء فاحشاً لا يطيب السلطان نفساً بترك ما يستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد اللّه لا يقومان على أمر واحد وكذلك وظيفة الدراهم. ثم قال: وأما ما يدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوي على الضعيف ثم قال - ولم أجد شيئاً أوفر على بيت المال ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولا أعفى لهم من عذاب ولا تهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل. وقد رأى أن يقاسم من عمل الحنطة والشعير من أهل

السواد جميعاً على خمسين للسيح منه وأما الدوالي فعلى خمس ونصف وأما النخل والرطاب والكرم والبساتين فعلى الثلث وأما غلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالخرص في شيء من ذلك ولا يحرز عليهم شيء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات في أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر. ثم يؤخذ منهم ما يلزمهم من ذلك أي ذلك كان أخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم. وإن كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك بهم. ومن رأي أبي يوسف إعفاء ما دون خمسة أو سق من الخراج وهي ٣٠٠ صاع أو ١٦٠٠ رطل وخالف في ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله.

وقد أشار أبو يوسف بأن يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس فإذا أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوما واحداً لئلا تذهب به الأكرة والمارة والطير والدواب فيضر ذلك بالخراج. وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداساً أخذ في دياسه ولا يحبس الطعام إذا صار في البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لا يداس فان في حبسه في البيادر ضرراً على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم ما في البيادر ولا يحزر عليهم حزراً ثم يؤخذون بنقائض الحزر فإن هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم.

ثم قال ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولا احتفان ولا نزلة ولا حمولة طعام السلطان ولا يأخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولا أجور الكيالين ولا مؤنة لأحد عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذي وصفنا من المقاسمة ولا يأخذون بثمن الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة في المقاسمة ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجاً لدراهم يؤدونها في الخراج فإنه بلغني أن الرجل منهم يأتي بالدراهم ليؤديها في الخراج فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها ولا يضرب رجل في دراهم خراج ولا يقام على

رجله فإنه بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند اللّه وشنيع في الإسلام.

من أجل ذلك ترى أن أبا يوسف رحمه اللّه دقق كثيراً في أمر من يولي جباية الخراج فأشار على إمامه أن يكون والي ذلك فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأي عفيفاً لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف في اللّه لومة لائم ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة. وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة اللّه فيما بعد الموت تجوز شهادته إن شهد ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم. ثم قال: إني قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياماً ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ولعله لا يكون عرفاً بسلامة ناحية ولا عفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ثم قال: وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ولا محتقراً لهم ولا مستخفاً بهم لكن يلبس لهم جلباباً من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا ويحملوا مالا يجب عليهم واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم والشدة على الظالم والعفو عن الناس: قال. وإني لأرجو إن أمرت بذلك وعلم اللّه من قلبك إيثارك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل أو خالف منه مخالف أن يأخذه اللّه دونك وأن يكتب لك أجرك وما نويت إن شاء اللّه. ولتصير مع الوالي الذي وليته قوماً من الجند من أهل الديوان في أعناقهم بيعة على النصح لك فإن من نصحك أن لا تظلم رعيتك وتأمر باجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهراً بشهر. ولا تجري عليهم من الخراج درهماً فيما سواه.

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق مالهم ونبه عليه وطلب منه أن يحسم ذلك كله سدا لضرر أهل الخراج ونقص الفيء.

ورأى مع هذا كله أن يبعث الإمام قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال. وما عملوا به الخراج وكيف جبوه

على ما أمروا به وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر فإذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد إليهم فيه فإن كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل على أنه قد أمر بغيره وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترأوا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم وإذا صح عندك من العامل والوالي تعد بظلم وعسف وخيانة لك في رعيتك واحتجاز شيء من الفيء أو خبث طعمته أو سوء سيرته فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئاً من أمور رعيتك أو تشركه في شيء من أمرك.

تقبل الأرض:

كان النظام المتبع في جباية الخراج التقبل وهو جعل شخص من الأشخاص قبيلاً أي كفيلاً بتحصل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه. وكان الناس يتزايدون فيما يتقبلون به الأرض فيستفيد السلطان تعجيل المال. ويستفيد المتقبل الفضل بين مادفعه وما حصله وقد كره أبو يوسف هذا النظام فقال لرشيد ورأيت ألا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد فإن المتقبل إذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم مالا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما يدخل فيه وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته ولعله يستفضل بعدما يتقبل به فضلاً كثيراً وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم في الشمس وتعليق الحجارة في الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذي نهى الله عنه إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم. وإنما أكره القبالة لأني لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيخربوا ما عمروا ويدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شيء ولن يقع مع الصلاح شيء إن الله قد نهى عن الفساد في الأرض فقال: **﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد**

إصلاحها﴾[1] وقال ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾[2] وإنما هالك من هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشتري منهم وإظهارهم الظلم حتى يفتدي منهم والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذي لا يحل ولا يصح - واختار أبو يوسف التقبل إذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالواوهو أخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رقيب أمين رزقه من بيت المال حتى يمنعه من ظلم إن أراده والإعذار إلى المتقبل والوالي برفع الظلم عن الرعية والوعيد له إن حملهم مالا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم فان فعل فأوفوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجراً له وناهياً لغيره إن شاء الله.

القطائع:

القطائع جمع قطيعة وهي ما يمنحه الإمام من الأرض لبعض الممتازين بفعالهم من الرعية.

قال أبو يوسف رحمه الله: إن عمر رضي الله عنه بعد أن فتح العراق اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد أو لرجل قتل في الحرب. أو لحق بأرض الحرب وكانت مساحة ما اصطفاه من هذه الأرض ٤,٠٠٠,٠٠٠ جريب فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع، قال أبو يوسف وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابي به فكذلك هذه الأرض. ثم قال: فأما من أخذ واحداً وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطي واحداً.

والإمام مخير في هذه الأرض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية إن كانت تسقى من أنهار الخراج. قال أبو يوسف: وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضاً من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التي ذكرنا أن الإمام يقطع

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

منها فلا يحل لمن يأتي بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدي من هو في يده وارثاً أو مشترياً. فأما ما أخذ الولاة من يد واحد أرضاً وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحداً وأعطى آخر، فلا يحل للإمام ولا يسعه أن يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيئاً إلا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذي وجب له عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والأرض عندي بمنزلة المال فللإمام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء في الإسلام ومن يقوى على العدو ويعمل في ذلك بالذي يرى أنه خير للمسلمين. وأصلح لأمرهم وكذلك الأرضون يقطع منها الإمام من أحب من الأصناف التي سميت ولا أرى أن يترك أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج. فهذا حد الإقطاع عندي على ما أخبرتك. ومن رأي أبي يوسف أن أرض الإقطاع تجعل عشرية لما يلزم صاحب الإقطاع من المؤنة في حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض.

ومن أجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتي ذكره.

موات الأرض:

قال أبو يوسف: لو أن بلاداً فتحت عنوة أو صلحاً وفي بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد وليست مرافق لقرية من القرى فهي موات، فمن أحياها فهي له وللإمام أن يقطع ذلك من أحب وله أن يؤاجره ويعمل بما فيه الصلاح، وقد خالف شيخه أبا حنيفة رحمه اللّه في إحياء الموات فإن الإمام يقول لا يملك المحيي ما أحيا إلا بإذن الإمام، قال أبو يوسف: وإنما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس.

وإذا كانت الأرض الموات في أرض العشر أدى عنها العشر وإن كانت في أرض الخراج أدى عنها الخراج، وإن احتفر لها بئراً أو استنبط لها قناة كانت أرض عشر، أما إن ساق إليها ماء الخراج فهي أرض خراج.

قال أبو يوسف: وأيما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحياها وأدى عنها العشر أو

الخراج فهي له، وليس للإمام أن يخرجها من يده.

وجعل من الأرض الموات ما ينكشف من الجزر في دجلة والفرات إذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها فحصنها من الماء وزرع فيها فهي له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن، وكذلك ما عولج من البطائح بضرب المسنيات عليها وقطع ما فيها من القصب، وكذلك ما عولج من الآجام ـ كل ذلك مشروط بألا يكون للأرض مالك أو ذويد أو مرتفق فان المحافظة على حقوق ارتفاع الجمهور مما أكد فيه أبو يوسف، حتى منع من إنشاء الغروب في دجلة إذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التي تمر في دجلة ومن فعل من ذلك شيئاً فعطبت به سفينة فهو ضامن، قال أبو يوسف: ولا يترك الإمام شيئاً من ذلك إلا أمر به فهدم ونحي فإن في هذا ضرراً عظيماً فالفرات ودجلة إنما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئاً، فمن أحدث فيه شيئاً فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن يوكل بذلك رجلا ثقة أميناً حتى يتتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيئاً في دجلة والفرات في موضع يضر بالسفن ويتخوف عليها منه إلا نحاه وتوعد أهله على إعادة شيء منه فإن في ذلك أجراً عظيماً. وتكلم طويلاً في المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها.

المورد الثاني من موارد الخراج جزية أهل الذمة:

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرءوس وهذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم. وذلك أنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين في حروبهم وقد رأيت من السنن العمرية أن من استعين به من غير الملة لا يدفع جزية. روى الطبري في حوادث سنة ٢٢ من الهجرة أن عبد الرحمن بن ربيعة أحد قواد عمر لما توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهريراز فقال له إني بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة لا ينسبون إلى أحساب وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذويّ الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان ولست من القبج في شيء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم وصفوي معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم

النصر لكم والقيام بما تحبون فلا تـذلونـا بالجـزية فتـوهنونـا لعدوكم. فقـال عبد الرحمن فوقي رجل فسر إليه فجـوزه فسار إلى سـراقة بن عمـرو فلقيه بمثـل ذلك فقـال سراقـة قد قبلت ذلـك فيمن كان معـك على هـذا ما دام عليـه ولا بد من الجـزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلـك وصار سنـة فيمن كان يحـارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنـده الجزاء إلا أن يستنفـروا فتوضـع عنهم جزيـة تلك السنة وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك فأجـازه وحسنه وكتب لهم سـراقة بذلك كتاباً:

فهذا مما يستـأنس به عـلى فكرة المسلمـين إذ ذاك في أمر الجـزية: قـال أبو يوسف: إن الجزية واجبة على جميع أهـل الذمـة، ما خـلا نصارى تغلب وأهـل نجران خاصة والذي يجب عليه الجزيـة منهم الرجـال دون النساء والصبيـان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لا حـرفة لـه ولا عمل ولا من مقعـد لا مال لـه ولا من راهب ولا من شيخ كبير لا يستطيع العمل ولا مال له: وليس في مواشي أهل الذمة من الإبل والبقر والغنم زكاة.

وقد قدر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات ٥٨ درهماً على الموسرين و ٢٤ على المتوسطين و ١٢ على العمال.

ثم قال أبو يوسف: وينبغي يا أمير المؤمنين أيـدك اللّه أن تتقدم في الـرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى اللّه عليه وآلـه وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفـوا فوق طـاقتهم ولا يؤخذ شيء من أمـوالهم إلا بحق يجب عليهم.

أما نصارى بني تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضـاعفة. هكـذا فعل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه.

وقـد تكلم أبو يـوسف على مـا منح لأهـل الذمـة من الامتيازات في دينهم وكنائسهم وبيعهم فقال إنه كان قد جرى الصلح بين المسلميـن وأهل الذمـة في أداء الجزية على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولا خـارجها وعـلى أن يحقنـوا لهم دماءهم وعـلى أن يقاتلوا من نـاوأهم من عـدوهم وعـلى أن يخـرجـوا

بالصلبان في أعيادهم وعلى أن يذبوا عنهم فأدوا الجزية على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم على ألا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافتتحت الشام كلها والحيرة إلا أقلها على هذا فلهذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم. ثم اقتص تاريخ ما أعطاه القواد لأهل الذمة في الأقاليم المختلفة من هذه الشروط وروى[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه) وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند وفاته أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم.

المورد الثالث من موارد الخراج العشور:

لم تكن العشور من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم ولكنها حدثت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسبب ذلك أن أبا موسى الأشعري كتب إليه إن تجاراً من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهماً وليس فيما دون المائتين شيء فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، وما زاد فبحسابه. وروي أن أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب. وبعث زياد بن حدير الأسدي على عشور العراق والشام. فصار ذلك سنة في المرور بأموال التجارة خاصة وما يرد منها من أهل الحرب وأهل الذمة سبيله سبيل الخراج أما ما يرد من المسلمين فسبيله سبيل الصدقات ولذلك إذا قال المسلم قد أديت زكاة هذا المال الذي في يدي صدق في يمينه.

قال أبو يوسف: رأيت أن تولي العشور قوماً من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فلا يظلموهم ولا يأخذون منهم

(١) أخرجه الطبري.

أمثر مما يجب عليهم وأن يمتثلوا ما رسمناه لهم ثم تتفقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ما قد أمروا به فإن كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك وأحسنت إليهم فإنك متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدي بما تأمره به في الرعية يزيد المحسن في إحسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدي وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض بالقيمة.

مصاريف بيت مال الخراج:

الخراج الذي يتكون مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة لأنه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب ما يرى الإمام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها في أسئلة الخليفة وهي:

أولا - أرزاق القضاة والولاة والعمال:

قال أبو يوسف: فيجري على والي كل مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل وكل رجل تصيره في عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئاً إلا والى الصدقة فإنه يجري عليه منها، فأما الزيادة في أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجري عليهم فذلك إليك، ومن رأيت أن تزيده منهم في رزقه زدت ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت؛ أرجو أن يكون ذلك موسعاً عليك وكل ما رأيت أن اللّٰه تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره فإني أرجوا لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب.

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجري على القاضي إذا صار إليه ميراث من مواريث الخلفاء وبني هاشم من الذي يصير إليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم وما لهم فأجاب سلباً وقال إنما يعطى القاضي رزقه من بيت المال ليكون قيما للفقير والغني والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه مواريثه رزقاً ولم تزل الخلفاء تجري للقضاة الأرزاق من بيت مال

المسلمين فأما من يوكل بالقيام بتلك المواريث في حفظها والقيام بها فيجري عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ما هم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والأمناء ويبقي الوارث هالكاً وما أظن كثيراً من القضاة والله أعلم يبالي بما صنع وكيفما عمل ولا يبالي أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث إلا من وفقه الله تعالى منهم.

ثانيا ـ أعطيات الجنود وهي مرتبات العسكر:

ولم يكن في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرتبات معينة للجنود الذين كانوا يتألفون من جميع أفراد المسلمين، وإنما كانوا يأخذون مالهم في أربعة أخماس ما يغنمون وفيما يرد من خراج الأراضي التي أبقيت في أيدي أهلها كأرض خيبر، ولما ولي أبو بكر رضي الله عنه أعطى الناس وسوى بينهم في العطاء قائلاً هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة فلما ولي عمر رضي الله عنه رأى في ذلك غير رأي أبي بكر وقسم العطاء مفضلاً الأسبق فالأسبق وهذا قوله بنصه: والله الذي لا إله إلا هو ما أحد إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدهم ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ فالرجل وتلاده في الإسلام والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناؤه في الإسلام والرجل وحاجته في الإسلام. بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتي:

١٢٠٠٠ درهم لأزواج النبي ﷺ ولعمه العباس.

٥٠٠٠ درهم لمن شهد بدراً من المهاجرين والأنصار وألحق بهم الحسن والحسين.

٤٠٠٠ درهم لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد وألحق بهم أسامة بن زيد.

٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار كعمر بن أبي سلمة.

٢٠٠٠ لأبناء المهاجرين والأنصار.

٨٠٠ لأهل مكة.

٤٠٠ و ٣٠٠ لسائر الناس.

٦٠٠ و ٤٠٠ و ٣٠٠ و ٢٠٠ لنساء المهاجرين والأنصار.

وكان يفرض لأمراء الجيوش والقراء في العطاء ما بين ٩٠٠٠ و ٨٠٠٠ و ٧٠٠٠ على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور وكان للمنفوس إذا طرحته أمه ١٠ دراهم فإذا ترعرع بلغ به ٢٠٠ فإذا بلغ زاده.

وكان للعطاء ديوان تسجل فيه أسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما هو وارد فيه والذي أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب، رضي اللّه عنه.

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية إلى أن يشتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من الصنائع اقتصر الديوان على ما تقوم به حاجة الأمة من الجيش وكان بعض من ليس مرتزقاً في الديوان يدعوه حبه للجهاد أن يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعاً، وكانوا كثيرين يلازمون الثغور ويخرجون مع الجيوش.

ثالثاً ـ كري الأنهار وإصلاح مجاريها:

وقال أبو يوسف رحمه اللّه: وإذا احتاج أهل السواد إلى كري أنهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال، ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج.

وأما الأنهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم، وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء.

وأما البثوق والمسنيات والبريدات التي تكون في دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطب الأرضين من هذا وشبهه وإنما يدخل

الضـرر من ذلك عـلى الخراج ولا يـولي النفقة عـلى ذلك إلا رجـل يخـاف اللّه، يعمل في ذلك بما يجب عليه للّه، قد عرفت أمـانته وحمـدت مذهبـه ولا تول من يخونك ويعمل في ذلك بما لا يحل ولا يسعه أن يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معـه أو يضيع المـواضع المخـوفة ويهملهـا ولا يعمل عليهـا شيئاً يحكمهـا به حتى تنفجر فتغرق ما للناس من الغلات وتخرب منـازلهم وقراهم ثم وجـه من يتعرف ما يعمل به واليك في هذه المواضع المخوفة منها ومـا يمسك من العمـل عليها ممـا قد يحتاج إلى العمـل وما تفجـر وما السبب في انفجـاره ثم عامله حسبـما يأتيـك الخبر عنه من حمد لأمره أو ذم وإنكار وتأديب.

رابعاً ـ حفر الترع بعد التثبت من نفعهـا بواسـطة من لهم بصيرة ومعـرفة فإذا تبين الامام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت المال ولا يحمـل النفقة على أهل البلد فإنهم إن يعمروا خير من أن يخربوا وإن يعـزوا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا.

خامساً ـ الأجراء على المسجونين.

قال جواباً لسؤال للرشيد عنهم لا بد لمن كان في مثل حالهم إذا لم يكن لـه شيء يأكل منه لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه أن يجـري عليه من الصـدقة أو من بيت المال، من أي الوجهين فعلت فذلك موسع عليك وأحب إليّ أن تجـري من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته فإنـه لا يحل ولا يسـع إلا ذلك قـال. والأسـير من أسرى المشـركين لا بـد أن يطعم ويحسن إليـه حتى يحكم فيه فكيف برجل مسلم قـد أخطأ وأذنب يتـرك يموت جـوعاً، وإنمـا حمله على مـا صار إليـه القضـاء أو الجهـل ولم تـزل الخلفـاء تجـري عـلى أهـل السجـون مـا يقـوتهم في طعـامهم. أدمهم وكسـوتهم الشتـاء والصيف وأول من فعـل ذلـك عـلي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده.

قال أبو يـوسف: فمر بـالتقديـر لهم ما يقـوتهم في طعامهم وأدمهم وصـير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر يدفع ذلك إليهم فإنـك إن أجريت عليهم الخبـز ذهب به ولاة السجن والقـوام والجلاوذة وول ذلـك رجلاً من أهـل الخـير

والصلاح يثبت أسماء من في السجن ممن تجري عليهم الصدقة وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه في يده فمن كان منهم أطلق وخلي سبيله، رد ما يجري عليه ويكون للأجراء عشرة دراهم في الشهر لكل واحد وليس كل من في السجن يحتاج إلى أن يجري عليه وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء وفي الصيف قميص وإزار ويجري على النساء مثل ذلك وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء وفي الصيف قميص وإزار ومقنعة وأغنهم عن الخروج في السلاسل يتصدق عليهم الناس فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطئوا وقضى اللّه عليهم ما هم فيه فحبسوا يخرجون في السلاسل يتصدقون وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين في أيديهم فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل الإسلام؟ وإنما صاروا إلى الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع فربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا وإن ابن آدم لم يعر من الذنوب فتفقد أمرهم ومر بالإجراء عليهم مثل ما فسرت لك ومن مات منهم ولم يكن له ولي ولا قرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فإنه بلغني وأخبرني به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث في السجن اليوم أو اليومين حتى يستأمر الوالي في دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون ويكثرون من يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن، ولا صلاة فما أعظم هذا في الإسلام وأهله.

(المورد الثالث من موارد بيت المال الصدقات وهي ما يؤخذ من المسلمين)

أولا - من أنعامهم وهي الإبل والبقر والغنم على حساب معين في الفقه الإسلامي.

ثانياً - من نقودهم التي هي الذهب والفضة باعتبار ٢,٥ من كل مائة.

ثالثاً - من أموال تجاراتهم ومنها ما يمرون به على العاشر يؤخذ منهم كذلك باعتبار ٢,٥ من كل مائة.

رابعاً - ما يؤخذ من حاصلاتهم الزراعية وهي أعشار الأرض يؤخذ مما

سقي بدون مؤنة العشر ومما سقي بمؤنة نصف العشر.

قال أبو يوسف: رحمه اللّه، ومر يا أمير المؤمنين باختيار رجل أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيتك فوله جمع الصدقات في البلدان ومره فليوجه فيها أقواماً يرتضيهم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون إليه صدقات البلدان فإذا جمعت إليه أمرته فيها بما أمر اللّه جل ثناؤه به فأنفذه، ولا تولها عمال الخراج فإن مال الصدقة لا ينبغي أن يدخل في مال الخراج وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون مالا يحل ولا يسع وإنما ينبغي أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح فإذا وليتها رجلا ووجه من قبله من يوثق بدينه وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما ترى، ولا تجر عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة.

مصارف الزكاة:

الزكاة تصرف بالنص إلى ثمانية أصناف من الناس قال اللّه تعالى **﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل اللّه وابن السبيل فريضة من اللّه﴾**[1].

قال أبو يوسف: فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا (وخالف الحنفية في ذلك أكثر الأئمة) والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وقسمت بقية الصدقات بينهم للفقراء والمساكين سهم، والغارمون وهم الذي لا يقدرون على قضاء ديونهم سهم وفي السبيل المنقطع بهم سهم، يحملون به ويعانون وفي الرقاب سهم. وسهم في إصلاح طرق المسلمين ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ما حول كل مدينة في أهلها ولا يخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى وأما غيره فيصنع به الإمام ما أحب من هذه الوجوه التي سمى اللّه تعالى في كتابه، وإن صيرها في صنف واحد ممن سمى اللّه تعالى أجزأ.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٦٠.

٦ ـ الأمين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمي أبا وأما ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ولابنه الحسن.

ولد سنة ١٧٠ من الهجرة وولاه أبوه العهد سنة ١٧٥ وكان قائماً مقام أبيه ببغداد حينما سافر إلى خراسان ولما مات الرشيد بطوس بويع له في عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخبر إلى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر في الخلافة إلى أن قتل في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريباً.

الحال الداخلية لذلك العهد:

كانت هذه المدة التي وليها الأمين مملوء بالمشاكل والاضطرابات بين الأخوين الأمين والمأمون. وكادت الأمة تذهب بينهما ضياعاً وسبب ذلك ما فعله الرشيد من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم كما قدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت المشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها في الأمة:

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد وسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون وأن جميع ما معه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون. ولما علم الأمين وهو ببغداد مرض أبيه وأنه لمآبه أرسل من يفيده الأخبار كل يوم وأرسل كتباً تسلم إلى من أرسلت إليه بعد وفاة الرشيد فلما توفي كان من تلك الكتب

كتاب للمأمون يعزيه فيه عن أبيه ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين، بالخلافة وللمأمون بولاية العهد وللقاسم المؤتمن بعده. ومنها كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه وهو الذي صلى عليه حين مات. وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين، ثم المأمون ثم المؤتمن على الشريطة التي اشترطها الرشيد وأمره بالمسير إليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح، وقال له في الكتاب وإياك أن تنفذ رأيا أو تبرم أمراً إلا برأي شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع وفيه. وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو أرزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولي لإعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين فإن الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور.

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين بطوس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا في اللحاق بمحمد فقال الفضل بن الربيع لا أدع ملكا حاضراً لآخر لا يدري ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون.

انتهى خبر ذلك إلى المأمون وهو بمرو فجمع من معه من قواد أبيه، واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم في ألفي فارس تجريدة فيردهم فدخل عليه الفضل بن سهل وهو عنده من أعظم الناس قدراً وأخصهم به فقال له إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية إلى محمد ولكن الرأي أن تكتب إليهم كتاباً وتوجه إليهم رسولاً فتذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء وتحذرهم الحنث، وما يلزمهم في ذلك في الدين والدنيا فعل ذلك المأمون ووصل الكتاب والقوم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل فلم يفد هذا الجواب فائدة وتم الفضل بن الربيع على سيره.

ولما جاء المأمون خبر ذلك كان الفضل بن سهل حاضراً فأزال عنه الانزعاج وأمله في الخلافة فجعل أمره إليه وأمره أن يقوم به بعد أن رفضه كبار القواد الذين معه فكان من أول تدبيره أن يبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء

فيدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة وأن يقعد على اللبود ويرد المظالم ليكون بذلك قريباً من نفوس الجمهور ففعل.

ولم يبدأ المأمون أخاه بشيء يريبه بل تواترت كتبه إليه بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسرج.

أما الأمر في بغداد فقد كان يدل على شر مستطير فإن الفضل بن الربيع إليه بعد مقدمه العراق ناكثاً للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه للمأمون رأى أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عليه فحث محمداً على خلعه وأن يولي العهد من بعده ابنه موسى ولم يكن ذلك من رأي محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه فأول ما بدأ به أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم. فلما بلغ ذلك المأمون وبلغه أن الأمين عزل أخاه القاسم عما كان الرشيد ولاه من الأعمال وأقدمه بغداد علم أنه يدبر في خلعه فقطع البريد عنه وأسقط اسمه من الطراز.

كرر الأمين تجربته فكتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك وهو عامل المأمون على الري وأمره أن يبعث إليه بغرائب غروس الري مريداً بذلك امتحانه فبعث إليه بما طلب فبلغ ذلك المأمون فعزل العباس عن ولايته.

ثم بعث الأمين إلى المأمون ثلاثة نفر أحدهم العباس بن موسى بن عيسى والغرض من هذا الوفد أن يطلبوا من المأمون، رضاه بتقديم موسى بن الأمين على نفسه في ولاية العهد فلما اطلع المأمون على مرادهم، رد ذلك وأباه، وعرض الفضل بن سهل على العباس بن موسى أن يكون عوناً لهم ومنوه الأماني إن هو أجاب إلى ذلك فرضي، وكان بعد ذلك يكتب إليهم بالأخبار ويشير عليهم بالرأي عاد الوفد إلى الأمين وأخبروه بامتناع المأمون.

لم يخفض ذلك من غلواء الفضل بن الربيع بل ما زال يلح على الأمين حتى رضي أن يخلع المأمون، ويبايع لابنه موسى بولاية العهد. ونهى الفضل عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على شيء من المنابر ووجه إلى مكة كتاباً مع

رسول من حجبة البيت في أخذ الكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة فأحضرهما إلى بغداد فمزقا.

وكان الأمين قبل أن يكاشف أخاه بذات نفسه أرسل إليه يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها، وأن يوجه العمال إليها من قبل محمد وأن يحتمل توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب اليه بخبره فكتب إليه جواب ذلك:

بلغني كتاب أمير المؤمنين يسأل التجافي عن مواضع سماها مما أثبته الرشيد في العقد وجعل أمره إليّ وما أمره رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره غير أن الذي جعل إلى الطرف الذي أنا به لاظنين في النظر لعامته ولا جاهل بما أسند إليّ من أمره ولو لم يكن ذلك مثبتاً بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التي أنا عليها من إشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لا تتألف عن هضمها وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال، وطرف من الأفضال، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته وما يجب من أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيراً من عنايته وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ووكدته مأخوذة العهد؟ وإني لأعلم أن أمير المؤمنين، لو علم من الحال ما علمت لم يطلع ما كتب بمسألته إلي ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله.

وكان المأمون قد وجه حارسه إلى الحد فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء ولا يدعه يستعلم خبراً، ولا يؤثر أثر ولا يستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحداً ولا يبلغ أحداً قولا ولا كتاباً ـ فحصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أو أن نودع صدورهم رهبة، ويحملوا على منوال خلاف أو مفارقة ـ ثم وضع على مراصد الطرق ثقات من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنة في أمره ممن أتى بجواز في مخرجه إلى دار مآبة أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه ومنع الاشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول في البلدان في هيئة الطارئة والسابلة وفتشت الكتب. هكذا دبر الفضل بن سهل أمر صاحبه فلم يدع للفضل بن الربيع مجالاً لرسله ورواده أن يبثوا شيئاً في عامة أهل خراسان ولما أتت رسل الأمين، بجواب كتب الأمين وجدوا جميع ما كانوا

يوملونه ممنوعاً عنهم موصداً بابه دونهم. وكان كتاب الأمين للمأمون.

(أما بعد فإن أمير المؤمنين الرشيد وإن كان أفردك بالطرف وضم ما ضم إليك من كور الجبل تأييداً لأمرك وتحصيناً لطرفك فان ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك وقد كان هذا الطرف وخراجه كافياً لحدثه ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من رده وقد ضم لك إلى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها فالحق فيها أن تكون مردودة في أهلها ومواضع حقها فكتبت إليك أسألك برد تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها ليكون فضول ردها مصروفاً إلى مواضعها وأن تأذن لقائم بالخير بحضرتك يؤدي إلينا علم ما نعني به من خبر طرفك فكتبت تطلب دون ذلك بما تم أمرك عليه صيرنا الحق إلى مطالبتك فاثن عن همك أثن عن مطالبتك إن شاء اللّه) فلما قرأ المأمون كتابه كتب إليه:

(أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه ولم يسأل مالا يوجبه حق فيلزمني الحجة بترك إجابته وإنما يتجاوز المناظران أن منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها فمتى تجاوز متجاوزها وهو موجود الوسع ولم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال ما في تركها فلا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحب من صلتك وارض بما حكم به الحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك والسلام).

فلما وصل الكتاب إلى الأمين اشتد غيظه وعند ذلك أمر بعدم الدعاء له على المنابر وكتب إليه:

(أما بعد فقد بلغني كتابك غامطاً لنعمة اللّه عليك فيم مكن لك من ظلها متعرضاً لحراق نار لا قبل لك بها ولحظك عن الطاعة كان أودع وإن كان قد تقدم مني متقدم فليس بخارج من مواضع نفعك إذ كان راجعاً على العامة من رعيتك وأكثر من ذلك ما يمكن لك من منزلة السلامة ويثبت لك من حال الهدنة فأعلن رأيك أعمل عليه إن شاء اللّه.

لم يكن لهذه المكاتبات بين الأخوين نتيجة لأنه كان لكل منهما سائق يسوقه فللأمين الفضل بن الربيع الذي لم يكن يحب المأمون ولا ولايته وللمأمون الفضل بن سهل الذي كان يأمل الخلافة لصاحبه وأن تكون مرو حاضرة الخلافة العظمى وتعود لخراسان عظمتها.

بلغ المأمون ما أقدم عليه أخوه من خلعه عن ولاية العهد وترك الدعاء له فكان أول ما فعله الفضل بن سهل من التدبير أن جمع الأجناد التي كان أعدها بجنبات الري مع أجناد قد كان مكنها فيها وأجناد للقيام بأمرهم وأقامهم بالحد لا يتجاوزونه ولا يطلقون يدا بسوء في عامة ولا مجتاز ثم اختار لقيادة الجند طاهر بن عيسى الخزاعي مولاهم فسار طاهر مغذاً لا يلوي على شيء حتى ورد الري فنزلها ووكل بأطرافها ووضع مسالحه وبث عيونه وطلائعه.

أما الفضل بن الربيع فإنه اختار لجند العراق علي بن عيسى بن ماهان وولاه الأمين كور الجبل كلها نهاوند وهمذان وقم وأصبهان وأعطى جنده من الأرزاق شيئاً كثيراً وأمدهم بالسلاح والعدة فشخص من بغداد في منتصف جمادي الآخرة سنة ١٩٥ وكان معه زهاء أربعين ألفاً وحمل معه قيد فضة ليقيد به المأمون كما شاءت زبيدة أم الأمين وقد خدم الأمين أخاه بهذا التعيين خدمة عظيمة فإن أهل خراسان لم ينسوا ما عاملهم به علي بن عيسى من الفظائع مدة ولايته في عهد الرشيد فكان تعيينه لحربهم مما أثار في قلوبهم الحمية لرد هذا العدو بعد أن أبدلهم اللّه خيراً منه عدلاً ورفقاً وحسن سياسة وهو عبد اللّه المأمون ومما كان ينذر بالشر جند الأمين عدم احتفال قائده بلقاء عدوه فإنه لما بلغه أن طاهر بن الحسين مقيم بالري كان يضحك ثم يقول وما طاهر فواللّه ما هو إلا شوكة من أغصاني أو شرارة من ناري وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقي الحروب ثم التفت إلى أصحابه فقال واللّه ما بينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان فإن السخال لا تقوي على النطاح والثعالب لا صبر لها على لقاء الأسد فإن يقم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظبات السيوف وأسنة الرماح. ولما صار في أول بلاد الري أتاه صاحب مقدمته وقال لو كنت أبقى اللّه الأمير أذكيت العيون وبعثت

الطلائع وارتدت موضعاً تعسكر فيه وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ في الرأي وآنس للجند - فقال لا، ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين إما أن يتحصن بالري فيبهته أهلها فيكفونا مؤنته أو يخيلها ويدبر راجعاً لو قربت خيولنا وعسكرنا منه - وأتاه يحيى بن علي فقال: اجمع متفرق العسكر واحذر على جندك البيات ولا تسرح الخيل إلا ومعها كنف من القوم فإن العساكر لا تساس بالتواني والحروب لا تدبر بالاغترار، والثقة أن تحترز ولا تقل المحارب لي طاهر، فالشرارة الخفية ربما صارت ضراماً والثلمة من السيل ربما اغتر بها فتهون فصارت بحراً عظيماً وقد قربت عساكرنا من طاهر فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا. فقال اسكت فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى وإنما يتحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها وتستعد إذا كان المناويء لها أكفاءها ونظراءها.

وبينما كان هذا القائد يسير مدلاً بنفسه وبمن معه مستخفاً بعدوه كان طاهر يدبر أمره مع قواده ويسير سير من يريد مواقعة عدو أكثر منه عدداً وعدة وقد استقر رأيه على أن يجعل مدينة الري وراء ظهره ويقاتل بعيداً عنها فعسكر على خمسة فراسخ منها وأقبل إليه علي بن الحسين وقد عبأ جنده وهم في أكمل عدة وأحسن زي فكتب طاهر كتائبه وكردس كراديسه وسوى صفوفه وجعل يمر بقائد قائد وجماعة جماعة يعظهم ويثبتهم ثم تلاحم الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً فعلت ميمنة علي على ميسرة طاهر ففضتها فضاً منكراً وميسرته على ميمنته فأزالتها عن موضعها فقال طاهر اجعلوا بأسكم وجدكم على كراديس القلب فإنكم لو قد فضضتم منهم راية واحدة رجعت أوائلها على أواخرها فصبر أصحابه صبراً صادقاً ثم حملوا على أولى رايات القلب فهزموهم وأكثروا فيهم القتل ورجعت الرايات بعضها على بعض ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه فرجعوا على من كان في وجوههم فهزموهم وانتهت الهزيمة إلى علي ورماه رجل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا فيهم السيوف حتى حال الليل بينهم وبين الطلب وغنموا غنيمة كثيرة ونادى طاهر في أصحاب علي من وضع سلاحه فهو آمن فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم وعاد طاهر إلى الري

وكتب إلى الفضل بن سهل ـ أطال اللّه بقاءك وكبت أعداءك وجعل من يشنأك فداءك فداءك كتبت إليك ورأس علي بن عيسى في حجري وخاتمه في يدي والحمد للّه رب العالمين ـ فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض فسلم على المأمون بأمير المؤمنين ـ وأمد طاهراً بالرجال والقواد وسماه ذا اليمنين وصاحب حبل الدين.

وصل هذا الخبر بغداد على غير ما ينتظر القوم فانتخب الأمين جيشاً ثانيا جعله تحت قيادة عبد الرحمن بن خبلة الأنباري وعدة هذا الجيش عشرون ألف رجل من الأبناء وحمل معه الأموال وقواه بالسلاح والخيل وأجازه بجوائز وندب معه فرسان الأبناء وأهل البأس والنجدة والغناء منهم وأوصى قائده بالتحفظ والاحتراس وترك ما عمل به علي بن عيسى من الاغترار والتضجع فسار عبد الرحمن حتى نزل همذان فضبط طرقها وحصن سورها وأبوابها وسد ثلمها وحشر إليها الأسواق والصناع وجمع فيها الآلات والمير واستعد للقاء طاهر ومحاربته. ولما بلغ طاهراً خبره توجه إليه حتى أشرف على همذان فخرج إليه عبد الرحمن فيمن معه على تعبئة فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً إلى أن انهزم عبد الرحمن ودخل همذان فلبث فيها حتى قوي أصحابه واندملت جراحهم ثم خرج ثانية إلى اللقاء فلقيه طاهر وفعل به ما فعل في المرة الأولى فعاد إلى همذان فحصره فيها طاهر حتى جهد من قلة المادة فطلب الأمان له ولمن معه فأمنه طاهر.

ولما تم لطاهر هذا النصر طرد عمال محمد من قزوين.

كان ذلك سبباً لارتباك الفضل بن الربيع وشعوره بزوال الدولة فدعا أسد بن يزيد بن مزيد وهو من قواد الدولة المعدودين وقال له أنت فارس العرب، وابن فارسها فزع إليك الأمين في لقاء هذا الرجل وأطمعه فيما قبلك أمران ـ أما أحدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك والثاني يمن نقيبتك وشدة بأسك وقد أمرني بإزاحة علتك وبسط يدك فيما أحببت غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ومفتاح اليمن والبركة فانجز حوائجك وعجل المبادرة إلى عدوك فإني أرجو أن يوليك اللّه شرف هذا الفتح ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة ـ فلم يمتنع أسد وإنما طلب لجنده مطالب هي أن يؤمر لأصحابه برزق سنة ويخص من لا

خاصة لـه منهم من أهل الغنـاء والبلاء وأبـدل من فيهم من الـزمنى والضعفـاء وأحمل ألف رجل ممن معي على الخيل ولا أسأل عن محاسبة ما افتتحت من المدن والكور ـ فقال له الفضل قد اشتططت ولا بـد من مناظـرة أمير المؤمنـين ثم ركبا إليه فدخل عليه الفضل أولا ثم دخل أسد فما كان بينهما إلا كلمتـان حتى غضب الأمين وأمر بحبس أسد ـ ثم قال هل في أهل بيت هذا من يقوم مقامه فإني أكره أن أستفسدهم مع سـابقتهم وما تقـدم من طاعتهم ونصيحتهم فقـالوا نعم فيهم أحمد بن مزيد وهو أحسنهم طريقة وأصلحهم نيـة في الطاعـة وله مـع هذا بـأس ونجدة وبصر بسياسة الجنود ولقاء الحروب فاستدعـاه محمد وقـال له إنـه قد كـثر على تخليط ابن أخيك وتنكره وطال خـلافه علـيّ حتى أوحشني ذلك منـه وولد في قلبي التهمة له وصيـرني بسوء المـذهب وحنث الطاعـة إلى أن تناولتـه من الأدب والحبس بمـا لم أحب أن أكون أتنـاوله بـه وقد وصفت لي بخـير ونسبت إلى جميل فأحببت أن أرفع قدرك وأعلي منزلتك وأقدمك على أهل بيتـك وأن أوليك جهـاد هذه الفئة الباغية الناكثة وأعرضك للأجر والثواب في قتالهم ولقائهم فانـظر كيف تكـون وصحح نيتـك وأعن أمير المؤمنـين على اصـطناعـك وسره في عـدوه ينعم سرورك وتشريفك. ثم أمر الفضل أن يدفـع إليه دفـاتر أسـد وأن يضم إليه من شهـد العسكر من رجـال الجزيـرة والأعراب ـ فخـرج أحمـد فـانتخب الـرجـال واعترض الدفاتر فبلغت عدة من معه عشرين ألف رجل ـ ووجه الأمين عبد اللّه بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً أخرى وأمرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهـراً عنها وتقدم إليهما في اجتماع الكلمة والتواد والتحاب على الـطاعة ـ فتـوجها حتى نزلا قريباً من حلوان بخانقين.

أمـا طاهـر فإنـه أقام بمـوقعه وخنـدق عليه وعـلى أصحابـه ودس العيـون والجواسيس إلى عسكري عدوه فكانوا يأتونهم بالأراجيف ولم يزل يحتال في وقـوع الخلاف بينهم حتى اختلفوا وانتقض أمرهم وقاتل بعضهم بعضاً فـأخلوا خانقـين ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهراً فتقـدم طاهـر حتى نزل حلوان. ثم لم يلبث إلا قليلا حتى ورد عليه هرثمة بن أعين أحد قواد المأمـون، ومعه كتـاب المأمـون والفضل بن سهل يأمره فيـه بتسليم ما حـوى من الكور والمـدن إليه ويتـوجه إلى

الأهواز فسلم ذلك إليه وأقام هرثمة بحلوان فحصنها ووضع مسالحه ومراصده في طرقها وجبالها وتوجه طاهر إلى الأهواز ليكون الهجوم على بغداد من جهتين.

كان من سوء حظ الأمين أن عبد اللّه بن صالح بن علي الذي كان الرشيد قد حبسه خلصه الأمين من سجنه فعد ذلك فضلاً منه وأراد مساعدته فطلب إليه أن يوليه الشام والجزيرة ليحضر إليه جنداً من العرب قد ضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد فولاه ذلك فلما وصل إلى الرقة أنفذ كتبه إلى رؤساء الأجناد بالشام ووجوه الجزيرة فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعده وبسط له في آماله وأمنيته فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس وجماعة بعد جماعة وأتاه أهل الشام الزواقيل والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده.

حصلت مشكلة تافهة بين جندي خراساني وجندي من الزواقيل، فتعصب لكل جماعته تعصباً أدى إلى التلاحم واستعد الأبناء وآتوا الزواقيل وهم غارون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فتنادى الزواقيل وركبوا ونشبت الحرب بين الفريقين وكان عبد الملك بن صالح إذ ذاك مريضاً فوجه إليهم رسولاً يأمرهم بترك الحرب فرموا رسوله بالحجارة ولما أخبر بكثرة من قتل من العرب قال واذلاه تستضام العرب في دارها ومحلها وبلادها. فكان ذلك بمثابة محضاً حرك إلى الشر من لم يركب من الأبناء وقام بأمرهم الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان. فلما رأى ذلك أهل الشام أجمعوا أمرهم على الرحيل إلى بلادهم فرحلوا قائلين الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري وأقام الحسين بمن معه من الأبناء.

انتهت هذه الفكرة بالفشل ولم يقف شرها عند هذا الحد فإن الحسين بن علي نادى في عسكره بالرحيل قاصداً بغداد فلما وصلها حض الأبناء الذين معه على خلع الأمين فأجابوه فتوجه بهم حيث يقيم الأمين ونادوا بخلعه في ١١ رجب سنة ١٩٦ وأخذوا البيعة للمأمون في ثاني عشره وغدا في الثالث عشر إلى الأمين في قصره وأخرجه منه محبوساً.

خاف كبار الأبناء تقدم علي بن عيسى فقام محمد بن أبي خالد وقال أيها الناس ما أدري بأي سبب يتآمر علي بن الحسين علينا ما هو بأكبرنا سناً ولا

أكـرمنا حسبـاً ولا أعظمنـا منزلـة وإني أولكم نقض عهـده فمن كـان عـلى رأيي فليعتزل معي وقام أسد الحربي ودعـا من معه من الحـربية إلى القيـام بأمـر محمد وفكه فتأثـر الأبناء من هـذه الأقوال وسـاروا إلى الحسين بن عـلي فأسـروه ودخل أسد الحربي إلى الأمين ففك قيوده وأقعده في مجلس الخلافة وأتى الأمـين بالحسـين بن علي فلامه على ما كان منه مع إحسـانه إليـه وإلى أبيه وأخيـراً عفا عنـه ولكن ذلك لم يفد فإنه بعد العفو حالو الهرب من بغداد فأدرك وقتل.

هذه حال الاضطراب في جند الأمين أما جنـد المأمـون فكان عـلى العكس من ذلك كان هادئاً منتظماً لا تزيده الأيام قوة. انقسم إلى قوتـين قوة مـع هرثمـة بن أعين تريد بغداد من جادة المشرق وقوة مع طاهر بن الحسـين تريـد بغداد من جادة الأهواز والبصرة.

ذهب طاهر إلى فارس فاستولى عليها بعد أن أوقع بعاملها محمـد بن يزيـد المهلبي وقعة شديدة بسوق الأهواز وقتل محمد بن يزيد وكان تـرتيب جند طـاهر في مسيره وحربه حائزاً الغاية من النظام والاحتـراس فضلاً عـما حازه من الاسم الكبير الذي يفت في الأعضاد.

أقام بفارس مدة أنفذ فيها العمال إلى الكور وولي على اليمـامة والبحـرين وعمان مما يلي الأهواز ومما يلي عمـل البصرة ثم سـار متوجهـاً إلى واسط فجعلت المسالح والعمـال تتقوض مسلحـة مسلحة وعـاملاً كلما قـرب منهم طاهـر تركـوا أعمالهم وهربوا عنها حتى قرب من واسط فهرب عنها عاملها قائلاً إنه طاهـر ولا عار في الهرب منه دخل طاهر واسطاً ومنها وجه قائداً إلى الكوفـة وعليها العبـاس بن موسى الهادي فبادر إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون، وأرسل بذلك إلى طاهـر فتم له ما بين واسط إلى الكوفـة وأنفذ كتب التـولية إلى العمـال، وكذلـك بايـع المأمون أمير البصرة وهو المنصور بن المهدي وكان ذلك كله في رجب سنة ١٩٦.

ثم سار طاهر إلى المدائن فاستولى عليها من غير قتال.

في تلك الأثناء حصل في الحجاز ما زاد المأمون قـوة والأمين خـذلاناً ذلـك أن داود بن عيسى كان عاملاً للأمين على مكة والمدينـة فلما بلغه مـا فعل الأمـين

من خلع المأمون وأخذه الكتابين اللذين كانا بجوف الكعبة وتمزيقهما جمع حجبة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد على ما في الكتابين من الشهود وكان داود أحدهم فذكرهم بما كان الرشيد أخذ عليهم من العهود أن يكونوا مع المظلوم من ولديه على الظالم وأخبرهم أن محمداً كان الذي قد بدأ بالظلم فخلع أخويه وبايع لابنه الصغير لذلك رأيت خلعه وأن أبايع للمأمون فأجابه إلى ذلك أهل مكة وفي ٢٧ رجب سنة ١٩٦ نادى داود في البيت الحرام بخلع الأمين وبيعة المأمون ثم كتب إلى ابنه سليمان وهو خليفة على المدينة يأمره أن يفعل بها فعل أهل مكة فعل. ولما تم ذلك سار داود بنفسه إلى مرو وأعلم المأمون بما تم في الحجاز فسر المأمون جد السرور وتيمن ببركة مكة والمدينة وكتب إلى أهل الحجاز كتباً يعدهم فيها الخير ويبسط أملهم وأقر داود على ولاية الحجاز فعاد مغذاً ليدرك الحج ومر وهو عائد على طاهر بن الحسين فوجه معه يزيد بن جرير القسري والياً على اليمن وكان يزيد هذا داعية أهل اليمن إلى بيعة المأمون فأجابوه:

اجتمعت جيوش طاهر، وهرثمة حول بغداد وحوصرت من ثلاث جهات فنزل هرثمة نهر بين وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الأنبار ونزل المسيب بن زهير قصر رقة كلواذي. وقد نصب المسيب المجانيق والعرادات واحتفر الخنادق وجعل يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمي بالعرادات من أقبل ومن أدبر، ويعشر أموال التجارة ويجبي السفر وبلغ من الناس كل مبلغ.

أحس محمد بالضيق ومنعت عنه الأموال فأمر ببيع كل ما في الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم وحملها لأصحابه في نفقاته.

وقد قاست هذه المدينة العظمى ودرة تاج الخلافة العباسية من هذا الحصار ما لم يكن يخطر لأحد على بال من الهدم والتحريق وسفك الدماء والجوّع الشديد حتى درست محاسنها وكادت تمحي معالمها ونطقت ألسن شعرائها بوصف ما عليه الناس من الأحزان والمحن التي لا تحتمل وأحسنهم في ذلك عمرو بن عبد الملك العتري الوراق فما قاله:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكوني زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... كان قربهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا ... ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أستودع اللّه قوماً ما ذكرتهم ... إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم ... والدهر يصدع ما بين الفريقين

وقال بعض فتيان بغداد:

بكيت دما على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموماً من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
وقال العتري : بها من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم احرقوا بالنار قسراً ... ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي واصباحا ... وباكية لفقدان الشفيق
حوراء المدافع ذات دل ... مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى التهاب ... ووالدها يفر إلى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها ... مضاحكها كلألأة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات ... عليهن القلائد في الحلوق
ينادين الشفيق ولا شفيق ... وقد فقد الشفيق من الشفيق
وقوم أخرجوا من ظل دنيا ... متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى ... بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً ... فما يدرون من أي الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه ... وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنس من شيء تولى ... فإن ذاكر دار الرقيق

وكان الأمين قد استعان في حروبه بالعيارين والشطار والمسجونين من أهل بغداد فكان الشر الذي أصاب المدينة منهم أكثر مما أصابها من العدو المهاجم وللخزيمي قصيدة طويلة تبلغ ١٣٥ بيتاً يصف فيها ما أصاب بغداد ويذكر أسباب تلك النكبات التي حلت استوفاها الطبري في الجزء العاشر من تاريخه صحيفة ١٧٦ وما بعدها من طبع مصر يقول فيها:

يـــا بـــؤس بـغـــداد دار مملـكـــة ... دارت عـــلى أهـــلهـــا دوائـــرهـــا
أمـهـلهـــا الـــلّه ثـم عـــاقـــبـهـــا ... لمـــا أحـــاطـت بهـــا كبـائـــرهـــا
بـالخسف والقذف والحـريق وبـالـ ... ـحـرب التي أصبحت تسـاورهـــا

ثم قال:

رق بهـا الدين واستخف بـذي ... الفضـل وعز النسـاك فاجـرها
وخـــطم العبـــد أنـف سيـــده ... بـالرغم واستعبـدت مخـادرهـا
وصـار رب الجيـران فـــاسقهم ... وابـتز أمـر الـدروب زاعـرهـــا

+ءءالله : ء

الـنـــاس في الهـــدم وفي الانـتـــقـــال ... قـــد عـــرض الـنـــاس بقيـــل وقـــال
يـــا أيهـــا الـســـائـــل عـــن شـــأنهم ... عـينـــك تـكـفـيـــك مكـــان الـسؤال
قـــد كـــان لـلرحمـن تـكـبـيـــرهـــم ... فـــالـيـــوم تـكـبـيـــرهـــم لـلقـتـــال
أطـــرح بـعـيـنـيـــك إلى جمـــعـهـــم ... وانـتـــظر الـــروح وعـــد الـلـيـــال
لم يـبـــق في بـغـــداد إلا امـــرؤ ... حـــالـفـــه الفـقـــر كـثـــير الـعـيـــال
لا أم تحـــمـــي عـــن حمـــاهـــا ولا ... خـــال لـــه يحـــمي ولا غـــير خـــال
لـيس لـــه مـــا ل ســـوى مـطـرد ... مـطرده في كـفـــه رأس مـــال
هـــان عـــلى الـــلّه فـــأجـــرى عـــلى ... كـفيـــه لـلشـقـــوة قـتـــل الـــرجـــال
إن صـــار ذا الأمـــر إلى واحـــد ... صـــار إلى القتـــل عـــلى كـــل حـــال
مـــا بـــالـنـــا نـقـتـــل مـن أجـلهـم ... سـبحـــانـــك اللهم يـــا ذا الجـــلال

استمرت هذه الشدائد على بغداد وما فيها حتى استنفذ الأمين كل وسائل الدفاع أيقن بالعطب إن هو استمر على الممانعة فاستشار من بقي من قواده فأشار عليـه بعضهم أن يطلب لنفسـه الأمان من هـرثمـة بن أعـين ويسلم لـه فـرضي وكتب إلى هرثمة بذلك فأجابه إليه ولما علم طاهر أبى إلا أن يكون خـروجه إليـه إذا شاء ولما لم يكن الأمين ميالاً إلى الخروج إلى طاهر اتفق القواد أن يخرج ببدنـه إلى هـرثمة وأن يـدفع إلى طـاهر الخـاتم والقضيب والبـردة ثم علم طـاهـر أنهم يمكرون به فاستعد لـلأمر وكمن حـول القصر كمناء بـالسلاح فلما خـرج الأمين

كـانت حراقـة هرثمـة تنتظره فـركبها ولم تسر بهم إلا قليـلاً حتى خرج أصحـاب طاهر فرموا الحراقة بـالسهام والحجـارة فانكفـأت الحراقـة وغرق هـرثمة ومحمـد الأمين فأما هرثمة فأدركه أصحابه وأما محمد فسبح في المـاء حتى أدركه أصحـاب طاهر فأسروه فأمرهـم طاهر بقتله فقتـل ليلة الأحد لخمس بقـين من المحرم سنـة ١٩٨ وفي الصباح كتب طاهر إلى المأمون يخبره بما تم وبالأسباب التي جعلته يأمر بقتل الأمين. ثم دخل طاهر المدينة فأمن أهلها وهدأ النـاس وكان دخـوله إليهـا يوم الجمعة فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغـة حضهم فيها عـلى الطاعـة ولزوم الجماعة، ورغبهم في التمسك بحبل الطاعة وانصرف إلى معسكره.

بـذلك انتهى الفصـل الأول: من هذه الحـادثة الشنيعـة التي فرقت بـين الأمة، وأحدثت هذه الثورة الهائلة.

أمـا سببها وتبعتهـا فعائـدان إلى هارون الـرشيد أولاً، ثم إلى الفضـل بن الربيع ثانياً، أما الرشيد فإنه غلط في فعله غلطات. الأولى: أنه ولى عهـده أولاً محمد الأمين والمأمون أسن منه. ولم يكن ما يزيد الأمين إلا أنه ابن زبيدة. وليس هذا من الأسباب المـرجحة في نـظر العقلاء. وإنمـا هو مـرجح في نـظر الضعفاء الذين يتأثرون بالهوى، الثانية: أنه لما أحس بهذه الغلطة أراد مـداواتها ففعـل ما يزيدها شراً بتولية المأمون للعهد بعد الأمين، ولم يقتصر على مجرد توليه العهد بل أعطاه من الامتيازات ما يجعله مستقلاً، تمام الاستقلال، بـأمر خـراسان والـري عن أخيـه الأمين، ومن المعلوم أنـه كلما كثرت الامتيـازات، كثـرت المشـاكـل، وأسباب الفساد، والأمين والمأمـون وإن كانـا أخوين يتنـافسان فـالأول، يميل أن يتمتع بسلطان الخلافة التام، والثاني يميل أن يتمتع بامتيـازاته تمـاماً، ولكـل منهما جيش يتصرف فيه، كما يرغب فلم يكن يظن أن يبقى لهذين صفـاء متى حانت وفاة الرشيد، وقد أدرك المفكرون ذلك في حياته؛ الثالثة: أنه لم يقتصر عليهما في ولاية العهد فأضاف إليهما أخاً ثالثاً وأعطاه من الامتيازات: الجزيرة وأرمينية: ما أعطى المأمون في خراسان، فجرأ ذلك الأمين عـلى نقض العهد لأنـه نظر فـرأى نفسه مقصوص الجناحين، منزوعاً منه السلطان في أعظم بقـاع الإسلام وأكثـرها أعواناً وجنداً، الرابعة: أنه اغتر بالفضل بن الربيع الذي جرأه على إفساد ملكه،

بقتل البرامكة والحرمان من مقدرتهم وكفاءتهم ولم يتبين خبث نية الرجل واستمر على الاستعانة به حتى عاد سيرته الأولى في عهد الأمين فإنه هو الذي اجتهد في إغرائه بأخيه لأنه ظن أن المأمون إذا تولى أخذه بتبعة نكثه لعهده مع الرشيد وسيره بالجنود التي كانت مع الرشيد إلى بغداد، مع أن الرشيد عهد بها إلى المأمون فما زال يحتال في الإفساد حتى أوقع هذه الاضطرابات. ولما اشتد الأمر على الأمين لم يفده فائدة بل اختفى وكان (كمثل الشيطان، إذ قال للإنسان اكفر لما كفر قال إني بريء منك إني أخاف اللّه رب العالمين)[1].

يضاف إلى ذلك كله ما في طباع الخلفاء من ميلهم إلى أن يكون بعدهم في الخلافة أبناءهم فهم يحتالون بكل ما في وسعهم إلى إخراج إخوتهم أو بني أعمامهم من العهد إن كان، ولم نر خليفة له ابن فلم يسع له ذلك السعي ولم نجد عهداً أو عقداً منع من ذلك حتى كان هذا مجرئاً للخلفاء على عدم الاعتناء بالعهود المكتوبة وصاروا يفتحون لها من أبواب الحيل ما يبيح لهم عدم التمسك بها والرشيد نفسه يعلم ذلك بما وقع له من أخيه الهادي وقد كاد يظفر به ويخرجه من ولاية العهد لولا أن المنية غلبت مع أن الرشيد لم يكن له شيء من الامتياز أعطاه إياه المهدي أبوه، نسأل اللّه السلامة من عدم الاعتبار والاتعاظ فهما المهلكة العامة.

صفات الأمين:

امتدت ألسنة الكتاب والشعراء بعد خلع الأمين وقتله إلى القدح إليه وتعديد مثالبه التي أودت به وهذه سنة قديمة أن الناس مع من يساعده القدر فهم أبداً مع القاهر على المقهور، لأن للقوة سلطاناً على النفوس، لا يغالب، وهذا نموذج مما قيل في هجاء الأمين:

لم نبكيك لماذا للطرب ... يا أبا موسى وترويج اللعب
ولترك الخمس في أوقاتها ... حرصاً منك على ماء العنب
وشنيف أنا لا أبكي له ... وعلى كوثر لا أخشى العطب

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٦.

لم تكن تعرف ما حد الرضا | لا ولا تعرف ما حد الغضب
لم تكن تصلح للملك ولم | تعطك الطاعة بالملك العرب
أيها الباكي عليه لا بكت | عين من أبكاك إلا للعجب
لم نبكيك لما عرضتنا | للمجانيق وطوراً للسلب
ولقوم صيرونا أعبدا | لهم يبدو على الرأس الذنب
في عذاب وحصار مجهد | سدد الطرق فلا وجه طلب
زعموا أنك حي حاشر | كل من قد قال هذا قد كذب
ليت من قد قاله في وحدة | من جميع ذاهب حيث ذهب
أوجب اللَّه علينا قتله | فإذا ما أوجب الأمر وجب
كان واللَّه علينا فتنة | غضب اللَّه عليه وكتب

ومع هذا فقد رثاه كثير من الشعراء ومدحوه وسنترك هذا وهذا ونفحص صفاته من أعماله.

أول ما عرف من عمل الأمين إرادته الغدر بأخيه والرمي بعهد الرشيد وراء ظهره، فقد أخذ العهدين من البيت الحرام ومزقهما تمزيقاً غير ناظر إلى ما وراء ذلك من العواقب الوخيمة في نظر الجمهور، إذ ليس أعظم في نظر المسلم من انتهاك حرمة البيت المقدس، ولا انتهاك أعظم من إفساد أمر دبر فيه، وجعل البيت الحرام حارساً عليه على أن الغدر في ذاته بقطع النظر عن ذلك كله قبيح وضار بحياة الأمة الأدبية فلا غرابة أن رأينا جمهور الأمة في صف أخيه.

ولما دخل هذا المدخل الوعر المسلك لم يسر فيه بشيء من الحزم ولا بعد النظر بل كان أول قائد ولاه حرب أهل خراسان أعدى عدو لهم من جربوه فوجدوه ظالماً عاتياً يستحل أموالهم ويضرب أبشارهم وهو علي بن عيسى، بن ماهان أمير خراسان في عهد الرشيد فكان ذلك مما زاد أهل خراسان جداً في محاربته والضربة الأولى مما يدخل الوهن والخذلان على المضروب ويزيد في حماسة الغالب، وتفاؤله بالمستقبل.

ومع هذا الغلط كان الأمين مشتغلاً عن تدبير أمره، بما كان فيه من اللهو والعبث شتان بين تدبيره وتدبير أخيه فبينا كان هو على هذا الطريق، كان أخوه

المأمون بمرو يجمع إلى مجلسه العلماء، والفقهاء، ويجلس معهم، كما يجلسون ويتكلم معهم في الفقه والأدب والحديث، حتى أشربت قلوبهم محبته ولا يخفى ما لهذا من التأثير في قلوب الجمهور.

يقال إن محمداً لما تولى وجه إلى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ونافس في ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك واحتجب عن أخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر، في خصيانه وجلسائه ومحدثيه وحمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته، ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد، والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذي وباب الأنبار ونباري والهوب وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس، وأنفق في عملها مالاً عظيماً فقال أبو نواس يمدحه:

سخر الله للأمين مطايا — لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سر برا — سار في الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يهوي — أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو — ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوك على صو — رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه — كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجنا — حين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما اس — تعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمين وأبقا — ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه — هاشمي موفق للصواب

جميع ما وقفنا عليه من أخبار الأمين وسيره أنه كان يميل جداً إلى اللهو والغناء والشرب حتى أقعده ذلك عن التدبير لأموره. هذا مع أنه ممتاز على بني العباس قاطبة بأنه هاشمي الأبوين، ولكن ليس بحسن الأنساب تعلو الرجال وإنما علوها بحسن الفعال.

٧ ـ المأمون

هو عبد اللّه المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي. وأمه أم ولد اسمها مراجل ولد سنة ١٧٠ في اليوم الذي ولي فيه أبوه الخلافة. وولاه أبوه العهد وسنه ١٣ سنة بعد أخيه الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ومنحه بمقتضى الشروط التي عقدها استقلالاً يكاد يكون تاماً، ولما توفي أبوه لم يف له أخوه بوعده بل أراد أن يقدم عليه في ولاية العهد ابنه موسى فأبى ذلك المأمون وكان من وراء ذلك الحرب الفظيعة التي قصصنا خبرها وهي التي انتهت بقتل الأمين في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣).

بويع المأمون بالخلافة العامة في ذلك التاريخ واستمر خليفة إلى أن توفي غازياً بطرسوس في ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٣٢) فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام. أقام منها ببلاد خراسان من تاريخ ولايته إلى منتصف صفر سنة ٢٠٤ وهو تاريخ قدومه بغداد وأقام الباقي ببغداد حاضرة الخلافة العباسية.

وكان يعاصره في بلاد الأندلس الحكم بن هشام ثالث أمراء بني أمية (١٨٠ ـ ٢٠٦) ثم ابنه عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ ـ ٢٣٨).

ويعاصره في بلاد المغرب الأقصى إدريس بن إدريس بن عبد اللّه سنة (١٨٨ ـ ٢١٣) ثم ابنه محمد بن إدريس (٢١٣ ـ ٢٣١).

ويعاصره في إفريقية من بني الأغلب عبد اللّه بن إبراهيم بن الأغلب

(١٩٦ ـ ٢٠١) ثم ابنه زيادة اللّه بن إبراهيم فاتح صقلية (٢٠١ ـ ٢٢٣).

ويعاصره في فرنسا شارلمان صديق أبيه وقد توفي سنة ٨١٤ ثم ليون الأول الملقب باللين.

ويعاصره في القسطنطينية ليون الأرمني (٨١٣ ـ ٨٢٠) ثم ميخائيل الثاني الملقب بالتام ثاني مرة (٨٢٠ ـ ٨٢٩) ثم ابنه توفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢).

الأحوال في المدة الأولى:

لما تم الأمر للمأمون بالعراق على يد القائدين العظيمين طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين كان الذي يدير الأمر بمرو الفضل بن سهل الذي يرى لنفسه الفضل الأكبر في تأسيس دولة المأمون فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدي طاهر وهرثمة فأصدر أمرين على لسان المأمون أولهما بتولية الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن. وكتب إلى طاهر أن يسلمه جميع ما بيده من الأعمال وأن يشخص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب فلم يسع طاهراً إلا أن يسمع ويطيع فسلم ذلك كله.

والأمر الثاني إلى هرثمة يأمره بالشخوص إلى خراسان فشخص ـ وبذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولا سيما أنهم خارجون من ثورة وهيجان فكان من اللازم أن تظل تلك الأيدي المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا.

ولم يبق المأمون بعد ذلك بخراسان. هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول الخلافة الإسلامية إلى مرو، فيجعلها حاضرة البلاد الإسلامية، لو رأى أن نفوذه يضعف إذا حل الخليفة بغداد وبها الألسنة التي لا تمل الوشايات فخشي من ذلك على مركزه سواء كان السبب في تخلفه هذا أو ذاك فقد نتج عن هذا التدبير مضار شديدة واضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثراً بعد عين؟

شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل أن الفضل بن

سهل قد غلب على المأمون وأنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته، ووجوه قواده وأنه يبرم الأمور على هواه فغضب لذلك من كان بالعراق من بني هاشم ووجوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون، واستخفوا بالحسن بن سهل وهاجت الفتن في الأمصار وأول فتنة كانت خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي خرج بالكوفة وقام بأمر رجل كبير من رجال هرثمة بين أعين وهو أبو السرايا السري بن منصور الشيباني فاستولى على الكوفة من يد نائب عاملها سليمان بن أبي جعفر المنصور، فأرسل إليه الحسن بن سهل جيشاً يقوده زهير بن المسيب عشرة آلاف فهزمه أبو السرايا واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسلاح ودواب وفي غد ذلك اليوم مات محمد بن إبراهيم فجأة وذلك يوم الخميس أول رجب سنة ١٩٩ فولى أبو السرايا بدله غلاماً أمرد حدثاً وهو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي وكان أبو السرايا هو الذي ينفذ الأمور ويولي من رأى ويعزل من شاء وإليه الأمور كلها.

أرسل الحسن جيشاً ثانياً بقيادة عبدوس بن محمد بن أبي خالد المروروذي فتوجه إليه أبو السرايا وأوقع به وقعة في ١٧ رجب سنة ١٩٩ فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلت منهم أحد.

انتشر بعد ذلك الطالبيون في البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[1].

أفاق الحسن بن سهل من غفلته لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئاً وكلما وجه أحدهم لحرب أبي السرايا عاد مهزوماً فوجه فكرته إلى هرثمة بن أعين مفضلاً إياه على طاهر بن الحسين وكان هرثمة قد توجه إلى خراسان مغاضباً للحسن بن سهل وكان قد وصل حلوان فبعث إليه يسأله الانصراف إلى بغداد لحرب أبي السرايا فأبى فأعاد عليه الرسالة متلطفاً فأجاب وانصرف إلى بغداد

(١) سورة الصف: الآية ٤.

فقدمها في شعبان سنة ١٩٩ وتهيأ للخروج إلى الكوفة وتهيأ معه جند اختاره فمر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبي السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة فقتل من أصحاب أبي السرايا مقتلة عظيمة. ثم ألح عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادراً على حماية الكوفة التي هي قاعدة أعماله فهرب عنها هو ومن معه من الطالبيين وسار إلى القادسية في محرم سنة ٢٠٠ ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها ولم يعرض لأحد منهم ثم بارحها مساء ذلك اليوم.

وترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس فلقيه هناك الحسن بن علي الباذغيسي المعروف بالمأمون فقاتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جرحاً شديدة فهرب مريداً منزله برأس العين من الجزيرة فعثر به في الطريق هو ومن معه وجيء بهم إلى الحسن بن سهل وكان مقيماً بالنهروان فضرب عنقه، وصلب جسده ببغداد. وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر.

ثم أخذت البصرة من يد عاملها لأبي السرايا وهو زيد بن موسى بن جعفر وكان يقال له زيد النار لكثرة ما أحرق من دور البصرة. وكان إذا أتى برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار فأخذ أسيراً وأمن.

وكان للطالبيين في تلك الفتن أسوأ أثر بمكة والمدينة فإن أبا السرايا كان قد ولى مكة حسين بن حسن بن علي بن الحسين بن علي وكان بها داود بن عيسى بن موسى العباسي والياً فلم يرض القتال في الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة ولما تفرق الحاج من مكة جلس خلف المقام على نمرقة مثنية فأمر بثياب الكعبة التي عليها فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئاً ثم كساها ثوبين من خز رقيق كان أبو السرايا وجه بهما معه مكتوب عليهما (أمر به الأصفر بن أبي الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم وكتب سنة ١٩٩) ثم قسم الكسوة التي كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد إلى ما في خزانة الكعبة من مال فأخذه ولم يسمع بوديعة عند أحد لبني العباس وأتباعهم إلا هجم عليه في داره فإن وجد من ذلك شيئاً أخذه وعاقب الرجل وإن لم يجد

عنده شيئاً حبسه وعذبه حتى يفتدي نفسه بقدر طوله ويقر عنده الشهود أن ذلك للمسودة من بني العباس وأتباعهم حتى عم ذلك خلقاً كثيراً وكان لهم دار اسمها دار العذاب يعذب فيها الناس حتى هرب منهم خلق كثير من أهل النعم فيتبعوهم بهدم دورهم وجعلوا يحكون الذهب الرقيق الذي في رؤوس أساطين المسجد فيخرج من الأسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه حتى عم ذلك أكثر أساطين المسجد الحرام وقلعوا الحديد الذي على شبابيك زمزم وخشب الساج فبيع بالثمن الخسيس.

وما زالوا على تلك الحال حتى بلغهم قتل أبي السرايا وأن من بالكوفة والعراق من الطالبيين قد طردوا فاجتمعوا إلى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخاً وادعا محبباً في الناس مفارقاً لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة وكان يروي العلم عن أبيه وطلبوا إليه أن يبرز شخصه ليبايعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر إليه الناس فبايعوه طوعاً وكرهاً وسموه أمير المؤمنين. فأقام على ذلك أشهراً وليس له من الأمر إلا اسمه. وابنه علي وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلاً حتى تعدوا الأموال إلى الأعراض.

أراد اللّه أن يفرج عن أهل مكة ما هم فيه فقدم عليهم إسحاق بن موسى بن عيسى مقبلاً من اليمن فقاتل العلويين، أياماً ثم بارح مكة فلقيه البعث الذي أرسله هرثمة لتخليص مكة فعاد معهم وكان رئيس البعث ورقاء بن جميع فقاتلوا العلويين حتى هزموهم وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاؤوا فأجيبوا وأمهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت الجنود العباسية مكة وذهب كل فريق من العلويين إلى ناحية.

أما في اليمن فكان قد خرج فيها إبراهيم بن موسى بن جعفر وكان واليها إسحاق بن موسى بن عيسى فلما سمع بإقبال إبراهيم ترك له صنعاء وانصرف مقلداً عمه داود بن عيسى في مكة فاستولى إبراهيم على اليمن وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس. وفي موسم سنة ٢٠٠ وجه بعض ولد عقيل بن أبي طالب من اليمن في جند كثيف ليحج بالناس وكان الذي ولي إمره الحج من العباسيين أبا إسحق بن الرشيد ومعه كثير من القواد فلما وصل العقيلي

إلى بستان ابن عامر بلغه أمر من بمكة فتوقف بالبستان فمرت به قافلة من الحاج والتجار وفيها كسوة الكعبة وطيبها فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها وقدم الحاج مكة عراة مسلبين بلغ أبا إسحق أمر العقيلي فأرسل إليه أحد قواده فلقيه بالبستان فأسر أكثر من معه وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ورد إلى الحاج ما كان أخذ منهم وعاد بكسوة الكعبة ثم عاقب كلاً من هؤلاء الأسرى بعشرة أسواط وخلاهم فذهبوا يستطعمون الناس في الطريق حتى هلك أكثرهم جوعاً.

انتهت هذه الفتن العلوية التي عادت بالضرر على البلاد والعباد والفضل في انتهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحنك. ولما فرغ هرثمة من أداء تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال، وما ينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره ولم يكن مما يروق في عين الفضل فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وأنه هو الذي دس إلى أبي السرايا حتى صنع ما صنع ولو شاء أن لا يفعل ذلك أبو السرايا ما فعل لأنه كان من ضمن جنوده. وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتاباً من الطريق ليرجع ويلي الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال فكان ذلك مما زاد المأمون وحشة منه. ولما بلغ هرثمة مرو خشي أن يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كي يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة جاء يبرق ويرعد وظن هرثمة أن قوله المقبول فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ما أشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجيء عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه. وقد تقدم الفضل إلى الأعوان بالتغليظ عليه والتشديد فمكث في حبسه أياماً ثم دسوا إليه فقتلوه، وقالوا إنه مات هكذا ذهب القائد العظيم من غير جناية ضحية خبث البطانة.

ولما بلغ أهل بغداد ما صنع بهرثمة هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن بن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون. ولم يكن عند الحسن ما يقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه. ثم عمد أهل بغداد إلى منصور بن المهدي وطلبوا إليه أن يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون فأبى ذلك عليهم

فطلبوا إليه أن يكون عليهم أميراً وأن يدعو للمأمون وقالوا لا نرضى بالمجوسي الحسن بن سهل ونطرده حتى يرجع إلى خراسان فقبل وتولى أمر بغداد إلا أنها على كل حال كانت خالية من جيش قوي يأخذ على أيدي المفسدين من أهلها فنتج عن ذلك الفساد الشديد فإن فساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذىً شديداً وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك لا سلطان يمنعهم لأن السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتكبونه وكانوا يجبون المارة في الطريق والسفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم! رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صلحاء كل ربض وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا إنما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحداً لقمعتم هؤلاء الفساق. فقام رجل من ناحية طريق الأنبار اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأجابوه إلى ذلك وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم. وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان وكان لا يرى من حقه الاعتداء على السلطان. ثم قام من بعده آخر اسمه سهل بن سلامة الأنصاري فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلق مصحفاً في عنقه ثم بدأ بأهل جيرانه ومحلته فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعاً إلى ذلك الشريف منهم والوضيع بني هاشم ومن دونهم وجعل له ديواناً يثبت فيه من أتاه منهم فبايعه على ذلك خلق كثير ثم طاف بغداد وأسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبي المارة وقال لا خفارة في الإسلام - والخفارة أن يأتي الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول بستانك في خفري أدفع عنه من أراده بسوء ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً فيعطيه ذلك شاء أم أبى.

لم يكن سهل والدريوش على وفاق لأن مقصد الدريوش كان معاونة السلطان في القبض على أيدي المفسدين. ولا يعيب عليه شيئاً ولا يقاتله ولا يأمره بشيء ولا ينهاه أما سهل فيظهر أنه كان ذا أطماع قال إني أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطاناً كان أوسوقة فقد جعل نفسه بذلك فوق الجميع وكثرت أتباعه حتى خافه الولاة وخافة منصور المهدي الذي أقامه العراقيون أميراً.

ونحن نرى أن عمل هذين الرجلين وتكوين هذه الجمعية من أحسن ما يفكر فيه العقلاء في مثل ظروفهم لأن ذلك منع من وجود الفتنة الأهلية التي تقارن هذه المفاسد عادة.

كل ذلك كان والمأمون في مرو لا يصل إليه شيء من أخبار حاضرة الخلافة وقد حجبه الفضل بن سهل فلا يوصلِ إليه ما يشتهي.

ومما كان في تلك الآونة أن المأمون اختار لولاية عهده علياً الرضا بن موسى بن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة الذي اختاره شعاراً للدولة الجديدة وكتب بذلك إلى الآفاق ويغلب على الظن أن هذا من عمل الفضل بن سهل لأن الفرس يعجبهم أن يكون إمام المسلمين علوياً وطالما قاتلوا في سبيل رجوع السلطان إلى بني علي وهذه فرصة يأخذون فيها الخلافة من غير حرب ولا قتال وساعد على ذلك ما كان يراه المأمون نفسه من تفضيل علي على غيره من الخلفاء الراشدين وأنه كان أحق بالخلافة منهم ولا نرى ذلك جاء المأمون إلا من البيئة التي تربى فيها فإنه كان في أول أمره في حجر جعفر البرمكي ثم انتقل إلى الفضل بن سهل وكلهم ممن يتشيع فاختمرت عنده هذه الفكرة على غير ما كان عليه آباؤه.

بلغ ذلك أهل بغداد فاختلفوا فقال بعضهم نبايع ونلبس الخضرة وقال بعضهم لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس وإنما هذا دسيس من الفضل بن سهل فمكثوا على ذلك أياماً وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم إلى بعض وتكلموا فيه وقالوا نولي بعضنا ونخلع المأمون

واتفقوا أخيراً على مبايعة إبراهيم المهدي عم المأمون بالخلافة وخلعوا المأمون وكان ذلك في أول المحرم سنة ٢٠٢ فتغلب إبراهيم مع أهل بغداد على الكوفة والسواد كله وعسكر بالمدائن وولى الجانب الشرقي من بغداد العباس بن الهادي والجانب الغربي إسحاق بن االهادي وتغلب علىٰ سهل بن سلامه المتطوع بغد أن تركه من معه.

بلغت هذه الأحوال المأمون ويقال إن الذي أبلغه إياها علي الرضا ولي عهده فإنه أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء فبايعوا لإبراهيم بن المهدي بالخلافة ـ فقال له المأمون إنما بايعوه ليكون أميراً لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل ـ فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين إبراهيم بن المهدي والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك وسمى له عدة من القواد يشهدون بما قال فأحضرهم المأمون وسألهم فأخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أمانا من الفضل بن سهل وأخبروه بما موّه عليه الفضل في أمر هرثمة وأن هرثمة إنما جاء ناصحاً ليبين له ما يعمل وأنه إن لم يتدارك الأمر خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته، ما أبلى حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله وصير في زاوية في الأرض بالرقة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما اجترىء به على الحسن بن سهل، وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد فإن بني هاشم والموالي والقواد والجنود لو رأوك سكنوا وفاءوا بالطاعة لك.

لما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل بل عاقبهم بالحبس والطرد فراح علي الرضا إلى المأمون وأعلمه بما كان من ضمانه لهم فأعلمه أنه يداري ما هو فيه.

ارتحل المأمون من مرو حتى سرخس وهناك شد قوم على الفضل بن سهل

وهو في الحمام فضربوه بسيوفهم حتى مات وذلك في ٢ شعبان سنة ٢٠٢ فأخذ ضاربوه وهم أربعة من خدم المأمون فلما جيء بهم إليه قالوا أنت أمرتنا بقتله فأمر بهم فضربت أعناقهم. وسوابق العلة تؤكد أن صدورها كان بتدبير المأمون لأنه أحس بثقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وأنه ما دام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة فاحتال بهؤلاء الخدم ثم قتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره أنه صيره مكانه.

رحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر وكان هذا الرحيل سبباً لاختلاف القواد ببغداد على إبراهيم بن المهدي لأن السبب الذي من أجله خلعوا المأمون قد زال فاضطرب أمر إبراهيم ببغداد.

لما صار المأمون بطوس حدثت حادثة أخرى وهي وفاة علي الرضا ويتهمون المأمون بأنه سمه وليس عندنا من البراهين ما يؤكد هذه التهمة لأنه بقدر ما يقربها إرادة المأمون التقرب إلى أهل بغداد والعباسيين بالتخلص منه يبعدها ما كان مغروساً في نفس المأمون من محبة آل أبي طالب وأنه صاهر عليا وأن عليا هو الذي أظهر له حقيقة ما كان يدور بالعراق من الفتن ولا يبعد عندي أنه من فعل بعض البطانة المأمونية ليخففوا عن المأمون اضطراب العباسيين ويخلصوا مما يعتقدونه شراً وهو خروج الخلافة من آل العباس. وهناك كتب المأمون إلى بني العباس والموالي وأهل بغداد يعلمهم موت علي بن موسى.

رحل المأمون من طوس إلى الري وهناك تحبب إلى أهلها بإسقاط ألفي ألف درهم من خراجها. وكان كلما قرب من بغداد زاد الاضطراب على إبراهيم بن المهدي وقام القواد في وجهه حتى كتبوا إلى قائد من قواد الحسن بن سهل يطلبون إليه الحضور ليسلموا إليه بغداد فلم يلبث أن حضر وسلم له جند بغداد المدينة وأعلن خلع إبراهيم بن المهدي والدعوة للمأمون فاختفى إبراهيم ليلة الأربعاء ١٧ ذي الحجة سنة ٢٠٣ فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً.

ما زال المأمون ينتقل من منزلة إلى منزلة حتى وصل النهروان وهناك خرج

إليه أهل بيتـه والقواد ووجـوه الناس فسلمـوا عليه ووافـاه طاهـر بن الحسين من الرقة لأنه أمره بذلك. وفي يوم السبت لأربع عشر بقيت من صفر سنة ٢٠٤ دخل مدينة بغداد في لباسه ولباس أهله الخضـرة أقبيتهم وقلانسهم وأعـلامهم فلبس ذلك أهل بغـداد وبنو هـاشم أجمعون. ومكثـوا على ذلـك ثمانيـة أيام فتكلم في ذلك بنو هاشم وولده العباس خاصة وقالوا يا أمـير المؤمنين تـركت لباس آبـائك وأهل بيتك ودولتك ولبست الخضرة وكتب إليه في ذلك قواد أهل خراسان وسأله طاهر بن الحسين أن يرجع إلى لبس السواد فلما رأى المـأمون طـاعة النـاس له في لبس الخضرة وكراهتهم لهـا قعد لهم وعليـه ثياب خضر فلما اجتمعـوا عنده دعـا بسواد فلبسه ودعا بخلعة سواد فألبسهـا طاهـراً ثم دعا بعـدة من قواده فـألبسهم أقبية وقلانس سوداً فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد وابتدأ من ذلك الوقت ملك المأمون الحقيقي.

المأمون ببغداد:

أشرقت شمس أبي العباس عبد اللّه المأمون بغداد حاضـرة آبائه ومن ذلك الوقت ابتدأ ملكه الحقيقي وتجلت مزاياه العالية وأخلاقه التي لم يشابهه فيها أحـد من أهـل بيته وسـاس الأمة سيـاسة لـين لا يشوبـه ضعف وقوة لا يشـوبها عنف وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لهـا في عهد أبيـه وعظمت بهـا الحركـة العلميـة لما كان من ميل المأمون الشديد إلى تقـوية تلك الحـركة وسنبـين ذلك في فصل خاص إن شاء اللّه بعد أن ننتهي من بيان الحالة الداخلية.

الوزارة في عهد المأمون:

أول وزراء المـأمون الفضـل بن سهل وهـو فارسي الأصـل أسلم عـلى يـد المأمون سنة ١٩٠ ويقال إن أباه سهلا أسلم على يد المهدي والذي اختار الفضل للمأمون هو الرشيد بإشارة جعفر بن يحيى فكان مدبر أمره وهـو ولـي عهده ولمـا فعل الأمين ما فعل دبر الفضل أمر إرسال الجنود وتدبير ما يلزمهم فأرسل طـاهر بن الحسين لمحاربة علي بن عيسى بن مـاهان. ولـما انتصر طاهـر لقب الفضل ذا الـرياستـين وجعل لـه علماً على سنـان ذي شعبتين وكتب عـلى سيفه من جـانب رياسة الحرب ومن الجانب الآخر رياسة التدبير وولاه المأمون في هذه السنة وهي

سنة ١٩٦ على المشرق كله وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم (نحو ستين ألف جنيه).

ولما تم للمأمون النصر بتدبيره استولى عليه حتى ضايقه ولما كان من أمر أهل بغداد ما كان دبر المأمون عليه بسرخس من قتله وكان الفضل يتشيع حتى حمل المأمون على بيعة علي الرضا بولاية العهد من بعده فجنى بذلك على نفسه وعلى علي الرضا من بعده وكان الفضل بن سهل مولعاً بالنظر في النجوم ويقال إن له إصابات كثيرة في أمور أنبأ عنها قبل موقعها وجميع ما دبره في أمر المأمون مع أخيه يدل على فكر سديد ورأي محكم وكان مع ذلك جيد الكتابة حسن القول سخي اليد وقد مدحه كثير من شعراء عصره.

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل أحمد بن أبي خالد وأصله شامي مولى لبني عامر بن لؤي وكان أبوه كاتباً لعبيد اللّه كاتب المهدي أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له إني كنت عزمت ألا أستوزر أحداً بعد ذي الرياستين وقد رأيت أن أستوزرك فقال يا أمير المؤمنين: اجعل بيني وبين الغاية منزلة يتأملها صديقي فيرجوها لي ولا يقول عدوي قد بلغ الغاية وليس إلا الانحطاط فاستحسن المأمون كلامه واستوزره.

وكان أحمد هذا من خيار الوزراء يحب أن تخلص قلوب الرعية لإمامه فكان دائم المشورة بما يسر أنفسهم ويسل دفين الأحقاد من صدورهم ومن طريف ما حصل منه مع المأمون أن المأمون ذكر يوماً عمرو بن مسعدة فاستبطأه وقال يظن أني لا أعرف أخباره وما يحبب إليه وما يعامل به الناس وكان أحمد حاضراً هذا المجلس فذهب إلى عمرو وأخبره الخبر. فراح عمرو إلى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال يا أمير المؤمنين أنا عائذ باللّه من سخطك ثم عائذ بك من سخطك يا أمير المؤمنين أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد أو يسر لي ضغنا يبعثه بعض الكلام على ظهاره ما يظهر منه. فقال له وما ذاك فأخبره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر فقال له المأمون لم يكن الأمر كما بلغك وإنما كانت جملة من تفصيل كانت على أن أخبرك به وإنما أخرج مني هذا الكلام معنى تجاريناه وليس لك عندي إلا ما تحب فليفرج روعك

وليحسن ظنك وظهر في وجهه الحياء والخجل فلما غدا أحمد على المأمون قال له أما لمجلسي حرمة. فقال يا أمير المؤمنين وهل الحرمة ألا لما فصل عن مجلسك فأخبره المأمون الخبر وأن بعض من حضر من بني هاشم هو الذي أفشى ما قاله المأمون فقال أحمد أنا يا أمير المؤمنين أخبرت عمراً لاأحداً من بني هاشم والذي حملني على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة لأن تم نعمتك على أوليائك وخدمك أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبعداء فكيف الأولياء والقرباء لا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأي أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه فيه سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئاً فخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ويتلافى ما فرط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل الغناء فيه وإنما كان يكون ما فعلت فيها لو أشعت سراً فيه قدح في السلطان أو نقض تدبير قد استتب فأما مثل هذا فما حسبته أن يكون ذنباً علي فنظر إليه المأمون ملياً وقال كيف قلت فأعاد عليه ما قال ثم قال أعد فأعاد الثالثة فقال له المأمون أحسنت لما أخبرتني به أحب إلي من ألف ألف وألف ألف وألف ألف وعقد خنصره وبنصره والوسطى وقال أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن وأطلق وسطاه وأما ألف ألف فلصدقك إياي عن نفسك وأطلق البنصر وأما ألف ألف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر.

ومن عيوب أحمد بن أبي خالد أنه كان شرها يتقرب إليه الناس بالمآكل لينالوا ما عنده من المصالح وكان المأمون يعرف ذلك منه فأجرى عليه كل يوم لمائدته ألف درهم لئلا يشره إلى طعام أحد من بطانته وكان مع هذا يشره إلى طعام الناس وتمتد عينه إلى هدية تأتيه وكان مع هذا أسى اللقاء عابس الوجه يهر في وجوه الخاص والعام غير أن فعله كان أحسن من لقائه وكان من عرف أخلاقه وصبر على مداراته نفعه وأكسبه.

ومن الغريب أن يتفق لشخص الشراهة إلى طعام الناس وكثرة العطايا التي كان يمنحها من خاص ماله وقد روي عنه أبو الفضل أحمد بن طاهر بن طيفور في أخبار بغداد أنه كان يقول يهدي إلى الطعام فواللّه ما أدري ما أصنع به يهديه إلى صديق استحي من رده عليه.

توفي أحمد بن أبي خالد في ذي القعدة سنة ٢١١ وصلى عليه المأمون ولما دلى في حفرته ترحم عليه وقال أنت والله كما قال القائل:

أخو الجد إن جد الرجال وشمروا وذو باطل إن كان في القوم باطل

استوزر المأمون بعده أحمد بن يوسف كان كاتباً من خيرة الكتاب وأجودهم خطا حتى قال له المأمون يوماً يا أحمد لوددت أني أخط مثل خطك وعلي صدقة ألف ألف درهم وكان يجيد الكتابة حتى كان المأمون إذا كان يتولى عمرو بن مسعدة ديوان الرسائل كان يكلف أحمد بن يوسف بكتابة الكتب التي يريد أن تشهر وتذكر وولاه المأمون ديوان السر وبريد خراسان وصدقات البصرة ولما مات أحمد بن أبي خالد استوزره مكانه وكان من بطانة المأمون من يحسد أحمد بن يوسف على الدرجة التي وصل إليها من المأمون فكادوا له المكايد حتى أقصوه عن قلبه وقد أردت أن أبين لحضراتكم الطريقة الدنيئة التي اتبعوها مع الوزير الذي لم يجدوا فيه عيباً من جهة عمله. كان المأمون يستدعي أحمد بن يوسف سحراً لقضاء الأمور معه فقال أحد البطانة لخادم ممن يقوم على رأس المأمون إذا خص المأمون أحمد بن يوسف بكرامة أو لون من الألوان فاعلمني وضمن له من أجل ذلك مالا، دخل أحمد عند المأمون ذات يوم سحر وليس عنده أحد وكان تحت المأمون مجمرة عليها بيضة عنبر كان أمر بوضعها حين دخل أحمد ولم تكن النار قد عملت فيها إلا قليلاً فأراد أن يكرم بها أحمد ويؤثره بها فأمر بأن تنقل تحته. فأخبر الخادم صاحبه بذلك وهو محمد بن الخليل بن هشام فلما دخل المأمون سأله عما تقول العامة وما تتحدث به فكان مما أخبره به أن قال انصرفت يوماً فمررت بمشرعة وأنا في الزلال (قارب) فسمعت سقاء يقول لآخر معه ما رأيت كما يخبر ندماء الرجل عنه فقال ومن تعني - قال له أمير المؤمنين - قال وما ذاك - قال انصرف من عنده أحمد بن يوسف فسمعته يقول لغلامه ما رأيت أحداً قط أبخل ولا أعجب من المأمون دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع نفسه أن يدعو لي بقطعة بخور حتى أخرج القتار الذي كان تحته فبخرني به - فعرف المأمون الحديث وقال في نفسه والله ما حضر هذا اليوم أحد فأتوهم فيه ضرباً من الضروب - وجفا أحمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته.

استوزر المأمون بعده القاضي يحيى بن أكثم التميمي كان من جلة العلماء الفقهاء الذين لهم قدم ثابتة في الحديث والفقه والأصول تولى قضاء البصرة وسنه عشرون سنة ثم اتصل بالمأمون وصله به ثمامة بن أشرس العالم المتكلم الذي كان المأمون يثق به كثيراً فلما احتاج المأمون إلى من يوليه الوزارة عرضها على ثمامة فامتنع منها ووصف له يحيى فاستوزره وولاه مع ذلك قاضي القضاة فكان إليه تدبير المملكة والقضاء وقلما اجتمعا في شخص. وكان يحيى على مذهب العامة فكان إذا أراد المأمون شيئاً يخالف ما هم عليه احتال فيما يرجعه عنه. أراد المأمون أن يعلن يوماً حل المتعة وهو شيء نهى عنه عمر بن الخطاب فدخل عليه يحيى وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام وهو النداء بتحليل الزنا قال الزنا ـ قال نعم المتعة زنا ـ قال من أين قال من كتاب الله وحديث رسول الله قال الله تعالى ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون**﴾[1] يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين قال لا قال فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها قال لا قال فقد صار من يتجاوز هذين من العادين ـ وهذا الزهري يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب قال أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها[2] ـ فسأل المأمون عن حديث الزهري أهو محفوظ فعلم أنه رواه مالك فقال المأمون أستغفر الله وأمر فنودي بتحريم المتعة. وكان يحيى مع فقهه من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور فصيحا جوابه على قدر سؤال سائله لقيه مرة رجل فقال أصلح الله القاضي كم آكل قال فوق الجوع ودون الشبع قال فكم أضحك قال حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك ـ قال فكم أبكى قال لا تمل من البكاء من خشية الله تعالى ـ قال فكم أخفي عملي قال ما استطعت ـ قال فكم أظهر منه قال مقدار ما يقتدي بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس.

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات ٥ ـ ٦ ـ ٧.

(١) أخرجه الزهري ورواه الإمام مالك.

وكـان يحيى من المحدثـين الذين يـروى عنهم الحديث وقـد اتهم بهنات لم يثبتها الناقدون من أهل عصـره قال طلحـة بن محمد بن جعفـر في حقه يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا قد اشتهر أمره وعرف خبره ولم يستتر عن الكبـير والصغير من النـاس فضله وعمله ورياستـه وسياستـه لأمره وأمـر أهل زمـانه من الخلفـاء والملوك واسع العلم بالفقه كثير الأدب حسن المعـارضة قـائم بكل معضلة وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد من الناس جميعاً عنده. وكان المأمون ممن بـرع في العلوم فعرف من حال يحيى ابن أكثم ومـا هو عليـه من العلم والعقل مـا أخذه بمجامع قلبه حتى قلده قضـاء القضاة وتدبير أهل مملكته فكانت الـوزارة لا تعمل في تدبيره الملك شيئا إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم.

وذكر الخطيب في تاريخه أنه ذكر لأحمـد بن حنبل رضي اللّٰه عنـه ما يـرميه الناس به فقال سبحان اللّٰه من يقول هذا وأنكـر ذلك إنكـاراً شديـداً ذكر ذلـك ابن خلكان في تاريخه وقال الطيفوري في تاريخ بغداد قال أحمد بن أبي طاهر كان المأمون يحضر يحيى بن أكثم وهو يشرب فلا يسقيه ويقول لو أراد يحيى أن يشرب ما تركته وربما وضعت الصحفة قدام المأمون فيها مطبوخ (نبيذ) ويحيى يأكل معه فيقول له المأمون فيها مطبوخ إني لا أترك قاضي يشرب النبيذ.

ولم يذكر ابن طباطبا في كتابه الفخري يحيى بن أكثم في عداد وزراء المأمون والظاهر من عبارة طلحة بن محمد التي أوردناها أنه كان بمنزلـة مستشار للخليفـة فيما يجري على أيدي الوزراء من الأعمال.

ولم يكن ختـام أمره مـع المأمـون خيراً فقـد كان من ضمن وصيـة المأمـون لأخيه المعتصم. ولا تتخذن بعدي وزيراً تلقي إليه شيئاً فقد علمت ما نكبني بـه يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخبث سيـرته حتى أبـان اللّٰه ذلك منـه في صحة مني فصرت إلى مفارقته قاليـاً له غـير راض بما صنـع في أموال اللّٰه وصـدقاتـه لا جزاه اللّٰه عن الإسلام خيرا.

ولولا هذه العبارة في وصية المأمـون لم يكن وصـل إلى عملنا شيء ممـا كان بين المأمون ويحيى بن أكثم في خاتمة الاتصال بينهما ثم رأيت في مروج الذهب أن

المأمون سخط عليه سنة ٢١٥ وذلك بمصر وبعث به إلى العراق مغضوباً عليه.

وقد طالت حياة يحيى بن أكثم حتى توفي في عهد جعفر المتوكل.

ومن وزراء المأمون أبو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازي وهو الذي يقول فيه دعبل:

أولي الأمور بضيعة وفساد   أمر يدبره أبو عباد

فقد كان مع كتابته وحذقه بالحساب أهوج محمقاً. وقد قيل للمأمون إن دعبلاً هجاك فقال من أقدم على هجاء أبي عباد كيف لا يهجوني. وكان شديد الحدة سريع الغضب ربما اغتاظ من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتمه فأفحش.

ومن وزرائه أبو عبد اللّه محمد بن داد بن سويد وهو آخر وزرائه وأصل بيته من خراسان كانوا مجوساً ثم أسلموا واتصلوا بالخلفاء وسويد أول من أسلم منهم وخرج بنوه كتاباً ولا سيما محمداً فإنه تأدب وبرع في كل شيء فاستوزره المأمون ومات وهو وزيره.

ولم يكن للوزراء في عهد المأمون كبير نفوذ بالأمور ولا استبداد بمصالح الدولة بل كانوا ينهون هذه المصالح مع المأمون نفسه ويظهر أن الحروب السابقة في عهد الرشيد ومن قبله بل وفي أول عهد المأمون جعلت الخليفة يسير أمور دولته بنفسه لئلا يستفحل أمر وزرائه فيكون من ذلك ما يخشاه من مثل ما حصل للفضل بن سهل ولجعفر بن يحيى البرمكي وأهل بيته ولمن قبلهم من أمثالهم.

الأحوال الداخلية:

العلويون وآثارهم في الدولة.

قدمنا ما كان من المأمون من اختياره لولاية عهده علي الرضا بن موسى الكاظم وهو الثامن من أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية واتخاذه الشعار الأخضر بدل الأسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب في بغداد وقيام أبي

السرايا والعلويين الذين قاموا من أجل قيامه في الأمصار الكبرى ثم ما كان من وفاة علي الرضا بطوس وانتهاء فتنة أبي السرايا وسقوط جميع العلويين الذين خرجوا في ذلك الوقت بالبصرة والحجاز واليمن. ونزع المأمون للشعار الأخضر بعد حلوله ببغداد وعودته إلى شعار أهل بيته وهو السواد. وكان المأمون قد صاهر عليا فزوجه ابنته ثم زوج محمد بن علي المعروف بالجواد وهو الإمام التاسع من أئمة الشيعة ابنته الأخرى ولم يكن من محمد هذا ما يريب المأمون وكان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده في فضل أبيهم إلى أن خرج في سنة ٢٠٧ باليمن من آل أبي طالب عبد الرحمن بن أحمد بن عبد اللّٰه بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب فوجه إليه المأمون دينار بن عبد اللّٰه في جيش كثيف وكتب معه بأمانه فحضر دينار بن عبد اللّٰه الموسم وحج ولما فرغ من حجه سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن فبعث إليه بأمانة من المأمون فقبل ذلك ودخل ووضع يده في يد دينار فخرج به إلى المأمون فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد.

ومع ذلك فقد جاء في وصيته لأخيه المعتصم وهو يجود بنفسه، (وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي اللّٰه تعالى عنه، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى).

وبسبب اختلال الأمن في البلاد اليمنية ورسوخ التشيع فيها أراد المأمون أن يختار لولاية تهامتها من يأخذ على أيدي المفسدين فيها فأشار عليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبي سفيان وهو محمد بن إبراهيم الزيادي فولاه إياها سنة ٢٠٣ فتوجه فحج ثم ذهب إلى اليمن ففتح تهامة واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤ وهي التي صارت حاضرة تهامة. وقد عظم أمر الزيادي بعد ذلك باليمن وصار كملك مستقل إلا أنه كان يخطب لبني العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا وطال ملكه إلى سنة ٢٤٥ ثم صار الملك في أبنائه ثم في مواليهم وموالي مواليهم إلى سنة ٥٥٣ وتعرف هذه الدولة بالدولة الزيادية وهي أول الدول استقلالاً باليمن.

وحال هذه الدولة يشبه حال دول الأغالبة في إفريقية فإن الرشيد ولاها إبراهيم ابن الأغلب التميمي ليكون حاجزاً بين الخلافة العباسية وبين الأدارسة الذين بالمغرب الأقصى وكانت توليته إياها سنة ١٨٤ فعظم أمره وسار كملك مستقل إلا أنه يخطب للرشيد واستمر الملك في أعقابه إلى سنة ٢٩٦ وكان الأمير في عهد المأمون عبد اللّه بن إبراهيم بن الأغلب (٢٩٦ - ٣٠١) ثم زيادة اللّه بن إبراهيم بن الأغلب الذي استمر ملكه ألى سنة ٣٢٣ وهو الذي فتح جزيرة صقلية من أيدي الروم.

فهاتان الدولتان أول الدول المتغلبة على أطراف بني العباس وأصل تكوينهم الخوف من الطالبيين وامتداد نفوذهم وذلك بعد أن اقتطع من الخلافة المغرب الأقصى للأدارسة والأندلس لبني أمية.

إبراهيم بن المهدي:

قدمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي إذ كان المأمون بمرو فلما شخص المأمون إلى بغداد وعلم بقدومه القواد الذين كانوا مع إبراهيم تركوه فلما رأى ذلك اختفى وظل مختفياً ببغداد يتنقل من دار إلى دار إلى سنة ٢١٠ وفي تلك السنة أخذ. أخذه حارس أسود وهو متنقب مع امرأتين في زي امرأة فأعلم المأمون بخبره فأمر بالاحتفاظ به ثم دخل به عليه فقال له هيه يا إبراهيم فقال: يا أمير المؤمنين ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاعتزازبما عده له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك اللّه فوق كل ذنب كما جعل كل ذي ذنب دونك فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك. قال بل أعفو يا إبراهيم فقال إبراهيم يمدحه:

يا خير من ذملت يمانية به ... بعد الرسول لآيس أو طامع
وأبو من عبد الإله على التقى ... عينا وأقوله بحق صادع
على الفوارع ما أطعت فإن تهج ... فالصاب يمزج بالسمام الناقع
متيقظاً حذراً وما يخشى العدا ... نبهان من وسنات ليل الهاجع
ملئت قلوب الناس منك مخافة ... وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبي وأمي فدية وبنيهما ... من كل معضلة وريب واقع

ما ألين الكنف الذي بوأتني وطنا وأمرع رتعه للراتع
للصالحات أخا جعلت وللتقى وأبا رؤوفا للفقير القانع
نفسي فداؤك إذ تضل معاذري وألوذ منك بفضل حلم واسع
أملا لفضلك والفواضل شيمة رفعت بناءك بالمحل اليافع
فبذلت أفضل ما يضيق ببذله وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلو عن العقوبة بعد ما ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت أطفالا كأفراخ القطا وعويل عانسة كقول النازع
وعطفت آصرة علي كما وعى بعد انهياض الوثي عظم الظالع
اللّه يعلم ما أقول فإنها جهد الألية من حنيف راكع
ما إن عصيتك والغواة تقودني أسبابها إلا بنية طائع
حي إذا قطعت حبائل شقوتي بردي إلى حفر المهالك هائع
لم أدران لمثل جرمي غافرا فوقفت أنظر أي حتف صارعي
رد الحياة علي بعد ذهابها ورع الإمام القادر المتواضع
أحياك من ولاك أطول مدة ورمى عدوك بالوتين بقاطع
كم من يد لك لم تحدثني بها نفسي إذا آلت إلى مطامعي
أسديتها عفواً إلى هنيئة فشكرت مصطنعاً لأكرم صانع
إلا يسيراً عند ما أوليتني وهو الكثير لدي غير الضائع
إن أنت جدت بها علي تكن لها أهلاً وإن تمنع فأعدل مانع
إن الذي قسم الخلافة حازها في صلب آدم للإمام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها وحوى رداءك كل خير جامع

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة قال أقول ما قال يوسف لإخوته **﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم وهو أرحم الراحمين﴾**[1].

---

(١) سورة يوسف: الآية ٩٢.

ومن الغريب أن المأمون قد اطلع قبيل ذلك على مؤامرة يقصد بها خلع المأمون وإعادة إبراهيم بن المهدي للخلافة ورئيس هذا الأمر إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة.

وكان اطلاع المأمون على ذلك يوم السبت ٥ صفر سنة ٢١٠ والظفر بإبراهيم ابن المهدي ليلة الأحد ١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠ - وقد انتقم المأمون من ابن عائشة انتقاماً شديداً فقد أمر بحبسه في المطبق وفعل قريباً من ذلك بمن كانوا معه وقد كتبوا للمأمون أسماء من دخل معهم في هذا الأمر من القواد والجند وسائر الناس فلم يعرض المأمون لأحد ممن كتبوا به ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواماً برآء ثم أمر المأمون بعد ذلك بابن عائشة فقتل وصلب وهو أول مصلوب في الإسلام من بني العباس وقتل معه ثلاثة من رؤوس المتآمرين وكان قتلهم في ١٤ جمادي الآخر من تلك السنة.

نصر بن شيث:

كان نصر بن شيث من بني عقيل يسكن بكسوم شمالي حلب وكان عربياً شريفاً شهماً، له في محمد الأمين هوى فلما قتل الأمين غضب ولا سيما لما رأى العنصر العربي قد انحط شأنه وصار معظم القواد الأمراء من غيرهم فأظهر الخروج على السلطان وكان ذلك أواخر سنة ١٩٨ وتغلب على ما جاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي وحدثته نفسه بالتغلب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت على ما كانت.

لما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين وملك العراق ولي الحسن بن سهل على كل ما افتتحه وأمر أن يسلم ذلك إليه وأن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر وولاه المأمون الموصل والجزيرة والشام والمغرب فسار طاهر إلى وجهه وأرسل إلى نصر يدعوه إلى الطاعة وترك الخلاف فلم يجب فتقدم إليه طاهر ولقيه بنواحي بكسوم فاقتتلا هناك قتالاً عظيماً أبلى فيه نصر بلاء حسنا فكان النصر له وعاد طاهر إلى الرقة شبه المنهزم وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحي. والظاهر أنه لم يكن

جاداً في حرب نصر لأنه رأى نفسه جرد مما فتحه من العراق وغيره ولم يتمتع بشيء مما جناه.

كان ذلك مما قوي أمر نصر حتى كثر جمعه وحصر حران بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له قد وترت بني العباس. وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك. فقال من أي الناس؟ فقالوا نبايع لبعض آل علي بن أبي طالب. فقال أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول إنه خلقني ورزقني قالوا فنبايع لبعض بني أمية. قال أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لا يقبل أبداً ولو سلم على مدبر لأعداني إدباره وإنما هو أي في بني العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم ولما شخص المأمون إلى بغداد أمر طاهراً أن يلقاه بها فترك الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبد اللّه وأمره أن يقاتل نصراً فلما قدم طاهر ولاه المأمون خراسان. وولى ابنه عبد اللّه من الرقة إلى مصر وأمره بالجد في محاربة نصر وحينذاك كتب طاهر إلى ابنه عبد اللّه ذلك الكتاب المشهور الذي جمع فيه كل ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم مما لا يستغني عنه أحد من ملك وسوقة وهذا الكتاب قد تنازعه الناس وكتبوه وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعا به فقريء عليه فقال ما أبقى أبو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء. وتقويم الخلافة إلا وقد أحكم وأوصى به وأمر فكتب به إلى جميع العمال والنواحي ذهب عبد اللّه إلى وجهه في محاربة نصر فجد في أمره وحصره وضيق عليه حتى مال إلى الأمان وفي ذلك الوقت ندب المأمون، جعفر بن محمد العامري ليؤدي إلى نصر رسالة فذهب إليه وهو بكفر عزون بسروج فأبلغه، رسالة المأمون التي يطلب فيها منه ترك الحرب والجنوح إلى السلم فأذعن وشرط شروطاً منها ألا يطأ بساطه فأتى المأمون وأبلغه مطالب نصر فقال لا أجيبه واللّه إلى هذا أبداً ولو أفضيت إلى بيع قميصي حتى يطأ بساطي. فعاد الرسول إلى نصر فأخبره فصاح بالخيل صيحة فجالت ثم قال ويلي عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعني الزط) يقوى على حلبة العرب. لكنه مع جد عبد اللّه بن طاهر في حربه أجاب إلى التسليم

وطلب الأمان فكتب له المأمون كتاب أمان فخرج إلى عبد اللّه بن طاهر وحينذاك هدم يكسوم وخربها ووجه بنصر إلى المأمون فدخل بغداد في صفر سنة ٢١٠ وأنزل مدينة أبي جعفر ووكل به من يحفظه.

وكان مقام عبد اللّه بن طاهر على حربه خمس سنين.

الزط:

الزط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون «هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها و أفسدوا البلاد» اهـ وهم المعروفون بالنور أصلهم من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطيء الخليج الفارسي تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التي كانت بين الأمين والمأمون ولما استقر المأمون ببغداد بعث عيسى بن يزيد الجلودي لحربهم سنة ٢٠٥ ويظهر أنهم كانوا إذا أحرجتهم الجنود تفرقوا في تلك الفيافي فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٢٠٦ أن المأمون ولى داود بن ماسجور محاربة الزط وأعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ولم يذكر هو ولا متبعوه نتيجة فعله ولا فعل من قبله والظاهر أنهما لم يؤثرا أثراً فاصلاً بدليل ما ورد في عبارة نصر بن شيث (إنه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه) وقد استمر أمرهم كذلك إلى سنة ٢١٩ في عهد المعتصم حيث وجه إليهم عجيف بن عنبسة أحد قواده وكانوا قد عاثوا في طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة وأخافوا السبيل فاهتم عجيف بحربهم ليضربهم ضربة قاضية فعسكر بقرب واسط وسد الأنهار التي كان الزط يدخلون منها ويخرجون فحصرهم من كل وجه ولما أخذ عليهم طرقهم حاربهم وأسر ٥٠٠ رجل وقتل منهم في المعركة ٣٠٠ رجل فضرب أعناق الأسرى وبعث برؤوس جميعهم إلى المعتصم. ثم أقام بإزائهم ١٥ يوماً ظفر منهم فيها بخلق كثير وكان رئيس الزط رجلاً يقال له محمد بن عثمان وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق. ومكث عجيف يقاتلهم فيما قيل تسعة أشهر ولم يزل يلح عليهم حتى طلبوا منه الأمان فأمنهم فخرجوا إليه في ذي الحجة سنة ٢١٩ على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكانت عدتهم ذكر ٢٧ ألفاً المقاتلة منهم ١٢ ألفاً وأحصاهم عجيف ٢٧ ألف إنسان بين رجل

وامرأة وصبي ثم جعلهم في السفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية وأقام بها يوماً وعبأهم في زواريقهم على هيئتهم في الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ فمروا على المعتصم على تعبئتهم ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقي فدفعوا إلى بشر بن المسيدع فذهب بهم إلى خانقين ثم نقلوا إلى الثغر إلى عين زربة وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٢٤١ في عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة فأخذت من كان بها أسيراً من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم.

بابك الحرمي:

بين أذربيجان وأران في شمال بلاد الفرس، كورة تدعى البذير بها نهر الرس العظيم بهذه الكورة خرج بابك التي امتدت فتنته زمناً طويلاً في عهد المأمون والمعتصم وكان خروجه سنة ٢٢١ في عهد المأمون ومنتهاه سنة ٢٣١ في عهد المعتصم.

ولا بد لنا من شرح أحوال هذا الرجل وفئته وما كانوا عليه من الاعتقاد وما أثروه في دولة المأمون والمعتصم.

تمتاز البلاد الفارسية بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية سواء في ذلك ما كان قبل البعثة المحمدية، وما بعدها. ومن تلك الطوائف فرقة تسمى الحرمية (بالحاء والراء المهملتين) كما جرى عليه ابن النديم في فهرسه وهم صنفان: الحرامية الأولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم أمرهم بتناول اللذات. والانعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض ولهم مشاركة في الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه ومع هذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لأحد من الأمم إذا أضافوا الإنسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائناً ما كان، وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي ظهر أيام قباذ بن فيروز وقتله أنو شروان وقتل أصحابه. الصنف الثاني الحرمية البابكية ينسبون إلى صاحبهم بابك الحرمي وكان يقول لمن استغواه إنه إله وأحدث في مذاهب الحرمية القتل والغصب

والحروب والمثلة ولم تكن الحرمية تفعل ذلك. هكذا ذكر ابن النديم ومنه يظهر وجه تسميتهم بالحرمية أما سائر المؤرخين فيقولون هم الخرمية (بالخاء المعجمة المضمومة والراء المفتوحة المشددة) قال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني المروزي في كتاب الأنساب، (الخرمي) نسبة إلى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية يدينون بما يريدون ويشتهون وإنما لقبوا بذلك لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر الملذات ونكاح ذوات المحارم، وفعل ما يتلذذون به، فلما شابهوا في هذه الإباحة المزدكية من المجوس الذين خرجوا في أيام قباذ وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات إلى أن قتلهم أنو شروان بن قباذ قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل للمزدكية وقال صاحب القاموس، خرمة قرية بفارس منها بابك الخرمي ـ ثم قال وتخرم دان بدين الخرمية لأصحاب التناسخ والإباحة.

ومن ذلك يظهر أن ما جاء في فهرس ابن النديم تحريف.

نشأ بابك بن بهرام بقرية تدعى بلال أباد رستاق ميمتد ثم اتصل بجاويدان ابن سهرك ملك جبال البذ ورئيس من بها من الخرمية وكان جاويدان يرى منه فهماً وشهامة وخبثاً ففر به إليه ولما أدركته منيته اجتهدت امرأته في أن يكون بابك مكانه في الملك فجمعت الخرمية وقالت لهم إن جاويدان قال لي إني أمرت في ليلتي هذه وإن روحي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام خادمي وقد رأيت أن أملكه على أصحابي فإذا مت فأعلميهم ذلك وأن لا دين لمن خالفني فيه واختار لنفسه خلاف اختياري فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك.

اخذ بابك ومن معه في العيث والفساد وإخافة السبل وأول ما عرف ذلك من أمره كان سنة ٢٠١ والمأمون بمرو لم يبرحها إلى بغداد فلما شخص المأمون إلى بغداد عين أحد قواده يحيى بن معاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقعة لم ينتصف فيها أحدهما من الآخر فاختار المأمون قائداً آخر هو عيسى بن محمد بن أبي خالد فولاه أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك فنكب ثم وجه إليه صدقة بن علي المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافي فأسره بابك ثم وجه إليه محمد بن حميد الطوسي فقتله بابك سنة ٢١٤ بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعاً كثيراً ممن كان معه هكذا كان كلما أرسل لحرب بابك قائداً لم يصنع شيئاً لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره في قلوب الجمهور الذين كانوا معه وقد

ذكـر في حـوادث سنـة ٢٢٨ دخـول جمـاعـة كثيـرة من أهـل الجبـال من همـذان وأصبهان وما سبذان ومهرجان قذف في دين الخرمية وتجمعـوا فعسكروا في عمـل همذان ذلك أول ولاية المعتصم فوجه إليهم الجنود وكـان آخر عسكـر وجه إليهم وجهـه المعتصم مـع إسحـاق بن إبـراهيم بن مصعب، وعقـد لـه عـلى الجبـال فشخص إليهم وفض جمـوعهم وقتـل في عمـل همـذان ستـين ألفـاً منهم وهـرب سائرهم إلى بـلاد الروم فقبلهم ملك الـروم أحسن قبول، وفـرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم في أهم أمورهم.

وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم حين أدركته المنية (والخرمية فاغزهم ذا جزامة وصرامة وجلد واكنفه بالأموال والسلاح و الجنود من الفرسان والرجـالة فإن طالت مـدتهم فتجرد لهم بمن معـك من أنصارك وأوليـائك واعمـل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجياً ثواب اللّه عليـه) لذلـك بذل المعتصم جهـده في كسر شوكة بابك. لئلا يمتد شر بدعته في البلاد الفارسية فاختار لحربه قائداً تركيـاً من كبار قواده وهو حيدر بن كلوس الأشروسني، المعروف بـالأفشين (الأفشـين لقب لملوك أشر وسنة) وذلك سنة ٢٣٠ وقبل أن يخرج لوجهه وجه أبا سعيد محمـد بن يوسف إلى مدينة أردبيل وأمره، أن يبني الحصون التي خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ويجعل فيهـا الرجـال مسالـح لحفظ الطريق، لمن يجلب الميـرة إلى أردبيل ففعل أبو سعيد ما أمره وأوقع بسرية أرسلها بابـك للإغـارة عليه وهـذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند. ثم نـظم البريـد بينه وبـين الجيش فجعل من سـامرا إلى عقبـة حلوان خيلا مضمـرة على رأس كـل فرسـخ فرس معـه مجر مـرتب فكـان يـركض بالخيـل ركضاً حتى يؤديـه من واحد إلى واحـد يـداً بيـد ومن حلوان إلى أذربيجان رتب في دواب المرج فكان يركض بهـا يومـاً أو يومـين ثم تبدل ويصيـر غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فـرسخ وجعـل لهم ديادبة على رؤوس الجبال بالليل والنهار وأمروا أن ينفـروا وإذا جاءهم الخبـر فإذا سمع الذي يليه النفير تهيأ فلا يبلغ إلى صاحبه الذي نفـر حتى يقف له عـلى الطريق فيأخذ الخريطة منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الأفيشين إلى سـامرا في أربعة أيام وأقل.

توجه الأفشين حتى أتى برزند فعسكر بها ورم الحصون فيما بين برزند وأردبيل وأنزل قواداً من قواده ببعض الحصون هناك لحراسة القوافل والسابلة، وأطلق الأفشين عيونه وجواسيسه لتعرف الأخبار عن بابك. وأول وقعة كانت بينه وبين عسكر بابك بارشق أحد حصون الأفشين، حيث خرج بابك ليقنص مالاً أرسله المعتصم مع أحد قواده فبلغ خبره الأفشين، فخرج إليه سراً والتقيا على مقربة من الحصن فأتى جند الأفشين على جميع رجالة بابك وأفلت هو في نفر يسير ودخل موفان ومنها توجه إلى البذ وعاد الأفشين إلى عسكره ببرزند.

استمرت الحروب بين الأفشين، وبابك مدة طويلة وكانوا لا يتحاربون إلا إذا انصرم الشتاء لمكان الثلوج الشديدة التي كانت تكسو رؤوس الجبال تمنع المشاة من التقدم إلى أن كان الربيع سنة ٢٢١ فسار الأفشين، من مكانه يريد مهاجمة البذ وأخذه عنوة فسار محترساً وقد رتب أموره أدق ترتيب لما هو قادم، عليه فاستعرت لظى الحرب، بين الفريقين واستبسلا كلاهما وانتهى الأمر باقتحام المسلمين البذ واستيلائهم عليها وقد أراد بابك الهرب وشرع فيه فأفسد عليه الأفشين تدبيره، وسد عليه المسالك وأوقف عليها جنداً من جيشه، وأخيراً قبض عليه وعلى أخيه عبد الله وعاد بهما الأفشين، إلى سامرا. كما أمره المعتصم ومعهما ١٧ رجلاً من أهل بيته ومن البنات والكتاب ٢٣ امرأة وكان يوم دخولهم سامراً يوماً مشهوداً ثم قتل بابك وصلب بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد.

وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة ٢٥٥٠٠ إنسان وغلب كثيراً من القواد الذي ذكرناهم وكان عنده من الأسرى الذين استنقذهم الأفشين ٧٦٠٠.

الخراج في عهد المأمون:

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع الأقاليم التي دخلت تحت حكم الدولة العباسية، وهو الثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه نقله عن كتاب جراب الدولة ولما في ذلك الثبت من الفائدة أحببنا أن ننقله عنه وها هو ذا.

الأقاليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
السواد	٢٧٨٠٠ ٠٠٠ درهم	٢٠٠ حلة بخرانية
كسكر	١١٦٠٠ ٠٠٠ درهم	٢٤٠ رطلاً من تين الختم
كوردجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٤٨٠٠ ٠٠٠	
الأهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ ٠٠٠ رطل سكر
		٣٠ ٠٠٠ قارورة ماء ورد
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٢٠٠ رطل زيت أسود
		٥٠٠ ثوب متاع يماني
		٢٠ ٠٠٠ رطل تمر
كرمان	٤٢٠٠ ٠٠٠	
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندي
السندومايليه	١٢ ٥٠٠ ٠٠٠	٢٠٠ ثوب معين
سجستان	٤٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ رطل من الفانيذ
		٢٠٠٠ نقرة فضة ٤٠٠٠٠
		برذون ١٠٠٠ رأس رقيق
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ ثوب متاع
جرجان	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ ٠٠٠ رطل اهليلج
قومس	١ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠٠٠ شقة ابريسم
طبرستان	١٠٠٠ نقرة فضة	
والرويان	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	٦٠٠ قطعة قرش طبري
ودنباوند		٢٥٠ كساء ٥٠٠ ثوب
	١٨٥ ٩٠٠ ٠٠٠	٣٠٠ منديل ٣٠٠٠ جام
ما قبله	١٨٥ ٩٠٠ ٠٠٠ درهم	
الري	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ رطل عسل

همذان	۱۱ ۳۰۰ ۰۰۰	۱۰۰۰ رطل رب الرمانين ۱۲ ۰۰۰ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	۱۰ ۷۰۰ ۰۰۰	
ماسبذان والريان	٤ ۰۰۰ ۰۰۰	
شهـرزور	٦۷۰۰ ۰۰۰	
الموصل وما إليها	۲٤ ۰۰۰ ۰۰۰	۲۰ ۰۰۰ رطل عسل
أذربيجان	٤ ۰۰۰ ۰۰۰	
الجزيرة وما إليها من عمل الفرات	۳٤ ۰۰۰ ۰۰۰	۱۰۰۰ رأس رقيق ۱۲ ۰۰۰ زق عسل ۱۰ بزاة ۲۰ كساء ۲۰ قسط محفور ٥۳۰ رطل رقم
أرمينية	۱۳ ۰۰۰ ۰۰۰	۱۰ ۰۰۰ رطل من المسايح السور ما هي ۱۰ ۰۰۰ رطل
برقة	۱ ۰۰۰ ۰۰۰	السور ما هي ۱۰ ۰۰۰ رطل سونج ۲۰۰ بغل ۳۰ مهراً ۱۲۰ بساط
أفريقية	۱۳ ۰۰۰ ۰۰۰	
	۳۱۹ ٦۰ ۰۰۰ درهم	

قنسرين	٤۰۰ ۰۰۰ دينار	
دمشق	٤۲۰ ۰۰۰ دينار	
الأردن	۹۷ ۰۰۰ دينار	
فلسطين	۳۱۰ ۰۰۰ دينار	۳۰۰۰۰۰ رطل زيت
مصر	۱۹۲۰ ۰۰۰ دينار	
اليمن	۳۷۰ ۰۰۰ دينار	
الحجاز	۳۰۰ ۰۰۰ دينار	
	۳ ۸۱۷ ۰۰۰	

فمجموع الخراج من الدراهم ٠٠٠ ٦٠٠٠ ٣١٩ درهم و ٠٠٠ ٣٨١٧ دينار ومن العروض ما ذكر أمام كل إقليم وإذا قوم بلغ شيئاً كثيراً. كان هذا كله يزد إلى بغداد حاضرة الخلافة، ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته و يصرف منه في الحوادث التي تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقي بعد ذلك كثير يهب منه ما شاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه في الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفاً. ومن نموذج ما كان يصرف على أيدي الخلفاء ما رواه الطيفوري في أخبار بغداد أنه ورد على المأمون وهو بالشام ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ درهم حمله إليه المعتصم من خراج ما يتولاه فخرج المأمون وأصحابه ينظرون إلى ذلك المال فقال ليحيى بن أكثم يا أبا محمد ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة إلى منازلهم خائبين وننصرف نحن بهذه الأموال قد ملكناها دونهم إنا إذاً للئام ثم دعا محمد بن يزداد (وزيره) فقال وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلاها فما زال كذلك حتى فرق ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٤ ورجله في الركاب ثم قال ادفع الباقي إلى المعلي يعطي جندنا ـ قال راوي الخبر فجئت حتى قمت نصب عينيه فلم أرد طرفي عنها لا يلحظني إلا يراني بتلك الحال فقال يا أبا محمد وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف الألف لا يختلس ناظري فلم تأت ليلتان حتى أخذت المال. وهذا عطاء كثير ولكن الوارد أكثر.

الجيش:

ظهور الدولة العباسية على أيدي أهل خراسان والموالي جعل لهؤلاء شأناً عظيماً في الدولة ومقاماً لا ينقص عن مقام العرب في اعتزاز الدولة بهم فكانت القواد العظام من أهل خرسان ومن العرب وقيام دولة المأمون بأهل خرسان زاد مالهم في تلك الدولة وبقدر ما زادهم نقص من شأن العرب حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان في عهد المنصور والمهدي والرشيد وصار معظم المرتزقين من الجند إنما هم من أهل خراسان، والأبناء وصار معظم الاعتماد عليهم وظهرت أسماء قواد من عناصر أخرى من أتراك ما وراء النهر. روى الطيفوري أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال يا أمير المؤمنين: انظر

لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان قال أكثرت علي يا أخا الشام والله ما نزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد. وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا حبتني قط وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه. وأما ربيعة فساخطة على اللّه مذ بعث اللّه عز وجل نبيه ﷺ من مضر ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارباً. أعزب فعل اللّه بك. وهذا تصريح عظيم من المأمون وهو يدل على أن تلك القوة العربية التي كان العالم الإسلامي يحس بوجودها وتخشى الخلفاء سطوتها وانحرافها قد اتضعت فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملأ من الناس ولما كان جيش الدولة هو الذي يدل على حقيقة أمرها كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الإمحاء.

القواد العظام في عهد المأمون:

أكبر من اشتهر في عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمن النقيبة والصيت طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان. كان جده رزيق مولى طلحة بن عبلأد اللّه المعروف بطلحة الطلحات الخزاعي والي سجستان من مسلم بن زياد بن أبيه إلى خراسان ولا ندري أكان مولى إسلام أم مولى عتاقة ويغلب علي الظن أنه مولى إسلام أسلم على يده فانتسب إلى قبيلته ولذلك كان يقال له الخزاعي وكانوا بقرية تدعى بوشنج من أعمال مرو وبها ولد طاهر بن الحسين سنة ١٥٩ وكان جده مصعب بن رزيق والياً عليها وعلى هراة وكان قبل ذلك كاتباً لسليمان بن كثير الخزاعي داعية بني العباس.

نشأ طاهر ببوشنج شهماً شجاعاً أديباً وأول ما أحيا ذكره الخالد أعماله العظيمة التي قام بها في قواد الكتائب الخراسانية لحرب الأمين والجيوش العراقية فظفر ظفراً عظيماً كما قدمنا وقاد الخلافة للمأمون مذللة فاشتهر ذكره وطار صيته إلا أن الفضل بن سهل نفس عليه أن ينفرد بتلك الشهرة فحمل المأمون على تنحيته عن العراق وإرساله إلى الجزيرة لحرب نصر بن شبث، ولما شخص المأمون إلى بغداد ومات الفضل في الطريق أمر المأمون طاهراً أن يلقاه ببغداد

فعرف له تلك السابقة وأحله المنزلة التي تليق به وولاه الجزيرة والشرط وجانبي بغداد ومعاون السواد.

كان الذي يتولى خراسان في ذلك الوقت غسان بن عباد فبلغ المأمون أن عبد الرحمن المطوعي جمع جمعاً بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية بغير أمر والي خراسان فتخوفوا أن يكون ذلك لأصل عمل عليه وأن يكون بدء نار يستطير شرارها إذا لم تتدارك برجل قوي الشكيمة ناهض العزم يتولى أمر خراسان ولم يكن بالحضرة من يماثل طاهر فاختاره المأمون لذلك وولاه من حلوان إلى أقصى عمل المشرق فتوجه إلى ولايته وساسها أحسن سياسة وأعظم شهادة له ما ذكره الطيفوري عن يحيى بن أكثم عن المأمون أنه كان يقول ما حابى طاهر في جميع ما كان فيه أحداً ولا مالأ أحداً ولا داهن ولا وهن ولا ونى ولا قصر في شيء وفعل في جميع ما ركن إليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله وأنه لا يعرف أحداً من نصحاء الخلفاء وكفاتهم فيمن سلف عصره ومن بقي في أيام دولته على مثل طريقته ومناصحته وغنائه وإجزائه قال كان يحلف على صدق ما يقول في ذلك مجتهداً مؤكداً لليمين على نفسه.

وكان لطاهر استقلال بحكم خراسان يؤدي الخراج عن عمله وعليه والي بريد يكتب إلى المأمون بأخباره قالوا كان طاهر يتمنى أن يخطب على منبر مرو فوليها سنة ٢٠٥ وخطب بهم في سنة سبع ولم يصل بهم إلا ذلك اليوم فإنه صعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ولم يدع للمأمون فكتب والي البريد إلى المأمون بذلك وفي تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتاً على فراشه فكتب صاحب البريد بوفاته ولا نحسب ما ظن بطاهر من أنه أراد خلع المأمون حقاً فإنه لم يكن هناك داع إلى ذلك مطلقاً.

وقد استمر ملك البيت الطاهري بخراسان من سنة ٢٠٥ إلى سنة ٢٥٩ حيث سقطت على يد يعقوب بن الليث الصفار وهي أول الدول استقلالاً بالمشرق وأحسنها علاقة بدولة الخلافة ببغداد والسبب في دوام هذا التحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد والسبب في دوام هذا

التحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد ومن أجل ذلك كان الاتصال دائماً بين مرو وبغداد.

عبد اللّه بن طاهر: ولد عبد اللّه سنة ١٨٢ في خلافة الرشيد ونشأ نشأة مجيدة وكان عمره حين سطع نجم والده في حوادث المأمون نحو ١٧ سنة فتربى في كنف المأمون فخرج شهماً نبيلاً أديباً وكان المأمون يحبه حباً جماً ولاه حرب نصر بن شبث بعد انصراف أبيه عن ذلك الوجه فقام بما أمر به خير قيام ورد نصراً إلى طاعته بعد أن حصره وضيق عليه وكان مع قيامه بذلك خليفة لأبيه طاهر في الشرطة وأعمال بغداد فاستخلف على ذلك عمه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب.

ولما فرغ من أمر نصر أمره المأمون أن يسير إلى مصر لاضطراب كان فيها من فتنة عبيد اللّه بن السري أمير مصر وفتنة جالية الأندلسيين بالإسكندرية فذهب إليها واستنزل عبيد اللّه بن السري من معاقله بعد أن أذله وأجلى الأندلسيين عما غلبوا عليه. قال يونس بن عبد الأعلى أحد علماء الحديث من أهل مصر. قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث - يعني عبد اللّه بن طاهر - والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب والناس منهم في بلاء فأصلح الدنيا البريء وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة. وكتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون إذ ذاك يهنئه بذلك الفتح. بلغني أعز اللّه الأمين ما فتح اللّه عليك وخروج ابن السري إليك فالحمد للّه الناصر لدينه المعز لدولة خليفته على عباده المذل لمن عند عنه وعن حقه ورغب عن طاعته ونسأل اللّه أن يظاهر له النعم ويفتح له بلدان الشرك والحمد للّه على ما وليك به مذ ظعنت لوجهه فأنا ومن قبلنا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة والليان في مواضعهما ولا نعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك ولا عفا بعد المقدرة عمن آسفه واضفنه عفوك ولقلما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلا على ما قدمت له أبوته ومن أوتي حظاً وكفاية وسلطاناً وولاية لم يخلد إلى ما عفا له حتى يخل بمساماة ما أمامه ثم لا نعلم سائساً استحق النجح لحسن السيرة وكف معرة الأتباع استحقاقك، وما يجيز أحد ممن قبلنا أن يقدم

عليك أحداً بهوى عند إلحاقه والنازلة المتصلة فليهنك منة اللّٰه ومزيده ويسوغك اللّٰه هذه النعمة التي حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين وملاك وإيانا بالعيش ببقائه وأن تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرماً مقدماً معظماً وقد زادك اللّٰه في أعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ويعدونك لأحداثهم ونوائبهم وأي جور أن يوفقك اللّٰه لمحابه. كما وفق لك صنعه وتوفيقه فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزدد إلا تذللا وتواضعاً فالحمد للّٰه على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام.

وكتب له المأمون كتاباً وكتب في أسفله:

أخي أنت ومولاي ومن أشكر نعماه
فما أحببت من أمر فإني الدهر أهواه
وما تكره من شيء فإني لست أرضاه
لك اللّٰه على ذاك لك اللّٰه لك اللّٰه

ولما عاد إلى مصر سنة ٢١٢ ولاه المأمون الجبال وأرمينية وأذربيجان لمحاربة بابك وصادف أنه مات بعد خروجه طلحة بن طاهر بن الحسين فولاه المأمون مكانه واسمر والياً حتى مات سنة ٢٣٠ في عهد الواثق.

العلم في عهد المأمون:

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم في العصر العباسي وذلك لأمرين الأول أن المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو فقد جالس كثيراً من العلماء وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية فكان لذلك محباً للعلم ولازدياد نشره. الثاني: ما كان من الأمة نفسها إذ ذاك حيث وجد فيها شوق إلى العلم والبحث وكثرة العلماء في كل مصر من أمصار المسلمين كما سنبينه فتوافق رأي الإمام واستعداد الأمة فكان من وراء ذلك ما نقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد.

العلوم التي نريد بيان حالها نوعان: علوم دينية وعلوم عقلية.

أما العلوم الدينية فمنها ما يرجع لأصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد ومنها ما يرجع إلى أحكام الأعمال وهي الفقه وأصوله وأدلة تلك الأحكام من القرآن والحديث:

ظهر في ذلك الوقت جمهور من فطاحل ورؤساء المتكلمين توغلوا في البحث في أصول الدين والعقائد وحكموا في البحث عقولهم فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ما عليه عامة المسلمين، وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث وهم الذين يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب أو سنة أو أثر من آثار السلف وكان أول ما نشأ ذلك الخلاف في مدينة البصرة وامتد منها إلى بغداد. وجد بالبصرة واصل بن عطاء الغزال ثم عمرو بن عبيد الذي كان المنصور يحبه ويفضله على جميع معاصريه من العلماء حتى قال فيه:

كلكم يمشي رويد كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد

ولما مات رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه.

ثم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام وبشر بن غياث المريسي وعمر بن بحر الجاحظ وثمامة بن أشرس وغيرهم من رؤوس الاعتزال وأصحاب الآراء والأقوال وكانوا يتكلمون في كثير من مسائل أصول الدين وأهم هذه المسائل التي خالفوا فيها الجمهور (أهل الحديث) (١) مسألة القدر وأفعال العباد فكانوا يقولون إن أفعال العباد مخلوقة لهم لا للّه ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب وأن المقصود بالقضاء والقدر ما يمنحه اللّه لعباده من التوفيق والخذلان ويقابل ذلك رأى العامة أن أفعال العباد مخلوقة للّه ليس للعباد منها إلا جريانها على أيديهم وهذا ما أطلقوا عليه اكتساب العباد (٢) صفات اللّه تعالى فقد نزه المعتزلة اللّه عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام وقالوا إن اللّه قادر بذاته أداهم إلى ذلك الخوف من تعدد القدماء ويقابل ذلك قول العامة إن اللّه قدير بقدرة وهي صفة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها. وتفرع عن ذلك قولهم في القرآن أهو قديم لأنه صفة للّه جل ذكره كما تقوله العامة أم هو حادث مخلوق للّه كسائر

المخلوقات لأنه ليس بصفة للّه بل يخلق اللّه هذه الحروف والأصوات في جسم محدث يسمعه النبي منه وهذا عندهم هو الوحي .

وهاتان المسئلتان أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة .

وكما كان الاختلاف قد ظهر في أصول الدين التي تشابه ما ذكرنا كان قد ظهر في الفقه الذي هو أحكام أفعال العباد فكان من أئمة الفقهاء أهل حديث وأهل رأي كما بيناه في تاريخ التشريع ووجد من كل من الفريقين علماء أجلاء وفقهاء عظام اعترف لهم الناس بالتقدم ونحوا نحوهم في التشريع واقتيدوا بهم منهم من سبق عصر المأمون كأبي حنيفة وأصحابه ومالك وأصحابه ومنهم من كان في أول عصره كالشافعي محمد بن إدريس الذي توفي في السنة التي دخل فيها المأمون بغداد. والفرق بين هؤلاء في اختلافهم وبين أولئك أن المستنبطين من الفقهاء كانوا لا ينكر بعضهم على بعض نتائج استنباطهم بل كانوا يرون أن كل مجتهد مكلف أن يعمل بنتيجة اجتهاده وليس له أن يقلد غيره فقد سوغ بعضهم لبعض الاجتهاد أما المختلفون في أصول الدين فكانوا على غير ذلك كل فرقة ترى النقص في الأخرى، وربما تلعنها فأهل الحديث يقولون عن المعتزلة إنهم مبتدعة فارقوا ما عليه سلف الأمة وما تدل عليه الأخبار والآثار وأولئك يقولون عن أهل الحديث إنهم عامة يتخذون ما يظهرون به حلية لينفقوا أمام العامة وربما نالوا منهم أكثر من ذلك .

وكان هناك اختلافات أخرى ظهر القول فيها وهي مسألة الخلافة ومن يستحقها بعد رسول اللّه ﷺ فكان الجمهور يرى أن الخلفاء الراشدين مرتبون في الاستحقاق ترتيبهم في تولي الخلافة ومن ورائهم أصناف الشيعة يرون أن علياً هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول اللّه ﷺ ثم يستحقها من بعده أولاده وهم مختلفون في الحكم على من سبق علياً من الخلفاء فمنهم الغالي ومنهم الهين القول يرى أنهم أخذوا ما ليس لهم ولكن ولوا فعدلوا فلا محل لانتقاصهم ووجد بسبب ذلك شيعتان مختلفتان الإمامية والزيدية ثم تشعبت الطرق بكل من الفرقتين فوجد من كل منهما مذاهب وآراء .

ولم يكن قبل المأمون لأصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية

البحث وإظهار الآراء بل كانوا يخشون العامة ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لأن الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة لأن القوة فيها فلما جاء المأمون رأى أن يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث ويجعل لهم مجالس المناظرة ويظهر أنه كان يرمي إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأي فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأي وتتفق كلمة الأمة ولا سيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الإمامة.

قال الطيفوري في تاريخ بغداد قال التغلبي سمعت يحيى بن أكثم يقول أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم فلما انقضى ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين قال المأمون يا أبا محمد كره هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي إلا بانتقاص غيره من السلف واللّٰه ما أستحل أو قال ما أستجيز أن أنتقص الحجاج فكيف السلف الطيب. وإن الرجل ليأتيني بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهماً أو نحوه فيقول إن هذا كان للنبي ﷺ أو قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا أني بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسه فأستشفي به عند المرض يصيبني أو يصيب من أهتم به كصيانتي بنفسي وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة إلا ما ذكر من مس رسول اللّٰه ﷺ له فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة وعادى العشائر والعمائر والأقارب وفارق الأهل والأولاد واغترب من داره ليعز اللّٰه دينه ويظهر دعوته؟ يا سبحان اللّٰه واللّٰه لو لم يكن هذا في الدين معروفاً لكان في الأخلاق جميلاً وإن من المشركين لمن يرعى في دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا معاذ اللّٰه مما فطن به الجاهلون. ثم لم ترض

هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها حتى نسبته إلى البدعة في تفضيله رجلاً على أخيه ونظيره ومن يقاربه في الفضل وقد قال اللَّه جل من قائل: **﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾**(١) ثم وسع لنا في جهل الفاضل من المفضول فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا إليه إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل أمر لو جهله جاهل رجونا أن لا يكون اجترح إثماً ـ وهم لم يقولوا بدعة فمن قال بقول واحد من أصحاب النبي ﷺ وشك الآخر وإحتج في كسره وإبطاله في الأحكام في الفروج والدماء والأموال التي النظر فيها أوجب من النظر في التفضيل فيغلظ في مثل هذا أحد يعرف شيئاً أو له روية أو حسن نظر أو يدفعه من له عقل بل معاند يريد الالطاط أو متبع لهواه ذاب عن رياسة أعتقدها وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً اعتقد به رياسة لعله يدعو فئة لضرب من البدعة ثم لعل كل رجل منهم يعادي من خالفه في الأمر الذي قد عقد به رياسة بدعة ويشيط بدمه وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك إلا أن ذلك أمر لا رياسة له فسالمه عليه وأمسك عند ذكر مخالفته إياه فيه فإذا خولف في نحلته ولعلها مما وسع اللَّه في جهله أو قد اختلف السلف في مثله فلم يعاد بعضهم بعضاً ولم يروا في ذلك إثماً فلعله يكفر مخالفه أو يبدعه أو يرميه بالأمور التي حرمها اللَّه عليه من المشركين دون المسلمين بغياً عليهم وهم المترقبون الفتن الراسخون فيها لينتهبوا أموال الناس ويستحلوها بالغلبة وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون. يزأرون على الفتنة زئير الأسد على فراشها ـ وإني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق اللَّه وتأييده ومعونته على إتمامه سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين. إما شاك فيتبين ويثبت فينقاد طوعاً وإما معاند فيرد بالعدل كرهاً.

وروي أيضاً عن بشر المريسي قال حضرت عبد اللَّه المأمون أنا وثمامة ومحمد ابن أبي العباس وعلي بن الهيثم فتناظروا في التشيع فنصر محمد بن أبي العباس الإمامية ونصر علي بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلي يا نبطي ما أنت والكلام. فقال المأمون وكان متكئاً فجلس: الشتم

---

(١) سورة الاسراء: الآية ٥٥.

عمى والبذاءة لؤم إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه. ومن جهل ذلك وقفناه ومن جهل الأمر حكمنا فيه بما يجب فاجعلا بينكما أصلاً. فإن الكلام فروع فإذا افترعتم شيئاً رجعتم إلى الأصول.

فيستفاد من هذين الخبرين أمور جديرة بإمعان النظر..

١ ـ أن المأمون أباح الكلام وأظهر المقالات لدرجة قلما تجدها في أمة وما ظنك بخليفة عباسي. تناظر في مجلسه اثنان في الإمامية فينصر أحدهما الإمامية والثاني الزيدية وهذان المذهبان كلاهما إن صحا يذهبان بما في أيدي آل العباس من الإمامية ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهم.

٢ ـ أن طوائف من الناس عابت ذلك على المأمون لأنه علم منه الموافقة على بعض آراء تخالف رأي العامة كما كان مذهبه في تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه على سائر الخلفاء واتهموه بسبب ذلك بما هو منه بريء وهو انتقاص غيره من الصحابة وقد دافع المأمون عن نفسه في ذلك بما يغلب على الظن أنه صادق فيه.

٣ ـ أن المأمون كان يرى في علماء وقته أنهم إنما كانوا ينكرون ما ينكرون في الآراء التي كانت لهم سبب رياسة ولو كانت تافهة لا يترتب عليها في الدين أثر ويغفرون لمن خالفهم في الأمور الجسيمة التي تترتب عليها الآثار العظيمة ما دامت لا ترتبط بشيء مما يعتقدون به رياسة عند العامة.

٤ ـ أن المأمون كان يظن أنه بمجلس المناظرة هذا يتوصل إلى إزالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه فإن الشاك يتبين أو يتثبت والمعاند يكره.

وهذا الذي فعله المأمون أول تجربة وآخرها لأنه لم يفكر أحد ممن قبله في مثل هذا ولما انتهت تجربته بالفشل لم يعد أحد الخلفاء إلى مثله.

كانت قوة فقهاء العامة محكمة العري لأن العامة كانت تجلهم وتحترم آراءهم كما أن الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور. ويقفون ضد من يعلن مخالفتها. أدت المناقشات الكثيرة التي بين يدي المأمون إلى أنه كان يرى بعض

آراء المعتزلة لا كلها فإنه لم يكن قدرياً. روى الطيفوري عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم اليزيدي أنه سمع ثمامة يقول إن المأمون عامي لتركه القول بالقدر، وإنما الذي ضار إليه من آرائهم القول بخلق القرآن وأظهر رأيه ذلك سنة ٢١٢ وكان يظن كما قدمنا أنه متى أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الأمة يجيبوه إلى إعلان رضاهم به، فكانت النتيجة عكس ما ظن فإنهم تكلموا فيه وقالوا إنه مبتدع وغلا بعضهم في ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن وبذلك تجسمت هذه المسألة التي لم تكن تستحق تجسيماً إذا نظر إليها بشيء من التدقيق. ولم تكن هناك أشياء أخرى غير المسألة العلمية توسع مسافة الخلف بين المأمون ومن شايعه وبين فقهاء الجمهور.

مرت سنوات أربع والخلف يتسع. والكلام من الفريقين في الآخر يزيد حتى كانت سنة ٢١٨ فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه في رد الفقهاء إلى رأيه حتى لا يكون معترفاً بفشله فيما شرع فيه فكتب كتاباً وهو غاز إلى إسحاق بن إبراهيم عامله على بغداد (محافظها) بين فيه أن واجبه بصفته إماماً للمسلمين. أن يجتهد في إقامة الدين ثم ذكر ما عليه الجمهور. من حشو الرعية وسفلة العامة. من الجهالة باللّه حتى ساووا بينه وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم مع النصوص الدالة على خلاف ذلك ثم قال ـ ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة وفي كل فصل من كتاب اللّه قصص. من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم. ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطاعوا بذلك على الناس وغزوا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب. والتخشع لغير اللّه والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيء آرائهم تزينا بذلك عندهم وتصنعاً للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دين اللّه وليجة إلى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم وفساد نياتهم ويقينهم وكان ذلك غايتهم التي إليها جروا وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب على مولاهم ـ وبعد أن أعطاهم ما يستحقون على رأيه من

مثل هذه القوارع قال لإسحاق فاجمع بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق اللّه القرآن وإحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده اللّه واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فإذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومساءلتهم عن عملهم في القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره والامتناع من توقيعها عنده واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام اللّه إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء اللّه. وكتب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ .

وكتب إلى إسحاق أن يشخص إليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور منهم محمد بن سعد كاتب الواقدي ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد بن إبراهيم الدورقي فأشخصوا إليه فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوه جميعاً أن القرآن مخلوق فأشخصهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق بن إبراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم.

وكتب المأمون إلى إسحاق كتاباً ثانياً زاد فيه على الكتاب الأول قال فيه في صفة من خالفوه. وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً في الدين ولا نصيباً من الإيمان واليقين ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة في أمان ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية ولا تولية شيء في أمر الرعية.

فجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلا من هؤلاء العلماء وهذا نموذج من أجوبتهم لإسحاق.

قال لبشر بن الوليد ما تقول في القرآن ـ فقال قد عرفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة ـ قال فقد تجد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى ـ قال ـ أقول

القرآن كلام اللّه ـ قال لم أسألك عن هذا أمخلوق هو ـ قال اللّه خالق كل شيء ـ قال أما القرآن شيء ـ قال هو شيء ـ قال فمخلوق هو ـ قال ليس بخالق ـ قال ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو ـ قال ما أحسن غير ما قلت لك وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه وليس عندي غير ما قلت لك.

وقال لعلي بن أبي مقاتل يا علي ـ قال قد سمعت كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرة وما عندي غير ما سمع ـ فقال له القرآن مخلوق ـ قال القرآن كلام اللّه ـ قال لم أسألك عن هذا ـ قال هو كلام اللّه وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا.

وقال لأبي حسان الزيادي القرآن مخلوق هو ـ قال القرآن كلام اللّه ـ واللّه خالق كل شيء وما دون اللّه مخلوق وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم وقد سمع ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم وقد قلده اللّه أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدي إليه زكاة أموالنا ونجاهد معه ونرى إمامته إمامة وإن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا وإن دعانا أجبنا ـ قال القرآن مخلوق هو ـ فأعاد إليه حسان مقالته ـ قال إن هذه مقالة أمير المؤمنين ـ قال قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني فإنك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتني عنه من شيء فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه ـ قال ما أمرني أن أبلغك شيئاً ـ قال قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول اللّه ﷺ في الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها.

وكان إسحاق يكتب مقالة كل قائل فلما أتم امتحانهم جميعاً أرسل إلى المأمون نتيجة الامتحان ولما رأى المأمون هذه المحاولة منهم غاظه ذلك وكتب في شأنهم كتاباً ثالثاً قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع وذكر كل واحد منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة في عمله أو خلقه كأنه يعرف دخائل كل منهم معرفة خبير فمن ذلك قوله: وأما الذيال ابن الهيثم فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار، وفيما يستولي عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس ما يشغله وأنه لو كان مقتفياً آثار سلفه وسالكاً مناهجهم ومحتذياً سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه.

وأمـا الفضل بن غـانم فأعلمـه أنه لم يقف أمـير المؤمنين عـلى ما كـان منه بمصروما اكتسب من الأموال في أقل من سنة وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد اللّه في ذلك فإنه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته في الدنيا والدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما وإيثاراً لعاجل نفعهما وأنه مع ذلك القائـل لعلي بن هشام ما قاله والمخالف له فيما خالفه فيه، فما الذي حـال به عن ذلـك ونقله إلى غيره.

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنـه حاول بـالقول الـذي قالـه في القرآن أخذ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره تربصـاً بمن استودعـه وطمعـاً في الاستكثار لمـا صار في يـده ولا سبيل عليـه عن تقادم عهـده وتـطاول الأيام به، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جزاك اللّه خيراً عن تقويتك مثل هذا وإيمانك إياه وهو معتقد للشرك منسلخ عن التوحيد.

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبي معمر فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيـد وأن أمير المؤمنـين لو لم يستحـل محاربتهم في اللّه ومجاهدتهم إلا لإربائهم، وما نزل به كتـاب اللّه في أمثالهم لاستحـل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا وصاروا للنصارى مثلاً؟

وأما سعدويه الواسـطي فقل لـه قبح اللّه رجـلا بلغ به التصنـع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقريب بها متى يمتحن فيجلس للحديث.

وأما المعروف بسجـادة وإنكاره أن يكـون سمع ممن كـان يجالس من أهـل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شغله بإعداد النوى وحكمه لإصلاح سجادته وبالودائع التي دفعها إليه علي بن يحيى وغيـره ما أذهله عن التـوحيد وألهـاه، ثم سله عما كـان يوسف بن أبي يـوسف ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما.

وقد ذكر مثل ذلك في غير هؤلاء، وخلاصة ما يـطلب في هذا الكتـاب أنه ذكر رجلين هما بشر بن الـوليد وإبـراهيم بن المهدي أمـره أن يستتيبهما فـإن تابـا

أشهر أمرهما وإلا ضرب أعناقهما، أما من عداهما فإن لم يقولوا بخلق القرآن حملهم جميعاً موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين. وقال في ختام هذا الكتاب ـ وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بندارية ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلاً به تقربا إلى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ورجاء ما اعتمد وإدراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك في خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله وكتب سنة ٢١٨.

فأحضرهم إسحاق مرة ثانية وسألهم فأجابوه جميعاً أن القرآن مخلوق ما عدا أربعة منهم فأمر بهم فشدوا في الحديد وفي اليوم الثاني أعاد عليهم المحنة فأجابه واحد من الأربعة فأطلقه وفي اليوم الثالث فعل كذلك فأجابه ثان وبقي اثنان صمما على عدم الإجابة وهما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما إسحاق إلى طرسوس. وبعد ذلك ورد كتاب من المأمون على إسحاق يقول له فيه إن سليمان بن يعقوب صاحب الخبر كتب إليه أن بشر بن الوليد تأول الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ـ وقد أخطأ التأويل إنما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقد الإيمان مظهر الشرك فأما من كان يعتقد الشرك مظهر الإيمان فليست هذه له، فأشخصهم جميعاً إلى طرسوس ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم فأشخصهم جميعاً ولما وافوا الرقة بلغهم وفاة المأمون فأقامهم والى الرقة بها ثم أعيدوا إلى مدينة السلام.

هذه كانت النتيجة لما شرع فيه المأمون وهي نتيجة تضاد ما قصده من تأليف القوم وجمعهم على رأي واحد فيما اختلف فيه من المسائل وقد كبر الخلاف في مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلا، ولكن المأمون قال إن أصغر المسائل متى كان أساساً لنحلة أو سبباً لرياسة فإن الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الأمور فإن الخلاف الشديد لا يجد إليه سبيلاً إذا لم يكن أساساً لنحلة أو سبباً لرياسة وهذا يكاد يكون صحيحاً، ومع اعترافنا بأن الخلاف لا محل له في هذه المسألة لا

نرى للمأمون حقاً وهو سلطان الأمة أن يصادرها فيما تعتقد على الشكل الذي سنه مما بيناه.

وليعلم أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون في مسئلة القرآن أهمل المحدثون أمرهم وأنزلوا رتبهم وعدوا ذلك عيباً من عيوبهم وقد كاد إمام المحدثين البخاري يصيبه أثر من آثر هذه النكبة فإن فريقاً من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه فكان يقول لفظي بالقرآن مخلوق وكان البخاري ممن يقول بذلك فاضطهده محمد بن يحيى الذهلي إمام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخاري عنها خوفاً من العامة أن تبطش به وكذلك ترك مسلم بن الحجاج مجلس محمد بن يحيى من أجل ذلك فإنه لما سمع محمداً يقول من قال لفظي بالقرآن مخلوق فلا يقربن مجلسنا، أخذ كساءه وخرج. أما الذين وقفوا في المحنة وثبتوا على آرائهم ولم يتساهلوا فإنهم استحقوا من العناية والتكريم مالا مزيد عليه والعلم المفرد فيهم هو الإمام أحمد بن حنبل، فإن هذه الحادثة شرفته بين القوم شرفاً عظيماً.

ولم يكتف المأمون بما كان في حياته بل أوصى إلى أخيه المعتصم الذي استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته في القرآن فلم يجد المعتصم بدا من أن يتبع هذه الوصية مع أنه لم يكن في ميدان العلم كبير جولة ولكن وصية أخيه وبقاء رءوس الاعتزال بجانبه جعلاه يتشدد في الأمر فأحضر أحمد بن حنبل وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من العلماء فصمم على إنكار أن يكون القرآن مخلوقاً ولم يثنه عن ذلك ما لقيه من الضرب والتعذيب في مجلس المعتصم نفسه وكان أحمد يتردد بين ذلك وبين ضيق الحبوس وهو صابر محتسب.

وقد اتبع الواثق سيرة أبيه وعمه في هذه المحنة وبسببها حصلت فتنة أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي ومالك بن الهيثم كان أحد نقباء الدعوة العباسية وكان أحمد يغشاه أصحاب الحديث وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق مع منزلة أبيه من السلطان في دولة بني العباس. ويبسط لسانه فيما يقول ذلك مع غلظة من الواثق كانت على من يقول ذلك وكان أحمد إذا تكلم عن الواثق يقول ألا فعل هذا الكافر فحركه المطيفون به من أهل الحديث وحملوه على

الحرَكة لإنكار القول بخلق القرآن وقصدوه دون غيره لما كان لأبيه وجده في دولة بني العباس من الأثر فرجوا استجابة العامة لـه والتفافهم عليـه فيقال إنـه أجاب إلى ذلك وسعى له في دعاء الناس رجـلان ممن كان يغشـاه فنجحا وألفـا فرقتـين إحـداهما بـالجانب الشـرقي والأخرى بـالجـانب الغـربي من بغـداد واتعـدوا ليلة ليضـربوا فيهـا طبولهم لـلاجتماع صبيحتهـا للوثوب بـالسلطان فـاتفق أن بعض المحافظين عـلى الطبـل انتبذ نبيـذاً فلما أخذ منـه ضرب عـلى الطبـل قبل المـوعد المضروب بليلة فانتبه لصوت الطبل محمد بن إبراهيم بن مصعب خليفة صاحب الشرطة فأرسل يسأل عن سببه وبعـد التدقيق عـرف سر المؤامرة فتتبـع القوم من ليلتهم فأخذوا وصيروا إلى الحبس وقبض على أحمـد بن نصر أيضاً وحمـل رءوس القوم إلى الواثق بسامرا فجلس لهم الواثق مجلساً عاماً لامتحانهم ولما حضروا إليه لم يناظر الواثق أحمد بن نصر في الشعب ولا فيما رفع إليه من إرادة الخروج عليـه لكنه سأله ما تقول في القرآن؟ قال هو كلام اللّه ولم يزد على ذلك وبعد أخذ ورد أفتى الحاضرون بقتله فقام الواثق إليـه بنفسه وقتله وصلب جسمـه بسامـرا وحمل رأسه إلى بغداد فنصب بها في الجانب الشرقي وجعل في أذنه رقعة فيها هذا رأس الكافر المشرك الضال وهـو أحمد بن نصر بن مـالك ممن قتله اللّه عـلى يدي عبـد اللَّه هـارون الإمام الـواثق باللَّه أمـير المؤمنين بعـد أن أقام عليـه الحجة في خلق القرآن، ونفي التشبيه وعرض عليه التـوبة ومكنـه من الرجـوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصـريح والحمـد للَّه الذي عجـل به إلى نـاره وأليم عقابـه، وأن أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقره بالتشبيه وتكلم بـالكفر فـاستحل أمـير المؤمنين دمـه ولعنه.

وممن حمل إلى الواثق في هذه المحنة من علماء مصر أبـو يعقوب يـوسف بن يحيى البويطي أكثر أصحاب الشافعي الإمام رضي اللَّه عنه نمي إلى الواثق أنه لا يقول بخلق القرآن فأرسل إلى والي مصر، في امتحـانه فـامتحنه فلم يجب وكـان الوالي حسن الرأي فيه فقال له قل فيما بيني وبينك قـال إنه يقتـدي بي مائـة ألف ولا يدرون المعنى فلما امتنع أمر الواثق بحمله فحمل وسجن ببغداد حتى مات في سجنه سنة ٢٣١.

واستمرت هذه المشكلة، حتى ملها الواثق نفسه وتمنى لو يجد مخرجاً وانتقلت المسألة من الجدّ إلى الهزل ودخل عبادة المضحك على الواثق فقال يا أمير المؤمنين أعظم اللّه أجرك في القرآن قال ويلك القرآن يموت قال يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت باللّه يا أمير المؤمنين من يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن فضحك الواثق وقال قاتلك اللّه ـ امسك.

وجيء الواثق بشيخ مقيد فسأله ابن أبي دؤاد عن قوله في القرآن فقال له الشيخ لم تنصفني المسألة أنا أسألك قبل الجواب هذا الذي تقوله يا ابن أبي دؤاد من خلق القرآن شيء علمه رسول اللّه ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي اللّه عنهم أو جهلوه ـ فقال بل علموه قال فهل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا ـ قال بل سكتوا ـ قال فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت ـ فسكت ابن أبي دؤاد وأعجب الواثق كلامه وأمر بإطلاقه، وقام وهو يقول هلا وسعك ما وسعهم يكرر هذه الكلمة.

كانت تلك الحوادث مما أخمد نار المحنة، ولذلك لما جاء المتوكل بعد الواثق أمر برفع المحنة وأن يترك الناس، وشأنهم فيما يعتقدون وحسنا فعل وقد استحق المتوكل ثناء الجمهور العظيم بسبب ذلك وتجاوزوا له عما كان من هفواته.

يمكن القول بأن هذه المجالس التي تعقد للمناظرة رجاء الوصول إلى الوفاق إنما تقر الخلاف وتؤكده لا تزيله متى اتصل بهذا الخلاف شيء من الرياسة في الدنيا. وتاريخ المجامع والمجالس التي كان من شأنها البحث في الأمور الدينية شاهد بذلك.

علوم الصناعات:

كما كانت للمأمون جولة في العلوم الدينية كانت له جولة في العلوم الصناعية وقد كان أثره في هذه أظهر من أثره في تلك كما يتبين مما يأتي:

كانت الأمة العربية أمة أمية لا تتعلق بشيء من الصناعات ولا العلوم إلا قليلا كما بيناه في خلاصة تاريخها في الجزء الأول، فلما جاءها الإسلام لم يكن لها مجال في العلوم لأنها كانت في دور التكوين وذلك محتاج إلى استعمال ما عندها

من القوة والفكر في سبيل ذلك فانقضت مدة الخلفاء الراشـدين رضي اللّٰه عنهم في الفتح وتأسيس المملكة وتمهيد طريق الدعوة إلى الدين وكانت الحال كذلك في صدر الدولة الأمويـة إلا أنه وجـد من رجالهم في أوسط أدوارهـا من عنوا ببعض الصناعات التي كانت فيمن سبقهم من الأمم واهتموا بترجمة كتب منها وأول من عرف اسمه في ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبـة للعلوم خطر ببـاله الصنعـة «الكيمياء» فـأمر بإحضار جمـاعة من فـلاسفة اليـونانيـين ممن كان ينـزل مدينـة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العـربي وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغـة إلى لغة. ثم نقـل الديـوان وكان بـاللغة الفارسية إلى العربية في أيام الحجاج نقله صـالح بـن عبـد الرحمن مـولى بني تميم كما قدمنـا ذلك في تـاريخ بني أميـة، ثم نقل ديـوان الشامي إلى العـربية في زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان سعد مولى حسين.

وكانت الدولة الأموية أقرب إلى من قبلها في السذاجة الصناعيـة فلم يكن لتـرجمة الكتب فيهـا كبير حظ ولا عـظيم أثر. فلما جـاءت الدولـة العباسيـة كان اختلاطها بالفرس أكثر لأن دولتهم بالخراسانيـين والموالي قـامت وهذا الاختـلاط جعل نفوس العباسيين تصبو إلى الاطلاع على شيء مما عنـد الفرس واليـونان من آثار متقدميهم من العلماء والحكماء والفلاسفة وكان أول من عني بتـرجمة شيء من هـذه الكتب أبو جعفـر المنصور ثـاني خلفاء العبـاسيين وكـان الذي قـام بترجمة الكتب له طبيبه جورجس بن جبرائيل الذي كان طبيباً لبيمارستان جنـد يسابـور ثم طلبه المنصور إليه سنة ١٤٨ ليعالجه فحظي عنده حظوة عظيمة وترجم له كتباً كثيرة من اليوناني إلى العربي. والبطريق قال في طبقـات الأطباء إن المنصـور أمره بنقـل أشياء من الكتب القـديمة ولـه نقل كثير جيد إلا أنـه دون نقـل حنـين بن إسحـاق. وقد وجـدت بنقله كتب كثيرة في الـطب من كتب أبقراط وجـالينوس وترجم له ابن المقفـع كتاب كليلة ودمنـة من الفهلوية وتـرجم كتاب السنـد هند وكتاب المجسطي لبطليموس وكتاب إقليدس في الهندسة وغير ذلك إلا أن العناية لم تبذل كثيراً في الحصول على الكتب المفيدة حتى تترجم وتشغل بها الأمة.

فلما كان في زمن هرون الرشيد وغلب على بعض المدائن الرومية الكبرى كأنقرة وعمورّية عثر على كنز ثمين من كتب اليونان فأمر أن تترجم له فترجمت وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها في عهد المنصور وكان للبرامكة يد طولى في الترجمة ،عون المترجمين عليها بما كانوا يدرونه عليهم من الأرزاق.

لما ولي المأمون كان قد تأثر فكره بما قرأ من هذه الكتب وأحس بنفعها فقوى حركة الترجمة ونشطها تنشيطاً أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل في هذا السبيل حكى ابن النديم في الفهرس أن المأمون رأى في منامه كأن رجلاً أبيض اللون مشرباً حمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره قال المأمون وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة فقلت من أنت قال أنا أرسطّاطاليس فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قال سل قلت ما الحسن قال ما حسن في العقل قلت ثم ماذا قال ما حسن في الشرع قلت ثم ماذا قال ما حسن عند الجمهور قلت ثم ماذا قال، ثم لا. ثم لا ـ وفي رواية أخرى قلت زدني قال من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد ـ قالوا فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب ـ وإذا صحت هذه الحكاية فهذه الرؤيا أثر لشغف المأمون بأرسطاطاليس وتعاليمه.

كان بين المأمون وملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج[١] بن مطر وابن البطريق[٢] وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا

---

(١) قال في طبقات الأطباء: الحجاج بن مطر نقل للمأمون، من نقله كتاب إقليدس ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني.

(٢) قال في الطبقات: يحيى بن البطريق كان في حملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وإنما كان لطينياً يعرف لغة الروم وكتابتها وهي الحروف المتصلة لا اليونانية القديمة.

مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله وقيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم.

ولم تكن هذه العناية قاصرة على المأمون وحده بل كان لعهده جماعة ذوو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب إلى اللسان العربي ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرتماطيقا والطب. قال أبو سليمان المنطقي السجستاني إن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم في الشهر نحو ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة. وقال ابن النديم في موضع آخر هؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني فأظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الأقل وتوفي محمد بن موسى سنة ٩٥ في شهر ربيع الأول، ثم ذكر الكتب التي ألفوها، وقال ابن خلكان ومما اختصوا به في ملة الإسلام وأخرجوه من القول إلى الفعل وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه لكنه لم ينقل أن أحداً من أهل الملة تصدى له وفعله إلا هم وهو أن المأمون كان مغرماً بعلوم الأوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الأرض ٢٤٠٠٠ ميل كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ٨٠٠٠ فرسخ بحيث لو وضع طرف حبل على أي نقطة كانت من الأرض وأدرنا الحبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض التقى طرفا الحبل فإذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله ٣٤٠٠٠ ميل فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بني موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعي فقال أريد أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أولا - فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي فقيل لهم صحراء سنجار في غاية الاستواء وكذلك وطآ الكوفة فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى

سنجار وجاءوا إلى الصحراء المذكورة فوقفوا في موضع منها فأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتدا وربطوا فيه حبلاً طويلاً ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان فلما فرغ الحبل نصبوا في الأرض وتدا آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلهم الأول ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبال فبلغ ٦١,٢/٣ ميلاً فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض ٦٦,٢/٣ ميلا. عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حبلاً وتوجهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة فصح حسابهم وحققوا ما قصدوا من ذلك ـ وهذا إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ٣٦٠° لأن الفلك مقسوم باثني عشر برجاً كل برج ٣٠° فتكون الجملة ٣٦٠ فضربوا عدد درج الفلك في ٦٦,٢/٣ ميلا التي هي حصة كل درجة فكانت الجملة ٢٤٠٠٠ وهي ٨٠٠٠ فرسخ (الميل ١٦٦٦,٢/٣ م والفرسخ ٥٠٠٠ م) وهذا محقق لا شك فيه. فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل طلب تحقيق ذلك في موضع آخر فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك. وممن كان ينقل لهم حنين إسحاق العبادي وكان فاضلا في صناعة الطب فصيحاً باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية دار البلاد في جميع الكتب القديمة ودخل بلد الروم وأكثر نقوله لبني موسى ونقله في غاية الجودة وكانت وفاته سنة ٢٦٠.

وكان هناك كثير غير بني شاكر يحذون حذوهم ذلك فكثرت الكتب الترجمة في جميع العلوم الصناعية ولما نقلت إلى العربية اشتغل بها الناس كثيراً علماً

وعمـلاً ففسروا مغلقهـا وأصلحوا خللهـا ووجد منهم فـلاسفة عـظام ألفوا كتبـاً عظيمة في هذه العلوم منهم من صميم العرب يعقوب بن إسحاق الكندي ينتهي نسبه إلى الأشعث بـن قيس بن معد يكرب ثم إلى كندة وكان عظيم المنـزلة عنـد المأمون وعنـد المعتصم وله مصنفـات جليلة ورسائـل كثيرة جـدا في جميع العلوم ونقل في طبقات الأطباء عن سليمان بن حسـان أنه كـان عالمـاً بالـطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعـداد وعلم النجوم، ولم يكن في الإسـلام فيلسوف غيـره احتذى في تـآليفه حـذو أرسطوطـاليس ولـه تـآليف كثيرة في فنـون العلم وخـدم الملوك فبـاشـرهم بـالأدب وتـرجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضـح منها المشكـل ولخص المستصعب وبسط العويص. وقـال أبو معشر في كتاب المذكرات لشاذان: حذاق التراجمة في الإسلام أربعة حنين بن إسحاق ويعقوب بن إسحاق الكندي وثـابت بن قرة الحـراني وعمر بن الفـرخان الطبري وقد ذكر فهرس كتبه في نحو خمس صفحات في علوم شتى.

وإنمـا ذكرنـا هذا لنـدل على أن الأمـة كانت في استعـداد تـام لتلقي هـذه الكتب والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فيها فنفقت بسبب ذلك هـذه العلوم واشتغل بها المتعلمون في بغداد حاضرة الخلافة وفي غيرها من الحواضر ولم يقفهم عن التقدم كلمات العلماء من أهل الحديث التي كانت توجـه إليهم أحيانـاً خفية لمكان الخليفة منهم فقد كان هو المساعد الأكبر في نفاق هذه العلوم.

فالمأمون يعد في الحقيقة حامل لواء هذه العلوم وسبب تلك الحركة الكبرى التي وجدت في الأمة الإسلامية مع حفظ الفضل لمن سبقه في ذلك كأبيه الـرشيد وجده المنصور فإنهما وضعا الأساس وهو حذا حذوهم إلا أنه فاقهم في الاهتمـام والعزم.

الأحوال الخارجية:

لم يكن بـين المسلمين والـروم حروب في أول عهـد المأمـون إلى سنة ٢١٥ وفيها شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم في المحرم (مـارس سنة ٨٣٠) واستخلف عـلى المـدينـة إسحـاق بن إبـراهيم بن مصعب وسلك طـريق المـوصل حتى صـار إلى منبج ثم دابق ثم أنطاكيـة ثم المصيصـة ومنهـا خـرج إلى

طرسوس وهي الثغر الإسلامي ومن طرسوس دخل إلى بلاد الروم في منتصف جمادى الأولى (يوليه سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه. ولما تم فتحه اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم ديناراً ديناراً - وكان قبل ذلك الفتح حصناً اسمه ماجدة فمن على أهله - ثم أرسل أشناس إلى حصن سندس فأتاه برأسه - ووجه عجيفاً وجعفر الخياط إلى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع.

وبعد ذلك شخص إلى الشام وهناك ورد الخبر عليه بأن ملك الروم قتل قوما من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يقال ٦٦٠٠ فأعاد الكرة على بلاد الروم فنزل على أنطيفوا فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه إسحاق فافتتح ثلاثين حصناً ووجه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار وغنم ورجع إلى العسكر- ثم خرج المأمون إلى كيسوم ثم إلى دمشق ومنها خرج إلى مصر في ١٦ الحجة سنة ٢١٦ ثم عاد منها إلى دمشق سنة ٢١٧ فدخل أرض الروم ثالث مرة فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفاً فاختدعه أهلها وأسروه فمكث أسيراً في أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه وسار توفيل إلى لؤلؤة فأحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود إليه فارتحل توفيل لموافاتهم وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بالأمان.

وكاتب ملك الروم المأمون في سفرته هذه وأجابه المأمون على كتابه وهذه نسخة كتابيهما.

كتب ملك الروم إلى المأمون: أما بعد فإن اجتماع المختلفين على حفظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ولست حريا أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك وفي علمك كان عن أخبارك وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ويكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر ولا زخرف لك في القول فإني لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها شان عليك خيلها ورجلها وإن أفعل فبعد أن قدمت إليك المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام.

رد المأمون: أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من فسخ المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة وأن لا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في إصلاح ما أوثره في معتقبه لجعلت لجواب كتابك خيلاً تحمل عن أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى اللّه بدمائكم ويستقلون في ذات اللّه ما نالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الأمداد وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم موعدهم إحدى الحسنيين عاجل غلبة أو كريم منقلب غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت اللّه بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لقوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدي.

شخص المأمون إلى الرقة سنة ٢١٧ وفي هذه السنة في جمادى (يونية سنة ٨٣٣) سير ابنه العباس إلى أرض الروم وأمره بنزول الطوابة وبنائها فابتدأ البناء بناها ميلا في ميل وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصناً. ثم سار المأمون بعده إلى بلاد الروم فدخلها من ناحية طرسوس وهناك كانت وفاته كما يأتي.

أخلاق المأمون:

أول ما ظهر من حلي المأمون ميله للعفو وكراهته للانتقام فإنه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه ولم يهجهم بشيء حتى الفضل بن الربيع الذي أخذ قواده وسلاحه وجنوده وجميع ما أوصى به أبوه له فذهب به إلى الأمين وتركه بمرو مجرداً عن كل ذلك ثم أفسد عليه أخاه وأغراه على خلعه وكان أشد عليه من كل شيء ومع هذا لم يؤاخذه بجرمه ولما دخل على المأمون وأعلنه المأمون بالعفو سأله الرضا فقال المأمون أجل العفو لا يكون إلا عن رضا وسجد المأمون شكراً للّه على أن ألهمه نعمة العفو عنه وقال الحمد للّه قديماً كنت أسلم عليه

فأفرح برده فسبحان الذي ألهمني الصفح عنه فلذلك سجدت قال طاهر بن الحسين فعجبت لسعة حلمه. وقال زيد بن علي بن الحسين جلس المأمون يوماً للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه إذ انهملت عين المأمون فلما سئل عن سبب بكائه قال ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لأحد ولكنه جنس من أجناس الشكر للّه لعظمته وذكر نعمته التي أتمها علي كما أتمها على أبوتي من قبلي أما ترون ذاك الذي في صحن الدار (يعني الفضل ابن الربيع) كان في أيام الرشيد وحاله حاله يراني بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن وكان له عندي كالذي لي عنده ولكني أداريه خوفاً من سعايته وحذراً من أكاذيبه فكنت إذا سلمت عليه فرد علي أظل لذلك فرحاً وبه مبتهجاً وكان صفوه إلى المخلوع فحمله على أن أغراه بي ودعاه إلى قتلي وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسة فقال أما القتل فلا أقتله ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب فكان أحسن حالاتي عنده أن وجه مع علي بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا في الفضة والحديد ليقيدني به وذهب عنه قول اللّه تعالى ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه اللّه﴾[1] فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها وأدنى مراتبها (وكان يجلس مع أصحاب الحرس) وهذا الخطيب على رأسي وكان بالأمس يقف على هذا المنبر الذي بإزائي مرة وعلى المنبر الغربي مرة فيزعم أني المأفون ولست بالمأمون ثم هو الساعة يقرظني تقريظه المسيح ومحمداً عليهما السلام.

وكان له في العفو لذة لا يعادلها لذة حتى أنه لما ظفر بعمه إبراهيم عفا عنه مع عظيم جرمه وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذي أحس من نفسه بقدرة السلطان فأذهب ذلك عنه الحفيظة ولم يؤثر عنه ما يعيبه إلا ما كان منه بمصر حيث أمر بقتل محاربين نزلوا على حكمه مع ضياع قوتهم واقتناعه بعذرهم وهم أهل البشرود بأسفل مصر كانوا ثاروا على عمالهم بسبب سوء سيرتهم فأرسل إليهم الأفشين فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ولما ذهب إليهم المأمون حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وأطفالهم وذلك في صفر

---

(١) سورة الحج: الآية ٦٠.

سنة ٢١٧ وهي حادثة في غاية الغرابة بالنسبة لما عرف من خلق المأمون الذي اشترى سبي الروم بماله وأطلقهم وأعطى كل واحد ديناراً ومن على غيرهم من السبي.

ومن مزايا المأمون أنه كان في جدله ميالا إلى الإقناع فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة وله في ذلك مجالس مأثورة مشهورة وله في الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره في المناقشة وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل. أراد مرة أن ينتقص معاوية بن أبي سفيان ويلعنه فقال له يحيى بن أكثم إن العامة لا تحتمل مثل هذا لا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرة وإن كانت لم تدر ما عاقبتها والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وأحرى في التدبير فاتبع المأمون نصيحته وطوى الكتاب الذي كان قد أنشيء في هذا المعنى فلم يقرأ على العامة ولكنه بقي في دفاترهم مسجلاً.

كان المأمون مع حلمه يعلم ما عليه رؤساء جنده ورجال دولته فلم يكن بالمغفل الذي ينخدع برياء الناس ونفاقهم وظهورهم بما ليس من شيمهم قال يوماً وفي مجلسه جماعة ما في عسكرنا من يطلب ما عندنا بالرياء فقال كل واحد بما عنده إما أن يقول في عدو يقدح فيه أو يقول بما يعلم أنه يسر خليفته فلما قالوا ذلك قال ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتي ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء حتى لو كان قد أقام في زحل كل واحد منهم حولا ما زاد على معرفته فكان مما حفظ عنه إذ قال حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس - تسبيح حميد الطوسي وصلاة قحطبة. وصوم النوشجاني. ووضوء بشر المريسي. وبناء مالك بن شاهي المساجد. وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر. وجمع الحسن بن قريش اليتامي. وقصص منجا وصدقة علي بن الجنيد. وحملان إسحاق بن إبراهيم في السبيل. وصلاة ابن رجاء في الضحى. وجمع علي بن هشام القصاص - حتى جمع جماعة كثيرة فقال رجل من عظماء العسكر لآخر بعد أن خرجا من الدار هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيراً من

هـذا الحديث ـ فحـدث إبراهيم بن المهـدي بهذا الحـديث رجـلاً من أصحـاب الأخبار والعلم فقال له وما تصنع بهذا قد شهدت رسالتـه إلى إسحاق بن إبـراهيم في الفقهاء يخبر بمعايبهم رجلا رجلا حتى لهو بها أعلم منهم بما في منازلهم.

قعد مرة للمظالم فقدم إليه أصحاب الحاجات فقضى ما شاء من حاجاتهم وكان فيهم نصراني من أهل كسكر كان قد صـاح بالمـأمون غـير مرة وقعـد له في طريقه فلما بصر به المأمـون أثبته معـرفة فـأمر سلما صـاحب الحوائـج أن يبطحـه ويضربه عشرين درة وقال لسلم قل له لا يعود يصيح بي فقال له سلم ذلك وهو مبطوح فقال الرجل أعود وأعود وأعود حتى تنظر في حاجتي فأبلغه سلم ذلك فقال هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ثم قال لأبي عياد اقض حاجة هذا كائنة ما كانت الساعة فلا أدري مم يعجب الإنسـان أمن ملاحـظة المأمـون وعرفان الرجل لأنه هو الذي صاح به مرة أو مرتين أم من تأميل الرجل فيـه بعد أن أمر بضربـه أم من رجوع المـأمون عن خـطئه فيـما صنع وأمـره بقضاء حـاجة الرجل كائنة ما كانت.

وكـان مع هـذه الأخلاق أديبـاً يعرف جيـد الشعر ورديئـه ويثيب على مـا أعجبـه منه ثـواباً فـوق كل أمـل. حدث عمـارة بن عقيل قـال أنشدت المـأمون قصيدة فيها مديح له فيها مائة بيت أو أكثر فما ابتدأت بصدر بيت إلا بـادرني إلى قافيته فقـال عمارة والله يـا أمير المؤمنـين ما سمعهـا مني أحد قط فقـال المأمـون هكذا ينبغي أن يكون وقال عمارة قال لي عبد الله بن السمط علمت أن المأمون لا يبصر الشعر فقلت ومن ذا يكون أعلم منه فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره. قال إني أنشدتـه بيتاً أجـدت فيه فلم أره تحـرك له ـ قلت ومـا الذي أنشدته فقال:

أضحى إمـام الهدى المـأمون مشتغـلا ... بـالدين والنـاس بـالـدنيـا مشـاغيـل

فقلت ما صنعت شيئاً وهل زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها في يدها سبحتها فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كـما قال جرير في عبد العزيز بن الوليد:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ولعلمه بالشعر ومحبته له راجت في زمنه سوقه وكثر الشعراء والأدباء كما كثر المغنون ونبغوا. وكان المأمون يسمع الغناء ويحب الجيد منه وكان يشرب النبيذ على رأي أهل العراق.

أما كرمه فمما سارت به الأمثال فقد أربى على جميع خلفاء بني العباس حتى على أبيه الذي كان يعطي عطاء من لا يخاف فقراً ولا يخشى إقلالا وحكايات المأمون في العطاء كثيرة فلا نطيل بذكرها إلا أنا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف في القوم وسعة اليد وكثرة البذل.

بنى المأمون سنة ١٢٠ ببوران بنت الحسن بن سهل في فم الصلح واحتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في مصر من الأمصار وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها وقرأ ما فيها ثم يمضي إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافخ المسك وبيض العنبر وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الجمالين والمكاريه والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن في العسكر من يشتري الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن في العسكر من يشتري شيئاً لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوماً وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم وأقطعه فم الصلح وأطلق له خراج فارس، وكرر الأهواز مدة سنة. وهذا سرف عظيم سهل أمره الوارد الكثير.

وفاة المأمون:

بينما كان المأمون ببلاد الروم في آخر غزواته وهو بالبدندون شمالي طرطوس أصابته حمى لم تمهله كثيراً وفي ١٨ رجب سنة ٢١٨ أدركته منيته فحمل إلى طرطوس ودفن بها وكانت سنه إذ توفي ٤٨ سنة.

ولاية العهد :

عهد المأمون وهو مريض إلى أخيه أبي إسحاق بن الرشيد ولم يخطيء خطأ من قبله بالعهد إلى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة تقدم منها أشياء ومما جاء فيها (واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهلته فكأن قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعية العوام العوام فإن الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم في شيء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت).

٨ ـ المعتصم

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور وأمه أم ولد اسمها ماردة ولد سنة ١٧٩ فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان في عهد أخيه المأمون والياً على الشام ومصر وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون ببلاد الروم بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله في ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة سامرا في ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧ (٤ فبراير سنة ٨٤٢) فكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد الرحمن الثاني بن الحكم بن هشام رابع أمراء بني أمية بالأندلس (٢٠٦ ـ ٢٣٨).

ويعاصره في المغرب الأقصى من الأدراسة محمد بن إدريس بن إدريس (٢١٣ ـ ٢٢١) ثم علي بن محمد (٢٢١ ـ ٢٣٤).

ويعاصره في أفريقية من الأغالبة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١ ـ ٢٢٣) ثم الأغلب بن زيادة الله (٢٢٣ ـ ٢٢٦) ثم محمد بن الأغلب بن زيادة الله (٢٢٦ ـ ٢٤٢).

ويعاصره في اليمن محمد بن إبراهيم الزيادي الذي ولاه المأمون (٢٠٣ ـ ٢٤٥).

ويعاصره في خراسان الأمير عبد الله بن طاهر الذي ولاه المأمون (٢١٣ ـ ٢٣٠).

ويعاصره في فرنسا لويز الأول الملقب باللين (٨١٤ - ٨٤٠) ثم شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠ - ٨٧٧).

الأحوال في عهد المعتصم:

بعد أن تمت البيعة للمعتصم ببلاد الروم عاد بالعسكر قاصداً بغداد بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأحرق ما لم يقدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكنه ذلك من الناس إلى بلادهم. وكان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل رمضان سنة ٢١٨.

وزراء المعتصم:

الفضل بن مروان بن ماسرخس. كان رجلاً نصرانياً من أهل البردان وكان متصلاً برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط ثم صار مع كاتب كان للمعصتم قبل أن يستخلف وهذا الكاتب هو يحيى الجرمقاني فلما مات يحيى صير الفضل في موضعه ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التي بلغها والفضل كاتبه. لما خرج المعتصم مع المأمون في غزوته الأخيرة وكان الفضل ببغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب على لسانه بما أحب فلما بلغه موت المأمون قام بأمر بيعة المعتصم ببغداد وضبط الأمور حتى قدم المعتصم بغداد خليفة فعرف له فضل اجتهاده ونشاطه فسلم إليه أمر الخلافة وخلع عليه ورد أموره كلها إليه فغلب عليه بطول خدمته وتربيته واستقل بالأمور ولم يزل على ذلك سنتين فلما بدا للمعتصم استبداده بالأمور ثقل عليه. كان يدخل على المعتصم فيقول له احمل إلى كذا وكذا من المال فيقول ما عندي فيقول فاحتلها من وجه من الوجوه فيقول ومن أين أحتالها ومن يعطيني هذا القدر من المال وعند من أجده فكان ذلك يسوء المعصتم ويعرف في وجهه. وكان للمعتصم رجل مضحك اسمه إبراهيم الهفتي كان يصحبه قبل الخلافة فيقول له فيما يداعبه والله لا أفلحت أبداً فلما ولي المعتصم أمر للهفتي بمال وأمر الفضل أن يعطيه إياه فلم يفعل - فبينا الهفتي يوماً عند المعتصم بعد ما بنيت له داره التي ببغداد واتخذ له فيها بستان قام المعتصم يمشي في البستان ينظر إليه وإلى ما فيه من أنواع الرياحين

والغروس ومعه الهفتي وكان رجلاً مربوعاً ذا كدنـة والمعتصم رجلاً معـرقاً خفيف اللحم فجعـل المعتصم يسبق الهفتي في المشي فإذا تقـدم ولم يره التفت إليـه فقال مـالك لا تمشي يستعجله في المشي فلما كثـرذلك من أمـر المعتصم قـال لـه الهفتي مـداعباً كنت أراني أمـاشي خليفـة ولم أكن أراني أمـاشي فيجـا والله لا أفلحت ـ فضحـك المعتصم وقال ويلك وهـل بقي من الفلاح شيء لم أدركـه بعد الخـلافـة فقال الهفتي أتحسب أنك أفلحت الآن إنما لك من الخـلافة الاسم والله مـا يجاوز أمـرك أذنك وإنمـا الخليفة الفضـل بن مروان الـذي ينفذ أمـره من ساعتـه فقال المعتصم أي أمـر لي لا ينفذ فقـال الهفتي أمرت لي بكـذا وكذا منـذ شهـرين فـما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة فاحتجهـا المعتصم على الفضل مع ما سبق لـه معه فأول مـا فعله أن جعل عليـه زمامـاً في نفقات الخـاصة وهـو أحمد بن عمـار الخراساني وزماماً في الخـراج وجميع الأعمـال وهو نصر بن منصـور. ثم زاد الأمر واستفحل فاشتد غضب المعتصم عليه وعلى أهل بيته وأمرهم برفع ما جرى عـلى أيـديهم أي تقديم الحسـاب عما وصـل إليهم من المـال وعـما صـرفـوه ولمـا فـرغ الحسـاب أمر بحبس الفضـل وأن يحمل إلى منـزله ببغـداد ثم نفي إلى قـريـة في طريق الموصل يقال لها السن وبقي كذلـك حياة المعتصم قـال الصولي في أخبـار الوزراء إن المعتصم أخذ من بيته لما نكبه ألف ألف دينار وأخـذ أثاثـاً وآنية بألف ألف دينار.

كـان الفضل قليـل المعرفـة بالعلم جيـد الكتابـة ومن المـأثـور عنـه. . لا تتعرض لعدوك وهو مقبل فإن إقباله يعينه عليك ولا تتعرض لـه وهو مـدبر فـإن إدباره يكفيك أمره واستمرت حياة الفضل بن مروان إلى سنة ٢٥٠ .

واستوزر المعتصم بعد الفضل أحمد بن عمار الخراسـاني الذي تقـدم ذكره فلم يكن فيـه كفايـة كتابيـة. ورد على المعتصم كتـاب من بعض العمـال فقـرأه الوزير عليه وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم مـا الكلأ فقـال لا أدري. فقال المعتصم خليفة أمي ووزير عامي (وكـان المعتصم ضعيف الكتابـة) ثم قال أبصروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فـأدخلوه إليه فقال له ما الكلأ ـ فقال الكلأ العشب على الإطلاق فإن كان رطباً فهو الخلأ فإذا

يبس فهو الحشيش وشرع في تقسيم أنواع النبات فعرف المعتصم فضله واستوزره.

محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات: كان جده أبان رجلا قروياً من الدسكرة يجلب الزيت من موضعه إلى بغداد فعرف محمد به. نشأ محمد ببغداد فتعلم وتأدب ونال من ذلك حظاً وافراً حتى قيل إن أبا عثمان المازني لما قدم بغداد في أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو فإذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب (يعني ابن الزيات) فسألوه فاعرفوا جوابه فيفعلون ويصدر جرابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان ويوقعهم عليه. وكان محمد في أول أمره من الكتاب بالديوان فحصلت المسألة التي شرحناها في تاريخ أحمد بن عمار فاستوزره المعتصم فقام بأمر الوزارة خير قيام واستمر وزيراً إلى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء بعد ذلك كما يأتي:

وكان محمد بن عبد الملك مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك شاعراً ظريفاً عده دعبل بن علي في طبقات الشعراء وذكره أبو عبد اللّه هارون بن المنجم في كتابه البارع ومن رقيق شعره قوله في موت أم ابنه ولابنه ثماني سنوات:

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تجيبه ... بلابل قلب دائم الخلفقان
فهبني أطلت الصبر عنها لأنني ... جليد فمن للصبر بابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الصبر جسـ ... ـمه ولا يأتسي بالناس في الحدثان

وقد مدحه الوليد بن عبادة الشاعر المعروف بالبحتري بقصيدة مطلعها:

بعض هذا العتاب والتفنيد ... ليس ذم الوفاء بالمحمود

يقول فيها واصفاً ما منحه من البلاغة:

لتفننت في الكتابة حتى ... عطل الناس فن عبد الحميد

في نظام من البلاغة ما شـ ـك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخـ ـلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القرا طيس وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى عن أغاني مخارق وعقيد
حجج تخرس الألد بألفا ظ فرادي كالجوهر المعقود
ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدر كن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البيـ ـض إذا رحن في الخطوط السود
قد تلقيت كل يوم جديد يا أبا جعفر بمجد جديد
يئس الحاسدون منك وما يجـ ـدك مما يرجوه ظن الحسود
وإذا استطرفت سيادة قوم بنت بالسؤدد الطريف التليد
وذوو الفضل مجمعون على فضـ ـلك من بين سيد ومسود
عرف العالمون فضلك بالعـ ـلم وقال الجهال بالتقليد

والذي كان يعاب عليه شدته في معاملة العمال الذين يصادرهم لخيانتهم في الأعمال وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمني قال الرحمة خور في الطبيعة.

أحمد بن أبي داؤد الإيادي: كان من المعتصم كيحيى بن أكثم من المأمون ولذلك سقنا خبره في عداد الوزراء.

أصل بيته فيما يقال من إحدى قرى قنسرين كان أبوه يتجر إلى الشام أما هو فولد بالبصرة سنة ١٦٠ ونشأ بها في طلب العلم وخاصة الفقه والكلام وصحب هياج بن العلاء السلمي وكان من أصحاب واصل بن عطاء الغزالي كبير المعتزلة ومقدمهم.

فمال أحمد من أجل ذلك إلى الاعتزال وكان يحضر ببغداد مجلس القاضي

يحيى بـن أكثم فلما أمره المأمون أن يختار جماعة من الفقهـاء يجالسـونه ويبحثـون معه كان أحمد في هؤلاء المختارين فكان المأمـون إذا شرع أحمـد في الكلام ينـظر إليه ويتفهم ما يقول ويستحسنه فأمره أن يحضر مجلسه دائماً ولا يتأخر عنـه وأحبه المأمـون جداً وخف على قلبه حتى قال لأخيـه المعتصم في وصيته (وأبـو عبد اللّه أحمد بن أبي دؤاد لا يفارقك وأشركه في المشورة في كل أمرك فـإنه مـوضع لـذلك منك) فولاه المعتصم قضاء القضاة واختص به حتى كان لا يفعل فعلاً بـاطناً ولا ظاهراً إلا برأيه فكان له في حياة المعتصم مركز لا يدانيه فيه أحـد حتى قال أزون بن إسمـاعيل مـا رأيت أحداً قط أطـوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد وكـان يسأل الشيء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبي دؤاد فيكلمه في أهله وفي الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل ما يريد ولقد كلمـه يوماً في مقدار ألف ألف ليحفر بها نهراً في أقاصي خراسان فقال المعتصم وما على من هذا النهر فقال يا أمير المؤمنين إن اللّه تعالى يسألـك عن النظر في أمـر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ولم يزل يرفق به حتى أطلقها.

وقال الحسين بن الضحـاك الشاعـر لبعض المتكلمين: ابن دؤاد عنـدنا لا يعرف اللغة وعندكم لا يحسن الكلام وعند الفقهاء لا يحسن الفقه وعند المعتصم يحسن هذا كله

كـان ابن أبي دؤاد ممن يحبـون الخـير للناس ولـه شرف نفس وجمـال خلق عربي حتى عرف بـالمروءة وكـان يحمل في سبيلهـا ما لا يحمله أحـد قال ابن عبـد الرحمن الكلبي: ابن أبي دؤاد روح كله من قرنـه إلى قدمـه. ومن طريف نـوادره في المـروءة أن الأفشين كـان يحسد أبـا دلف القاسم بن عيسى العجـلي للعـربيـة والشجاعة فاحتأل عليه حتى شهد عليه بجناية قتل فأخذه وأحضر السيـاف لقتله وبلغ الخبـر ابن أبي دؤاد فخـاف إذا هـو ذهب إلى المعتصم وكلمـه في شـأنـه أن يكون الكلام بعد فوات الـوقت فركب فـوراً مع من حضـره من العدول ودخـل على الأفشين وقد جيء بأبي دلف ليقتل فوقف وقال إني رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرك ألا تحدث في القاسم بـن عيسى حـدثـا حتى تسلمـه إلي ثم التفت إلى العدول وقال اشهدوا أني أديت إليه الرسالة عن أمير المؤمنين والقاسم حي معافى

فقالوا شهدنا وخرج فلم يقدر الأفشين على تنفيذ مراده وذهب ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته فقال له يا أمير المؤمنين قد أديت عنك رسالة لم تقلها ما أعتد بعمل خير خيراً منها وإني لأرجو لك الجنة بها ثم أخبره الخبر فصوب المعتصم رأيه ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ووصله وعنف الأفشين على ما كان عزم عليه.

وكان وجود ابن أبي دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لأنه شجاع شديد عجول فكان إذا أسرع إليه الغضب هدأ ابن أبي دؤاد من حدته وأراه وجه الأناة والعفو فلا يسعه إلا أن يسير في سبيلهما وكان له عليه من الدالة وعلو المركز ما يستعين به على تنفيذ غرضه. غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وأشخصه من ولايته لعجز لحقه في مال طلب منه فجلس المعتصم لعقوبته وكان خالد قد طرح نفسه على ابن أبي دؤاد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس المعتصم حضر أحمد وهو قاضي القاضة فجلس دون مجلسه المعتاد فقال له المعتصم يا أبا عبد اللّه جلست في غير مجلسك فقال ما ينبغي لي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا فقال له وكيف؟ قال لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فيشفع - فقال المعتصم ارجع إلى مجلسك، قال مشفعاً أو غير؟ قال بل مشفعاً فارتفع إلى مجلسه ثم قال إن الناس ما يعلمون رضاء أمير المؤمنين إن لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال يا أمير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال قد أمرت له بها فخرج خالد وعليه الخلع وبين يديه المال وإن الناس ينتظرون الإيقاع به فصاح به رجل الحمد للّه على خلاصك يا سيد العرب فقال له أسكت سيد العرب واللّه أحمد بن دؤاد. وكان في ابن أبي دؤاد عصبية عربية ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئاً من مقامهم في عهد المعتصم الذي جعل القوة كلها لغلمان الأتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم.

وكان ابن أبي دؤاد مع ذلك شاعراً أديباً مجيداً فصيحاً بليغاً ذكره دعبل في طبقات الشعراء ومن مأثور قوله ثلاثة ينبغي أن يبجلوا وتعرف أقدارهم العلماء

وولاة العدل والإخوان فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته ولأبي تمام فيه مدائح جليلة منها قصيدته التي مطلعها

سقى عهد الحمى سيل العهاد ... وروض حاضر منه وباد

ويقول فيها:

لقد أفنت مساوي كل دهر ... محاسن أحمد بن أبي دؤاد
متى تحلل به تحلل جنابا ... رضيعاً للسواري والغوادي
ترشح نعمة الأيام فيه ... وتقسم منه أرزاق العباد
وما اشتبهت طريق المجد إلا ... هداك لقبلة المعروف هاد
وما سافرت في الآفاق إلا ... ومن جدواك راحلتي وزادي
مقيم الظن عندك والأماني ... وإن قلقت ركابي في البلاد
معاد البعث معروف ولكن ... ندى كفيك في الدنيا معادي

العلويون في عهد المعتصم:

لأول عهده توفي محمد الجواد بن علي الرضا تاسع أئمة الشيعة الإمامية الاثنى عشرية وكانت وفاته سنة ٢٢٠ وسنة ٢٥ سنة وكانت تحته أم الفضل بنت المأمون فحملت إلى قصر عمها المعتصم فتولى الإمامة بعده ابنه أبو الحسن علي الهادي وكانت سنه حين مات أبوه سبع سنين.

وخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي. كان مقيماً بالكوفة ثم خرج منها إلى الطالقان من خراسان يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ فاجتمع إليه بها ناس كثير فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر أمير خراسان وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحية الطالقان وجبالها فهزم هو وأصحابه فخرج هارباً يريد بعض كور خراسان كان أهله كاتبوه فلما وصل إلى نسا دل عليه فأخذه عاملها واستوثق منه وبعث به إلى عبد الله بن طاهر فأرسل به إلى المعتصم فحبس بسامرا سنة ٢١٩ فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج بواسطة رجال

من شيعته فهرب ولم يعرف له خبر وقد انقاد إلى إمامته كثيرون من الزيدية ومنهم كثير يزعمون أنه لم يمت وأنه حي يرزق وأنه يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وأنه مهدي هذه الأمة وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وبقي ذلك الاعتقاد حتى سنة ٢٣٢ كما قال المسعودي في مروج الذهب.

الجيش:

قدمنا ما كان في عهد المأمون من كثرة العناصر الغريبة عن الأمة العربية في جيش الدولة العباسية وذلك أمر قضت به الأحوال لذلك العهد كما شرحنا ذلك فلما جاء المعتصم أربى على أسلافه في ذلك فقد كان يغلب عليه من أخلاق الرجال الشجاعة والميل إلى الشجعان. رأى أن من ببغداد من جنود الأبناء لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى للأتراك من شدة البأس والنجدة فأراد أن يكون منهم جيشاً يستعز به على هؤلاء الأبناء ويرغم أنوفهم فاستكثر من غلمان الأتراك وأحضر منهم عدداً عظيماً فوق ما كان منهم في عهد أخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بمرة وأسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهده إلا من كان من الأتراك أو الأبناء إلا أنه اصطنع قوماً من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس وسماهم المغاربة وأتى بكثير من الفراغنة أهل فرغانة والأشروسنية أهل أشروسنة فكثر جيشه وكان هؤلاء القوم عجماً جفاة يركبون الدواب فيركضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم فشكا الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت به العامة فرأى المعتصم أن بقاء هؤلاء الأتراك في وسط بغداد وبجانب جنود الأبناء خطر عليهم فكان ذلك سبباً لتفكيره في اختطاط حاضرة جيدة له ولهذا الجيش الجديد الذي أعجب به فاختطت سامرا.

وكان المعتصم يلبس هؤلاء الجنود أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزي عن سائر جنوده واشتهر منهم قواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم وجعل بيدهم مستقبل الخلافة الإسلامية وسنذكر بعضهم:

١ ـ الأفشين حيدر بن كاوس وهو تركي من أشروسنة «كورة من بلاد ما وراء النهر شرقيها فرغانة وغربها سمرقند وشماليها الشاش وبعض فرغانة وجنوبيها بعض حدود كش والضفاينان وغيرهما ومدينتها التي يسكنها الولاة بنجكث.

كان حيدر في حاشية المعتصم في حياة المأمون وأصله من أبناء ملوك أشروسنة الذين يلقب الواحد منهم بالأفشين ولما رأى شجاعته وشهامته استعان به فيما ولي من الأعمال وكان المعتصم والياً على مصر والشام فأرسله نيابة عنه لإزالة الإضطراب في برقة ومصر فنجح فيهما. ولما استخلف المعتصم كان الأفشين في مقدمة قواده فعين سنة ٢٢٠ لحرب بابك كما تقدم ذكره فظهرت على يديه عظائم الأعمال وإحكام سير الجيوش حتى ظفر بخصمه مع مناعة موقعه. ولما أمره المعتصم بالعود إلى سامرا كان يوجه إليه كل يوم من حين فصل من برزند إلى أن وافى سامرا فرساً وخلعة. ولما حضر توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين ألف ألف درهم منها عشرة الاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف يفرقها في أهل عسكره وعقد له على السند. ولما غزا المعتصم عمورية كان قائداً لإحدى الفرق الثلاث التي دخلت بلاد الروم وهو الذي تولى حرب ترفيل ملك الروم وهزم جنده. كل ذلك الإعظام والإجلال جعل الأفشين يمني نفسه بالملك والاستقلال في بلاده أشروسنة يوماً ما وأول ما عرف ذلك منه أنه كان وهو يحارب بابك لا يأتيه هدية ولا مال إلا وجه به إلى أشروسنة فيجتاز ذلك بعبد اللّه بن طاهر أمير خراسان فيكتب إلى المعتصم يخبره فيكتب المعتصم إلى ابن طاهر يأمره بتعريف جميع ما يوجه الأفشين من الهدايا إلى أشروسنة فيفعل ذلك عبد اللّه. كان الأفشين كلما تهيأ عنده مال حمله أوساط أصحابه بقدر طاقتهم فكان الرجل يحمل من الألف فما فوقه من الدنانير في وسطه فأخبر عبد اللّه بذلك. فبينا هو في يوم من الأيام وقد نزلت رسل الأفشين نيسابور ومعهم الهدايا وجه إليهم ابن طاهر وأخذهم ففتشهم فوجد في أواسطهم هميانين فأخذهما منهم وقال لهم من أين لكم هذا المال فقالوا هذه هدايا الأفشين وأمواله فقال كذبتم لو أراد الأفشين أخي أن يرسل بهذه الأموال لكتب إليَّ يعلمني به

لأبذرقه «أحرسه» لأن هذا مال عظيم وأنتم لصوص فأخذ عبد اللّه وأعطاه جنده وكتب إلى الأفشين يذكر له ما قال القوم وقال أنا أنكر أن تكون وجهت بهذا المال إلى أشروسنة ولم تكتب إليَّ تعلمني لأبذرقه فإن كان هذا المال ليس لك فقد أعطيته الجند مكان المال الذي يوجه إلى أمير المؤمنين في كل سنة وإن كان المال لك كما زعم القوم فإذا جاء المال من قبل أمير المؤمنين رددته إليك وإن يكن غير ذلك فأمير المؤمنين أحق بهذا المال وإنما دفعته إلى الجند لأني أريد أن أوجههم إلى بلاد الترك. فكتب إليه يعلمه أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد ويسأله إطلاق القوم ففعل ذلك ابن طاهر.

رأى الأفشين أنه لا يتم له أمر ما دام ابن طاهر بخراسان فانتظر الفرص ليحمل المعتصم على عزله وتوليته مكانه وحينئذ يتسع له المجال. كان ببلاد طبرستان دهقان من أبناء ملوكها اسمه مزيار بن قاون بن نداهرمز وكان منافراً لآل طاهر لا يحمل إليهم الخراج ويحمله إلى المعتصم فكان إذا وصل المال همذان يأمر المعتصم رجلاً من قبله فيستوفيه ثم يسلمه إلى صاحب عبد اللّه بن طاهر ليرده إلى خراسان فكانت هذه الحال بينهما حتى زادت المنافرة وبلغت حدها الأقصى فأراد الأفشين انتهاز هذه الفرصة فكتب إلى مازيار يقويه على خلاف ابن طاهر ويخبره أن المعتصم ولاه إمارة خراسان وأراد الأفشين بذلك أن يخالف مازيار فيولي المعتصم الأفشين حربه ويكون له مع ذلك ولاية خراسان ودعا ذلك مازيار إلى إظهار الخلاف وشق عصا الطاعة ومنع الخراج وتحصن بجبال طبرستان. بلغ ذلك عبد اللّه بن طاهر فوجه إليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب وضم إليه جيشاً كثيفاً يحفظ جرجان ووجه المعتصم من قبله محمد بن إبراهيم بن مصعب في جمع كثيف وضم إليه الحسن بن قاري الطبري القائد ومن كان بالباب من الطبرية ووجه منصور بن الحسن صاحب دنباوند إلى مدينة الري ليدخل طبرستان من ناحية الري ـ ولم ينتدب الأفشين لشيء مما كان ظن وقد أحاطت هذه الجنود بطبرستان من كل جانب وهزمت جنود مازيار ـ فرأى أن يستأمن إلى الحسن بن الحسين فاستأمن إليه هو وأخوه قوهيار فأمر عبد اللّه بن

طاهر بتسليم مازيار وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم فحملهم إلى المعتصم بسامرا.

تحقق المعتصم من كل ما بلغه عن الأفشين وأطلع على الكتب التي كان أرسلها أخو الأفشين إلى مازيار وعلم الأفشين ذلك فعزم على الهرب وصار يدبر التدابير الشنيعة للفتك بالمسلمين وقد وصل شيء من علم ذلك إلى قائد من القواد الأشروسنية فأخبر به المعتصم فأمر بحضور الأفشين ولما حضر أخذ سواره وحبسه ثم أحضره في مجلس عام لتبكيته ومناظرته وكان الذي تولى ذلك الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فثبت من التحقيق أن الرجل لا يزال على كفره وأنه كان يكيد المكايد للوصول إلى ملك بلاده وأن أهل أشروسنة كانوا يخاطبونه بإله الآلهة ثم ثبت أنه كان يكاتب المازيار وشهد المازيار أن أخا خاش كتب إلى قوهيار أخي مازيار (إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك فأما بابك فإنه بحمقه قتل نفسه ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه فإن خالفت لم يكن للقوم ما يرمونك به غيري ومعي الفرسان وأهل النجدة والبأس فإن وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة المغاربة والعرب والأتراك والعربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (يعني المغاربة) إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (يعني الأتراك) فإنما هي ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتي على آخرهم ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه (أيام العجم) - ولما تبين أمره قال القاضي أحمد بن أبي دؤاد قد وضح لكم أمره فعليك به يا بغا فأعيد إلى محبسه حتى مات وبعد موته أخرج وصلب على باب العامة حتى يراه الناس ثم أحرق مع خشبته.

٢ - إيتاخ: كان غلاماً خزرياً لسلام الأبرش طباخاً فاشتراه المعتصم سنة ١٩٩ وكان لإيتاخ رجولة وبأس فرفعه المعتصم وولاه بعد الخلافة معونة سامرا مع إسحاق بن إبراهيم وكان من قبله رجل ومن قبل إسحاق رجل وكان من أراد المعتصم قتله فعند إيتاخ يقتل وبيده يحبس وولاه المعتصم قيادة إحدى الفرق الثلاث التي دخلت بلاد الروم إلى عمورية وقد استمر إيتاخ على منصبه وزعامته

مدة الواثق وقتل لأول عهد المتوكل سنة ٢٣٥. ففي سنة ١٩٩ اشترى بالمال وفي عهد الواثق كانت المملكة في يده فكان إليه الجيش والمغاربة والأتراك والبريد والحجابة ودار الخلافة ـ وما الذي بقي بعد هذا.

٣ ـ أشناس: غلام تركي اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان في غزوة عمورية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامرا حينما خرج منها وزاده رفعة سنة ٢٢٥ بأن أجلسه على كرسي وتوجه ووشحه كما فعل بالأفشين وزوج ابنته أترنجة للحسن بن الأفشين وأحضر عرسه عامة أهل سامرا وكانه يباشر بنفسه تفقد من حضر. وكانت تلك منزلته عند الواثق حتى أنه في سنة ٢٢٨ توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ولم يزل في عظمته حتى توفي سنة ٢٣٠.

وغير هؤلاء كان من القواد عجيف بن عنبسة ووصيف وبغا الكبير أبو موسى وغيرهم.

كل هؤلاء قواد من الأتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلمهم زمام ملك آبائه العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجلوبين فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب يتصرفون فيهم كما يشاؤون. ومع اغترار المعتصم بهؤلاء القواد كان يحس بما وقع فيه من الخطإ باختيارهم ولا سيما أنه ليس لأكثرهم نسب معروف فقد حدث إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له يا إسحاق في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيه لك ـ نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم اصطنع المأمون طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذي لم ير مثله وأنت فأنت والله الذي لا يعتاض منك السلطان أبداً وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد، وأما أنا فاصطنعت الأفشين فقد رأيت إلى ما صار إليه أمره وأشناس ففشل رأيه وإيتاخ فلا شيء ووصيف فلا مغنى فيه ـ فقال إسحق جعلني الله فداك أجيب وعلي أمان من غضبك قال قل ـ قلت يا أمير المؤمنين أعزك الله نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب إذ لا أصول لها ـ فقال يا إسحاق لمقاساة ما مر بي في

طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب.

المعتصم وحده يتحمل تبعة أكثر ما حل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالأمة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها. لم يكن الرجل بعيد النظر في العواقب وإنما كان شجاعاً جسوراً يحب الشجعان ويعتز بهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم أحساب يحمونها أم ليست لهم أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا؟ وهذا خطأ يحط بقدر الدول وينزلها من عظمتها.

ومن النتائج التي سببها غطرسة هؤلاء الجنود الغرباء وعدم احترامهم لحقوق الأمة ثورة أبي حرب المبرقع اليماني بفلسطين، وذلك أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها وذلك أمر لم يكن معروفاً في الدولة العربية قبل ذلك وكان في الدار إما زوجة أبي حرب وإما أخته فمانعته من ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها فلما رجع أبو حرب إلى منزله شكت إليه ما فعل بها وأرته الأثر فاشتمل سيفه ومشى إلى الجندي وهو غار فقتله ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كيلا يعرف فصار إلى جبل من جبال الأردن فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى إليه متبرقعاً فيراه الرائي فيأتيه فيذكره ويحرضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتي إلى الناس ويعيبه فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حراثي أهل تلك الناحية وأهل القرى فلما كثرت غاشيته من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية منهم رجل يقال له ابن بيهس كان مطاعاً في أهل اليمن فاتصل خبره بالمعتصم فبعث إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل من الجند فلما صار إليه وجده في عالم من الناس زهاء مائة ألف فتريث رجاء حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم وانصرف من كان معه من الحراثين إلى الحراثة وأرباب الأرضين إلى أراضيهم وبقي أبو حرب في زهاء ألف أو ألفين فناجزه رجاء وأسره رجل ممن معه ثم سار به إلى المعتصم أسيراً.

الخراج:

كما يمتاز عصر المأمون بالثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة يمتاز عصر المعتصم بالثبت الذي أورده قدامة بن جعفر في كتاب الخراج له عن مقدار الجباية في عهد المعتصم ونحن نورد خلاصته

الجهة	مقدار الجباية بالدراهم أو الدنانير	
سواد العراق	١١٤ ٥٦٧ ٦٥٠	درهم
الأهواز	٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠	
فارس	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
كرمان	٦ ٠٠٠ ٠٠٠	
مكران	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
أصبهان	١٠ ٥٠٠ ٠٠٠	
سجستان	١ ٠٠٠ ٠٠٠	
خراسان	٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٩ ٠٠٠ ٠٠٠	
الماهين	٩ ٨٠٠ ٠٠٠	
همذان	١ ٧٠٠ ٠٠٠	
ماسبذان	١ ٢٠٠ ٠٠٠	
مهرجان قذق	١ ١٠٠ ٠٠٠	
الايغارين	٣ ١٠٠ ٠٠٠	
	٢٤٢ ٨٥٧ ٦٥٠	
ما قبله	٢٤٢ ٨٥٧ ٦٥٠	درهم
قم وقاشان	٣ ٥٠٠ ٠٠٠	
أذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠	
الري ودنباوند	٢٠ ٠٨٠ ٠٠٠	
قزوين وزنجان وأبهر	١ ٨٢٨ ٠٠٠	

قومس	١ ١٥٠ ٠٠٠	
جرجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
طبرستان	٤ ٢٨٠ ٧٠٠	
تكريت والطبرهان	٩٠٠ ٠٠٠	
شهرزور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠	
الموصل وما إليها	٦ ٠٠٠ ٠٠٠	
قردى وبازبدى	٣ ٢٠٠ ٠٠٠	
ديار ربيعة	٩ ٦٢٥ ٠٠٠	
أرذن وميافارقين	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	
آمد	١٠٠ ٠٠٠	
ديار مصر	٢ ٠٠٠ ٠٠٠	
أعمال طريق الفرات	٦٠٠ ٠٠٠	
	٢ ٩٠٠ ٠٠٠	
المجموع	٣١٤ ٢٧١ ٣٥٠	
قنسرين والعواصم	٣٦٠ ٠٠٠	دينار
جند حمص	٢١٨ ٠٠٠	دينار
جند دمشق	١١٠ ٠٠٠	دينار
جند الأردن	١٠٩ ٠٠٠	دينار
جند فلسطين	٢ ٥٠٠ ٠٠٠	دينار
مصر والإسكندرية	٢ ٥٠٠ ٠٠٠	دينار
	٣ ٩٥٢ ٠٠٠	
ما قبله	٣ ٥٩٢ ٠٠٠	دينار
الحرمين	١٠٠ ٠٠٠	
اليمن	٦٠٠ ٠٠٠	
اليمامة والبحرين	٥١٠ ٠٠٠	
عمان	٣٠٠ ٠٠٠	
	٥ ١٠٢ ٠٠٠	

وذلك قريب مما كان في حياة المأمون لأن الأحوال لم تتغير تغيراً يذكر.

العلاقات الخارجية:

قدمنا أن الذي كان يعاصر المعتصم من ملوك الروم توفيل بن ميخائيل وكان ينتهز الفرص لينتقم من المسلمين الذين دوخوه وألزموه أن يدفع الفدية قهراً فحدث أنه لما كان الأفشين يحارب بابك وقد ضيق عليه أن كتب بابك إلى ملك الروم يقول إن ملك العرب قد وجه معظم عساكره إليَّ ولم يبق على بابه أحد فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك وكان يطمع أن ملك الروم إذا تحرك ينكشف عنه بعض ما هو فيه فلم يلبث توفيل أن خرج في مائة ألف مقاتل حتى أتى زبطرة ومعه جمع من المحمرة الذين أجلاهم إسحاق بن إبراهيم عن الجبال كما ذكرنا ذلك في حروب البابكية فلما دخل زبطرة قتل من فيها من الرجال وسبى النساء والذرية وأحرق المدينة ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصن من حصون المسلمين وسبى من المسلمات فيما قيل أكثر من ألف امرأة ومثل بمن صار في يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم. بلغت تلك الأخبار المعتصم بسامرا فاشتد عليه وصاح في قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة فلم يستقم له الخروج إلا بعد التعبئة ولكنه أرسل مقدمته لتكون مدداً لأهل زبطرة فلما شارفتها وجدت ملك الروم قد رحل عنها فوقفوا قليلاً حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا.

فلما انتهى أمر بابك سأل المعتصم أي بلاد الروم أمنع وأحصن فقيل عمورية وهي مسقط رأس توفيل كما أن زبطرة مسقط رأس المعتصم ولم تكن غزيت قبل ذلك فتجهز المعتصم جهازاً لم يتجهزه خليفة قبله من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط وكانت التعبئة هكذا ـ على المقدمة أشناس ويتلوه عمد بن إبراهيم المصعبي وعلى الميمنة إيتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار بن عبد اللّه الخياط وأمر الأفشين أن يمضي فيدخل بلاد الروم من درب الحدث وسمى له يوماً أمره أن يكون وصوله فيه إلى أنقرة وقدر هذا اليوم بنفسه لأشناس الذي أمره أن يكون دخوله من درب طرسوس، ولما وصل أشناس إلى مرج الأسقف ورد عليه كتاب من المعتصم يأمره بالتوقف

لأنه بلغه عن ملك الروم أنه على نهر اللامس ويريد العبور ليكبس أشناس وجنده فأقام بالمرج ثلاثة أيام ثم علم بواسطة الجواسيس أن ملك الروم ارتحل عن نهر اللامس يريد مقابلة الأفشين فأرسل بخبر ذلك إلى المعتصم فبعث الأدلاء مسرعين يخبرون الأفشين بذلك وأمره أن يقف مكانه حذراً من مواقعة ملك الروم قبل أن تجتمع الجيوش فلم تصل هذه الأدلاء إلى الأفشين فتم على مسيره حتى التقى بملك الروم فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الأفشين أول النهار ثم أعاد الكرة في الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة وتفرقت عنه الجنود. أما عسكر أشناس والمعتصم فإنهما وردا أنقرة من غير أن يلقيا حرباً لتفرق الجنود التي كان الملك قد جعلها لمحاربة المعتصم ثم ورد الأفشين بعد مقدمهما بيوم أنقرة.

وحينئذ قسم المعتصم الجيش ثلاثة أقسام قسم فيه أشناس في الميسرة وقسم فيه المعتصم وهو القلب وقسم فيه الأفشين وهو الميمنة وبين كل قسم فرسخان فسارت هذه الأقسام على تعبئة وسارت هذه الأقسام حتى بلغت عمورية وبينها وبين أنقرة سبع مراحل كان أول من وردها أشناس فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها وجاء بعده المعتصم فدار حولها دورة ثم جاء الأفشين فكذلك تحصن أهل عمورية وتحرزوا فحصرها الجيش المعتصمي وكان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة وكثرة ونصبت المجانيق فضربت بها الأسوار لإتلافها حتى سقط منها جانب في ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وأعمال جسام ثم حصل القتال في ناحية هذه الثلمة بعد أن ردمت الخنادق ولم يزل القتال مستمراً حتى اقتحم المسلمون عمورية عنوة وغنموا منها مغانم كثيرة، وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه في زبطرة وملطية وبعد انتهاء الواقعة عاد المعتصم إلى طرطوس وكانت إناخته على عمورية في ٦ رمضان سنة ٢٢٣ وقفل عنها بعد ٥٥ يوماً.

ومن غريب الأمور وأكبر الجرائم أن العباس بن المأمون اتفق مع بعض قواد المعتصم من الأتراك على أن يغتالوا المعتصم ويقيموه خليفة مقامه، تآمروا على ذلك وهم في وجه العدو والعهد قريب باصطناع المعتصم لهم وإغداق النعم

عليهم فلم يتم لهم غرض واطلع المعتصم على سر مؤامرتهم فأخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس العباس حتى مات من شدة الأذى وكان الذى تولى كبر ذلك عجيف بن عنبسة.

ولما ورد المعتصم سامرا كان دخوله إليها يوماً مشهوداً وامتدحه أبو تمام حبيب بن أوس بقصيدته المشهورة التي أولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

يقوم فيها:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب
أو لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا ... فداءها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها ... كسرى وصدت صدوداً عن أبي كرب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد ... شابت نواصي الليالي وهي لم تشب
بكر فما افترعتها كف حادثة ... ولا ترقت إليها همة النوب
حتى إذا مخض اللّه السنين لها ... مخض الحليبة كانت زبدة الحقب
أتتهم الكربة السوداء سادرة ... منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفأل نحساً يوم أنقرة ... إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
ولما رأت أختها بالأمس قد خرجت ... كان الخراب لها أعدى من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل ... قاني الذوائب من آني دم سرب
بسنة السيف والخطى من دمه ... لا سنة الدين والإسلام مختضب

لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الضحى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة ... وظلمة من دخان في ضحى شحب

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت والشمس واجبة في ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصريح الغمام لها عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

ويقول في ختامها:

خليفة اللّه جازى اللّه سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بني الأصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

صفات المعتصم:

كانت أظهر صفات المعتصم الشجاعة والإقدام وشدة البأس وكان يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة فأولها عمران الأرض التي يحياها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال ويعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة عشر درهم فلا تؤامرني فيه. ولم يكن للمعتصم نفوذ في العلم كأخيه المأمون ولا كأبيه الرشيد وإنما كان همه الجيش وتحسينه.

ومن آثاره إختطاط مدينة سامرا وها نحن أولاء نقص شيئاً من أمرها.

لما ضاقت بغداد عن عسكر المعتصم من الأتراك قال لأحد كتابه إني أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلوا غلماني فإذا ابتعت لي موضع سنامرا كنت فوقهم فإن رابني رائب أتيتهم في البر والبحر حتى آتي عليهم فقصد كاتبه موضع سامرا وهو على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخاً (١٥٠ كيلومتراً) فابتاع ديراً كان هناك بخمسة آلاف درهم وابتاع بستاناً كان في جانبه بمثل ذلك ولما تم أمر البيع خرج المعتصم في آخر سنة ٢٢٠ حتى نزل القاطول وهو نهر سامرا كان احتفره الرشيد وبنى عليه قصراً فنزل المعتصم هناك وبدأ بالبناء سنة ٢٢١ فبنى داراً له وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره وبنى مسجداً

جامعاً في طرف الأسواق وأنزل أشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامرا وهو كرخ فيروز. وما زال البنيان يتسع حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الإسلامية وكادت تضارع بغداد وأعظم اتساع وحضارة لها كان في عهد المتوكل بن المعتصم وسيذكر ذلك بعد.

وفاة المعتصم:

احتجم المعتصم في أول يوم من المحرم سنة ٢٢٧ فأصيب عقب ذلك بعلته التي قضت عليه يوم الخميس لثماني ليال مضت من شهر ربيع الأول من تلك السنة ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقال:

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت	عليك أيد بالتراب والطين
اذهب فنعم الحفيظ كنت	على الدنيا ونعم الظهير للدين
لا جبر الله أمة فقدت	مثلك إلا بمثل هارون

ولاية العهد:

ولى المعتصم عهده ابنه هارون ولم يجعل معه في الولاية غيره.

٩ ـ الواثق

هو أبو جعفر هارون الواثق باللّه بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ولد سنة ١٨٦ بطريق مكة وبويع بالخلافة عقب وفاة والده في يوم الخميس ٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧ (٥ يناير سنة ٨٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن توفي لست بقين من ذي الحجة سنة ٢٣٢ (أغسطس سنة ٨٤٧) فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر و١٥ يوماً وسنة ٣٦ سنة.

ويعاصره من الملوك والأمراء المستقلين من كان يعاصر أباه إلا في مملكة الروم بالقسطنطينية فإن توفيل مات في السنة التي توفي فيها المعتصم وخلفه ابنه ميخائيل الثالث الملقب بالسكير وكان إذ ذاك صبياً فكانت أمه بدوره تقوم مقامه وفي خراسان حيث توفي عبد اللّه بن طاهر سنة ٢٣٠ ولى بعده ابنه طاهر بن عبد اللّه.

وزراء الواثق:

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه وكان الواثق متغيراً عليه في حياة أبيه حتى حلف أنه لينكبه إذا صار خليفة لكنه لما استخلف غلب عقله على هواه لأنه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك فكفر عن يمينه وصار هذا الوزير في عهده صاحب الأمر والنهي أكثر مما كان في عهد أبيه.

الجيش:

كانت حال الجيش لعهد الواثق كما كانت في حياة أبيه إلا أن قدم المماليك

التي اصطنعهم المعتصم قد توطدت وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم ولا سيما أشناس الذي توجه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر في شهر رمضان سنة ٢٨٨ وقد قام قواد الأتراك بأعظم الأعمال الحربية حتى في جزيرة العرب نفسها التي كانت حمى ما يستطاع أن تتعدى حدوده وهنا نسوق أسباب الاضطراب الذي كان هناك وكيف أزيل.

كان بنو سليم من قيس عيلان من أقوى القبائل العربية وأكثرها عدداً وكانوا ينزلون بالقرب من المدينة بالحرة المعروفة بهم وهي حرة بني سليم فاجترءوا بالتطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانوا إذا وردوا سوقاً من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاءوا ثم ترقى بهم الأمر إلى أن أوقعوا بالجارين ناس من كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ وكان رئيسهم عزيزة بن قطاب السلمى فوجه إليهم أمير المدينة محمد بن صالح بن العباس حماد بن جرير الطبري وكان الواثق أرسله للمدينة في ٢٠٠ من الشاكرية لئلا يتطرقها الأعراب فتوجه إليهم حماد وقاتلهم بالرويثة على ثلاث مراحل من المدينة وكانت الهزيمة على جند حماد بعد أن قتل وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب وغلظ أمرهم فاستباحوا القرى والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة حتى لم يمكن أن يسلك تلك الطريق وتطرقوا من يليهم من قبائل العرب فوجه إليهم الواثق بغا الكبير في الشاكرية والأتراك والمغاربة فشخص إلى حرة بني سليم وعلى مقدمته طردوش التركي فلقي بني سليم بقراهم وقتل منهم نحو الخمسين وأسر مثلهم وانهزم سائرهم فدعاهم بغا إلى الأمان على حكم الواثق فأتوه واجتمعوا إليه فاحتبس منهم من وصف بالشر والفساد وهم زهاء ألف رجل وخلى سبيل سائرهم ثم رحل بالأسرى إلى المدينة في ذي القعدة سنة ٢٣٠ فحبسهم بها وشخص إلى مكة حاجاً. ولما انقضى الموسم انصرف إلى ذات عرق ووجه إلى بني هلال من عرض عليهم مثل ما عرض على بني سليم فأقبلوا فأخذ من مردتهم وعتاتهم نحواً من ٣٠٠ رجل وخلى سائرهم ثم انصرف إلى المدينة وجعل المحبوسين من بني هلال مع إخوتهم من سليم وجمعهم جميعا في دار يزيد بن معاوية في الأغلال والأقياد وعدتهم نحو ١٣٠٠ رجل وسار هو إلى بني مرة

المحبوسين فنقبوا السجن ليخرجوا فعلم بهم أهل المدينة فجاءوهم واجتمعوا عليهم ومنعوهم الخروج فباتوا محصورين وفي الغد حاربهم أهل المدينة وكاثروهم فقتلوهم أجمعين وقتل سودان المدينة من لقوا من الأعراب في أزقة المدينة ممن دخل يمتار أو يزور. كل ذلك تم وبغا غائب فلما قدم ووجدهم قتلوا شق ذلك عليه ووجد وجداً شديداً.

أما ما فعله ببني مرة وفزارة الذين تغلبوا على فدك فإنه لما قاربهم أرسل إليهم رجلاً فزارياً يعرض عليهم الأمان ويأتيه بأخبارهم فلما قدم عليهم الفزاري حذرهم سطوته وزين لهم الهرب فهربوا ودخلوا البرية وخلوا فدكا ولم يستأمن إليه إلا القليل وهرب الباقون إلى موضع من البلقاء من عمل دمشق. ثم صار إليه جماعة من بطون غطفان وفزارة وأشجع فلما صاروا إليه استحلفهم الأيمان المؤكدة ألا يتخلفوا عنه متى دعاهم فحلفوا ثم شخص إلى ضرية لطلب بني كلاب ووجه إليهم رسله فاجتمع إليه منهم نحو ٣٠٠٠ رجل فاحتبس من أهل الفساد نحواً من ١٣٠٠ رجل ثم قدم بهم المدينة في رمضان سنة ٢٣١ فحبسهم بها ثم شخص إلى مكة حاجاً ورجع إلى المدينة بعد حجه فأرسل إلى من كان استحلف من ثعلبة وأشجع وفزارة فلم يجيبوه وتفرقوا في البلاد فوجه في طلبهم فلم يلحق منهم كثير أحد.

وفي سنة ٢٣٢ أمره الواثق أن يذهب إلى غزو بني نمير لما كان من عبثهم وفسادهم في الأرض فمضى نحو اليمامة يريدهم فلقي منهم جماعة بموضع يقال له الشريف فحاربوه فقتل منهم نيفاً وخمسين رجلاً وأسر نحواً من ٤٠٠ ثم سار إلى قرية لبني تميم من عمل اليمامة تدعى مرأة فتابع إلى سكانها رسله يعرض عليهم الأمان ودعاهم إلى السمع والطاعة وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفلتون إلى حربه فسار بغا إليهم من مرأة في أول صفر سنة ٢٣٢ حتى دخل بخيله وأرسل إليهم أن ائتوني فاحتملت بنو ضبة من نمير فركبت جبالها مياسر جبل السود وهو جبل خلف اليمامة أكثر أهله بأهله فأرسل إليهم سرية لم تدركهم ثم إنه سار حتى التقى بهم بموضع يقال له روضة الأبان وبطن السر فجعل يناشدهم ويدعوهم إلى الرجوع وإلى طاعة أمير المؤمنين ويكلمهم بذلك

محمد بن يوسف الجعفري فجعلوا يقولون له يا محمد بن يوسف قد والله ولدناك فما رعيت حرمة الرحم ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لنرينك العبر. ولما أصبح الصبح عليهم حملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواشيهم من ورائهم وحملوا فهزموا بغا وجيشه وكاد يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصوداً وذلك أنه كان قد وجه من أصحابه نحو ٢٠٠ نفس ليغير على خيل لهم وجدوها بمكان من بلادهم فبينا جيش بغا على شرف الانكسار إذ خرجت هذه الجماعة منصرفة من الموضع الذي وجهت إليه في ظهور بني نمير فنفخوا في صفاراتهم ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين وأسلم فرسانهم ورجالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالتهم كثير أحد قتلوا عن آخرهم أما الفرسان فطاروا هرباً على ظهور الخيل. وأقام بغا بموضع الواقعة حتى جمعت له الرؤوس واستراح هو وأصحابه ثلاثة أيام ثم أرسل الهاربون يطلبون الأمان فأعطاهم إياه فصاروا إليه فقيدهم وحبسهم وأشخصهم معه وقد حاولوا أن يفروا وهم عائدون فضربهم بغا بالسياط ثم سار بهم حتى أتى البصرة في ذي القعدة سنة ٢٣٢ وأرسل إلى صالح بن العباس أن يسير بمن قبله من المدينة من بني كلاب وفزارة ومرة وثعلبة وغيرهم فوافاه صالح ببغداد وساروا جميعا إلى سامرا وكانت عدة الأسرى جميعاً نحو ٢٣٠٠ رجل.

نكبة الكتاب في عهد الواثق:

سأل الواثق سماره ذات ليلة عن السبب الذي من أجله نكب الرشيد البرامكة فقال له أحدهم إن سبب ذلك ما علمه بعد التفتيش من أن البرامكة استهلكوا الأموال وتعللوا في إنقاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع لهم بها ومنهم رجل يقال له أبو العود أمر له الرشيد بثلاثين ألف درهم فمطلوه بها فدخل على الرشيد ليلة فتحدث عنده ولم يزل يحتال حتى وصل حديثه بقول عمر بن أبي ربيعة:

وعدت هند وما كانت تعد   ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

فقال الرشيد أجل والله إنما العاجز من لا يستبد حتى انقضى المجلس وبعد ذلك جد الرشيد في أمرهم حتى وثب عليهم وأزال نعمتهم فقال الواثق صدق والله جدي إنما العاجز من لا يستبد وأخذ في ذكر الخيانة وما يستحق أهلها ولم يمض على ذلك أسبوع حتى أوقع بكتابه وعذبهم حتى أدوا المال الذي ظن أنهم اختانوه مما عهد إليهم في حفظه وهذه أسماء الكتاب ومقدار ما أخذ من كل منهم.

أحمد بن إسرائيل	٨٠٠٠	دينار
سليمان بن وهب كاتب إيتاخ	٤٠٠٠٠٠	دينار
الحسن بن وهب	١٤٠٠٠	دينار
أحمد بن الخصيب وكتابه	١٠٠٠٠٠٠	دينار
إبراهيم بن رباح وكتابه	١٠٠٠٠٠	دينار
نجاح	٦٠٠٠٠	دينار
أبو الوزير	١٤٠٠٠٠	دينار
	١٧٢٢٠٠٠	

وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم.

وكانت العمال تسرع إليهم الثروة لاتساع مجال الخيانة إذ لم يكن هناك دقة في المحاسبات فإذا رأى الخليفة على العامل مظاهر الثروة في وقت قريب وتلك الثروة لا تقوم بها أرزاقه التي يتقاضاها حكم الخليفة قطعاً أنه خائن ولا يجد أمامه إلا تلك المصادرة التي لا نظام لها.

العلاقات الخارجية ـ الفداء بين المسلمين والروم:

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم ولم تقدر إحدى الدولتين أن تتغلب على الأخرى وكثيراً ما يكون في يد إحدى الدولتين أسرى من الأخرى ولما كان يهم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذراً من الاسترقاق كانتا تتفقان على المفاداة كل أسير بمثله وأول فداء حصل كان في عهد الرشيد على نهر اللامس قريباً من طرطوس فودي فيه بثلاثة آلاف وسبعمائة أسير من المسلمين

على يد القاسم بن الرشيد وحصل فداء مثله في عهده أيضاً فودي بألفين وخمسين.

وقد كان الفداء الثالث في عهد الواثق سنة ٢٣١ أرسل ملك الروم إلى الواثق رسلاً يسألونه أن يفادي بمن في يده من أسارى المسلمين فأجاب وانتدب للفداء خاقان الخادم بعد أن أعد من أسرى الروم عدداً كبيراً وقد تقابل الفريقان في يوم عاشوراء سنة ٢٣١ على نهر اللامس وكان عدد من فودي به من المسلمين ٤٦٠٠ منهم ٦٠٠ نساء وصبيان ومنهم من أهل الذمة نحو ٥٠٠ فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيراً أو كبيراً وقد عقد المسلمون جسراً على النهر وعقد الروم جسراً فكان المسلمون يرسلون الرومي على جسرهم ويرسل الروم المسلم على جسرهم وقد أعطى خاقان الروم ممن كان فضل في يده ١٠٠ نفس ليكون له عليهم الفضل استظهاراً ومن غريب ما حصل في هذا الفداء أن أحمد بن أبي داؤد القاضي أرسل مندوباً من قبله يمتحن الأسرى حتى لا يفدى منهم من لا يقول بأن القرآن مخلوق وهذا غلو قد وصل إلى نهايته.

صفات الواثق:

كان الواثق كثير الأكل والشرب واسع المعروف متعطفاً على أهل بيته متفقداً لرعيته وكان محباً للنظر مكرماً لأهله مبغضاً للتقليد وأهله محباً للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطببين وكان له مجلس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في أنواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع فكانت سيرته في ذلك سيرة عمه المأمون ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن في عهده شكلاً حاداً أكثر مما كانت في عهد أبيه المعتصم لأن المعتصم كان يتكلف ذلك لمكان وصية أخيه:

وفاة الواثق:

أصيب الواثق بعلة الاستسقاء وكانت سبب وفاته في ٦ ذي الحجة ٢٣٢ وسنه ٣٦ سنة وبموته مضى على الدولة العباسية قرن كامل. ولم يعهد الواثق لأحد من بعده بالخلافة فخلافته من بعده بدء شكل جديد لم تكن له سابقة في

الدولة العباسية وقد ختم هذا القرن بانتهاء الخلفاء العسكريين الذين كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم ويخوضون غمرات الموت ولا يستسلمون لداعي الترف المضني.

١٠ - المتوكل

هو جعفر المتوكل على اللّه بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع. ولد في شوال سنة ٢٠٦ بفم الصلح ولم يكن بالمرضي عنه في حياة أخيه حتى كان الواثق قد وكل به رجلين هما عمر بن فرج الرخجي ومحمد بن العلاء الخادم فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره في كل وقت وقد جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فكان لا يلقاه لقاء حسناً وكانت صكاك رزقه لا تختم له إلا بعناء حتى أن عمر بن فرج أخذ منه الصك مرة فرمى به في صحن المسجد الذي كان عمر يجلس فيه وكان الذي يصلح من شأنه عند الواثق أحمد بن أبي دؤاد.

ولما توفي الواثق ولم يكن عهد إلى أحد اجتمع كبراء الدولة: ابن أبي داؤد القاضي ومحمد بن عبد الملك الوزير وعمر بن فرج وأحمد بن خالد الكاتبان وإيتاخ ووصيف من قواد الأتراك وتناظروا فيمن يولونه الخلافة فأشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق وكاد الأمر يتم له إلا أنهم لما جاءوا به وألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية قال لهم وصيف أما تتقون اللّه تولون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز معه الصلاة ثم أشار ابن أبي دؤاد بجعفر بن المعتصم فاتفق رأيهم عليه وأحضروه فألبسه أحمد بن أبي دؤاد الطويلة وعممه وقبله بين عينيه وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين وبايعه الحاضرون ولقب بالمتوكل على اللّه ثم بايعته العامة وتم ذلك كله في اليوم الذي توفي فيه الواثق وهو ٢٤ ذي الحجة سنة ٢٣٢ (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) واستمر خليفة إلى أن قتل ليلة الخميس رابع شوال سنة ٢٤٧ (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) فكانت مدته ١٤ سنة وتسعة أشهر

وعشرة أيام وكانت سنه إذ قتل ٤١ سنة. وكان يعاصره في بلاد الأندلس عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨) ثم ابنه محمد (٢٣٨ ـ ٢٨٣).

ويعاصره في بلاد المغرب من الأدارسة محمد بن علي بن إدريس الثاني (٢٢١ ـ ٢٤٢) ثم يحيى بن محمد (٢٣٤).

ويعاصره في أفريقية من الأغالبة محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٣٦ ـ ٢٤٢). ثم أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٤٢ ـ ٢٤٩).

ويعاصره في بلاد اليمن من الدولة الزيادية محمد بن عبد اللّٰه بن زياد (٢٠٤ ـ ٢٤٥) ثم إبراهيم بن محمد (٢٤٥ ـ ٢٨٩).

ويعاصره في خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد اللّٰه بن طاهر (٢٣٠ ـ ٢٤٨).

ويعاصره من ملوك الروم بالقسطنطينية ميخائيل الثالث الملقب بالسكير ويعاصره في فرنسا شارل الأصلع (٨٤٠ ـ ٨٧٧).

وزراء الدولة:

كان الوزير الأول لأول عهد المتوكل هو محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان وزيراً لأخيه وأبيه إلا أن المتوكل كان منحرفاً عنه لما كان يفعله معه في حياة أخيه من قبح المقابلة وعدم الرعاية وزاد على ذلك أنه أشار بتولية محمد بن الواثق فكانت شهوة الانتقام متمكنة منه ففي سابع صفر سنة ٢٣٣ أمر فقبض عليه وصادر جميع ماله من عقار ومنقول وكذلك ضياع أهل بيته حيث كانت. أما ما ناله من المكروه في نفسه فهو أعظم من أن يسطر ولم يزل ذلك دأبهم معه حتى مات تحت العذاب. إلى هذا الحد وصل ضعف الوازع الديني عند هؤلاء القوم ـ الرجل لم يكن على وفاق مع الخليفة قبل أن يتولى فأشد ما يكون من عقوبته ألا يستعان به في عمل ـ الرجل خان فيما عهد إليه من الأمانات فأقصى عقوبته أن يصادر في أمواله ـ الرجل قتل نفساً بدون حق فأقصى عقوبته أن يقتل فلم هذا التعذيب الذي سطره المؤرخون أليس ذلك دليلاً على أن شهوة الانتقام حالت بين القوم وبين دينهم الذي نهى أشد النهي عن التعذيب والمثلة أليس

ذلك دليلاً على أن صوت العلماء ألا يظهر إلا في الأمور النظرية المحضة التي لا يترتب عليها عمل ولا أثر في الحياة أما ما تكون آثاره ظلم الناس بأخذ أموالهم وإزهاق نفوسهم فلا نكاد نسمع لهم ركزاً أين هذا مما كان في عهد عمر بن الخطاب الذي كانت أمته تحاسبه على كل ما يصدر منه من جليل وحقير.

وكان مبلغ ما قبض له مع قيمة موجوداته ٩٠٠٠٠ دينار وبين القبض عليه ووفاته أحد وأربعون يوماً.

ولم يمض على ذلك خمسة أشهر حتى أمر المتوكل بالقبض على عمر بن فرج الرخجي وهو الكاتب الذي رمى بصك المتوكل في صحن المسجد أيام خلافة الواثق فقبض عليه وصودرت أملاكه وكان مقدار ما أخذ منه ومن أخيه محمد بن فرج ٢٧٤٠٠٠ دينار، ١٥٠٠٠٠ درهم سوى القصر والأمتعة والضياع وقد حمل متاعه وفرشه على خمسين جملاً كرت مراراً ثم صالحوه بعد ذلك على أن يدفع ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم على أن ترد عليه ضياعه بالأهواز فقط فردت عليه وأطلق من عقاله.

استكتب المتوكل بعد ابن عبد الملك أبا الوزير أحمد بن خالد الذي كان في حياة الواثق زماماً على عمر بن فرج الرخجي في ديوان النفقات ولما استكتبه لم يسمه باسم الوزير واستمر كاتباً له زمناً قليلاً فإنه في ذي الحجة من سنة ٢٣٣ غضب عليه وأمر بمحاسبته فحمل نحواً من ٦٠٠٠٠ دينار وحمل بدور دراهم وحلياً وأخذ له من متاع مصر ٦٢ سقطاً و ٣٤ غلاماً وفرشاً كثيراً وحبس بسببه جماعة من الكتاب وأغرموا من المال قدراً كثيراً.

وبعد أبي الوزير استوزر محمد الفضل الجرجرائي منسوب إلى جرجرايا (وهي بلد من أعمال النهروان الأسفل بني واسط وبغداد من الجانب الشرقي) وكان الجرجرائي من أهل الفضل والأدب والشعر وقال صاحب الآداب السلطانية إنه كان عالماً بالغناء مشتهراً به واستمر على وزارته إلى سنة ٢٣٦ وفيها صرفه عن العمل لأنه قال قد ضجرت من الشيوخ وأريد حدثاً أستوزره فمن أجل ذلك صرفه.

اختار بعده لوزارته عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان وبقي وزيراً للمتوكل إلى أن مات وكان حسن الحظ له معرفة بالحساب والاستيفاء وكانت فيه عيوب يسترها كرمه وحسن خلقه وعفته ومن أجل ذلك كان الجند يحبونه، وقد حصل في وزارته حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال واحتجابهم الأموال لأنفسهم ووقيعتهم بعضهم ببعض وكل ذلك سببه عدم الضبط في الإدارة المالية. كان نجاح بن سلمة على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فكان لذلك مخشي الجانب نافذ الكلمة. وكان الحسن بن مخلد على ديوان الضياع. وموسى بن عبد الملك على ديوان الخراج. وكان بين نجاح وبين ابن خاقان الوزير وحشة ومضادة وكان ميل الحسن وموسى إلى الوزير. احتاج المتوكل في سنة ٢٤٥ إلى المال لبناء القصور التي أراد تأسيسها بسامرا. فقال له نجاح أسمي لك قوماً تدفعهم إليّ حتى أستخرج لك منهم من الأموال ما يكفيك لبناء مدينتك وسمى له نحواً من عشرين رجلاً: موسى بن عبد الملك وخليفته والحسن بن مخلد وخليفته وعبيد اللّه بن يحيى الوزير وأخواه وغيرهم من العمال. فأعجب ذلك المتوكل وقال له بكر إليّ غدا - وناظر الوزير المتوكل في ذلك فقال له يا أمير المؤمنين أراد ألا يدع كاتباً ولا قائداً ولا عاملاً إلا أوقع بهم فمن يقوم بالأعمال يا أمير المؤمنين، وخرج من عنده فدعا موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد فقال لهما إن دخل نجاح إلى أمير المؤمنين دفعكما إليه فقتلكما وأخذ ما تملكان من المال ولكن اكتبا إلى أمير المؤمنين رقعة تتقبلان به فيها بألفي ألف دينار ففعلا وأوصل الوزير رقعتهما إلى المتوكل وأعانهما بالقول على القبول ثم أدخلهما على المتوكل وحجب نجاحاً فضمنا ذلك ودفع إليهما نجاحاً فأخذاه وانتقما منه شر انتقام. أما في المال فأخذا من نجاح وابنه نحو ١٤٠٠٠٠ دينار سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامرا وبغداد وسوى ضياع لهما كثيرة قبض ذلك كله وأخذ كثير من المال من وكلاء نجاح ومن يتصل به أما كاتبه إسحاق بن سعد الذي كان يتولى خاص أموره فقد أمر المتوكل أن يغرم ٥١٠٠٠ دينار وقيل ولم ذلك قال المتوكل إنه أخذ مني أيام الواثق حينما كان يخلف عمر بن فرج خمسين ديناراً حتى أطلق أرزاقي فخذوا لكل دينار ألفاً وزيادة ألف فضلاً كما أخذ فضلاً فحبس ونجم عليه ثلاثة أنجم ولم يطلق حتى أدى تعجيل ١٧٠٠٠

دينار وأخذ منه كفلاء بالباقي. وأما نفس نجاح فقد ماتت تحت الضرب والتعذيب.

وبعد وفاة نجاح ضم ديوان التوقيع إلى عبيد اللّه بن يحيى الوزير ثم توفي موسى بن عبد الملك فضم ديوان الخراج إلى الوزير أيضاً.

من أغرب ما في هذا التاريخ أن يرتشي العامل من أخي الخليفة حتى يطلق له أرزاقه فما الظن بغيره من أصحاب الأرزاق ماذا يدفعون حتى يوقع لهم على صكاكهم بقبض تلك الأرزاق؟ ولا يستغرب بعد ذلك ما كان يجتمع إلى هؤلاء الكتاب من الأموال الوفيرة في الزمن القليل والعمال يعرفون بعضهم بعضا فيعلم الواحد منهم ما اقتنى الآخر من الأملاك والضياع وما احتجن من المال فإذا بلغ خليفته شيئاً من ذلك هاج أطماعه فيعمد إلى ما يماثل ما ذكرنا من عقوبة العامل ومصادرة أمواله.

* وما من ظالم إلا سيبلى بظالم *

وتلك أمور تعم الفساد في جسم الدولة.

أحمد بن أبي دؤاد: هو الرجل الموثوق به في عهد المأمون وعظيم دولة المعتصم والواثق وقاضي القضاة في زمنهما والذي كان يعطف على المتوكل في عهد أخيه الواثق حتى استرضاه عنه بعد أن كان قد غضب عليه فلما ولي المتوكل حفظ له مقامه ورتبته وسابقته فكان قاضي القضاة وعظيم الدولة. وفي سنة ٢٣٣ فلج فعجز عن العمل فكان ابنه أبو الوليد يقوم مقامه في القضاء وولاية المظالم إلا أن الرجل لم تكن سيرته سيرة أبيه فكانت النتيجة أن غضب المتوكل على أحمد بن أبي دؤاد وعلى ابنه فعزلهما عن المظالم والقضاء ورضي عن يحيى بن أكثم فأشخصه من بغداد إلى سامرا وولاه قضاء القضاة والمظالم. وأمر بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبي دؤاد لخمس بقين من صفر سنة ٢٣٧ وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ابنه محمد في ديوان الخراج وحبس إخوته عند عبد اللّه بن السري خليفة صاحب الشرطة وبعد ذلك بيومين حمل أبو الوليد ٢٠٠٠٠ دينار وجواهر بقيمة ٢٠٠٠٠ دينار ثم صولح بعد ذلك على

١٦٠٠٠٠٠٠ درهم وأشهد عليهم جميعاً ببيع كل ضيعة لهم وفي أواخر سنة ٢٣٩ مات محمد بن أحمد بن أبي دؤاد ببغداد وبعد وفاته بعشرين يوماً توفي أبوه أحمد وهم على تلك الحال.

العلويون:

امتاز المتوكل عن سائر أهل بيته بكراهة علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه وأهل بيته وهذا ما يعرف في العقائد بالنصب وهو ضد التشيع وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى عليا وأهله بأخذ المال والدم وكان فيما يقال يبغض ممن تقدمه من الخلفاء المأمون والمعصتم والواثق لمحبة علي وأهل بيته وكان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالنصب وبغض علي فكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم ثم حسنوا الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم في الدين. ومن آثار تلك الكراهة أنه أمر في سنة ٢٣٧ بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه.

وكان إمام الإمامية في عهده أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب سعى به إلى المتوكل فأقدمه من المدينة إلى سامرا التي كانت تعرف بالعسكر فلقب بالعسكري وقد ظل مقيماً بها نحو عشرين سنة ومات بها ولما جاء سامرا لم تنقطع السعايات عنه فقيل له إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته فوجه إليه ليلاً من هجم عليه منزله وهو غافل فوجد في بيت وحده عليه مدرعة من شعر ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى وعلى رأسه ملفة من صوف وهو يقرأ ويدعو فحمل إلى المتوكل في جوف الليل فمثل بين يديه والمتوكل يشرب فأجلسه إلى جنبه وعرض عليه الكاس فاستعفى فأعفاه ثم قال له أنشدني شعراً فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل

واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم فأودعوا حفرا يا بئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فبكى المتوكل حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضي بها دينه ورده إلى منزله مكرماً.

وفي عهد المتوكل أتى بيحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين من بعض النواحي وكان قد جمع جمعاً فضربه عمر بن فرج ثماني عشرة مقرعة وحبس ببغداد في المطبق.

الجيش:

كان الجيش على العهد الذي كان عليه في مدة الواثق والمعتصم وكلما قدم العهد زاد الأتراك نفوذاً وقوة وقد أحس المتوكل بتوغل الأتراك في الدولة واستبدادهم بأمور الخلافة وإدارتها وجيشها فأحب أن يضعف شوكتهم ويقلل من نفوذهم فبدأ بإيتاخ الذي كان على الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة وأراد المتوكل الإيقاع به ليتخلص من هذا السلطان الواسع فرأى أن ذلك لا يمكنه معه وهو بسامرا بين قومه وجنده فدس إليه من أشار عليه بالاستئذان في الحج ففعل فأذن له المتوكل وصيره أمير كل بلد يدخله وخلع عليه وركب معه جميع القواد وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلمان سوى غلمانه وحشمه بشر كثير فلما حج وانصرف إلى العراق وجه إليه المتوكل بكسوة وألطاف وأمر الرسول أن يلقاه بالكوفة أو ببعض الطريق وتقدم إلى عامله على شرطة بغداد وهو إسحاق بن إبراهيم المصعبي بأمره فيه. فلما وصل بغداد قال له إسحاق بن إبراهيم إن أمير المؤمنين أراد أن تدخل بغداد وأن يلقاك بنو

هاشم ووجوه الناس وأن تقعد لهم في دار خزيمة بن خازم فتأمر لهم بجوائز: فلما صار إيتاخ بالقرب من دار خزيمة حجز عنه غلمانه ودخل الدار وحده فكان فيه سجنه ثم نقل إلى منزل إسحاق فأدخل ناحية منه وقيد وأثقل بالحديد في عنقه ورجليه ثم قدم بابنيه منصور ومظفر وبكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد فحبسوا وكانت الشدة التي عومل بها إيتاخ سبباً لوفاته فمات سنة ٢٣٥ وأما ابناه فبقيا في الحبس حياة المتوكل ثم أطلقهما المستعين بعده.

ولكراهة المتوكل لهؤلاء الغلمان ورؤسائهم كره من أجلهم المدينة التي أنشئت لهم فعزم أن يغير حاضرة خلافته فاختار سنة ٢٤٣ أن يجعل دمشق حاضرته فشخص إليها ونقل دواوين الملك وأمر بالبناء بها فتحرك الأتراك في أرزاقهم وأرزاق عيالهم مريدين التشغيب عليه لأنهم ظنوا أن المتوكل يريد أن يستعين بسلطان العرب عليهم حيث اختار بلاد الشام فأمر المتوكل لهم بما أرضاهم وبعد أن أقام بدمشق أياماً ظهر أنه استوبأ البلد لأن الهواء بارد ندي والماء ثقيل والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل وغلت فيها الأسعار وحال والثلج بين السابلة والميرة فبارحها عائداً إلى سامرا ويظهر أن الأتراك هم الذين حملوه على العودة. وفي سنة ٢٤٥ أمر ببناء الماحوزة وسماها الجعفري وأقطع القواد وأصابه وجد في بنائها وأمر بنقض القصر المختار والبديع من قصور سامرا وحمل ساجهما إلى الجعفري وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألفي ألف دينار وكان يسميها هو وأصحابه المتوكلية وكانت بالقرب من سامرا وبنى فيها قصرا سماه لؤلؤة لم ير مثله في علوه وأزر بحفر نهر يأخذ رأسه من موضع يقال له كرمي على رأس خمسة فراسخ فوق الماحوزة جعله شربا لما حوله من فوه النهر إليها وقدر للنهر من النفقة ٢٠٠٠٠٠ دينار لكنه مات قبل أن يتم فأهمل وهذه المدينة خربت بعد قتل المتوكل. ولما انتقل إلى مدينته الجديدة شاع أنه عزم على الفتك بوصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ولكن لم يتأت له ذلك لأنهم تغدوا به قبل أن يتعشى بهم كما نبينه في خبر مقتله. وقد حصلت حوادث في أطراف الدولة في عهد المتوكل فأطفئت، منها:

أولاً: حادثة محمد بن البعيث بن حليس من ولد عتيب بن عمرو بن

هنب بن أقصى بن دعمي بن جديلة في مدينة مرند وهي من مشاهير مدن أذربيجان استدارتها فرسخان وبينها وبين تبرين يومان كانت في الأصل قرية صغيرة فنزلها حليس أبو البعيث ثم حصنها البعيث ثم محمد ابنه وبين بها محمد قصراً. وكان محمد بن البعيث محبوساً في حبس إسحاق بن إبراهيم فتكلم فيه بغا الشرابي وأخذ منه الكفلاء وأطلق فهرب إلى مرند وهي موضعه من أذربيجان فرم ما كان وهي من سورها وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم فصار في نحو من ٢٢٠٠ رجل وكان الوالي بأذربيجان محمد بن حاتم بن هرثمة فقصر في طلبه فولي المتوكل حمدويه بن علي بن الفضل السعدي أذربيجان ووجه من سامرا على البريد فلما صار إليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار في عشرة آلاف فزحف إلى ابن البعيث فألجأه إلى مدينة مرند ولما طالت مدته وجه إليه المتوكل زيرك التركي في عدد كبير من الأتراك فلم يغن شيئاً فوجه إليه عمرو بن سيسل بن كال فكذلك فاختار له بغا الشرابي في ٤٠٠ رجل ما بين تركي وشاكري ومغربي وكان القواد الذين سبقوه قد زحفوا إلى مدينة مرند، وقطعوا ما حولها من الشجر شجر الغياض، ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً، وبنوا بحذاء المدينة ما يستكنون فيه ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثل ذلك وما زالوا على ذلك حتى قرب منهم بغا الشرابي ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البعيث ولابن البعيث أن ينزلوا وينزل على حكم أمير المؤمنين وإلا قالتهم فان ظفر بهم لم يستبق منهم أحداً ومن نزل فله الأمان وأرسلت لهم هذه الأمانات مع عيسى بن الشيخ الشيباني وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة فنزل منهم قوم كثير من القلعة بالحبال ثم فتح باب القلعة جماعة ممن خانوا ابن البعيث فدخلت جنود المتوكل المدينة وقد أراد ابن البعيث أن يهرب فأدرك وأخذت حرمه وأخذ نحو ٢٠ من رجاله فوافاهم بغا الشرابي وقد تم الأمر فكتب إلى المتوكل بالفتح.

ثم عاد إلى سامرا ومعه أسراء فأمر المتوكل بحبسهم جميعاً ثم أتى بابن البعيث فامر بضرب عنقه فطرح على نطع وجاء السيافون فلو حواله فقال المتوكل وأغلظ عليه ما دعاك يا محمد إلى ما صنعت قال: الشقوة وأنت الحبل الممدود

بين اللّه وبين خلقه وإن لي فيك لظنين أسبقهما إلى قلبي أولاهما بك وهو العفو، ثم اندفع بلا فصل فقال:

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلي ... إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطية ... وعفوك من نور النبوة يجبل
فإنك خير السابقين إلى العلا ... ولا شك أن خير الفعالين تفعل

فالتفت المتوكل إلى علي بن الجهم وقال إن معه لأدبا وعفا عنه وكان ابن البعيث أديباً شجاعاً يقال إن له أشعاراً نظمها بالفارسية. وكان ابن البعيث لما هرب قال:

كم قد قضيت أموراً كان أهملها ... غيري وقد أخذ الإفلاس بالكظم
لا تعذليني فيما ليس ينفعني ... إليك عني جرى المقدار بالقلم
سأتلف المال في عسر وفي يسر ... إن الجواد الذي يعطي على العدم

ولم يمكث ابن البعيث بعد ذلك كثيراً فإنه توفي بعد شهر ثم أطلق بنوه الثلاثة وهم حلبس والبعيث وجعفر وصاروا في عداد الشاكرية مع عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان وأجريت عليهم الإنزال.

ثانياً: اضطراب أرمينية. كان لبغا الشرابي ولاية أرمينية وأذربيجان وابنه فارس خليفته فولى عليها بالنيابة عنه أبا سعيد محمد بن يوسف المروزي وفي شوال ٢٣٦ مات فجأة فولي بعده ابنه يوسف بن محمد ولي حربها وخراجها فشخص إليها فضبطها ووجه عماله في كل ناحية وبينا هو في عمله خرج عليه رجل من بطارقة أرمينية وهو كبير البطارقة واسمه بقراط بن أشوط خرج يطلب الإمارة لنفسه فأخذه يوسف بن محمد فقيده وبعث به إلى باب الخليفة فهاج ذلك من بطارقة أرمينية فأجمعوا أمرهم على الخروج على يوسف وكان يقيم بمدينة طرون فحصروه بها ولما خرج لقتالهم قاتلوه فقتلوه وقتلوا أصحابه فلما علم بذلك المتوكل بعث بغا الشرابي إلى أرمينية مطالباً بدمه فشخص إليها من ناحية الجزيرة فبدأ بأرزن وكان بها موسى بن زرارة الذي وافق البطارقة على الفتك بيوسف فحمله بغا إلى باب الخليفة ثم سار حتى أناخ بجبل الخويثية وهم جملة أهل

أرمينية وقتلة يوسف بن محمد فحاربهم وظفر بهم فقتل زهاء ثلاثين ألفا وسبى منهم خلقا كثيرا ثم سار مخترقا بلاد أرمينية لإرهاب عصاتها حتى بلغ ديبل فأقام بها شهراً ومنها سار إلى تفليس ففي يوم السبت ١٠ ربيع أول سنة ٢٣٧ وجه زيرك التركي فجاوز الكر وعليه تفليس في الجانب الغربي وصفد بيل في الجانب الشرقي وكان معسكر بغا في الشرق وكان غرضهم من ذلك إخضاع إسحاق بن إسماعيل مولى بني أمية الثائر بها فناوشوه القتال فخرج لقتالهم فبعث بغا بالنفاطين فضربوا المدينة بالنار فأقبل ابن إسماعيل إلى المدينة لينظر فإذا النار قد أخذت في قصره ثم أتاه الأتراك والمغاربة فأخذوه أسيراً وأخذوا ابنه عمرا فأتوا بهما بغا فأمر بضرب عنقه ويقال إنه احترق في المدينة ٥٠٠٠٠ إنسان وأسر من بقي حيا فيها وكان إسحاق قد حصنها وحفر خندقها وجعل فيها مقاتلة من الخويثية وغيرهم وأعطاهم بغا الأمان على أن يضعوا أسلحتهم ويذهبوا حيث شاءوا وكان إسحاق مصاهراً لملك السرير تزوج بنته. ولم يزل بغا يجوس خلال هذه الديار حتى استنزل أكثر العصاة من معاقلهم وأخذ معه كثيراً من بطارقة أذربيجان وأران.

الدولة اليعفرية:

في آخر عهد المتوكل ابتدأ الدولة اليعفرية بصنعاء وكان جدهم عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالي نائباً عن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي الذي كان والياً للمعتصم على نجد اليمن وصنعاء وما إليها ولما توفي عبد الرحيم قام في الولاية مقامه ابنه يعفر بن عبد الرحيم وهو رأس الدولة ومبدأ استقلالها إلا أنه كان يهاب آل زياد ويدفع لهم خراجاً يحمل إلى زبيد كأنه عامل لهم ونائب عنهم وكان ابتداء استقلال يعفر بن عبد الرحيم سنة ٢٤٧ واستمر ملك صنعاء في أعقابه إلى سنة ٣٨٧ وهذه أسماء ملوكهم:

(١) يعفر بن عبد الرحيم	٢٤٧ - ٢٥٩
(٢) محمد بن يعفر	٢٥٩ - ٢٧٩
(٣) عبد القادر أحمد بن يعفر	٢٧٠ - ٢٧٩
(٤) إبراهيم بن محمد	٢٧٩ - ٢٨٥

(٥) أسعد بن إبراهيم	٢٨٥ ـ ٢٨٨
فترة لأئمة صنعاء والقرامطة	٢٨٨ ـ ٣٠٣
(٦) أسعد بن إبراهيم مرة ثانية	٣٠٣ ـ ٣٣٢
(٧) محمد بن إبراهيم	٣٣٢ ـ ٣٥٢
(٨) عبد اللّه بن قحطان	٣٥٢ ـ ٣٨٧

وقد اتبعنا في ثبت هذه الدولة ما جاء في تاريخ الأمم الإسلامية لمؤلف «لين بول» وفيه بعض مخالفة لما في تاريخ الدول الإسلامية للشيخ دحلان ا هـ. والحوالي نسبة إلى عبد اللّه بن حوالة الأزدي صاحب رسول اللّه ﷺ.

العلاقات الخارجية:

كانت الحروب بين المسلمين وبين الروم لا تزال دائمة الاتصال برا وبحراً لا تنقطع إلا لهدنة وقتية.

ففي سنة ٢٣٨ أغار الروم على مصر من جهة دمياط وكان أمير مصر قد أمر حاميتها أن يحضروا إليه بالفسطاط ليتجمل بهم فلما جاءها الروم بمراكبهم لم يجدوا بها حامية وكانوا في نحو ٣٠٠ مركب فدخلوا البلد وعاثوا فيه وأحرقوا دوره والمسجد الجامع وسبوا كثيراً من نساء المسلمين وأهل الذمة وأخذوا ما وصلت إليه أيديهم من المغانم ثم عادوا إلى بلادهم لم يكلم أحد منهم كلما. وكان المسلمون يفعلون مثل ذلك في صوائفهم من جهة الدروب التي تلاصق المملكة الإسلامية من الجهة الشمالية وفي بحر الروم.

وفي سنة ٢٤١ كان الفداء الرابع بين المسلمين والروم على نهر اللامس في ١٢ شوال وكان القائم به شنيف خادم المتوكل وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي القاضي وعلي بن يحيى الأرمني أمير الثغور الشامية وكانت عدة من فودي به من المسلمين في سبعة أيام ٢١٠٠ رجل وامرأة على رواية المقريزي في الخطط وروى الطبري أن عدة أسرى المسلمين كانت ٧٨٥ إنساناً ومن النساء ١٢٥ امرأة قال المقريزي وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الإسلام مائة رجل ونيف فعوضوا مكانهم عدة أعلاج.

وفي سنة ٢٤٢ خرجت الروم من ناحية شمشاط بعد خروج علي بن يحيى الأرمني من الصائفة حتى قاربوا آمد ثم خرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا عدداً عظيماً من الأهلين ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم فخرج في أثرهم قربياس وعمر بن عبد الله الأقطع وقوم من المتطوعة فلم يلحقوا منهم أحداً فكتب إلى علي بن يحيى أن يسير إلى بلادهم شاتيا.

وفي سنة ٢٤٤ وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم في شهر ربيع الآخر فغزوا الصائفة فافتتح صملة.

وفي سنة ٢٤٥ أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا نحوا من ٥٠٠ وغزا علي بن يحيى الأرمني الصائفة.

وفي سنة ٢٤٦ كان الفداء السادس بين المسلمين والروم في صفر على يد علي بن يحيى الأرمني ففودي بألفين وثلثمائة وسبعة وستين نفسا.

صفات المتوكل وأخلاقه:

ولم يكن المتوكل كمن قبله في حب النظر والجدل بل كان ميالاً إلى التقليد فأمر لأول ولايته بترك النظر والمباحثة والجدل والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث وإظهار السنة.

لم يكن المتوكل ممن يوصف في عطائه بالبذل والجود ولا بتركه وإمساكه بخلا ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بني العباس ظهر في مجلسه اللعب والمضاحك والهزل فلما جاء المتوكل أحدث ذلك كله فاتبعه فيها أكثر خواصه ورعيته فلم يكن في وزرائه والمتقدمين من كتابه من يوصف بجود ولا أفضال ولا يتعالى عن مجون أو طرب دخل عليه أبو عباده البحتري الشاعر المشهور فأنشده قصيدة يمدحه بها قال فيها:

عن أي ثغر تبتسم ... وبأي طرف تحتكم
حسن يضيء بحسنه ... والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر الـ ... ـمتوكل بن المعتصم

المـرتضى ابـن المـجـتـبـي والمـنـعـم ابـن المـنـتـقـم
أمـا الـرعـيـة فـهـي مـن أمان عـدلـك في حـرم
يـا بـاني المـجـد الـذي قـد كـان قـوض فـانهدم
أسـلـم لـديـن محـمـد فـإذا سـلمت فـقـد سـلم
نـلنـا الهـدى بعـد الـعـمـى بـك والـغنى بـعـد الـعـدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف. فوثب أبو العنبس فقال: يا أمير المؤمنين تأمر برده فقد والله عارضته في قصيدته هذه فأمر برده فأخذ ينشد أبياتاً هزلية غثة لم أستحسن إيرادها فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه وفحص برجله اليسرى وقال يدفع إلى أبي العنبس عشرة آلاف درهم فقال الفتح بن خاقان يا سيدي البحتري الذي هجا وأسمع المكروه ينصرف خائباً فقال ويدفع إلى البحتري عشرة آلاف درهم فوصل الجاد في كرامة الهازل.

وكان ينفر من استعمال أهل الذمة في الدواوين ويكره أن يظهروا في الطريق بمظهر المسلمين ولذلك أصدر أمره في سنة ٢٣٥ أن يلبسوا زياً خاصاً بهم وهو الطيالسة العسلية والزنانير وأن تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري فيها أحكامهم على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم وكتب منشوراً إلى عماله في الآفاق بذلك كتبه إبراهيم بن العباس الصولي في شوال سنة ٢٣٥.

قال المسعودي وكانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء كما قال بعضهم كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر وأماني الحب وأيام الشباب.

وتتعادل عند المحدثين سيئاته وحسناته، فإبطاله المناقشة في القرآن وحدوثه ترفعه إلى أعلى الدرجات وهدمه قبر الحسين يحطه إلى أسفل الدركات فكأنه عندهم لا عليه ولا له. أما الحكم على زمنه بما كان من مصادرة الكتاب

وعقوباتهم الشديدة فلم يكن محل عناية من أحد.

ولا ية العهد:

تشبه المتوكل في كثير من أعماله بجده الرشيد ومن ذلك توليته العهد؛ فقد عقد الولاية لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر ومحمد المعتز وإبراهيم المؤيد وذلك في ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣٥ وقسم البلاد بينهم.

فجعل لأكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار مصر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكورياجرمي وتكريت وطساسيج السواد وكور دجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الأهواز والمستغلات السامرا وماه الكوفة وماه البصرة وماه سبذان ومهرجان قذق وشهرزور وواراباذ ويصامغان وأصبهان وقم وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة إلى الجبال وصدقات العرب بالبصرة.

وجعل لابنه المعتز كور خراسان وما يضاف إليه وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وكور فارس وضم إليه في سنة ٢٤٠ خزن بيوت الأموال في جميع الآفاق ودور الضرب، وأمر بضرب اسمه على الدراهم.

وجعل لابنه المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين.

وكتب بينهم كتاباً يشبه الكتاب الذي كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون والقاسم. وقد جعل المتوكل لابنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال في أعمالهما إذا آلت الخلافة للمنتصر بحيث لا يجوز أن يشرك في شيء من أعمال أحدهما أحداً ولا يوجه عليه أميناً ولا كاتباً ولا بريداً ولا يضرب على يده في قليل ولا كثير وكذلك جعل على المعتز للمؤيد إذا آلت الخلافة للمعتز. وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ نسخة بخرانة أمير المؤمنين وعند كل من أولياء العهد نسخة وهذا نموذج مما قيل من الشعر في هذه البيعة وهو ينم على نفاق قائله لأن القوم لم ينسوا بعد ما كان بين أولاد الرشيد. قال إبراهيم بن العباس الصولي:

أضحت عرى الإسلام وهي منوطة بالنصر والإعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمر توالت حوله أقماره يكنفن مطلع سعده بسعود
كنفتهم الآباء واكتنفت بهم فسعوا بأكرم أنفس وجدود

مقتل المتوكل:

لم تكن قلوب كبار الأتراك مطمئنة إلى المتوكل، فقد وقع في أنفسهم أنه يريد تدبير المكايد لهم حتى يتخلص منهم واحداً بعد واحد، فأخذتهم من ذلك وحشة وكان وزير المتوكل عبيد اللّٰه بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ولي العهد مائلين إلى المعتز. فأوغرا قلب أبيه عليه حتى هم أن يعزله من ولاية العهد فاجتمع لذلك الخصمان قواد الأتراك وولي العهد. مال الأتراك إلى المنتصر ليتسعينوا به في تنفيذ غرضهم ومال إليهم ليحفظ لنفسه الخلافة عاجلاً أو آجلاً. ومما زاد في إغراء المنتصر أن المتوكل اشتكى فأمره أن يصلي بالناس يوم الجمعة فقال عبيد اللّٰه والفتح للمتوكل مر أبا عبد اللّٰه المعتز باللّٰه بالصلاة لتشرفه بذلك في هذا اليوم الشريف فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعاً فقد بلغ اللّٰه به فأمره المتوكل بالصلاة فركب وصلى بالناس وأقام المنتصر في منزله وفي الجمعة الثانية أراد المتوكل أن يصلي المنتصر بالناس فحسنا له أن يركب هو لئلا يرجف الناس بعلته ففعل. وكل ذلك زاد المنتصر حقداً وخوفاً على الخلافة أن تفوته. ويقال إن المتوكل اتفق مع الفتح بن خاقان على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ولم يكن هذا السر ليستتر مع النبيذ والاستهتار بشربه فاتفق القوم على أن يفتكوا بالمتوكل.

وقد تولى كبر ذلك بغا الصغير المعروف بالشرابي فإنه أعد لذلك قوما في مقدمتهم باغر التركي الذي كان يقوم بحراسة المتوكل وأعد معه عشرة من الأجناد فدخلوا القصر وسيوفهم مسلولة والمتوكل قد أخذ منه الشراب فابتدره أحدهم بضربة وثنى عليه بأخرى أتت على نفسه، وكان معه الفتح بن خاقان فقتل معه، وكان قتله ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٨ ويعجبني ما قاله بعض شعراء الوقت في تلك الحادثة:

لا حـزن إلا أراه دون مـا أجـد وهـل كمن فقدت عينـاي مفتقـد
لا يبعـدن هـالـك كـانت منيتـه كـما هـوى عن غـطاء الـزبيـة الأسـد
لا يـدفـع النـاس ضيـما بعـد ليلتهم إذ لا تمـد إلى الجـاني عـليـك يـد
لـو أن سيفي وعقـلي حـاضـران لـه أبـليتـه الجـهـد إذ لم يبـلـه أحـد
هـلا أتـاه أعـاديـه مجـاهـرة والحـرب تـسعـر والأبـطال تـطرد
فخـر فـوق سـريـر الملك منجـدلا لم يحـمـه ملكـه لمـا انـقضى الأمـد
وأضبـح النـاس فـوضى يعجبـون لـه ليثاً صـريعـاً تنزى حـولـه النقـد
علتـك أسيـاف من لا دونـه أحـد وليس فـوقـك إلا الـواحـد الصمـد
أضحى شهيـد بني العبـاس مـوعـظة لـكـل ذي عـزة في رأسـه صيـد
خليفـة لم يـنـل مـا نـالـه أحـد ولم يـضـع مـثـلـه روح ولا جسـد
كم في أديمـك من فـوهـاء هـمادرة من الجـوائف يغـلي فـوقهـا الـزبـد
إذا بكيـت فـإن الـدمـع منهـمـل وإن ونـيـت فـإن الـقـول مـطرد
قـد كنت أسـرف في مـالي وتخلف لي فـعلمـتني الـليـالي كيـف أقـتصـد
لمـا اعتقـدتـم أنـاس لا حلوم لهـم ضعتم وضيعتـم من كـان يـعتـقـد
فلو جعلتم عـلى الأحـرار نعمـتكـم حمتكم الـسـادة المـذكـورة الحشـد
قـوم هم الجـذع والأنسـاب تجمعهم والمجـد والـدين والأرحـام والـبلد

وقال علي بن الجهم من قصيدة له :

عـبـيـد أمـير المـؤمـنـين قـتـلنـه وأعـظم آفـات المـلوك عـبـيـدهـا
بني هـاشم صبـرا فكـل مصيبـة سيبـلى على وجـه الـزمـان جـديـدهـا

وهذه الحادثة أول ثمرة لغرس المعتصم فإنـه ملك الخلافـة قومـاً لا حلوم لهم وليس لهم من الأخلاق ما يمنعهم مما فعلوا ولا من العصبية مـا يجعل جـانبهم مأمونـاً وأجل من ذلـك أن يكون ولي العهـد شريكـاً في دم أبيه وهـذا أيضاً أول حادث من نوعه يعجبني ما قاله البحتري :

أكـان ولي الـعهـد أضـمـر غـدره فمن عجب أن ولي الـعهـد غـادره
فـلا ملك البـاقي تـراث الـذي مضى ولا حمـلت ذاك الـدعـاء مـنـابـره

١١ ـ المنتصر

هو محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية ولد سنة ٢٢٢ وعقد له أبوه ولاية العهد سنة ٢٣٥ وسنه ثلاث عشرة سنة. ولما قتل أبوه بايعه قواد الأتراك عقيب مقلته في ٤ شوال سنة ٢٤٧ (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) واستمر خليفة إلى أن توفي يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونية سنة ٨٦٢) فكانت مدته التي تعجلها بقتل أبيه ستة أشهر.

استوزر المنتصر أحمد بن الخصيب وكان كاتبه قبل أن يستخلف وكان مقصراً في صناعته مطعوناً عليه في عقله وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه ما أراد وقد وصفه المسعودي بأنه كان قليل الخير كثير الشر وقد ندم المنتصر على ما فعل من تقليده الوزارة ونفيه عبيد اللّه بن خاقان وزير أبيه بسبب ما شاع من حدة ابن الخطيب وطيشه وذلك أنه ركب ذات يوم فتظلم إليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها في صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك، فقال بعض شعراء ذلك الزمان:

قل للخليفة يا ابن عم محمد   أشكل وزيرك إنه شكال
أشكله عن ركل الرجال وإن ترد   مالا فعند وزيرك الأموال

الجيش:

بقتل المتوكل واستيلاء المنتصر الشاب زادت الأتراك قوة في الدولة على قوتهم لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا الخليفة وساقوا الخلافة إلى

خليفة فأنشبوا أظفارهم بذلك في جسم الدولة ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم لما دب إلى قلوب الخلفاء من الهيبة ورعاية جانبهم ومما يدل على ذلك أن الأتراك لم يكونوا يحبون أن تكون ولاية العهد للمعتز والمؤيد ابني المتوكل فأشاروا على المنتصر بخلعهما فأحضرا دار الخلافة وطلب منهما أن يكتبا طالبين أن يخلعا من ولاية العهد لضعفهما عن ذلك فرضي المؤيد وأبى المعتز فقال له المؤيد يا جاهل تراهم قد نالوا من أبيك وهو هو ما نالوا ثم تمتنع عليهم، اخلع ويلك ولا تراجعهم. وما زال به حتى أجاب وكتبا ما أملي عليهما في ذلك. وهذا ما كتباه «بسم اللّه الرحمن الرحيم إن أمير المؤمنين المتوكل على اللّه رضي اللّه عنه قلدني هذا الأمر وبايع لي وأنا صغير من غير إرادتي ومحبتي، فلما فهمت أمري علمت أني لا أقوم بما قلدني ولا أصلح لخلافة المسلمين فمن كانت بيعتي في عنقه فهو من نقضها في حل وقد حللتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ولا عهد لي في رقابكم ولا عقد وأنتم براء من ذلك». ثم دخلا على المنتصر فاعترفا بما في الكتاب ثم أقبل عليهما والأتراك وقوف وقال لهما أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له واللّه ما طمعت في ذلك ساعة قط وإذا لم يكن في ذلك طمع فواللّه لأن يليها بنو أبي أحب إلي من أن يليها بنو عمي ولكن هؤلاء (وأومأ إلى سائر الموالي ممن هو قائم وقاعد) ألحوا علي في خلعكما فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما فما ترياني صانعاً أقتله فواللّه ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل علي.

فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ما عقده المتوكل وأكده بالأيمان والمواثيق والعهود. وقد كتب المنتصر بذلك إلى الآفاق وظهر في كتابه براعة المنشئين في ذلك الوقت وإن لم تظهر فيه براعة الأخلاق الفاضلة وحفظ العهود والمواثيق وكان الكاتب له أحمد بن الخصيب.

صفات المنتصر:

لئن كان الغضب قد حمل المنتصر على تذليل السبيل لإهراق دم أبيه فإنه كان لا يزال ذا نفس تحس فتتأثر فلم يزل يلاقي أهوال التوبيخ في يقظته ومنامه

حتى أسقم ذلك بدنه وأذل نفسه. دخل عليه عبد اللّه بن عمر البازيار ذات يوم وهو يبكي وينتحب فسأله عن سبب بكائه فقال كنت نائماً فرأيت كأن المتوكل قد جاءني فقال لي ويلك يا محمد قتلتني وظلمتني وغبنتي خلافتي واللّه لا تمتعت بعدي إلا أياماً يسيرة ثم مصيرك إلى النار فانتبهت وما أملك عيني ولا جزعي. فهون عليه عبد اللّه الأمر وكان كثيراً ما يقول إذا مثل عن حاله ذهبت واللّه مني الدنيا والآخرة، فكان الرجل يكابد نيراناً تضطرم بين جنبيه جزاء فعلته وكان يهم أن يكفر سيئته فينتقم من قتلة أبيه لولا أنه أحس بأن الذين تمكنوا من قتل أبيه لا يبعد عليهم أن يكرروا التجربة فيه فكان يفكر في تفريق جمعهم، وأثرت عنه كلمات في ذلك ولكن قوتهم كانت أكبر من أن تتأثر بتفكير ذلك الخليفة الشاب.

كان من خلق المنتصر سعة الاحتمال وكثرة المعروف والرغبة في الخير والسخاء والعفة وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وحسن المعاشرة بما لم يسبقه خليفة إلى مثله ومما حببه إلى الناس إزالته عن آل أبي طالب ما كان قد أوحشهم فتقدم بالكف عنهم وترك البحث عن أخبارهم وألا يمنع أحد زيارة قبر الحسين رضي اللّه عنه ولا قبر غيره من آل أبي طالب وأطلق أوقاف الطالبيين وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم ومما يؤثر من قوله (إن لذة العفو أعذب من لذة التشفي وأقبح أفعال المقتدر الانتقام) وقد أظهر الإنصاف في الرعية فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له.

وفاة المنتصر:

قال الطبري لم أزل أسمع الناس حين أفضت إليه الخلافة من لدن ولي إلى أن مات يقولون إنما مدة حياته ستة أشهر «مدة شيرويه بن كسرى» قاتل أبيه مستفيضاً ذلك على ألسن العامة والخاصة وكذلك كان فقد أصابته العلة التي قضت عليه يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ ومات مع العصر من يوم الأحد لخمس ليال خلون من شهر ربيع الآخر ويقال إن تلك العلة كانت الذبحة في حلقه وبعضهم يقول كانت ورما خبيثاً في معدته ويقال إنه سم سمه الطبيب في مبضع واللّه أعلم أي ذلك كان.

١٢ ـ المستعين

هو أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد صقلية اسمها مخارق ولد سنة ٢٢٠ وبويع بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المنتصر وهو خامس ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونية سنة ٨٦٢) ولم يزل خليفة إلى أن خلع يوم الجمعة ٤ محرم سنة ٢٥٢ (١٥ يناير سنة ٨٦٦) فكانت مدته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و ٢٨ يوماً.

كيف انتخب:

اجتمع الموالي وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش ومن معهم فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة وأشروسنية على أن يرضوا بما رضي به من سمينا، فأجمع رأي الثلاثة على ألا يولوا أحداً من أولاد المتوكل لئلا يغنالهم بدم أبيه كما أنهم يريدون إخراجها عن أولاد المعتصم. مولاهم فاقترح عليهم تولية أحمد بن المعتصم فقال لهم محمد بن موسى بن شاكر المنجم أتولون رجلاً عنده أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وأنكم دفعتموها عنه وأنه أحق بالأمر من المتوكل والمنتصر فبأي عين يراكم وأي قدر يكون لكم عنده؟ ولكن أطيعوا إنساناً يعرف لكم ذلك. فكانت هذه الكلمات مما وافق هواهم جميعاً إلا بغا الكبير فإنه قال لهم نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضاً فقتلنا أنفسنا، ثم ذكروا أبا العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا هذا من ولد مولانا المعتصم ولم نخرجها عنهم ونصطنعه فيعرف ذلك لنا ولم يزالوا ببغا الكبير حتى وافقهم عليه فبايعوه جميعاً، وهو أول خليفة من بني العباس لم يكن أبوه خليفة بعد مؤسسي الدولة السفاح والمنصور وأول خليفة تولى بعد ابن عمه.

وفي عهده توفي من الأغالبة بأفريقية أحمد بن محمد بن الأغلب سنة ٢٤٩ وخلفه أخوه زيادة الله بن محمد سنة ٢٥٠ وخلفه ابن أخيه محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب إلى سنة ٢٦١ .

وفي عهده توفي من آل طاهر بخراسان طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين فولي مكانه محمد بن طاهر إلى سنة ٢٥٩ .

الوزارة في عهد المستعين:

لم يكن للخليفة شيء من النفوذ فإن الموالي هم الذين حولوا الخلافة عن معتز بخلعهم إياه من ولاية العهد وهم الذين ساقوها إلى المستعين بلا عهد ولا سابقة فكان من المعقول أن يكون بين أيديهم يفعلون به ما شاءوا حتى مثله بعض الشعراء بقوله:

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببغا

فالوزير من قبلهم يولى فإن وافق هواهم رضوا عنه وإن خالفهم في شيء أزالوه عن رتبته وأقاموا غيره.

تركوا الوزارة في يد أحمد بن الخصيب الذي كان وزيراً للمعتصم ثم لم يلبثوا أن غضبوا عليه في جمادى الأولى من سنة ٢٤٨ فاستصفوا ماله ومال ولده ونفوه إلى جزيرة أقريطش.

واختير لوزارة المستعين أتامش أحد قواد الأتراك وكان الذي يقوم بأمر الكتابة كاتبه شجاع فكان أتامش بذلك صاحب السلطان التام فأطلقت يده في الأموال ومعه شاهك الخادم الذي جعله المستعين على داره وكراعه وخزائنه وخاص أموره وضم إليهما في النفوذ والتصرف أم المستعين فإنه لم يمنعها من شيء تريده وكان كاتبها سعيد بن سلمة النصراني فكانت الأموال التي ترد على السلطان من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة فعمد أتامش إلى ما في بيوت الأموال من الأموال فاكتسحه وكان المستعين قد جعل ابنه العباس في حجر أتامش فكان ما فضل من الأموال عن هؤلاء الثلاثة يؤخذ للعباس فيصرف في

نفقـاته وأسبـابه وصـاحب ديوان ضيـاعه يـومئذ كـاتب اسمه دليـل بن يعقـوب النصـراني فاقتـطع من ذلك أمـوالاً جليلة لنفسـه. نـظرت المـوالي هـذه الحـال: الأمـوال تستهلك وهم في ضيقة. وأتـامش هو صـاحب المستعين وصـاحب أمره والمستولي عليه ينفذ أمور الخلافة ووصيف وبغا من ذلك كله بمعزل فأغريا الموالي به ولم يزالا يدبران الأمر عليه حتى أحكما التدبير فتذمرت الأتراك والفـراغنة عـلى أتـامش وخرج إليـه منهم يوم الخميس ١٢ ربيـع الآخر سنـة ٢٤٩ أهـل الـدور والكرخ فعسكروا وزحفوا إليه وهـو في الجوسق مـع المستعين وبلغـه الخبر فـأراد الهـرب فلم يمكنه واستجـار بالمستعـين فلم يجره وفي يـوم السبت دخلوا الجـوسق فاستخرجوا أتامش من موضعه الذي توارى فيه فقتل وقتل كاتبه شجاع وانتهبت دار أتامش فأخذوا منها أموالاً جليلة ومتاعاً وفرشاً وآلة.

استوزر المستعين بعده أبا صالح عبد اللّٰه بن محمد بن يزيد وأبوه كان قبل ذلك وزيراً للمـأمون فمكث في الـوزارة نحو ثـلاثة أشهـر لم يرض فيهـا أحزاب الموالي لأنه أراد أن يضبط حساب المملكة فلم يعجب ذلـك بغا الصغـير وحزبـه فأظهروا له الغضب فهرب منهم إلى بغداد في شعبان سنة ٢٤٩.

استكتب المستعين بعده محمد بن الفضل الجرجرائي وهو الذي كـان وزيراً للمتوكل قبل ذلك ولم يسمه باسم وزير.

العلويون في عهد المستعين:

كان الذي في عهد المستعين من أئمـة الإماميـة الاثنا عشـرية عـلى الهادي وهو العاشر من أئمتهم وكان مقيماً بسامرا.

أما الزيدية فقد خرج منهم:

(أولا): يحيى بن عمـر بن يحيى بن حسـين بن عـلي بن الحسـين خـرج بالكوفة وكان قبل خروجه يتردد بين بغداد وسامرا يطالب كبار الـدولة بمـا يصلح من شأنه فكان يرجع دائماً بالفشل فاستثار جمعاً كثيراً من الأعـراب وانضم إليهم جمع من الكوفة فعسكر بهم بضواحي الكوفة ولما علم بخبـره محمد بن عبـد اللّٰه بن طاهر وجه الجنود إليه فبادر يحيى إلى الكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها ثم

خرج منها وصار يتردد في السواد ثم عاد إلى الكوفة ودعا إلى الرضا من آل محمد وكثف أمره وتولاه العامة من أهل بغداد ولا يعلم أنهم تولوا من أهل بيته غيره. أقام بالكوفة يعد العدد ويطبع السيوف ويعرض الرجال ويجمع السلاح. كان الذي توجه لحربه فرع من فروع الأسرة المصعبية وهو الحسين بن إبراهيم بن مصعب فلما وصل بجناه إلى ظاهر الكوفة أشار على يحيى جماعة من الزيدية لا علم لهم بالحرب بمعاجلة الحسين وألح عليه عوام أصحابه بمثل ذلك فخرج من وراء الخندق ليلة الاثنين ١٣ رجب سنة ٢٥٠ في جمع ليسوا بذي علم ولا تدبير ولا شجاعة فأسروا ليلتهم حتى صبحوا الحسين وهو وأصحابه مستريحون مستعدون فلم يكن بأسرع أن انهزم جند يحيى ووضع فيهم السيف وكان أكثر رجالة الكوفة عزلاً فداستهم الخيل ولما انكشف العسكر عن يحيى تقطر به برذونه فقتل وأخذت رأسه إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر فحمله إلى المستعين بسامرا فنصب الرأس بباب العامة بسامرا واجتمع الناس لذلك وكثروا وتذمروا فرد إلى بغداد لينصب بها فلم يمكن لما أبداه العامة من كراهة ذلك. وقال أبو هاشم داود الهيثم الجعفري في ذلك:

يا بني طاهر كلوه وبيا إن لحم النبي غير مري
إن وترا يكون طالبه اللّه لوتر نجاحه بالحري

ومع هذا الميل من الناس إلى العلويين لم يمكنهم الاستفادة من ذلك الميل لأنهم لم يكن لهم تدبير منتظم ولا استعانة بذوي التدبير والحيل من رجال الحرب.

(ثانيا): خرج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي. خرج بنواحي طبرستان وسبب خروجه أن المستعين أقطع محمد بن طاهر قطائع من صوافي السلطان بطبرستان وذلك بعد أن انتصر على يحيى بن عمر وكان من جملة تلك القطائع قطيعة قرب، ثغوي طبرستان من نواحي الديلم وهما كلاروسالوس وبحذاء تلك القطيعة أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعي مواشيهم ومسرح سارحتهم وليس لأحد عليها ملك. وجه محمد بن طاهر جابر بن هارون أخا كاتبه النصراني لحيازة ما أقطع

من تلك الأراضي وكان عامل طبرستان إذ ذاك سليمان بن عبد الله بن طاهر وقد غلب على أمره محمد بن أوس البلخي ومن ولده كان العمال على مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء فاستأذى بهم وبسفههم من تحت أيديهم والرعية واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد الله سفههم وسيرهم فيهم، وزاد على ذلك أن محمد بن أوس وتر الديلم بدخوله إلى بلادهم من حدود طبرستان على غرة وهم أهل سلم وموادعة لأهل طبرستان فسبي منهم ورجع.

لما جاء رسول محمد بن طاهر وأراد استلام القطيعة أحب أن يجوز معها تلك الأرض التي تتصل بها من الموات الذي يرتفق به أهل تلك الناحية.

كان هناك رجلان معروفان بالبأس والشجاعة وكانا معروفين قديماً بضبط تلك الناحية ممن رامها من الديلم وهما محمد وجعفر ابنا رستم فأنكرا ما فعله جابر ومنعاه وكانا مطاعين فاستنهضا من أطاعهما فنهضوا معهما وهرب جابر خوفاً على نفسه ولحق بسليمان بن عبد الله فأيقن الرجلان حينئذ بالشر وراسلا جيرانهم من الديلم يطلبون منهم المساعدة والمظاهرة على سليمان بن عبد الله فأجابهم الديلم إلى ذلك وتعاقدوا هم وأهل كلاروسالوس أن يعين بعضهم بعضا على حرب سلمان بن عبد الله ومحمد ابن أوس وغيرهما ممن قصدهم بحرب ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه فاتفقوا على الحسن بن زيد وكان مقيماً بالري فوجه إليه القوم من دعاه إلى أمرهم فأجاب وتوجه إليهم فبايعوه وبايعه رؤساء الديلم ثم ناهضوا من في تلك النواحي من عمال ابن أوس فطردوهم عنها فلحقوا بمدينة سارية.

ثم زحف الحسن ومن معه على مدينة آمل وهي حاضرة طبرستان وجاء محمد بن أوس يريد دفعه عنها فلم يقدر وفر هارباً ودخل الحسن مدينة آمل فكثف جيشه وغلظ أمره ومال إليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم ثم سار من آمل إلى سارية وبها العامل سليمان بن عبد الله فغلبه عليها ولم يكن له هو ومحمد بن أوس إلا النجاء منها بأنفسهما فهربا إلى جرجان وبذلك تم للحسن بن زيد الاستيلاء على بلاد طبرستان كلها فوجه خيلاً إلى الري فاستولت عليها وطردت عنها عمال ابن طاهر.

ورد الخبر بذلك إلى المستعين ومدبر أمره وصيف التركي فوجه إلى همذان قائداً في جمع من الجنود ليقيم بها ويمنع خيل الحسن أن تتجاوزها لأن ما وراء همذان كان لمحمد بن طاهر وبه عماله وعليه صلاحه.

هكذا نجح الحسن بن زيد في تكوين هذه الدولة التي تعرف بالدولة الزيدية بطبرستان واقتطع من ملك بني العباس وآل طاهر طرفاً عظيماً تحميه جبال طبرستان والديلم واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل (٢٥٠ ـ ٣٥٥) تولي فيها:

(١) الحسن بن زيد الداعي	٢٥٠ ـ ٢٧٠
(٢) محمد بن زيد القائم بالحق	٢٧٠ ـ ٢٧٩
الدولة السامانية	٢٧٩ ـ ٣٠١
(٣) الحسن الأطروش بن علي بن عمر بن زين العابدين	٣٠١ ـ ٣٠٤
(٤) الحسن بن القاسم بن علي بن عبد الرحمن ومعه أولاد الأطروش	٣٠٤ ـ ٣٥٥

ولم تكن هذه الدولة ذات نظام ملكي ولا مرتاحة من الأعداء فان بني سامان الآتي ذكرهم قتلوا محمد بن زيد واستولوا على طبرستان إلى سنة ٣٠١ ثم ظهر الحسن الأطروش فاسترد طبرستان من آل سامان ولكنه قتل في بعض حروبه مع السامانية فقام بعده الحسن بن القاسم ونازعه أولاد الأطروش ولم يزل النزاع والخلاف قائماً بينهم حتى انتهى أمرهم سنة ٣٥٥ وانقضى الملك الزيدي من تلك الجبال.

الجيش:

كان ما ظنه بغا الكبير في محله فإنه قال للقوم (نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضنا فقتلنا أنفسنا) وجد التحاسد بين هؤلاء القوم وليس للخليفة سلطان يقمع به من بغى منهم فكانت أولى جناياتهم قتل أتامش لما رأوه قد استبد بأموال الدولة وبمصالحها. ثم اتفق وصيف وبغا على قتل باغر التركي الذي تولى قتل المتوكل لأنهما خافاه على أنفسهما وكان باغر قد جمع إليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل فجدد

عليهم البيعة التي كان أخذها عليهم وقال لهم الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيفا (وكانا يسميان بالأميرين) ونجيء بعلي بن المعتصم أو بابن الواثق فنقعده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن على غير شيء فأجابوه إلى ذلك وانتهى الأمر إلى المستعين فبعث إلى وصيف وبغا فقال لهما ما طلبت إليكما أن تجعلاني خليفة وإنما جعلتماني وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلاني فحلفا له أنهما ما علما بذلك فأعلمهما الخبر فاتفق الرأي على التدبير على باغر ففعلا وقتلاه فهاج أصحابه هيجاناً شديداً ولم يكن من الأميرين إلا حمل المستعين معهما والانحدار به إلى بغداد يوم الأربعاء ٤ محرم سنة ٢٥٢ ونزل المستعين بدار محمد بن عبد الله بن طاهر ولحقهم جماعة من قواد الأتراك فدخلوا إلى المستعين فرموا بأنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم في أعناقهم تذللا وخضوعاً وسألوه الصفح عنهم فقال لهم أنتم أهل بغي وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا إلي في أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفي غلام وفي بناتكم فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف امرأة وفي المدركين والمولودين؟ وكل هذا قد أجبتكم إليه وأدررت لكم الأرزاق حتى سكبت لكم آنية الذهب والفضة وحرمت نفسي لذتها وشهوتها كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم وأنتم تزدادون بغياً وفساداً وتهدداً وإبعاداً. فتضرعوا إليه حتى قال قد رضيت عنكم فقال له أحدهم بايكباك إن كنت رضيت عنا وصفحت فقم فاركب معنا إلى سامرا فإن الأتراك ينتظرونك. فأومأ محمد بن عبد الله بن طاهر إلى محمد بن أبي عون فلكز في حلق بايكباك وقال له هكذا يقال لأمير المؤمنين قم فاركب معنا فضحك المستعين من ذلك وقال هؤلاء قوم عجم ليس لهم معرفة بحدود الكلام.

وقال لهم المستعين تصيرون إلى سامرا فإن أرزاقكم داره عليكم وأنظر أنا في أمري ههنا ومقامي. فانصرفوا آيسين منه غاضبين مما حصل لهم فأجمعوا أمرهم على إخراج المعتز والبيعة له وكان المعتز والمؤيد في حبس الجوسق في حجرة صغيرة مع كل واحد منهما غلام يخدمه فأخرجوا المعتز وبايعوه بالخلافة ولأخيه المؤيد ولاية العهد.

وبذلك صارت بغداد في جانب المستعين والقائم بأمره محمد بن عبد اللّٰه بن طاهر ومن لف لفه وسامرا في جانب المعتز. كان من أول ما فعله ابن طاهر أن منع الميرة عن سامرا وقام بتحصين بغداد فأدير عليها السور وحفرت حولها الخنادق ورتبت الرجال على أبوابها وأسوارها وكتب المستعين إلى عمال الخراج بكل بلدة وموضع أن يكون حملهم ما يحملون من الأموال إلى بغداد ولا يحملون إلى سامرا شيئاً.

دارت المكاتبات فكتب المستعين إلى أتراك سامرا يأمرهم بنقض بيعة المعتز ومراجعة الوفاء ببيعتهم إياه ويذكرهم أياديه عندهم وينهاهم عن معصيته ونكث بيعته وكان كتابه بذلك إلى سيما الشرابي. وكتب المعتز إلى محمد بن عبد اللّٰه بن طاهر يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه من بايعه بالخلافة وخلع المستعين ويذكره ما كان أبوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من العهد وعقد الخلافة. فلم تفد هذه المكاتبات شيئاً وهيأ المعتز جيشاً لحرب المستعين جعل قيادته لأخيه أبي أحمد بن المتوكل وتدبيره إلى كلبانكين التركي. خرج هذا الجيش من سامرا فوافى عكبرا في غاية المحرم من سنة ٢٥١ ووصل باب الشماشية ببغداد لسبع خلون من صفر. وقد حصل بين الفريقين مواقع هائلة حول أسوار بغداد وبعيداً عنها وانقطعت بذلك السابلة وخربت الضياع وذهبت الأرزاق وكانت الحرب بين الفريقين في البر وفي النهر. وقد ظلت بغداد مسرحاً للفتن والحروب سنة ٢٥١ كلها وفي آخرها كاتب ابن طاهر المعتز في الصلح وأشيع بين عامة بغداد أن ابن طاهر مال إلى خلع المستعين وأنه وجه قواده فبايعوا المعتز فلما سمعوا ذلك هاجوا وأظهروا الوقيعة في ابن طاهر وشتموه أقرح الشتم وتجمعوا حول داره يريدون الإيقاع به فكلم ابن طاهر المستعين وسأله أن يطلع إليهم ويسكنهم ويعلمهم ما عليه ابن طاهر فأشرف عليهم من أعلى الدار وعليه البردة والطويلة وابن طاهر بجانبه فحلف لهم باللّٰه ما اتهمه وإنه لفي عافية ما عليه من ابن طاهر بأس ووعدهم أن يخرج في غد يوم الجمعة ويصلي بهم فانصرفوا وجاءوا في الغد يطلبون خروج المستعين إليهم فلم يخرج فازداد هياجهم وطلبوا خروج الخليفة من دار ابن طاهر فلم يجد من ذلك بدا وانتقل في أوائل ذي الحجة إلى دار رزق

الخادم وكان معه حين انتقاله ابن طاهر وبيده الحربة يسير بها وَالقواد خلفه وكان هذا الانتقال على غير إرادة المستعين ويقال إن السبب في عدول ابن طاهر عن الإخلاص للمستعين أن عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان الذي كان وزيراً للمتوكل قال له أطال اللّه بقاءك إن هذا الذي تنصره وتجد في أمره من أشد الناس نفاقاً وأخبثهم ديناً واللّه لقد أمر وصيفاً وبغاً بقتلك فاستعظما ذلك ولم يفعلاه وإن كنت شاكا فيما وصفت من أمره فسل تخبر. وإن من ظاهر نفاقه أنه كان وهو بسامرا لا يجهر في صلاته ببسم اللّه الرحمن الرحيم فلما صار إلى ما قبلك جهر بها مراءاة لك وتترك نصرة وليك وصهرك وتربيتك ونحو ذلك من كلام كلمه به فقال محمد بن عبد اللّه أخزى اللّه هذا لا يصلح لدين ولا لدنيا. كان وراء ذلك أن تخلى محمد عن نصرة المستعين وكانت نتيجة هذا التخلي أن تضعضع أمره وانحياز العامة له لم يفده فرأى من مصلحته أن يقبل خلع نفسه واشترط شروطاً تضمن حياته وراحته.

وفي يوم السبت ١٠ ذي الحجة سنة ٢٥١ ركب محمد بن عبد اللّه إلى الرصافة وجمع القضاة والفقهاء وأدخلهم على المستعين فوجا فوجاً وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره إلى محمد بن عبد اللّه فأرسل حينئذ محمد إلى المعتز من جاء يحطه بقبول الشروط التي طلبها المستعين وعادت الرسل في ثالث المحرم سنة ٢٥٢ وفي رابعه دخل ابن طاهر على المستعين ومعه كتاب الشروط كتبه سعيد بن حميد فقال ابن طاهر يا أمير المؤمنين قد كتب سعيد الشروط وأكد غاية التأكيد فنقرأ الكتاب عليك فقال المستعين لا عليك لا عليك فما القوم بأعلم باللّه منك وقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ما قد علمت ـ فما رد عليه محمد شيئاً.

ولما بايع المستعين للمعتز ببغداد أخذ منه البردة والقضيب والخاتم ووجه ذلك إلى المعتز وأشخص المستعين إلى واسط. ويعجبني هنا ما قاله أحد شعراء العصر:

خلع الخليفة أحمد بن محمد	وسيقتل التالي له أو يخلع
ويزول ملك بني أبيه فلا يرى	أحد بملك منهم يستمتع
إيها بني العباس إن سبيلكم	في قتل أعبدكم طريق مهيع

رقعتم دنياكم فتمزقت بكم الحياة تمزقاً لا يرقع

الأحوال الخارجية:

كان الحال في الخارج أشد من ذلك وأنكى فإن الاضطراب الحادث في داخلية الدولة كان سبباً في تقاعد أولي الأمر عن حماية الثغور والوقوف في وجه الروم الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرصة وقد صادف أن قائدين عظيمين من قواد الثغور قتلا في حرب مع الروم أول عهد المستعين وهما عمر بن عبد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمني وكانا نابين من أنياب المسلمين شديداً بأسهما عظيماً غناؤهما في الروم فأما أولهما فقد غزا ملطية فقابله ملك الروم في جمع عظيم فأحاطوا به فقتل وقتل معه ألفاً رجل وجرأهم قتله على قصد الثغور الجزرية فقصدوها وكلبوا عليها وعلى حرب المسلمين فبلغ ذلك علي بن يحيى وهو قافل من أرمينية إلى ميافارقين فنفر إليهم في جماعة قليلة فقتل نحو ٤٠٠ رجل.

لما بلغ ذلك أهل بغداد شق على عامتهم وعظم مقتل الرجلين في صدورهم مع ما لحقهم من استفظاعهم من الأتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا من الخلفاء واستخلاصهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر لأمور المسلمين فثاروا وربما كانوا ينجحون فيما إليه قصدوا من ثورتهم هذه لو وجدوا قائداً يدبر أمرهم ويبعدهم عن الفوضى ولكنهم لم يظفروا به.

اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنفير وانضمت اليهم الأبناء الشاكرية وفتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامرا أموالاً كثيرة من أموالهم فقووا من خف للنهوض إلى الثغور لحرب الروم وأقبلت إليهم العامة من نواحي الجبل وفارس وغيرهما لهذا القصد كل ذلك والخليفة لاه بما هو فيه عن ثغور المسلمين فلم يوجه لها عسكراً ولم تجد حركة العامة شيئاً.

١٣ ـ المعتز

هو أبو عبد اللَّه المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد اسمها قبيحة ولد سنة ٢٣١ وكان أبوه المتوكل جعله ولي عهده بعد المنتصر فلم تتم لـه الولاية لأن المنتصر أرغمه على أن يخلع نفسه ولما ولي المستعين بعد المنتصر حبسه هو وأخاه المؤيد حتى كانت الفتنة بين قواد المستعين فأخرج المعـتز وبويـع وتم له الأمر بعد خلع المستعين في رابع محـرم سنة ٢٥٢ (٢٥ ينـاير سنـة ٨٦٦) ولم يزل والياً إلى أن خلع لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ (١١ يولية سنة ٨٦٩) فكانت مدة خلافته بعد خلع المستعين ثلاث سنوات وستة أشهر و ٢٣ يوماً.

وزراء المعتز:

لم يكن للوزارة في هذا العهد كبير شأن لانحطاط أمر الخـلافة نفسهـا وقد كان الوزراء كتاب أموال فمن أمكنه أن يقوم بحاجة كبار الأتراك ومقدميهم بقي في منصبه وإلا عزل وفعلت به الأفاعيل.

أول وزراء المعتز أبو الفضـل جعفر بن محمـود الإسكافي. لم يكن لـه علم ولا أدب ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايـا وكانت وزارتـه على غـير رغبة المعتز لأنـه كان يكـرهه وكـان الأتراك فيـه فريقـين فثارت بسبب ذلـك فتنة فعزل من أجل ذلك.

وتـولى الوزارة بعـده عيسى بن فرخـانشـاه ولم يمكث إلا قليـلاً حتى عـزل بسبب فتنة كالأولى فولي بعده أحمد بن إسرائيل الأنباري وهـو كاتب حـاذق ذكي وكان المعتز يميل إليه لأنه كان يتولى له أموره قبل أن يلي الخلافة فمكث وزيراً إلى

سنة ٢٥٥ ومما يدل على قدر ما صار إليه سلطان الخليفة ومبلغ الفساد في أحوال الدولة، الكيفية التي عزل بها أحمد بن إسرائيل عن الوزارة هو والكتاب الذين معه.

دخل صالح بن وصيف مقدم الأتراك على المعتز وقال له يا أمير المؤمنين ليس للأتراك عطاء ولا في بيت المال مال وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا فقال له أحمد بن إسرائيل يا عاصي يا ابن العاصي ثم لم يزالا يتراجعان الكلام بحضرة الخليفة حتى سقط صالح مغشياً عليه من شدة الغيظ والحر فرش على وجهه الماء وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب فصحاوا صيحة واحدة واخترطوا سيوفهم ودخلوا على المعتز فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم وأخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل الوزير والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبا نوح عيسى بن إبراهيم فقيدهم وطالبهم بالمال فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم هب لي أحمد فانه كاتبي وقد رباني فلم يفعل ذلك صالح وبعثت إليه أم المعتز في ابن إسرائيل تقول له إما حملته إلى المعتز وإما ركبت إليك فيه. فلم يفد هذا ولا ذاك شيئاً. وهذا دليل على انحطاط عظيم في أمر الخلافة وزاد صالح الأمر شنعة فبعث إلى جعفر بن محمود الإسكافي الذي كره المعتز أن يعمل له وولاه الوزارة رغم أنفه.

وإسكاف الذي ينتمي إليها جعفر بن محمود قرية من نواحي النهروان بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي وهي إسكاف العليا وهناك إسكاف السفلى بالنهروان أيضاً.

العلويون في عهد المعتز:

في عهد المعتز مات علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا وهو الإمام العاشر من أئمة الشيعة الإمامية فتولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكري وهو الحادي عشر من أئمتهم وإنما لقب بالعسكري لإقامته بسامرا التي كانت تدعى إذ ذاك بالعسكر.

أما الزيدية فكانوا قد وجدت لهم دولة ببلاد طبرستان على يد الحسن بن

زيد كما تقدم وقد اتهم جماعة من الطالبيين في بغداد والكوفة بالدعوة للحسن بن زيد ووجدت مع بعضهم كتب من الحسن فأمر المعتز بحملهم إليه بسامرا فحملوهم إليه ولم يعرض المعتز لهم بمكروه وإنما توثق منهم.

حال الجيش والأتراك:

استخلف المعتز وأحوال الجند والأتراك على شر ما يكون فهم أصحاب السلطان والنفوذ وهم فيما بينهم مختلفون لأنه لا يد فوق تقف كلا منهم عند حده ولا حيلة للخليفة إلا مراعاة جانبهم حيناً وإعمال الحيلة والدسائس حينا وهكذا يفعل كل من سلب سلطانه ولا قدرة على استرداده.

في أول خلافة المعتز كتب بإسقاط اسم وصيف وبغا وهما أكبر قواد الأتراك لما كان من مساعدتهما المستعين وكان هذا الكتاب مرسلا إلى محمد بن عبد اللّه بن طاهر أمير بغداد فبلغ ذلك وصيفاً وبغا فجاءا إلى محمد وقالا بلغنا أيها الأمير ما عزم عليه القوم من قتلنا والقوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه واللّه لو أرادوا أن يقتلونا ما قدروا فحلف لهم محمد باللّه أنه لم يعلم بشيء من ذلك فذهب الرجلان وتحرزا وتكلم لهما عند المعتز من أرضاه عنهما ثم اجتمع الأتراك عند المعتز وسألوه الأمر بإحضارهما وقالوا هما كبيرانا ورئيسانا فكتب إليهما بالرضا عنهما فذهبا من بغداد إلى سامرا فذهب لزيارتهما في منزلهما وزير المعتز أحمد بن إسرائيل وردهما المعتز إلى مراتبهما رغم أنفه بقاء على إلحاح الأتراك وردت إليهما ضياعهما.

كان من عناصر الجيش المهمة المغاربة وهم ممن اصطنع المعتصم كما اصطنع الأتراك. رأى المغاربة ما عليه الأتراك من النفوذ والعلو فساءهم ذلك فاجتمع بعضهم إلى بعض مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد فيهم وجاءوا إلى الأتراك وهم بالجوسق من سامرا فغلبوهم عليه وأخرجوهم منه وقالوا لهم في كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيراً وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرخانشاه الذي كان وزيراً للمعتز قبل أحمد بن إسرائيل فتناولوه بالضرب وأخذوا دوابه.

ولما أخرجت المغاربة الأتـراك من الجوسق وحلبـوهم على بيت المـال أخذوا خمسين دابة مما كان الأتـراك يركبـونها فاجتمـع الأتراك ولمـوا شعثهم فتلاقـوا هم والمغاربة وكان يعين المغاربة الغوغاء والشاكرية فضعفت الأتراك وانقادوا للمغاربة فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين عـلى ألا يحدثـوا شيئاً ويكـون في كل موضع فيه رجل من قبل أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخـر فمكثوا عـلى ذلك مـدة ثم احتال الأتـراك على محمـد بن راشـد ونصر بن سعيـد اللذين اجتمع عليهما المغاربة حتى ظفروا بهما فقتلوهمـا والذي تـولى ذلك بـايكباك أحـد كبار قواد الأتراك ولم يفعل المعتز في ذلك شيئاً وعاد النفوذ إلى الأتراك.

وفي سنـة ٢٥٣ شغب الأتـراك والفـراغنـة والأشـروسنـة وطلبـوا أرزاقهم لأربعة أشهر فخرج إليهم بغا ووصيف وسيما الشرابي فكلمهم وصيف وقـال لهم ما تريدون قالوا أرزاقنا فقال خذوا تـراباً وهـل عندنـا مال وقـال لهم بغا نـذهب فنستأمر أمير المؤمنين ومضى هو وسيما وبقي وصيف في أيديهم فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف ضربتين ووجأه آخر بسكين ثم أجهـزوا عليه ونصبـوا رأسه عـلى محراك تنور.

ولما علم بذلك المعتز لم يكن له من العمل إلا أن جعل ما كان إلى وصيف من الأمـور إلى بغا الشـرابي. خاف بغـا من أن يكـون لـه من هؤلاء يـوم كيـوم وصيف فصار يحض المعتز على المسير إلى بغداد والمعتز يـأبى عليه ذلـك لخوفـه أن يجري عليه ما جرى على سلفه. وكـان بايكبـاك كبير الأتـراك ومقدمهم بعـد بغا منحرفاً عن بغاوكانا متهاجـرين وكان المعـتز مع بـايكباك يـريد التخلص من بغـا فجمع بايكباك جموعه وساعده المعتز حتى تمكن من بغا فقتله ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد وثبت المغاربة على جثته فأحرقوهـا بالنـار وتتبع عبيـد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن طاهر بنيه ببغداد وكانوا صاروا إليها هرباً فحبس من ولده وأصحابه نحو ٢٥ شخصـاً وصـارت الكلمـة العليـا في الأتـراك وفي الـدولـة لصـالـح بن وصيف وبايكباك.

كانت بغداد بعيدة عن الاضطرابـات لأمرين: الأول: بعـد هؤلاء الغلف القلوب عنها، والثاني: وجود محمد بن عبد اللّٰه بن طاهر بها وهـو رجل ذو عـزم

وأيد زيادة على ماله في نفس القوم من الهيبة ومع ذلك كله فقد مسها طائف من شيطان الاضطراب في سنة ٢٥٢ وذلك أن المعتز كتب إلى محمد بن طاهر يأمره أن يبيع غلال بعض الضياع التي منها أرزاق جند بغداد وكتب إلى والي البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بها من القواد ففعل ذلك دون أن يعلم الأمير ابن طاهر، فلما قرىء الكتاب على القواد جاءوا إلى ابن طاهر فخبروه الخبر فأحضر والي البريد وقال له ما حملك على هذا بغير علمي وتهدده على ذلك ثم اجتمعت الجنود البغدادية إلى باب ابن طاهر تطلب أرزاقها فأخبرهم أن كتاب الخليفة ورد عليه جواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق بغداد إن كنت فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم وإن كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم - أعطاهم ابن طاهر ما سكتهم به وقتاً ثم اجتمعوا في ١١ رمضان سنة ٢٥٢ ومعهم الأعلام والطبول وضربوا المضارب والخيم على باب حرب والشماسية وغيرهما وبنوا بيوتاً من بواري القصر وهكذا استعدوا للشغب على ابن طاهر كما يشغب أتراك سامرا على المعتز فجمع ابن طاهر الجند القادمين معه من خراسان وأعطاهم لشهرين وأعطى جند بغداد القدماء الفارس منهم دينارين والراجل ديناراً وشحن داره بالرجال.

اجتمع أهل الشغب وعليهم رجل يقال له عبدان بن الموفق وهو رجل قد اعتاد هذه الثورات وهو الذي كان يحض أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفائتهم وضمن لهم أن يكون رأساً يدبرهم وأن يعينهم بماله حتى ينالوا ما يطلبون. عزموا بعد اجتماعهم أن يحضروا إلى الجامع فيمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز فذهبوا إلى الإمام وحظروا عليه ذلك فتعلل بالمرض ولم يذهب إلى الجامع.

وجه إليهم ابن طاهر قواده في جماعة من الفرسان فكانت بين الفريقين حروب ووقائع غلب فيها المشغبون قواد ابن طاهر ثم فسد نظام جماعة المشغبين ووشى بعضهم بسائرهم فقبض على رءوسهم وعوقبوا أشد العقوبات وصلب رئيسهم عبدان بن الموفق وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد إلى ما كانت من الأمن.

وفي ١٤ ذي القعدة سنة ٢٥٣ توفي الأمير محمد بن عبد اللّه بن طاهر أمير بغداد واستخلف على إمارته أخاه عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر وهذه نسخة وصيته: -

«أما بعد فقد استخلفت عبيد اللّه بن عبد اللّه مولى أمير المؤمنين أخي الموثوق باقتفائه أثري وأخذه بسد ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين إلى أن يأتيه من أمره ما يعمل بحسبه فاعلم ذلك واتمر فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد اللّه وأمره أن شاء اللّه وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة سنة ٢٥٣ وقد أقره المعتز على هذه الولاية وعاش عبيد اللّه إلى سنة ٣٠٠ وهي سنة وفاته».

خاتمة المستعين سلف المعتز:

قدمنا أن المعتز كتب للمستعين شروطاً عند خلعه منها تأمينه على حياته وقد أكدوا في هذا الكتاب تأكيداً شديداً وارتضى أن يقيم بالبصرة فقيل له إن البصرة وبية فكيف اخترت أن تنزلها فقال المستعين هي أوبأ أو ترك الخلافة؟ فأشخص المستعين مع محمد بن مظفر بن سيسل وابن أبي حفصة إلى واسط لا إلى البصرة في نحو ٤٠٠ من الفرسان وقبل أن تنهي السنة بدا للمعتز فعزم على قتل المستعين ولم يبال بكتاب الأمان فأرسل إلى ابن طاهر يأمره أن يكتب إلى عامل البصرة أن يسلم المستعين لمن ندبه المعتز لاستلامه وهو أحمد بن طولون التركي فأخرج المستعين من واسط لست بقيت من شهر رمضان فوافى به القاطول لثلاث خلون من شوال فتسلمه منه سعيد بن صالح وكان في ذلك ختام حياة المستعين وكيفية قتله مبهمة مختلف فيها كثيراً وأتى المعتز فيما قيل برأسه وهو يلعب الشطرنج فقيل هذا رأس المخلوع فقال ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر إليه ثم أمر بدفنه وأجاز سعيد بن صالح بخمسين ألف درهم وولي معونة البصرة.

وكما لم يأبه المعتز بكتابة أمان المستعين وقتله كذلك لم يأبه لعهد أخيه إبراهيم المؤيد ولا لسابقة أخيه أبي أحمد بن المتوكل وهو الذي قاد الجيش إلى بغداد وحصرها حتى أسقط المستعين من عرش الخلافة فإنه خلع الأول من ولاية

العهد وحبسه ثم أماته وحبس الثاني وضيق عليه وسبب ذلك أن عامل أرمينية العلاء بن أحمد بعث إلى إبراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره فبعث ابن فرخانشاه الوزير: إليه فأخذها فأغرى المؤيد الأتراك بابن فرخانشاه وخالفهم المغاربة وكانت فتنة فبعث المعتز إلى أخويه المؤيد وأبي أحمد فحبسهما في الجوسق وقيد المؤيد وصيره في حجرة ضيقة ثم خلعه عن ولاية العهد يوم الجمعة ٧ رجب ٢٥٢.

وبعد هذا الحبس والتضييق والخلع بلغ المعتز أن الأتراك يريدون إخراجه من سجنه فأرسل إلى موسى بن بغا فسأله فأنكر وقال إنما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمد بن المتوكل لأنسهم به يوم كان في الحرب التي كانت وأما المؤيد فلا. فأغرى ذلك المعتز بأخيه فعمل على موته بدون أثر ظاهر وحول أبو أحمد إلى الحجرة التي كان فيها المؤيد ثم نفاه سنة ٢٤٥ إلى واسط ثم إلى البصرة ثم رد إلى بغداد وأنزل إلى الجانب الشرقي في قصر دينار بن عبد اللّه.

خلع المعتز:

لما أخذ صالح بن وصيف الكتاب على الشكل الذي أوضحناه قبلاً في تاريخ الوزراء لم يجد عندهم من المال ما يسد مطامعه ومطامع الجنود الذين معه فذهب الجنود إلى المعتز وقالوا له أعطنا أرزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف فأرسل المعتز إلى أمه ذات الثروة الطائلة يسألها أن تعطيه مالا ليعطيهم فأبت أن تعطيه شيئاً وأنكرت أن يكون عندها شيء ولما وجد الأتراك أن المعتز وأمه قد امتنعا أن يسمحا لهم بشيء وبيت المال خال اتحدت كلمة الأتراك والفراغنة والمغاربة على خلع المعتز فساروا إليه لثلاث بقين من رجب فلم يرعه إلا صياح القوم وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا قد دخلوا عليه في السلاح فجلسوا على باب المنزل الذي ينزله المعتز. ثم بعثوا إليه اخرج إلينا فبعث إليهم إني أخذت الدواء أمس وقد أجفلني اثنتي عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف فإن كان أمراً لا بد منه فليدخل إلي بعضكم فليعلمني فدخل إليه القوم فجروا برجله إلى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضرباً بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق في مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه في الشمس في الدار في وقت شديد

الحر فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الـذي قد أقيم فيـه ثم بعثـوا إلى قاضي القضـاة فحضر وأمر المعـتز أن يمضي على كتـاب خلع كتب لـه فأمضى وشهد عليه الحاضـرون. ويقال إنـه بعد الخلع دفـع إلى من يعذبـه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البحر فمنعوه حتى مات وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة البائس الـذي سعى كثيراً للحصـول على هـذه الخلافـة وركب في سبيل الخلاص ممن تـوهمهم مزاحمـين له مـالا يجوز من خليفـة ولا من سـوقة فقتـل المستعين وخلع أخـاه ثم قتله ونفى أخاه الثـاني كل ذلـك لتهيأ لـه الخلافة فلم ينـل ما أراد بسبب الفسـاد المستحكم في الدولـة وقال بعض شعـراء العصر في ذلك:

عـين لا تبخـلي بسفـح الـدمـوع ... وانـدبي خـير فـاجـع مـفـجـوع
خـانـه النـاصـح الشفيـق ونـالتـ ... ـه أكـف الـردى بحـتـف سـريـع
بـكـر الـتـرك نـاقـمـين عـليـه ... خـلـعـتـه أفـديـه مـن مخـلوع
قـتـلوه ظـلماً وجـوراً فـألـفـو ... ه كـريـم الأخـلاق غـير جـزوع
كـان يغشي بحسنـه بهجـة البـد ... ر فـتـلقـاه مـظهـراً لـلخضـوع
وتـرى الشمس تستكـين فـلا تشـ ... ـرق إمـا رأتـه وقـت الـطلوع
لم يهـابـوا جيشـاً ولا رهـبـوا السـ ... ـيف فلهفي عـلى القتيـل الخليـع
أصبح الترك مـالكي الأمـر والعـا ... لم مـا بـين سـامـع ومـطيـع
وتـرى الـلّه فيـهـم مـالـك الأمـ ... ـر سـيـجـزيهـم بـقـتـل ذريـع

وقال آخر في قصيدة:

أصبحت مقلتي تسـح الـدمـوعـا ... إذ رأت سـيـد الأنـام خـليـعـا
لهـف نفسي عـليـه مـا كـان أمـلا ... ه وأسـراه تـابـعـاً لـتـبـوعـا
ألـزمـوه ذنـبـاً عـلى غـير جـرم ... فـثـوى فيـهـم قـتيـلاً صـريـعـاً
وبـنـو عـمـه وعـم أبـيـه ... أظهـروا ذلـة وأبـدوا خضـوعـا
مـا بهـذا يـصـح ملك ولا يـغـ ... زى عـدو ولا يـكـون جمـيـعـا

وكان المعتز أول خليفة أظهر الركوب بحليـة الذهب وكـان من سلف قبله

من خلفـاء بني العباس وكذلك جمـاعة من بني أميـة يركبون بالحليـة الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسـروج واللجم فلما ركب المعتز بحليـة الذهب اتبعه الناس في فعل ذلك.

١٤ ـ المهتدي

هو محمد المهتدي باللّه بن هرون الواثق بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب، ولد سنة ٢١٨ وبويع له بالخلافة بعد أن خلع المعتز نفسه لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ (١١ يولية سنة ٨٦٩) ولم يزل خليفة إلى أن خلع في ١٤ رجب سنة ٢٥٦ (١٧ يونية سنة ٨٧٠) فكانت مدته ١١ شهراً وأياماً.

كيف انتخب:

لما عزم الأتراك على خلع المعتز أرسلوا إلى بغداد فأحضروا محمداً هذا وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها فأتى به في يوم وليلة إلى سامرا فتلقاه الموالي في الطريق ودخل إلى الجوسق فعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد وثب إليه فعانقه وجلسا جميعاً على السرير فقال له محمد يا أخي ما هذا الأمر قال المعتز أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له؛ فأراد محمد أن يتوسط أمره ويصلح الحال بينه وبين الأتراك فقال المعتز لا حاجة لي فيها ولا يرضوا بي لها فقال محمد فأنا في حل من بيعتك قال أنت في حل فلما جعله في حل من بيعته حول وجهه عنه فأقيم عن حضرته ورده إلى محبسه وكان من أمره ما قدمنا.

وزراء المهتدي:

أبقى المهتدي محمود بن جعفر الإسكافي على وزارته مدة قليلة ثم عزله واستوزر من بعده سليمان بن وهب بن سعيد. وهو من بيت قديم في الكتابة

منذ عهد معاوية ابن أبي سفيان وكان جده سعيد في خدمة آل برمك وكان أبوه وهب في خدمة جعفر بن يحيى البرمكي ثم تحول إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل وهو القائل فيه عجبت لمن معه وهب كيف تهمه نفسه؟ ثم استكتبه الحسن بن سهل بعده أما سليمان فكتب للمأمون وعمره ١٤ سنة ثم لإيتاخ ثم لأشناس وولي الوزارة للمهتدي وللمعتمد وكان أخوه الحسن بن وهب يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ومن ظريف المدح ما قاله أبو تمام في سليمان بن وهب:

كل شعب كنتم به آل وهب ... فهو شعبي وشعب كل أديب
إن قلبي لكم لكالكبد الحر ... ى وقلبي لغيركم كالقلوب

وقال فيه البحتري:

كأن آراءه والحزم يتبعها ... تريه كل خفي وهو إعلان
ما غاب عن عينه فالقلب يكلؤه ... وإن تنم عينه فالقلب يقظان

وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة في الدرج والدستور وأحد عقلاء العالم وذوي الرأي منهم واستمر وزيراً للمهتدي إلى أن خلع.

حدث عبد اللّه الباقطاني وكان يتقلد ديوان المشرق قال دخلت مع أبي العباس ابن ثوابة إلى المهتدي وكان سليمان بن وهب وزيره وكان يدخل إليه الوزير وأصحاب الدواوين والعمال والكتاب فيعملون بحضرته فيوقع إليهم في الأعمال فأمر سليمان أن يكتب عنه عشرة كتب مختلفة إلى جماعة من العلماء فأخذ سليمان بيد أبي العباس ابن ثوابة ثم قال له أنت اليوم أحد ذهناً مني فهلم نتعاون فدخلا بيتا ودخلت معهما وأخذ سليمان خمسة أنصاف وأبو العباس خمسة أنصاف أخر فكتبا الكتب التي أمر بها سليمان ما احتاج أحدهما إلى نسخة وقد أكمل كل واحد منهما ما كتب به صاحبه فاستحسنه وقرظه ثم وضع سليمان الكتب بين يدي المهتدي فقال له وقد قرأها أحسنت يا سليمان ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل وكان سليمان إذا ولي عاملاً أخذ منه مالا معجلا وأجل له مالا إلى أن يستلم عمله فقال له يا أمير المؤمنين هذا قول لا يخلو من أن

يكون حقا أو باطلا فان كان باطلا فليس مثلك من يقوله وإن كان حقا وقد علمت أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهمني من عمالي على بعض ما يصل إليهم من بر من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال. فقال إذا كان هكذا فلا بأس ثم قال له آكتب إلى فلان العامل يقبض ضيعة فلان المصروف المعتقل في يده بباقي ما عليه من المصادرة فقال أبو العباس بن ثوابة كلنا يا أمير المؤمنين خدمك وأولياؤك وكلنا حاطب في حبلك وساع فيما أرضاك وأيد ملكك أفنمضي ما تأمر به على ما خيلت أم نقول بالحق؟ قال بل قل بالحق يا أحمد فقال يا أمير المؤمنين الملك يقين والمصادرة شك أفنرى أن أزيل اليقين بالشك قال لا قال فقد شهدت الرجل بالملك وصادرته عن شك فيما بينك وبينه وهل خانك أم لا فتجعل المصادرة صلحا فإذا قبضت ضيعته بها فقد أزلت اليقين بالشك فقال له صدقت ولكن كيف الوصول إلى المال فقال له أنت لا بد لك من عمال على أعمالك وكلهم يرتزق ويرتفق فيحوز رفقه ورزقه إلى منزله فاجعله أحد عمالك ليصرف هذين الوجهين إلى ما عليه ويسعفه معاملوه فيتخلص بنفسه وضيعته ويعود إليك مالك فأمر سليمان بن وهب أن يفعل ذلك.

وقد سقنا هذه الحكاية لنبين ما كان عليه العمال إذ ذاك من تحليل الارتفاق وإقامة البرهان بين يدي الخليفة على جوازه وليس ارتفاق العامل إلا رشوة وما هذا المعجل والمؤجل الذي لاحظ المهتدي على وزيره أليس هو رشوة ومع ذلك نراه احتج وأقنع خليفته بأنه لا ضرر فيه وكذلك قول ابن ثوابة فهو حق شيب بباطل وباطل أشبه الحق.

صفات المهتدي:

كان المهتدي من صالح بني العباس يكره الظلم ويحب رفعه وبنى قبة لها أربعة أبواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص للمظالم وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويؤم بهم وكان فيه ديانة وتقشف حتى أن الجند تأسوا به إلا أن الدولة كانت وصلت إلى الدرجة التي لا يصلحها فيها مثل المهتدي في صلاحه وكثرة عبادته في بدء خلافته كان موسى بن بغا أميراً على

الري وقائداً للجنود التي تتولى حرب الحسن بن زيد الطالبي فلما بلغه ما فعل صالح بن وصيف بالمعتز وبيعة المهتدي ترك ذلك الثغر وأقبل من سامرا فكتب الخليفة إليه كتباً كثيرة يطلب إليه بها البقاء بموضعه فلم يفعل ثم أرسل إليه في ذلك رسلاً من بني هاشم فلم يطع وكان صالح بن وصيف يتخوف عودة موسى فكان يعظم انصرافه عن الثغر وينسبه إلى المعصية والخلاف. قدم موسى سامرا حنقا على صالح فاختفى منه ودخلت جنود موسى على المهتدي وهو جالس للمظالم فأقاموه من مجلسه وحملوه إلى معسكرهم فقال لموسى ما تريد ويحك اتق الله وخفه فإنك تركب أمراً عظيماً فرد عليه موسى خيراً ثم أخذوا عليه العهود والمواثيق ألا يمالىء صالحاً عليهم ففعل فجددوا له البيعة في ١٢ محرم سنة ٢٥٦ ولثمان بقين من صفر قتل صالح بن وصيف بعد خطوب طويلة وكان أصحاب موسى قد اتهموا المهتدي بإخفائه فأرادوا خلعه فانتشر الخبر في العامة فكتبوا رقاعاً ألقوها في المسجد الجامع وفي الطرقات ونص هذه الرقاع (بسم الله الرحمن الرحيم يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهي لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فان الموالي قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام والمدبر لذلك فلان وفلان رحم الله من أخلص النية ودعا وصلى على محمد ﷺ). فلما بلغ ذلك الأتراك خافوا ثورة العامة فأرسلوا إلى المهتدي يخبرونه أنهم يبذلون دماءهم دونه وشكوا مع ذلك سوء حالهم وتأخر أرزاقهم وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم التي قد أجحفت بالضياع والخراج وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء الدخلاء الذين قد استغرقوا كثيراً من أموال الخراج. وهذه الشكوى كانت في الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قويا ينتفع بها لأنها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين أقطعوا ضياعاً كثيرة لم يلتفتوا إلى إصلاحها فخربت وأدى ذلك إلى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة ما يسد به حاجة الجند.

كتب إليهم المهتدي يذكر سروره من طاعتهم وأخبرهم أنه يعز عليه ما ذكروا من حاجتهم ولكن ليس لديه ما يرفع عنهم هذه الخلة وأنه سينظر في أمر

الإقطاعات ويسير فيها على ما يحبون. فأعادوا عليه الكتاب مبينين ما يطلبون وهو:

(١) أن ترد الأمور إلى أمير المؤمنين في الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض.

(٢) أن ترد رسومهم إلى ما كان عليه أيام المستعين وهو أن يكون على كل تسعة عريف منهم وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد.

(٣) ألا يدخل مولي في قبالة ولا غيرها.

(٤) أن يوضع لهم العطاء كل شهرين على ما لم يزل.

(٥) أن تبطل الإقطاعات وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من شاء ويرفع من شاء.

وذكروا أنهم سيصيرون إلى باب أمير المؤمنين حتى تقضي حوائجهم وأنه إن بلغهم أن أحداً اعترض على أمير المؤمنين في شيء من الأمور أخذوا رأسه وإن سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحا وياجور ويكالبا وغيرهم.

وهذه المطالب كلها في مصلحة الخلافة لذلك أجابهم إليها المهتدي موقعاً بخطه إجابة إلى كل ما سألوا. فوصلهم كتابه وفيه اعتذار عن رؤسائهم ومع كتابه رسل هؤلاء الرؤساء يعتذرون إليهم.

فأعادوا الكتاب يقولون لا نرضى حتى يخرج الخليفة خمسة توقيعات بطلباتهم ثم يصير أمير المؤمنين الجيش إلى أحد إخوته أو غيرهم ليسفر بينهم وبينه بأمورهم ولا يكون رجلا من الموالى وأن يحاسب الرؤساء على ما عندهم من الأموال وكتبوا إلى القواد بمثل ما كتبوا به إلى المهتدي وأخبرهم أنه إن شاكته شوكة أو أخذ منه شعرة أخذوا رءوسهم جميعاً.

فلما جاء كتابهم المهتدي كتب لهم بكل ما يريدونه ودفع لهم التوقيعات الخمسة التي طلبوها وكذلك كتب لهم موسى بن بغا فلما وصلتهم الكتب

والتوقيعات كان بينهم اختلاف وهرج كثير فطائفة يقولون نـريد أن يعـز اللّه أمير المؤمنين ويوفر علينا أرزاقنا فإنا قد هلكنا بتأخيرها عنا ـ وطائفة يقولون لا نرضى حتى يولي علينا أمير المؤمنين أحد إخوته فيكون واحـد بالكـرخ وآخر بسـامرا ولا نريـد أحد منا يكون علينا رأسا ولم يكتبوا للمهتدي جواباً شافيـاً. فأرسـل إليهم المهتدي يسألهم عن سبب اجتمـاعهـم بعد أن أجيبت طلبـاتهم فتفرقـوا ثم عادوا إلى الاجتماع.

كانت كل هذه الأحوال فرصا لخـلاص المهتدي من سيـادة القواد الأتـراك فلم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ويظهر أنـه أراد استعمال الحيلة في الخلاص منهم فأنفذ جنداً لمحاربة خارجي وفيه موسى بن بغا وبـايكباك ومفلح فكتب المهتدي إلى بايكبـاك يأمـره أن يضم العسكر الـذي مع مـوسى إلى نفسـه وأن يكون هـو أمير الجيش وأن يقتـل موسى ومفلحـا. فلما وصل الكتـاب بايكباك ذهب إلى موسى وأراه إياه وقـال له إني لست أفـرح بهذا وإنمـا هو تـدبير علينا جميعاً وإذا فعل بك اليوم شيء فعل بي غدا مثله فما ترى؟ قال أرى أن تصير إلى سـامرا وتـظهر لـه أنك في طـاعته فـإنه يـطمئن إليك ثم تـدبر في قتله فقـدر بايكباك فدخل عـلى المهتدي فـأظهر المهتـدي الغضب من مخالفتـه حيث لم يقتل موسى ومفلحا فاعتذر إليه بايكباك فاحتبسه المهتدي عنده وأخذ سلاحه ولـما رأى الجند الذين معـه غيبته عنهم جـاشوا وأحـاطوا بـالجوسق فلما رأى المهتـدي ذلك استشـار صالـح بن علي بـن يعقـوب بن المنصور فأشـار عليـه أن يفعل مـا فعله المنصـور بأبي مسلم فـأمر المهتـدي بضرب عنق بـايكبال فضـرب عنقه والأتـراك مطيفون بالجوسق بسلاحهم فلم يرعهم إلا رأس بايكباك بين أيديهم أمر المهتدي بـرميها. فلما رأوهـا اضطربـوا واستعدوا للقتـال فحاربتهم الفـراغنـة والمغـاربـة والأشروسنية وكثر بينهم القتل ثم انفصل الفريقان وذهب الأتراك فقـووا أنفسهم وجاء منهم زهاء عشرة آلاف وخرج المهتدي وفي عنقه مصحف يدعو النـاس إلى نصـرته فلما التحم القـوم مال الأتـراك الذين مع المهتدي إلى إخـوانهم وبقي في المغـاربة والفـراغنة ومن خف من العـامة فحملت عليهم الأتـراك حملة شـديـدة فمروا منهزمين معهم المهتدي والسيف في يده مشهور وهـو يقول يـا معشر الناس

انصروا خليفتكم حتى صار إلى دار محمد بن يزداد وفيها أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها ووضع سلاحه فعلم الأتراك خبره فجاءوا إليه وقبضوا عليه وحملوه إلى داره مهانا وذلك في ١٤ رجب سنة ٢٥٦ ثم خلعوه لما أبى أن يخلع نفسه ثم مات لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦ .

١٥ ـ المعتمد

هو أحمد المعتمد على اللّٰه بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد كوفية اسمها فتيان ولد سنة ٢٣١ وبويع له بالخلافة من غير عهد سابق يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦ (١٩ يونية ٨٧٠) ولم يزل خليفة حتى توفي ليلة الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) فكانت مدته ٢٣ سنة وثلاثة أيام وكان يعاصره في الأندلس محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٧٣ ثم ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣ ـ ٢٧٥) ثم عبد اللّٰه بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠) وفي إفريقية وصقلية من الأغالبة محمد بن أحمد بن الأغلب المتوفى سنة ٢٦١ ثم أخوه إبراهيم المتوفي سنة ٢٨٩ .

وفي اليمن من آل زياد بزبيد إبراهيم بن محمد بن إبراهيم (٢٤٥ ـ ٢٨٩).

وفي اليمن من آل الحوالي بصنعاء محمد بن يعفر (٢٥٩ ـ ٢٧٩).

وفي خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد اللّٰه بن طاهر (٢٤٨ ـ ٢٥٩) وهو آخر الأمراء الطاهرية بخراسان.

ويعاصره في طبرستان الحسن بن زيد (٢٥٠ ـ ٢٧٠) ثم أخوه محمد بن زيد (٢٧٠ ـ ٢٧٩).

ويعاصره في بلاد الروم بالقسطنطينية الملك بسيل الصقلبي (٨٦٧ ـ ٨٨٦) ثم لاون السادس الملقب بالفيلسوف (٨٨٦ ـ ٩١١).

ويعاصره في فرنسا شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠ ـ ٨٧٧) ثم لويز الثاني الملقب بالتمتام إلى سنة ٨٧٩ ثم لويز الثالث إلى سنة ٨٨٢ ثم كارلومان إلى سنة ٨٨٤ ثم شارل الملقب بالغليظ إلى سنة ٨٨٧ وكان امبراطور المانيا أيضا ثم أودون الذي توفي سنة ٨٩٨.

الأحوال الداخلية:

كانت نتيجة طلبات الأتراك أن يتولى أمر الجيش أحد إخوة أمير المؤمنين وألا يرأسهم أحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة أن ولى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة بن المتوكل أمر الجيش والولايات فولاه في صفر سنة ٢٥٧ الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ثم ولاه في رمضان من هذه السنة بغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس. وفي ربيع الأول سنة ٢٥٨ عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم فصار السلطان الفعلي لأبي أحمد لا للخليفة وصارت كلمة أبي أحمد هي العليا على الأتراك وقوادهم فكان ذلك مما حسن الأحوال العامة بعض التحسين وإن كانت أحوال المعتمد نفسه ساءت لأنه لم يترك له شيء من التصرف حتى أنه احتاج في بعض الأحيان إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال:

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه
إليه تحمل الأموال طرا ... ويمنع بعض ما يجبى إليه

كان أبو أحمد الموفق بن المتوكل رجلاً صاحب عزيمة ثابتة ومحبة للغلب والسلطان وعلى يديه تمت الحوادث الجسام في عهد المعتمد وسنقتصها بعد أن نذكر إجمال الوزارة لعهده.

كان الذي يولي الوزراء هو أبو أحمد الموفق لأن المعتمد لم يكن له إلا الخطبة والسكة والاسم وما عدا ذلك فهو لأخيه.

كان أول الوزراء عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقدمنا ذكره إذ كان وزيراً للمتوكل. ولما عرضت عليه الوزارة كرهها وتنصل منها ولكنهم أبوا إلا إياه

فرضي بعد ذلك الإباء وكان عبيد الله خبيراً بأحوال الرعايا والأعمال ضابطاً للأموال ولم يزل وزيراً إلى سنة ٢٦٣ حيث مات بسقوطه عن دابته في الميدان وصلى عليه أبو أحمد بن المتوكل ومشى في جنازته.

استوزر بعده الحسن بن مخلد وكان كاتباً لأبي أحمد الموفق فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق. وأصله من دير قنى وكان أحد كتاب الدنيا قالوا كان له دفتر صغير يعمله بيده فيه أصول أموال المملكة ومحمولاتها بتاريخها فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه بحيث لو سئل في الغد عن أي شيء كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور. ولم يمكث في وزارة المعتمد كثيراً فإن مدته لا تزيد على ١٦ يوماً من ١١ ذي القعدة سنة ٢٦٣ إلى ٢٧ منه وذلك لقدوم موسى بن بغا أحد كبار قواد الأتراك فإنه لم يكن على وفاق معه فهرب إلى بغداد عقب حضوره.

ولي الوزارة بعده سليمان بن وهب وهو الذي كان وزيراً للمهتدي وقد قدمنا صفته وبيته وولي عبد الله بن سليمان كتابة أبي أحمد الموفق إلى ما كان له قبل ذلك من كتابة موسى بن بغا.

وفي سنة ٢٦٤ خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا حيث يقيم الخليفة فلما صار بها غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده وانتهب داره وداري ابنيه وهب وإبراهيم وأعاد إلى الوزارة الحسن بن مخلد لثلاث بقين من ذي القعدة فلما علم بذلك الموفق شخص من بغداد ومعه عبد الله بن سليمان فلما قرب من سامرا تحول المعتمد إلى الجانب الغربي فعسكر به ونزل أبو أحمد ومن معه جزيرة المؤيد واختلف الرسل بينهما. ولما كان بعد أيام خلون من ذي الحجة صار المعتمد إلى حراقة في دجلة وصار إليه أخوه أبو أحمد في زلال فخلع المعتمد عليه وعلى من معه من القواد.

وفي ثامن من ذي الحجة عبر جند أبي أحمد إلى جند المتوكل على وفاق وأطلق سليمان بن وهب ورجع المعتمد إلى الجوسق وهرب الحسن بن مخلد وأحمد بن صالح ابن شيرزاد وكتب في قبض أموالهما وأموال أسبابهما.

ولم يدم رضا أبي أحمد طويلاً عن سليمان بن وهب فإنه غضب عليه سنة ٢٦٥ وأمر بحبسه وحبس ابنه عبد اللّه فحبسا وعدة من أسبابهم في دار أبي أحمد وانتهبت دور عدة من أسبابه ووكل بحفظ داري سليمان وابنه عبد اللّه وأمر بقبض ضياعهما وأموالهما وأموال أسبابهما وضياعهما خلا أحمد بن سليمان ثم صولح سليمان وابنه عبد اللّه على ٩٠٠٠٠٠ دينار وصيرا في موضع يصل إليهما من أحبا.

وقد مات سليمان بن وهب في حبس أبي أحمد سنة ٢٧٢.

ولي الوزارة بعده للمعتمد أبو الصقر إسماعيل بن بلبل وهو عربي ينتسب إلى شيبان ولكن نسبه كان مغموراً ومن مساورة الظنون للمتهم أن ابن الرومي الشاعر مدح أبا الصقر بقصيدة نونية مطلعها.

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان

يقول فيها:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... كلا لعمري ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن له شرفا ... كما برسول اللّه عدنان

فلما سمع أبو الصقر قوله قلت لهم كلاماً ظن أن ابن الرومي قد هجاه بذلك باطنا وأنه عرض بأنه دعي واشتبه على أبي الصقر الأمر فاستحكم ظنه فأعرض عنه وتوصل ابن الرومي إلى إفهامه معنى الشعر فلم يقبل في ذلك قول قائل وقيل له يا سبحان اللّه فانظر إلى البيت الثاني وحسن معناه فإنه معنى مخترع ما مدح أحد بمثله قبلك فلم يصغ وجزم بأن ابن الرومي هجاه فكان ذلك داعياً إلى أن سل ابن الرومي عليه لسانه وهجاه فأفحش في هجائه ومما هجاه به قوله:

مهلا أبا الصقر فكم طائر ... خر صريعاً بعد تحليق
زوجت نعمى لم تكن كفؤها ... فصانها اللّه بتطليق
لا قدست نعمى تسربلتها ... كم حجة فيها لزنديق

وكان أبو الصقر كريماً مطعاماً متجملاً وبلغ في الوزارة مبلغاً عظيماً وجمع له

السيف والقلم فنظر في أمر العساكر أيضاً وسمي الوزير الشكور.

وفي سنة ٣٧٨ قبض علي أبي الصقر وأسبابه وانتهبت منازلهم وخلع بعد ذلك علي عبيد الله بن سليمان بن وهب وولي الوزارة وكان من كبار الوزراء مشايخ الكتاب وقد مر ذكر أبيه سليمان وبيته وبيت وهب.

وممن خدموا في كتابة الموفق أبو أحمد صاعد بن مخلد خلع عليه سنة ٢٦٥ واستعمله الموفق في قواد الجيوش مع الكتابة ومن أجل ذلك سمي ذا الوزارتين سنة ٢٧٠ وقبض عليه الموفق سنة ٢٧٢ وعلى ابنيه أبي عيسى وأبي صالح وعلي أخيه عبدون.

وعلى الجملة فإن أحوال الوزارة كانت لذلك العهد مضطربة جدا وقد استوزر بعض من سمعنا من الوزراء أكثر من مرة.

العلويون:

في عهد المعتمد على الله توفي أبو محمد الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن محمد زين العابدين بن الحسين بن علي وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية والذين في عمود نسبه إلى علي بن أبي طالب تسعة أئمة والعاشر هو الحسن بن علي. وكانت وفاة الحسن العسكري سنة ٢٦٠ بسامرا ودفن بها بجانب أبيه علي الهادي ولما توفي اختلفت الشيعة بعده اختلافا كثيراً وجمهورهم على أن الإمام بعده ابنه محمد العسكري وهو الثاني عشر من أئمتهم قالوا إنه دخل سرداباً في دار أبيه بسامرا وأمه تنظر إليه فلم يخرج إليها وسيظهر فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً ويسمونه المنتظر والقائم والمهدي والشيعة ينتظرون خروجه من ذلك السرداب:

ويقول غيرهم إن الحسن العسكري لم يعقب وإن سلسلة الأئمة انقطعت بوفاته وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن علي.

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشيع وتأثر جمهور المسلمين به بل وجهوا وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق فقد كان له سبعة من

الأولاد منهم عبد اللّه الأفطح ومحمد وموسى وإسماعيل.

فقال قوم إن الإمامة بعد جعفر لابنه عبد اللّه الأفطح لأنه أسن أولاد الصادق وزعم بعضهم أن جعفراً نص على إمامته بعده ومع ذلك فانه لم يعش بعد أبيه إلا سبعين يوماً ولم يعقب ولداً ذكراً.

وقال قوم إن الإمامة من بعده لابنه محمداً ورووا عنه أنه قال: إن صاحبكم اسمه اسم نبيكم.

وقال قوم منهم الاثنا عشرية الذين ذكرناهم. إن الإمامة من بعده لابنه موسى ورووا عنه أنه قال: سابعكم قائمكم، واجتمع عليه جمهور الشيعة وساقوا الإمامة في أولاده كما بينا.

ومنهم من قال إن الإمام بعد جعفر ابنه إسماعيل نصاً عليه من أبيه جعفر ثم اختلفوا فمن قائل إنه عاش بعد أبيه ومن قائل إنه مات في حياة أبيه. وفائدة النص بقاء الإمامة في أولاده دون غيره وساقوا الإمامة من بعده إلى ابنه محمد ويقال لهؤلاء الشيعة الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وهم إمامية يتفقون مع الإمامية الاثنا عشرية في المبدأ العام للتشيع الإمامي: وهو أنه لا بد للناس من إمام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأن الشريعة لا تؤخذ بالرأي ويتفقون معهم على إمامة الستة من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق ومنه يتبديء الاختلاف فالاثنا عشرية ذهبوا إلى فرع موسى الكاظم والإسماعيلية ذهبوا إلى فرع إسماعيل.

ولما كان الإمام هو حجة اللّه على خلقه وأنه لا بد من وجوده ليؤدي ما نيط به من تبليغ الشريعة وأحكامها ورأوا أنه لم يقم أحد من ولد إسماعيل بالظهور للناس قالوا إن الإمام قد يكون مستوراً مكتوماً عن الناس خبره وحينئذ لا بد له من نائب يكون هو الحجة وهو القائم بالدعوة والتبليغ عنه. وساقوا الإمامة إلى محمد بن إسماعيل ثم إلى أولاده من بعده وظهرت الدعوة إلى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكري خاتمة أئمة الشيعة الاثنا عشر وكان لهم تعاليم دينية يسترون كثيراً منها عن الناس ومن أجل ذلك قيل لهم الباطنية

ويقدمون هذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونـه حتى يجيبهم إلى بغيتهم وقد حـاول قوم أن يربطوا نحلة هؤلاء القوم بالنحلة الديصـانية وهي نحلة تنسب إلى رجـل يعرف بابن ديصان خرج بالبلاد الفارسية قبل ظهور الدين الإسلامي بعـد ظهور مرقيون بنحو ثلاثين سنة وكـان ظهور مـرقيون في السنـة الأولى من ملك ططوس بن أنـطونيانـوس الرومي وجـاء بعد ابن ديصـان «ماني» وهـذه المذاهب الثـلاثة متقاربة في أصولها فالمرقيـونية يقـولون بـوجود أصلين قـديمين همـا النور والـظلمة وقالوا إن ههنا كونا ثالثاً هو الحيـاة وهو عيسى وزعمت طـائفة أن عيسى رسـول ذلك الكون الثالث وهو الصانع لـلأشياء بـأمره وقـدرته إلا أنهم أجمعـوا على أن العـالم محدث وأن الصنعـة بينة فيـه لا يشكـون في ذلـك وزعمـوا أن من جـانب الزهومات والمكر وصـلى للّه دهره وصـام أبداً أفلت من حبـائل الشيـطان وقالـوا بتنزيه اللّه عز وجل عن الشـرور وأن خلق جميع الأشيـاء كلها لا يخلو من ضـرر واللّه متنزه عنه.

أما الديصانية الذين جاءوا على أثرهم فتقول أيضاً بالأصلين النور والظلمة وتقول طائفة منهم إن النور خـالط الظلمـة باختيـار منه ليصلهـا فلما حصل فيهـا ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه وقالت طائفة إن النـور أراد أن يرفـع الظلمـة عنه لما أحس بخشونتها ونتنهـا فشابكهـا بغير اختيـار وزعم ابن ديصان أن النـور جنس واحد والظلمة جنس واحد وزعم بعض الدياصنة أن الظلمـة أصل النـور وذكر أن النور حي حساس عالم وأن الظلمة بضد ذلك عـامية غـير حساسـة ولا عالمة فتكارها ولهم كتب كثيرة في مذهبهم.

والمانية يقولون أيضاً بالأصلين النور والظلمـة وهما مبـدأ للعالم فـالنور هـو العظيم الأول ليس بالعدد وهو الإلـه وزعم أنه أزلي بصفـاته ومعـه شيئان اثنـان أزليان أحدهما الجور والآخر الأرض ـ والأصل الثاني الظلمة وله كـلام طويـل في بدء كون الإنسان واشتباكـه مع إبليس وغلبـة الثاني الأول ثم خـلاص الثاني من هـذه الشباك وفـرض لمتبعيه فـرائض أوجب عليهم اتباعهـا سن لهم عبادات من الصلاة والصوم وقـد دان بتلك الشريعـة كثيرون من أمـة الفرس وكـان لهم بعد ماني أئمة يدينون بطاعتهم قبل الإسلام وبعد ظهـوره ولهم كتب دينية كتبهـا لهم

ماني ومن بعده من الأئمة. وقد نسب كثير من فلاسفة المسلمين إلى اعتقاد مذهب ماني وكانوا يعرفون بالزنادقة وهم الذين تجرذ لهم المهدي وابنه الهادي فقتل منهم عدداً كبيراً، قال ابن النديم في الفهرس: قيل إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة وقيل في الفضل وأخيه الحسن بن سهل مثل ذلك وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدي زنديقاً واعترف بذلك فقتله. قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان منهم وكذب في ذلك وقيل كان محمد بن عبد الملك الزيات زنديقاً. ومن رؤسائهم يزدان بخت وهو الذي أحضره المأمون من الري بعد أن أمنه فقطعه المتوكلون فقال له المأمون أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك إياه من الأمن لكان لنا ولك شأن فقال يزدان بخت نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون أجل.

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديصانية والباطنية إن عبد الله بن ميمون القداح كان هو وأبوه ميمون ديصانيين وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة وكان يظهر الشعابيذ ويذكر أن الأرض تطوى له فيمضي أين أحب في أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث والكائنات في البلدان الشاسعة وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونونه على نواميسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذي فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون فيموه ذلك عليهم وكان انتقل فنزل عسكر مكرم فكبس بها فهرب منها فنقضت له داران في موضع يعرف بسباط أبي نوح فبنيت إحداهما مسجداً والأخرى تمت على خرابها وصار إلى البصرة فنزل قوم من أولاد عقيل بن أبي طالب فكبس هناك فهرب إلى سلمية ومن هناك ابتدأت الدعوة ويزعم أصحاب هذا القول أن عبيد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية من نسل هذا الرجل وأن عبيد الله هو سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح وأنه تسمى بعبيد الله لما ورد مصر.

وهذا كلام كله يظهر عليه التوليد والاختراع كتب إرضاء لبني العباس الذين غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم ما يحاربونهم به إلا مثل هذه الأقاويل. والحق أن النحلة سياسية يقصد منها الوصول إلى هدم دولة بني

العباس إلا أنها شيبت بشيء من التعاليم لتكون مقدمة للدعوة وأساساً لها حتى يفجأ المدعو بالغرض السياسي لأول وهلة والتعاليم متى كانت سرية حامت حولها الظنون وجعلتها الشكوك في ظلمات حتى لا تتميز حقيقتها.

نشأ عن هذا المذهب قوتان كبريان كلتاهما ضد الدولة العباسية إحداهما منظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص وهي موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها كما كانت قرية الحميمة منذ ١٦٠ سنة موئل الدولة العباسية ومجمع أسرارها (الثانية) قوة ذات فوضى وجون ونكوب عن حسن السياسة ومركزها كان لأول ظهورها بالعراق وهي القرامطة وهذه أولاهما في الظهور فإنها ظهرت بوادر شرها في عهد المعتمد على الله والثانية تأخرت عنها. وسنتكلم الآن عن القرامطة.

ظهر في أواخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة قدم إليها من نواحي خوزستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة فأقام على ذلك مدة وأعلم الناس أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت وكان يزداد في أعين الناس نبلاً بما يظهر من الزهد ثم مرض وكان في القرية رجل يلقبه أهلها بكرمية لحمرة عينيه وهو بالنبطية أحمر العين فحمل هذا العليل إلى منزله ووصى أهله بالإشراف عليه والعناية به ولم يزل مقيماً عنده حتى برأ فكان كرمية يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكرة وكان يأخذ من كل من دخل في مذهبه ديناراً يزعم أنه للإمام واتخذ من أهل القرية نقباء اثني عشر فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التي أخبرهم أنها مفروضة عليهم.

كان للهيصم في تلك النواحي ضياع فوقف على تقصير أكرته في العمارة فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه في طلبه فأخذ وجيء به إليه فحبسه واشتغل بشربه. رقت إحدى جواري الهيصم للرجل فأخذت مفتاح الحجرة التي حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح إلى مكانه فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده وشاعت تلك الحادثة في الناس فافتتنوا به وقالوا رفع ثم ظهر في ناحية أخرى وأشيع بين الناس

أنه لا يمكن أحداً أن يناله بسوء فعظم في أعينهم. ومع ذلك فإنه خاف على نفسه وخرج إلى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذي آواه وهو كرمية ثم خفف فقيل قرمط.

ثم فشا مذهب القرامطة في سواد الكوفة والسلطان لاه عنهم لا يفكر في تغيير شيء مما هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التي حلت بالأمة الإسلامية وحتى أخيفت السبل وقطع طريق الحاج مما سنذكره في مواضعه إن شاء اللّه.

دعي آل علي:

لم يكف بني العباس ما أصاب دولتهم من آل علي بن أبي طالب الذي نفسوا عليهم ملك الدنيا وخلافة النبوة فضعفوا جوانب دولتهم وزعزعوا أركانها بل قام دعي في آل علي لا يعرف الطالبيون له نسباً ولا رحماً يدلي بدلوه في الدولة لينال منها حظاً لنفسه ذلك هو علوي البصرة أو الخبيث صاحب الزنج زعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأصله من عبد القيس من ربيعة ورد البحرين سنة ٢٤٩ فادعى أنه عباسي ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون فوجدت فتنة بين الفريقين فانتقل عنهم إلى حي من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحرين حتى أحلوه من أنفسهم محل النبي وجبوا له الخراج هناك وقاتلوا أسباب السلطان ووتر منهم جماعة كثيرة فتنكروا له، فتحول عنهم إلى البادية ومعه جماعة من أهل البحرين منهم مولى لبني حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع وهو قائد جيشه. نبت به البادية لسوء طاعة أهلها فشخص إلى البصرة فنزل بها في بني ضبيعة فاتبعه بها جماعة منهم علي بن أبان المعروف بالمهلبي وأخواه محمد والخليل وغيرهم وكان قدومه البصرة سنة ٢٥٤ وعاملها محمد بن رجاء الحضاري فعلم بهم فخرجوا من البلد خائفين وحبس ابن رجاء جماعة ممن اتهموا بالميل إليه منهم ابن الدعي.

مضى الدعي مع من اتبعه حتى صار إلى مدينة السلام فأقام بها حولا يستميل إليه الناس سراً حتى إذا عزل محمد بن رجاء عن البصرة شخص إليها

في رمضان سنة ٢٢٥ ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشي وهناك خطرت له فكرة غريبة وهي الاستعانة بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحي في حمل السباخ وغيره لأهل البصرة وهم كثيرو العدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه فكيف لو وعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكي رقابهم؟ فأخذ منهم غلاما اسمه ريحان بن صالح ووعده أن يكون قائداً وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حتى يجيبوه إلى نحلته ويتركوا ساداتهم وأعمالهم فاجتمع إليه كثير منهم فخطب فيهم فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرئسهم ويملكهم الأموال وحلف لهم الأيمان الغلاط ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم. حذر الناس على غلمانهم وكان هناك نحو ١٥٠٠٠ غلام.

لم يزل الرجل يحتال لجمع هؤلاء الزنوج حتى كان يوم عيد الفطر من سنة ٢٥٥ وفيه صلى بأصحابه صلاة العيد وخطبهم خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال وأن اللّه قد استنقذهم به من ذلك وأنه يريد أن يرفع أقدامهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأموال ثم حلف لهم على ذلك. وشرع فقود قواده وقال لهم كل من أتى برجل فهو مضموم إليه. استمر يعيث في تلك الجهات وينهب الأموال ويستكثر من الرجال وقد أرسلت إليه جيوش من البصرة فهزمها ثم اتجه نحو البصرة فقابلته جنود كثيرة من أهل السلطان ومرتزقة الديوان فانتصر عليها وقتل منها مقتلة عظيمة وقوي أمره جدا بتلك الواقعة وحل الرعب في قلوب أهل البصرة وكتبوا إلى السلطان بخبره والخليفة يومئذ المهتدي باللّه. أقام الدعي بعد ذلك بالقرب من البصرة بسبخة هناك تعرف بسبخة أبي قرة ثم تحول منها إلى الجانب الغربي من نهر أبي خصيب وهناك غنم مغانم كثيرة من المراكب الماخرة في دجلة وكانت شيئاً كثيراً.

وفي رجب سنة ٢٥٦ أحرق مدينة الأبلة واستسلم له أهل عبادان خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل الأبلة فأخذ من كان بها من العبيد وضمهم إلى جنده وفرق فيهم السلاح ومن هناك سير عسكرا إلى الأهواز فاستولى عليها وأسر إبراهيم ابن المدبر عامل الخراج بها فزاد ذلك أهل البصرة رعباً. أرسل السلطان

إلى الدعي جنوداً فكان يصيبها أبداً الفشل.

وفي شوال سنة ٢٥٨ أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد عظيم وخربت أكثر مبانيها.

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بمايضاف إليه من العبيد وما يتاح له من النصر المتتابع حتى استفحل أمره وعظم شره وخيف على الدولة منه فلم ير مدبر الدولة وقائد جيوشها أبو أحمد الموفق إلا أن يحشد إليه الجموع ويتولى هو قيادتها ليكتسب الجيش العباسي من ذلك قوة روح. فعبأ جنداً كثير العدد ثم العدة وجاءه كثير من المتطوعين انتدبوا أنفسهم لحرب هذا الدعي وقد كانت لأبي أحمد معه وقائع هائلة خطوب جسام استمرت أعواماً. وفي آخر الأمر أنزل اللّه نصره على رجال الدولة وهزموا الزنوج وقتلوا هذا الدعي وكان ذلك في أواخر سنة ٢٧٠ وأمر الموفق كاتبه أن يكتب إلى أمصار الإسلام بالنداء في أهل البصرة والأبلة وكور دجلة وأهل الأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدعي وأن يؤمروا بالرجوع إلى أوطانهم ففعل ذلك فسارع الناس إلى ما أمروا به وقدموا المدينة الموفقية التي اختطها الموفق هناك من جميع النواحي وأقام الموفق بعد ذلك بالموفقية ليزداد الناس بمقامه أمنا وإيناسا.

وكان خروج صاحب الزنج في يوم الأربعاء لأربع من رمضان سنة ٢٥٥ وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠ فكانت أيامه من لدن أن خرج إلى اليوم الذي قتل فيه ١٤ سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وكان دخوله الأهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٢٥٦ وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقها لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ٢٥٧.

ولم يكن يدري إلا اللّه ماذا تكون العاقبة لو انتصر هذالرجل بزنوجه على آل العباس بأتراكهم كان الأمر ينتقل من أيدي الأتراك إلى أيدي الزنوج فتقع الأمة في الشر العظيم والوباء الوبيل لأن هؤلاء الزنوج ليس لهم أدب معروف بل لا يكادون يفقهون قولا فانتصار العباسيين عليهم خلاص للأمة من شر مستطير.

الاضطراب في المشرق:

كان آل طاهر أمراء المشرق منذ عهد المأمون إليهم خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر وما إليها من بلاد الري وطبرستان وجرجان وكرمان وكانوا كفاة لما عهد به إليهم موثوقاً بهم في ارتباطهم بحبل الخلافة العباسية إلا أن حال بغداد وسامرا ونزوع الأتراك إلى الاستيلاء على أمور الملك والاستبداد على الخلفاء جعل الطامعين فيما بعد عن دار الخلافة أشره إلى الاستبداد بما يمكن أن يحوزوه ويستولوا عليه والقوة الطاهرية لم تكن تحل المحل الأرفع أمام معاكسيها إلا بهيبة الخلافة وشدة بأس القوة المركزية التي يحسب حسابها كل عاص وكل طامع.

وجد بالشرق ثلاث قوى تحيط بآل طاهر وتنازعها ما بيدها من هذا الملك الطويل العريض.

(الأول): القوة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد شرحناها قبل.

(الثانية): القوة الصفارية بسجستان أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو. كان هذان الرجلان يشتغلان في حداثتهما بعمل الصفر وكانا يظهران الزهد فصحبا رجلا من أهالي سجستان وكان مشهوراً بالتطوع في قتال الخوارج اسمه صالح بن النضر الكناني فأحبهما وحظي بهما حتى جعل يعقوب مقام الخليفة عنه. ولما توفي صالح ولي مكانه في رياسة المطوعة درهم بن الحسين فكان يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان قائداً لعسكره. وكان درهم غير ضابط لأموره على عكس ما كان يعقوب فرأت المطوعة ذلك فعزلوا درهماً وولوا يعقوب مكانه فحارب الخوارج والشراة فظفر بهم ظفراً عظيماً وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحداً قبله ثم اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما إليها. ثم قاتل الترك الذين بتخوم سجستان وانتصر عليهم فرهبه الملوك الذين حوله منهم ملك الملتان وملك الرخج وملك الطبسين وملك ذابلستان وملك السند ومكران وغيرهم وأذعنوا له. وكان ملكه هراة وبوشنج سنة ٢٥٣ وأمير الخراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر.

لم يكن يعقوب بن الليث يريد الاستقلال التام عن الخلافة العباسية بل كان يريد أن يكون أميراً بعهد من خليفة بغداد ليستعين بذلك على تأييد مركزه والحلول محل آل طاهر فراسل المعتز وبعث إليه بهدية سنية منها مسجد فضه مخلع يصلي فيه خمسة عشر إنساناً وسأل أن يعطي بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم على أن يتولى إخراج علي بن الحسين المتغلب على بلاد فارس. ثم شخص على أثر كتابه للمعتز إلى كرمان فنزل بم وهي الحد الفاصل بين كرمان وسجستان ثم استولى على كرمان ثم دخل إلى عمل فارس فخندق علي بن الحسين على نفسه بشيراز وذلك في ١٨ ربيع الآخر سنة ٢٥٥ وأرسل إلى يعقوب يعلمه أنه إن كان يريد فارس فكتاب أمير المؤمنين يأمرني بتسليم العمل لأنصرف فلم يلتفت يعقوب إلى ذلك الطلب المقبول وآذنه بحرب فحصلت بينهما موقعة في جمادى الأولى سنة ٢٥٥ انهزم فيها جند شيراز وأسر علي بن الحسين ودخل يعقوب شيراز ظافراً وصلى الجمعة بها ودعا خطيبه للمعتز، ثم عاد بعد ذلك إلى كرمان ثم إلى سجستان.

رفع ذلك من شأن يعقوب بن الليث فإن كورا عظيمة أذعنت لسلطانه وفي سنة ٢٥٩ في عهد المعتمد قصد نيسابور فلما قرب منها ألقي بنو طاهر بأيديهم وقابلوه مطيعين لما رأوا أنه لا قبل لهم بمقاومته وأن قوة الخلافة ضعفت عن إعانتهم فلما دخلها حبس محمد بن طاهر وآل بيته وبهذا انتهت دولتهم وفض اللواء الذي كان المأمون قد عقده لطاهر بن الحسين إذ ولاه خراسان وبلاد المشرق.

بعد هذا الانتصار الباهر أرسل يعقوب إلى سامرا وفدا معهم كتاب يذكر فيه ما تناهى إليه من حال أهل خراسان وأن الشراة المخالفين قد غلبوا عليها وضعف عنهم محمد بن طاهر وأن أهل خراسان كاتبوه وسألوه القدوم عليهم وأنه بسبب ذلك سار إليها فلما كان على عشرة فراسخ منها سار إليه أهلها فدفعوها إليه فدخلها.

كان المدبر للدولة في ذلك الوقت أبو أحمد الموفق فأجاب الرسل بأن أمير

المؤمنين لا يقار يعقوب على ما فعل وأنه يأمره بالانصـراف إلى العمل الـذي ولاه إياه وأنه لم يكن له أن يفعل ما فعل بغير أمر أمير المؤمنين فليـرجع إلى عمله فـإنه إن فعل ذلك كان من الأولياء وإلا لم يكن له إلا ما للمخـالفين. فلم يكن لهـذه الرسالة أدنى تأثير في نفس يعقوب ولا في مركزه القوي لأن المسألـة مسألـة تنازع في الحياة ولا بقاء للحياة إلا بالقوة.

وفي سنـة ٢٦٠ كانت بـين قوة يعقـوب وقوة الحسن بن زيـد المتغلب على طبرستان وقائع انهزم فيها الحسن ودخل يعقوب ساريـة وآمل ظـافراً وصـار يتبع الحسن وهو منهزم حتى صار إلى بعض جبال طبـرستان فـأدركته هنـالك الأمـطار وتتابعت عليه نحو أربعين ليلة فلم يتخلص مما هو فيه إلا بمشقة شديدة ولما رأى صعوبة السير إلى الأمام انصرف بجنده وقد فقد منه في هذه الواقعة نحـو أربعين ألفا وتقرب بما فعل إلى سـامرا فبعث يخبـر به وذكـر أنه نفى الحسن بن زيـد من طبرستان وأسر سبعين من الطالبيين.

لم تكن أعمال يعقوب مما يعجب السلطان لأن رجال الدولة خافوا ما وراء ذلك من استقلاله أو غلبته على حاضرة الخلافة نفسها فـأمر المـوفق عبيد اللّه بن طاهر أن يجمع من كان ببغـداد من حاج خـراسان والـري وطبرستـان وجرجـان ويقـرأ عليهم كتابـاً يعلمهم فيه أن السلطان لم يـول يعقوب بن الليث خـراسان ويأمرهم بالبراءة منه لإنكار الخليفـة دخولـه خراسـان وحبسه محمـد بن طاهـر. وهذا رجوع منهم إلى القوة الروحية التي لخليفة المسلمين ولكنهم لم يروا لها تأثيراً بإزاء القوة فعادوا إلى الحيلة خوفاً من أن ذلك يحرج يعقوب فيدعو لنفسه ويعلن استقلاله فأعلنوا أن أمير المؤمنين ولاه خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس والشرطة بمدينة السلام وذلك إقامة له مقام آل طاهر.

لما نال يعقوب ما طلب ازداد طمعاً وجرأة فأرسل يقـول إنه لا يـرضيه مـا كتب بـه إليه دون أن يصـير إلى باب السلطان ويـظهـر أنـه كـان يـريـد بـذلـك الاستيلاء الفعلي على بغداد وبلاد العراق فلما علم المعتمد ذلك رأى أو رأى مدبرو أمـره أنه لم يبق بـد من قيام الخليفـة بنفسه إلى حـربه ولا سيـما بعد أن علم أن يعقوب قادم بجيوشه إلى سامرا فـرحل المعتمـد عن سامـرا إلى بغداد ومنهـا اتجه

نجو عسكر يعقوب الذي وصل إلى واسط فتقابل الجيشان بين سيب بني كوما ودير العاقول وكانت هناك موقعة هائلة بني الطرفين كان الظفر فيها أولا لجند يعقوب ولكن أصابهم بعد ذلك شر من جراء ذلك فإن كثيراً من الجند اليعقوبي كرهوا القتال إذا رأوا أنفسهم يحاربون الخليفة وجها لوجه فانفصلوا عن الجيش فانهزم جنده أما يعقوب فانه فارق موضعه على تعبئة ومضى. تخلص بسبب ذلك محمد بن طاهر من أسره فأحضره الخليفة وخلع عليه مرتبته وقريء على الناس كتاب يذكر فيه مثالب يعقوب وأنه لم يرضه ما تفضل السلطان به عليه حتى جاء مشاقاً محارباً وكان هذا الكتاب مؤرخاً بيوم ١١ رجب سنة ٢٦٢.

رجع المعتمد إلى سامرا وقدم محمد بن طاهر بغداد وقد رد إليه عمله فخلع عليه في الرصافة، أما يعقوب فعاد من طريق فارس وضبطها وولى على كورها رجالا من قبله وكانت له بها وقائع مع رجال الدعي صاحب الزنج الذي لم يكن انتهى أمره بعد.

وفي سنة ٢٦٥ توفي يعقوب بن الليث بالأهواز.

كان هذا الرجل عصامياً نشأ في صناعة الصفر ثم ما زال يهم بالمعالي فتنقاد له. قاد الجنود لفتح البلدان وساس من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية حتى أمكنه أن يفعل ما فعل ولم يؤخذ عليه في تدبيره إلا هذه الفعلة الأخيرة وهي قدومه من بلدان قاصية لحرب الخليفة بسامرا وبغداد وهو في جيوشه وعدده ومواليه فكانت عاقبته الفشل ويظهر أن الرجل ما كان يظن أنه يلقي حرباً وكان يرى أن كتبه التي يظهر فيها الخضوع وأنه لم يجيء إلا لخدمة أمير المؤمنين والمثول بين يديه تجوز حيلتها على القائمين بأمر الدولة. وكانت مدته ١٨ سنة.

بعد موت يعقوب بايع جنده أخاه عمرو بن الليث فكان خيراً من أخيه في التدبير وإحكام السياسة حتى كان يقال ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمان طويل مثل عمرو بن الليث وكان يحضر بنفسه يوم أن تصرف الأعطيات للجنود حين يعرضون عدتهم الحربية فكان

العارض يقعد والأموال بني يديه والجند بـأسرهم حـاضرون وينـادي المنادي أولا بـاسم عمرو بن الليث لتقـدم دابته إلى العـارض بجميع آلـة الفارس فيتفقـدها ويأمر بوزن ٣٠٠ درهم باسم عمرو بن الليث فتحمل إليه في صرة فيأخذ الصرة فيقبلهـا ويقول الحمـد للّه الذي وفقني لـطاعة أمـير المؤمنين حتى استـوجبت منه الـرزق ثم يضعها في خفـة تكون لمن يخلع خفـه. ويدعى بعـد ذلك بـأصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامـة ودوابهم الفره ويـطالبون بجميـع ما يحتـاج إليه الفـارس والراجـل من صغير آلـة وكبيرهـا فمن أخل بـإحضـار شيء حرموه رزقه. وفوق ذلك كان يرضي الخليفة وبطانته بمـا كان يـرسله من الأموال والهدايا والتحف فجعله الخليفة والياً على ما كـان يلي أخـوه ووجهت إليه بـذلك الخلع مع العهد والعقد.

ولم يزل أمره على ذلك حتى تغـير عليه الخليفـة سنة ٢٧٢ لمـا كان يبـدو له من طموحه إلى ما طمح إليه أخوه فأدخل عليه من كان ببغداد من حاج خراسان ولعنه بحضرتهم وأخبرهم أنه قلد خراسان محمد بن طاهـر وأمر بلعن عمـرو بن الليث على المنابر ثم رضي عنه بعـد ذلك لمـا استرضـاه بالمـال ولم يزل عمـرو في حروب ووقائع لا قيمة لها حتى تعرض أخيراً لما كان بيد السامانيـين من بلاد مـا وراء النهر فولاه الخليفة إياها فكانت تلك الولاية خاتمة عزه كما سيجيء.

السامانيون:

تنسب الأسرة السامانية إلى بهـرام جور صـاحب كسرى هـرمز فهي أسـرة عريقة المجد في الأمة الفارسية. كان في عهد المأمون من تلك الأسـرة أولاد أسد بن سامان وكان المأمون يرعى حقـوق الحرمـة لذوي البيـوتات فقـربهم ورفع من أقـدارهم وكانت بـلاد ما وراء النهـر مقسمة بينهم يلونها من جهـة أمير خـراسان فكـان نوح بن أسـد في سمرقـنـد وأحمد بن أسـد في فرغـانـة ويحيى بن أسـد في الشاس وأشر وسنة وإلياس بن أسد في هراة. وكان أحمد بن أسد عفيف الطعمة مـرضي السيرة لا يـأخذ رشـوة ولا أحد من أصحـابه. ولمـا توفي استخلف ابنـه نصراً على أعماله بسمرقند وما رواءها فبقي عاملا بهـا إلى آخر أيـام الطاهـرية. وكـان إسماعيـل بن أحمد يخـدم أخاه نصـرا فولاه بخـارى سنة ٢٦١ وكـان بين

هذين الأخوين خطوب طويلة بسبب سعاة السوء حتى إنه في سنة ٢٧٨ تحارب نصر وإسماعيل فقهر نصر وحمل إلى أخيه إسماعيل فلما رآه ترجل له وقبل يديه ورده من موضعه إلى سمرقند وتصرف هو على النيابة عنه ببخارى.

وإسماعيل هذا هو الذي على يده انتهى عز عمرو بن الليث وورث ما كان بيده من ملك خراسان وصارت له دولة عظيمة أورثها أهل بيته واستمرت دولتهم ١٧٠ سنة وستة أشهر ثم انتهت على أيدي آل سبكتكين من جهة والترك الخاقانية من جهة أخرى وهذه أسماء ملوكهم وتواريخهم:

(١) نصر بن أحمد بن سامان	٢٦١ ـ ٢٧٩
(٢) إسماعيل بن أحمد	٢٧٩ ـ ٢٩٥
(٣) أحمد بن إسماعيل	٢٩٥ ـ ٣٠١
(٤) نصر بن أحمد	٣٠١ ـ ٣٣١
(٥) نوح بن نصر	٣٣١ ـ ٣٤٣
(٦) عبد الملك بن نوح	٣٤٣ ـ ٣٥٠
(٧) منصور بن نوح	٣٥٠ ـ ٣٦٦
(٨) نوح بن منصور	٣٦٦ ـ ٣٨٧
(٩) منصور بن نوح	٣٨٧ ـ ٣٨٩
(١٠) عبد الملك بن نوح	٣٨٩ ـ ٣٨٩

مما تقدم يفهم أن البلاد المشرقية تقلص عنها ظل الخلافة العباسية فعلا وإن كان يدعى لهم ببعضها أسماء.

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان وكانت الدولة السامانية ببلاد ما وراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية العلوية وهؤلاء يدعون لأنفسهم بالخلافة ولا يدينون لبني العباس بطاعة.

أما بالمغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بني العباس برقة ومصر وسور وهي دولة أحمد بن طولون.

أحمد بن طولون:

كان طولون مملوكاً تركياً أهداه نوح بن أسد الساماني إلى المأمون سنة ٢٠٠ فكان من عداد الجنود التركية الكفاة وولد له أحمد ابنه بسامرا سنة ٢٢٠ فربي في حلبة أولئك الجنود وأفصح بالعربية وحفظ القرآن الكريم وكان ذا خلق قويم ولما بلغت سنه العشرين توفي أبوه طولون فكان بعده في ضمن جنود بايكباك الذي تقدم ذكره.

كانت ولاية مصر مضافة إلى بايكباك وهو الذي يختار أميرها ففي سنة ٢٥٤ اختار لها أحمد بن طولون لما رأى من كفايته وشجاعته فعقد له عليها ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان وكان يتقلد القصبة وحدها وكان معه أحمد بن محمد الواسطي كاتب بايكباك.

لما توفي المعتز سنة ٢٥٥ وتولى المهتدي وقتل بايكباك حل محله أماجور وكان صهراً لأحمد بن طولون فإن أحمد كان زوج ابنته فكتب إليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر فعظمت لذلك منزلته واتسع ملكه وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولا ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون حتى مات أماجور سنة ٢٥٨ فاستقل أحمد بمصر ودعي له بها وحده بعد الدعاء للخليفة وضبط ابن طولون بلاد مصر أحسن ضبط وخضد شوكة الثائرين الذي كانوا يثورون بها من وقت لآخر.

وفي سنة ٢٦٢ حصل بينه وبين أبي أحمد الموفق تنافر أدى إلى وحشة استحكمت حلقاتها فكتب أبو أحمد إلى ابن طولون يهدده بالعزل فأجابه جواباً فيه بعض الغلظة فسير إليه الموفق جيشاً يقوده موسى بن بغا فلما بلغ الرقة أقام فيها عشرة أشهر ولم يمكنه المسير لقلة الأموال وطالبته الجنود بالعطايا فلم يكن معه ما يعطيهم فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره فاضطر ابن بغا أن يعود إلى العراق وكفي ابن طولون شره وفي سنة ٢٦٣ ولى المعتمد أحمد بن طولون طرطوس ليقوم بحفظ ذلك الثغر عن الروم الذين كانوا قد تطرقوا البلاد لضعف قوة الخلافة.

وفي سنة ٢٦٤ دخل في حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة أماجور الذي كانت تلك البلاد له فاتسع ملكه اتساعاً عظيماً حتى كانت حدود مملكته تنتهي إلى نهر الفرات وبذلك تم التغلب والانفراد عن بني العباس من أقاصي الغرب إلى نهر الفرات فضاقت مملكة بني العباس واقتصرت على العراق والجزيرة الفراتية على ما فيها من الثورات والاضطرابات وبلاد الري والأهواز.

وكان الموفق في ذلك الوقت مشغولاً بحرب الدعي صاحب الزنج فكان ذلك فرصة عظيمة لأحمد بن طولون أن يقوي أمر ملكه وكان يعلم ما بين المعتمد الخليفة وبين أخيه من الفتور فأراد أن ينتفع من ذلك وصادق أن أرسل المعتمد إلى ابن طولون يشكو له مما هو فيه من استبداد الموفق عليه وأنه ليس له من الخلافة إلا الاسم فأشار عليه ابن طولون أن يحلق به بمصر ولو تم ذلك لانتقلت الخلافة العباسية إلى القطائع مدينة أحمد بن طولون بمصر ولكن حال دونه عامل الموصل والجزيرة الذي أرسل إليه الموفق أن يبذل جهده في منع المعتمد من المسير إلى مصر فلما بارح المعتمد سامرا ووصل إلى عمل الموصل منعه العامل من المسير فعاد ثانية الى سامرا وبسبب ذلك اتسعت مسافة الخلف بين الموفق وابن طولون حتى أن ابن طولون قطع خطبة الموفق وأسقط اسمه من الطراز فتقدم الموفق إلى المعتمد يبلغه ففضل مكرها لأن هواه كان مع ابن طولون.

وفي سنة ٢٧٠ توفي أحمد بن طولون فخلفه في مصر والشام والثغور الشامية ابنه خمارويه وقد استمر ملك مصر والشام في أعقاب ابن طولون إلى سنة ٢٩٢ وقد ولي من هذا البيت خمسة أمراء وهم:

(١) أحمد بن طولون	٢٥٤ - ٢٧٠
(٢) خمارويه بن أحمد	٢٧٠ - ٢٨٢
(٣) أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢ - ٢٨٣
(٤) هارون بن خمارويه	٢٨٣ - ٢٩٢
(٥) شيبان بن أحمد بن طولون	٢٩٢ - ٢٩٢.

الحوادث الخارجية:

ترتب على الاضطراب الذي قصصنا حديثه في عهد المعتمد أن الحدود الرومية كانت محل اضطراب دائم يغير عليها الروم كل وقت فيجدون الدفاع عنها ضعيفاً حتى أنهم أخذوا سنة ٢٦٣ حصن لؤلؤة الذي كان شجى في حلوقهم وغلبوا كثيراً من الجيوش ولم تتحسن الأحوال قليلاً إلا بعد أن أخذ ابن طولون مدينة طرسوس وعهد إليه حماية الثغور الشامية فتولى الغزو بجنوده المصرية والشامية وقد أوقع بالروم وقعة هائلة سنة ٢٧٠.

وكانت غارات الروم بعد ذلك على ديار ربيعة وثغورها الجزرية فكانت ترد السرايا من تلك الجهة فتغير على المسلمين وهم غارون فيأخذون منهم كثيراً من الأسرى ولولا جنود المتطوعين لكانت الحال أسوأ مما حصل.

ولاية العهد:

كان أبو أحمد الموفق ولي العهد بعد المعتمد وكانت إليه أمور الخلافة فعلا فلما توفي سنة ٢٧٨ جعل ولي العهد المفوض بن المعتمد ومن بعده أبو العباس بن أبي أحمد الموفق وكان أبو العباس صاحب الكلمة في الخلافة بعد أبيه فلم يلبث أن خلع المفوض من ولاية العهد وجعل نفسه مقدما.

صفات المعتمد:

لم يكن للمعتمد نفوذ في إدارة البلاد ولا شيء من سياسة المملكة لأن الأمر كله كان منوطاً بأخيه أبي أحمد وكان المعتمد مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي لا هم له إلا ذلك وله أحاديث في الغناء والرقص والندامي وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء استبدل هذا بتعبية الجيوش وسوقها إلى خوض الغمرات:

وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فأكثر منه ثم أتبعه بأكلة هاضته وأتت على حياته لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩.

١٦ ـ المعتضد

هو أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد اسمها ضرار وكان عضداً لأبيه الموفق في حروبه وأعماله وولي العهدبعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض بن المعتمد سنة ٢٧٩ وبويع له بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه المعتمد على الله لإحدى عشرة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفي لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ إبريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام.

وكان يعاصره في الأندلس عبد اللّه بن محمد الذي توفي سنة ٣٠٠.

وكانت دولة الأدارسة على غاية من الاضطراب يؤذن فيها بقرب الانتهاء.

ويعاصره في إفريقية وصقلية من الأغالبة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذي توفي سنة ٢٨٩.

وفي مصر من آل طولون خمارويه بن أحمد المتوفي سنة ٢٨٢ ثم جيش بن خمارويه المتوفي سنة ٢٣٢ ثم هارون بن خمارويه المتوفي سنة ٢٩٢.

وفي زبيد من آل زياد إبراهيم بن محمد بن عبد اللّه بن زياد المتوفي سنة ٢٨٩.

وفي صنعاء من آل يعفر عبد القادر أحمد بن يعفر المتوفي سنة ٢٧٩ ثم إبراهيم ابن محمد بن يعفر المتوفي سنة ٢٨٥ ثم أسعد بن إبراهيم المخلوع سنة ٢٨٨ ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية ثم القرامطة.

وفي طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوي المقتول سنة ٢٨٧ .

وفي خراسان وسجستان عمرو بن الليث الصفار الذي أسر سنة ٢٨٧ .

وفي بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفي سنة ٩١١ .

وفي فرنسا أو دون أول ملك من الكباسيان المتوفي سنة ٨٩٨ ثم شارل الثالث الملقب بالساذج المتفي سنة ٩٢٣ .

وزراء الدولة :

أول وزراء المعتضد عبيد اللّه بن سليمان بن وهب واستمر في وزارته حتى مات سنة ٢٨٨ فاستوزر بعده ابنه أبو الحسين القاسم بن عبيد اللّه ومات وهو وزيره .

من المهم أن نذكر هنا ملخصاً لما أورده الكاتب هلال بن المحسن الصابيء في كتابه الموسوم بتحفة الأمراء في أخبار الوزراء لندل بذلك على مقدار مصروف الخليفة المعتضد .

قال عن عبد الحميد الكاتب لما تولى أبو القاسم عبيد اللّه بن سليمان وزراة المعتضد باللّه رحمة اللّه عليه والدنيا منفلقة بالخوارج والأطماع مستحكمة من جميع الجوانب والمواد قاصرة والأموال معدومة وقد استخرج إسمعيل بن بلبل خراج السواد لسنتين في سنة وليس في الخزائن موجود من مال ولا صياغة احتاج في كل يوم إلى ما لا بد منه من النفقات إلى سبعة آلاف دينار وتعذر عليه قيام وجهها وقال له يوما وهو في مجلسه من دار المعتضد باللّه . يا أبا الفضل قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد الأمر وبيننا وبين الافتتاح مدة ولا بد لي في كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزئة فإن كنت تعرف وجهها تعينني به فأحب أن ترشدني إليه فحسن له إطلاق ابني الفرات وأبي الحسن علي وأبي العباس أحمد ابني محمد بن موسى بن الفرات) وكانا محبوسين بعد أن صودر فحسن الوزير للمعتضد إطلاقها والاستعانة بهما ففعل وحينئذ أحضرا أحمد بن محمد الطائي وضمناه أعمال سقي الفرات ودجلة وجوخي وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وغيرها

على أن يحمل من ماله في كل يوم سبعة آلاف دينار وفي كل شهر ستـة آلاف دينار وأخذ خطه بالتزام الضمان وصتحيح المال على ما تقرر من أوقاته واستقبـلا به في المياومة يومها وفي المشاهرة غدهما.

وهذا تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ما قرره المعتضد باللّه:

١٠٠٠ دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجري مجراهم.

١٠٠٠ دينار أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحاجب وخلفاء الحجاب.

١٥٠٠ دينار أرزاق مماليك المعتضد المعروفين بالمماليك الحجرية.

٦٠٠ أرزاق المماليك المختارين.

٥٠٠ أرزاق الفرسان المميزين.

١١٠ أرزاق سبعة عشر صنفا من الموسومين بخدمة الدار.

٥٠ المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ومن يجري مجراهم.

٣٠٠ أثمان انزال الغلمان المماليك.

٢٥٣$\frac{١}{٣}$ نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز ونزال الحرم ومخابز السودان

١٠٠ ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وما شابه ذلك.

٤ أرزاق السقايين بالقرب.

١٦٧ أرزاق الخاصة ومن يجري مجراهم من الغلمان والمماليك.

١٠٠ أرزاق الحرم من المستخدمين في شراب العامة وخزائن الكسوة الخ.

١٠٠ أرزاق الحرم.

٤٠٠ ثمن علوفة الكراع في الاثطبلات الخمسة.

٦٦$\frac{٢}{٣}$ ما يصرف في ثمن الكراع والإبل وما يبتاع من الخيل.

٣٠ أرزاق المطبخين.

٣٠ أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم.

٦$\frac{٢}{٣}$ ثمن الشمع والزيت.

٥ أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج.

٤٤ ١/٣	أرزاق الجلساء وأكابر الملهين.
٢٣ ١/٣	أرزاق المتطببين وتلامذتهم مع أثمان الأدوية.
٧٠	أرزاق أصحاب الصيد وثمن الطعم والعلاج للجوارح.
٦٤٦٠ ١/٣	
٦٤٦٠ ١/٣	ما قبله.
٦١ ٢/٣	أرزاق الملاحين.
٤	ثمن نفط ومشاقة.
١٥	صدقة يومية.
٣٣ ١/٣	جاري أولاد المتوكل.
١٦ ٢/٣	جاري ولد الواثق والمهتدي والمستعين وسائر أولاد الخلفاء.
١٦ ٢/٣	جاري ولد الناصر.
٢٠	أرزاق مشايخ الهاشميين والخطباء بمدينة السلام
٣٣ ١/٣	جاري جمهور بني هاشم.
٣٣	رزق الوزير وابنه.
١٥٦ ٢/٣	أرزاق أكابر الكتاب وسائر من في الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد.
١٦ ٢/٣	رزق القاضي وخليفته وعشرة فقهاء.
٣ ١/٣	خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام.
٥٠	نفقات السجون.
١٠	نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين.
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدي وأرزاق أطبائه وأثمان الأدوية.
٦٩٤٦	

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التي كانت تصرف في الحضرة كل يوم حوالي سبعة آلاف دينار وفي الشهر ٢١٠٠٠٠ وفي السنة

٢٥٢٠٠٠٠ دينار وهو مقدار قليل إذا قيس بما كان يـرد على حضـرة الخلافـة في عهد المأمون والمعتصم ولا غرابـة في ذلك فـإن كثيراً من الأقـاليم استقل بـادارته وأمواله المتغلبون وما بقي لبني العباس لم يعمره العدل والأمن لكثرة الأضطرابات في الجزيرة وبلاد العراق وفارس.

اضطرابات الجزيرة:

كانت العرب مع تغلب الأتراك على دولة بني العباس لا يقرون بـالخضوع لهم بل كانوا على ما لم يزالوا عليه من الاستقلال بأمر أنفسهم في ديار ربيعـة وفي ديـار مضر ولا سيما بعـد أن أسقط العباسيـون أسماء العـرب من ديوان المـرتزقـة فكانت لا تزال تخرج منهم خوارج يدعون الناس إلى خلع طاعة العباسيين وأكثر هؤلاء العرب جمعاً وخروجاً بنو شيبان من ربيعة.

ففي أول خلافة المعتضد سار إلى بني شيبان بالمـوضع الـذي يجتمعون فيـه من أرض الجـزيرة فلما بلغهم قصـده جمعوا إليهم أمـوالهم وأغـار المعتضـد عـلى الأعراب عند السن فنهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ثم غرق في نهر الزاب مثل من قتل ثم سار إلى الموصل فلقيته بنو شيبان يسألونه العفو وبذلوا لـه رهائن فأجابهم إلى ما طلبوا وعاد إلى بغداد.

وفي سنة ٢٨١ سار يريد قلعة ماردين للاستيلاء عليها من يدي حمـدان بن حمدون الذي تغلب عليها وهو جد الأسرة الحمدانية فلما بلغه مسير المعتضـد إليه تـرك في القلعة ابنـه وسار عنهـا فلما وصلها المعتضـد نازلهـا يومـه وفي الغد ركب بنفسه حتى أتى باب القلعة وصاح بـابن حمدان فـأجابـه فأمـره بفتح بـاب القلعة ففتحه فقعد المعتضد في الباب وأمـر بنقل مـا في القلعة وهـدمها ثم وجـه خلف حمدان من يطلبه أشد الطلب حتى ظفر به بعد عودته إلى بغداد.

وكـان مما يهم المعتضـد خارجي ظهـر بـالجـزيـرة اسمـه هـارون الشـاري واستفحل جمعه واشتدت قوتـه حتى لم يحاربـه جند من جنـود السلطان إلا هزمـه فرأى المعتضد أن يضرب الحديد بالحديد فندب الحسين بن حمدان لحرب هارون فقال له الحسـين إن أنا جئت بـه فلي ثـلاث حاجـات عند أمـير المؤمنين إحـداها

إطلاق أبي وحاجتان أذكرهما بعد مجيئي فأجابه المعتضد إلى ذلك فمضى مع جند اختاره حتى لقيه فحاربه وهزمه ثم ما زال يتبعه حتى ظفر به فأخذه أسيراً وأحضره للمعتضد فخلع على الحسين وطوقه وخلع على إخوته وأمر بفك أبيه والتوسعة عليه والإحسان إليه فكان هذا بدء ظهور الأسرة الحمدانية.

القرامطة:

قد ذكرنا فيما مضى كيف ابتدأت نحلة القرامطة تشيع في سواد الكوفة ويدخل الناس فيها حتى كثر أتابع القرامطة.

في قريب من الوقت الذي انتشر فيه هذا المذهب بسواد الكوفة ظهر بالبحرين رجل يقال له سعيد الحسن الجنابي. وجنابة من سواحل فارس يدخل إليها في المراكب في خليج من البحر الفارسي وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال وقبالتها في وسط البحر جزيرة خارك نشأ بها أبو سعيد هذا وكان دقاقاً فنفي عن جنابة فخرج إلى البحرين فأقام بها تاجرا وجعل يستميل العرب إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها وقوي أمره فقتل ما حوله من أهل القرى وفعل ذلك بالقطيف وأظهر أنه يريد البصرة التي كتب عليها الشقاء فإنه لم يمض على ما لاقته من السوء على يد دعي العلويين أكثر من ١٥ سنة فكتب واليها إلى المعتضد يخبره بالأمر فأمره المعتضد أن يبني على البصرة سوراً ففعل وفي سنة ٢٨٧ أقبل الجنابي بجموعه يريد البصرة فأرسل إليه المعتضد جيشاً قائده العباس بن عمرو الغنوي فهزمه أبو سعيد وأسر العباس واحتوى ما في العسكر وقتل الأسرى ثم سار الجنابي بعد الواقعة إلى هجرو وانصرف المنهزمون إلى البصرة فلقيهم الأعراب فأفنوهم: أحدث ذلك بالبصرة قلقا واضطراباً حتى هم أهلها بالجلاء عنها ولكن واليها هدأ بالهم.

أما أمرهم بسواد الكوفة فإنه لما علم المعتضد أمر انتشار مذهبهم هناك وكثرة متبعيه أرسل إليهم جيشاً يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائي فظفر بهم وأخذ رئيسه لهم يعرف بأبي الفوارس فقدم به على المعتضد فسأله المعتضد هل تزعمون أن روح اللّه تعالى وأرواح أنبيائه تحل في أجسادكم فتعصمكم من الزلل

وتوفقكم لصالح العمل؟ فقال يا هذا إن حلت روح اللّه فينا فما يضرك وإن حلت روح إبليس فما ينفعك فلا تسأل عما لا يعنيك وسل عما يخصك، فقال ما تقول فيما يخصني قال أقول إن رسول اللّه ﷺ مات وأبوكم العباس حي فهل طلب بالخلافة أم هل بايعه أحد الصحابة على ذلك ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه ثم مات عمر وجعلها شورى في ستة أنفس ولم يوص إليه ولا أدخله فيهم فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها؟ فأمر به المعتضد فقتل.

كان تتابع الجيوش من المعتضد إلى من بسواد الكوفة سبباً لأن داعية قرمط زكرويه بن مهرويه سعى في استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم وبايعوا سنة ٢٩١ ابن زكرويه المسمى يحيى المكنى بأبي القاسم ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد اللّه بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وزعم لهم أن له بالبلاد مائة ألف تابع وسمى أتباعه الفاطميين فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا الشام وكانت إذ ذاك في حوزة خماريه ابن أحمد بن طولون وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مرارا فهزموه.

هذا ما كان منهم في حياة المعتضد ظهروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدءوا بخروجهم شعلة النار المحرقة التي آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق إلى بيت اللّه المقدس كما يأتي بيانه.

وفي تلك الأزمنة كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وأفريقية فكانت الدعوة الإسماعيلية رتبتْ أن يكون في آن واحد بجميع الجهات الإسلامية حتى لا يكون لبني العباس قبل بملاقاة شرها وكذلك كان.

أمر المشرق:

اتسع سلطان عمرو بن الليث في أول عهد المعتضد ودخل نيسابور سنة ٢٨١ ولما خرج بجيشه منها خالفه رافع بن هرثمة وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوي ودعا له على منبر نيسابور فعاد عمرو بن الليث وحاصره بنيسابور حتى

احتلها ثانيا وكان رافع قد هرب إلى طوس فأرسل إليه عمرو جندا فلحقوه هناك وقاتلوه فانهزم إلى خوارم فتبعوه إليها وهناك قتلوه وأرسل عمرو إلى المعتضد كتاباً بذلك مع رأس رافع فأرسلت إلى عمرو الخلع ولواء الولاية على الري وهدايا من قبل المعتضد.

لما اتسع لعمرو هذا السلطان أرسل إلى الخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ما وراء النهر وعزل إسماعيل بن أحمد الساماني أميرها ففعل المعتضد ذلك وأرسل إليه عهد الولاية فأجابه عمرو على ذلك بإرسال هدية فكان مبلغ المال الذي وجهه أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة و ١٥٠ دابة بجلال مشهرة وكسوة وطيب وبزاة.

كانت هذه الولاية سبباً لمصيبة عمرو بن الليث فإنه خرج ليحوزها ولم يكن إسماعيل بالذي يسلمها إليه فكتب إليه إنك قد وليت دنيا عريضة وإنما في يدي ما وراءالنهر وأنا في ثغر فاقنع بما في يدك واتركني مقيماً بهذا الثغر فأبى إجابته إلى ذلك فذكر لعمرو أمر نهر بلخ والشدة في عبوره فقال لو أشاء لسكرته ببدر الأموال وعبرته ولما أيس إسماعيل من انصرافه عنه جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر إلى الجانب الغربي وجاء عمرو فنزل بلخا وأخذ إسماعيل عليه النواحي فصار كالمحاصر وندم على ما فعل وطلب المحاجزة فأبى إسماعيل عليه ذلك فلم يكن بينهما كبير قتال حتى هزم عمرو فولي هارباً ومر بأجمة في طريقه قيل له إنها أقرب فقال لعامة من معه امضوا في الطريق الواضح ومضى في نفر يسير فدخل الأجمة فوحلت دابته فوقعت ولم يكن له في نفسه حيلة ومضى من معه ولم يلووا عليه وجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيراً وخيره إسماعيل بين أن يقيم عنده وأن يرسل إلى المعتضد فاختار أن يوجه إلى المعتضد فحبس وبذلك انتهت أيام عزه وختم المعتضد حياته بالأمر بقتل عمرو فقتل في أول خلافة المكتفي.

لما علم محمد بن زيد بأمر عمرو ظن ذلك فرصة لأخذ خراسان لأنه فهم أن إسماعيل بن أحمد لا يبارح عمله بما وراء النهر فخرج من طبرستان مريداً الاستيلاء على خراسان فلما صار إلى جرجان كتب إليه إسماعيل يسأله الرجوع

إلى طبرستان وترك جرجان له فأبى عليه ذلك ابن زيد فندب إسماعيل لحربه قائداً في جند فلقيه على باب جرجان فانهزم عسكر ابن زيد وأصابته ضربات وأسر ابنه زيد ثم مات محمد بعقب هذه الواقعة بأيام فدفن على باب جرجان وحمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد بذلك زالت على يد السامانيين دولة رجلين كبيرين: عمرو بن الليث الصفار ومحمد بن زيد ولم يكن لأولادهما بعدهما كبير ذكر في التاريخ.

ولما تم ذلك كله على يد إسماعيل أرسل إليه المعتضد الخلع بدنة وتاجاً وسيفاً من ذهب مركباً على جميع ذلك الجوهر وبهدايا وثلاثة آلاف ألف دينار يفرقها في كل جيش من جيوش خراسان يوجهه إلى حرب سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث وبذلك صارت القوة في المشرق للأسرة السامانية فبيدهم بلاد ما وراء النهر وخراسان إلى الري وسجستان ولهم فيها النفوذ ذو السلطان التام.

امر المغرب:

كانت علاقة المعتضد بخمارويه بن أحمد بن طولون حسنة وكان خمارويه يتقرب إليه كثيراً فأدهى إليه كثيراً فأهدى إليه لأول خلافته من العين عشرين حملا على بغال وعشرة من الخدم وصندوقين فيهما طراز وعشرين رجلا على عشرين نجيباً بسروج محلاة بحلية فضية كثيرة ومعهم حراب فضية وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقي بفضة و ٣٧ دابة بجلال مشهرة وخمسة أبغل بسروج ولجم وزرافة. ثم أراد أن يتقرب إلى الخليفة بالمصاهرة فعرض أن يزوج ابنته قطر الندي من علي بن المعتضد فقال المعتضد أنا أتزوجها فتزوجها واحتفل خمارويه بجهازها أتم احتفال ومن ضمن ذلك الجهازدكة (سرير) أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ومائة هون من ذهب ومنها ألف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار فانظروا كم يكون بعد هذا. ولما تم الجهاز أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون في جماعة فكانوا

يسيرون بها سير الطفل في المهد فإذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الإقامة فكانت في سيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة ٢٨٢ وكان المعتضد إذ ذاك غائباً بالموصل فأدخلت للحرم حتى قدم فنقلت إليه في رابع ربيع الثاني ونودي في جانبي بغداد ألا يعبر أحد في دجله يوم الأحد وهو يوم الزفاف وغلقت أبواب الدروب التي تلي الشط ومد على الشوارع النافذة إلى دجلة شراع ووكل بحافتي دجلة من يمنع الناس أن يظهروا في دورهم على الشط فلما صليت العتمة وافت الشذا من دار المعتمد وفيها خدم معهم الشمع فوقفوا بإزاء دار صاعد التي كانت فيها قطر الندي وكانت أعدت أربع حراقات شدت مع دار صاعد فلما جاءت الشذا أحدرت الحراقات وصارت الشذا بين أيديهم فنزلت إليها حتى وصلت إلى دار المعتضد.

كان خمارويه يلي مصر وإليه طرطوس والشام فكانت إليه المحافظة على ثغر طرسوس وجنوده تقوم بذلك خير قيام. لم يزل الحال على ذلك حتى قتل خمارويه سنة ٢٨٣ ولم يكن عنده ولده جيش من المقدرة ما يسوس بها ملك أبيه فاتفق جمع من جنده على الفتك به ولكن عرف أمره فهربوا ووردوا بغداد فأكرم المعتضد وفادتهم وبعد ذلك ثار جماعة آخرون بجيش فقتلوه وولوا أخاه هارون وكانت هذه المنازعات الداخلية سبباً لخروج طرسوس من أيدي بني طولون فقد قدم وفد من أهلها على المعتضد يطلبون أن يولي عليها والياً من قبله ففعل.

ثم اتفق المعتضد بعد ذلك مع هارون أن يتنازل هارون عن قنسرين والعواصم وتقصر ولايته على مصر والشام على أن يحمل إلى بيت المال ببغداد كل سنة ٤٥٠٠٠٠ دينار ووجهت الخلع والعقد إلى هارون. ومن هذا يتبين أن نفوذ المعتضد في مصر والشام صار أقوى مما كان قبل لضعف أمر الطولونيين بالخلاف الذي وقع بينهم.

صفات المعتضد:

كان المعتضد قوي القلب جريئاً ولذلك كان للخلافة في عهده أكثر مما كان

في عهد أبيه من الهيبة وإن كان الأمر في الحقيقة جل أن يصلح لأن وراءهم عدواً لا ينام يريد إفساد ملكهم ما أمكنه ولو أدى ذلك إلى إفساد البلاد كلها. وكان مع شجاعته قليل الرحمة سفاكاً للدماء شديد الرغبة في التمثيل بمن يقتله.

وله إصلاحات داخلية جليلة منها أنه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام وأمر بإبطال ديوان المواريث وكان أصحاب التركات يلقون من ذلك عناء ومنها اهتمامه بكري دجيل وهو أحد روافد دجلة وقلع من فوهته صخراً كان يمنع الماء.

ومن أهم إصلاحه ما يعرف بالتقويم المعتضدي وإنا قائلون كلمة في شرحه: معلوم أن دين الإسلام يستعمل السنة الهلالية ويجعل أهلة الشهور علامة على عبادات افترضها منها صوم رمضان وحج البيت في ذي الحجة فلم يكن هناك معتبر للسنة الشمسية التي تزيد على السنة الهلالية أحد عشر يوماً وربعاً إلا قليلا: ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين السنتين الشمسية والهلالية ولكن حصل أن المسلمين اضطروا فيما بعد لمراعاة السنة الشمسية لأن جباية الخراج إنما تكون عند إدراك الثمار والغلات وهذه وقتها واحد فكانوا يفتتحون الخراج في يوم النيروز.

وكانت الفرس تعتبر السنة الشمسية ٣٦٠ يوماً كل شهر ثلاثون يوماً كاملاً وكانوا يضيفون إليها خمسة أيام بين آبان ماه وأذرماه وهما الشهر الثامن والشهر التاسع من شهورهم ويجتمع لهم في كل ١٢٠ سنة من ربع اليوم أيام شهر تام ومن خمس الساعة الذي يتبع ربع اليوم عندهم يوم واحد فألحقوا الشهر التام بها في كل ١١٦ سنة، وبناء على ذلك كانوا يؤخرون النيروز عن وقته شهراً كاملاً كلما مضت هذه المدة. فلما سقط ملكهم أغفلوا هذه الكبس واستمر فتح الخراج أيام النيروز ففي عهد المتوكل دخل بعض بساتينه فمر بزرع فرآه أخضر فقال لعلي بن يحيى المنجم إن الزرع أخضر بعدما أدرك وقد استأمرني عبيد الله بن يحيى في استفتاح الخراج فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج في النيروز والزرع لم يدرك بعد؟ فقال له علي ليس يجري الأمر اليوم على ما كان يجري عليه أيام

الفرس ولا النيروز في هذه الأيام في وقته الذي كـان في أيامهـا لأنها كانت تكبس في كل ١٢٠ سنة شهراً وكان النيروز إذا تقدم شهراً وصار في خمس من حـزيران كبست ذلك الشهر فصار في خمس من أيار وأسقـطت شهراً وردتـه إلى خمس من حزيران فكـان لا يتجاوز هـذا، فلما تقلد خالـد القسري العـراق وحضر الوقت الـذي تكبس فيه الفـرس منعها من ذلـك فلما امتنعوا من الكبس تقـدم النيـروز تقدماً شديداً حتى صار يقع في نيسان والزرع أخضر فقـال المتوكـل فاعمـل لهذا عملاً ترد النيروز فيه إلى وقته الذي كان يقع فيه أيام الفرس وعرف بذلك عبيـد اللّه بن يحيى ليكون استفتاح الخراج فيه فكتـبت بـذلك كتب سنـة ٢٤٣ وركن أمـرها لم يتم لقتـل المتوكـل. فلما ولي المعتضد وأخبـر بخبر المتـوكل اهتم بـالأمر وحسب المـدة التي تقدمهـا تاريـخ النيروز بسبب إهمـال الكبس فوجـد أنه تـأخر ستين يوماً فأخر النيروز بقدره فكان في ١١ حزيران فجعله كذلك دائماً لا يتأخـر عنه وجعله على حساب شهور الروم لتكبس شهوره كلما كبست الـروم شهورهـا فصار لا يتقدم النيروز عن زمنه ولا يتأخر. قال البيروني في كتابه الآثار الباقيـة: وهـذا وإن دقق في تحصيله فلم يعد بـه النيروز إلى مـا كان عليـه عند الكبس في دولة الفرس وذلك أن إهمال الفرس كبيسهم كان قبل هلاك يزدجرد بقـريب من سبعين سنة لأنهم كـانوا قـد كبسوا السنـة في زمان يـزدجرد بن سـابور بشهـرين أحدهما لما لزم السنة من التأخر وهو الواجب ووضعوا اللواحق خلفه علامة وكان النوبة لأبان ماه كما سنذكر والشهر الآخر للمستأنف ليكون مفروغـاً منه إلى مـدة طويلة فإذا أسقط من السنين التي بين يزدجرد بن سابور وبين يزدجرد بن شهريار ١١٠ سنة بقي بالتقريب سبعون سنة لا بالتحقيق فإن تواريـخ الفرس مضـطربة جداً ويكون حصة هذه السبعين سنة من الأرباع قريبـاً من ١٧ يومـاً فكان يجب بالتحليل من القياس أن يؤخر ٧٧ يوماً لا ٦٠ حتى يكون النيروز في ٢٨ حزيران ولكـن المتولي لذلك ظن أن طريقة الفرس في الكبس كانت شبيهة بـالتي يسلكها الروم فيه فحسب الأيام من لدن زوال ملكهم والأمر فيه على خلاف ذلك ا هـ.

أما مسألة اتفاق السنة الخراجية مع السنة الهلالية فإنهم لما رأوا بالحسـاب أن كل ٣٢ سنة شمسية تساوي بالتقريب ٣٣ سنـة هلاليـة كانـوا يضيفون عـلى

السنة الخراجية كلما مرت ٣٢ سنة ففي سنة ٢٤١ الخراجية نسب الخراج إلى سنة ٢٤٢ الهلالية وأسقطت سنة ٢٤١ لأن الغلة إنما أدركت سنة ٢٤٢. ولنضرب لذلك مثلا يفهم به ما كانوا يعملونه كان أول المحرم سنة ٢٠٤ وهو ٤ مايو سنة ٨٢٤ أول المحرم سنة ٢٤٢ وهو ١٠ مايو سنة ٨٥٦ ومن بين هذين ٣٣ سنة قمرية و ٣٢ سنة شمسية فتكون السنة بالحساب الخارجي سنة ٢٤١ فلكي تتحد مع السنة الهلالية يضيفون عليها واحداً حتى تكون سنة ٢٤٢ ويسقطون من الخراج سنة ٦٤١.

وقد كتب المعتضد بذلك كتاباً أمر فيه أن تكون جباية الخراج في العراق والمشرق وما يتصل بهما ويجري مجراهما على الطريق التي رسمها وإنما قيد بالعراق والمشرق لأن الحال في مصر كانت على الكبس القبطي وفي الشام على الكبس الرومي وكلاهما لا يتغير به الزمان.

والمعتضد هو الذي ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد بل لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها إلى بغداد وفي ذلك يقول ابن المعتز:

قد أقفرت سامرا ... وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها ... كأنها آجام
ماتت كما مات فيل ... تسل منه العظام

وبها قبور ستة من الخلفاء وهم الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهدي والمعتمد وبها قبر إمامين من أئمة الشيعة وهما علي بن محمد والحسن بن علي العسكريان وبها السرداب التي تزعم الشيعة أنه يخرج منه المهدي المنتظر.

وفاة المعتضد:

توفي المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ وكان ولي عهده ابنه المكتفي.

١٧ ـ المكتفي

هو علي المكتفي المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك ولد سنة ٢٣٦ وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بعهد منه وذلك في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ أبريل سنة ٩٠٢) ولم يزل خليفة إلى أن توفي في ١٢ ذي القعدة سنة ٢٩٥ (١٣ أغسطس سنة ٩٠٨) فكانت مدته ست سنوات وستة أشهر و ١٩ يوماً.

وتولى في عهده على بلاد المغرب الأقصى من الأدارسة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس بن إدريس بعد اختلافات طويلة كانت بين أفراد هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٢.

وفي عهده تولى إفريقية من الأغالبة زيادة اللّه بن عبد اللّه بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب وهو آخر أمراء هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٠.

وكان أمير مصر على عهده شيبان بن أحمد بن طولون وهو آخر الأمراء من هذا البيت.

وكان الأمير على زبيد من آل زياد بن إبراهيم بن محمد (٢٨٩ ـ ٢٩١) ثم أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم.

وكان الأمير من آل سامان بالمشرق إسماعيل بن أحمد (٢٧٩ ـ ٢٩٥) ثم أحمد بن إسمعيل (٢٩٥ ـ ٣٠١).

ويعاصره في بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف وفي فرنسا شارل لثالث الملقب بالساذج.

وزراء المكتفي:

لما استخلف المكتفي أبقى في الوزارة وزير أبيه القاسم بن عبيد اللّه بن سليمان بن وهب فدبر الأمور على ما كان في زمن المعتضد واستمر في الوزارة عظيماً مهيباً إلى أن توفي سنة ٢٩١.

فاستوزر المكتفي بعده العباس بن الحسن.

الأحوال في عهده:

انتكست البلاد في عهد المكتفي بعد أن كانت ابتدأت تنتعش في عهد أبي أحمد الموفق وعهد ابنه المعتضد فقد ابتدأت ولايته بظهور المنافسات بين ذوي النفوذ من الدولة فكان أحدهم يكيد للآخر شر كيد حتى يورده المهالك من غير نظر في ذلك إلى ما تقتضيه مصلحة الأمة.

ومما حصل مما يدل على ذلك أن بدراً غلام المعتضد كان يقود الجيش المحافظ في إقليم فارس وكان بينه وبين وزير المكتفي القاسم عبيد اللّه مباعدة فلم يكن من الوزير إلا أن أرسل للقواد الذين مع بدر بفارس يأمرهم بالمسير إليه ومفارقة بدر ففعلوا. لما رأى ذلك بدر انصرف إلى واسط فلما بلغ الخليفة انصرافه وكل بداره وقبض على جماعة من غلمانه وقواده فحبسوا وأمر بمحو اسمه من التراس والأعلام كلها وكان عليها (بو النجم مولى المعتضد باللّه) وذلك كله حصل بإغراء الوزير وتخويفه الخليفة من غدر بدر.

أراد الوزير بعد ذلك استعمال الحيلة في القبض على بدر فدعا بأبي عمر محمد بن يوسف القاضي وأمره بالمضي إلى بدر ورفقائه وتطييب نفسه وإعطائه الآمال من أمير المؤمنين على نفسه وماله وولده فذهب إليه القاضي ودفع إليه الأمان فاستقر الأمر بينهما على أن بدراً يدخل بغداد سامعاً مطيعاً وأمر غلمانه أن ينزعوا سلاحهم وأن لا تحاربوا أحداً وبينما هو يسير في الحراقة إذ وافاه محمد بن إسحاق بن كنداج في شذا فلما قاربه تحول إلى الحراقة وطيب نفس بدر ثم ورد عليه في ذلك الحين أحد غلمان السلطان في طيار فأخذه من الحراقة حتى صار به إلى جزيرة في الصافية فأخرجه إليها وقتله وتسلم السلطان ضياعه ومستغلاته

ودوره وجميع ماله.

وكان بهذا العمل الخزي للقاضي الذي توسط في أمر لم يكن قادراً على تنفيذه وقد كانت العامة تدرك ما في الإخلال بالعهود والمواثيق من المعرة حتى قال أحد الشعراء يذم القاضي على فعلته.

قل لقاضي مدينة المنصور ... بم أحللت أخذ رأس الأمير
بعد إعطائه المواثيق والعهد ... وعقد الايمان في منشور
أين أيمانك التي شهد اللّه على أنها يمين فجور
إن كفيك لا تفارق كفيه إلى أن ترى مليك السرير
يا قليل الحياء يا أكذب الأمة يا شاهدا شهادة زور
ليس هذا فعل القضاة ولا يحسن أمثاله ولاة الجسور
أي أمر ركبت في الجمعة الزهراء من شهر خير الشهور
قد مضى من قتلت في رمضان ... صائماً بعد سجدة التعفير
يا بني يوسف بن يعقوب أضحى ... أهل بغداد منكم في غرور
بدد اللّه شملكم وأراني ... ذلكم في حياة هذا الوزير
فأعد الجواب للحكم العا ... دل من بعد منكر ونكير
أنتم كلكم فداء أبي حا ... زم المستقيم كل الأمور

والذي هاج الناس من هذا أنهم لم يكونوا يتوقعون من القضاة الذين ينفذون فيهم شريعة الإسلام أن يكونوا عوناً على الغدر وعدم احترام الأيمان.

كانت تلك الحال سبباً لازدياد أمر القرامطة واضطرام نيرانهم في الشام والعراق والبحرين وطريق مكة.

لما رأى داعيتهم زكرويه أهل السواد لا يغنون عن أنفسهم سعى لاستغواء أعراب الكوفة من أسد وطيء وتميم وغيرهم إلى رأيه فلم يستجيبوا وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها فأرسل زكرويه أولاده إليهم فبايعوهم وخالطوهم وانتموا إلى علي بن أبي طالب فقبلوا منهم ذلك ثم دعوهم إلى رأي

القرامطة فقبل ذلك منهم أحد أفخاذهم فبايعوا في آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه ولقبوه الشيخ وزعم لهم أن بالسواد والمشرق مائة ألف تابع ومخرق لهم حتى اعتقدوه وأطاعوه فقصدهم سبك الديلمي مولى المعتضد بناحية الرصافة غربي ديار مضر فاغتروه وقتلوه وحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى أصعدوا إلى أعمال الشام التي كانت في حوزة هارون بن خمارويه ويليها من قبله طغج بن جف فهزم القرمطي كل جيش وجهه اليه طغج حتى حصره، في مدينة دمشق فأنفذ إليه المصريون بدراً الكبير غلام أحمد بن طولون فاجتمع مع طغج على حربه فواقعهم قريباً من دمشق وقتل في الواقعة يحيى القرمطي ثم دارت الدائرة على المصريين فانحازوا وولي القرامطة عليهم الحسين بن زكرويه أخا يحيى فأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آية له فلقب ذا الشامة وظهر على المصريين وعلى جند حمص وغيرها من أرض الشام وتسمى بإمرة المؤمنين على منابرها ـ كان ذلك كله في سنتي ٢٨٩ و ٢٩٠ .

وكان يكثر القتل في كل بلد دخلها إلا من اتقت شره بصلحه والدخول في أمره وكان لا يترك أحداً حتى صبيان المكاتب ومن البلدان التي لم يبق بها أحداً سلمية

توالت كتب أهل الشام إلى الخليفة ببغداد يشكون مما ألم بهم من ذي الشامة من القتل والسبي وتخريب البلاد فلم يريدا من الخروج بنفسه إلى الشام فتأهب وسار إلى الشام وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبا الأغر في عشرة آلاف فارس فنزل أبو الأغر قريباً من حلب فكبسهم القرمطي فقتل منهم خلقاً كثيراً وسلم أبو الأغر فدخل حلب في ألف رجل فتبعه القرمطي إلى حلب فحاربه أبو الأغر بمن بقي معه من أهل البلد فرجع عنهم .

سار المكتفي حتى نزل الرقة وسير الجيوش إليه وجعل أمرها إلى محمد بن سليمان الكاتب فسار محمد حتى صار بينه وبين حماه ١٢ ميلا فالتقوا بأصحاب القرمطي فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فهزم أصحاب القرمطي وقتلوا وأسر من رجالهم بشر كثير وتفرق الباقون في البوادي وتبعهم أصحاب السلطان . ولما رأى القرمطي ما نزل بجنده حمل أخا له مالا وتقدم إليه أن يلحق بالبوادي

إلى أن يظهر في موضع فيسير إليه وركب هو في ثلاثة معه وسار يريد الكوفة عرضاً في البرية حتى انتهى إلى موضع نفد معه زاده وعلفه فوجه بعض من كان معه إلى موضع يعرف بالدالية من أعمال طريق الفرات فلما دخلها أنكر زيه وسئل عن أمره فمجمج ثم أقر أن ذا الشامة معه فخرج متولي المسلحة بتلك الناحية وقبض عليه وعلى من معه فصاروا به إلى المكتفي وفي ٢٦ محرم سنة ٢٩١ أدخل الرقة مشهراً ثم حمل إلى بغداد وعقب ذلك أقبل محمد بن سليمان بجنده وبالأسرى الذين أخذهم من القرامطة وهم نيف وسبعون أسيراً فأعدموا كلهم ونظفت النواحي الشامية من هذه الفرقة المنكرة إلا أن ذلك لم يكن مبيداً للمذهب القرمطي فإن والد يحيى ذا الشامة لم يزل على قيد الحياة وهو زكرويه رأس الفتنة.

لما بلغه مقتل ذي الشامة أنفذ رجلاً كان معلماً للقرآن بإحدى القرى اسمه عبد اللّٰه بن سعيد فتسمى نصراً ليعمي أمره فدار على أحياء كلب يدعوهم إلى رأيه فساعده رجل اسمه مقدام واستغوى له طوائف من أعراب البادية فذهب بهم إلى جهات الشام فأغار على مدينتي بصرى وأذرعات فحارب أهلها ثم أمنهم فلما استسلموا قتلهم وسبى ذراريهم واستصفى أموالهم ثم سار يؤم دمشق فغلب مقاتلتها ولكنه لم يطمع في دمشق لدفاع أهلها عنها. ولما علم الخليفة بفعله نفذ إليه الحسين بن حمدان فورد دمشق وقد دخل القرامطة طبرية فلما اتصل بهم خبره عطفوا نحو السماوة وتبعهم الحسين في برية السماوة وهم ينتقلون من ماء إلى ماء فلما أوغلوا انقطع عنهم. أما هم فأسرعوا إلى هيت فصبحوها وأهلها غارون فنهبوا نعمها وقتلوا من قدروا عليه من أهلها ثم رحل عنها إلى البرية فأرسل إليهم الخليفة محمد بن إسحاق في جيش وأمر الحسين بن حمدان أن يصمد نحوهم. ولما علم بنو كلب بتوجه هذه الجيوش إليهم عمدوا إلى نصر فقتلوه وتقربوا برأسه إلى السلطان وأظهروا الخضوع فعفا عنهم أما بقية القرامطة فانحازوا إلى البادية.

ولما بلغ زكرويه كل ذلك أرسل إليهم داعية بدل نصر اسمه القاسم بن أحمد وواعدهم أن يوافوه بالكوفة ليغيروا عليها يوم النحر من سنة ٢٩٣ فامتثلوا

أمره ووافوا بـاب الكوفـة منصرف النـاس من صلاة العيـد وعددهم نحـو ٨٠٠ رجـل فأوقعـوا بمن لحقوه من العـوام وسلبوا جمـاعـة وبـادر النـاس إلى الكـوفـة فدخلوها وتنادوا السلاح فنهض العـامل بمن عنـده من الجند وصـادف القرامـطة فهزمهم ثم بعث يطلب نجدة من بغداد فأرسل من هناك جند لمحاربة القـرامطة بجهة القادسية ولكن هذا الجند لم يحافظ عـلى خط رجعته فجـاءته القـرامطة من خلفه فانهزم أقبح هزيمة واحتوى القرامطة على ما في معسكرهم فأخـذوه وصارت لهم به قوة ثم أرسلوا إلى زكرويه فاستخرجـوه من مخبئه فسـار معهم وهو محتجب يـدعونـه السيد لا يبـرزونـه والقـاسم يتولى الأمـور دونـه ويمضيهـا وجعلوا مقـر أعمالهم الصحراء.

ومن أخبث ما فعلوه في سنة ٢٩٤ أنهم أغاروا على قوافل الحج الآيبة من مكة إلى المشرق خراسان والعـراق فلم يتركـوا من هؤلاء الحجاج من يخبـر بخبر وأخذوا من الأموال شيئاً عظيماً وورد خبر ذلك إلى بغداد فعظم الأمر على الناس وعلى السلطان فاهتم الوزير بالأمر وندب إليهم جيشاً عظيماً ذهب إليهم في جادة مكة وقاتلهم فقتل منهم كثيراً وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصتـه واحتوى الجند على ما في معسكره وعاش زكرويه بعد الواقعة خمسـة أيام ثم مـات والذين هربوا من القرامطة لقيهم الحسين بن حمدان فأوقع بهم.

ولنذكر هنا نص كتابين أحدهما من ذي الشامة إلى عامل من عماله والثاني من عامل إلى ذي الشامة ليتضح لنا كيف كان لسان هؤلاء القوم في دعاويهم التي بها يستحلون سفك دماء الناس والسعي في الأرض بالفساد.

الكتـاب الأول ـ من عبد اللّه أحمـد بن عبـد اللّه المهـدي المنصـور بـاللّه النـاصر لدين اللّه القـائم بأمـر اللّه الحـاكم بحكم اللّه الـداعي إلى كتـاب اللّه الـذاب عن حرم اللّه المختـار من ولد رسـول اللّه أمير المؤمنـين وإمام المسلمـين ومذل المنافقين خليفة اللّه على العالمين وحاصـد الظالمـين وقاصم المعتـدين ومبيد الملحدين وقاتل القاسطين ومهلك المفسدين وسراج المبصرين وضيـاء المستضيئين ومشتت المخالفين والقيم بسنة سيد المرسلين وولد خير الوصيـين صلى اللّه عليـه وسلم وعلى أهل بيته الطيبـين كثيراً، إلى جعفـر بن حميد الكـردي سلام عليـك

فإني أحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلي على جدي محمد رسول اللَّه ﷺ أما بعد فقد انتهى إلينا ما حدث قبلك من أخبار أعداء اللَّه الكفرة وما فعلوه بناحيتك وأظهروه من الظلم والعبث والفساد في الأرض فأعظمنا ذلك ورأينا أن تنفذ إلى ما هناك من جيوشنا من ينتقم اللَّه به من أعدائه الظالمين الذين يسعون في الأرض فساداً وأنفذنا عطيراً داعيتنا وجماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص وأمددناهم بالعساكر ونحن في أثرهم وقد أوعزنا إليهم في المسير إلى ناحيتك لطلب أعداء اللَّه حيث كانوا ونحن نرجو أن يجرينا اللَّه فيهم على أحسن عوائده عندنا في أماثلهم فينبغي أن تشد قلبك وقلوب من معك من أوليائنا وتثق باللَّه وبنصره الذي لم يزل يعودناه في كل من مرق عن الطاعة وانحرف عن الإيمان وتبادر إلينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ولا تخف عنا شيئاً من أمرها إن شاء اللَّه سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد للَّه رب العالمين وصلى اللَّه على جدي محمد رسول اللَّه وعلى أهل بيته وسلم كثيراً.

الكتاب الثاني ـ بسم اللَّه الرحمن الرحيم لعبد اللَّه أحمد الإمام المهدي المنصور باللَّه ـ ثم الصدر كله على مثال صدر نسخة كتابه إلى عامله ـ ثم بعد ذلك من عامر بن عيسى العنقائي سلام على أمير المؤمنين ورحمة اللَّه وبركاته أما بعد أطال اللَّه بقاء أمير المؤمنين وأدام اللَّه عزه وتأييده ونصره وسلامته وكرامته ونعمته وسعادته وأسبغ نعمه عليه وزاد في إحسانه إليه وفضله لديه فقد كان وصل كتاب سيدي أمير المؤمنين أطال اللَّه بقاءه يعلمني فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قواده إلى ناحيتنا لمجاهدة أعداء اللَّه بني القصيص والخائن ابن دحيم وطلبهم حيث كانوا والإيقاع بهم وبأسبابهم وضياعهم ويأمرني أدام اللَّه عزه عند نظري في كتابه بالنهوض في كل من قدرت عليه من أصحابي وعشائري للقائهم ومكاتفة الجيش ومعاضدتهم والمسير بسيرهم ولعمل كل ما يومون إليه ويأمرون به وفهمته ولم يصل إلى هذا الكتاب أعز اللَّه أمير المؤمنين حتى وافت الجيوش المنصورة فنالت طرفاً من ناحية ابن دحيم وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمد الداعية ليلقوه بمدينة أفامية

ثم ورد على كتاب مسرور بن أحمد في درجة الكتاب الـذي اقتصصت ما فيـه في صدر كتابي هذا يأمرني فيه بجمع من تهيأ من أصحابي وعشيرتي والنهوض إلى ما قبله ويحذرني التخلف عنه وكان ورود كتابه على وقت صح عندنـا نزول المـارق سبك عبد مفلح مدينة عرقة في زهاء ألف رجل ما بين فارس وراجل وقد شارف بلدنا وأطل على ناحيتنا وقد وجه أحمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين أطال اللّٰه بقاءه إلى جميع أصحابه ووجهت إلى جميع أصحابي فجمعناهم إلينا ووجهنا العيـون إلى ناحية عرقة لنعرف أخبار هذا الخائن وأين يريد فيكون قصدنا ذلك الوجه ونرجو أن يظفر اللّٰه به ويمكن منه بمنه وقدرته ولولا هـذا الحادث ونـزول هذا المـارق في هذه الناحية وإشرافه على بلدنـا لما تـأخرت في جمـاعة أصحـابي عن النهوض إلى مدينة أفامية لتكون يدي مع أيدي القواد المقيمين لمجاهدة من بتلك الناحية حتى يحكم اللّٰه بيننا وهو خير الحاكمين وأعلمت سيدي أمـير المؤمنين أطـال اللّٰه بقاءه السبب في تخلفي عن مسرور بن أحمد ليكون على علم منه ثم إن أمرني أدام اللّٰه عزه بالنفوذ إلى أفامية كان نفوذي برأيـه وامتثلت ما يـأمرني بـه إن شاء اللّٰه عـلى أمير المؤمنين نعمه وأدام عزه وسلامته وهنأه كرامته وألبسه عفوه وعافيتـه والسلام على أمير المؤمنين ورحمة اللّٰه وبركاته والحمد للّٰه رب العالمين وصلى اللّٰه على محمد النبي وعلى أهل بيته الطاهرين الأخيار.

هكذا ضعف سلطان هذه الطائفة بالعراق بعد قتل زكـرويه وأولاده وقتـل أكثر دعاتهم ولكن قد بقي ذنب الأفعى وهو الجنابي بالبحرين ولم يكن له في عهد المكتفي كبير عمل وإنما كانت مصـائبه ورزايـاه في عهد المقتـدر وسنبين ذلـك في حينه.

خبر المشرق:

انتظمت بلاد خراسان وما وراء النهر لإسمـاعيل بن أحمـد السامـاني وكان رجلا عاقلاً مدبراً ذا عزيمة ثابتة ولم يزل أمره على ما هو عليه والمكتفي راض عنه حتى توفي سنة ٢٩٥ فولى بعده ابنه أحمد بن إسماعيل وعقد له المكتفي بيده لواء وأرسله إليه.

خبر المغرب:

وفي عهد المكتفي انقرضت دولتان إحداهما دولة بني طولون بمصر على يدي العباسيين وآخر أمرائها شيبان بن أحمد بن طولون سنة ٢٩٢ والثانية دولة الأغالبة بإفريقية انتهت على يدي أبي عبد الله الشيعي داعية الفاطميين بالمغرب.

العلاقات مع الروم:

كانت العلاقات في أول الأمر حسنة مع ملك الروم حتى أنه تبودلت الهدايا بين الملكين.

وفي سنة ٢٩٠ وردت رسل صاحب الروم يسألون المكتفي المفاداة بمن في أيدي المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا فأجيبوا إلى طلبهم ولم يتم هذا الفداء إلا سنة ٢٩٣ فكان جملة من فودي به من المسلمين نحو ١٢٠٠ وكان المتولي للفداء أمير الثغور رستم بن برد ولم تستمر العلاقات حسنة.

ففي سنة ٢٩١ سار جيش إسلامي من طرسوس وصمد نحو أنطاكية ففتحها بالسيف عنوة وهي من أهم مدن الروم وثغورهم البحرية وقد قتل في فتحها نحو ٥٠٠٠ من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من أسارى المسلمين مثل ذلك وأخذوا من الروم ستين مركباً فحملت فيها الغنائم من الأموال والمتاع والرقيق وقدر نصيب كل رجل ألف دينار وغزا من المسلمين أمير الثغر رستم مرتين وبلغ في غزوته الثانية سلندوا ففتحها وصار إلى آلس فأسر من الروم عدداً كبيراً وغزا ابن كيغلغ من طرسوس وفي سنة ٢٩٤ استأمن إلى السلطان بطريق اسمه أندرونقس وكان على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأجيب طلبه وأخرج نحواً من مائتي نفس من المسلمين كانوا أسرى في حصنه وكان ملك الروم قد وجه من يقبض عليه فأعطى المسلمين الذين كانوا أسرى في حصنه السلاح وأخرج معهم بعض بنيه فكبسوا البطريق الموجه إليه للقبض عليه ليلا وقتلوا من معه خلقاً كثيراً وغنموا ما في معسكرهم.

وكان رستم قد خرج في أهل الثغور في جمادى الأولى قاصداً أندرونقس

ليخلصه فوافى رستم قونية بعقب الواقعة وعلم البطارقة بمسير المسلمين إليهم فانصرفوا ووجه أندرونقس ابنه إلى رستم ووجه رستم كاتبه وجماعة من البحريين فباتوا في الحصن فلما أصبحوا خرج أندرونقس وجميع من معه من أسرى المسلمين ومن صار إليه منهم ومن وافقه على رأيه من النصارى وأخرج ماله ومتاعه إلى معسكر المسلمين وضرب المسلمون قونية ثم قفلوا إلى طرسوس هم وأندرونقس وأسارى المسلمين ومن كان مع أندرونقس من النصارى وقد وصل هذا البطريق إلى بغداد فأكرم.

وحصل في آخر عهد المكتفي مفاداة ثانية تمت سنة ٢٩٥ وكان عدة من فودي به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس.

وفاة المكتفي:

توفي المكتفي في ١٢ ذي القعدة سنة ٢٩٥.

١٨ ـ المقتدر

هو جعفر المقتدر باللّه بن المعتضد بن أحمد بن المتوكل وهو أخو المكتفي وأمه أم ولد اسمها شغب ولد سنة ٢٨٢ وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه ولم يزل خليفة إلى أن قتل في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) فتكون مدته ٢٤ سنة و ١١ شهراً و ١٦ يوماً.

كان يعاصره في الأندلس عبد اللّه بن محمد إلى سنة ٣٠٠ ثم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر المتوفي سنة ٣٥٠ وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين من بني أمية بالأندلس.

ويعاصره بأفريقية عبيد اللّه المهدي أول خلفاء الفاطميين بالمغرب (٢٩٧ ـ ٣٢٢).

ويعاصره في بلاد الروم لاون السادس ثم أخوه الإسكندر بن بسيل (٩١١ ـ ٩١٢) ثم قسطنطين السابع بن لاون السادس وكانت تدبره أمه زوا ثم رومانس الأول الأرمني الذي اغتصب الملك سنة ٩١٩ ولم يبق لقسطنطين إلا الاسم وشارك رومانس في الملك أبناؤه خريستوف واسطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وتصرف به تصرف مالك ٢٥ سنة إلى سنة ٩٤٤ فأغرى قسطنطين السابع ابني رومانس وهما ساطفانس وقسطنطين الثامن بالمناصبة لأبيهما فثارا به وثلا عرشه وحبساه في دير حيث مات سنة ٩٤٨ وعاد قسطنطين السابع إلى ملكه سنة ٩٤٥ حيث مات مستبداً به إلى سنة ٩٥٩ حيث مات مسموماً على ما يقال.

ويعاصره في فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج ثم روبرت الأول

(٩٢٢ ـ ٩٢٣) ثم راوول من أقارب الكابسيان (٩٢٣ ـ ٩٦٢).

ويعاصره في خراسان وما وراء النهر أحمد بن إسماعيل بن أحمد الساماني.

كيف انتخب:

لما ثقل المكتفي كان في منصب الوزارة العباس بن الحسين ففكر فيمن يتولى الخلافة بعده لأنه لم يكن ولى أحداً العهد في صحته وكان من عادة الوزير أن يسايره إذا ركب واحد من هؤلاء الأربعة الذين يتولون الدواوين وهم أبو عبد اللّه محمد بن داود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبد اللّه وأبو الحسن علي بن محمد بن الفرات وأبو الحسن علي بن عيسى فاستشار الوزير يوماً محمد بن داود بن الجراح في ذلك فأشار بعبد اللّه بن المعتز ووصفه بالعقل والأدب والرأي واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فقال هذا شيء ما جرت به عادتي أن أشير فيه وإنما أشاور في العمال لا في الخلفاء فغضب الوزير وقال هذه مقاطعة باردة وليس يخفى عليك الصحيح وألح عليه فقال إن كان رأي الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل فعلم الوزير أنه يعني ابن المعتز لاشتهار خبره فقال لا أقنع إلا أن تمحضني النصيحة فقال ابن الفرات فليتق اللّه الوزير ولا ينصب إلا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصبه بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعاً فيشره في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ويرجو الثواب فيما يفعله ولا يولي من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقي الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه ودخلهم وخرجهم فقال الوزير صدقت ونصحت فبمن تشير؟ قال أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد فقال ويحك هو صبي قال ابن الفرات إلا أنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا. فمالت نفس الوزير إلى مشورة ابن الفرات وانضاف إلى ذلك وصية المكتفي فإنه أوصى لما اشتد مرضه بتقليد أخيه جعفر الخلافة فلما مات المكتفي اختار الوزير جعفراً للخلافة بالاتفاق مع صافي الحرمي ولقب المقتدر باللّه وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة.

وكأن ذلك لم يرق للناس لصغر سن المقتدر فاجتمع القواد والقضاة

والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن واتفقوا على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز فراسلهم في ذلك فأجابهم على ألا يكون فيه سفك دم ولا حرب فأخبروه باجتماعهم عليه وأنه ليس لهم منازع ولا محارب وكان رأس هذا التدبير الوزير ومحمد بن داود بن الجراح وأحمد بن يعقوب القاضي ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صوار تكين ثم إن الوزير أراد الانفصال عنهم لأنه رأى حاله صالحاً مع المقتدر وأنه على ما يحب فقام عليه الآخرون فقتلوه، قتله الحسين بن حمدان وبدر ووصيف في ٢٠ ربيع أول سنة ٢٩٦ وفي غده خلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز وحضر البيعة الناس والقواد وأصحاب الدواوين سوى أبي الحسن بن الفرات وخواص المقتدر وكتبت الكتب بذلك إلى العمال ووجه المقتدر يأمره بالانتقال من دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الإمهال إلى الليل. ولم يكن بقي مع المقتدر من القواد إلا مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية الدار. فلما هم المقتدر بالانتقال قال بعضهم لبعض لا نسلم الخلافة من غير أن نبلي عذراً ونجتهد في دفع ما أصابنا فأجمع رأيهم على أن يصعدوا في المساء إلى الدار التي فيها ابن المعتز ويقاتلوه وعاونهم المقتدر بالسلاح والزرديات وغير ذلك فركبوا في السميريات وأصعدوا في المساء فلما رآهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم واضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم وكان قد حصل قبل ذلك أن الحسين بن حمدان فارق بغداد بأهله وتركهم في هذا المأزق ولا يدري لم فعل ذلك.

فلما رأى ابن المعتز هذه الحال ركب ومعه وزيره الذي اختاره له وهو محمد بن داود وهربا وغلام له ينادي يا معشر العامة ادعوا لخليفتكم السني البربهاري (ينسبونه إلى الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهاري مقدم الحنابلة وأهل السنة وللعامة فيه اعتقاد فأرادوا من تلك النسبة استمالتهم بهذا القول) سار ابن المعتز على هذه الصفة نحو الصحراء ظناً منهم أن من بايع ابن المعتز من الجند يتبعونه فلم يلحقه منهم أحد ولما رأوا ذلك اختفى محمد بن داود في بيته ونزل ابن المعتز عن دابته ومعه غلامه وانحدر إلى دار أبي عبد الله بن الجصاص فاستجار به واستتر أكثر من بايع ابن المعتز ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد

وثار العيارون والسفل ينهبون الدولة لأن صاحب الشرطة كان ممن بايع ابن المعتز فهرب أيضاً.

في ذلك الوقت خرج المقتدر بالعسكر وقبض على من كان لهم يد في بيعة ابن المعتز فقتلهم وأرسل إلى ابن الفرات فاستوزره ثم عثر على ابن المعتز فأخذ وحبس إلى الليل وعذب حتى مات وأخذ وزيره محمد بن داود فقتل ثم أرسل خلف الحسين بن حمدان فلم يدرك وأخيراً رضي عنه المقتدر فحضر إلى بغداد مرضياً عنه.

وانتهت بذلك هذه الفتنة التي بها ابتدأ ضعف الخلافة وسقوط هيبتها واشتد الانتكاس في عهد المقتدر حتى لم يعد للخلافة أدنى سلطان ولا احترام فإن المقتدر حين ولي كان شاباً غراً لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئاً وكانت له أم وقهرمانة صار لهما الحكم في كل ما يجري من الشؤون وإليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملاً أو وزارة والمقتدر لاه بما هو فيه من اللعب واللهو والسرف لا يفكر في صلاح ولم يعد بيده شيء. ولنصور لكم الحال تماماً نبدأ بذكر الوزراء أيام دولته وكيف كانوا ينالون الوزارة وكيف كان يفعل بهم إذا قدمت رشوة من يريد أن يحل محلهم.

كان أول وزرائه أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات استوزره يوم الأحد لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة ٢٩٦ فنظر في الأمور نظر جد واهتمام وأمر جماعة من القواد بطواف البلد ليلاً والإيقاع بأهل الدعارة ومن يرونه متعرضاً لنهب دار وأخذ مال وعلى يد ابن الفرات كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز فصادر من صادر وقتل من قتل وكان ممن دخل في هذه الفتنة أبو عمر محمد بن يوسف القاضي فأخذ فيمن أخذ وحضر أبوه يوسف وهو شيخ كبير مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديداً رق له منه وسأله حراسة نفس ولده أبي عمر والتصدق عليه به فقال الوزير الجناية عظيمة ولا يمكن تخليته إلا بمال جليل يطمع الخليفة فيه من جهته فبذل يوسف أن يفقر نفسه وابنه طلباً لبقائه وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر وقرر أمر أبي عمر على مائة ألف دينار فأدى منها تسعين ألفاً من جملتها ٤٥ ألفاً كانت عنده وديعة

للعباس بن الحسين وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها لئلا يجعل لـه حديـث مجدد.

مضى ابن الفرات في وزارته هذه ثلاث سنـين وثمانيـة أشهر وأربعـة عشر يوماً اختلفت عليه الأمور فيها وحدثت الحوادث وحضر عيد النحر من سنة ٢٩٨ فاحتيج فيه من النفقات إلى ما جرت العـادة به وكـانت المواد قصـرت والمؤن قد تضاعفت وطلب المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة ما يصرفه في نفقات هذا العيد فمنعه من ذلك وألزمه القيام به من جهته فوجد بذلك أعـداؤه الطريق إلى الوقيعة فيه.

فـركب في يوم الأربعـاء لأربع خلون من ذي الحجـة إلى دار الخلافـة وهو عـلى غايـة السكون والـطمأنينـة وجلس في الموضـع الذي كـان يجلس فيـه قبـل الوصول إلى السلطان فقبض عليه وعلى كـاتبه ومضى القـواد للقبض على أسبـابه وكتابه فقبضوا عليهم وصار مؤنس الخـادم إلى دار الوزارة فـوكل بهـا وأنفذ يلبق إلى دار ابن الفـرات فأحـاط عليها وتسـرع الجنـد والعـوام إلى دور أولاده وأهله فنهبوها وأخربوها وأخذوا ساجها وسقوفها وعـظم الأمر في النهب حتى ركب أبـو القاسم في الحال بعد العصر في القواد والغلمان وطلب النهاية وعاقب قـوماً منهم فقامت الهيبة وسكنت الفتنة وأحضر الوزير الثاني.

محمد بن عبيد اللّه بن خاقان:

تقلد الوزارة وقبض ما كـان لابن الفرات من الضيـاع والأقطاع والأمـلاك والعقار والأموال والغلات وصح له ما مقداره ألف ألـف دينار عينـاً وستمائـة ألـف دينار سوى الأثاث والرحل والكراع والجمال.

تولى ابن خاقـان فبدأ وزارتـه بالمصـادرات والمضايقـات يريـد بذلـك سد حاجة الخليفـة حتى لا يقع فيـما وقع فيـه سلفه وحـول من بيت مال الخـاصة إلى بيت مال العامة ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار على سبيل القرض ولم يؤد من عوض ذلك سوى أربعين ألف دينار وكان في ابن خـاقان إهمـال للأمـور واطراح للأعمال وتلون في الأفعال فكانت الكتب ترد عليه تصدر جواباتها عنـه من غير

أن يقف عليها أو يأمر بشيء فيها وإذا أخرجت إليه جوامعها تركها أياماً فلم يطالعها وربما وردت رسائل بحمول وكتب فيها سفاتج بمال فتبقى أياماً لا تفض وإذا قلد عامل أتبع بمن يعزله قبل وصوله إلى عمله وأتبع الصارف بمن يصرفه فقيل إنه اجتمع في خان بحلوان سبعة أنفس وقد قلد كل واحد منهم ماء الكوفة في عشرين يوماً وبالموصل خمسة قد قلدوا قردي وبازبدي وأنهم اجتمعوا وتشاكوا ما دفعوا إليه وخرج عن أيديهم من نفقاتهم وما بذلوه عن تقليدهم على أن ينالوا من مال العمل ما قدموه وأنفقوه واستظهروا لنفوسهم به وخلوا العمل على آخر من ورد من الناحية.

وكان إذا سئل حاجة دق صدره بيديه وقال نعم وكرامة حتى لقب دق صدره وبسط يده وأيدي أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلات والإطلاقات والإقطاعات والتسويغات وتخفيف الطسوق والمعاملات وأخذ المرافق على إضاعة الحقوق وإسقاط الرسوم فسخفت الوزارة وأخلقت الهيبة وزادت الحال في إخلال الأعمال ووقوف الأحوال وقصور المواد وتضاعف الاستحقاقات واشتداد المطالبات وشغب الجند شغباً بعد شغب وتسحبوا على السلطان تسحباً بعد تسحب وأخرج إليهم من بيت مال الخاصة شيئاً بعد شيء: حتى إذا انحل النظام وبان الانتشار وتصور المقتدر الصورة فيما تطرق من الوهن على المملكة شاور مؤنساً الخادم فيمن يقلده الوزارة فاستقر الأمر على وزارة.

علي بن عيسى:

وكان بمكة بعيداً عما يجري ببغداد خوفاً على نفسه فأنفذ إليه فلما حضر قلد الوزارة في عاشر محرم سنة ٣٠١ فكانت مدة سلفه سنة واحدة وشهراً وخمسة أيام فسلم إلى الوزير الجديد هو وولداه وأبو الهيثم بن ثوابة. ولما نظر علي في الأمور وجد في أيدي القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنيه وكتابه في فك وإثبات وتقرير وإيجاب ومظالم وتسويغات وإقطاعات ومقاطعات بما مثله يأتي على ارتفاع المملكة وقد كان الخاقاني أذن لهذه الجماعة في التوقيع عنه بكل ما لاح: تأمل علي بن عيسى هذه التوقيعات فأسقطها وكان منها ما ثبت في الدواوين وما لم يثبت وعمل على إعلام المقتدر ما على الملك وبيت المال من

الوهن والنقص بإمضائها فقال له أحد خلصائه لا تفعل فإن الخليفة على ما تعرفه من التدبر بآراء النساء والقبول من الحاشية وأكثر هذه التوقيعات لهم وللمتعلقين عليهم والملتجئين إليهم فاعدل إلى أن تنظر ما قد أنشيء الكتاب به من ديوان الدار إلى أصحاب الدار فتمضيه وما كان بخلاف ذلك أبطلته فأنك تمضي القليل وتبطل الكثير وتأمن عداوة الناس ومتى استأذنت الخليفة لم تأمن أن يأمرك بإمضائها كلها فتقع في الطويل العريض ـ فلم يقبل ومضي فطالع المقتدر بالصورة واستأمره في إسقاط التوقيعات وقد كان الحواشي سبقوا إليه بالشكوى فقال له ارجع إلى الخاقاني وابنه فما عرفاك أنه بتوقيعهما أمضيته وما كان بتوقيع أصحابهما رددته. فأمر بجمع الرقاع وأنفذت إلى الخاقاني وابنه في السجن فأقر الخاقاني بصدور كلها عن إذنه فقامت قيامة علي بن عيسى من ذلك الجواب واضطر إلى إمضاء الأكثر وإسقاط من استضعف صاحبه واستلان جانبه ولم تكن له جهة يشفع له وعرف الحاشية ذلك وشكروا للخاقاني وتعصبوا له وقاموا بأمره كما سيجيء.

كان علي بن عيسى رجلاً عاقلاً متديناً متصوناً متعففاً، عارفاً بالأعمال حافظاً للأموال كثير الوقار والجد بعيداً من التبذل والهزل على شح غالب في طباعه وتجهم ظاهر في أخلاقه وعمد في نظره إلى تخفيف المؤن وحذف الكلف ونقص الخرج المضايقة في الجاري والرزق ورد كثيراً مما وقع به الخاقاني من الإثبات والزيادات فأوحش خواص المقتدر وعاداهم فكثرت السعاية عليه والوقيعة فيه واستثقل أكثر الناس موضعه وضاقت صدورهم بنظره ووقع الشروع في إفساد أمره ورد ابن الفرات.

عرف الوزير ما يجري من ذلك فبدأ بالاستعفاء وكان فيما كتب من رقاعه بذلك إلى السيدة أم المقتدر:

بسم الله الرحمن الرحيم أطال الله بقاء السيدة وأدام عزها وتأييدها وكلاءتها. وحراستها وأسبغ نعمه عليها وزاد في إحسانه إليها ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسامه الهنيئة وفوائده السنية عندها وبلغها في سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وأدام له العز والتمكين والنصر والتأييد غاية محبتها وأفضل

أمنيتها ووصل أيام سرورها بعافيته واغتباطها برؤيته ووقاها فيه وفي نفسها وفي الأمراء أستودعهم اللَّه وأستوهبه أيامهم كل سوء محظور ومخوف بمنه ورأفته وصلت الرقعة أعز اللَّه السيدة وعرفت ما تضمنت فأما الفتنة التي كانت ملتحمة مع أعظم الأعداء مضرة وأقربهم محلة وأشدهم على المطالبة جرأة فقد تكلفت الإنفاق عليها وقمت بتدبيرها حتى بلغ اللَّه أمير المؤمنين والسيدة في جميعها المحبة وانتظمت في صدور الأعداء شرقاً وغرباً الهيبة وما أنفقت مع ذلك من مال بيت الخاصة بعد الذي رددته إليه نصف عشر ما أنفقه محمد بن عبيد اللَّه الخاقاني وابن الفرات قبله وأنا عامل بعون اللَّه على رد ذلك عن آخره ومتى لم ينفق المعتضد باللَّه في أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصة أضعاف هذه النفقة وقد أنفق المكتفي باللَّه وكان من النظر في القليل اليسير على ما عرف به من بيت مال الخاصة جملة بعد جملة مع قلة النفقات في أيام المعتضد باللَّه وما أقول قولا يدفع لأن الدواوين تشهد به وحسابات بيوت الأموال تدل عليه ومؤنس خازن بيت مال الخاصة منذ أيام المعتضد باللَّه وإلى هذه الغاية يعلمه وإن سئل عنه صدق هذا مع رفقي بالرعية وعمارتي النواحي المحتلة وإزالتي عنها كل ظلم ومؤونة حتى صارت أيام أمير المؤمنين أطال اللَّه بقاءه منذ خدمته أيام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلأت قلوب الرعية هيبة بعد أن كانت تثب على الرؤساء وترمي بالحجارة على ما قيل لي عند اجتيازهم في دجلة. وأما الاستحقاقات المتأخرة فلست أعرفها وباب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجالة وما أحسب صنفاً من هذه الأصناف يقدر أن يقول إنه قبض في وقت من الأوقات قبضاً متصلاً وليس يقول أحد منهم إنه دفع عن استحقاق ولا تأخر له شيء من رزقه ونزله كذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة فهذه سبيلهم. وقد حضروا منذ مدة بباب العامة وطالبوا فأدخلت طائفة منهم ونوظرت فلم تكن لهم حجة في الاستحقاقات وإنما التمسوا الزيادة والنظر والصلة وهذا خارج عن الواجب ولو منع بعضهم فلم يعط شيئاً لكان ذلك واجباً صالحاً ومتى كان الجند يوفون حتى لا يكون لهم شيء متأخر ما كان هذا في زمن من الأزمان وما تركت أن قلت

لسيدنا أمير المؤمنين أعزه اللّه في ذلك ما يجب أن أقوله وخاطبت أم عيسى مرة بعد مرة فيه وأما ما قيل للسيدة أعزها اللّه في استعفاء فلم أستعف نصاً ولو حملت الرماد على رأسي لما تكرهت ذلك ولا تأبيته وإني لألزم نفسي الصبر على كل نائبة في خدمة سيدنا أمير المؤمنين ؛ أيده اللّه وأرى ذلك ديانة ولكني أعز اللّه السيدة أضجر كما يضجر الناس إذا خوطب بما لا يحب وأنا أبلغ جهدي في النصيحة وتأدية الأمانة فإن كان ذلك واقعاً موقعه فهو الذي أقصد وإن كان يظن بي غير ما أنا عليه فهي المصيبة وقد يحرم الإنسان ثمرة اجتهاده ويقع ما يفعله على خلاف مذهبه واعتماده وما يسعني وما يحل لي أن أؤخر الصدق في جميع الأحوال قاضياً بذلك حق اللّه عز وجل وحق سيدنا أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه وحق السيدة أعزها اللّه وأسأل اللّه أولا وآخراً أن يصلح لهما أمورهما ظاهر وباطناً صغيرها وكبيرها ويكفيهما المهم ويسهل الصلاح بهما وعلى أيديهما بمنه وقدرته وجوده وكرمه.

وإنما كتبنا هذا الكتاب بطوله ليتبين كيف كان تداخل النساء في سياسة المملكة. إن علي بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدر وقد كان مما فعله في وزارته هذه أن أسقط المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر لأهواز وحصن مهدي ونهر السدرة وكان يعترض في هذه المواضع على ما يجهز إلى البحر ويرد منه وتؤخذ الضرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجمهور بديار ربيعة وأشار على المقتدر بوقف المستغلات بدار السلام وغلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار والضياع الموروثة بالسواد الجارية في ديوان الخاصة وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار على الحرمين والثغور فقبل رأيه ونصب علي بن عيسى لهذه الوقوف ديواناً سماه ديوان البر. ولما كان بمكة وجد الماء ضيقاً على أهلها وعلى أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقله من جدة إليها فابتاع عدداً كبيراً من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء وأقام لها العلوفة الراتبة ومنع من السخرة وحظرها وحفر بئراً عظيمة فخرجت عذبة شروباً وسماها الجراحية. وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار وفتحها ووسعها حتى كثر الماء بمكة ووصل الرفق به إلى أهل الضعف والمسكنة.

ومع كل ما أجراه من الإصلاح فإن حكومة النساء لم تتركه هاديء البال.

قرب عيد الأضحى واحتيج إلى ما جرت العادة بإطلاقه للحرم فجاءته أم موسى القهرمانة في آخر ذي القعدة مخاطبة في ذلك ومقررة للأمر فيه وكان محتجباً فلم يأذن لها حاجبه واعتذر لها عذراً لطيفاً وصرفها صرفاً جميلاً فغضبت وانصرفت وأعلم علي بن عيسى خبرها في حضورها وانصرافها فأنفذ إليها واستعذرها فلم تعذر وصارت إلى المقتدر بالله وإلى السيدة وأغرتهما به وتكذبت عندهما عليه وأدى ذلك إلى القبض عليه في يوم الاثنين ثامن ذي الحجة سنة ٣٠٤ فكانت مدة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر و ٢٨ يوماً.

وفي يوم القبض عليه أطلق الوزير ابن الفرات وأعيد من محبسه إلى دست الوزارة ورد عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكتابه وأسبابه من الضياع والأموال فارتجع ما كان حصل في أيدي الناس القواد وخواص الدولة من ذلك وكان قد تعهد وهو في السجن أنه متى رد للوزارة أطلق المولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التغاريق مثل ما كان يطلقه في وزارته الأولى تماماً وإدراراً وأن يحمل إلى المقتدر كل يوم ألف دينار وإلى السيدة والأمراء ٥٠٠ دينار فوفي بما تعهد به.

كان حامد بن العباس قد تضمن واسطاً وضياعها بمال يخرجه ضمنه إياها علي بن عيسى فلما وزر ابن الفرات كان يعلم أن حامد بن العباس يربح منها ربحاً كثيراً فلما انتهت مدة ضمانه أراد أن يخرجها عنه إلى غيره وكان بواسط قسيم الجوهري يشرف للسيدة أم المقتدر على ضياعها بواسط ويكثر هناك المقام ويحضر عند حامد فيبسطه فاتفقا على أن قسيماً يسفر له في نيل الوزارة فذهب قسيم إلى بغداد وخاطب نصراً الحاجب في ذلك وأطمعه في حامد وملأ يده منه وعرفه سعة صدره وسخاء نفسه وضمن له منه تصحيح المال الكثير من ابن الفرات وأسبابه وراسل السيدة أيضاً ووافق هذا القول والسعي سوء رأي نصر الحاجب في ابن الفرات وخوفه منه وكثرة الوقيعة فيه وقول الناس إنه قد قلد ولده الدواوين وأقاربه الأعمال إلى غير ذلك ن الوشايات التي تروج في حكومة النساء فاتفق الأمر على إصعاد حامد وتوليته الوزارة فأرسل إليه فحضر وفي يوم حضوره قبض علي ابن الفرات يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة

٣٠٦ وكانت مدة وزارته هذه الدفعة سنة وخمسة أشهر و ١٩ يوماً.

حامد بن العباس:

لم يكن لحامد من الخصال ما يؤهله للوزارة فظهر ذلك لحاشية المقتدر فعابوه عنده ونسبوه إلى الجهل بأمور الوزارة فأمر بإطلاق علي بن عيسى من محبسه وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجعه في الأمور ويصدر عن رأيه ثم إنه استبد بالأمر دون حامد ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة حتى قيل فيهما:

هذا وزير بلا سواد وذا سواد بلا وزير

ثم إن حامداً أحضر ابن الفرات ليقابله على أعماله ووكل بمناظرته علي بن أحمد الماذرئي ليصحح عليه الأحوال فلم يقدر على إثبات الحجة فانتدب له حامد وسبه ونال منه وقام إليه فلكمه وكان حامد سفيهاً فقال له ابن الفرات أنت على بساط السلطان وفي دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من بيدر تقسمه أو غلة تستفضل في كيلها ولا مثل أكار تشتمه ثم قال لشفيع اللؤلؤي قل لأمير المؤمنين عني إن حامداً إنما حمله على الدخول في الوزارة وليس من أهلها إنني أوجبت عليه أكثر من ألفي ألف دينار من فضل ضمانه وألححت عليه في مطالبته بها فظن أنها تندفع عنه بدخوله في الوزارة وأنه يضيف إليها غيرها فاستشاط حامد وبالغ في شتمه فأنفذ المقتدر فأقام ابن الفرات من مجلسه ورده إلى محبسه وقال علي بن عيسى ونصر الحاجب لحامد قد جنيت علينا وعلى نفسك جناية عظيمة بما فعلت بابن الفرات وأيقظت منه شيطاناً لا ينام.

ولما رأى حامد أنه لا عمل له مع علي بن عيسى شرع في عمل له آخر فضمن أعمال الخراج والضياع الخاصة والعامة والمستحدثة والفراتية بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان واستأذن في الانحدار إلى واسط ليدبر أمر ضمانه الأول فأذن له فانحدر واسم الوزارة عليه وعلي بن عيسى يدبر الأمور وأظهر حامد زيادة ظاهرة في الأموال فسر المقتدر وبسط يد حامد في الأعمال حتى خافه علي بن عيسى ثم إن السعر غلا ببغداد فثارت العامة

والخاصة واستغاثوا وكسروا المنابر وكان حامد يخزن الغلال وكذلك غيره من القواد فأمر المقتدر بإحضار حامد بن العباس فحضر فعاد الناس إلى شغبهم فأنفذ حامد جندا لمنعهم فقاتلهم العامة وأحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبسين من السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئاً فأنفذ المقتدر جيشاً قاتل العامة حتى هربوا ودخلوا الجامع بباب الطاق فوكل بأبواب الجامع وأخذ كل من فيه فحبسوا وضربوا بالمقارع وقطعت أيدي من عرف بالفساد فسكنت الفتنة وأمر المقتدر بفتح مخازن الغلة التي لحامد ولأم المقتدر وغيرهما وبيع ما فيها فرخصت الأسعار وسكن الناس وأفهم علي بن عيسى المقتدر أن سبب غلاء الأسعار إنما هو ضمان حامد لأنه منع من بيع الغلال في البيادر وخزنها فأمر المقتدر بفسخ الضمان عن حامد وصرف عماله عن السواد وأمر علي بن عيسى أن يتولى ذلك فسكن الناس.

ضج الأولاد والحرم والخدم والحشم إلى المقتدر مستغيثين من تأخير أرزاقهم فإن علي بن عيسى كان يؤخرها فإذا اجتمع عدة شهور أعطاهم بعضاً وأسقط بعضاً وحط من أرزاق العمال في كل سنة شهرين فزادت عداوة الناس له وضجر المقتدر من هذه الاستغاثات وكذلك ضجر حامد بن العباس من مقامه ببغداد وليس له من الأمر شيء غير لبس السواد وأنف من إطراح علي بن عيسى لجانبه فاستأذن حامد وسار إلى واسط. وجرى بين حامد وبين مفلح الأسود كلام فقال حامد لقد هممت أن أشتري مائة خادم أسود وأسميهم مفلحاً فحقدها عليه مفلح وكان خصيصاً بالمقتدر فسعى ومعه المحسن بن الحسن بن الفرات للحسن بالوزارة وضمن أموالاً جليلة وكتب على يده رقعة يقول إن تسلم الوزير وعلي بن عيسى وابن الحواري وشفيعاً اللؤلؤي ونصراً الحاجب وأم موسى القهرمانة والمادرائيين يستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار وهذه رشوة عظيمة لا يستهان بها فأصاب ذلك السعي وقبض على علي بن عيسى في ربيع الآخر سنة ٣١١ وأطلق ابن الفرات وعهدت إليه وزارته الثالثة وسمع حامد بالخبر واختفى ببغداد ثم لبس زي راهب وخرج من مكانه الذي اختفى فيه ومشى إلى نصر الحاجب وسأله أن يوصل حاله إلى الخليفة فدعا نصر مفلحاً فلما حضر ورأى

حامداً قال أهلا بمولانا الوزير أين مماليكك السودان الذين سميت كل واحد منهم مفلحاً ولم يكن لحضوره نتيجة تفيده بل سلم إلى ابن الفرات الوزير فاستلمه المحسن ابنه وكان وقحاً سيء الأدب ذا قسوة شديدة وكان الناس يسمونه الخبيث فعذب حامداً بأنواع العذاب وأخيراً أنفذه إلى واسط ليبيع أملاكه بها ثم دس من سمه في الطريق فمات وظهر في هذه الوزارة من المحسن شر عظيم لكثرة ما نكب الناس وصادرهم وعذبهم بأنواع العذاب لاستخراج أموالهم حتى مات أكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة وفيهم كبار الدولة ورؤسائها وكتاب دواوينها وصادف ذلك أن وقع الشر العظيم من القرامطة بالحجاج فتضاعفت المصائب على أهل بغداد رؤساهم تقتل وحجاجهم تنهب وتموت عطشاً ولا مدافع ولا محام فكثر الإرجاف على ابن الفرات وأخيراً صدر الأمر بالقبض عليه من ثامن ربيع الأول سنة ٣١٢ بعد أن استقر في هذه الوزارة الأخيرة عشرة أشهر وثمانية عشر يوماً فقبض عليه ثم قبض على ابنه المحسن وتولى الوزارة.

عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان:

بعد أن تكفل بمصادرة ابن الفرات بألفي ألف دينارفكان ذلك سبباً لتضييقه على ابن الفرات وولده ثم عذب المحسن بأنواع العذاب ليجيب إلى مصادرة يبذلها فلم يجبهم إلى دينار واحد وقال لا أجمع لكم بين نفسي ومالي واشتد عليه العذاب بحيث امتنع عن الطعام والشراب فلما علم بذلك المقتدر أمر بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة ثم اتفق رجال الحاشية على قتلهما فذبحوهما كما تذبح الغنم وكان عمر ابن الفرات حين قتل ٧١ سنة وعمر ولده المحسن ٣٣ سنة وكان ابن الفرات يقول إن المقتدر يقتلني. عاد يوماً وهو مفكر كثير الهم فقيل له في ذلك فقال كنت عند أمير المؤمنين فما خاطبته في شيء من الأشياء إلا قال لي نعم فقلت له الشيء وضده ففي كل ذلك يقول نعم فقيل له هذا لحسن ظنه بك وثقته بما تقول فقال لا والله ولكنه أذن لكل قائل وما يؤمنني أن يقال له يقتل الوزير فيقول نعم والله إنه قاتلي. وكان ابن الفرات كريماً ذا رياسة وكفاية في عمل حسن السؤال والجواب ولم يكن له إلا ولده المحسن.

لم يكن الوزير الخاقاني بأحسن حظاً من غيره من الوزراء فقد وجد من يساوم عليه فرفع إلى المقتدر رقعة من أبي العباس الخصيبي يذكر معايبه ومعايب ابنه عبد الوهاب وعجزهما وضياع الأموال وطمع العمال ثم إن الوزير مرض فوقفت الأموال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل إليه المقتدر في ذلك فلم يقدر على شيء فعزل في رمضان سنة ٣١٣ وولي الوزارة.

أبو العباس الخصيبي:

وكان هذا الوزير الجديد لا يصلح لعمل فإنه كان شروباً فكان يصبح سكراناً لا قصد فيه لعمل وسماع حديث وكان يترك الكتب الواردة للدواوين لا يطالعها إلا بعد مدة ويهمل الأجوبة عنها فضاعفت الأموال وماتت المصالح ثم إنه لضجره وتبرمه بها وبغيرها من الأشغال وكل الأمور لنوابه وأهمل الاطلاع عليهم فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم ولما ظهر هذا الاختلال أشير على المقتدر بعزله وولاية علي بن عيسى فقبض عليه في ذي القعدة سنة ٣١٤ بعد وزارة مدتها سنة وشهران وأخذ ابنه وأصحابه فحبسوا واستدعى علي بن عيسى من مكة وكان بها مقيماً ليدبر أمر الوزارة وأمر عبيد الله بن محمد الكلوذاني بالنيابة عن علي بن عيسى إلى أن يحضر فسار علي بن عيسى فحضر بغداد في أول سنة ٣١٥ وبه صلحت الأموال نوعاً وكان من أقوم الأسباب في ذلك أن الخصيبي كان قد اجتمع عنده المصادرين وكفالات من كفل منهم وضمانات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب فنظر فيها علي وأرسل في طلب تلك الأموال فأقبلت إليه شيئاً بعد شيء فأدى الأرزاق وأخرج العطاء وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح ومن أولاد المرتزقة من هو في المهد فإن آباءهم أثبتوا أسماءهم ومن أرزاق المغنيين والمساخرة والندماء وغيرهم وتولى الأعمال بنفسه ليلاً ونهاراً واستعمل العمال في الولايات واختار الكفاة ومع ما أظهره من الهمة وظهر على يده من الصلاح لم يكن ممن يعجب حاشية المقتدر لأنه كان يرى أن الإصلاح لا يكون إلا مع الاقتصاد في النفقة ونفقة الخدم والحرم ولا سيما أم المقتدر كانت هائلة فلا بد من الاقتصاد فيها ولما علموا بذلك شرعوا يشون به فلما أحس على بذلك استعفي من الوزارة واحتج بالشيخوخة وقلة النهضة فأمره

المقتدر بالصبر وقال أنت عندي بمنزلة وادي المعتضد فألح في ذلك ومع أن الرجل كان يستقيل ليخرج من هذه المضايق بسلام أبي سوء الحال في تلك الأزمنة وتغلب النساء والحاشية أن ينيله هذه الراحة في خروجه فأمر المقتدر في منتصف ربيع الأول سنة ٣١٦ بالقبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمن وولي الوزارة.

أبو علي بن مقلة:

وكما كانت لأبي علي يد ماهرة في الكتابة حتى ضرب بها المثل كانت ماهرة في أخذ الرشاء على التولية والعزل وكان بينه وبين أكبر القواد مؤنس المظفر مودة فلذلك كان يثبت قدمه كلما قاربها الزلل حتى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس فدعا ذلك إلى عزل ابن مقلة في آخر جمادي الأولى سنة ٣١٨ وقبض عليه بعد سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام واستوزر.

سليمان بن الحسن:

ولما لم يكن المقتدر ميالا لسليمان وإنما رضيه تبعاً لرأي مؤنس أمر علي بن عيسى بالاطلاع على الدواوين وأن لا ينفرد عنه سليمان بشيء وصودر ابن مقلة بمائتي ألف دينار.

لم تطل هذه الوزارة كثيراً لأن الأحوال ضاقت على سليمان: كثرت عليه المطالبات ووقفت وظائف السلطان واتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعاية والضمان بالقيام بالوظائف وأرزاق الجند وغير ذلك. وكانت وزارته غير متمكنة لأن علي بن عيسى كان معه على الدواوين وسائر الأمور وأفرد علي بن عيسى بالنظر في المظالم واستعمل على ديوان السواد غيره فانقطعت مواد الوزير فإنه كان يقيم من قبله من يشتري توقيعات أرزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ما هم عليه من الخدم فكان يعطيهم نصف المبلغ وكذلك إدرارات الفقهاء وأرباب البيوت فكانت أحواله رديئة وأدى ذلك إلى القبض عليه لثلاث بقين من رجب سنة ٣١٩ بعد سنة وشهرين واستوزر.

أبو القاسم الكلوذاني:

ولم تكن وزارته أيضاً عن رغبة المقتدر بل عن رأي مؤنس وقد حصلت حوادث غريبة الشكل تبين لنا ما كان عليه المقتدر من الجهل والغباوة وذلك أنه كان ببغداد إنسان يعرف بالدانيالي وكان زواقاً ذكياً محتالاً وكان يعتق الكاغد ويكتب فيه بخطه ما يشبه الخط العتيق ويذكر فيه إشارات ورموزاً يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة فيحصل له بذلك رفق كثير. توصل إلى الحسين بن القاسم حتى جعل اسمه في كتاب ووضعه وعتقه وذكر فيه علامات وجهه وما فيه من الآثار ويقول إنه يوزر للخليفة الثامن عشر من بني العباس وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعادي وتتغمر الدنيا في أيامه وجعل هذا كله في جملة كتاب فيه ذكر حوادث وقعت وأشياء لم تقع بعد ونسب ذلك إلى دانيال وعتق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح الأسود فأخذ الكتاب وأحضره للمقتدر فقال له أتعرف في الكتاب من هو على هذه الصفة فقال ما أعرف إلا الحسين بن القاسم فقال المقتدر صدقت وإن قلبي ليميل إليه فإن جاءك رسول برقعة منه فأعرضها علي واكتم حاله ولا تطلع على أمره أحداً وذهب الدانيالي إلى الحسين وعرفه الخبر فكتب رقعة إلى مفلح فأوصلها إلى المقتدر وفيها يطلب الوزارة وضمن أنه يقوم بالنفقات من غير أن يطلب شيئاً من بيت المال الخاص فعزل الكلوذاني في رمضان سنة ٣١٩ بعد شهرين وثلاثة أيام وتولاها:

الحسين بن القاسم:

ولما جاء لم يكن من أهل الوزارة ولا من ذوي التدبير فضاقت عليه الأحوال وكثرت الإخراجات فاستسلف جملة وافرة واطلع المقتدر على اضطرابه فعزله في ربيع الآخر سنة ٣٢٠ بعد سبعة أشهر واستوزر.

أبا الفتح الفضل بن حجر هو آخر وزرائه:

تولى الوزارة في عهد المقتدر اثنا عشر وزيراً ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثاً وكانت تنال بالرشوة ودخل في أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ولم يكن الصالح منهم يبقى في العمل كثيراً لأن مدار طول المدة كان على رضا أم المقتدر وقهرمانته وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون إلا إذا حوبوا بالأموال الكثيرة

التي بها تفسد المالية وتختل موازنتها فمتى حصل التقصير في ذلك وقدم رجل آخر شوة فسرعان ما يقبض على الأول ويصادر ويعين الثاني وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها حتى لم يكن لها في نظر العامة ولا في نظر متغلبي الأطراف حرمة. وليس ذلك كل ما أسقط أمر الدولة في عهد المقتدر بل أضيف إلى ذلك قوة القرامطة وما كان منهم من الإخلال بالأمن في العراق والحجاز.

أمر القرامطة:

كان رئيس القرامطة بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي فقتل سنة ٣٠١ بعد أن استولى على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين فولي بعده ابنه أبو طاهر سليمان الجنابي وكانت له غزوات متتابعة إلى جهة البصرة يريد الاستيلاء عليها وأشد غزواته لها سنة ٣١١ فإنه سار إليها في ألف وسبعمائة من القرامطة ودخلها وقتل حاميتها ووضع السيف في أهلها وأقام بها سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان ثم عاد إلى بلده ومنها توجه إلى طريق الحاج ليلقاهم عند رجوعهم إلى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم فنهبهم واتصل الخبر بباقي الحاج وهم بفيد فأقاموا بها حتى فني زادهم فارتحلوا مسرعين إلى طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة وأخذوا جمال الحجاج جميعها وما أرادوا من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان ثم عاد الجنابي إلى هجر وترك الحاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً من حر الشمس فانقلبت بغداد من سوء تأثير هذا الخبر وكان وصوله في الوقت الذي قتل فيه المحسن بن الفرات من قتل من المصادرين فازدوجت المصيبة وكان ابن الفرات يتهم بالتشيع فذكر بكل قبيح على ألسنتهم.

اضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فأطلقهم وطلب ولاية البصرة والأهواز فلم يجبه المقتدر فسار من هجر يريد الحاج وكان جعفر بن ورقاء الشيباني متقلداً أعمال الكوفة وطريق مكة فلما سار الحاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفاً من أبي طاهر ومعه ألف رجل

من بني شيبان وسار معهم أيضاً قواد السلطان ومعهم ستة آلاف رجل فلقي أبو طاهر القرمطي جعفراً الشيباني فقاتله جعفر فبينما هو يقاتله إذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه فانهزم من بين أيديهم فلقي القافلة الأولى فردها إلى الكوفة ومعها عسكر الخليفة وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة ودخل أبو طاهر الكوفة وأقام ستة أيام بظاهرها يدخل البلد نهاراً فيقيم في الجامع إلى الليل ثم يخرج فيبيت في عسكره وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك ثم عاد إلى هجر وكان أهل بغداد قد خافوا أن يهجم القرامطة عليهم.

وفي سنة ٣١٥ سار أبو طاهر نحو الكوفة فأمر المقتدريوسف بن أبي الساج أن يسير إليها لحمايتها من القرامطة وقد أعد له بالكوفة الأنزال له ولعسكره فسبقه إليها أبو طاهر واستولى على كل هذه المؤن وكانت شيئاً كثيراً ووصل يوسف بعد أبي طاهر بيوم واحد فلما وصل أرسل إلى القرامطة يوم الجمعة يدعوهم إلى طاعة المقتدر فإن أبوا فموعدهم الحرب يوم الأحد فقالوا لا طاعة علينا إلا لله والموعد بيننا للحرب بكرة غد فلما كان الغد رأى يوسف قلة القرامطة فاحتقرهم وقال إن هؤلاء الكلاب لا بقاء لهم بعد ساعة في يدي وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل اللقاء تهاونا بهم ثم زحف الناس بعضهم إلى بعض واستمر القتال إلى غروب الشمس فلما رأى أبو طاهر ذلك باشر الحرب بنفسه ومعه جماعة يثق بهم وحمل بهم فطحن أصحاب يوسف ودقهم فانهزموا بين يديه وأسر يوسف وعدد كثير من أصحابه وورد الخبر بذلك إلى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفاً شديداً وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان وجاء المنهزمون من وقعة الكوفة إلى بغداد ووصل الخبر بأن القرامطة قد ساروا إلى عين التمر فأنفذ من بغداد خمسمائة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم من عبور الفرات وسير جماعة من الجيش إلى الأنبار لحفظها ومنع القرامطة من العبور هنالك. ثم إن القرامطة قصدوا الأنبار ولما وصلوها نزلوا غربي الفرات لأن أهل الأنبار كانوا قد قطعوا الجسر ثم أنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة فجاءوه بسفن عقدها وعبر عليها نحو ثلثمائة من أصحابه فقاتلوا

عسكر الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة واستولوا على مدينة الأنبار وعقدوا الجسر وعبر عليه أبو طاهر ولكنه خلف عظم جيشه في البر الغربي ولما ورد الخبر بعبور أبي طاهر إلى الأنبار خرج نصر الحاجب بجيش جرار فلحق بمؤنس فلحق المظفر فاجتمعا في نيف وأربعين ألف مقاتل وكان هذا الجيش مضطرباً في مسيره قد تمكن الخوف من قلب أجناده وكان يمكنهم لو دبروا جيشهم تدبيراً حسنا أن يأخذوا أبا طاهر الذي كان قد عبر وترك جنده ولكنهم تهاونوا حتى عاد إلى جيشه ثم اقتطع مؤنس من الجيش نحو ستة آلاف أمرهم بالعبور ليغنموا معسكر القرامطة ويخلصوا يوسف ابن أبي الساج ففشلوا وانهزموا أمام شجاعة القرامطة وكانت نتيجة ذلك أن أمر أبو طاهر بقتل يوسف وجميع الاسرى وكانت عدة القرامطة في هذه الخرجة ٢٧٠٠ ولما علم المقتدر بعدة عسكره وعدة القرامطة قال لعن اللّه نيفاً وثمانين ألفا يعجوزن عن ٢٧٠٠ وجاء إنسان إلى علي بن عيسى الوزير وأخبره أن في جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالأخبار فأحضره وسأله فاعترف وقال ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندي أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم ولا بد للّه من حجة في أرضه وإمامنا المهدي محمد ابن فلان ابن فلان ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ولسنا كالرافضة والاثنا عشرية الذين يقولون بجهلهم إن لهم إماماً ينتظرونه ويكذب بعضهم البعض فيقول قد رأيته وسمعته وهو يقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطي من العمر ما يظنونه. فقال الوزير قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك فقال وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع مني أن أسلم قوماً مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم لا أفعل ذلك فأمره فضرب ضرباً شديداً ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاث أيام.

أما أبو طاهر فإنه سار من الأنبار وعثى في أرض الجزيرة نهباً وقتلا إلا من اعتصم منه بالأمان والفدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثراً وتخاف أن تقدم عليه فلما تم له ما أراد من الجزيرة عاد إلى الكوفة ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد أن أخافوا السبل وأهلكوا العدد الجم.

وكانت هذه الانتصارات سبباً في ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفاً فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلا يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها في جمع كثير وولوا أمرهم رجلا يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون إلى المهدي وسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان على السواد وسار حريث إلى أعمال الموفق وبنى بها داراً سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه ينتهبون ويتقلون ويسبون. فأرسل المقتدر إلى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب وإلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافيا البصري فأوقع كل منهما بمن أرسل إليه من القرامطة وأسر منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسر وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) فأدخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من بالسواد منهم وكفى اللّٰه الناس شرهم وإن كان كل ذلك مما يعجل بخراب القرى وإتلاف المزارع.

وفي سنة ٣١٧ فعل أبو طاهر ما هو أشنع وأدهى وذلك أنه سار بجنده إلى مكة فوافاها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام، بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف فسألوه في أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلى على أحد منهم وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة. ولم يحصل في التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت إلى هذا الحد حتى أن المهدي عبيد اللّٰه العلوي لما علم ذلك كتب إلى أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا

والآخرة ولما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده وقال إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم.

المتغلبون وما كان منهم:

في عهد المقتدر اشتد سلطان المتغلبين بأطراف المملكة وهذه نتيجة طبيعية لما أصاب الدولة من الخلل.

ففي الأندلس قام رجل الدولة الأموية عبد الرحمن الناصر وتسمى باسم أمير المؤمنين لأنه لم يعد هناك ما يراعيه رجال الدولة الأموية من أمر الخلافة الإسلامية ببغداد لانحطاط شأنها ولعب الفساد بها وخيانة الوزراء فيها وكان عبد الرحمن قد مكنه عقله الواسع وفكره الثاقب من العلو وبعد الصيت حتى رهبته ملوك الإفرنجة والروم وهادوه وأرسلوا إليه السفراء وكذلك فعل هو معهم.

وفي أفريقية قامت الدولة العلوية ومحت في طريق غلبتها دولة الأدارسة من المغرب الأقصى والأغالبة من أفريقية وجعلت مقرها مدينة المهدية التي أسسها عبيد الله المهدي بالقرب من القيروان وكانت همته بعد ذلك موجهة إلى الاستيلاء على مصر فكان يناوشها بالجنود ولكنه لم يتهيأ له الاستيلاء عليها.

وفي البحرين وما صاقبها اتسع سلطان القرامطة واستقلوا بملك تلك البلاد وكانت العراق دائما على خوف مستمر منهم وقطعوا طريق الحج حتى كان حجاج العراق قد اتخذوا لهم طريقاً آخر إلى مكة على الموصل ثم الشام ثم مكة.

وفي خارسان وما وراء النهر استقر ملك الدولة السامانية وكان الديلم يناوشونها من وقت لآخر كما سيأتي في تاريخهم.

وفي الموصل ابتدأت دولة آل حمدان ولكن لم يتمكن سلطانهم في عهد المقتدر أما ما فعله الروم بثغور المسلمين في هذا العهد فهو في غاية الشنعة ففي سنة ٣٠٣ أغاروا على الثغورالجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم ولم يكن أمام الروم من الجيوش من يصدهم لأنهم كانوا مشغولين برتق الفتوق الداخلية التي كانت متوالية.

وفي سنة ٣٠٥ وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء فأكرما إكراماً كثيراً وأدخلا على الوزير وهو في أكمل أبهة وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة فأديا الرسالة ثم أنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة فأجابهما المقتدر إلى طلب ملك الروم من الفداء وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه وسير معه جمعاً من الجنود أطلق لهم أرزاقاً واسعة وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين وسار مؤنس والرسل وكان الفداء على يديه.

ولم يدم هذا الصفاء طويلا بل عادت الحروب والغارات من الطرفين وكانت سجالا وكلما كان يجتمع عند الطرفين أسرى يحصل الفداء كالعادة.

وفي سنة ٣١٣ كتب ملك الروم إلى أهل الثغور الإسلامية يأمرهم بحمل الخراج إليه فان فعلوا وإلا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرية وقال إنني صح عندي ضعف ولا تكم فلم يفعلوا فسار إليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية سنة ٣١٤ فأخربها وسبى منها ونهب وأقام فيها ستة عشر يوماً ولما رأى أهل ملطية ما حل بقراهم من التخريب قصدوا بغداد مستغيثين فلم يغاثوا وعادوا بغير فائدة.

وفي سنة ٣١٥ خرجت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم فوقع عليها العدو أسروا من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبرا. وفيها سار الدمستق في جيش عظيم من الروم إلى مدينة ديبل وهي قاعدة أرمينية وكان معه دبابات ومجانيق ومعه مزارق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد من شدة النار فكان ذلك أشد شيء على المسلمين حتى أصيب الرامي بسهم من سهام المسلمين فخفت الشدة وكان الدمستق يجلس على كرسي عال يشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على ما يراه فصبر لهم المسلمون حتى وصلوا إلى سور المدينة فنقبوا فيها نقوباً كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً حتى أخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم عشرة آلاف قتيل. وكانت هذه السنة سنة نجاح المسلمين على الروم.

وفي سنة ٣١٩ اشتدت وطأة المسلمين على الروم وغزوا بلادهم حتى بلغوا عمورية وأنقرة والفضل في ذلك كله يرجع إلى قائد عظيم من غلمان المقتدر اسمه ثمل وكان والي الثغور فأمكنه بما أوقعه من الرعب في قلوب أعدائه أن يستعيد بعض الهيبة للدولة بعد أن كادت تذهب من صدر الروم بمرة.

وعلى الجملة فكانت خلافة المقتدر في جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية لأنه حكم فيها النساء والخدم وبذر في الأموال تبذيراً مفظعاً وكان يعزل الوزراء ويولي غيرهم بما يقدم من الرشاء له ولأمه ولقهرمانته ولخدمه ولا يأخذ الوزارة بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليحصل على ما دفعه فكان جل هم الكثير منهم أن يسد حاجته أولا ثم حاجة من ولاه، لا يسألون أجاءت تلك الأموال من ظلم أو عدل؟ وهكذا نهاية الفساد في الدولة وهو المؤذن بخرابها واضمحلالها.

قتل المقتدر:

كان في دولة المقتدر قائدان هما في أرفع الدرجات أولهما مؤنس المظفر وهو القائد العام للجيوش وعليه المعول في تسييرها ويليه في المرتبة محمد بن ياقوت وكان بينهما شيء من المنافسة.

ففي سنة ٣١٩ قوي أمر محمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة وضم إليه رجال فقوي بهم فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة وقال هذا شغل لا يجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول فأجابه المقتدر وصرف محمداً عن الحسبة وصرف ابنه عن الشرطة وأبعدهما عن الحضرة فأخرجا إلى المدائن حسبما طلبه مؤنس وولي بدلهما إبراهيم بن رائق وأخاه محمداً الحسبة والشرطة وهذا كان بدء الوحشة بين المقتدر ومؤنس ومتى وجدت الوحشة ساءت الظنون وكان للوهم في النفوس أكبر الآثار.

بلغ مؤنساً أن الوزير الحسين بن القاسم قد وافق جماعة من القواد في التدبير عليه فتنكر له مؤنس وطلب من المقتدر عزله ومصادرته فأجاب إلى عزله ولم يصادره فلم يقنع مؤنس بذلك فبقي الحسين في الوزارة وكتب إلى هرون بن

غريب أحد القواد وهو بدير العاقول أن يحضر إلى بغداد وكذلك كتب إلى محمد بن ياقوت يستقدمه فزادت الوحشة عن مؤنس وصح عنده أن الحسين يسعى في التدبيرعليه ثم صح عنده أنه قد جمع الرجال والغلمان الحجرية في دار الخليفة فأظهر الغضب وذهب نحو الموصل وأرسل غلاماً له إلى المقتدر برسالة فطلب الوزير منه أن يسلمها إليه فأبى فسبه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلثمائة ألف دينار وأخذ خطه بها وحبسه ونهب داره فلما بلغ مؤنساً الخبر سار نحو الموصل في أصحابه ومماليكه وتقدم الوزير بقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه فحصل من ذلك مال عظيم وزاد في محل الوزير عند المقتدر فلقبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدينار والدرهم وتمكن من الوزارة وولي وعزل.

أما مؤنس فانه استولى على الموصل من يدبني حمدان واستولى على أموالهم وديارهم وخرج إليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لإحسانه كان إليهم وعاد إليه ناصر الدولة بن حمدان فصار معه. فلما اجتمعت إليه العساكر انحدر إلى بغداد في شوالسنة ٣٢٠ فلما بلغ خبره جند بغداد شغبوا وطلبوا أرزاقهم ففرق المقتدر فيهم مالا عظيماً إلا أنه لم يشبعهم وسير العساكر لمقابلة مؤنس في طريقه فلم يقدروا على رده فجاء حتى نزل بباب الشماسية فحل الخوف في قلب المقتدر وجنده وكان يريد ترك بغداد لمؤنس والرحيل إلى واسط فرده عن ذلك محمد بن ياقوت وزين له اللقاء وقوي نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم إليه فرجع إلى قوله وهو كاره ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل بعيد من المعركة فأرسل قواد أصحابه إليه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى وهو لا يريم مكانه فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل وصوله إليهم فلقيه علي بن بليق من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الأرض وقال له أين تمضي ارجع فلعن اللّه من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر فشهروا عليه سيوفهم وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم ثم رفعوا رأسه على خشبة

وهم يكبرون ويلعنونه وأخذ جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوفاً إلى أن مر به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل ٢٨ سنة ثم تقدم مؤنس وأنفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب.

١٩ ـ القاهر

هو أبو محمد بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد بربرية اسمها قتول وبويع بالخلافة يوم أن قتل المقتدر في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) ولم يزل خليفة حتى خلع في ٥ جمادي الأولى سنة ٣٢٢ (٢٣ إبريل سنة ٩٣٤) فكانت مدته سنة وستة أشهر وستة أيام.

ومعاصروه من الملوك والمتغلبين هم معاصرو المقتدر ما عدا أحمد بن إسماعيل الساماني

كيف انتخب:

لما قتل المقتدر كان من رأي مؤنس إقامة ولد أبي العباس أحمد وقال إنه تربيتي وهو صبي عاقل وفيه دين وكرم ووفاء بما يقول فإذا جلس للخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر وإخوته وغلمان أبيه ببذل المال ولم ينتطح في قتل المقتدر عنزان فاعترض عليه أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبختي وقال بعد الكد والتعب استرحْنا من خليفة له أم وخالة وخدم يديرونه فنعود إلى تلك الحال والله لا نرضي إلا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا وما زال بمؤنس حتى رده عن رأيه وذكر له محمد بن المعتضد وهو أخو المكتفي فأجابه إليه على كره منه فإنه كان يقول إني عارف بشره وسوء نيته ولكنه لا حيلة. فبايعوه واستخلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلي بن بليق وأخذوا خطه بذلك استقرت له الخلافة وبايعه الناس واستوزر أبا علي بن مقلة واستحجب علي بن بليق.

الحال في عهد القاهرة:

كان القاهر كما قال مؤنس شريراً خبيث النية فإنه في أول خلافته اشتغل بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه واشتغل بمناظرة أم المقتدر وكانت مريضة قد ابتدأ بها داء الاستسقاء وقد زاد مرضها بقتل ابنها ولما سمعت أنه بقي مكشوفاً جزعت جزعاً شديداً وامتنعت من الأكل والشرب حتى كادت تهلك فوعظها النساء حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح. أحضرها القاهر عنده وهي على تلك الحال من المرض والجزع وسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشيء من المال والجوهر فضربها أشد ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه وقالت لو كان عندي مال لما أسلمت ولدي للقتل ولم تعترف بشيء ثم أخرجها على تلك الحال لتشهد على نفسها القضاة والعدول أنها قد حلت أوقافها ووكلت في بيعها فامتنعت من ذلك وقالت قد وقفتها على أبواب البر والقرب بمكة والمدينة والثغور وعلى الضعفاء والمساكين ولا أستحل حلها ولا بيعها وإنما أوكل في بيع أملاكي فلما علم القاهر بذلك أحضر القاضي والعدول وأشهدهم على نفسه أنه قد حل أوقافها جميعها ووكل في بيعها فبيع ذلك جميعه مع غيره واشتراه الجند من أرزاقهم ثم صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته ولم نسمع في التاريخ ما يقارب فعل القاهر نذالة وجبنا وخسة وشراهة نفس.

بعد قتل المقتدر هرب كبار معينيه وخاصة محمد بن ياقوت وابنا رائق وهارون ابن غريب ومفلح وعبد الواحد بن المقتدر فلما صاروا بواسط أرسل هارون بن غريب يطلب الأمان لنفسه ويبذل مصادرة ثلثمائة ألف دينار وعلى أن تطلق له أملاكه فأجيب إلى طلبه وظل رفقاؤه سائرين إلى السوس وسوق الأهواز فأقاموا بالأهواز وطردوا عماله فجهز إليهم مؤنس جيشاً أخرجهم منها ثم طلبوا إليه الأمان فأمنهم وتوجهوا معه إلى بغداد ومعهم محمد بن ياقوت فتقدم عند القاهر وعلت منزلته وصار يخلو به ويشاوره فغلظ ذلك على الوزير مؤنس المظفر وبليق الحاجب وابنه لأنهم ما حاربوا المقتدر إلا من أجله وثبت عندهم أن محمد بن ياقوت يدبر عليهم فاستوحشوا من القاهر وضيقوا عليه وأمر مؤنس بتفتيش

كل من يدخل الدار ونقل من كان محبوساً بدار الخلافة كوالدة المقتدر التي اشتد عليها المرض مما نالها من الضرب علم القاهر أن العتاب لا يفيد فأخذ في التدبير على القوم الذين أجلسوه هذا المجلس وكان اعتماد مؤنس على العساكر الساجية فأفسد القاهر قلوبهم عليه وأغراهم بمؤنس وأغرى كاتب ابن مقلة به ووعده الوزارة محلة فكان يكاتب القاهرة بجميع الأخبار.

أما هؤلاء الخصوم فاتفقوا على خلع القاهر وتحالفوا على ذلك ولكنهم لم يبدوا شيئاً من الحكمة أمام مكر القاهر ودهائه فرأى الوزير أن يظهروا أن أبا طاهر القرمطي ورد الكوفة وأن علي بن بليق صائر إليه ليمنعها منه فإذا دخل على القاهر يودعه قبض عليه فكتب ابن مقلة إلى الخليفة بما اتفقوا على إخباره به ولكن لم يتم ذلك لأن الخبر جاء القاهر سراً بما دبر عليه فاحتاط لنفسه وأنفذ إلى الساجية فأحضرهم وفرقهم في دهاليز الدار مستخفين فلما جاء ابن بليق وطلب الإذن لم يؤذن له ورد رداً قبيحاً من الساجية فخرج هارباً من الدار وعلم بليق بما جرى على ابنه فاحتد وقال لا بد من المضي إلى دار الخليفة حتى أعلم سبب ما فعل بابني فذهب هو وجميع القواد الذين بدار مؤنس فلما حضر أمر القاهر فقبض عليه وقبض كذلك على أحمد بن زيرك صاحب الشرطة ثم أرسل إلى مؤنس في داره من أحضره بالحيلة وكان قد استولى عليه الضعف والكبر فلما حضر الدار أمر بالقبض عليه واختفى الوزير ابن مقلة وأمر القاهر بالختم على دور مؤنس وبليق وابنه علي وابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هارون ونقل دوابهم ووكل بحرمهم وأمر بإحراق دار ابن مقلة فأحرقت وظهر محمد ياقوت فولي الحجبة.

ولما تمكن القاهر من هؤلاء الأعداء وضبطهم بداره أمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ورأى الناس من شدة القاهر ما علموا معه أنهم لا يسلمون من يده وندم كل من أعانه من الجنود حيث لم ينفعهم الندم.

ومن الغريب أن القاهر بعد أن تم له ما أراد أمر بالقبض على أكبر رجل ساعده وهو طريف السبكري الذي كان من قواد مؤنس فخانه.

بقي من أعـداء القاهـر الوزيـر ابن مقلة فإنـه كان مستتـراً لم يظهـر عليـه وكذلك الحسن بن هارون فكانا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويخـوفانهم من شر القاهر ويذكران لهم غدره ونكثه مرة بعد مـرة وكان ابن مقلة يجتمـع بالقـواد ليلا تارة في زي أعمى وتارة في زي مكد وتارة في زي امرأة ويغريهم به حتى ملأ صدورهم فاتفقوا على خلعه وزحفوا إلى الدار وهجموا عليهـا من سائـر الأبواب فلما سمـع القاهـر الأصوات والجلبـة استيقظ مخموراً وطلب بـابا يهـرب منه فلم يجده فقبضوا عليه وحبسوه ثم سملوا عينيه وبذلـك انتهت مدتـه وكانت جـامعة للمعايب والقبائح ، ومن ذلك عدا ما تقدم ذكره أنـه أمر بتحـريم الخمر والغنـاء وسائر الأنبذة وأما الجـواري والمغنيات فـأمر ببيعهن عـلى أنهن سواذج لا يعـرفن الغنـاء ثم بدالـه أن يشتري كـل حاذقـة في صنعة الغنـاء فاشتـرى منهن مـا أراد بأرخص الأثمان وكان القاهـر مشتهراً بـالغناء والسمـاع فجعل ذلـك طريقـاً إلى تحصيل غرضه رخيصاً نعوذ بالله من هـذه الأخلاق التي لا يـرضاهـا العامـة من الناس .

٢٠ - الراضي

هو أبو العباس أحمد المقتدر بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد اسمها ظلوم ولد سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بعد خلع القاهر في ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ (٢٣ إبريل سنة ٩٣٤) ولم يزل خليفة إلى أن توفي في منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ (٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) فكانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.

كيف انتخب:

لما قبض على القاهر سأل القواد الخدم عن المكان الذي فيه أبو العباس بن المقتدر فدلوهم عليه وكان هو ووالدته محبوسين فقصدوه وفتحوا عليه ودخلوا فسلموا عليه بالخلافة وأجلسوه على السرير يوم الأربعاء لست خلون من جمادي الأولى ولقبوه الراضي وبايعه القواد.

الحال في عهده:

كانت الحال تزيد إدباراً واضطراباً في عهده فأصحاب السلطان في العراق يتنافسون ويقتتلون والذين يحيطون بهم من المتغلبين يجدون ويجتهدون فدولة الأندلس زهت وعظمت بهمة الرجل العظيم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الذي أعلن في بلاده أنه أمير المؤمنين بعد أن لم يكن سلفه يتسمون بذلك وإنما كانوا يسمون بالأئمة. والدولة العبيدية في المغرب والمهدية قد اشتدت وطأتها وهي آخذة في العلو وتحاول الاستيلاء على مصر. وبنو بويه ظهروا واستولوا على كثير من بلاد الجبال والأهواز. والروم انتهزوا هذه الفرص لاقتطاع البلاد

الإسلامية وغزوا الثغور وأهل بغداد مع هذا كله مشغولون بأنفسهم ومتكالبون على ما في أيديهم من البلاد العراقية كما ترى.

كانت الكلمة العليا في أول عهد الراضي لوزيره ابن مقلة وحاجبه محمد بن ياقوت فهما اللذان بأيديهما الحل والعقد في البلاد. في سنة ٣٢٣ نظر ابن مقلة فوجد محمد بن ياقوت قد تحكم في البلاد بأسرها وأنه هو لم يعد بيده شيء فسعى به إلى الراضي وأدام السعاية فبلغ ما أراد ففي خامس جمادى الأولى ركب جميع القواد إلى دار الخليفة حسب عادتهم وحضر الوزير ومحمد بن ياقوت ومعه كاتبه فأمر الخليفة بالقبض عليه وعلى أخيه المظفر بن ياقوت وحبسهما وقد مات محمد في الحبس ثم أطلق المظفر بعد أن أخذ عليه ابن مقلة العهد أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه. ظن ابن مقلة أن الوقت قد صفا له بحبس ابني ياقوت وأنه لم يعد له منافس في سلطانه ولكنه غفل عن المظفر الذي أطلقه من السجن بعد موت أخيه محمد فإن المظفر كان يظن أن ابن مقلة سم أخاه فكان لذلك يتحين الفرصة للقبض عليه فاتفق مع الجنود الحجرية أن يقبضوا على ابن مقلة فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الراضي يعلمونه فاستحسن فعلهم وطلبوا من الخليفة أن يعين وزيراً فردالاختيار إليهم فاختاروا للوزارة علي بن عيسى وعرضوها عليه فامتنع وأشار بوزارة أخيه عبد الرحمن فاستوزره الراضي وسلم إليه ابن مقلة فصادره.

رأى عبد الرحمن أنه لا يمكنه إدارة الحركة لازدياد الفساد فاستعفى فلم يقبل الراضي منه وقبض عليه وصادره على سبعين ألف دينار وصادر أخاه عليا على مائة ألف.

واستوزر بعده أبا جعفر الكرخي فرأى قلة الأموال وانقطاع المواد فازداد عجزا إلى عجزه وضاق عليه الأمر وما زالت الإضافة تزيد وطمع من بين يديه من العالمين فيما عنده من الأموال وقطع محمد بن رائق والي البصرة ما كان يحمل من البصرة وواسط إلى بغداد وقطع البريدي والى الأهواز ما كان يحمل من الأهواز وأعمالها وكان ابن بويه قد تغلب على فارس فتحير أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونقصت هيبته واستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته فلما

استتر استوزر الراضي أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان في الوزارة كأبي جعفر في وقوف الحال وقلة المال.

ولما رأى الراضي ذلك اضطرته الحال لمراسلة محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد فحضر مسرعا فقلده الراضي لقب أمير الأمراء وولاه الخراج والمعاون في جميع البلاد والدواوين وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر وأنفذ إليه الخلع فانتقل السلطان ببغداد إليه ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور وإنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمور جميعها وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون وبطلت بيوت الأموال وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم.

كتب ابن رائق كتاباً عن الراضي إلى أبي الفتح جعفر بن الفرات يستدعيه ليجعله وزيراً وكان يتولى الخراج بمصر والشام وظن ابن رائق أنه إذا استوزره جبى له أموال الشام ومصر فقدم بغداد ونفذت له الخلع قبل وصوله فلقيته بهيت فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعاً.

فكر ابن رائق فيما بيد أبي عبد الله البريدي من بلاد الأهواز وأشار على الراضي بالانحدار معه إلى واسط ليقرب من الأهواز ويراسل البريدي فإن أجاب إلى ما يطلب منه وإلا قرب قصده عليه فأجاب الراضي وانحدر معه إلى واسط ثم تهيأ للمسير إلى الأهواز ولما علم بذلك البريدي جدد ضمان الأهواز كل سنة بثلثمائة وستين ألف دينار يحمل كل شهر قسطه فأجاب الراضي إلى ذلك وعاد إلى بغداد ولكن البريدي لم يحمل مما ضمن ولا ديناراً واحداً.

رأى ابن رائق استفحال قوة البريدي وعدم التمكن من قهره ففكر في أنه يستوزره فكتب إليه بذلك وطلب منه أن يرسل نائباً عنه في الوزارة فأجاب وأرسل أحمد بن علي الكوفي نائباً عنه فسارت أمور البريد ببغداد على ما يروق

وضمت البصرة التي كانت في يد ابن رائق إلى أبي يوسف بن البريدي أخي أبي عبد الله فصار بيد البريد بين الأهواز والبصرة وأرسل إلى البصرة جندا للاستيلاء عليها وكان ذلك سبباً لتجدد الوحشة بين ابن رائق والبريدي حيث رأى الأول أنه زاد البريدي سلطاناً على سلطانه بما أخذ من البصرة ولم يمكنه أن يعمل معه شيئاً ما ففكر أن يرسل جنداً إلى الأهواز لقتال البريدي فاختار رجلين لقيادة الجند أحدهما بدر الخرشني والثاني بجكم الديلمي فسار بجكم بالجند إلى السوس واستولى عليه بمن معه من الأتراك والديالمة ثم أخذ تستر ولما رأى ذلك أبو عبد الله البريدي ركب هو وإخوته ومن يلزمه السفن، وأخذ معه ما يبقى من الأموال و ٣٠٠ ألف درهم فغرقت السفينة بهم فأخرجهم الغواصون وقد كادوا يغرقون فركبوا ووصلوا إلى الأبلة فأقام بها وكتب إلى ابن رائق يستعطفه فلم يجبه وكانت الرسل من أعيان أهل البصرة فلما رأوا ذلك منه ازدادوا جدا في مقاومته فصاروا كلما جهز إليهم جنداً هزموه ولما رأى ذلك ابن رائق سار بنفسه إلى واسط وكتب إلى بجكم وهو في الأهواز مستول عليها يأمره باللحاق به فأتاه فيمن عنده من الجند فتقدموا وقاتلوا أهل البصرة فقاومهم مقاومة عنيفة حتى ردوهم منهزمين ورأى البريدي أنه لا بد له من معين علي ابن رائق وبجكم فسار إلى عماد الدولة ابن بويه وأطمعه في العراق والاستيلاء عليه فسير معه أخاه معز الدولة فاستولى على الأهواز بعد أن حارب بجكم وانتصر عليه فسار بجكم إلى واسط، لم يستمر الصفاء بين البريدي ومعز الدولة لأن كلا طامع يريد أن يمكر بالثاني وكانت نتيجة المنافسة بينهما أن أنفذ بجكم جماعة من أصحابه فاستولوا على السوس وجند يسابور وبقيت الأهواز بيد البريدي ولم يبق بيد معز الدولة إلا عسكر مكرم ثم عاد فاستولى على الأهواز وأجلى عنها البريدي إلى البصرة.

أما حال ابن رائق ببغداد فكانت حال إدبار لأن بجكم منع عنه مال واسط ولم يرسل إليه شيئاً وكان يميل إلى أن يحل محل ابن رائق في إمارة الأمراء ببغداد وكان يسعى له فيها ابن مقلة وقد كلم الخليفة بذلك فأجاب وأبلغ ابن مقلة ما استقر عليه الأمر لبجكم فسار من واسط نحو بغداد في غرة ذي القعدة سنة ٣٢٦ ولم يزل حتى ورد بغداد فقاتلته الجنود الرائقية ولكنهم انهزموا عنه

فدخل بجكم بغداد في ١٣ ذي القعدة ولقي الراضي من الغد وخلع عليه وجعله أمير الأمراء فكتب إلى جميع القواد الذين كانوا مع ابن رائق يطلب إليهم العودة إليه ومناهم فجاءه أكثرهم وسقط ابن رائق بعد إمارة استمرت سنة واحدة وعشرة أشهر و ١٦ يوماً واستتر عن العيون.

في أول سنة ٣٢٧ منع ناصر الدولة بن حمدان ما ضمنه من مال الموصل فسار إليه الراضي هووبجكم فأقام الراضي بتكريت وسار بجكم لحرب ناصر الدولة فقهره انتهز ابن رائق فرصة غيابهما عن بغداد فظهر واستولى عليها ولما بلغ الراضي وبجكم خبره انزعجا واضطرهما ذلك إلى الإسراع بمصالحة ناصر الدولة بن حمدان على أن يعجل ٥٠٠ ألف درهم وعادا يريدان بغداد فراسلهما ابن رائق يطلب الصلح فاتفقا معه على ذلك وقلد طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورهما وجند قنسرين والعواصم.

أراد بجكم أن يستعيد بلاد الجبل والأهواز من يد ابن بويه فاتفق مع البريدي أن يسير إلى الأهواز وأمده برجال وأن يسير بجكم إلى بلاد الجبل ولكن علم بجكم أن البريدي يريد استعمال الحيلة معه ليلقيه في المهالك ويعود هو إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فبدلا من أن يسير إلى بلاد الجبل سار إلى واسط فاستولى عليها وأجلى عنها البريدي.

هكذا كانت مدة الراضي منازعات سياسية بين هؤلاء المتغلبين الذين كل منهم يود أن له تكون إمارة الأمراء ببغداد والأعداء ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ولم يعد لها شيء من الهيبة ولا نفوذ الكلمة.

ومما زاد الأمر إدباراً ظهور المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة فقد ظهر بها الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة وإن وجدوا نبيذاً أراقوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا في البيع والشراء ومشي الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا من يمشي مع امرأة أو صبي سألوه عن الذي هو معه من هو؟ فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فأزعجوا بغداد فركب بدر الخرشني وهو صاحب

الشـرطة ونـادى في جانبي بغـداد في أصحاب أبي محمـد البربهـاري: الحنابلة لا يجتمع منهم اثنان ولا يناظرون في مذهبهم ولا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم اللّه الـرحمن الـرحيم في صـلاة الصبـح والعشـاءين فلم يفـد فيهم وزاد شـرهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانـوا يأوون إلى المسـاجد وكـانوا إذا مـر بهم شافعي المذهب أغـروا به العميـان فيضربـونه بعصيهم حتى يكـاد يموت فخـرج توقيع الراضي بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقـاد التشبيه وغيره فمنه تارة أنكم تزعمـون أن صورة وجـوهكم القبيحة السمجـة على مثـال رب العـالمين وهيئتكم الـرذلة عـلى هيئته وتـذكرون الكف والاصـابع والـرجلين والنعلين والشعـر القطط والصعـود إلى السماء والنـزول إلى الدنيـا تعالى اللّه عـما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيراً ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة آل محمـد ﷺ إلى الكفر والضـلال ثم استدعـاؤكم المسلمين إلى التـدين بالبـدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن وإنكـاركم زيارة قبـور الاالأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذي شرف ولا نسب ولا سبب من رسول اللّه ﷺ وتأمرون بزيارتـه وتدعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء فلعن اللّه شيـطاناً زين لكم هـذه المنكرات وما أغواه وأمير المؤمنـين يقسم باللّه قسـماً جهداً يلزمـه الوفـاء به لئن لم تنتهوا عن مذمـوم مذهبكم ومعـوج طريقتكم ليـوسعنكم ضربـاً وتشريـداً وقتلاً وتبديداً وليستعملن السيف في رقابكم والنار في منازلكم ومحالكم.

وبـذلك يتبـين أن الشقاق والنـزاع تجاوزا الأمـراء إلى عـامـة النـاس وقلما وجدت المنازعات الدينية بين قوم إلا ذلوا وفشلوا.

أمر القرامطة:

لم تزل القرامطة على حالهم في الإفساد والعبث واعتراض الحجاج وفي سنة ٣٣٢ أرسل محمد بن ياقوت رسولاً إلى أبي طاهر يدعوه إلى طاعـة الخليفة ليقـره على ما بيده من البلاد ويقلده بعد ذلك من البلدان ويحسن إليـه ويلتمس منه أن يكف عن الحـاج جميعهم وأن يرد الحجـر الأسود إلى مـوضعه بمكـة فأجـاب أبـو طاهر إلى أنه لا يعترض للحاج ولا يصيبهم بمكروه ولم يجب إلى رد الحجر الأسود

إلى مكة وسأل أن تطلق له الميرة من البصرة ليخطب للخليفة بهجر. فسار الحاج إلى مكة هذه السنة ولم يعترضهم القرمطي. ولكنه في سنة ٣٣٣ اعترضهم فخرج جماعة من العلويين بالكوفة إلى أبي طاهر فسألوه أن يكف عن الحاج فكف عنهم وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد فرجعوا ولم يحج هذه السنة من العراق أحد وسار أبو طاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها.

وفي سنة ٣٢٦ أصابهم خلل وفساد في سياستهم وسببه ما كان من ابن سنبرو هو رجل كان من خواص أبي سعيد القرمطي والمطلعين على سره وكان له عدو من القرامطة يدعى أبا حفص فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصبهان وقال له إذا ملكتك أمر القرامطة أريد منك أن تقتل عدوي أبا حفص فأجابه إلى ذلك وعاهده عليه وأطلعه على أسرار أبي سعيد وعلامات كان يذكر أنها في صاحبهم الذي يدعون إليه فحضر عند أولاد أبي سعيد وذكر لهم ذلك فقال أبو طاهر هذا هو الذي ندعو إليه فأطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله وكان إذا كره رجلاً يقول إنه مريض يعني إنه قد شك في دينه ويأمر بقتله وبلغ أبا طاهر أن الأصبهاني يريد قتله لينفرد بالملك فقال لإخوته لقد أخطأنا في هذا الرجل وسأكشف حاله فقال له إن لنا مريضاً فانظر إليه ليبرأ فحضروا وأضجعوا والدته وغطوها بإزار فلما رآها قال إن المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له كذبت هذه والدتك ثم قتلوه بعد أن قتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والإفساد فيها.

وفي عهد الراضي ظهرت الدولة الأخشيدية بمصر على يد مؤسسها محمد الأخشيد ابن طغج وهو من موالي آل طولون وكان ملكه مصر سنة ٣٢٣ واستمر الملك في عقبه إلى سنة ٣٥٨ وهم الذين تسلم منهم الفاطميون مصر وهذا ثبت ملوكهم:

(١) محمد الأخشيد بن طغج	٣٢٣ - ٣٣٤
(٢) أبو القاسم أنوجر بن الأخشيد	٣٣٤ - ٣٤٦
(٣) أبو الحسن علي بن الأخشيد	٣٤٦ - ٣٥٥
(٤) أبو المسك كافور مولى الأخشيد	٣٥٥ - ٣٥٧

(٥) أبو الفوارس أحمد بن علي بن الأخشيد ٣٥٧ - ٣٥٧

وفي عهد الراضي مات عبيد اللّه المهدي أول خلفاء الفاطمين بالمهدية وولي بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان ملك مصر فلم يتمكن.

ختم الراضي الخلفاء في أشياء منها أنه آخر خليفة دون له شعر وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين.

وفي أيامه حدث اسم أمير الأمراء في بغداد وصار إلى أمير الأمراء الحل والعقد والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شيء.

وكان الراضي أديباً له شعر مدون يحب محادثة الأدباء والفضلاء والجلوس معهم وكان سمحاً سخياً.

توفي الراضي في منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ (١٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) ابن الأثير.

٢١ ـ المتقي

هـو إبراهيم المتقي لله بن المعتمـد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتـوكـل وأمـه أم ولد اسمهـا خلوب بويـع بالخـلافـة في ٢٠ ربيـع الأول سنـة ٣٢٩ (٤ ديسمبر سنة ٩٤٠) ولم يزل خليفة حتى خلع في ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ (١٢ أكتوبر سنة ٩٤٤) فكانت مدته ٤ سنوات و ١١ شهراً.

كيف انتخب:

لما مات الراضي كان بجكم بواسط، فورد كتـابه مـع وزيره أبي عبـد الله الكوفي يأمره فيه بأن يجتمع مع أبي القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضي كل من تقلد بـالوزارة وأصحـاب الدواوين والعلويـون والقضاة والعبـاسيون ووجـوه البلد ويشـاورهم الكوفي فيمن ينصب للخـلافة ممن يـرتضي مـذهبـه وطـريقتـه فجمعهم الكوفي واستشارهم فاتفقوا على إبراهيم بن المقتـدر فبايعـوه في التاريـخ السابق ولقب نفسه المتقي لله وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط.

الحال في عهده:

كان بجكم أمير الأمراء والتدبير كله إلى وزيره أبي عبـد الله الكوفي وليس للخليفة ولا لوزيـره سليمان بن الحسن شيء، لـم يطـل زمـن بجكم في الإمارة فإن البريدي كان لا يزال يمني نفسه بالاستيلاء على بغداد فأنفذ من البصرة جيشاً إلى المذار فأنفذ إليه بجكم جيشاً يقوده قائد من كبار قواده واسمه توزون فـالتقى الجيشـان واقتتلا وكـان النصر أولا لجيش البريـدي، فأرسـل تـوزون إلى بجكم يطلب أن يلحق به فسار إليه وصادف أن عادت الكرة لتوزون فأرسل إلى بجكم

يخبره بالظفر فأراد الرجوع إلى واسط فأشار عليه بعض أصحابه أن يتصيد، فسار حتى بلغ نهر جور وحينذاك اغتاله رجل من الأكراد الذين يسكنون هناك وكان قتله مفرجاً عن البريدي ومفيداً للمتقي لأنه استولى على داره وما فيها من الأموال فبلغ ما ناله ألف ألف ومائتي دينار. وكانت مدة إمارة بجكم سنتين وثمانية أشهر.

لما قتل بجكم انحدر الديلم إلى البريدي فقوي بهم وعظمت شوكته فسار مريداً الاستيلاء على بغداد ولم يتمكن الخليفة من صده فدخلها في ١٢ رمضان سنة ٣٢٩ ولقيه الوزير والقضاة والكتاب وأعيان الناس فأنفذ إليه المتقي يهنئه بسلامته. ولم يتم له ما أراده من التأمير لأن الأتراك والديالمة اختلفوا عليه ففارق بغداد بعد أن أقام بها ٢٤ يوماً وحينئذ تقدم على الجند كورتكن الديلمي فسماه المتقي أمير الأمراء وخلع عليه. وكانت مدته مضطربة لأن عامة البغداديين تأذوا من الديلم فلم ينكر كورتكين على جنده ما فعلوه لذلك حصلت وقائع بين العامة والديلم ولما رأى المتقي أن كورتكين ليس عنده من المنعة ما يزيل به الاضطراب أرسل إلى ابن رائق وهو بالشام يطلب إليه الرجوع إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فعاد. أما كورتكين فإنه خرج إليه وقابله بعكبراء فوقعت الحرب بينهما عدة أيام وفي ٢١ ذي الحجة سار ابن رائق بجيشه ليلا فأصبح ببغداد وقابل المتقي: أما كورتكين فإنه لما أحس في الصباح بمسير ابن رائق تبعه إلى بغداد وكانت عليه الهزيمة حين لاقته جنود ابن رائق فاختفى وأخذ ابن رائق من استأمن إليه من الديلم فقتلهم وكانوا نحو ٤٠٠ وحينئذ خلع المتقي على ابن رائق وسماه أمير الأمراء.

تجددت أطماع البريدي لما علم بضعف الديلم والأتراك بسبب ما قتل منهم ابن رائق فأرسل جنداً في الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم ير مقاومة شديدة فاستولى عليها وهرب المتقي وابنه وابن رائق إلى الموصل أما أصحاب البريدي فإنهم فعلوا ببغداد فعالا قبيحة قتلوا من وجدوه في دار الخليفة من الحاشية ونهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب في بغداد ليلاً ونهاراً وكبسوا الدور وأخرجوا أهلها منها حتى عظم الأمر وغلت أسعار الحنطة والشعير وأصناف الحبوب وكان

ذلك كله سبباً لوقوع الفتن والاضطراب وفي آخر شعبان زاد البلاء على الناس فكبسوا منازلهم ليلاً ونهاراً واستتر أكثر العمال لعظيم ما طولبوا به مما ليس في السواد وعلى الجملة فان هذه الفترة ببغداد لم ير أهلها مثل ما حصل فيها من الشدة.

طلب المتقي من ناصر الدولة بن حمدان أن يعينه على البريدي فأرسل أخاه سيف الدولة لنصرته فلقيه هو وابن رائق بتكريت فرجع معهما إلى الموصل وهناك جاء ناصر الدولة واغتال ابن رائق لأنه يريد أن يحل محله في إمرة الأمراء وقد كان ذلك فإن المتقي خلع عليه وسماه أمير الأمراء في أول شعبان سنة ٣٣٠ وخلع على أخيه أبي الحسن علي ولقبه ذلك اليوم بسيف الدولة.

بعد ذلك تجهز ناصر الدولة وسار إلى بغداد معه المتقي ولما قارباها هرب عنها أبو الحسين بن البريدي وسار إلى واسط بعد أن أقام ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ودخل المتقي بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة.

ثم خرج بنو حمدان يريدون واسط لأخذها من البريدي فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدي فالتقى به تحت المدائن بفرسخين وكانت مقاومة البريدي شديدة حتى أنه هزم سيف الدولة ومن معه فعاد إلى المدائن فقواهم ناصر الدولة بجنود أخرى فعادوا فقاتلوا أبا الحسين وهزموه ولكن سيف الدولة لم يتبعه إلى واسط لما في أصحابه من الوهن والجراح ولما اندملت جراحهم وقووا سار سيف الدولة إلى واسط فأخذها وانحدر أبو الحسين إلى البصرة وأقام سيف الدولة بواسط وكان يريد المسير إلى البصرة فلم يمكنه لقلة المال عنده فكتب إلى أخيه فلم يسعفه فحصل بين الأخوين وحشة ووقع سيف الدولة في أخيه ناصر الدولة وكان القواد الذين معه الأتراك قد قلت عندهم هيبته لقلة المال فسار بنوبويه وكبسوه ليلاً فهرب وترك معسكره ولما علم ناصر الدولة بالخبر سار عن بغداد إلى الموصل وترك إمارة الأمراء بعد أن أقام فيها ثلاثة عشرة شهراً وخمسة أيام.

اختار المتقي بعد رحيل ناصر الدولة لإمارة الأمراء أكبر قواد الديلم

واسمه توزون ولم يكن عنده شيء من حسن السياسة فاستوحش منه المتقي وخافه على نفسه فرأى أن يسير إلى الموصل مستعيناً بالحمدانيين فبارح بغداد إليها ولما بلغ ذلك توزون تبعه حتى وصل تكريت وهناك التقى بسيف الدولة فقاتله وهزمه مرتين ثم استولى على الموصل فسار عنها بنو حمدان والمتقي معهم إلى نصيبين. ثم ترددت الرسل بين توزون من جهة وبين الحمدانيين والمتقي من جهة على الصلح فتم على أن يضمن ناصر الدولة ما بيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف وستمائة ألف درهم وعاد توزون إلى بغداد ولم يعد معه المتقي بل استمر في الموصل. ثم أرسل إلى توزون إلى بغداد ولم يعد معه المتقي بل استمر في الموصل. ثم أرسل إلى توزون يطلب منه أن يعود إلى بغداد فأظهر توزون الرغبة في ذلك وحلف للمتقي أنه لا يغدر به فاغتر المتقي بتلك اليمين. وسار إلى بغداد فلقيه توزون تحت هيت ولما رآه قبل له الأرض وقال هأنذا قد وفيت بيميني، والطاعة لك ثم وكل به وبعد ذلك سمله وخلعه وبذلك انتهت خلافة المتقي.

٢٢ ـ المستكفي

هو أبو القاسم عبد اللّه المستكفي باللّه بن الكتفي بن المعتضد.

لما قبض توزون على المتقي أحضر المستكفي إليه إلى السندية وبايعه هو وعامة الناس.

الخلافة العباسية تحت سلطان آل بويه.

يبتدىء هذا الدور من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٤٤٧ تولى الخلافة فيه خمسة خلفاء وهم المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم.

تاريخ هذا الدور يرتبط بتاريخ آل بويه الديلميين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلي في العراق لذلك أردنا أن نسوق فصلا نبين فيه أحوال الديلم وكيف تصرفت بهم الأحوال إلى أن وصلوا إلى ذروة العظمة باستيلائهم على بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

بلاد الديلم أو بلاد جيلان واقعة في الجنوب الغربي من شاطيء بحر الخزر سهلها للجيل وجبالها للديلم وقصبتها روزبار..

كانت في القديم إحدى الولايات الفارسية إلا أن أهلها لم يكونوا من العنصر الفارسي بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالمة أو الجيل. ولما أذن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه بالانسياح في بلاد العجم كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون واستمر الديلم خاضعين للحكم الإسلامي مع بقائهم على وثنيتهم ولم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من شجاعتهم أو يفقدهم جنسيتهم.

وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا بالإسلام وكان بين الديالمة والطبريين سلم وموادعة.

على هذا كان الحال في صدر الدولة العباسية فلا الديالمة تحدثهم أنفسهم بالخروج إلى بلاد المسلمين ولا المسلمون يحدثون أنفسهم بالتوغل في بلادهم حتى كانت حادثة إقطاع المستعين محمد بن طاهر تلك القطائع التي يقرب بعضها من ثغور طبرستان وأراد رسول ابن طاهر أن يستلمها ومعها الأرض التي كانت مرافق لأهل تلك النواحي فامتنع من ذلك أهل طبرستان وأظهروا العصيان لمحمد بن طاهر ورأوا أن ذلك لا يتم إلا أن يكون على رأسهم رجل يدينون بطاعته فاتفقوا على الحسن بن زيد الذي قدمنا حديثه في خلافة المستعين وكان مقيماً بالري فراسلوه فأقبل إليهم فبايعوه وطلبوا من الديلم أن يساعدوهم على عمال ابن طاهر فبذلوا لهم ما طلبوا من المساعدة لإساءة كانت من عمال ابن طاهر إليهم. استولت هذه القوة على مدن طبرستان ثم الري وجرجان ولم يزل الحسن مدبر أمرهم حتى مات سنة ٢٧١ ثم ولي أخوه محمد بن زيد وكانت مدته مضطربة حتى قتل سنة ٢٨٧ وكان وجود الحسن بن زيد وأخيه في تلك البلاد سبباً لمواصلة أهل الديلم وشيوع الدعوة الإسلامية بينهم.

بعد ذلك دخل بلاد الديلم الحسن بن علي الملقب بالأطروش وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام ويقتصر منهم على العشر ويدفع عنهم عدوهم فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد. وكان لآل سامان بإزائهم ثغور مثل قزوين وسالوس وغيرهما وكان بمدينة سالوس حصن منيع فهدمه الحسن لما أسلم الديلم والجيل - ثم إنه جعل يدعوهم إلى الخروج معه إلى طبرستان فلا يجيبونه لإحسان عبد اللّه بن محمد بن نوح الذي كان أميراً على تلك الجهات من قبل آل سامان فاتفق أن أحمد الساماني عزل عبد اللّه وولى بدله آخر اسمه سلام فلم يحسن سياسة أهلها فهاج عليه الديلم فقاتلهم وهزمهم واستقال من الولاية فأعاد أحمد الساماني عبد اللّه بن محمد بن نوح فصلحت البلاد - ولما مات جاءها وال غير رسومه وأساء السيرة وقطع عن رؤساء الديلم ما كان يهديه إليهم ابن نوح فانتهز الحسن بن علي الفرصة وهيج

الديلم عليه ودعاهم إلى الخروج معه فأجابوه وخرجوا معه حتى التقوا بأمير طبرستان فهزموه واستولوا على طبرستان وكان أكبر معينيه ليلى بن النعمان وماكان ابن كالي الديلميان وكانا من عظماء الديلم وقوادهم استوليا على طبرستان وجرجان باسم الحسن بن علي الأطروش. وممن عرف اسمه في تلك الوقائع الحسن بن القاسم الداعي العلوي وكان ختن الأطروش.

وتوفي الأطروش سنة ٣٠٤ وكان يلقب بالناصر للّه وكان له من الأولاد الحسن وأبو القاسم والحسين وكان الحسن مغاضباً له فلم يوله شيئاً وولى ابنيه الآخرين فكانت طبرستان في أيديهم بمعونة الحسن بن القاسم الداعي.

وفي سنة ٣٠٩ قتل ليلى بن النعمان أحد قواد الزيدية وكان يلي بلاد جرجان وكان أولاد الأطروش يكاتبونه المؤيد لدين اللّه المنتصر لآل رسول اللّه ﷺ ليلى بن النعمان وكان سبب قتله أنه سار إلى نيسابور بأمر الحسن بن القاسم يريد الاستيلاء عليها وكانت بيد السامانية فكان في هذه الإغارة حتفه وانهزام جنوده ثم تقدمت جنود السامانية إلى جرجان وبها أبو الحسين بن الناصر فانهزم عنها إلى استراباذ ثم فارقها وقصد مدينة سارية وجعل على استراباذ ما كان بن كالي وهو ثاني القواد المشهورين من الديلم بعد ليلى بن النعمان فاجتمع إليه الديلم وقدموه وأمروه عليهم وكان على يديه إعادة جرجان من الجنود السامانية فأقام بها.

وكان من أصحاب ما كان قائد ديلمي اسمه أسفار بن شيرويه وكان سيء الخلق والعشرة فأخرجه ما كان من عسكره فاتصل بأمير نيسابور للسامانية وهو بكر بن محمد بن اليسع فأكرمه بكر وسيره إلى جرجان ليأخذها من يد أبي الحسن ابن كالي أخي ما كان وكان أخوه قد ولاه عليها وذهب إلى طبرستان. وكان أبو الحسن قد اعتقل أبا علي بن الأطروش عنده فتمكن أبو علي من الخلاص من هذا الاعتقال واغتال أبا الحسن ما كان وأرسل إلى جماعة القواد يخبرهم بمقتله ففرحوا وبايعوا العلوي وألبسوه القلنسوة وكاتبوا أسفار بن شيرويه وعرفوه الحال واستقدموه إليهم فسار إلى جرجان وضبطها وجاءه ما كان يحاربه فهزمه أسفار

وصادف أن مات أبو علي ابن الأطروش وصفت جرجان لأسفار وأسفار هذا هو ثالث قواد الديلم. ولما تمكنت قدمه بجرجان أرسل لمرداويج بن زيار الجبلي يستدعيه فحضر عنده وجعله أمير الجيوش وأحسن إليه ثم قصدا طبرستان فاستوليا عليها فعلم بذلك الحسن بن القاسم الداعي وهو بالري ومعه ما كان بن كالي فسار نحو طبرستان والتقى بأسفار عند سارية فانهزم الحسن وما كان ثم أدرك الحسن فقتل وبقتله صفت لأسفار طبرستان والري وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرج ودعا لصاحب خراسان وهو السعيد بن نصر الساماني وأقام بسارية ثم استولى على قلعة الموت وهي قلعة على جبل شاهق في حدود الديلم.

عظمت جيوش أسفار وجل قدره فتجبر وعصى على الأمير السعيد صاحب خراسان وأراد أن يجعل على رأسه تاجاً وينصب سرير ذهب للسلطنة ويحارب خليفة بغداد المقتدر جيشاً فحاربه أسفار وانتصر عليه ولما علم السعيد بذلك سار من بخارى حاضرة ملكه ليحارب أسفار ويأخذ بلاده فلما علم أسفار بوصول السعيد إلى نيسابور أدرك أنه لا يمكنه أن يقاومه فراسله في الصلح واتفقا على شروط منها حمل الأموال والخطبة باسمه في بلاده.

وبينما هو في ذروة عزه قام عليه أكبر قواده مرداويج بن زيار وشق عصا طاعته واتحد مع سلار صاحب شميران وتحالفا وتعاقدا على التساعد على حرب أسفار. ومن حسن حظ مرداويج أن أكثر قواد أسفار كانوا ملوه لجبره وظلمه فسرعان ما أجابوا مرداويج حين أعلمهم بأمره وكانت نتيجة هذا الاتفاق أن قتل أسفار سنة ٣١٦.

ملك البلاد مرداويج وأحبته الجنود لحسن سيرته واتسعت رقعة ملكه وعمل له سريراً من ذهب يجلس عليه وسريراً من فضة يجلس عليه أكابر قواده وإذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفاً بالبعد عنه ولا يخاطبه أحد إلا الحجاب الذين رتبهم لذلك وخافه الناس خوفاً شديداً ودخلت في حوزته طبرستان وجرجان واجتهد ما كان بن كالي أن يدافعه عنهم واستعان بكل وسيلة فلم يقدر وأقبلت الديلم إلى مرداويج من كل ناحية لبذله وإحسانه إلى جنده

فعظمت جيوشه وكثرت عساكره فكثر الخرج عليه فلم يكفه ما في يده فذهب إلى همذان واستولى عليها من يد جنود الخليفة وبذلك تم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها وبلغت عساكره إلى نواحي حلوان وهي أول حدود العراق.

ثم ملك بعد ذلك أصبهان والأهواز وأرسل إلى المقتدر رسولاً يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها فأجابه المقتدر إلى ذلك وقوطع على مائتي ألف درهم كل سنة.

في سنة ٣٢٠ أرسل مرداويج إلى أخيه وشمكير وهو ببلاد جيلان يستدعيه إليه فجاءه واعتز به. والمؤرخ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي يؤكد في كتابه الموسوم بالآثار الباقية عن القرون الخالية الذي ألفه باسم شمس المعالي قابوس ابن وشمكير أن هذه الأسرة من أصل شريف الطرفين فأما أحد الأصلين فورد انشاه الذي لا تجهل سيادته في الجبل وأما الأصل الآخر فملوك الجبال الملقبون بأصفهبذية طبرستان والفرجوار جرشاهية وليس ينكر اعتزاء من كان منهم من أهل بيت الملك إلى ما يجمعهم والأكاسرة في شعب واحد فإن خاله هو الأصفهبذ رستم ابن قارن بن شرويه بن رستم بن قارن بن شهريار بن شروين بن سرخاب بن شابور ابن كياس بن قباذ والد أنو شروان.

ولما استقرت قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم كانوا من قواد ما كان بن كالي وفارقوه لما ضاقت بهم الحال وهم علي والحسن وأحمد أولاد بويه ساروا إلى مرداويج ومعهم جماعة من قواد ما كان. وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية التي امتلكت ناصية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الإسلامية وهي التي تكون الدور الثاني من أدوار الخلافة العباسية ولما ارتفع شأنهم ظهر لهم ذلك النسب العالي فقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي في كتابه الذي سماه بالتاج أن بويه ينتهي نسبه إلى بهرام جور الملك والبيروني السابق ذكره يرجح أن هذا النسب إنما ظهر لهم بعد ثبوت ملكهم وإلا فتلك الأمم ليست معروفة بحفظ الأنساب ولا مذكورة بتخليد ذلك ولا بأنها كانت تعرف ذلك منهم قبل انتقال الدولة إليهم مع أنه فيما سبق يرجح صحة نسب أخوال وشمكير ويسوقها نسقاً حتى يصل بها إلى قباذ ملك الفرس.

لما ورد أبناء بويه على مرداويج خلع على علي والحسن وولى القواد الذين وصلوا معهما النواحي وولي على بن بويه بلاد الكرج وكتب لهم بذلك العهود فساروا إلى الري وبها وشمكير أخو مرداويج ومعه وزير مرداويج الحسين بن محمد الملقب بالعميد. صادف أن كان مع ابن أبويه بغلة شهباء من أحسن ما يكون فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار فعرضت على العميد فأخذها ونقد ثمنها فلما حمل إلى علي أخذ منه عشرة دنانير ورد الباقي ومعه هدية جميلة فكان ذلك بدء الصلة بين العميد وآل بويه.

ندم مرداويج بعد انفصال هؤلاء القواد على توليتهم فكتب إلى أخيه وشمكير وإلى العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير إلى أعمالهم وإن كان بعضهم قد خرج يرد وكانت الكتب تصل إلى العميد قبل وشمكير فيقرؤها ثم يعرضها على وشمكير فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ إلى علي بن بويه يأمره بالمسير من ساعته إلى عمله ويطوي المنازل فسار من ساعته ولما أصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فمنع سائر القواد من الخروج من الري واستعاد التوقيعات التي كانت معهم وأراد أن ينفذ خلف علي بن بويه من يرده فقال العميد إنه لا يرجع طوعاً وربما قاتل من يقصده ويخرج من طاعتنا فتركه. وصل على الكرج وأحسن إلى الناس ولطف بعمال البلاد فكتبوا إلى الناس ولطف بعمال البلاد فكتبوا إلى مرداويج يشكرونه ويصفون ضبطه للبلد وحسن سياسته. وافتتح قاعات كانت للخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها جميعاً إلى استماله الرجال والصلات والهبات فشاع ذكره وقصده الناس وأحبوه. ولما كان مرداويج بالري أطلق مالا لجماعة من قواده على الكرج فاستمالهم علي بن بويه ووصلهم وأحسن إليهم حتى مالوا إليه وأحبوا طاعته وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على إنفاذ أولئك القواد فكتب إليهم وإلى علي يستدعيهم إليه وتلطف بهم ودافعه علي واشتغل بأخذ العهود عليهم وخوفهم سطوة مرداويج فأجابوه جميعاً فجيء على مال الكرج واستأمن إليه شيرازاد وهو من أعيان قواد الديلم فقويت نفسه وسار بمن معه إلى أصبهان فاستولى عليها من يد المظفر بو ياقوت. بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه وبلغ مرداويج فأقلقه وخاف على ما بيده

من البلاد واغتم لذلك غماً شديداً ولكن رأى أن يحتال فراسل علياً يعاتبه ويستميله ويطلب إليه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد ولا يكلفه سوى الخطبة له في البلاد التي يستولي عليها وجهز بعقب تلك الرسالة أخاه وشمكير في جيش كثيف ليكبس علياً وهو مطمئن إلى الرسالة المتقدمة فعلم بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين وتوجه إلى أرجان وبها أبو بكر بن ياقوت فانهزم عنها أبو بكر من غير قتال وقصد رامهرمز فاستولى على علي أرجان في ذي الحجة سنة ٣٩٠ فاستخرج منها أموالاً قوي بها. جاءته وهو بها كتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه ويشير عليه بالمسير إلى شيراز ويهون عليه أمر ياقوت وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الأموال وكثرة مؤنته أصحابه وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم فتردد علي أولا ثم عزم على السير فسار نحو النوبندجان على الناس مع فشلهم وجبنهم فتردد علي أولا ثم عزم على السير فسار نحو النوبندجان في ربيع الآخر سنة ٣٢١ فلقي بها مقدمة ياقوت فهزمها ثم سار منها إلى اصطخر خوفاً أن يقع بين ياقوت ومرداويج لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه فقابله في الطريق ياقوت بجيوشه فكان النصر لعلي وانهزم ياقوت هو ومن معه وكان أحمد بن بويه ممن ظهر أثره في ذلك اليوم وهو صبي لم تنبت لحيته وكان عمره ١٩ سنة. وبعد هذا الانتصار عامل على الأسرى أحسن معاملة وخيرهم بين المقام عنده واللحاق بياقوت فاختاروا المقام عنده فخلع عليهم وأحسن إليهم ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها ونادى في الناس بالأمان وبث العدو وأقام لهم شحنة تمنع ظلمهم واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعه فسهلت عليه أمر استرضاء الجنود والتودد إليهم فأحبوه وثبت ملكه ثم أرسل إلى خليفة بغداد الراضي بالله وإلى وزيره ابن مقلة يعرفهما أنه على الطاعة ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد وبذل ألف ألف درهم فأجيب إلى ذلك وأنفذت إليه الخلع واللواء.

ولما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد وسار إلى أصبهان للتدبير عليه وبها أخوه وشمكير فرأى أن ينفذ عسكراً إلى الأهواز للاستيلاء عليها ويسد الطريق علي بن بويه إذا قصده فلا يبقى له طريق إليالخليفة ويقصده هو

من ناحية أصبهان ويقصده عسكره من ناحية الأهواز فلا يثبت لهم. فسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيذج في رمضان ثم استولت على رامهرمز في شوال سنة ٣٢٢ ثم استولت على الأهواز وأجلت عنها ياقوتاً. بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز فكات نائبه يستميله ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ففعل واستقر الأمر بينهما على أن ابن بويه يخطب لمرداويج وأهدى له ابن بويه هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة.

من حسن حظ ابن بويه أن مرداويج قتل بعد ذلك سنة ٣٢٣ تمردت عليه جنوده الأتراك لأنه كان كثير الإساءة إليهم ويفضل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره فاتفقوا على اغتياله ففعلوا وكان رؤساء المتألبين عليه من الأتراك بجكم وتوزون وهما اللذان ذكرنا أنهما توليا إمرة الأمراء بالعراق وباروق وابن بغرا ومحمد ابن بنال الترجمان. ولما تم لهم ما أرادوا تفرق الجيش فأما الأتراك فافترقوا فرقتين فرقة منهم لحقت بابن بويه وفرقة سارت نحو الجبل مع بجكم. وأما الديلم فذهبوا إلى وشمكير بالري وأطاعوه. وكان من نتيجة قتل مرداويج أن يخلص الحسن بن بويه الذي كان رهينة عنده وسار إلى أخيه بفارس.

صارت القوى الكبرى ببلاد العجم ثلاثاً قوة علي بن بويه بفارس وقوة وشمكير ابن شيرويه بالري وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر. أما ياقوت الذي كان بالأهواز فضعفت قوته جداً حتى لم تعد قادرة على حفظ ما معها فضلا عن مصادمة غيرها أما القوة الحية النامية فهي قوة ابن بويه. سير أخاه الحسن إلى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على أصبهان وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير وبقي وشمكير يتنازعان هذه البلاد وهي أصبهان وهمذان وقم وقاشان وكرج والري وكنكور وقزوين وغيرها حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة وانجلى عنها نواب وشمكير.

خطر ببال علي بن بويه أن يمد بويه سلطانه إلى الأهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد وكان هو مشغولاً بادارة إقليم فارس وأخوه الحسن مشغولاً ببلاد الجبل وأخوهما الأصغر لا شغل له فسيره على الأهواز فاستولى

عليها بعد حروب بينه وبين بجكم الرائقي وانهزم بجكم إلى واسط.

كان من أهم مقاصداً بن بويه المسير إلى العراق بعد الاستيلاء على واسط فصار أحمد بن بويه يسير إلى واسط ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون إليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها في ١١ جمادي الأولى سنة ٣٣٤ والخليفة بها هو المكتفي بالله فقابله واحتفى به وبايعه أحمد وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة وفي هذا اليوم شرف الخليفة بني بويه بالألقاب فلقب علياً صاحب بلاد فارس عماد الدولة وهو أكبرهم ولقب الحسن صاحب الري والجبل ركن الدولة ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة وأمر أن تضرب ألقابها وكناهم على النقود.

وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثاني للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقي من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيساً دينياً لا أمر له ولا شيء ولا وزير وإنما له كاتب يدبر إقطاعاته وإخراجاته لا غير وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من شاء.

وكان يخطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضاً عن بني العباس ويوليها علوياً لأن القوم كانوا شيعة زيدية لأن التعاليم الإسلامية وصلت إليهم على يد الحسن بن زيد ثم على يد الحسن الأطروش وكلاهما زيدي فكانوا يعتقدون أن بني العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا فأعرض عما كان قد عزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبني العباس وانفرد هو بالسلطان ولم يبق بيد الخليفة شيء البتة إلا أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته.

كان السلطان في ذلك الوقت ببلاد الأندلس لبني أمية والقائم بالأمر منهم عبد الرحمن الناصر وقد لقب بأمير المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد إلى ما

وصلت إليه من الضعف أمام الأتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد.

وببلاد أفريقية للعبيد بين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغالبية والأدارسة والقائم بالأمر منهم إسماعيل المنصور وهو ثاني خلفائهم وكان يلقب بأمير المؤمنين.

وبمصر والشام للأخشيديين والأمير منهم أنوجور بن محمد الأخشيد وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسي.

وبحلب والثغور لسيف الدولة علي بن عبد اللّه بن حمدان الشيباني ويخطب باسم الخليفة العباسي.

وبالجزيرة الفراتية لناصر الدولة الحسن بن عبد اللّه بن حمدان الشيباني يخطب باسم الخليفة العباسي.

وبالعراق للديلم والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويه ويخطب على منابره باسم الخليفة العباسي ثم باسم معز الدولة من بعده.

وبعمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة للقرامطة ويخطبون باسم المهدي.

وبفارس والأهواز لعلي بن بويه الملقب عماد الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسي وكان يلقب بأمير الأمراء لأنه أكبر بني بويه.

وبالجبل والري لحسن بن بويه الملقب ركن الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسي وجرجان وطبرستان يتنازعهما وشمكير بن شيرويه وركن الدولة وآل سامان.

وبخراسان وما وراء النهر لأن سامان ومقر ملكهم مدينة بخارى ويخطبون على منابرهم باسم الخليفة العباسي.

هذه هي القرى الكبرى التي كانت لأسر ملوكية في الرقعة الإسلامية فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقاً غريباً بعد أن كان متماسك الأعضاء يرجع كله

إلى حاصرة كبرى تجمع شتاته. ومما يستحق النظر أن العنصر العربي لم يبق له شيء من الملك إلا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة فإنهما من عنصر عربي ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد لقواد من الأتراك ولم يكن لهما استقلال سياسي بل كان أمر بني بويه فوقهما وكانا يذكران اسم معز الدولة في الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسي.

لم يمكث المستكفي في الخلافة بعد استيلاء معز الدولة إلا أربعين يوماً وخلع لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير عليهم فصمم على خلعه ففي الثاني والعشرين من جمادي الآخرة سنة ٣٣٤ حضر الخليفة وحضر الناس ورسول صاحب خراسان ثم حضر اثنان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفي فظن أنهما يريدان تقبيلها فمدها إليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته في حلقه ونهض معز الدولة واضطربت الناس ونهبت الأموال وساق الديلميان المستكفي ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي وكانت مدة المستكفي سنة واحدة وأربعة أشهر.

٢٣ ـ المطيع

هو الفضل المطيع للّه بن المقتدر بن المعتضد فهو ابن عم المستكفي بويع بالخلافة ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ (٢٩ يناير سنة سنة ٩٤٦) ولم يزل خليفة إلى أن خلع في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣ (٧ أغسطس سنة ٩٧٤) فكانت مدته ٢٩ سنة وخمسة أشهر غير أيام ولم يكن له من الأمر شيء والنفوذ في حاتيه للملوك من آل بويه وهم:

(أولا): معز الدولة:

وهو أحمد بن بويه فاتح العراق وكان أصغر إخوته وكان سلطان معز الدولة بالعراق مبدأ خرابه بعد أن كان جنة الدنيا فإنه لما استقرت قدمه فيه شغب الجند عليه وأسمعوه المكروه فضمن لهم أرزاقهم في مدة ذكرها لهم فاضطر إلى ضبط الناس وأخذ الأموال من غير وجوهها وأقطع قواده وأصحابه بالقرى جميعها التي للسلطان وأصحاب الأملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدي العمال وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف وفي الغلاء والنهب فأخذ القواد القرى وزادت عمارتها معهم وتوفر دخلها بسبب الجاه فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك وأما الأتباع فإن الذي أخذوه زاد خراباً فردوه وطلبوا العوض عنه فعوضوا وترك الأجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منها وأخذ غلمان المقطعين في الظلم وتحصيل العاجل فكان أحدهم إذا عجز الحاصل تممه بمصادراتها. ثم أن معز الدولة قد فوض حماية كل موضع إلى بعض أكابر أصحابه فاتخذه مسكناً فاجتمع إليه الإخوة وصار القواد يدعون الخسارة في الحاصل فلا يقدر وزير ولا غيره على

تحقيق ذلك فان اعترضه معترض صاروا أعداء له فتركوا وما يريدون، فازداد طمعهم ولم يقفوا عند غاية فتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة تكون للنوائب والحوادث وأكثر من إعطائه غلمانه الأتراك والزيادة لهم في الأقطاع فحسدهم الديلم وتولد من ذلك الوحشة والمنافرة ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء بها فأكل الناس الميتة والسنانير والكلاب وأكل الناس خروب الشوك وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام في أحشائهم وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة فمات أكثرهم في الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز.

فكان نظام الإقطاعات أول فساد بالعراق، لأنه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الأرض وإصلاحها وتنميتها.

السبب الثاني من أسباب الفساد اختلافان: الأول اختلاف عنصري بين الأجناد فإنهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك وبين العنصرين غيرة ومنافسات فكان بينهما في أكثر الأحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس حيث تقف حركة التجارة لخوف الناس على ما بيدهم من المال وقد كادت هذه المنازعات تؤدي سنة ٣٣٥ الى خلع معز الدولة بيد الديلم أنفسهم فإنهم لما رأوا تقدم الأتراك ثاروا به ومقدمهم قائد منهم اسمه روزبهان بن ونداد خورشيد وساعده على ذلك أخوه ولكن معز الدولة انتصر عليه بقوة الأتراك فاصطنعهم دون الديلم وأمر بتوبيخ الديلم والاستطالة عليهم ثم أطلق للأتراك إطلاقات، زائدة على واسط والبصرة فساروا لقبضها مدلين بما صنعوا فأخربوا البلاد ونهبوا الأموال وصار ضررهم أكبر من نفعهم. وأما الاختلاف الثاني فهو اختلاف ديني تأججت تارة ببغداد نفسها وبما جورها من بلاد فقد كان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون الشيخين أبا بكر وعمر على سائرهم ولا يقدحون في معاوية ولا غيره من سلف المسلمين فلما جاءت هذه الدولة وهي متشيعة غالية: نما مذهب الشيعة ببغداد ووجد له من قوة الحكومة أنصاراً فقد كتب على مساجد بغداد سنة ٣٥١ ما صورته (لعن الله

معاوية ابن أبي سفيان ولعن من غصب فاطمة رضي اللَّه عنها «فدكا» ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفاري ومن أخرج العباس من الشورى) والخليفة كان محكوماً عليه لا يقدر على المنع وأما معز الدولة فبأمره كان ذلك فلما كان الليل حكه بعض الناس فأراد معز الدولة إعادته فأشار عليه وزيره أبو محمد المهلبي بأن يكتب مكان ما محي لعن اللَّه الظالمين لآل رسول اللَّه ﷺ ولا يذكر أحداً في اللعن إلا معاوية ففعل ذلك.

وفي سنة ٣٥٢ أمر معز الدولة عاشر المحرم أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح وأن يخرج النساء منصورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي اللَّه عنهما ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم.

وفي ثامن عشر ذي الحجة أمر معز الدولة بإظهار الزينة في البلد وأشعلت النيران بمجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالي الأعياد فعل ذلك احتفالاً بعيد الغدير يعني غدير خم وهو الموضع الذي يروى أن رسول اللَّه ﷺ قال فيه عن علي «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وضربت الدبادب والبوقات وكان يوماً مشهوداً.

وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والري ميداناً للاضطرابات المتكررة بين العامة والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر. وهو الأكثر عدداً ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافيها فيهون أمرها ما عدا ما منشؤه الدين منها وأعظمها شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد فإنها يشتد توهجها إذا وجدت محضاً يحركها لغاياته ولا أشد من يد السلطان في تحريكها فإذا لعبت فيها أصبعه ماج الناس وهاجوا وأثر ذلك في الأحوال العامة أسوأ تأثير ولا يزول ذلك إلا بعد أن ينغرس في نفوس الناس حرية الدين والعقيدة ولم يكن ثم سبيل إلى ذلك لأن إحدى الفرقتين تحترم شخصاً والأخرى تلعنه فأنى تتفقان.

ومع ما أدت إليه سياسة معز الدولة من هذا الفساد كانت هناك أمور أخرى تشغل باله في شمالي بلاده وجنوبيها أما في شمال فناصر الدولة بن حمدان بالموصل وكان الرجلان يتنازعان السلطان وكل يريد الإغارة على ما بيد الآخر.

ففي السنة الأولى لولاية معز الدولة جاء ناصر الدولة واستولى على الجانب الشرقي من بغداد وكاد أمر معز الدولة يضمحل لولا أن استعمل الحيلة التي خدع بها ناصر الدولة وهزمه فجاء الديلم ونهبوا أموال الناس فكان مقدار ما غنموه من أموال الناس المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار وقتلوا كثيراً ممن اتهموه. واضطر ناصر الدولة يطلب معز الدولة الصلح على مال يؤديه عما تحت يده من البلاد، فقبل ذلك معز الدولة.

وفي سنة ٣٣٧ سار معز الدولة إلى الموصل مريداً الاستيلاء عليها فسار عنها ناصر الدولة إلى نصيبين فدخلها معز الدولة وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا فكرهه الناس وكان من غرضه أن يستولي على جميع ما بيد ناصر الدولة من البلاد ولكن بلغه من أخيه ركن الدولة أن جيوش السامانية خرجت تريد الاستيلاء على جرجان والري وطلب منه المدد فاضطر إلى مصالحة ناصر الدولة فترددت بينهما الرسل واستقر الأمر على أن يؤدي ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام في كل سنة ثمانية آلاف ألف درهم ويخطب في بلاده لأولاد بويه الثلاثة وإذا ذاك رجع معز الدولة إلى بغداد.

ولما قامت فتنة رزبهان الديلمي على معز الدولة أراد ناصر الدولة إعادة الكرة على بغداد فسير أحد أولاده في جيش لكنه لم يتمكن ممن أراد فلما انتصر معز الدولة على خصمه ولى وجهه شطر الموصل للانتقام من ناصر الدولة فراسله ناصر الدولة يطلب الصلح على مال ضمنه فقبل ولكن ناصر الدولة لم يف بما ضمن فسار إليه معز الدولة سنة ٣٤٧ فلما قارب الموصل سار عنها ناصر الدولة إلى نصيبين فاستولى عليها معز الدولة ثم سار إلى نصيبين ففارقها ناصر الدولة إلى ميافارقين فاستولى عليها معز الدولة.

ولما رأى ناصر الدولة ما صار إليه سار إلى أخيه سيف الدولة بحلب فلقيه

أخوه وبالغ في إكرامه وراسل معز الدولة في طلب الصلح فامتنع معز الـدولة من تضمين ناصر الدولة لإخلافه مرة بعد أخرى فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفي ألف درهم وتسعمائة ألف درهم وكان ذلك في محرم سنة ـ ٣٤٨ .

إنما أجاب معز الدولة إلى الصلح لأنه ضاقت عليه الأموال وتقاعد الناس عن حمل الخراج واحتجوا بأنهم لا يصلون إلى غلاتهم وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة فاضطر بسبب ذلك الانحدار وأجاب إلى الصلح وانحدر إلى بغداد وعاد ناصر الدولة إلى الموصل ومع كل هذا لم تهدأ الحروب بين هذين الطرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة وكان ذلك سبباً فيما يأتي ذكره من الضعف أمام الروم .

لم يكن هذا وحده الذي يشغل معز الدولة بل كان له في الجنوب أيضاً مشاغل كبرى فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدي أميراً عليها باسم معز الدولة ولكن نفسه كانت تطمع للاستقلال بها وألا يرسل إلى معز الدولة خراجاً . فكان معز الدولة يرسل إليه الجيوش والبريدي يرسل مثلها فيحصل القتال بين الطرفين .

وفي سنة ٣٢٦ عزم معز الدولة أن يسير إلى البريدي فسار إليه سالكا البرية فأرسل إليه القرامطة ينكرون عليه مسيره إلى البرية بغير إذنهم فلم يجبهم على كتابهم وقال من هؤلاء حتى يستأمروا ، ولما وصل إلى الدرهمية استأمن إليه كثير من عسكر البريدي وهرب هو إلى هجر والتجأ إلى القرامطة وملك معز الدولة البصرة .

وكانت نتيجة ما فعله مع القرامطة والاستهانة بهم أن جاءوا إلى البصرة سنة ٣٤١ ومعهم أمير عمان من البحر ولكن البصرة قاومتهم بفضل الوزير المهلبي وزير معز الدولة .

وفوق هذا فقد حدثت قوة جديدة زادت متاعبه ومشاغله وهي قوة عمران بن شاهين وكان في أول الأمر جابياً فجبا جبايات ثم هرب إلى البطيحة وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة فاتفق في

أيام كسرى أبرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات أيضاً بخلاف العادة فعجز عن سدها فتبطح الماء في تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها فلما نقص الماء وأراد العمارة أدركته المنية ولم يفعل من بعده شيئاً ثم جاء الإسلام فاشتغلوا بالحروب والجلاء ولم يكن للمسلمين إذ ذاك دراية بعمارة الأرضين فلما ألقت الحروب أوزارها واستقرت الدولة الإسلامية في قرارها استفحل أمر البطائح وفسدت مواضع البثوق وتغلب الماء على النواحي ودخلها العمال بالسفن فرأوا فيها مواضع عالية لم يصل الماء إليها فبنوا فيها قرى وسكنها قوم وزرعوها الأرز. جاء عمران إلى هذه البطائح خوفاً من السلطان وأقام بين القصب والآجام متحصناً بها واقتصر على ما يصيد من السمك وطيور الماء ثم صار يقطع الطريق على من يسلك البطيحة واجتمع إليه جماعة من الصيادين وجماعة من اللصوص فقوي بهم وحمى جانبه من السلطان فلما خاف أن يقبض استأمن إلى أبي القاسم البريدي فقلده حماية الجامدة ونواحي البطائح وما زال يجمع الرجال إلى أن كثر أصحابه وقوي واستعد بالسلاح واتخذ معاقل على التلول التي بالبطيحة وغلب على تلك النواحي فلما اشتد أمره سير معز الدولة جيشاً لمحاربته قائده وزيره أبو جعفر الصيمري فانتصر أبو جعفر انتصاراً باهراً وكاد يأخذ عمران لولا أن شغل معز الدولة بوفاة أخيه الأكبر عماد الدولة فاضطر إلى أن يأمر وزيره بقصد شيراز لإصلاحها ففارق البطيحة وكان ذلك منفساً عن عمران فزاد قوة وجرأة فأنفذ إليه معز الدولة جيشاً ثانياً فكان نصيب هذا الجيش الفشل وغنم عمران ما كان فيه من السلاح فقوي وطمع أصحابه في السلطان فصاروا إذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرقة والخفارة فإن أعطاهم وإلا ضربوه وكان الجند لا بد لهم من العبور عليهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة وغيرها ثم انقطع الطريق إلى البصرة إلا على الظهر فشكا الناس ذلك إلى معز الدولة فكتب إلى وزيره المهلبي بالمسير إلى واسط وأمده بالجيوش فزحف إلى البطيحة وضيق على عمران فانتهى إلى المضايق التي لا يعرفها إلا هو وأصحابه فهجم عليهم المهلبي وكان عمران قد جعل الكمناء في تلك المضايق فلما تقدم المهلبي خرج عليه وعلى أصحابه الكمناء ووضعوا

فيهم السلاح فقتلوا وأغرقوا وأسروا وألقى المهلبي نفسه في الماء فنجا سباحة وأسر عمران القواد والأكابر فاضطر معز الدولة إلى مصالحته وإطلاق من عنده من أهل عمران وإخوته فأطلق عمران من في أسره من أصحاب معز الدولة وقلده معز الدولة البطائح فقوي واستفحل أمره وقد استمر ملك عمران بن شاهين بالبطيحة من سنة ٣٢٩ إلى سنة ٣٦٩ أي أربعين سنة كان فيها شجافي حلق بني بويه لا يقدرون منه على شيء وانتقل الملك منه إلى أعقابه ومواليهم إلى سنة ٤٠٨ وهذا ثبتهم:

(١) عمران بن شاهين	٣٢٩ - ٣٦٩
(٢) الحسن بن عمران	٣٦٩ - ٣٧٢
(٣) أبو الفرج بن عمران	٣٧٢ - ٣٧٣
(٤) أبو المعالي بن الحسن بن عمران	٣٧٣ - ٣٧٣
(٥) المظفر بن علي وزير عمران وابنه الحسن بالتغلب	٣٧٣ - ٣٧٦
(٦) مهذب الدولة أبو الحسن علي بن نصر بن أخت المظفر	٣٧٦ - ٤٠٨
(٧) أبو الحسن بن مهذب الدولة	٤٠٨ - ٤٠٧
(٨) عبد اللّه بن نسي بالتغلب	٤٠٨ - ٤٠٨

ثم صارت البطيحة متغلباً لكثير من الأقوياء يتلقاها أحدهم عن الآخر بطريق التغلب والقوة إلى انتهاء الدولة السلجوقية فعادت إلى خلفاء بغداد.

لم يكن عهد معز الدولة ببغداد إلا شرا كله من جراء الاختلافات والحروب الداخلية والخراب وضعف هيبة السلطان. ولما أحس بقرب منيته وصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته في كل ما يفعل وبطاعة عضد الدولة ابن عمه لأنه أكبر منه سناً وأقوم بالسياسة. ثم أدركته منيته في ١٣ ربيع الآخر سنة ٣٥٦.

ومما حصل من حوادث أهل بيته في عهد وفاة عمه عماد الدولة علي بن بويه سنة ٣٣٨ باصطخر ولما لم يكن له ولد ذكر طلب من أخيه ركن الدولة أن يرسل اليه ابنه فناخسرو الملقب عضد الدولة فأجابه فولاه عهده ولما توفي قام

عضد الدولة بأمر فارس من بعده وانتقلت إمرة الأمراء إلى أخيه ركن الدولة الحسن.

(ثانيا) عز الدولة بختيار:

وهو ابن معز الدولة أحمد بن بويه ولي العراق بعد وفاة أبيه واستمر في سلطانه إلى أن خلعه ابن عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧ فكانت مدته ١١ سنة قضى منها سبع سنين في خلافة الفضل المطيع وكانت البلاد في سلطانه أسوأ حالاً منها في سلطان أبيه فإنه اشتغل باللهو واللعب وعشر ةالنساء والمغنين وشرع في إيحاش كاتبي أبيه أبي الفضل العباس بن الحسين وأبي الفرج محمد بن العباس مع أن أباه أوصاه بتقريرهما لكفايتهما وأمانتهما وأوحش سبكتكين أكبر القواد فلم يحضر داره ونفي كبار الديلم شرها إلى إقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم فاتفق أصاغرهم عليه وطلبوا الزيادات فاضطر إلى مرضاتهم واقتدى بهم الأتراك فعملوا مثل ذلك ولم يتم له على سبكتكين ما أراد من اغتياله لاحتياطه واتفاق الأتراك معه وخرج الديلم إلى الصحراء وطلبوا بختيار بإعادة من سقط منهم فاحتاج أن يجيبهم إلى ما طلبوا وفعل الأتراك أيضاً مثل فعلهم وفي أول عهده قبض أولاد ناصر الدولة بن حمدان ملك الموصل على أبيهم واستقر في الأمر منهم ابنه أبو تغلب وضمن البلاد من عز الدولة بألف ألف ومائتي ألف درهم كل سنة وكذلك مات سيف الدولة على بن عبد اللّٰه بن حمدان صاحب حلب وقام مقامه ابنه أبو المعالي شريف. ومات كافور الأخشيدي صاحب مصر سنة ٣٥٦ وبموته اضطرب أمرها وتهيأت الفرصة للفاطميين. ومات وشمكير بن زيار وهو يحارب ركن الدولة علي بلاد الري يريد استردادها منه وقام بأمر ملكه بعده ابنه بيستون بن وشمكير سنة ٣٥٧ ومات أيضاً نقفور الذي ملك الروم وهدد الثغور الشامية والجزرية وأذاقها الوبال.

حال الثغور الاسلامية في عهد المطيع:

كانت الثغور الإسلامية لذلك العهد في حوزة سيف الدولة علي بن حمدان الذي كان متغلباً على حلب والعواصم وديار بكر فكان هو الذي يقوم بحمايتها ودفع العدو عنها. وكان قد ولي هذه الثغورر مولاه نصراً فكانا يتناوبان

الغزو ولكن لم تكن بهما الكفاية لمقاومة عدو كانت الخلافة الكبرى تحتد لـه وتهتم أعظم الاهتمام بأمره.

وفي سنـة ٣٣٧ سار سيف الـدولة بنفسـه إلى بـلاد الـروم فلقـوه فـاقتتلوا فكانت عليه وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بـأهل طـرسوس. وفي السنـة التي تليها دخل غازياً فكان له النصر أولا ولكنه توغل في البـلاد فلما أراد العودة أخـذ عليه الـروم المضايق فهلك من كـان معه من الجنـد أسراً وقتـلا واسترد الـروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة في عدد يسير.

وفي سنـة ٣٤١ ملك الروم مـدينة سـروج وسبـوا أهلهـا وغنمـوا أمـوالهم وخربوا المساجد.

وفي سنة ٣٤٣ غزا سيف الدولة البـلاد الروميـة وكان لـه بها نصر عـظيم وقتل في تلك الواقعـة قسطنـطين بن الدمستق وقـد عظم مقتله عـلى أبيه فجمـع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار إليه سيف الدولة فـالتقوا عنـد الحدث في شعبـان فاشتـد القتال وصبـر الفريقـان وكانت العـاقبـة للمسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عـظيم وأسر صهر الـدمستق وابن بنتـه وكثـير من بـطارقتـه والـدمستق عنـد الـروم الـرئيس الأكبـر للجيش والبطارقة قواده.

وفي سنة ٣٤٥ سار سيف الدولة إلى بلاد الروم في جيوشه حتى وصـل إلى خرشنة وفتح عدة حصون ثم رجع إلى أذنة فأقام بها حتى جـاءه رئيس طرسـوس فخلع عليه وأعطاه شيئاً كثيراً ثم عـاد إلى حلب فلما سمع الـروم بما فعـل جمعوا جموعهم وساروا إلى ميافارقين بديـار ربيعة فـأحرقـوا سوادهـا ونهبوه وسبـوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا ولم يكتفوا بذلك بل ساروا في البحر إلى طرسوس فأوقعوها بأهلها وقتلوا منهم ١٨٠٠ رجل وأحرقوا القرى التي حولها. ثم غزوها مرة ثانيـة سنـة ٣٤٧ وغزوا الـرها ففعلوا بهـا الأفاعيـل وعادوا سـالمين لم يكلم أحـد منهم كلما.

وفي سنة ٣٤٩ سار سيف الدولة إلى بـلاد الروم في جمـع عظيم فـأثر فيهـا

آثاراً شديدة وفتح عدة حصون وبلغ إلى خرشنة ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأي أن ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأيٍ غيره وعاد من الدرب الذي دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلا وأسرا وتخلص هو في ٣٠٠ رجل بعد جهد وهذا من سوء رأي المستبدين.

وفي سنة ٣٥٠ سار قفل عظيم من أنطاكية إلى طرسوس ومعهم صاحب أنطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيه من المسلمين وقتل كثيراً منهم وأفلت صاحب أنطاكية وبه جراحات.

وفي سنة ٣٥١ غزا الدمستق عين زربة وهي من أحصن مدن الثغور فاستولى عليها وقتل أهلها ولم يرحم شيخاً ولا صبياً وأفلت قليل منهم هربوا على وجوههم فماتوا في الطرقات وفتح حول عين زربة ٥٤ حصناً للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان وقد حصل أن حصناً من هذه الحصون التي فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه فتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق من ذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا ٤٠٠ رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق ولما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية وكان صاحب طرسوس قد خرج في ٤٠٠٠ رجل فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم وكان صاحب طرسوس قد قطع خطبة سيف الدولة فلما رأوا ما أصابهم من الوهن أعاد أهل البلد خطبة سيف الدولة وراسلوه بذلك وراسل أهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم.

وفي هذه السنة استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة ملك سيف الدولة فخرج عنها سيف الدولة منهزماً بعد أن قتل أكثر أهل بيته وظفر الدمستق بأموال سيف الدولة وكنوزه وأسلحته وخرب داره التي كانت بظاهر حلب وسبى من حلب وحدها بضعة عشر ألف صبي وصبية وقتل أكثر من ذلك ولما لم يبق

مع الروم ما يحملون عليه غنائمهم أمر الدمستق بإحراق الباقي وأحرق المساجد وأقام بحلب تسعة أيام أراد الانصراف عنها فانصرف عازماً على العودة. وظهر بذلك غلبة الروم على المسلمين إلا أن هؤلاء كانوا يغيرون أحياناً بقيادة سيف الدولة أو أحد غلمانه ولكنهم لا يؤثرون عظيم أثر.

وفي سنة ٣٥٣ حصر الدمستق مدينة المصيصة ولكن أهلها أحسنوا الدفاع عنها فأحرق الروم رستاقها ورستاق أذنة وطرسوس لمساعدتها أهل المصيصة، ثم إن إنساناً وصل إلى الشام من خراسان ومعه خمسة آلاف متطوع للجهاد فأخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم فوجدوا الروم قد عادوا فتفرق الغزاة الخراسانية في الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم إلى بلادهم. وبعد تراجع الأسعار عاد ملك الروم إلى طرسوس فحصرها وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة وقاوم الطرسوسيون مقاومة يحمدون عليها فحصرهم الروم ثلاثة أشهر ولم يأتهم جند يردهم لا من قبل سيف الدولة ولا غيره حتى اشتد الغلاء على الروم وكثر بينهم الوباء فاضطروا إلى الرحيل.

وفي سنة ٣٥٤ ألح نقفور على المصيصة بالحرب حتى فتحها عنوة ووضع السيف في أهلها فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف عنها ونقل كل من بها إلى بلاد الروم وكانوا نحواً من مائتي ألف إنسان ثم سار إلى طرسوس فحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الأمان فأجابهم إليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقي ففعلوا ذلك وساروا براً وبحراً وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلاً لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا في طاعة الملك وتنصر بعضهم. ومن غرائب العقول أن يجري هذا كله بثغور الإسلام والخلاف والشقاق قد استحكم أمرهما بين ولاة المسلمين وأمرائهم.

وفي سنة ٣٥٨ دخل ملك الروم الشام فلم يمنعه أحد فسار في البلاد الى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبي من فيها ثم قصد حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع إلى بلدان

الساحل فأتى عليها نهباً وتخريباً وملك ثمانية عشر منبراً فأما القرى فكثير لا يحصى وأقام في بلاد الشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف الروم أحياناً وأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم هيبة عظيمة في قلوب المسلمين وقد عاد ملك الروم ذلك ومعه من السبي مائة ألف رأس ولم يأخذوا إلا الصبيان والصبايا والشبان فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه.

وكانت هذه الحوادث الجلى سبباً لازدياد الهياج ببلاد خراسان وتنادى الناس بالنفير العام لحماية الثغور الإسلامية فتطوع منهم عشرون ألفاً عليهم قائد منهم وكان فيهم أبو بكر محمد إسماعيل بن القفال الشاشي أحد أئمة الشافعة بما وراء النهر. ومما يحزن أن هذا الجيش المتطوع اضطر إلى المرور ببلاد الجبل التي في حوزة ركن الدولة وهو ديلمي يكرهه أهل خراسان ويعتقدون أن الديلم هم سبب كل هذه البلايا فحصلت فتن بين المتطوعين والديلم وكانت نتيجتها أن حاربهم ركن الدولة وشتت شملهم.

وفي سنة ٣٥٩ ملك الروم مدينة أنطاكية وهي حاضرة الثغور وأضخمها وأخذوا منها سبياً يزيد على عشرين ألفاً كلهم شباب صبيان وصبايا وأخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد ليذهبوا حيث يشاءون. ولما تم لهم ملك أنطاكية غزوا حلب وبها قرعويه السيفي غلام سيف الدولة وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة يحاربه فلما سمع بخبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عن الروم أما هؤلاء فجاءوا وحصروا البلد فتحصن قرعويه بقلعتها واستولى الروم على البلد ثم صالحهم قرعويه عل مال يؤديه لهم وأعطاهم رهائن على ذلك.

وفي سنة ٣٦١ أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك بديار بكر ولم يكن من أبي تغلب بن حمدان في ذلك حركة ولا سعي في دفعه ولكنه حمل إليه ما لا كفه به عن نفسه فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنصرين وقاموا

في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي فاستعظم ذلك الناس وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم أنه لا مانع منهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وغلقت الأبواب وكان بختيار حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال عمران بن شاهين (صاحب البطيحة) وهو مسلم وترك جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الإسلام حتى توغلوها فوعدهم التجهز للغزو وأرسل الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهز وأن يستنفر العامة ففعل سبكتكين ذلك فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره بإعداد الميرة والعلوفات ويعرفه عزمه على الغزو فأجابه بإظهار السرور ووإعداد ما طلب منه ثم أنفذ بختيار إلى المطيع للّه يطلب منه مالا فقال المطيع إن الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبى إلي الأموال وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيء من ذلك وإنما يلزم من البلاد في يده وليس لي إلا الخطبة فإن شئتم أن اعتزل فعلت وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال إلى تهديد الخليفة فبذل المطيع ٤٠٠ ألف درهم فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وشاع بين الناس من أهل العراق وخراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر فلما قبض بختيار المال صرفه في مصالحه وبطل حديث الغزو.

وفي سنة ٣٦٢ كانت واقعة بين الدمستق وبين هبة اللّه بن ناصر الدولة بن حمدان وكان الروم يريدون الاستيلاء على آمد فاستعد له أبو تغلب وأرسل أخاه هبة اللّه فواقع الدمستق في مضيق لا تجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأسر الدمستق ولم يزل محبوساً إلى أن سرض سنة ٣٦٣ فبالغ أبو تغلب في علاجه وجمع الأطباء له فلم ينفعه ذلك ومات.

هذه كانت الحال في خلافة المطيع استرد الروم فيها جميع الثغور الإسلامية الكبرى وصارت لهم الهيبة في قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضاً وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون.

ومما حصل في عهد المطيع من الحوادث انتقـال خلفاء الفـاطميين إلى مصر بعد استيلاء جوهر الصقـلي عليها وذلـك سنة ٣٦١ في عهـد الخليفة المعـز لدين اللّه معد الفاطمي .

موت المطيع :

لم يكن للمطيع عمل ولا تاريخ يذكر وقد فلج فأشار عليه سبكتكين مقدم الأتراك أن يعتزل فلم يجد من الامتثال بـداً فخلع نفسه في منتصف ذي القعـدة سنة ٣٦٣ .

٢٤ ـ الطائع

هو أبو الفضل عبد الكريم الطائع للّه بن المطيع بن المقتدر بن المعتضد ولد سنة ٣١٧ وبويع له بالخلافة بعد خلع أبيه المطيع (١٨ أغسطس سنة ٩٧٤) واستمر خليفة إلى أن خلع في ٢١ رجب سنة ٣٨١ (أكتوبر سنة ٩٩١) فكانت مدته ١٧ سنة وثمانية أشهر وستة أيام.

كانت خلافة الطائع والسلطان بالعراق لخمسة من بني بويه وهم:

أولا ـ عز الدولة بختيار بن معز الدولة إلى سنة ٣٦٧.

ثانياً ـ عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه إلى سنة ٣٧٢.

ثالثاً ـ صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة إلى سنة ٣٧٦.

رابعاً ـ شرف الدولة أبو الفوارس سيرزيل بن عضد الدولة إلى سنة ٣٧٩.

خامساً ـ بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة.

ويعاصره في بلاد الأندلس الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦) وهشام بن الحكم (٣٦٦ ـ ٣٩٩) وهو الذي كان يحجبه المنصور بن أبي عامر.

وبأفريقية وصقلية يوسف بن بلكين بن زيري الصنهاجي نيابة عن الفاطميين إلى سنة ٣٧٣ وخلفه ابنه المنصور يوسف إلى سنة ٣٨٦.

وبمصر والشام والحجاز المعز لدين الله معدة الفاطمي إلى سنة ٣٦٥ وخلفه ابنه العزيز بالله إلى سنة ٣٨٦.

وباليمن من آل زياد أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم إلى سنة ٣٧١ ثم عبد الله ابن إسحاق الى سنة ٣٩٠.

وبصنعاء من آل يعفر عبد الله بن قحطان إلى سنة ٣٨٧ وهو آخر أمراء هذه الدولة.

وبحلب سعد الدولة أبو المعالي شريف بن سيف الدولة إلى سنة ٣٨١.

وبالموصل عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة إلى سنة ٣٦٩ ثم أبو طامر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة إلى سنة ٣٨٠ وفيها انتهت الدولة الحمدانية بالموصل وقام على أثرها الدولة العقيلية. وأولها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلي أمير بني عقيل.

وفي ديار بكر ابتدأت الدولة المروانية الكردية على أنقاض دولة بني حمدان وأول هذه الدولة أبو علي الحسين بن مروان الذي ابتدأ ملكه سنة ٢٨٠.

وبخراسان وما وراء النهر الدولة السامانية وأميرها نوح بن منصور الساماني (٣٦٦ - ٣٨٧).

وبجرجان الدولة الزيادية والأمير ظهير الدولة بيستون بن وشمكير إلى سنة ٣٦٦ وخلفه شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى سنة ٤٠٣.

وقد ابتدأت في أيام الطائع الدولة السبكتكينية بمدينة غزلة وجدت على أطلال الدولة السامانية وصارت تنتقص أرضها الخراسانية التي غربي نهر جيحون وكانت دولة الأتراك الإيلكخانية تنتقص أملاكها فيما وراء النهر. وأما بلاد فارس والأهواز والري والجبال والعراق فهي بيد بني بويه يتناوبونها كما سيأتي توضيحه.

ويعاصره الطائع بفرنسا لونار الى سنة ٩٨٦ ثم لويز الخامس الملقب بالكسلان إلى سنة ٩٢٧ ثم هو في كابات أول الأسرة الكاباسيانية الى سنة ٩٩٦.

وباستريا أول ملك من جماعة المارغرف وهوليوبولد الأول كونت دوبابنبرج (٩٨٢ - ٩٩٤).

ولي الطائع وأمر بختيار مضطرب لأن الأتراك وفي مقدمتهم سبكتكين قد تباعد ما بينهم وبينه وكانت العامة من أهل السنة تنصر سبكتكين لكراهة ما كان عليه بنو بويه من التشيع الشديد الذي كان سبباً لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التي كانت محلة الشيعة وظهر أهل السنة عليهم فكتب بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصبهان وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألها أن يساعداه على الأتراك فجهز إليه ركن الدولة جنداً مع وزيره ابن العميد وأما عضد الدولة فكان ميالاً إلى ملك العراق فتربص ببختيار الدوائر كرر إليه بختيار الكتب يستغيث به ويستحقه فلما رأى عضد الدولة أن الأمر قد بلغ ببختيار ما يرجوه سار نحو العراق ظاهره رحمة لبختيار وباطنه إرادة الاستيلاء على العراق فسار إلى واسط منها إلى بغداد فتغلب على عساكر الأتراك في ١٤ جمادي الأولى سنة ٣٦٤ ودخل بغداد ظافراً وكان يريد القبض على بختيار فوسوس إلى جنده أن يثوروا عليه ويشغبوا ويطالبوه بالأموال ففعلوا ولم يكن مع بختيار ما يسكنهم به وأشار عليه عضد الدولة ألا يلتفت إلى شكواهم ويغلظ في معاملتهم ففعل ذلك فاستمر هذا الحال أياماً وحينئذ استدعى بختيار هو وإخوته اليه وقبض عليهم وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الإمارة وعجزه عنها ووعد الجنود بالإحسان إليهم وأظهر الخليفة سروره مما تم لأنه كان منافياً لبختيار وقد قابله عضد الدولة بأن أظهر من رسوم الخلافة وتعظيمها ما كان قد نسي وترك وأمر بعمارة دار الخلافة والإكثار من الآلات وعمارة ما يتعلق بالخليفة وحماية أقطاعه.

بلغ ذلك كله ركن الدولة فاستاء منه جداً كاتبه محمد بذلك محمد بن بقية وزير بختيار الذي استاء أيضاً مما جرى ونافر عضد الدولة وجمع الجيوش لحربه فأرسل إليه ركن الدولة يقويه ما هو بسبيله ويخبره أنه سائر بنفسه إلى العراق لإخراج عضد الدولة عنه فكان ذلك سبباً لاضطراب الأمر على عضد الدولة ولم يقبل في ذلك قول قائل لأنه كان يحب أخاه معز الدولة والد بختيار حباً شديداً

ولما وجد ذلك عضد الدولة لم يسعه إلا إعادة بختيار إلى ملكه والمسير إلى فارس.

لم يطل الأمر إلا بمقدار ما توفي ركن الدولة سنة ٤٦٦ فاستولى ابنه عضد الدولة على ملكه بعهد منه وما عتم أن تجهز إلى بغداد وأرسل إلى بختيار يطلب منه الطاعة وأن يسيره عن العراق إلى أي جهة شاء وضمن مساعدته بما يحتاج إليه من مال وسلاح فأجاب بختيار إلى ذلك وسلم إلى عضد الدولة وزيره الأمير محمد بن بقية ثم سار حتى دخل بغداد وخطب له بها ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد ببغداد وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر بأن يلقى ابن بقية بين قوائم الفيلة لتقتله ففعل به ذلك وصلب على رأس الجسر في شوال سنة ٣٦٧ وهو الذي رثاه أبو الحسين الأنباري بقصيدته المشهورة التي أولها:

علو في الحياة وفي الممات　　لحق أنت إحدى المعجزات

استقر ملك عضد الدولة بالعراق وما معهما من ملك أبيه ومحمد ثم سار نحو الموصل فملكها وأقام بها مطمئناً وأزال عنها الدولة الحمدانية وبث سراياه في طلب أبي تغلب الحمداني فهرب أبو تغلب على وجهه إلى بلاد الروم وفتحت الجنود العضدية جميع ديار بكر وديار ربيعة ثم افتتح ديار مضر إلى الرقة وجعل باقيها في يد سعد الدولة ابن سيف الدولة صاحب حلب وبذلك اتسعت أملاك عضد الدولة وصار له العراق والجزيرة والأهواز وفارس والجبال والري ثم دخلت في حوزته جرجان سنة ٣٧١ أخذها من صاحبها قابوس بن وشمكير.

لم يقم في آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة وإقداماً وكان عاقلاً فاضلا حسن السياسة والإصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأي محباً للفضائل واهباً باذلاً في موضع العطاء مانعاً في مواضع الحزم ناظراً في عواقب الأمور وهو الذي بني على مدينة رسول الله ﷺ سوراً إلا أنه كان مع ذلك فخوراً يميل إلى اللهو واللعب ومن شعره:

ليس شرب الكاس إلا في المطر　　وغناء من جوار في السحر

غـانيـات سـالبـات لـلنهي ... نـاغمات في تضـاعيف الـوتـر
مبـرزات الكاس من مـطلعهـا ... سـاقيات الـراح من فاق البشر
عضـد الـدولـة ابن ركنهـا ... ملك الأمـلاك غـلاب القـدر

وهذا غلو كبير. ومن فضله أنه كان لا يعـول في أموره إلا عـلى الكفاة ولا يجعل للشفاعات طريقاً إلى معارضه من ليس من جنس الشافع ولا فيما يتعلق به حكي عنه أن مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع في بعض أبناء العـدول ليتقدم إلى القاضي ليسمع تـزكيته ويعـدله فقـال له ليس هـذا من أشغالـك إنما الـذي يتعلق بك الخطاب في قائد ونقل مرتبة جندي وما يتعلق بهم وأما الشهادة وقبولها فهي إلى القاضي وليس لنا ولا الكلام فيه ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجـوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة. وكـان يخرج في ابتـداء كل سنـة شيئاً كثيراً من الأموال للصـدقة والبـر في سائـر بلاده ويـأمره بتسليم ذلـك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه وكان يـوصل إلى العمـال المتعطلين مـا يقوم بهم ويحاسبهم إذا عملوا. وأما اهتمامه بالعلم فكثير ويذكر ذلك في تاريخ العلوم في الدول الإسلامية.

ومما يعد من سيئـاته أنـه أحدث في آخـر أيامـه رسومـا جائـرة في المساحـة والضـرائب على بيـع الدواب وغيـرها من الأمتعـة ومنـع من عمـل الثلج والقـز وجعل ذلك متجراً خاصاً وكان يتوصل إلى أخـذ المال بكـل طريق. تـوفي عضد الدولة في شوال سنة ٣٧٢.

اجتمع القواد بعد وفاته على بيعة ابنه أبي كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة وكان إخوته وبنو أعمامه متفوقين في الولايات فأخوه شرف الدولة شيرزيل بفارس وعمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه بجرجان.

مكث صمصـام الدولـة قائـماً بأمـر العـراق واضـطراب لا حق من جـراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه فإنه أظهر مشاقته وقطع خـطبته فسـير إليه جيشـاً كانت عاقبته الهزيمة.

وخرجت عن يده بلاد الموصل استولى عليها الأكراد وعليهم شجاع باذ بن

دوستك وهو من الأكراد الحميدية وكان ابتداء أمره أنه كان يغزو كثيراً بثغور ديار بكر وكان عظيم الخلقة وله شدة وبأس فلما ملك عضد الدولة حضر عنده ثم فاته لما تخوف منه وذهب إلى ثغور ديار بكر وأقام بها إلى أن استفحل أمره وقوي ملك ميافارقين وغيرها من ديار بكر بعد موت عضد الدولة ووصل بعض أصحابه إلى نصيبين فاستولى عليها فجهز إليه صمصام الدولة العساكر فانهزمت وقوي أمر باذ وغلب جيوش الديلم ثم سار إلى الموصل فملكها وحدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد وإزالة الديلم عنها فخافه صمصام الدولة وأهمه أمره وأعد له جيشاً عظيماً مستوفي العدة فلقوه بظاهر الموصل وهزموه هزيمة منكرة فخرج منها ثم انتهى الحال بالصلح بين الديلم وباذ على أن يكون لباذ ديار بكر والنصف من طور عبدين.

كانت هذه الاضطرابات والمشاغل سبباً لأن شرف الدولة صاحب فارس تجهز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق فسار بجيشه سنة ٣٧٥ فاستولى على الأهواز من يد أخيه أبي الحسن الملقب بتاج الدولة ثم سار إلى البصرة فملكها. بلغ الخبر صمصام الدولة فراسله في الصلح فاستقر الأمر بينهما على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق بعد صمصام الدولة ويكون هذا نائباً عنه فصلح الحال واستقام وخطب لشرف الدولة بالعراق وسيرت إليه الخلع من الطائع للّه فلما وردته الرسل بذلك ليحلفوه عاد عن الصلح وعزم على قصد بغداد والاستيلاء عليها ونفذ تلك العزيمة فلما وصل واسط ملكها فاتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند فوقع رأيه على اللحاق بأخيه والدخول في طاعته فسار إليه فقبض عليه شرف الدولة وسار إلى بغداد فدخلها في رمضان سنة ٣٧٦ وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهراً.

ومن أحدث هذا البيت في عهد وفاة عمه مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة صاحب جرجان واستيلاء أخيه فخر الدولة على بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد والوزير الكبير الصاحب بن عباد.

ملك شرف الدولة شيرزيل بغداد بعد صمصام الدولة بسنتين وثمانية أشهر وقد ابتدأ عهده باضطراب وفتن بين جنود الديلم والترك ببغداد أدى إلى

قتال بينهم وقد بذل شرف الدولة جهده حتى أزال من بينهم الخصام ومن فضائل شرف الدولة أنه منع الناس من السعايات ولم يقبلها فأمن الناس وسكنوا.

وكانت وفاة شرف الدولة في جمادي الآخرة سنة ٣٧٩.

تولى العراق بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر. ولأول تولية تجددت الاضطرابات بين الترك والديلم وأدت إلى قتال دام خمسة أيام وانضم بهاء الدولة إلى الأتراك فاشتد الأمر على الديلم ومع ما حصل من الصلح بين الفريقين فإن الديلم قد ضعفت شوكتهم وتغلب الأتراك عليهم. وكانت بينه وبين آل بيته فتن كثيرة بسبب طمعهم فيما بيده من الملك ومحاولتهم سلبه منه ولكنهم أخفقوا.

وفي سنة ٣٨١ قبض بهاء الدولة على الطائع لله وذلك أن الأموال قلت عنده فصغب عليه الجند فأطمعه وزيره في أموال الخليفة وحسن له القبض عليه فأرسل إلى الطائع وسأله الإذن في الحضور ليجدد العهد به فأذن له في ذلك وجلس له كما جرت العادة فدخل إليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسي فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل الخليفة فجذبه فأنزل عن سريره والخليفة يقول إنا لله وإنا إليه راجعون ويستغيث فلا يلتفت إليه وأخذ ما في داره من الذخائر ومن قول الشريف محمد بن الحسين الرضي في ذلك:

من بعد ما كان رب الملك مبتسماً	إلى أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه	لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني	يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغتر بالسلطان ثانية	قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما حمل الطائع إلى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع.

٢٥ ـ القادر

هو أبو العباس أحمد القادر بالله ابن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد وأمه ولد اسمها دمنة بويع بالخلافة في ١٢ رمضان سنة ٣٨١ (٣ أكتوبر سنة ٩٩١) واستمر خليفة إلى أن توفي في غاية ذي الحجة سنة ٤٢٢ (١٨ ديسمبر سنة ١٠٣١) فكانت مدته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً.

كان أبو العباس لما مات أبوه إسحاق بن المقتدر جرى بينه وبين أخت له منازعة في ضيعة وطال الأمر بينهما ثم إن الطائع مرض مرضاً أشفى منه ثم أبل فسعت إليه بأخيها وقالت له إنه شرع في طلب الخلافة عند مرضك فتغير رأيه فيه وأرسل في القبض عليه فلما وصلت إليه رسل الطائع خرج عن داره واستتر ثم سار إلى البطيحة فنزل على صاحبها مهذب الدولة أبي الحسن علي بن نصر صاحب البطيحة فأكرم نزله ووسع عليه وحفظه وبالغ في خدمته وكان ذلك في سنة ٣٧٩ فأقام عنده حتى قبض بهاء الدولة على الطائع فذكر من يصلح للخلافة فأجمع رأيه ورأي مستشاريه على أبي العباس فأرسل إليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد ليتولى الخلافة وشغب الديلم ببغداد ومنعوا من الخطبة فقيل على المنبر (اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله) ولم يذكروا اسمه. ولما وصلت الرسل إلى القادر بالله انحدر معهم وقام مهذب الدولة بخدمته خير قيام وحمل إليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه فسار القادر بالله إلى بغداد فلما دخل جيل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وساروا في خدمته فدخل دار الخلافة ثاني عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضان.

والقادر هو ثالث خليفة عباسي لم يكن أبوه خليفة.

معاصرو القادر من الملوك:

كان الخليفة بالأندلس هشام بن الحكم الملقب بالمؤيد إلى سنة ٣٩٩ ثم خلفه محمد المهدي بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر إلى سنة ٤٠٣ وقد ثار عليه سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فأخذ منه قرطبة وكانت بينهما خطوب إلى أن قتل المهدي وانتهت مدة المستعين ٤٠٨ ثم كانت البلاد الأندلسية ميداناً النزاع بين أعقاب الأمويين والعلويين من ذرية إدريس بن عبد الله فكانت الحال هناك في اضطراب يشبه ما كان في الشرق ويزيد عليه.

وكان الأمير بأفريقية من آل زيري النائبين عن الدولة الفاطمية المنصور بن يوسف بلكين الى سنة ٣٨٦ ثم ابنه باديس إلى سنة ٤٠٦ ثم المعز بن باديس إلى سنة ٤٥٣ وكان الخليفة بمصر والشام من الدولة الفاطمية العزيز بالله نزال إلى سنة ٣٧٦ ثم ابنه الحاكم بأمر الله منصور إلى سنة ٤١١ ثم ابنه الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤٢٧.

وفي عهده ابتدأت الدولة النجاحية بزبيد على أطلال الدولة الزيادية وكان ابتداؤها على يد المؤيد نجاح سنة ٤١٢ وهو مولى موالي آل زياد وأصله عبد حبشي سمت به همته إلى أن تولى ملك تهامة اليمن وعاد إليها وقد استمر ملكها فيه وفي أعقابه إلى سنة ٥٥٤ وهذا ثبتهم.

(١) المؤيد نجاح	٤١٢ - ٤٥٢
فترة على الداعي الصليحي	٤٥٢ - ٤٧٣
(٢) سعيد الأحوال بن نجاح	٤٧٣ - ٤٨٢
(٣) جياش بن نجاح	٤٨٢ - ٤٩٨
(٤) فاتك بن جياش	٤٩٨ - ٥٠٣
(٥) منصور بن فاتك	٥٠٣ - ٥١٧
(٦) فاتك بن منصور	٥١٧ - ٥٣١

وانتقل الملك عنهم إلى الدولة المهدية وسيأتي حديثها إذ ذاك.

أما الجزيرة الفراتية وما إليها من حوض الفرات فكانت منقسمة إلى ثلاث إمارات وهي ديار ربيعة وحاضرتها الموصل وديار بكر وحاضرتها آمد وديار مضر وحاضرتها الرقة:

ففي عهد القادر ظهرت الدولة العقلية التي أسسها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع ابن مقلد العقيلي بالموصل ولم يكن له تمام الاستقلال بل كان معه نائب من قبل بهاء الدولة الديلمي إلا أن النفوذ الفعلي كان لأبي الذواد ولم يزل كذلك حتى توفي سنة ٢٨٦ فخلفه أخوه حسام الدولة المسيب بن المقلد. وكان الاتفاق أن يتولى الموصل والكوفة والقصر والجامعين ولم يزل يليها إلى أن قتل سنة ٣٩١ فخلفه ولده أبو المنيع معتمد الدولة قرواش بن المقلد ومن أهم حوادثه السياسية أنه خطب للحاكم بأمر اللّٰه العلوي صاحب مصر بأعماله كلها وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها وكان ابتداء الخطبة بالموصل (الحمد للّٰه الذي انجلت بنوره غمرات العصب وانهدت بقدرته أركان النصب وأطلع بنوره شمس الحق من العرب) فأرسل القادر باللّٰه القاضي أبا بكر بن الباقلاني شيخ الأشعرية ببغداد الى بهاء الدولة يعرفه ذلك فأكرم بهاء الدولة القاضي وكتب إلى نائبه ببغداد يأمره أن يسير لحرب قرواش فسار عميد الجيوش لحربه ولما علم بذلك أرسل يعتذر وأعاد خطبة القادر باللّٰه.

وقد استمرت هذه الدولة العربية بالموصل إلى سنة ٤٨٩ وانتهت على يد السلاجقة كما انتهت الدولة الديلمية وهذا ثبت ملوكها.

(١) حسام الدولة المقلد بن المسيب	٣٨٦ ـ ٣٩١
(٢) معتمد الدولة قرواش بن المقلد	٣٩١ ـ ٤٤٢
(٣) زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد	٤٤٢ ـ ٤٤٣
(٤) علم الدولة أبو المعالي قرواش بن بدران بن المقلد	٤٤٣ ـ ٤٥٣
(٥) شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قرواش	٤٥٣ ـ ٤٧٨

(٦) إبراهيم بن قرواش ٤٧٨ - ٤٨٦
(٧) علي بن مسلم بن قرواش ٤٨٦ - ٤٨٩

وفي ديار بكر ظهرت دولة الأكراد من آل مروان على يد مؤسسها أبي علي الحسين بن مروان قام بالأمر سنة ٣٨٠ بعد خاله باذ الذي قدمنا حديثه وضبط ديار بكر أحسن ضبط وأحسن إلى أهلها وألان جانبه لهم ثم تزوج ست الناس بنت سيف الدولة ولم يكن ملكا إلى أن قتل سنة ٣٨٧ فخلعه أخوه ممهد الدولة أبو منصور بن مروان الى أن قتل سنة ٤٠٢ فتولي بعده أخوه أبو نصر نصر الدولة أحمد بن مروان وهو واسطة عقد آل مروان فإن أيامه طالت وأحسن السيرة جداً وكان مقصوداً من العلماء في كافة الأقطار فكثروا ببلاده وممن قصده أبو عبد اللّٰه الكازروني وعنه انتشر مذهب الشافعي رحمه اللّٰه بديار بكر وقصده الشعراء فأجزل مواهبهم ويبقى كذلك إلى سنة ٤٥٣ وكانت الثغور معه آمنة وسيرته في رعيته أحسن سيرة وولي ابنه نظام الدولة نصر إلى سنة ٤٧٢ ثم منصور بن نصر إلى سنة ٤٨٩ وعلى يده انتهت دولتهم بملك آل سلجوق لها.

أما ديار مصر فقد استولى عليها لأول عهد القادر بكجور الذي كان واليا على دمشق للعزيز باللّٰه الفاطمي خليفة مصر وفي سنة ٣٨٧ عزله عنها فتوجه إلى الرقة فاستولى عليها وعلى الرحبة وما يجاورها ثم راسل بهاء الدولة ملك العراق في الإنضمام إليه وكات أيضاً باذ الكردي والمتغلب على ديار بكر وكذلك راسل سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب بأن يعود إلى طاعته ويعطي مدينة حمص كما كانت له فلم يجبه واحد منهم إلى شيء فبقي بالرقة يراسل جماعة من مماليك سعد الدولة ويستميلهم فأجابوه وحينئذ أغرى العزيز باللّٰه نزاراً صاحب مصر على قصد حلب فأجابه وأرسل إليه العساكر تتصرف بأمره ولكنه لم ينجح لأن سعد الدولة استعان عليه بوالي انطاكية الرومي وبالعرب الذين مع بكجور فكانت النتيجة فشل بكجور وقتله ثم سار سعد الدولة إلى الرقة فاستول عليها من وزير بكجور وأخذ أولاد بكجور وأمواله ثم أن سعد الدولة هلك بعقب ذلك فأرسل أهل الرحبة الى بهاء الدولة يطلبون اليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم فأنفذ لهم أميراً تسلمها ولم يتمكن من الاستيلاء على الرقة ولم تمكث الحال على

ذلك كثيراً فان البلاد انتقلت إلى حوزة العلويين من أصحاب مصر وصاحب؟ يخطب لهم بالرقة والرحبة إلا أن سلطانهم كان اسميا والنفوذ الى رؤساء القبائل المضرية فكان فيها أولاد أبو علي بن ثمال الخفاجي ثم استولى عليها عيسى ابن خلاط العقيلي ثم صار أمرها إلى صالح بن مرداس الكلابي وكان محسناً للرعية ويدعو للعلويين.

أما حلب فكان السلطان بها لأول عهد القادر بالله لسعد الدولة بن سيف الدولة ابن حمدان وكان قد عصى عليه بكجور الذي تقدم ذكره وهو أحد مماليك أبيه وغزاه من الرقة بعساكر خليفة مصر العلوي ولكنه لم يفز وقتل كما قدمنا وتسبب عن ذلك أن سعد الدولة أراد أن يأخذ دمشق ليأخذها من يد العزيز بالله فمات عقب خروجه سنة ٣٨٢ وعهد لابنه أبي الفضائل وأوصى به لؤلؤاً أحد مماليك أبيه سيف الدولة فلما توفي سعد الدولة قام ابنه مقامه وأخذ له لؤلؤ العهد على الأجناد.

كان خليفة مصر لا يزال يتطلع إلى الاستيلاء على حلب فسير إليها جيشاً من دمشق عليه منجوتكين أحد أمرائه ولما كانت عساكره كثيرة ولا قبل للؤلؤ بمقاومتها استنجد بملك الروم بسيل فأرسل إلى نائبه بأنطاكية يأمره أن ينجد أبا الفضائل فسار إليه بحلب حتى نزل على الجسر الجديد بالعاصي. ولما سمع منجوتكين الخبر سار إلى الروم ليقابلهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل وعبر إليهم العاصي وأوقع بهم وقعة شنيعة وسار إلى أنطاكية فنهب بلدهم وقراها وأحرقها. وأنفذ أبو الفضائل إلى بلد حلب فنقل ما فيه من الغلال وأحرق الباقي إضراراً بعساكر مصر. وعاد منجوتكين إلى حلب فحصرها فأرسل لؤلؤ إلى رؤساء المصريين يبذل لهم مالاً ليردوا منجوتكين عنهم هذه السنة بعلة تعذر الأقوات ففعلوا ذلك وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب فأجابهم وعاد الى دمشق ولكن ذلك لم يعجب العزيز بالله وكتب بإعادة الكرة على حلب وأرسل الأقوات من مصر إلى طرابلس بحراً ومنها إلى العسكر فنازل المصريون حلب وأقاموا عليه ثلاثة عشر شهراً فقلت الأقوات بحلب وعاد لؤلؤ إلى مراسلة ملك الروم متعضداً به وقال متى أخذت حلب أخذت أنطاكية وعظم عليك الخطب فجاء

ملك الروم منجداً له فلما علم نجوتكين بقرب وروده سار عن حلب فجاء ملك الروم فنزل عليها وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ ثم سار بسيل إلى الشام ففتح حمص وشيزر ونهبها وسار إلى طرابلس فنازلها فامتنعت عليه وأقام عليها نيفاً وأربعين ليلة ولما أيس منها عاد إلى بلاده. ولما علم العزيز بتلك الأخبار عظم الأمر عليه ونادى في الناس بالنفير لغزو الروم فحال موته دون ذلك.

لم يزل الأمر لأبي الفضائل حتى سنة ٤٠٢ حيث غزاه صالح بن مرداس الكلابي وكان السلطان الحقيقي في حلب للؤلؤ وكان يخطب باسم الحاكم بأمر الله العلوي بمقتضى اتفاق عقد بين الطرفين بعد الحوادث المتقدمة. غزاه صالح وبنو كلاب وغلبوه وأخذوه أسيراً وكان صالحاً أطلقه مقابل مائتي ألف دينار ومائة ثوب وإطلاق كل أسير عنده من بني كلاب. ثم أن غلاماً لابن لؤلؤ كان يتولى القلعة غدر به وكاتب الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته وأظهر العصيان لأستاذه فخرج ابن لؤلؤ من حلب إلى صاحب أنطاكية فأقام عنده وصارت حلب من البلاد التابعة لصاحب مصر يتناوبها نواب يرسلها من قبله حتى صار بيد إنسان من الحمدانية يعرف بعزيز الملك قدمه الحاكم واصطنعه وولاه حلب ولما مات الحاكم وولي الظاهر عصى عليه فوضعت ست الملك أخت الحاكم فراشا له على قتله فقتله.

وفي سنة ٤١٤ اتفق ثلاثة من أمراء العرب وهم حسان أمير طيء وصالح بن مرداس أمير بني كلاب وسنان بن عليان على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح بن مرداس ومن الرملة إلى مصر لحسان ودمشق لسنان. فقصد صالح حلب فاستولى عليها من يد عامل المصريين وكان الحلبيون يحبون صالحا لإحسانه إليهم ولسوء سيرة أمراء العلويين معهم فملك من بعلبك إلى عانة وأقام بحلب ست سنين وفي سنة ٤٢٠ جهز الظاهر صاحب مصر جيشاً سيره إلى الشام لقتال صالح وحسان وكان مقدم الجيش أبو شتكين البربري والالتقاء عند طبرية فقتل في الموقعة صالح وابنه ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح فجاء إلى حلب وملكها وكان يلقب بشبل الدولة وقد استمرت الدولة المرداسية بحلب إلى سنة ٤٧٢ وهذا ثبت ملوكها:

(١) صالح بن مرداس	٤١٤ - ٤٢٠
(٢) شبل الدولة أبو كامل نصر	٤٢٠ - ٤٢٩
الفاطميون	٤٢٩ - ٤٣٤
معز الدولة أبو علوان طمل بن صالح	٤٣٤ - ٤٤٩
الفاطميون	٤٤٩ - ٤٥٢
رشيد الدولة محمود بن شبل الدولة	٤٥٢ - ٤٥٣
معز الدولة (ثانيا)	٤٥٣ - ٤٥٤
أبو ذؤابة عطية بن صالح	٤٥٤ - ٤٥٤
رشيد الدولة(ثانية)	٤٥٤ - ٤٦٨
جلال الدولة نصر بن رشيد الدولة	٤٦٨ - ٤٦٨
أبو الفضل سابق بن رشيد الدولة	٤٦٧ - ٤٨٢

وهذا آخرهم وقد انتهى أمرهم على يد الدولة العقيلية التي تقدم ذكرها.

في المشرق:

كانت المملكة السامانية بما وراء النهر بخراسان تنهار قواعدها وتتزلزل جوانبها كان أميرها نوح بن منصور وقد نشأ بالشرق دولة تركية صاحب الأمر فيها شهاب الدين هارون بن سليمان بن أيلك خان المعروف ببغراخان وكانت دولته جديدة أمام دولة رثت بكثرة الاختلاف ففي سنة ٣٨٣ غزا بغراخان نوخان في بخارى بممالأة أبي الحسن سمجور أمير خراسان لنوح وكان القصد أن يملك الأول ما وراء النهر كله والثاني أقليم خراسان فسار بغراخان نحو بخارى واستولى على بلادها شيئاً بعد شيء. ثم نازل بخارى فاختفى نوح وملكها بغراخان ونزلها وخرج منها نوح مستخفياً فعبر النهر إلى آمد وأقام بها ولحق به أصحابه يريد إعادة الكرة على بخارى وصادف أن أصاب بغراخان مرض ثقيل اضطر بسببه للانتقال نحو بلاده وبينما هو سائر أدركه أجله ولما سمع نوح بذلك عاد إلى دار ملكه وولى الترك بعد بغراخان ابنه أيلك خان - ثم مات بعقب ذلك نوح سنة ٣٨٧ وخلفه ابنه منصور وبايعه الأمراء والقواد.

ولما بلغ آيلك خان وفاة نوح سار إلى سمرقند وسير الجنود لأخذ بخارى يقدمها فائق أحد القواد السامانية قبلا فاستولى عليها ولكنه اتفق مع منصور بن نوح أن يكون اسم الملك لمنصور والسلطان لفائق فاستمرت الحال ذلك إلى أن اتفق فائق وبكتوزون قائد الجنود السامانية على القبض على منصور فقبضا عليه وأقاما مقامه أخاه عبد الملك وهو صبي صغير وأعقب ذلك موت فائق وهو مدبر الأمر فارتبك أمرهم وكان نجم الدولة السبكتكينية قد بزغ بخراسان أيلك خان إلى بخارى وأظهر لعبد الملك المودة والموالاة والحمية له فظنوه صادقاً ولم يحترسوا منه وخرج إليه بكتوزون وبقية الأمراء فلما اجتمعوا قبض عليهم وسار حتى دخل بخارى يوم الثلاثاء عاشر ذي الحجة سنة ٣٨٩ فلم يدر عبد الملك ما يصنع فاختفى فنزل أيلك خان دار الإمارة وبث الطلب والعيون على عبد الملك حتى ظفر به فأودعه بافكند فمات بها وهو آخر ملوك الدولة السامانية وانقضت بموته دولتهم كأن لم تغن بالأمس وكانت هذه الدولة قد انتشرت ودخل في حوزتها من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر وكانت من الدولة العلمية الكبرى ولم يزل أمرهم على سداد حتى ظهرت دولة الترك الايكلخانية فأخذت منهم ولايات ما وراء النهر وظهرت دولة ابن سبكتكين فأخذت منهم خراسان.

الدولة السبكتكينية:

من ضمن أعمال الدولة السامانية غزنة وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة طرف خراسان وهي الحد بين خراسان والهند ويلفظها الخاصة غزنين وكان صاحب جيشها إسحاق بن البتكين وكان ضمن غلمانه سبكتكين وهو المقدم عنده وعليه مدار أمره قدم بخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أستاذه إسحاق فعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأي والصرامة وعاد معه إلى غزنة فلم يلبث إسحاق أن توفي فاجتمع جنده على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وخلال الخير فيه فوليهم وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال وكان يدخر من أقطاعه ما يعمل منه طعاماً لهم في كل أسبوع مرتين وكان جنده يطيعونه طاعة تامة فغزا بهم ما جاوره من بلاد الهند حتى خافه ملوك تلك البلاد ثم استولى على مدينة

بست وقصدار ولما رأى ملك الهند جيبال ما دهاه وأن بلاده تملك من أطرافها حشد جموعه وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فخرج هذا إليه من غزنة وأوقع به وقعة شنيعة على حدود بلاده فأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب صلحه فأجابه إلى ذلك على مال يؤديه إليه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها إليه واستقر الأمر على ذلك ولما أبعد ملك الهند ورأى نفسه في مأمن خاس بعهده فسار سبكتكين نحوه حتى وردلفان وهي من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الأصنام وأقام فيها شعار الإسلام ولما علم جيبال حشد الجيوش مرة ثانية لحرب سبكتكين فكان نصيبه الفشل والهزيمة فقوي سبكتكين بها الانتصار وأطاعه من أجله الأفغان والخلج.

وفي سنة ٣٨٤ لما ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية رأى الأمير نوح بن منصور أن يكل أمرها إلى سبكتكين ليكسر من جناح قواده الذين جاهروا بعصيانه فكتب إليه وهو بغزنة يطلعه على الأحوال، ويأمره بالمسير إليه لينجده وولاه خراسان فأجاب إلى ذلك سبكتكين وجمع العساكر وحشدها ولما بلغ قائدي نوح الخبر وهما فائق وأبو علي بن سيمجور راسلا فخر الدولة بن بويه يستنجدانه ويطلبان منه عسكراً فأجابهما إلى ذلك وسير إليهما عسكرا كثيراً وكانت الواقعة بين هذين الجيشين بنواحي هراة فكان الظفر لسبكتكين ثم سار نحو نيسابور التي انهزم إليها أبو علي وفائق فلما علما بالخبرسارا نحو جرجان واستولى نوح بن منصور بمعونة سبكتكين وجيشه على خراسان فولاه محمود بن سبكتكين وسماه سيف الدولة ولقب أباه ناصر الدولة فأحسن السيرة وأقام محمود بنيسابور وعاد نوح إلى بخارى وسبكتكين إلى هراة.

لما علم أبو علي بمبارحة سبكتكين ونوح نيسابور طمع في استردادها فقدم إليها ومعه فائق فخرج إليهما محمود وقاتلهما ولما كانت رجاله قليلة لم تمكنه المقاومة فانهزم عنهما قاصداً أباه فلما استقر هذا الخبر عند سبكتكين جمع الجند وأتى ممدا لابنه فتقالبت جنوده مع جنود أبي علي بنواحي طوس فانهزم أبو علي هزيمة منكرة ولم يرتفع له بعد ذلك ذكر وصفت خراسان لسبكتكين.

وفي سنة ٤٨٧ توفي سبكتكين بعد بلخ وغزنة ودفن بغزنة بعد ملك دام

عشرين سنة وكان عادلا خيراً كثير الجهاد ذا مروءة تامة وحسن ووفاء وعهد بالملك من بعده لابنه إسماعيل. وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعف الجند وأرسل إليه محمود من نيسابور يقول له إن أباك إنما عهد إليك لبعدي عنه وذكره ما يتعين من تقديم الكبير على الصغير ويطلب منه الوفاق وإنفاذ ما يخصه من تركة أبيه فلم يفعل وكان ذلك داعياً إلى أن محموداً قصده بغزنة واستولى عليها ولكنه عامل أخاه معاملة كريمة ولما تم له أمر غزنة واستقام له الملك عاد إلى بلخ ومحمود هذا هو ثالث آل سبكتكين وواسط عقدهم لقبه الخليفة القادر بيمين الدولة. وكانت هناك بعض مناوشات بينه وبين قواد السامانية انتهت بالنصر والتمكين له في خراسان فأزال عنها اسم السامانية وخطب للقادر بالله سنة ٣٨٩ وجعل أخاه نصراً قائداً لجند نيسابور وسار هو إلى بلخ فاتخذها دار ملك له واتفق أصحاب الأطراف على طاعته.

كان عهد محمود عهد ارتفاع وقوة فوسع أملاكه فقد كانت في الأصل بلاد غزنة ثم ضم بلاد الغور وهي جبال ووديان بين هراة وغزنة وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه. ثم أدخل جزءا عظيماً من بلاد الهند تحت سلطانه حتى وصل إلى قشمير فأسلم صاحبها على يده وأسلم كذلك كثير من ملوك الهند وقد عبر نهر الكنج في فتوحاته. ومن الجهة الأخرى ضمت إليه خراسان والري والجبال ودانت له ملوك طبرستان وجرجان ولم يزل في عزه وسلطانه إلى أن أدركته الوفاة سنة ٤٢١ عهد بالملك من بعده لابنه محمد وكان أصغر من مسعود ولقب بجلال الدولة إلا أن ذلك لم يرق لأخيه مسعود فسار إليه وأخذ الملك منه وتوفي القادر بالله والملك في آل سبكتكين لمسعود بن سبكتكين وقد استمرت الدولة في أعقاب هذا البيت إلى سنة ٥٨٢ وهذا ثبت ملوكها.

(١) سبكتكين	٣٦٦ ـ ٣٨٧
(٢) إسماعيل بن سبكتكين	٣٨٧ ـ ٣٨٨
(٣) يمين الدولة محمود بن سبكتكين	٣٨٨ ـ ٤٢١
(٤) جلال الدولة محمد بن محمود	٤٢١ ـ ٤٢١
(٥) ناصر دين الله مسعود	٤٢١ ـ ٤٣٢

(٦) شهاب الدولة مودود بن مسعود	٤٣٢ ـ ٤٤٠
(٧) مسعود بن مودود	٤٤٠ ـ ٤٤٠
(٨) بهاء الدولة أبو الحسن علي بن مسعود بن محمود	٤٤٠ ـ ٤٤٠
(٩) عز الدولة عبد الرشيد بن محمود	٤٤٤ ـ ٤٤٤
(١٠) جمال الدولة فزحزاد بن مسعود بن محمود	٤٤٤ ـ ٤٥١
(١١) ظهير الدولة إبراهيم بن عبد الرشيد	٤٥١ ـ ٤٩٢
(١٢) علاء الدولة مسعود بن إبراهيم	٤٩٢ ـ ٥٠٨
(١٣) كمال الدولة شيرزاد بن مسعود	٥٠٨ ـ ٥٠٩
(١٤) سلطان الدولة أرسلان بن مسعود	٥٠٩ ـ ٥١٢
(١٥) يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود	٥١٢ ـ ٥٤٧
(١٦) معز الدولة خسرو شاه بن بهرام شاه	٥٤٧ ـ ٥٥٥
(١٧) تاج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه	٥٥٥ ـ ٥٨٢

وكان انقضاء هذه الدولة على يد الدولة الغورية.

كان بجرجان من الدولة الزيادية شمس المعالي قابوس بن وشمكير إلى سنة ٤٠٣ ثم فلك المعالي متوجهر بن بستون بن وشمكير الى سنة ٤٢٠ ثم أنو شروان بن قابوس إلى سنة ٤٣٤ وهو الذي انتهى على يده ملك أهل بيته على يد الدولة الغزنوية . أما السلطان ببلاد العراق فكان لأربعة ملوك من آل بويه يتلو أحدهم الآخر الأول بهاء الدولة أبو نصر عضد الدولة وهو الذي ولي القادر الخلافة وكان عهده عهد اضطراب بينه وبين أهل بيته فأضعف ذلك من سلطانه وآذن البيت كله بالانحلال وكانت وفاته سنة ٤٠٣ وكان في سلطانه العراق والأهواز وفارس وكرمان.

الثاني سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة ولم يكن عهده أحسن من عهد أبيه بل كان عهد ضعف واستكانة فإن جنده ما كانوا يطيعونه وكثيراً ما شغبوا عليه يطلبون منه طلبات لا يقدر عليها وكان ذلك سبباً لقيام أخيه وهو.

الثالث شرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة قام على أخيه وانتزع منه ملك

العراق فخطب له ببغداد في آخر المحرم سنة ٤١٢ ونفي سلطان الدولة عن العراق فذهب إلى بلاد فارس وضبطها ثم اصطلح الأخوان على أن يكون لشرف الدولة العراق ولسلطان الدولة فارس وكرمان إلا أن مدة سلطان الدولة لم تطل فإنه توفي سنة ٤١٥ بشيراز وخلفه ابنه أبو كاليجار وفي ربيع الأول سنة ٤١٦ توفي شرف الدولة وكان كثير الخير قليل الشر عادلاً حسن السيرة.

الرابع جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة خطب له ببغداد بعد وفاة أخيه وكان إذ ذاك بالبصرة والياً عليها وطلب إلى بغداد فلم يصعد إليها وإنما بلغ واسطاً وأقام بها ثم عاد إلى البصرة فقطعت خطبته لابن أخيه أبي كاليجار بن سلطان الدولة الذي كان صاحب الأهواز وكان بها وراسله الجند في ذلك فوعدهم أن يجيء ولكنه تأخر لما كان بينه وبين عمه أبي الفوارس صاحب كرمان من الحرب فازدادت الفتن ببغداد لعدم السلطان وكثر شر الأتراك بها ولما رأى ذلك عقلاء القواد راسلوا جلال الدولة ليصعد إليهم فيملك أمرهم وخطبوا باسمه في جمادي الأولى سنة ٤١٨ فما عتم أن صعد إليهم وملك أمرهم ولكن لم يكن عنده من المال ما يضمن راحتهم وراحته فكثر الشغب عليه من الجند وأتراك بغداد حتى كادوا يخلعونه وكان ينازعه أخوه أبو كاليجار. وانتهت مدة القادر بالله وهما على ذلك النزاع.

لم يكن للخليفة القادر بالله شيء من السلطان كمن مضى في عهد سلاطين ابن بويه إلا أن ضعف بيت الملك أحيا له شيئاً من الكلمة والنفوذ وكان فيه من خلال الخير ما يساعد على ذلك فقد كان حليماً كريماً خيراً يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف كتاباً على مذهب أهل السنة والجماعة وكان يخرج من داره في زي العامة ويزور قبور الصالحين وإذا وصل إليه حال أمر فيه بالحق.

وكان في زمنه أحداث عظام في جميع الأصقاع الإسلامية من قيام دول وإبادة أخرى وكلها تهتف على منابرها باسمه وتتقلد الولايات منه إلا ما كان من البلاد التي تحت يد الدولة المصرية فإنها كانت تخطب باسم أئمتها ومع ذلك فإن

المعز بن باديس صاحب المغرب والقيروان دعا باسم القادر على منابر بلاده.

توفي القادر بالله في ذي الحجة سنة ٤٣٢ وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر وخلافته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرون يوماً.

٢٦ ـ القائم

هو أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله. ولي الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت بيعته في ذي الحجة سنة ٤٢٢ (نوفمبر سنة ١٠٣١) وبقي خليفة إلى ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ (٣ إبريل سنة ١٠٧٥) فكانت مدته ٤٤ سنة و ٢٥ يوما.

كان سلطان العراق لأول عهده جلال الدولة بن بهاء الدولة ولم يكن أمره في سلطانه على سداد لكثرة شغب الغلمان والأتراك عليه طالبين مرتباتهم التي لم يكن يقدر على أدائها في أوقاتها لقلة الوارد عليه فلم تجيء سنة ٤٢٦ إلا وقد انحل أمر الخلافة والسلطنة جميعاً ببغداد حتى أن بعض الجند خرجوا إلى قرية يحيى فلقيهم أكراد فأخذ دوابهم فعادوا إلى قراح الخليفة فنهبوا شيئاً من ثمرته وقالوا للعمال فيه أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا فسمع الخليفة الحال فعظم عليه ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه واجتهد في تسليم الجند إلى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه وإلى الشهود بترك الشهادة وإلى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى ذلك جلال الدولة سأل أولئك الأجناد ليجبوه إلى أن يحملهم إلى دار الخلافة ففعلوا فلما وصلوا إليها أطلقوا عظم أمر العيارين وصاروا يأخذون الأموال ليلا ونهاراً ولا مانع لهم لأن الجند يحملون على السلطان نوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر العرب في البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء في المقابر.

ولكثرة تشغيب الجند على جلال الدولة كان الخليفة يتداخل بين الفريقين متوسطاً في أمر الصلح ومع ما ظهر من ضعف جلال الدولة وسقوط هيبته سأل

الخليفة القائم سنة ٤٢٢ أن يخاطب بملك الملوك فامتنع الخليفة من ذلك فاستعان عليه جلال الدولة بالفقهاء الذين يلجأ إليهم السلاطين في مثل ذلك فأفتى بالجواز القاضي أبو الطيب الطبري والقاضي أبو عبد الله الصيرفي والقاضي ابن البيضاوي وأبو القاسم الكرخي وامتنع من الفتيا أبو الحسن الماوردي وجرى بينه وبين من أفتى بالجواز مراجعات فأجاب الخليفة طلب جلال الدولة وخطب له بملك الملوك وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة وكان يتردد إلى دار المملكة كل يوم فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع ولزم بيته خائفاً وأقام منقطعاً من شهر رمضان إلى يوم عيد النحر فاستدعاه جلال الدولة فحضر خائفاً فأدخله وحده وقال له قد علم كل أحد أنك من أكثر الفقهاء مالا وجاها وقربا منا قد خالفتهم فيما خالف هواي ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة واتباع الحق وقد بان لي موضعك من الدين ومكانك من العلم وجعلت جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك وحدك وجعلت إذن الحاضرين إليك ليتحققوا عودي إلى ما تحب فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف وهكذا يفعل بالإنسان قول الحق حسبما يعتقد لا يخشى في ذلك لومة لائم ولا غضب سلطان.

قضى جلال الدولة حياته في منازعات بينه وبين جنوده وبينه وبين أبي كاليجار إلى أن توفي سنة ٤٣٥ بعد ملك مدته ١٦ سنة و ١١ شهراً قال ابن الأثير ومن علم سيرته وضعفه واستيلاء الجند والنواب عليه ودوام ملكه إلى هذه الغاية علم ﴿أن الله على كل شيء قدير يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء﴾[1] وكان يزور الصالحين ويقرب منهم وزار مرة مشهدي علي والحسين عليهما السلام وكان يمشي حافيا قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحو فرسخ يفعل ذلك تدينا.

استقر في الملك بعده منازعه ابن أخيه أبو كاليجار المرزباني بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محيي الدين ولم تكن قدمه بأثبت من قدم أبيه ولا سلطانه أوفر بل كان النزاع كثيراً ما يستحكم بين الديلم عنصر السلطان وبين الأتراك قدماء العهد ببغداد وكانت وفاة أبي كاليجار سنة ٤٤٠.

---

(١) سورة ال عمران: الآية ٢٦.

بويع بالسلطان بعده ابنه أبو نصر خسرو فيروز وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فلم يجب إلى ذلك وقال لا يجوز أن يلقب بأخص صفات اللّه تعالى فأبى إلا أن يكون ذلك لقبه فكان ما أراد واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة وقد استمر سلطاناً حتى ورد إلى بغداد السلطان طغرلبك فأزاله عن ملكه ونفاه إلى قلعة السيرجان وبذلك انقضت مدة آل بويه التي لم يكن فيها شيء من الصلاح للبلاد بل زادتها فساداً وفرقة بما أظهرته من التشيع في بغداد مع أن أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة فكان النزاع كثيراً ما يقع بين الفريقين وتحصل حوادث شديدة الوقع في بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لأنه كان يعين طائفته ووجد الخلاف بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم وكان هذا الخلاف كثيراً ما يدعوا إلى وقوف بعضهم متحاربين وعلى الجملة فإن البلاد التي استولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئاً على طول مدتهم وضخامة دولتهم وأجمل هذه المدة عهد عضد الدولة فاخسرو ثالث ملوك هذه الدولة بالعراق.

آل سلجوق

من عشائر الغز الكبير عشيرة السلاجقة تنسب إلى مقدمها سلجوق بن تقاق وكانت هذه العشيرة تقيم في بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك المسمى بيغوا وكان تقاق مقدم العشيرة إلى قوله يرجعون وعن أمره يصدرون وولد له ابنه سلجوق بذلك الإقليم فلما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك وجعله قائد الحقد (شباسي) وكان امرأة تخوفه من سلجوق لما ترى من طاعة الناس له فأغرته بقتله وبلغ سلجوق ذلك الخبر فجمع عشيرته وهاجر إلى ديار الإسلام واعتنق الحنيفية فازداد بذلك عزا إلى عزه وأقام بنواحي جند (على طرف سيحون من حدود الترك) وصار يشن الغارة على بلاد الترك.

في تلك الأوقات قام النزاع بين أحد ملوك السامانية وهرون بن أيلك خان وقد استولى هرون على بعض بلاد فرأى أن يضرب الحديد بالحديد فاستنجد سلجوق فأنجده بابنه أرسلان في جمع من أصحابه فقوي بهم الساماني واسترد من خصمه ما أخذه وهذه أول صلة بين عشيرة السلاجقة والسامانية.

لم يزل سلجوق بجند حتى توفي له ثلاثة من الأولاد هم أرسلان وميكائيل وموسى فأما ميكائيل فغزا غزوة في بلاد الترك فاستشهد وبقيت أولاده وهم بيغوا وطغرلبك محمد وجغري بك داود فأطاعتهم عشيرتهم.

رحلوا بعد ذلك من جند ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخا منها. فخافهم أميرها فأساء جوارهم وأراد الإيقاع بهم فالتجأوا إلى بغراخان ملك تركستان وأقاموا في بلاده ولمزيد حرصهم على أنفسهم اتفق طغرلبك وداود

أنهما لا يجتمعا عند بغراخان حذراً من مكر يمكره بهم وكان بغراخان يجتهد أن يجمع بينهما عنده فلم ينجح فقبض على طغرلبك وأسره فثار داود في عشائره ليخلص أخاه فأنفذ إليه بغراجان عسكراً فانهزم ذلك العسكر وخلص طغرلبك من الأسر والصرف إلى جند.

لما انقرضت دولة السامانية سنة ٣٨٩ وملك أيلك خان عظم محل أرسلان بن سلجوق بما وراء النهر وكان على تكين أحد قواد السامانية في حبس أرسلان خان فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع أرسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهما وقصدهما أيلك فهزماه وبقيا ببخارى.

لما عبر محمود بن سبكتكين النهر إلى بخارى للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر هرب على تكين من بخارى وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته فإنهم دخلوا المفازه والرمل فاحتموا من محمود فرأى من قوتهم ما هاله وأراد أن يستعمله معهم الحيلة فكاتب أرسلان واستماله ورغبه فورده عليه فلم يكن من محمود إلا أن قبض عليه وسجنه في قلعة ونهب حركاته ثم أمر عشيرته فعبروا نهر جيحون وفرقهم في بلاد خراسان فلم تطمئنوا بها من جور العمال عليهم فسار منهم أهل ألفى خركاه فلحقوا بأصبهان ومنها إلى أذربيجان ودخلوا مراغة سنة ٤٢٩ وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامها مقتلة عظيمة فعظم الأمر على أهلها واشتد بهم البلاء.

رأى ذلك أكراد أذربيجان وكانوا مختلفين فاتفقت كلمتهم على هؤلاء المفسدين فانتصفوا منهم رأى الغز أنهم لا مقام لهم هناك فافترقوا فرقتين فطائفة سارت إلى الري ومقدمهم بوقا وطائفة سارت إلى همذان ومقدمهم منصور وكوكتاش.

أما الذين ذهبوا إلى الري فإنهم استولوا عليها ونهبوها نهباً فاحشاً وسبوا النساء وبقوا كذلك خمسة أيام حتى لجأ الحرام إلى الجامع وتفرق الناس كل مذهب ومهرب وكان السعيد من نجا بنفسه وكادوا يستأصلون أهل الري.

وأما الذين ساروا إلى همذان فإنهم ملكوها أيضاً من يد بني بويه سنة ٤٢٠.

ولما دخلوها نهبوها نهباً منكراً لم يفعلوه بغيرها من البلدان غيظاً منهم وحنقاً عليهم حيث قاتلوهم أولا وأخذوا الحرم وضربت سراياهم إلى أسداذبان وقرى الدينور واستباحوا تلك البلاد.

ولم يزالوا على هذا الإفساد والتخريب حتى ظهرت السلاجقة وخرج إبراهيم ينال أخو طغرلبك إلى الري فلما علموا بمسيره جفلوا من بين يديه وفارقوا بلاد الجبل قاصدين أذربيجان فلم يمكنهم القيام بها لما فعلوه بها أولا ولأن إبراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه لأنهم كانوا له ولأخيه طغرلبك رعية فساروا إلى ديار بكر وأميرها سليمان بن نصر الدولة بن مروان فأخربوا ونهبوا أعمالها إلى أن بذل لهم سليمان مالا ليفارقوا عمله. إذ ذاك صمموا على قصد الموصل وأميرها قرواش من الدولة العقيلية فانهزم عنهم لما حاربوه فدخلوا البلد ونهبوه ووصل قرواش إلى مدينة السن وهناك راسل جلال الدولة سلطان بغداد يعرفه الحال ويطلب النجدة واستنجد أيضاً دبيس بن مزيد ملك الحلة وغيره من أمراء العرب الأكراد.

عمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من الفتك وهتك الحريم ونهب الأموال ولما اشتد الأمر على أهل الموصل ثاروا بالغزو وقتلوا منهم كثيراً فخرج الغز وعسكروا خارج المدينة حتى جمعوا قواهم ثم عادوا إليها متفقين فوضعوا السيف في أهلها وأسروا كثيراً ونهبوا الأموال وأقاموا على ذلك اثني عشر يوماً يقتلون وينهبون.

لما طال مقامهم بتلك البلاد كتب جلال الدولة ونصر الدولة بن مروان إلى طغرلبك يشكون ما حل بالبلاد من تلك الفئة.

بقي قرواش بالسن حتى جاءته النجدات فسار إلى الموصل وبلغ الخبر الغز فتهيئوا للحرب فاجتمعت القوتان على نهر العجاج وكان النصر أولا للغز ثم نصر اللّٰه العرب فانهزمت الغز شر هزيمة وأخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم

وملك العرب حللهم وحركاتهم وكفى اللّه أهل الموصل شرهم وتبعهم قرواش إلى نصيبين ثم عاد عنهم فقصدوا ديار بكر وصاروا يعيثون فساداً ولكن قواهم وهنت وتضعضع أمرهم ويسمى التاريخ هذه الطائفة بالغز العراقية وهي بقايا من كان من أرسلان بن سلجوق.

أما من كان من أولاد ميكائيل بن سلجوق فإنهم أقلعوا بنواحي بخارى كما قدمنا فغض بمكانهم أمير بخارى على تكين فأعمل الحيلة في الظفر بهم فأرسل إلى يوسف بن موسى بن سلجوق ومناه الإحسان وفوض إليه التقدم على جميع الأتراك الذين في ولايته ولقبه بالأمير اينانج بيغو وأراد بذلك أن يستعين به وبعشيرته على ابني عمه طغرلبك وداود وأن يفرق كلمتهم ويضرب بعضهم ببعض فلم تجز هذه الحيلة على يوسف فلم يكن من علي تكين إلا أن قبض عليه وقتله بيد أمير من أمرائه فعظم على ابني عمه فجمعا قومهما للأخذ بثأره وجمع علي تكين جيوشه فكان النصر لطغرلبك وأخيه ثم احتشد على تكين مرة ثانية وأوقع بالسلاجقة وقعة كانت عليهم شديدة ألجأتهم إلى عبور النهر. نحو خراسان فكتب إليهم خوارزم مشاه هرون بن التونتامش ملك خوارزم يستدعيهم للاتفاق معه فساروا إليه وخيموا بظواهر خوارزم سنة ٤٢٦ واطمأنوا إلى خوارزم مشاه ولكن غدر بهم وكبسهم وهم غارون فقتل منهم جمعاً فساروا عن خوارزم إلى مفازة نسا ثم كتبوا إلى الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين يطلبون منه الأمان ويضمنون أن يكونوا عوناً له على من يعاديه فلم يفعل وسير إليهم جيوشه فلقيتهم عند نسا فأوقع السلاجقة بجيش مسعود ولما بلغه ذلك ندم على رده طاعتهم وعلم أن هيبتهم تمكنت من قلوب عسكره فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم فكتب إليه طغرلبك هذه الآية **﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾**[1] فلما ورد الكتاب على مسعود كتب من ثانية يعدهم المواعيد الجميلة ويأمرهم أن يرحلوا إلى آمل على شاطيء جيحون وينهاهم عن الشر

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

والفساد وأقطع داهستان لداود «وداهستان مدينة عند مازندان بناها عبد الله بن طاهر بين جرجان وخوارزم آخر حدود طبرستان» وأقطع نسا لطغرلبك وأقطع فراوة لبيغو «وفراوة بلدة مما يلي خوارزم» بناها عبد الله بن طاهر. استخف السلاجقة برسل مسعود لعدم ثقتهم بالرسالة وصاروا يشنون الغارة على البلاد وعسكر مسعود قد هابهم ومسعود قد شغل عنهم بنفسه وأعرض عن خراسان والسلاجقة فاجتمع وزراؤه وقالوا له إن هؤلاء القوم إذا تركوا وشأنهم استولوا على خراسان سريعاً ثم ساروا منها إلى مدينة غزنة فأيقظوه من رقدته فجهز لهم الجنود مع أكبر قواده وكان داود قد استولى على مرو وأحسن السيرة في أهلها وخطب له بها أول جمعة في رجب سنة ٤٢٨ ولقب في الخطبة بملك الملوك. جاءت الجنود المسعودية فالتقت بجند داود عند باب مرو فلم يثبت العسكر المسعودي وانهزم أقبح هزيمة وسار أخرى سير إلى هراة فتبعهم داود إلى طوس وكانت هذه الواقعة هي التي ملك السلاجقة بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد فدخل طغرلبك نيسابور وخطب له بها في شعبان ولقب بالسلطان المعظم وفرقوا النواب في النواحي.

علم ذلك مسعود فاضطر أن يسير بنفسه من غزنة في جيوش عظيمة حتى وصل بلخ ومنها سار في أول رمضان سنة ٤٢٩ واستعد له السلاجقة فلما التقى الفريقان كان التعب قد أخذ من عسكر مسعود فاجتاحهم السلاجقة واضطر مسعود أن ينهزم ومعه مائة فارس وغنم السلاجقة من هذا العسكر مالا يدخل تحت الإحصاء فقسمه داود على عسكره وآثرهم على نفسه.

بعد تلك الواقعة عاد طغرلبك إلى نيسابور فملكها ثانية آخر سنة ٤٣١ وسكن الناس وطمأنهم بعد أن كانوا في شدة من الفوضى ثم ملك داود بلخ وفي سنة ٤٣٣ ملك طغرلبك جرجان وطبرستان من يد أنو شروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير. وفي سنة ٤٣٤ ملك خوارزم.

لما تم له ذلك سار يريد الري وبلاد الجبل وكان قد سبقه إليها أخوه لأمه إبراهيم ينال واستولى على الري فلما سمع بقدومه سار إليه وسلمه إياها وجميع ما

ملك من بلاد الجبل فأمر طغرلبك بعمارة الري وكانت قد خرجت ثم سار إلى قزوين فملكها صلحا وملك أيضا همذان.

بذلك تم له ملك أصقاع كبيرة من البلاد الإسلامية وهي خوارزم وخراسان وبلاد الري ووصلت طلائع جنوده إلى البلاد العراقية أهم ذلك الملك أبا كاليجار صاحب العراق ولم يجد في نفسه قدرة على صد ذلك السيل فأرسل إلى طغرلبك في الصحل فأجابه إليه واصطلحا وكتب طغرلبك إلى أخيه إبراهيم ينال يأمره بالكف عما وراء ما بيده واستقر الحال على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبي كاليجار ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخي طغرلبك وتم هذا في ربيع الأول سنة ٤٣٩ وفي سنة ٤٤١ خطب لطغرلبك بديار بكر. خطب له بها نصر الدولة ابن مروان صاحبها وفي سنة ٤٤٢ استولى على أصبهان ثم أطاعته أذربيجان وأرسل إليه من بها من الأمراء يبذلون له الطاعة والخطبة فأبقى بلادهم بأيديهم وأخذ رهائنهم ثم سار إلى أرمينية وقصد ملازجرد وهي للروم فحصرها وأخرب ما حولها وأثر في بلاد الروم آثاراً عظيمة وبلغ في غزوته هذه إلى ارزن الروم (ارضروم) ولما هجم عليه الشتاء عاد إلى أذربيجان ثم توجه إلى الري فأقام بها إلى سنة ٤٤٧.

في هذا الوقت كانت الأحوال سيئة في بغداد فإن آل بويه قد تفرقت كلمتهم وزالت من القلوب هيبتهم فلم يكن يمكنهم أن يحفظوا بغداد لا من عدو طاريء ولا من عياريها ولصوصها فأعدوا الجمهور لقبول ما يغير من هذه الحال. ومما زاد الحال فساداً ما كان من أمر أبي الحارث أرسلان المعروف بالبساسيري وهو غلام تركي من مماليك بهاء الدولة فإنه أراد أن يزيل الخلافة عن بني العباس وكاتب الخليفة المستنصر العلوي بمصر ليدخل في طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد والخليفة العباسي عنده علم ذلك. فكتب إلى السلطان طغرلبك مستنجداً مستغيثاً وكانت هذه أمنيته فأظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوي صاحبها وكات أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها فأمرهم باعداد الأقوات والعلوفات فعظم الإرجاف ببغداد وفت أعضاد الناس. وصل طغرلبك إلى حلوان وانتشر أصحابه في طريق خراسان

فأجفل الناس إلى غربي بغداد وأرسل طغرلبك إلى الخليفة يبالغ في إظهار العبودية والطاعة إلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان فاتفق من بغداد من الرؤساء والأمراء على مكاتبة طغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة وفعلا تقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرلبك بجوامع بغداد فخطب له في يوم الجمعة ٢٢ محرم سنة ٤٤٨ ودخلها طغرلبك في الخامس والعشرين منه وقبض على آخر سلاطين بني بويه وهو الملك الرحيم وبذلك انقضت دولتهم ووجدت بالعراق وما وراءه هذه الدولة الجديدة الفتية وهي دولة السلاجقة.

هذه العشيرة استولت على جل ما ملكه المسلمون وقد انقسمت إلى خمسة بيوت:

الأول: السلاجقة العظمى وهي التي كانت تملك خراسان والري والجبال والعراق والجزيرة وفارس والأهواز.

الثاني: سلاجقة كرمان.

الثالث: سلاجقة العراق.

الرابع: سلاجقة سوريا.

الخامس: سلاجقة الروم.

أما السلاجقة الكبرى فهي الدولة التي أسسها ركن الدين أبو طالب طغرلبك وحياتها ٩٣ سنة من سنة ٤٢٩ (١٠٣٩) م إلى سنة ٥٢٢ (١١٢٧) م وهذا ثبتها.

(١) ركن الدين أبو طالب طغرلبك: من	٤٢٩ ـ ٤٥٥
(٢) عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان	٤٥٥ ـ ٤٦٥
(٣) عضد الدين أبو الفتح ملكشاه	٤٦٥ ـ ٤٨٥
(٤) ناصر الدين محمود	٤٨٥ ـ ٤٨٧
(٥) ركن الدين أبو المظفر بركياروق	٤٨٧ ـ ٤٩٨
(٦) ركن الدين ملكشاه الثاني	٤٩٨ ـ ٤٩٨
(٧) غياث الدين أبو شجاع محمد	٤٩٨ ـ ٥١١

(٨) معز الدين أبو الحارث سنجر	٥١١ ـ ٥٢٢

وقد انقصت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم.

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وهو أخو ألب أرسلان ومدة ملكهم ١٥٠ سنة من ٤٣٢ (١٠٤١)م إلى ٥٨٣ (١١٨٨) م وهذا ثبت ملوكها:

(١) عماد الدين قرا أرسلان قاروت بك	٤٣٣ ـ ٤٥٦
(٢) كرمانشاه	٤٥٦ ـ ٤٦٧
(٣) حسين	٤٦٧ ـ ٤٦٧
(٤) ركن الدين سلطان نشاه	٤٦٦ ـ ٤٧٧
(٥) تورانشاه	٤٧٧ ـ ٤٩٠
(٦) أرانشاه	٤٩٠ ـ ٤٩٤
(٧) أرسلانشاه	٤٩٤ ـ ٥٣٦
(٨) مغيث الدين محمد الأول	٥٣٦ ـ ٥٥١
(٩) محيي الدين طغربل شاه بهر امشاه	٥٥١ ـ ٥٦٣
أرسلانشاه الثاني	
طرخان شاه	
محمد الثاني	٥٦٣ ـ ٥٦٣

وقد انقضت دولتهم على أيدي الغز التركمان.

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ (١١١٧) أي من عهد وفاة غياث الدين أبي شجاع محمد سابع ملوك السلاجقة وانتهت سنة ٩٠ هـ (١١٩٤) فبقيت ٧٩ سنة وانقرضت على أيدي شاهات خوارزم وهذا ثبت ملوكها:

(١) مغيث الدين محمود	٥١١ ـ ٥٢٥
(٢) غياث الدين داود	٥٢٥ ـ ٥٢٦
(٣) طغريل الأول	٥٢٦ ـ ٥٢٧

(٤) غياث الدين مسعود	٥٢٧ ـ ٥٤٧
(٥) معين الدين ملكشاه	٥٤٧ ـ ٥٤٨
(٦) محمد	٥٤٨ ـ ٥٥٤
(٧) سليمانشاه	٥٥٤ ـ ٥٥٦
(٨) أرسلانشاه	٥٥٦ ـ ٥٧٣
(٩) طغريل الثاني	٥٧٣ ـ ٥٩٠

وأما سلاجقة سوريا فكانوا من بيت تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ابن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ (١٠٩٤) أي في أول عهد ركن الدين بركياروق خامس ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٥١١ (١١١٧) فكانت حياتها ٢٤ سنة وانتهت على أيدي الدولتين النورية والأرتقية هذا ثبت ملوكها:

(١) تتش بن الب أرسلان.	٤٧٧ ـ ٤٨٨
(٢) رضوان بن تتش.	٤٨٨ ـ ٤٨٨
(٣) تقاق بن تتش في دمشق	٤٨٨ ـ ٥٠٧
(٤) ألب أرسلان أخرص بن رضوان	٥٠٧ ـ ٥٠٨
(٥) سلطانشاة بن رضوان	٥٠٨ ـ ٥١١

وأما السلاجقة الروم ملوك قونية وأقصرا فكانوا من بني قطلمش بن إسرائيل ابن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ (١٠٧٧) في عهد جلال الدين أبي الفتح ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٧٠٠ (١٣٠٠) فمدة حياتها ٢٣٠ سنة فهي أطول دول السلاجقة حياة وقد انتهت دولتهم على أيدي الأتراك العثمانيين والمغول وهذا ثبت ملوكها:

(١) سليمان بن قطلمش	٤٧٠ ـ ٤٧٥
(٢) قليج أرسلان داود بن سليمان	٤٧٥ ـ ٥٠٠
(٣) ملكشاه بن قليج أرسلان	٥٠٠ ـ ٥١٠
(٤) مسعود بن قليج أرسلان	٥١٠ ـ ٥٥١

(٥) عز الدين قليج أرسلان بن ملكشاه	٥٥١ - ٥٨٤
(٦) قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان	٥٨٤ - ٥٨٨
(٧) غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان	٥٨٨ - ٥٩٧
(٨) ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان	٥٩٧ - ٦٠٠
(٩) قليج أرسلان بن سليمان	٦٠٠ - ٦٠١
غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان ثانيا	٦٠١ - ٦٠٧
(١٠) عز الدين كيقاوس بن ملكشاه	٦٠٧ - ٦١٦
(١١) علاء الدين كيقباذ بن ملكشاه	٦١٦ - ٦٣٤
(١٢) غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ	٦٣٤ - ٦٤٣
(١٣) عز الدين كيقاوس بن كيخسرو	٦٤٣ - ٦٥٥
(١٤) ركن الدين قليج أرسلان بن كيخسرو	٦٥٥ - ٦٦٦
(١٥) غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان	٦٦٦ - ٦٨٢
(١٦) غياث الدين مسعود بن كيقاوس	٦٨٢ - ٦٩١
(١٧) علاء الدين كيقباذ	٦٩١ - ٧٠٠

والذي كان يرتبط تاريخه من هذه البيوت بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد في حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين ٤٤٧ إلى سنة ٥٩٠ أي ١٤٣ سنة.

استخلف من آل العباس في عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء وهم:

٢٦ عبد اللّه القائم بأمر اللّه بن القادر بن المقتدر.
٢٧ عبد اللّه المقتدي باللّه بن محمد بن القائم.
٢٨ أحمد المستظهر بن المقتدي.
٢٩ الفضل المسترشد بن المستظهر.
٣٠ المنصور الراشد بن المسترشد.
٣١ محمد المقتفي بن المستظهر.
٣٢ يوسف المستنجد بن المقتفي.

٣٣ الحسن المستضيء بن المستنجد.

٣٤ أحمد الناصربن المستضيء.

وأولهم القائم بأمر الله هو الذي في عهده انتهى العصر البويهي وابتدأ ملك السجلوق وآخرهم الناصر لدين الله هو الذي انتهى في عصره ملك السلاجقة.

ملك السلطان طغرلبك بغداد وتقرب من الخليفة تقربا عظيماً حتى إن الخليفة تزوج أرسلان خانون واسمها خديجة بنت داود أخي طغرلبك وقبل الخليفة العقد بنفسه وذهبت والدة الخليفة وتسلمتها وأحضرتها إلى دار الخلافة. ولم تقف المصاهرة بين البيتين عند هذا الحد بل إن السلطان طغرلبك تطلع إلى أن يتزوج هو أيضاً من البيت العباسي وهو أمر لم تجربه العادة فأرسل سنة ٤٥٣ يخطب بنت الخليفة فانزعج الخليفة من هذا الطلب وأرسل إلى السلطان رسولاً أمره أن يستعفي من الإجابة فإن أعفي وإلا تم الأمر على أن يحمل السلطان ٣٠٠٠٠٠ دينار ويسلم واسط وأعمالها فلما وصل الرسول قال له عميد الملك الكندري وزير طغرلبك لا يحسن أن يرد السلطان وقد سأل وتضرع ولا يجوز مطالبته أيضاً بطلب الأموال والبلاد فهو يفعل أضعاف ما طلب منه ففوض الرسول الأمر إلى الوزير فبنى الوزير الأمر على الإجابة وطالع السلطان فسر به وجمع الناس وعرفهم أن همته سمت به إلى الاتصال بتلك الجهة النبوية وبلغ من ذلك ما لم يبلغه سواه من الملوك وأمر الوزير أن يسير إلى بغداد لإتمام ذلك فلما ورد الوزير بغداد رأى من الخليفة امتناعاً ولم يزل المحيطون بالخليفة يرفقون به حتى رد الأمر إلى عميد الملك فحضر إلى دار الخلافة ومعه جمع من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود فتكلم وقال للخليفة أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة فأظهر الخليفة نفرة من ذلك وكاد الأمر يفضي إلى فساد ولما رأى الخليفة شدة الأمر أذن في العقد وكل فيه عميد الملك فجرى العقد في شعبان سنة ٤٥٤ بظاهر تبريز وحمل السلطان أموالاً كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولي العهد ولزوجته ولوالدتها وغيرهم وجعل يعقوبا وما كان بالعراق لخاتون زوجة

السلطان التي توفيت للسيدة ابنة الخليفة ولما تم ذلك حضر السلطان إلى بغداد فأراد الخليفة أن يستقبله فاستعفاه من ذلك وأرسل عميد الملك يطلب السيدة من دار الخلافة فنقلت إلى دار المملكة في منتصف صفر سنة ٤٥٥ وجلست على سرير ملبس بالذهب ودخل السلطان إليها وقبل الأرض وخدمها ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وحمل لها شيئاً كثيراً من الجواهر وغيرها وبقي كذلك يحضر كل يوم يخدم وينصرف وخلع على كثير من الأمراء وظهر عليه كثير من السرور.

الحادث العظيم ببغداد:

في السنة التي تلي حكم السلاجقة ببغداد وهي سنة ٤٤٨ كانت عند مدينة سنجار وقعة شديدة بين البساسيري ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد الأسدي وبين قريش ابن بدران العقيلي ومعه قتلمش ابن عم السلطان طغرلبك انهزم فيها قريش وقتلمش فوصل خبر هذه الواقعة إلى السلطان بعد أن أقام ببغداد ثلاثة عشر شهراً لم يقابل فيها الخليفة فسار عنها بجيوشه فقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم وانتهى الأمر باستيلائه على جميع البلاد الموصلية والجزرية وسلمها إلى أخيه لأمه إبراهيم ينال ثم عاد إلى بغداد في أوائل سنة ٤٤٩ وقابل الخليفة لأول مرة وفوض إليه الخليفة أمر إدارة البلاد وقد بالغ طغرلبك في احترام مقام الخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة سبع خلع وتوج وعمم إشارة إلى جمعه بين ملك العرب والعجم وقلد سيفاً محلى بالذهب وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب فقبل يد الخليفة دفعتين ووضعها على عينه تبركا، فعل ما فعل من ذلك التعظيم والإجلال تدينا.

وفي سنة ٤٥٠ ترك إبراهيم ينال بلاد الموصل وتوجه نحو بلاد الجبل ويقال إن المصريين كاتبوه وأطمعوه في الملك فأهم ذلك السلطان وسار وراه إلى همذان في ذلك الوقت عاد البساسيري بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونه ولم يزل يجتاح البلاد حتى وصل بغداد في ثامن ذي القعدة سنة ٤٥٠ واستولى عليها لأنه ليس بها جند يحميها وخطب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوي صاحب مصر وأذن بخير العمل وكانت العامة قد مالت إليه أما الشيعة فلاتحاد

المذهب وأما أهل السنة فلما فعل بهم الأتراك.

أما الخليفة القائم فإنه خرج من قصره في ذمام رئيس العرب قريش بن بدران العقيلي استذم منه بذمام الله وذمام رسوله ﷺ وذمام العربية فأعطاه ذلك ونزع قريش قلنسوته فأعطاها الخليفة ثم حمله إلى معسكره وعليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله في خيمة ثم سلمه إلى ابن عمه مهاريش بن المجلي وهو رجل فيه دين وله مروءة فحسنه في هودج وسار به إلى حديثة عانة فتركه بها آمناً مطمئناً في ذمام العربية الذي يرى الخيانة عاراً.

أما البساسيري فإنه سار ببغداد سيرة ملك ورفعت على رأسه الألوية البيضاء التي أرسلت إليه من مصر ثم ملك بعد ذلك واسط والبصرة وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل عمران.

أما السلطان فإنه استنجد بأولاد أخيه أرسلان وياقوتي وقاورت بك فجاءوه بالعساكر يتلو بعضها بعضاً فلقي بهم أخاه إبراهيم ينال بالقرب من الري فتغلب عليه وأسره ثم أمر به فخنق بوتر قوسه في تاسع جمادى الآخر سنة ٤٥١ ولما تم له ذلك عاد يطلب العراق وليس له هم إلا إعادة القائم بأمر الله إلى خلافته ولما قارب بغداد أدرك البساسيري أنه لا قبل له بمقاومته فرحل عن بغداد وكان دخوله إليها سادس ذي القعدة سنة ٤٥٠ وخروجه منها سادس ذي القعدة سنة ٤٥١ وكان السلطان قد أرسل وهو بالطريق إمام أهل السنة أبا بكر أحمد بن محمد المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على ما فعله بالخليفة ويخبره أنه أرسل ابن فورك للقيام بخدمة الخليفة وإحضاره فأرسل قريش إلى ابن عمه مهارش يقول له أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك لينكف بلاء الغزو عنا والآن فقد عادوا وهم عازمون على قصدك فارحل أنت وأهلك إلى البرية فإنهم إذا علموا أن الخليفة عندنا في البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد فأبى ذلك مهارش وقال إن الخليفة قد استحلفني بعهود ومواثيق لا مخلص منها وسار بالخليفة إلى العراق وقد لقيها ابن فورك بتل عكبرا فساروا معا حتى وصلوا إلى النهروان في ٢٤ ذي القعدة فخرج السلطان إلى خدمة الخليفة فاجتمع به وقبل الأرض بين يديه وهيأه بالسلامة وأظهر الفرح بسلامته

واعتذر من تأخره بعصيان أخيه إبراهيم وأنه قتله عقوبة لما جرى من الوهن على الدولة العباسية فقلده الخليفة بيده سيفا وقال لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه وقد تبرك به أمير المؤمنين فكشف غشاء الخركاه حتى رآه الأمراء فخدموا وانصرفوا ثم ساروا جميعاً إلى بغداد وكان دخول الخليفة لخمس بقين من ذي القعدة سنة ٤٥١ .

ثم أنفذ السلطان جيشاً لملاحقة البساسيري الذي توجه سمت الشام وسار السلطان في أثرهم فقابلته الطلائع ببعض الطريق فوقف لهم فقاتلوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى بغداد وكان البساسيري هذا مملوكاً تركيا من مماليك بهاء الدولة الديلمي تقلبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور وكنيته أبو الحارث وهو منسوب إلى بسا مدينة بفارس، كان سيده الأول منها.

وبعد أن تم ما أراده عاد إلى الري التي جعلت دار ملكه وكان له ببغداد محافظ يسمى الشحنة. وفي سنة ٤٥٥ عاد إلى بغداد ليبني بابنة الخليفة التي ذكرنا فيما مضى حديثها ثم عاد إلى الري وبها كانت وفاته في يوم الجمعة ٨ رمضان سنة ٤٥٥.

ولما توفي أراد عميد الملك أن يقيم في الملك بعده ابن أخيه سليمان بن داود ولكن لم يتهيأ له ما أراد وتم الأمر للسلطان.

(٢) عضد الدولة أبي شجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد عارضه في الملك ابن عم أبيه قتلمش بن إسرائيل فقتل دون مراده. استعان ألب أرسلان في إدارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وسيأتي التعريف به وبما نال المملكة من الخير العميم على يديه.

كان ألب أرسلان بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيبة إلى بره بالرعية وإرادته خيرهم وكان إذا أمر ببناء أو عز بأن يكون أسمى بنيان ويقول. آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا. وكانت أظهر أعماله بالبلاد الرومية فقد أقبل لأول عهده سنة ٤٦٢ ملك الروم وأخني على منبج واستباحها وسبى حاميتها فأساء ذلك ألب أرسلان ولا سيما أنه بلغه أن الروم عازمون على إعادة

الكرة فأغذ السير إلى أذربيجان لأنه سمع أن ملك الروم أخذ على سمت خلاط ومعه من الجنود من لا يحصون كثرة ولما قارب خلاط أرسل إليها بعشرين ألف فارس فوقف في أوجههم مقدم عسكر خلاط وانتصف منهم وذلك في رابع ذي القعدة سنة ٤٦٣ ثم تلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصرا ونزل على ملازكرد فسلمت حاميتها. حصل ذلك والعسكر السلطاني مجد في سيره ولم ينتظر السلطان تلاحق جنده بل قال أنا أحتسب عند اللّه نفسي بالشهادة وكان وصول السلطان في اليوم الذي سلمت فيه حامية ملازكرد وكان نزول عسكره في يوم الخميس ٦ ذي القعدة والروم بين خلاط وملازكرد فأرسل السلطان إلى ملك الروم يقول له إن كنت ترغب في الهدنة أتممنا ما تريد وإلا اعتزمنا وعلى اللّه اعتمدنا، فظن ملك الروم أن صدور هذه الرسالة عن خور فقال للرسول سوف أجيب عن هذا بالري فكان ذلك مما ألهب النفوس الإسلامية وزادها حمية وقال إمام السلطان أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي للسلطان إنك تقاتل عن دين اللّه الذي وعد بإظهاره، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر. فلما أصبحوا يوم الجمعة وكادت الشمس تزول تهيأ السلطان وعبأ أصحابه تعبئة عسكرية تدل على فهم ثاقب لأنه قسمهم أربع فرق كل فرقة أقامها في نقطة لا تبرحها لتكون عند اللزوم وراء جند العدو ثم أشعل نار الحرب بهمته العالية واستجر الروم إليه حتى صار الكمين من ورائهم وحينئذ أخذتهم الجنود السلجوقية من أمامهم ومن خلفهم فما عتم الروم أن انهزموا بعد أن أخذ منهم الذعر والرعب وأسر ملكهم، قالوا وكان مع الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الأثقال ومعهم منجنيقات كثيرة منهم منجنيق له ثمانية أسهم ويمد فيه ألف ومائتا رجل ويحمله مائة عجلة يرمي حجرا وزنه - بالرطل الكبير الخلاطي - قنطار وكثر عدد الأسرى من الروم وكذلك الغنائم حتى سقطت قيم الدواب والكراع والسلاح والمتاع فبيعت ١٢ خوذة بسدس دينار وثلاثة أذراع بدينار.

وعاد السلطان مؤيداً ظافراً بعد هذه الواقعة التي لم تقم للروم بعدها قائمة في نواحي أرمينية.

وكان عهد ألب أرسلان كله عهد نمو وارتقاء في دولة السلاجقة لا للسيف وحده بل للعلم أيضاً فإن نظام الملك أسس في عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم بناؤها سنة ٤٥٨ ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازي ولما رأى ذلك شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور مستوفي المملكة ببغداد بني علي ضريح أبي حنيفة رحمه اللّه بباب الطاق مشهداً ومدرسة لأصحابه وكتب على تلك القبة.

ألم تر هذا العلم كان مشتتا فجمعه هذا المغيب في اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة فأنشرها فضل العميد أبي سعد

وفي سنة ٤٦٥ توجه ألب أرسلان قاصداً بلاد الترك فعبر نهر جيحون ولكن المشيئة سابقته فسبقته. حكي عنه أنه قال وهو يقرب من الموت: ما كنت قط في وجه قصدته ولا عدو أردته إلا توكلت على اللّه وطلبت منه النصر وأما في هذه النوبة فإني أشرفت من تل عال فرأيت عسكري فقلت أين من له قدر بمصارعتي ومعارضتي وإني أصل بهذا العسكر إلى بلاد الصين. فكان ما أراد اللّه وكانت وفاته في ٦ ربيع الأول سنة ٤٦٥.

ولي السلطنة بعده ولي عهده السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه.

ولأوائل حكمه توفي الخليفة القائم بأمر اللّه ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ فقام بالأمر بعده ولي عهده حفيدة.

٢٧ ـ المقتدي بأمر اللَّه

أبـو القاسم عبـد اللَّه بن الذخيـرة أبي العبـاس محمـد بن القـائم ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه فإن الـذخيرة تـوفي أيام أبيـه ولم يكن له غيـره فأيقن الناس بانقراض نسله وانقراض الخلافة من البيت القـادري إلى غيره ولم يشكـوا في اختلاف الأحوال بعد القائم لأن من عدا البيت القادري كانوا يخالطون العامة في البلد ويجرون مجرى السـوقة فلو اضطـر الناس إلى خـلافة أحـدهم لم يكن له قبول ولا هيبة فقدر اللَّه أن الذخيرة كانت له جارية أرمنية اسمها أرجـوان وكان يلم بها فلما توفي ظهر أنها حامـل وولدت بعـد موت سيـدها بستـة أشهر وذلـك الولد هو عبد اللَّه الذي ولاه جده العهد بعده لما بلغ الحلم وقد بـويع بعـد وفاة جده واستمر خليفـة إلى أن توفي فجـأة في يوم السبت خـامس محرم سنـة ٤٨٧. فكانت خلافته ١٩ سنة وثمانية أشهر غير يومين وهـو من خيرة بني العبـاس كان قـوي النفس عظيم الهمـة أصلح كثيراً من الأحـوال الأدبيـة ببغـداد فـأمـر بنفي المغنيات والمفسدات منها ووقع الهرادي والأبراج التي للطيور ومنع من اللعب بهـا لأجل الاطلاع على حرم الناس ومنع الملاحين أن يحملو الرجال والنساء مجتمعين ولذلك أصلح كثيراً من الماديات فعمرت في بغداد عدة محال في خلافته ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة وألزم أربابها بحفر آبـار للمياه وأمـر أن من يغسل السمك المالـح يعبر إلى النجمي فيغسله هنـاك وكانت أيـامه كثيـرة الخير واسعـة الرزق وعظمت الخلافة أكثر مما كـان من قبله وكان سلطان السـلاجقة في عهـده ملكشاه الذي ذكرنا قيامه بعد أبيه ألب أرسلان.

وكـان ملكشاه سلطانـاً عادلاً ذا فضـل وإنصاف شجـاعاً مقـداماً صـائب

الرأي والتدبير أيامه في دولة السلاجقة واسطة عقدها وكان ميمون النقيبة لم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه ولما توجه إلى الشام وأنطاكية بلغ إلى حد قسطنطينية وقرر ألف دينار على ملوكها تحمل إلى خزانته ووضع في النواحي التي فتحها من الروم خمسين منبراً إسلامياً ولم يزد زمن ذلك العمل على شهرين ثم عاد إلى الري وقصد سمرقند فظفر بخانها وأسره فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار في ركابه إلى موضع سرير ملكه ثم من عليه وأعاده إلى ملكه. وتوجه في السنة الثانية إلى أوزكند فأخضعها وخضع له جميع الملوك والرؤساء بالمشرق والمغرب. وهذه السعادة كلها إنما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحق رضي أمير المؤمنين الطوسي، وكان معدوداً من العلماء الأجواد وكان محباً للعلم مجلسه دائماً معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية في سائر الأمصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وسمع الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرهما وكان يقول إني لست من أهل هذا الشأن ولكني أحب أن أجعل نفسي على قطار نقلة حديث رسول الله ﷺ وكان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة وأسقط في زمنه كثيراً من المكوس والضرائب وهو الذي أزال لعن الأشعرية من المنابر وكان سلفه عميد الملك الكندري قد حسن للسلطان طغرلبك التقديم بلعن الرافضة فأمره بذلك فأضاف إليهم الأشعرية ولعن الجميع فلهذا فارق كثير من الأئمة بلادهم مثل إمام الحرمين وأبي القاسم القشيري وغيرهما فلما ولي نظام الملك أزال ذلك جميعه وأعاد العلماء إلى أوطانهم.

ومن طريف الأخبار أن نظام الملك كان إذا دخل عليه إمام الحرمين وأبو القاسم القشيري يقوم لهما ويجلس في مسنده كما هو وإذا دخل عليه أبو علي الفارمذي يقوم إليه ويجلسه في مكانه ويجلس هو بين يديه فقيل له ذلك فقال إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا علي يقولون لي أنت كذا وكذا يثنون بما ليس في فيزيدني كلامهم عجباً وتيها وهذا الشيخ يذكر لي عيوب نفسي وما أنا فيه من الظلم فتنكسر نفسي لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه. وكان ينظر في الأوقاف والمصالح

ويرتب عليها الأمناء ويشدد في أمرها وعلى الجملة فكان غرة في جبين آل سلجوق ومن حسناته حجة الإسلام الإمام الغزالي فهو قرينه في الطلب ازدادت بهما طوس واختالت على ما سواها من بلاد فارس وكان مؤيداً بقرينين مؤيدين لدولته وهما كمال الدولة أبو الرضي فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء والطغراء وشرف الملك أبو سعد بن منصور ابن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء وكلاهما صاحب الرأي والتدبير والدهاء والجود، ومع ما ظهر منه من الكفاية ويمن النقيبة وسعادة الحركة لم يترك المفسدون أديم المودة بينه وبين سلطانه صحيحاً بل ما زالوا في سعاياتهم حتى نغل ذلك الأديم ومل السلطان طول مدة الوزير واستطالة مدته فأنفذ إليه أحد خاصته برسالة واختار عيناً يحصى على الوزير ما يفوه به. وكان مضمون الرسالة إنك استوليت على ملكي وقسمت ممالكي على أولادك وأصهارك أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك؟ فكان جوابه عن تلك الرسالة - قولوا للسلطان إن دواتي مقترنة بتاجك، فمتى رفعتها رفع، ومتى سلبتها سلب - فاشتد من ذلك الجواب غيظ السلطان وكان بعد ذلك أن أحد الملاحة اعتدى على نظام الملك فقتله وذلك سنة ٤٨٥.

ومن غرائب المصادفات أن السلطان لم يعش بعده إلا ٣٣ يوماً وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقي ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف.

مات ملكشاه بعد أن اتسع ملكه اتساعاً عظيماً فخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحملت إليه الروم الجزية ولم يفته مطلب. وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد: أسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد، وعمر الطرق والقناطر والمرابط التي في المفاوز وحفر الأنهار الخراب، وعمر الجامع ببغداد وعمل المصانع بطرق مكة وبني البلد بأصبهان.

وكان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود. وكان محمود طفلا وأمه تركان خاتون فطلبت من الخليفة المقتدي أن يعين ولدها

للسلطنة فأجاب إلى ذلك على شروط اشترطها إلا أن جنـود نظام الملك سـاعدوا أخاه الأكبر بركياروق عـلى أن يكون هـو السلطان، فتم ما أرادوا وأرسـل تقليده إلى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه وكانت وفاته في ١٥ محـرم سنة ٤٨٨ .

وفاة المقتدي:

في منتصف المحرم سنة ٤٨٧ تـوفي المقتدي بـالله فجأة بعـد أن قدم إليـه تقليد السلطان بركياروق فقرأه وعلم ما فيه ولم يمضه.

٢٨ ـ المستظهر باللَّه

بويع بالخلافة بعده ولده أبو العباس أحمد المستظهر باللَّه واستمر خليفة إلى أن توفي في ١١ ربيع الآخر سنة ٥١٢ فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و ١١ يوماً كانت سنه حين توفي ٤١ سنة وسنة أشهر وستة أيام.

حال الممالك الإسلامية في عهده:

وكان بالأندلس والمغرب الأقصى دولة الملثمين والقائم بأمرهم يوسف بن تاشفين إلى سنة ٤٨٠ ـ ثم من بعد ابنه علي إلى سنة ٥٣٧.

وبأفريقية من آل زيري تميم بن المعز بن باديس إلى سنة ٥٠١ ثم يحيى بن تميم إلى سنة ٥٠٩ ثم علي بن يحيى إلى سنة ٥١٥.

وبمصر من الفاطميين المستعلي أبو القاسم أحمد بن المستنصر معد إلى سنة ٤٩٥ ثم الآمر بأحكام اللَّه علي المنصور بن المستعلي إلى سنة ٥٢٤.

وبزبيد من الدولة النجاحية الأمير جيش بن نجاح سنة ٤٩٨ ثم فاتك بن جيش إلى سنة ٥٠٣ ثم منصور بن فاتك إلى سنة ٥١٧.

وبصنعاء ومهرة ظهر الأمير حاتم بن غاشم الهمداني من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٥٠٢ ثم عبد اللَّه بن حاتم إلى سنة ٥٠٤ ثم معن بن حاتم إلى سنة ٥١٠ ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حماص.

وما عدا ذلك من البلدان الإسلامية في آسيا فهو محكوم بدولة السلاجقة. كان المستظهر باللَّه من خيار بني العباس لين الجانب كريم الأخلاق يحب

الأصطناع ويفعل الخير ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات مشكور المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ إلى سعاية ساع ولا ملتفت إلى قوله ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض وكانت أيامه أيام سرور لرعيته وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره وإذا تعرض سلطان أو نائب له إلى أذى أحد بالغ في إنكار ذلك والزجر عنه وكان حسن الخط جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد وله شعر رقيق فمن ذلك قوله:

أذاب حر الهوى في القلب ما جمدا ... لما مددت رسم الوداع يدا
وكيف نسلك نهج الاصطبار وقد ... أرى طرائق في مهوي الهوى قددا
قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به ... من بعد ما قد وفى دهري بما وعدا
إن كنت أنقض عهد الحب في خلدي ... من بعد هذا فلا عاينته أبداً

تولى ملك العراق في خلافة المستظهر بالله ملكان من آل سلجوق أولهما السلطان أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه ولأول عهده استوزر عز الملك أبا عبد الله الحسين ابن نظام الملك ولم يكن فيه شيء من كفاية أبيه وكان أخوه عبد الرحيم إليه منصب الطغراء وتولى ديوان الاستيفاء الأستاذ علي بن أبي علي القمي وكانوا جميعاً سواسية في النكوب عن جادة الاعتدال وسياسة المملكة. والسلطان مشغول عما يصلح ملكه باللعب وعشرة الصبيان والوزير منهمك في شرابه وقد ذهب الجميع إلى بغداد واختاروا المقام فيها لاهين بمغانيها وغوانيها. وكان ذلك مجرئاً عم السلطان تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق أن يكون طالبا السلطنة لنفسه فقام بجنوده واستولى على بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر وأذربيجان ثم بدا له فعاد إلى دمشق لما رأى كثيراً من أمرائه ميالين إلى مساعدة بركياروق وانتظم الأمر لبركياروق ولكن أمر ذلك لم يطل إلا بمقدار ما أعد تتش للأمر عدته فعاد سنة ٤٨٧ بجنوده التي أعدها واستولى على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمذان ثم أرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب الخطبة له فأجيب طلبه بعد أن وصل إليهم الخبر بأن تتش هزم بركياروق في وقعة كانت بينهما ولم يزل الأمر على ذلك حتى لم بركياروق شعثه وأصلح من أمر جنوده والتقى بعمه في موضع قريب من الري فكانت الهزيمة على جند تتش وأما هو فثبت حتى قتل

وذلك سنة ٤٨٧ واستقام الأمر لبركياروق بعد أن كاد يضمحل وكان نجاحه بآراء الوزير مؤيد الملك أبي بكر عبد الله بن نظام الملك الذي استوزره بعد أخيه عز الملك ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفى منه وكان وحيداً في بلاغة النظم والنثر ولما هبأ السلطان بالفتح قال له كل هذا ببركتك ويمن نقيبتك إلا أن مدة ذلك الوزير الأيمن لم تطل فإن أم السلطان كانت متداخلة تداخلا كثيراً في سياسة دولة ابنها فتغير قلبها على الوزير ولما رأى ذلك أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر أرسل وبذل أموالاً جزيلة في الوزارة فأجيب إليها وعزل أخوه واعتقل فاحتال حتى خلص من اعتقاله، وتوجه إلى محمد بن ملكشاه الذي كان ملكا على أران ومقره مدينة جنزة فقبله محمد واصطفاه واستشاره في مهماته ثم سلم إليه وزارته فلم يزل يقرب لمحمد قصد أخيه بركياروق والاستيلاء على ملكه حتى حرك منه ما كمن من هواه فسار من أران في شرذمة يسيرة حتى وصل دار الملك أصفهان فلم تستعص عليه فملكها واستمال إليه العساكر فمالوا إليه.

كانت مطالبة محمد للسلطنة وقيامه في وجه أخيه بركياروق فاتحة شر مستطير على هذين الأخوين بل على البيت السلجوقي كله بل على الإسلام جميعاً فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٤٩٧ خمس سنين ما أشد وقعها على الرعية والجند حصلت فيها مواقع هائلة والحرب فيها سجال. والإفرنج تحركوا من مرابضهم للإغارة على البلاد الإسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا وملوك الإسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون.

رأى الرجلان أن الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعاً فيها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإدلالهم وكان السلطان بركياروق حينئذ بالري والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيها وببلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ما عدا تكريت. وأما أعمال البطائح فيخطب

ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعاً وأما خراسان فإن السلطان سنجر بن ملكشاه كان يخطب له في جميعها وهي من حدود جرجان إلى ما وراء النهر ولأخيه السلطان محمد ـ فلما رأى السلطان بركياروق المال عنده معدوماً والطمع من العسكر زائداً أرسل القاضي أبا المظفر الجرجاني الحنفي وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمداني إلى أخيه محمد في تقرير قواعد الصلح فسارا إليه ورغباه في الصلح وفضيلته وذكرا له ما شمل البلاد من الخراب وطمع عدو الإسلام في أطراف الأرض فأجاب إلى ذلك واستقر الأمر بينهما على أن بركياروق لا يعترض أخاه محمداً في السبل وألا يذكر معه على سائر البلاد التي صارت له وألا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة بين وزيريهما ولا يعارض أحد من العسكر في قصد أيهما شاء وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذه روذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة وهي الحلة وما إليها وقد حلف كل منهما لصاحبه على الوفاء فتحسنت الأحوال وزال الخلف والشغب ولم تطل مدة بركياروق بعد هذا الصلح فإنه توفي في ثاني ربيع الآخر سنة ٤٩٧ .

بعد موت بركياروق خطب أمراؤه لابنه ملكشاه إلا أن أمره لم يتم فإن عمه محمدا ما عتم أن قدم إلى بغداد بجيوشه الوافرة فلم يكن أمامه من يقدر على رده، وقد حاول أكبر الأمراء البركياروقية أن يوقد نار الحرب ليقوم بما يجب عليه لمولاه ولكن اللّه حسن الصلح والاتفاق فتم ذلك وخطب لمحمد بالسلطنة بدون منازع ثم عاد إلى دست ملكه بأصفهان .

لم يكن السلطان محمد موفقاً لاختيار كبار مملكته وقد كانت الأعمال الكبرى في دولة آل سلجوق هي .

(١) الوزارة (٢) استيفاء المملكة ويقال لصاحبها المستوفي، (٣) الطغراء وهو رياسة الديوان ومن جملته ديوان الرسائل والإنشاء (٤) الإشراف وعرض الجيش. قال بعض الكتاب في حق السلطان محمد: قد كثر تعجبي من السلطان يتأنق في تخير كلاب الصيد وفهوده وإنما يقتني منها ما يراه موافقاً لمقصوده فيسأل

عن فروعه وأصوله وانقطاعه ووصوله فما باله لا يتخير لـديوانـه ومراتب سلطانـه من الكفاة الأفاضل والصدور الأمـاثل من عـرفه زاك وعـرقه كـريم ومجده قـديم وطريقه في الكفاية مستقيم؟! لقد كان هؤلاء أولى باختيار وأجدر بالاختبار فإنهم أمناؤه على مملكته ووكلاؤه على دولته وسفراؤه في خدمتـه. ولعدم حسن الاختيـار كثر الاضطراب والتغيير. واستمر ملك محمـد هذا إلى سنـة ٥١١ حيث توفي في ٢٤ ذي الحجـة وعمره إذ ذاك ٢٧ سنـة وكان عـادلاً حسن السيرة شجـاعاً وقـد أطلق في حياته المكوس والضرائب في جميع البلاد ولم يعرف منه فعـل قبيح وعلم الأمراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه.

فاختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبو القاسم محمود بن محمد ابن ملكشاه يمين أمير المؤمنين وخطب له ببغداد في ١٣ محرم سنة ٥١٢.

ولم يقم الخليفة المستظهر بالله طويلاً بعد وفاة محمد بن ملكشاه فـإنه تـوفي في ١٦ من ربيـع الآخر فلم يكن بـين رحيلهما من هـذا العالم إلا أقـل من أربعة أشهر.

كـان في حياة المستـظهر بـالله أحداث عـظيمة في المملكـة الإسـلاميـة في الشـرق والغرب فـأما في الشـرق فظهـور الباطنيـة وعيثهم في البـلاد حتى كـادوا يميلون ميـزانها وأما في الغـرب فأغـارت الفرنـج على البـلاد الإسلاميـة وبـدأت الحروب الصليبية ولا بـد أن نشير إلى كـل من الحادثـين بكملة لنبين كيف كـان ابتداؤهما فان استيفاء ما يتعلق بهما يرجع إلى شرح حال الدولة الفاطمية المصـرية لأن الحادثين يتعلقان بها فالباطنية أنصارهم.

الباطنية

لما نجح الفاطميون في إقامة دولتهم بالمغرب ثم بمصر واتسعت رقعة مملكتهم حتى وصلت إلى نواحي الفرات دار في خلدهم أن يمدوا سلطانهم متجهين إلى المشرق حتى يعم بقاع الأرض ملكهم وكانت الطريقة التي جروا عليها من أول نشأتهم أن يرسلوا الدعاة إلى الأقطار فيدعون الناس إليهم سراً ويزينون لهم ما يدعون إليه بضروب من الزينة مهروا في إبداعها. وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن عليها رجل كبير يعرف بداعي الدعاة ودرجته تلي قاضي القضاة وكان الدعاة يحصلون على أسرار الدعوة بمصر ثم يبرحونها إلى كل قطر متبعين نظاماً مسنوناً. ومن البلاد التي اهتم الفاطميون بها وأرسلوا دعاتهم إليها: البلاد الفارسية وقد كان أول رواج هذه الدعوة في عهد ملكشاه، وسبب هذا الرواج أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار. وكان الرسم في أيام الديلم ومن قبلهم أنهم لا يخلون البلاد من أصحاب الأخبار والبريد فلم تكن تخفي عنهم الأخبار. فلما تولى السلطان ألب أرسلان فاوضه وزيره نظام الملك في هذا الأمر فأجابه لا حاجة إلى صاحب خبر فإن الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء فإذا نقل إلينا صاحب الخبر خبراً وكان له غرض أخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق ومن أجل ذلك أسقط السلطان هذا الرسم. فصادف الباطنية بسبب ذلك نجاحاً وأول ما عرف من أمرهم أنه اجتمع منهم ١٨ رجلاً بمدينة ساوة وهي مدينة بين الري وهمذان فصلوا صلاة العيد ففطن بهم الشحنة فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فأطلقهم فهذا أول اجتماع كان لهم. ثم إنهم دعوا مؤذناً من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان فلم

يجبهم إلى دعوتهم فخافوه أن ينم عليهم فقتلوه فهو أول قتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبره إلى نظام الملك الوزير فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به فهو أول قتيل منهم. ولما رأى الباطنية ذلك من نظام الملك أمروا واحداً منهم فقتله وهي أول فتكة مشهورة كانت لهم وقالوا قتل نجاراً فقتلناه به. وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين وهي بين نيسابور وأصبهان وكان متقدم هذا البلد على مذهبهم فاجتمعوا عنده وقووا به فاجتازت به قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين فخرج عليهم الباطنية فقتلوا القفل أجمعين ولم ينج منهم غير رجل واحد تركماني فوصل إلى قاين وأخبر بالخبر؛ فتسارع أهلها إلى جهادهم فلم يقدروا عليهم ثم قتل نظام الملك ومات ملكشاه فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم ولا سيما بأصبهان واستولوا على قلعة أصبهان وهي قلعة بناها السلطان ملكشاه.

كان الداعية الأكبر للباطنية بتلك البلاد هو أحمد بن عبد الملك بن عطاش فقدموه عليهم وألبسوه تاجاً وجمعوا له الأموال ثم ظهر منهم الرئيس الثاني وهو الحسن بن الصباح أخذ هذا المذهب عن عبد الملك بن عطاش ثم رحل إلى مصر فلقي بها الخليفة المستنصر وتلقى بمصر أصول الدعوة الباطنية وكان شهماً ذكياً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم ثم عاد بمرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه فكان أول ما فعله أن استولى على قلعة الموت وتحصن بها وهي من نواحي قزوين في موضع حصين. ولم يكن نظام الملك إذ ذاك قد توفي فلما بلغه الخبر بعث إلى تلك القلعة عسكراً فحصروا فيها ابن الصباح وأخذوا عليه الطرق ولما ضاق ذرعاً بالحصر أرسل من قتل نظام الملك فلما قتل رجع العسكر عنها.

ودخل في حوزتهم أيضاً بعض قهستان وطبس وملكوا كذلك قلعة وسنكوه بقرب أبهر وغير ذلك من القلاع التي جعلوها حصوناً لهم ومعاقل. تمكنت أقدامهم بالبلاد الفارسية وصار يحسب لهم حساب وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يقتل فقتل بذلك من شاء غيلة وكان رؤساؤهم يستعملونهم فيما أرادوا ويمنونهم الأماني الجميلة التي يخضع لسلطانها أمثال هؤلاء الناس فيأتون بالعجب العجاب. وقد صارت الناس فيهم فرقتين فمنهم من جاهرهم

بالعداوة والمقارعة ومنهم من عادهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من فتكهم ومن سالمهم نسبه الناس إلى الارتكاس في عقيدتهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم ودب إلى البرآء السقم وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعاً لئلا ينسبه العوام وأهل الدين إلى الإلحاد وفساد الاعتقاد وقد حصل ذلك للملك تيرانشاه بن تورانشاه بن قاورت بك فقد اتهمته رعيته بالميل إلى الباطنية والقول بدعوتهم فثاروا عليه وأخرجوه عن مدينة بردسير التي هي مدينة كرمان واتفقوا بعد خروجه على تولية أرسلانشاه ابن كرمانشاه بن قاورت بك. ومن المصيبة أنه ما كان سلطان يثق بخواصه والناس في كل جيل يميل بعضهم إلى الانتقام من بعض لنيل هذه الدنيا ومظاهرها الكاذبة فلما رأوا جد السلطان في إبادة القوم سعى بعض الناس ببعض وأحب وصمه بالإلحاد لما بينهما من العداوة ولم يبق للناس في هذا المصاب رأي ولا تدبير.

لما اشتد أمر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم صار بينهم وبين أعدائهم ذحول وإحن فلما قتلوا جماعة من الأمراء الأكابر وكان أكثر من قتلوا ممن هو في طاعة السلطان محمد أخي بركياروق مثل شحنة أصبهان وغيره نسب أعداء بركياروق ذلك إليه واتهموه بالميل إليهم فلما ظفر السلطان بركياروق وهزم أخاه محمد انبسط جماعة منهم في العسكر واستغووا كثيراً منهم وأدخلوهم في مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى لم يجسر أحد من مخالفيهم لا أمير ولا متقدم على الخروج من منزله حاسرا بل يلبس تحت ثيابه درعاً واستأذن السلطان بركياروق خواصه في الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من الباطنيةوأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم وأعلموه ما يتهمه الناس به من الميل إلى مذهبهم حتى أن عسكر أخيه السلطان محمد يشنعون بذلك وكانوا في المصاف يكبرون ويقولون يا باطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها فأذن السلطان في قتلهم والفتك بهم وركب هو والعسكر معه وطلبوهم وأخذوا جماعة منهم ولم يفلت منهم إلا من

لم يعرف وأخرج الجماعة المتهمون إلى الميدان فقتلوا وقتل معهم جماعة برآء لم يكونوا منهم سعى بهم أعداؤهم. ومن الغريب أنه قد اتهم بتلك التهمة الكيا الهراسي مدرس النظامية ورفيق الغزالي في الطلب والتلمذة لإمام الحرمين فأمر السلطان محمد فقبض عليه فأرسل الخليفة المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد وعلو الدرجة في العلم فأطلق.

وفي سنة ٤٩٤ جمع الأمير بزغش وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر جموعاً كثيرة وقواهم بالمال والسلاح وسار إلى بلد الإسماعيلية فنهبه وخربه وقتل فيهم فأكثر وحصر طبس وضيق عليها ورماها بالمنجنيق فخرب كثيراً من سورها وضعف من بها ولم يبق إلا أخذها فأرسلوا إليه الرشا الكثيرة واستنزلوه عما كان يريد منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ما انهدم من سورها وملأوها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك ثم عاد إليهم سنة ٤٩٧ بجمع فيه كثير من المتطوعين فخرب طبس وما جاورها من القلاع والقرى وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي وفعل بهم الأفعال العظيمة ثم إن أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمنوا ويشرط عليهم أنهم لا يبنون حصناً ولا يشترون سلاحاً ولا يدعون أحداً إلى عقائدهم فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونعوه على سنجر ثم توفي بزغش بعد عوده من هذه الغزاة.

وكان تركهم بعد هذا التضييق عليهم داعياً إلى اشتداد قوتهم وقوة شوكتهم بعد ذلك ومن جملة أفعالهم الخبيثة أن قفل الحاج تجمع هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند والشام وغيرها من البلاد فوصلوا إلى جوار الري فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً.

وفي سنة ٥٠٠ رأى السلطان محمد ما وصل إليه أحمد بن عبد الملك بن عطاش من القوة والهيبة فإن أمره استفحل بالقلعة التي ملكها بجوار أصبهان وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل من قدروا على قتله فقتلوا خلقاً كثيراً لا يمكن إحصاؤهم وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس

بأملاكهم ونسي أمر الباطنية بالخلف الواقع بين السلطانين بركياروق وأخيه محمد فلما صفت السلطنة لمحمد لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم والانتصاف للمسلمين من جورهم وعسفهم فرأى البداية بقلعة أصبهان التي بأيديهم لأن الأذى بها أكثر وهي متسلطة على سرير ملكه فخرج إليهم بنفسه فحاصرهم وصعد جبلا يقابل القلعة من غربيها ونصب له التخت بأعلاه واجتمع له من أصبهان وسوادها لحربهم الأمم العظيمة للدخول التي يطالبونهم بها وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ ورتب الأمراء لقتالهم فكان يقاتلهم كل يوم أمير فضاق الأمر بهم واشتد الحصار عليهم وتعذرت عندهم الأقوات ولما اشتد الأمر عليهم كتبوا فتوى فيها (ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق وإنما يخالفون الإمام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى) فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك وتوقف بعضهم بجمعوا للمناظرة ومعهم أبو الحسن علي ابن عبد الرحمن السمجاني وهو من شيوخ الشافعية فقال بمحضر من الناس يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين فإنهم يقال لهم أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع أو حظر عليكم ما أباحه الشرع أتقبلون أمره فإنهم يقولون نعم وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع وطالت المناظرة في ذلك ثم إن الباطنية سألوا السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم وعينوا لذلك أشخاصاً من العلماء منهم القاضي أبو العلاء صاعد بن يحيى شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيها وغيره فصعدوا إليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا وإنما كان قصدهم التعلل والمطاولة فلج حينئذ السلطان في حصرهم فلما رأوا منه عين الجد أذعنوا إلى تسليم القلعة على أن يعطوا عنها قلعة خالنجان وهي على سبعة فراسخ من أصبهان وقالوا إنا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلا بد من مكان نحتمي فيه فأشير على السلطان بإجابتهم إلى ما طلبوا فسألوا أن يؤخرهم إلى النوروز ليرحلوا إلى خالنجان ويسلموا قلعتهم وشرطوا ألا يسمع فيهم قول متنصح وإن قال أحد عنهم شيئاً سلمه إليهم وأن من أتاه منهم رده إليهم فأجابهم إليه وطلبوا أن يحمل

إليهم من الإقاتة ما يكفيهم يوماً بيوم فأجيبوا وكان قصدهم المطاولة انتظاراً لفتق أو حادث يتجدد ورتب لهم وزير السلطان ما يحمل إليهم كل يوم من الطعام والفاكهة وجميع ما يحتاجون إليه فجعلوا هم يرسلون ويبتاعون من الأطعمة ما يجمعونه ليمتنعوا في قلعتهم ثم إنهم وضعوا من أصحابهم من يقتل أميراً كان يبالغ في قتالهم فوثبوا عليه فجرحوه وسلم منهم وحينئذ أمر السلطان بإخراب قلعة خالنجان وجدد الحصار عليهم فطلبوا أن ينزل بعضهم ويرسل السلطان معهم من يحميهم إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر بارجان وهي لهم وينزل بعضهم ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبس وأن يقيم باقيهم في ضرس من القلعة إلى أن يصل إليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حينئذ ويرسل معهم من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة الموت فأجيبوا إلى ذلك فنزل جماعة إلى الناظر وإلى طبس وتسلم السلطان القلعة فأخربها ثم إن الذين ساروا إلى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن الذي بقي بيده وبان للسلطان منه الغدر فقرر الزحف عليه فزحف الناس كافة عليه وكان قد قل عنده من يمنع ويقاتل فظهر منهم صبر عظيم جداً وشجاعة زائدة وكان قد استأمن إلى السلطان إنسان من أعيانهم فدله على عورة لهم فأتى بهم إلى جانب لذلك السن لا يرام فقال اصعدوا من هنا فقيل إنهم ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال فقال إن الذي ترون أسلحة وكزاغندات جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم وكان جميع من بقي ثمانين رجلا فزحف الناس من هناك وملكوا الموضع وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من خرجوا معهم وأما ابن عطاش فأخذ أسيراً فترك أسبوعاً ثم قتل هو وولده ومثل بهما وحملت رؤوسهما إلى بغداد وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتي عشرة سنة.

وكما اهتم بأمر ابن عطاش وقلعته كذلك اهتم بأمر الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت وما معها فقد كان يعلم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم فجعل قصدهم دأبه وكانت أيام ابن الصباح قد طالت وله منذ ملك قلعة الموت ما يقارب ستاً وعشرين سنة

وكان المجاوزون له في أقبح صورة من كثرة غزواته لهم وقتله وأسره رجالهم وسبي نسائهم فسير إليهم السلطان العساكر ولكنها لم تبلغ منه غرضاً ولما أعضل داؤه ندب لقتاله الأمير أنو شتكين شيركير صاحب آية وساوة وغيرهما فملك منهم عدة قلاع وكان كلما ملك قلعة سير بمن فيها إلى الموت ولما تهيأت له الجنود وأمده السلطان بعدة من أمرائه سار إلى قلعة الموت فحصرها وكان أنوشتكين من بين أولئك الأمراء صاحب القريحة والبصيرة في قتالهم مع جودة رأي وشجاعة فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه وعين لكل طائفة من الأمراء أشهرا يقيمونها فكانوا يغيبون ويحضرون وهو ملازم الحصار وكان السلطان ينقل إليه الميرة والذخائر والرجال فضاق الأمر على الباطنية وعدمت عندهم الأقوات وغيرها فلما اشتد عليهم الأمر أنزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا فلم يجابوا إلى ذلك وأعادهم إلى القلعة قاصداً أن يموت الجميع جوعاً وكان ابن الصباح يجري على كل رجل منهم في اليوم رغيفاً وثلاث جوزات فلما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد الذي لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر إلى العسكر المحاصرة لهم بعدهم بيوم فعزموا على الرحيل فقال لهم شيركير إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددنا من الأقوات والذخائر والرأي أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها وإن لم يمكن المقام ولا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفد منا ثقلنا وما أعددنا ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو فلما سمعوا قوله أجابوه ولكنهم لما أمسوا رحلوا من غير مشاورة فتبعهم شيركير فغنم الباطنية ما تخلف عندهم.

هذا حالهم وما أثاروه من الفتن والنكبات إلى وفاة السلطان محمد بن ملكشاه وسنذكر بعد خاتمة أمرهم.

خطر المغرب:

كما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سبباً لنكبتهم بالباطنية كذلك كان سبباً لنكبتهم من المغرب بالحروب الصليبية وليس غرضنا الآن أن نشرح

هذه الحروب شرحاً وافياً فإنها حوادث أجيال إذ قد استمر أمرها من سنة ٤٩٠ إلى سنة ٦٩٠ أي قرنين كاملين اشترك فيها من الدول الإسلامية الفاطمية بمصر ودولة السلاجقة ودول الأتابكية التي تفرعت عن السلاجقة ودول الأيوبية ودولة المماليك البحرية بمصر ولما كنا الآن في اقتصاص أحوال آل سلجوق نسوق من أخبار هذه الحروب ما ارتبط بتاريخهم.

امتد سلطان السلاجقة إلى بلاد الروم (أرمينية والأناضول) وتأسست هناك دولة سلجوقية عظيمة الشأن بقونية واقصرا وما إليهما وأخذا بمخنق الروم فقصدوا كل حيلة في استرداد ما أخذ منهم لقوة الهاجين وخافوا على ما بقي لهم من الأملاك في آسيا. وكان ملك السلاجقة الروميين في أيام تلك الحوادث السلطان قليج أرسلان داود بن قتلمش (٤٨٥ ـ ٥٠٠).

وكذلك امتد على بلاد سوريا وتأسست لهم بها دولة حاضرتها دمشق وكان سلطانها في هذه الحوادث السلطان رضوان بن تتش بن ألب أرسلان وكان بينه وبين أخيه دقاق بن تتش حروب سببها المنافسة في الملك.

وكان خليفة مصر الفاطمي هو المستعلي بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر (٤٨٧ ـ ٤٩٥).

كان بيت المقدس مما ملكه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان مؤسس الدولة السلجوقية بسوريا فأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني فاستمر في حوزته إلى سنة ٤٨٩ وهي السنة التي سار فيها الصليبيون قاصدين في الظاهر الاستيلاء عليه وتخليصه من أيدي هؤلاء المغتصبين.

وقد اضطربت كلمة المؤرخين من العرب في السبب الذي حد بأولئك المغيرين إلى الخروج من بلادهم بهذه الشدة والكثرة فقال فريق منهم إن هذه الحملة كانت في الأصل موجهة إلى شمال أفريقية وكانت إذ ذاك تحت يد الدولة الزيرية والقائم بالأمر فيها تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ ـ ٥٠١) وكان رجار الصقلى قد قام في عهده واستولى على صقلية وحارب تميماً في عقر داره حروباً كانت بينهما سجالاً ولما بلغ رجار ما عزم عليه الصليبيون لم يعجبه لأنه قال إذا

وصلوا إلي أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى أفريقية وعساكر من عندي أيضاً فإن فتحوا البلاد كـانت لهم وصارت المؤنـة لهم من صقلية وينقـطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذيت بهم ويقـول تميم غدرت ونقضت عهـدي وتنقطع الـوصلة والأسفار بيننـا وبـلاد أفـريقية بـاقية لنـا متى وجدنـا قوة أخـذناهـا ومن أجـل ذلـك أشار عـلى هؤلاء المتحمسين بقصد بيت المقدس. لأن الجهاد في تخليصه أعظم أثراً وأبقى فخراً.

وقـال فـريق آخـر إن أصحـاب مصر من العلويـين لمـا رأوا قـوة الـدولـة السلجوقية وتمكنها واستيلاءهـا على بـلاد الشام إلى غـزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم وقـد دخل بعضهم فعـلا إلى بلاد مصر لمـا رأوا ذلك خـافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين.

وقال فريق من غيرهـم إن ملك الروم هـو الذي دعـا الفرنـج إلى ذلك لمـا خاف على دولته من السلاجقة فإنهم كما أخافوا المصريين أخافـوا الروم فكـل من الفريقين خائف وجل.

والذي عليه جمهور المؤرخين أن الغيرة الدينية التي أثارها في أوربا بـطرس الـراهب بمساعـدة البابـا أوربانس الثـاني هي التي هاجت أنفس الإفـرنـج لهـذه الإغارة.

وكل هذه الأسباب لا يبعدها العقل ولا يبعد أن يكون بعضهـا قد سـاعد بعضاً والأفرنج يميلون إلى جعلها حرباً دينية لا سياسيـة أثار غبـارها مـا كان من حمية الجاهلية في ذلك العصر.

زار بطرس الراهب البيت المقدس فعز عليه ما رآه من ملك المسلمين لهذا البيت الـذي فيه آثـار المسيح عليـه السلام فعاد إلى أوروبا شاكياً باكيـاً مستغيثـاً متضـرعاً واستعـان بسلطان الباب أوربـانس الثاني الـذي كـان إذ ذاك صـاحب الكلمـة العليا في أوربـا فأعـانه وعقـد المؤتمـرات لبث الحمية الـدينيـة في قلوب المسيحيين فنجح في ذلك ولا سيما أنه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع في هذه الحرب فتألفت جيـوش عظيمـة سارت إلى طلبتهـا في ٢٥ أغسطس سنـة ١٠٩٦

(٤٨٩) يقدمها بطرس الراهب وغيره إلا أن هذه الحملة لم تنجح في مسيرها لأنها لم تكن ذات نظام عسكري فعاثت في الأرض فساداً فقاومها البلغاريون والهونفريون وأفنوا كثيراً منها والذين تخلصوا وجازوا البحر عند القسطنطينية إلى آسيا أخذتهم سيوف السلطان قليج أرسلان عند قونية فلم ينج منهم أحد وهذه هي الحملة الأولى من الحرب الصليبية الأولى قامت على أثرها حملة أخرى وهي الحملة الثانية يقدمها غودا فرودي بوليون دوق دي لورين السفلى ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا وجيش آخر يقدمه هوكز أخو ملك فرنسا ومعه عدد من القواد وجيش ثالث يقدمه بوهيمند أمير تارنت الإيطالي.

سارت هذه الجيوش ومرت بالقسطنطينية بعد خطوب نالتهم من ملك الروم اليكسيوس ثم عبرت المجاز قاصدة مدينة قونية التي كانت من أعمال قليج أرسلان وعددهم عظيم جداً فلقيهم ذلك السلطان مدافعاً عن ملكه فتغلب عليه الصليبيون لكثرة عددهم ثم حصروا قونية نحو خمسين يوماً وفي نهايته سلمت حامية هذه المدينة لكنها لم تسلم للصليبيين بل سلمت لقائد ملك الروم الذي أرسل مع الصليبيين لهذه الغاية وكان هذا العمل سبباً لغيظ قوادهم أصاب هذا الجيش بعد ذلك نكبات شديدة جداً في مسيره ففني كثير منه بالحرب والجوع والتعب والأوبئة والاختلاف الكثير بين القواد الذين كان لكل منهم مقصد في العلو والرفعة وقد انفصل عنهم وهم سائرون أحد القواد وهوبودوين وسار إلى الجزيرة الفراتية فامتلك مدينة الرها وكانت للروم إذ ذاك.

صار القوم إلى أنطاكية وكان حاكمها أحد قواد السلجوقية باغيسيان فحصروها تسعة أشهر وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج وبعد هذا الحصر استولوا على المدينة بخيانة أحد المستحفظين للأبراج الذي بذل له الأفرنج مالا وأقطاعاً وكان الإفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق: إننا لا نقصد غير البلاد التي كانت للروم لا نطلب سواها وإنما فعلوا ذلك معهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية وقد كان ما أرادوا. سار الإفرنج بعد ذلك إلى معرة النعمان فامتلوكها.

كان البيت المقدس في تلك الأيام قد خرج من حوزة السلاجقة وامتلكه

المصريون فإنهم لما علموا بما أصاب الأتراك على أنطاكية أرسلوا جيشاً يقدمه الأفضل بن بدر الجمالي فاستولى عليه من يد الأمير سقمان بن أرتق التركماني واستناب فيه رجلا يعرف بافتخار الدولة وهو الذي تلقى حملة الصليبيين الذين حضروا إليه بعد أن حصروا عكا ولم يقدروا على فتحها. حصروا بيت المقدس نيفاً وأربعين ليلة وأخيراً استولوا عليه في يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ ولم يكن منهم ما يحمد عليه المحارب الشجاع بل أساءوا معاملة أهليه وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعيد الهروي فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا والسلطانان السلجوقيان بركياروق ومحمد إذ ذاك يتطاحنان يريد كل منهما الانفراد بالملك وإقصاء أخيه عنه.

ولما تم للأفرنج ما طلبوا من الاستيلاء على البيت المقدس انتخبوا القائد غودافر ليكون ملكاً هناك ولكنه لم يرض أن يلقب بلقب ملك بل بحامي قبر المسيح وأقام معه بعض الجنود ورحل سائرهم إلى أوطانهم.

وضع غودافر قانوناً لإدارة مملكته الجديدة إلا أن زمنه لم يطل فإنه توفي في ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ فأقيم مقامه بودوين ملك الرها وشقيق غودافر وأعلم بذلك فقبله وأقام بدله في ملك الرها ابن عمه بودوين دي بورغ ملكاً على الرها وسار هو إلى حاضرة ملكه وهو المعروف في التواريخ العربية باسم بردويل. هكذا وجدت مملكة أفرنجية في وسط أملاك المسلمين لأول مرة ولم يتركها المسلمون براحة بال ولا هي تركتهم بل كانت الحروب متصلة بين الطرفين: المصريون يناوشونهم من الجنوب والأتراك من الشرق. ولم تكن المملكة الإفرنجية واحدة في البلاد التي استولوا عليها بل كانت جملة ممالك مملكة القدس وأنطاكية والرها وغير ذلك إلا أن المملكة الكبرى كانت مملكة القدس. وسنتكلم في حوادثها عند ظهور الدولة الأتابكية والدولة الأيوبية اللتين أججتا نار الحرب مع هؤلاء الإفرنج.

٢٩ ـ المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر ولاه أبوه بالعهد فبويع بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه والده ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٣ (٧ أغسطس سنة ١١١٨) واستمر خليفة إلى أن قتل في يوم الأحد ١٧ ذي القعدة سنة ٥٢٩ (٣٠ أغسطس سنة ١١٣٥).

كان سلطان العراق لأول عهده هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان السلطان سنجر بن ملكشاه في ذلك الوقت ملك خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم وقد عظمت دولته وهو شيخ البيت السلجوقي وعظيمه. فلما توفي أخوه محمد وجلس ابن أخيه محمود وهو زوج ابنته لحقه لوفاة أخيه حزن أليم وجزع وجلس للعزاء على الرماد وتقدم الخطباء يذكرون السلطان محمد بمحاسن أعماله من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك وكان يلقب ناصر الدين فلما توفي أخوه تلقب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه وعزم على قصد الجبل والعراق وما بيد ابن أخيه محمود. ثم إن السلطان محمود أرسل إلى عمه سنجر وفداً معه الهدايا والتحف وطلب إليه أن ينزل له عن مازندران فغاظه هذا الطلب وقال إن ولد أخي صبي وقد تحكم عليه وزيره وحاجبه وصمم على المسير فسار وكذلك فعل السلطان محمود والتقيا عند الري بالقرب من ساوة وكان العسكر المحمودي قد استهان بالعسكر السنجري لكثرة الأولين وشجاعتهم وكثرة خيلهم ولما حصل اللقاء انهزمت ميمنة سنجر وميسرته وسارت جنودهما لا تلوي على شيء أما سنجر فكان واقفاً في القلب وأمامه السلطان محمود وقد أشار بعض المقربين من سنجر عليه أن ينهزم فقال: إما النصر وإما

القتل وأما الهزيمة فلا، وهجم بفيلته على قلب محمود هجوماً شديداً فتراجعت خيل محمود على أعقابها وكان بذلك هزيمة السلطان محمود ولما تم النصر لسنجر أرسل من رد المنهزمين من جنده. ورد الخبر إلى بغداد في عشرة أيام فأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل. أما محمود فإنه سار إلى أصبهان ومعه وزيره وبعض أمرائه وأما سنجر فسار إلى همذان وهناك راسل ابن أخيه في الصلح وكانت والدة سنجر تشير عليه بذلك وتقول قد استوليت على غزنة وأعمالها وما وراء النهر وملكت ما لأحد قدر عليه وقررت الجميع على أصحابه فاجعل ولد أخيك كأحدهم فأجاب إلى قولها وبعد مطاولات تقرر الصلح وسار محمود إلى عمه سنجر ونزل على جدته أم السلطان سنجر وأكرمه عمه وبالغ في إكرامه وحمل له محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهراً ورده باطناً ولم يأخذ منه سوى خمسة أفراس عربية وكتب السلطان سنجر إلى جميع عماله أن يخطب لمحمود من بعده حيث جعله ولي عهده ورد عليه جميع ما أخذ منه سوى الري.

ولم يكد السلطان محمود ينتهي من هذا النزاع بينه وبين عمه حتى قام ضده أخوه مسعود بن محمد وكان لمسعود حينئذ الموصل وأذربيجان وذلك سنة ٥١٤ وقد أجج الأمراء نار هذا الخلاف لينالوا من وراء ذلك حظوظهم ولا يبالون بالمملكة الإفرنجية التي صارت شوكة في جنوبهم وكان وزير مسعود هو الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصفهاني وهو الذي حسن لمسعود أن يقوم مطالباً بالمملكة ولما بلغ ذلك محموداً كتب إليهم يخوفهم إن خالفوه ويعدهم الإحسان إن أقاموا على طاعته وموافقته فلم يصغوا إلى قوله وأظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النواب الخمس ثم سار كل منهم إلى لقاء صاحبه فالتقوا عند عقبة أسداباذ واقتتلوا من بكرة إلى آخر النهار وأبلت الجنود المحمودية بلاء حسناً فانهزم عسكر مسعود آخر النهار وأسر جماعة من مقدمي جنودهم ومنهم الوزير أبو إسماعيل الطغرائي فأمر السلطان بقتله وقال قد ثبت عندي فساد دينه واعتقاده وكان حسن الكتابة والشعر.

ثم أرسل محمود وراء أخيه من لحقه وأتى به بعد أن بذل له الأمان

فاستقبله استقبالاً عظيماً ووفى له بما بذله وخططه بنفسه في كل أفعاله فعد ذلك من مكارم محمود ولا عجب فقد علمه سنجر.

كان الخليفة المسترشد بالله في هذا العصر قد استرد شيئاً من نشاط العباسيين وقاد الجيوش بنفسه لحرب المخالفين عليه وأهمهم دبيس بن صدقة ملك الحلة ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل ولا شك أن الملوك السلجوقيين لا يقع ذلك عندهم موقع الاستحسان فإنهم يتخوفون عاقبته ويرون منه خطراً على نفوذهم ومما يدل على أن ذلك منحه قوة لم تكن لسلفه أن شحنة بغداد برنقش الذكوى حصل بينه وبين نواب الخلافة نفرة فتهدده الخليفة فخاف فسار عن بغداد إلى السلطان محمود وشكا إليه وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قاد العساكر ولقي الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله بقصد العراق ودخول بغداد ازداد قوة وجمعاً ومنعك عنه وحينئذ يتعذر عليك ما هو الآن بيده فأثر ذلك الكلام في نفس السلطان وتوجه نحو العراق فأرسل إليه الخليفة يعرفه بالبلاد وما عليه أهلها من الضعف والوهن وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات لهرب الأكرة ويطلب منه أن يؤخر حضوره حتى تصلح الأحوال وبذل له على ذلك مالاً كثيراً فكان هذا مما زاد في إغراء السلطان حتى قصد بغداد فسار مجداً ولما بلغ الخليفة الخبر أظهر الغضب والنزوح عن بغداد واستعد لذلك إن جاء السلطان فأثر ذلك في أنفس العامة تأثيراً عظيماً حتى أكثروا البكاء والضجيج ولما أعلم السلطان بذلك أرسل يستعطف الخليفة ويطلب إليه العودة إلى داره فأبى إلا أن يعود السلطان ولا يحضر إلى بغداد فلم يلتفت السلطان إلى قوله واستمر قاصداً بغداد أما الخليفة فاستعد لمقابلته بالقوة وكان معه كثير من العامة والجند يدافعون عنه تديناً وقد حصلت مناوشات بين الفريقين في أول سنة ٥٢١ وكان مع كل جمع عظيم ولما رأى المسترشد بالله ذلك جنح إلى الصلح الذي طلبه السلطان محمود فتم ذلك وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد فلم يفعل وقال لا تساوي الدنيا فعل مثل هذا وأقام ببغداد إلى رابع شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ ثم فارقها بعد أن حمل إليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة.

وفي سنة ٥٢٤ ملك السلطان محمود قلعة الموت من يد صاحبها الحسن بن الصباح.

وفي سنة ٥٢٥ توفي السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان حليماً كريماً عاقلاً يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفاً عنها كافاً لأصحابه عن التطرق إلى شيء منها.

لما توفي خطب لولده داود بالسلطنة في بلاد الجبل وأذربيجان إلا أنه قام ضده ابن عمه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه فكان الظفر لمسعود وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد إلا أن هذا لم يرق لعميد البيت ورئيسه السلطان سنجر فأقبل من خراسان قاصداً دفع مسعود عن السلطنة وسار إليه مسعود فالتقيا بعولان عند الدينور وكانت النتيجة أن انهزم مسعود وفل جيشه وتحكم سنجر فيما بقي ثم أرسل وراء ابن أخيه من يرده فرده إليه فلما حضر عنده قبله وأكرمه وعاتبه على عصيانه ومخالفته ولم يعده إلى السلطنة بل رده إلى كنجه وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد مكانه وخطب له في جميع البلاد ثم عاد إلى نيسابور فلما رأى ذلك مسعود خرج من مكمنه وتوجه إلى بغداد ثانياً بما جمعه من الجيوش فدخلها فقابله الخليفة بالإكرام ووعده أن يرسل معه جيشاً لمحاربة طغرل وقد وفى بما وعد فسارت الجنود المسعودية صوب طغرل حتى التقوا به عند همذان فكانت بينهما موقعة انهزم فيها طغرل واستقر الأمر ثانية للسلطان (غياث الدنيا والدين أبي الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه).

كان هذا الخلاف بين البيت السلجوقي مقوياً للمسترشد فصار يعد نفسه صاحب الأمر الذي يجب أن يطاع لا بالقوة المعنوية وحدها بل بقوة السيف أيضاً. فقد صار تحت أمره أجناد ورجال يلبون دعوته وينفذون كلمته وقد حصل بسبب ذلك نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت إلى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد ولم يقف عند ذلك بل تجهز بجيشه يريد حرب مسعود بدار سلطنته ومعه الجنود الكثيرة إلا أنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند اللقاء فإن العصبية الجنسية غلابة مهما كانت الأحوال ولذلك لما التقى الطرفان انحاز

كثير من عسكر الخليفة الأتراك إلى السلطان مسعود فانهزم جند الخليفة أما هو فرقي ثابتاً حتى أسر ولما بلغ ذلك الخبر بغداد قامت قيامة أهلها وخرجوا من الأسواق يحثون التراب على رءوسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات في الأسواق يلطمن.

أما الخليفة فقد جعله السلطان في خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وألا يعود إلى جمع العساكر وألا يخرج من داره فأجيب إلى ذلك ولم يبق إلا أن يعود الخليفة إلى بغداد إلا أنه صادف أن هجم على خيمة الخليفة جماعة من الباطنية فقتلوه ومثلوا به وكان ذلك في يوم الأحد ١٧ ذي القعدة على باب مدينة مراغة وكان المسترشد شهماً شجاعاً كثير الإقدام بعيد الهمة وكان فصيحاً بليغاً حسن الخط. قال ابن الأثير: ولقد رأيت خطه في غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه: ولقد حاول أن يعيد شيئاً من مجد أهل بيته فحالت الأقدار بينه وبين ما أراد.

٣٠ ـ الراشد باللّه

بويع بالخلافة بعد المسترشد باللّه ابنه أبو جعفر المنصور الراشد باللّه وكان ولي العهد فلما مات أبوه جددت له البيعة في ٢٧ من ذي القعدة وكتب السلطان إلى شحنة بغداد بالبيعة له وحضر بيعته ٢١ رجلا من أولاد الخلفاء.

ولم يكن السلطان مسعود مع الراشد أسعد حظاً من أبيه معه، بل حاول الراشد أن يثأر لأبيه ويخل سلطنة مسعود فاتفق مع داود بن السلطان محمود أخي مسعود ومع كثير من أمراء الأطراف على مقاومة مسعود وخلعه. ولما سمع بذلك مسعود أقبل مسرعاً صوب بغداد ولما وصلها حصرها لامتناع الخليفة وتفرقوا تاركين بغداد حتى أكبرهم شأناً عماد الدين زنكي صاحب الموصل ولما رأى الخليفة ذلك بارح بغداد في رفقة عماد الدين ولما رأى مسعود ذلك دخل بغداد ظافراً وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التي حلف الراشد باللّه لمسعود وفيها بخط يده إني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر. فأفتوا بخروجه من الخلافة. وكانت خلافته ١١ شهراً و ١١ يوماً.

٣١ ـ المقتفي لأمر اللَّه

هو أبو عبد اللَّه الحسين المقتفي لأمر اللَّه ابن المستظهر، اختاره السلطان مسعود للخلافة بعد أن كتب محضر بخلع ابن أخيه الراشد من الخلافة وكانت بيعته في ثامن ذي الحجة سنة ٥٣٠ (٧ سبتمبر سنة ١١٣٦) واستمر في الخلافة إلى أن توفي ثاني ربيع الأول سنة ٥٥٥ (١٢ مارس سنة ١١٦٠) فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و ١٦ يوماً وكان عمره إذ توفي ٦٦ سنة.

ولما بايع السلطان المقتفي صاهره فزوجه أخته فاطمة على صداق مائة ألف دينار وبذلك أمن السلطان أن يكون الخلية ضده. وقد حاول الخليفة المعزول أن يعيد لنفسه الخلافة فاتحد مع الملك داود ابن السلطان محمود ولكنه مع ما بذله من المجهود العظيم لم ينجح فقد ائتمر به جماعة من الباطنية فسقوه الردى بنواحي أصفهان.

استمر السلطان مسعود في سلطانه مع كثرة المخالفين والخارجين عليه من أهل بيته ومن أمرائه إلى أن توفي سنة ٥٤٧ بهمذان وذلك على رأس مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرلبك، وماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقي فلم تقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت إليها. وكان رحمه اللَّه حسن الأخلاق كثير المزاح والتبسط مع الناس وكان كريماً عفيفاً عن أموال الرعية حسن السيرة فيهم. من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الأخلاق وكان مسعود قد عهد بالسلطنة بعده لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود.

أما الخليفة فإنه لما بلغه وفاة مسعود طرد شحنة السلجوقية بها وأخذ داره

زدور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل ماهم فيها وكل من عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالديوان وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم بإراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان وأرسل جنوده فاستولت على سائر البلاد العراقية الحلة وواسط وغيرها وخرج بنفسه ليقوي جنده.

أصبح ذلك الملك العظيم الذي أسسه طغريل بك وإخوته ورفع بنيانه ملكشاه أصبح نهباً تقاسمته دول شتى تعرف بالدول الأتابكية وها نحن أولاء نقتص حديثها.

الأتابكية

من الدول التركية التي زاحمت دولة السلاجقة وسامتها الدولة الأتابكية وبيوتها شتى لا تنتهي إلى نسب واحد إلا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقي. وأتابك كلمة تركية معناها مربي الملك فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قوادهم بهذا الامتياز أطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام.

وقد وصل بعض هؤلاء الأتابكية إلى درجة الملك في بعض الأقاليم الإسلامية وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الأسر الأتابكية ومعهم دول ينتسبون أيضاً إلى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب بل بلقب شاهات وسنسوق أخبارها بالإجمال حسب ترتيب ظهورها.

١ ـ شاهات خوارزم

ينسبون إلى محمد بن أنوشتكين وكان أبوه أنوشتكين مملوكاً لأمير من أمراء السلجوقيين اسمه بلكباك اشتراه من رجل من غرشستان فقيل له أنوشتكين غرشمه فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف وكان مقدماً مرجوعاً إليه وولد له ولد سماه «محمد» وهو باني هذا البيت علمه أبوه وخرجه وأحسن تأديبه وتقدم بنفسه بالعناية الإلهية فولاه الأمير حبشي قائد بركياروق خوارزم ولقبه خوارز مشاه فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسناً ومحله علواً. ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقر محمد خوارزم مشاه على خوارزم وعمالها فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محله وقدره. ولم يزل على جلالة القدر والكفاية إلى أن توفي سنة ٥٢١ فولى بعده ابنه أتسز فقربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه في أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهادة فزاده تقدماً وعلواً ورسخت أقدام هذا البيت في الملك وقد استمر إلى سنة ٦٢٨ حيث زال على أيدي التتر الذين هاجموا البلاد الإسلامية بزعامة جنكيز خان كما سيأتي توضيحه؛ وهذا ثبت ملوك الخوارز مشاهية.

(١) سبكتكين	٤٧٠ ـ ٤٩٠
(٢) قطب الدين محمد بن أنوشتكين	ـ ٥٢١
(٣) أتسز بن محمد	ـ ٥٥١
(٤) أرسلان بن أتسز	ـ ٥٦٨
(٥) سلطان شاه محمود بن أرسلان	ـ ٥٦٨

(٦) تكش بن أرسلان ـ ٥٩٦

(٧) علاء الدين محمد بن تكش ـ ٦١٧

(٨) جلال الدين منكبرتي بن محمد ـ ٦٢٨

وعلى يد هذه الدولة انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما إليها من بلاد الري والجبل وما وراء النهر.

٢ ـ الدولة الأرتقية .

تنسب هذه الدولة إلى أرتق بن أكسب التركماني وهو مملوك من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي وقائد من قواده .

وأول من أسس هذا البيت معين الدولة سقمان بن أرتق استولى على حصن كيفا سنة ٤٩٥ من يد الأمير موسى التركماني في عهد السلطان بركياروق بن ملكشاه ثم ضم إليها ماردين .

وفي سنة ٦٠٢ انقسمت هذه المملكة الصغيرة إلى مملكتين إحداهما بالحصن والثانية بماردين فأما مملكة الحصن فاستمرت إلى سنة ٦٢٠ وانتهت على أيدي الأيوبيين ـ وأما مملكة ماردين فاستمرت إلى سنة ٨١١ أي بعد ظهور آل عثمان بمائة وإحدى عشرة سنة وانتهت على يد قرة قيونلي وهذه أسماء ملوك الحصن :

(١) معين الدولة سقمان بن أرتق	٤٩٥ ـ ٤٩٨
(٢) إبراهيم بن سقمان	ـ ٥٠٢
(٣) ركن الدين داود بن سقمان	ـ ٥٤٣
(٤) قمر الدين قره أرسلان بن داود	ـ ٥٧٠
(٥) قطب الدين سقمان بن محمد	ـ ٥٩٧
(٧) ناصر الدين محمود بن محمد	ـ ٦١٩
(٨) ركن الدين مودود بن محمود	ـ ٦٢٠

وهذه أسماء ملوك ماردين :

(١) نجم الدين غازي بن أرتق	٥٠٢ ـ ٥١٦
(٢) حسام الدين تيمور تاش بن غازي	ـ ٥٤٧
(٣) نجم الدين ألبي بن تيمور تاش	ـ ٥٧٢
(٤) قطب الدين غازي بن ألبي	ـ ٥٨٠
(٥) حسام الدين يولق بن أرسلان بن غازي	ـ ٥٩٧
(٦) ناصر الدين أرتق أرسلان بن غازي	ـ ٦٣٧
(٧) نجم الدين غازي بن أرتق أرسلان	ـ ٦٥٨
(٨) قره أرسلان بن غازي	ـ ٦٦١
(٩) شمس الدين داود بن قره أرسلان	ـ ٦٩٣
(١٠) نجم الدين غازي بن قره أرسلان	ـ ٧١٢
(١١) شمس الدين صالح بن غازي	ـ ٧٦٥
(١٢) المنصور أحمد بن صالح	ـ ٧٦٩
(١٣) الصالح محمود بن أحمد	ـ ٧٦٩
(١٤) المظفر داود بن صالح	ـ ٧٧٨
(١٥) الظاهر مجد الدين عيسى بن داود	ـ ٨٠٩
(١٦) صالح بن داود	ـ ٨١١

وصالح هذا آخر ملك من موالي السلجوقيين.

٣ ـ أتابكية دمشق

ابتدأت هذه الدولة سنة ٤٩٧ وأول ملكوها سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين وأصله مملوك للملك تتش بن ألب أرسلان أول سلاجقة سوريا ثم صار من قواده الذين يعتمد عليهم وكان أتابك ولده دقاق. وبعد قتل تتش استمر مع ولده دقاق وكان سنده وظهيره فلما توفي دقائق سنة ٤٩٨ خطب أتابك لولد له صغير وجعل اسم المملكة فيه سنة واحدة ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل وله من العمر ١٢ سنة وأشار عليه أن يقصد الرحبة فقصدها فملكها ولما عاد منها منعه طغتكين من دخوله دمشق وأعاد خطبة الطفل ولد دقاق. وقد حاول بكتاش أن يسترد ملكه واستعان على ذلك بملك الافرنج في القدس فلم ينجح واستمر ملك دمشق لطغتكين فأحسن إلى الناس وبث فيهم العدل فسروا به سروراً كثيراً وقد استمر الملك في عقبه ٥٢ سنة وانتهى على يد آل زنكي سنة ٥٤٩ وهذا ثبت ملوكهم:

(١) سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين. ٤٩٧ ـ ٥٢٢
(٢) تاج الملوك بوري ـ ٥٢٦
(٣) شمس الملوك إسماعيل ـ ٥٢٩
(٤) شهاب الدين محمود ـ ٥٣٣
(٥) جمال الدين محمود ـ ٥٣٤
(٦) مجير الدين أبق ـ ٥٤٩

٤ ـ أتابكية الموصل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٢١ وتنسب إلى عماد الـدين زنكي بن أق سنقر وكان أق سنقر مملوكاً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي وكان معدوداً من كبار القواد جعله ملكشاه من قواد أخيه تتش ولما ملك حلب استنابه فيهـا ثم التحق بـالسلطان بركيـاروق بعد وفـاة ملكشاه وسـار في خدمتـه وكان تتش يمني نفسـه بملك العراق فجهـز الجيوش ليسطو عليها فـأرسل بـركياروق إليـه الجنود عليهم أق سنقر فالتقى الفريقان عند نهر سبعين قريباً من تل السلطان بينه وبـين حلب ستة فراسخ واقتتلوا فانهزم من مع أق سنقر وثبت هـو فأسر ثم قتـل صبراً وكان أحسن الأمراء سياسة وحفظاً لرعيته .

وقد نشأ ابنه أتابك عماد الدين زنكي في كهف الدولـة السلجوقيـة واهتم به ملوكهم لما لأبيه من الأيدي البيضاء في حفظ بيتهم ولأنه قتل في الدفـاع عنهم فنشأ نشأة عالية ذا همة مقداماً وكانوا يتسعينون به في مهماتهم فيكفيهم إياها ومـا زال ينبه ذكره وتقـوى همته حتى ولاه السلطان محمـود مدينـة الموصـل سنة ٥٢١ ليقوم بحفظها وإصلاح شأنها وجعله أتابك ولده فروخ شاه المعـروف بالخفـاجي ليربيه .

أظهر زنكي في ولايته كفاية وقوة وصلاحاً وكان له في جهاد الصليبيين همة لا تزال تذكـر له وهـو رأس الأتابكيـة من بيت زنكي . وقد انقسمت إلى أربعـة دول .

الأولى : أتابكية الموصل وهذا ثبت ملوكها .

(١) أتابك عماد الدين زنك	٥٢١ - ٥٤١
(٢) سيف الدين غازي بن زنكي	- ٥٤٤
(٣) قطب الدين مودود بـن زنكي	- ٥٦٥
(٤) سيف الدين غازي بن مودود	- ٥٧٦
(٥) عز الدين مسعود بن مودود	- ٥٨٩
(٦) نور الدين أرسلا نشاه بن مسعود	- ٦٠٧
(٦) عز الدين مسعود بن أرسلانشاه	- ٦١٥
(٨) نور الدين أرسلانشاه بن مسعود	- ٦١٦
(٩) نصير الدين محمود بن مسعود	- ٦٣١
(١٠) بدر الدين لؤلؤ	- ٦٥٧
(١١) إسماعيل بن لؤلؤ	- ٦٦٠

وبـدر الدين لؤلؤ من هـذا البيت بل هـو مولاهم استقـل بأمـر الملك بعد سيده نصير الدين محمود وقد انتهت هذه الدولة على يد المغول.

٥ ـ أتابكية سوريا

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤١ وهي السنة التي قتل فيها عماد الدين زنكي فإن مملكته انقسمت بين ولديه سيف الدين غازي الذي ملك الموصل ومحمود نور الدين الذي ملك حلب وانتهت سنة ٥٧٧ على أيدي الأيوبيين ولم يكن منها إلا ملكان أحدهما محمود نور الدين بن زنكي والثاني الصالح إسماعيل بن محمود. ومحمود نور الدين هذا هو أستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب والرجلان كلاهما له القدم الثابتة في جهاد الصليبيين.

٦ ـ أتابكية سنجار

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٦٦ بعد وفاة قطب الدين مودود صاحب الموصل فإن بلاده انقسمت بين ولديه سيف الدين غازي بن مودود الذي كان ولي عهد أبيه وهو أصغر الأخوين وهذا ملك الموصل والثاني عماد الدين زنكي ابن مودود وهذا ملك سنجار وما معها بواسطة عمه نور الدين محمود وانتهت هذه الدولة سنة ٦١٧ على أيدي الأيوبيين وهذا ثبت ملوكها:

(١) عماد الدين زنكي بن مودود	٥٦٦ ـ ٥٩٤
(٢) قطب الدين محمد بن زنكي	ـ ٦١٦
(٣) عماد الدين شاهنشاه	ـ ٦١٦
(٤) عمر	ـ ٦١٧

٧ ـ أتابكية الجزيرة

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٧٦ بعد وفاة سيف الدين غازي بن مودود صاحب الموصل فإن بلاده انقسمت بين ولديه عز الدين مسعود وهو الأكبر وهذا ملك الموصل، والثاني سنجر شاه بن مسعود وهذا ملك جزيرة ابن عمر وقد بقيت في يد أولاده إلى سنة ٦٤٥ حيث أخذها الأيوبيون والذين تولوها هم :

(١) معز الدين سنجرشاه.	٥٧٦ ـ ٦٠٥
(٢) معز الدين محمود بن سنجرشاه	ـ ٦٤٨
(٣) مسعود بن محمود.	ـ ٦٤٨

٨ ـ أتابكية إربل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٩ أسسها زين الـدين علي كجـك بن بكتكين وهو مملوك تركماني لعماد الدين زنكي جعله أتابك ولده قطب الدين مـودود وقد فتح بلاداً كثيرة في بدء الدولة الزنكية كان بيده مهنـا سنجار وحـران وقلعة عقـر الحميدية وقلاع الهكاريـة وتكريت وشهـر زور وغيرهـا واستمر كـذلك إلى سنـة ٥٦٣ وقبل أن يموت سلم جميع ما بيده إلى قطب الـدين مودود ولم يبق لـه سوى إربل فسار عن الموصل وأقام بها وفي هذه السنة توفي فولي بـدله ابنـه زين الدين أبو المظفر يوسف وهو الصغير تعصب لـه مجاهـد الدين قـايمازوكـان أخوه الأكبـر مظفر الذين كوكبوري فحاول أن يكون بدل أبيه فلم يحصل على بغيته فـأسر إلى الموصل وملكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود فأقطعه حران فـأقام بهـا مدة ثم انتقل إلى خدمـة صلاح الـدين يوسف فحـظي عنده وتمكن منـه وزاد صلاح الدين في أقطاعه الرُّهـا وزوجه أختـه وقد حضر معـه كثيراً من مشـاهده وأظهـر نجدة وعزيمة فلما توفي أخوه يوسف سنة ٦٨٣ رده صلاح الدين إلى ملكه بـإربل فـاستقر فيـه إلى أن مات سنـة ٦٣٠ وأوصى ببلاده قبـل موتـه للخليفة العبـاسي فبقيت بأيدي العباسيين إلى أن جاء المغول فأخذوها فيما أخذوا .

٩ ـ أتابكية أذربيجان

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٦ ومؤسسها هو الأمير إيلدكز وكان مملوكاً لكمال السميري وزير السلطان محمود السلجوقي فلما قتل الكمال سار إيلدكز إلى السلطان محمود. ولما ولي السلطان مسعود السلطنة ولاه أرانية فمضى إليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره. ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها وأصفهان والري وما إليهما من البلاد وخطب بالسلطة لأرسلانشاه بن طغرل وهو ربيبه وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع واتسع ملكه من باب تفليس إلى مكران ولم يكن للسلطان أرسلان معه حكم إنما كانت له جراية تصل إليه وكان إيلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكواهم وينصف بعضهم من بعض وهذا ثبت ملوك هذا البيت:

(١) شمس الدين إيلدكز	٥٣١ ـ ٥٦٨
(٢) محمد البهلوان جهان بن إيلدكز	ـ ٥٨١
(٣) قزيل أرسلان عثمان بن إيلدكز	ـ ٥٨٧
(٤) أبو بكر بن محمد	ـ ٦٠٧
(٥) مظفر الدين أزبك بن محمد	ـ ٦٢٢

وقد انتهت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم.

١٠ ـ أتابكية فارس
(الدولة السلغرية)

ابتدأت هذه الدولة بفارس سنة ٥٤٣ وتنسب إلى سلغر أحد قواد التركمان في عهد السلاجقة وكانت نهايتها سنة ٦٨٦ على أيدي المغول وهذا ثبت ملوكها.

(١) سنقر بن سلغر.	٥٤٣ ـ ٥٥٧
(٢) زنكي بن سنقر	ـ ٥٨١
(٣) دكلا بن زنكي	ـ ٥٩١
(٤) سعد بن زنكي	ـ ٦٢٣
(٥) أبو بكر بن سعد	ـ ٦٥٨
(٦) محمد بن سعد	ـ ٦٦٠
(٧) محمد شاه بن محمد	ـ ٦٦٠
(٧) سلجوقشاه بن سلغر بن سعد	ـ ٦٦٠
(٩) أبيش بن سعد بن أبي بكر.	ـ ٦٨٦

١١ ـ أتابكية لورستان (الهزارسبية)

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤٣ وهي من فروع الدولة السلغرية أتابكية فارس أسسها أبو طاهر أحد قوادهم وهذا ثبت ملوكهم:

(١) أبو طاهر بن محمد	٥٤٣ ـ ٦٠٠
(٢) نصرة الدين هزارسب بن أبي طاهر	ـ ٦٥٠
(٣) دكلا بن هزارسب	ـ ٦٥٧
(٤) شمس الدين ألب أرغو بن هزارسب	ـ ٦٧٣
(٥) يوسف شاه الأول بن ألب أرغو	ـ ٦٨٧
(٦) أفراسياب الأول بن يوسف	ـ ٦٩٦
(٧) نصرة الدين أحمد بن ألب أرغو	ـ ٧٣٣
(٨) ركن الدين يوسف شاه الثاني بن أحمد	ـ ٧٤٠
(٩) مظفر الدين أفداسياب الثاني بن يوسف شاه	ـ ٧٥٦
(١٠) شمس الدين هو شانج بن أفراسياب الثاني	ـ ٧٨٠
(١١) أحمد	ـ ٨١٥
(١٢) أبو سعيد	ـ ٨٢٠
(١٣) حسين	ـ ٨٢٧
(١٤) غياث الدين	

وقد انتهت هذه الدولة علي أيدي الدولة التيمورية.

شاهات أرمينية

ابتـدأت دولتهم سنة ٥٨٣ ومؤسسهـا هو الأمـير سقمـان القـطبي بمـدينـة خـلاط وكان مملوكـاً لقطب الـدين إسمـاعيـل السلجـوقي صـاحب مـدينـة من أذربيجان ومن ثم قيل لـه القطبي نشـأ شهماً كـافياً وكـانت خلاط لبني مـــروان وظلمـــوا واشتهر عـدل سقمان فـاتفق أهل خـلاط وكاتبـوه فجاء وفتحـوها لـه وسلموها إليه وهذه أسماء الملوك من هذا البيت.

(١) سقمان القطبي. ٤٩٣ ـ ٥٠٦

(٢) ظهير الدين إبراهيم شاه أومن. ـ ٥٢١

(٣) أحمد ـ ٥٢٢

(٤) ناصر الدين سقمان ـ ٥٧٩

(٥) سيف الدين بكتيمور ٥٧٩ ـ ٥٨٩

كان مملوكاً لهم وهو صاحب ميافارقين

(٦) بدر الدين أق سنقر ٥٨٩ ـ ٥٩٤

اسمه هزار ديناري وهو مملوك أق سنقر وزوج ابنته.

(٧) المنصور محمد بن بكتيمور ٥٩٤ ـ ٦٠٣

(٨) عز الدين بلبان ـ ٦٠٤

وقد انتهت دولتهم على أيدي الأيوبيين.

الدولة الغورية

مما يضاف إلى الدول التي حدثت في هذا العهد الدولة الغورية وهي دولة قامت على أطلال الدولة السبكتكينية. تنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها وهو الغور وهو جبال وولاية بين هراة وعزنة وهي بلاد باردة واسعة موحشة وهي مع ذلك لا تنطوي على مدينة وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه قام بهذه البلاد آل سام من سنة ٥٤٣ وملكوه ما كان يملكه آل سبكتكين من بلاد الغور وأفغان والهند ولم يزل ملكهم قائماً إلى سنة ٦١٢.

وأول من قام من هذا البيت قطب الدين محمد بن الحسين ملك بلاد الغور وصاهر بهرامشاه مسعود بن إبراهيم صاحب غزنة فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته فعاجله بهرامشاه قبل أن يكون منه حدث عظيم فقتله فعظم قتله على الغورية وولوا بعده أخاه سيف الدين سوري بن الحسين فقوي أمره وتمكن في ملكه فجمع عسكرا كثيراً وسار إلى غزنة طالباً بثأر أخيه فلما وصل غزنة ملكها وهرب عنها بهرامشاه إلى الهند فجمع جموعاً كثيرة وعاد إلى غزنة وهو أهلها معه فخرج سوري إلى لقائه فلما تصاف العسكران أسلم سوري جنوده فقهره بهرامشاه وصلبه واستعاد ملك غزنة سنة ٥٤٤ وكان سوري أحد الأجواد له الكرم الغزير والمروءة العظيمة.

اختار الغورية بعده أخاه علاء الدين حسين بن الحسن ولقبه جهان سوز فأعاد الكرة على غزنة سنة ٥٥٠ وملكها وأخرج عنها بهرامشاه واستعمل عليها أخاه سيف الدين محمداً وأجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولأخيه سيف

الـدين من بعده وتلقب عـلاء الدين بـالسلطان المعـظم وحمـل الجـتر عـلى عـادة السلاطين السلجوقية.

ومـات علاء الـدين سنـة ٥٥٦ فملك بعـده غياث الـدين محمد بن بهـاء الـدين سام بن الحسن وكـان عضده الأقـوى أخوه شهـاب الـدين وقـد حسنت سيرتهما وقويت جموعهـما فملكا بـلاد الغور والأفغـان والهند وعـلى يدهمـا انقرض ملك آل سبكتكين سنة ٥٨٢ بعد أن ملكوا ٢١٣ سنة تقريباً.

ولما عظم ملك الغوريين وكثرت عساكرهم وأموالهم خـطب لغياث الـدين وتلقب بألقاب السلاطين وكان يدعى له على المنـابر غيـاث الدين والـدنيا معـين الإسلام قسيم أمير المؤمنين.

وامتد ملك غياث الدين وأخيه على معظم بلاد خراسان ومعظم بلاد الهند تيسر لهما فتح الكثير منها وتدويخ ملوكها وقد بلغا منها ما لم يبلغه أحـد قبلهما من ملوك المسلمـين وجعل مـدينة دهـلي كرسي الممـالك التي فتحهـا من بـلاد الهنـد وأقطعها مملوكة قطب الدين أبيك وقـطب الدين هـذا هو مؤسس بيت سـلاطين دهلي الذين استمر ملكهم من سنة ٦٠٢ وهي السنة التي توفي فيها شهاب الدين الغوري إلى سنة ٦٨٦ وهذا ثبت ملوك هذا البيت:

(١) أيبك قطب الدين	٦٠٢ - ٦٠٧
(٢) أرم شاه	- ٦٠٨
(٣) التمش شمس الدين	- ٦٣٣
(٤) فيروزشاه الأول ركن الدين	- ٦٣٤
(٥) رضيا	- ٦٣٨
(٦) بهرام شاه معز الدين	- ٦٣٩
(٧) مسعود شاه علاء الدين	- ٦٤٤
(٨) محمود شاه الأول نصر الدين	- ٦٦٤
(٩) بلبن غياث الدين	- ٦٨٦
(١٠) كيقباذ معز الدين.	

وغياث الدين الغوري وأخوه شهاب الدين معدودان من ملوك الهند العظام والدولة الغورية هي ثاني مملكة هندية بعد الدولة السبكتكينية.

وفي عهد المقتفي حصلت الحرب الصليبية الثانية وسببها أن الأفرنج بالشام رأوا من محمود نور الدين ما هالهم فقد استولى على كثير من معاقلهم وحصونهم فقرروا طلب الإعانة والنجدة من البابا أوجانيوس الثالث وأرسلوا لذلك رسلا أقامت عباراتهم الشديدة البابا وأقعدته وحركت من نفسه الغيرة وخشي أن يكون سلفه أسبق إلى الفوز منه فأرسل دعاته إلى فرنسا وملكها لويز السابع فأجاب الداعية وكان أعظم مؤثر فيهم ما أخبروا به من سقوط مملكة الرهابين يدي المسلمين وأرسلت الدعاة أيضاً إلى ألمانيا وملكها كونراد الثالث فأجاب الداعية أيضاً وكان لهذين الملكين الزعامة على جيوش هذه الحرب الثانية.

وقد وصل إلى القسطنطينية أولا الملك كونراد الثالث بجيشه وكان ملكها عمانويل اليكسيوس الأول وكان يخاف من الصليبيين على مملكته فكاد لهم المكايد ثم تارة لويس السابع بجيوشه.

ذهب الألمان أولا مجتازين بلاد قرنية بلاد السلاجقة فلقيهم هؤلاء بحروب شديدة كسرت حدتهم وقتلت أكثرهم وجعلت زعيمهم يرتد خائباً كسيراً حتى قابل الجيوش الفرنسية فسار معهم بفلول جيشه حتى وصولوا إلى القدس بعد أن ذاقوا من العذاب ألواناً وذلك سنة ٥٤٢ وبعد أن زاروا المدينة المقدسة قرروا الذهاب إلى مدينة دمشق والاستيلاء عليها وكان صاحبها إذ ذاك آخر الدولة الأتابكية وهو مجير الدين أبق ابن محمد بن بوري بن طغتكين والأمر في دولته لمولاه معين الدين أنز. سار الملكان بجنودهما ومعهما جنود إفرنج الشام حتى وصلا دمشق سنة ٥٤٣ وحاصروها فزحف إليهم أهل البلد مجدين في ردهم وأبلوا بلاء حسناً. وكان معين الدين قد أرسل يستنجد بسيف الدين غازي صاحب الموصل فأجاب الداعي وأقبل حتى أتى حلب واستصحب منها أخاه محموداً نور الدين وسارا حتى أتيا حمص ولما علم الصليبيون بذلك خافوا أن

يقعوا بين نارين فرحلوا عن دمشق خائبين ورجعوا إلى بلادهم من غير أن يحدثوا أثراً وفي سنة ٥٤٩ استولى محمود نور الدين على دمشق.

هذه هي الدول التي ورثت ملك السلاجقة العظيم.

نعود الآن إلى بيان الحال بعد وفاة السلطان مسعود قلنا إنه كان عهد إلى ابن أخيه ملكشاه وخطب له فعلا ولكن أحد قواد أبيه المعروف بخاص بك أرسل إلى الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد إليه فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة وخطب له بها وخدمه وبالغ في خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم إنه دخل إلى الملك محمد ثاني يوم وصوله فقتله محمد ولم ينتطح في قتله عنزان واستقر محمد في السلطنة وأرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع من إجابته إلى ذلك فسار من همذان في عساكر كثيرة نحو العراق ووصل إليها في ذي الحجة سنة ٥٥١ وقد اهتم الخليفة ووزيره بأمر الدفاع عن بغداد وفرقا السلاح على الجند والعامة ونصبت المنجنيقات والعرادات وجرت بين الفريقين عدة حروب واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وكان بعض الذين يساعدون السلطان محمد لا يناصحونه لأجل الخليفة والمسلمين ففتروا وقصروا وبينما هم على تلك الحال ورد خبر إلى السلطان محمد بأن أخاه ملكشاه بن محمود ومعه إيلدكز صاحب بلاد أران والملك أرسلان بن طغرل قد دخلوا همذان واستولوا عليها وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد أموالهم فلما سمع ذلك محمد جد في القتال عله يبلغ مناه فلم يقدر على شيء ورحل عنها نحو همذان في أواخر ربيع الأول سنة ٥٥٢ ولما قارب همذان خرج منها خصومه خائبين خائفين.

استقر محمد في دار ملكه بأصفهان وصار العراق للخليفة لا يشركه فيه أحد وكانت وفاة السلطان محمد والخليفة المقتفي في زمنين متقاربين فأما محمد فإنه توفي بهمذان سنة ٥٥٤ وقد اختلف قواده بعد موته اختلافاً كثيراً فطائفة طلبوا أخاه ملكشاه وطائفة طلبوا عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه وهم

الأكثر وطائفة طلبوا أرسلان ابن طغرل بن محمد بن ملكشاه وأخيراً تم الأمر لأرسلان بن طغرل بواسطة المقدم إيلدكز وكان هذا السلطان ربيبه.

أما الخليفة المقتفي لأمر اللّه فإنه توفي ثاني ربيع الأول سنة ٥٥٥ وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المنتصر إلى الآن إلا أن يكون المعتضد وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة من الرجال ذوي الرأي والعقل الكبير.

٣٢ ـ المستنجد باللّٰه

هـو أبو المـظفر يـوسف المستنجد بـاللّٰه بن المقتفي لأمر اللّٰه وأمـه أم ولـد اسمها طاوس روميـة ولد سنـة ٥٥٥ وبويـع بالخـلافة عقب وفـاة والده واستمـر خليفة إلى أن مات في تاسع ربيع الآخر سنة ٥٦٦ .

فكانت خلافته ١١ سنة وشهراً وأسبوعاً .

المستنجد معدود من خيـرة الخلفاء العبـاسيين ومن مـآثره أنـه لما ولي أزال المكوس والمظالم ولم يترك بالعراق منها شيئاً وكان شديداً على أهل العبث والفسـاد والسعاية بالناس قبض مرة على خبيث كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنـه عشرة آلاف دينـار فقال الخليفـة أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر إليّ إنساناً آخـر مثله لأكف شره عن النـاس ولم يطلقه ورد كثيراً من الأموال على أصحابها أيضاً .

ومن أعماله أنه حل المقاطعات وأعادها إلى الخـراج وهذا عمـل حسن إلا أن بعض العلويين بالعـراق تضرروا بـه ومن أجل ذلـك يعدون هـذا العمل من عيوبه وهو صلاح للجمهور .

وكان ملك السلاجقة لعهده أرسلان شاه بن محمد بن ملكشاه ولم يكن لـه شيء من السلطان في بلاد العراق نفسها بل استبد الخليفة بأمرها منذ عهد أبيه .

٣٣ ـ المستضيء بالله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بـالله وأمه أم ولـد أرمنية تـدعى غضة. بـويع بـالخلافـة بعد وفـاة أبيه وكـان عادلاً حسن السيـرة في الرعيـة كثير البـذل للأموال غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخـذه وكان النـاس معه في أمن عـام وإحسـان شامـل وطمأنينـة وسكون لم يـروا مثله وكان حليـماً قليل المعـاقبة عـلى الذنوب محباً للعفو والصفـح عن المذنبـين. فعاش حميـداً ومات سعيـداً. وكانت وفاته ثاني ذي القعدة سنة ٥٧٥ هـ.

وفي عهده انقرضت الدولة الفـاطمية بمصر وظهـرت الدولـة الأيوبيـة بهمة مؤسسها المقدم صلاح الدين الأيوبي يوسف بن أيوب الذي ظهـر في كنف محمود نور الدين الشهيـد وكان ذلـك في محرم سنـة ٥٦٧ حيث قطعت خـطبة الخليفـة العاضد لدين الله واستيفاء ذلك في تاريخ مصر والذي خـطب له من العبـاسيين هو المستضيء بالله.

وفي عهـده تـوفي خـوارزمشـاه إيـل أرسـلان بن أتسـز وملك بعـده ابنـه سلطانشاه بتدبير أمه ولما علم بذلك أخوه الأكبر علاء الدين تكش جمع العسـاكر وقصد خوارزم فاستولى عليها واستقل بالملك.

وفي عهده توفي الرجل العـظيم ذو القدم الثـابتة في فعـال الخير وفي جهـاد الإفرنج وهو محمود نور الدين بن زنكي وكـان قد اتسـع ملكه جـداً وخطب لـه بالحرمين وباليمن ومصر وسوريا وقد طبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله قال

ابن الأثير في تاريخه: وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل، وله أخبار حسان ألفت فيها الكتب خاصة.

٣٤ - الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بن المستنجد وأمه أم ولد تركية اسمها زمرد.

بويع بالخلافة بعد وفاة والده المستضيء في ٢ ذي القعدة سنة ٥٧٥ (٣٠ مارس سنة ١١٨٠) ولم يزل خليفة إلى أن توفي في آخر ليلة من رمضان سنة ٦٢٢ (٦ أكتوبر سنة ١٢٢٥) فكانت خلافته ٤٦ سنة وعشرة أشهر و ٢٨ يوما وهو أطول خلفاء بني العباس مدة ولم يزد عليه من خلفاء الفاطميين إلا المستنصر بالله معه. فإنه ولي ٦٠ سنة ولا من خلفاء بني أمية بالأندلس إلا عبد الرحمن الناصر فإنه ولي ٥٠ سنة.

حال الممالك الإسلامية لعهده:

كان في الأندلس وشمال أفريقيا دولة الموحدين. وفي عهد الناصر ابتدأت الدولة المرينية بمراكش أسسها عبد الحق المريني سنة ٥٩١ وهو من أعقاب الموحدين.

وكان بمصر واليمن والحرمين وسوريا الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٤.

وكان بالموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر بقايا دول الأتابكية.

وكان بقونية دول سلاجقة الروم.

وكان ببلاد الجبل والعراق من السلاجقة السلطان طغريل الثاني وهو آخر سلاجقة العراق.

وكان بخوارزم وخراسان وما إليها الدولة الخوارزمشاهية والقائم بالأمر منهم السلطان تكش بن إيل أرسلان إلى سنة ٥٩٦ ثم علاء الدين محمد إلى سنة ٦١٧ ثم جلال الدين منكبرتي إلى سنة ٦٢٨ وهو آخرهم.

وكان بالغور والأفغان والهند الدولة الغورية.

في عهد الناصر لدين الله انتهى ملك السلجوقيين بالعراق سنة ٥٩٠ بقتل طغريل ابن ألب أرسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش الذي اتسع ملكه جدا فصار ملكه ممتداً من أقاصي بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الري التي أخذها بعد القضاء على السلاجقة ولكن ملكه لم يكن بالري ثابتاً فإن الخليفة الناصر قد طمع أن تكون البلاد له بعد رحيل خوارزمشاه عنها فأرسل إليها جنداً مع وزيره فاستردها بعد أن حارب عسكر خوارزمشاه لكن ذلك لم يطل فإن خوارزمشاه لما بلغه ذلك رجع فحارب عسكر الخليفة وأخذ البلاد منهم وفي سنة ٥٩٦ توفي وخلفه ابنه قطب الدين خوارزمشاه محمد وزاد ملكه اتساعا.

كان هوى خوارزمشاه بعد اتساع ملكه أن يتشرف بذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة فأبى الخليفة ذلك عليه فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده فاستحكمت حلقات الفساد وهذا الذي جعل كثيراً من المؤرخين يعتد أن خروج التتر إنما كان باستدعاء الناصر لدين الله وليس ببعيد كان قصده على ما يظهر أن يشتغل بهم خوارزمشاه فتخف عنه وطأته وقد اعتادوا ذلك من قبل.

الحادث العظيم في البلاد الإسلامية

إغارة المغول والتتار:

من أكبر الحوادث في التاريخ الإسلامي خروج طوائف المغول والتتر إلى البلاد الإسلامية واستيلاؤهم على معظمها في آسيا وشرق أوربا وأول فتح هذا الباب كان على يد جنكيز خان المغولي وخوارزمشاه محمد بن تكش الخوارزمي.

التتر: شعب كبير من الأمة التركية ومنه تتفرق معظم بطونها وأفخاذها وهو مرادف للترك عند الإفرنج حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترا ومنهم العثمانيون والتركمان وقرمان وغيرهم وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سيتيا أو اسكوتيا ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون ألنجه خان أحد ملوك الترك في الأزمنة القديمة ولد له ولدان توأمان هما تتارخان ومغل خان نحو ربيعة ومضر في الأمة العربية.

وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد إلى أن وقع النزاع بين الشعبين في عهد إيلخان ملك المغل وسونج خان ملك التتر وجر هذا النزاع إلى حروب طويلة انتصر فيها التتار وقتل إيلخان ملك المغل وصارت السيادة من ذلك الوقت للتترفاستعبدوا المغل مدة طويلة إلى أن جمع المغل جموعهم واتحدوا فقاموا بحرب التتر وكسروا شوكتهم واستردوا ما ضاع من حريتهم فعادت السيادة من ذلك الوقت إلى المغل وصار الملك متوارثاً فيهم إلى زمن يسوكي بهادر خان والد جنكيز.

ولد جنكيز خان سنة ٥٤٩ وكان اسمه في صغره تموجين. توفي أبوه وسنة

١٣ سنة ثم مات بعده مدبر دولته سوغه جمش فاستضعفت قبائل المغل تموجين فتفرقوا عنه وكان ذلك سبباً لحصول الفتن وتمادي الحروب بينهم.

لما كان لتموجين من الهمة العالية والعزيمة الملوكية التي لا تساويها عزيمة اجتهد في أن يلم شعث قومه فنجح في ذلك نجاحاً عظيماً وعادت قبائل المغل إلى الانضمام إليه وكثر جموعه وعظم أمره فحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعاً بعد حروب شديدة ودخل تحت طاعته جميع زعمائهم فصارت له مملكةواسعة مسكونة بتلك الأمم التي لا يعلم عددها إلا الله. وعاصمة ملكه مدينة قراقروم.

ولما لم يبق له معارض فكر في ترقية هذا المجتمع العظيم بوضع قانون يكون لهم دينا يسيرون على مقتضاه فوضع لهم اليساق أو الياسة وهي كتابهم الذي إليه يرجعون في معاملاتهم وأحكامهم وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين لا يستجيزون أن يخلوا بشيء منها.

ومما شرعه فيها أن من زنى يقتل لا فرق بين محصن وغيره ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل. ومن بال في الماء أو على الرماد قتل. ومن أعطي بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد الثالثة ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل. ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان في يده قتل. وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه: وأن من ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح ومن وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حال القتال وكان وراءه واحد فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه فإن لم ينزل ولم يناوله قتل. وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي بن أبي طالب مؤنة ولا كلفة وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القرّاء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤمنين ومغسلي الأموات كلفة ولا مؤنة وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى. وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولا ولو أنه أمير ومن يتناوله أسير.

وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه بل يشركه معه في أكله. وألزمهم أن لا يتميز أحد بالشبع على أصحابه ولا يتخطى أحد ناراً ولا مائدة ولا الطبق الذي يؤكل عليه. وإن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم منعه. وألزمهم ألا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكن يتناول الماء بشيء يغترفه به. ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى. ومنع أن يقال لشيء إنه نجس وقال جميع الأشياء طاهرة ولم يفرق بين طاهر ونجس وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب. ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط. وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حتى الإبرة والخيط فمن وجده قصر في شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه وألزم نساء العسكر القيام بما على الرجال من السخر والكلف في مدة غيبتهم في القتال وجعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها إليه. وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده. ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات. وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقي بنفسه بين يدي الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضي فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه وألزمهم أن لا يتردد الأمراء لغير الملك فمن تردد منهم لغير الملك قتل. ومن تغير عن موضعه الذي يرسم له بغير إذن قتل وألزم السلطان بإقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة.

(تنبيه) كان من هذه السياسة نسخة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد. روى المقريزي في خططه عن أحمد بن البرهان أنه رآها ومنه نقلنا ما ذكرنا.

خروج المغول إلى البلاد الإسلامية:

قد أكثر المؤرخون في ذكر الأسباب التي دعت جنكيز خان وقومه للخروج إلى البلاد الإسلامية فقال بعضهم إن خوارزمشاه لما أظهر الخلاف على الناصر لدين الله وقطع خطبته من بلاده وأراد أن يذهب إلى بغداد للاستيلاء عليها

أرسل الناصر لدين الله إلى جنكيز خان يحرضه على الخروج إلى خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك أن تنكسر شوكة خوارزمشاه ويشتغل عنه بنفسه وقد سبق لخلفاء بني العباس أن فعلوا ذلك مراراً فهم الذين راسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك البغداديين وتحكمهم فيهم وهم الذين راسلوا طغرلبك شاه السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري حينما أراد تحويل الدعوة إلى المصريين الفاطميين وهم الذين راسلوا خوارزمشاه ليخلصهم من السلاجقة ولكن الفرق أن هؤلاء كلهم كانوا مسلمين وأما المغل فكانوا كفاراً ولا نبدي هذا الفرق استبعاداً للمكاتبة لأن ذلك الملك لا يبالي بما يفعل لتخليص ملكه ولم يكن الخليفة يبغي إلا أن المغول يشغلون عنه خوارزمشاه فتكون العداوة بين الرجلين ضامنة لاستقلاله كما أنه لم يكن يظن أن يكون من التتر ما كان لأن بينهم وبين العراق أمكنة مترامية الأطراف وبينه وبينهم ذلك الأسد الهصور ولم يكن يظن به من الضعف ما يجعله يجفل أمام جنكيز خان كالحمامة تجفل من صقرها. وهذا السبب وإن كان مطمعاً لجنكيز خان في البلاد الإسلامية ولكنه كان يتطلب سبباً آخر يبيح له فتح باب الحرب على خوارزمشاه فيقال إنه في سنة ٦١٢ أرسل رسلاً إلى خوارزمشاه وكانوا من كبار المسلمين الذين يقيمون ببلاده يطلب منه أن يعاهده لتردد التجارة من كل جانب إلى الآخر وأرسل إليه هدايا عظيمة المقدار فلما وصلت الرسل إلى خوارزمشاه أجاب إلى ذلك فرجعوا إلى جنكيز خان مسرورين من تمام ما أرسلوا له فاستبشر بذلك جنكيز خان ومكث الأمر على سداد مدة والتجار والزوار يترددون آمنين مطمئنين.

وفي سنة ٦١٥ سافر تجار من بلاد جنكيز خان حتى وصلوا إلى بلدة أترار وهي بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل سيحون (سرداريا) وبها وال كان من قبله فلما ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء ٤٠٠ نفس ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالي في أخذ أموالهم فأرسل قاصداً إلى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيز خان قد قدموا في زي تجار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم فسارع ذلك الوالي المشئوم إلى ذلك وأرسل إلى خوارزمشاه ما كان معهم من الأموال فأخذها وفرقها على تجار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها. فلما بلغ علم ذلك جنكيز خان

أخذه المقيم المقعد وأرسل إلى خوارزمشاه يخبر بصورة الحال ويطلب منه غاير خان ذلك الوالي ليقتص منه فلم يكن من الأحمق خوارزمشاه إلا أن قتل الرسول فلما بلغ ذلك جنكيز خان استشاط غضباً وصمم على قصده وحربه. وعلم خوارزمشاه أنه قد استهدف بعمله لحرب تلك الأمة العظيمة وزاد الطين بلة بأن جمع عساكره وسار بادئاً بالعدوان حتى وصل تخوم تركستان وهجم على بلاد عدوه فلقي هناك جموعاً قليلة متخلفة في النساء والصبيان لأن جنكيز خان كان غائباً بجنده في داخل بلاده فلم يمكن خوارزمشاه أن ينتصر على هذا العدد القليل فعلم أنه له يوما ضروساً إذا تحرك عليه جنكيز خان وهو لا بد فاعل فأمر خوارزمشاه سكان تلك المدن العظيمة التي على حدود بلاده أن يجلوا عنها خوفاً عليهم من التتر وكانت من جنان الدنيا فأصبحت بذلك بلاقع وسهل بهذا العمل السبيل إلى عدوه ثم عاد. وأما جنكيز خان فإنه جمع عساكره الجرارة التي تفوق عد العادين وعبر نهر سيحون وليس أمامه من يناوشه قتالا أو يشغله عن قصده وسار حتى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفاً من الجنود الخوارزمية فلم يكن عندهم طاقة بما دهمهم من ذلك البحر الزاخر فتركوا المدينة من غير حام فأرسل أهلها القاضي بدر الدين قاضيخان يطلب الأمان للناس فأمنهم جنكيز خان ودخل هو وجنده البلد في رابع ذي الحجة سنة ٦١٦ وأعلن أهله بأن كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه إلينا ثم طلب رؤساء البلد وقال لهم أريد منكم أمتعة التجار التي باعكم إياها خوارزمشاه فانها لي ومن أصحابي أخذت وهي عندكم فأحضر كل من كان عنده شيء منها ما عنده ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا منها مجردين من أموالهم وأعمل التتر النهب وقتلوا من وجدوا فيه ثم أمر أصحابه أن يقتسموا الناس فاقتسموهم وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس.

ثم رحلوا نحو سمرقند وهي قصبة ما وراء النهر والمصر الجامع لعلمائه وأدبائه وثروته واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة ومن أعيا عن المشي قتل.

ولما وصلوا سمرقند كان بها خمسون ألفاً من جند خوارزمشاه فحاموا عن

اللقاء لما دخل قلبهم من الرعب والخور أما أهل البلد فخرج منهم ذوو الجلد والقوة فقاتلهم العساكر الجنكيزية ظاهر البلد واحتالوا عليهم بأن تقهقروا أمامهم وأهل سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم حتى أبعدوا عن معقلهم وكان المغول قد أعدوا لهم كميناً يأتيهم من خلفهم فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ورجع عليهم الباقون من الأمام فأخذهم السيف من كل جانب وقتل عظيمهم ولما رأى ذلك الباقون بالبلد من الجند والعامة ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا لأن الكل أتراك فطلبوا الأمان فأمنوا وفتحت البلد فخرجوا إلى التتر بأهلهم وأموالهم فطلبوا منهم أن ينزعوا أسلحتهم فنزعوها وإذ ذاك وضعوا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم وفي اليوم الرابع نادوا في البلد أن لا يتأخر بها أحد ومن تأخر قتلوه وهكذا فعل التتر بسمرقند ما فعلوه ببخارى وكان ذلك في المحرم سنة ٦١٧.

ولما تم لجنكيز ملك سمرقند سير عشرين ألفاً من أشداء جنوده وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان لو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه فساروا وعبروا جيحون وكان خوارزمشاه مقيماً بغربيه يستعد وقد ملىء قلبه رعباً فلما علم بقدوم التتر عليه لم ير إلا أن ينهزم عنهم قبل أن يحصل بينهم وبينه صدام وقتال ورحل لا يلوي على شيء وقصد مدينة نيسابور فلم يكد يستقر بها حتى أدركه جنود التتر فطار إلى مازندان والتتر على أثره ولم يعرجوا على نيسابور فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل إلى مرسي من بحر طبرستان ونزل يريد قلعة له في البحر فلما نزل هو وأصحابه في السفن وصل التتر فأيسوا من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به.

وهذه الفرقة من التتر تسمى التتر المغربة لأنهم ساروا إلى غرب خراسان وتشبه هذه الفرقة فرقة السلاجقة العراقية التي قصدت البلاد الإسلامية بالتخريب والإفساد قبل أن ينساح السلاجقة ويستولوا على البلاد ولما أيس التتر من اللحاق به ساروا إلى مازندان فملكوها في أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها. ثم ساروا نحو الري وقد انضم إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار من المفسدين من يريد النهب والشر وهم كثيرون

فوصلوا إلى الري على حين غفلة من أهلها فملكوها وفعلوا بها الأفاعيل وكانوا ينهبون في طريقهم كل قرية مروا عليها. ثم ساروا إلى همذان فطلب صاحبها الأمان فأمنوه هو ومن معه ثم وصلوا إلى قزوين فدخلوها عنوة ويقال إن من قتل من أهلها يبلغون أربعين ألفاً. ثم ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب البلاد أوزبك بن البهلوان فلم يخرج إليهم ولا حدثته نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشراب ليلا ونهاراً لا يفيق وإنما أرسل إليهم وصالحهم فساروا عنه إلى ساحل البحر ليشتقوا فيه فوصلوا إلى موقان وتطرقوا في طريقهم إلى بلاد الكرك فحاربهم أهلها لكنهم انهزموا فأرسلوا إلى أوزبك خان يطلبون منه أن يتفق معهم في دفع التتر وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف بن العادل الأيوبي صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الانضمام إليهم وظنوا جميعاً أن التتر لا يتحركون حتى ينحسر الشتاء فلم يفعلوا ذلك بل ساروا نحو الكرج وانضاف إليهم مملوك من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجميع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم فاجتمع إليه خلق كثير وأرسل التتر في الانضمام إليهم فأجابوا إلى ذلك للجنسية فاجتمعوا جميعاً حتى وصلوا تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها لكن ذلك لم يجدهم شيئاً فانهزموا أقبح هزيمة وركبهم التتر من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى وكانت الوقعة في ذي القعدة سنة ٦١٧.

ولما دخلت سنة ٦١٨ كروا راجعين إلى مدينة مراغة فملكوها عنوة ووضعوا السيف في أهلها ونهبوا كل ما صلح لهم ومالا يصلح أحرقوه ثم رحلوا عنها قاصدين إربل لكنهم هابوا الهجوم عليها لخوفهم أن تجتمع الجنود عليهم من العراق وغيرها فعادوا إلى همذان وساروا إلى أذربيجان ومنها ساروا إلى دربند شروان فاستولوا على مدينة شماخي عنوة وخرجوا من الدربند إلى البلاد الشمالية وهي دشت القفجاق وفيها أمم كثيرة تركية فأمعن التتر فيهم قتلا وسبياً والذي لقي حد هذه الحروب أمة القفجاق فكثر فيهم القتل والأسر فتفرقوا أيدي سبأ في جميع الأقطار وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ومنهم

المعز أيبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم.

ثم قصد التتر بعد ذلك بلاد الروس فاتفق هؤلاء مع فلول القفجاق أن يكونوا يدا واحدة ضد التتر ومع هذا فكان الظفر للتتر وانهزم عنهم الروس والقفجاق أقبح هزيمة ونهب التتر بلادهم ثم عادوا عنهم وقصدوا بلغار أواخر سنة ٦٢٠ فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم في عدة مواضع واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فقتل منهم كثير.

هذه أخبار طائفة صغيرة من طوائف التتر وما فعلته.

أما جنكيز خان فإنه لما سير تلك الطائفة لطلب خوارزمشاه أقام بسمرقند وهناك سير جيشاً عليه أحد أولاده لملك خراسان فعبروا النهر وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم وتسلموا البلد سنة ٦١٧ ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئاً بعد شيء دون صعوبة أو مقاومة ولذلك لم يكونوا يتعرضون لأهلها بسوء ولا أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ولم يمض إلا القليل حتى دخل معظم البلاد الفارسية تحت حكم التتر.

وأرسل جيشاً آخر وجهته الشمال ليملك دشت القفجاق وكان الأمر قد تهيأ لهم بها لما فعله التتر المغربة من إضعاف القوى التي كانت بهاتيك البلاد على أنها لم تكن قوى مجتمعة يخشى بأسها بل كانوا طوائف شتى لا جامعة لهم فسهل على الجيش الجنكيزي أن يستولي على الدشت كله في أسرع ما يمكن.

فتم بذلك لجنكيز مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتديء شرقاً من بلاد الصين وتنتهي غرباً إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوباً ببلاد الهند وشمالاً بالبحر الشمالي كل ذلك تم له في مدة قصيرة.

ولما أحس بقرب منيته قسم الممالك الجنكيزية إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة وهم جوجي وجغطاي وتولى وأوكداي:

فجعل دشت قفجاق بأسرها وبلاد الداغستان وخوارزم وبلغار والروس وما يؤمل أخذه إلى منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربي لولده الأكبر جوجي.

وجعل بلاد إيغور والتركستان وما وراء النهر بأسره لولده الثاني جغطاي.

وجعل خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين إلى منتهى حوافر خيولهم لولده الثالث تولى خان.

وجعل بلاده الأصلية والخطا والصين إلى منتهى المعمورة الشرقي لولده الرابع أوكداي وجعله ولي عهده من بعده ويصير قاآنا على الكل أو ملك الملوك وهو عندهم بمنزلة الخليفة عند المسلمين وأمر الباقين بمتابعته وكذا كل من يصير قاآنا من ذريته يجب على الباقين طاعته ومن أتباعه ومن خالفه يجب على الباقين حربه حتى يفيء إلى يساق جنكيز خان.

هكذا قدر الرجل لعظم همته أن يملك أولاده الدنيا بأسرها ولا يبقى فيها لغيرهم كلمة ولا سلطان ولولا ما حصل من الخلاف بعده لتم كل ما توقعه.

وفي سنة ٦٢٤ أدركته منيته وكان الخليفة العباسي حين وفاته المنصور المستنصر بالله بن محمد الظاهر.

وجد من آل جنكيز خان أربعة بيوت ورثت الملك وتممت الفتح حتى تهيأ لها أن تملك معظم بلاد المسلمين وجزءاً من أوربا.

وبيت تولي هو الذي كان على يده سقوط الخلافة العباسية ببغداد وامتداد سلطان التتر على الجزيرة والشام وبلاد الروم وسنذكر ذلك في حينه.

حصلت هذه الحوادث الكبرى وخليفة بغداد لاه بما هو فيه من عسف الناس وظلمهم فقد كان قبيح السيرة في رعيته ظالماً فخرب في أيامه العراق وتفرق أهله في البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان كثيراً ما يفعل الأشياء ثم ينقضها وجعل جل همه في رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطلت الفتوة في البلاد جميعاً إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ

من طيوره ومنع الرمي بالبندق إلا من ينتمى إليه. هـذه كانت مشـاغله العجيبة والتتر يمعنون في بلاد المسلمين قتلاً وأسرا وتخريباً ومع ذلك أثنى عليه ابن طباطبا في تاريخه الموسوم بالفخري ثنـاء جما ومن ضمن مـا وصفه بـه أنه كـان يرى رأي الإمامية والظاهر أن هذا هو الذي حببه إلى المؤرخ المذكور.

بقي الناصر في أواخر أيـامه ثـلاث سنين عـاطلاً عن الحـركة وقـد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً وفي آخر الأمر أصابته دوسنـطاريا عشرين يوماً وكانت بها منيته.

٣٥ ـ الظاهر بأمر اللّه

هو أبو نصر محمد الظاهر بأمر اللّه بن الناصر بـويع بـالخلافـة عقب موت أبيـه وكان ولي عهـده واستمر خليفـة إلى ١٤ رجب سنة ٦٢٣ فكـانت خـلافتـه تسعة أشهر و ١٤ يوماً.

لما ولي أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين قال ابن الأثـير فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقـاً فإنـه أعاد من الأموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئـاً كثيراً وأطلق المكـوس في البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق وأن يسقط جميع ما جـدده أبوه وكـان كثيراً لا يحصى. ولمـا أمر بـأخذ الخـراج الأول من جميع البـلاد حضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الأملاك التي كان يؤخذ منها الخراج قديماً قد يبس أكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخراج الأول لا يفي دخل البـاقي بالخـراج فأمر ألا يؤخذ الخراج إلا من كل شجرة سليمة وأما الذاهب فلا يؤخـذ منه شيء ومن أعماله أن المخزن كان لـه صنجة الـذهب تزيـد على صنجـة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي للبلد يتعـامل بهـا الناس فسمـع بذلـك فخـرج خطه إلى الـوزير وأولـه (ويل للمـطففين الـذين إذا اكتالـوا عـلى النـاس يستـوفون وإذا كـالوهم أو وزنـوهم يخسرون ألا يـظن أولئك أنهم مبعثـون ليـوم عـظيم) قد بلغنـا كذا وكـذا فتعاد صنجـة المخزن إلى الصنجـة التي يتعامـل بها المسلمـون واليهود والنصـارى فكتب بعض النواب إليـه يقول إن هـذا مبلغ كبير وقد حسبناه فوجدنـاه في السنة المـاضية ٣٥ ألف دينـار فأعـاد الجواب ينكـر على

القائل ويقول لو أنه ٣٥٠ ألف دينار يطلق وكذلك أيضاً فعل في إطلاق زيادة الصنجة التي للديوان وهي في كل دينار حبة ـ وتقدم إلى القاضي كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً بملك يعيده إليه من غير إذن ومنها أن العادة كانت في بغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة في الخليفة بما تجدد في دربه من اجتماع الأصدقاء ببعض كل نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كبير وصغير فكان الناس من هذا في حجر عظيم فلما ولي الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أي غرض لنا معرفة أحوال الناس في بيوتهم فلا يكتب أحد لنا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها قال إنا ندعو اللّه أن يصلحهم ومنها أنه لما ولي الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار إليها أيام الناصر لتحصيل الأموال فأصعد ومعه ما يزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر ما معه ويستخرج الأمر في حمله فأعاد الجواب بأن يعاد إلى أربابه فلا حاجة لنا إليه فأعيد عليهم. ومنها أنه أخرج كل من كان في السجون وأمر بإعادة ما أخذ منهم وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس في حبس الشرع وليس له مال.

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية فجدد من العدل ما كان دارساً وأذكر من الإحسان ما كان منسيا. وقبل وفاته أخرج توقيعاً إلى الوزير بخطه عن أرباب الدولة وقال الرسول: أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال. وقد قريء التوقيع فإذا في أوله بعد البسملة (اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالاً ولا إغضاؤنا إغفالاً ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدراراً كالأغراض التي انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تنفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيعطيكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون

والآن قد بدل اللّه سبحانه بخوفكم أمناً وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطاناً يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف اللّه ويخوفكم مكره ويرجو اللّه تعالى ويرغبكم في طاعته فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء اللّه في أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام).

ولم تتمتع الأمة بهذا الخليفة طويلاً فانه فلحق بربه قبل أن تمر سنة على خلافته.

٣٦ ـ المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر.

بويع بالخلافة يوم وفاة والده ١٤ رجب سنة ٦٢٣ (١١ يوليه سنة ١٢٢٦) واستمر في الخلافة إلى أن توفي لعشرين خلون من جمادي الآخرة سنة ٦٤٠ (٥ ديسمبر سنة ١٢٤٣) فكانت خلافته ١٧ سنة إلا شهراً.

كان المستنصر شهماً جواداً يباري الريح كرماً وجوداً وله الآثار الجليلة في بغداد منها وهي أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة وبنى غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة وكان يقول إني أخاف ألا يثيبني الله على ما أهبه وأعطيه لأن الله تعالى يقول **﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** وأنا والله لا فرق عندي بين التراب والذهب.

ولما ولي سلك في الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه وأمر فنودي ببغداد بإفاضة العدل، وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته

وفي عهده توفي ملك المغول الكبير جنكيز خان سنة ٦٢٤ وحل محله في بلاد خراسان وما وراءها ابنه تولى خان فوسع مملكته إلى الغرب وأرسل فرقة إلى بلاد أذربيجان فملكتها وأجلت عنها جلال الدين مكبرتي وخافهم أهل أذربيجان خوفاً شديداً ولم يكن أمامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذي لم يجد له نصيراً لأنه وتر الملوك المجاورين له طراً.

قال ابن الأثير تعليقاً على هذه الحال (فما نرى من ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ولا نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندي من العدو) قال اللّه تعالى ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾[1].

وكان مقتل جلال الدين في منتصف شوال سنة ٦٢٨ قتل شريد طريد لم يفده هذا الملك العظيم الذي ورثه عن أبيه، وبهلاكه تم للمغول ملك جميع البلاد الفارسية إلى حدود العراق ولم يتهيأ للملوك أن يتفقوا ضد هذا العدو الشديد المراس بل كانوا فيما بينهم مختلفين يغير بعضهم على بعض عن عدوهم لاهون غافلون. صار العراق ينتظر النكبة منهم من آن لآن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزه الديني.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

٣٧ - المستعصم

هو أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء ابن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي بن محمد الذخيرة بن القائم بن القادر ابن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهتدي بن المنصور ففي آبائه سبعة عشر خليفة.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله في عاشر جمادى الآخر سنة ٦٤٠ (٦ ديسمبر سنة ١٢٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن قتل بين يدي هولاكوخان في ٢٠ محرم سنة ٦٥٦ (٢٧ يناير سنة ١٢٥٨) وبقتله انتهت الخلافة العباسية.

قال ابن طباطبا كان المستعصم رجلاً خيراً متديناً لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطاً مليحاً وكان سهل الأخلاق وكان خفيف الوطأة إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعاً فيه غير مهيب في النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه ينقضي أكثر بسماع الأغاني والتفرج على المساخرة وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أرذال العوام إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء.

حال التتر:

قلنا فيما تقدم إن جنكيز خان لما حانت منيته قسم ممالكه إلى أقسام أربعة بين أولاده ومنهم تولي خان الذي جعل له خراسان وما يؤمل أخذه من ديار العراقين إلى منتهى حوافر خيولهم وقد استمر تولي في مملكته الجديدة يتوسع في الفتح ويمد بلاده إلى الغرب وستنزل ملوك فارس عن تخوتها حتى توفي سنة ٦٥٤ في عهد المعتصم بالله وكانت حدود بلاده تنتهي عند بلاد العراق فخلفه في الملك ابنه هولاكوخان حفيد جنكيز خان فأهمه التوسع في الفتح وأخذ بغداد وكان بها من يحب ذلك.

قال المؤرخون إن أهل السنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا في نزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم إلى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسوؤه ما يلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الأكبر وكان يزيد في مساءته أن أهل البيت العباسي كانوا يساعدون أهل السنة لأنهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الأمر منهم وقد حصل في أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السنة على الكرخ وهو محلة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا في قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبي بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال إن الوزير كاتب هولاكو يحرضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسية ولا يهمه بعد سقوط عدوه من تولي الملك بعده فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاكو على تنفيذ رغبته وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمي بهذه التهمة الشنيعة حتى نقل ابن الوردي في تاريخه ما يؤكد هذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقمي إلى وزير إربل منها أنه قد نهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوي المعظم وقد نهب العترة العلوية واستؤسرت العصابة الهاشمية وقد حسن التمثل بقول شخص من غزية.

أمور تضحك السفهاء منها ... ويبكي من عواقبها اللبيب

وقد عزموا على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمراً فصبر جميل:

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فـان لم تـطفـهـا عـقـلاء قـوم يـكـون وقـودهـا جثـث وهـام
فقلت من التعجب ليت شعري أأيـقـاظ أمـيـة أم نـيـام

ومنها:

وزيـر رضي من حكمـه وانتقـامـه بـطي رقـاع جشـوهـا النـظم والنثر
كـما تسجـع الـورقـاء وهي حمـامـة ولـيس لهـا نهي يـطاع ولا أمـر

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون.

ووديـعـة من أسر آل محـمـد أودعـتهـا إن كـنت مـن أمنـائـهـا
فـإذا رأيت الكـوكـبـين تقـارنـا في الجـدي عنـد صبـاحهـا ومسـائها
فـهـنـاك يـؤخـذ ثـأر آل محـمـد وطـلابهـا بـالتـرك من أعـدائهـا

وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم واحرص والله أعلم.

وابن طباطبا العلوي يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمي قال في تاريخه وقد نسبه الناس إلى أنه خامر وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولـة فإن السلطان هـولاكو لـما فتح بغـداد وقتل الخليفـة سلم البلد إلى الـوزير وأحسن إليـه وحكمه فلو كـان قد خـامر عـلى الخليفة لما وقـع الوثوق إليه ا هـ. والله أعلم بمقدار هذا البرهان في الإنتاج.

سارت جيوش هولاكو الجرارة قاصدة بغداد وفي منتصف محرم سنة ٦٥٦ نزل بنفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عنـد الخليفة مـا يدفـع به ذلك السيل الجـارف واكتفى بقفال الأبـواب فجد المغـول في القتال حتى ملكـوا الأسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام وبملك الأسوار تم لهم ملك البلد.

ولما رأى الخليفة ذلك استأذن أن يخرج إلى هولاكـو فأمـر هولاكـو أن ينزل باب كلواذي أحد أبواب بغداد وشـرعت جنوده في نهب تلك المـدينة التي كـانت حاضرة الإسـلام كله ثم تقدم بـإحضار الخليفـة فأحضـره ومثل بـين يديـه وقدم لهـولاكو جـواهر نفيسـة ولالىء ودرراً معبأة في أطبـاق ففرق هـولاكو ذلـك عـلى أمرائه.

وفي رابع عشر صفر سنة ٦٥٦ رحل عن بغـداد واستصحب معه الخليفـة في أول مرحلة قتله هو وابنه الأوسط مع ستـة نفر من الخصيـان وقتل ابنـه الكبير ومعه جماعة من الخواص عـلى باب كلواذي وبهـذا القتل كسفت شمس الخـلافة العباسية من بغداد بعد أن مكثت مشرقة ٥٢٤ سنـة واشتفت قلوب العلويين من بني عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار.

أما بغداد دار الخلافة وعاصمة الملك فقد جرى عليها ما جرى على سواها من أمهات المدن الإسلامية فقد قتل معظم أهلها وقيل منهم من نجا وقد استبقى المغولي جماعة من الشيعة والنصارى وسكان بغـداد بعد أن أفنى أكـثر أهلها قـوم جاءوا مع هولاكو ومن أقطار شتى وصارت حـاضرة دولـة لا تدين بـدين بعد أن كانت عاصمة المسلمين.

حال الدولة الاسلامية
عند سقوط الدولة العباسية

(١) كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بني نصر والقائم بالأمر منها مؤسسها محمد الغالب بالله بن نصر (٦٢٩ ـ ٦٧١).

(٢) بشمال إفريقية دولة الموحدين والقائم بالأمر منهم أبو حفص عمر المرتضى ابن إسحاق بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦ ـ ٦٦٥).

(٣) وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالأمر منهم بغمواسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ ـ ٦٨١).

(٤) وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالأمر منهم أبو عبد الله محمد المستنصر بالله أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٤٧ ـ ٦٧٥).

(٥) وبمراكش الدولة المرينية والقائم بالأمر منهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ ـ ٦٧٥).

(٦) وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالأمر منهم المنصور نور الدين علي ابن المعز عز الدين أيبك (٦٥٥ ـ ٦٥٨).

(٧) وباليمن الدولة الرسولية والقائم بالأمر منهم المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن علي بن رسول (٦٤٧ ـ ٦٧٤).

(٨) وبصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦ ـ ٦٨٠).

(٩) وبالروم من السلاجقة ركن الدين قليج أرسلان الرابع (٦٥٥ ـ ٦٦٦).

(١٠) وبماردين من الدولة الأرتقية نجم الدين غازي السعيد (٦٣٧ ـ ٦٥٨).

(١١) وبفارس من الأتابكية السلغرية أبو بكر بن سعد بن زنكي بن مودود (٦٣٣ ـ ٦٥٨).

(١٢) وبلورستنان من الأتابكية الهزارسبية دكلا بن هزارسب (٦٥٠ ـ ٦٥٧).

(١٣) وبكرمان من دولة قتلغ خان قتلغ خاتون (٦٥٥ ـ ٦٨١).

إجمال القول في الدولة العباسية:

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية سنة ١٣٢ حيث بويع لأولهم أبي العباس عبد الله السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم إلى سنة ٦٥٦ حيث سقط عبد الله المستعصم قتيلاً بين يدي هولاكو خان المغولي من أعقاب جنكيز خان موحد التتر الخارج بهم إلى بلاد الإسلام. جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بني العباس على عرش بني أمية وجاءت رايات التتر من المشرق فثلت عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم استمرت خلافتهم ٥٢٤ سنة استخلف فيها منهم ٣٧ خليفة فمتوسط ملك الخليفة منهم نحو ١٤ سنة وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسي ٤٦ سنة وأقلها سنة فما دونها.

مكثت الدولة العباسية ١٠٠ سنة لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الإسلامي (ما عدا بلاد الأندلس) يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف في وجه جنودهم إلا منافسيهم في القرب من رسول الله ﷺ وهم بنو عمهم من آل أبي طالب وبعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حيناً وتلمع ثم تجيء القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة.

وقام في هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم السفاح والمنصور والمهدي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق متوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهي هذا الدور بوفاة الواثق سنة ٢٢٢.

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من ٢٢٢ إلى ٣٣٤ أخذت الدولة فيه في

النزول شيئاً فشيئاً وضعف تلك المكانة التي كانت لهم في نفس الأمم الإسلامية واجترأ الأمراء بالأطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق بيدهم إلا العراق وفارس والأهواز وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن وآل الأمر إلى أن يتولى بغداد مملوك تركي أو ديلمي يطلق عليه أمير الأمراء له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخلافة من الأمر شيء.

قام في هذا العصر اثنا عشر خليفة. وهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والمتقي والمستكفي الذي ملك بنوبويه في آخر عهده. ومتوسط خلافة الواحد منهم ثماني سنوات ونصف ولم يمت منهم موتاً هادئاً إلا أربعة والباقون خرجوا من الخلافة بين قتيل ومخلوع وكان استيلاء بني بويه على بغداد سنة ٣٣٤.

جاء بعد ذلك دور ثالث من ٣٣٤ إلى ٤٤٧ ليس للخليفة فيه إلا اسم الخلافة والسلطان الفعلي لأمة فارسية هي الأمة الديلمية التي يمثلها السلطان من بني بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كأنه موظف لهم يتناول منهم ما يقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فيأتمر ويفعل ما يراد منه لا ما يريد وليس له على أنفس المالكين شيء من السلطان الديني لمباينتهم له في العقيدة فقد كانوا شيعة غلاة يدينون بفضل علي وآل بيته على من عداهم وإنما رضوا ببقاء الخليفة العباسي ليكون أمره عليهم هينا يبقونه متى رأوا في بقائه خيراً لهم ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا في ذلك مصلحتهم.

وقد قام في هذا الدور المستكفي، والمطيع والطائع والقادر والقائم ومتوسط مدة الخليفة منهم ٢٢ سنة ونصف والقائم هو حلقة الاتصال بين هذا الدور والذي يليه والثلاثة الأولون من خلفاء هذا الدور خلعهم بنو بويه.

جاء بعد ذلك دور آخر من سنة ٤٤٧ إلى سنة ٥٩٠ انتقل السلطان الفعلي فيه إلى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لا في بغداد وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالا منهم مع بني بويه فإن هؤلاء

كانوا يحترمون الخلفاء تدينا وكانوا يبدون لهم من مظاهر التعظيم والإجلال ما يقضي به منصبهم الديني.

وقد ولي في هذا الدور المقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفي والمستنجد والمستضيء ومتوسط خلافة الواحد منهم نحو عشرين سنة ونصف ولم يكن الخلفاء في هذه المدة على حال واحد فإنهم من عهد المسترشد شرعوا يستردون شيئاً من نفوذهم الفعلي في بغداد والعراق والذي ساعدهم على ذلك بعد آل سلجوق عنهم وتفرقهم ووقوع الحرب بينهم وقد تم استبدادهم بأمر العراق في عهد المقتفي وانقضت دولة السلاجقة سنة ٥٩٠ على يد خوارزمشاه ونفوذهم في العراق قد اضمحل تماما.

مكث العباسيون بعد سقوط الدولة السلجوقية ٦٦ سنة لم يكونوا فيها تحت سلطان أحد بل كانوا مستقلين بملك العراق إلى أن قام المغول والتتار بحركتهم التي ابتدأت بأقصى تركستان وعصف ريحهم على البلاد الإسلامية فأخذ أنفاس الدولة العباسية وأزالها من بغداد على يد هولاكو حفيد جنكيز خان سنة ٦٥٦.

فللدولة العباسية أدوار:

١٠٠ سنة عصر القوة والعمل من	١٣٢ - ٢٣٢
١٠٢ سنة عصر استبداد المماليك الأتراك من	٢٣٢ - ٣٣٤
١١٣ سنة عصر استبداد الملوك من آل بويه من	٣٣٤ - ٤٤٧
٨٣ سنة عصر استبداد الملوك من آل سلجوق من	٤٤٧ - ٥٣٠
١٢٦ سنة عصر استعادة العباسيين شيئاً من نفوذهم السياسي مع تغلب القواد من	٥٣٠ - ٦٥٦

ونريد أن نوضح هنا الأسباب الرئيسية التي أدت بهذه القوة الهائلة إلى الضعف ثم التلاشي.

ضعف عصبية الدولة

اعتمدت الدعوة الإسلامية من أول نشأتها على العصبية فهي التي كانت عماداً لتلك الدعوة وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة ﷺ القضاء على العصبيات الجزئية العربية وإحياء العصبية الكلية فقد ورد عنه كثير من الأحاديث التي تنهى عن دعوة الجاهلية وهي قولهم يالفلان وبعض هذه الأحاديث يخرج الداعي بدعوة الجاهلية عن الإسلام كقوله عليه السلام «ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية» وسبب ذلك أن هذه العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذي هو ناصر للدعوة ومؤيد لها وقاهر لمن وقف في سبيلها وكانت نتيجة ذلك أن تآخى العدناني والقحطاني والمضرى والربيعي والقيسي والكناني ـ بعد أن كانوا أوزاعاً يكيد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعاً أمام الأمم التي تحيط بهم وبذلك تكونت الأمة العربية. الدين كونها وهي نصرته حتى صار أحدهما مرادفاً للآخر في نظر الأمم التي غالبها العرب على أمرها.

صارت الأمة العربية على ذلك في صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليها تؤيدهم تلك الوحدة التي أنالها الدين قوة لا تقهر.

وكانوا مع هذه العصبية يرون لمن دخل في دينهم من الأمم الأخرى ما لهم من الحقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات إلا أنهم لا يدلون إليهم بالمناصب الرئيسية كولاية الولايات وقيادة الجنود وهذا أمر طبيعي لا تمكن مقاومته.

ولما حصلت الفرقة بين علي ومعاوية لم تكن فرقة عناصر فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد. من جميع القبائل العربية اليمانيون هنا وهناك والنزاريون هنا وهناك وإنما كانت فرقة أثارها الدين في صدور قوم والتنافس في الدنيا في صدور آخرين وقد أدى اختصاص كل من الخصمين العظيمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مركزين بين الأمة العربية فإن عرب الشام أبغضت عرب العراق وعرب العراق أبغضت أهل الشام ونطق بذلك بعض شعرائهم وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمعاوية وكراهة أهل الشام لعلي وقد أضعف ذلك كثيراً من قوة العصبية العربية.

انتقل الأمر إلى بني أمية وتولاه منهم معاوية بن أبي سفيان شيخ بني عبد مناف فدانت له الأمة وألقت بأيديها إلا أن عرق العصبية الجزئية قد شرع ينبض بعد أن كاد الإسلام يقضي عليه وظهر على ألسنة الشعراء كلمات الفخر بما لقبائلهم من السابقة وحسن الأثر وقد اتضح ذلك وضوحاً جلياً بعد انتهاء البيت السفياني وعودة الانقسام أيام قام مروان بن الحكم منازعاً قرنه العائذ بالبيت وهو عبدالله بن الزبير فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن من كلب وغسان والسكاسك وناوأته قيس من عدنان فكان النصر لمروان واليمانية وأسرفوا في قتل قيس فتأثرت بذلك أنفسها تأثراً تمكن منها حتى قال في ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر بن الحارث الكلابي كلمته التي أولها:

أريني سلاحي لا أبا لك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تمادياً

وفيها:

فلا تحسبوني إن تغيبت غافلاً ... ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وفيها:

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا

اجتمع شيخان من شيوخ قيس وهما زفر بن الحارث وعمير بن الحباب السلمي بقرقيسيا وصارا يطلبان كلباً واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير

بنواحي الجزيرة مجاوراً لتغلب ومعه عدد عظيم من قيس فأدى هذا الجوار إلى نزاع بين قيس وتغلب تبعته حروب حتى كتب زفر إلى عمير يقول له:

ألا من مبلغ عني عميرا رسالة ناصح وعليه زاري
أتترك حي ذي يمن وكلبا وتجعل حد نابك في نزار
كمعتمد على إحدى يديه فخانته بوهن وانكسار

وقتل في بعض الأيام عمير بن الحباب.

وقد نطق شيطان التفريق على ألسنة الشعراء المتباينين في الأنساب والمتقاربين بما يهيج الحزازات الكامنة لا يبالون ما يخرج من أفواههم ولا يدرون قيمة ما تؤثر به كلماتهم فكل ما أصلحه العقلاء أفسده هؤلاء وقد كان الأخطل التغلبي من شعراء تغلب ذوي الصوت المسموع فلما صالح زفر بن الحارث عبد الملك بن مروان وجاء بقومه فبايعوا قال الأخطل من كلمة لهم:

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصا فبايعوا لك قسراً بعد ما قهروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وقال مرة بمحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمي القيسي:

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلي أصيبت من سليم وعامر
أجحاف إن تصطلك يوماً فتصطدم عليك أو اذى البحور الزواخر
تكن مثل أقذاء الحباب الذي جرى به الماء أوجارى الرياح الصراصر
لقد حان كل الحين من رام شاعرا لدى السورة العليا على كل شاعر
يصول بمجر ليس يحصى عديده ويسدر منه ساجياً كل ناظر

فأجابه الجحاف على البديهة:

بل سوف نبكيهم بكل مهند وننعى عميرا بالرماح الشواجر

وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة إلى تغلب فأوقع بها وقعة شديدة.

وقد قال هذا الشيطان الخبيث في تلك الموقعة بعد أن أثار غبارها :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة　　إلى الله منها المشتكى والمعول
فسائل بني مروان ما بال ذمة　　وحبل ضعيف لا يزال يوصل

وقال الجحاف :

أيا مالك هل لمتنى أو حضضتني　　على القتل أم هل لامنى كل لائم
ألم أفنكم قتلا وأجدع أنوفكم　　بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل فتى ينعى عميرا بسيفه　　إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

حييت هذه العصبيات الجزئية ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق نموها وكان الولاة بالأمصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية فكان الوالي اليماني يحدب على قومه ويعطف عليهم وينصرهم ويوليهم النواحي وكذلك كان الربيعي والقيسي والتميمي وكان يظهر ذلك واضحاً في الولايات البعيدة عن مركز الخلافة كخراسان ولا يخفى أن الدولة الأمومة كانت ترتكز على العصبية العربية لأنها دولة عربية محضة فحياة ذلك النوع من العصبية مضعف للأمة وللدولة التي ترتكز عليها . وكان من الأمم التي ملكها العرب وذلت لهم الأمة الفارسية وهي أمة ذات تاريخ قديم يهمها أن تحيى ما اندرس من تاريخها . رأت نفسها مستضعفة عن مناوأة العرب والخروج من نير حكمها بوحدة عنصرية لأن كثيراً من الفرس كانوا قد دانوا للإسلام فمن الصعب تكوين قوة منهم تضاد العرب أو الإسلام فاتجه فكر قادة الأمة إلى صدمة العرب باسم الإسلام وكان بنو العباس إذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعي لاسترداد حقهم من بني أمية فرأوا من مصلحتهم الاعتماد على الفرس في مساجلة بني عمهم من بني أمية وإنما لم يجعلوا عمدتهم على العرب لأمرين الأول أنه يصعب أن تزوج بين جمهور فكرة الخلاص من حكم بني أمية لأن العرب لم يمسوا بأذى من جانب تلك الدولة بل كانت في الحقيقة دولتهم وبها عزهم والثاني أن شعب العرب قد انصدع باستعار نار العصبية الجزئية بين قبائلهم فكان اليمانيون في جانب والربيعيون في جانب والمضريوت في جانب . وأما الفرس فمن السهل إثارة عواطفهم إما بحكم العصبية العنصرية وإما بحكم الإسلام ورد الخلافة إلى نصابها من آل بيت محمد ﷺ وتأثير الأول في الخاصة من أبناء الأمة الفارسية تأثير الثاني في العامة .

قامت الدولة العباسية وليس لها عصبية عنصرية تشد أزرها وتحمي بيضيتها وإنما عصبيتها هؤلاء الموالي المصطنعون وعصبية الولاء أو الحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالي إلى استرجاع ما كان لآبائهم من المجد الذي يتوارثون ذكره. وقد وجد من هؤلاء الموالي في بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة في الفارسية وفي الإسلام جعلهم العباسيون في مقدمة من يعتمدون عليه.

لم يترك العباسيون في مبدأ أمرهم عصبية العرب ولم يهملوا شأنها بل استعانوا بها لتكون لهم ملجأ إذا رأوا من الموالي نكوباً عن جادة نصرتهم ميلاً إلى الاستئثار بالسلطان دونهم فاصطنعوا كثيراً من رجال العرب وحماتهم من ربيعة واليمن ومضر إلا أنهم لم يلتفتوا إلى إزالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنفرة بل بالعكس وجد منهم ما يدل على الميل على إنماء هذه الحمية ليستعينوا بفريق على الآخر.

لذلك كله يمكن أن نقول إنه لم يكن للدولة العباسية في بدء حياتها عصبية قومية متحدة الأوصال وثيقة العرى وإنما كان الإسلام هو الذي يجمع بين تلك القوى والدين وإن كان جامعاً قوياً لكنه إن لم يكن مدعماً بعصبية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله ﷺ فقد كان مما اعتبره أساساً لقوته ومنبعاً لحياته إماتة العصبية الجزئية وسد الباب دون ذكرها والتلفظ بها.

كان بنو العباس يسندون أمر وزارتهم إلى رجل يختارونه من الموالي ويجعلون قيادة جنودهم إلى موال وإلى عرب ولكنهم كانوا دائماً تحت تأثير الظنون والريب التي تحوم حول عقولهم من استبداد الموالي بالسلطان فمتى شموا من وزير أو قائد من الموالي الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه وانظر ما فعله المنصور بقائد الدولة العباسية الأكبر أبي مسلم الخراساني وزيره الأول ولأبي مسلم ماله من السابقة وحسن الأثر في إحياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه أمام ريب أبي جعفر وغيرته على ملكه أن يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرىء أبا مسلم من قصد تحويل السلطان إلى قومه وليس بنو العباس في نظره إلا واسطة لذلك فهو إذا عز مراده معهم يتحول بدون إبطاء إلى بني عمهم من آل علي. ولما قتل أبو مسلم قام بالثأر له قائد فارسي على دين قومه من الوثنية سنباذ وجمع لذلك جموعاً عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا أن غولب بالعصبية العربية فإن أبا جعفر أعد له جمهور بن مرار العجلي وهو

من رجال ربيعة فكسر قوته ويقال إنه قتل من قومه في الموقعة نحواً من ستين ألفاً: وقام يطلب بثأره أيضاً الراوندية في الهاشمية نفسها فعوجلوا والذي كان الفارس المعلم في يومهم قائد عظيم أيضاً من قواد ربيعة وهو معن بن زائدة الشيباني.

والخلاصة أن الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وهذه العناصر هي العنصر العربي وهو منشق قد كاد ينسى العصبية القومية الكلية وصرع بتأثير العصبية الجزئية والثاني عنصر الموالي وأهمها أهل خراسان ولم يكن بين الفريقين التئام حقيقي لاختلاف الغرض الذي يرمي إليه كل منهما.

واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الآخر وهو الموالي كان منتجاً بطبيعته غلبة العنصر الذى هم منه ونيلهم حظاً في الدولة لم يتمتع به مناظر وهم من العرب فقد اشتهر من الموالي عدد عظيم في الصدر الأول تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من الألقاب أعلاها سوى لقب الخلافة وانظر إلى بيت خالد البرمكي وما وصل إليه يحيى بن خالد وأولاده فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألفاظ الملوك في مخاطباتهم وفي القصائد التي مدحوهم بها ووردت إليهم خزائن الأرض وجبايات الأموال وتزلف إليهم الناس من كل صنف بغية القربى عندهم وأثر عنهم لدى الرشيد ميلهم وخاصة جعفراً منهم كلمات تدل على أنهم يريدون التحول إلى خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها إلى آل علي كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالي وهو خالد بن سلمة الخلال ومع هذه التهمة السياسية كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم في دينهم ونسبة الزندقة إليهم غير ذلك مما يثير الظنون التي لا بد منها في دولة لا تعتمد على عصبية قومية.

ولامراء في أنه كان لبعض هذه الأسرة غرض من حمل الرشيد على البيعة لولده المأمون بولاية العهد بعد البيعة لأخيه الأمين وكان الداعي إليها هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وكان الذي ظنه الرشيد وهجس في نفسه أن البرامكة سوف يحرشون بين الأخوين ليفرقوا بينهما حتى يحارب أحدهما الآخر وينتفعون هم بتيجة ذلك وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التي منشؤها تمكن الريبة من مواليهم وحذرهم منهم ولذلك لم نر وزيراً عباسياً تمكن من حياة هادئة

ذات ختام هادیء بل كانوا كلهم عرضة لهذه النكبات من ضياع الأموال واغتصاب النفوس ولا يمكن أن يكون سبب ذلك المال وحده بل إن المنازع السياسة وميل الموالي إلى استرداد عز الأبناء كان له دخل كبير.

انتهت حياة الرشيد والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة يلجأ الخلفاء إلى أحدهما كلما رابهم من الآخر شيء إلا أنه قلما نسب إلى المصطفين من العرب فكرة خيانة الدولة وإرادة تحويلها عن آل العباس أو استهانة بوعد أو غدر بمن ائتمنهم وإنما كانت العيوب التي تسند إلى بعضهم وتدفع الخلفاء إلى عقوبتهم هي التقصير في أعمالهم وعدم أخذ الحيطة لها.

جاءت الوقائع بين الأمين والمأمون فكان من نتيجتها ازدياد قوة العنصر الخراساني لأن قوة المأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهري وهو أول بيت من الموالي منح خراسان على طريقة الاستقلال: والذي كان يزيد في قوة هذه العناصر أن المأمون وأخاه المعتصم كانا يميلان إلى الاستكثار من شبان الأتراك الذين كانوا يفدون على بغداد بكثرة يقدمهم ملوك ما وراء النهر وآل طاهر ومن هؤلاء الشبان من كان يشترى بالمال ومنهم من كان ذا بيت عريق في قومه فقدم بغداد ليستزيد عزاً بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها ولم تزل هذه الوفود تتوارد توارداً مطرداً حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش ظن الخليفة أنه يعتمد عليها في إقامة دولته ويستغني عن العرب وعصبية العرب وعن أبناء خراسان أيضاً أما العرب فلأمر ما كان هو وأخوه قليل الاعتماد عليهم ويظهر أن ذلك كان للاختلاف الشديد بين قبائلهم وأما الأبناء أو الموالي الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء وخرج كثير منهم عن طاعتهم لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالي الأتراك ظناً من الخلفاء أنهم ليس لهم آمال يريدون تحقيقها وأن الخلفاء متى اصطفوهم أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عمن عداهم لشجاعتهم وقوة أجسامهم وهذا خطأ غريب ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر في تأييد قوتها مع أن هذا العنصر يباينها في الأخلاق وفي العادات ويذكر وطنه الذي ينتمي إليه ولا ينساه إن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم فمن البديهي

أن يكون صغوهم إليها وميلهم لها وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق في قومه يميل إلى أن يكون كما كانوا من العز والاستئثار بالنفوذ كما كان الأفشين حيدر بن كاوس فقد كان أبوه ملكاً لأشرو سنة وكان هو معظماً في قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه بإله الآلهة.

زرع المعتصم وأخوه هذا العنصر الجديد في الدولة وما دريا أنهما بعملهما هذا قد سلما عز الخلافة إلى غلمان الأتراك يتصرفون فيها إشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة ولو كان هؤلاء الرؤساء متحدى الأغراض يسعون لغاية واحدة لكانت المصيبة أعظم ولكن كانوا على غير ذلك حتى إن الأفشين لما علم عنه انه يعد العدة للرحيل إلى المشرق حتى يستولي على خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظيمة كان الذين وشوا به من الأتراك الذين لا يرون لهم أن يستأثر الأفشين بهذا الملك العظيم.

كان في حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربي ضعفاً عظيماً فتفرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها إلى موطنها في القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق لهم عصبيات يستندون في حياتهم إليها وكذلك ضعف الموالي الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء فاختل التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الأتراك أنفسهم منفردين بالملك مستأثرين به. وليس أمام الخلفاء إلا هم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الآمرين حتى امتدت أيديهم إلى حياة الخلفاء وإلى أموالهم وإلى كل شيء عندهم فخضع الخلفاء لهذه القوة التي لم يجدوا أمامهم ما يردها من العرب ولا من الأبناء العنصر الذي كان أول الخلافة شراً وأما هذا فهو نهاية الشرور.

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بني العباس ذا نتائج سيئة فإنه أضعف صولة الخلفاء وقلل من قيمة أقوالهم وأوامرهم وأما في الأطراف فقد رأى الولاة أن قد آن لهم أن يستقلوا بما تحت أيديهم لأنهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ في عاصمة الخلافة نفسها ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية (في منتصف القرن الثالث) محاطة بدول مستقلة في الإدارة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور

وغضب الخلفاء بإعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم (أحيانا) على السكة وإرسال شيء من المال والهدايا إلى بغداد قد حصل ذلك في المغرب والمشرق والجنوب والشمال في آن واحد ولا قبل للدولة بإرسال الجنود لإعادة الحكم العباسي الفعلي إلى تلك الولايات لأن غلمان الأتراك قلما يهمهم ذلك ما داموا آخذين بحلاقيم الخلفاء في حاضرة الدولة فاضطر بنو العباس إلى الرضا بما بذل لهم.

صار المتغلبون يقتتلون وينزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء إلا أن يصدروا منشور الولاية للغالب الظافر وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين وهو يعقوب ابن الليث الصفار أن يستولي على قلب الخلافة ويزيل عنه المتغلبين عليها من الأتراك لولا ما ظهر من تشدد أبي طلحة الموفق الذي كان ولي العهد وصاحب السلطان في عهد المعتمد على اللّه والذى أحيا فيه تلك القوة أن العنصر المستولي على الدولة وهو عنصر الأتراك نفس بعضه على بعض ما أتيح له من الغلب والسلطان والمال فضعف أمرهم وطلب كثير منهم أن يتولى قيادة الجيش أحد أفراد البيت المالك وكان الموفق أقرب إليهم فانتخب لقيادة الجيش فنجح في إحياء شيء من قوة الخلافة إلا أن الداء عضال لا يمكن حسمه وذلك الداء هو فقد الدولة للعصبية القومية التي يمكن الاعتماد عليها فكانت هذه القوة كالبرق الخلب لا يلبث أن يزول ويضمحل أمره. فإن الضعف عاد بعد الموفق وابنه المعتضد إلى أشد مما كان كنكسة المريض عسير برؤها شديد أثرها واستمرت الخلافة الاسمية لبني العباس والسلطان الحقيقي لما بقي بأيديهم من البلاد للأتراك إلى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة إخوة من بيت عريق في الشرف القومي وهم أولاد بويه فانتزعوا السلطان من الأتراك ببغداد وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره ولم يكن هؤلاء القوم يدينون بإمامة بني العباس ومع ذلك فقد أبقوا عليهم لأمرين: الأول مرضاة الجمهور البغدادي فقد كان معظمه يدين بإمامتهم ويفضلهم على آل علي والثاني أن الخليفة العباسي يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه لأنه لا مانع دينياً يمنعهم من ذلك. أما الخليفة العلوي فإنه يصعب عليهم أن

ينـالوا منـه شيئاً وربمـا نال منهم بقـوته الـدينية هكـذا لعبت السياسـة بـالعقيـدة فـاضاعت أثـرها ومـع ما نـاله الـديلم من هذا السلطان فـإنهم لم يهملوا العنصر التركي الذي كان كثيراً بحاضرة الخلافة بل اعتمدوا عليـه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الأتراك على الديلم.

وفي أوائـل المائـة الخامسـة ظهر بـالمشرق عنصر جـديد دخـل في الإسلام حديثاً وفـارق وطنه متجهـاً إلى بلاد المغـرب وهو عنصر الغـز من أتراك مـا وراء سيحون على رأسه بيت عظيم الفخـار ممتاز عنـدهم بالشـرف والمجد وهـو البيت السلجوقي قاد هـذا البيت جماعـة الغز إلى خـراسان ولم تقـدر الدولـة التي كانت بأطراف المملكة الإسلامية على صده فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بني العباس لأنهم كانوا ميالين إلى إزالـة الدولـة الديلميـة التي كانت غـالية في تشيعهـا والإدلاء بالأمـوال إلى دولـة أخرى تدين بإمـامتهم واحتـرامهم وقد استمـر العراق تحت سلطان آل سلجـوق حتى دب إليهم مـا دب إلى من قبلهم من داء الخلف والانقسـام فكـان ذلـك مشجعـاً بني العباس إلى اليقـظة من هذا السبـات الطويـل وامتلاك أعنـة الخيـل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العـراقية ولم يكن لهم مـا يعتمدون عليـه من العصبية إلا بقايا مواليهم من الممـاليك فـأعادوا في العصر المتـأخر مـا كان عليـه عليه سلفهم في منتصف القرن الثالث.

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجـارف وأزال الدولـة العباسية من المشرق كله.

من ذلك يفهم أن أساس الاضطراب كان سائراً مع هذه الـدولة من بـدء نشأتها وهو فقد العصبية القومية التي يعتمد عليهـا إلا أن توازن القـوى في الأول حفظ للخلفـاء نفوذهم فلما اختـل هذا التـوازن اختل معـه هذا النفـوذ. والمقام الديني هو الذي ظل حافظاً لهذه الدولة من الفناء من هذا الضعف المتوالي.

٢ ـ منافسة العلويين

لا مراء في أن كون الخليفة من آل بيت النبوة أحب إلى قلوب الجمهور من الأمم الإسلامية وهم لهم أطوع، لأن المؤثر الديني يكون مستحكماً ولذلك صادفت الدعوة إلى أهل البيت نجاحاً عظيماً في صدر المائة الثانية من الهجرة.

وكان أهل البيت الذين لا يعدوهم هذا الأمر من بيتين اثنين كل منهما يسابق الآخر في القرب من رسول الله ﷺ فأما أحدهما فهو البيت العباسي الذي ينتمي إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وعاصبه الوحيد عند وفاته وأما الثاني فهو البيت العلوي الذي ينتمي إلى علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة.

وقد حاول البيت الثاني أن ينال الخلافة قبل العباسيين في عهد بني أمية ففشل. قام الحسين بن علي مطالباً بها فقتل دونها وقام حفيده زيد بن علي بن الحسين فقتل دونها بالكوفة وقام على أثره ابنه يحيى بن زيد فكانت نتيجته كأبيه ـ ذلك مع ميل الجمهور العراقي لهم وعطفه عليهم.

أما العباسيون فقد أحكموا أمرهم واستعانوا بأهل خراسان في إحياء بيتهم وكانت الدعوة إليهم مبهمة في أول الأمر لا يزيد الداعي في دعوته على أنه يدعو للرضا من آل محمد ﷺ إلا أن الدعاة والنقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه وشخصه وكانت النتيجة تمام النجاح وساعدهم ضعف عصبية خصومهم، فرقوا عرش الخلافة وقضوا على بني أمية.

حرك ذلك من غيرة بني عمهم منهم وحسدهم لهم ومن المعلوم أن جمهوراً

كبيراً كان يؤثر العلويين ويتولاهم دون العباسيين وكان بنو العباس على علم من ذلك يرون أن كل فتق جاءهم من غير ناحية العلويين فهو سهل الرتق والتلافي أما هؤلاء فهم الخصم الذي يخاف جانبه لأنهم يشاركونهم في السبب الذي قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول الله ﷺ، وربما كان لهم في نظر الجمهور الشيعي ما يفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإذا دعوا إلى أنفسهم أحدثوا في العصبية التي قامت عليها الدولة انقساماً ولا يدري حينئذ لمن تكون الغلبة.

لما كانت المدينة النبوية هي مقام أبناء علي من بني حسن وحسين راقبهم العباسيون سراً وإذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهو أبو العباس السفاح فأغدق عليهم العطايا ومنحهم الهبات يريد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهي درجة الخلافة ويريهم أن خلافة بني عمهم تحدب عليهم وتنسيهم أيام الشدائد التي مرت عليهم في عهد أسلافهم من بني أمية، إلا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن إلا معززاً لدواعي الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياع ذلك الحق الذي هم أولى به وإذا كان غضب الأجنبي الحق مؤلماً للنفس فرؤيته عند القريب أشد إيلاماً ولا سيما إذا ظن من ضاع حقه أنه يجد من يساعدونه على نيله.

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبدالله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ما ظهر من شجاعة أبي جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط في مصادرة موارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبدالله وعلى أخيه إبراهيم الذي ثار بالبصرة.

وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهقوا الجند في استطلاع أخبارهم فتباعد الأمر واشتدت الجفوة ورأى بنو العباس أنفسهم مجبورين على نبذ فكرة التشيع التي أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون إلى تقديم الشيخين أبي بكر وعمر على علي بن أبي طالب بعد أن كان دعاتهم يقدمونه عليهما واشتد تطلع

العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم وساروا كالطائر المحبوس في قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى كما فعل الحسين بن علي الذي ثار بمكة في مدة الهادي سنة١٦٩ فحيل بينه وبين مراده وقتل بفخ بالقرب من مكة.

أفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبدالله وأخوه يحيى فاتجه الأول غرباً ماراً بمصر ومخترقاً شمال أفريقية حتى أتى المغرب الأقصى فحدب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الأدارسة في طرف الدولة من الغرب واتجه الثاني نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل. وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالي العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بني العباس الذي كان على بريد مصر فإنه هو الذى سهل لإدريس المرور من أرض مصر مع معرفته به وجعفر بن يحيى البرمكي الذي سهل ليحيى بن عبدالله طريق الإفلات من يد الرشيد فكان ذلك مما دعا الرشيد إلى أن يربي على من كان قبله في النفور من العلويين وكراهتهم والتشديد في عقوبة من يتهم بالميل إليهم وشدة التضييق على من بقي بالمدينة منهم وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى بغداد ليقيم تحت نظره.

ظهر الجرح بجنب الدولة العباسية واجترأت أمة من الأمم الإسلامية وهي أمة البربر بالمغرب الأقصى أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت حظاً أعلى من حظ سائر الأمم الإسلامية لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوى ومن أبناء ابنته واضطر الرشيد أن يزرع بأفريقية دولة الأغالبة ومقرها القيروان كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من داره يجتهد أن يفصل بين ما تناولته النار وبين سائر البيت وهذا ما فعله الرشيد.

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محدقاً بالدولة ماذا رأى: رأى كثيراً من أبناء الدعوة ورجال الدين يميلون إلى العلويين ويكرهون ما ينالهم من الشر فأراد أن يتقرب إليهم ببعض ما يرغبون فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم فاختار منهم علي الرضا الذى يتولاه أكثر شيعة آل علي وولاه وعهده ويظن أنه فعل ذلك

إرضاء للحسن بن سهل وزيره الأكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الأعظم في سوق الخلافة إليه وإخراجها عن أخيه الأمين وكان الحسن يتشيع وينسب إلى الزندقة ايضاً ولكنه رأى أن النتيجة لم تكن على ما يرغب فإنه وإن أرضى العلويين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه إبراهيم بن المهدي فلم يكن أمامه ما يربأ به هذا الصدع إلا أن احتال في التخلص من الحسن بن سهل بأن وضع له قواماً تناولوه بأسيافهم ثم مات بعقب ذلك علي الرضا فنسب قوم ذلك إلى المأمون أيضاً والقرائن تساعدهم ولكن ليس عندنا من الأدلة ما يقوي هذه التهمة.

عادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفوا عن عمه. ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلويين والتشيع لعلي بن أبي طالب وأعلن ذلك في كلامه وفي كتبه حتى إذا رأى منهم الميل إلى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر لأن يجاري أباه في الاحتياط فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بأفريقية وهي الدولة الزيادية والغرض من الدولتين واحد.

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة وأمرهم إياهم بالإقامة بمرأى منهم في بغداد أو في سامرا بعد اختطاطها.

ولم يكن الخلفاء معهم على سيرة واحدة فقد كان المتوكل على الله بن المعتصم على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الإحسان إلى العلويين والتصريح بتفضيل علي على غيره من شيوخ الصحابة وكان في ذلك على سيرة جده الرشيد إلا أنه زاد عليه فقد كان يصرح في مجالسه بانتقاص علي بن أبي طالب ويبيح للمجان من جلسائه الهزء والسخرية به ويكره كل من عرف بالتشيع إلى العلويين ويؤذيهم في أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطرفون في قصائدهم فينتقصون آل علي ويفيض عليهم بالهبات الوافرة. وهدم قبر الحسين بن علي ونهى الناس عن زيارته وشدد في ذلك تشديداً عظيماً فكان الناس من ذلك في هم وحزن حتى إن شاعره الكبير أبا عبادة البحتري لما مات وولي المنتصر وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك فقال:

رددت المظالم واسترجعت يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبي طالب بعد ما أذيع بسربهم فانذعر
ونالت أدانيهم جفوة تكاد السماء لها تنفطر
وصلت وشوابك أرحامهم وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقربت من حفظهم ما نأى وصفيت من شربهم ما كدر
وأين بكم عنهم واللقا ءلا عن تباه ولا عن عفر
قرابتكم بل أشقاؤكم وإخوتكم دون هذا البشر
ومن هم وأنتم يدا نصرة وحدا حسام قديم اثر
يشاد بتقديمكم في الكتاب وتتلى فضائلكم في السور
وإن عليا لأولى بكم وأزكى يدا عندكم من عمر
وكان له فضله والحجو ل يوم التفاضل دون الغرر
بقيت إمام الهدى للهدى تجدد من نهجه ما دثر

مع أن البحتري له في المتوكل المدح الجليلة والمراثي المؤثرة.

ثلم آل علي ثلمة أخرى في سياج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسيس الحسن بن زيد دولته في الديلم ولم يفلح بنو العباس في القضاء عليه فاشتد الخرق عليهم من الشرق والغرب وفتحت العيون التي كانت تغضي حياء وتخاف تديناً.

رأى العلويون في النصف الثاني من القرن الثالث أن ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاماً خاصاً عرف بنظام الدعوة ساروا في ذلك على أثرالدعوة العباسية إلا أنهم حلوها بشيء من المقدمات وبعثوا دعاتهم إلى جميع الأقاليم الإسلامية غرباً وشرقاً ولما تهيأ لهم الأمر أهبوا نار الثورة والاضطراب بشكل مريع على يد القرامطة فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين عمل أي شيء يمكنها من القضاء عليهم وفعلوا في الإسلام ما لم يخطر ببال مسلم أن يقوم به مما قدمنا ذكره. ثم قام على أثرهم الفاطميون بأفريقية فاستولوا عليها وعلى الجزائر والمغرب الأقصى ثم مدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطىء الفرات وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية وقد

حصل أن اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة إلى التمكن من الأمر وخطب فعلاللعلويين على منابر بغداد نحو سنة.

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدو اللدود عنهم اشتغلوا بما لا يفيد من الطعن في نسب العلويين المصريين وكتبوا في بغداد محضراً وقع به العلماء والفقهاء وكبار بني هاشم وقالوا فيه إن نسب العبيديين بمصر غير صحيح وأنهم أدعياء ملعونون مع أنه نسب للشريف الرضي نقيب الطالبيين ببغداد قوله:

ما مقامى على الهوان وعندي — مقول صارم وأنف حمى
وإباء محلق بي عن الضـ — ـيم كما راغ طائر وحشى
أي عذر له إلى المجد إن ذ — ل غلام هم عمده المشرفي
ألبس الذل في ديار الأعادي — وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه ومولاه مولا — ى إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيد النا — س جميعاً محمد وعلي
إن ذلى بذلك الجو عز — وأوامي بذلك النقع ري
قد بذل العزيز ما لم يشمر — لانطلاق وقد يضام الأبي
إن شراً على إسراع عزمي — في طلاب العلا وحظى بطى
ارتضى بالأذى ولم يقف العز — م قصوراً ولم تعز المطى
كالذي يخبط الظلام وقد — أقمر من خلفه النهار المضى

ولما اشتهرت عنه عتب الخليفة القادر بالله على والده فأنكرها ولم يثبتها في ديوانه وهي مشهورة عنه ومن طراز شعره وعلى الجملة فإن مثل هذه الأشياء لم تفدهم فائدة ما.

ومما زاد الأمر بلية أن بني بويه الذين استولوا على بغداد في منتصف القرن الرابع كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور في بغداد بما يشتهون من العادات التي كانوا يفعلونها يوم عاشوراء فقد كانوا يجعلونه يوم حزن يخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن علي رضي الله عنه وغير ذلك من العادات وصار الناس يتقربون إلى السلطان بالتشيع.

وفي أوائل القرن السادس ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فأرهقوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بني العباس.

واستمر هذا النزاع السياسي بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب واستمر مع الباطنية بفارس والشام. واستمر مع أهل بغداد حتى ليقال إن السبب في هيج التتار وإغرائهم على أخذ بغداد هو حادثة اعتداء وقعت من أهل السنة على محلة الشيعة وهي الكرخ.

من ذلك ترى أن النزاع بين العباسيين وآل علي استمر من أول خليفة إلى آخر خليفة وكان ذلك سبباً من أسباب ضعف الدولة بعدما تقدم ذكره من خلل العصبية التي كانت عمدة العباسيين.

ويمكن أن يعد هذا السبب من متممات السبب الأول.

٣ ـ ضعف قيمة العهود

الوفاء بالعهد خلق عربي حافظ عليه العرب في جاهليتهم وبذلوا دونه أموالهم وأنفسهم وأبناءهم عرف لهم ذلك من جاورهم من الأمم كالفرس والروم وحوادثهم في ذلك مأثورة قد حفظتها بطون الصحف ولسنا بصدد أن نقتصها. لما جاء الإسلام أيد هذا الخلق وأمر به أمراً حتماً لا هوادة فيه. قال تعالى في سورة الإسراء ﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا**﴾[1] وقال ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون**﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي شددت في وجوب الوفاء بالعهد واعتبارها أساساً تقوم عليه الأمة الإسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقراء تواريخهم وكذلك نحا بنو أمية هذا المنحى لأن العنصر العربي كانت له المكانة فيها بل يصح أن يقال إنها كانت دولة عربية محضة وقد اعتد الناس على عبد الملك بن مروان فعلته التي فعلها مع سعيد بن العاص حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته وقالوا إنها أول غدرة في الإسلام وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد فقال حسن لو قتلته وحييت فقال عبد الملك أو لست بحي فقال الشيخ العربي حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد، فانظر كيف عد العربي هذه الحياة كلا حياة ولم يصل إلى علمنا في هذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل لأن الأمة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٤.

(٢) سورة النحل: الآية ٩١

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدي عنصر غير عربي ظهر منها الأول نشأتها حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهود في نظر خلفائها قيمة فقد قتل المنصور في حياة السفاح ابن هبيرة بعد أن أمن أماناً لاشك ولا حيلة فيه وكان الذي أشار بقتله أبو مسلم الخراساني مشيد الدعوة العباسية وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمراً دون مشورته، ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبي مسلم بعد أن أمنه ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبد اللّٰه بن علي بعد أن أمنه وأعلن رضاه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد اللّٰه بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان أجابه محمد بقوله وأما أمانك الذى عرضت فأي الأمانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمان أبي مسلم أم أمان عمك عبد اللّٰه بن علي والسلام وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير لأنها وصمة عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول اللّٰه ﷺ في حراسة دينه وسياسة الأمة.

وهذا الذي حصل في صدر الدولة كان مجرئاً لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضى به العهود إذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما العهود التي تعقد لتولي الخلافة فإنهم جعلوها من الأشياء التي يسهل حلها وإن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق. فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذي عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور فقدم عليه ابنه محمداً المهدي وهذا التقديم وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه إلا أنا نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الإساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل حتى هم الرجل أن يخلع طاعة المنصور ويفتن الأمة وفي رأيى أنه لو وجد نصراء لفعل وإن كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه آثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله:

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما ... إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم ... كأس المنية لولا اللّٰه والرحم

وفعل المهدي مثل ذلك معه فعزل عن العهد بمرة وقد ارتكب من الوسائل ما ارتكبوه.

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك إلى الفتنة الشعواء التي كانت بين سنة ١٩٤ إلى سنة ١٩٨ قاست الأمة في أثنائها مصاعب هائلة ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهي أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القواد والأمراء فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الإقدام على فك تلك القيود التي حلفوا الأيمان الوثيقة على الوفاء بها.

كتب الرشيد أماناً ليحيى بن عبدالله وأكد فيه غاية التأكيد ولما ارتاب منه صار يبحث في الوجوه التي يبطل بها الأمان وجعل فقهاء وقته الواسطة في ذلك فمنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل في الدين مع الأهواء ومنهم من سارع إلى هوى الخليفة وصار يبدي الأوجه التي ينتقض بها الأمان.

كل هذا من العيوب التي شقت عصا البيت وتعدت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر بخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم.

وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية يمكن استنتاجها مما تقدم في التاريخ التفصيلي والله تعالى أعلم.

(تم بعون الله تعالى)

فهرس

هذا آخر الكتاب
وقد تم طبعه بحمد الله في مطابع
دار القلم
بيروت لبنان - ص. ب: ٣٨٧٤
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م